

عصر المأمون

بقلم

الدكتور

أحمد فرید زفای

المفتش بوزارة الداخلية

المجلد الثاني

(حقوق الطبع محفوظة لل المؤلف)

[الطبعة الأولى]

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٩٢٧ - ١٣٤٦ م

3447
91A

فهرس

المجلد الثاني من عصر المأمون

ملحق الكتاب الأول - عصر بني أمية

باب المنشور :

رسالتنا أبي بكر وعلى	١
كلام عائشة رضی الله عنها في الانتصار لأبيها	١٢
كلمة أم الخير بنت الحريش	١٤
كلمة الرقاء بنت عدي	١٧
كلمة عكرسة بنت الأطرش	١٨
رسالة لعبد الحميد الكاتب كتبها عن مروان بن محمد لبعض من ولده	٢٠
رسالة ثانية لعبد الحميد الكاتب أوصى فيها الكتاب	٥٣
رسالة ثالثة لعبد الحميد الكاتب في الشطرنج	٥٧
رسالة رابعة لعبد الحميد الكاتب تصف بها الصيد	٦٠

باب المنظوم :

أنواع العزل وزعم كل نوع	٦٣
العزل الإباضي - عمر بن أبي ربيعة	٦٤
العزل العذري - جميل	١٠٣
العزل الصناعي - كثير	١٢٤
العزل القصصي - قيس بن الملوّح (المحزون)	١٣٨
قيس بن ذريح	١٥٢
الشعر السياسي - النعمان بن بشير	١٦٤

ملحق الكتاب الثاني - عصر بني العباس

باب المنشور :

مشاورة المهدي لأهل بيته في حرب خراسان	١٦٩
رسالة أبي الربيع محمد بن البيث التي كتبها للرشيد إلى قسطنطين ملك الروم	١٨٨

صفحة	
٢٣٧	رسالة يحيى بن زياد فى تقرير الرشيد
٢٤٤	كتب الرشيد
٢٤٤	كتاب عهد البيعة
٢٤٧	نسخة الشرط التى كتب عبد الله بن أمير المؤمنين بخط يده فى الكعبة
٢٤٩	نسخة كتاب الرشيد الى العمال

باب المنظوم :

٢٥٢	بشار بن برد
٢٧٧	حامد عجرد
٢٨٧	مروان بن أبى حفصة
٣٠٠	أبودلامة
٣١٧	أبان بن عبد الحميد اللاحق
٣٢٦	أخبار حمدان بن أبان
٣٣٣	مصور النمري
٣٣٩	السيد الحميري
٣٤٩	سلم بن عمرو الخامس
٣٥٤	ربيعة الرقي
٣٥٩	الرقاشي
٣٦١	أبو الغاهية
٣٧٤	مسلم بن الوليد
٣٩٣	العباس بن الأحنف
٤٠٠	ان مناذر
٤٠٣	صالح بن عبد القدوس
٤٠٧	سعيد بن وهب
٤١١	الحسن بن وهب
٤١٩	أشجع السلي
٤٢٣	على بن الجهم
٤٣١	على بن جبيلة

ملحق الكتاب الأول

باب المنثور

ذكرنا في مقدمة المجلد الأول من "عصر المأمون" أننا قسمنا المجلد الثاني الى ملحقات للكتب الثلاثة عن العصور الثلاثة، وعُنينا عناية خاصة الى جانب ذلك بذكر جملة سالحة من آثار كاتب خاص وشاعر خاص لتمثيل عصرهما . وأتخذنا من عبد الحميد الكاتب وعمر بن أبي ربيعة أنموذجا أمويًا ، ومن أبي الربيع محمد بن الليث وبشار بن بُردٍ مثالا عباسيا ، ومن عمرو بن مسعدة وأبي نُوَّاس نموذجًا لتصوير الحياة الكتابية والشعرية في عصر الأمين والمأمون، الى غير ذلك من النماذج والآثار مما يستدعيه المقام، وقد أوردناها من غير أن نعرض لها بتحليل أو بيان - اللهم إلا تفسير بعض ألفاظها الغريبة وشرح كلماتها الغامضة - فهي في وضوحها ودلالاتها على ما أردنا من إيرادها غير محتاجة الى شيء .
وها نحن أولاء نذكر ما وعدناك به .

١ - رسالتنا أبي بكر وعلى

(١) قال أبو حيان علي بن محمد التَّوْحِيدِيّ البَغْدَادِيّ : سَمَرْنَا لَيْلَةً عِنْدَ الْقَاضِي أَبِي حَامِدٍ أَحْمَدَ بْنِ بَشْرِ الْمُرُورِيِّ بِبَغْدَادٍ ، فَتَصَرَّفَ فِي الْحَدِيثِ كُلِّ مُتَصَرِّفٍ ؛ وَكَانَ غَزِيرَ الرَّوَايَةِ ،

(١) انظر كتاب صبح الأعشى ص ٢٣٧ ج ١

لطيف الدراية، جرى حديث السقيفة، فركب كلُّ حربجا، وقال قولاً، وعرض بشيء،
 ونزع إلى فن. فقال: هل فيكم من يحفظ رسالة لأبي بكر الصديق^(١)، رضى الله عنه، إلى
 على بن أبي طالب كرم الله وجهه، وجواب على عنها، ومبايعته إياه عقيب تلك المناظرة؟
 فقال الجماعة: لا والله؛ فقال: هي والله من بنات الحقائق، وخبّات الصنادق، ومنذ
 حفظتها ما رويتها إلا لأبي محمد المهلبى في وزارته، فكتبها عنى بيده. وقال: لا أعرف
 رسالة أعدل منها ولا أئين؛ وإنما لتدل على علم وحلم، وفصاحة ونباهة، وبُعد غور، وشدة
 غوص. فقال له العبادانى: أيها القاضى، فلو آتممت المنّة علينا بروايتها! أسمعناها،
 فحن أوعى لك من المهلبى، وأوجب ذمّاً عليك؛ فاندفع وقال:

حدّثنا الخزاعى بمكة عن أبي ميسرة، قال حدّثنا محمد بن أبي فضّيح عن عيسى بن
 دؤاب بن المتّاح، قال سمعت مولاي أبا عبيدة يقول: لما استقامت الخلافة لأبي بكر
 رضى الله عنه بين المهاجرين والأنصار، بعد فتنة كاد الشيطان بها، فدفع الله شرّها ويسر

(١) هو أبو بكر عبد الله بن أبي خنافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرّة صاحب رسول
 الله وأوّل خليفة له في الإسلام وخطيب يوم السقيفة.

ويجتمع نسبه مع نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرة بن كعب. ولد بعد مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم
 بستين وبضعة أشهر. ونشأ من أكرم قريش خلقاً، وأرجحهم حلماً، وأسمهم يداً، وأشدّهم عفة. وكان أعلمهم بالأنساب
 وأيام العرب ومفانها. صحب رسول الله قبل النبوة. وكان أوّل من آمن به من الرجال وصدّقه في كل ما جاء به،
 ولذلك سمي الصديق، وأنفق أمواله في تأييد دعوته، وهاجر معه إلى المدينة مؤثراً صحبته على كل أهله وولده، وشهد معه
 أكثر الغزوات. وما زال ينفق ماله وقوّته في معاضدة رسول الله حتى انتقل صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى.
 واختلفت العرب، وارتدت عن الإسلام، ومنعت الزكاة إلا أهل المدينة ومكة وثقيف بالطائف، فجرد عليهم
 الجيوش حتى قمعهم، وجمع العرب على الإسلام، وساقهم تورا إلى فتح ممالك كسرى وقصر. وما مات إلا وجيوشه
 تهزم جيوش الفرس والروم وتستولى على مدائنهم وحصونهم. وكان رحمه الله فصيحاً بليغاً، خطيباً مفوّهاً، حاضر
 البديهة، قوى الحجّة، شديد التأثير، يشهد بذلك خطبته يوم السقيفة، وذلك أنه لما مات رسول الله اختلفت الصحابة
 فيمن يبايعونه خليفة له عليهم؛ فأبى الأنصار إلا أن يكون الخليفة منهم، وأبى المهاجرون من قريش إلا أن يكون
 منهم. واشتدّ النزاع حتى كادت تقع الفتنة، فخطبهم خطبة لم يلبث الجميع بعدها أن بايعوه خليفة. وكانت وفاته
 سنة ١٣ هـ ومدّة خلافته سنتين وثلاثة أشهر وعشر ليال.

(١) بلغ أبا بكر عن عليّ نلْكُوْهُ وِشْمَاسٍ ، وَتَهْمٌ وَنِفَاسٌ ، فَكَّرَهُ أَنْ يَتِمَادَى الْحَالَ تَتَبَدَّوْ العورة، وَتَشْتَمَلُ الْجَمْرَةَ ، وَتُفَرِّقُ ذَاتُ الْبَيْنِ ؛ فِدَعَانِي بِمَضْرَمَتِهِ فِي خَلْوَةٍ ، وَكَانَ عِنْدَهُ عَمْرُ ابْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَحَدَّه ، فَقَالَ : يَا أبا عُبَيْدَةَ ، مَا أَيْمَنَ نَاصِيَتِكَ ، وَأَيْمَنَ الْخَيْرِ بَيْنَ عَيْنَيْكَ ، وَطَلَمَا أَعَزَّ اللهُ بِكَ الْإِسْلَامَ وَأَصْلَحَ شَأْنَهُ عَلَى يَدَيْكَ ، وَلَقَدْ كُنْتُ مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْمَكَانِ الْمُحْوِطِ ، وَالْحَلِّ الْمَغْبُوطِ ؛ وَلَقَدْ قَالَ فَيْكُ فِي يَوْمٍ مَشْهُودٍ : «لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينٌ وَأَمِينُ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَبُو عُبَيْدَةَ» ، وَلَمْ تَزَلْ لِلدِّينِ مُتَجَا ، وَلِلْوَالِدَيْنِ مُرْتَجِي ، وَلَا أَهْلَكَ رَكَا ، وَلَا إِخْوَانَكَ رِدَا . قَدْ أَرَدْتُكَ لِأَمْرِ خَطَرِهِ نُخُوفٌ ، وَإِصْلَاحُهُ مِنْ أَعْظَمِ الْمَعْرُوفِ ، وَلَئِنْ لَمْ يَنْدِمِ لِحَرْحَةِ بَيْسَارِكَ وَرِفْقِكَ ، لَمْ تَجِبْ حَيْثَهُ بَرْقِيَتِكَ ، وَقَعَ الْيَأْسُ ، وَأَعْضَلَ الْبَأْسُ ؛ وَأَحْتِيجُ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى مَا هُوَ أَمْرٌ مِنْهُ وَأَعْلَقُ ، وَأَعْسَرَ مِنْهُ وَأَغْلَقُ ؛ وَاللَّهِ أَسْأَلُ تَمَامَهُ بِكَ ، وَنِظَامَهُ عَلَى يَدَيْكَ . فَتَاتَ لَهُ أبا عُبَيْدَةَ وَتَلَطَّفَ فِيهِ ، وَأَنْصَحَ اللهُ عِزَّ وَجِلَّ وَلِرَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَلِهَذِهِ الْعِصَابَةِ غَيْرَ آلٍ جَهْدًا ، وَلَا قَالٍ حَمْدًا ، وَاللَّهِ كَالْتَلُّكَ وَنَاصِرُكَ ، وَهَادِيكَ وَمُبْصِرُكَ ، إِنْ شَاءَ اللهُ . امِضْ إِلَى عَلِيٍّ وَاخْفِضْ لَهُ جَنَاحَكَ ، وَأَغْضُضْ عِنْدَهُ صَوْتَكَ ، وَاعْلَمْ أَنَّهُ سُلَالَةُ أَبِي طَالِبٍ ، وَمَكَانُهُ مِنْ فَقْدِنَاہِ بِالْأَمْسِ — صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — مَكَانُهُ ، وَقَالَ لَهُ : الْبَحْرُ مَغْرَقَةٌ ، وَالْبَرُّ مَفْرَقَةٌ ، وَالْجَوْءُ أَكْلَفٌ (٦) ، وَاللَّيْلُ أَغْدَفٌ (٧) ، وَالسَّمَاءُ جَلْوَاءٌ (٨) ، وَالْأَرْضُ صَلْعَاءٌ (٩) ، وَالصُّعُودُ مَتَعَدِّرٌ ، وَالْمَهْبُوطُ مَتَعَسِّرٌ ، وَالْحَقُّ عَطُوفٌ رَعُوفٌ ، وَالْبَاطِلُ عَنُوفٌ عَسُوفٌ ، وَالْعَجَبُ قَدَاحَةٌ الشَّرِّ ، وَالضُّغْنُ رَائِدُ الْبَوَارِ ، وَالتَّعْرِيفُ شِجَارُ الْفِتْنَةِ ، وَالْقِيَحَةُ تَقُوبُ الْعِدَاوَةِ ، وَهَذَا الشَّيْطَانُ مَتَكِيٌّ عَلَى شِمَالِهِ ، مَتَحِيلٌ بِيَمِينِهِ ، نَافِيحٌ حِضْبِيهِ (١٠) لِأَهْلِهِ ، يَنْظُرُ الشَّنَاتِ وَالْفُرْقَةَ ، وَيَدِبُّ بَيْنَ الْأُمَّةِ بِالشَّحْنَاءِ وَالْعِدَاوَةِ ، عِنَادًا لِمَنْ عَزَّ وَجَلَّ

(١) الشَّامُ : الْمَعَادَاةُ وَالْمَعَادِنَةُ . (٢) تَهْمُ الشَّيْءِ : طَلَبُهُ وَتَحْسُّسُهُ . (٣) نَافَسُ فِي الشَّيْءِ : مَنَافَسَةٌ : رَغْبٌ فِيهِ عَلَى وَجْهِ الْمُبَارَاةِ وَالْمُنَافَاةِ . (٤) تَجِبُ : تَقَطُّعٌ . (٥) تَأْتَى فُلَانٌ لِأَمْرٍ : تَهَيَّأَ لَهُ وَأَتَاهُ مِنْ وَجْهِهِ .
 (٦) الْجَوْءُ أَكْلَفٌ : أَسْوَدُ تَعْلُوهُ حَمْرَةٌ . (٧) اللَّيْلُ أَغْدَفٌ : مَرِيحٌ سَدُودَةٌ مَظْلَمٌ . (٨) السَّمَاءُ جَلْوَاءٌ : مَصْحِيَةٌ . (٩) خَالِيَةٌ لِأَشْجَرِهَا . (١٠) أَيْ مُسْتَعِدٌّ لِأَنْ يَعْمَلَ عَمَلَهُ مِنَ الشَّرِّ .

أُولَا، ولآدمَ ثانياً، ولنبيه — صلى الله عليه وسلم — ودينه ثالثاً، يوسوس بالفجور، ويُدلي بالفور، ويغني أهل الشرور . يُوحى الى أوليائه زُخرف القول غُروراً بالباطل، دأباً له منذ كان على عهد أبينا آدم صلى الله عليه وسلم، وجادة له منذ أهانه الله تعالى في سالف الدهر، لا منجى منه إلا بعض الناجذ على الحق، وعَضَّ الطُرف عن الباطل، ووطء هامة عدو الله بالأشد فالأشد، والأكد فالأكد، وإسلام النفس لله عز وجل في آتقاء رضاه . ولا بد الآن من قول ينفع إذا ضرَّ السكوت وخيف غيبه ؛ ولقد أرشدك من أفاء ضالتك، وصافاك من أحيا مودته بعتابك، وأراد لك الخير من أثر البقاء معك ؛ ما هذا الذي تُسول لك نفسك، ويدوى به قلبك، وبتوى عليه رأيك، ويتخاوص دونه طرفك، ويسرى فيه ظعنك، ويرآد معه نفسك، وتكثر عنده صعدأوك، ولا يفيض به لسانك . أجممة بعد إفصاح ! أتليس بعد إفصاح ! أدين غير دين الله ! أخلق غير خلق القرآن ! أهدي غير هدي النبي صلى الله عليه وسلم ! أمثلي "تمشي له الضراء وتدب له الخمر" ! أم مثلك يتقيض عليه الفضاء، ويكسف في عينه القمر ! ما هذه القعقة بالشنان ! وما هذه الوعوة باللسان ! إنك والله جُد عارف بأستجابتنا لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، وبمخرجنا عن أوطاننا وأمواننا وأولادنا وأحبنا ، هجرة الى الله عز وجل، ونصرة لدينه في زمان أنت فيه في كفن الصبا ، وخذر الغرارة ، وعنفوان الشيبية ، غافل عما يشيب ويريب ، لا تبي ما يرآد ويُشاد، ولا تحصل ما يساق ويقاد، سوى ما أنت جار عليه الى غايتك التي اليها عدل بك، وعندها حط رحلك، غير مجهول القدر ولا محدود الفضل ؛ ونحن في أثناء ذلك، نعاني أحوالاً تُزيل الرأسي ؛ وتقابسي أحوالاً تُشيب النواصي ، خائضين غمارها، راكبين تيارها، نتجزع صابها، ونشرح عياها، ونحكم أساسها، ونبرم

(١) أفاء : أجمع . (٢) يتخاوص : يفض من بصره . (٣) الضراء : الاستخفاء . والخمر : ما وارك من شجرة، وهو مثل يضرب لمن يخضع صاحبه . (٤) الشنان جمع شن وهو القرية الخلق الصغيرة . والقعقة : الصوت، يريد أنه لا يخوف مثل هذا . (٥) نشرح عياها : ننضدها ونضم بعضها الى بعض . والعياب : جمع عيبة ، وهي زنبيل من آدم تجعل فيه الثياب .

أمر أسنبا، والعيون تُحدِّجُ بالحسد، والأنوفُ تَمِطُسُ بالكِبَر، والصدور تَسْتَعِرُ بالغيظ، والأعناق تَنطاولُ بالفخر، والشِّفَارُ تُشجِدُ بالمكر، والأرض تَمِيدُ بالخوف، لا ننظر عند المساء صباحا، ولا عند الصباح مساء، ولا ندفع في نحرِ أمرٍ إلا بعد أن نَحْصُو الموتِ دونه، ولا نبلغُ مُرادًا إلا بعد الإياس من الحياة عنده؛ فإدين في جميع ذلك رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بالأب والأُم، والخال والعم، والمال والنسب، والسبِّد واللبد، والهَلَّةُ والبَلَّةُ، يطيب أنفُسُ، وقوَّةُ أعين، ورَحِيْبُ أعْطَان، وثَبَاتِ عِزَائِم، وصِحَّةِ عَقُول، وطلاقة أوجه، ودَلَاقَةُ أَلْسُن؛ هذا مع خَفِيَّاتِ أسرار، ومَكْنُونَاتِ أخبار، كُنْتَ عنها غافلا، ولولا سِنْتُك لم تكن عن شيء منها ناكلا، كيف وفؤادك مشهوم، وعودك معجوم! .

والآن قد بلغ الله بك وأنهض خيرك، وجعل مرادك بين يديك، وعن علم أقول ما تسمع؛ فارتقب زمانك، وقصُ أردانك، ودعِ التفعس والتجسس لمن لا يظلعُ لك إذا خطا، ولا يترجح عنك إذا عطا؛ فالأمر غَضٌّ، والنفوسُ فيها مَضٌّ، وإنك أديمُ هذه الأمة فلا تحلمُ بلجاجا، وسيفها العَضْب، فلا تنبُ أعوجاجا، وماؤها العَذْب فلا تحلُ أجاجا.

والله لقد سألتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم عن هذا الأمر، فقال لي: «يا أبا بكر هو لمن يرغب عنه لا لمن يُحَاكِشُ عليه، و لمن يتضائل عنه لا لمن يتفجعُ إليه، هو لمن يقال هو لك لا لمن يقول هو لي» .

ولقد شاورني رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصَّهر، فذكر فيئانا من قريش، فقلت: أين أنت من علي! فقال صلى الله عليه وسلم: إني أكره لفاطمة مِيعَةَ شبابه، وحدائة سنة. فقلت له: متى كَفَفْتَهُ يدك، ورَعَتَهُ عينك، حَفَّتَ بهما البركة، وأسبغت عليهما النعمة؛ مع كلامٍ كثيرٍ خاطبتهُ به رغبةً فيك، وما كنتِ عرفتِ منك في ذلك لا حوجاء

- (١) جمع مرس ككف وهو الحيل . (٢) السبِّد: الشعر. واللبد: الصوف . (٣) يقال: جاءنا فلان فلم يأتنا بهلة ولا بلة أي لم يأتنا بشيء، فالهلة من الفرح والاستبلال، والبهلة من البلل والخير . (٤) مشهوم (بالشين المعجمة): ذكى متوقد . (٥) عطا: مَدَّ اليك عتقه وأقل نحوك . (٦) حلم الخلد (من باب فرح): فسَد وتَقَب . (٧) أى يطلبه ويدافع عنه . (٨) يتطلع إليه ويفتخر به . (٩) أى ما كنتِ عرفتِ منك شيئا .

ولا لوجاء، فقلت ما قلت وأنا أرى مكان غيرك، وأجد رائحة سواك؛ وكنت إذ ذاك خيراً لك منك الآن لى . ولئن كان عرض بك رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الأمر، فلم يكن معرضاً عن غيرك؛ وإن كان قال فيك فما سكت عن سواك؛ وإن تلجأ في نفسك شيء فهِمَّ، فالحك مرضى، والصواب مسموع، والحق مطاع . ولقد نُقِلَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إلى الله عز وجل، وهو عن هذه العصابة راض، وعليها حذر، يسره ما سرها ويسوءه ما ساءها، ويكيده ما كادها، ويرضيه ما أرضاها، ويُسَخِطُه ما أسخطها. أمّا تعلم أنه لم يدع أحداً من أصحابه وأقاربه وسُجْرَائِهِ^(١)، إلا أبانه بفضيلة، وخصه بمزية، وأفرده بحالة! أتظن أنه صلى الله عليه وسلم ترك الأمة سُدىً بَدَدَا، عِبَاهِلُ مِبَاهِلُ، طَلَّاحِي مَفْتُونَةٌ بِالْبَاطِلِ، مَغْبُونَةٌ عَنِ الْحَقِّ، لَا رَائِدٌ وَلَا ذَائِدٌ، وَلَا ضَابِطٌ وَلَا حَاطِظٌ، وَلَا سَاقِي وَلَا وَاقِي، وَلَا هَادِيٍّ وَلَا حَادِيٍّ! كلا! والله ما أشتاق إلى ربه تعالى ولا سأله المصير إلى رضوانه وقربه، إلا بعد أن ضرب المَدَى، وأوضح الهدى، وأبان الصَّوَى^(٢)، وأتمن المسالك والمطارح، وسهل المبارك والمهاج^(٤)، وإلا بعد أن شَدَخَ يَافُوخَ الشُّرِكِ بِإِذْنِ اللَّهِ، وَشَرَّمَ وَجَهَ النِّفَاقِ لَوَجْهِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ، وَجَدَّعَ أَنْفَ الْفِتْنَةِ فِي ذَاتِ اللَّهِ، وَتَقَلَّ فِي عَيْنِ الشَّيْطَانِ بِعَوْنِ اللَّهِ، وَصَدَّعَ بِمَلْءِ فِيهِ وَيَدِهِ بِأَمْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ .

وبعد، فهؤلاء المهاجرون والأنصار عندك ومعك في بقعة واحدة ودار جامعة، إن استقلوني لك وأشاروا عندى بك، فأنا واضح يدي في يدك، وصائر إلى رأيهم فيك . وإن تكن الأخرى فأدخل فيما دخل فيه المسلمون، وكن العون على مصالحتهم، والفتاح لمغالقهم، والمرشد لضآلتهم، والراذع لغوايتهم . فقد أمر الله تعالى بالتعاون على البر والتقوى، والتأصر على الحق . ودعنا تقضى هذه الحياة الدنيا بصدور بريئة من الغل، ونلقى الله تعالى بقلوب سليمة من الضغن .

(١) سجنائه: أصدقائه . (٢) عباهل مباحل (بالاء الموحدة في الكلبيين): مهلة . (٣) الصوى:

الأعلام . (٤) المهاج: الطرق . (٥) اليافوخ (يهر ولا يهز) جزء الرأس الذي يتحرك في الطفل .

(٦) في صبح الأعشى: «فهذه» .

وبعد، فالناس ثمة فارقٌ بهم وأحنٌ عليهم وإن لهم ، ولا تُشقي نفسك بنا خاصة فيهم ،
وأترك ناجم الخقد حصيدا ، وطائر الشر واقعا ، وباب الفتنة مغلقا ، فلا قال ولا قيل ولا لوم
ولا تبيع ، والله على ما نقول شهيد ، وبما نحن عليه بصير .

قال أبو عبيدة : فلما تأهبت للنهوض ، قال عمر رضي الله عنه : كُنْ لَدَى الْبَابِ
هَيْبَةً فِى مَعَكَ دَوْرٌ مِنَ الْقَوْلِ ؛ فَوَقَفْتُ وَمَا أَدْرَى مَا كَانَ بَعْدَى ، إِلَّا أَنَّهُ لِحِفْنِي بُوْجِه
يَسْدَى تَهْلَا ، وَقَالَ لِي : قُلْ لِعَلِيٍّ : الرَّقَادُ مَحْمَةٌ ، وَالهُوى مَقْحَمَةٌ ، وَمَا نَا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ
مَعْلُومٌ ، وَحَقٌّ مَشَاعٌ أَوْ مَقْسُومٌ ، وَبِنَا ظَاهِرٌ أَوْ مَكْتُومٌ ؛ وَإِنْ أَكَيْسَ الْكَيْسِ مِنْ مَنَحِ
الشَّارِدِ تَأَلَّفَا ، وَقَارِبَ الْبَعِيدِ تَلَطَّفَا ، وَوَزَنَ كُلُّ شَيْءٍ بِمِيزَانِهِ ، وَلَمْ يَخْلُطْ خَبْرَهُ بَعِيَانِهِ ،
وَلَمْ يَجْعَلْ قُوَّةَ مَكَانِ شِبْرِهِ ، دِينًا كَانَ أَوْ دُنْيَا ، ضَلَالًا كَانَ أَوْ هُدًى . وَلَا خَيْرَ فِى عِلْمِ
مُسْتَعْمَلٍ فِى جَهْلٍ ، وَلَا خَيْرَ فِى مَعْرِفَةٍ مَشُوبَةٍ بِنُكْرٍ . وَلَسْنَا بِجَلْدَةِ رَفْعِ الْبَعِيرِ بَيْنَ الْعِجَانِ
وَالذَّنْبِ . وَكُلُّ صَالٍ فَبِنَارِهِ ، وَكُلُّ سَيِّئٍ فِإِلَى قَرَارِهِ . وَمَا كَانَ سَكُوتُ هَذِهِ الْعَصَابَةِ إِلَى
هَذِهِ الْفَيَاةِ لِعِيٍّ وَشَيْءٍ ، وَلَا كَلَامُهَا الْيَوْمَ لِقَرِيٍّ أَوْ رَفِيٍّ . وَقَدْ جَدَعَ اللَّهُ مُحَمَّدَ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْفَ كُلِّ ذِي كِبَرٍ ، وَقَصَمَ ظَهْرَ كُلِّ جَبَّارٍ ، وَقَطَعَ لِسَانَ كُلِّ
كُدُوبٍ ، فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ . مَا هَذِهِ الْخُزْنَوَانَةُ الَّتِي فِى فِرَاشِ رَأْسِكَ ! مَا هَذَا
السَّجَا الْمُعْتَرِضِ فِى مَدَارِجِ أَنْفَاسِكَ ! مَا هَذِهِ الْقَدَاةُ الَّتِي تَعَشَّتْ نَاطِرَكَ ! وَمَا هَذِهِ
الْوَحْرَةُ الَّتِي أَكَلَتْ شَرَّاسِفَكَ ! وَمَا هَذَا الَّذِي لَيْسَتْ بِسَبِيهِ جِلْدَ النَّمْرِ ، وَأَشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ
بِالسَّحْنَاءِ وَالشُّكْرِ ! وَلَسْنَا فِى كَسْرِيَّةٍ كَسْرِيٍّ ، وَلَا فِى قَيْصَرِيَّةٍ قَيْصَرٍ ! تَأْمَلُ لِإِخْوَانِ فَارِسَ
وَأَبْنَاءِ الْأَصْفَرِ ! قَدْ جَعَلَهُمُ اللَّهُ جَزْرًا لِسَيْفُونَا ، وَدَرِيئَةً لِمَا حَنَا ، وَمَرْمِيَّ لِطِمَانِنَا ، وَتَبْعًا
لِسُلْطَانِنَا ؛ بَلْ نَحْنُ فِى نُورِ نُبُوَّةٍ ، وَضِيَاءِ رِسَالَةٍ ، وَثَمَرَةِ حِكْمَةٍ ، وَأَثَرَةِ رَحْمَةٍ ، وَعُتْوَانِ نِعْمَةٍ ،

(١) الرفغ : أصل الفخذ من باطن . والعجان : الاست . يريد أن مزاجهم بين الأحياء والعشائر ليست

حقيرة مهينة . (٢) الشيء بالكسر إتياع الشيء . (٣) الخنزوانة : الكبر . (٤) الوحرة

(التحريك) : والحقد العداوة والشرايف : جمع شرسوف ، والشرسوف مقطع الضلع .

وظلَّ عِصْمَةٌ، بين أمة مهديَّة بالحق والصدق، مأمونة على الرِّقِّ والتَّقِي، لها من الله قلبٌ أُنِيٌّ، وساعدٌ قوِيٌّ، ويدٌ ناصرة، وعينٌ باصرة. أتظنُّ ظننا يا صليُّ أن أبا بكر وثب على هذا الأمر مُفْتَنَاتًا على الأمة خادعًا لها أو متسلطًا عليها! أترآه حلَّ عقودها وأحال عقولها! أترآه جعل نهارها ليلا، ووزَّنها يكلًا، وبَقَّظَتهَا رُقَادًا، وصلاحها فسادًا! لا والله! سَلَا عنها فَوَلَّهَتْ له، وتَطَامَنَ لها فَلَصِقَتْ به، ومال عنها فَمَالَتْ إليه، وأشَمَّازَ دونها فَاشْتَمَلَتْ عليه، حَبِوَةٌ حَبَاهُ اللهُ بها، وطَاقِبَةٌ بَلَّغَهُ اللهُ إليها، ونعمةٌ سَرَّ بَلَّهَ جمالها، ويدٌ أوجب اللهُ عليه شكرها، وأمةٌ نظر اللهُ به إليها. والله أعلم بخلقه، وأرأف بعباده، يختار ما كان لهم الخيرة. وإنك بحيث لا يُجْهَلُ موضعُك من بيت النبوة، ومعدن الرسالة، ولا يُصَحَّدُ حَقُّك فيما آتاك اللهُ، ولكن لك من يزاحك بمنكِبِ أضخم من منكبك، وقُرْبُ أَمْسٍ من قرابتك، وسنُّ أعلى من سنِّك، وشيبيَّة أروع من شيبتيك، وسيادة لها أصلٌ في الجاهلية وفرعٌ في الإسلام، ومواقف ليس لك فيها جملٌ ولا ناقة، ولا تُذَكَّرُ منها في مقدمة ولا سَاقَةَ، ولا تُضْرَبُ فيها بذراع ولا إصبع، ولا تُخْرَجُ منها بيازٍ ولا هج. ولم يزل أبو بكر حبة قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم وعِلاَقَةَ نفسه، وعِيَّةَ سرِّه، ومَفْرَعَ رأيه ومشورته، وراحة كَفِّه، ومَرْمَقَ طَرْفِهِ. وذلك كله بِمَحْضَرِ الصَّادِرِ والوارد من المهاجرين والأنصار، شهرته مغنيَّةٌ عن الدليل عليه. ولعمري إنك أقرب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قرابةً، ولكنه أقرب منك قرابةً، والقرابةُ لحم ودم، والقربةُ نفس وروح. وهذا فرق عَرَفَهُ المؤمنون، ولذلك صاروا إليه أجمعون. ومهما شككت في ذلك، فلا تشك أن يدَّ الله مع الجماعة، ورضوانه لأهل الطاعة. فادخُلْ فيما هو خير لك اليوم وأنفع لك غدا، وألفظْ من فيك ما يعلَقُ بلهاتيك، وأنيقتْ سَخِيمةَ صدرك عن تُقَاتِك، فإن يك في الأمد طولٌ، وفي الأجل فُسْحَةٌ، فسأكله مريثًا أو غير مريء، وستشربه هنيئًا أو غير هنيء، حين لا رادَّ لقولك إلا من كان آيدسًا منك، ولا تابع لك إلا من كان طامعًا فيك، يحضُّ إهابك، ويعرك أديمك،

(١) البازل: الجبل القوي الذي دخل في سنته التاسعة. والهبع: الفصيل الذي يتنج في الصيف فيكون ضعيفا.

(٢) يمض إهابك: يحرق جلدك. (٣) يعرك: يدلك.

ويُزري على هديك . هنالك تفرح السن من ندم ، ويخرج الماء عمزوجاً بدم ، ويخيل تأسي على ما مضى من عمرك ودارج قوتك ، فتود أن لو سقيت بالكأس التي أبيتها ، ورديت إلى حالتك التي استغويتها . والله تعالى فينا وفيك أمر هو بالغه ، وغيب هو شاهده ، وطاقبة هو المرجو لسرأتها وضرائها ، وهو الولي الحميد ، الغفور الودود .

قال أبو عبيدة : فتمشيت مترملاً أنوء كأنما أخطو على رأسي ، فرقا من الفرقة ، وشققاً على الأمة ، حتى وصلت إلى علي رضي الله عنه في خلأ ، فابتنته بئى كله ، وبرئت إليه منه ، ورفقت به . فلما سمعها ووعاها ، وسرت في مفاصله حياها ، قال : ^(١) «حلت معلوطة ، وولت مخروطة» ، وأنشد يقول : ^(٢)

إحدى لياليك فهيسى هيسى * لا تتعمى الليلة بالتعريس ^(٤)

نعم يا أبا عبيدة ، أكل هذا في أنفس القوم ، ويحسون به ، ويضطغنون على ! قال أبو عبيدة : فقلت : لا جواب لك عندي ، إنما أنا قاض حق الدين ، ورائق فثق المسامين ، وساد نومة الأمة ، يعلم الله ذلك من جلالان قلبي ، وقرارة نفسي . ^(٥)

(١) هو أمير المؤمنين أبو الحسن علي بن أبي طالب . وابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم . وزوج ابنته . ورابع الخلفاء الراشدين . وإمام الخطباء من المسلمين . ولد رحمه الله بعد مولد النبي صلى الله عليه وسلم بأثنتين وثلاثين سنة . وهو أول من آمن من الصبيان . وكان شجاعاً لا يشق له غبار . أيداً جليداً . شهد الغزوات كلها مع النبي إلا غزوة تبوك . وأبلى في نصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لم يبله أحد . ولما قتل عثمان بايعه الناس بالهجاز وامتنع عرب بيعة معاوية وأهل الشام شيعة بن أمية غضبا منهم لمقتل عثمان وقلة عنايته بالبحث عن القتلة على حسب اعتقادهم ، فحدث من جراء ذلك الفتنة العظيمة بين المسلمين وافتراقهم إلى طائفتين فتعاربوا مدة من غير أن يستتب الأمر لعلى أو معاوية حتى قتل أحد الخوارج علياً عيلة بمسجد الكوفة . وكان كرم الله وجهه أفصح الناس بعد رسول الله . وأكثرهم علماً وزهداً وشدة في الحق : وهو إمام الخطباء من العرب على الإطلاق بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكانت وفاته سنة ٤٠ هـ ومدة خلافته خمس سنين إلا ثلاثة أشهر .

(٢) معلوطة : مقتحمة من غير روية . (٣) مخروطة : مسرعة . (٤) هيسى : سيري أى سير كان .

(٥) أى يظنون على الضغن وهو الحقد . (٦) جاجلان قلبي ، أى حبه .

فقال عليّ رضي الله عنه : والله ما كان قعودي في كِنِّ هذا البيت قصداً للخلاف ، ولا إنكاراً للعرف ، ولا زراً على مسلم ، بل لما قد وقّدي به رسول الله صلى الله عليه وسلم من فراقه ، وأودعني من الحزن لفقده . وذلك أني لم أشهد بعده مشهداً إلا جدد عليّ حزناً ، وذكرني شجناً . وإن الشوق إلى الملاقاة به كآفٍ عن الطمع في غيره . وقد عكفتُ على عهد الله أنظر فيه ، وأجمع ما تفرّق ، وجاء ثواب مُعدٍّ لمن أخلص لله عمله ، وأسلم لعلمه ومشيئته ، وأمره ونهيه . على أني ما علمت أن التظاهر عليّ واقع ، ولا عن الحق الذي سبق إلى دافع . وإذ قد أُفيم الوادي بي ، وحشد النادى من أجلي ، فلا مرحباً بما ساء أحداً من المسلمين وسرتي . وفي النفس كلامٌ لولا سابق عقد وسالف عهد ، لشفيت غيظي بخصمي وبخصمي ، وخضت لجنته بأخصمي ومفريقي ، ولكنني ملجئ إلى أن ألقى الله ربي ، وعنده أحتسب ما نزل بي . وإني غادٍ إلى جماعتكم ، فبائعٌ صاحبكم ، صابرٌ على ما ساءني وسرتكم ، ليقي الله أمراً كان مفعولاً .

قال أبو عبيدة : فعدت إلى أبي بكر رضي الله عنه فقصصت عليه القول على غيره ، ولم أختزل شيئاً من حلوه وممره ، وبكرت غدوةً إلى المسجد ، فلما كان صباح يومئذ وإذا عليّ محترق الجماعة إلى أبي بكر رضي الله عنهما فبايعه ، وقال خيراً ، ووصف جميلاً ، وجلس زميتاً ، وأستاذن للقيام فضى وتبعه عمر مكرماً له ، مستأثراً لما عنده .

فقال عليّ رضي الله عنه : ما قعدت عن صاحبكم كارهاً ، ولا أئبته فرقاً ، ولا أقول ما أقول تعلقة . وإني لأعرف منتهى طرفي ، ومحطّ قديمي ، ومترع قوسي ، وموقع سهمي ؛ ولكن قد أزمّت على فأسى ثقةً بربي في الدنيا والآخرة .

فقال له عمر رضي الله عنه : كفّكف غربك ، وأستوقف سربك ، ودع العصى يلحائها ، والدلاء على رشاها . فإننا من خلفها وورائها ، إن قدحنا أورتنا ، وإن متحنا أروينا ،

(١) على غيره ، أي كما هو وكما قص عليّ . (٢) زميتاً : حلياً وقوراً . (٣) يقال : أزم الفرس على فأس الجمام إذا عضها وقبض عليها . وفأس الجمام : الحديدية المعترضة منه في الخنك . يريد أنه ألجم نفسه ثقة الخ .

وإن قرحنا أدمينا . ولقد سمعتُ أماتيك التي لفزت بها عن صدر أكل بالحوي ، ولو شئت لقلتُ على مقاتلك ما إن سمعته ندمت على ما قلت . وزعمت أنك قعدت في كن بيتك لما وقّذك به رسول الله صلى الله عليه وسلم من فقيهه ، فهو وقّذك ولم يقّد غيرك ! بل مصابه أعظم وأعم من ذلك ، وإن من حق مصابه ألا تصدع شمل الجماعة بفرقة لا عصام لها ، ولا يؤمن كيد الشيطان في بقائها . هذه العرب حولنا ، والله لو تداعت علينا في صبح نهار لم تلتق في مسائه . وزعمت أن الشوق إلى الخلق به كافٍ عن الطمع في غيره ! فن علامة الشوق إليه نصره دينه ، ومؤازرة أوليائه ومعاوتهم . وزعمت أنك عكفت على عهد الله تجمع ما تفرق منه ؛ فن الكوف على عهد الله النصيحة لِعِبَادِ الله ، والرأفة على خالق الله ، وبذل ما يصلحون به ، ويرشُدون عليه . وزعمت أنك لم تعلم أن التظاهر واقع عليك ، وأى حق لَطُّ دونك^(١) ! قد سمعت وعلمت ما قال الأنصار بالأمس سرا وجهرا ، وتقلبت عليه بطننا وظهرا ، فهل ذكرت أو أشارت بك ، أو وجدت رضاهم عنك ؟ هل قال أحد منهم بلسانه إنك تصلح لهذا الأمر ؟ أو أوما بعينه أو هم في نفسه ؟ أتظن أن الناس ضلوا من أجلك ، وعادوا كفارا زهدا فيك ، وباعوا الله تحاملا عليك ؟ . لا والله ! لقد جاءني عييل ابن زياد الخزرجي في نفر من أصحابه ومعهم شرحبيل بن يعقوب الخزرجي وقالوا : إن عليا ينتظر الإمامة ، ويزعم أنه أولى بها من غيره ، ويُنكر على من يعقد الخلافه ؛ فأنكرت عليهم ، ورددت القول في تحوهم حيث قالوا : إنه ينتظر الوحي ويتوكّف^(٢) مناجاة الملك ؛ فقلت : ذاك أمر طواه الله بعد نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أكان الأمر معقودا بأشوطه^(٣) ، أو مشدودا بأطراف ليطّة^(٤) ؟ كلا ! والله لا عجماء بحمد الله إلا أنصحت ، ولا شوكاء إلا وقد تفتحت . ومن أعجب شأنك قولك : « ولولا سالف عهد وسابق عقد ، لشفيت غيظي » وهل ترك الدين لأهله أن يسفوا غيظهم بيد أو بلسان ؟ تلك جاهلية وقد استاصل الله شاقها وأقتلع جرمومتها ، وهور ليها ، وغور سيلها ، وأبدل منها الروح والريحان ، والهدى والبرهان .

(١) لط : جهد . (٢) يتوكّف : ينظر . (٣) الأنشوطه : عقده يسهل انحلالها ،

إذا أخذ بأحد طرفيها افتتحت . (٤) الليطة قشرة القصبه التي تليط بها أي تلتق .

وزعمت أنك مُلجَمٌ، ولعمري إن من أتقى الله، وآثر رضاه، وطلب ما عنده، أمسك لسانه وأطبق فاه، وجعل سعيه لما وراءه .

فقال على رضى الله عنه : مهلاً يا أبا حفص، والله ما بذلت ما بذلت وأنا أريد نكته، ولا أقررت ما أقررت وأنا أبتنى جِولاً عنه . وإن أخسر الناس صفقةً عند الله من آثر التفاق، وأحضرن الشقاق، وفي الله سلوةٌ عن كل حادث، وعليه التوكل في جميع الحوادث . ارجع يا أبا حفص الى مجلسك نافع القلب، مبرود الغليل، فسيح اللبان^(١)، فصيح اللسان، فليس وراء ما سمعت وقلت إلا ما يشد الأزر، ويحط الوزر، ويضع الإضر، ويجمع الألفة بمشيئة الله وحسن توفيقه .

قال أبو عبيدة رضى الله عنه : فانصرف على وعمر رضى الله عنهما . وهذا أصعب ما مرّ على بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم .



٢ - ومن كلام عائشة^(٢) رضى الله عنها فى الانتصار لأبيها

يروى أنه بلغ عائشة رضى الله عنها أن أقواما يتناولون أبا بكر رضى الله عنه، فأرسلت الى أزفلة^(٣) من الناس، فلما حضروا، أسدلت أستارها، وعلت سآدها، ثم قالت : أبى، وما أيسه ! أبى والله لا تعطوه الأيدي، ذاك طودٌ منيف، وفرعٌ مديد، هيئات، كذبت الظنون ! أنجح إذ أكديتم، وسبق إذ وثبتم ؛ سبق الجواد إذا استولى على الأمد . فتى

(١) اللبان : الصدر . (٢) هى عائشة بنت أبى بكر الصديق بن أبى خنافة، عقد عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة وهى بنت ست سنين، ودخل بها فى المدينة وهى بنت تسع، وكان مولدها ستة أربع من النبوة، وأمها أم رومان بنت عامر بن عويمر، وكان صداقها أربعائة درهم، وكانت أحب نسائه إليه، وكنتها أم عبد الله، كنىت بابن أختها أسماء، ولها خطب ووفائع . وكانت من أكبر العائلات فى وقعة الجمل المشهورة فى الاسلام صحبة الزبير وطلحة . وكانت أفصح أهل زمانها وأبينهم منطقاً وأحفظهم للحديث وأفقههم . توفيت ستة سبع وخمسين ودفنت ليلاً بالبيع وصل عليها أبو هريرة رضى الله عنه . راجع ترجمتها فى طبقات ابن سعد (ج ٨ ص ٣٩) .

(٣) الأزفلة : الجماعة . (٤) لا تعطوه : لا تناهه .

قريش ناشئا، وكهفها كهلا، يَفُكُ عَانِيَهَا، وَيَرِيشُ مُمْلِقَهَا، وَيَرَابُ شَعْبَهَا، وَيَلْمُ شَعْبَهَا، حَتَّى حَلَيْتَهُ قَلُوبُهَا، ثُمَّ اسْتَشْرَى فِي دِينِ اللَّهِ قَا بَرِحَتْ شَكِيمَتُهُ فِي ذَاتِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ حَتَّى اتَّخَذَ بِنِهَاةِ مَسْجِدًا يُحْيِي فِيهِ مَا أَمَاتَ الْمُبْطَلُونَ . وَكَانَ رَحِمَهُ اللَّهُ غَيْرَ الرَّالْمَعَةِ، وَقَيْدَ الْجَوَانِحِ، شَيْئِي النَّشِيحِ، فَانْقَضَتْ إِلَيْهِ نِسْوَانُ مَكَّةَ وَوُلْدَانُهَا يَسْخَرُونَ مِنْهُ وَيَسْتَهْزِئُونَ بِهِ (اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمْدُدُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ) فَكَبُرَتْ ذَلِكَ رِجَالَاتٌ مِنْ قَرِيشٍ فَخَنَّتْ قِسِيَهَا، وَفَوَقَتْ سِهَامَهَا، وَانْتَشَلُوهُ غَرَضًا، فَمَا قَلُّوا لَهُ صَفَاةٌ، وَلَا قَصَفُوا لَهُ قَنَاةً، وَمَرَّ عَلَى سِيَسَاتِهِ (١) ، حَتَّى إِذَا ضَرَبَ الدِّينُ بِجِرَانِهِ، وَرَسَتْ أَوْتَادُهُ، وَدَخَلَ النَّاسُ فِيهِ أَفْوَاجًا، وَمِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ أَرْسَلَا وَأَشْتَاتَا، اخْتَارَ اللَّهُ لِنَبِيِّهِ مَا عِنْدَهُ، فَلَمَّا قَبِضَ اللَّهُ نَبِيَّهَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضَرَبَ الشَّيْطَانُ رِوَاقَهُ، وَمَدَّ طُنْبُهُ، وَنَصَبَ حَبَائِلَهُ، وَأَجْلَبَ بِجَلِّهِ وَرَجَلَهُ، وَأَضْطَرَبَ حَبْلُ الْإِسْلَامِ، وَمَرَجَ عَهْدُهُ وَمَاجَ أَهْلُهُ، وَبُنِيَ الْغَوَائِلُ، وَظَنَّتْ رِجَالٌ أَنْ قَدْ أَكْثَبَتْ أَطْلَاعُهُمْ نُهْرَهَا، وَوَلَاتَ حِينَ الَّذِي يَرْجُونَ، وَأَنَّى وَالصَّدِيقِ بَيْنَ أَظْهَرِهِمْ ! فَفَاقَ حَاسِرًا مَشْمُرًا، جَمَعَ حَاشِيَتَيْهِ وَرَفَعَ قَطْرِيَّهَ، فَرَدَّ رَسْنَ الْإِسْلَامِ عَلَى غَرْبِهِ، وَلَمْ شَعْنَتْهُ يَطْبَهُ، وَأَتَانَشَ الدِّينَ فَنَعَشَهُ، فَلَمَّا أَرَاكَ الْحَقُّ عَلَى أَهْلِهِ، وَقَرَّرَ الرَّءُوسَ عَلَى كِوَاهِلِهَا، وَحَقَّنَ الدَّمَاءَ فِي أَهْلِهَا، أَنْتَهُ مَنِيَّتُهُ، فَسَدَّ ثَمَلْتَهُ بِنَظِيرِهِ فِي الرَّحْمَةِ، وَشَقِيْقَهُ فِي السَّرِيَةِ وَالْمَعْدَلَةِ، ذَاكَ ابْنَ الْخَلَابِ، لَنَّهُ دَرَّ أَمَّ حَمَلَتْ بِهِ وَدَرَّتْ عَلَيْهِ ! لَقَدْ أَوْحَدَتْ بِهِ، فَفَضَخَ الْكُفْرَةَ وَدَبَّجَهَا، وَشَرَّدَ الشَّرْكَ شَدْرَ مَدْرٍ، وَبَعَجَ الْأَرْضَ وَبَجَعَهَا، فَقَاءَتْ أَكْلَهَا، وَلَقَطَتْ خَبَأَهَا (٢) ، تَرَامَهُ وَيَصْدِفُ عَنْهَا، وَتَصَدَّى لَهُ وَيَأْبَاهَا . ثُمَّ وَزَعَ فِيهَا فِيئَهَا وَوَدَعَهَا كَمَا صَحَّيَهَا . فَارُونِي مَاذَا تَرْتُسُونَ، وَأَيُّ يَوْمِي أَيْ تَقِيمُونَ : أَيُّوَمَ إِقَامَتِهِ إِذْ عَدَلْتُ فِيكُمْ، أَمْ يَوْمَ ظُنْعَتِهِ إِذْ نَظَرْتُ لَكُمْ؟ أَقُولُ قَوْلِي هَذَا وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ . ثُمَّ أَقْبَلْتُ عَلَى النَّاسِ بَوَجْهِهَا فَقَالَتْ : أَنْشُدْكُمْ اللَّهَ هَلْ أَنْتُمْ مِمَّا قُلْتُمْ شَيْئًا؟ قَالُوا : اللَّهُمَّ لَا .

(٣) خبأها :

(٢) فَنَخ : غَلَبَ وَقَهَرَ .

(١) عَلَى سِيَسَاتِهِ، أَي عَلَى دَأْبِهِ وَعَادَتِهِ .

٣ — كلمة أم الخير بنت الحريش^(١)

ومن كلام أم الخير بنت الحريش البارقية يوم صغين في الانتصار لعلي رضي الله عنه :
 يروى أن معاوية كتب الى واليه بالكوفة أن يحمل اليه أم الخير بنت الحريش البارقية
 برحلها ، وأعلمه أنه مجازية بقولها فيه بالخير خيرا وبالشر شرا . فلما ورد عليه كتابه ، ركب
 اليها فاقرأها الكتاب ، فقالت : أما أنا فغير زائغة عن طاعة ولا معتلة بكذب ! ولقد كنت
 أحب لقاء أمير المؤمنين لأمر تختلج في صدري . فلما شيعها وأراد مفارقتها قال لها :
 يا أم الخير ، إن أمير المؤمنين كتب اليّ أنه يجازيني بقولك في بالخير خيرا وبالشر شرا ؛
 فما عندك ؟ قالت : يا هذا لا يطعمنك ريك بي أن أسرك بباطل ، ولا تؤيسك معرفتي بك
 أن أقول فيك غير الحق . فسارت خير مسير حتى قدمت على معاوية ، فأنزلها مع حريمه ثلاثا ،
 ثم أدخلها عليه في اليوم الرابع ، وعنده جلساؤه ، فقالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين
 ورحمة الله وبركاته ؛ قال لها : وعليك السلام يا أم الخير ، وبالرغم منك دعوتني بهذا الاسم ؛
 قالت : مه يا أمير المؤمنين ! فإن يديه السلطان مدحضة لما يجب علمه ولكل أجل كتاب ؛
 قال : صدقت ، فكيف حالك يا خالة ؟ وكيف كنت في مسيرك ؟ قالت : لم أزل في عافية
 وسلامة حتى صرت إليك فأنا في مجلس أنيق ، عند ملك رقيق ؛ قال معاوية : بحسن نيتي
 ظفرتُ بكم ؛ قالت : يا أمير المؤمنين أعيذك بالله من دحض المقال وما تُردّي عاقبته ،
 قال : ليس هذا أردنا ، أخبريني كيف كان كلامك يوم قُتل عمار بن ياسر ؟ قالت :
 لم أكن والله زورته قبل ولا رويته بعد ، وإنما كانت كلمات تفهمن لساني حين الصدمة ،
 فان شئت أن أحدث لك مقالا غير ذلك فعلت ؛ قال : لا أشاء ذلك . ثم التفت الى
 أصحابه فقال : أيكم يحفظ كلام أم الخير ؟ فقال رجل من القوم : أنا أحفظه يا أمير المؤمنين
 كحفظي سورة الحمد ؛ قال : هاته ؛ قال : نعم كأي بها يا أمير المؤمنين في ذلك اليوم عليها

(١) مقولة عن صبح الأعشى ج ١ ص ٢٤٨ (٢) زور الكلام في نفسه : هياه .

برؤ زيبدي كشيء الحاشية، وهي على جمل أرمك وقد أحيط حولها، ويدها سوط منتشر الضفر، وهي كالفصل يهدر في شقشقته تقول :

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ) ! إن الله قد أوضح الحق، وأبان الدليل، وتوزر السبيل، ورفع العلم، فلم يدعكم في عمياء مبهمة! ولا سوداء منطممة، فإلى أين تريدون رحمكم الله! أفراراً عن أمير المؤمنين، أم فراراً من الرُخف، أم رغبة عن الاسلام، أم ارتداداً عن الحق! أما سمعتم الله عز وجل يقول: ((وَنَبِّئُوهُمْ حَتَّى تَلْمِزَهُ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَتَبْلُوْا أَخْبَارَهُمْ) .

ثم رفعت رأسها الى السماء وهي تقول :

قد عيل الصبر، وضعف اليقين، وانتشر الرعب، وبيدك يا رب أزيمة القلوب، فاجمع الكلمة على التقوى، وألف القلوب على الهدى . هلموا رحمكم الله الى الإمام العادل، والوصي الوفي، والصديق الأكبر! إنها إحن بذريه، وأحقاد جاهليه، وضغائن أهديه؛ وثب بها معاوية حين الغفلة ليُدرك بها ثارات بني عبد شمس .

ثم قالت : قَاتِلُوا أَعْمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ . صبراً معشر المهاجرين والأنصار، قاتلوا على بصيرة من ربكم، وثبات من دينكم، وكأني بكم غداً قد لقيتم أهل الشام حُميرٍ مُسْتَنْفِرَةٍ، قَزَتْ من قَسْوَةٍ، لا تدرى أين يُسَلِّكُ بها من فجأج الأرض، باعوا الآخرة بالدنيا، واشتروا الضلالة بالهدى، وباعوا البصيرة بالعمى، وعم قليل ليصبحن نادمين، حين تحل بهم الندامة، فيطلبون الإقالة! إنه والله من ضل عن الحق وقع في الباطل، ومن لم يسكن الجنة نزل في النار . أيها الناس، إن الأيكاس أستقصروا عمر الدنيا فرفضوها واستبطئوا مدة الآخرة فسعوا لها . والله أيها الناس لولا أن تبطل الحقوق، وتُطَّل الحدود، ويظهر الظالمون، وتقوى كلمة الشيطان، لما اخترنا ورود المنايا على خفض العيش وطيبه، فإلى أين تريدون — رحمكم الله — عن ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم

وزوج ابنته وأبى أبنيه؟ خلق من طينته، وتفرغ عن تبعته، وخصه بيسره، وجعله باب مدينته، وأعلم بحبه المسلمين، وأبان ببغضه المنافقين. فلم يزل كذلك يؤيده الله بمعونته، ويمضى على سنن استقامته، لا يعزج لراحة الذات. وهو مُفَلِّقُ الهام، ومكسّر الأصنام، إذ صلّى والناس مشركون، وأطاع والناس مرتابون. فلم يزل كذلك حتى قتل مبارزى بدر، وأفى أهل أحد، وفزق جمع هوازن، فإلها وقائع زرعت في قلوب قوم نفاقا، وردة وشقاقا. وقد آجهدت في القول، وبالغت في النصيحة، وبالله التوفيق. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

فقال معاوية: والله يا أم الخير ما أردت بهذا إلا قتلي! والله لو قتلتك ما حرجت في ذلك.

قالت: والله ما يسوعنى يابن هند أن يُجرى الله ذلك على يدي من يسعدنى الله بشقائه؛ قال: هيات يا كثيرة الفضول، ما تقولين في عثمان بن عفان؟ قالت: وما عسيت أن أقول فيه، استخلفه الناس وهم كارهون، وقتلوه وهم راضون؛ فقال: إياها يا أم الخير، هذا والله أصلك الذى تبين عليه؛ قالت: لكن الله يشهد وكفى بالله شهيدا، ما أردت بعثمان نقصا، ولقد كان سبّاقا إلى الخيرات، وإنه لرفيع الدرجة. قال: فما تقولين في طلحة بن عبيد الله؟ قالت: وما عسى أن أقول في طلحة، إغتيال من مأمته، وأتى من حيث لم يتحدّر، وقد وعده رسول الله صلى الله عليه وسلم الجنة. قال: فما تقولين في الزبير؟ قالت: يا هذا لا تدعنى كرجيع الصبيغ يعرك في المركن^(١)؛ قال: حقاً لتقولن ذلك وقد عزمت عليك؛ قالت: وما عسيت أن أقول في الزبير ابن عمه رسول الله صلى الله عليه وسلم وحواريه، وقد شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة، ولقد كان سبّاقا إلى كل مكرمة في الإسلام. وإني

(١) المركن: الإجاعة وهى إزاء تغسل فيه الثياب. ويعرك: يحك. والرجيع المردود. أى لا تجعلنى كالثوب المصبوغ يحك في الإناء مرة بعد أخرى لإخراج صبغه منه: تشبه محاوره معاوية إياها وسؤاله لها مرة بعد مرة لاستخراج ما في نفسها بما يغسل من الثياب المصبوغة لاستخراج صبغها منها.

أسألك بحق الله يا معاوية، فإن قرينا تحدث أنك من أحلمها، أن تَسْعِي بفضل حملك، وأن تُعْفِي من هذه المسائل، وأمض لما شئت من غيرها؛ قال: نعم وكرامة، قد أعفيتك؛ وردّها مكرمة إلى بلدها.



٣ - كلمة الزرقاء^(١) بنت عدى

ومن كلام الزرقاء بنت عدى بن قيس الهمدانية ما قالته يوم صفيين أيضا :

يرى أنها ذُكرت عند معاوية يوما، فقال جلسائه: أيكم يحفظ كلامها؟ قال بعضهم: نحن نحفظه يا أمير المؤمنين؛ قال: فأشيروا على في أمرها؛ فأشار بعضهم بقتلها، فقال: بئس الرأي! أيحسُنُ بمثل أن يقتل امرأة! ثم كتب إلى عامله بالكوفة أن يُوفدها إليه مع ثقة من ذوى محرّمها وعدّة من فرسان قومها، وأن يمهد لها وطءا لنا، ويسترها بستر خصيف، ويوسع لها في النفقة. فلما دخلت على معاوية، قال: مرحبا بك وأهلا! قدّمت خير مقدّم قدمه وافد، كيف حالك؟ قالت: بخير يا أمير المؤمنين، أدام الله لك النعمة! قال: كيف كنت في مسيرك؟ قالت: ربيّة بيت أو طفلا ممهدا؛ قال: بذلك أمرناهم. أتدريين فيم بعثت إليك؟ قالت: وأني لى بعلم مالم أعلم؟ وما يعلم الغيب إلا الله عز وجل؛ قال: ألسيت الراكبة الجمل الأحمر، والواقفة بين الصفيين بصفيين تحضين الناس على القتال، وتوقدين الحرب؟ فما حملك على ذلك؟ قالت: يا أمير المؤمنين، مات الرأس، وبتر الدّنب، ولن يعود ما ذهب؛ والدهر ذو غير، ومن تفكّر أبصر، والأمر يُحدث بعده الأمر؛ قال

(١) هي الزرقاء بنت عدى بن غالب بن قيس الهمدانية، كانت من أهل الدوقفة، وكانت ذات شجاعة فاتها، وبلاعة نادرة، شهدت مع قومها واقعة صفيين، وطاعة خطب تحرض الناس فيها على القتال ضد معاوية. وبعد أن تم معاوية ما أراد كتب إلى عامله بالكوفة باستدعائها، فأحضرت إليه، وبعد محاوره بينه وبينها سألتها حاجتها، فقالت: «يا أمير المؤمنين، آليت على نفسي ألا أسأل أميرا أعنت عليه أبدا» ثم انصرفت، وبعد ذلك أرسل لها معاوية جائزة. (٢) خصيف: غليظ.

لها معاوية: أتحفظين كلامك يومئذ؟ قالت: لا والله، ولقد أنسيتُهُ؛ قال: لكني أحفظه،
لله أبوك حين تقولين:

أيها الناس، إرعووا وأرجعوا! إنكم أصبحتم في فتنَةٍ عَشْتَمَ جَلَايِبَ الظلم، وجارت
بكم عن قصد الحجة. فيا لها فتنَةٌ عمياء، صمَاءٌ بَنَاءٌ، لا تسمع لنا عقها، ولا تَسْلُسُ لقائدها.
إن المصباح لا يُضيء في الشمس، والكواكب لا تُشير مع القمر، ولا يقطع الحديد
إلا الحديد. أَلَا مَنْ أَسْتَرَشِدْ أَرَشِدَانَهُ، وَمَنْ سَأَلْنَا أَخْبِرَانَهُ.

أيها الناس، إن الحق كان يطلب ضالته فأصابها! فصبراً يامعاشر المهاجرين والأنصار
على الغصص؛ فكان قد أندمل شَعْبُ الشنات، وألتأمت كلمة التقوى، ودمغ الحق باطله!
فلا يجهلن أحدٌ فيقول: كيف العدلُ وأنى! ليقضى الله أمراً كان مفعولاً. أَلَا وَإِنْ خِضَابِ
النساءِ الحنَاءِ، وخِضَابِ الرجالِ الدماء! ولهذا اليوم ما بعده، والصبر خيرٌ في عواقب
الأمر. إليها إلى الحرب قُدماً غير ناكصين ولا مُتَشَاكسين.

ثم قال لها: يازرقاء، لقد شَرِكْتِ علياً في كل دم سَفَكه؛ قالت: أحسن الله بشارتك،
وأدام سلامتك؛ فثلك من بشرٍ بخيرٍ وسرٍّ جليسه؛ قال: ويسرك ذلك؟ قالت: نعم سررتُ
بالخبر فأنى لي بتصدق الفعل! فضحك معاوية وقال: لَوْ فَأَوْكَمَ لَهُ بَعْدَ مَوْتِهِ أُعْجِبُ عِنْدِي
مَنْ حَبِمَ لَهُ فِي حَيَاتِهِ! أذكري حاجتك؛ قالت: يا أمير المؤمنين، أليتُ على نفسي ألا
أسأل أميراً أعنتُ عليه أبداً، ومثلك من أعطى من غير مسألة، وجاد من غير طلبه؛ قال:
صدقت، وأمر لها وللذين جاءوا معها بجوائزٍ وكُفٍّ.

٤ — عكرشة بنت الأطرش

ومن كلام عكرشة بنت الأطرش ما قالته يوم صَفَّين أيضاً:
يُروى أنها دخلت على معاوية متوكئة على عكازها، فسأمت عليه بالخلافة ثم جلست؛
فقال لها معاوية: الآن صرتُ عندك أمير المؤمنين؟ قالت: نعم إذ لا على حتى! قال:

ألسيت المتقلدة حائل السيف بصقنين وأنت واقفة بين الصقنين تقولين : أيها الناس ، عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا أهديتكم . إن الجنة لا يحزن من قطنها ، ولا يهرم من سكنها ، ولا يموت من دخلها ، فابتاعوها بدار لا يدوم نعيمها ، ولا تنصرم همومها . وكونوا قوماً مستبصرين في دينهم ، مستظهيرين على حقهم ؛ إن معاوية دلف إليكم بحجم العرب ، لا يفقهون الإيمان ، ولا يدرون ما الحكمة . دعاهم إلى الباطل فأجابوه ، واستدعاهم إلى الدنيا فلبوه . فإله الله عباد الله في دين الله ! وإياكم والتواكل فإن ذلك ينتقض عرى الإسلام ، ويطفى نور الحق . هذه بدر الصغرى ، والعقبة الأخرى . يامعشر المهاجرين والأنصار ، أمضوا على بصيرتكم ، وأصبروا على عزيمتكم ، فكأنى بكم غداً وقد أقيمت أهل الشام كالحجر الناهقة تقصع قصع البعير^(١) .

ثم قال : فكأنى أراك على عصاك هذه قد انكفأ عليك العسكران يقولون هذه عكرشة بنت الأطرش ، فإن كديت لتقلين أهل الشام لولا قدر الله ، وكان أمر الله قدراً مقدوراً ، فما حملك على ذلك ؟ قالت : يا أمير المؤمنين ، يقول الله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنَ أَشْيَاءَ إِن تَبَدَّلَ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ ﴾ الآية ، وإن اللبيب إذا كره أمراً لا يحب إعادته ؛ قال : صدقت ، فاذكري حاجتك ؛ قالت : كانت صدقاتنا تؤخذ من أغنيائنا فترد على فقرائنا ، وقد فقدنا ذلك ، فما يُخبر لنا كسير ، ولا يُنْعَش لنا فقير ؛ فإن كان عن رأيك فمثلك من أنتبه من الغفلة وراجع التوبة ، وإن كان عن غير رأيك فما مثلك من استعان بالحوثة ، ولا استعمل الظلمة ؛ قال معاوية : يا هذه ، إنه ينبؤنا من أمور رعيتنا نغور نتفتق ، وبحور نتدقق ؛ قالت : سبحان الله ! والله ما فرض الله لنا حقاً فجعل فيه ضرراً لغيرنا وهو علام الغيوب ؛ قال معاوية : هيات يا أهل العراق ، نهبكم على فلن تطاقوا . ثم أمر برد صدقاتهم فيهم وإنصافهم .

(١) يقال : قصع البعير بجزته بقصع قصعا : مضمها .

٦ - رسالة لعبد الحميد الكاتب^(١)

كتب عبد الحميد بن يحيى الكاتب عن مروان بن محمد لبعض من ولّاه^(٢) :

أما بعد ، فإن أمير المؤمنين - عند ما أعتزم عليه من توجيهك الى عدو الله الخلف الجلفي الأعرابي ، المتسكح في حيرة الجهالة ، وظلم الفتنه ، ومهاوى الهلكة ، ورعاعه الذين عاثوا في أرض الله فساداً ، وأنتهكوا حرمة الإسلام استخفافاً ، وبدلوا نعمة الله كفراً ، وأستحلوا دماء أهل سلمه جهلاً - أحب أن يعهد اليك في لطائف أمورك ، وعوام شؤوك ، ودخائل أحوالك ، ومضطرف ثقلك عهداً يحمك فيه أدبه ، ويشرع لك به

(١) هذه الرسالة مشوية عن صبح الأعشى ج ١٠ ص ١٩٥ (٢) هو عبد الحميد بن يحيى بن سعيد العامري ولاء ، الشامي داراً ، شيخ الكتاب الأوائل ، وأول من أطال الرسائل .

كان عبد الحميد من أهل الشام من موالى بنى عامر ، وتخرج في البلاغة والكتابة على خنته أبي العلاء سالم مولى هشام بن عبد الملك ، كاتب دولته وأحد بلغاء العالم والنقلة من اليونانية . وكان عبد الحميد في أول أمره معلم صبيان ينتقل في البلدان حتى فطن له مروان بن محمد أيام توليته أرمينية واندابه لتسكين فتنها ، فكتب له مدّة ولايته ، حتى إذا بلغه مبايعة أهل الشام له بانخلافه سجد مروان لله شكراً وسجد أصحابه إلا عبد الحميد ، فقال له مروان لم لا تسجد ؟ فقال : ولم أعبد ؟ أعل أن كنت معنا فطرت عنا ! قال : إذا تطير معي ؟ قال : الآن طاب لي السجود وسجد ، فاتخذ مروان كاتب دولته ، فصدرته من الرسائل ما صار نموذجاً يحاكيه من بعده من البلغاء .

ولما دهمت مروان جيوش خراسان أنصار الدعوة العباسية وتوالت عليه الهزائم كان عبد الحميد يلازمه في كل هذه الشدة ؛ فقال له مروان : قد احتجت أن تصير مع عدوى وتظهر الغدري ، فإن إجماعهم بأدبك ، وحاجتهم إلى كتابتك ، تحوجهم إلى حسن الظن بك ؛ فإن استطعت أن تنفعي في حياتي وإلا لم تعجز عن حفظ حرمي بعد وفاتي ؛ فقال له : إن الذي أشرت به على أرفع الأمرين لك وأقبحهما بي ، وما عندى إلا الصبر حتى يفتح الله عليك أو أقتل معك . وأشد :

أسرّ وفاء ثم أظهر غسدره * فنلى بعد يوسع الناس ظاهره

ويق معه حتى قتل مروان سنة ١٣٢ هـ ففروا ختياً عند صديقه ابن المقفع فمجاهه الطلب وهو في بيته ، فقال الدين دخلوا عليهما : أياك عبد الحميد ؟ فقال كل منهما : أنا ، خوفاً على صاحبه ، وخاف عبد الحميد أن يسرعوا إلى ابن المقفع فقال : ترفقوا بنا فإن كلا ما له علامات ، فركوا بنا بعضهم ويمص بعض آخر ويذكر تلك العلامات لمن وجهكم ففعلوا وأخذ عبد الحميد إلى السفاح فقتله سنة ١٣٢ هـ . انظر ترجمته في ابن خلكان (ج ١ ص ٤٣٦) . (٣) هو عبد الله بن مروان أرسله لقتال الضحاك بن قيس الشيباني الخارجي .

عِظَتَهُ ، وَإِنْ كُنْتَ بِحَمْدِ اللَّهِ مِنْ دِينِ اللَّهِ وَخِلَافَتِهِ بِحَيْثُ أَصْطَنَعَكَ اللَّهُ لَوْلَايَةِ الْعَهْدِ مَحْتَضِمًا
لِكَ بِذَلِكَ دُونَ لِحْمَتِكَ وَبَنِي أَبِيكَ . وَلَوْلَا مَا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ دَايِلًا عَلَيْهِ ، وَتَقَدَّمَتْ فِيهِ
الْحُكْمَاءُ أَمِيرِينَ بِهِ : مِنْ تَقْدِيمِ الْعِظَةِ ، وَالتَّذْكَيرِ لِأَهْلِ الْمَعْرِفَةِ ، وَإِنْ كَانُوا أَوْلَى سَابِقَةٍ
فِي الْفَضْلِ وَخِصْبِئِصَاءِ فِي الْعِلْمِ ، لِاعْتِمَادِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى أَصْطِنَاعِ اللَّهِ بِإِتِّبَاعِكَ وَتَقْضِيئِهِ لِكَ
بِمَارَاكَ أَهْلَهُ فِي مَحَلِّكَ مِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَسَبْقِكَ إِلَى رِغَابِ أَخْلَاقِهِ ، وَأَنْتَرَاكِكَ بِمَجُودِ شَيْئِهِ ،
وَأَسْتِيْلَاكِكَ عَلَى مَشَابِيهِ تَدْبِيرِهِ . وَلَوْ كَانَ الْمُؤَدِّبُونَ أَخَذُوا الْعِلْمَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ ، أَوْ لَقَنُوهُ
إِلْهَامًا مِنْ تِلْقَائِهِمْ وَلَمْ يُصَبِّهِمْ تَعَلَّمُوا شَيْئًا مِنْ غَيْرِهِمْ ، لَنَحَلْنَاهُمْ عِلْمَ الْغَيْبِ ، وَوَضَعْنَاهُمْ بِمَنْزِلَةِ
قَصْرِبِهَا عَنْهُمْ خَالِقُهُمُ الْمَسْتَأْثِرِ بِعِلْمِ الْغَيْبِ عَنْهُمْ بِوَحْدَانِيَّتِهِ فِي فِرْدَانِيَّتِهِ وَسَابِقِ لِأَهْوِيَّتِهِ ،
أَحْتِجَابًا مِنْهُمْ لَتَعَقُّبِ فِي حِكْمِهِ ، وَنُثْبِتِ فِي سُلْطَانِهِ وَتَنْفِيذِ إِرَادَتِهِ ، عَلَى سَابِقِ مَشِيئَتِهِ .
وَلَكِنْ الْعَالِمُ الْمَوْفِقُ لِلْخَيْرِ ، الْمَخْصُوصُ بِالْفَضْلِ ، الْمَحْبُوبُ بِمِزْيَةِ الْعِلْمِ وَصِفْوَتِهِ ، أَدْرَكَهُ مُعَانًا عَلَيْهِ
بِلُطْفِ بَحْتِهِ ، وَإِدْلَالِ كَنْفِهِ ، وَصِحَّةِ فَهْمِهِ ، وَهَجْرِ سَامِيَتِهِ .

وَقَدْ تَقَدَّمَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ إِلَيْكَ ، آخِذًا بِالْحُجَّةِ عَلَيْكَ ، مُؤَدِّيًا حَقَّ اللَّهِ الْوَاجِبَ عَلَيْهِ
فِي إِرْشَادِكَ وَقَضَاءِ حَقِّكَ ، وَمَا يَنْظُرُ بِهِ الْوَالِدُ الْمَعْنِيُّ الشَّفِيقُ لَوْلَدِهِ . وَأَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ يَرْجُو أَنْ
يَنْزُحَكَ اللَّهُ عَنْ كُلِّ قَبِيحٍ يَهْشُ لَهُ طَمَعٌ ، وَأَنْ يَعِصَمَكَ مِنْ كُلِّ مَكْرُوهٍ حَاقٍ بِأَحَدٍ ، وَأَنْ
يُحِصِّنَكَ مِنْ كُلِّ آفَةٍ أَسْتَوْلَتْ عَلَى أَمْرِيٍّ فِي دِينٍ أَوْ خُلُقٍ ، وَأَنْ يَبْلُغَهُ فَيْكَ أَحْسَنَ مَا لَمْ يَزَلْ
يَعُودُهُ وَيُرِيهِ مِنْ آثَارِ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْكَ ، سَامِيَةً بِكَ إِلَى ذِرْوَةِ الشَّرْفِ ، مَتَّبِعِيَّةً بِكَ بِسَطْرَةِ
الْكَرَمِ ، لِأَمْحَةِ بِكَ فِي أَزْهَرِ مَعَالِي الْأَدَبِ ، مُورِثَةً لِكَ أَنْفَسِ ذَخَائِرِ الْعِزِّ ، وَاللَّهُ يَسْتَخِيفُ
عَلَيْكَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَيَسْأَلُ حَيَاتِكَ ، وَأَنْ يَعِصَمَكَ مِنْ زَيْغِ الْهَوَى ، وَيُحْضِرَكَ دَاعِيَ
التَّوْفِيقِ ، مُعَانًا عَلَى الْإِرْشَادِ فِيهِ ، فَإِنَّهُ لَا يُعِينُ عَلَى الْخَيْرِ وَلَا يُوفِّقُ لَهُ إِلَّا هُوَ .

إِعْلَمِ أَنَّ الْحِكْمَةَ مَسَالِكُ تُفْضِي مَضَائِقُ أَوْائِلِهَا بِنِ امْتِهَانِ سَالِكِهَا ، وَرَكِبَ أخطَارَهَا
قَاصِدًا ، إِلَى سَعَةِ عَاقِبَتِهَا ، وَأَمِنْ سَرَّحِهَا ، وَشَرَفِ عِزِّهَا . وَأَمَّا لَا تُعَارِ بِسُخْفِ الْخَلْفَةِ ،
وَلَا تُنْشَأُ بِتَفْرِيطِ الْغَفْلَةِ ، وَلَا يُتَعَدَّى فِيهَا بِأَمْرِيٍّ حُدُّهُ . وَرَبْمَا أَظْهَرْتَ بِسَطْرَةِ النَّحْيِ

مستور العيب . وقد تلقنتك أخلاق الحكمة من كل جهة بفضلها ، من غير تعب البحث في طلبها ، ولا متطاويل لمناولة ذروتها ؛ بل تأملت منها أكرم نبعاتها ، وأستخلصت منها أعتق جواهرها ؛ ثم سموت الى لباب مصاصها ، وأحرزت منفس ذخاثرها ، فاقعد ما أحرزت ، ونافس فيما أصبت .

وأعلم أن احتواءك على ذلك وسبقك إليه بإخلاص تقوى الله في جميع أمورك مؤثراً لها ، وإضمار طاعته منطوياً عليها ، وإعظام ما أنعم الله به عليك شاكراً له ، مرتبطاً فيه للزيد بحسن الحياطة له والذّب عنه من أن تدخلك منه سامة ملال ، أو غفلة ضياع ، أو سنة تهاون ، أو جهالة معرفة ، فإن ذلك أحق ما يديء به ونظر فيه ، معتمداً عليه بالقوة والآلة والعلة والأفراد به من الأصحاب والحامة . فتمسك به لاجئاً إليه ، وأعتد عليه مؤثراً له ، وأنجى إلى كنفه متحيزاً إليه : فإنه أبلغ ما طلب به رضا الله وأنجحه مسألة ، وأجزله ثواباً ، وأعوده نفعاً ، وأعمه صلاحاً ؛ أرشدك الله لحظك ، وفهمك سداده ، وأخذ بقلبك إلى محموده . ثم أجعل الله في كل صباح ينعم عليك ببلوغه ، ويظهر منك السلامة في إشرافه ، من نفسك نصيباً يجعله له شكراً على إبلاجه إياك يومك ذلك بصحة جوارح وعافية بدن ، وسبوغ نيم ، وظهور كرامة ، وأن تقرأ فيه من كتاب الله — تبارك وتعالى — جزءاً تردد رأبك في آيه ، وترتل لفظك بقراءته ، وتحضره عقلك ناظراً في مُحكمه ، وتنتهجه مفكراً في مُشابهه : فإن في القراءة شفاء الصدور من أمراضها ، وجلاء وساوس الشيطان وصعاصيعه ، وضيء معالم النور ، تياناً لكل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون . ثم تعهد نفسك بمجاهدة هواك ، فإنه مغلاق الحسنات ، ومفتاح السيئات ، وخصم العقل .

وأعلم أن كل أهوائك لك عدو يحاول هلكتك ، ويعترض غفلتك ، لأنها خدع إبليس ، وخواتل مكره ، ومصايد ميكيدته ؛ فاحذرهما مجانبا لهما ، وتوقها محترسا منها ؛ وأستعد

(١) المصاص : خالص كل شيء .

(٢) كذا في صبح الأعمى وفي مفتاح الأفكار (ص ٢٨٢) وغيره « وتزين » . (٣) الصامع :

جمع صمع وهو طائر أشهب يصيد الجنادب ، شبه وسوسة الشيطان به . وفي بعض المؤلفات « وسفاسفه » .

بِالله عَزَّ وَجَلَّ مِنْ شَرِّهَا، وَجَاهِدْهَا إِذَا تَنَاصَرْتُ عَلَيْكَ بِعَزِيمٍ صَادِقٍ لَا وَبِيَّةَ فِيهِ، وَحَزِيمٍ نَافِذٍ لَا مَثْنَوِيَّةَ لِرَأْيِكَ بَعْدَ إِصْدَارِهِ، وَصِدْقٍ ظَالِمٍ لَا مَطْمَعٍ فِي تَكْنِيئِهِ؛ وَمَضَاءَةٍ صَارِمَةٍ لَا أَنَاةَ مَعَهَا، وَنَبِيَّةٍ صَحِيحَةٍ لَا خَلْجَةَ شَكٍّ فِيهَا: فَإِنَّ ذَلِكَ ظَهْرِي صِدْقِي لَكَ عَلَى رَدِّعِهَا عَنْكَ، وَقَعِيهَا دُونَ مَا تَنْطَلِعُ إِلَيْهِ مِنْكَ؛ فَهِيَ وَاقِيَةٌ لَكَ سُخْطَةَ رَبِّكَ، دَاعِيَةٌ إِلَيْكَ رِضَا الْعَامَةِ عِنْدَكَ، سَاتِرَةٌ عَلَيْكَ عَيْبٍ مِنْ دُونِكَ؛ فَازْدَنْ بِهَا مَتَحَلِّيًّا، وَأَصِبْ بِأَخْلَاقِكَ مَوَاضِعَهَا الْحَمِيدَةَ مِنْهَا، وَتَوَقَّ عَلَيْهَا الْآفَةَ الَّتِي تَقْتَطِعُكَ عَنْ بُلُوغِهَا، وَتَقْصُرُ بِكَ دُونَ شَأْوِهَا: فَإِنَّ الْمُؤُونَةَ إِنَّمَا أَشْتَدَّتْ مُسْتَضْعِبَةً، وَقَدَّحَتْ بَاهِظَةً أَهْلَ الْطَلْبِ لِأَخْلَاقِ أَهْلِ الْكِرَمِ الْمُسْتَحْلِينَ سَمُو الْقُدْرُ، بِجَهَالَةِ مَوَاضِعِ ذَمِيمِ الْأَخْلَاقِ وَمَجْمُودِهَا، حَتَّى فُزِطَ أَهْلُ التَّقْصِيرِ فِي بَعْضِ أُمُورِهِمْ، فَدَخَلَتْ عَلَيْهِمُ الْآفَاتُ مِنْ جِهَاتٍ أَمْنُوها، فَتَسَبَّوْا إِلَى التَّفْرِيطِ، وَرَضُوا بِذَلِكَ الْمَنْزِلِ، فَأَقَامُوا بِهِ جَاهِلِينَ بِمَوْضِعِ الْفَضْلِ، تَحْمِيهِنَ عَنْ دَرَجِ الشَّرْفِ، سَاقِطِينَ دُونَ مَنْزِلَةِ أَهْلِ الْحِجَا. فَخَاوِلْ بُلُوغَ غَايَاتِهَا مُحَرِّزًا لَهَا بِسَبْقِ الطَّلَبِ إِلَى إِصَابَةِ الْمَوْضِعِ، مُحَصِّنًا أَعْمَالَكَ مِنَ الْعُجْبِ: فَإِنَّهُ رَأْسُ الْهَوَى، وَأَوَّلُ الْغَوَايَةِ، وَمَقَادِمُ الْهَلَكَةِ؛ حَارِسًا أَخْلَاقَكَ مِنَ الْآفَاتِ الْمُتَّصِلَةِ بِمَسَاوِي الْأَقْبَابِ وَذَمِيمِ تَنَابُزِهَا، مِنْ حَيْثُ أَتَتْ الْغَفْلَةَ، وَأَنْتَشِرَ الضُّيَاعَ، وَدَخَلَ الْوَهْنَ. فَتَوَقَّ غُلُوبَ الْآفَاتِ عَلَى عَقْلِكَ، فَإِنَّ شَوَاهِدَ الْحَقِّ سَتُظْهِرُ بِأَمَارَاتِهَا تَصْدِيقَ آرَائِكَ عِنْدَ ذَوِي الْحِجَا حَالَ الرَّأْيِ وَفَحِصَ النَّظَرَ. فَاجْتَلِبْ لِنَفْسِكَ مَجْمُودَ الذِّكْرِ وَبَاقِي لِسَانِ الصِّدْقِ بِالْحَذَرِ لِمَا تَقَدَّمَ إِلَيْكَ فِيهِ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، مَتَحَرِّزًا مِنْ دُخُولِ الْآفَاتِ عَلَيْكَ مِنْ حَيْثُ أَمْنُكَ وَقِلَّةِ ثِقَتِكَ بِمُحْكَمِهَا: مِنْ ذَلِكَ أَنْ تَمْلِكَ أُمُورَكَ بِالْقَصْدِ، وَتَدَارِيَ جُنْدَكَ بِالْإِحْسَانِ، وَتَصُونَ سِرَّكَ بِالْكِتْمَانِ، وَتَدَاوِيَ حِقْدَكَ بِالْإِنصَافِ، وَتَدَلَّلَ نَفْسَكَ بِالْعَدْلِ، وَتَحْصِنَ عَيْبَكَ بِتَقْوِيمِ أَوْدِكَ، وَتَمْنَعَ عَقْلَكَ مِنْ دُخُولِ الْآفَاتِ عَلَيْهِ بِالْعُجْبِ الْمُرْدِيِّ. وَأَنَاكَ فَوْقَهَا الْمَلَالُ وَفُوتَ الْعَمَلِ، وَمَضَاءَتَكَ فَدَرَّعَهَا رِيَّةَ النَّظَرِ وَأَكْنَفَهَا بِأَنَاةِ الْحِلْمِ. وَخَلُوتَكَ فَاحْرُسْهَا مِنَ الْغَفْلَةِ وَأَعْتِمَادِ الرَّاحَةِ، وَصَمَّتَكَ

فأنف عنه عيِّ اللفظ ، وخف سوء القالة ؛ وأستماعك فأرضه حُسن التفهيم ، وقوه بإشهاد الفكر ؛ وعطاءك فأمهده لبيوتات الشرف وذوى الحسب ، وتحرز فيه من السرف وأستطالة البدخ وأمتنان الصنعة ؛ وحياءك فامنعه من المنجل وبلادة الحصر ؛ وحياتك فزرعه عن التهاون وأحضره قوة الشكيمة ؛ وعقوبتك فقصرها عن الإفراط ، وتعهد بها أهل الاستحقاق ؛ وعفوك فلا تُدخله تعطيل الحقوق ، وخذ به واجب المفترض ، وأقيم به أود الدين ، وأستئناسك فامنع منه البداء وسوء المناقاة ^(١) . وتمهيدك أمورك فخذ أوقانا ، وقدره ساعات لا تستفرغ قوتك ، ولا تستدعي سامتك ؛ وعز ماتك فأنف عنها عجلة الرأي ، ولحاجة الإقدام ؛ وفرحاتك فاشكها عن البطر ، وقيدها عن الزهو ؛ وروعاتك فخطها من دهش الرأي وأستسلام الخضوع ؛ وحدراتك فامنعها من الجبن ، وأعهد بها الحزم ؛ ورجاءك فقيده بخوف الفات ، وأمنعه من أمن الطلب .

هذه جوامعُ خلال ، دخالُ النقص منها واصلُ إلى العقل بلطائف أبنه ، وتصاريف ^(٢) حويله ، فأحكها عارفاً بها ، وتقدم في الحفظ لها ، معترماً على الأخذ بمراشدها والاتباء منها إلى حيث بلغت بك عظة أمير المؤمنين وأدبه إن شاء الله .

ثم لتكن يطانتك وجلساؤك في خلواتك ودخلاؤك في سرك ، أهل الفقه والورع من خاصة أهل بيتك ، وعامة قوادك ممن قد حنكته السن بتصاريف الأمور ، وخبطه فصالحها بين فراسن البزل منها ، وقلبتة الأمور في فنونها ، وركب أطوارها ، عارفاً بمحاسن الأمور ومواضع الرأي وعين المشورة ؛ مأمون النصيحة ، منطوي الضمير على الطاعة . ثم أحضرهم من نفسك وقاراً يستدعي لك منهم الهدية ، وأستئناساً يعطف إليك منهم المودة ، وإنصاتا يُقل إفاضتهم له عندك بما تكره أن يُنشر عنك من سخافة الرأي وضياح الحزم . ولا يقلبن عليك هواك فيصرفك عن الرأي ويقتطعك دون الفكر . وتعلم أنك وإن خلوت بسير

(١) يقال : نافت فلان فلانا بالكلام : آذاه . (٢) الحويل : الحذق والقدرة على التصرف .

(٣) الفراسن : واحدها فرسن وهو طرف خف البعير .

فَأَلْقَيْتَ دُونَهُ سُتُورَكَ، وَأَغْلَقْتَ عَلَيْهِ أَبْوَابَكَ، فَذَلِكَ لِأَحْصَاءِ مَكشُوفِ الْعَامَةِ، ظَاهِرٌ
عِنْدَكَ وَإِنْ أَسْتَرْتِ بِرَبِّمَا وَلَعَلَّ وَمَا أَرَى إِذَاعَةَ ذَلِكَ وَأَعْلَمُ، بِمَا يَرُونَ مِنْ حَالَاتٍ مِنْ
يَنْقَطِعُ بِهِ فِي تِلْكَ الْمَوَاطِنِ . فَتَقَدَّمَ فِي إِحْكَامِ ذَلِكَ مِنْ نَفْسِكَ، وَأَسَدُّ خَلِّهِ عِنْدَكَ : فَإِنَّهُ
لَيْسَ أَحَدٌ أَسْرَعُ إِلَيْهِ سِوَا الْقَائِلَةِ وَلَنْطُ الْعَامَةِ بِخَيْرٍ أَوْ شَرٍّ مِنْ كَانَ فِي مِثْلِ حَالِكَ وَمَكَانِكَ
الَّذِي أَصْبَحَتْ بِهِ مِنْ دِينِ اللَّهِ وَالْأَمَلِ الْمَرْجُوقِ الْمُنْتَظَرِ فَيْكَ . وَإِيَّاكَ أَنْ يَغِيْزَ فَيْكَ أَحَدٌ
مِنْ حَاقِنَتِكَ وَيَطَانَةَ خَدَمَتِكَ بِضَعْفَةٍ يَجِدُ بِهَا مَسَاغًا إِلَى النُّطْقِ عِنْدَكَ بِمَا لَا يَبْتَرِكُ عَيْبَهُ،
وَلَا تَخْلُو مِنْ لَأَمْتِهِ، وَلَا تَأْمَنُ سِوَا الْأَحْدُوثَةِ فِيهِ، وَلَا يَرْخُصُ سِوَا الْقَائِلَةِ بِهِ إِنْ نَجِمَ ظَاهِرًا
أَوْ عَنَّ بَادِيًا، وَلَنْ يَجْتَرِثُوا عَلَى تِلْكَ عِنْدَكَ إِلَّا أَنْ يَرَوْا مِنْكَ إِصْغَاءً إِلَيْهَا وَقَبُولًا لَهَا
وَتَرْخِيصًا لَهَا فِي الْإِنْفَاضَةِ بِهَا . ثُمَّ إِيَّاكَ وَأَنْ يُفَاضَ عِنْدَكَ بِشَيْءٍ مِنَ الْفُكَاكِهَاتِ وَالْحِكَايَاتِ
وَالْمِزَاجِ وَالْمُضَاحِكِ الَّتِي يَسْتَخْفِ بِهَا أَهْلُ الْبِطَالَةِ، وَيَتَسَرَّعَ نَحْوَهَا ذُورُ الْجَهَالَةِ؛ وَيَجِدُ فِيهَا
أَهْلُ الْحَسَدِ مَقَالًا لِعَيْبِ يَدْبِعُونَهُ، وَطَعْنًا فِي حَقِّ يَجْحَدُونَهُ؛ مَعَ مَا فِي ذَلِكَ مِنْ نَقْصِ الرَّأْيِ،
وَدَرَنِ الْعِرْضِ، وَهَدْمِ الشَّرْفِ، وَتَأْثِيلِ الْغَفْلَةِ، وَقُوَّةِ طِبَاجِ السُّوءِ الْكَامِنَةِ فِي بَنِي آدَمَ
كَكُونِ النَّارِ فِي الْحِجْرِ الصَّلْدِ، فَذَا قُدِحَ لَاحِ شَرُّهُ، وَتَلَهَّبَ وَمِيضُهُ، وَوَقَدَ تَضْرَمَهُ .
وَلَيْسَتْ فِي أَحَدٍ أَقْوَى سَطْوَةً، وَأَظْهَرَ تَوْقُدًا، وَأَعْلَى كُنُوزًا، وَأَسْرَعَ إِلَيْهِ بِالْعَيْبِ وَتَطَرُّقِ
الشَّيْءِ مِنْهَا لَمَنْ كَانَ فِي مِثْلِ سِنِّكَ : مِنْ أَغْفَالِ الرِّجَالِ وَذَوِي الْعُقُوفَانِ فِي الْحَدَاثَةِ الَّذِينَ
لَمْ يَقَعْ عَلَيْهِمْ سِمَاتُ الْأُمُورِ، نَاطِقًا عَلَيْهِمْ لِأَلْحُجَّهَا، ظَاهِرًا فِيهِمْ وَشَمُّهَا، وَلَمْ تَمَحَّضْهُمْ شَهَامَتَهَا،
مُظْهِرَةً لِلْعَامَةِ فَضْلَهُمْ، مُدْبِعَةً حَسَنَ الذِّكْرِ عَنْهُمْ؛ وَلَمْ يَبْلُغْ بِهِمُ الصَّبِيَّتِ فِي الْحُنُكَةِ مُسْتَمْبَعًا
يَدْفَعُونَ بِهِ عَنِ أَنْفُسِهِمْ نَوَاطِقَ أَلْسُنِ أَهْلِ الْبَغْيِ، وَمَوَادِّ أَبْصَارِ أَهْلِ الْحَسَدِ .

ثُمَّ تَعَهَّدَ مِنْ نَفْسِكَ لَطِيفَ عَيْبِ لَكثيرٍ مِنْ أَهْلِ السُّلْطَانِ وَالْقُدْرَةِ : مِنْ
إِبْطَارِ الذَّرْعِ وَنُخُوةِ الشَّرْفِ وَالتَّيِّهِ وَعَيْبِ الصَّلْفِ ؛ فَإِنَّهَا تُسْرِعُ بِهِمْ إِلَى فُسَادٍ وَتَهْجِينِ^(٢)

(١) الأغفال جمع غفل وهو الذي لم يجرب الأمور . (٢) يقال : أبطره ذرعه إذا حمه فوق

ما يطبق . وفي صحيح الأعمش (ج ١٠ ص ٢٠١) «أبطال الذرع» . وقد توقف فيها مصححه .

عقولهم في مواطن جمّة، وأنحاء مضطربة، منها قلة أقتدارهم على ضبط أنفسهم في مواكبتهم ومسايرتهم العامة: فمن مقليل شخصه بكثرة الالتفات عن يمينه وشماله، تزديده الخلقّة، ويبيطره لإجلاب الرجال حوله؛ ومن مقليل في موكبه على مداعبة مسأيره بالمفاكهة له والتضاحك إليه، والإيجاف في السير مرّحا، وتحريك الجوارح متسرّعا يخال أن ذلك أسرع له وأحسّ لمطينه. فلنحسن في ذلك هيئتك، ولنجمّل فيه دعّتك؛ وليقلّ على مسأيرك إقبالك إلا وأت مطرق النظر، غير ملتفت إلى محدث، ولا مقبل عليه بوجهك في موكبك لمحدثه، ولا موجب في السير مقليل لجوارحك بالتحريك والاستنهاض؛ فإن حسن مسأيرة الوالى وأتداعه في تلك الحالة دليل على كثير من غيوب أمره ومستتر أحواله.

وأعلم أن أقواما يتسرّعون إليك بالسّعاية، ويأتونك على وجه الصّبيحة، ويستميلونك بإظهار الشفقة، ويستدعونك بالإغراء والشبهة، ويوطئونك عشوة الخيرة: ليجملوك لهم ذريعة إلى استكمال العامة بموضعهم منك في القبول منهم والتصديق لهم على من قرّفوه بتهمة، أو أسرعوا بك في أمره إلى الظّنة؛ فلا يصلح^(١) إلى مشافهتك ساج بشبهة، ولا معروف بتهمة، ولا منسوب إلى بدعة فيعرضك لإيتاغ دينك، ويمجلك على رعيتك^(٢) بما لاحقيقة له عندك، ويُلحِمك أعراض قوم لا علم لك بدخلهم، إلا بما أقدم به عليهم ساعيا وأظهر لك منهم مُتّصحا. وليكن صاحب شُرطتك المتوتّي لإنهاء ذلك هو المنصوب لأولئك، والمستسمع لأقوايلهم، والفاحص عن نصائحهم؛ ثم لينه ذلك إليك على ما يُرفع إليه منه لتأمره بأمرك فيه، وتقفه على رأيك من غير أن يظهر ذلك للعامة: فإن كان صوابا نالتك خيرته، وإن كان خطأ أقدم به عليك جاهل، أو قرطّة سعى بها كاذب، فنالت الساعى منها أو المظلوم عقوبة^(٣)، أو بدر من واليك إليه عقوبة^(٤) ونكّال، لم يعصب ذلك الخطأ بك ولم تُنسب إلى تفريط، وخلوت من موضع الذمّ فيه مُحضرا إليه ذهنك وصواب رأيك.

(١) أوتق دينه بالإثم: أفسده. (٢) أجمه عرض فلان: أمكنه مه يشتمه. (٣) دخل الرجل (بالفتح والكسر): نيته ومذهبه. (٤) لم يعصب أى لم يلحق.

وتقدّم الى من تولى ذلك الأمر وتعتمد عليه فيه ألا يُقدّم على شيء ناظرًا فيه ، ولا يحاول أخذ أحد طارقًا له ، ولا يُعاقب أحدًا مُنكلاً به ، ولا يُخلّي سبيل أحد صاحبًا عنه لإصحار^(١) براءته وصحة طريقته ، حتى يرفع إليك أمره ، ويُنبئ إليك قضيتَه على جهة الصدق ، ومنحَى الحق ، ويقين الخبر ؛ فإن رأيت عليه سبيلًا لمحبس أو مجازًا لعقوبة ، أمرته بتولى ذلك من غير إدخاله عليك ، ولا مشافهة لك منه ؛ فكان المتولى لذلك ولم يجر على يديك مكروه رأى ولا غلظة عقوبة . وإن وجدت إلى العفو عنه سبيلًا ، أو كان مما قُرِف به خيلًا ، كنت أنت المتولى للإنعام عليه بتخلية سبيله ، والصفح عنه بإطلاق أسرِه ؛ فتوليت أجز ذلك وأستحققت دُخره ، وأنطقت لسانه بشركك ، وطوّقت قومه حمدك ، وأوجبت عليهم حَقك ؛ ففرت بين خصمتين ، وأحرزت حُظوتين : ثواب الله في الآخرة ، ومحمود الذكر في الدنيا .

ثم إياك أن يصل إليك أحد من جندك وجلسائك وخاصتك وبطانتك بمسألة يكشفها لك ، أو حاجة يَبْدهك بطلبها ، حتى يرفعها قبل ذلك إلى كاتبك الذي أهدفته لذلك ونصبتَه له ، فيعرضها عليك مُنبها لها على جهة الصدق عنها ، وتكون على معرفة من قدرها : فإن أردت إسعافه بها ونجاح ما سأل منها ، أذنت له في طلبها ، باسطًا له كنفك ، مُقبلاً عليه بوجهك ؛ مع ظهور سرورك بما سألك ، وفُسحة رأى وبسطة ذرع ، وطيب نفس . وإن كرهت قضاء حاجته ، وأحببت رده عن طلبته ؛ وثقل عليك إجابته إليها وإسعافه بها ، أمرت كاتبك فصفحه عنها ، ومنعه من مواجهتك بها ؛ خفت عليك في ذلك المؤونة ، وحسن لك الذكر ، ولم يُبشّر عنك تجمُّم الرد ، وبتلك سوء القالة في المنع ، وحمل على كاتبك في ذلك لائمة أنت منها برىء الساحة .

وكذلك فليكن رأيك وأمرك فيمن طرأ عليك من الوفود وأتاك من الرسل ، فلا يصلن إليك أحد منهم إلا بعد وصول عامه إليك ، وعلم ما قَدِم له عليك ، وجهة ما هو مكلمك

(١) أى لوضوح براءته ، ففي حديث عليّ : فأصحّر لعدوك ، أى كن من أمره على أمر واضح .

(٢) صفحه عنها ، رده عنها .

به ، وقَدِّرْ ما هو سَأَلُكَ إِيَّاهُ إِذَا هُوَ وَصَلَ إِلَيْكَ ، فَاصْدِرْتِ رَأْيَكَ فِي حَوَائِجِهِ ، وَأَجَلْتِ
فِكْرَكَ فِي أَمْرِهِ ، وَأَخْتَرْتِ مَعْتَرِمًا عَلَى إِرَادَتِكَ فِي جَوَابِهِ ، وَأَتَقَدَّتِ مَصْدُورَ رِوَيْتِكَ
فِي مَرَجُوعِ مَسْأَلَتِهِ قَبْلَ دُخُولِهِ عَلَيْكَ ، وَعَلِمَهُ بِوُصُولِ حَالِهِ إِلَيْكَ ؛ فَرَفَعْتَ عَنْكَ مَوْوَنَةَ
الْبُدْنِيَّةِ ، وَأَرَخَيْتِ عَنِ نَفْسِكَ خِنَاقَ الرُّوْيَةِ ، وَأَقْدَمْتِ عَلَى رَدِّ جَوَابِهِ بَعْدَ النِّظَرِ وَإِجَالَةِ
الْفِكْرِ فِيهِ . فَإِنْ دَخَلَ إِلَيْكَ أَحَدٌ مِنْهُمْ فَكَلِّمِ بِخِلَافِ مَا أَنْهَى إِلَى كَاتِبِكَ وَطَوَى عَنْهُ حَاجَتَهُ
قَبْلَكَ ، دَفَعْتَهُ عَنْكَ دَفْعًا جَمِيلًا ، وَمَنْعْتَهُ جَوَابَكَ مِنْهَا وَدَيْعًا ؛ ثُمَّ أَمَرْتِ حَاجِبَكَ بِإِظْهَارِ
الْخَفْوَةِ لَهُ وَالْعِظْمَةَ عَلَيْهِ ، وَمَنْعَهُ مِنَ الْوُصُولِ إِلَيْكَ ؛ فَإِنْ صَبَّطَكَ لَذَلِكَ مِمَّا يُحْكِمُ لَكَ تِلْكَ
الْأَسْبَابَ ، صَارَ قَدْ عَنكَ مَوْوَنَتَهَا ، وَمَسْهَلًا عَلَيْكَ مُسْتَضْعَبًا .

إِحْذَرِي تَضْيِيعَ رَأْيِكَ وَإِهْمَالَكَ أَدَبِكَ فِي مَسَالِكِ الرِّضَا وَالغَضَبِ وَأَعْتَوَارِهَا إِيَّاكَ ،
فَلَا يَزِدْهِنَّكَ إِفْرَاطٌ عَجْبٌ تَسْتَحِفُّكَ رَوَائِعُهُ ، وَيَسْتَهْوِيكَ مَنْظَرُهُ ، وَلَا يَبْدُرُكَ مِنْكَ ذَلِكَ
خَطَأً وَتَزَقُّ خِصْمَةً لِمَكْرُوهٍ إِنْ حَلَّ بِكَ ، أَوْ حَادِثٍ إِنْ طَرَأَ عَلَيْكَ . وَلِيَكُنْ لَكَ مِنْ نَفْسِكَ
ظَهْرِيٌّ مَلْجَأً تَحْتَوِزُهُ مِنْ آفَاتِ الرَّدَى ، وَتَسْتَعِضِدُهُ فِي مَهْمٍ نَازِلٍ ، وَتَتَعَقَّبُ بِهِ أُمُورَكَ
فِي التَّسْدِيرِ . فَإِنْ أَحْتَجَجْتِ إِلَى مَادَّةٍ مِنْ عَقْلِكَ ، وَرِوْيَةٍ مِنْ فِكْرِكَ ، أَوْ أَنْبَسَاطٍ مِنْ
مِنْطِقِكَ ؛ كَانَ أَنْحِيَاؤُكَ إِلَى ظَهْرِيِّكَ مُرْدَادًا مِمَّا أَحْبَبْتَ الْإِمْتِيَا حَ مِنْهُ وَالْأَمْتِيَا رَ ؛ وَإِنْ
أَسْتَنْدَرْتِ مِنْ أُمُورِكَ بُوَادِرُ جَهْلٍ أَوْ مَضَى زَلَلٍ أَوْ مَعَانِدَةٌ حَقِّ أَوْ خَطْلُ تَدْبِيرٍ ، كَانَ
مَا أَحْتَجَجْتِ إِلَيْهِ مِنْ رَأْيِكَ عَذْرًا لَكَ عِنْدَ نَفْسِكَ ، وَظَهْرِيًّا قَوِيًّا عَلَى رَدِّ مَا كَرِهْتَ ، وَتَخْفِيفًا
لِمَوْوَنَةِ الْبَاغِيْنَ عَلَيْكَ فِي الْقَالَةِ وَأَنْتِشَارِ الذِّكْرِ ؛ وَحِصْنًا مِنْ غُلُوبِ الْآفَاتِ عَلَيْكَ ، وَأَسْتِعْمَلَاثُهَا
عَلَى أَخْلَاقِكَ .

وَأَمْنُ أَهْلِ بَطَانَتِكَ وَخَاصَّةَ خَدَمِكَ مِنْ أَسْتِئْجَامِ أَعْرَاضِ النَّاسِ عِنْدَكَ بِالغَيْبَةِ ،
والتَّقَرُّبِ إِلَيْكَ بِالسَّعَايَةِ ، وَالْإِعْرَآءِ مِنْ بَعْضِ بَعْضٍ ؛ أَوْ النِّمِجَةِ إِلَيْكَ بِشَيْءٍ مِنْ أَوْحَاظِهِمْ

(١) فِي صَبْحِ الْأَعْمَى : « وَتَسْتَعِضِدُ فِي مَوْهَمِ النَّازِلِ » . وَفِي رِسَائِلِ الْبِلْغَاءِ : « وَتَسْتَعْمِدُهُ فِي مَهْمٍ نَازِلٍ » .

وَأَخْتَرْنَا مِنَ الْعِبَارَاتَيْنِ مَا يَنْسَبُ الْمَقَامِ . (٢) كَذَا فِي صَبْحِ الْأَعْمَى وَالْمِفْتَاحِ وَرِسَائِلِ الْبِلْغَاءِ ، وَلَعَلَّهُ

وَإِنْ ابْتَدَرْتَ ... الخ .

المستتر عنك ، أو التحميل لك على أحد منهم بوجه النصيحة ومذهب الشفقة : فإن ذلك أبلغ بك سموا الى منالة الشرف ، وأعونك لك على محمود الذكر ، وأطلق لعنان الفضل في جزالة الرأي وشرف الهمة وقوة التدبير .

وأملك نفسك عن الانبساط في الضحك والانهفاق ، وعن القطوب بإظهار الغضب وتخله : فإن ذلك ضعف عن ملك سورة الجهل ، وخروج من اتصال اسم الفضل . وليكن ضحكك تبسما أو كسرا في أحايين ذلك وأوقاته ، وعند كل رائع مستخف مطرب ؛ وقطوبك إطراقا في مواضع ذلك وأحواله ، بلا عجلة الى السطوة ، ولا إسراع الى الطيرة ، دون أن تكنفها روية اللحم ؛ وتملك عليها بإدرة الجهل .

إذا كنت في مجلس ملك ، وحيث حضور العامة مجلسك ، فإياك والرعي بنظرك الى خاص من قوادك ، أو ذى أثره عندك من حشمك . وليكن نظرك مقسوما في الجميع ، وإراعتك سمعك ذا الحديث بدعة هادئة ، ووقار حسن ، وحضور فهم مجتمع ، وقلة تضجر بالحدث . ثم لا يبرح وجهك الى بعض حرسك وقوادك متوجها بنظر ركين ، وتفقد محض . وإن وجه اليك أحد منهم نظره محققا ، أو رماك ببصره مليحا ، فأخفض عنه إطراقا جميلا . بالتداع وسكون . وإياك والتسرع في الإطراق ، والحققة في تصريف النظر ، والإلحاح على من قصد اليك في مخاطبته إياك رامقا بنظره .

واعلم أن تصفحك وجوه جلسائك وتفقدك مجالس قوادك من قوة التدبير ، وشهامة القلب ، وذكاء الفطنة ، وأتياه السنة . فتفقد ذلك عارفا بمن حصرك وغاب عنك ، عالما بمواضعهم من مجلسك ، ثم أعدبهم عن ذلك سائلا لهم عن أشغالهم التي منعتهم من حضور مجلسك ، وعاقبتهم بالتخلف عنك .

إن كان أحد من حشمك وأعاونك يتق منه بغيب ضمير ، وتعريف منه لين طاعة ، وأشرف منه على صحة رأى ، وتأمينه على مشورتك ، فإياك والإقبال عليه في كل حادث يريد عليك ، والتوجه نحوه بنظرك عند طوارق ذلك ، وأن تريبه أو أحدا من أهل مجلسك أن

بك حاجة إليه موحشة ، أو أن ليس بك عنه غنى في التدبير، أو أنك لاتقضي دونه رأيا ،
إشراكا منك له في رويتك ، وإدخالا منك له في مشورتك ، وأضطارا منك الى رأيه
في الأمر يعرّوك : فإن ذلك من دخائل العيوب التي ينتشرها سوء القالة عن نظرائك ، فانفها
عن نفسك خائفا لاعتلاقها ذكرك ، وأحجبها عن رويتك قاطعا لأطاع أوليائك عن مثلها
عندك ، أو غلو بهم عليها منك .

وأعلم أن للشورة موضع الخلوة وأفراد النظر ، ولكل أمر غاية تُحيط بمجوده ، وتجمع
معامله . فانفها محرزا لها ، ورؤمها طالب لنيلها ؛ وإياك والقصور عن غايتها أو العجز عن
دركها ، أو التفريط في طلبها . إن شاء الله تعالى .

إياك والإغرام عن حديث ما أعجبك ، أو أمر ما أزدهاك بكثرة السؤال ، أو القطع
لحديث من أراذك بمجديته حتى تنقضه عليه بالخوض في غيره أو المسألة عما ليس منه : فان
ذلك عند العامة منسوب الى سوء الفهم وقصر الأدب عن تناول محاسن الأمور والمعرفة
بمساويها ، ولكن أنصت لمحدثك وأرعه سمعك حتى يعلم أن قد فهمت حديثه ، وأحطت
معرفة بقوله ؛ فان أردت إجابته فعن معرفة بحاجته وبعد علم بطلبته ؛ وإلا كنت عند
أنفضاء كلامه كالمتعجب من حديثه بالتبسم والإغضاء ، فأجزى عنك الجواب ، وقطع عنك
ألسن العتب .

إياك وأن يظهر منك تبرم بطول مجلسك ، أو تضجر ممن حضرك ؛ وعليك بالثبوت
عند سورة الغضب ، وحمية الأنف ، وملاال الصبر : في الأمر تستعجل به والعمل تأمر
بإنفاذه ؛ فان ذلك يخف شائنا ، وخفة مُردية ، وجهالة بادية . وعليك بثبوت المنطق ،
ووقار المجلس ، وسكون الريح ، والرّيف لحشو الكلام ، والتّرك لفضوله والإغرام
بالزيادات في منطقتك ، والترديد للفظك : من نحو أسمع ، وأفهم عني ، ويا هناه ، وألا ترى ،
أو ما يُلهج به من هذه الفضول المقصرة بأهل العقل ، الشائنة لذوى الحجا في المنطق ،
المنسوبة إليهم بالعي ، المُردية لهم بالذكر . وخصال من معائب الملوك ، والسوقة عنها غيبة

النظر إلا من عرفها من أهل الأدب ، وقلماً حاملاً لها ، مضطلع بها ، صابراً على نقلها ، أخذ لنفسه بجوامعها ، فأثفها عن نفسك بالتحفظ منها ، وأملك عليها أعتيادك إياها معتنياً بها ، منها كثرة التنخم ، والتبصق ، والتنخع ، والثوباء ، والتمطى ، والجشأء ، وتحريك القدم ، وتقيض الأصابع ،^(١) والعبث بالوجه والحية أو الشارب أو الخصرة أو ذؤابة السيف ، أو الإيماض بالنظر ، أو الإشارة بالطرف إلى بعض خدامك بأمر إن أردته ، أو السرار في مجلسك ، أو الاستعجال في طعمك أو شربك . وليكن طعمك متدباً ، وشربك أنفاساً ، وجرعك مصاً . وإياك والتسرع إلى الأيمان فيما صغر أو كبر من الأمور ، والشتيمة بقول : ^(٢) يا بن الهنأه ، أو الغمزة لأحد من خاصتك بتسويغهم مقارفة الفسوق بحيث محضرك أو دارك وفنائك : فان ذلك كله مما يقبح ذكره ، ويسوء موقع القول فيه ، وتعمل عليك معابسه ، وينالك شينه ، وينتشر عليك سوء النبا به . فاعرف ذلك متوقياً له ، وأحذره مجانبا لسوء عاقبته .

أستكثر من فوائد الخير : فانها تنشر المحمده ، وتقبل العثرة ، وأصبر على كظم النيط : فانه يورث الراحة ، ويؤمن الساحة ، وتعهد العامة بمعرفة دخلهم ، وتبطن أحوالهم ، وأستثارة دفاتنهم ؛ حتى تكون منها على رأي عين ، ويقين خبرة ؛ فتعش عديهم ، وتجبر كسيرهم ؛ وتقيم أودهم ، وتعلم جاهلهم ، وتستصلح فاسدهم : فان ذلك من فملك بهم يورثك العزة ، ويقدمك في الفضل ؛ ويبقى لك لسان الصدق في العاقبة ، ويجرز لك ثواب الآخرة ، ويرد عليك عواطفهم المستنفرة منك ، وقلوبهم المنحوية عنك .

قس بين منازل أهل الفضل في الدين والحق والرأى والعقل والتدبير والصيت في العامة ، وبين منازل أهل النقص في طبقات الفضل وأحواله ، والخلول عند مباحاة النسب ؛ وأنظر بصحبة أيهم تنال من مودته الجميل ، وتستجمع لك أقاويل العامة على التفضيل ؛ وتبلغ درجة الشرف في أحوالك المتصرفه بك . فاعتمد عليهم مذخلاً لهم في أمرك ، وأثرهم بحالستك لهم مستمعاً منهم ؛ وإياك وتضييعهم مفترطاً ، وإهمالهم مضيعاً .

(١) يقال : أنقض أصابعه : صوت بها وليس في كتب اللغة نقض بالتصنيف . (٢) الغمزة : المطنن .

هذه جوامع خصال قد نلخصها لك أمير المؤمنين مفسراً ، وجمع لك شواذها مؤلفاً ،
وأهداها إليك مرشداً ، قيف عند أوامرها ، وتناه عن زواجرها ، وتثبت في مجامعها ،
وخذ بوثائق عراها ، تسلم من معاطب الردى ، وتنل أنفاس الحظوظ ورغيب الشرف ،
وأعلى درج الذكرا ، وتأمل سطر العز . والله يسأل لك أمير المؤمنين حسن الإرشاد ،
وتسابع المزيد ، وبلوغ الأمل ، وأن يجعل عاقبة ذلك بك الى غبطة يسوغك إياها ، وعافية
يُحكك أكتافها ، ونعمة يلهمك شكرها : فإنه الموفق للخير ، والمعين على الإرشاد ، منه تمام
الصالحات ، وهو مؤتي الحسنات ، عنده مفاتيح الخير ، ويبيده الملك وهو على كل شيء
قدير .

فاذا أفضيت نحو عدوك ، واعتزمت على لقائهم ، وأخذت أهبة قتالهم ، فاجعل دعامتك
التي تلجأ إليها ، ويقتك التي تأمل النجاة بها ، ورؤك الذي تريجي مائة الظفر به وتكتف به
لمعالي الخدر ، تقوى الله مستشعراً لها بمراقبته ، والاعتصام بطاعته متبعاً لأمره ، محتجباً
لسخطه ، محتدياً سنته ، والتوقى لمعاصيه في تعطيل حدوده ، أو تعدى شرائعه ، متوكلاً عليه
فما صمدت له ، واثقاً بنصره فيما توجهت نحوه ، متبرئاً من الحول والقوة فيما نالك من ظفر
وتفالك من عز ، راغباً فيما أهاب بك أمير المؤمنين إليه من فضل الجهاد ، ورعى بك اليه
محمود الصبر فيه عند الله من قتال عدو المسلمين ، أكلبهم عليه وأظهره عداوة لهم ، وأفدحه
ثقلًا لعائتهم ، وأخذه بريقهم ، وأعلاه عليهم بنيا ، وأظهره عليهم فسقا وبخورا ، وأشدّه
على قيمهم الذي أصاره الله لهم وفتحهم مؤونةً وكلاً . والله المستعان عليهم ، والمستنصر
على جماعتهم ، عليه يتوكل أمير المؤمنين ، وإياه يستصرخ عليهم ، وإليه يفوض أمره ، وكفى
بالله ولياً وناصراً ومعيناً ، وهو القوى العزيز .

ثم خذ من معك من تباعك وجندك بكف معرفتهم ، ورد مشتعل جهلهم ، وإحكام
ضباغ عملهم ، وضم منشتر قواصيمهم ، ولم شعث أطرافهم ، وتقييدهم عن مروا به من

(١) تأمل : ثبت . (٢) اكتف الكهف : دخله . (٣) أهاب بك : دلك .

(٤) من قولهم كلب الدهر على أهله اذا اشتد وألح . (٥) الكل : النقل .

أهل ذِمَّتِكَ ومَلَّتِكَ بِحُسْنِ السَّيْرِ، وَعِفَافِ الطَّعْمَةِ، وَدَعَةِ الْوَقَارِ، وَهَدْيِ الدُّعَاةِ، وَجَمَامِ
المستحجِمِ، محكما ذلك منهم ، متفقدا لهم تفقدك إياه من نفسك . ثم آخِمْ لعدوك المتسمى
بالإسلام ، انخرج من جماعة أهله ، المتحلل ولاية الدين مستحلا لدماء أوليائه ، طاعنا
عليهم ، راغبا عن سؤتهم ، مفارقا لشرائعهم ، يتغيهم الغوائل ، وينصب لهم المكاييد ؛ أضرَم
حِقْدًا عليهم ، وأرصد عداوة لهم ، وأطلب لغزوات فُرَصهم من التُّرك وأُم الشُّرك وطواغى
المِلل ؛ يدعو الى المعصية والفرقة ، والمُرُوق من دين الله الى الفِتنة ، مخترطها بهواه للأديان
المنتحلة والبدع المتفرقة خَسارا وتخسيرا ، وضلالا وتضليلا ، بغير هدى من الله ولا بيان .
ساء ما كسبت له يداه وما الله بظلام للعبيد ، وساء ما سؤلت له نفسهُ الأمانة بالسوء ،
والله من ورائه بالمرصاد : ﴿ وَسِعَلِمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ .

حَصَّنْ جَنَدَكَ ، وَأَشْكَمْ نَفْسَكَ بِطَاعَةِ اللَّهِ فِي مَجَاهِدَةِ أَعْدَائِهِ ، وَأَرْجُ نُصْرَهُ ، وَتَجَبَّزْ
مُوعُودَهُ ، مُتَقَدِّمًا فِي طَلَبِ ثَوَابِهِ عَلَى جِهَادِهِمْ ، مُعْتَرِمًا فِي آبْتِغَاءِ الْوَسِيلَةِ إِلَيْهِ عَلَى لِقَائِهِمْ :
فَإِنْ طَاعَتِكَ إِيَّاهُ فِيهِمْ ، وَمَرَّاقَبَتِكَ لَهُ وَرَجَاءَكَ نُصْرَهُ مَسْهَلٌ لَكَ وَعُورَةٌ ، وَعَاصِمٌكَ مِنْ كُلِّ
سُبَّةٍ ، وَمُنْجِيكَ مِنْ كُلِّ هُوَّةٍ ، وَنَاعِشُكَ مِنْ كُلِّ صَرَعَةٍ ، وَمُقْبِلُكَ مِنْ كُلِّ كَبُوءَةٍ ، وَدَارِيٌّ
عَنكَ كُلِّ شِبْهَةٍ ، وَمُدْهِبُ عَنكَ لَطْخَةَ كُلِّ شَكٍّ ، وَمُقْوِيكَ بِكُلِّ أَيْدٍ وَمَكِيدَةٍ ، وَمُعَزِّكَ
فِي كُلِّ مُعْتَرِكٍ قِتَالٍ ، وَمَوْيِدُكَ فِي كُلِّ تَجْمَعٍ لِقَاءٍ ، وَكَالِئُكَ عِنْدَ كُلِّ فِتْنَةٍ مُغْشِيَةٍ ، وَحَائِطُكَ
مِنْ كُلِّ شِبْهَةٍ مُرْدِيَةٍ ؛ وَاللَّهُ وَلِيُّكَ وَوَلِيُّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فِيكَ ، وَالْمُسْتَخْلَفُ عَلَى جَنَدِكَ
وَمِنْ مَعَكَ .

إِعلمُ أَنَّ الظَّفَرَ ظَفْرَانِ : أَحَدُهُمَا — وَهُوَ أَعَمُّ مَنفَعَةٌ ، وَأَبْلَغُ فِي حَسَنِ الذِّكْرِ قَالَةٌ ، وَأَحْوَطُهُ
سَلَامَةٌ ، وَأَمُّهُ عَافِيَةٌ ، وَأَحْسَنُهُ فِي الْأُمُورِ وَأَعْلَاهُ فِي الْفَضْلِ شَرَفًا ، وَأَحْسَنُهُ فِي الرَّوِيَةِ حَرَمًا ،
وَأَسْلَمُهُ عِنْدَ الْعَامَةِ مَصْدَرًا — مَا نِيلَ بِسَلَامَةِ الْجَنُودِ ، وَحُسْنِ الْحَيَاةِ ، وَلُطْفِ الْمَكِيدَةِ ،
وَمِنْ النَّقِيْبَةِ ، وَأَسْتَنْزَالَ طَاعَةَ ذَوِي الصُّدُوفِ بِغَيْرِ إِخْطَارِ الْجِيُوشِ فِي وَقْدَةِ جَمْرَةِ الْحَرْبِ ،

(١) الأيد : القوة . (٢) أى بدلهمة سوداء ، من قرلهم : أعتى الليل إذا أظلم .

ومبارزة الفرسان في معترك الموت؛ وإن ساعدتك طُلُوقُ الظَّفَرِ، وتالك مزبذ السعادة في الشرف، ففي مخاطرة التلّف مكره المصائب، وعِضاضُ السيوف وألم الحِراح، وقِصاص الحروب ويجهالها بمُغاورَة^(١) أبطالها . على أنك لا تدري لأيّ يكون الظفر في البديهة ، ومن المغلوب بالدولة ، ولعلك أن تكون المطلوب بالتمحيص . فحاول إصابة أبلغهما في سلامة جندك ورعيّتك ، وأشهرهما صبيتا في بدوّ تدبيرك ورأيك ، وأجمعهما لألفة وليك وعدوك ، وأعونهما على صلاح رعيّتك وأهل مملكك ، وأقواهما شكيمّة في حزنك ، وأبعدهما من وضمّ عزمك ، وأعلقهما بزمام النجاة في آخرتك ، وأجزلها ثوبا عند ربك .

وأبدأ بالإعذار إلى عدوك ؛ والدعاء لهم إلى مراجعة الطاعة وأمر الجماعة وعِزّ الألفة ، أخذًا بالحقّ عليهم ، متقدّمًا بالإندار لهم ، باسطًا أمانك لمن جلا إليك منهم ، داعيًا لهم اليه بالبين لفظك وألطف حيلك ، متعطفًا برأفتك عليهم ، مترقّفا بهم في ذنائبك ، مشفقًا عليهم من غلبة الغواية لهم وإحاطة الهلكة بهم ، منقادًا رسلك إليهم بعد الإندار : تَعُدُّهم إعطاء كلّ رغبة يهشّ إليها طمّعهم في موافقة الحقّ ، وبسّط كلّ أمان سألوه لأنفسهم ومنّ معهم ومن تبعهم ؛ موطنًا نفسك فيما تبسّط لهم من ذلك على الوفاء بهدك ، والصبر على ما أعطيتهم من وثائق عقدك ؛ قابلاً توبه نازعهم عن الضلالة ، ومراجعة مسيئتهم إلى الطاعة ؛ مُرصدًا لذنحاز إلى فئة المسلمين وجماعتهم لإجابة إلى مادعوته إليه وبصرته إياه من حقك وطاعتك ، بفضل المنزلة ، وإكرام المثوى ، وتشريف الجاه . وليظهر من أترك عليه وإحسانك إليه ما يرغب في مثله الصادف عنك ، المُصرّ على خلافك ومعصيتك ؛^(٢) ويدعو إلى اعتلاق حبل النجاة وما هو أملك به في الاعتصام عاجلا ، وأنجي له من العقاب آجلا ، وأحوطه على دينه ومهجته بدءًا وعاقبة ؛ فإن ذلك مما يستدعى به من الله نصره عليهم ، ويعتضد به في تقديمه الحجّة إليهم ، مُعذرا أو مُندرا ، إن شاء الله .

(١) المغاوره : المقاتلة . (٢) كذا في صبح الأعشى و يظهر أن السياق يقتضى معمولا لهذا الفعل

أما ضميرا أو اسما ظاهرا .

ثم أذكِ عيونك على عدوك متطلعا لعلم أحوالهم التي يتقلبون فيها، ومنازِلهم التي هم بها، ومطامِعهم التي قد مدُّوا أعناقهم نحوها، وأى الأمور أَدعى لهم إلى الصلح، وأقوِّدها لرضاهم إلى العافية، وأسهلها لِاستِئْزال طاعتهم، ومن أى الوجوه مأتاهم: أَمِنْ قِبَل الشَّدَّةِ والمُنْافَرَةِ والمِكِيدَةِ والمُبَاعَدَةِ والإرْهَابِ والإيْعَادِ، أَمْ التَّرْغِيبِ والإِطْلَاعِ؛ مُتَثَبِّتًا فِي أَمْرِكَ، مُتَخَيِّرًا فِي رِوَيْتِكَ، مُسْتَمِيكًا مِنْ رَأْيِكَ، مُسْتَشِيرًا لِذَوِي النُّصِيحَةِ الَّذِينَ قَدْ حَنَكْتَهُم السَّنَّ، وَخَبَطْتَهُم التَّجْرِبَةَ، وَنَجَذْتَهُم الْحُرُوبَ؛ مُدْتَشِرِنًا فِي حَرْبِكَ، آخِذًا بِالْحَزْمِ فِي سُوءِ الظَّنِّ، مُعَدًّا لِلْحَذَرِ، مُحْتَرِسًا مِنَ الْغَرَةِ؛ كَأَنَّكَ فِي مَسِيرِكَ كُلَّهُ وَنَزْوِلِكَ أَجْمَعَ مُوَاقِفٌ لِعَدُوِّكَ رَأَى عَيْنٍ تَنْتَظِرُ سَمَلَاتِهِمْ، وَتَخْوَفُ كَرَاتِهِمْ، مُعَدًّا أَقْوَى مَكَائِدِكَ، وَأَرْهَبَ عِتَادِكَ، وَأَنْكَأَ جِدِّكَ، وَأَجْدَّ تَشْمِيرِكَ؛ مَعْظَمًا أَمْرَ عَدُوِّكَ لِأَعْظَمَ مِمَّا بَلَغَكَ، حَذَرًا يَكَادُ يَفْرِطُ: لِنُعْدَلَهُ مِنَ الْإِحْتِرَاسِ عَظِيمًا، وَمِنَ الْمِكِيدَةِ قَوِيًّا؛ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَفْتَأَكَ ^(٢) ذَلِكَ عَنْ إِحْكَامِ أُمُورِكَ، وَتَدْبِيرِ رَأْيِكَ، وَإِصْدَارِ رِوَيْتِكَ، وَالتَّأَهُبِ لِمَا يَحْزُبُكَ؛ مَصْفَرًا لَهُ بَعْدَ اسْتِشْعَارِ الْحَذَرِ، وَأَضْطِرَّارِ الْحَزْمِ، وَإِعْمَالِ التَّوْبَةِ، وَإِعْدَادِ الْأَهْبَةِ. فَإِنَّ أَلْفَيْتَ عَدُوِّكَ كَالِئِلِّ الْحَدِّ، وَقَمَّ الْحَزْمُ ^(٣) وَنَضِيضُ الْوَفْرِ ^(٤)، لَمْ يَضْرُكَ مَا اعْتَدَدْتَ لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَأَخَذْتَ لَهُ مِنْ حَزْمٍ، وَلَمْ يَزِدْكَ ذَلِكَ إِلَّا جُرْأَةً عَلَيْهِ، وَتَسْرَعًا إِلَى لِقَائِهِ. وَإِنْ أَلْفَيْتَهُ مُتَوَقِّدَ الْحَرْبِ، مُسْتَكْنِفَ الْجَمْعِ، قَوِيَّ التَّبَعِ، مُسْتَعْلِي سَوْرَةَ الْجَهْلِ، مَعَهُ مِنْ أَعْوَانِ الْفِتْنَةِ وَتَبَعَ إِبْلِيسَ مِنْ يُوقِدُ لَهَبَ الْفِتْنَةِ مُسْعَرًا، وَيَتَقَدَّمُ إِلَى لِقَاءِ أَبْطَالِهَا مُتَسْرِعًا، كُنْتَ لِأَخْذِكَ بِالْحَزْمِ، وَأَسْتِعْدَادِكَ بِالْقُوَّةِ، غَيْرَ مَهِينِ الْجَنْدِ، وَلَا مَفْرَطٍ فِي الرَّأْيِ، وَلَا مُتْلَهِّفٍ عَلَى إِضَاعَةِ تَدْبِيرٍ، وَلَا مُحْتَاجٍ إِلَى الْإِعْدَادِ وَعَجَلَةَ التَّأَهُبِ مَبَادِرَةً تَدْهَشُكَ، وَخَوْفًا يُقْلِقُكَ. وَمَتَى تَعَتَّرَ بِتَرْبِيقِ الْمُرَقِّقِينَ، وَتَأَخَذَ بِالهُوْنِيَا فِي أَمْرِ عَدُوِّكَ لِتَصْغِيرِ الْمَصْغَرِينَ، يَنْتَشِرْ عَلَيْكَ رَأْيُكَ، وَيَكُونُ فِيهِ آتِنَاظُ أَمْرِكَ وَوَهْنُ تَدْبِيرِكَ، وَإِهْمَالُ الْحَزْمِ فِي جَنْدِكَ،

(١) تشزن للأمر: استعد له.

(٢) يفتأك (بالفاء والياء المثلثة) أى يكسرك ويؤنرك.

(٣) كذا فى صيغ الأعرشى . ولعلها

مقوم الحزم أى مقهورة أو لعلها محرفة عن كلمة أخرى بمعنى الضعف أو القلة .

(٤) نضيض: قليل .

وتضييع له وهو مُمَكِّن الإصحار، رَحْب المَطْلَب، قَوِي العِصْمَة ، فسيحُ المَضْطَرَب ؛ مع ما يَدْخُل رَعِيَّتِكَ من الأَغْتِرَار والغفلة عن إْحْكَام أَحْرَاسِهِمْ ، وضبط مراكَزِهِمْ ، لما يروُن فِيهِ من آسْتِنَامَتِكَ الى العِزَّة ، ورتُّونِكَ الى الأَمْن ، وتهاوُنِكَ بالتدبير ؛ فيعود ذلك عليك في آنتشار الأطراف ، وضياع الأحكام ، ودخول الوهن بما لا يُسْتَقَال محذوره ، ولا يُدْفَع مُحْوَفُهُ .

احفظ من عيونك وجواسيسك ما يأتونك به من أخبار عدوك . وإيّاك ومعاقبة أحدٍ منهم على خَبَرٍ إن أتاك به أهمته فيه أو سُؤْت به ظنًّا وأتاك غيره بخلافه، أو أن تكذِّبه فيه فترده عليه ، ولعله أن يكون قد محَضَكَ النصيحة وصدَّقك الخبر وكذَّبَكَ الأَوَّل ، أو نرج جاسوسك الأول متقدِّمًا قبل وصول هذا من عند عدوك، وقد أبرموا لك أمرًا، وحاولوا لك مكيده وأرادوا منك غرّة فاذدلفوا إليك في الأهبة ، ثم أنتقض بهم رأيهم وأختلف عنه جماعتهم ، فأرادوا رأياً، وأحدثوا مكيده، وأظهروا قوّة ، وضربوا موعداً ، وأموا مَسْلَكاً لمددِ أنامهم ، أو قوّة حدثت لهم ، أو بصيرة في ضلالةٍ شغلتهم ؛ فالأحوال بهم متنقلة في الساعات ، وطوارق الحادثات . ولكن ألبسهم جميعا على الانتصاح ، وأرضخ لهم بالمطامع ، فإنك لن تستعبدهم بمثلها . وعدهم جزالة المئاب ، في غير ما آسْتِنَامِيَّة منكَ الى تزييقهم أمرَ عدوك ، والاعتذار إلى ما يأتونك به دون أن تُعْمَل رويّتكَ في الأخذ بالحزم ، والاستكثار من العُدّة . وأجعلهم أوثق من تقدر عليه ، وآمن من تسكن إلى ناحيته ، ليكون ما يبرم عدوك في كل يوم ليلة عندك إن آستطعت ذلك ، فتتقض عليهم برأيك وتديرك ما أبرموا ، وتأتيهم من حيث أمّنوا ، وتأخذ لهم أهبة ما عليه أقدموا ، وتستعد لهم بمثل ما حذروا .

وأعلم أن جواسيسك وعيونك ربما صدقوك وربما غشوك ، وربما كانوا لك وعليك : فنصحوا لك وغشوا عدوك ، وغشوك ونصحوا عدوك ؛ وكثيرا ما يصدقونك ويصدقونه . فلا تبهترن ذلك فرطة عقوبة إلى أحد منهم ، ولا تعجل بسوء الظن إلى من آتهمته على

ذلك؛ وأستنزِل نصائحهم بالمياحة والمثالة^(١)، وأبسَط من آمالمك فيك من غير أن يرى أحدٌ منهم أنك أخذت من قوله أخذَ العامل به والمتبجح له، أو عملت على رأيه عملَ الصادر عنه، أو ردَدته عليه ردَّ المكذَّب به، المتم له، المستخفِّ بما أتاك منه، فنفسدَ بذلك نصيحته، وتستدعي غشسه، وتجتزَّ عداوته. وأحذر أن يُعرفوا في عسكريك أو يُشار إليهم بالأصابع. وليكن منزهم على كاتب رسائلك وأمين سرك، ويكون هو الوجه لهم، والمُدخل عليك من أردت مشافهته منهم.

وأعلم أن لعدوك في عسكريك عيوناً راصدة، وجواسيس متجسِّسة^(٢)، وأنه لن يقع رأيه^(٣) عن ميكيدتك بمثل ما تُكايده به، وسيحتال لك كاحتيالك له، ويُعدُّ لك كعادتك فيما تُراوله منه، ويُحاوِلُك كحاوِلتِك إياه فيما تقارعه عنه؛ فأحذر أن يُشهر رجلٌ من جواسيسك في عسكريك فيبلغ ذلك عدوك ويعرف موضعه، فيُعدُّ له المرصد، ويحتال له بالمكايِد. فإن ظفِر به فأظهر عقوبته، كسر ذلك ثقات عيونك، وخذلم عن تطلُّب الأخبار من معادنها، وأستقصائها من عيونها، وأستعذاب أجتنائها من يتابعها، حتى يصيروا إلى أخذها مما عرَّض من غير الثقة ولا المعايينة، لقطاً لها بالأخبار الكاذبة، والأحاديث المُرْجفة. وأحذر أن يعرف بعض عيونك بعضاً: فإنك لا تأمن تواطؤهم عليك، ومُملاتهم عدوك، واجتماعهم على غشك، وتطابُقهم على كذبك، وإصفاقهم^(٤) على خيانتك، وأن يورط بعضهم بعضاً عند عدوك. فأحكِم أمرهم فإنهم رأس ميكيدتك، وقوامُ تديريك، وعليهم مدار حربك، وهو أول ظفرك. فاعمل على حسَب ذلك وحيث رجاؤك به، تتلَّ أملك من عدوك، وقوتك على قتاله، واحتيالك لإصابة غرَّاته وأتهازِ فرصه، إن شاء الله.

فإذا أحكمت ذلك وتقدَّمت في إتقانه، وأستظهرت بالله وعونه، فولَّ شُرطتك وأمرَ عسكريك أوثق قوادك عندك، وأظهرهم نصيحةً لك، وأنفذهم بصيرةً في طاعتك، وأفواهم

(١) المياحة : الإغواء .

(٢) في مفتاح الأفكار ورسائل البلاغ : « كامنة » . (٣) في رسائل البلاغ : « وأن رأيه

في ميكيدتك مثل ما تكايده به » . (٤) إصفاقهم : اجتماعهم .

شكيمة في أمرك، وأمضاهم صريمة، وأصدقهم عفافا، وأجزأهم غنأء، وأكفاهم أمانه، وأصحهم ضميرا، وأرضاهم في العامة ديناً، وأحمدهم عند الجماعة خلقاً، وأعطفهم على كافيتهم رافة، وأحسنهم لهم نظراً، وأشدّهم في دين الله وحقه صلابه. ثم فوّض إليهم مقويأ له، وأبسط من أملة مظهرها عنه الرضا، حامداً منه الأبتلاء. وليكن عالماً بمرآة الجنود، بصيرا بتقدم المنازل، مجرباً، ذا رأى وحزم في المكيده؛ له نباهة في الذكر، وصيت في الولاية؛ معروف البيت، مشهور الحسب. وتقدم إليه في ضبط معسكره، وإذكاء أحراره في آناء ليله ونهاره؛ ثم حدّره أن يكون منه إذن لجنوده في الانتشار والأضطراب، والتقدم لطلائعك، فتصأب لهم غزاة يجترئ بها عدوك عليك، ويسرع إقداما إليك، ويكسر من إياد جنديك ويوهن من قوتهم: فإن الصوت في إصابة عدوك الرجل الواحد من جنديك أو عبيدهم مطمع لهم فيك، فهو لهم على شخذه أتباعهم عليك وتصغيرهم أمرك، وتوحيههم تدييرك. فحدّره ذلك وتقدم إليه فيه؛ ولا يكون منه إفراط في التضيق عليهم، والخصر لهم، فيعمهم أزله، ويشملهم ضنك؛ وتسوء عليهم حاله، وتشد به المؤونة عليهم، وتجنّب له ظنونهم. وليكن موضع إنزاله إياهم ضاماً لجماعتهم، مستديراً بهم جامعاً لهم؛ ولا يكون منبسطة منتشرا متبداً، فيشق ذلك على أصحاب الأحرار، وتكون فيه التهرة للعدو، والبعد من المسادة إن طرقت طارق في فجأة الليل وبغناته. وأوعز إليه في أحراره، وتقدم إليه فيهم كأشدّ التقدم وأبلغ الإيعاز. وممره فليول عليهم رجلاً ركبنا مجرباً جريء الإقدام، ذا كي الصرامة، جلد الجوارح، بصيراً بمواضع أحراره، غير مصانع ولا مشفع للناس في التنحى إلى الرفاهية والسعة، وتقدم العسكر والتأخر عنه، فإن ذلك مما يضعف الوالى ويوهنه لأستنامته إلى من وآله ذلك وأمنه به على جيشه.

وأعلم أن مواضع الأحرار من معسكرك، ومكانها من جنديك، بحيث الغناء عنهم والرد عليهم، والحفظ لهم، واليكلاء لمن بعتهم طارقاً، أو أرادهم خاتلاً؛ ومرأصدها المنسل

(١) الصريمة: العزيمة. (٢) في مفتاح الأفكار وغيره: «أفئدة». وإياد كل شيء: ما يقوى به من جانبه ومنه إياد العسكر وهما ميمته وميسرته. (٣) الصوت: كالصيت والصات: الذكر والشهرة. (٤) الأزل: الضيق والشدة. (٥) المادة: كل مدد تستعين به في حرب أو غيره.

منها والآتيق من أرقائهم وأعبدهم؛ وحفظها من العيون والجواسيس من عدوهم. وأحذر أن تضرب على يديه أو تشكك عن الصرامة بمؤامرتك في كل أمر حادث وطارئ إلا في المهم النازل والحدث العام : فإنك إذا فعلت ذلك به ، دعوته إلى نصحك ، وأستوليت على محصول ضميره في طاعتك ؛ وأجهد نفسه في ترتيبك ، وأعمل رأيه في بلوغ موافقتك وإعانتك ؛ وكان ثقتك وردأك وقوتك ودعامتك ، وتفزع أنت لمكايده عدوك ، مريحاً لنفسك من هم ذلك والعناية به ، ملقياً عنك مؤونة باهظة وكلفة فادحة .

وأعلم أن القضاء من الله بمكان ليس به شيء من الأحكام ، ولا بمثل محله أحد من الولاة : لما يجرى على يديه من مغاليط الأحكام ومجاري الحدود . فليكن من توليه القضاء في عسكريك [من ذوى^(١) الخبير والقناعة والعفاف والنزاهة والفهم والوقار والمصمة والورع ، والبصر بوجوه القضايا ومواقعها ، قد حنكته السن وأيدته التجربة وأحكمته الأمور ، ممن لا يتصنع للولاية ويستعد للنهزة ، ويجتري على المحابة في الحكم ، والمداهنسة في القضاء ، عدل الأمانة ، عفيف الطعمة^(٢) ، حسن الإنصاف ، فهم القلب ، وريح الضمير ، متخشع السميت ، بادى الوقار ، محتسباً للخير . ثم أجز عليه ما يكفيه ويسعه ويصلحه ؛ وفرغه لما حملته ، وأعنه على ما وليته : فإنك قد عرضته لهلكة الدنيا وبوار الآخرة ، أو شرف الدنيا وحظوة الآجلة ، إن حسنت نيته ، وصدقت رويته ، وصححت سيرته ، وسلط حكم الله على رعيته ، مطلقاً عنانه ، منفذاً قضاء الله في خلقه ، عاملاً بسنته في شرائعه ، أخذاً بمحدوده وفرائضه .

وأعلم أنه من جندك بحيث ولايتك ، الجارية أحكامه عليهم ، النافذة أفضيته فيهم ؛ فأعرف من توليه ذلك وتسنده إليه . ثم تقدم في طلائعك فإنها أول ميكيدتك ، ورأس حرك ، ودعامة أمرك ، فأنتخب لها من كل قادة وصحابة رجالا ذوى تجدة وبأس ، وصرامة وخبرة ، حمة كفاة ، قد صلوا بالحرب وذاقوا سبجالها ، وشربوا مراراً كؤوسها ، وتجزعوا

(١) الزيادة عن مفتاح الأفكار (ص ٢٥٠) وغيره . (٢) الطعمة بالضم والكسر وجه الكسبي

الطيب أو الخبيث . (٣) في مفتاح الأفكار وغيره : «بحيث ولايتك وفي الموضع الجارية» الخ .

غُصَصَ دِرْتِسَا؛ وَزَبَّتَهُمْ بِتَكَرُّرِ عَوَاطِفِهَا، وَحَلَّتْهُمْ عَلَى أَصْعَبِ مَرَاكِبِهَا، وَذَلَّتْهُمْ بِثِقَافِ
 أَوْدِهَا . ثُمَّ أَنْتَقَهُمْ عَلَى عَيْنِكَ، وَأَعْرَضَ كُرَاعَهُمْ بِنَفْسِكَ؛ وَتَوَخَّخَ فِي أَنْتِقَائِكَ ظُهُورَ الْجَلْدِ،
 وَشَهَامَةَ الْخُلُقِ، وَكَمَالَ الْآلَةِ . وَإِيَّاكَ أَنْ تَقْبَلَ مِنْ دَوَابِّهِمْ إِلَّا الْإِنَاثَ مِنَ الْخَيْلِ الْمَهْلُوبَةِ ،
 فَإِنَّهُنَّ أَسْرَعُ طَلِبًا، وَأَنْجَى مَهْرَبًا، وَأَلَيْنَ مَقْطَعًا، وَأَبْعَدُ فِي التُّخُوقِ غَايَةً، وَأَصْبَرُ فِي مَعْرَكِ
 الْأَبْطَالِ إِقْدَامًا . وَخَذُّهُمْ مِنَ السَّلَاحِ أَبْدَانَ الدَّرُوعِ، مَازِيَةَ الْحَدِيدِ، شَاكَّةَ النَّسِجِ، مِتْقَارِيَةَ
 الْخَلْقِ، مِتْلَاحِيَةَ الْمَسَامِيرِ وَأَسْوُقَ الْحَدِيدِ، مُمَوَّهَةَ الرِّكْبِ، مُحْكَمَةَ الطَّبْعِ خَفِيفَةَ الصَّوْغِ؛
 وَسِوَاعِدَ طَبْعِهَا هِنْدِيًّا، وَصَوَّغُهَا فَارِسِيًّا؛ رِقَاقِ الْمَعَاطِفِ بِأَكْفِّ وَاقِيَةِ وَعَمَلِيٍّ مُحْكَمِ .
 وَيَلْمِيقُ الْبَيْضَ مُدْمَهَبَةً وَمَجْزَدَةً، فَارِسِيَّةَ الصَّوْغِ، خَالِصَةَ الْجَوْهَرِ، سَائِغَةَ الْمَلْسِيسِ، وَاقِيَةَ
 الْجُنْحَنِ، مَسْتَدِيرَةَ الطَّبْعِ، مُبَهَّمَةَ السَّرْدِ، وَاقِيَةَ الْوِزْنِ كَثْرِيكَ النِّعَامِ فِي الصَّنْعَةِ وَأَسْتَدَارَةَ
 التَّقْبِيبِ، وَأَسْتَوَاءَ الصَّوْغِ، مُعَامَّةَ بَأَصْنَافِ الْحَرِيرِ وَالْوَانَ الصَّبْغِ؛ فَإِنَّهَا أَهْيَبُ لِعَدُوِّهِمْ،
 وَأَفْتَى لِأَعْضَادِهِمْ مِنْ لِقِيهِمْ، وَالْمُعَلَّمُ مَحْشِيُّ مَحْذُورٍ، لَهُ بَدِيهَةٌ رَادِعَةٌ، وَهَيْبَةٌ هَائِلَةٌ؛ مَعَهُمُ
 السِّبُوفُ الْهِنْدِيَّةُ، وَذُكُورُ الْبَيْضِ الْيَمَانِيَّةُ؛ رِقَاقُ الشَّفَرَاتِ، مَسْنُونَةُ الشَّحْذِ، مَشْطَبَةٌ
 الضَّرَائِبِ . مَعْتَدِلَةُ الْجَوْهَرِ، صَائِفِيَّةُ الصَّفَاحِ؛ لَمْ يَدْخُلْهَا وَهْنُ الطَّبْعِ، وَلَا عَابَهَا أَمْتُ
 الصَّوْغِ، وَلَا شَانَهَا خِفَّةُ الْوِزْنِ، وَلَا فَدَحَ حَامِلِهَا بَهُورُ التَّنْقَلِ؛ قَدْ أَشْرَعُوا لُدُنَ الْقَنَا،
 طَوَالَ الْهَوَادِي، مُقَوِّمَاتِ الْأَوْدِ، زُرُقِ الْأَسِنَّةِ، مَسْتَوِيَةِ الثَّلَابِ؛ وَمِيضُهَا مَتَوَقَّدٌ،
 وَسِنْخُهَا مَتَلَهَّبٌ، مَعَاقِصُ عَقْدِهَا مَنجُوتَةٌ، وَوُصُومُ أَوْدِهَا مَقَوِّمَةٌ، وَأَجْنَاسُهَا مُخْتَلِفَةٌ،
 وَكُوعُوبُهَا جَعْدَةٌ، وَعُقْدُهَا حِكْمَةٌ؛ شَطْبَةُ الْأَسْنَانِ، مُمَوَّهَةُ الْأَطْرَافِ، مَسْتَحِدَّةُ الْجَنْبَاتِ،
 دِقَاقُ الْأَطْرَافِ، لَيْسَ فِيهَا أَلْتِوَاءُ أَوْدِ، وَلَا أَمْتُ وَصَمٍ، وَلَا بَهَا مَسْقَطُ عَيْبٍ، وَلَا عَمَّا

- (١) المهلوبة: المتوفة اطلب، وهو شعر الذئب أو الشعر كله . (٢) أى خالصة وحيدته .
 (٣) اليليق: القباء المحشور . (٤) التريك: بيضة النعام خاصة، ومنه قوله:
 * وتلقى بها بيض النعام ترائكا *
 (٥) سيف شطب: ذو شطب وهي طرائقه التي في منته . (٦) الأمت: العوج والاختلاف .
 (٧) الثلب: طرف الرمح الداخل في جبة السنان . (٨) في مفتاح الأفكار وغيره: «وشحذها منتهب»
 وسنحها النصل: الحديدية التي تدخل في رأس السهم . (٩) المعاقص: السهام المعوجة .

وقوع أُمّية؛ مُستَحْقِبِي سَخَائِنِ النَّبْلِ وَقَيْسِي الشُّوْحَطِ وَالنَّبِيعِ؛ أَعْرَابِيَّةُ التَّعْقِيبِ، رُومِيَّةُ النَّصُولِ، مَسْمُومَةُ الصُّوْغِ؛ وَلَتَكُنْ سِهَامَهَا عَلَى نَحْمِيسِ قَبَضَاتِ سِوَى النَّصُولِ، فَإِنَّمَا أَبْلُغُ فِي الْغَايَةِ، وَأَنْفُذُ فِي الدَّرُوعِ، وَأَشْكُ فِي الْحَدِيدِ؛ سَامِطِينَ حَقَائِمَهُمْ عَلَى مُتُونِ خِيُولِهِمْ، مُسْتَحْقِبِينَ مِنَ آلَةِ وَالْأُمَّتِيَّةِ وَالزَّادِ، [إِلَّا مَا لَا غَنَاءَ بِهِمْ عَنْهُ] .

وأحذر أن تكلم مباشرة عرّضهم وأنتخبهم إلى أحد من أعوانك وتحابك : فإنك إن وكلته إليهم أضعت مواضع الحزم ، وفوتت حيث الرأي ، ووقفت دون عزم الروية ، ودخل عمك ضياع الوهن ، وخلص إليك عيب المحاباة ، وناله فساد المدهانة ، وغلب عليه من لا يصلح أن يكون طليعة لسايمين ولا عدّة ولا حصناً يدرون به ، ويكتفون بموضعه . والطلائع حصون المسلمين وعيونهم ، وهم أوّل مكيدتك ، وعروة أمرك ، وزمام حرك . فليكن آتيناؤك بهم ، وآتيناؤك إليهم بحيث هم من مهمّ عمك ، ومكيدة حرك ، ثم آتخب للولاية عليهم رجالاً بعيد الصوت ، مشهور الاسم ، طاهر الفضل ، نبيه الذكر ؛ له في العدو وقعات معروفات ، وأيام طوال وصولات متقدّمات ؛ قد عرفت نكائته ، وحذرت شوكته ، وهيب صوته ، وتنگب لقاؤه ؛ أمين السريرة ، ناصح الجيب ؛ قد بلوت منه ما يسلكك إلى ناحيته : من لين الطاعة ، وخالص المودة ، وركانة الصرامة ، وغلوب الشهامة ، وأستجاب القوة ، وحصافة التدبير . ثم تقدّم إليه في حسن سياستهم ، وأستتزل طاعتهم ، وأجتلاب موداتهم وأستعذاب ضمائرهم ؛ وأجر عليهم وعليه أرزاقاً تسعهم ، وتمد من أطاعهم سوى أرزاقهم في العامة ، فإن ذلك من القوة لك عليهم ، والأستنامة إلى ما قبلهم .

وآعلم أنهم في أهم الأماكن لك ، وأعظمها غناء عنك وعمّن معك ، وأقربها كتبنا لمُحَادَكِ ، وأشجأها غيظاً لعدوك ؛ ومَنْ يَكُنْ فِي الثِّقَةِ ، وَالْجَلْدِ ، وَالْبَأْسِ ، وَالطَّاعَةِ ، وَالْقُوَّةِ ، وَالنَّصِيحَةِ وَالْعُدَّةِ ، وَالنَّجْدَةِ حَيْثُ وَصَفَ لَكَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَأَمْرَكَ بِهِ ، يَضَعُ عَنْكَ مَوْوَنَةَ الْحَمْرِ ، وَيُرِيحُ

(١) الشوحط : شجر نخذه منه القسي .

(٢) الزيادة عن مفتاح الأمانكار (ص ٢٥١) .

(٣) يقال : فلان ناصح الجيب يراد بذلك قلبه وصدوره أي أمين .

من خناقك روع الخوف ، وتلتجئ إلى أمرٍ منيع ، وظهر قوياً ، ورأي حازم ، تأمن به بقات عدوك ، وغيرات بعتاتهم ، وطوارق أحداثهم ؛ ويصير إليك علم أحوالهم ، ومتقدّمات خيولهم ؛ فاتخّضهم رأى عين ، وقوهم بما يصلحهم من المنالّات والأطاع والأرزاق ، وأجعلهم منك بالمنزل الذي هم به من محارز علاقتك ، وحصانة كهوفتك ، وقوة سياره عسرك . وإياك أن تدخل فيهم أحداً بشفاعه ، أو تحتمله على هواده ، أو تقدّمه لأثرة ؛ أو أن يكون مع أحدٍ منهم بغل نفل^(١) ، أو فضل من الظهر ، أو ثقل^(٢) فادح ، فشتد عليهم مؤونة أنفسهم ، ويدخلهم كلال السامة فيما يعالجون من أفعالهم ، ويستغلون به عن عدوهم إن دهمهم منه راح ؛ وأجفاهم منه طليعة . فنفق ذلك محكاً له ، وتقدّم فيه آخذاً بالحزم في إمضائه ؛ أرشدك الله لإصابة الخطأ ، ووقفك ليمن التدبير ، وقصد بك لأسهل الرأي وأعوذ نفعاً في العاجل والآجل ، وأكبه لعدوك وأشجاه لهم ، وأردعه لعاديتهم .

ولّ دراجة عسرك وإخراج أهله إلى مصافهم ومرأكرهم رجلاً من أهل بيوتات الشرف ، محمود الخبرة ، معروفاً بالنجدة ، ذا سن وتجربة ، لين الطاعة ، قديم النصيحة ، مأمون السريرة ، له بصيرة بالحق نافذة تقدّمه ، ونية صادقة عن الإدهان تمجّزه . وأضّم إليه عدّة نفر من ثقات جنلك ودرى أسنانهم يكوّنون شرطةً معه ، ثم تقدّم إليه في إخراج المصاف ، وإقامة الأحراس وإذكاء العيون ، وحفظ الأطراف ، وشدة الحدّر ، ومُره فليضج القواد بأنفسهم مع أصحابهم في مصافهم ، كلّ قائد بإزاء مكانه ، وحيث منزله ، قد سدّ ما بينه وبين صاحبه بالرماح شارعة ، والترسة موضونة^(٤) ، والرجال راصدة ، ذاكية الأحراس ، وجلة الرّوع ، خاتمة طوارق العدو وبياته . ثم مُره فليخرج كلّ ليلة قائداً في أصحابه أو عدّة منهم إن كانوا كثيراً ، على غلوة أو آئنتين من عسرك ، متبديداً عنك محيطاً بمنزلك ، ذاكية أحراسه ، قليقة التردّد ، مُفرطة الحدّر ، مُعدة للزّوع ، متأهبة للقتال ، آخذة على أطراف المعسكر ونواحيه ، متفرقين في آخلافهم كُردوساً كُردوساً^(٥) ، يستقبل بعضهم بعضاً

(١) النفل محرّكة : الغنيمة والهبة . (٢) النفل : متاع المسافر . (٣) الإدهان : المداهة وهي أن يظهر الانسان خلاف ما يبطن . (٤) الترسه موضونة ، أي منسوجة حلقتين حلقتين . (٥) أي كتيبة كتيبة .

[في الاختلاف^(١)] وَيَكْسَعُ نَالٍ مُتَقَدِّمًا فِي التَّرَدُّدِ ، وَأَجْعَلُ ذَلِكَ بَيْنَ قُودَاكِ وَأَهْلِ عَسْكَرِكَ نُوبًا مَعْرُوفَةً ، وَحِصَصًا مَقْرُوضَةً ، لَا تُعْرِمُهَا مُزْدَلِفًا مِنْكَ بِمَوَدَّةٍ ، وَلَا تُحَامِلُ فِيهِ عَلَى أَحَدٍ بِمَوْجِدَةٍ . إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

فَوْضٌ إِلَى أَمْرَاءِ أَجْنَادِكَ وَقُودَا خَيْلِكَ أُمُورَ أَصْحَابِهِمْ ، وَالْأَخَذَ عَلَى قَافِيسَةِ أَيْدِيهِمْ ، رِيَاضَةً مِنْكَ لَهُمْ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ لِأَمْرَائِهِمْ ، وَالْأَتْبَاعِ لِأَمْرِهِمْ ، وَالْوُقُوفِ عِنْدَ نَهْمِهِمْ ؛ وَتَقَدَّمَ إِلَى أَمْرَاءِ الْأَجْنَادِ فِي النُّوَابِ الَّتِي أُرْزِمْتُمْ بِهَاهَا ، وَالْأَعْمَالِ الَّتِي اسْتَنْجَدْتُمْ لَهَا ، وَالْأَسْلِحَةِ وَالْكِرَاعِ الَّتِي كَتَبْتَهَا عَلَيْهِمْ ؛ وَأَحْذَرُ اعْتِلَالَ أَحَدٍ مِنْ قُودَاكِ عَلَيْكَ بِمَا يَحْوِلُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ تَأْدِيبِ جُنْدِكَ ، وَتَقْوِيمِهِمْ لَطَاعَتِكَ ، وَقَعْمِهِمْ عَنِ الْإِخْلَالِ بِمَرَكَهْمَ لِشَيْءٍ مِمَّا وَكَلِوَابِهِ مِنْ أَعْمَالِهِمْ ؛ فَإِنْ ذَلِكَ مَفْسَدَةٌ لِلْجُنْدِ ، مَفْتَأَةٌ لِلْقُودَادِ^(٢) عَنِ الْجِدِّ وَالْإِيثَارِ لِلنَّاصِحَةِ ، وَالتَّقَدُّمِ فِي الْأَحْكَامِ .

وَأَعْلَمُ أَنَّ فِي اسْتِخْفَانِهِمْ بِقُودَاهُمْ وَتَضْيِيعِهِمْ أَمْرَ رُؤَسَائِهِمْ دُخُولًا لِلضِّيَاعِ عَلَى أَعْمَالِكَ ، وَاسْتِخْفَانًا بِأَمْرِكَ الَّذِي يَأْتَمِرُونَ بِهِ وَرَأْيِكَ الَّذِي تَرْتَبِي . وَأَوْعِزْ إِلَى الْقُودَادِ الَّا يُقَدِّمَ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَلَى عَقُوبَةِ أَحَدٍ مِنْ أَصْحَابِهِ ، إِلَّا عَقُوبَةَ تَأْدِيبٍ فِي تَقْوِيمِ مَيْلٍ ، وَتَنْقِيفِ أَوْدٍ ؛ فَأَمَّا عَقُوبَةٌ تُبْلَغُ تَلْفَ الْمُهْجَةِ ، وَإِقَامَةٌ حُدٍّ فِي قَطْعٍ ، أَوْ إِفْرَاطٍ فِي ضَرْبٍ ، أَوْ أَخْذُ مَالٍ ، أَوْ عَقُوبَةٌ فِي شَعْرٍ ، فَلَا يَلِيَنَّ ذَلِكَ مِنْ جُنْدِكَ أَحَدٌ غَيْرُكَ ، أَوْ صَاحِبُ شُرْطَنِكَ بِأَمْرِكَ وَعَنْ رَأْيِكَ وَإِذْنِكَ ؛ وَمَتَى لَمْ تُدَلِّلِ الْجُنْدَ لِقُودَاهُمْ ، وَتَضْرِعَهُمْ لِأَمْرَائِهِمْ ؛ تُوجِبُ لَهُمْ عَلَيْكَ الْحِجَّةَ بِتَضْيِيعِ - إِنْ كَانَ مِنْهُمْ - لِأَمْرِكَ ، أَوْ خَلَلَ - إِنْ تَهَاوَنُوا بِهِ - مِنْ عَمَلِكَ ، أَوْ عَجَزَ - إِنْ فَرَطَ مِنْهُمْ - فِي شَيْءٍ مِمَّا وَكَلْتَهُمْ بِهِ أَوْ أَسْنَدْتَهُ إِلَيْهِمْ ؛ وَلَا تَجِدُ إِلَى الْإِقْدَامِ عَلَيْهِمْ بِاللُّومِ وَعَضِّ الْعُقُوبَةِ عَلَيْهِمْ حَجَازًا تَصِلُ بِهِ إِلَى تَعْنِيفِهِمْ ، بِتَفْرِيطِكَ فِي تَذْلِيلِ أَصْحَابِهِمْ لَهُمْ ، وَإِفْسَادِكَ إِيَّاهُمْ عَلَيْكَ وَعَلَيْهِمْ . فَانْظُرْ فِي ذَلِكَ نَظْرًا مُحْكَمًا ، وَتَقَدَّمَ

(١) الزيادة عن مفتاح الأفكار (ص ٢٥٢) . (٢) أى يقعد بهم عن الجند الخ .

فيه برِّقك تقدما بليغا؛ وإياك أن يدخل حزمك وهن، أو يشوب عزمك إثارة، أو يخلط رأيك ضياع؛ والله يستودع أمير المؤمنين نفسك ودينك .

إذا كنت من عدوك على مسافة دانية وسنن لقاءٍ مختصر، وكان من عسكريك مقترباً قد شامت طلائعك مقدمات ضلائله وحماة فتنته، فإهبط أهبة المناجز، وخذ أعتداد الحذر، وكتب^(١) خيولك، وعب جندك . وإياك والمسير إلا في مقدمة وهينة وميسرة وساقية، قد شهروا الأسلحة، ونشروا البنود والأعلام . وعرف جندك مراكرهم سائرین تحت ألويتهم قد أخذوا أهبة القتال، واستعدوا للقاء؛ ملتجئين إلى موافقهم، عارفين بمواضعهم في مسيرهم ومعسكرهم . وليكن ترحلهم وتنزلم على راياتهم وأعلامهم وفي مراكرهم، قد عرف كل قائد منهم أصحابه موافقهم : من الميمنة والميسرة والقلب والساقية والطبيعة، لازمين لها، غير مجلین بما استنجدوا له، ولا متهاوين فيما أهب بهم إليه؛ حتى تكون عساكرك في منهل تصل إليه، ومسافة تختارها، كأنها عسكر واحد في اجتماعها على العدو، وأخذها بالحزم، ومسيرها على راياتها، ونزولها في مراكرها، ومعرفتها بمواضعها : إن ضلت دابة من موضعها، عرف أهل العسكر من أي المراكز هي، ومن صاحبها، وفي أي المحل حلولة منها، فردت إليه، هداية معروفة بسمت صاحب قيادتها، فأت تقدمك في ذلك وإحكامك له طارح عن جندك مؤونة الطلب، وعناية المعرفة، وأبتغاء الضالة .

ثم أجعل على سافتك أوثق أهل عسكريك في نفسك صرامةً ونفاذاً ورضاً في العامة، وإنصافاً من نفسه للرعية، وأخذاً بالحق في المعدلة، مستشعراً تقوى الله وطاعته؛ أخذاً بهديك وأدرك، واقفاً عند أمرك ونهيك، معتزماً على مناصحتك وتزيتك، نظيراً لك في الحال، وشيهاً بك في الشرف، وعديلاً في الموضع، ومقارِباً في النسب؛ ثم أكثف معه الجمع، وأيده بالقوة، وقوه بالظهر، وأعنه بالأموال، وأعمده بالسلاح، ومره بالتعطف على ذوى الضعف من جندك ومن أرحفت به دابته وأصابته نكبة : من مرض أو رجلة أو آفة^(٢)،

(١) كتب الجيش أو الخيل : جعلها كتاب . (٢) في مفتاح الأفكار وغيره : « في الصيت » .

(٣) الرجلة بالضم : أن يشكو رجله وقد رجل كفرج أصابه في رجله ما يكره .

من غير أن يأذن لأحدٍ منهم في التنجّي عن عسكره، أو التخلف بعد ترحله، إلا للجهودِ سَقَمًا، أو لمطروقٍ بأفيةٍ جائحةٍ . ثم تقدّم إليه محذرا، ومُرّه زاجرا، وأنه مُغلِظا في الشدّة على من سرّ به منصرفًا عن معسكرك من جنسك بغير جوازك، شادًا لهم أسرًا، وموقرهم حديدًا، ومعاقبهم موجعا، وموجههم إليك فتنتهكهم عقوبةً، وتجعلهم لغيرهم من جنسك عِظة .

وأعلم أنه إن لم يكن بذلك الموضع من تسكن إليه واثقا بنصيحته قد بلوت منه أمانة تُسكّك إليه، وصرامة تُؤمّنك مهاتته، ونفاذا في أمرك يُرّخي عنك خِناق الخوف في إضاخته — لم يأمّر أمير المؤمنين تسأل الجند عنك لوأذا^(١)، ورَفَضهم مراكرهم، وإخلاقهم بمواضعهم، وتخلّفهم عن أعمالهم، آمين تغيير ذلك عليهم، والشدّة على من آجتره منهم، فأوشك ذلك في وهنك، وخدّل من قوتك، وقلل من كثرتك .

اجعل خلف ساقينك رجلا من وجوه قوادك، جليدا، ماضيا، عفيقا، صارما، شهيم الرأي، شديد الحذر، شيكيم القوة، غير مُداهن في عقوبة، ولا مهين في قوّة، في خمسين فارسا يحشروا إليك جندك، ويُحق بك من تخلف عنك بعد الإبلاغ في عقوبتهم، والنهك لهم، والتنكيل بهم . وليكن بعقوتك في المنزل الذي ترحل عنه، والمنهل الذي تتقوّض منه، مُفْرِطًا في النفيض له، والتتبع لمن تخلف عنك به؛ مشتدا في أهل المنزل وساكنه بالتقدم، موعزا إليهم في إزعاج الجند عن منازلهم، وإخراجهم عن مكائهم؛ وإبعاد العقوبة الموجعة والنكال المُبْسِل في الأشعار والأبشار، وأستصفاء الأموال وهدم العقار لمن آوى منهم أحدا أو ستر موضعه، أو أخفى محله . وحدّره عقوبتك إياه في الترخيص لأحد، والمحابة لذي قرابة، والأختصاص بذلك لذي أثره وهوادة . ولتكن فرسانه متخّين في القوّة، معرفين بالنجدة؛ عليهم سوايغ الدروع دونها شعار الحشو وجبب الاستجنان؛ متقلّدين سيوفهم، سامطين كتابهم^(٣)، مستعدين لهيج إن بدّهم [أو كين إن يظهر لهم^(٤)] . وإياك

(١) لوأذا : مرأوعة أي مستحقين يستربعضهم ببعض . (٢) القوّة : ما حول الدار وأوساطه .

(٣) سامطين : معلقين . (٤) الزيادة عن مفتاح الأفكار وغيره .

أن تقبل منهم في دوابهم إلا فرسا قويا أو برذونا^(١) وثيبا : فإن ذلك من أقوى القوّة لهم ،
وأعون الظّهريّ على عدوهم ، إن شاء الله .

ليكن رحيلك إبّاناً واحداً ، ووقفاً معلوماً : لتخفّ المؤونة بذلك على جندك ، ويعلموا
أوان رحيلهم ، فيقدموا فيما يريدون من معالجة أطعمتهم ، وأعلاف دوابهم ، وتسكن قلوبهم
الى الوقت الذى وقفوا عليه ، ويطمئن ذؤو الرأى الى إبّان الرحيل . ومتى يكن رحيلك
مخفياً ، تعظم المؤونة عليك وعلى جندك ولا يزال ذؤو السّفه [والتزق] يترحلون بالإرجاف
ويتزلون بالتوهم ، حتى لا ينتفع ذؤو رأى بنوم ولا طمأنينة .

إيّاك أن تُظهِر استقلالا ، أو تُتأدى برحيل من منزل تكون فيه ، حتى تأسر صاحب
تعبتك بالوقوف بأصحابه على معسكرك أخذاً بجنبتي فوهته ، بأسلحتهم عدّة لأمر إن حضر
أو مفاجأة من طليعة للعدو إن رأيت منكم نهزة ، أو لمحت عندكم غيرة . ثم مرّ الناس
بالرحيل وخيلك واقفة ، وأهبتك معدّة ، وجنتك واقفة ، حتى اذا استقلت من معسكركم ،
وتوجهتم من منزلكم ، سرتم على تعبتم بسكون ريح ، وهدو حملة ، وحسن دعة . فاذا
أتهيت الى منزل أردت نزوله أو هممت بالمعسكر به ، إيّاك ونزوله إلا بعد العلم بأهله ،
والمعرفة بمراقفه ؛ ومرّ صاحب طليعتك أن يعرف لك أحواله ، ويستشيرك علم دفينه ،
ويستبين علم أموره ثم يُنيهها اليك على ما صارت اليه : لتعلم كيف احتماله لعسكرك ، وكيف
ماؤه وأعلافه وموضع معسكرك منه ، وهل لك — إن أردت مقاما به ، أو مطاولة عدوك
أو مكايده فيه — قوّة تتحمل ومدد يأتيه ؛ فإنك إن لم تفعل ذلك ، لم تأمن أن تهجم على
منزل يُعجزك ويزعجك عنه ضيق مكانه ، وقلة مياهه ، وانقطاع مآده ، إن أردت بعدوك
مكيدة ، أو أحتجت من أمورهم الى مطاولة ، فإن ارتحلت منه كنت غرضا لعدوك ،
ولم تجد الى المحاربة والإخطار سيلا ؛ وإن أقت به أقت على مشقة وحصر وفى أزل

(١) برذونا وثيبا : كثير اللحم .

(٢) كذا فى صبح الأعشى (ج ١٠ ص ٢٢٦) ولعل فيه تحريفا صوابه : قوّة تصلك ومدد يأتيك .

وضيق ، فأعريف ذلك وتقدم فيه . فإن أردت نزولاً أصرت صاحب الخيل التي وكلت بالناس فوقفت خيله متنجية من معسرك ، عتة لأمر إن غالك ، ومقرظاً ليدية إن راعتك ، فقد أميت بجد الله وقوته بخاة عدوك ، وعرفت موقعها من حرك ، حتى يأخذ الناس منازلهم ، وتوضع الأثقال مواضعها ، ويأتيك خبر طلائعك ، وتخرج دبابتك من معسرك دراجةً ودباباً محيطين بمعسرك ، وعتة إن احتجت إليها . ولكن دبابات جندك أهل جلد وقوة ، قائداً أو اثنين أو ثلاثة بأصحابهم ، في كل ليلة ويوم نوباً بينهم . فإذا غربت الشمس ووجب نورها ، أخرج اليهم صاحب تعينك أبدانهم ، عسسا بالليل في أقرب من مواضع دبابي النهار ، يتعاور ذلك قوادك جميعا بلا محابة لأحد فيه ولا إدهان .

إياك وأن يكون منزلك إلا في خندق وحصن تأمن به بيات عدوك وتستقيم فيه الى الحزم من مكيدتك . اذا وضعت الأثقال وحطت أبنية أهل العسكر ، لم يمدد طنب ، ولم يرفع خباء ، ولم ينصب بناء حتى تقطع لكل قائد ذرعا معلوماً من الأرض بقدر أصحابه ، فيحفروه عليهم خندقاً يطيفون به بعد ذلك بخنادق الحسك^(٢) ، طارحين لها دون أشجار الرياح ، ونصب الترسة ، لها بابان قد وكلت بحفظ كل باب منهما رجلاً من قوادك في مائة رجل من أصحابه ؛ فإذا فرغ من الخندق كان ذاك الرجلان القائدان بن معهما من أصحابهما أهل ذلك المركز ، وموضع تلك الخيل ، وكانوا هم البوابين والأحراس لذينك الموضعين ، قد كفوهما وضبطوهما وأعفوا من أعمال العسكر ومكروهه غيرهما .

وأعلم أنك إذا كنت في خندق ، أميت بإذن الله وقوته طوارق عدوك وبعثتهم ، فإن راموا تلك منك ، كنت قد أحكمت ذلك وأخذت بالحزم فيه ، وتقدمت في الإعداد له ، ورتقت مخوف الفتق منه ؛ وإن تكين العافية استحقت حمد الله عليها ، وأرتبطت شكره بها ، ولم يضررك أخذك بالحزم : لأن كل كلفة ونصيب ومؤونة إنفاق ومشقة عمل مع

(١) أى ذهب وغاب . (٢) الحسك : أسلاك كالشوك تعمل من الحديد تلقى حول المعسكر لتشب

في رجل من يدوسها من الخيل والناس الطارقين له ، وهي المعروفة الآن : « بالاسلاك الشائكة » .

السلامة غمٍّ وغير خَطَرٍ بالعاقبة، إن شاء الله . فإن أَبْتَلَيْتَ بِيَّاتِ عَدُوِّكَ أَوْ طَرَقَكَ رَائِعًا فِي لَيْلِكَ ، فليَلْفِكَ حَدِرًا مَشْمَرًا عَنْ سَاقِكَ ، حَاسِرًا عَنِ ذِرَاعِكَ ، مَتَشَرَّنًا ^(١) لِحَرْبِكَ ؛ قَدْ تَقَدَّمْتُ دَرَجَاتِكَ إِلَى مَوَاضِعِهَا عَلَى مَا وَصَفَهُ لَكَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ، وَدَبَّابَتِكَ فِي أَوْقَاتِهَا الَّتِي قَدَّرَكَ ، وَطَلَائِعِكَ حَيْثُ أَمَرَكَ ، وَجُنْدُكَ عَلَى مَا عَبَّأَكَ ، قَدْ خَطَرْتَ عَلَيْهِمْ بِنَفْسِكَ ؛ وَتَقَدَّمْتَ إِلَى جُنْدِكَ ، إِنْ طَرَقَهُمْ طَارِقٌ أَوْ فَاجَأَهُمْ عَدُوٌّ ، أَلَا يَتَكَلَّمُ مِنْهُمْ أَحَدٌ رَافِعًا صَوْتَهُ بِالْكَبِيرِ مُفْرَقًا فِي الإِجْلَابِ ، مُعَلِنًا بِالْإِرْهَابِ لِأَهْلِ النَّاحِيَةِ الَّتِي يَقَعُ بِهَا الْعَدُوُّ طَارِقًا ، وَيَلِشْرَعُوا وَمَا حَمَّهُمْ نَاشِينَ بِهَا فِي وُجُوهِهِمْ ، وَيَرْشَقُوهُمْ بِالنَّبْلِ مَكْتَنِينَ بِرِسْمِهِمْ ، لِأَزْمِينَ لِمُرَاكِرِهِمْ ، غَيْرِ مُزِيلِي قَدَمٍ عَنْ مَوْضِعِهَا ، وَلَا مُتَجَاوِزِينَ إِلَى غَيْرِ مَرَكِرِهِمْ ، وَيَلِكْبُرُوا ثَلَاثَ تَكْبِيرَاتٍ مُتَوَالِيَاتٍ وَسَائِرَ الْجُنْدِ هَادُونَ ، لِتَعْرِيفِ مَوْضِعِ عَدُوِّكَ مِنْ مَعْسَرِكَ ، فُتِمَّتْ أَهْلَ تِلْكَ النَّاحِيَةِ بِالرِّجَالِ مِنْ أَعْوَانِكَ وَشَرَطَتِكَ ، وَمَنْ آتَخَبْتَ قَبْلَ ذَلِكَ عَدَّةً لِلشَّدَائِدِ بِحَضْرَتِكَ ، وَتُدَسُّ إِلَيْهِمُ النَّشَابُ وَالرَّمَاحُ .

وإياك وأن يشهروا سيفًا يتجالدون به ، وتقدم إليهم ألا يكون قتالهم في تلك المواضع لمن طرقتهم إلا بالرمح مُسْنِدِينَ لَهَا إِلَى صَدُورِهِمْ ، وَالنَّشَابَ رَاشِقِينَ بِهِ وَجُوهِهِمْ ؛ قَدْ أَلْبَدُوا بِالْأَتْرِسَةِ ، وَاسْتَجَنُّوا بِالْبَيْضِ ، وَأَلْقَوْا عَلَيْهِمْ سَوَابِغَ الدَّرُوعِ وَجِبَابَ الْحَشْوِ . فَإِنْ صَدَّ الْعَدُوُّ عَنْهُمْ حَامِلِينَ عَلَى جِهَةِ أُخْرَى ، كَبُرَ أَهْلُ تِلْكَ النَّاحِيَةِ الَّتِي يَقَعُ فِيهَا كِفْعَلُ النَّاحِيَةِ الْأُولَى ، وَبَقِيَّةُ الْعَسْكَرِ سَكُوتٌ وَالنَّاحِيَةُ الَّتِي صَدَّ عَنْهَا الْعَدُوُّ لِأَزْمَةِ مَرَاكِرِهِمْ مُنْتَقِطَةٌ الْهُدُوءِ سَاكِنَةٌ الرِّيحِ ، ثُمَّ حَمَلَتْ فِي تَقْوِيَتِهِمْ وَإِمْدَادِهِمْ بِمِثْلِ صَنِيعِكَ فِي إِخْوَانِهِمْ .

وإياك أن تُجِدَّ نَارَ رُؤُوفِكَ ؛ وَإِذَا وَقَعَ الْعَدُوُّ فِي مَعْسَرِكَ فَأَجْبِجْهَا سَاعِرًا لَهَا وَأَوْقِدْهَا حَطْبًا جَرَلًا يَعْرِفُ بِهِ أَهْلُ الْعَسْكَرِ مَكَانَكَ وَمَوْضِعَ رُؤُوفِكَ ، فَيَسْكُنُ نَافِرَ قُلُوبِهِمْ ، وَيَقْوَى وَاهِيَ قُوَّتِهِمْ ، وَيَسْتَدُ مَنْخِذُ ظُهُورِهِمْ ، وَلَا يَرْجُمُونَ بِكَ الظُّنُونَ ، وَيَجْعَلُونَ لَكَ آرَاءَ

(١) متشربًا : متجهزًا .

السوء، ويُرِحِفون بك آتاء الخوف؛ وذلك من فعلك راد عدوك بغیظه لم يستفیل منك ظُفراً، ولم يبلُغ من نكابتك سرورا . وإن أنصرف عنك عدوك ونكَل عن الإصابة من جندك وكانت بجيالك قوَّة على طلبه أو كانت لك من فرسانك خيلٌ معدَّةٌ وكتيبةٌ متخبةٌ، [و] قدرت على أن تركبَ بهم أكساءهم^(١)، وتحمّلهم على سننهم؛ فأتبعهم جريدة خيل عليها الثقات من فرسانك وأولو النجدة من حماتك؛ فإنك ترهق عدوك^(٢) وقد أمن من بيّاتك، وشغل بكلاله عن التحرز منك والأخذ بأبواب معسكره والضبط لمخارسته عليك، مؤهنةً حاتمهم لغبية أبطأهم: لما ألقوكم عليه من التشمير والحد، قد عقر الله فيهم، وأصاب منهم، وجرح من مقاتلتهم، وكسر من أمانى ضلالهم، وردّ من مستعلي جماعهم .

وتقدّم إلى من توجّه في طلبهم، وتبعه أكساءهم: في سكون الريح، وقلة الرّفت، وكثرة التسبيح والتهليل، وأستنصار الله عز وجل بألسنتهم وقلوبهم سراً وجهراً، بلا لحبّ صجّة، ولا ارتفاع ضوضاء، دون أن يردوا على مطلبهم، ويتميزوا فرصتهم . ثم ليشهروا السلاح، وينضّوا السيوف، فإن لها هيبَةً رائعة، وبديهة مخوفة، لا يقوم لها في هبمة الليل وحيدسه إلا البطل المحارب، وذو البصيرة الحامى، والمستميت المقاتل، وقليل ما هم عند تلك الحمية وفي ذلك الموضع .

ليكن أوّل ما تتقدّم به في التهيؤ لعدوك، والأستعداد للقائه، أنتخابك من فرسان عسكرك وحماة جندك ذوى البأس والحُنكة والجلد والصرامة، ممن قد اعتاد طراد الكجاة، وكشّر عن ناجذه في الحرب، وقام على ساقٍ في منازلة الأقران، تقف الفروسية، مجتمع القوة، مستحصد الميرة، صبوراً على هول الليل، عارفاً بمناهزة الفرص؛ لم تمهّن الحُنكة ضعفاً، ولا بلغت به السنّ كلالاً، ولا أسكرته غرة الحدّاة جهلاً، ولا أبطرته نجدة الأغمار صلفاً، جريئاً على مخاطرة التلف، مقدّماً على أذراع الموت، مكابراً لمهيب الهول، متقحماً مخيف الخوف، حائضاً غمرات المهالك؛ برأى يؤيده الحزم، ونية لا يُخالجها الشك،

(١) الأكساء: الأبار، واحدها كس . (٢) ترهق عدوك: تغشاه .

وأهواء مجتمعة، وقلوب مؤتلفة؛ عارفين بفضل الطاعة وعزها وشرها، وحيث محل أهلها من التأيد والظفر والتكين؛ ثم أعرضهم رأى عين على كراعمهم وأسلحتهم . ولتكن دوابهم إناث عناق الخليل، وأسلحتهم سوابغ الدروع وكال آلة المحارب، متقلدين سيوفهم المستخلصة من جيد الجوهر وصافي الحديد، المتخيرة من معادن الأجناس، هندية الحديد يمانية الطبع، رفاق المضارب، مسمومة الشحذ، مشطبة الضريبة؛ ملبدين بالترسة الفارسية، صينية التعقيب، معلمة المقايض يحاقت الحديد، أنحائها مربعة، وخارزها بالتجلد مضاعفة، تحملها مستخف؛ وكثائن النبل ويجعاب القسي قد استحقبوها، وقسي الشريان والنبح أعراية الصنعة، مخلفة الأجناس، مُحككة العمل، مقومة التثيف؛ ونصول النبل مسمومة، وعملها مصصى، وتركيبها عراقي، وتريشها بدوى؛ مختلفة الصوغ في الطبع، شتى الأعمال في التشطيب والتجنيح والإستدارة . ولتكن الفارسية مقلوبة المقايض، منبسطة السية، سهلة الإعطاف، مقربة الانحناء، بمكينة المرعى، واسعة الأسمم؛ فوضها سهلة الورد، ومعاطفها غير مقتربة المواتاة . ثم ول على كل مائة رجل منهم رجلا من أهل خاصتك وثقاتك ونصحاتك، له صبت في الرياسة، وقدم في السابقة، وأولية في المشايعة . وتقدم إليه في ضبطهم، وكف معرتهم، وأستنزال نصائحهم، وأستعداد طاعتهم، وأستخلاص ضمائرهم، وتاهد كراعمهم وأسلحتهم : معفيا لهم من النوايب التي تلزم أهل عسرك وعامة جنديك؛ وأجعلهم عدة لأمر إن حربك، أو طارق إن أناك؛ ومرهم أن يكونوا على أهبة معدة، وحدد ناي لسنة الغفلة عنهم؛ فإنك لا تدري أى الساعات من ليك ونهارك تكون إليهم حاجتك . فليكونوا كرجل واحد في التشمير والترادف وسرعة الإجابة؛ فإنك عسيت ألا تجد عند جماعة جنديك في مثل تلك الروعة والمباغنة — إن أحتجت إلى ذلك منهم — معونة كافية، ولا أهبة معدة . بل ذلك كذلك فليكن هؤلاء القوم الذين تنتخب عدتاك وقوتك، بعونا قد وظفتها على القواد الذين وليتهم أمورهم، فسميت أولا وثانيا وثالثا ورابعا وخامسا وسادسا؛ فإن آكتفيت فيما يطرقك ويبدئك

ببعث واحد، كان معداً لم تخرج إلى أنتخابهم في ساعتك تلك، فقطع البعث عليهم عند ما يرهقك . وإن أحتجت إلى اثنين أو ثلاثة ، وجهت منهم إرادتك أو ما ترى قوتك ، إن شاء الله .

وكل بخزائنك ودواوينك رجالاً ناصحاً أميناً، ذا ورع حاجز، ودين فاضل، وطاعة خالصة، وأمانة صادقة؛ وأجعل معه خيلاً يكون مسيرها ومزئلاً ومرحلاً مع خزائنك وحوطها . وتقدم إليه في حفظها، والتسوق عليها، وأتاهم كل من تُسند إليه شيئاً منها على إضاعته والتهاون به، والشدة على من دنا منها في مسير، أو ضامها في منزل، أو خالطها في منهل . وليكن عاقبة الجند والجيش — إلا من استخلصت لمسير معها — متنعين عنها، مجانبين لها في المسير والمنزل؛ فانه ربما كانت الجولة وحدت الفرقة، فان لم يكن الخزان ممن يؤكل بها أهل حفظ لها وذبح عنها، وحياطة دونها، وقوة على من أراد انتهاها، أسرع الجند إليها وتداعوا نحوها، حتى يكاد يترامى ذلك بهم إلى آتباب العسكر وأضطراب الفتنة؛ فإن أهل الفتن وسوء السيرة كثير، وإنما همتهم الشر؛ فإياك أن يكون لأحد في خزائنك ودواوينك وبيوت أموالك مطمع، أو يجد سبيلاً إلى اغتيالها ومرزأتها .

واعلم أن أحسن ميكدتك أثراً في العامة، وأبعدها صيتاً في حسن القالة؛ مانلت الظفر فيه بحزم الروية، وحسن السيرة، ولطف الحيلة . فلتكن رويتك في ذلك وحرصك على إصابته بالحيل لا بالقتال وأخطار الناف؛ وأدسس إلى عدوك، وكتب رؤساءهم وقادتهم وعندهم المناات، ومنهم الولايات، وسوغهم التراث، وضع عنهم الإحن، وأقطع أعناقهم بالمطامع، وأستدعهم بالثأوب؛ وأملأ قلوبهم بالترهيب إن أمكثك منهم الدوائر، وأصارتهم إليك الرواجع؛ وأدعهم إلى الوثوب بصاحبهم أو أعتزاله إن لم يكن لهم بالوثوب عليه طاقة؛ ولا عليك أن تطرح إلى بعضهم كتباً كأنها جواب كتب لهم إليك، وتكتب على ألسنتهم كتباً إليك تدفعها إليهم وتحمّل بها صاحبهم عليهم، وتزلم عنده بمنزلة التهمة ومحل

الظَّنة ؛ فلعل مَكِيدَتِكَ في ذلك أن يكون فيها أَقْتَرَأُ كلمتهم ، وتشتيتُ جماعتهم ، وإحْنُ قلوبهم ، وسوءُ الظنِّ من واليهم بهم ، فيوحشهم منه خوْفهم إِيَّاه على أنفسهم إذا أيقنوا باتهامه إياهم ؛ فان بَسَطَ يَدَه فقتلهم ، وأولغ سيفه في دِمَائهم ، وأسرع الوثوبَ بهم ، أشعرهم جميعا الخوف ، وشملهم الرُّعب ، ودعاهم إليك الهرب ، فتهافُتوا نحوكَ بالنصيحة وأموك بالطلب . وإن كان متأثراً محتماً رجوت أن يستميل إليك بعضهم ، ويستدعي الطمع ذوى الشره منهم ، وتنال بذلك ما تُحِب من أخبارهم ، إن شاء الله .

إذا تَدَانَى الصَّفَان ، وتواقف الجمعان ، واحتضرت الحرب ، وعبأت أصحابك لقتال عدوهم ، فأكثر من قول : لاحول ولا قوة إلا بالله ، والتوكل على الله عز وجل والتفويض إليه ، ومسألته توفيقك وإرشادك ، وأن يعزِمَ لك على الرُّشد المُنجي ، والعصمة الكائنة ، والحياطة الشاملة . ومُرْ جنْدَكَ بالصمت وقلة التلفت عند المُصاولة ، وكثرة التكبير في أنفسهم والتسبيح بضائريهم ، ولا يُظهروا تكبيراً إلا في الكرات والحملات ، وعند كل زُلْفَةٍ يزدلفونها ؛ فأما وهم وقوفٌ فان ذلك من الفشل والخبث ؛ وليذكروا الله في أنفسهم ويسألوه نصرهم وإعزازهم ، وليكثرُوا من قول : ”لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، حسبنا الله ونعم الوكيل ، اللهم أنصرنا على عدوك وعدونا الباغي ، وأكفنا شوكتَه المستحدة ، وأيدنا بملائكتك الغالين ، وأعصمنا بعونك من الفشل والعجز إنك أرحم الراحمين“ .

ولیکن في معسكر المکبرون في الليل والنهار قبل المواقعة ، وقومٌ موقوفون يَحْضُونهم على القتال ويحرضونهم على عدوهم ، ويصفون لهم منازل الشهداء وثوابهم ، ويذكرونهم الجنة ودرجاتها ، ونعيم أهلها وسكانها ، ويقولون : أذكروا الله يذكركم ، وأسئلوهم ينصركم ، وألتجئوا إليه ينعمكم . وإن استطعت أن تكون أنت المباشرة لجمعية جنودك ووضعهم مواضعهم من رأيك ، ومعك رجالٌ من نقات فرسانك ذوو سنٍّ وتجربة وتجدة على التبعية التي أمير المؤمنين واصفها لك في آخر كتابك فافعل ، إن شاء الله تعالى .

أيّدك الله بالنصر، وغلّب لك على القوّة ، وأعانك على الرّشد، وعصمك من الزّيف ،
وأوجب لمن استشهد معك ثواب الشهداء ومنازل الأصفياء ، والسلام عليك ورحمة الله
وبركاته .

وكتب سنة تسع وعشرين ومائة .

٧ - رسالة ثانية لعبد الحميد الكاتب

ومن رسائل عبد الحميد الرسالة التي أوصى فيها الكتاب^(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد ، حفّظكم الله يا أهل صناعة الكتابة ، وحاطكم ووفّقكم وأرشدكم ؛ فإن الله عز
وجل جعل الناس بعد الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، ومن بعد الملوك
المكرمين أصنافا ، وإن كانوا في الحقيقة سواء ؛ وصرفهم في صنوف الصناعات ، وضروب
المحاولات ، إلى أسباب معاشهم ، وأبواب أرزاقهم ، بفعلكم معشر الكتاب في أشرف
الجهات ، أهل الأدب والمروءات والعلم والرّزانة ؛ بكم تنظّم الخلافة محاسنها ، وتستقيم
أمورها ؛ وبنصائحكم يصلح الله الخلق سلطانهم ، وتعمّر بلدانهم ؛ لا يستغنى الملك عنكم ،
ولا يوجد كاف إلا منكم ؛ فوقعكم من الملوك موقع أسماعهم التي بها يسمعون ، وأبصارهم
التي بها يبصرون ، وألسنتهم التي بها ينطقون ، وأيديهم التي بها يبطشون ؛ فأمتعكم الله بما خصّكم
من فضل صناعتكم ، ولا نزع عنكم ما أضفاه من النعمة عليكم ؛ وليس أحد من أهل
الصناعات كلّها أحوج إلى اجتماع خلائع الخير المحمودة ، وخصال الفضل المذكورة المعدودة
منكم . أيها الكتاب إذا كنتم على ما يأتي في هذا الكتاب من صفتكم ، فإن الكتاب يحتاج
في نفسه ، ويحتاج منه صاحبه الذي يثق به في مهمّات أموره ، أن يكون حلما في موضع
الحلم ، فهيا في موضع الحُكم ، مقدّما في موضع الإقدام ، محجّاما في موضع الإحجام ، مؤثرا

(١) هذه الرسالة من مقدمة ابن خلدون (ص ٢٠٦ طبعة بلاط) . (٢) أضفاه : أتمه .

للعفاف والعدل والإنصاف، كَتُومًا للأسرار، وفيًا عند الشدائد، عالمًا بما يأتي من النوازل؛
يَضَعُ الأمور مواضعها، والطَّوارق في أَمَا كُنْهَا؛ قد نَظَرَ في كل فنٍّ من فُنُونِ العِلْمِ فأَحْكَمَهُ،
وإن لم يُحْكَمْه أَخَذَ مِنْهُ بِمِقْدَارِ مَا يَكْتَفِي بِهِ؛ يَعْرِفُ بِغَرِيزَةِ عَقْلِهِ، وَحُسْنِ أَدَبِهِ، وَفَضْلِ
تَجْرِبَتِهِ، مَا يَرِدُ عَلَيْهِ قَبْلَ وُرُودِهِ، وَعَاقِبَةُ مَا يَصْدُرُ عَنْهُ قَبْلَ صُدُورِهِ؛ فَيُعَدُّ لِكُلِّ أَمْرٍ عُدَّتَهُ
وَعَتَادَهُ، وَيُهَيِّئُ لِكُلِّ وَجْهِ هَيْئَتَهُ وَعَادَتَهُ . فَنَتَنَا فَسُوا يَا مَعْشَرَ الكُتَّابِ فِي صُنُوفِ الآدَابِ،
وَتَفَهَّمُوا فِي الدِّينِ، وَأَبْدُوا بِعِلْمِ كِتَابِ اللَّهِ عِزَّ وَجَلِّ وَالْفِرَاطِضِ، ثُمَّ العَرَبِيَّةِ فَإِنَّهَا تَقَافُ
أَلْسِنَتِكُمْ، ثُمَّ أَجْبِدُوا الخَطَّ فَإِنَّهُ حِلْيَةُ كُتُبِكُمْ، وَأَرُووا الأَشْعَارَ وَأَعْرِفُوا غَرِيبَهَا وَمَعَانِيهَا،
وَأَيَّامَ العَرَبِ وَالعَجَمِ وَأَحَادِيثَهَا وَسِيرَهَا؛ فَإِنَّ ذَلِكَ مُعِينٌ لَكُمْ عَلَى مَا تَسْمُو إِلَيْهِ هَمُّكُمْ،
وَلَا تُضَيِّعُوا النَّظَرَ فِي الحِسَابِ، فَإِنَّهُ قَوَامُ كُتَابِ الخِرَاجِ، وَأَرْعُبُوا بِأَنْفُسِكُمْ عَنِ المَطَامِعِ سَنِيهَا
وَدَنِيهَا، وَسَفْسَفِ الأُمُورَ وَمَحَاقِرَهَا؛ فَإِنَّهَا مَدَلَّةٌ لِلرِّقَابِ، مَفْسَدَةٌ لِلكُتَّابِ، وَزَهْوٌ صِنَاعَتِكُمْ
عَنِ الدَّنَاءَةِ، وَأَرْبَبُوا بِأَنْفُسِكُمْ عَنِ السَّعَايَةِ وَالتَّمِيمَةِ وَمَا فِيهِ أَهْلُ الجَهَالَاتِ .

وَأَيَّامَ الكِبَرِ وَالسُّخْفِ وَالعِظْمَةِ، فَإِنَّهَا عِدَاوَةٌ مُجْتَلِبَةٌ مِنْ غَيْرِ إِحْتِنَاءٍ؛ وَتَحَابُّوا فِي اللَّهِ
عِزَّ وَجَلِّ فِي صِنَاعَتِكُمْ، وَتَوَاصَوْا عَلَيْهَا بِالذِّي هُوَ أَلْبَقُّ لِأَهْلِ الفِضْلِ وَالعَدْلِ وَالتَّبَلِّ مِنْ
سَلْفِكُمْ؛ وَإِنَّ نَبَأَ الزَّمَانِ^(١) بِرَجُلٍ مِنْكُمْ، فَأَعْظِفُوا عَلَيْهِ وَوَأَسُوهُ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْهِ حَالَهُ، وَيَثُوبَ إِلَيْهِ
أَمْرُهُ، وَإِنْ أَقْعَدَ أَحَدًا مِنْكُمْ الكِبَرَ عَنْ مَكْسَبِهِ وَلِقَاءِ إِخْوَانِهِ، فَزُورُوهُ وَعَظِّمُوهُ وَشَاوَرُوهُ؛
وَاسْتَظْهِرُوا بِفَضْلِ تَجْرِبَتِهِ، وَقَدِيمِ مَعْرِفَتِهِ؛ وَلْيَكُنْ الرَّجُلُ مِنْكُمْ عَلَى مَنْ أَصْطَنَعَهُ وَاسْتَظْهَرَ
بِهِ لِيَوْمِ حَاجَتِهِ إِلَيْهِ أَحْوَجَ مِنْهُ عَلَى وَآخِيهِ، فَإِنْ عَرَضَتْ فِي الشُّغْلِ مَحْمَدَةٌ فَلَا يَصْرِفُهَا
إِلَّا إِلَى صَاحِبِهَا، وَإِنْ عَرَضَتْ مَدْمَةٌ فَلْيَحْمِلْهَا هُوَ مِنْ دُونِهِ؛ وَلْيَحْدَرِ السَّقَطَةَ وَالزَّلَّةَ وَاللَّلَّ
عِنْدَ تَغْيِيرِ الحَالِ، فَإِنَّ العَيْبَ إِلَيْكُمْ مَعْشَرَ الكُتَّابِ أَسْرَعُ مِنْهُ إِلَى الفِرَآءِ، وَهُوَ لَكُمْ أَفْسَدُ مِنْهُ
لَهَا؛ فَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ الرَّجُلَ مِنْكُمْ إِذَا صَحَّحَهُ مَنْ يَبْدُلُ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ، مَا يَجِبُ لَهُ عَلَيْهِ مِنْ حَقِّهِ؛
فَوَاجِبٌ عَلَيْهِ أَنْ يَعْتَقِدَ لَهُ مِنْ وَفَائِهِ وَشُكْرِهِ، وَأَحْتِمَالِهِ وَنَصِيحَتِهِ، وَكَيْفَانِ سِرِّهِ وَتَدْيِيرِ أَمْرِهِ،

(١) نَبَأُ تَحَابُّهِ وَتَمَامِهِ .

ما هو جزءاً لحقّه، ويصدق ذلك فعله عند الحاجة إليه، والأضطرار إلى ما لديه، فاستشعروا ذلك - وفقم الله - من أنفسكم في حالة الرّخاء، والشّدّة والحُرمان والمُواساة والإحسان والسّراء والضّراء؛ فنعمت الشّيمة هذه لمن وُسم بها من أهل هذه الصناعة الشريفة؛ وإذا ولّى الرجل منكم أو صير إليه من أمرٍ خلق الله وعيّا أمرٌ، فليراقب الله عز وجل وليؤثر طاعته؛ وليكن على الضعيف رقيقاً، وللظالم منصفاً؛ فإنّ الخلق عيال الله، وأحبهم إليه أرقهم بعياله؛ ثم ليكنّ بالعدل حاكماً، وللأشراف مُكرماً، وللأغنياء موفّراً، وللبلاد عامراً، وللرعيّة مُتألّفاً، وعن أذاهم منخلفاً؛ وليكن في مجلسه متواضعاً حليماً، وفي سجلات خراجهِ وأستقضاء حقوقه دقيقاً؛ وإذا صحّب أحدكم رجلاً فليختبر خلائقه، فإذا عرّف حسنّها وقبيحها أعانه على ما يوافقهِ من الحسّن، وأحتال على صرّفه عمّا يهواه من القبيح بالطف حيلة وأجل وسيلة.

وقد علمتم أن سائس البهيمة إذا كان بصيراً بسياستها التمس معرفة أخلاقها، فإن كانت رموحاً لم يهجمها إذا ركبها، وإن كانت شبوباً أتقها من بين يديها، وإن خاف منها شرودا توقاها من ناحية رأسها، وإن كانت حرّونا قمع برفق هواها في طرفها، فإن استمرت عطفها يسيراً، فيسلس له قيادها، وفي هذا الوصف من السياسة دلائل لمن ساس الناس وعاملهم وجرّبهم وداخلهم .

والكاتب لفضّل أدبه وشريف صنعته ولطيف حيلته، ومعاملته لمن يحاوله من الناس ويناضره، ويفهم عنه أو يخاف سطوته، أولى بالرفق لصاحبه ومداراته وتقويم أوده، من سائس البهيمة التي لا تُخبر جواباً، ولا تعرف صواباً، ولا تفهم خطاباً، إلا بقدر ما يُصيرها إليه صاحبها الراكب عليها؛ ألا فارفقوا رحمكم الله في النظر، وأعملوا ما أمكنكم فيه من الرويّة والفكر، تأمنوا بأذن الله من صحبتموه النّبوة والاستئقال والجفوة؛ وبصير منكم إلى الموافقة، وتصيروا منه إلى المؤاخاة والشفقة، إن شاء الله؛ ولا يُجاوزن الرجل منكم في هيئة مجلسه، وملبسه ومركبه، ومطعمه ومشربه وخدمه، وغير ذلك من فنون أمره قدر حقّه؛ فإنكم مع ما فضّلكم الله به من شرف صنعتكم، خدمة لا يُتمنون في خدمتكم على التّقصير، وحفظه

لأَحْتَمَلُ مِنْكُمْ أَعْمَالَ التَّضْيِيعِ وَالتَّبْذِيرِ، وَاسْتَعِينُوا عَلَي أَعْمَالِكُمْ بِالْقَصْدِ فِي كُلِّ مَا ذَكَرْتُهُ لَكُمْ، وَقَصَصْتُهُ عَلَيْكُمْ، وَأَحْذَرُوا مَتَالِفَ السَّرْفِ، وَسُوءَ عَاقِبَةِ التَّرَفِّ؛ فَإِنَّهُمَا يُعْقَبَانِ الْفَقْرَ، وَيُذَلَّانِ الرَّقَابَ وَيَفْضَحَانِ أَهْلَهُمَا، وَلَا سِيَّامَا الْكُتَّابَ وَأَرْبَابَ الْآدَابِ . وَالْأُمُورُ أَشْبَاهُ وَبَعْضُهَا دَلِيلٌ عَلَى بَعْضٍ؛ فَاسْتَدَلُّوا عَلَى مُؤْتَنَفِ أَعْمَالِكُمْ، بِمَا سَبَقَتْ إِلَيْهِ تَجْرِبَتُكُمْ؛ ثُمَّ أَسْأَلُوكُم مِّنْ مَّسَالِكِ التَّنْدِيرِ أَوْصَحِّهَا مَحَبَّةً، وَأَصْدَقُهَا حُجَّةً، وَأَحْمَدُهَا عَاقِبَةً .

وَأَعْلَمُوا أَنَّ لَلتَّنْدِيرِ آفَةً مُتَمَلِّقَةً، وَهُوَ الْوَصْفُ الشَّاعِلُ لِصَاحِبِهِ، عَنِ الْإِنْفَازِ عِلْمُهُ وَرَوِيَّتُهُ؛ فَلْيَقْصِدِ الرَّجُلُ مِنْكُمْ فِي مَجْلِسِهِ، قَصْدَ الْكَافِي فِي مَنَاطِقِهِ؛ وَلْيُوجِزْ فِي آبْتِدَائِهِ وَجَوَابِهِ، وَلْيَأْخُذْ بِجَمَاعٍ مُّحَجِّجَةٍ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ مَصْلَحَةٌ لِّفَعْلِهِ، وَمَدْفَعَةٌ لِّلشَّاعِلِ مِنْ إِتْكَارِهِ؛ وَلْيَضْرَعْ إِلَى اللَّهِ فِي صَلَاةِ تَوْفِيقِهِ، وَإِمْدَادِهِ بِتَسْدِيدِهِ؛ وَخَافَةَ وَقُوعِهِ فِي الْغَلَطِ الْمُضَرِّ بِيَدِهِ، وَعَقَلَهُ وَأَدَبَهُ، فَإِنَّهُ إِنْ ظَنَّ مِنْكُمْ ظَانًّا أَوْ قَالَ قَائِلًا: إِنَّ الَّذِي بَرَزَ مِنْ جَمِيلِ صَنَعَتِهِ وَقُوَّةِ حَرَكَتِهِ، إِنَّمَا هُوَ بِفَضْلِ حِيلَتِهِ وَحُسْنِ تَدْبِيرِهِ؛ فَقَدْ تَعَرَّضَ بِحُسْنِ ظَنِّهِ أَوْ مَقَائِلِهِ إِلَى أَنْ يَكَلِّهَ اللَّهُ عِزَّ وَجَلَّ إِلَى نَفْسِهِ، فَيَصِيرُ مِنْهَا إِلَى غَيْرِ كَافٍ، وَذَلِكَ عَلَى مَنْ تَأَمَّلَهُ غَيْرُ خَافٍ؛ وَلَا يَقُولُ أَحَدٌ مِنْكُمْ إِنَّهُ أَبْصَرَ بِالْأُمُورِ، وَأَحْمَلَ لِأَعْيَابِ التَّنْدِيرِ؛ مِنْ مُرَافِقِهِ فِي صِنَاعَتِهِ، وَمُصَاحِبِهِ فِي خِدْمَتِهِ؛ فَإِنَّ أَعْقَلَ الرَّجُلَيْنِ عِنْدَ ذَوِي الْأَلْبَابِ مَنْ رَمَى بِالْعُجْبِ وَرَاءَ ظَهْرِهِ، وَرَأَى أَنَّ أَصْحَابَهُ أَعْقَلُ مِنْهُ وَأَجْمَلُ فِي طَرِيقَتِهِ؛ وَعَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ أَنْ يَعْرِفَ فَضْلَ نِعْمِ اللَّهِ جَلَّ شَأْؤُهُ مِنْ غَيْرِ آخْتِرَارِ بَرَأْيِهِ، وَلَا تَرْكِيَةِ لِنَفْسِهِ؛ وَلَا يُكَاثِرَ عَلَى أُخِيهِ أَوْ نَظِيرِهِ، وَصَاحِبِهِ وَعَشِيرَتِهِ؛ وَحَمْدُ اللَّهِ وَاجِبٌ عَلَى الْجَمِيعِ .

وَذَلِكَ بِالتَّوَاضُعِ لِعَظَمَتِهِ، وَالتَّذَلُّلِ لِعِزَّتِهِ، وَالتَّحَدُّثِ بِنِعْمَتِهِ؛ وَأَنَا أَقُولُ فِي كِتَابِي هَذَا مَا سَبَقَ بِهِ الْمَثَلُ: "مَنْ تَلَزَمَهُ النَّصِيحَةُ يَلْزِمَهُ الْعَمَلُ" وَهُوَ جَوْهَرُ هَذَا الْكِتَابِ وَغُرَّةُ كَلَامِهِ، بَعْدَ الَّذِي فِيهِ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ عِزَّ وَجَلَّ، فَلِذَلِكَ جَعَلْتُهُ آخِرَهُ وَتَمَّتْهُ بِهِ . تَوَلَّانا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ يَا مَعْشَرَ الطَّلَبَةِ وَالكِتَابَةِ بِمَا يَتَوَلَّى بِهِ مَنْ سَبَقَ عِلْمُهُ بِإِسْعَادِهِ وَإِرْشَادِهِ، فَإِنَّ ذَلِكَ إِلَيْهِ وَيَسْأَلُهُ . وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ .

٨ - رسالة ثلاثة لعبد الحميد الكاتب

ومن رسائل عبد الحميد رسالة في الشطرنج^(١) :

أما بعد ، فإن الله شرع دينه بإنهاج سبيله ، وإيضاح معالمه بإظهار فرائضه ، وبعث رسالته الى خلقه دلالة لهم على ربوبيته ، واحتجاجاً عليهم برسالاته ، ومقدماً اليهم بإنذاره ووعيده ، لهلك من هلك عن بينة ، ويحيى من حى عن بينة ؛ ثم ختم بنبيه صلى الله عليه وسلم وحيه ، ووقى به رساله ، وأبعثه لإحياء دينه الدارس مرتضياً له على حين انظمت الأعلام^(٢) محتفية ، وتشئت السبل متفرقة ، وعقت آثار الدين دارسة ، وسطع ربح الفتن ، وأعتلى قنأم الظلم ، وأستهد الشرك ، وأسدف الكفر^(٣) ، وظهر أولياء الشيطان لطموس الأعلام ، ونطق زعيم الباطل بسكنة الحق ، وأستطرق الجور وأستنكح الصدوف عن الحق ، وأقطر سلهب الفتنة ، وأستضرم لقاؤها ، وطبقت الأرض ظلمة كفرة وغياية فساد ؛ فصدع بالحق ما مورا ، وأبلغ الرسالة معصوما ، ونصح الإسلام وأهله ، دالاً لهم على المرآشد ، وقائداً لهم الى الهداية ، ومنيراً لهم أعلام الحق ضاحية ، مرشداً لهم الى أستفتاح باب الرحمة وإعلاق عروة النجاة ؛ مؤصفاً لهم سبل الغواية ، زاجراً لهم عن طريق الضلالة ، محذراً لهم الهلكة ، مؤعزاً اليهم فى التقديمة ، ضارباً لهم الحدود على ما يتقون من الأمور ويخشون ، وما إليه يسارعون ويطلبون ؛ صابراً نفسه على الأذى والتكذيب ، داعياً لهم بالترغيب والترهيب ؛ حريصاً عليهم ، متحنتاً على كآفتهم ،

(١) هذه الرسالة من كتاب « اختيار المنظوم والمنثور » لأبى طيمور الخفرو بدار الكتب المصرية تحت رقم (٥٨١ أدب) ومراجعة على نسخة أخرى منه محفوظة برقم (١٨٦٠ أدب) .

(٢) وردت هذه الجملة فى رسائل البلاء هكذا : « على حين انظمت له الأعلام ... » بزيادة "له" ، وليس لها محل من السياق فلعلها من زيادات النساخ .

(٣) أسدف الكفر : أظلم وعم النواحى والأرجاء كالليل . (٤) اقطر : اشتت .

(٥) الغياية ، ما أظلم الاسنان من فوق كالسحابة والغبرة ومحوها .

(٦) فى رسائل البلاء وإعلاجه باليونان بدل القاضى ، وهو بحر ومضى .

عزيراً عليه عَثْمُهم ، رءوفاً بهم رحياً ، تقدمه شفقتة عليهم وعنايته برشدهم الى تجريد
الطلب الى ربه فيما فيه بقاء النعمة عليهم ، وسلامة أديانهم ، وتخفيف آصار الأوزار عنهم ،^(١)
حتى قبضه الله اليه - صلى الله عليه وسلم - ناصحاً متصصاً ، أميناً مأموناً ، قد بلغ الرسالة ، وأدى
النصيحة ، وقام بالحق ، وعدل عمود الدين ، حتى اعتدل ميله ، وأذل الشرك وأهله ، وأنجز
الله له وعده ، وأراه صدق أنبائه في إكمالهِ للسالمين دينه ، واستقامة سنته فيهم ، وظهور
شرائعه عليهم . قد أبان لهم موبقات الأعمال ، ومفطعات الذنوب ، ومهبطات الأوزار ،
وظلم الشبهات ، وما يدعو اليه نقصان الأديان ، وتستهويهم به الغوايات ، وأوضح لهم أعلام
الحق ، ومنازل المرشد ، وطرق الهدى ، وأبواب النجاة ، ومعالق العصمة ، غير مدخري لهم
نصحا ولا متبغ في إرشادهم غمًا . فكان مما قدم اليهم فيه نبيه ، وأعلمهم سوء عاقبته ،
وحذرهم إصره ، وأوعز اليهم ناهياً وواعظاً وزاجراً ، الاعتكاف على هذه التماثيل من
الشطرنج والمواصله عليها ، لما في ذلك من عظيم الإثم ، ومويق الوزر ، مع مشغلتها
عن طلب المعاش ، وإضرارها بالعقول ، ومنعها من حضور الصلوات في مواقيتها مع جميع
المسلمين .

وقد بلغ أمير المؤمنين أن ناساً ، ممن قبلك من أهل الإسلام ، قد ألجهم الشيطان
بها ، وجمعهم عليها ، وألف بينهم فيها ، فهم معتكفون عليها من لدن صبحهم الى
مُتساهم ، ملهية لهم عن الصلوات ، شاغلة لهم عما أمرُوا به من القيام بسُنن دينهم ،
وأقترض عليهم من شرائع أعمالهم ، مع مداعتهم فيها ، وسوء لفظهم عليها . وإن ذلك من
فعلهم ظاهرٌ في الأندية والمجالس ، غير منكرٍ ولا معيبٍ ولا مُستفزعٍ عند أهل الفقه ،
وذوى الورع والأديان والأسنان منهم ، فأكبر أمير المؤمنين ذلك وأعظمه ، وكرهه

(١) آصار : جمع إصر وهو الثقل . وفي رسائل البناء واختيار المنظوم والمشور لابن طيفور «أواصر» بدل

أواصر وهو نحر يفس . (٢) في رسائل البناء واختيار المنظوم والمشور لابن طيفور «أسبابه» وهو نحر يفس .

وأستكبره ، وعلم أن الشيطان عندما يئس منه من بلوغ إرادته في معاصي الله عز وجل ، بمصر المسلمين وجمعهم صُراحاً وجهاراً ، أقدم بهم على شبهة مُهلكة ، وزين لهم ورطة موبقة ، وغرهم بمكيدة حيله ، إرادة لاستهوائهم بالخدع ، وأجتيالهم بالشبه والمراد الخفية المشكلة . وكل مقيم على معصية الله ، صغرت أو كبرت ، مستحلاً لها مُشيداً بها ، مظهرًا لارتكابه إياها ، غير حذير من عقاب الله عز وجل عليها ، ولا خائف مكرهاً فيها ، ولا راعي من حلول سخطه عليها ، حتى تلحقه المنية ، فتختلجه وهو مُصر عليها ، غير تائب الى الله منها ، ولا مستغفر من ارتكابه إياها ، فكم من أقام على موبقات الآثام وبيئات الذنوب ، حتى مدته ومُحرم أيامه .

وقد أحب أمير المؤمنين أن يتقدم اليهم ، فيما بلغه عنهم ، وأن يندبهم ويوعز اليهم ، ويعلمهم ما في أعناقهم عليها ، وما لهم في قبول ذلك من الخطأ ، وعليهم في تركه من الوزر ، فأذن بذلك فيهم ، وأشدّه في أسواقهم وجميع أنديةهم ، وأوعز اليهم فيه . وتقدم الى عامل شُرتك في إنهاك العقوبة لمن رُفِع اليه : من أهل الاعتكاف عليها والإظهار للعب بها ، وإطالة حبسه في ضيق وضنك ، وطرح اسمه من ديوان أمير المؤمنين . وأفطمهم عما لهجوا به من ذلك . وأتمس بشدتك عليهم فيه وإنهاكك بالعقوبة عليه ، ثواب الله وجزاءه ، وآتباع أمير المؤمنين ورأيه . ولا يمددك أحد عندك هواده في التقصير في حق الله عز وجل ، والتعدى لأحكامه ، فتحل بنفسك ما يسوءك عاقبة مقبته ، وتعرض به لغير الله عز وجل ونكاله . وأكتب الى أمير المؤمنين ما يكون منك ، إن شاء الله والسلام .

(١) اجتاهم : حوّلهم عن طريق قصدهم ويحتمل أن يكون : واحتياهم ، والاحتبال : الاصطياد .

(٢) آذنه الأمر منه : أعله .

رسالة رابعة لعبد الحميد الكاتب

٩ - ومن رسائل عبد الحميد هذه الرسالة التي وصف بها الصيد ^(١) :

أطال الله بقاء أمير المؤمنين مؤيداً بالعز، مخصوصاً بالكرامة، ممتعاً بالنعمة، إنه لم يلق ^(٢) أحد من المقتنصين ، ولا منيح متطرف من المتصيدين ، إلا دون ما لقانا الله به من ^(٣) اليمن والبركة ، ومنحنا من الظفر والسعادة في مسيرنا من كثرة الصيد ، وحسن المقتنص ، وتمكين الجاسة ، وقرب الغاية ، وسهولة المورد ، وعموم القدورة ، إلا ما كان من محاولة ^(٤) الطيب ، وشدة النَّصَب ، لنافر الصيد ، وقائد الطريدة التي أمعنا في الطاب لها ، وأعجزنا البهر عن اللحاق بها ، لتفاوت سبقها ، ومنقطع هربها ، ومتفرق سبلها ، ثم آل بنا ذلك الى ^(٥) حسن الظفر ، وتناوب الأرب ، ونهاية الطرب .

ولإني أخبر أمير المؤمنين أننا خرجنا الى الصيد بأعدى الجوارح ، وأتقى الضواري ؛ أكرمها أجاسا ، وأعظمها أجساما ، وأحسنها ألوانا ، وأحدها أطرافا ، وأطولها أعضاء ، قد تفتت بحسن الأدب ، وعودت شدة الطلب ، وسبرت أعلام المواقف ، وخبرت الحامم ، ^(٦) مجبولة على ما عودت ، ومقصورة على ما أدبت . ومعنا من نفائس الخيل المخبورة الفراهة ، من الشهيرة ^(٧) الموصوفة بالنجابة ، والجري والصلابة . فلم نزل بأخفض سير ، وأتقى طلب ، وقد أمطرتنا السماء مطرا متداركا ، فربت منه الأرض ، وزهر البقل ، وسكن القتام من مثار ^(٨) السناكب ، ومتشعبات الأعاصير ، مهلة أن ^(٩) سرنا علوات ، ثم برزت الشمس طالعة ، وأنكشفت [من] السحاب مسفرة ، فتلاأت الأشجار ، وضحك النوار ، وأبجلت الأبصار ، فلم نر منظرا أحسن حسنا ، ولا مرموقا أشبه شكلا ، من آبتسام نور الشمس عن أخضرار

(١) هذه الرسالة من كتاب « اختيار المنظوم والمشور » لأبن طيفور .

(٢) في الأصل : " يلف " . (٣) في الأصل : " القانا " . (٤) كذا في الأصل ولعلها

محررة عن الحباله . (٥) القدورة : القدرة ، وفي الأصل : " المقدورة " . (٦) الراحة :

النشاط في المحير . (٧) الشهيرة : البرافين . (٨) في الأصل : هكذا " سنا " .

(٩) في الأصل " متسعات " .

زهرة الرياض . وإخيل تمرحُ بنا نشاطا ، وتجذبنا أعنتها أنبساطا ؛ ثم لم نلبث أن علتنا ضبايةً تقصر طرفَ الناظر ، وتُخفي سبيلَ السلام ^(٢) ، تغشانا نارةً وتكشف أخرى ، ونحن بأرضٍ دميثة التراب ، أشبه الأَطراف ^(٣) ، مُغدقة الفِجاج ، مملوءة صيدا من الطباء والنعالب والأرانب ؛ فأدانا المسير إلى غاية دونها مألَّف الصيد ، ومجتمع الوحش ، ونهاية الطلب ، قد جاوزناها ونحن على سبيل الطلب ممعنون ، وبكلِّ حرة جونية متفرقون ^(٤) ، فرجع بنا العودُ على البدء ، وقد أنجمت الضباية ، وأمتد البصر ، وأمكن النظر ، فإذا نحن برحلةٍ من طباء ، وخليفةِ آرام يرتعن آسأت ، قد أhalتهن الضباية عن شخصنا ، وأذهلهن أتيق الرياض عن أستماع حسنا ، فلم نفع إلا والضواري لأئحة لهن من بعد الغاية ، ومتمهى نظر الشاخص ؛ ثم مدت الجوارح أجنحتها ، وأجذبت الضواري مقاودها ، فأمرت بإرسالها على الثقة بمحضرها ، وسرعة الجوارح في طلبها ، فترت تُحفِّف حفيف الريح عند هبوبها ، تُسف الأرض سقا ، كاشفة عن آثارها ، طالبة لخيارها ، حارشة بأظفارها ، قد مزقتها تمزيق الريح الجراد ؛ فن صائح بها وناعر ، وهاتف بها وناعق ، يدعو الكلب بأسمه ، ويفديه بأبيه وأمه ؛ وراكض تحت مُفره ، وخافق يطلبه الريح ، وطاح يمنعه ، وسائح قد عارضه بارح ، قد حيرتنا الكثرة ، وألهجتنا القدرة ، حتى آملت أأيدينا من صنوف الصيد ، والله المنعم الوهاب .

ثم ملنا يا أمير المؤمنين بهداية دليلٍ قد أحكمته التجارب ، وخبر أعلام المذانب ، إلى غدير أفيح ، وروضة خضرة ، مستأجمة بتلاوين الشجر ، ملتفة بصنوف الخمر ^(٥) ، مملوءة من أنواع الطير ، لم يدع رهن صائد ، ولا أقتصرن قانص ، خفيق لها بطبول ، وصفر بنفير الخلف ، فتار منها ما ملأ الأفق كثرتها ، وراعت الجوارح خفقات أجنحتها ؛ ثم أنبرت البراة

(١) في الأصل : "تقتصر" . (٢) في الأصل : "ويحي" .

(٣) الأشية : اللتمة الشجر . وفي الأصل «آسه» . (٤) الحرة : أرض دات حجارة نخرة سود ،

وفي الأصل «حر» . (٥) الجونة : السوداء ، وفي الأصل هكذا : «حونه» . (٦) رحلة : جماعة

متفرقة . (٧) في الأصل : «يبح» . (٨) الخمر : الشجر .

لها صائدة، والصقور كاسرة، والشواهين ضارية، يرفعن الطلب لها، ويخفيهن الظفر بها، حتى سمنا من الدبح، وأمتلأنا من النضيج؛ كأننا كنيئة ظفرت ببغيها، وسرية نصرت على عدوها، وألحقت ضعيفها بقويها، وظلت محسنا بمسيئها؛ لا نملك أنفسنا مرحا، ولا نستفيق من الجدل بها فرحا، بقية يومنا، والله المنعم الوهاب .

ثم غدونا يا أمير المؤمنين الى ارض ووصف لنا صيدها بالكثرة، ورياضها بالزهوة، فزل واصفها عن الطريقة، وأعمد بنا على غير الحقيقة؛ فأتيناها فلم نرصيدا ولا عشبا، ولا زهوه ولا حسنا، فجعلنا نسلك منها حزونا ووعورا، وجدوبا وقفرا، حتى قصر بنا اليأس عن الطلب، وقطع بنا عن الطمع النصب . فبينما نحن كذلك، إذ بدا لنا جاب قد أوفى بنا على حائل دل على غابة من ورائها حير وحش كثيرة، فأتمناها، فلما تطرفنا مشيا وتقريبا الى عاناته، توالى نهيقه، وكثر شهيقه، فألتفتن اليه، فرمقن بأعينهن منا ما استكرن شخصه، وأستهلن أمره، حتى اذا كنا بمرأى ومسمع أنجذبن مؤليات، وهربن مسيات، فأجهدنا الرقص في طلبهن، نتبع آثارهن، ونستشف بلاء بين أحفار ودكادك وخناذيد، حتى أشفى بنا الطلب لها على واد هائل سائل، يجنبنيه غابة أشبه قد سبقن اليها، وأستخفين فيها، فنظمتها بالخليل نظم الخرز، ثم أوغلت عدة فرسان في نقضها ومعرفة أحوالها، والطبول خافقة، والأصوات شاهقة، فكان وكان؛ والحمد لله على كل حال .

(١) النضيج : العرق .

(٢) في الأصل : "قلب" . (٣) الجاب : الغليظ من حر الوحش . (٤) في الأصل :

"مسيبا" . (٥) التقريب : ضرب من العدو . (٦) العانة : القطيع من حر الوحش .

(٧) الأحفار جمع حمر وهو التراب المخرج من الحفور . (٨) الدكادك : جمع دكك ودكادك وهو أرض فيها

غظظ . (٩) الخناذيد : جمع خنذ وهو رأس الجبل المشرف ، والذي يتفق والسياق "أحاديد" ،

وهي جمع أخدود : الحفرة المستطيلة في الأرض .

باب المنظوم

الغزل

ذكرنا في المجلد الأول حالة الغزل في العصر الأموي، وكثرة ما نجد فيه من لواعج الحب ولقحاته، وشكائيات الصب وأناته، وزفرات العاشق وعبراته. وبيننا أنواعه المتباينة التي قسمناها الى أربعة أقسام :

(أ) غزل إباحتى : ويصح لنا أن نتخذ من عمر بن أبي ربيعة زعما لهذا النوع الذى يجمع الى وصف المرأة والتشبيب بها، معانى العبث والاستمتاع باللذة المادية مما ينفى منه الأدب الجاهلى، ومما حظره عليه الكثيرون من خلفاء الاسلام وأئمة. وقد كانت مكة والمدينة مسرحا لهذا النوع في العصر الأموي. وقد شرحنا سبب ذلك في المجلد الأول فراجعه ثمة .

(ب) غزل عذرى : وهو غزل الحب الصادق، والعواطف المتأججة، والنفس المتألمة المعناة، تلك النفس التي تجد لذتها في الكلف بمن تحب والتعلق بها والشعور بالسعادة في الفناء في حبا، حبا يملك عليه لبه ويعذب روحه ويُقنى جسمه، كغزل جميل زعيم هذا النوع. وليس أدل على صدق حبه مما أثبتناه عن كتاب الأغاني اذ حاول أبوه أن يصرفه عن حبه وحاجه في ذلك أجمل مُحاجة، فكان من جميل ما كان مما تجده مفصلا في هذا الباب .

(ج) غزل صناعتى : بين هذا وذاك، همه الإجابة في الشعر من حيث هو شعرا، لا في الحب من حيث هو حب، ولنا في كثير عزة زعيم لهذا النوع الثالث .

(د) غزل قصصى : خلقه الرواة لأنهم رأوا ميل الناس الى الغزل والى حياة القصف وما يتبع حياة القصف، فنظموا قصائد نحواها لشعراء لا نستطيع أن نختل بعبء

القول بوجودهم في الحياة، أو القول بأنهم أشخاص خياليون خلقهم الرواة، أو زادوا من عندهم مقطعات نسبوا لهم وأضافوها إلى شعرهم . وزعيا هذا النوع : قيس بن الملوّح وليلاه ، وقيس بن ذريح ولبناه .

وإيفاء بما وعدناك به نذكر زعيم كل نوع من هذه الأنواع مع ذكر ترجمته والمختار من شعره .

(١) الغزل الاباحي

عمر بن أبي ربيعة^(١)

« راقٍ عمرُ بن أبي ربيعة النَّسَّ وفَاقَ نَظْرَاءَهُ وَبَرَّعَهُمْ بِسَهُولَةِ الشَّعْرِ وَشِدَّةِ الْأَسْرِ ، وَحُسْنِ الْوَصْفِ ، وَدَقَّةِ الْمَعْنَى ، وَصَوَابِ الْمَصْدَرِ ، وَالْقَصْدِ لِلحَاجَةِ ، وَأَسْتِنطَاقِ الرَّبْعِ ، وَإِنطَاقِ

(١) هو أبو الخطاب عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة القرشي المخزومي ، أشعر قرينش وأرق أصحاب الغزل ، وأوصف الشعراء لأحوال النساء .

ولد بالمدينة ليلة مات عمر بن الخطاب رضوان الله عليه ، وكانت أمه نصرانية ، وكان أبوه تاحرا موسرا ، وعاملا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولخلفاء الثلاثة من بعده ، فشب في بعم وترف ، وقال الشعر صغيرا ، وسلك فيه طريق الغزل ، ووصف أحوال النساء وتراورهن ومداعبة بعضهن لبعض ، وما يعتدل قوله من الكلام ، مما يتوقر الشعراء الفحول عن الخوص فيه ، ولذلك لم يحملوا بشعره وعدوه من هذيان حلما المدينة ، فما زال يعالج الشعر والشعري بقادله ، حتى ملك ناصيته ، وقبض على زمامه ، وبرز الشعراء ، وقال رأيت المشهورة على طريقته المبكرة وهي التي أزلها :

أمن آل سم أنت عاد فبكر * عادة عد أم راحم فهجر

والتي قال فيها جريحين سمعها : ما زال هذا القرشي يهذي حتى قال الشعر .

ثم استطار شره في التسيب بالنساء : من يعرفها ومن لا يعرفها ، وتعرض لاصناعات المتعفات من نساء قومه ومن عيرهن ، فوقعن منه في بلاء عظيم وصرن يخفن الخروج إلى الحج لأنه كان يتلقاهن بمكة ، ويتربن خروجهن للطواف والسعي ويصفهن وهن محرمات . وحلبت عليه رجالات قرينش لمكانة نسبه منهم ولتربن توبته وإقلاعه ، فلما تآدى في أمره وشبب بنات السادات والخلفاء ، غضب عليه عمر بن عبد العزيز ونهاه إلى دهلك : (وهي جزيرة أمام مدينة مصوح) ، ثم رأى ابن أبي ربيعة أن يكفر عن سيئاته بالتوبة والجهاد فعزا في البحر فاحترقت السفينة التي كان فيها واحترق هو أيضا سنة ٩٣ هـ وقد اقتبسنا تصدير بحثنا عنه عن أبي العرج الأصفهاني وتجد ترجمته مطولة في الأغاني ج ١ ص ٦١ — ٢٤٨ (طبعة دار الكتب المصرية) والشعر والشعراء ص ٣٤٨ وابن خلكان (ج ١ ص ٣٧٨) والدميري (ج ١ ص ٣٢٦) والعقد الفريد (ج ٣ ص ١٣٢) وله ديوان مطبوع في ليزبج سنة ١٨٩٣ وفي مصر سنة ١٣١١ ومه نسختان خطيتان بدار الكتب المصرية .

القلب ، وحسن العزاء ، ومخاطبة النساء ، وعفة المقال ، وقلة الانتقال ، وإثبات الحجّة ، وتبريح الشك في موضع اليقين ، وطلاوة الاعتذار ، وفتح الغزل ، ونهج العِلل . وعَطِفَ المساءَ على العُدال ، وحسن التفجّع ، وبُحِلَّ المنازل ، واختصار الخبر ، وصدق الصّفاء ، إن قَدَحَ أَوْرى ، وإن اعتذر أبرا ، وإن تشكّى أنجى ، وأقدم عن خبرة ، ولم يعتذر بغرّة ، وأسّر النوم ، وغمّ الطير ، وأغدّ السير ، وحير ماء الشّبَاب ، وسهلّ وقول ، وقاس الهوى فأرّبي ، وعصى وأحلى ، وحالف بسمعه وطرفه ، وأبرم نعت الرُّسل وحذر ، وأعلن الحبّ وأسره ، وبطن به وأظهره ، وألحّ وأسفّ ، وأنكح النوم ، وجنى الحديث وضرب ظهره لبطنه ، وأذلّ صعبه ، وقنع بالرجاء من الوفاء ، وأعلى قاتله ، وأسبكي عاذله ، ونفض النوم ، وأغلق رهن منى وأهدر قتلاه ؛ وكان بعد هذا كله فصيحاً .

فمن سهولة شعره وشدة أسرّه قوله ^(١) :

فلما تواقفنا وسلّمتُ أشرقَتْ * وجوهُ زهاها الحسنُ أن نتقننا

تبألحن بالعرفان لما رأيَني * وقلنَ أمرؤُ باغِ أكلٍّ وأوضعا ^(٢)

ومن حُسن وصفه قوله :

لها من الرّيمِ عيناه ولفتته ^(٣) * ونحوهُ السابقُ المُختالِ إذ صهلا

ومن دقّة معناه وصوابِ مصدره قوله :

عوجاً نحى الطلّلَ المحوِّلاً ^(٤) * والرّبعَ من أسماءِ والمترلاً ^(٥)

بسايغِ البوّابةِ لم يعدّه ^(٦) * تقادّم العهدِ بأن يؤهّلا

(١) المراد من شدة الأسر هنا إحكام النسيج ومناة التركيب . (٢) أكل : أعبأ وأوضع : أسرع

في السير . (٣) الرّيم : الظبي . (٤) عرجا : قفا . (٥) المحول والمحيل : الذى أتت

عليه أحوال كثيرة فغيرته . (٦) البوّابة : الفسلاة واسم لصحراء بارض تهامة اذا خربت من اعلى

وادی النخلة الجمانية وهى بلاد بنى سعد بن بكر بن هوازن . (معجم البلدان لياقوت) .

ومن قصده الحاجة قوله :

أيها المنكحُ الثريا سُهَيْلاً * عَمَّرَكَ اللهُ كَيْفَ يَلْتَقِيَانِ
هي شاميةٌ إذا ما استقلتُ * وسُهَيْلٌ إذا استقلَّ يَمَانِي

ومن استنطاقه الربع قوله :

سائلًا الربعَ بالبلى^(٢) وقولا * هجّت شوقًا لى الغداة طويلاً
أين حتى حلوك إذ أنت محفو * فُ بهم أهلُّ أراك جميلاً
قال ساروا فأمعنوا وأستقلوا^(٣) * وبرئعي ولو وجدتُ سبيلاً
سممونا وما ستمنا جواراً * وأحبوا دمانه^(٤) وسهولاً

قال إسحاق : أنشد جرير هذه الأبيات فقال : إن هذا الذى كاندور عليه فأخطأناه .

ومن إنطاقه القلب قوله :

قال لى فيها عتيقٌ مقالا * بخرت مما يقول الدموعُ
قال لى ودعٌ سلمي ودعها * فأجاب القلبُ : لا أستطيعُ

ومن حسن عزائه قوله :

أألحقُ إن دارُ الربابِ تباعدتُ * أو أنبتُ جبلٌ أن قلبك طائرُ
أفنى قد أفاق العاشقون وفارقوا الـ * هوى وأستمرت بالرجال المرائرُ^(٦)
زع النفس واستبق الحياء فإتما^(٧) * تباعد أو تدنى الرباب المَقَادِرُ
أمت حبها وأجعل قديمٍ وصالحها * وعشمتها كمثل من لا تُعاشرُ

- (١) هي الثريا ابنة عبد الله بن الحارث بن أمية الأصغر بن عبد شمس بن عبد مناف الأموية . تزوجها سهيل ابن عبد الرحمن بن عوف الزهرى رضى الله عنه ونقلها الى مصر فقال عمر هذا الشعر . (٢) البلى — بضم وفتح ويا، مشددة — تل قصير أسفل حاذة بينها وبين ذات عرق (ياقوت) . (٣) استقلوا : واصلوا السير ووجدوا فى الأرتحال . (٤) يقال : دمت الأرض دماناً : سهلت ولانت . (٥) انبت : انقطع . (٦) المراد أن الرجال قد أفاقوا واستحكمت عزائمهم وهو يريد أن يسلموهم . (٧) زع النفس ، أى أزرعها وكفها عن هواها .

وهبها كشيء لم يكن أو كزاج * به الدار أو من غيبته المقابر
وكالناس علقَت الرِّبابَ فلا تكن * أحاديث من يبدو ومن هو حاضر^(١)

وهذه الأبيات يرويها بعض أهل الحجاز لكثير، ويرويها الكوفيون للكثير بن معروف
الأسدي، وذكر بعضها الزبير بن بكار عن ابن عبيدة لكثير في أخباره .

ومن حسن غزله في مخاطبة النساء - قال مُصعب الزُّبيري : وقد أجمع أهل بلدنا
مَنْ له علمٌ بالشعر أن هذه الأبيات أغزل ما سمعوا - قوله :

تقول غداة التقينا الربابُ * أياذا أفلتَ أفلولَ السَّماكِ
وكففت سوايقَ من عبرة * كما أرفضَ نظمَ ضعيفِ السَّلاكِ
فقلتُ لها مَنْ يُطعُ في الصَّديقتي أعداءَه يمتنِّبُه كذاكِ
أغرَّكِ أتي عصيتُ المالا * مَ فيكِ وأنَّ هوانا هواكِ
وأن لا أرى لذةً في الحياة * تقرُّ بها العينُ حتى أراكِ
فكان من الذنبِ لي عندكم * مكارمِي وأتباعِي رصاكِ
فليت الذي لآمَ في حُبكم * وفي أن تُرايَ بقربِ وقالِكِ^(٢)
همومَ الحياةِ وأسقامها * وإن كان حَتفٌ جهيزٌ فذاكِ^(٣)

ومن عفة مقالِه قوله :

طال ليلى وأعادني اليومَ سقمُ * وأصابت مَقاتِلَ القلبِ نَعْمُ
حُرَّةُ الوجهِ والشَّمايلِ والجَو * هيرُ تكليمها لمن نال غُـمُ
وحديثٌ بمثله نُزِلَ العَصـ^(٤) * م رَخِيمٌ يَشوبُ ذلكَ حِلْمُ
هكذا وصَّف ما بدا لي منها * ليس لي بالذي تغيبَ عِلْمُ
إن تجودِي أو تجنلي فيحمدِ * لستِ يا نَعْمُ فيهما من يَدُمُ

(١) أي من يقم في البدو والحضر . (٢) المراد به قرن المازل، وكثيرا ما يذكره في شعره .

(٣) جهيز : سريع . (٤) العصم : جمع أعصم وهو من الظباء والوعول ما في ذراعيه بياض ،

وهي تعتم عاليا بقطن الجبال .

ومن قلة آنتقاله قوله :

أيها القائل غير الصواب * أمسك النصح وأقل عتاي
 وأجتنبني وأعلمن أن ستعصى * ونحيرك طول أجتناي
 إن تقل نصحا فمن ظهر غش * دائم الغمير ^(١) بعيد الذهاب
 ليس بي عي بما قلت إني * عالم أقفه رجع الجواب
 إنما فرة عيني هواها * فدع اللوم وكئني لماني
 لا تأمني في الرباب وأمست * عدلت للنفس برد الشراب
 هي والله الذي هو ربّي * صادقا أحلف غير الكذاب
 أكرم الأحياء طرا علينا * عند قرب منهم وأجتناي
 خاطبتني ساعة وهي تبكي * ثم عزت ^(٢) خلتي في الخطاب
 وكفى بي مذرها لخصوم * لسواها عند حد تباني ^(٣)

ومن إثباته الحجة قوله :

خليلى بعض اللوم لا ترحلا به ^(٤) * رفيقا كما حتى تقولوا على علم
 خليلى من يكف بأخر كالذى * كلفت به يذمل ^(٥) فؤادا على سقيم
 خليلى ما كانت تُصاب مقاتلي * ولا غرتي حتى وقعت على نعيم
 خليلى حتى لف حيلي بخاديع ^(٦) * موق إذا يرعى صبود إذا يرعى
 خليلى لو يرق خليلى من الهوى * رقيت بما يذني النوار من العضم ^(٧)
 خليلى إن باعدت لانت وإن ألن * تباعد فلم أنبل ^(٨) بحرب ولا سلم ^(٩)

- (١) الغمر (بكر العين) : الحقد والغل . والعمر (فتح العين) : الماء الكثير ، وكلا المعنيين يحتمله البيت .
 (٢) عدلت : ساءت . (٣) أى علبتى صديقتى فى الخطاب قال تعالى : (وعزنى فى الخطاب) .
 (٤) يريد : حسبي غالبا لكل خصم سواها الى حد هلاكى . (٥) يقال : رحل فلان فلانا بما يكره ،
 والمراد أنه يتفلسه باسماعه إياه . (٦) يذمل : يطوى . قال فى اللسان : ويقال : أذمل القوم ،
 أى أطوهم على ما فهم . (٧) يكنى بهذا عن الوقوع فى شركها . (٨) النوار : النافرة من الطاء .
 (٩) لم أنبل : لم أصب ، أو لم أحسن الرى .

ومن ترجيحه الشك في موضع اليقين قوله :

نظرتُ إليها بالمُحَصَّبِ مِنْ مَنِي * ولى نظراً لولا التخرج عارِمُ^(١)
 فقلت : أشمسُ أم مصابيحُ بيعة * بدتْ لك خلفَ السَّجْفِ أم أنتَ حالمُ^(٢)
 بعيدة مهوى القُسرطِ إتما لنوفيل * أبوها وإما عبدُ شميسِ وهاشمُ^(٣)
 ومدَّ عليها السَّجْفَ يومَ لقيتها * على عَجَلٍ تُباعها والخوادمُ
 فلم أستطعها غيرَ أنْ قد بدا لنا * عشيّة راحتْ وجهها والمعاصمُ
 معاصمُ لم تُضربْ على البهمِ بالضَّحَى^(٤) * عصاها ووجهه لم تلحه السَّامُ^(٥)
 نُضارُ ترى فيه أسارِيع مائه * صبيحُ تُغاديه الأكفُ النَّواعمُ^(٦)
 إذا مادعتْ أترابها فأكتنفتها * تمايلنْ أو مالتْ بهنَّ المائِمُ^(٧)
 طابنَ الصِّبَا حتى إذا ما أصبته * زعنَ وهنَّ المسلماتُ الظولمُ

ومن طلاوة اعتذاره قوله :

عادود القلبِ بعضُ ما قد شجَاه * من حبيبِ أممي هوانا هواهُ
 يالقوقى فكيف أصبرُ عمّن * لا ترى النفسُ طيبَ عيشِ سواه
 أرسلتْ إذ رأته بعداى أَلَا * يقبلنْ بي محرّشا إنْ أناه^(٨)
 دونَ أنْ يسمع المفالة منّا * وليطعني فإنْ عندى رضاه
 لا تطعْ بي فدتكِ نفسى عدوا * لحديثِ على هواه أفتراه
 لا تطعْ بي من لو رآنى وإيا * لك أسيرى ضرورة ما عناه
 ما ضرارى نفسى بهجرى من ليد * سس مُسيئنا ولا بعيدا نراه^(٩)
 وأجتنبى بيتَ الحبيبِ وما الخلدُ * مدُّ بأشمى إلى من أنْ أراه

(١) عارم : حادّ . (٢) السجف : الستر . (٣) كناية عن طول العنق ، وبه فسر في المثل
 السائر (طبعة بولاق ص ٣٨٣) . (٤) البهم : جمع بهمة ، وهى الصغير من أولاد الصّان والمعز والبقر .
 (٥) لم تلحه : لم تغيره . (٦) أساريع الماء : طرائقه . والمراد أنه يترقق فيه ماء الشاب .
 (٧) المائِم : جمع مائة وهى العجيزة . (٨) المحرّش : المغرى ، من البحر يش وهو الاغراء والافساد .
 (٩) الترى : الخير .

ومن نهجه العَلَلِ قولُهُ :

وَآيَةُ ذَلِكَ أَنْ تَسْمَعِي * إِذَا جِئْتُمْ نَاشِدًا يَنْشُدُ
فُرْحَنَا سِرَاعًا وَرَاحَ الْمَهْوَى * دَلِيلًا إِلَيْهَا بِنَا يَقْصِدُ
فَلَمَّا دَنَوْنَا لِحَرَسِ النَّبَاِ^(١) * حِجِّ وَالصَّوْتِ، وَالْحَى لَمْ يَرْقُدُوا
بَعَثَا لَهَا بَاغِيًا نَاشِدَا * وَفِي الْحَى بُغْيَةً مِنْ يَنْشُدُ

ومن فتحه الغزلِ قولُهُ :

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَعِشْقِي وَلَمْ تَدْرِي مَا أَلْهَوَى * فَكُنْ حَجْرًا مِنْ يَابِسِ الصَّخْرِ جَآمِدَا

ومن عطفه المساءة على العُدَالِ قولُهُ :

لَا تَأْمَنِي عَتِيقَ حَسْبِي الَّذِي بِي * إِتَّ بِي يَا عَتِيقُ مَا قَدْ كَفَانِي
لَا تَأْمَنِي وَأَنْتَ زَيْنَتَهَا لِي * أَنْتَ مِثْلُ الشَّيْطَانِ لِلْإِنْسَانِ

ومن حُسنِ تَفْجِيعِهِ قولُهُ :

هَجَرْتَ الْحَيْبَ الْيَوْمَ مِنْ غَيْرِ مَا أَجْتَرَمُ * وَقَطَّعْتَ مِنْ ذِي وَدَكِ الْجَبَلِ فَاَنْصَرَمُ
أَطَعْتَ الْوُشَاةَ الْكَاشِحِينَ وَمَنْ يُطْعُ * مَقَالَةَ وَإِشْ يَقْشَرِجِ السَّنِّ مِنْ نَدَمِ
أَتَانِي رَسُولٌ كُنْتُ أَحْسِبُ أَنَّهُ * شَفِيقٌ عَلَيْنَا نَاصِحٌ كَالَّذِي زَعَمُ
فَلَمَّا تَبَّأْتُنَا الْحَدِيثَ وَصَرَّحَتْ^(٢) * سَرَّأَتْهُ عَنْ بَعْضِ مَا كَانَ قَدْ كَتَمْتُ
تَيَّنَ لِي أَنَّ الْمُحَرَّشَ^(٣) كَاذِبٌ * فَعِنْدِي لَكَ الْعُتْبَى عَلَى رَغْمٍ مِنْ رَغْمِ
فِيلَانَ لَمْتُ النَّفْسَ بَعْدَ الَّذِي مَضَى * وَبَعْدَ الَّذِي آلَتْ وَأَلَيْتُ مِنْ قَسَمِ
ظَلَمْتَ وَلَمْ تُعْتَبْ وَكَانَ رَسُولُهَا * إِلَيْكَ سَرِيعًا بِالرِّضَا لَكَ إِذْ ظَلَمْتُ

(١) الجرس : الصوت . (٢) بث الحديث : إفتاؤه . (٣) المحرّش : المغرّى ، يقال :

حرّش بن القوم : أنسد بينهم .

ومن تخيله المنازل قوله :

ألم تسأل الأطلالَ والمتربعا * ببطن حلياتٍ دوارسَ بلقعا^(١)
إلى السرح من وادى المغمسِ بدلت^(٢) * معالمها وبلا ونكباءَ زعزعا^(٣)
فيبطن أو يُخبرنَ بالعلم بعد ما * نكأن فؤادا كان قديما منجعا^(٤)

ومن اختصاره الخبر قوله :

أمن آلِ نعيمٍ أنت غايد فُبكرُ * غداة غدا أم رايح فُهجرُ
بماجة نفيسٍ لم تُقل في جوابها * فتبلغ عذرا والمقالة تُعذرُ
أشارت بمدراها وقالت لتربها^(٥) * أهذا المعبري الذي كان يدكرُ
لئن كان إياه لقد حال بعدنا * عن العهد والإنسان قد يتغيرُ

قال الزبير حدثني إسحاق الموصلي قال : قلت لأعرابي : ما معنى قول ابن أبي ربيعة :

بماجة نفيسٍ لم تُقل في جوابها^(٦) * فتبلغ عذرا والمقالة تُعذرُ

فقال : قام كما جلس .

ومن صديقه الصفاء قوله :

كلُّ وصلٍ أمسى لديك لأنتي * غيرها وصلها إليها أداءُ
كلُّ أنتي وإن دنت لوصالٍ * أو نأت ففهي للرباب الفداءُ

- (١) حليات (بضم الحاء المهملة وفتح اللام وتشديد الياء) : اسم موضع ذكره البكري وياقوت ولم يبيناه ، ولعله موضع قرب مكة بقريئة ذكره مع المغمس الوارد في البيت بعده . (٢) السرح : موضع .
(٣) المغمس (تشديد الميم وفتحها كما في ياقوت ، وضبطه البكري في معجمه بكسر الميم وتشديدها) : موضع قرب مكة في طريق الطائف ، مات فيه أبو رعال وقبره يرجح لأنه كان دليل أبرهة صاحب الفيل . (٤) النكباء : الريح التي تنكب عن مهاب الرياح . (٥) يقال : ريح زعزع ، أي شديدة ، وكذلك زعزاع وزعزوع .
(٦) يقال : نكأ الجرح : قشره قبل أن يلتئم . (٧) المدري والمدرة : حديدة يحك بها الرأس .
(٨) أي هي في غاية من السر لا يجاب عليها إذا سئل عنها ، والإعذار : نفي العذر .

وقوله :

أَحَبُّ لِحَبِّكَ مَنْ لَمْ يَكُنْ * صَفِيًّا لِنَفْسِي وَلَا صَاحِبًا
وَأَبْدَلُ مَا لِي لِمَرْضَاتِكُمْ * وَأَعْتَبُ^(١) مِنْ جَاءِكُمْ عَاتِبًا
وَأَرْغَبُ فِي وُدِّ مَنْ لَمْ أَكُنْ * إِلَى وُدِّهِ قَبْلَكُمْ رَاغِبًا
وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ فِي جَانِبِ * مِنَ الْأَرْضِ وَأَعْتَرَلَتْ جَانِبًا
نِيَمْتُ طَيْبَتَا^(٢) لِنَسْنَى * أَرَى قُرْبَهَا الْعَجَبَ الْعَاجِبًا

ومما قدَّح فيه فأورى قوله .

طَالَ لَيْلِي وَتَعَانَى الطَّرِبُ^(٣) * وَأَعْتَرَانِي طَوْلُ هَمٍّ وَوَصَبُ^(٤)
أَرْسَلْتُ أَسْمَاءَ فِي مَعْتَبَةٍ * عَبَبْتُهَا وَهِيَ أَحْلَى مِنْ عَتَبِ
أَنْ أَتَى مِنْهَا رَسُولٌ مُوَهِنًا^(٥) * وَجَدَ الْحَيَّ نِيَامًا فَأَتَقَلَّبُ
ضَرَبَ الْبَابَ فَلَمْ يَشْعُرْ بِهِ * أَحَدٌ يَفْتَحُ بَابًا إِذْ ضَرَبَ
قَالَ : أَيْقَاطُ، وَلَكِنْ حَاجَةٌ * عَرَضَتْ تُكَلِّمُنَا فَاحْتِجِبُ
وَلَعَمْرَدًا رَدَّنِي، فَاجْتَهَدْتُ * بَيْنَ حَلْفَةٍ عِنْدَ الْغَضَبِ
يَشْهَدُ الرَّحْمَنُ لَا يَجْعَلُنَا * سَقْفُ بَيْتٍ رَجَبًا بَعْدَ رَجَبِ
قَلْتُ حَلًّا فَاقْبَلِي مَعْدِرَتِي * مَا كَذَا يَجْزِي حُبُّ مَنْ أَحَبُّ
إِنَّ كَفَى لِكَ رَهْنًا بِالرِّضَا * فَاقْبَلِي يَا هِنْدُ، قَالَتْ قَدُوجِبُ

قالوا : ومن شعره الذي اعتذر فيه فأبرأ قوله :

فَأَلْتَقِينَا فَرِحْتِ حِينَ سَأَمْتُ * تَكُفَّتْ دَمْعًا مِنَ الْعَيْنِ مَارًا^(٦)
ثُمَّ قَالَتْ عِنْدَ الْعِتَابِ رَأَيْنَا * مِنْكَ عَنَّا تَجَلُّدًا وَأَزْوَارًا^(٧)

(١) يقال : أعتبه إذا أعطاه العنى وأرضاه . (٢) طيبها : ناحيتها وقصدها . (٣) تعانى : أوجعنى فى العناء . (٤) الطرب : نخفة تعزى الانسان عند شدة الفرح أو الحزن والحلم . (٥) الموهن : نحو من نصف الليل . (٦) مار : جرى وسال . (٧) الأزوار : الإعراص .

قلتُ كلاً لآهٍ أن عمك بلِ خُفٍ * منا أموراً نكأ بها أعماراً^(٢)
 بعلنا الصدود لما خَشِينَا * قالة الناس للهوى أَسْتَارَا
 ليس كالعهد إذ عَهَدْتِ ولكن^(٣) * أوقد الناس بالنميمة نارَا
 فلذلك الإعراض عنك وما آ * ثر قلبي عليك أنحرى آختيارَا
 ما أبالي إذا النوى قربتكم * فدنوتم من حلّ أو من سارَا
 فالليالي إذا نأيت طوأل * وأراها إذا قرُبتِ قِصَارَا

ومن تشكبه الذي أشجى فيه قوله :

لعمرك ما جاورتُ عُمدان طائماً * وقصر شعوب أن أكون به صباً^(٥)
 ولكن حى أضرتني ثلاثة^(٦) * مجرمة ثم استمرت بنا غيباً^(٨)
 وحتى لو أن الخلد يعرض إن مشت * إلى الباب رجلي ما نقلت لها إرباً^(٩)
 فإنك لو أبصرت يوم سويقة^(١٠) * منأخى وحسبى العيس دامية حدياً^(١١)
 ومصرع إخوانٍ كانت أنينهم * أنين مكأكي فارقت بلداً خصباً^(١٢)
 إذا لأقشعر الخلد منك صباباً * ولا ستفرغت عينك من عبرة سجا

ومن إقدامه عن خبرة ولم يعتذر بغرة قوله :

صرمتُ وواصلتُ حتى عرف * ست أين المصادر والمورد
 وجربتُ من ذلك حتى عرف * ست ما أتوتني وما أعمد

(١) لاه بمعنى لله . (٢) الغدر (بضم الغين وفتحها مع سكون الميم ، وفتحتين ، وفتح فكسر) :

العز الجاهل الذي لم يجرب الأمور . (٣) أى ليس الأمر كما تمهدين من قبل .

(٤) عُمدان : قصر باليمن بناء « يشرخ بن يحص » . (٥) قصر شعوب : قصر عال مرتفع باليمن .

(٦) أضرتني : أضعفتني وأذلتني . (٧) مجرمة كعظمة : تامة ، يريد ثلاثة أحوال كاملة .

(٨) الغب من الحى : ما تأخذ يوماً وتدع يوماً . (٩) أى ما حركت له عضواً . (١٠) سويقة :

موضع . (١١) حدياً جمع حدباء ، وأصل الحدب : ما أرتفع من الأرض ، يريد أنه أعيها السير فهى دامية

متقوسة الظهور هز الا . (١٢) المكأكي : جمع مكأ ، وهو طير يشبه القبرة إلا أن في جناحيه بلقا ، وهو حسن

الصوت في تغريده .

ومن أسيره النوم قوله :

نام صحبي وبات نومي أسيرا * أرقب النجم موهنا أن يغورا

ومن غمه الطير قوله :

فرحنا وقلنا للسلام أقض حاجة * لنا ثم أدريتنا ولا نتغير
سراعا نغم الطير إن ساحت لنا * وإن تلقنا الرجان لا تتغير^(٢)

نتغير من قوهم : غير فلان، أي ليث .

ومن إغذاه السير قوله :

قلت سيرا ولا تقيما بصرى^(٤) * وحفيرا فما أحب حفيرا^(٥)
وإذا ما مررتا بمعان^(٦) * فأقلا به النواء وسيرا
إنما قصرنا إذا حسر السير^(٧) * رُبعيرا أن تستجد بعيرا^(٨)

ومن تحييره ماء الشباب قوله :

أبرزوها مثل المهاة تهادي * بين خميس كواعب أتراب
ثم قالوا تحبها قلت بهرا * عدد القطر والحصى والتراب
وهي مكنونة تحير منها * في أديم الخدين ماء الشباب

ومن تقويله وتسييله قوله :

قالت على رقية يوما لجارتها * ما تأمرين فإن القلب قد تبلا^(٩)
وهل لي اليوم من أخت مواخية * منكن أشكو إليها بعض ما فعلا

- (١) لعله يريد : نجزتها بالسبق ، أو نهرها ونغلبها ، من قوهم : غم القمر النجوم : بهرها وكاد يسترضوها .
(٢) التخبر : السؤال عن الخبر . (٣) أعد السير وأغذيه : أسرع . (٤) بصرى : بلد بالشأم .
(٥) حفير : نهر بالأردن ببلاد الشأم . (٦) معان : مدينة في طرف بادية الشأم تلقاء الحجاز من نواحي
اللقاء . (٧) قصرنا ، أي قصارانا وطابتنا . (٨) حسر السير بعيرا : أجهده وأعياه .
(٩) المتبول : من أسقمه الهوى وغلبه الحب على أمره .

(١) فراجعتها حصانٌ غيرُ فاحشيةٍ * برجع قولٍ ولُبٌّ لم يكن خَطِلا
لا تذكُرى حبه حتى أراجعه * إني سأكُفِّيك إن لم أمت عَجَلا
فأقنى حياءك في سترٍ وفي كَرَمٍ * فليسَ أوَّلُ أني علقتُ رجلا

وأما ما قاس فيه الهوى فقوله :

وقرِّبَ أسبابَ الهوى لمتيمٍ * يقيسُ ذراعا كلما قسَّنَ إصبعًا

ومن عصيانه وإخلائه قوله :

وأنصَ المطيَّ يتبعنَ بالركبِ * سبِ سِرَاعًا نَوَاعِمَ الأَطْعَانِ
فَنَصِيدُ الغريرِ من بقر الوحـ * شِشٌ ونلهو بلذة الفِتْيَانِ
في زمانٍ لو كنتِ فيه صَجِيحِي * غيرَ شكِّ عرفتِ لي عِصْيَانِي
وتقلبتِ في الفراشِ ولا تَدُ * رينَ إلا الظنونَ أين مكاني

ومن مخالفته بسمعه وطرفه قوله :

سَمِعِي وطرفِي حَلِيفَاهَا على جسدِي * فكيف أصبرُ عن سَمِعِي وعن بَصَرِي
لو طاوَعَانِي على ألا أكلمها * إذا لَقِضْتِ من أوطارِها وطَرِي

ومن إبرامه نعتَ الرسلي قوله :

فبعثتُ كاتمةَ الحديدِ * بثِ رَفِيقَةً بجَوَابِهَا
وحشِيَّةً إنسيَّةً * نَحْرَاجَةً من بَابِهَا
فَرَقَّتْ فسهلتِ المعَا * رضُ من سبيلِ تَقَابِهَا

ومن تحذيره قوله :

لقد أرسلتُ جاريتي * وقلتُ لها خُذِي حَذْرَكَ
وقُولِي في مُلَا طَفَّةٍ * لزينبِ نَوِيٍّ عُمْرَكَ

(١) حصان : عفيفة . (٢) الخطل : الفاسد المضطرب . (٣) اقنى حياءك : الزميه .

(٤) نص المطي : استخراج أقصى ما عندها من السير . (٥) الغرير : الغافل .

فإن داويتِ ذا سَقِيمٍ * فأخزى اللهُ من كَفَرَكِ
 فهزَّتْ رأسها عَجَبًا * وقالتُ مَنْ بَدَأَ أَمْرَكَ
 أهذا سَمْرُكَ النَّسْوَ * نَ، قد خَبَرْتَنِي خَبْرَكَ
 وقلن إذا قَضَى وَطَرًا * وأدرك حاجةَ هَجْرَكَ

ومن إعلانه الحب وإسرايه قوله :

شكوتُ إليها الحبُّ أُعْلِنُ بَعْضَهُ * وأخفيتُ منه في الفؤادِ غَيْلِيَا
 وما أبطن فيه وأظهر قوله :

حُبِّكُمْ يا آلَ لَيْلَى قَاتِلِي * ظهرَ الحبُّ بِجَسْمِي وَبَطَنِي
 ليس حبُّ فوق ما أَحْبَبْتُمْ * غيرَ أنْ أَقْتُلُ نَفْسِي أو أَجُنُّ
 وما أَلَحَّ فيه وَأَسَفَّ قوله :

ليت حَظِّي كَطَرْفَةِ العَيْنِ مِنْهَا * وكثيرٌ مِنْهَا القليلُ المَهْنَا
 أو حديثٌ على خَلَاءٍ يُسَلِّي * ما يُجِرُّ الفؤادُ مِنْهَا وَمِنَا
 كَبُرَتْ رَبِّ نِعْمَةٌ مِنْكَ يَوْمًا * أنْ أراها قبلِ المماتِ وَمِنَا
 ومن إنكاحه النوم قوله :

حتى إذا ما الليلُ جَنَّ ظلامُهُ * ونظرتُ غَفْلَةً كاشِخَ أنْ يَعْقَلَا
 واستنكحَ النومُ الذينَ نَخَافُهُمْ * وَسَقَى الكَرَى بَوَاهِمُ فَاسْتَمَقَلَا^(١)
 نخرجتُ تَأَطَّرُ في الثيابِ كأنها * أَيْمٌ يَسِيبُ على كَتِيبِ أهَيْلَا^(٢)
 ومن جَنِيهِ الحديثُ قوله :

وجوارٍ مُسَاعَفَاتٍ على الله- * ومُسِرَّاتٍ باطنِ الأَضْغَانِ
 صَيْدٍ للرجالِ يَرشُقْنَ بالطَّر * في حِسانِ نُحْدَلِ الغِرْلانِ^(٣)

(١) يقال : أتقله النوم فهو مستنقل بصيغة المفعول . (٢) تأطر أصله تأطر فحذفت إحدى تاءيه ومعناه

نشئ . والأيم : الأفي . ويسيب : يمشي . والكتيب الأهيل : الرمل المنبال . (٣) الحذل : جمع خاذل وهي الظبية تلخف عن صواحيبها أو أولادها .

قد دَعَانِي وقد دَعَا مِنْ لَدُنِّي * وَتَجِبُونَ مُهِمَّةَ الْأَنْجَبَانِ
فَأَجْتَنِينَا مِنَ الْحَدِيثِ ثَمَارًا * مَا جَنَى مِثْلَهَا لِعَمْرُكَ جَانِي
ومن ضربه الحديث ظهره لبطنه قوله :

فِي خَلَاءٍ مِنَ الْأَنْبِيسِ وَأَمِنَ * فَبَثْنَا غَلِيلَنَا وَأَشْتَقِينَا
وَضَرْبَنَا الْحَدِيثَ ظَهْرًا لِبَطْنِ * وَأَتَيْنَا مِنْ أَمْرِنَا مَا أَشْتَهَيْنَا
فَمَكَّنْنَا بِذَلِكَ عَشْرَ لَيَالٍ * فَفَضِينَا دِيُونَنَا وَأَقْتَضِينَا

ومن إذلاله صعب الحديث قوله :

فَلِمَا أَفْضَنَّا فِي الْهَوَى نَسْتِينَهُ * وَعَادَ لَنَا صَعْبُ الْحَدِيثِ ذُلُولًا
شَكْوَتْ إِلَيْهَا الْحُبَّ أَظْهَرُ بَعْضُهُ * وَأَخْفِيَتْ مِنْهُ فِي الْفُرَادِ غَلِيلًا

ومن قناعته بالرجاء من الوفاء قوله :

فَعِدَى نَائِلًا وَإِنْ لَمْ تُنِيلِ * إِنَّهُ يَنْفَعُ الْحَبَّ الرَّجَاءُ

قال الزبير : هذا أحسن من قول كثير :

وَلَسْتُ بِرَاضٍ مِنْ خَلِيلٍ بِنَائِلٍ * قَلِيلٍ وَلَا أَرْضَى لَهُ بِقَلِيلٍ

ومن إعلائه قاتله قوله :

فَبَعَثْتُ جَارِيَتِي وَقُلْتُ لَهَا أَذْهَبِي * فَأَشْكِي إِلَيْهَا مَا عَلِمْتِ وَسَلْمِي
قَوْلِي يَقُولُ تَحْرِجِي فِي عَاشِقِي * كَلِّفِي بِكُمْ حَتَّى الْمَمَاتِ مُتِمِّ
وَيَقُولُ إِنَّكَ قَدْ عَلِمْتِ بِأَنْكُمْ * أَصْبَحْتُمْ يَا بَشْرُ أَوْجَهَ ذِي دَمِ
فُكِّي رَهِينَتَهُ فَإِنَّ لَمْ تَفْعَلِي * فَأَعْلِي عَلَى قَتْلِ ابْنِ عَمِّكَ وَأَسْلَمِي
فَتَضَاكَمْتُ عَجَبًا وَقَالَتْ حَقُّهُ * أَلَا يَعْلَمُنَا بِمَا لَمْ نَعْلَمِ

(١) أى مثيرة الأثجان .

(٢) أى كفى عن الحرج والاثم

(٣) أى أحق إنسان أخذ منه ددى .

عالمى به والله يغفر ذنبه * فيما بدا لى ذوهوى متقسم
 طَرفٌ يَنازِعُهُ الى الأَدنى الهوى * وَيَتَّ حَلَّةَ ذى الوِصَالِ الأَقْدَمِ

ومن تنفيذه النوم قوله :

فلما فَتَدتُ الصَوْتُ منهم وَأَطَفْتُ * مَصَابِيحُ شُبَّتْ بالعِشاءِ وَأَنورُ
 وغاب مُرِّ كُنْتُ أَرجو غيوبه * وروحَ رُعيانٍ ونومٍ سَمَرُ^(٢)
 ونَفَضْتُ عَنى النَومِ أَقبَلْتُ مِشيَةَ الـ * حُبابٍ ورُكْنِي خَشِيَةَ القومِ أَزورُ^(٣)

ومن إغلاقه رهن مَنى وإهداره قتلاه قوله :

فكم من قَتِيلٍ ما يَبِأُ به دَمٌ * ومن غَاليقٍ رَهْناً إذا لَقَّه مَنى^(٥)
 ومن مالى عِينيه من شىءٍ غيرِه * إذا راح نحو الجَمرةِ البِيضِ كالدَمى^(٦)

وكان بعد هذا كَلِّه فصيحاً شاعراً مَقولاً^(٧) .

ومن شعره المشهور قوله :

أَمِنْ آلِ نَعِيمٍ أَنْتِ غادِ فُبِكْرِ * غداةَ غَدِ أَمِ رَأحٍ ففهِجِّرُ
 لحاجةِ نَفْسٍ لم تَقْضِ فى جَوابِها * فَتُبْلِغِ عُنْداً والمقالَةَ تُعْذِرُ
 أشارت بِمدِّ رَهاها وَقالت لأختِها * أهذا المُغَيْرِىُّ الذى كان يَدُكُّرُ
 فقالت نَعْمَ لا شَكَّ غيرَ لَوْنِه * سَرى الليلِ يَطْوِي نَصْبَه وَالتَهْجِرُ^(٨)
 رأت رجلاً أَمَّا إذا الشمسُ عارضتُ * فيضْحى وأما بالعِشىِّ فيخْصُرُ

(١) الطرف : من لا يثبت على امرأة ولا صاحب . (٢) روح من الرواح وهو وقت العشى . والرعيان :

جمع راع كالرعاة والرعاة والرعاة . وتوم الرجل تويماً : مبالغة فى نام . (٣) الحباب : الحية . وأزور

كأحسن : مائل من زور يزور إذا مال . (٤) يقال : أبا القاتل بالقتيل : قتله به ، والمراد هنا : فكم

من قتيل يطل دمه ولا يؤخذ له بنار . (٥) يقال : غلق الرهن فى يد المرتهن يغلطه علقاً : لم يقدر

الراهن على أفنكاكه فى الوقت المشروط . يريد : وكم من قلوب أسيرة لا يقدر أصحابها على أفنكاكها .

(٦) الدمى : جمع دمية وهى الصورة المنقشة من العاج ونحوه . (٧) المقول : الحسن القول المصح المين .

(٨) نص السرى : لإسراعه ، وأصله حث الدابة واستخراج أقصى ما عندها من السير .

أخا سفر جَوَّابَ أَرْضٍ تَقَاذَفَتْ * به فَلَوَاتٌ فَهَوَ أَشْمَعْتُ أَغْبِرُ
 قَلِيلًا عَلَى ظَهْرِ الْمَطِيَّةِ ظَلَّهُ * سِوَى مَا قَتَى عَنْهُ الرِّدَاءُ الْمُحْبِرُ^(١)
 وَأَعْجَبَهَا مِنْ عَيْشِهَا ظِلُّ غُرْفَةٍ * وَرِيَانٌ مُلْتَفُّ الْحَدَائِقِ أَخْضَرُ
 وَوَيَّ كَفَّاهَا كُلَّ شَيْءٍ يَهْمُهَا * فَلَيْسَتْ لَشَيْءٍ آخَرَ اللَّيْلِ تَسْهَرُ
 وَبِلَيْلَةٍ ذِي دَوْرَانَ جَشْمَتِي السَّرَى * وَقَدْ يَجْشِمُ الْهَوْلُ الْحُبَّ الْمَغْرَرُ^(٢)^(٣)

ومن شعره قوله في فاطمة بنت محمد بن الأشعث الكندية :

تَسْطُ غَدًّا دَارُ جِيرَانِنَا * وَلِلدَّارِ بَعْدَ غَدٍ أَبْعَدُ^(٤)
 إِذَا سَلَكَتُ عَمْرُ ذِي كِنْدَةٍ * مَعَ الرِّكْبِ قَصْدٌ لَهَا الْفَرْقَدُ^(٥)^(٦)
 وَحَثَّ الْحِدَاةُ بِهَا صِيْرَهَا * سِرَاعًا إِذَا مَا وَنَتْ تُطْرَدُ^(٧)^(٨)
 هِنَالِكَ إِذَا تُعَزَّى الْفَوَادُ * وَإِنَّمَا عَلَى إِثْرِهَا تَكْمَدُ
 وَلَيْسَتْ بِسِدْعٍ إِذَا دَارَهَا * نَأَتْ وَالْعَزَاءُ إِذَا أَجْلَدُ
 صَرَمْتُ وَوَأَصَلْتُ حَتَّى عَامِدُ * سَتُ أَيْنَ الْمَصَادِرُ وَالْمَوْرِدُ
 وَجَرَّبْتُ مِنْ ذَلِكَ حَتَّى عَرَفُ * سَتُ مَا أَتَوَّقِي وَمَا أَحْمَدُ
 فَلَمَّا دَنَوْنَا لِحَرَسِ النَّبَا^(٩) * حِجِّ وَالضُّوْءِ وَالْحَيِّ لَمْ يَرْقُدُوا
 نَأَيْنَا عَنِ الْحَيِّ حَتَّى إِذَا * تَوَدَّعَ مِنْ نَارِهَا الْمَوْقِدُ^(١٠)
 وَنَامُوا بَعَثْنَا لَهَا نَاشِدًا * وَفِي الْحَيِّ بَغِيَّةٌ مِنْ يَنْشُدُ

(١) المحبر : المزين الحسن . (٢) ذودوران — بفتح أوله وبعد الواو راء مهمله وآثره

نون — موضع بين قديد والجحفة (ياقوت) . (٣) أى كلفنى السير ليلًا .

(٤) تسط : تبعد . (٥) عمردى كندة : موضع وراء واحة بينه وبين مكة مسيرة يومين .

(٦) كدا في ديوانه ، وفي الأعافى « الصبح » . (٧) الفرقد : نجمان في السماء من نجوم الدب الأصغر

وهي في الشمال ، ويقال لها : الفرقدان بالإفراد ، والفرقدان بالثنية . ولعله يريد أنها تسيير جهته ، لأن العراق التي

تقصده في الشمال الشرقى من مكة . (٨) الحداة : جمع حاد وأصله المنفى للابل لتشط في السير ، وقد يراد به

الزابر والسائق . والعير : الإبل ، ولا واحد له من لفظه . ووت : صفت وتباطأت . وتطرد : تساق .

(٩) الحرس : الصوت . (١٠) تودع : سكنت ناره وأطفأت .

أَنْتُنَا تَهَادَى عَلَى رِقْبَةٍ * مِنْ الْخُوفِ أَحْشَاؤُهَا تَرَعْدُ
 تَقُولُ وَتُظْهِرُ وَجْداً بِنَا * وَوَجْدِي وَإِنْ أَظْهَرْتُ أَوْجُدُ
 لَمَّا شَقَائِي تَعَلَّقْتُكُمْ * وَقَدْ كَانَ لِي عَنْكُمْ مَقْعَدُ^(٤)
 وَكَفَّتْ سَوَائِقِي مِنْ عَثْرَةٍ * عَلَى الْخَدِّ جَالٌ بِهَا الْإِثْمُ^(٥)
 فَإِنَّ الَّتِي شِيعَتْنَا الْغَدَاةَ * مَعَ الْفَجْرِ قَلْبِي بِهَا مُقْصَدُ^(٦)

وَسَبَّ عَمْرُ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ بِنْتِ مُوسَى الْجَحِيحِيَّةِ فِي قَصِيدَتِهِ الَّتِي يَقُولُ فِيهَا :

يَا خَلِيلِي مِنْ مَلَامٍ دَعَانِي * وَالْمَا الْغَدَاةَ بِالْأَطْعَامِ
 لَا تَلُومَا فِي آلِ زَيْنَبِ إِنْ أَلِ * قَلْبَ رَهْنٍ بَالِ زَيْنَبِ عَانِي
 مَا أَرَى مَا بَقِيَتْ أَنْ أَدْكُرَ الْمَوْ * قَفَّ مِنْهَا بِالْخَيْفِ إِلَّا شَجَانِي^(٧)
 لَمْ تَدْعَ لِلنِّسَاءِ عِنْدِي حَظًّا * غَيْرَ مَا قَلْتُ مَارِحًا بِلِسَانِي
 هِيَ أَهْلُ الصَّفَاءِ وَالْوَدِّ مَنِّي * وَإِلَيْهَا الْهَوَى فَلَ تَعُدُّلَانِي
 حِينَ قَالَتْ لِأَخْتِهَا وَلَا أُخْرَى * مِنْ قَطِينٍ مُوَلَّدٍ : حَدَّثَانِي^(٨)
 كَيْفَ لِي الْيَوْمَ أَنْ أَرَى عُمَرَ الْمُرَّ * سِلَّ سِرًّا فِي الْقَوْلِ أَنْ يَلْقَانِي
 قَالَتَا : نَبَّخِنِي رَسُولًا إِلَيْهِ * وَنَمِئْتُ الْحَدِيثَ بِالِكْتَمَانِ
 إِنْ قَلْبِي بَعْدَ الَّذِي نَلْتُ مِنْهَا * كَالْمَعْنَى عَنِ سَائِرِ النَّسْوَانِ^(٩)

(١) تهادى : تمشى في تمايل وسكون . (٢) الرقبة : التحفظ والعرق . (٣) الوجد : الشعف

والشوق الشديد . (٤) المراد : قد كان لي غنى عن حبكم . (٥) الإثم : جمر للكحل وأجوده بأصهبان

(٦) أقصده : رماه بهم فقتله . (٧) الخيف : ما أرتفع عن مجرى السيل وأتحدد عن غلط الجبل

قال ابن سيدة : وخيف مكة موضع فيها عند منى ، سمي بذلك لأنه يحدده عن الغلط وارتفاعة عن السيل .

(٨) القطين : الخدم والأتباع والحشم ، والمولد من العبيد والإماء : من ولد بين العرب ونشأ مع أولادهم

(٩) كذا في الأغاني . وفي ديوانه " كالمعنى " أى المأسور المحبوس عن غيرها .

وكان سبب ذكره لها أنّ ابن أبي عتيق ذكرها عنده يوماً فأطراها ووصف من عقلها وأدبها وجمالها ما شغل قلب عمر وأماله إليها ، فقال فيها الشعر وشبب بها ، فبلغ ذلك ابن أبي عتيق ، فلامه فيه وقال له : أتتطق الشعر في ابنة عمي ؟ فقال عمر :

لا تلمني عتيق حسبي الذي بي * إك بي يا عتيق ما قد كفاني
لا تلمني وأنت زيتها لي * أنت مثل الشيطان للإنسان
إك بي داخلا من الحب قد أب * لي عظامي مكنونه وبراني
لو بعينيك يا عتيق نظرنا * ليلة السفع قوت العينان
إذ بدا الكشح والوشاح من الد * وفصل فيه من المرجان^(١)
وقلى قلبى النساء سواها * بعد ما كان مغرماً بالغوانى
لم تدع للنساء عندى نصيباً * غير ما قلت مازحاً بلسانى

وأنشد ابن أبي عتيق قول عمر :

من لسقم يكتم الناس ما به * لزيب تجوى صدره والوساوس^(٢)
أقول لمن يبغى الشفاء متى يحيى * بزيب تدرك بعض ما أنت لأمس
فإنك إن لم تشف من سقمي بها * فإني من طب الأطباء آيس^(٣)
ولست بناس ليلة الدار مجلسا * لزيب حتى يعلو الرأس رامس^(٤)
خلاء بدت قراؤه وتكشفت * دجته وغاب من هو حارس^(٤)
وما نلت منها محرماً غير أننا * كلانا من الثوب الموردي لايس^(٤)
يحيين تقضى اللهو في غير ماثم * وإن رغمت من الكاشحين المعاطس

(١) الكشح : ما بين الحجبة — وهى رأس الورك الذى يشرف على الخاصرة — إلى الإبط . والوشاح :

شبه فلادة ينسج من أديم عريض يرصع بالجواهر تشده المرأة بين عاتقها .

(٢) هذا البيت دخل عليه الخرم وهو حذف الفاء من فعولن . (٣) الرامس : الدافن فى الرمس وهو القبر .

(٤) المورّد : الذى صبغ على بون الورد .

قال : فقال آبنُ أبي عتيق : أمتاً يسخرُ ابنُ أبي زبيعة ؟ فأىُّ محرمٍ بقي ! ثم أتى عمرَ فقال له : يا عمرُ ، ألم تُخبرني أنك ما أتيت حراماً قطُّ ؟ قال : بلى ، قال : فأخبرني عن فولك :

* كَلَانَا مِنَ الثَّوْبِ الْمُرْدِّ لَا بَسُ *

ما معناه؟ قال : والله لأخبرنك : خرجتُ أريد المسجدَ وخرجتُ زينبُ تريده ، فالتقينا فاتعدنا لبعض الشعاب ، فلما توسطنا الشعب أخذتنا السماء ، فكريهتُ أن يرى بثيابها بللُ المطر ، فيقال لها : ألا أستترتِ بسقائفِ المسجد إن كنتِ فيه ! فأمرتُ غلمانِي فسُترونا بكساءٍ نخرُ كان على ، فذلك حين أقول :

* كَلَانَا مِنَ أَنْوَابِ الْمَطَارِفِ لَا بَسُ *

فقال له : آبنُ أبي عتيق : يا عاهرُ ! هذا البيت يحتاج الى حاضنة ! .

ومن جيد شعره قوله في زينب بنت موسى :

يا مَنْ لَقِيتُ مُتَمِّمِ كَلِيفِ	يَهْدِي بَجُودِ ^(١)	بِةِ النَّظْرِ
تَمْشِي الْهُوَيْنَا إِذَا مَشَتْ فُضْلاً ^(٢)	* وَهِيَ كَيْتِلُ الْعَسَلُوجِ فِي الشَّجَرِ ^(٣)	
مَا زَالَ طَرْفِي يَحَارُ إِذْ بَرَزَتْ	* حَتَّى رَأَيْتُ النِّقْصَانَ فِي بَصْرِى	
أَبْصَرْتُهَا لَيْلَةً وَنِسْوَتَهَا	* يَمْشِينَ بَيْنَ الْمَقَامِ وَالْحَجَرِ	
مَا إِنْ طَمِعْنَا بِهَا وَلَا طَمِعَتْ	* حَتَّى أَلْتَقِينَا لَيْلًا عَلَى قَدْرِ ^(٤)	
بِيضًا حَسَانًا نَحْرًا ئِذَا قُطِّفَا ^(٥)	* هَوْنَا كَمَشِيَةِ الْبَةِ	
قَدَّ فُزْنَ بِالْحَسَنِ وَالْجَمَالَ مَعَا	* وَفُزْنَ رِسْلًا بِالذَّلِّ وَالْحَفْرِ ^(٦)	

(١) الخود : الفتاة الحسنة الخلق الشابة الملم تصر نصفاً ، والنصف : المرأة بين الحدة والمسة .

(٢) المضل بضمين : المختالة التي تفضل من ذيلها . ويروى : « قطفا » والمراد به تقارب الخطو .

(٣) العسلوج : الفصن اللين الأخضر . (٤) على قدر : على غير موعده . والوجه فيه أن التقاءهما كأنه

مقدر في الأزل لا علم له به ولا سعى إليه كما قيل :

جاء الخلاقة أو كانت له قدرا * كما أتى ربه موسى على قدر

(٥) جمع فطوف وهي البطيخة في السير . (٦) الرسل بالكسر : الرق والنؤدة . والخفر : شدة الاستحياء .

يُنصِتَنَ يَوْمًا لَهَا إِذَا نَطَقَتْ * كَمَا يُسْرِفُنَهَا عَلَى الْبَشَرِ
 قَالَتْ لَتَرِبَ لَهَا تُحَدِّثُهَا * لَتُنْفِسِدَنَّ الطَّوَافَ فِي عُمْرِ
 قُومِي تَصَدَّى لَهُ لِيَعْرِفَنَا * ثُمَّ آغْمِزِيهِ بِأَخْتِ فِي خَفَرِ
 قَالَتْ لَهَا قَدْ غَمَزْتُهُ فَأَبِي * ثُمَّ أَسْبَطَرْتُ تَسْعَى عَلَى أَثَرِي
 مِنْ يُسْقَ بَعْدَ الْمَنَامِ رِيَقَتَهَا * يُسْقَى بِمَسِيكِ وَبَارِدِ خِصْرِ^(٢)

وقوله فيها أيضا :

أَلِمَّ بِزَيْنَبَ إِنْ الْبَيْنَ قَدْ أَفِدَا * قَلَّ التَّوَاءُ لَئِنْ كَانَ الرَّحِيلُ غَدَا
 قَدْ حَلَفْتُ لَيْلَةَ الصَّوْرَيْنِ جَاهِدَةً * وَمَا عَلَى الْمَرْءِ إِلَّا الْحِلْفُ مَجْتَمِعًا
 لِأَخْتِهَا وَلَا أُخْرَى مِنْ مَنَاصِفِهَا * لَقَدْ وَجَدْتُ بِهِ فَوْقَ الَّذِي وَجَدَا
 لَوْ جَمَعَ النَّاسُ ثُمَّ آخْتِرَ صَفْوَهُمْ * شَخْصًا مِنَ النَّاسِ لَمْ أَعِدْ لَهُ أَحَدًا

ومن شعر عمر في تشوقه الى مكة بعد أن خرج منها الى اليمن قوله :

هِيَاةَ مِنْ أَمَةِ الْوَهَابِ مَنزُلْنَا * إِذَا حَلَلْنَا بِسَيْفِ الْبَحْرِ مِنْ عَدَنِ^(٦)
 وَأَحْتَلَّ أَهْلُكَ أَجْيَادًا وَلَيْسَ لَنَا * إِلَّا التَّدَكُّرُ أَوْ حِطُّهُ مِنَ الْحَزَنِ
 لَوْ أَنهَا أَبْصَرْتُ بِالْجَزْعِ عِبْرَتَهُ * مِنْ أَنْ يُقَرِّدَ قُرْبِي عَلَى فَنَنِ
 إِذَا رَأَتْ غَيْرَ مَا ظَنَنْتَ بِصَاحِبِهَا * وَأَيَقِنْتُ أَنْ تَجْمَأَ لَيْسَ مِنْ وَطَنِي
 مَا أُنْسَ لَا أُنْسَ يَوْمَ الْخَيْفِ مَوْقِفَهَا * وَمَوْقِفِي وَكَلَانَا ثُمَّ ذُو شَيْبَنِ^(٨)
 وَقَوْلَهَا لِلثُّرَيَّا وَهِيَ بِاِكِيَّةِ * وَالِدَمْعِ مِنْهَا عَلَى الْخَلْدَيْنِ ذُو سُنَنِ^(٩)

(١) اسبطرت : أسرعت . (٢) الخصر : البارد . (٣) أفد كفرح : عجل وأسرع .

(٤) الصوران : موضع بالمدينة بالقيع ، وقد ذكره ياقوت وأستشهد بالبيت . (٥) المنصف كمنبر
 ومقعد : الخادم ، والأنثى بالهاء ، جمعه مناصف .

(٦) سيف البحر : ساحله . (٧) أجياد : موضع بمكة ، سمي بذلك لأن تبعاً لما قدم مكة ربط

خيله فيه فسمى بذلك ، وهما موضعان : أجياد الكبير وأجياد الصغير . (٨) الخيف : موضع بمكة وبه

سمي مسجد الخيف . (٩) ذو سنن : ذو طرائق .

بأنه قولى له فى غير معتبة * ماذا أردت بطول المكث فى اليمن
إن كنت حاولت دنيا أو ظفرت بها * فأخذت بترك الحج من يمن

وقال أيضا :

خيلى ما بأل المطايا كأئما * نراها على الأدبار بالقوم تنكص^(١)
وقد قطعت أعناقهن صباة * فأفسنا مما يلاقين شخص
وقد أتعب الحادى سراهن وأتعى * بهن فى يالو تجول مقلص^(٢)
يزدن بنا قريبا فيزداد شوقنا * إذا زاد طول العهد والبعد ينقص

ومن شعره قوله :

جرى ناصح بالود بينى وبينها * فقربنى يوم الحصاب إلى قتلى^(٣)
فطارت بحد من فؤادى وقارنت * قرينتها حبل الصفاء إلى حبل
فلما توافقنا عرفت الذى بها * كمثل الذى بى حدوك النعل بالنعل
فقلن لها هذا عشاء وأهلنا * قريب الما تسمى مركب البغل
فقات فما شئت قلن لها أنزلى * فللأرض خير من وقوف على رحل
تجوم درارى تكفن صورة^(٤) * من البدر وافت غير هوج ولا مجل^(٥)
فسأمت وأستأنست خيفة أن يرى * عدو مقامى أو يرى كاشع فعلى
فقات وأرخت جانب الستراىما * معى فتكلم غير ذى رغبة أهلى
فقلت لها ما بى لهم من ترقب * ولكن سرى ليس يحمله مثلى
فلما أقصرنا دونهن حديثنا * وهن طيبات بجاجة ذى الشكى
عرفن الذى تهوى فقلن أنذنى لنا * نطف ساعة فى برد ليل وفى سهل

(١) تنكص : ترجع وتولى وتجم . (٢) مقلص : مشرجاد فى السير . (٣) الحصاد

كالخصب : موضع رى الجمار . (٤) درارى ممنوعة من الصرف وتوت لضرورة الشعر . (٥) هوج

جمع هوجاء وهى التمجلة فى السير كأن بها هوجا وحقا .

فَقَالَتْ فَلَا تَلْبَسْنَ قُلْنَ تَحَدِّثِي * أَيْنَاكَ، وَأَنْسَبِينَ أَنْسَابَ مَهَا الرِّمْلِ
فَقَمْنَ وَقَدْ أَفْهَمْنَ ذَا اللَّبِّ أَمَّا * أَتَيْنَ الَّذِي يَأْتِينَ مِنْ ذَاكَ مِنْ أَجْلِي

وقد كان عمر حين أسن حلف ألا يقول بيت شعر إلا أعتق رقبة، فانصرف عمر
إلى منزله يحدث نفسه، فجعلت جارية له تكلمه فلا يرد عليها جوابا، فقالت له : إن لك
لأمرأ، وأراك تريد أن تقول شعرا، فقال :

تَقُولُ وَلِيَدِي لِمَا رَأَيْتِي * طَرِبْتُ وَكُنْتُ قَدْ أَقْصَرْتُ حِينَا
أَرَاكَ الْيَوْمَ قَدْ أَحْدَثْتَ شَوْقًا * وَهَاجَ لَكَ الْهَوَى دَاءً دَفِينَا
وَكَانَتْ زَعَمْتَ أَنَّكَ ذُو عَزَاءٍ * إِذَا مَا شِئْتَ فَارَقْتَ الْقَرِينَا
بِرَبِّكَ هَلْ أَتَاكَ لَهَا رَسُولٌ * فَشَاكَ أُمَ لَقِيَتْ لَهَا خَدِينَا^(١)
فَقُلْتُ شَكَا إِلَى أَخٍ مَحِبُّ * ضَ زَمَانَنَا إِذْ تَعَلَّمِينَا
فَقَصَّ عَلَيَّ مَا يَلْقَى بَهْنَدٍ * فَذَكَرَ بَعْضَ مَا كُنَّا نَسِينَا
وَذُو الشَّوْقِ الْقَدِيمِ وَإِنْ تَعَزَّى * مَشُوقٌ حِينَ يَلْقَى الْعَاشِقِينَا
وَكَمْ مِنْ حُلَّةٍ^(٢) أَعْرَضْتُ عَنْهَا * لَغَيْرِ قَلْبِي وَكُنْتُ بِهَا صَبِينَا
أَرَدْتُ بِعَادَهَا فَصَدَدْتُ عَنْهَا * وَلَوْ جَزَّ الْفَوَادُ بِهَا جُنُونَا
ثم دعا تسعة من رقيقه فأعتقهم بكل بيت واحدا .

وله :

يَقُولُونَ : إِنِّي لَسْتُ أَصْدُقُكَ الْهَوَى * وَإِنِّي لَا أُرَاكَ حِينَ أُغِيْبُ
فَمَا بِالْ طَرْفِي عَفَّ عَمَّا تَسَاقَطْتُ * لَهُ أَعْيُنٌ مِنْ مَعْشَرٍ وَقُلُوبُ
عَشِيَّةٌ لَا يَسْتَنْكِفُ الْقَوْمُ أَنْ يَرَوْا * سَفَاهَ أَمْرِي مِمَّنْ يُقَالُ لِيِبُّ

(١) الحدين : الصديق الذي يحادثك فيكون معك في كل أمر ظاهر وباطن ، ومنه خدن الجارية : محادثها ،
وكان العرب في الجاهلية لا يمتنعون من خدن الجارية بغا . الاسلام بهدمه . وفي التزويل العزيز : (اليوم أحل
لكم الطيبات) الى قوله : (والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتوهن أجورهن محصنين غير مسافحين
ولا متخذى أحدان) الآية . (٢) الخلة : الخليلية .

ولا فتنة من ناسك أومضت له * بعين الصبا كسلى القيام لعوب^(١)
 تروح يرجو أن تحط ذنوبه * فآب وقد زيدت عليه ذنوب^(٢)
 وما النسك أسلاني ولكن للهوى * على العين منى والفؤاد رقيب^(٣)
 وله :

ألم تسأل المتزل المقفرا * بياناً فيكم أو يُفيرا^(٤)
 ذكرت به بعض ما قد شجأك * وحق لذي الشجوان أن يذكراً^(٥)
 مبيت الحبيين قد ظاهرا * كساء وبردين أن يمتطرا^(٦)
 وممضى الثلاث به موهنا * نرجن إلى زائر زورا^(٧)
 إلى مجلس من وراء القبا * بسهل الرئي طيب أعفرا^(٨)
 غفلن عن الليل حتى بدت * تبشير من واضح أسفرا^(٩)
 فممن يعين آثارنا * بأكسية الحزان تقفرا^(١٠)
 مهاتان شيعة جؤذرا * أسيلاً مقلده أحورا^(١١)
 وقن وقن لو أن لها * رمد له الليل فاستأخرا^(١٢)
 قصينا به بعض أشجاننا * وكان الحديث به أجدرأ^(١٣)

وله :

أفي رسم دار دمعك المترفق^(١٤) * سفاهاً! وما استنطاق ما ليس ينطق!^(١٥)
 بحيث التقي وجمع^(١٦) وأقصى^(١٧) "ومحسر"^(١٨) * معالمه كادت على العهد تُخلق^(١٩)
 ذكرت به ما قد مضى من زماننا * وذكرك رسم الدار مما يسوق^(٢٠)

(١) أومضت له : سارقتة النظر .

(٢) يقال : ظاهر بين الثوبين إذا لبس أحدهما على الآخر . (٣) أعفر : ذى رمل أحمر .

(٤) يقال : قفر الاثرفقرا : اقتفاه وتبعه . (٥) الجؤذر (بضم أوله وضم الذال وفتحها) : ولد البقرة .

والررب : القطيع من بقر الوحش وقيل من الظباء ، ولا واحده من لفظه . (٦) المقلد : موضع القلادة

ويراد به الجيد . (٧) ترفق الدمع : سال . (٨) جمع ، هي المزدلفة . (٩) محسر : موضع

بين منى والمزدلفة .

ليالى من دهرٍ إذ الحى جيرة * وإذ هو مأهول الخيلة مؤثق
 مقاماً لنا عند العشاء ومجلسا * به لم يكدره علينا معوق^(١)
 وممشى فتاة بالكساء تكنتنا * به تحت عين برقها يتألق^(٢)
 يئل أعلى الثوب قطر وتحتَه * شعاع بدا يعنى العيون ويشرق
 فأحسنُ شيء بدء أول ليلنا * وآخره حزنٌ إذا تفرق

وروى أن ليلي كانت جالسةً في المسجد الحرام، فرأت عمر بن أبي ربيعة فوجهت إليه موقية لها بغاءها به، فقالت له: يابن أبي ربيعة، حتى متى لا تزال سادراً في حرم الله تُسببُ بالنساء وتُشيد بذكرهن! أما تخاف الله! قال: دعيني من ذلك وأسمعي ما قلت، قالت: وما قلت؟ فأنشدها الأبيات المذكورة، فقالت له القول الذي تقدم أنها أجابته به. قال: وقال لها: أسمعي أيضاً ما قلتُ فيك، ثم أنشدها قوله:

أمن الرسم وأطلالِ الدمن * عادلى وجدي وعاودت الحزن
 إن حبي آل ليلي قاتلي * ظهر الحب بجسمى وبطن
 يا أبا الحارث قلبى طائر * فأتمر أمر رشيد مؤتمن^(٣)
 التمس للقلب وصلاً عندها * إن خير الوصل ما ليس بمن^(٤)
 علق القلب، وقد كان صحاً، * من بنى بكر غز الأقد شدن^(٥)
 أحور المقلبة كالبدر، إذا * قلد الدر فقلبي ممتحن^(٦)
 ليس حب فوق ما أحببتكم * غير أن أقتل نفسى أو أجن
 خلقت للقلب منى فتنه * هكذا يخلق معروض الفتن

(١) معوق: عاقق ومانع . (٢) العين: السحاب .

(٣) السادر: الذى لا يهتم ولا يبالي ما صنع .

(٤) كذا فى الديوان، ومعناه ما ليس يقطع، ومنه قوله تعالى: (وإن لك لأجراً غير ممنون) .

(٥) شدن: شب وترعرع . (٦) ممتحن: واقع فى محنة .

وفيها يقول :

إِنَّ لَيْلِي وَقَدْ بَلَغْتُ الْمَشِيئَا * لَمْ تَدْعُ لِلنِّسَاءِ عِنْدِي نَصِيئَا
هَاجِرٌ يَنْتَهَا لِأَنْفِي عَنْهَا * قَوْلَ ذِي الْعَيْبِ إِنْ أَرَادَ عِيوبَا

وله في النّوَار وقد شغلت قلبه :

عَلِقَ النَّوَارَ فَوَادُهُ جَهْلَا * وَصَبَا فَلَمْ تَتْرِكْ لَهُ عَقْلَا
وَتَعَرَّضْتُ لِي فِي الْمَسِيرِ فَمَا * أَمْسَى الْفَوَادُ يَرَى لَهَا مِثْلَا
مَا نَجَعَةٌ مِنْ وَحْشٍ ذِي بَقْسِرٍ * تَغْدُو بِسَقَطِ صَرِيمَةٍ طِفْلَا^(٢)
بِالَّذِي مِنْهَا إِذْ تَقُولُ لَنَا * وَأَرَدْتُ كَشْفَ قِنَاعِهَا مَهْلَا
دَعْنَا فَإِنَّكَ لَا مُكَارِمَةً * تَجْزِي وَلَسْتَ بِوَأَصِلِ حَبْلَا
وَعَلَيْكَ مَنْ تَبَلَّ الْفَوَادَ وَإِنْ * أَمْسَى لِقَلْبِكَ ذِكْرُهُ شُغْلَا
فَأَجْبَتْهَا إِنْ الْحَبِّ مَكْلَفٌ * فَدَعِيَ الْعِتَابَ وَأَحْدِثِي بَدْلَا^(٣)

اجتمع نسوة من أهل المدينة من أهل الشرف فتذاكرن عمر بن أبي ربيعة وشعره وظرفه وحسن حديثه فتشوقن إليه وتمنيته ، فقالت سكينه بنت الحسين عليهما السلام : أنا لكنن به ، فأرسلت إليه رسولا وواعدته الصّورين ، وسمت له الليلة والوقت وواعدت صواحباتها ، فوافاهن عمر على راحلته ، فخذهن حتى أضاء الفجر وحان أنصرفهن ، فقال لمن : والله إنى محتاج إلى زيارة قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم والصلاة في مسجده ولكن لا أخلط بزيارتكن شيئا ، ثم أنصرف إلى مكة وقال :

(١) ذوبقر : موضع . (٢) سقط الصريمة : متباها . والصريمة : الرملة المنصرمة من الرمال ذات الشجر . (٣) مكلف : لهج بالحب ، يقال : كلف بالشيء كافا ، أى لهج به فهو كلف ومكلف ، والأبيات من الكامل الأخذ ، وهو ما حذف من عروضه وضربه الوند الجموع «علن» من «متفاعلين» . وقد جاء عرض هذا البيت تاما على خلاف بقية الأبيات ، وظاهر أن حذف الوند في اصطلاح علماء العروض علة ، والعلة إذا لحقت بعروض أو ضرب لزم استعمالها في سائر الأبيات ولو قال : * فأجبتها إني بكم كلف * نخلت القصيدة من هذا العيب .

(١) قالت سُكِينَةُ والدموعُ ذَوَارِفٌ * منها على الخدين والجلباب
 لبت المُعِيرَى الذي لم أجزه * فيما أطال تصبُّدى وطَلابِي
 كانت تردُّ لنا المنيَ أماننا * إذ لا نلامُ على هوى وتصابِي
 خَبَرْتُ ما قالتُ فبتُّ كأنما * رُمِي الحشا بنوافذ النُشابِ (٢)
 أُسْكِنُ ما ماءُ القهرايِ وطيبه * مني على ظمئٍ وققد شرابِ
 بالذِّمك وإن نأيتِ وقَلما * ترعى النساءُ أمانةَ الغيابِ

وقال فيها :

أَحِبُّ لِحَبِّكَ من لم يكن * صَفِيًّا لِنَفْسِي ولا صاحِبًا
 وأبذلُّ نَفْسِي لمرَضاتِكُم * وأُعْتَبُ من جاءكم عاتِبًا (٣)
 وأرغبُ في وُدِّ من لم أكن * الى وُدِّه قبائِكُم راغِبًا
 ولو سَلَكَ النَّاسُ في جانِبِ * من الأرضِ وأعتَلَّتْ جانِبًا
 ليمتُّ طيِّبَتِها ، إنسى * أرى قَرَبَها العَجَبُ العاجِبًا
 فما ظمِيَّةٌ من ظمِّئِ الأَرا * لك تَقَرُّو دَمِيثَ الرُّبِيِّ عاشِبًا (٤)
 بأحسَنَ منها غَدَاةَ الغَيمِ * وقد أبدتِ الخَدَّ والحاجِبًا (٥)
 غَدَاةٌ تقولُ على رِقَبَةٍ * لخادِمِها : يا أَحْسِي الرَّاكِبًا (٦)
 فقالت لها : فيمَ هذا الكلامُ * وأبدتُ لها عابِسًا قاطِبًا (٧)
 فقالت كَرِيمٌ أتى زائرًا * يُمرُّ بكم هَكَذا جانِبًا (٨)
 شريفٌ أتى ربَعًا زائرًا * فأَكرَهُ رَجعتَه خائبًا

- (١) الجلباب : القميص أو هو الخمار، وهو ما مغطى به المرأة رأسها . (٢) النشاب : النبل .
 (٣) أعتب : أزال سبب العتب ، فالهزرة للسلب . والمعنى أعذر . (٤) قراه يقروه : تتبعه .
 (٥) دميت الربى : سهلها ولينها . (٦) الغيم كأمير : موضع بين مكة والمدينة . (٧) الخادم :
 واحد الخدم فلأما كان أوجارية . (٨) قاطبا من القطوب : وهو تزوى ما بين العينين من العبوس .

وقال في جاريته بغوم :

صرمت حبلك البغومُ وصدت * عنك في غير رية أسماء
والغواني إذا رأيتك كهلاً * كان فيهن عن هواك أتواء
جداً أنت يا بغومُ وأسمأ * ء وعيصُ يكتننا وخلاءُ
ولقد قلت ليلة الخزل لما * أخضت ريطتي على السماء^(١)
ليت شعري وهل يردن ليت- * هل لهذا عند الرباب جزاء
كل وصل أمسى لدى لأئني * غيرها وصلها إلينا أداء
كل خلق وإن دنا لوصال * أو نأى فهو للرباب الفداء
فعيدى نائلا وإن لم تنبلي * إنما ينفعُ المحب الرجاء

وكان يهوى حميدة جارية ابن تفاعحة؛ وفيها يقول :

حمل القلب من حميدة ثقلاً * إن في ذلك للفؤاد لشغلاً
إن فعلت الذي سألت فقولي * حمد خيراً وأتبعي القول فعلاً
وصليني وأشهد الله أنني * لست أضفي سواك ماعشت وصلأ

وفيها يقول :

يا قلب هل لك عن حميدة زاجر * أم أنت مدكر الحياء فصابر
فالقلب من ذكرى حميدة موجع * والدمع منحدر وعظمى فاتر
قد كنت أحسب أنني قبل الذي * فعلت على ما عند حمدة قادر
حتى بدا لي من حميدة خلتي * بين وكنت من الفراق أحاذر

(١) الجزل : موضع قرب مكة . وأخضل : بل . والريطة : ملاءة كلها نسج واحد وقطعة

وله في هند :

أَرَبْتُ إِلَى هِنْدٍ وَتَرَيْنَ مَرَّةً * لَهَا إِذْ تَوَافَقْنَا بَقْرَعِ الْمُقَطَّعِ
 لِتَعْرِيجِ يَوْمٍ أَوْ لَتَعْرِيسِ لَيْلَةٍ * عَلَيْنَا يَجْمَعُ الشَّمْلَ قَبْلَ التَّصَدُّعِ
 فَقُلْنَا لَهَا لَوْلَا أَرْتَابُ صَحَابَةٍ * لَنَا خَلْفَنَا مَجْنَأٌ وَلَمْ نَتَوَرَّعِ
 فَقَالَتْ فَتَاةٌ كُنْتُ أَحْسِبُ أَنَّهَا * مُغْفَلَةٌ فِي مَرَرٍ لَمْ تَدْرِعِ
 لَهْنٌ - وَمَا شَاوَرْنَاهَا - لَيْسَ مَا أَرَى * بِحُسْنِ جِزَاءٍ لِلْجَيْبِ الْمَوَدِّعِ
 فَقُلْنَا لَهَا لَا شَبَّ قَرْنُكَ فَافْتَحِي * لَنَا بَابَ مَا يَخْفَى مِنَ الْأَمْرِ تَسْمَعِ

- (١) يقال : أرب بكذا : كلف به ، وأرب إلى كذا : احتاج إليه . ولعل المراد : دعاني الشوق اليه .
 (٢) التعريس : قيل هو نزول القوم في السفر آخر الليل يستريحون قليلا ثم يرحلون مع الصبح . وقيل : هو النزول
 أول الليل . وقيل : النزول في أي وقت كان من ليل أو نهار . والمراد هنا : لإقامة يوم أو لإقامة ليلة .
 (٣) لم تدرع : لم تلبس الدرع ، يقال : درعت الصبية إذا ألبست الدرع ، والدرع : جبة مشقوفة المقدم .
 (٤) قال الأصمعي : يقال أشبه الله وأشبه الله قرنه بمعنى واحد (وهو الدعاء له بأن يشب ويكبر) ، والقرن
 زيادة في الكلام اه . والقرن : الضفيرة . والمراد التعجب من حديثها كما يقال في هذا المقام : فأتاك الله .
 (٥) البابة : الوجه والطريق ، قال تميم بن مقبل :

بنى عامر ما تأمرون بشاعر * تخير بابات الكتاب هجائيا

أي تخير هجائي من وجوه الكتاب ، كما فسره صاحب اللسان . والبابة معان أخرى لا بأس من إيرادها وهي : القيل
 والنوع - كما قال الجاحظ في «كتاب الحيوان» ج ٢ ص ٤٥ : «فليس الديك من بابة الكلب لأنه إن ساوره قتله
 قتلا ذريعا» وقال أيضا في ح ٧ ص ٤٣ : «وقد أبقنا أنهما ليسا من بابه» . وقال في كتاب البهلاء ص ٤٥ ،
 ١٤٣ : «أنت من ذى البابة ... وأما سائر حديث هذا الرجل فهو من هذه البابة» . ومثل ذلك في فتح الطيب
 ج ١ ص ٥٥٩ طبع ليدن ، ج ١ ص ٣٩٨ طبع بولاق سنة ١٢٧٩ هـ قول القاضي محمد بن بشير الأندلسي :

إنما أزرى بقدرى أننى * لست من بابة أهل البلد

وإذا قال الناس : «من بابتي» فعناه من الوجه الذي أريده ويصلح لي .

والشرط - ومثله ما في «تاج العروس» : هذا بابه أي شرطه .

والغاية - ويستعمل ذلك في الحساب والحدود . وفي «شعاع الليل» أنهم يقولون لعب خيال الظل بابة
 فيقولون : بابات خيال الظل ، وعلى ذلك قول ابن عباس المؤرخ المصرى : فكانوا مثل بابات خيال الظل فشى . يحمى .
 وشى : يروح (بدائع الزهور في وقائع الدهور ج ١ ص ٣٤٧) .

ويجوز أن يسمى به كل فصل من فصول التمثيل المسماة الآن فصول الرواية . (انظر كتاب التاج للجاحظ ص ٣٨

لَيْتَ هَذَا أَنْجَزْتَنَا مَا تَهْتَدُ * وَشَقَّتْ أَنْفَسَنَا مِمَّا تَجْتَدُ^(١)
 وَأَسْتَبَدَّتْ مَرَّةً وَاحِدَةً * إِنَّمَا الْعَاجِزُ مِنْ لَا يَسْتَبِدُّ^(٢)
 وَلَقَدْ قَالَتْ بِلْجَارَاتِهَا * ذَاتَ يَوْمٍ وَتَعَرَّتْ تَبْتَرِدُ^(٣)
 أَكْمَا يَنْعَتِي تَبْصُرَتِي * عَمَّرَكُنَّ اللَّهُ أُمَّ لَا يَقْتَصِدُ^(٤)
 قَهَّانْفَنَ وَقَدْ قُلْنَ لَهَا * حَسَنٌ فِي كُلِّ عَيْنٍ مِنْ تَوَدُّ^(٥)
 حَسَدًا حُمَّلَنَهُ مِنْ أَجْلِهَا * وَقَدِيمًا كَانَ فِي النَّاسِ الْحَسَدُ

وله :

يَأْمَنُ لِقَلْبِ دَنِيْفٍ مُغْرِمٍ * هَامٌ إِلَى هِنْدٍ وَلَمْ يَنْظُرْ^(٤)
 هَامٌ إِلَى رِيْمٍ هَضِيمِ الْحَشِيِّ * عَذِبِ الثَّنَائِيَا طَيِّبِ الْمَيْسَمِ^(٥)
 لَمْ أَحْسِبِ الشَّمْسِ بَلْبِلِي بَدَّتْ * قَبْلِي لِذِي لَحْمٍ وَلَا ذِي دَمِ^(٦)

(١) وجد به يجحد وجدا : أحبه حبا شديدا ، ووجد عليه يوجد وجدا : حرن . (٢) تبترد :
 تغسل بالماء البارد . (٣) كذا في الكامل للبرد طبع ليبرح ص ٥٩٤ وهي رواية جيدة . والتعريف كالأهناف
 والمهافقة : ضحك فيه فتور كضحك المستهزئ . وفي الأغاني والديوان : « فضا حكن » . وقد رجحنا الرواية الأولى
 لأنها أقوى تمام المعنى المراد . (٤) هام تتعدى بالباء وقد صممت هنا معنى صبا ولهذا تعدت بالي .
 (٥) كذا في الأغاني ، وفي ديوانه : « رثم » بالهمز . والرثم : الظبي الأبيض الخالص البياض ، وقيل ولد الظبي ،
 يهز ولا يهزم . (٦) كذا في الأغاني ، وبين هذا البيت والذي قبله في ديوانه :

كالشمس بالأسعد إذ أشرقت * في يوم دجن بارد مقتم

يريد بالأسعد هنا صعود النجوم ، وهي عشرة : أربعة منها في برج الجدي والدلو ينزلها القمر وهي سعد الذابح وسعد
 بلع وسعد الأخرية وسعد السعود وهو كوكب منفرد نير . وأما الستة التي ليست من المنازل فسعد ناشرة وسعد الملك
 وسعد الهام وسعد الهمام وسعد البارح وسعد مطر . وكل سعد من هذه الستة كوكبان بين كل كوكبين في رأى العين قدر
 ذراع وهي متناسقة . وأما سعد الأخرية فتلاثة أنجم كأنها أثنائي ورابع تحت واحد منهم . أنظر المرتضى والمقاصد
 النحوية في شرح شواهد شروح الألفية للامام العيني المطبوع بهامش الخزانة ج ١ ص ٨٠ في الكلام على البيت :

إذا دبران منسك يوما لقيته * أو تمل أن ألقاك غدا بأسعد

وقال في اللسان في مادة «سعد» بعد أن ذكر هذه السعود : فأحسن ما تكون الشمس والقمر والنجوم في أيامها
 لأنك لا ترى فيها غبرة ، وقد ذكرها النابغة الذبياني فقال :

قامت تراءى بين سيجنى كلة * كالشمس يوم طلوعها بالأسعد

وقد ضبط خطأ في اللسان بفتح العين . وقال :

بياض كالشمس وافت يوم أسعدها * لم تؤذ أهلا ولم تفحش على حار

قالت ألا إنك ذو مَلَّةٍ * يصيرُك الأذنى عن الأقدم
قلت لها بل أنتِ معتلةٌ * في الوصل ياهند لكي تصيرى

بينما عمر بن أبي ربيعة يطوف بالبيت إذ رأى عائشة بنت طلحة بن عبيد الله ،
وكانت من أجمل أهل دهرها ، وهى تريد الركن تستلمه ، فبهت لما رآها ورأته ، وعلمت
أنها قد وقعت فى نفسه ، فبعثت إليه بجمالية لها وقالت : قولى له : أتق الله ولا تقل هجرًا ،
فإن هذا مقام لا بد فيه مما رأيت ، فقال للجمالية : أفرئها السلام وقولى لها : ابن عمك
لا يقول إلا خيرًا ، وقال فيها :

لعائشة ابنة التيمي عندى * حى فى القلب ، لا يرعى حماتها
يذكرنى ابنة التيمي طيبى * يرود بروضة سهل ربأها
فقلت له وكاد يرأع قلبى * فلم أرقط كاليوم اشتبأها
سوى حميش بساقك مستبين ^(١) * وأن شواك ^(٢) لم يشبه شواها
وأنت عاطل عارٍ وليست * بعارية ولا عطل يدأها
وأنت غير أفرع وهى تدلى ^(٣) * على المتنين ^(٤) أسمع قد كساها
ولو قعدت ولم تكلف بود ^(٤) * سوى ما قد كلفت به كفاها
أظلل إذا أكلها كانى * أكلم حية غلبت رقاها
تبيت إلى بعد النوم تسرى * وقد أمسيت لأخشى سراها

ولنه :

لأنى وأول ما كلفت بجمها * عجب وهل فى الحب من متعجب
نعت النساء فقلت لست بمبصر * شباها لها أبداً ولا بمقرب

(١) الحمى : دقة الساقين . (٢) الشوى : الأطراف . (٣) الأفرع : طويل شعر الرأس .

(٤) الأسم : الأسود ، يريد به الشعر .

فَمَكَّنَ حِينًا ثُمَّ قَلَنَ تَوَجَّهَتْ * لِلْحَجِّ ، مَوَعِدُهَا لِقَاءَ الْأَخْشَبِ^(١)
 أَقْبَلْتُ أَنْظُرَ مَا زَعَمَنَ وَقُلَنَ لِي * وَالْقَلْبُ بَيْنَ مُصَدِّقٍ وَمُكْذَبٍ
 فَلَقِيْتُهَا تَمَشِي بِهَا بَغْلَاتُهَا * تَرِي الْجَارَ عَشِيَّةً فِي مَوْكِبِ
 غَرَاءَ يُعْشِي النَّاطِرِينَ بِيَاضِهَا * حَوْرَاءَ فِي غُلُوَاءِ عَيْشٍ مُعْجِبِ^(٢)
 إِنَّ التِّي مِنْ أَرْضِهَا وَسَمَايَا * جَلِبَتْ لِحِينِكَ لَيْتَهَا لَمْ تُجَلَبِ

وكان عمر بن أبي ربيعة يهوى كَلِّمَ بنتَ سَعْدِ الْخَزْرُومِيَّةِ، فأرسل إليها رسولا فضربتها وحلقتها وأحلقتها ألا تُعَاوِدَ؛ ثم أعادها ثانية ففعلت بها مثل ذلك، فتحامأها رسُلُهُ؛ فابتاع أُمَّةً سَوْدَاءَ لَطِيفَةً رَقِيقَةً وَأَتَى بِهَا مَنْزِلَهُ فَأَحْسَنَ إِلَيْهَا وَكَسَّاهَا وَأَسَّهَهَا وَعَرَّفَهَا خَبْرَهُ وَقَالَ لَهَا: إِنْ أَوْصَلْتَ لِي رُقْعَةً إِلَى كَلِّمَ فَقَرَأْتُهَا فَأَنْتِ حَرَّةٌ وَلِكِ مَعِيشَتُكَ مَا بَقِيَّتِ؛ فقالت: اكِتُبْ لِي مَكَاتِبَةً وَأَكْتُبْ حَاجَتَكَ فِي آخِرِهَا، ففعل ذلك، فأخذتها ومضت بها إلى باب كَلِّمَ فاستأذنت فخرجت إليها أُمَّةٌ لها فسألتهَا عن أمرها؛ فقالت: مَكَاتِبَةٌ لِبَعْضِ أَهْلِ مَوْلَاتِكَ جِئْتُ أَسْتَعِينُهَا فِي مَكَاتِبَتِي، وحادثتها وناشدتها حتى ملأت قلبها، فدخلت إلى كَلِّمَ وقالت: إِنْ بِالْبَابِ مَكَاتِبَةٌ لَمْ أَرَقُطُ أَجْمَلَ مِنْهَا وَلَا أَكَلَّ وَلَا آدَبَ؛ فقالت: إِئْذَنِي لَهَا، فدخلت، فقالت: مَنْ كَاتِبَتِكَ؟ قالت: عَمْرُ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ الْفَاسِقُ! فاقْرئني مَكَاتِبَتِي، فمدت يدها لتأخذها فقالت لها: لِي عَلَيْكَ عَهْدُ اللَّهِ أَنْ تَقْرَأِيهَا، فَإِنْ كَانَ مِنْكَ إِلَى شَيْءٍ مِمَّا أُحِبُّهُ وَإِلَّا لَمْ يَلْحَقْنِي مِنْكَ مَكْرُوهٌ؛ فعاهدتها وفطنت وأعطتها الكتاب، فإذا أوله:

مِنْ عَاشِقٍ صَبَّ يُسْرُّهُ الْهَوَى * قَدْ شَفَّهَ الْوَجْدُ إِلَى كَلِّمَ
 رَأَيْتِكَ عَيْنِي فَدَعَانِي الْهَوَى * إِلَيْكَ لِلْحَيْنِ وَلَمْ أَعْلَمَ

(١) الأخشب: مفرد الأخشبين وهما جيلان بمكة أحدهما أبو قبيس والآخر قبيعان، ويقال: هما أبو قبيس والجيل الأحمر المشرف هناك، وقد ترد هذه التثنية فيقال لكل واحد منهما: الأخشب، قال ساعدة بن جؤية.

ومقامهن إذا حبسن بمازمن * ضيق ألف وصدهن الأخشب

(٢) في غلواء عيش: في أنضره وأرعه. (٣) المكاتبه: أن يكتب الرجل عبده على مال يؤذيه إليه منجبا (مقسطا) فإذا آذاه صار حرا، وسميت كذلك لأنه يكتب على نفسه لولاه ثمة، ومولاه يكتب له عليه عتقه.

قَتَلْتِنَا ، يَا جَبْدَا أَنْتُمْ * فِي غَيْرِ مَا جُرِّمُ وَلَا مَأْتُمْ
 وَاللَّهِ قَدْ أَنْزَلَ فِي وَحْيِهِ * مُبَيِّنًا فِي آيَةِ الْحُكْمِ
 مَنْ يَقْتُلِ النَّفْسَ كَذَا ظَالِمًا * وَلَمْ يَقْدُهَا نَفْسَهُ يَظْلَمُ
 وَأَنْتِ تَأْرِي قَتْلَاقِي دَمِي * ثُمَّ أَجْعَلِيهِ نِعْمَةً تُنْعِمِي
 وَحَكْمِي عَدْلًا يَكُنُّ بَيْنَنَا * أَوْ أَنْتِ فِيمَا بَيْنَنَا فَأَحْكُمِي
 وَجَالِسِي مَجْلِسًا وَاحِدًا * مِنْ غَيْرِ مَا عَارٍ وَلَا مُحَرَّمِ
 وَخَبْرِي مَا الَّذِي عِنْدَكُمْ * بِاللَّهِ فِي قَتْلِ أَمْرِي مُسْلِمِ

فلما قرأت الشعر قالت لها : إنه خداع مائق وليس لما شكاه أصل ، قالت : يا مولاتي ،
 فما عليك من أمتحانه؟ قالت : قد أذنت له وما زال حتى ظفر بيغيته ! فقولي له : إذا كان
 المساء فليجلس في موضع كذا وكذا حتى يأتيه رسولي ، فأصرف الجارية فأخبرته فأنهبط لها ،
 فلما جاءه رسولها مضى معه حتى دخل إليها وقد تهيأت أجمل هيئة ، وزينت نفسها وجلسها
 وجلست له من وراء ستر ، فسلم وجلس ، فتركته حتى سكن ثم قالت له : أخبرني عنك
 يا فاسق ! ألسنت القائل :

هَلَّا أَرَعَوَيْتِ قَرَحِي صَبَا * صَدْيَانًا لَمْ تَدْعِي لَهُ قَلْبًا
 جَسِيمَ الزِّيَارَةِ فِي مَوَدَّتِكُمْ * وَأَرَادَ أَلَّا تُرْهِقِي ذَنْبًا
 وَرَجَا مُصَاحَلَةً فَكَانَ لَكُمْ * سَأَا وَكُنْتَ تَرِيئِهِ حَرَبًا
 يَا أَيُّهَا الْمُصْفِي مَوَدَّتِهِ * مَنْ لَا يَرَاكَ مُسَامِيًا خُطْبًا^(١)
 لَا تَجْمَلْنَ أَحَدًا عَلَيْكَ إِذَا * أَحْبَبْتَهُ وَهَوَيْتَهُ رَبًّا
 وَصِلِ الْحَيِيبَ إِذَا شَغَفَتْ بِهِ * وَأَطْوِ الزِّيَارَةَ دُونَهُ غَيْبًا
 فَلَذَلِكَ أَحْسَنُ مِنْ مُوَاطَبَةٍ * لَيْسَتْ تَزِيدُكَ عِنْدَهُ قُرْبًا
 لَا بَلْ يَمْلِكُ عِنْدَ دَعْوَتِهِ * يَقُولُ هَاهُ وَطَالَمَا لَسِي^(٢)

(١) انطرب : الخاطب . (٢) وهاه : كلمة وعيد ، وحرك لضرورة الشعر وقد روى البيت في ديوانه :

لا بل يملك ثم تدعوا باسمه * يقول هاه وطالما لي

ورأى عمرُ لُبَّابَةَ بنتَ عبدِ الله بنِ العباسِ امرأةَ الوليدِ بنِ عُتْبَةَ بنِ أبِي سفيانٍ تَطُوفُ
بالبيتِ فرأى احسنَ خلقِ الله ، فكاد عقلُه يذهبُ ، فسألَ عنها فأخبرَ بنسبِها ، فنسبَ بها
وقال فيها :

وَدَّعْ لُبَّابَةَ قَبْلَ أَنْ تَرَحَّلَا * وَأَسْأَلُ فَإِنْ قُلَّ لَهُ أَنْ تَسْأَلَا
إِلْبَثُ بِعَمْرِكَ سَاعَةً وَتَأْتِنَا * ففعلَ ما بَخَّثَتْ بِهِ أَنْ يُبْذَلَا
قالَ أَتَمَّرَ ما شئتَ غيرَ مُخَالَفٍ * فيما هَوَيْتَ فَإِنَّا لِنَ نَعَجَلَا
لَسْنَا نُبَالِي حِينَ تَقْضِي حَاجَةً * ما باتَ أو ظَلَّ المَطِيَّ مُعَقَّلَا
حتى إذا ما الليلُ جَنَّ ظَلَامُهُ * وَرَقَبْتُ غَفْلَةَ كَأَنَّ شَيْخًا أَنْ يُحَلَّ
نَرجتُ تَأَطَّرَ في الثيابِ كأنها * أَيْمٌ ^(٤) يَسِيبُ على كَهَيْبِ أَهْيَلَا
رَجَبْتُ حِينَ رَأَيْتُهَا فَتَبَسَّمْتُ * لَتَحِيَّتِي لَمَّا رَأَيْتُنِي مُقْبِلَا
وَجَلَا القِنَاعُ سَحَابَةً مَشْهُورَةً * غَمْرَاءُ تُعْشِي الطَّرْفَ أَنْ يَتَأَمَّلَا
فَلَبِثْتُ أَرْقِيهَا بِمَا لَوْ عَاقِلٌ * يُرْفِي بِهِ مَا أَسْطَاعَ أَلَّا يَنْزَلَا

وَجَحَّتْ رَمْلَةٌ بِنْتُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ خَلِيفِ الخَزَاعِيَّةُ فَقَالَ فِيهَا :

أَصْبَحَ القَلْبُ فِي الحِجَابِ رَهِينًا * مُقْصِدًا يَوْمَ فَارَقَ الظَّاعِنِينَا
عَجَلْتُ حُمَّةَ الفِرَاقِ عَلَيْنَا * بِرَحِيلٍ وَلَمْ نَخْفِ أَنْ تَبِينَا
لَمْ يَرُعْنِي إِلَّا الفِتَاءُ وَإِلَّا * دَمْعُهَا فِي الرِّدَاءِ سَحَابًا سَنِينَا
وَلَقَدْ قَلْتُ يَوْمَ مَكَّةَ سِرًّا * قَبْلَ وَشِكِّ مِنْ بَيْنِكُمْ نَوَلِينَا
أَنْتِ أَهْوَى العِبَادِ قُرْبًا وَدَلًّا * لَوْ تُنِيلِينَ عَاشِقًا مَحْزُونَا
قَادَهُ الطَّرْفُ يَوْمَ مَرَّ إِلَى الحِيَاءِ * مِنْ جِهَارًا وَلَمْ يَخْفِ أَنْ يَحِينَا

(١) القلال كغراب وسحاب : القليل . (٢) اتتمر ما شئت : افعل ما شئت فإننا لانعصى لك أمرا .

(٣) تأطر : مخدوفة إحدى تاءيه ، أى تثنى . (٤) الأيم : الحية . (٥) يقال : عقل الوعل

يعقل عقولا : امتنع في الجبل ، وبه سمى الوعل عاقلا على حد التسمية بالصفة ، ومنه المثل : « إنما هو كجراح

الأرؤى قليلا ما يرى » . والأرؤى : جمع أروية وهى تيوس الجبل البرية .

فاذا نعمةً تراعى نِعَاجًا * ومهًا بهج المناظر عينا
 قلتُ من أتمُّ فصدتُ وقالتُ * أميدٌ سؤالكِ العالمينا
 قلتُ بالله ذى الجلالة لما * أن تبتِ الفؤاد أن تصدقينا
 أى من تجمعُ المواسم قولى * وأبني لنا ولا تكتُمينا
 نحن من ساكنى العراق وكنا * قبله قاطنين مكة حيناً
 قد صدقناك إذ سألتَ فن أن * ست عسى أن يجر شأنُ شؤونا
 ونرى أننا عرفناك بالنع * يت بظن وما قتلنا يقينا
 بسوادِ الثنيتين ونعت * قد نراه لناظرٍ مُستئينا
 وقال فى الثريا وقد صرّمته .

من رسولى إلى الثريا فإنى * ضفتُ ذرعاً بهجرها والكباب
 سلبتني مجاجةً المسكِ عقلى * فسألوها ماذا أحلَّ اغتصابى
 وهى مكنونةٌ تحيرٌ منها * فى أديم الخدين ماءُ الشباب
 برزوها مثل المهابة تهادى * بين خمسين كواعبِ أتراب
 ثم قالوا تُجِبُّا قلتُ بهراً * عددَ القطر والحصى والتراب
 أزَهقتُ أم نوفلٍ إذ دعتهَا * مهجتي ، ما لِقائيلِ من متاب^(١)
 حين قالتُ لها أجيبي فقالتُ * من دعاني قالت أبو الخطّاب
 فاستجابت عند الدعاء كما لى * رجالٌ يرجون حسن الثواب

(١) قال فى اللسان مادة بدد بعد أن أورد هذا الشرط : « معناه أمقسم أنت سؤالك على الناس واحدا واحدا حتى تمهم » . من البداد وهو أن يبد المال القوم فيقسم بينهم ، وأبدهم المال والعتاء : فرقه فيهم ، والمراد : لماذا تسألنا ! ألك حق السؤال على جميع الناس ! . أو معناه : « أنت ملزم سؤالك الناس ، من قولهم : مالك منه بد » ، والمراد : أنت ملزمنا الإجابة عن سؤالك ! إننا لانحبيك . (٢) مجاجة المسك ، يريد بذلك وصفها بطيب ريقها وبأنه كالمسك . (٣) تهادى ، يريد يبدى بعضها بعضاً فى مشيتها (الكامل للبرد طبع ليزج ص ٣٧٩) . (٤) فى الكامل للبرد طبع ليزج ص ٣٧٩ : أزَهقتُ : أبطلت وأذهبت قال الله عز وجل : (فيدمغه فاذا هو زاهق) اه . يريد : أذهبت أم نوفل نفسى إذ دعت اثريا لوصالى فلم تجبها .

ومن شعره :

كُنْتُ إِلَيْكَ مِنْ بَلَدِي * كِتَابٌ مُؤَلَّهٌ تَكْمِدُ
كَيْبُ وَأَكْفِ الْعَيْنِ (١) * مِنْ بِالْحَسْرَاتِ مَنْفَرِدِ
يُورِقُهُ لَهَيْبُ الشَّو * قِيَامِ السَّحْرِ وَالْكَيْدِ (٢)
فِيْمَسِكَ قَلْبَهُ بِيَدِ * وَيَمْسَحُ عَيْنَهُ بِيَدِ

لما تزوج سهيل بن عبد العزيز الثريا ونقلها الى الشام ، بلغ عمر بن أبي ربيعة الخبر ، فأتى المنزل الذي كانت الثريا تنزله ، فوجدها قد رحلت منه يومئذ ، فخرج في أثرها فلحقها على مرحلتين ، وكانت قبل ذلك مهاجرة لأمر أنكرته عليه ، فلما أدركهم نزل عن فرسه ودفعه الى غلامه ومشى متنكرا حتى مر بالخيمة ، فعرفته الثريا وأثبتت حركته ومشيته ، فقالت لحاضنتها : كلميه ، فسأمت عليه وسألته عن حاله وعاتبته على ما بلغ الثريا عنه ، فاعتذر وبكى ، فبكت الثريا ، فقالت : ليس هذا وقت العتاب مع وشك الرحيل ، فحادثها الى وقت طلوع الفجر ثم ودعها وبكى طويلا ، وقام فركب فرسه ووقف ينظر اليهم وهم يرحلون ، ثم أتبعهم بصره حتى غابوا ، وأنشأ يقول :

يَا صَاحِبِي قِفَا نَسْتَخِيرِ الطَّلَا * عَنِ حَالِ مَنْ حَلَّهَ بِالْأَمْسِ مَا فَعَلَا
فَقَالَ لِي الرَّبُّ لِمَا أَنْتَ وَقَفْتُ بِهِ * إِنَّ الْخَلِيطَ أَجْدَ الْبَيْنِ فَاحْتَمَلَا (٣)
وَخَادَعْتِكَ النَّوَى حَتَّى رَأَيْتَهُمْ * فِي الْفَجْرِ يَحْتَثُّ حَادِي عَيْسِهِمْ زَجَلَا (٤)

(١) يقال : وكفت العين : سالت دموعها . (٢) السحر : الرثة .

(٣) أي عرقتهما حتى المعرفة . (٤) لحاضنتها : لمربيتها . (٥) يرحلون يشدون على إبلهم

الرجال . (٦) أجْدُ البين : اعترفه . (٧) احتمل : ارتحل . (٨) النوى : الفراق

والبعد . ويحث : يسوق . وزجلا : رافعا صوته في حذاء الإبل لتسرع في السير ، وأصل الزجل الجملة ورفع

الصوت وخص به التطريب ، وأنشد سيبويه في وصف حمار وحش :

له زجل كأنه صوت حاد * إذا طلب الوسيقة أو زمير

وذكره في باب ما يحتمل الشعر من استباحة الضرورة ، وهي هنا حذف الواو المبيدة لحركة الهاء في قوله : كانه .

والوسيقة : أثناء التي يضمها ويجمعها ، من وسقت الشيء : جمعته .

لما وقفنا نُحِيمهم وقد صرَّحت * هَوَاتِفُ الْبَيْنِ وَأَسْتَوْلَتْ بِهِمْ أَصْلًا^(١)
صَدَّتْ بِعَادًا وَقَالَتْ لَاتِي مَعَهَا * بِاللَّهِ لَوْمِيهِ فِي بَعْضِ الَّذِي فَغَلَا
وَحَدَّثِيهِ بِمَا حُدِّثْتِ وَأَسْتَمِعِي * مَاذَا يَقُولُ وَلَا تَعْبِي بِهِ جَدَلًا^(٢)
حَتَّى يَرَى أَنَّ مَا قَالَ الْوُشَاةُ لَهُ * فِينَا لَدَيْهِ إِلَيْنَا كُلُّهُ نُفَلَا
وَعَرَّفِيهِ بِهِ كَالْهَزْلِ وَأَحْفِظِي * فِي بَعْضِ مَعْتَبَةٍ أَنْ تُغْضِبِي الرَّجُلَا
فَإِنَّ عَهْدِي بِهِ وَاللَّهُ يُحْفَظُهُ * وَإِنْ أَتَى الذَّنْبَ مِنْ يَكْرِهِ الْعَدَلَا
لَوْ عِنْدَنَا أَغْتَيْبَ أَوْ نَيْلَتْ نَقِيسَتُهُ * مَا أَبَّ مُعْتَابُهُ مِنْ عِنْدِنَا جَدَلَا
قَلْتُ أَسْتَمِعِي فَلَقَدْ أَبْلَغْتِ فِي لَطْفِ^(٣) * وَليْسَ يَخْفَى عَلَي ذِي اللَّبِّ مِنْ هَزَلَا
هَذَا أَرَادَتْ بِهِ بُحْلًا لِأَعْذِرَهَا * وَقَدْ أَرَى أَنهَا لَنْ تَعْدَمَ الْعِلَلَا
مَا سَمِي الْقَلْبُ إِلَّا مِنْ تَقَلُّبِهِ * وَلَا الْفُؤَادُ فُؤَادًا غَيْرَ أَنْ عَقَلَا^(٤)
أَمَا الْحَدِيثُ الَّذِي قَالَتْ أُثْبِتَ بِهِ * فَمَا عَبَّأْتُ بِهِ إِذْ جَاءَنِي حَوْلَا
مَا إِنْ أَطَعْتُ بِهَا بِالْغَيْبِ قَدْ عَلِمْتُ * مَقَالَةَ الْكَاشِحِ الْوَاشِي إِذَا عُمَلَا
إِنِّي لِأَرْجِعُهُ فِيهَا بِسَخَطَتِهِ * وَقَدْ يَرَى أَنَّهُ قَدْ غَرِنِي زَلَا
وهي قصيدة طويلة مذكورة في شعره .

(١) في ديوانه :

لما وقفنا نحيمهم وقد شحطت * نعمة البين فاستولت بهم أصلا

وشحطت نعمة البين : ارتحلوا وفرّتهم البين ، وفي اللسان مادة نم وشال : يقال للقوم إذا ارتحلوا عن منزلهم أو نفرقوا : قد حفت نعامتهم وشالت نعامتهم ، والأصل : جمع أصيل وهو العشي ويقيل هو مفرد ، أنشد نعل : وتمذرت نفسى لداك ولم أزل * بدلنا نهاري كله حتى الأصل

فقوله : بدلنا نهاري كله ، يدل على أن الأصل هاهنا واحد . (٢) لا تعبي به جدلا : لا تعجزى في مجادلته . (٣) اللطف لغة في اللطف . (٤) قال في اللسان : والتفؤد : التوقد ، والفؤاد : القلب لتفؤده وتوقده . وقال في القاموس وشرحه : والتفؤد : التحزق والتوقد ، ومنه الفؤاد للقلب ، لأن عقل الفؤاد للعلومات نتيجة اشتغاله وتوقده وتحركه وجولته فيها حتى يحصها ، ويميز الصحيح من الفاسد والحق من الباطل .

وله :

هل تعرف الدار والأطلال والدمنا * زدت الفؤاد على علاته حنا^(١)
 داراً لأسماء قد كانت تحلُّ بها * وأنت إذ ذاك قد كانت لكم وطنا
 لم يُجيب القلب شيئاً مثل حبكم * ولم تر العين شيئاً بعدكم حسنا
 ما إن أبالي أدام الله قربكم * من كان شطاً من الأحياء أو ظعنا
 فإن نأيتم أصاب القلب نأيتكم * وإن دنت داركم كنتم لنا سكنا
 إن تجلّى لا يسئل القلب بحكمكم * وإن تجودى فقد عنيتني زماً
 أمسى الفؤادُ بكم ياهند مرتهنا * وأنت كُنتِ الهوى والمهمَّ والوسنا
 إذ تستييك بمصقولٍ عوارضه * ومقتلى جودٍ لم يعد أن شدنا

وقال :

أعبدة ما ينسى مودتك القلب * ولا هو يسليه رخاء ولا كرب
 ولا قول وإش كاشح ذى عداوة * ولا بعد دار إن نأيت ولا قرب
 وما ذاك من نعمى لديك أصابها * ولكن حباً ما يقاربه حب
 فإن تقبلي يا عبدة توبة نأيت * يتبُّ ثم لا يوجد له أبداً ذنب
 أذلُّ لكم يا عبدة فيما هويتم * وإني إذا ما رامني غيركم صعب
 وأعدل نفسي في الهوى فتعوقني * ويأصرنى قلب بكم كلف صب
 وفي الصبر عمن لا يؤاتيك راحة * ولكنه لا صبر عندى ولا لب
 وعبدة بيضاء المحار طفلة * منعمة تصبي الحليم وما تصبو
 قطوف من الحور الأوانس بالضحى * متى تمش قيس الباع من بهرها ترو
 فلست بناس يوم قالت لأربع * نوايم غمر كلهن لها ترو
 ألا ليت شعري فيم كان صدوده * أعلق أخرى ! أم علاه

وقال :

إِنَّ طَيْفَ الْخَيْالِ حِينَ الْمَاءِ * هَاجَ لِي ذِكْرُهُ وَأَحْدَثَ هَمًّا
 جَدْدِي الْوَصْلَ بِاسْكِينِ وَجُودِي * لِحُبِّ رَحِيلِهِ قَدْ أَحْمَا
 لَيْسَ بَيْنَ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ إِلَّا * أَنْ يَرُدُّوا بِحَمَلِهِمْ فَتَرَمَّا
 وَلَقَدْ قَلْتُ مُحْفِيًّا لَعْرِيضِ * هَلْ تَرَى ذَلِكَ الْغَزَالَ الْأَحْمَا
 هَلْ تَرَى فَوْقَهُ مِنَ النَّاسِ شَخْصًا * أَحْسَنَ الْيَوْمِ صُورَةً وَأَهْمَا
 إِنْ تُبْلِي أَعِشْ بِخَيْرٍ وَإِنْ لَمْ * تَبْذُلِ الْوَدَّ مَتَّ بِالْهَمِّ غَمًّا

وله أيضا :

أَيَا مَنْ كَانَ لِي بَصْرًا وَسَمْعًا * وَكَيْفَ الصَّبْرُ عَنِ بَصِيرِي وَسَمْعِي
 وَعَمَّنْ حِينَ يَذْكُرُهُ فُوَادِي * يَفِيضُ كَمَا يَفِيضُ الْغَرْبُ دَمْعِي
 يَقُولُ الْعَاذِلُونَ نَأَتْ فَدَعَهَا * وَذَلِكَ حِينَ تَهَيَّأِي وَوَلَّيْ
 أَا هَجْرَهَا فَأَقْعُدْ لَا أَرَاهَا * وَأَقْطَعُهَا وَمَا هَمَّتْ بِقَطْعِي
 وَأَصْرِمُ حَبْلَهَا لِمَقْبَالِ وَأَشِ * وَأَبْجَعُهَا وَمَا هَمَّتْ بِفَجْعِي
 وَأَقْسِمُ لَوْ خَلَوْتُ بِهِجْرٍ هِنْدِ * لَضَاقَ بِهِجْرِهَا فِي النَّوْمِ ذَرْعِي

وهو القائل :

مَا كُنْتُ أَشْعُرُ إِلَّا مُدَّ عَرَفْتَكُمْ * أَنْ الْمَضَاجِعَ تُنْسِي تُنْبِتُ الْإِبْرَا
 لَقَدْ شَقِيْتُ وَكَانَ الْحَيْنُ لِي سَبِيًّا * أَنْ عَلِقَ الْقَلْبُ قَلْبًا يُشْبِهُ الْحَجْرَا
 قَدْ لَمْتُ قَلْبِي فَأَعْيَانِي بِوَاحِدَةٍ * وَقَالَ لِي لَا تَلْمَنِي وَأَدْفَعِ الْقَدْرَا
 إِنْ أَكْرَهَ الطَّرْفُ يَحْسَرُونَ غَيْرَكُمْ * وَلَسْتُ أَحْسِنُ إِلَّا نَحْوَكِ النَّظْرَا
 قَالُوا صَبَوْتَ فَلَمْ أَكْذِبْ مَقَالَتَهُمْ * وَلَيْسَ يَنْسَى الصَّبَا إِنْ وَالَهُ كَبْرَا

وقال أيضا :

أَلَا لَيْتَ قَبْرِي يَوْمَ تُقْضَى مَنِّي * بتلك التي من بين عَيْنَيْكَ والفيء
وَلَيْتَ طَهْوَرِي كَانَ رِيْقِكَ كُلَّهُ * وليت حَنُوطِي من مُشَاشِكَ وَالِدَمِّ
أَلَا لَيْتَ أُمَّ الْفَضْلِ كَانَتْ قَرِيْبَتِي * هُنَا أَوْ هُنَا فِي جَنَّةٍ أَوْ جَهَنَّمِ

نظر عمر بن أبي ربيعة في الطَّوَّافِ إلى امرأةٍ شريفةٍ فرأى أحسنَ خَلْقِ الله صُورَةً،
فذهَبَ عقلُه عليها وكَلَمَها فلم يُجِبْه؛ فقال فيها :

الرَّيْحُ تَسْحَبُ أَذْيَالًا وَتَنْشُرُهَا * يا لَيْتِي كُنْتُ مِمَّنْ تَسْحَبُ الرِّيحُ
كَيْمَا يُجْرِبُنَا ذِيلاً فَتَطْرَحُنَا * على التي دونها مغبرة سوح^(٣)
أَنْتِ بِقُرْبِكُمْ أَمْ كَيْفَ لِي بِكُمْ * هَيْبَاتُ ذَلِكَ مَا أَمَسَتْ لَنَا رُوحُ
فَلَيْتَ ضِعْفَ الَّذِي أَلْفَى يَكُونُ بِهَا * بل لَيْتَ ضِعْفَ الَّذِي أَلْفَى تَبَارِيحُ^(٤)
إِحْدَى بُنْيَاتِ عَمِّي دُونَ مَرْزَلِهَا * أَرْضُ بَقِيْعَاتِهَا الْقَيْصُومُ وَالشَّيْحُ^(٥)

فبلغها شعره فجزعته منه ، فقبل لها : اذكريه لزوجك ، فإنه سينكر عليه قوله ، فقالت :
كَلَّا وَاللَّهِ لَا أَشْكُوهُ إِلَّا إِلَى اللَّهِ ، ثم قالت : اللهم إن كان نوهٌ بأسمى ظالمًا فاجعله طعامًا
للريح ، فضرَبَ الدهرُ مِنْ ضَرَبِهِ ؛ ثم إنه غدا يوماً على فرس فهبَّتْ رِيحٌ فَتَزَلَّ فاستتر
بِسَامَةِ ، فعصفتِ الرِّيحُ نَفْدَشَهُ غُضُنٌ مِنْهَا ، فدمي وورم به ومات من ذلك .

(١) هذا أحد الوجهين في الفعل الواقع بعد كذا : الرفع على أن ما كلفه لها عن العمل ، والنصب على أن
ما زائدة وركب عاملة فيما بعدها ، وقد روى بالوجهين :

إذا أنت لم تفسح فصرّ فإنما * يرجي الفتى كيا يضّر وينع

(٢) معبرة ، يريد بها الفلاة المجذبة . (٣) سوح : جمع ساحة وهي الغضاء . (٤) تباريح
الشوق : توهجه ، قال السيد محمد مرتضى : قال شيخنا وهو من الجوع التي لا مفرد لها وقيل : معرده تباريح
وأستعمله المحذثون وليس بثبت . (٥) قال في اللسان : القيصوم : ما طال من العشب ، ثم قال :
والقيصوم من نبات السهل قال أبو حنيفة : القيصوم من الذكور ومن الأمراء وهو طيب الرائحة من رياحين البر
وورقه هذب وله نورة صفراء وهي تهض على ساق وتطول .

(ب) الغزل العذريّ

(١)
حميل

قال نُصَيْبُ مولى عبد العزيز بن مروان: قَدِمْتُ المدينة فسألتُ عن أعلم أهلها بالشعر، فقيل لي: الوليد بن سَعِيدِ الأَشْجَعِي، فوجدته بِسَعْبِ سَلْعٍ مع عبد الرحمن بن حَسَّانٍ وعبد الرحمن بن أَزْهَرَ، فَإِنَّا جَلُوسٌ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ طَوِيلٌ بَيْنَ الْمُنْكَبَيْنِ يَقُودُ رَاحِلَةً

(١) هو جميل بن عبد الله بن معمر من عذرة، وكان شاعرا فصيحاً مقدّماً جامعاً للشعر والرواية. اشتهر بحبه بثينة ابنة عمه، ولذلك عرف بجميل بثينة، وكانا يقيان في وادي القرى، وكان أول عهده بها وهي صغيرة. ومن أوائل نظمه فيها قوله:

وأول ما قاد المودّة بيننا * بوادى بغض يا بشين سباب

وقلت لها قولاً بغاوت بهنله * لكل كلام يا بشين جواب

ولم يكن يراها حتى صارت شابة، فأخذ ينظم القصائد فيها حتى اشتهر أمره. وأففق مرة أن توبة بن الحمير صاحب ليلي مر ببنى عذرة فرأته بثينة فجعلت تنظر إليه وجميل حاضر فنارت الغيرة في قلب جميل، فقال لتوبة: من أنت؟ قال: أنا توبة بن الحمير، قال: هل لك في الصراع؟ قال: ذلك إليك؛ فأعطته بثينة ملاءة حمراء فأترز بها، ثم صارعه فصرعه جميل. ثم قال: هل لك في النضال؟ قال: نعم، فناضه فضله جميل. ثم قال: هل لك في السباق؟ قال: نعم. فسابقه فسبقه جميل. فقال له توبة: يا هذا، إنما تفعل ذلك برج الجلالة، ولكن اهبط بنا الوادى، فهبط، فصرعه توبة ونضله وسبقه.

وكان عند بثينة مثل ما عد جميل، ولما رأته ماضلته عنها زادت شعاعه، ولكنهما لم يكونا يجتمعان إلا حلسة على موعد. ولم يكن جميل يخلو من الرقباء، لكنهم لم يستطيعوا رميه بريية. وأخباره معها كثيرة لا يسعها هذا المقام. ولم يزل يجتمع بها سرا عن أهلها، فألحوا بالشكوى منه إلى العامل، ففتر إلى اليمن حتى عزل العامل. وانزع أهل بثينة الشام، فرحل جميل إليهم، فترصدوه وشكوه إلى عشيرته، فعتمه أهله وهددوه، فاقطع عنها، وأخيراً لجأ إلى مصر، وعاملها عبد العزيز بن مروان، فأحسن وفادته، ومرص هناك ومات. وكان طويل القامة عريض بين المنكبين جميل الخلق حسن البرة. توفي سنة ٨٢ هـ.

ورجليل ديوان شعر كبير كان مشهوراً في أيام ابن خلكان ولم يقف على حده، ولكن منه أشعاراً مجموعة في كتاب منه نسخة خطية في مكتبة برلين.

أنظر الكلام على جميل في الأعاني ح ٧ ص ٧٧ وح ١ ص ٨٠ وابن حلكان ح ١ ص ١١٥ ونزارة

عليها بزة حسنة، فقال عبد الرحمن بن حسان لعبد الرحمن بن أزهر : يا أبا حبترة هذا جميل فادعه لعله يُنشدنا؛ فصاح به عبد الرحمن : هيا جميل؛ فألنفت فقال : من هذا ؟ فقال : أنا عبد الرحمن بن أزهر؛ فقال : قد علمت أنه لا يجترئ على إلا مثلك ، فأناه ، فقال له : أنشدنا ؛ فأنشدهم :

ونحن منننا يوم أول نساءنا * ويوم أفي والأسنة ترعف^(١)
يحب الغواني البيض ظل لوائنا * اذا ما أتانا الصارخ المتلهف
نسير أمام الناس والناس خلقنا * فإن نحن أومأنا الى الناس وقفوا
فأى معد كان في رماحه * كما قد أفأنا والمفاخر يصف
وكنا اذا ما معشر نصبوا لنا * ومرت جوارى طيرهم وتميقوا^(٢)
وضعنا لهم صاع القصاص رهينة * بما سوف نوفيها اذا الناس طفقوا^(٣)
اذا استبق الأقوام مجدا وجدتنا * لنا معرفا مجيد وللناس معرف

ثم قال له : أنشدنا هزجا؛ قال : وما الهزج ؟ لعله القصير! قال : نعم ، فأنشده :

رسم دارٍ وقت في طلله * كدت أفضى الحياة من جلله^(٤)
موحشا ما ترى به أحدا * تنسج الرياح ترب معتدله
وصريعا بين التمام ترقى * عازفات المدب في أسله
بين علياء رائش فبلى * فالغميم الذي الى جبه
واقفا في ديار أم جسير * من صحى يومه الى أصله
يا خليلي إنا أم جسير * حين يدنو الضجيج من غلله^(٥)
روضه ذات حنوة وحرابي * جاد فيها الربيع من سبه^(٦)
بيننا نحن بالأراك معا * اذ بدا راكب على جماله

- (١) ترعف : تقطر دما . (٢) تعرفوا : من العيافة ، وهي زجر الطير والاعتبار بأسمائها ومساقطها وأصواتها ، فيسعد أو يتشاءم . . (٣) التطفف : نقص الكيل . (٤) من أحله . (٥) الغلل : جمع غلة ، وهي ما يتوارى فيه أو شعار تحت الثوب . (٦) السبل : المطر .

فَنَاطَرْتُ^(١) ثُمَّ قَلْتُ لَهَا * أَكْرَمِيهِ حُبِّيَّتٍ فِي نَزَلِهِ
 فَظَلَمْنَا بِنِعْمَةٍ وَأَتَكْنَا * وَشَرِينَا الْحَلَالَ مِنْ قُلَلِهِ
 قَدْ أَصَوْنُ الْحَدِيثَ دُونَ أُجْح * لَا أَخَافُ الْأَذَاةَ مِنْ قَبْلِهِ
 غَيْرَ بَغِيضٍ لَهُ وَلَا مَلِيحٍ * غَيْرَ أَنِّي أَشَحْتُ^(٢) مِنْ وَجَلِهِ
 وَخَلِيلٍ صَافِيَتْ مَرْتَضِيَا * وَخَلِيلٍ فَارَقْتُ مِنْ مَلَلِهِ

ثم افتاد راحلته موليا؛ فقال ابن الأزهري: هذا أشعر أهل الإسلام؛ فقال ابن حسان:
 نعم والله وأشعر أهل الجاهلية، والله ما لأحد منهم مثل مجائه ولا نسيبه؛ فقال عبد الرحمن
 ابن الأزهري: صدقت.

قال محمد بن سلام: كان لكثير في النسيب حظ وافر، وجميل مقدم عليه وعلى
 أصحاب النسيب في النسيب، وكان جميل صادق الصباة والعشق، ولم يكن كثير بعاشق
 ولكنه كان يتقول، وكان الناس يستحسنون بيت كثير في النسيب، وهو:

أُرِيدُ لِأَنْسَى ذَكَرَهَا فَكَأَنَّمَا * تَمَثَّلُ لِي لَيْسَ بِكُلِّ سَبِيلِ

ورأيت من يفضل عليه بيت جميل:

خَلِيلِي فِيمَا عَشْتَا هَلْ رَأَيْتَمَا * فَتَيْلًا بَكِي مِنْ حَبِّ قَاتَلِهِ قَبْلِي

قيل إن بثينة واعدت جميلا أن يلتقيا في بعض المواضع، فأتى لوعدها، وجاء أعرابي
 يستضيف القوم، فأنزاهه وقرّوه، فقال لهم: قد رأيت في بطن هذا الوادي ثلاثة نفر متفرقين
 متوارين في الشجر وأنا خائف عليكم أن يسلبوا بعض إبلكم، فعرفوا أنه جميل وصاحبه،
 فخرسوا بثينة ومنعوها من الوفاء بوعده، فلما أسفر له الصبح انصرف كئيبا سيئ الظن بها
 ورجع إلى أهله؛ فجعل نساء الحى يقرّعنه بذلك ويقلن له: إنما حصصت منها على الباطل
 والكذب والغدر، وغيرها أولى بوصولك منها، كما أن غيرك يحظى بها؛ فقال في ذلك:

فأجبتُها بالقول بعد تسنُّر * حَيِّ بُشِينَةٌ عَنِ وِصَالِكِ شَاغِلِي
 أُبْشِينَ إِنَّكَ قَدْ مَلَكَتِ فَأَسْبِحِي ^(١) * وَخُذِي بِحِظِّكَ مِنْ كَرِيمٍ وَاصِلِ
 فَلَبَّ عَارِضَةً عَلَيْنَا وَصَلَّهَا * بِالْحَدِّ تَحْلِطُهُ بِقَوْلِ الْهَازِلِ
 لَوْ كَانَ فِي صَدْرِي كَقَدْرِ قَلَامِي * فَضْلًا وَصَلَاتِكَ أَوْ أَتَتْكَ رِسَالِي
 وَيَقْلَنَ إِنَّكَ قَدْ رَضَيْتَ بِيَاظِلِي * مِنْهَا فَهَلْ لَكَ فِي اجْتِنَابِ الْبَاطِلِ
 لِيُزْنَ عَنْكَ هَوَايَ ثُمَّ يَصِلَنِي * وَإِذَا هَوَيْتُ فَمَا هَوَايَ بَزَائِلِ
 صَادَتْ فَوَادِي يَا بُشِينَ حِبَالِكُمْ * يَوْمَ الْجُبُونِ وَأَخْطَأَتْكَ حِبَالِي
 مَنِّيْتَنِي فَلَوَيْتَ مَا مَنِّيْتَنِي * وَجَعَلْتِ عَاجِلَ مَا وَعَدْتِ كَآجِلِ
 وَتَثَاقَلْتِ لَمَّا رَأَتْ كَلْفِي بِهَا * أَحْبَبْتُ إِلَىٰ بَذَاكَ مِنْ مِتْثَاقِلِ
 وَأَطَعْتِ فِي عَوَازِلَا فَهَجَرْتَنِي * وَعَصَيْتُ فِيكَ وَقَدْ جَهَدَنْ عَوَازِلِ
 حَاوَلْتَنِي لِأُبْتُ حَبْلَ وَصَالِكُمْ * مَتَىٰ وَلَسْتُ وَإِنْ جَهَدَنْ بِفَاعِلِ
 فَرَدَدْتُهُنَّ وَقَدْ سَعَيْنَ بِهَجْرِكُمْ * لَمَّا سَعِينَ لَهُ بِأَفْوَقَ نَاصِلِ ^(٢)
 يَعْضُضْنَ مِنْ غِيْظٍ عَلَيَّ أَنَامِلًا * وَوَدِدْتُ لَوْ يَعْضُضْنَ صُمَّ جَنَادِلِ
 وَيَقْلَنَ إِنَّكَ يَا بُشِينَ بِخَيْلَةٍ * نَفْسِي فِدَاؤِكَ مِنْ ضَمِينِ بَاخِلِ

وقال جميل في وعد بشينة بالطلاق وتأخرها قصيدةً أولها :

يَا صَاحِبَ عَنِ بَعْضِ الْمَلَامَةِ أَقْصِرْ * إِنْ الْمُنَىٰ لَلِقَاءِ أُمَّ الْمِسْوَرِ

ومنها :

وَكَأَنَّ طَارِقَهَا عَلَىٰ عِلَلِ الْكَرَىٰ * وَالنَّجْمُ وَهَنَا قَدْ دَنَا لَتَغْوَرِ

يَسْتَأْفِ رِيحَ مَدَامَةٍ مَعْجُونَةٍ * بِذِكِّي مَسِيكَ أَوْ سَحِيْقِ الْعَنْبَرِ ^(٣)

(١) أسبِحي : أحسن العمو . (٢) الأفوق : السهم الذي كسر فوقه ، وهو مشق رأس السهم

يقع الوتر . وواصل : لا فصل فيه . (٣) يستاف : يشم .

ومنها :

إِنِّي لَأَحْفَظُ غَيْبَكُمْ وَيُسْرَتِي * اذ تذكّر ين بصلح أن تذكّر
ويكون يومٌ لا أرى لكِ مُرْسَلًا * أو نلتقى فيه على كاشهر
يا ليتني ألقى المنيّة بغتةً * إن كان يومٌ لقائكم لم يُقدّر
أو أستطيع تجلّداً عن ذكركم * فيُفِيق بعض صباحي وتفكّر

وفيه يقول :

لو قد تُجَنِّ كما أُجَنُّ من الهوى * عذرت أو لظلمت إن لم تعذر
والله ما للقلب من علم بها * غير الظنون وغير قول الخبير
لا تحسبي أنّي هجرتك طائعاً * حدتُ لعمرك رائعٌ أن تهجري
فلتبيكين الباكيات وإن أُجُّ * يوما بسرّك معلّنا لم أعذر
يهواك ما عشتُ الفؤادُ فإن أمت * يتبع صدأى صدك بين الأقبّر
إني إليك بما وعدت لناظرٌ * نظرَ الفقير إلى الغنى المُكثّر
يعد الديون وليس يُجز موعداً * هذا الغريم لنا وليس بمُعسر
ما أنتِ والوعد الذي تعديني * إلا كبرق سحابة لم تُمطر
قلبي نصحتُ له فردّ نصيحتي * فتى هجرتيه فمنه تكثري

وقال في إخلافها إيّاه هذا الموعد :

ألا ليت ريعانَ الشبابِ جديدٌ * ودهراً نولِي يا بُنِين يعودُ
فَنَغْنَى كما كانا نكُون وأنتمُ * قريبٌ واذ ما تبدّلين زهيدُ
وما أنسَ مَلَأْشِياءَ لا أنسَ قولها * وقد قربت نصوي أمصر تريدُ
ولا قولها لولا العيونُ التي ترى * أتيتك فاعذرنى فدتك جودُ
خليلى ما أخفى من الوجد ظاهرٌ * ودمعى بما قلتُ الغداة شهيدُ

أَلَا قَدْ أَرَىٰ وَاللَّهِ أَنَّ رَبَّ عِبْرَةٍ * إذا الدار شَطَطَتْ بَيْنَنَا سَتْرِيَد
 إذا قَلْتُ مَا بِي يَا بَشِيئَةَ قَاتِلِي * من الحَبِّ قَالَتْ ثَابِتٌ وَيَزِيدُ
 وَإِنْ قَلْتُ رُدِّي بَعْضَ عَقْلِي أَعِشْ بِهِ * مع النَّاسِ قَالَتْ ذَاكَ مِنْكَ بَعِيدُ
 فَلَا أَنَا مُرْدُودٌ بِمَا جِئْتُ طَالِبًا * وَلَا حُبُّهَا فِيمَا يَبِيدُ يَبِيدُ
 جَزَيْتِكَ الْجَوَازِي يَا بَشِيئَ مَلَامَةٍ * إذا مَا خَلِيلٌ بَانَ وَهُوَ حَمِيدُ
 وَقَلْتُ لَهَا بَيْتِي وَبَيْنِكَ فَاعْلَمِي * من اللَّهِ مِيثَاقٌ لَهُ وَعَهْدُودُ
 وَقَدْ كَانَ حُبِّيكَ طَرِيقًا وَتَالِدًا * وَمَا الحَبُّ إِلَّا طَارِفٌ وَتَلِيدُ
 وَإِنْ عَرَوْضُ الوَصْلِ بِنِي وَبَيْنَهَا * وَإِنْ سَهَّلْتَهُ بِالْمَنَى لَصَعُودُ
 فَأَفْنَيْتُ عَيْشِي بِانْتِظَارِي نَوَاهَا * وَأَبْلَيْتُ ذَاكَ الدَّهْرَ وَهُوَ جَدِيدُ
 فَلَيْتَ وُشَاةَ النَّاسِ بِنِي وَبَيْنَهَا * يَدُوفٌ لَهُمْ سُمًّا طَاطِمٌ سُودُ^(٢)
 وَلَيْتَ لَهُمْ فِي كُلِّ مُمَسِّي وَشَارِقِ * تَضَاعَفُ أَكْبَالُ لَهُمْ وَقِيُودُ
 وَيَحْسَبُ نِسْوَانٌ مِنَ الجَهْلِ أَنِّي * إذا جِئْتُ لِإِيَّاهُنَّ كُنْتُ أُرِيدُ
 فَأَقْسِمُ طَرْفِي بَيْنَهُنَّ فَيَسْتَوِي * وَفِي الصَّدْرِ بَوْتُ بَيْنَهُنَّ بَعِيدُ
 أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبَيْتَنَ لَيْلَةً * بَوَادِي القُرَىٰ إِنِّي إِذَا لَسَعِيدُ^(٣)
 وَهَلْ أَهْبَطَنُ أَرْضًا تَظَلُّ رِيَّاحُهَا * لَهَا بِالثَّنَايَا القَاوِيَاتُ وَئِيدُ^(٤)
 وَهَلْ أَلْقَيْتَنَ سَعْدِي مِنَ الدَّهْرِ مَرَّةً * وَمَا رَثَ مِنْ حَبْلِ الصَّفَاءِ جَدِيدُ
 وَقَدْ تَلْتَقَى الْأَهْوَاءُ مِنْ بَعْدِ يَأْسَةٍ * وَقَدْ تُطَلَّبُ الحَاجَاتُ وَهِيَ بَعِيدُ
 وَهَلْ أَزْجَرُنَّ حَرْقًا عِلَاةً شِمْلَةً * بِحَرْقِ ثُبَارِيهَا سَوَاهِمُ قُودُ^(٥)
 عَلَى ظَهْرِ مُرْهَوِبٍ كَأَنَّ نَشْوَرَهُ * إذا جَازَ هَلَاكُ الطَّرِيقِ رُقُودُ

(١) العروض : الطريق في عرض الجبل في مصيق ، يريد الطريق الى وصلها . (٢) يدوف
 يخلط . وطاطم : جمع ططم وهو من في لسانه بجمعة ، وأراد بالطاطم هنا : الموالى . (٣) القاويات
 الخاليات . (٤) الوئيد : الصوت العالى الشديد . (٥) الحرف : الناقة الضامرة الصلبة . والعلادة
 المشرفة الصلبة . والشملة : السريعة . والحرق : الأرض الواسعة . والساهمة : الناقة الصامرة .

(٢) سَبْتَنِي بَعِينِي جَوْدِرِ وَسَطِ رَبِّبِ * وَصَدْرِ كِفَاوَرِ اللَّجِينِ وَجِيدِ
 تَرِيفِ كَمَا زَاغَتْ إِلَى سِلْفَاتِهَا ^(٣) * مُبَاهِيَةً طَيِّبًا الْوِشَاحِ مِيدُودِ
 إِذَا جُمْتُهَا يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ زَائِرًا * تَعَرَّضَ مَنَقُوضُ الْيَدَيْنِ صَدُودِ
 يَصُدُّ وَيَغْضِي عَنْ هَوَايَ وَيَجْتَنِي * ذُنُوبًا عَلَيْهَا إِنَّهُ لَعَنُودِ
 فَأَصْرِمُهَا خَوْفًا كَأَنِّي مُجَانِبٌ * وَيَغْفُلُ عَنَّا مَرَّةً فَنَعُودِ
 فَمَنْ يُعْطَى فِي الدُّنْيَا قَرِينًا كَثَلَهَا * فَذَلِكَ فِي عَيْشِ الْحَيَاةِ رَشِيدِ
 يَمُوتُ الْهَوَى مَتَى إِذَا مَا لَقِيَتْهَا * وَيَحْيَا إِذَا فَارَقَتْهَا فَيَعُودِ
 يَقُولُونَ جَاهِدْ يَا جَمِيلُ بَغْزُودِ * وَأَيَّ جِهَادٍ غَيْرَهُنَّ أُرِيدُ
 لِكُلِّ حَدِيثٍ بَيْنَهُنَّ بَشَاشَةٌ * وَكُلِّ قَتِيلٍ بَيْنَهُنَّ شَمِيدِ
 وَمَنْ كَانَ فِي حَيٍّ بُتَيْنَةٌ يَمْتَرِي * فَبِرْقَاءُ ذِي ضَالٍ عَلَى شَمِيدِ
 أَلَمْ تَعْلَمِي يَا أُمَّ ذِي الْوَدْعِ أَنِّي * أَضَاحِكُ ذَكَرَاكُمُ وَأَنْتِ صَاوُدِ

بعثت أمةً لبثينة إلى أبيها وأخيها وقالت لها: إن جميلاً عندها الليلة، فأتياها مشتملين على سيفين، فرأياه جالساً منها حجراً يحدثها ويشكو لها بشه، ثم قال لها: يا بثينة، أرايت ودي إياك وشغفني بك ألا تجزيينيه؟ قالت: بماذا؟ قال: بما يكون من المتحابين، فقالت له: يا جميل، أهدا تبغني! والله لقد كنت عندى بعيداً منه، ولئن عاودت تعريضا بريية لا رأيت وجهي أبدا! فضحك وقال: والله ما قلت لك هذا إلا لأعلم ما عندك فيه، ولو علمت أنك تجيبيني لعلمت أنك تجيبين غيري، ولو رأيت منك مساعدة لضربتك بسيفي

ما استمسك في يدي، ولو أطاعتني نفسي لهجرتك هجرة الأبد، أو ما سمعت قولي:

وَإِنِّي لِأَرْضَى مِنْ بُتَيْنَةَ بِالذِي * لَوْ أَبْصَرَهُ الْوَأَشَى لَقَرَّتْ بَلَايَاهُ
 بَلَا وَبَلَا أَسْتَطِيعَ وَبِالْمَنَى * وَبِالْأَمَلِ الْمَرْجُوقِ قَدْ خَابَ أَمَلُهُ
 وَبِالنَّظَرَةِ الْعَجَلَى وَبِالْحَوْلِ يَتَقَضَى * أَوْ أَحْرَهُ لَا نَلْتَقَى وَأَوَائِلُهُ

(١) الفائور: الخوان من رخام أو فضة أو ذهب. (٢) في البيت إقواء، وهو اختلاف حركة الروي

بالرفع والدرس. (٣) زاف: يتجتر. (٤) أي ناجة.

فقال أبوها لأخيها : قم بنا، فما ينبغي لنا بعد اليوم أن نمنع هذا الرجل من لقاءها،
فانصرفا وتركاهما .

ومن قول جميل :

إِنَّ الْمَنَازِلَ هَيَّجَتْ أَطْرَافِي * وَأَسْتَعَجَلَتْ آيَاتُهَا بِيَجْوَايِي
فَقَرًّا تَلُوحُ بِإِذَى الْجَلِينِ كَأَنَّهَا * أَنْضَاءُ رَسِيمٍ أَوْ سَطُورُ كِتَابِ
لَمَّا وَفَقْتُ بِهَا الْقَلُوصَ تَبَادَرْتُ * مَنِ الدَّمُوعُ لِفَرْقَةِ الْأَحْجَابِ
وَذَكَرْتُ عَصْرًا يَا بَنِينَةَ شَاقِي * وَذَكَرْتُ أَيَّامِي وَشَرَخَ شِسْبَابِي

لما نذرا أهل بئينة دم جميل وأهدره لهم السلطان ضاقت الدنيا بجميل ، فكان يصعد
بالليل على قوز رمل يتنسم الريح من نحو حى بئينة ويقول :

أَيَا رِيحِ الشَّمَالِ أَمَا تَرَنِينِي * أَهْمِي وَأَنْبِي بِإِدِي النُّحُولِ
هَيَّ لِي نَسْمَةً مِنْ رِيحِ بَنِي * وَمُنِّي بِالْهَبُوبِ إِلَى جَمِيلِ
وَقُولِي يَا بَنِينَةَ حَسْبُ نَفْسِي * قَلِيلُكَ أَوْ أَقْلُ مِنْ الْقَلِيلِ

ومن قوله :

يَقِيكَ جَمِيلٌ كُلُّ سُوءٍ أَمَّا لَهُ * لَدَيْكَ حَدِيثٌ أَوْ أَلَيْكَ رَسُولُ
وَقَدْ قَلْتُ فِي حُجِّي لَكُمْ وَصَبَابِي * مُحَاسِنَ شَعْرِ ذِكْرِهِنَّ يَطْوُلُ
فَإِنْ لَمْ يَكُنْ قَوْلِي رِضَاكَ فَعَلَمِي * هَبُوبَ الصَّبَا يَابِئُنْ كَيْفَ أَقُولُ
فَمَا غَابَ عَنْ عَيْنِي خِيَالُكَ لِحِظَةً * وَلَا زَالَ عَنْهَا وَانْخِيَالُ يَزُولُ

ومنه :

خَلِيلِي عَوْجًا الْيَوْمَ حَتَّى تُسَلِّمًا * عَلَى عَذْبَةِ الْأَنْيَابِ طَيِّبَةَ النَّشْرِ
أَلِمَّا بِهَا ثُمَّ اشْفَعَا لِي وَسَلِّمًا * عَلَيْهَا سَقَاهَا اللَّهُ مِنْ سَائِعِ الْقَطْرِ

إذا مادنتِ زِدْتِ اشْتِيَاءًا وَإِن نَأَتْ
أَبَى الْقَلْبَ إِلَّا حَبًّا بَثْنَةٌ لَمْ يَرِدْ

وفيها يقول :

سَلَى الرَّكْبَ هَلْ تُجْنَا لَمَغْنَاكِ مَرَّةً
وَهَلْ فَاضَتْ الْعَيْنُ الشَّرُوقُ بِمَائِهَا
وَإِنِّي لِأَسْتَجِرِي لِكَ الطَّيْرِ جَاهِدًا
وَإِنِّي لِأَسْتَبِكِي إِذَا الرَّكْبُ غَرَّدُوا
قَهْلٌ تَجَزِي بِنِي أُمَّ عَمْرٍو بَوْدَهَا
وَكَأَنَّ حَبًّا لَمْ يَزِدْ فَوْقَ عَهْدِهِ

ومن قوله فيها :

لَهَا فِي سَوَادِ الْقَلْبِ حَبٌّ وَمَنْعَةٌ
وَمَا ذَكَرْتِكِ النَّفْسُ يَا بَثْنُ مَرَّةً
وَإِلَّا اعْتَرَتْنِي زَفْرَةٌ وَاسْتِكَانَةٌ
وَمَا اسْتَطَرَفَتْ نَفْسِي

وأول هذه القصيدة :

مَنْزِلِ قَفْرِ تَعَفَّتْ
شَمَّالٌ تُعَادِيهِ وَنَجَاءٌ حَـ^(١)
وَجُمْلُ الْمُنَى تَشْتَوِبُهُ وَتُصَيِّفُ
مِنَ الْعَيْنِ لِمَا عَجَّتْ بِالْأَدَارِ يَنْزِفُ
إِذَا حَكَمْتُ وَالْحَاكِمُ الْعَدْلُ يُنْصِفُ
فَمَا زَالَ يَتَمَى حَبًّا جَمِيلٌ وَأَضْعَفُ *
فَأَصْبَحَ قَفْرًا بَعْدَ مَا كَانَ أَهْلًا
ظَلَمْتُ وَمَسْتَنُّ مِنَ الدَّمْعِ هَامِلٌ
أَمِنْصَعِي بِحِلِّ فَتَعْدِلَ بَيْنَنَا
تَعَلَّقْتُهَا وَالْجَسْمُ مِنْ مِصْحَحٍ *^(٢)

(١) موقرة : محملة الوقر وهو الحمل . وخذى البعير يخذى : أسرع وزج بقوامه .

(٢) الحرحرف : الريح الباردة الشديدة الهبوب .

الى اليوم حتى سُئلَ جسمي وشفّني * وأنكرتُ من نفسي الذي كنتُ أعرف
 قنأةً من المزان ما فوق حقوها * وما تحته منها تقاً يتقصف^(١)
 لها مُقلتا ريمٍ وجيدُ جداية^(٢) * وكشَّحَ كطى السابرية أهيفُ
 ولستُ بناسِ أهلها حينَ أقبلوا * وجالوا علينا بالسيوفِ وطوفوا
 وقالوا جميلٌ بات في الحى عندها * وقد جردوا أسيافهم ثم وقفوا
 وفي البيت ليثُ الغابِ لولا مخافة^(٣) * على نفسِ جميلٍ والإلهِ لأرعفوا
 هممتُ وقد كادت مراراً تطلعتُ * الى حربهم نفسي وفي الكفِّ مرهفُ
 وما سرتني غيرُ الذي كان منهم * ومنى وقد جاءوا الى وأوجفوا
 فكم مُرتجٍ أمراً أتبيح له الردى * ومن خائفٍ لم ينتقصه التخوفُ
 ومنها :

أأن هتفت ورقاءً ظلت سفاهةً * تبكى على جميلٍ لورقاء تهيفُ
 فلو كان لي بالصرمِ ياصباح طاقه * صرمتُ ولكني عن الصرمِ أضعفُ

قيل : إن مروان طلب الى جميل أن ينزل فيرجز به ، وهو يريد أن يمدحه ، فنزل

جميل فقال :

أنا جميلٌ في السنامِ الأعظم * الفارح الناس الأعزُّ الأكرم
 أحمي ذماري ووجدتُ أقرمى * كانوا على غاربِ طودِ خضرم^(٤)
 * أعياء على الناس فلم يهتدم *

فقال : عدّ عن هذا ؛ فقال جميل :

لحقا على البيت المعدى لحقا * من بعد ما كان قد استكفأ
 ولو دعا الله ومدَّ الكفا * لرجفت منه البلادُ رجفا

(١) الحقو : الخصر . (٢) يتقصف : يهبل ويتقطع بعصه عن بعض . (٣) الجداية :

الغزاة . والسابرية : ثوب من أجدود الثياب منسوب الى سابور على غير قياس . (٤) يرجز به : ينشده

أرجوزة . (٥) أقرم : جمع قرم (بالفتح) وهو السيد العظيم . (٦) خضرم : عظيم .

وطلب ذلك إليه الوليد فقال :

أنا جميل في السنام من معدّ * في الذروة العليا والركن الأشدّ
والبيت من سعد بن زيد والعدد * ما يتغنى الأعداء منى ، ولقد
أضري بالشتم لساني ومرد * أقود من شئت وصعب لم أقد

فقال له الوليد : اركب لاحتك الله! وما مدح جميل أحدا قط .

ومن قول جميل في مَراجرة جَواس بن قُطَبة، وكان ذلك بوادي القرى :

يا أم عبد الملكِ أصيرمى * فبيني صرمي أو صليبي
أبكي وما يدريك ما يكيبي * أبكي حذار أن تُفارقيني
وتجعلي أبعده مني دوني * إن بني عمك أوعدونى
أن يقطعوا رأسي إذا لقوني * ويقتلونى ثم لا يدونى^(١)
كلا ورب البيت لو لقوني * شفعا ووترًا لتواكلونى^(٢)
قد علم الأعداء أن دونى * ضربًا كإزاع الخاض الجون^(٣)
ألا أسب القوم إذ سبوني * بلى وما مرّ على دفين
وسابحات بلوى الججون * قد جرّبوني ثم جرّبوني
حتى إذا شابوا وشيّبوني * أخزاهم الله ولا يخزوني
أشبه أعيار على معين * أحسن حس أسيد حرون
فهنّ يضرن من اليقين * أنا جميل فتعرّفوني
وما تقنعت فتكروني * وما أعنيكم لتسألوني

(١) يدونى : من الدية وهي ما يعطى لولى القتل من المال بدل النفس . (٢) تواكلونى : تركونى

(٣) أوزغت الافة ببوها : رمت به دفعة دفعة . ومه الطعمة توزغ بالدم أى ترمى به كذلك .

أَتَى إِلَى عَادِيَةِ طَحُونٍ * يَشْقُ عَنْهَا السَّيْلُ ذُو الشُّؤُونِ
عَمْرٍ يَزِفُ رُجْحَ السَّفِينِ * ذُو حَدَبٍ إِذَا يَرَى حُجُونِ^(١)
* تَحَلَّى أَحْقَادُ الرِّجَالِ دُونِي *^(٢)
^(٣)

ومن قوله يمدح أخواله من جُذام :

جُذَامُ سَيُوفُ اللَّهِ فِي كُلِّ مَوْطِنٍ * إِذَا أَرِزْتِ يَوْمَ اللِّقَاءِ أَرَامٍ
هُمْ مَنَعُوا مَا بَيْنَ مَضْرَفِذِي الْقُرَى * إِلَى الشَّامِ مِنْ حِلٍّ بِهِ وَحَرَامِ
بَضْرِبُ يُزِيلُ الْهَامَ عَنْ سَكَاتِهِ * وَطَعْنُ كَايَزَاعِ الْخِطَّاسِ تُؤَامِ
إِذَا قَصَّرْتُ يَوْمًا أَكُفَّ قَبِيلَةَ * عَنْ الْمَجْدِ نَالَتْهُ أَكُفُّ جُذَامِ^(٤)

اجتمع جميل وعمر بن أبي ربيعة بالأبطح، فأنشده جميل قصيدته :

لَقَدْ فَرِحَ الْوَأَشُونَ أَنْ صَرَمْتَ حَبِيلِي * بَيْنِنَا أَوْ أَبَدْتَ لَنَا جَانِبَ الْبُخْلِ
يَقُولُونَ مَهَلًا يَا جَمِيلَ وَإِنِّي * لِأَقْسِمُ مَا بِي عَنْ بَيْنِنَا مِنْ مَهَلِ
أَحَلَمْنَا فَقَبَّلَ الْيَوْمَ كَانَ أَوَانُهُ * أَمْ أَحْشَى فَقَبْلَ الْيَوْمِ أَوْعَدْتُ بِالْقَتْلِ
لَقَدْ أَنْكَحُوا حَرْبِي نُثْبِنًا ظَعِينَةً * لَطِيفَةً طَى الْبَطْنِ ذَاتَ شَوَى جَزَلِ
وَكَمْ قَدْ رَأَيْنَا سَاعِيًا بَنِيمَةٍ * لِأَخْرَمٍ يَعْمِدُ بِكَفِّ وَلَا رَجَلِ
إِذَا مَا تَرَاجَعْنَا الَّذِي كَانَ بَيْنَنَا * جَرَى الدَّمْعُ مِنْ عَيْنِي بَيْنِنَا بِالْكُحْلِ
كَلَانَا بَكِّي أَوْ كَادَ يَبْكِي صَبَابَةً * إِلَى الْإِلْفِ وَأَسْتَعْجَلَتْ عِبْرَةَ قَبْلِي
فَلَوْ تَرَكْتُ عَقْلِي مَعِيَ مَا طَلَبْتُهَا * وَلَكِنْ طَلَّابِيهَا لِمَا فَاتَ مِنْ عَقْلِي
فَيَا وَيْحَ نَفْسِي حَسْبَ نَفْسِي الَّذِي بَهَا * وَيَا وَيْحَ أَهْلِي مَا أُصِيبَ بِهِ أَهْلِي
وَقَالَتْ لِأَتْرَابٍ لَهَا لَا زَعَانِفَ * قِصَارٍ وَلَا كُؤُسَ الثَّنَائِيَا وَلَا تُعَلِّ^(٥)

(١) يزف : يجعلها تسرع . (٢) ذو حدب : ذو موج . (٣) حجون : معوج

(٤) أريمت : اشتدت . (٥) الكسس محركة : قصر الأسنان أو صفرها أو لصوقها بسنوخها

وتعلت سنه ولثته فهي ثعلاء : تراكبت أسنانها .

إذا حَمِيَتْ شَمْسُ النِّهَارِ آتَقِيْتَهَا * بأكسبة الديباج وانحزدي انجمل
 تداعين فاستعجمن مَشِيًّا بذى الغصى * دَيْبَ القَطَا الكُدْرَى في الدَّمِثَ السَّهْلِ
 إذا آرَعتنَ أو فُزَّعتنَ فَمَنْ حَوَالَهَا * قِيَامَ بِنَاتِ المَاءِ في جَانِبِ الضَّحْلِ (٢)
 أجدك لا ألقى بُثينةَ مرّة * مِنَ الذَّهْرِ إِلا خَائِفًا أو على رِجْلِ
 خيلِي فَيَا عَشْتُمَا هل رأيتما * قَتِيلًا بَكِي من حَبِّ قَاتِلِهِ قَبْلِي
 أَيْتُ مع المُلَاكِ ضَيْفًا لِأَهْلِهَا (٣) * وَأَهْلِي قَرِيبِ مُوسِعُونَ ذُو وَفَضْلِ
 ألا أيها البَيْتُ الذي حِيلَ دُونَهُ * بِنَا أَنْتَ من بَيْتِي وَأَهْلِكَ من أَهْلِي
 ثَلَاثَةُ آيَاتٍ فَيَتُّ أَحَبُّهُ * وَيَتَانِ لَيْسَا من هَوَايَ وَلَا شَكْلِي

وقال في هجرة هجرته إياها بثينة :

ألم تَسْأَلِ الرَّبِيعَ القَوَاءَ فينطقُ * وهل تُخْبِرُنِيكَ اليَوْمَ يَسْدَاءُ سَمَقُ (٤)
 وقفتُ بها حتى تَجَلَّتْ عَمَائِي * وَمَلَّ الوُقُوفَ الأَرْحَجِيَّ المَنُوقَ (٥)
 تَعَزَّ وَإِن كَانَتْ عَلَيْكَ كَرِيمَةٌ * لَعَلَّكَ مِنْ رِقِّ لَبْنَسَةٍ تُعْتَقُ
 لَعَمْرُكَ إِن البِعَادَ لَشَائِقِي * وَبَعْضُ بَعَادِ البَيْنِ وَالنَّأْيِ أَشُوقِ
 لَعَلَّكَ مَحْزُونٌ وَمُبْدٍ صَبَابَةٌ * وَمُظْهِرُ شَكْوَى مِنْ أَنَاسٍ تَفَرَّقُوا
 وَبِيضَ غَرَبَاتٍ تُنَنِّي خُصُورَهَا * إِذَا فَمَنْ أَعْجَازٌ ثِقَالٌ وَأَسُوقُ
 عَزَائِرُ لَمْ يَلْقَيْنَ بُؤْسَ مَعِيشَةٍ * يُحَيِّقَنَّ بَيْنَ النَّاطِرِ المُنْتَوِقِ
 وَغَلَّغْتُ مِنْ وَجَدٍ إِليهنَّ بَعْدَ مَا * سَرَيْتُ وَأَحْشَأُنِي مِنَ الخُوفِ تَحْفُوقِ
 مَعِيَ صَارِمٌ قَدْ أَخَاصَ القَيْنَ صَقَلَهُ * لَهُ حِينَ أَغْشِيهِ الضَّرْبِيَّةَ رَوْنِقِ
 فَلَوْلَا أَحْتِيَالِي ضِيقُنْ دَرْعًا بَزَائِرِ * بِهِ مِنْ صَبَابَاتِ إِليهنَّ أَوْلِقِ (٦)

(١) بنات الماء : ما يألف الماء من السمك والطير والصفادع (أظر المصاف والمضاف إليه) .

(٢) الضحل : الماء القليل على الأرض لا عمق له . (٣) الهلاك : الصعاليك . (٤) السملق

القاع الصفصيف . (٥) الأرحجي : الفحل النحيب نسبة إلى أرحب وهي قبيلة من همدان تد

إيها النجائب الأرحبية . والمتوق : المحسن المزير . (٦) أولق : جنون .

تَسُوكُ بِقَضْبَانِ الْأُرَاكِ مُفْلَجًا * يُشْعِشِعُ فِيهِ الْفَارِسِيُّ الْمُرُوقُ
أَبْنَةُ لِلْوَصْلِ الَّذِي كَانَ بَيْنَنَا * نَضًا مِثْلَ مَا يَنْبُؤُ الْخِضَابُ فَيَخْلُقُ
أَبْنَةُ مَا تَتَأَيَّنَ إِلَّا كَأَنَّي * بِنَجْمِ الثَّرِيَا مَا نَأَيْتَ مُعَلَّقُ

قال الرشيد لإسحاق الموصلي : أنشدني أحسن ما مَحَبَّ في عتابِ مَحَبِّ وهو ظالم

مَتَعَّبٌ ، فَأَنْشَدَهُ قَوْلَ جَمِيلٍ :

رِدِّ الْمَاءَ مَا جَادَتْ بِصَفْوِ ذَنَائِبِهِ * وَدَعَهُ إِذَا خِيضَتْ بِطَرَقِ مَشَارِبِهِ (١)
اعْتَبْتُ مِنْ يَحْتَلُو لَدَى عَتَابِهِ * وَأَتْرَكَ مِنْ لَا أَشْتَهَى وَأُجَانِبِهِ
وَمِنْ لَذَّةِ الدُّنْيَا وَإِنْ كُنْتَ ظَالِمًا * عِنَاقُكَ مَظْلُومًا وَأَنْتَ تَعَابِيهِ
وَمِنْ قَوْلِهِ فِي زِيَارَةِ لَهُ :

زُورًا بَثِينَةً فَالْحَيْبُ مَزُورٌ * إِنِ الزِّيَارَةُ لِلْحَبِّ يَسِيرُ
إِنِ الرَّحْلُ أَنْ تَلْبَسَ أَمْرُنَا * وَأَعْتَقْنَا قَدْرَ أَحْمَ بَكُورُ
إِنِّي عَشِيَّةٌ رُحْتُ وَهِيَ حَزِينَةٌ * تَشْكُو إِلَى صَبَابَةٍ لَصَبُورُ
وَتَقُولُ بِنْتُ عِنْدِي فِدْيَتُكَ لَيْلَةٌ * أَشْكُو إِلَيْكَ إِذَا ذَاكَ يَسِيرُ
عَرَاءٌ مَبْسُومٌ كَأَنَّ حَدِيثَهَا * دُرٌّ تَحْدَرُ نَظْمُهُ مَشُورُ
مَخْطُوطَةُ الْمُتَنِينِ مُضْمَرَةُ الْحَشَى * رِيًّا الرَّوَادِفِ خَلَقَهَا مَمَكُورُ (٢)
لَا حُسْنَهَا حُسْنٌ وَلَا كَدَالِهَا * دَلٌّ وَلَا كَوَقَارَهَا تَوْقِيرُ
إِنِ اللِّسَانَ بَذَرَهَا لَمَوْكَلٌ * وَالقَلْبُ صَادٍ وَالْحَوَاطِرُ صُورُ
وَأَنْ جَزَيْتِ الْوَدَّ مَنِي مِثْلَهُ * إِنِّي بِذَلِكَ يَا بَثِينُ . يَرُ

وَعَدَلَهُ فِيهَا أَبْنُ عَمِّهِ رَوْقٌ ، فَقَالَ :

لَقَدْ لَأَمَنِي فِيهَا أَخٌ ذُو قَرَابَةٍ * حَيْبٌ إِلَيْهِ فِي مَلَامَتِهِ رُشْدِي
وَقَالَ أَفَقِي حَتَّى مَتَى أَنْتَ هَائِمٌ * بَثِينَةٌ فِيهَا قَدْ تُعِيدُ وَقَدْ تُبْسِدِي

(١) الطوق : الماء الذي خوضته الابل وبوتت فيه وبعثت .

(٢) مخطوطة المتنين : ممدودتها . والمكورة : المطوية الخلق .

قفَلْتُ لَهُ فِيهَا قَضَى اللهُ مَا تَرَى * عَلَىٰ وَهَلْ فِيمَا قَضَى اللهُ مِنْ رَدِّ
 فَإِنْ يَكُ رُشْدًا حَبَّهَا أَوْ غَوَايَةً * قَقْدَ جَنَّتُهُ، مَا كَانَ مِنِّي عَلَى عَهْدِ
 لَقَدْ جَلَّ مِيثَاقُكَ مِنْ اللَّهِ بَيْنَنَا * وَليْسَ لِمَنْ لَمْ يُؤْفِ لِلَّهِ مِنْ عَهْدِ
 فَلَا وَأَيُّهَا الْخَلِيرُ مَا خَنَتْ عَهْدَهَا * وَلَا لِي عِلْمٌ بِالَّذِي فَعَلْتَ بَعْدِي
 وَمَا زَادَهَا الْوَأَشُؤْنَ إِلَّا كِرَامَةً * عَلَىٰ وَمَا زَالَتْ مَوَدَّتُهَا عِنْدِي
 أَفَى النَّاسِ أَمْثَالِي أَحَبُّ لِحَاظِهِمْ * كَحَالِي أَمْ أَحَبَّبْتُ مِنْ بَيْنِهِمْ وَحْدِي
 وَهَلْ هَكَذَا يَلْتَقِي الْمَحْبُوبُونَ مِثْلَ مَا * لَقِيْتُ بِهَا أَمْ لَمْ يَجِدْ أَحَدٌ وَجْدِي

وقال فيها :

خَلِيلِي عُوْجَا الْيَوْمِ حَتَّى تُسَلِّمًا * عَلَى عَذْبَةِ الْأَنْبِيَاءِ طَيِّبَةِ النَّشْرِ
 أَلِمَّا بِهَا ثُمَّ أَشْفَعَا لِي وَسَلِّمًا * عَلَيْهَا سَقَاها اللهُ مِنْ سَائِعِ الْقَطْرِ
 وَبُوحَا بَذَكَرِي عِنْدَ بَثْنَةٍ وَأَنْظُرَا * أترتاح يوماً أم تَهَشُّ إِلَى ذَكَرِي
 فَإِنْ تَكُ لَمْ تَقْطَعْ قُوَى الْوَدِّ بَيْنَنَا * وَلَمْ تَنْسَ مَا أَسْلَفْتُ فِي سَائِلِ الدَّهْرِ
 فَكَيْفَ يَرَى مِنْهَا أَشْتِيَاقٌ وَلَوْعَةٌ * بَيْنَ وَغَرْبٍ مِنْ مَدَامِعِهَا يَجْرِي ^(١)
 وَإِنْ تَكُ قَدْ حَالَتْ عَنِ الْعَهْدِ بَعْدَنَا * وَأَصْغَتْ إِلَى الْقَوْلِ الْمُؤَنَّبِ وَالْمُزْرِي
 فَسَوْفَ يَرَى مِنْهَا صُدُودٌ وَلَمْ تَكُنْ * - بِنَفْسِي - مِنْ أَهْلِ الْخِيَانَةِ وَالْغَدْرِ
 أَعُوذُ بِكَ اللَّهُمَّ أَنْ تَشْحَطَ النَّوَى * بِبَثْنَةٍ فِي أَدْنَى حَيَاتِي وَلَا حَشْرِي
 وَجَاوِرٌ إِذَا مَا مِتُّ بَيْنِي وَبَيْنَهَا * فِيمَا حَبَّبْنَا مَوْتِي إِذَا جَاوَرْتَ قَبْرِي
 عِدْمَتِكَ مِنْ حَبِّ أَمَّا مِنْكَ رَاحَةٌ * وَمَا بِكَ عَنِّي مِنْ تَوَانٍ وَلَا فِتْرِ
 أَلَا أَيُّهَا الْحَبُّ الْمَبْرُحُ هَلْ تَرَى * أَخَا كَلْفٍ يُغْرِي بِحَبِّ كَمَا أُغْرِي
 أَجِدُّكَ لَا يَبْلَى وَقَدْ بَلَى الْهَوَى * وَلَا يَتَمَّى حَتَّى بَثْنَةَ اللَّزْجْرِ

(١) هكذا وردت «فكيف» ولعلها فسوف ليستقيم بها السياق

ومن قوله فيها :

فَإِنِّي تَسَلُّ عَنْكَ النَّفْسُ بِالْخَطَّةِ الَّتِي * تُطِيلِينَ تَخْوِيفِي بِهَا وَوَعِيدِي
فَقَدْ طَالَمَا مِنْ غَيْرِ شَكْوَى قَبِيحَةٍ * رَضِينَا بِحُكْمِ مَنْكَ غَيْرِ سَدِيدِ

ومنه :

بُشَيْنَ سَلَيْبِي بَعْضَ مَالِي فَإِنَّمَا * بَيْنَ عِنْدَ الْمَالِ كُلِّ بِخِيلِ
فَأِنِّي وَتَكَرَّرَ الزِّيَارَةَ نَحْوَكُم * لَبِينَ يَدِي هَجْرَ بُشَيْنَ طَوِيلِ
فِياليت شعري هل تقولين بعدنا * إِذَا نَحْنُ أَزْمَعْنَا غَدًا لِرَحِيلِ
أَلَا لَيْتَ أَيَّامًا مَضَيْنَ رَوَاجِعُ * وَلَيْتَ النَّوَى قَدْ سَاعَدَتْ بِجِيلِ

ومنه :

أَتَعْجَبُ أَنْ طَرِبْتُ لِصَوْتِ حَادٍ * حَادًا بُزْلًا يَسْرُنَ يَبْطِنُ وَادٍ
فَلَا تَعْجَبُ فَإِنَّ الْحَبَّ أَمْسَى * لَبَثْنَةَ فِي السَّوَادِ مِنَ الْقَوَادِ

ومنه :

خَلِيلٌ عَوْجًا بِالْحَمَلَةِ مِنْ جُمَلِ * وَأَثْرَابِهَا بَيْنَ الْأَصْفِيرِ وَالْحَبْلِ
تَقِفُ بِمَغْنَانٍ قَدْ عَا رَسَمَهَا الْبَلِي * تُعَاقِبُهَا الْأَيَّامُ بِالزَّرِيحِ وَالْوَبْلِ
فَلَوْ دَرَجَ النَّمْلُ الصِّغَارُ بِجِلْدِهَا * لِأَنَّ دَبَّ أَعْلَى جِلْدِهَا مَدْرَجُ النَّمْلِ
وَأَحْسَنُ خَلْقِ اللَّهِ جِيدًا وَمُقَلَّةً * تُسَبِّهُ فِي النَّسْوَانِ بِالشَّادِنِ الطُّفْلِ^(١)

ومن قوله :

أَمِنْكَ سَرِي يَا بَثْنُ طَيْفُ تَأْوَبَا * هُدُوا فَهَاجَ الْقَلْبَ شَوْقًا وَأَنْصَبَا
عَجِبْتُ لَهُ أَنْ زَارَ فِي النَّوْمِ مَضْجَعِي * وَلَوْ زَارَنِي مُسْتَقِظًا كَانَ عَجْبَا

لما قدم جميل من الشام بلغ بثينة خبره ، فرأسلته مع بعض نساء الحى تذكروا شوقها إليه ووجدتها به ، وطلبها للحيلة في لقائه ، وواعدهته لموضع يلتقيان فيه ، فسار إليها وحدثها

(١) الطفلة : الرخص الناعم من كل شيء .

طويلاً وأخبرها خبره بعدها ، وقد كان أهلها رصدها ، فلما فقدوها تبعها أبوها وأخوها حتى هجا عليهما ، فوثب جميلٌ فانتضى سيفه وشد عليهما ، فأتقياه بالحرب ، وناشدته بئينة الله إلا أنصرف ، وقالت له : إن أقمت فضحتني ، ولعل الحى يلحقونك ، فأبى وقال : أنا مقيم وأمضى أنتِ وليصنعوا ما أحبوا ، فلم تزل تناشده حتى أنصرف وقال في ذلك ، وقد هجرته وأتقطع التلاقي بينهما مدة :

هي البدرُ حسناً والنساءُ كواكبٌ * وشتان ما بين الكواكب والبدر
لقد فضلتُ حسناً على الناس مثل ما * على ألف شهرٍ فضلت ليلةُ القدر

وقال :

لقد خفتُ أن يفتالني الموتُ عنوةً * وفي النفس حاجاتُ اليك كما هيأ
وإني لتثنيني الحفيظةُ كلِّها * لقيتُك يوماً أن أبئك ما يبأ
ألم تعلمي يا عذبةَ الرقيق أني * أظلل إذا لم أسق ريقك صابداً

ورحل الى مصر فأدركته بها منيته ، فزعموا أنه قال حين حضرته الوفاة :

صدع النعيُّ وما كنى بجميل * وثوى بمصر ثواء غير قفول
واقعد أبحر الذيل في وادي القرى * نشوان بين مزارع ونخيل
قومي بئينة فأندبى بعويل * وأبكي خليلك دون كل خليل

ولما أنشدت بئينة قولَ جميلٍ قالت :

وإن سلوى عن جميلٍ لساعةٌ * من الدهر ما حانت ولا حان حينها
سواءً علينا يا جميلُ بن معمرٍ * إذا متَّ بأساء الحياةِ وليها

وقال :

رحل الخليلُ جاهلهم بسواد * وحداً على أثرِ البخيلة حادي
ما إن شعرتُ ولا سمعتُ بئينهم * حتى سمعت به الغراب ينادي

مَا رَأَيْتُ الْبَيْنَ قَلْتُ لِمَا حَيَّ * صَدَعَتْ مُصَدَّعَةَ الْقُلُوبِ فَوَادِي
بانوا وِعُودِرَ فِي الدِّيَارِ مُتَمِّمٌ * كَلِّفْ بِذِكْرِكَ يَا بُشَيْنَةُ صَادِي

وقال أيضا :

خَلِيلٌ هَلْ فِي نَظْرَةِ بَعْدِ تَوْبَةٍ * أَدَاوِي بِهَا قَلْبِي عَلَى بَحُورٍ
إِلَى رُجْحِ الْأَكْفَالِ هَيْفَ حُصُورُهَا * عَذَابِ النَّسَايَا رِيْقُهُنَّ طَهُورُ
تَذَكَّرْتُ مَنْ أُنْحَتَ قُرَى اللَّذِّ دُونَهُ ^(١) * وَهَضْبٌ لَيْتِيَا وَالْهَضَابُ وَعُورُ
فَطَلَّتْ لِعَيْنَيْكَ الْجُوجَيْنِ عَبْرَةٌ * يَهِيْجُهَا بَرْحُ الْهَمْوَى قَمُورُ
عَلَى أُنَى بِالْبَرْقِ مِنْ نَحْوِ أَرْضِهَا * إِذَا قُصِرَتْ عَنْهُ الْعَيُونُ بَصِيرُ
وَإِنِّي إِذَا مَا الرِّيحُ يَوْمًا تَنَسَّمْتُ * شَامِيَّةٌ عَادَ الْعِظَامَ قُورُ
أَلَا يَا غُرَابَ الْبَيْنِ لَوْ نَوَّكَ شَا حَبُّ * وَأَنْتَ بَرَّوَعَاتِ الْفِرَاقِ جَدِيرُ
فَإِنْ كَانَ حَقًّا مَا تَقُولُ فَاصْبِحَتْ * هُمُومُكَ شَتَّى وَالْجَنَاحُ كَسِيرُ
وُدُرْتَ بِأَعْدَاءِ حَبِيْبِكَ فِيهِمْ * كَمَا قَدْ تَرَانِي بِالْحَبِيبِ أَدُورُ
وَكَيْفَ بِأَعْدَاءِ كَأَنَّ عَيُونَهُمْ * إِذَا حَانَ لِإِتْيَانِي بُشَيْنَةُ عُورُ
فَإِنِّي وَإِنْ أَصْبِحَتْ بِالْحَبِّ عَالِمًا * عَلَى مَا بَعَيْنِي مِنْ قَدَى نَحْبِيرُ

وله أيضا :

فَلَوْ أَرْسَلْتُ يَوْمًا بُشَيْنَةَ تَبْتَعْنِي * يَمِينِي وَلَوْ عَزَّتْ عَلَى يَمِينِي
لَأَعْطَيْتُهَا مَا جَاءَ يَبْتَعِي رَسُولُهَا * وَقَلْتُ لَهَا بَعْدَ الْيَمِينِ سَلِينِي
سَلِينِي مَالِي يَا بُشَيْنُ فَإِنَّمَا * يَمِينٌ عِنْدَ الْمَالِ كُلِّ ضَمِينِ
فَمَا لَكَ لَمَّا خَبَرَ النَّاسُ أُنَى * أَسَأْتُ بِظَهْرِ الْغَيْبِ لَمْ تَسَلِينِي
فَأَبْلِي عُدْرًا أَوْ أَجَىءَ بِشَاهِدِ * مِنَ النَّاسِ عَدْلٍ أَنَّهُمْ ظَلَمُونِي
وَلَسْتُ وَإِنْ عَزَّتْ عَلَى بَقَائِلِ * لَهَا بَعْدَ صَرِيمِ يَا بُشَيْنُ صَالِينِي

(١) اللد بالضم والتشديد : قرية قرب بيت المقدس من نواحي فلسطين .

وَبُنَيْتُ قَوْمًا فِيكَ قَدْ نَذَرُوا دَمِي * فليت الرجال الموعدين لقوئي
إِذَا مَا رَأَوْنِي مُقْبِلًا عَنْ جَنَابِي * يقولون من هذا وقد عرفوني

وله أيضا :

تَنَادَى آلُ بَنِيهِ بِالرَّوَّاحِ * وقد تركوا فؤادك غير صَاحِ
فِي آلِكَ مَنظَرًا وَمَسِيرَ رَكْبِي * شجاني حين أمعن في الفياح
وِي آلِكَ حُلَّةٌ ظَفِرْتُ بِعَقْلِي * كما ظفر المقامر بالقِداحِ
أُرِيدُ صِلَاحَهَا وَتُرِيدُ قَتْلِي * فشتى بين قتلي والصلاحِ
لَعَمْرُ أَبِيكَ لَا تَجِدِينَ عَهْدِي * كعهديك في المودة والسماحِ
وَلَوْ أُرْسَلْتِ تَسْتَهْدِينَ نَفْسِي * أتاك بها رسولك في سراحِ

وله أيضا :

إِن يَكُ جُنَانِي بَارِضٍ سِوَاكُمْ * فإن فؤادي عندك الدهر أجمعُ
إِذَا قَلْتُ هَذَا حِينَ أَسْلُو وَأَجْتَرِي * على صرمها ظلت لها النفس تسفعُ
وَإِنْ رُمْتُ نَفْسِي كَيْفَ آتَى لَصْرْمَهَا * ورمت صدودا ظلت العين تدمعُ

وله أيضا :

أَلَمْ تَعْلَمِي يَا عُدْبَةَ الْمَاءِ أُنِّي * أظل إذا لم أسق ماءك صاديا
وَمَا زَلَيْتِ بِي يَا بَنُّنُ حَتَّى لَوْ أَنِّي * من الوجد أستبكي الحمام بكى ليا
وَدِدْتُ عَلَى حُبِّ الْحَيَاةِ لَوَآئِنَا * يزد لها في عمرها من حياتيا

وله أيضا :

وَقَلْتُ لَهَا أَعْتَلْتِ بَغِيرِ ذَنْبِ * وشر الناس ذو أعلال البخيلُ
فَقَاتِبِي إِلَى حَكْمٍ مِنْ أَهْلِي * وأهلك لا يحيف ولا يميلُ
فَقَالَتْ أَبْتَنِي حَكْمًا مِنْ أَهْلِي * ولا يدري بنا ألواشى المحولُ
فَوَلَّيْنَا الْحُكُومَةَ ذَا سُبُجُوفِ * أخا دنيا له طرف كليلُ

فقلنا ما قَضَيْتَ بِهِ رَضِينَا * وَأَنْتَ بِمَا قَضَيْتَ بِهِ كَفِيلٌ
 قَضَاؤُكَ نَافِذٌ فَاحْكُمْ عَلَيْنَا * بِمَا تَهَوَّى وَرَأْيُكَ لَا يَفِيلُ
 فَقُلْتُ لَهُ قُتِلْتُ بِغَيْرِ جُرْمٍ * وَغِبُّ الظُّلْمَ مَرْتَعَةً وَيَسِيلُ
 فَسَلْ هِدْيَ مَتَى تَقْضَى دُيُونِي * وَهَلْ يَقْضِيكَ ذُو الْعِلَالِ الْمُطُولُ
 فَقَالَتْ إِنْ ذَا كَذِبٌ وَبُطْلٌ * وَشَرٌّ مِنْ خُصُومَتِهِ طَوِيلُ
 أَأَقْتُلُهُ وَمَالِي مِنْ سَلَاحٍ * وَمَا بِي لَوْ أَقَاتِلَهُ حَوِيلُ^(١)
 وَلَمْ أَخُذْ لَهُ مَالًا فَيُلْفِي * لَهُ دَيْنٌ عَلَيَّ كَمَا يَقُولُ
 وَعِنْدَ أَمِيرِنَا حُكْمٌ وَعَدْلٌ * وَرَأْيٌ بَعْدَ ذَلِكَ أُصِيلُ
 فَقَالَ أَمِيرِنَا هَاتُوا شَهُودًا * فَقُلْتُ شَهِدْنَا الْمَلِكُ الْجَلِيلُ
 فَقَالَ يَمِينَهَا وَبِذَلِكَ أَقْضَى * وَكُلُّ قَضَائِهِ حَسَنٌ جَمِيلُ
 فَبَتُّ حَلْفَةً مَا لِي لَدَيْهَا * نَقِيرُ أَدْعِيهِ وَلَا فَيْتِيلُ
 فَقُلْتُ لَهَا وَقَدْ غُلِبَ التَّعْزَى * أَمَا يُقْضَى لَنَا يَا بَنَى سَوْلُ
 فَقَالَتْ ثُمَّ زَجَّتْ حَاجِبِيهَا * أَطَلَّتْ وَلَسَتْ فِي شَيْءٍ تُطِيلُ
 فَلَا يَجِدَنَّكَ الْأَعْدَاءُ عِنْدِي * فَتَشْكَلَنِي وَإِيَّاكَ التَّكْوِيلُ

وله أيضا :

حَلَفْتُ يَمِينًا يَا بَيْنَةَ صَادِقَا * فَإِنْ كُنْتُ فِيهَا كَاذِبًا فَعَمِيْتُ
 إِذَا كَانَ جِلْدٌ غَيْرَ جِلْدِكَ مَسْنِي * وَبَاشَرَنِي دُونَ الشُّعَارِ شَرِيْتُ^(٢)
 وَلَوْ أَنَّ رَاقِيَ الْمَوْتِ يَرِقِي جَنَازَتِي * بَمَنْطِقِهَا فِي النَّاطِقِينَ حَيَاتِي

وقال أيضا :

فَقَدْ لَانَ أَيَّامُ الصَّبَا ثُمَّ لَمْ يَكْدُ * مِنْ الدَّهْرِ شَيْءٌ بَعْدَهُنَّ يَلِينُ
 طَعَائِنُ مَا فِي قُرْبَيْنٍ لَذَى هَوَى * مِنْ النَّاسِ إِلَّا شِقْوَةٌ وَفُتُونُ

(١) الحويل : القوة والحذق والقدرة على التصرف . (٢) يقال : شرى جلده : خرج عليه الشرى ،

وهو شور صغار حمر حكاكة مكربة تحدث دفعة واحدة غالبا وتشتد ليلا لبحار حار شور في البدن دفعة .

وواكَلَنَّهُ وَالْمَهْمُ * ثم تركته * وفي القلب من وجد بهن رهين
 فَوَاحَسْرَتَا إِن حِيلَ بَيْنِي * ويأحين نفسي كيف فيك تحين
 فَشَيْبَ رَوْعَاتُ الْفِرَاقِ مَفَارِقِي * وأنشزن نفسي فوق حيث تكون
 شَهِدْتُ بَأَنِّي لَمْ تَغَيِّرْ مَوَدَّتِي * وأنى بكم حتى المات ضنين
 وَأَنْ فَوَادِي لَا يَلِينُ إِلَى هَوَى * سِوَاكَ وَإِنْ قَالُوا بَلَى سَافِلِينَ
 وَإِنِّي لَأَسْتَعْشِي وَمَا بِي نَعْسَةٌ * لَعَلَّ لِقَاءَ فِي الْمَنَامِ يَكُونُ
 وَلَمَّا عَلَوْتُ اللَّابَتَيْنِ تَسْوَقْتُ * قلوب الى وادي القرى وعيون
 كَأَنَّ دُمُوعَ الْعَيْنِ يَوْمَ تَحَمَّلْتُ * بثينة يسقيها الرشاش معين
 وَرُحْنٌ وَقَدْ وَدَعَنَ عِنْدِي لُبَانَةٌ * لبانة سرفى الفؤاد كمين
 كَسِرَّ الثَّرَى لَمْ يَعْلَمِ النَّاسُ أَنَّهُ * نوى فى قرار الأرض وهو دفين
 فَإِنْ دَامَ هَذَا الصَّرْمُ مِنْكَ فَإِنِّي * لأعبر هارى الجانبين رهين
 لَكَيْمَا يَقُولُ النَّاسُ مَاتَ وَلَمْ أَهْنُ * عليك ولم تبت منك قرون

(ج) الغزل الصناعي

(١)
كثير

قال أبو الفرج قال محمد بن عبد العزيز: ما قصّد القصيدَ ولا نعتَ الملوِكَ مثلَ كثيرٍ .
وقال إبراهيم بن سعد : إني لأروى لكثير ثلاثين قصيدة أو رُقي بها مجنونٌ لأفاق ، وكان
بعضُ أصحاب الحديث يأتونه ، وهو خبيث النفس ، فيسألونه عن شعر كثير فتطيبُ نفسه
ويحدّثهم . وقال عبد الله بن أبي عبيدة : من لم يجمع من شعر كثير ثلاثين لاميةً فلم يجمع
شعره . وكان ابن أبي عبيدة يُملئ شعره بثلاثين ديناراً . وسئل مُضعب : مَنْ أشعر الناس ؟
فقال : كثير بن أبي جُمعة ، وقال : هو أشعر من جرير والفرزدق والراعي وطائمتهم ، يعني الشعراء .
ولم يدرك أحدٌ في مدح الملوِك ما أدرك كثير . وقال محمد بن سلام : كان كثير شاعرَ أهل
الحجاز ، وهو شاعر فحل ولكنه منقوصُ حظّه بالعراق . وقال يونس النحويّ : كثير أشعر

(١) هو كثير بن عبد الرحمن من خراة ، ويعرف بكثير عزة ، نسبة إلى عشيقته التي كان يشبها . وكان يدخل
على عبد الملك وينشده ، وكان رافضياً شديداً للعصب لآل أبي طالب ، وكان عبد الملك يعرف ذلك فيه فلا ينكره ،
فاذا أراد أن يصدقه بشئ حلقه بعليّ . وكان له صديق اسمه خندق الأسدّيّ ، شديد التشيع مثله ، وبلغ من جرأة خندق
هذا أنه وقف مرة في الموسم والناس مزدحمون وقال : «أيها الناس ، إنكم على غير حق ، قد تركتم بيت نبيكم والحق
لهم وهم الأئمة» فوثب عليه الناس ، فصر يوه ورموه حتى قتلوه ، ودفن خندق بقمونا ، فقال إذ ذاك كثير يرثيه .

أصادرة حجاج كعب ومالك * على كل محلي ضامر البطن محق

برثية فيها شاء محبر * لأزهر من أولاد مرة معرق

والقصيدة طويلة . أما معشوقته عزة فهي بنت حميد بن وقاص من ضمرة ، وكانت من أحسن النساء وأدبهن
وأعقلهن . ويقال إنه لم ير لها وجهاً إلا أنه أسّهم بها قلبه لما ذكر له عنها . وعاتبه بعض أهلها فقالوا : «قد شبرت
نفسك وشبرت صاحبنا فأكفف نفسك» فقال : «إني لا أذكرها بما تكروهون» .

وأتفق خروجهم إلى مصر في عام الجلاء ، فتبعهم على راحلته فرجوه وأبى إلا أن يلحقهم ، فترص له بعضهم
في بعض الطريق وقبصوا عليه وجعلوه في جيمة حمار ورتطوها عليه فتر به صديقه خندق فأطلقه وألحقه ببلاد . وكان
كثير دميًا قليلاً أحمر أفينشر عظيم الهامة قبيحاً . وأكثر أثماره في عزة هذه . توفي سنة ١٠٥ هـ ، وأحباره كثيرة
تجدها في الأغاني (ج ١١ ص ٤٦) و(ج ٨ ص ٢٧) و(ج ٧ ص ٧٨) والشعر والشعراء (ص ٣١٦) وابن
خلكان (ج ١ ص ٤٣٣) والعقد الفريد (ج ١ ص ١١٥ و ٢٠٣) وخرابة الأدب (ج ٢ ص ٣٨١) وله ديوان
شرحه أبو عبد الله الرشيدى منه نسخة خطية في الاسكوريال .

أهل الإسلام، وكان ابن أبي حَفْصَةَ يعجبه مذهبه في المديح جدا، ويقول: كان يستقصي المديح، وكان فيه مع جودة شعره خَطَلٌ ومُحِبٌّ. وقال المِسْوَر بن عبد الملك: ما ضَرَّ مَنْ يروى شعر كثير وجميل ألا تكون عنده مغنيتان مطربتان .

وكان قصيرا، قال الوَقَّاصِي: رأيتُ كثيرا يطوف بالبيت، فمن حدثك أنه يزيد على ثلاثة أشبار فكذبهُ . وكان إذا دخل على عبد العزيز بن مروان يقول: طَاطِيءُ رَأْسِكَ لَا يُصْبَهُ السَّقْفُ . وقال كثير: في أي شيء أعطى هؤلاء الأَحْوصَ عشرة آلاف دينار؟ قالوا: في قوله فيهمس :

وما كان مالى طارِفاً من تجارةٍ * وما كان ميراثا من المال مُتْسَلِّداً

ولكن عطايا من إمامٍ مباركٍ * مَلَأَ الأَرْضَ معروفاً وجُوداً وسُودداً

فقال كثير: إنه لَضَرِيعٌ قَبَحَهُ اللهُ! ألا قال كما قلت :

دع عنك سَلْمَى إذ فات مَطْلَبُها * وأذكر خَلِيلِيكَ من بنى الحَكَمِ

ما أعطيانى ولا سألتهما * ألا وإني لحَاجِزِي كَرَمِي

إني متى لا يمكن نوالهما * عندي بما قد فعلتُ أحْتَمَمِ

مُبْدَى الرِّضَا عنهما ومنصِرْفٌ * عن بعض ما لو فعلتُ لم أَلَمِ

لا أنزر النَّائِلَ الخَلِيلَ إذا * ما أعتلَّ نَزْرَ الظُّوُورِ لم تَرَمِ

وطلب من أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان أرضاً له يقال لها: عُرب، وقلم بين

يدي طلبه تلك الأبيات :

جَزَّتْكَ الجَوَازِي عن صديقك نَضْرَةً * وأدناك رَبِّي في الرِفِيقِ المَقْرَبِ

فإنك لا يُعْطَى عليك ظُلَامَةٌ * عدوٌّ ولا تنأى عن المُنْقَرِبِ

وإنك ما تَمْنَعُ فإنك مانِعٌ * بحسبٍ وما أعطيتَ لم تَتَعَقَبِ

فقال له: أترغب عُرباً؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، قال: آ كتبوها له، ففعلوا .

(١) يقول: لا ألح عليه بالمسألة، يقال: نزرته أنزروه إذا ألحت عليه . والظهور: العاطفة على أولاد

عربها . ولم ترم: لم ترام .

وُسِبَ كثير لكثرة نسيبه بَعْزَةَ الضَّمْرِيَّةِ اليها، وعُرف بها قليل : كثير عِزَّة، وهي عِزَّةُ ابنة حميد بن وقاص. وكان آبتداء عشقه إياها أنه مر بنسوة من بنى ضَمْرَةَ ومعه جَلَبْ غنم، فأرسلن اليه عِزَّةَ وهي صغيرة، فقالت : يقن لك النسوةُ : بعنا كبشاً من هذه الغنم وأنسئنا بمنه الى أن ترجع، فأعطاها كبشاً، وأعجبته، فلما رجع جاءته امرأة منهن بدرامهه، فقال : وأين الصبيَّة التي أخذت مني الكبش ؟ قالت : وما تصنع بها وهذه دراهمك ؟ قال : لا أخذ دراهمي إلا من دفعتُ الكبش اليها، وخرج وهو يقول :

قَصَى كُلُّ ذِي دِينَ فَوْقِي غَرِيمَةً * وَعِزَّةٌ مَمْطُولٌ مَعْنَى غَرِيمُهُ

فكان أول لقائه إياها . ثم قال فيها :

نَظَرْتُ إِلَيْهَا نَظْرَةً وَهِيَ عَاتِقٌ * عَلَى حِينِ أَنْ شَبَّتْ وَبَانَ نُهُودُهَا

وَقَدْ دَرَّعُوهَا وَهِيَ ذَاتُ مُؤَصَّدٍ * مَجُوبٌ وَلَمَّا يَلْبَسُ الدَّرْعَ رِيْدُهَا ^(١)

مِنَ الْخَيْفِرَاتِ الْبَيْضِ وَدَّ جَلِيسُهَا * إِذَا مَا أَنْقَضْتَ أَحْدُوئَهُ لَوْ تُعِيدُهَا

نَظَرْتُ إِلَيْهَا نَظْرَةً مَا يَسْرُنِي * بِهَا حُمْرُ أَنْعَامِ الْبِلَادِ وَسُودُهَا

وَكَنتُ إِذَا مَا جِئْتُ سَعْدِي بَارِضُهَا * أَرَى الْأَرْضَ تَطْوِي لِي وَيَدْنُو بَعِيدُهَا

ثم أحبته بعد ذلك عِزَّةُ أشد من حبه إياها .

قال محمد بن صالح الأسلمي : دخلت عِزَّةُ على عبد الملك بن مروان وقد عَجَّزَتْ ؛

فقال لها : أنتِ عِزَّةُ كثير؟ فقالت : أنا عِزَّةُ بنت حميد؛ قال : أنت التي يقول لك كثير:

لَعِزَّةُ نَارٌ مَا تَبُوحُ كَأَنَّهَا ^(٢) * إِذَا مَا رَمَقْنَاهَا مِنَ الْبَعْدِ كَوَكُوبُ

فما الذي أعجبه منك ؟ قالت : كلا يا أمير المؤمنين، لقد كنتُ في عهده أحسن من

النار في الليلة القُرَّة . ويروى أنها قالت له : أعجبه مني ما أعجب المسلمين منك حين

صيروك خليفةً، وكانت له سِنَّ سِوداءٍ يخفيها، فضحك حتى بدت، فقالت له : هذا الذي

أردتُ أن أبديه ؛ فقال لها : هل ترَوين قوله :

(١) مؤصد : البس الأصداء (بالصم) وهي قبص صغير يابس تحت الثرب . والمحجوب : القبيص ذو الجيب

والرئد (يهمز ولا يهمز) : الثرب . (٢) تبوح : تمجد .

وقد زَعَمْتُ أُنَى تَغَيَّرَتْ بَعْدَهَا * ومن ذا الذى يا عَزْرَ لا يَتَغَيَّرُ
تَغْيِيرَ جِسْمِي وَالخَلِيقَةَ كَالتي * عَهَدتِ ولم يُخْبِرْ بِسِرِّكَ مُخْبِرٌ

قالت : لا أروى هذا، ولكنى أروى قوله :

كأنى أنادى صخرةً حين أعرَضْتُ * من الصَّمِّ لو تمشى بها العُصْمُ زَلْتُ
صَفُوحًا فما تلقاك إلا بِجِيلةٍ * فمن مَلَّ منها ذلك الوصل مَلَّتْ

فامر بها، فأدخلت على عاتكة بنت يزيد؛ فقالت لها : رأيت قول كثير :

قضى كل ذى دين فوقى غريمه * وعزرة مَمْطُولٌ مُعْتَى غريمها

ما هذا الذى ذكره؟ قالت : قُبلةٌ وعدته إياها؛ قالت : أنجزها وعلى إمامها .

ومما قال فيها

خيلى- هدا رَسْمُ عَزْرَةٍ فَأَعْقَلَا * قَلُوصَيْكَا ثم أبكى حيث حَلَّتْ
وما كنتُ أدرى قبل عَزْرَةٍ ما البكا * ولا مُوجِعَاتِ القلبِ حتى تَوَلَّتْ
فقد حَلَفْتُ جَهْدًا بما نَحَرْتُ له * قَرِيشٌ غَدَاةُ المَأْزَمِينَ ^(١) وَصَلَّتْ
أُنَادِيكَ ما حَجَّ اِيجُ وَكَبَّرْتُ * بِنَيْفًا غَزَالٍ رُقَقَةٌ وَأَهَلَّتْ ^(٢)
وكانت لَقَطْعِ الجبلِ بِنِي وَبِنِهَا * كَكِنَاذِرَةٍ نَذْرًا وَفَتْ فَاحَلَّتْ
فقلت لها يا عَزْرَ كل مصيبة * اذا وَطَّنتِ يوما لها النفسُ ذَلَّتْ
ولم يَلْقُ إنسانٌ من الحبِّ مَبِيعَةً * تَعْمٌ ولا غَمَاءٌ إلا تَجَلَّتْ
كأنى أنادى صخرةً حين أعرَضْتُ * من الصَّمِّ لو تمشى بها العُصْمُ زَلْتُ
صَفُوحًا فما تلقاك إلا بِجِيلةٍ * ^(٣) فمن مَلَّ منها ذلك الوصل مَلَّتْ
أباحَتِ حِمَى لم يَرَعَهُ الناسُ قبلها * وَحَلَّتْ تِلْاعًا لم تكن قَبْلُ حُلَّتْ

(١) الأزمان : بين عرفة والمزدلفة . (٢) فيفا غزال : بمكة حيث ينزل الناس فيها

الى الأبطح . وأناديك : أجالسك ، مأخوذ من التدى والداى جريما وهما المجلس .

(٣) الصفوح : المعرضة .

فليْتَ قَلُوصِي عند عَزَّةٍ قِيَدَت * بجبل ضَعِيفٍ عَزَّ مِنْهَا فَضَلَّت
 وَغُودِرَ فِي الحَيِّ المَقِيمِينَ رَحَلُهَا * وَكَانَ لَهَا بَايَغُ سِوَايَ قَبَلَت^(١)
 وَكُنْتُ كَذِي رِجْلَيْنِ رِجْلٍ صَحِيحَةٍ * وَرَجُلٍ رَمَى فِيهَا الزَّمَانُ فَشَلَّت
 وَكُنْتُ كَذَاتِ الظَّلْمِ لِمَا تَحَامَلْتُ * عَلَيَّ ظَلَمَهَا بَعْدَ العِنَارِ اسْتَقَلَّت
 أَرِيدُ التُّوَاءَ عِنْدَهَا وَأَظْنَهَا * إِذَا مَا أَطَلْنَا عِنْدَهَا المُكْتَمَتِ
 فَمَا أَنْصَفْتُ، أَمَا للنِّسَاءِ فَبَغَّضْتُ * الحَيِّ وَأَمَّا بِالنَّوَالِ فَضَنَّتِ
 يُكَلِّفُهَا العَيْرَانُ شَتِيَّ وَمَا بِهَا * هَوَانِي وَلَكِن لِيكَ اسْتَذَلَّت
 هَنِيئًا مَرِيئًا غَيْرِ دَاءِ نُحَامِرٍ * لِعَزَّةٍ مِنْ أَعْرَاضِنَا مَا اسْتَحَلَّت
 فَوَاللَّهِ مَا قَارَبْتُ إِلَّا تَبَاعَدْتُ * بَصْرِيٍّ وَلَا أَكْثَرْتُ إِلَّا أَقَلَّتْ
 فَإِنْ تَكُنِ العَتْبِيُّ فَأَهْلًا وَمَرْجَا * وَحَقَّتْ لَهَا العَتْبِيُّ لَدِينَا وَقَلَّتْ
 وَإِنْ تَكُنِ الأُخْرَى فَإِنَّ وِرَاءَنَا * مَنَادِحَ لَوْ سَارَتْ بِهَا العَيْسُ كَلَّتْ^(٣)
 خَلِيلِي إِنْ الحَاجِيَةَ طَلَحْتُ * قَلُوصِيكَا وَنَاقَتِي قَدِ أَكَلْتُ^(٤)
 فَلَا يَبْعِدُنَّ وَصُلَّ لِعَزَّةٍ أَصْبَحْتُ * بِعَاقِبَةِ أَسْبَابِهِ قَدِ تَوَلَّتْ
 أَسِيئِي بِنَا أَوْ أَحْسِنِي لَا مَلُومَةٌ * لَدِينَا وَلَا مَقِيلِيَةَ إِنْ تَقَلَّتْ
 وَلَكِن أُنَيْلِي وَأَذْكَرِي مِنْ مِوَدَّةٍ * لَنَا خُلَّةٌ كَانَتْ لَدَيْكُمْ فَطُلَّتْ^(٥)
 فَإِنِّي وَإِنْ صَدَّتْ لِمَثْنٍ وَصَادِقٌ * عَلَيْهَا بِمَا كَانَتْ إِلَيْنَا أَزَلَّتْ^(٦)
 فَمَا أُمَّا بِالدَّاعِي لِعَزَّةٍ بِالجُوى * وَلَا شَامِتٌ إِنْ نَعَلُ عَزَّةٍ زَلَّتْ
 فَلَا يَحْسِبُ الوَاشُونَ أَنَّ صَبَابَتِي * بِعَزَّةٍ كَانَتْ عَمْرَةً فَتَجَلَّتْ
 فَأَصْبَحْتُ قَدِ أَبْلَأْتُ مِنْ دَنَفِهَا * كَمَا أُدْنِفَتْ هَيَاءً ثُمَّ اسْتَبَلَّتْ^(٧)

(١) بليت : ذهبت . (٢) العتبي : الإعتاب ، يقال : عاتبني فلان فأعابته إذا زعرت عماداتك عليه ،
 والعتبي الاسم والإعتاب المصدر (٣) المنادح : المعاوز . (٤) الطليح : المعى الذى سقط من الأعيان .
 (٥) طلت : هدرت . (٦) أزلت : اصطنعت . (٧) يقال : بل من مرضه وأبل واستبل إذا
 برأ . والهيام : التى أصابها داء الهيام ، وهو داء يصيب الإبل من ماء تشربه مستبقا فتهيم فى الأرض لاترعى .

فوالله ثم الله ما حلّ قبلها * ولا بعدها من خلة حيث حلت
وما مر من يوم على كيومها * وإن عظمت أيام أخرى وجأت
وأصحت بأعلى شأهي من فؤاده * فلا القلب يسلاها ولا العين ملّت
فياغيب القلب كيف ^(١) أعتراه * وللنفس لما وطنت كيف ذلت
وإني وتيأمي بعزة بعد ما * تخلّيت مما بيننا وتحتت
لكالمُرْتَجَى ظلّ الغامة كلما * تبوأ منها للمقييل أضمحت
كأني وإياها صحابة مُجَل * رجاها فلما جاوزه استهلت
فإن سأل الوأشون فيم هجرتها * فقل نفس حر سلت قسلت
قال ابن سلام : كان كثير مدّعيًا ولم يكن عاشقا، وكان جميل صادق الصباة والعشق .
وأخبرته عزة ذات مرّة فوجدت علامة ذلك ، وكانت متعبة فأسفرت ، فأبلس ولم ينطق
وبهت ، فلما مضت أنشأ يقول :

ألا ليتني قبل الذي قلت شيب لي * من السم خضخاض بماء الدراح ^(٢)
فمت ولم تعلم على خيانتة * وكم طالب للريح ليس براح
أبوء بذنبي ، إني قد ظلمتها * وإني بيباق سرها غير بأخ
ومن قوله يمدح عمر بن عبد العزيز :

وليت فلم تشتم عليا ولم تحف * برياً ولم تتبع مقالة مجرم
وقلت فصدقت الذي قلت بالذي * فعلت فأضحى راضياً كل مسلم
ألا إنما يكفي الفتى بعد زيغته * من الأود الباقي ثِقاف المقوم
لقد لست لبس الهلوك بابها * ترأى لك الدنيا بكف ومعصم
وتومض أحيانا بعين مريضة * وتبسم عن مثل الجمان المنظم

(١) أعتراه : اصطباره ، يقال : نزلت به مصيبة فوجد عروفاً ، أي صبورا .

(٢) أبلس : اكسرو رن . (٣) الدراح : دويبة حمراء منقطة بسواد تطير ، وهي من السموم

القاتلة ، والدراح جمعه . والخضخاض : مطأ أسود لا خنورة فيه تنها به الإبل الجرب .

فَأَعْرَضَتْ عَنْهَا مُشْمَرًا كَأَنَّمَا * سَقَّتْكَ مَدُوفًا مِنْ سَمَامٍ وَعَلَقَمَ
 وَقَدْ كُنْتَ مِنْ أَجْبَاهِهَا فِي مُنْتَع * وَمِنْ بَحْرِهَا فِي مُزِيدِ الْجُودِ مُقَمَّ
 وَمَا زِلْتَ سَبَاقًا إِلَى كُلِّ غَايَةٍ * صَعِدْتَ بِهَا أَعْلَى الْبِنَاءِ الْمَقْدَمِ
 فَلَمَّا أَتَاكَ الْمَلِكُ عَفَّوًا وَلَمْ يَكُنْ * لَطَالِبِ دُنْيَا بَعْدَهُ مِنْ تَكَلُّمِ
 تَرَكْتَ الَّذِي يَفْنَى وَإِنْ كَانَ مُوتِقًا * وَأَثَرَتْ مَا يَبْقَى بِرَأْيِ مُصَمِّمِ
 فَأَضْرَرْتَ بِالْفَانِي وَشَمَّرْتَ لِلَّذِي * أَمَامَكَ فِي يَوْمٍ مِنَ الْهَوْلِ مَظْلَمِ
 وَمَالِكَ أَنْ كُنْتَ الْخَلِيفَةَ مَانِعٌ * سِوَى اللَّهِ مِنْ مَالٍ رَغِيبٍ وَوَلَادِمِ
 سَمَا لَكَ هَمٌّ فِي الْفَوَادِ مُؤَرِّقٌ * صَعِدْتَ بِهِ أَعْلَى الْمَعَالِي سُؤْلِمِ
 فَمَا بَيْنَ شَرْقِ الْأَرْضِ وَالْغَرْبِ كُلِّهَا * مُنَادٍ يَنَادِي مِنْ فَصِيحٍ وَأَعْجَمِ
 يَقُولُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ظَلَمْتَنِي * بِأَخْذِ لَدِينَارٍ وَأَخْذِ لِدَرْهَمِ
 وَلَا بَسِطَ كَفٌّ لَأَمْرِيءَ ظَالِمٍ لَهُ * وَلَا السَّفْكَ مِنْهُ ظَالِمًا مَلَأَ نَحْمِ
 فَلَوْ يَسْتَطِيعُ الْمَسَامُونَ تَقَسَّمُوا * لَكَ الشَّطْرُ مِنْ أَعْمَارِهِمْ غَيْرُ نَدَمِ
 فَمِشَتْ بِهِ مَا حَجَّ اللَّهُ رَاكِبٌ * مُغْدٍ مُطِيفٌ بِالْمَقَامِ وَزَمَنِمِ
 فَأَرْبِحْ بِهَا مِنْ صَفْقَةٍ لِبَيْعِ * وَأَعْظِمْ بِهَا أَعْظِمَ بِهَا ثُمَّ أَعْظِمِ
 وَمِنْ نَسِيهِ بَعْزَةٌ لَمَّا أُتْرِجَتْ إِلَى مِصْرٍ :

لِعِزَّةٍ مِنْ أَيَّامِ ذِي الْغَنَاصِنِ شَاقِفِي * بِيضَاحِي قَرَارِ الرَّوَضَيْنِ رُسُومِ
 هِيَ الدَّارُ وَحَشًّا غَيْرَ أَنْ قَدْ يَحْمِلُهَا * وَيَفْنَى بِهَا شَخْصٌ عَلَى كَرِيمِ
 فَمَا يَرِسُومِ الدَّارِ لَوْ كُنْتَ عَالِمًا * وَلَا بِالَّتَّلَاعِ الْمُقْبُويَاتِ أَهْمِ^(٣)
 سَأَلْتُ حَكِيمًا أَيْنَ شَطَّتْ بِهَا النَّوَى * نَفِئْتَنِي مَا لَا أَحَبَّ حَكِيمِ^(٤)
 أَجَدُّوْا فَمَا أَلْ عِزَّةٌ عُذُوَّةٌ * فَبَانُوا وَأَمَّا وَاسِطُ فُقَيْمِ
 لِعَمْرِي لئن كَانَ الْفَوَادُ مِنْ الْهَوَى * بَغَى سَقَمًا إِنِّي إِذَا لَسَقِيمِ

(١) مدوفا : مخلوطا ، داف الدواء، والزعران يدويه : حلقه .

(٢) معذ : مسرع

(٣) أقوت الدار : خلت من ساكها . (٤) هو أبو السائب بن حكيم .

ومنها :

ولستُ برأى نحو مصر صحابة * وإن بعدت إلا قعدت أشيم
 فقد يقعد النكس الذي عن الهوى * عز وفأ وبصبو المرء وهو كريم
 وقال خيلى ما لها إذ لقيتها * غداة السنا فيها عليك وجوم^(١)
 فقلت له إن المودة بيننا * على غير فحش والصفاء قديم
 وإنى وإن أعرضت عنها تجلدا * على العهد فيما بيننا لمقيم
 وإن زمانا فوق الدهر بيننا * وبينكم فى صرفة لمشوم
 أفى الحق هذا أن قلبك سالم * صحيح وقلبي فى هواك سقيم
 وأن يجسمى منك داء محامرا * وجسمك موفور عليك سليم
 لعمرك ما أنصفتنى فى مودتى * وليكنى ياعز عنك حلیم
 فإما ترينى اليوم أبدى جلادة * فإنى لعمرى تحت ذاك كلم
 ولستُ أبنة الضمري منك بناقم * ذنوب العدى إنى إذا لظلم
 وإنى لذو جيد اذا عاد وصلها * وإنى على ربى إذا لكریم

ومن نسيه بها :

لعزة أطلال أبى أن تكلمنا * تبيع مغانها الفؤاد المكلمنا
 وكنت إذا ما جئت أجلاز مجلسى * وأظهرن منى هية لا تجهما
 يحاذرن منى غيرة قد عرفها * قديما فما يضحكن إلا تبسما

ومنه :

خيلى عوجا منكما ساعة معى * على الربع نقض ساعة ونودع
 ولا تعجلانى أن ألم يدمنة * لعزة لاحت لى بيضاء بلقع
 وقولا لقلب قد سلا راجع الهوى * وللعين أذرى من دموعك أودعي
 فلا عيش إلا مثل عيش مضى لنا * مصيفا أقمنا فيه من بعد مريع

(١) وجم : سكت على عبط

ومنه :

بليلى وجارات ليلى كأنها * نِعَاجُ الْفِلا تُنْحَدِي بَيْنَ الْأَبَاعِ
أَمْتَقِطِعُ يَاعِزَّ مَا كَانَ بَيْنَنَا * وشَاجِرُنِي يَاعِزَّ فَيْكَ الشَّوَابِرِ
إذا قِيلَ هَذَا بَيْتُ عِزَّةٍ قَادِنِي * أَلِيهِ الْهُوَى وَأَسْتَعِجَلُنِي الْبُؤَادِرِ
أَصْدُو بِي مِثْلَ الْجَنُونِ لَكِي يَرِي * رُؤَاةُ الْخَلَا أَنِي لَيْتِكَ هَاجِرِ
أَلَا لَيْتَ حَظِّي مِنْكَ يَاعِزَّ أَنِي * إذا بِنْتٍ بَاعَ الصَّبْرَ لِي عَنْكَ تَاجِرِ

وما زلتُ من ليلي لَدُنْ طَرِّ شَارِبِي * أَلِي الْيَوْمِ أُخْفِي حَبِّهَا وَأُدَاجِنُ
وأَحْمَلُ فِي لَيْلِي ضِغْثَانَ مَعَشَرٍ * وَتُحْمَلُ فِي لَيْلِي عَلَى الضِّغْثَانِ

ومنه :

وإني لأرعى قومها من جلالها * وان أظهر وأغشا نصحت لهم جهدى
ولو حاربوا قومي لكنك لقومها * صديقاً ولم أحمل على حربها حقدي

ومنه :

هَلَا سَأَلْتَ مَعَالِمَ الْأَطْلَالِ * بِالْجِزْعِ مِنْ حُرْضٍ وَهَنْ بَوَالِ
سَقِيًّا لِعِزَّةٍ خُلَّةً سَقِيًّا لَهَا * اذْ نَحْنُ بِالْهَضَبَاتِ مِنْ أَمَلَالِ^(٢)
إِذَا لَا تَكَلَّمْنَا وَكَانَ كَلَامُهَا * نَفَلًا تَوَمَّلَهُ مِنَ الْأَنْفَالِ

ومنه :

أَلَا حَيًّا لَيْلِي أَجَدَّ رَجِيلِي * وَأَذِنَ أَصْحَابِي غَدًا بِقُفُولِ^(٣)
تَبَدَّتْ لَهُ لَيْلِي تُنْذِبُ عَقْلَهُ * وَشَاقَتَكَ أُمُّ الصَّلْتِ بَعْدَ ذُحُولِ
أَرِيدُ لِأَنْسَى ذِكْرَهَا فَكَأَنَّمَا * تَمَثَّلُ لِي لَيْلِي بِكُلِّ سَبِيلِ
إِذَا ذِكْرَتْ لَيْلِي تَغَشَّتْكَ عِبْرَةٌ * تُعَلِّبُهَا الْعَيْنَانِ بَعْدَ هُجُولِ

(١) حرض : واد من وادى قناة ، من المدينة على ميلين .

(٢) أراد ملل ، وهو مرل على طريق المدينة من مكة . (٣) قفول : رجوع

وكَم من خليل قال لى هل سألتها * فقلت له لىلى أضرت خليل
 وأبعده نَيْلاً وأوشكه قِلى^(١) * وإن سئلت عرفاً فشرُّ مسؤل
 حلفتُ ربَّ الراقصات الى منى^(٢) * خلالَ الملايمُذُن كلَّ جَدِيل
 تراها رفاقاً يبنهنَّ تفاوتُ * ويمدُدن بالإهلال كلَّ أصيل^(٣)
 توَاهقن بِالْحُجَّاج من بطن نَحلة^(٤) * ومن عزورٍ والحبِّ حَبَّتِ طَفِيل
 بكلِّ حرامٍ خاشعٍ متوجِّه * الى الله يدعوه بكلِّ ثقيل
 على كلِّ مِدْعَانِ الرِّوَّاحِ مُعِيدَةٍ * ومخشِيةً ألا تُعيد هزِيل
 شوامِدٌ قد أرتجَن دونَ أجنة^(٥) * وهوَّج تبارى فى الازِمة حُويل
 يمينِ امرئٍ مُسْتَغْلِظٍ من أليَّة^(٦) * ليكذبَ قِيلاً قد ألحَّ يقيل
 لقد كذب الواشون ما بحتُ عندهم * بليلى ولا أرسلتُهم برسول^(٧)
 فإن جاءك الواشون عنى بكذبة * فروها ولم يأتوا لها يحويل^(٨)
 فلا تعجلِ ياليلِ أن تتفهى * بنصحِ أنى الواشون أم يحبول^(٩)
 فإن طِبتِ نفساً بالعباء فأجزبى * وخيرُ العطا ياليلِ كلُّ جزيل
 وإلا فإجمالٌ إلى فإنى * أحبَّ من الأخلاق كلُّ جميل
 وإن تبدُّلى لى منك يوماً مودَّة * فقدمًا تتخذتِ القرضَ عند بدؤل
 وإن تبخلى ياليلِ عنى فإنى * تؤكِّلى نفسى بكلِّ بخيل
 ولستُ براضٍ من خليلِ بنائيل * قليل ولا راضٍ له بقليل

(١) أوشكه : أسرع . والقلى : البغض . (٢) الراقصات : الإبل ، والملا : العصاة ، والجديل
 زمام محدود أى مصمور . (٣) الأصيل : العشى . (٤) توَاهقن : تبارين ، وبطن نَحلة
 سنان بنى عامر ، وعزور : ثنية الجحفة . والحبِّ ، المطامى من الأرض . وطبيل : موضع
 (٥) القليل : الطريق . (٦) المذعان : المدللة . ومعيدة : قد عاودت السفر . (٧) الشوامد
 الشائلات الأذئاب ، وأرتجَن : أعلقن أرحامهن على أولادهن . والحول : جمع حائل وهى التى لا تلتحق .
 (٨) الأليَّة : الجيب . (٩) فروها من المربة ، يقال فرى يعرى . والحويل : المحاولة .
 (١٠) الحويل : الدواهى .

وليس خليلي بالملول ولا الذي * اذا غَبْتُ عنه باعنى بخليل
 ولكن خليلي من يُدِيمِ وِصَالَهُ * ويحفظ سرى عند كل دَخِيل^(١)
 ولم أرَ من ليلي نوالا أصدّه * ألا ربما طالبت غير مَنِيَل
 يلومك في ليلي وعقلك عندها * رجالٌ ولم تذهب لهم بعقول
 يقولون ودّع عنك ليلي ولا تهمّ * بقاطعة الأقران ذات حليل
 فما تَقَعْتَ نفسي بما أمروا به * ولا نُجِئْت من أقوالهم بفتيل^(٢)
 تذكّرت أترابا لعزة كالمها * حِينِ يَلِيطُ ناعم وقبول^(٣)
 وكنتُ اذا لا قِيَهِنَّ كَأَنِّي * مُحَالِطَةٌ عَقْلِي سُلُوفٌ شَمُول
 تأطرن حتى قلتُ لسنّ بوآرحا * رجاء الأمانى أن يَقْلُنَ مَقِيل^(٤)
 فأبدى لي من بينهنّ تجمها * وأخلفن ظنّي إذ ظننت وقيلي
 فَلَايَا يَلَايِي مَا قَصَيْنَ لُبَانَهُ^(٥) * من الدار وأستقلن بعد طويل
 فلما رأى وأستيقن البين صاحبي * دعا دعوةً يا حَبْتَرَبَنَ سَلُول
 فقلتُ وأسررتُ الندامة ليتني * وكنتُ أمراً أعتش كل عدول
 سلكتُ سبيلَ الرامحات عشيّة * مَخَارِمِ نِضْعٍ أَوْ سَلَكَنَ سَبِيلِي^(٦)
 فأسعدت نفسا بالهوى قبل أن أرى * عَوَادِي نَائِي بَيْنَنَا وَشُغُول^(٧)
 نَدِمْتُ عَلَى مَا فَاتَنِي يَوْمَ بَنَمُّ * فَيَا حَسْرَتَا أَلَا يَرَيْنَ عَوِيلِي
 كأن دموع العين وإهية الكلى^(٨) * وَعَتَّ مَاءَ غَرْبِ يَوْمِ ذَاكَ سَجِيل

- (١) الدخيل : الذى يتسبب الى قوم وليس منهم . (٢) أى ما رويت . (٣) الأتراب : الأقران . والليط : اللون وهو الجلد أيضا . (٤) تأطرن : تلبئن ، وأصل التأطر : التعطف . (٥) اللاي : البطء . واللبانة : الحاجة . (٦) المخارم : جمع مخرم وهو مقطوع أنف الجبل . وضع : جبل أسود بين الصفرأ و يلبع . (٧) العوادي : الصوارف . (٨) الكلى : جمع كلية وهى الرقعة تكون فى أصل عروة المراد . والغرب : الدوا العظيمة . وسجيل : صميم .

تَكْتَفِيهَا حُرْقٌ تَوَاكَلْنَ خَرْزَهَا * فَأَبْجَنَهُ وَالسَّيْرُ غَيْرُ بِيحِلْ (١)
 أَيْمَى فَإِنَّ الْغَوْرَ يَاعَزُّ بَعْدَكُمْ * إِلَىٰ إِذَا مَا يَنْتِ غَيْرُ بَحْمِيلِ
 كَفَىٰ حَزْنَا لِلْعَيْنِ أَنْ رَدَّ طَرْقَهَا * لِعِزَّةِ عَيْرِ آذَنْتِ بِرَحِيلِ
 وَقَالُوا نَأَتْ فَاخْتَرْنَا مِنَ الصَّبْرِ وَالْبُكََا * فَقُلْتُ الْبُكََا أَشْفَىٰ إِذَا نَغْلِيْلِي
 تَوَلَّيْتُ مَحْزُونًا وَقُلْتُ لِصَاحِبِي * أَفَاتَلْتِي لَيْلِي بِغَيْرِ قَتِيلِ
 لَعَزَّةٌ إِذْ يَحْتَلُّ بِالْخَيْفِ أَهْلُهَا * فَأَوْحَشَ مِنْهَا الْخَيْفُ بَعْدَ حُلُولِ
 وَبَدَّلَ مِنْهَا بَعْدَ طَوْلِ إِقَامَةٍ * تَبَعْتُ نَكَبَاءَ الْعَيْنِي جَفُولِ (٢)
 لَقَدْ أَكْثَرَ الْوَاشُونَ فِينَا وَفِيكُمْ * وَمَالَ بَنِي الْوَاشُونَ كُلِّ مَيْمِلِ
 وَمَا زِلْتُ مِنْ لَيْلٍ لُدُنٌ طَرْ شَارِبِي (٣) * إِلَىٰ الْيَوْمِ كَالْمَقْصَىٰ بِكُلِّ سَبِيلِ

وله :

إِذَا مَا أَرَادَ الْغَزْوَ لَمْ تَنْهَ هَمَّهُ * حَصَانٌ عَلَيْهَا نَظْمٌ دُرٌّ يَزِينُهَا
 نَهْتُهُ فَلَمَّا لَمْ تَرَ النَّهْيَ عَاقَهُ * بَكَتْ قَبْكَىٰ مِمَّا تَبْجَاهَا قَطِينُهَا (٤)
 وَلَمْ يَنْتَهِهِ يَوْمَ الصَّبَابَةِ بَثُّهَا * غَدَاةً أَسْتَهَلَّتْ بِالْدمُوعِ شُؤُونُهَا
 وَلَكِنْ مَضَىٰ ذُو مِرَّةٍ مُتَثَبٌ * لِسُنَّةٍ حَقٌّ وَاصِحٌ مُسْتَبِينُهَا

وله في مدح عبد الملك بن مروان :

أَحَاطَتْ يَدَاهُ بِالْخِلَافَةِ بَعْدَ مَا * أَرَادَ رِجَالٌ آخَرُونَ اغْتِيَالَهَا
 فَمَا أَسْلَمُوهَا عَنُودَةً عَنْ مَوَدَّةٍ * وَلَكِنْ يَحْدُ الْمَشْرِفِ اسْتِقَالَهَا
 وَكَنتَ إِذَا نَابَتْكَ يَوْمًا مَاهِمَةٌ * نَبَلَتْ لَهَا أَبَا الْوَلِيدِ نِبَالَهَا (٥)
 سَمَوْتَ فَادْرَكْتَ الْعُلَاءَ وَإِنَّمَا * يُلْقَىٰ عَايَاتِ الْعُلَاءِ مِنْ سَمَا لَهَا
 وَصَلْتَ فَنَالَتْ كَقَمِكَ الْمَجْدَ كُلَّهُ * وَلَمْ تَبْلُغِ الْأَيْدِي السَّوَامِي مَصَالَهَا

(١) حرق : جمع حرقاء وهي التي لا تحبس العمل . وأجملته : أوسعته . والبجيز العايط : يريد أن يمد يده

أعطن الإنسي وأدق السير . (٢) الكاء : الريح التي تهب من مهبى ريحين . والحمول : التي تذهب التراب .

(٣) طرور الشارب : ناته . (٤) القطس : الخدم . (٥) سلت : أعددت

وله أيضا :

أَهْجَاكَ بَرْقُ آخِرِ اللَّيْلِ وَاصِبٌ * تَضَمَّنَهُ فَرَشُ الْجَبَا فَلَمْسَارِبُ
يُجْرُ وَيَسْتَأْنِي نَسَاصًا كَأَنَّهُ ^(١) * بَغِيْقَةٌ حَادٍ جَلْبَلُ الصَّوْتِ جَالِبُ
تَأْتِي وَأَحْمَوِي وَخَمَّ بِالرُّبَا * أَحْمُ الدَّرِي ذُو هَيْدَبٍ مُتْرَاكِبُ
إِذَا حَرَكْتَهُ الرِّيحُ أَرْزَمُ جَانِبٌ * ^(٢) ^(٣) بَلَا هَرْقٍ مِنْهُ وَأَوْمَضُ جَانِبُ
كَمَا أَوْمَضْتُ بِالْعَيْنِ ثُمَّ تَبَسَّمْتُ * ^(٤) خَرِيْعٌ بَدَأَ مِنْهَا جَبِيْنٌ وَحَاجِبُ
يَجُّ النَّدَى لَا يَذْكُرُ السَّيْرَ أَهْلُهُ * وَلَا يَرْجِعُ الْمَاشِي بِهِ وَهُوَ جَادِبُ

وله أيضا :

سَمِيْكَ فِي الدُّنْيَا شَفِيْقٌ عَلَيْكُمْ * إِذَا غَالَهُ مِنْ حَادِثِ الدَّهْرِ غَائِلُهُ
وَيُخْفِي لَكُمْ حُبًّا شَدِيْدًا وَرَهْبَةً * وَلِلنَّاسِ أَشْغَالٌ وَحُبُّكَ شَاغِلُهُ
وَحُبُّكَ يُنْسِنِي مِنَ الشَّيْءِ فِي يَدِي * وَيُذْهِبُنِي عَنْ كُلِّ شَيْءٍ أَزَاوِلُهُ
كَكْرِيْمٍ يُمِيْتُ السَّرَّ حَتَّى كَأَنَّهُ * إِذَا اسْتَبَحَّثُوهُ عَنْ حَدِيثِكَ جَاهِلُهُ
يُوَدُّ بَانَ يُمِيْسِي سَقِيْمًا لَعْلَهَا * إِذَا سَمِعَتْ عَنْهُ بِشَكْوَى تُرَاسِلُهُ
وَيَرْتَاحُ لِلْعُرُوفِ فِي طَلَبِ الْعِلَا * لِيُحَمِّدَ يَوْمًا عِنْدَ لَيْلِي شِمَائِلُهُ
فَلَوْ كُنْتُ فِي كَبْلٍ ^(٥) وَبُحْتُ بِلَوْعَتِي * إِلَيْهِ لِأَنَّتَ رَحْمَةً لِي سَلَاْسِلُهُ

وله أيضا :

أَقُولُ لِمَاءِ الْعَيْنِ أَمَعْنَ لَعْلَهُ * بِمَا لَا يُرَى مِنْ غَائِبِ الْوَجْدِ يَشْهَدُ
فَلَمْ أَدْرُ أَنْ الْعَيْنَ قَبْلَ فِرَاقِهَا * غَدَاةَ الشَّبَابِ مِنْ لَاجِجِ الْوَجْدِ تَجْمُدُ
وَلَمْ أَرْ مِثْلَ الْعَيْنِ صَنَّتْ بِمَاهَا * عَلَيَّ وَلَا مِثْلِي عَلَى الدَّمْعِ يُحْسَدُ

(١) النشاص : السحاب المرتفع بنفضه فوق بعض . (٢) أرزم : صوت . (٣) الهزق

شدة صوت الرعد . (٤) خريع : امرأة حسناء . (٥) كبل : قيد شديد .

وله أيضا :

تَسْمَعُ الرَّعْدَ فِي الْخَيْلَةِ مِنْهَا * مِثْلَ هَزْمِ الْقُرُومِ فِي الْأَسْوَالِ^(١)
وَتَرَى الْبَرْقَ عَارِضًا مُسْتَطِيرًا * مَرَحَ الْبُلْبُلِيِّ جُلْنَ فِي الْأَجْلَالِ
أَوْ مَصَابِيحَ رَاهِبٍ فِي يَفَاعٍ * سَخْمَ الزَّيْتِ سَاطِعَاتِ الذُّبَالِ

وله أيضا :

فِيَا عَزَّ إِنِّ وَايِّشَ وَشَى بِي عِنْدَكُمْ * فَلَا تُكْرِمِيهِ أَنْ تَقُولِي لَهُ أَهْلًا
كَمَا لَوْ وَشَى وَايِّشَ بَعِزَّةً عِنْدَنَا * لَقُلْنَا تَزْجُحُ لَا قَرِيْبًا وَلَا سَهْلًا

(١) القروم : الفحول التي أعفيت من الحمل عليها وتركت للفحلة .

(٢) الأشوال : الإبل التي مضى على حملها أو وضعها سبعة أشهر فارتفع ضرعها وجف لبنها

(د) الغزل القصصي

١ - أخبار قيس بن الملقح (المجنون)^(١)

قال الأصفهاني عن محدثيه عن ابن دأب قال : قلت لرجل من بني عامر : أتعرف المجنون وتروى من شعره شيئاً؟ قال : أوقد فرغنا من شعر العقلاء حتى نروى أشعار المجانين ! إنهم لكثير ! فقلت : ليس هؤلاء أعني ، إنما أعني مجنون بني عامر الشاعر الذي قتله العشق ، فقال : هيات ! بنو عامر أغلظت أباداً من ذلك ، إنما يكون هذا في هذه اليمانية الضعاف قلوبها ، السخيفة عقولها ، الصعلة^(٢) رءوسها ، فأما زيار فلا .

وقال الرياشي سمعت الأصمعي يقول : رجلان ما عيرفا في الدنيا قط إلا بالاسم : مجنون بني عامر ، وابن القرية^(٣) ، وإنما وضعهما الرواة .

وقال المدائني : المجنون المشهور بالشعر عند الناس صاحب لبي قيس بن معاذ من بني عامر ، ثم من بني عقيل ، أحد بني ميمر بن عامر بن عقيل ، قال : ومنهم رجل آخر يقال له : مهدي بن الملقح من بني جعدة بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة .

وقال ابن الكلبي : حدثت أن حديث المجنون وشعره وضعه قتي من بني أمية كان يهوى أبنة عم له ، وكان يكره أن يظهر ما بينه وبينها ، فوضع حديث المجنون وقال الأشعار التي يروها الناس للمجنون ونسبها إليه .

(١) هو قيس بن الملقح ، ويقال : ابن معاذ بن مزاحم من بني عامر بن صعصعة ، ويعرف بمجنون لبي ، نسبة إلى لبي التي كان يتعشقها وهو مشهور ، ولكن بعض أهل النقد من علماء الشعريون أن قصته موضوعة ، وضعها رجل من بني أمية كان يحب أبنة عم له ويكره أن يظهر ما بينه وبينها ، فوضع حديث المجنون وقال الأشعار التي يظنها الناس للمجنون ، وقد زاد الناس فيه بعدئذ . ويؤيد ذلك أن كثيراً مما ينسب إليه من الأشعار رويت لعيره ، فقصة ادا من قبيل الشعر التمثيلي (درام) الذي يراد به تمثيل بعض الفضائل . وهي تمثل العشق مع التعفف ، أو لعل لها أصلاً قليلاً وزاد فيه الرواة كما فعلوا بقصة عنترة التي تمثل الشجاعة والعشق ، وعلى كل حال فإن بين الأشعار المسبوبة إلى المجنون طائفة تمثل شعائر المحبين كما هي على طبيعتها . وأخبار المجنون في الأعاني (ج ١ ص ١٦٧) والشعر والشعراء (ص ٣٥٥) وتزانة الأدب (ج ٢ ص ١٧٠) . (٢) الصعلة : صغر الرأس . (٣) هو أيوب ابن زيد بن قيس والقرية أمه قتله الحجاج لآلاتها به بالليل لان الأشعث .

وعن حماد بن طلوت بن عباد : أنه سأل الأصمعيّ عنه، فقال : لم يكن مجنوناً، بل كانت به لؤثةٌ أحدها العشقُ فيه، كان يهوى امرأةً من قومه يقال لها ليلى، وأسمه قيسُ ابنُ معاذ .

وذكر عمرو بن أبي عمرو الشيبانيّ عن أبيه أنّ اسمه قيسُ بن معاذ .

وذكر شعيبُ بن السكّين عن يونسَ النَّحويّ أنّ اسمه قيسُ بن الملوّح، قال أبو عمرو الشيبانيّ : وحدثني رجل من أهل اليمن أنه رآه ولقيته وسأله عن اسمه ونسبه، فذكر أنه قيسُ بن الملوّح .

وذكر هشام بن محمد الكلابيّ أنّ قيسُ بن الملوّح، وحدث أن أباه مات قبل اختلاطه، فعقر على قبره ناقته وقال في ذلك :

عقرتُ على قبر الملوّح ناقتي * بذى السرح^(٢) لما أن جفاه الأثاربُ
وقلتُ لها كوني عقيراً فإني * غداً راجلٌ أمشي وبالأمس راکبُ
فلا يُبعدنك اللهُ يابنَ مزاحيم * فكلُّ بكأس الموت لاشكَّ شاربُ

وقال الأصمعيّ : سألتُ أعرابياً من بني عامر بن صعصعة عن المجنون العامريّ فقال : عن أيّهم تسألني ؟ فقد كان فينا جماعةٌ رموا بالمجنون، فعن أيّهم تسأل ؟ فقلت : عن الذي كان يُشبّب بليلى، فقال : كلُّهم كان يُشبّب بليلى، قلتُ : فأنشدني لبعضهم، فأنشدني لمزاحيم بن الحارث المجنون :

ألا أيها القلبُ الذي لجّ هائمًا * بليلى وليدًا لم تُقطعْ تمائمُهُ
أفئقُ قد أفاق العاشقون وقد أنى^(٤) * لك اليوم أن تلقى طيبيا تُلائمُهُ
أجدك لا تُنسيك ليلى ملبئةً * نلّمُ ولا عهدٌ يطولُ تقادُمُهُ

(١) يقال : اختلط عقله إذا تميز وفسد . (٢) ذو السرح : واد بأرض نجد .

(٣) عقيراً، أي معقورة، وأصل العقر : قطع القوائم ثم أطلق بمعنى النحر . قال ابن الأثير : كانوا يعقرون الإبل على قبور الموتى أي يحرقونها ويقولون : إن صاحب القبر كان يعقر لئلا يضياف أيام حياته فنكأته بمثل صنيعه بعد وفاته . وإنما أطلق العقر على النحر لأنهم كانوا إذا أرادوا نحر العير عقروه لئلا يشرّد عند

النحر اه من اللسان مادة عقر . (٤) أنى : حان وفر .

قلت : فَأَنْشِدْنِي لِغَيْرِهِ مِنْهُمْ ، فَأَنْشِدْنِي لِمَعَاذِ بْنِ كَلْبِ الْجَنُونَ :

أَلَا طَلَمَا لَاعَبْتُ لَيْلَى وَقَادَنِي * إِلَى اللَّهِو قَلْبٌ لِلْحَسَانِ بَوَع
وَطَالَ أَمْتَرَاءُ الشُّوقِ عَيْنِي كَلْمَا * نَزَفْتُ دُمُوعًا تَسْتَجِدُّ دُمُوعُ
فَقَدْ طَالَ إِمْسَاكِ عَلَى الْكَبِدِ الَّتِي * بِهَا مِنْ هَوَى لَيْلَى الْغَدَاةَ صُدُوعُ
قُلْتُ : فَأَنْشِدْنِي لِغَيْرِهِمْ مَنْ ذَكَرْتَ ، فَأَنْشِدْنِي لِمَهْدَى بْنِ الْمُلُوحِ :

لَوْ آتَكَ الدُّنْيَا وَمَا عُدَّتْ بِهِ * سِوَاهَا وَلَيْسَ بِأَنَّ عَنْكَ بِنَهَا^(٢)
لَكُنْتَ إِلَى لَيْلَى فَقِيرًا وَإِنَّمَا * يَقُودُ إِلَيْهَا وَدَّ نَفْسِكَ حِينَهَا

قلتُ له : فَأَنْشِدْنِي لِمَنْ بَقِيَ مِنْ هَؤُلَاءِ ، فَقَالَ : حَسْبِكَ ! فَوَاللَّهِ إِنَّ فِي وَاحِدٍ مِنْ هَؤُلَاءِ
لِمَنْ يُوزَنُ بِعَقْلَانِكُمْ الْيَوْمَ .

وقال الجاحظُ : ما ترك الناسُ شعرا مجهولَ القائلِ قيلَ في لَيْلَى إلا نَسَبوه إلى الجنونِ ،
ولا شعرا هذه سبيلُه قيلَ في لُبْنَى إلا نَسَبوه إلى قَبِيْسِ بْنِ دَرِيحٍ .

قال أبو الفرج : وأنا أذكركم ما وقع إلى من أخباره جُملاً مستحسنةً ، مُتَبَرِّئاً من العُهدة
فيها ، فإن أكثر أشعاره المذكورة في أخباره يَنَسِبُهَا بَعْضُ الرُّوَاةِ إلى غيره وينسبها من
حُكِيَتْ عنه إليه ، وإذا قَدِّمْتُ هذه الشريطةَ برئتُ من عيبِ طاعنٍ ومنتجعٍ للعيوب .

أخبرني بجزءه في شَغَفِهِ بِلَيْلَى جَمَاعَةٌ مِنَ الرُّوَاةِ ، ونسختُ ما لم أسمعهُ من الروايات
وجمعتُ ذلك في سِياقَةِ خبره ما اتَّسَقَ ولم يَخْتَلِفْ ، فاذا اختلفَ نَسَبْتُ كُلَّ رِوَايَةٍ
إلى رَاوِيهَا .

فمن أخبرني بجزءه أحمد بن عبد العزيز الجوهريّ وحبيب بن نصر المهلبيّ ، قالوا :
حدَّثنا عمر بن شُبَّة عن رجاله وإبراهيم بن أيُّوب عن ابنِ قُتَيْبَةَ ، ونسختُ أخبارَهُ من
روايةِ خالد بن كُلثُوم وأبي عمرو الشَّيبانيّ وأبنِ دُأبٍ وهشام بن محمد الكلبيّ وإسحاق بن
الخصَّاص وغيرهم من الرُّوَاةِ .

(١) الامتراء : الاستدرار . (٢) بينها هنا معناه وصلها لأنه من أسماء الأضداد ، يطلق على الوصل والعراق .

قال أبو عمرو الشيباني وأبو عبيدة : كان المجنون يهوى ليلي بنت مهدي بن سعد بن مهدي بن ربيعة بن الحريش بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة وتكنى أم مالك ، وهما حينئذ صبيان ، فعلق كل واحد منهما صاحبه وهما يرعيان مواشى أهلها ، فلم يزالا كذلك حتى كبرا فحجبت عنه ، قال : وبدل على ذلك قوله :

تعلقت ليلي وهي ذات ذؤابة^(١) * ولم يبد للأتراب من ثديها حمم
صغيرين زعى البهم ياليت أننا * إلى اليوم لم تكبر ولم تكبر البهم

وقال ابن الكلبي : كان سبب عشق المجنون ليلي ، أنه أقبل ذات يوم على ناقة له كريمة وعليه حلتان من حلال الملوك ، فتر بأمرأة من قومه يقال لها : كريمة ، وعندها جماعة نسوة يتحدثن ، فيهن ليلي ، فأعجبتهن جماله وكأله ، فدعوته الى النزول والحديث ، فنزل وجعل يحدثهن وأمر عبداً له كان معه فققرهن ناقته ، وظل يحدثهن بقية يومه ، فينها هو كذلك ، إذ طلع عليهم فتى عليه بردة من برد الأعراب يقال له : "منازل" يسوق معزى له ، فلما رأينه أقبلن عليه وتركن المجنون ، فغضب وخرج من عندهن وأنشأ يقول :

أعقر من جرا كريمة ناقتي * ووصل مفروش لوصول منازل
إذا جاء قعقن الحلي ولم أكن * إذا جئت أرضى صوت تلك الخلاجل
متى ما انتصنا بالسهم نصلته * وإن زيم رشقا عندها فهو ناضلي^(٢)

قال : فلما أصبح ليس حلتته وركب ناقة له أخرى ومضى متعرضاً لهن ، فألقى ليلي قاعدةً بفناء بيتها وقد علق حبه بقلبا وهويته ، وعندها جو يريات يتحدثن معها ، فوقف بهن وسلم ، فدعوته إلى النزول وقلن له : هل لك في محادثة من لا يسغله عنك منازل ولا غيره؟ فقال :

(١) الذؤابة : شعر الناصية .

(٢) أى من أجل ، يقال : فعلت ذلك من جزاك أى من أجلك وما أنشد على هذا :

أمن جراً بنى أسد عضبتهم * ولو شتمتكم لكان لكم جوار

(٣) أى ترامينا بالسهم ، ونصلته : عابته . (٤) الرشق : رى أهل الضال ما معهم من السهام

إلى لعمري، فترل وفعل مثل ما فعله بالأمس، فأرادت أن تعلم، هل لها عنده مثل ما له عندها، فجعلت تعرض عن حديثه ساعة بعد ساعة وتحدث غيره، وقد كان عليّ بقلبه مثل حبها إياه وشغفته وأستلحها، فينا هي تُحدثه، إذ أقبل فتى من الحى فدعته وسأزته سرارا طويلا، ثم قالت له: انصرف، ونظرت إلى وجه المجنون قد تغير وأنتقع لونه وشق عليه فعلها، فأنشأت تقول:

كلانا مظهر للناس بغضا * وكل عند صاحبه مكيّن
تبلغنا العيون بما أردنا * وفي القليلن ثم هوى دفين

فلما سمع البيتين شفق شهقة شديدة وأغمى عليه، فكث على ذلك ساعة، ونضحوا الماء على وجهه حتى أفاق وتمكن حب كل واحد منهما في قلب صاحبه حتى بلغ منه كل مبلغ.

وعن أبي الهيثم العقيلي قال: لما شہر أمر المجنون ليل وتناشد الناس شعره فيها، خطبها وبذل لها خمسين ناقة حمراء، وخطبها ورد بن محمد العقيلي وبذل لها عشرة من الإبل وراعيها، فقال أهلها: نحن خيرها بينكما، فین اختارت تزوجته، ودخلوا إليها فقالوا: والله لئن لم تختارى وردا لئمتن بك، فقال المجنون:

ألا يا ليل إن ملكت فينا * خيارك فانظري لمن الخيار
ولا تستبدلي منى دنيا * ولا برما إذا حث القطار^(١)
يهرول في الصغير إذا رآه * وتجزه ملات كبار
فشل تأيم منه نكاح * ومثل تموي منه أفقار

فاختارت وردا فتروجته على كره منها.

وقال:

أياويج من أمسى تحلس^(٣) عقله * فأصبح مذهوبا به كل مذهب
خليا من الحلان إلا معدرا^(٤) * يضا حكني من كان يسوى تجني

(١) البرم: التقييل. (٢) القطار: ريح اللحم المشوى. (٣) تحلس: سلب.
(٤) هو المقصر الذى لا عذرله ولكنه يتكلف العذر، ومنه قوله تعالى: (وحاء المعدرون من الأعراب ليؤذن لهم).

إذا ذُكرت لي عقلتُ وراجعتُ * روائح عقلي من هوى مُتَسَّعِبِ
وقالوا صحيحٌ ما به طيفُ جنّةٍ * ولا لهم إلا بافتراء التكلّفِ
وشاهدُ وجدى دمعُ عيني وحُبها * برى اللعم عن أحناءٍ عظمى ومنكبي^(٢)
نجبتَ ليلى أن يلعج بك الهوى * وهياتَ كان الحبُّ قبل التجنّبِ
ألا إيما غادرتِ يا أم مالكٍ * صدّى أينما تذهبُ به الريحُ يذهبُ^(٣)
فلم أر ليلَ بعد موقِفِ ساعةٍ * بخيفَ مني ترمي جمارَ المحصّبِ
ويدي الحصى منها إذا قذفتُ به * من البُردِ أطرافَ البنانِ المُخضّبِ
فأصبحتُ من ليلِ الغداةِ ككاظيرٍ * مع الصبحِ في أعقابِ نجمٍ مُغربٍ

قال أبو الفرج : أنشدني الأَخْفَشُ عن أبي سعيد السُّكْرَى عن محمد بن حبيب

للجنون :

فوالله ثم الله إني لدائبٌ * أفكر ما ذنبي إليها وأعجبُ
ووالله ما أدري علامَ قتلتني * وأىِّ أموري فيك ياليلَ أركبُ
أأقطعُ جبلَ الوصلِ فالموتُ دونه * أم أشربُ رنقا منكم ليس يُسربُ
أم أهربُ حتى لا أرى لي مجاورا * أم أصنعُ ماذا أم أبوح فأغلبُ
فأيهما ياليلَ ما ترتضينه * فإني لمظالمٌ وإني لمعتبُ

وقال :

عَرَضْتُ على قلبِي العزَاءَ فقال لي * من الآنَ فإيا س لا أعزك من صبرِ
إذا بان من تهوى وأصبح نائياً * فلا شيءَ أجدى من حلُولِكَ في القبرِ

(١) الروائع : جمع رائحة ، أى مرئعة . (٢) الأحناء : جمع حنو وهو كل شيء ، فيه أعوجاج كهظم

الجماج (العظم الذى ينبت عليه الحاجب) واللمى والصلع . (٣) الصدى : الجسد من الآدمى بعد موته ،
ويطلق على الرجل النحيف الجسد ، كما أنه يطلق على الصوت الذى يسمعه المصوت عقب صياحه راجعا إليه من

بحو الجبل والبناء المرتفع .

وداع دعا إذ نحن بالخيف من منى * فهيج أطراب الفؤاد وما يدري
 دعا باسم ليلى غيرها فكأثما * أطار بللى طائرا كان فى صدرى
 دعا باسم ليلى ضلل الله سعيه * وليلى بأرض عنه نازحة فقر

وقال :

أيا جبلى نمان بالله خليا * سبيل الصبا يخلص إلى تسميها
 أجد بردها أو تشفى منى حرارة * على كعبد لم يبق إلا صميمها^(٢)
 فات الصبا ريح إذا ما تنسمت * على نفس محزون تجلت همومها

وقال :

أيا حرجات الحى حيث تجلوا * بذي سلم لا جادكن ربيع^(٤)
 وخيامك اللاتى بمنعرج اللوى * بيلن بلى لم تبهن ربوع
 ندمت على ما كان منى ندامة * كما يندم المغبون حين يبع^(٦)
 فقدت من نفس شعاع فإتنى * نهيتك عن هذا وأنت جميع^(٥)
 فقربت لى غير القريب وأشرفت * إليك ثنايا ما لهن طلوع^(٧)

وله :

يا صاحبي أيا بى بمنزلة * قد مر حين عليها أيما حين
 إني أرى رجعات الحب تقتلنى * وكان فى بدنها ما كان يكفينى^(٩)
 لا خير فى الحب ليست فيه قارعة * كأت صاحبها فى نزع موتون

- (١) الأطراب : جمع طرب وهو خفة تعترى الشخص من شدة الفرح أو الحزن . (٢) صميمها : أصلها .
 (٣) الحرجات : جمع حرجة وهى الغصية ، وسميت بذلك لصيقها ، وقيل : الشجر الملتف ، وهى أيضا الشجرة
 تكون بين الأشجار لا تصل إليها الآكلة وهى ما رعى من المال . (٤) ذو سلم : موضع بالحجاز .
 (٥) يقال : نفس شعاع اذا انتشرايا فلم تنجحه لأمر جرم . (٦) الجميع : ضد المتفرق .
 (٧) أشرفت : ظهرت وأرتفعت . (٨) الثنايا : جمع ثنية وهى الطريقة فى الجبل ، وقيل : هى العقبة ،
 وقيل : هى الطريق العالى فيه ، يريد أن الوصول الى ليلى صعب لا يستطيعه . (٩) الموتون : المصروب على
 الوتين ، وهو عرق معلق بباط القلب .

إِنْ قَالَ عَدَاؤُهُ مَهْلًا فَلَانَ لَهُمْ * قَالَ الْهَوَىٰ غَيْرَ هَذَا الْقَوْلِ يَعْنِينِي
أَلْتَقَىٰ مِنَ الْيَأْسِ تَارَاتٍ فَتَقْتُلُنِي * وَلِلرَّجَاءِ بَشَاشَاتٌ فَتُحْيِينِي

وله

أُمْسُقِي نَفْحَ الصَّبَا ثُمَّ شَائِقِي * يَبْرِدُ ثَنَائِيَا أُمَّ حَسَّانَ شَائِقِي
كَأَنَّ عَلَىٰ أَنْبِيَائِهَا انْخِرَ شَجُّهَا ^(١) * بماء الندى من آخر الليل عَاتِقِي ^(٢)
وَمَا شِئْتُهُ إِلَّا بَعِينِي تَفْرَسًا * كَمَا شِيمَ فِي أَعْلَى السَّحَابَةِ بَارِقُ

وروى الأصمعي له قوله :

أَخَذْتُ مُحَاسِنَ كُلِّ مَا * صَدَّتْ مُحَاسِنُهُ بِحُسْنِهِ
كَادَ الْغَزَالُ يَكُونُهَا * لَوْلَا الشَّوَىٰ وَنُسُورُ قَرْنِهِ

قال : وهو القائل :

وَلَمْ أَرَ لَيْلِي بَعْدَ مَوْقِفِ سَاعَةٍ * بِحَيْفٍ مِّنِّي تَرْمِي جِمَارَ الْمُحْصَبِ
وَيُدِي الْأَحْصَىٰ مِنْهَا إِذَا قَدَّفَتْ بِهِ * مِنَ الْبُرْدِ أَطْرَافَ الْبَنَانِ الْمُخْضَبِ
فَأَصْبَحْتُ مِنْ لَيْلِ الْعَدَاةِ نَاطِرٍ * مَعَ الصَّبْحِ فِي أَعْقَابِ نَجْمٍ مُّغْرَبِ
أَلَا إِنَّمَا غَادَرْتِ يَا أُمَّ مَالِكٍ * صَدَىٰ أَيْمَانًا تَذْهَبُ بِهِ الرِّيحُ يَذْهَبِ

وقال :

يَقُولُ أَنَا سٌ عَلَّ مَجْنُونٍ عَامِرٍ * يَرُومُ سُكُلُوا قَلْتُ أُنِّي لِمَا يَبَا
وَقَدْ لَامَنِي فِي حُبِّ لَيْلِي أَقَارِبِي * أَخِي وَأَبْنُ عَمِّي وَأَبْنُ خَالِي وَخَالِيَا
يَقُولُونَ لَيْلِي أَهْلُ بَيْتِ عَدَاوَةٍ * بِنَفْسِي لَيْلِي مِنَ عَدُوٍّ وَمَالِيَا
وَلَوْ كَانَ فِي لَيْلِي شَدًّا مِنْ خِصْمَةٍ * لَلَّوَيْتُ أَعْنَاقَ الْمَطِيِّ الْمَلَاوِيَا ^(٣)

(١) شجها : مزجها . (٢) العاتق : البكر التي لم تبن عن أهلها ، والظاهر أنها ليست مرادة

هنا وأن كلمة «عاتق» محذوفة عن «عابق» وهو الساق في العبوق أى العشى .

(٣) الملاوى : جمع ملوى وهو مصدر ميمى من لوى بمعنى خلف .

وقال :

ألا ما لليلَى لا تُرى عند مَضَجِي * بليلى ولا يَحْرِى بذلك طائرُ
 بَلَى إِنَّ عَجْمَ الطيرِ تَجْرِي إِذَا جَرَتْ * بليلى ولكن ليس للطير زاجرُ
 أزالَتْ عن العهد الذى كان بيننا * بذى الأثيل أم قد غيرتْها المقادرُ
 فوالله ما فى القرب لى منك راحةٌ * ولا البعدُ يُسَلِّنى ولا أنا حابرُ
 ووالله ما أدرى بأية حيلةٍ * وأى مَرَامٍ أو خِطَارٍ أخطُرُ^(١)
 وتالله إنَّ الدهرَ فى ذاتِ بيننا * على لها فى كلِّ حا بلجائرُ
 فلو كنت إذ أزمعتِ هجرى تركتِنى * جميع^(٢) القوى والعقلُ منى وافرُ
 ولكنَّ أباى يحْقِلُ عُنِيْزَةً * وبالرَّضْمِ أيامُ جناها التجاورُ^(٣)
 وقد أصبح الودُّ الذى كان بيننا * أمانى نفسٍ والمؤملُ حائرُ
 لعمري لقد رنقتِ يا أم مالك * حياتى وساقَتِنى إليك المقادرُ^(٤)

وقال :

يا للرجالِ لهمَّ باتِ يعرونى * مُستطْرِفٍ وقديم كان يعينى
 على غريمِ مليء غيرِ ذى عدمٍ * أبى فيمطئنى دينى ويلوينى^(٧)
 لا يذكرُ البعض من دينى فينكره * ولا يُحدِّثنى أن سوف يقضينى
 وما كَشْكْرِى شُكْرُ لو يُوافِقُنِي * ولا منى كَمَنَاهُ إذ يمينى

(١) الخطار : مصدر من خاطر بمعنى راهن .

- (٢) جميع : مجتمع . (٣) الحقل : المزرعة و يطلق على الموضع البكر الذى لم يزرع فيه قط .
 وعنيزة : موضع بين البصرة ومكة . والرَّضْم : موضع على ستة أميال من زُبالة ، وزبالة : منزل معروف بطريق مكة من الكوفة . (٤) رنقت : كدرت ، والترنيق كما يطلق على التكدير يطلق على ضده الذى هو التصفية .
 (٥) مليء بالهمز أى ثقته غنى . قال صاحب اللسان : وقد أولع فيه الناس بترك الهمز وتشديد الياء .
 (٦) عدم أى فقرو مثله عدم بضم العين وسكون الدال . قال صاحب اللسان : اذا ضمنت أوله خففت فقلت :
 العدم واذا فححت أوله ثقلت فقلت : العدم . (٧) يلوينى : يملطنى ، يقال : لواه دينه وبدينه : مطله .

أطعته وَعَصَيْتُ النَّاسَ كُلَّهُمْ * في أمره ثم يَأْتِي فهو يَعِصِبُنِي
 حَيْرِي لمن يَتَّبِعِي خَيْرِي وَيَأْمُلُهُ * من دون شَرِي وشَرِي غير مَأْمُون
 وما أَشَارِكُ في رَأْيِي أَخَا ضَعِيفٍ ^(١) * ولا أَقُولُ أَحْيَ مَنْ لا يُؤَاتِينِي ^(٢)

وله :

ألا أَيُّهَا الْبَيْتُ الَّذِي لا أَزُورُهُ * وإن حَلَهُ شَخْصٌ إلى حَيْبُ
 هَمْرُكَ إِسْفَاقًا وَزَرْتُكَ خَائِفًا * وفِيكَ عَلَيَّ الدَّهْرَ مِنْكَ رَقِيبُ
 سَأَسْتَعِيبُ الْأَيَّامَ فِيكَ لَعْلَهَا * بيومٍ سُورِي في الزَّمانِ تَوْبُ

وبلغ المجنون أن أهل ليلى يريدون نقلها إلى التَّقْفِيّ فقال :

كَأَنَّ الْقَلْبَ لَيْلَةً قِيلَ يُغْدَى * بِلَيْلَى الْعَامِرِيَّةِ أَوْ يُرَاحُ
 قَطَاةٌ عَزَّهَا شَرَكُ فَبَاتَتْ * مُجَاذِبُهُ وَقَدْ عَلِقَ الْجَنَاحُ

فلما نَقَلتْ لَيْلَى إلى التَّقْفِيّ قال :

طَرِبْتُ وَشَاقَتَكَ الْحَمُولُ ^(٣) الدَّوْفَعُ * غَدَاةٌ دَعَا بِالْبَيْنِ أَسْفَعُ نَازِعُ ^(٤)
 شَعًا فَاهُ نَعْبًا بِالْفِرَاقِ كَأَنَّهُ * حَرِيبٌ سَلِيبٌ ^(٥) نَازِحُ الدَّارِ جَازِعُ ^(٦)
 فَقُلْتُ أَلَا قَدْ بَيْنَ الْأَمْرِ فَانصَرِفْ * فَقَدْ رَاعَنَا بِالْبَيْنِ قَبْلَكَ رَائِعُ ^(٧)
 سَقِيتَ سُمُومًا مِنْ غَرَابٍ فَإِنِّي * تَبَيَّنْتُ مَا خَبَّرْتَ مَدَّأَنْتَ وَاقِعُ ^(٨)

(١) الضعف هكذا بالتحريك : لعة في الضعف بالفتح والسكون . ويستعمل في ضعف الرأي والعقل ،

وأشدد عليه ابن الأعرابي هذا البيت . ويستعمل في ضعف الجسم وأشدد عليه :

ومن يلق خيرا يغمز الدهر عظمه * على ضعف من حاله وفتور

(٢) يواتيني : يساعدي .

(٣) الحمول في الأصل : الهوارج واحدها حل ثم اتسع فيها وصارت تستعمل في الإبل التي عليها الهوارج .

والدوافع : المندفعة في السير . (٤) كذا في أغلب النسخ وتزيين الأسواق . وفي ب ، س :

« أسمح » والأسفع والأسمم معناهما واحد وهو الأسود . والنازع : المرع . والمراد بالأسفع النازع « الغراب » .

(٥) شحافاه يشحوه ويشحاه : فتحه . (٦) نعبا : صياحا وتصويتا . (٧) الحريب : من

سلب حريته وهي ماله الذي يقوم به أمره . (٨) بين بمعنى تبين ، ومنه المثل : « قد بين الصبح لذي عينين » .

أَلَمْ تَرَ أَنِّي لَأُحِبُّ أَلْوَمَهُ * وَلَا يَسْدِيلُ بَعْدَهُمْ أَنَا قَانِعٌ
 أَلَمْ تَرِدَارَ الْحَيِّ فِي رَوْنِقِ الضَّحَى * بِحَيْثُ أَنْخَسْتُ لِلهَضْبَتَيْنِ الْأَجَارِعُ
 وَقَدْ يَتَنَاهَى الْإِلْفُ مِنْ بَعْدِ أُلْفَةٍ * وَيَصْدَعُ مَا بَيْنَ الْخَلِيطَيْنِ صَادِعُ
 وَكَمْ مِنْ هَوَى أَوْ جِرِيَةٍ قَدْ أَلْفَتَهُمْ * زَمَانًا فَلَمْ يَمْنَعَهُمُ الْبَيْنَ مَانِعُ
 كَأَنِّي غَدَاةَ الْبَيْنِ مَيِّتٌ جَوِيَةٌ * أَخَوْظِمًا سُدَّتْ عَلَيْهِ الْمَشَارِعُ
 تَخْلَسُ مِنْ أَوْشَالٍ مَاءٍ صَبَابَةٍ * فَلَا الشَّرْبُ مَبْدُولٌ وَلَا هُوَ نَاقِعُ
 وَبِيضٌ تَطَلَّى بِالْعَيْسِيرِ كَأَنَّهَا * نِعَاجُ الْمَلَا جِيئَتْ عَلَيْهَا الْبَرَاقِعُ
 تَحْمَلُنَّ مِنْ وَادِي الْأَرَاكِ فَأَوْمَضَتْ * لَهْنٌ بِأَطْرَافِ الْعَيُونِ الْمَدَامِعُ
 فَمَارِمَنْ رِيحَ الدَّارِ حَتَّى تَشَابَهَتْ * هَجَائِثُهَا وَالجُونُ مِنْهَا الْخَوَاضِعُ
 وَحَتَّى حَمَلَنَّ الحُورُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ * وَخَاضَتْ سَدُولَ الرَّقْمِ مِنْهَا الْأَكَارِعُ

(١) الهضبتان : منى هضبة وهى الرابية أو الجبل المنبسط على الأرض أو الجبل المخلوق من صخرة واحدة ، والأجارع : جمع أجرع ، والأجرع كالجرعاء : الأرض ذات الخزونة تشا كل الرمل أو الرملة السهلة المستوية أو القطعة من الرمل لا تثبت شيئاً (انظر اللسان فى مادتي هضب وجرع) . (٢) الهوى بمعنى المهوى وهو المحبوب ، ومنه قول الشاعر :

هَوَايَ مَعَ الرِّكَبِ الْإِيمَانُ مُصِيدٌ * جَنِيْبٌ وَجُهَانِي بِمَكَّةَ مُوْتِقٌ

(٣) الجسوبة : فضاء أملس سهل بين أرضين . (٤) تخلس الشيء : اتبته وأخذته خلسة . (٥) الأوشال : جمع وشل وهو الماء القليل . والصبابة : بقية الماء تبقى فى الأناة والسقاء . (٦) هو من تقع بمعنى روى . (٧) الملا : الصحراء . (٨) أى قطعت . (٩) هو واد قرب مكة . (١٠) معناه ما برحن . يقال : مارام المكان أى ما برحه . (١١) الهجائن : الأبل البيضاء الكريمة واحدها هجان . والجون : جمع جون بفتح الجيم وهو الأسود المشرب بجمرة ، ويطلق على الأسود اليعمومى وعلى الأبيض فهو من أسماء الأضداد . (١٢) الخواضع : الأبل وإنما يقال لها خواضع لأنها تخضع أعناقها حين يجدها السير ، قال جرير :

وَلَقَدْ ذَكَرْتُكَ وَالْمَطَىٰ خَوَاضِعٌ * وَكَأَنَّهِنَّ قَطَا فَلَآءَ مَجْهَلٍ

(١٣) الحور : جمع حوراء وهى البيضاء أو من فى عينها حور وهو شدة سواد المقلة فى شدة بياضها . (١٤) السدول : جمع سديل وهو ما يجمل به الهودج من الثياب . (١٥) الأكارع : جمع أكرع والأكرع جمع كراع ، أو الأكارع كما يقول سيبويه جمع كراع على غير قياس . والكراع من الإنسان : مادون الركة الى الكعب ، ومن الدابة قوامها مطلقا .

فَلَمَّا آسَتَوْتْ تَحْتَ الْخُدُورِ وَقَدْ جَرَى * غَسِيرٌ وَمَسْكٌ بِالْعَرَائِينِ رَادِعٌ^(١)
 أَشِيرٌ بَانَ جُثُوا الْجَمَالَ فَقَدْ بَدَا * مِنَ الصَّيْفِ يَوْمَ لَأَغُ الْحَرَّ مَاتِعٌ^(٢)
 فَلَمَّا لَحِقْنَا بِالْحُجُولِ تَبَاشَرْتُ * بِنَا مَقْصِرَاتٍ غَابَ عَنْهَا الْمَطَائِعُ^(٣)
 يُعْرِضُ بِالذَّلِّ الْمَلِيحِ وَإِن يَرُدُّ * جَنَاهُنَّ مَشْغُوفٌ فَهِنَّ مَوَانِعُ
 فَقُلْتُ لِأَصْحَابِي وَدَمِيعِي مُسْبِلٌ * وَقَدْ صَدَعَ الشَّمْلَ الْمَشْتَتَّ صَادِعُ
 أَلَيْلِي بِأَبْوَابِ الْخُدُورِ تَعَرَّضْتُ * لِعَيْنِي أَمْ قَرْنٌ مِنَ الشَّمْسِ طَالِعُ

وروى أن أبا المنجون حجَّ به ليدعو الله عزَّ وجلَّ في الموقف أن يُعافيه، فسار ومعه ابنُ

عمه زياد بن كعب بن مُزَاحِم، فمَرَّ بِحَمَامَةٍ تَدْعُو عَلَى أَيَّكَةٍ فَوْقَ يَبْكِي، فَسَالَ لَهُ زِيَادُ:
 أَيُّ شَيْءٍ هَذَا؟ مَا يُبْكِيكَ أَيْضًا؟ سَرَبْنَا نَلْحِقَ الرَّقِيقَةَ، فَقَالَ:

أَلَنْ هَتَفْتُ يَوْمًا بِوَادٍ حَمَامَةٌ * بَكَيْتَ وَلَمْ يَعْنِدَكَ بِالْجَهْلِ عَازِرُ
 دَعَتْ سَاقَ حَرٍّ بَعْدَ مَا عَلَتِ الضُّحَى * فَهَاجَ لَكَ الْأَحْزَانُ أَنْ نَاحَ طَائِرُ^(٥)
 تَغْفَى الضُّحَى وَالصَّبْحَ فِي مَرْمِجَةٍ * كُتُفِ الْأَعَالِي تَحْتَهَا الْمَاءُ حَائِرُ^(٦)
 كَانَ لَمْ يَكُنْ بِالغَيْلِ أَوْ بَطْنِ أَيَّكَةٍ * أَوْ الْجَزْعِ مِنْ تَوَلَّى الْأَشَاءِ حَاضِرُ^(٧)
^(٨) ^(٩) ^(١٠) ^(١١)

(١) المراد بالرادع هنا المردوع به الجسد أو الثوب وهو العير والمسك . وأصل الردع الطلخ بالطيب والعفران، يقال : قبض رادع ومردوع أى فيه أثر الطيب والعفران . وفي حديث ابن عباس رضى الله عنهما : « لم ينه عن شيء من الأدوية الا عن المزعفرة التي تردع الجلد » أى تفرض صبغها عليه . (٢) الماتع : الطويل . (٣) مقصرات : جمع مقصرة أى داحلة فى القصر وهو العشي ، يقال : آتته قصرًا أى عشيًا ، وأقصرنا أى دخلنا فى قصر العشي ، كما تقول أمسينا من المساء من أعصرتِ الجارية إذا بلغت عصر شبابها ، أو من أعصرت أى دخلت فى العصر (انظر لسان العرب مادة قصر) .

(٤) تدعو : تصوت وتنوح . (٥) ساق حرّ : أصله صوت القمارى ويطلق على الذكر من القمارى تسمية له باسم صوته وهو المراد هنا (انظر لسان مادق سوق وحرّ) . (٦) المرمجة : المهترئة المتأيلة . (٧) حائر : متردد . (٨) العيل : اسم لعدة مواضع والظاهر أنّ المراد هنا واد لبنى جعدة وهم قوم المنجون . (٩) الأيكة : الغيضة الملتفة الأشجار ولم نجد فى الكتب التى بأيدينا « أيكة » ولا « بطن أيكة » اسما لموضع خاص كما هو المناسب للسياق . (١٠) الجزع : معطف الوادى ولعله هنا اسم لموضع خاص وقد يكون جزع بنى ججاز وهو واد باليامة . (١١) الأشاءة : موضع باليامة فيه نخيل . ولعل كلمة « تول » محذوفة عن « تال » والتال : صغار النخل واحده تالة .

يقول زيادٌ إذ رأى الحمى هَجَرُوا^(١) * أَرَى الحمى قد ساروا فهل أنت سائرٌ
وإني وإن غَالُ التَّقَادُمُ حاجتي * مُلِمٌّ على أوطان لَيْسَى فَنَاطِرُ^(٢)

كان المجنونُ وليلى وهما صبيانِ يرعيانِ غنما لأهلها عند جبلٍ في بلادهما يقال له التوباد، فلما ذهب عقله وتوحش، كان يبيء إلى ذلك الجبلِ فيقيمُ به، فإذا تذكَّر أيامَ كان يُطيفُ هو ووليلى به جَزَع جَزَعاً شديداً وأستوحش فهام على وجهه حتى يأتي نواحي الشام، فإذا تاب إليه عقله رأى بلداً لا يعرفه فيقول للناس الذين يلقاهم : أبى أتم، أين التوباد من أرض بنى عامر؟ فيقال له : وأين أنت من أرض بنى عامر ! أنت بالشام عليك بنجم كذا فأتمه، فيمضى على وجهه نحو ذلك النجم حتى يقع بأرض اليمن، فيرى بلداً يُنكرها وقوماً لا يعرفهم فيسألهم عن التوباد وأرض بنى عامر، فيقولون : وأين أنت من أرض بنى عامر ! عليك بنجم كذا وكذا، فلا يزال كذلك حتى يقع على التوباد، فإذا رآه قال في ذلك :

وأجهشتُ للتوباد حين رأيتُه * وكَبَّرَ للرحمن حين رآني
وأذريتُ دمعَ العين لما عرفته * ونادى بأعلى صوته فدعاني
فقلتُ له قد كان حولك جيرةً * وعهدى بذلك الصَّرم منذ زمانٍ
فقال مَضُوا وأستودعوني بلادهم * ومن ذا الذي يبقى على الحدَّانِ
وإني لأبكي اليومَ من حَدرى غداً * فِرَاقَكَ والحَيَّانِ مُجْتَمِعَانِ
سَبَّالًا وَتَهْتَانًا وَوَبَلًا وَدِيمَةً * وَسَعًا وَتَسْجَامًا إلى هَمَلَانِ^(٣)

- (١) هجروا : ساروا في وقت الهجرة . (٢) عال الشيء : ذهب به . (٣) التوباد (بالدال المهملة) وهو الموافق لما في معجم ما أستعجم للبكري إذ قال في ضبطه : هو بفتح أوله وباء معجمة يواحدة ودال مهملة وأنشد عليه : * وأجهشت للتوباد حين رأيتُه * البيت .
وضبطه ياقوت بالدال المعجمة فقال في معجمه : « توباد » بالفتح ثم السكون والباء موحدة وآخره ذال معجمة : جبل بنجد . (٤) أجهشت : تهيأت للبكاء . (٥) يقال : هنت السماء تهتن هتنا وتهتنا أى صبت . (٦) يقال : سمجت السحابة مطرها تسجما وتسجاما إذا صبت . (٧) الهملان : فيض العين بالدموع .

وكان المجنون يسير مع أصحابه فسمع صائحاً يصيح : يا ليلي في ليلته ظلماء أو توهم ذلك ، فقال لبعض من معه : أما تسمع هذا الصوت ؟ فقال : ما سمعت شيئاً ، قال : بلى ، والله هاتف يهتف بليلى ، ثم أنشأ يقول :

أقول لأذنى صاحبي كليمَةً * أسرت من الأنصى أجب ذ المناديا
إذا سرت في الأرض الفضا رأيتني * أصانع رحر^(١) أن يميل حبالبا
يميناً إذا كانت يميناً وإن تكن * شمالاً ينازعي الهوى عن شمالياً

خطب ليلي صاحبة المجنون جماعة من قومها فكبرتهم ، فخطبها رجلٌ من قيف مؤسرٍ فرضيته ، وكان جميلاً فتزوجها وخرج بها ، فقال المجنون في ذلك :

ألا إن ليلي كالمنيحة أصبحت * تقطع إلا من قيف حبالها^(٢)
فقد حبسوها بحبس البدن وأبتغي * بها الريح أقوام ساحت ماها^(٣)
خيلتي هل من حيلة تعلمانها * يدني لنا تكليم ليلي آحتيالها
فإن أنما لم تعلمانها فلستما * بأوب باغ حاجة لا ينالها
كأت مع الركب الذين آغتلوا بها * غمامة صيف زعزعتها شمالها
نظرت بمفضي سبيل جوشن إذ عدوا * تحب بأطراف المحارم^(٤) آها
بشافية الأخران هيج شوقها * مجامعة الألاف ثم زبالها
إذا آلفتت من خلفها وهي آعتلى * بها العيس جلي آبرة العين آالها

(١) الرجل : ما يوضع على البعير للركوب ثم يعبر به عن البعير .

(٢) المنيحة في الأصل : الشاة أو الناقة يعطيها صاحبها رجلاً يشرب لبنها ثم ردها إذا انقطع اللبن ، ثم كثر استعمالها في كل موهوب . (٣) يقال آحمت ماله : استأصله وأفسده ، ومال مسحوت ومسحت أي مذهب . وآحمت تجارته : خبثت وحرمت ، ولم نجد في كتب اللغة « ساحت » على وزن تفاعل من هذه المادة

(٤) لم نجد في بلاد العرب ما يسمى حوشن الا جبلا في غرغ حلب . (٥) المحارم (بالراء المهملة) :

جمع مخرم وهو الطريق في الحبل أو الرمل .

وله :

وَأَحْسِبُ عَنكَ النَّفْسَ وَالنَّفْسُ صَبَةٌ * بِذِكْرِكَ وَالْمَشَىٰ إِلَيْكَ قَرِيبٌ
مَخَافَةَ أَنْ تَسْعَى الْوُشَاةُ بَطْنِيَّةً * وَأَحْرُسُكُمْ أَنْ يَسْتَرِيَبَ مُرِيبٌ
فَقَدْ جَعَلْتُمْ نَفْسِي - وَأَنْتِ أَجْتَرِمْتِي * وَكُنْتِ أَعَزَّ النَّاسِ - غَنِكَ تَطِيبٌ
فَلَوْ شِئْتِ لَمْ أَغْضَبْ عَلَيْكَ وَلَمْ يَزَلْ * لَكَ الدَّهْرَ مَنَىٰ مَا حَيْثُ نَصِيبٌ
أَمَّا وَالَّذِي يَيْلُو السَّرَائِرَ كُلَّهَا * وَيَعْلَمُ مَا تُبْدِي بِهِ وَتَغِيبُ
لَقَدْ كُنْتِ مِمَّنْ تَصْطَفِي النَّفْسُ خُلَّةً * لَهَا دُونَ حُلَّانِ الصَّفَاءِ حُجُوبُ

٢ - قيس بن ذريح^(١)

من شعر قيس :

يَقُولُونَ لُبْنَى فَنَسْتَهُ كُنْتُ قَبْلَهَا * بِخَيْرٍ فَلَا تَسْدَمُ عَلَيْهَا وَطَلَّقَ
فَطَاوَعْتُ أَعْدَائِي وَعَاصَيْتُ نَاصِحِي * وَأَقْرَرْتُ عَيْنَ الشَّامِتِ الْمُتَخَلِّقِ
وَدِدْتُ وَبَيْتِ اللَّهِ أَنِي عَصَيْتُهُمْ * وَحَمَلْتُ فِي رِضْوَانِهَا كُلَّ مُؤَبِقِ
وَكُلَّفْتُ خَوْضَ الْبَحْرِ وَالْبَحْرُ زَانِحٌ * أَيْدِي عَلَى أَثْبَاجِ مَوْجٍ مَغْرُقِ

(١) هو قيس بن ذريح الكعبي من ليث بن بكر كان منزله بظاهر المدينة . مر لبعض حاجته بخيام بني كعب بن خزاعة فرأى لبني بنت الحباب الكعبية ، وكانت فتاة جميلة ، فعاقها ، فطلبها من أبيه فتعه بإياها لمكانه من الثروة ، وكان يريد أن يزوجه من بنات عمومه حتى يحفظ تراثه في أهله ، فطارب قيس وتقسمت نفسه وذهب ، فاستشفع بأخيه من الرصاع ، الحسين بن علي ، فوجد ما أحب وتروجها ومكثا زمنا ولم يعقبا ، وشغل قيسا حب لبني عن مواصلة أمه فاضطغنت على زوجها وسعت بها عند أبيه متخذة عدم الولد سلبا ترقى به الى شرها ، فطلب اليه أبوه أن يطلقها فأبى ، فزال به بالوعد والوعيد حتى أحابه الى طلبته ، وكان في ذلك القضاء الأخير على ما لقيس من حفظ وعقل في هذه الحياة ولم ينتفع بزواجه غيرها ، وطارت نفسه شعاعا وذهب على وجهه ينسم أخبار لبني ويمرغ خده في آثارها ، ويبقى طول حياته يساقط من فسه على شعره غير عابئ بشقا ، بدنه وإهدار دمه حتى لفظ النفس الأخير . وأخبار قيس كثيرة في الأغاني (ج ٨ ص ١١٢) والشعر والشعراء (ص ٣٩٩) وله ديوان مشروح ، ومنه نسخة في مكتبة الاسكوريال وبزهرها في برلين .

كأنى أرى الناس المحبين بعدها * عصارة ماء الحنظل المتفلق
فتنكر عيني بعدها كل منظر * ويكره سمى بعدها كل منظر

ونخرج قيس في فنية من قومه واعتل على أبيه بالصيد ، فأتى بلاد لبني ، فجعل يتوقع أن يراها أو يرى من يرسل إليها ، فأشغل الفتيان بالصيد ، فلما قضاوا وطّروهم منه رجعوا إليه وهو واقف ، فقالوا له : قد عرفنا ما أردت بإخراجنا معك وأنت لم ترد الصيد وإنما أردت لقاء لبني وقد تعدد عليك ، فانصرف الآن ؛ فقال :

وما حائمت حمن يوماً وليلة * على الماء يغشين العصى حوانى
عوانى لا يصدرن عنه لوجهة * ولا هن من برد الحياض دوانى
يرين حباب الماء والموت دونه * فهن لأصوات السقاة روانى
بأجهد منى حر شوق ولوعة * عليك ولكن العدو عدانى
خيلت إني ميت أو مكلم * لبني بسرى فامضيا وذرانى
أنل حاجتى وحدى ويأرب حاجة * قضيت على هول وخوف جنان
فإنى أحتق الناس ألا تحاوراً * وتطرحا من لوشاء شفانى
ومن قاذى للوت حتى اذا صفت * مشاربه السم الذفاف سقانى
فأقاموا معه حتى لقيها .

لما ألتح ذريح على ابنه قيس فى طلاق لبني فأبى ذلك قيس ، طرح ذريح نفسه فى الرمضاء وقال : لا والله لا أريم هذا الموضع حتى أموت أو يُجأئها ، بغاءه قومه من كل ناحية فعظموا عليه الأمر وذكروه بالله وقالوا : أتفعل هذا بأبيك وأمك ! إن مات شيخك على هذه الحال كنت مئينا عليه وشريكا فى قتله ، فقارق لبني على رغم أنه وقلة صبره وبكاء منه حتى بكى لها من حضرهما ؛ وأنشأ يقول :

أقول لخلتى فى غير حريم * ألا لبني ، بنفسى أنت ، بينى
فوالله العظم لزرع نفسى * وقطع الرجل منى واليمين

أحِبُّ إلىَّ يا بُنَيَّ فِرَاقًا * فَبَكِّيَ للفِراقِ وأَسعِدِني
ظَلَمَتِكَ بِالطَّلَاقِ بِغَيرِ جُرمٍ * فَقد أَذهَبَتِ آخِرَتِي وِدِني

قال : فلما سمعت بذلك لبني بكت بكاء شديدا ، وأنشأت تقول :

رَحَلْتُ إليه من بلدي وأهلي * بخازاني جزاءً الخائنين
فَمَنْ رَأَى فلا يَغْتَرَّ بعدي * بحلِّو القول أو يبَلِّو الدِّني

فلما آنقضت عدتها وأرادت الشخوص إلى أهلها أتيت براحة لتحمّل عليها ، فلما رأى ذلك قيسٌ داخله أمر عظيم وأشدت لهفه ، وأنشأ يقول :

بانَتْ لُبَني فانتَ اليومَ متبولٌ * وإنك اليومَ بعد الحزمِ مخبولٌ
فاصبحتُ عنك لبني اليومَ نازحةً * ودلُّ لبني - لها الخيراتُ - معسولٌ
هل تَرجِعنَّ نَوَى لبني بعاقبةٍ * كما عهدتُ ليالي العشقِ مقبولٌ
وقد أراني بلبني حقَّ مقتنعٍ * والشملُ مجتمعٌ والحبلُ موصولٌ
فصرتُ من حبِّ لبني حينَ أذكرها * القلبُ مرتهنٌ والعقلُ مدخولٌ
أصبحتُ من حبِّ لبني بل تذكراها * في كُربةٍ ففؤادى اليومَ مشغولٌ
والجسمُ مني منهوكٌ لفرقتها * يَريه طولُ سَقامٍ فهو منحولٌ
كأنني يومَ ولتٍ ما تكلمني * أخو هَيَّامٍ مصابُ القلبِ مسلولٌ
أستودعُ اللهَ لبني إذ تُفارقتي * عن غير طويحٍ وأمرُ الشيخِ مفعولٌ

ثم ارتحلت لبني ، فجعل قيس يقبل موضع رجلها من الأرض وحول خباثا ، فلما رأى ذلك قومه أقبلوا على أبيه بالعدل واللوم ، فقال ذريح لما رأى حاله تلك : قد جنيت عليك يا بُنَيَّ ؟ فقال له قيس : قد كنت أخبرك أني مجنون بها فلم ترض إلا بقتلي ، فالله حسبك وحسب أمي . وأقبل قومه يعدلوناه في تقبيل التراب ، فأنشأ يقول :

فما حُبِّي لِطِيبِ ترابِ أرضٍ * ولكن حبَّ من وطئِ التُّرابِ
فهذا فعلُ شِخِينا جميعاً * أرادوا لي البليَّةَ والعذابا

وله قصيدة طويلة في تطليقه لبيبي يقول فيها :

فَوَاكِدِي وَعَاوَدِي رُدَّاعِي * وَكَانَ رِاقُ لَبْنِي كَالْجَدَّاعِ ^(٢)
 تَكْتَفِنِي الْوَشَاةُ فَازْجُونِي * فَيَا لَلَّهِ لِلْوَأَشِي الْمَطَّاعِ
 فَأَصْبَحْتُ الْغَدَاةَ أَلُومُ نَفْسِي * عَلَى شَيْءٍ وَليْسَ بِمَسْتَطَاعِ
 كَمَغْبُوبٍ يَعْصُ عَلَى يَدِيهِ * تَبَيَّنَ غَبْنَهُ بَعْدَ الْبِيَاعِ
 بَدَارَ مَضِيْعَةٍ تَرَكَّكَ لُبْنِي * كَذَاكَ الْحَيْنُ يُهْدِي لِلْمَضَاعِ
 وَقَدْ عَشْنَا نَلْدَ الْعَيْشِ حِينًا * لَوْ أَنَّ الدَّهْرَ لِلْإِنْسَانِ وَاعِي
 وَلَكِنِّي الْجَمِيعَ إِلَى اقْتِرَاقِ * وَأَسْبَابِ الْخَوْفِ لَهَا دَوَاعِي

واجتمع إليه نسوة فأظنَّ الجلوسَ عنده وحادثته وهو ساهٍ عنهنَّ ، ثم نادى : يا لبيبي ،
 فقلن له : مالك ويحك ؟ فقال : خَدِرْتُ رجلى « ويقال : إن دعاء الانسان باسم أحبَّ
 الناس اليه يُذهب خَدَرَ الرجل ، فناديتها لذلك . وقال :

اِذَا خَدِرْتُ رَجْلِي تَذَكَّرْتُ مِنْهَا * فَنَادَيْتُ لُبْنِي بِاسْمِهَا وَدَعَوْتُ
 دَعْوَتِ التِّي لَوْ أَنَّ نَفْسِي تُطِيعُنِي * لِفَارِقَتِهَا مِنْ حَبِّهَا وَقَضَيْتُ
 بَرَّتْ نَبَلُهَا لِلصَّيْدِ لُبْنِي وَرَيْشَتْ * وَرَيْشَتْ أُخْرَى مِثْلَهَا وَبَرَيْتُ
 فَلَمَّا رَمَنِي أَفْصَدْتَنِي بِسَمِهَا * وَأَخْطَأْتُهَا بِالسَّمِّ حِينَ رَمَيْتُ
 وَفَارَقْتُ لُبْنِي ضَالَّةً فَكَأَنِّي * قَرُبْتُ إِلَى الْعَيُوقِ ثُمَّ هَوَيْتُ ^(٣)
 فَيَالَيْتَ أَنِّي مِتُّ قَبْلَ فِرَاقِهَا * وَهَلْ تَرَجِعُنُ فَوْتَ الْقَضِيَّةِ لَيْتُ
 فَصَرْتُ وَشِخْيَ كَالَّذِي عَثَرْتُ بِهِ * غَدَاةَ الْوَعْيِ بَيْنَ الْعُدَاةِ كَمَيْتُ
 فَقَامْتُ وَلَمْ تَضُرُّهُنَّ إِلَّا سَوِيَّةً * وَفَارَسُهَا تَحْتَ السَّنَابِكِ مَيْتُ
 فَانْ يَكْ تَهَامِي بُلْبُنِي غَوَايَةً * فَقَدْ يَا ذَرِيحُ بَنَ الْحَبَابِ غَوَيْتُ

(١) الرداع : الكس ، وهو رجوع المرض . (٢) الجداع : الموت . (٣) هو نجم أحمريضي

فلا أنت ما أملت في رأيتَه * ولا أنا لبني والحياة حويتُ
 فوطَّنْ هلكي منك نفسًا فإنني * كأنك بي قد يا ذريحُ قضيتُ
 ومرض قيسٌ ، فسأل أبوه قتيابَ الحَيِّ أن يعدنه ويحدثه أو يعلقَ بعضهن ، ففعلن
 ذلك ، ودخل إليه طبيب ليداويه والقَيَّات معه ، فلما اجتمعن عنده جعل يحدثه وأطنن
 السؤال عن سبب علته ، فقال :

تعلقُ رُوحِي وروحها قبل خلقنا * ومن بعد ما كنا نطافًا وفي المهدِ
 فزاد كما زدنا فأصبح ناميًا * وليس اذا متنا بمنصرِمِ العهدِ
 ولكنه باق على كلِّ حادثٍ * وزائرنا في ظلمة القبرِ واللحدِ

يقال له الطبيب : إن مما يسليك عنها أن تتذكر ما فيها من المساوى والمعائب ،
 فإن النفس تنبو حينئذ وتسلو ويخف ما بها .

فلما طال على قيس ما به أشار قومه على أبيه بأن يزوجه امرأة جميلة فاعله يسلوبها
 عن لبني ، فدعاه الى ذلك فأباه وقال :

لقد خفتُ ألا تقنعَ النفسُ بعدها * بشيء من الدنيا وإن كان بمقنعًا
 وأزجر عنها النفس اذ حيل دونها * وتأبى اليها النفسُ إلا تطلُّعًا

ولما تزوجت لبني بأخر أتي موضع خباثها فنزل عن راحته وجعل يتمك موضعها
 ويمترغ حده على ترابها ويبيكي أحرَّ بكاء ثم قال :

إلى الله أشكو فقد لبني كما شكَا * إلى الله فقد الوالدين يتيمُ
 يتيمٌ جفاه الأقربون جفسه * نحيلٌ وعهد الوالدين قديمُ
 بكت دارهم من نأيهم فتهلت * دموى فأى الجازعين ألومُ
 أمستعبر بيكي من الشوق والهوى * أم آخر يسكي شجوه ويهيمُ
 تهيضني من حبِّ لبني علائقُ * وأصنافُ حبِّ هوطنٍ عظيمُ

ومن يتعلق حبُّ لُبِّي فزأده * يمت أو يعيش ما عاش وهو كليم
 فإني وإن أجمعتُ عنك تجلدا * على العهد فيما بيننا لمقسيم
 وإن زمانا شئت الشمل بيننا * وبينكم فيه العدا لمشوم
 أف الحق هذا أن قلبك فارغ * صحيح وقلبي في هوائك سقيم

وقال في رحيل لُبِّي عن وطنها وأنتقالها الى زوجها بالمدينة وهو مقيم في حبيها :
 بانت لُبِّي فهاج القلب من بانا * وكان ما وعدت مطلا وليانا^(١)
 وأخلفتك متى قد كنت تأملها * فأصبح القلب بعد البين حيرانا
 الله يدرى وما يدرى به أحد * ماذا أجمجم من ذكراك أحيانا
 يأكل الناس من قرنٍ الى قديم * وأحسن الناس ذا ثوب وعربانا
 نعم الضجيع بعيد النوم تجايبه * اليك ممتلكا نوما ويقظانا
 لا بارك الله فيمن كان يحسبكم * إلا على العهد حتى كان ما كانا
 حتى أستفتت أخيرا بعد ما نكحت * فبت للشوق أذرى الدمع تهنانا
 إن تصرى الحبل أو تسمى مفارقة * فالدهر يُحدث للإنسان ألوانا
 وما أرى مثلكم في الناس من بشر * فقد رأيتُ به حيا ونسوانا

وشكا أبو لبني لمعاوية ترض قيس لابنته بعد طلاقها، فكتب معاوية الى الأمير
 يهدر دمه إن ألم بها، وأن يشتد في ذلك؛ فكتب مروان في ذلك الى صاحب الماء الذي
 ينزله أبو لبني كتابا وكيدا، ووجهت لبني رسولا الى قيس تعلمه ما جرى وتحدّره؛ وبلغ أباه
 الخبر، فعاتبه وتجهّمه، وقال له : انتهى بك الأمر الى أن يهدر السلطان دمك؛ فقال :
 فان يجبوها أو يحل دون وصلها * مقالة وإش أو وعيد أمير
 فلن يمنعوا عيني من دائم البكا * ولن يذهبوا ما قد أجن ضميري
 الى الله أشكو ما ألاق من الهوى * ومن حرق تعادني وزف

(١) اللبان : اللب والمطل ، قال أبو الهيثم : لم يجي من المصادر على فعال إلا لبان .

ومن حرقٍ للحبِّ في باطن الحشى * وليلٍ طويلٍ الحزنِ غيرِ قصيرِ
 سابكى على نفسى بعينِ غزيرةٍ * بكاءٍ حزينٍ في الوثاقِ أسيرِ
 وكنا جميعاً قبل أن يظهرَ الهوى * بأنعمِ حاتى غبطةٍ وسرورِ
 فما بريحِ الواشونِ حتى بدتْ لهم * بطونُ الهوى مقلوبةً لظهورِ
 لقد كنتِ حسبَ النفسِ لودامِ وصلنا * ولكننا الدنيا متاعٌ غرورِ
 وقال في إهدارِ معاوية دمه إن هو زارها :

إن تك لبنى قد أتى دون قربها * حجابٌ منيعٌ ما إليه سبيلُ
 فإن نسيمَ الجوى يجمع بيننا * وتبصرَ قرنَ الشمسِ حين تزولُ
 وأرواحنا بالليلِ فى الحى تلتقى * ونعلمُ أياً بالنهارِ نَقيلُ
 وتجمعنا الأرضُ القارارِ وفوقنا * سماءُ نرى فيها النجومَ تجولُ
 الى أن يعودَ الدهرُ سائماً وتنقضى * تراتٌ بغناها عندنا ودُحولُ^(١)

ولما أنصرف الناس من الحج مرض قيس مرضاً شديدا فلم يأته رسولها عائداً، فقال:

ألبنى لقد حلت عليك مصيبتى * غداة غداً إذ حلَّ ما أتوقعُ
 تُمنينى نَيْلاً وتلوينى قِلي * فنفسى شوقاً كلَّ يومٍ تقطعُ
 وقلبك قط لا يلين لما يرى * فواكيدى قد طال هذا التضرعُ
 ألومك فى شأنى وأنتِ مُليمةٌ * لعمرى وأجنى للحبِّ وأقطعُ
 أخبرت أنى فىك ميتٌ حسرتى * فما فاض من عينيك للوجد مدمعُ
 ولكن لعمرى قد بكيتك جاهاً * وإن كان دأى كلُّه منك أجمعُ
 صبيحةً جاء العائداتُ يعدننى * فطلت على العائداتُ تفجعُ
 فقائلةً جئنا إليه وقد قضى * وقائلةً لا بل تركناه ينزعُ
 فما غشيت عينيك من ذاك عبرةً * وعينى على ما بى بذكراك تدمعُ
 إذا أنت لم تبكى على جنازة * لديك فلا تبكى غداً حين أرفعُ

(١) ذحول : جمع ذحل وهو الثأر .

ومن شعره قوله :

أُتِبِكِي عَلَى لُبْنِي وَأَنْتِ تَرَكْتَهُمَا * وَكُنْتِ عَلَيْهِمَا بِالْمَلَأِ أَنْتِ أَقْدَرُ^(١)
 إِنْ تَكُنِ الدُّنْيَا بِلُبْنِي تَقَلَّبْتُ * عَلَى فَلَالدُّنْيَا بَطُونٌ وَأُظْهَرُ
 لَقَدْ كَانَ فِيهَا لِلْأَمَانَةِ مَوْضِعٌ * وَلِلْكَفِّ مَرْتَادٌ وَلِلْعَيْنِ مَنْظَرُ
 وَلِلْحَائِمِ الْعَطْشَانِ رِيٌّ بِرَيْقِهَا * وَلِلرَّيْحِ الْمُخْتَالِ نَحْرٌ وَمُسْكِرُ
 كَأَنِّي لَهَا أُرْجُو حَوْهً بَيْنَ أَحْبَلٍ * إِذَا ذُكِرَتْ مِنْهَا عَلَى الْقَلْبِ تَحْطُرُ

وقوله :

لَقَدْ عَدَّبْتَنِي يَا حَبِيبِي * فَفَعَّ إِنَّمَا بِمَوْتِ أَوْ حَيَاةِ
 فَاتَ الْمَوْتَ أَرْوَحُ مِنْ حَيَاةِ * تَدُومُ عَلَى التَّبَاعِدِ وَالشَّتَاتِ
 وَقَالَ الْأَقْرَبُونَ تَعَزَّ عَنْهَا * فَقُلْتُ لَهُمْ إِذَا حَانَتْ وَقَاتِي

وقالت له لبني : أَنشدني ما قلت في عاتك، فَأَنشدها قوله :

أَعَالَجُ مِنْ نَفْسِي بَقَايَا حُشَّاشِيَّةِ * عَلَى رَمَقٍ وَالْعَائِدَاتُ تَعُودُ
 فَإِنْ ذُكِرْتُ لِبْنِي هَشَشْتُ لَذِكْرَهَا * كَمَا هَشَّ لِلشَّدَى الدَّرُورُ وَيَلِدُ
 أَجِيبُ لِبْنِي مِنْ دَعَائِي تَجَلُّدًا * وَبِي زَفَرَاتٌ نَجْجَلِي وَتَعُودُ
 تُعِيدُ إِلَى رُوحِي الْحَيَاةَ وَإِنِّي * بِنَفْسِي لَوْ عَايَنْتَنِي لِأَجُودُ

وفيها يقول :

أَلَا لَيْتَ أَيَّامًا مَضَيْنَ تَعُودُ * فَإِنْ عُدْنَ يَوْمًا إِنِّي لَسَعِيدُ
 سَقَى دَارَ لِبْنِي حَيْثُ حَلَّتْ وَخِيَمَتْ * مِنْ الْأَرْضِ مِنْهُلُّ الْغَامِ رَعِيدُ
 عَلَى كُلِّ حَالٍ إِنْ دَنْتُ أَوْ تَبَاعَدْتُ * فَإِنْ تَدَنَّ مَتَا فَالْدَنُوقُ مَزِيدُ
 وَلَا الْيَأْسُ يُسَلِّبُنِي وَلَا الْقُرْبُ نَافِعِي * وَلِبْنِي مَنُوعٌ مَا تَكَادُ تَجُودُ
 كَأَنِّي مِنْ لِبْنِي سَلِيمٌ مَسْهَدٌ * يَظَلُّ عَلَى أَيْدِي الرِّجَالِ يَمِيدُ
 رَمْتَنِي لُبْنِي فِي الْفَوَادِ بِسَهْمَا * وَسَهْمِ ابْنِي لِلْفَوَادِ صَوِيدُ

سلا كل ذي شجوة علمت مكانه * وقلبي للبنى ما حيت ودود
وقائلة قد مات أو هو ميت * وللنفس منى أن تفيض رصيذ

وعاتبته على تزوجه، خلف أنه لم ينظر إليها ملء عينيه، ثم قال :

ولقد أردت الصبر عنك فعاقني * علق بقلبي من هواك قديم
يبقى على حدّ الزمان ورّيه * وعلى جفائك إنه لكريم
فصرمته وصححت وهو بدائه * شتان بين مصحح وسقيم
وأرّيته زمنًا فعادَ بحلمه * إن الحبّ عن الحبيب حلیم

فلم يزل معها يحدثها ويشكو إليها حتى أمسى، فانصرفت ووعدته الرجوع إليه من غد

فلم ترجع، وشاع خبره، فلم ترسل إليه رسولاً، فكتب هذين البيتين :

بنفسى من قلبى له الدهر ذاكر * ومن هو عنى معرض القلب صابر
ومن حبه يزداد عندى جدّة * وحبيّ لديه مخلق العهد دائر

وقال ابن أبى عمير لقيس يوماً : أنشدنى أحراً ما قلت فى لبنى ، فأشده :

وإنى لأهوى النوم فى غير حينه * لعل لقاء فى المنام يكون
تحدثنى الأحلام أنى أراكم * فيا ليت أحلام المنام يقين
شهدت بانى لم أحل عن مودة * وأنى بكم لو تعلمين ضنين
وأن فؤادى لا يلين الى هوى * سواك وإن قالوا بلى سيلين

وقال عبد الملك بن عبد العزيز : أنشدتُ أبا السائب المخزومى قول قيس :

أحبك أصنافاً من الحبّ لم أجد * لها مثلاً فى سائر الناس يوصف
فمنهن حبّ للحبيب ورحمة * بمعرفتى منه بما يتكلف
ومنهن ألاّ يعرض الدهر ذكرها * على القلب إلا كادت النفس تتلف
وحبّ بدا بالجسم واللون ظاهر * وحبّ لدى نفسى من الروح أطف

(١) وقصيدة قيس العينية من جيد شعره وهى

عَفَا سِرْفٌ مِنْ أَهْلِهِ فُسْرَاوِعٌ * بَجْنَبَا أَرِيكَ فَالتَّلَاعُ الدَّوَاعِ (٢)
 فَعِيقَةٌ فَالأَخْيَافُ أَخْيَافٌ ظَيِّبَةٌ * بِهَا مِنْ لَبْنِي تَحْرَفُ وَمَرَايِعُ (٣)
 لَعَلَّ لَبْنِي أَنْ يَحْتَمَّ لِقَاؤُهَا * بِيَعُضِ البَلَادِ إِنْ مَا حَمَّ وَاقِعُ (٤)
 يَجْزِعُ مِنَ الوَادِي خَلَاءَ أَيْسُهُ * عَفَا وَتَحَطَّطَهُ العَيُونُ الخَوَادِعُ (٥)
 وَلَمَّا بَدَا مِنْهَا الفِرَاقُ كَمَا بَدَا * بَطَّهَرَ الصَّفَا الصَّلْدَ الشَّقِوقُ الشَّوَائِعُ (٦)
 تَمَنَيْتَ أَنْ تَلْقَى لَبْنِيكَ ، وَالْمَنَى * تُعَاصِيكَ أَحْيَانًا وَحِينًا تُطَاوِعُ
 وَمَا مِنْ خَبِيْبٍ وَامِقٍ لِحَبِيْبِهِ * وَلَا ذِي هَوَى إِلَّا لَهُ الدَّهْرُ فَاجِعُ (٧)
 وَطَارَ غَرَابُ البَيْنِ وَأَشَقَّتْ العَصَا * بِيَسِيْنٍ كَمَا شَقَّ الأَدِيمَ الصَّوَانِعُ
 أَلَا يَاغْرَابُ البَيْنِ قَدِ طَرَبَ بالذِي * أُحَازِرُ مِنَ لَبْنِي فَهَلْ أَنْتَ وَاقِعُ
 وَإِنَّكَ لَوْ أَبْلَغْتَهَا قَيْلِكَ اسْلِمِي * طَوْتُ حَرَّأً وَأَرْفَضُ مِنْهَا المَدَامِعُ (٨)
 أَتَبَكَّى عَلَى لَبْنِي وَأَنْتَ تَرَكْتَهَا * وَكُنْتَ كَأَنَّ غَيْبَهُ وَهُوَ طَائِعُ
 فَلَا تَبْكِيْنَ فِي إِثْرِيءٍ نَدَامَةً * إِذَا نَزَعْتَهُ مِنْ يَدِيكَ النِّوَازِعُ
 فَلَيسَ لِأَمْرٍ حَاولَ اللهُ جَمْعَهُ * مُشِتٌ وَلَا مَا فَتَرَ اللهُ جَامِعُ (٩)
 كَأَنَّكَ لَمْ تَغْنَهُ إِذَا لَمْ تَلَاقِهَا * وَإِنَّهَا فَالْقَلْبَ رَاضٍ وَقَانِعُ

(١) وردت هذه القصيدة برمتها في كتاب الأمل لأبي علي القاسم (ج ٢ ص ٣١٤ - ٣١٨ طبعة

دار الكتب المصرية) (٢) سرف وسراوع وأريك : جمع دافعة وهى التى تدفع الماء . والتلاع . وهى

ما ارتفع من الأرض الى بطن الوادى . والدواع : جمع دافعة وهى التى تدفع الماء . (٣) أخيف

ظلية : موضع . والمخرف : المنزل الذى يقام فيه فى الخريف . والمرابع : جمع مربع وهو الموضع الذى يقام

فيه فى الربيع . (٤) حم : قدر . (٥) جزع الوادى : منعطفه . وعفا : درس . والخوادم

واحدها خادعة وهى التى لا تنام ، يقال : خدعت عينه بمحمدع إذا لم تنم ، وأتيناهم بمسد ما خدعت العين .

(٦) الصفا : الصخر . والصلد : الصلب الذى إذا أصابه شىء صلد أى صوت . والشوائع : جمع شائعة وهى

الظاهرة . (٧) أى تفرقت الجماعة . (٨) ارفض : سالولا يكون إلا سبالا مع تفرق .

(٩) مشت : مفرق .

فياقلبُ خَبْرِي، إذا شَطَطَ النوى * بُئِنِي وَصَدَّتْ عَنكَ، ما أنتُ صانعُ
 أتصبر للبينِ المِثْتِ مع الجوى * أم أنتُ أمرؤُ ناسِي الحياءِ بفازعُ
 فما أنا إن بانَت لُبْنِي بها جِع * إذا ما أَسْتَقَلَّتْ بِالنِّيامِ المِضاجُ
 وكيف ينام المرءُ مستشعِرَ الجوى * ضَجِيعَ الأَسَى فيه نِكَاسٌ رَوادِعُ^(١)
 فلا خير في الدنيا إذا لم تُؤانِسنا * لُبْنِي ولم يَجْعُ لنا الشَّمْلُ جامعُ
 أليست لِبْنِي تحت سَقْفٍ يُكَنِّها * وإيايَ هذا إن نأت لى نافعُ
 وَيَلَسُنَا اللَّيْلُ البَهِيمُ إذا دَجَا^(٢) * وَنُبْصُرُ ضَوْءِ الصَّبْحِ والفجرُ ساطعُ
 تَطَّأُ تحت رجليها بِساطًا وبعْضُهُ^(٣) * أَطَاهُ بِرِجْلِي ليس يَطْوِيه مانعُ
 وأفرح إن تُمسي بخيرٍ وإن يكن * بها الحَدَثُ العادِي تُرْعِي الروائعُ^(٤)
 كأنكِ يدعُ لم ترالناسُ قبلها * ولم يَطَّلِعْكَ الدهرُ فيمن يَطالعُ
 فقد كنتُ أبكى والنوى مطمئنةٌ * بنا وبكم من علم ما الينُ صانعُ
 وأهجرُكم هجرَ البَغِيضِ وحبُّكم * على كَبْدِي منه كُلُّومٌ صوادِعُ
 وأعجلَ للإشفاقِ حتى يَسْفِنِي * مخافةُ شِطْحِ الدارِ والشَّمْلِ جامعُ
 وأعمدُ للأرضِ التي من ورائكم * ليرجعني يوماً عليك الروائعُ
 فيا قلبُ صبراً وأعترافاً لما ترى^(٥) * وياحبها قع بالذي أنت واقعُ
 لعمرى لمن أَمسى وأنتِ ضَجِيعُهُ * من الناسِ ما اختيرتُ عليه المضاجعُ
 ألا تلكُ لُبْنِي قد ترأخى مزارها * وللبينِ غمٌ ما يزال ينازعُ
 إذا لم يكن إلا الجوى فكفني به * جوى حرقٍ قد ضُمَّنتها الأضالعُ
 أبائنةٌ لُبْنِي ولم تقطع المَدَى * بوصيلٍ ولا صريمٍ فيأسَ طامعُ

(١) شطت : بعدت . (٢) المستشعر : الذى لبس الشعار وهو الثوب الذى يلى الجسد . والجوى :

الهُوى الباطن . والأسى : الحزن . ونكاس : جمع نكس بالضم . وروادع : جمع رادعة وهى التى تردعه عن الحركة والتصرف . (٣) دحا : ألبس بظلمته كل شئ . (٤) البساط : ما بسط من الفرش .

(٥) ترعى : تفزعنى . (٦) اعترف : ذل وانقاد .

يَظَلُّ نَهَارَ الْوَالِهِينَ نَهَارَهُ وَتَهْدِيهِ^(١) فِي النَّائِمِينَ الْمُضَاجِعُ
سِوَايَ فَلْيَلِيْ مِنْ نَهَارِيْ وَإِنَّمَا تَقْسِمُ بَيْنَ الْمَهَالِكِينَ الْمَصَارِعُ
وَلَوْلَا رَجَاءُ الْقَلْبِ أَنْ تَعِطَفَ النَّوَى لَمَا حَمَلْتَهُ بَيْنَهُنَّ الْأَضَالِعُ
لَهُ وَجَبَاتٌ^(٢) لِأَثْرِ لُبْسِيْ كَأَنَّهَا شَقَائِقُ بَرَقِيْ فِي السَّحَابِ لَوَامِعُ
نَهَارِيْ نَهَارُ النَّاسِ حَتَّى إِذَا دَجَا لِيَ اللَّيْلُ هَزَّتْنِي إِلَيْكَ الْمُضَاجِعُ
أَقْضَى نَهَارِيْ بِالْحَلْدِيثِ وَبِالْمَنَى وَيَجْمَعُنِي بِاللَّيْلِ وَالْهَمِّ جَامِعُ
وَقَدْ نَشَأْتُ فِي الْقَلْبِ مِنْكَ مَوْدَةٌ كَمَا نَشَأْتُ فِي الرَّاحَتَيْنِ الْأَصَابِعُ
أَبِي اللَّهِ أَنْ يَلْقَى الرَّشَادَ مَتَمِّمٌ أَلَّا كُلُّ أَمْرٍ حُمٌّ لَا يَدُ وَاقِعُ
هِيَ بَرَحًا بِي مُعْوِلِينَ كِلَاهُمَا فَوَادٌّ وَعَيْنٌ مَأَقَمَهَا^(٣) الدَّهْرَ دَامِعُ
إِذَا نَحْنُ أَنْفَدْنَا الْبِكَاءَ عَشِيَّةً فَوَعْدُنَا قَرْنٌ مِنَ الشَّمْسِ طَالِعُ
وَلِلَّحَبِّ آيَاتٌ تَبَيَّنُ بِالْفَتَى شُحُوبٌ وَتَعْرَى مِنْ يَدَيْهِ الْأَشْجَاعُ^(٤)
وَمَا كُلُّ مَا مَتَّكَ نَفْسُكَ خَالِيًا تَلَاقِيْ وَلَا كُلُّ الْهَوَى أَنْتَ تَابِعُ^(٥)
تَدَاعَتْ لَهُ الْأَحْرَانُ مِنْ كُلِّ وَجْهَةٍ فَحَقَّ كَمَا حَرَّ الطُّوَارُ السَّوَابِ
وَجَانِبَ قُرْبِ النَّاسِ يَخْلُو بِهِمْ وَعَاوَدَهُ فِيهَا هَيْبَامٌ مُرَاجِعِ
أَرَاكَ اجْتَنَبْتَ الْحَيَّ مِنْ غَيْرِ بَغْضَةٍ وَلَوْ شِئْتَ لَمْ تَجْنَحِ إِلَيْكَ الْأَصَابِعِ
كَأَنَّ بِلَادَ اللَّهِ مَا لَمْ تَكُنْ بِهَا وَإِنْ كَانَ فِيهَا الْخَلْقُ قَفْرًا بِلَاقِعِ
أَلَا إِنَّمَا أَبْيَى لِمَا هُوَ وَاقِعٌ وَهَلْ جَزَعٌ مِنْ وَشَكِّ بَيْنِكَ نَافِعِ
أَحَالَ عَلَى الدَّهْرِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ * وَدَامَتْ وَلَمْ تُقْلِعْ عَلَى الْفَوَاجِعِ
فَمِنْ كَانَ مَحْزُونًا غَدًا لِفِرَاقِنَا فَمَلَّانَ فَلْيَبْكِيْ لِمَا هُوَ وَاقِعِ

(١) تَهْدِي: تسكنه . (٢) وجبات: خفقات . (٣) المأق من العين: الجانب الذي يلي

الآ . (٤) الأشجاع: عروق ظاهر الكف . (٥) الطوار: جمع ظم وهي التي عطمت على

ولد غيرها . والسواجع: جمع ساجعة وهي التي تمد حينها على جهة واحدة .

الشعر السياسي

أوضحنا لك في المجلد الأول ما لاستعمال الشعر من أثرٍ في كثير من الحركات السياسية وأستحثات العزّات وإنهاض الهمم في الانقلابات الاجتماعية، وبيننا مئةً آستعمال الشعر في الأغراض السياسية في عصر الدولة الأموية، وذكرنا عدّة أمثلة تبيّن ما وصل إليه هذا النوع الطريف، ووعدناك بذكر قصيدة النعمان بن بشير في هذا الباب . وها هي ذى :

النَّعْمَانُ بنُ بَشِيرٍ^(١)

قال أبو الفرج الأصفهاني :

لما كثرت الهجاء بين عبد الرحمن بن حسان وعبد الرحمن بن الحكم بن أبي العاصي وتفاحشاً، كتب معاوية إلى سعيد بن العاصي، وهو عامله على المدينة، أن يجلبه كل واحد منهما مائة سوط، وكان ابن حسان صديقاً لسعيد وما مدح أحداً غيره قط، فكره أن يضربه أو يضرب ابن عمه، فأمسك عنهما؛ ثم ولي مرءه أن، فلما قدم أخذ ابن حسان فضربه مائة سوط ولم يضرب أخاه، فكتب ابن حسان إلى النعمان بن بشير وهو بالشام، وكان كبيراً أثيراً مكيناً عند معاوية، قال :

(١) هو النعمان بن بشير بن سعد الأنصاري، من الخزرج أهل يثرب، لكنه ساير معاوية، فكان معه في واقعة صفين، ولم يكن مع معاوية في تلك الواقعة من الأنصار سواه . وقد اجتذبه سخائه ودهائه وكان يراعى حاجته، وكثيراً ما سمع توسطه للأنصار عنده . وعاش النعمان المذكور إلى حلافة مروان بن الحكم، وكان يتولى حمص، فلما أفضت الخلافة إلى مروان دعا إلى ابن الزبير وخالف على مروان بعد قتل الضحاك، فلم يجبه أهل حمص إلى ذلك، فهرب منهم فتبعوه وأدركوه وقتلوه . وكان على مسأيرته بنى أمية شديد العصب للأنصار، ولذلك عد ما علم بقصيدة الأخطل في الطعن عليهم رد عليه . والنعمان بن بشير من العريقيين في الشعر حلما عن سلف فان جده وأباه وعمه وأولاده وأحماده كلهم شعراء . وهو أوّل مولود ولد في الإسلام من الأنصار، وآخر من ولي الكوفة لمعاوية بن أبي سفيان . وله ديوان مطبوع في الهند . توفي سنة ٦٥ هـ . وترى أحبار النعمان بن بشير في الأعاني (ج ١٤ ص ١١٩) وأمالى القالي (ج ٣ ص ٨) والعقد الفريد (ج ٣ ص ١١٢ طبع مصر سنة ١٣٠٥ هـ) وفي سيرة ابن هشام وابن خلكان وابن الأثير وغيرها . (٢) أثيراً : مكزماً .

ليتِ شِعْرِي أَغَابْتُ أَنْتِ بِالشَا * م خَلِيلِي أَمْ رَاقِدٌ تُعْمَانُ
 أَيْةٌ مَا يَكُنْ فَقَدْ يَرْجِعُ الغَا * ثُبُ يَوْمًا وَيُوقِظُ الوَسَّانُ
 إِنِ عَمْرًا وَعَامرًا أَبُوِنَا * وَحَرَامًا قَدِمًا عَلَى العَهْدِ كَانُوا
 أَفْهَمُ مَا نَعُوكِ أَمْ قَلَّةُ الكُتَّابِ * أَمْ أَنْتِ عَاتِبُ غَضِبَانِ
 أَمْ جَفَاءٌ أَمْ أَعُوذُكَ القَرَاطِيئِ * أَمْ أَمْرِي بِهِ عَلَيْكَ هَوَانِ
 يَوْمَ أُثْبِتَتْ أَنْ سَاقِي رُضْتُ * وَأَتَّكِمُ بِذَلِكَ الرُّجَّانِ
 ثُمَّ قَالُوا إِنِ ابْنِ عَمِّكَ فِي بَلَاءِ * أَمْ أَمْرِي أَمْرِي بِهَا الحَدَّانِ
 فَنَسِيتَ الأَرْحَامَ وَالوُدَّ وَالصُّحُوبَ * فِيهَا أَنْتِ بِهِ الأَزْمَانِ
 إِنَّمَا الرِّيحُ فَاعْلَمِي قَنَاءُ * أَوْ كَبْعُ العِيدَانِ لَوْلَا السَّنَانِ

قال أبو الفرج الأصبهاني :

دخل النعمانُ بنُ بشيرٍ على مُعَاوِيَةَ لما هجا الأخطلَ الأنصارَ ، فلما مثَّلَ بين يديه

أَنشأ يقول :

مُعَاوِيَ إِلا تُعْطِنَا الحَقَّ تَعْتَرِفُ * لِحِي الأَزْدِ مَشْدُودًا عَلَيْهَا العَمَائِمُ
 أَيَسْمَعُنَا عِبْدُ الأَرَاقِمِ ^(١) ضَالَّةٌ * وَمَاذَا الَّذِي تُجِدِي عَلَيْكَ الأَرَاقِمِ
 فَمَا لِي نَارٌ دُونَ قِطْعِ لِسَانِهِ * فَدُونِكَ مِنْ يُرْضِيهِ عَمِكَ الدَّرَاهِمِ
 وَرَاعٍ رُوَيْدًا لَا تَسْمَعُنَا دَنِيَّةً * لَعَلَّكَ فِي غِيبِ الحَوَادِثِ نَادِمِ
 مَتَى تَلْقَ مِنْنا عُصْبَةَ خَزْرَجِيَّةً * أَوْ الأَوْسَ يَوْمًا تَحْتَرِمُكَ المَخَارِمِ
 وَتَلْقَاكَ خَيْلٌ كَالقَطَا مُسْتَطِيرَةٌ * ^(٢) شَمَاطِيطُ أَرْسَالٍ عَلَيْهَا الشَّكَاكِمِ ^(٣)
 يُسَوِّمُهَا العَمْرَانُ : عَمْرُو بْنُ عَامِرٍ * وَعِمْرَانُ حَتَّى تُسْتَبَاحَ المَحَارِمِ
 وَيَبْدُو مِنَ الخُودِ العَزِيْزَةِ مَجْهَلُهَا * وَتَبْيَضُّ مِنَ هَوْلِ السِّيُوفِ المَقَادِمِ
 فَتُطَلَّبُ شَعْبُ الصَّدْعِ بَعْدَ التَّنَائِمِ * فَتُغْرِيهِ فَالآنَ وَالأَمْرُ سَالِمِ

(٣) الشكائم : جمع

(٢) شماطيط : متفرقة .

(١) الأرقام : حتى من بني تغل .

شكبة وهي الحديدية المعترضة في فم الفرس .

وَإِلَّا فَتَوْبِي لَأَمَةٌ تُبْعِيَةٌ * تَوَارِيثُ آبَائِي وَأَيُّضُ صَارِمٍ
 وَأَسْمُرُ خَطِيٌّ كَأَنَّ كُؤُوبَهُ * نَوَى الْقَسْبَ فِيهَا لَهْدِي خُنَّارِمٍ
 فَإِنْ كُنْتَ لَمْ تَشْهَدْ بِيَدِي وَقِيعَةً * أَذَلَّتْ قُرَيْشًا وَالْأَسُوفُ رَوَائِمِ
 فَسَائِلُ بِنَا حَيٍّ لَوْيُّ بْنُ غَالِبٍ * وَأَنْتَ بِمَا يَخْفَى مِنَ الْأَمْرِ عَالِمِ
 أَلَمْ تَتَبَدَّرْ يَوْمَ بَدْرٍ سَيُوفُنَا * وَلَيْلِكَ عَمَّا نَابَ قَوْمَكَ قَاتِمِ
 ضَرَبْنَاكُمْ حَتَّى تَفْرَقَ جَمْعَكُمْ * وَطَارَتْ أَكُفُّ مِنْكُمْ وَجَمَاجِمِ
 وَعَادَتْ عَلَى الْبَيْتِ الْحَرَامِ عَرَاسُ * وَأَنْتَ عَلَى خَوْفٍ عَلَيْكَ التَّمَامِ
 وَعَضَّتْ قُرَيْشٌ بِالْأَنَامِلِ بَغْضَةً * وَمِنْ قَبْلِ مَا عَضَّتْ عَلَيْكَ الْأَدَاهِمِ
 فَكَمَا لَهَا فِي كُلِّ أَمْرٍ نَكِيدُهُ * مَكَانَ الشَّجَا وَالْأَمْرِ فِيهِ تَفَاقِمِ
 فَمَا إِنْ رَمَى رَامٍ فَأَوْهَى صَفَاتَا * وَلَا ضَامِنًا يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ ضَائِمِ
 وَإِنِّي لِأَغْضَى عَنْ أُمُورٍ كَثِيرَةٍ * سَتَرْتَنِي بِهَا يَوْمًا إِلَيْكَ السَّلَامِ
 أَصَانِعَ فِيهَا عَبْدَ شَمْسٍ وَإِنِّي * لِتِلْكَ الَّتِي فِي النَّفْسِ مِنْي أُكَاتِمِ
 فَمَا أَنْتَ وَالْأَمْرَ الَّذِي لَسْتَ أَهْلُهُ * وَلَكِنْ وَلِيُّ الْحَقِّ وَالْأَمْرِ هَاشِمِ
 إِلَيْهِمْ يَصِيرُ الْأَمْرُ بَعْدَ شَتَاتِهِ * فَمَنْ لَكَ بِالْأَمْرِ الَّذِي هُوَ لَازِمِ
 بِهِمْ شَرَعَ اللَّهُ الْهُدَى فَأَهْتَدَى بِهِمْ * وَمِنْهُمْ لَهُ هَادٍ إِمَامٌ وَخَاتِمِ

فلما بلغت القصيدة معاوية أمر بدفع الأخطل إليه ليقطع لسانه، فاستجار يزيد

ابن معاوية، فمنعه منه، وأرضى النعمان حتى كف عنه .

وقال عمرو بن أبي عمرو الشيباني عن أبيه : لما ضرب مروان بن الحكم عبد الرحمن

ابن حسان الحداد ، ولم يضرب أخاه حين تهاجبا وتقاذفا ، كتب عبد الرحمن الى النعمان

ابن بشير يشكو اليه ، فدخل الى معاوية ، وأنشأ يقول :

يَا بْنَ أَبِي سُفْيَانَ مَا مِثْلُنَا * جَارَ عَلَيْهِ مَلِكٌ أَوْ

أَذْكَرُ بِنَا مُقَدَّمِ أَفْرَاسِنَا * بِالْحِنُو إِذْ أَنْتَ الْيَنَافِصِيرِ

- واذ كر غداة الساعدي الذي * آثركم بالأمر فيها بش
 فاحذر عليهم مثل بذر وقد * مر بكم يوم
 إت ابن حسان له نائر * فأعطه الحق تصح الصدور
 ومثل أيام لنا شئت * ملكا لكم أمرك فيها صغير
 أما ترى الأزد وأشياها * تجول خزا كاظات تزيير
 يصول حولي منهم معشر * إن صلت صالوا وهم لي نصير
 يابي لنا الضيم فلا يعلى * عز منيع وعدي كثير
 وعنصر في عز جرثومية * عادية تنقل عنها الصخور

مُلْحَقٌ

الكتاب الثاني

باب المنثور

شرحنا لك في المجلد الأول ما كانت عليه الكتابة في عصر العباسيين من جَوْدَةِ اللفظ ،
ومتانة الأسلوب ، وجلاء المعنى ، ووضوح القصد وبساطته . ووعدناك بذكر طَرْفٍ
من رسائل القوم في ذلك العصر الزاهي الزاهر ؛ وإليك ما وعدناك به :

١ - مُشَاوَرَةُ المهديِّ لِأَهْلِ بَيْتِهِ فِي حَرْبِ نُرَّاسَانَ

قال ابنُ عبدِ ربِّهِ في العِقْدِ الفريدِ :

هذا ما تراجع فيه المهديّ ووزراؤه وما دار بينهم من تدير الرأى في حرب نُرَّاسَانَ أَيَّامَ
تحامَلتْ عليهم العِمالُ وأَعنفتْ ، فحملتهم الدالَّةُ وما تقدَّم لهم من المِكانةِ على أن نَكشوا بِيَعْتَهُمْ ،
ونقضوا مَوْتِقَهُمْ ، وطردوا العِمالَ ، وألْتَوُوا بما عليهم من الخِراجِ ؛ وحمل المهديّ ما يُحِبُّ من
مصالحهم ويكره من عنتهم على أن أقال عَثْرَتَهُمْ ، وأغتنفر زلتهم ، وأحتمل دالَّتَهُمْ ، تطوَّلاً بالفضلِ
وأتساعاً بالعفو ، وأخذاً بالْحُجَّةِ ورفقاً بالسياسة ؛ ولذلك لم يزل مُدْحِماً اللهُ أعباءَ الخِلافةِ وقلده
أمورَ الرعيَّةِ ريفقاً بمدار سلطانه ، بصيراً بأهل زمانه ، باسطاً للعِدْلَةَ في رعيَّته ، تسكن الى كنفه
وتأنس بعفوه وتثق بحلمه ؛ فإذا وقعت الأَقْضيةُ اللازمةُ والحقوقُ الواجبةُ ، فليس عنده

هَوَادَة وَلَا إِغْضَاء وَلَا مُدَاهَنَة ، أَثَرَة لِحَقِّ وَقِيَامَا بِالْعَدْلِ وَأَخْذًا بِالْحَزْمِ ؛ فَدَعَا أَهْلَ خِرَاسَانَ الْإِغْتِرَارُ بِجَلْمِهِ وَالثَّقَمَةُ بِعَفْوِهِ أَنْ كَسَرُوا الْخِرَاجَ وَطَرَدُوا الْعَمَالَ وَسَأَلُوا مَا لَيْسَ لَهُمْ مِنَ الْحَقِّ ، ثُمَّ خَلَطُوا أَحْتِجَاجًا بِاعْتِدَارِ ، وَخِصُومَةً بِإِقْرَارِ ، وَتَضَمُّلاً بِاعْتِلَالِ ؛ فَلَمَّا آتَيْتَنِي ذَلِكَ إِلَى الْمَهْدِيِّ خَرَجَ إِلَى مَجْلِسِ خَلَائِهِ وَبَعَثَ إِلَى نَفَرٍ مِنْ حُجَّتِهِ وَوُزَرَائِهِ ، فَأَعْلَمَهُمُ الْحَالَ وَأَسْتَنْصَحَهُمُ لِلرَّعِيَّةِ ، ثُمَّ أَمَرَ الْمَوَالِي بِالْإِبْتِدَاءِ ، وَقَالَ لِلْعَبَّاسِ بْنِ مُحَمَّدٍ : أَيَّ عَمَلٍ تَعَقَّبُ قَوْلَنَا وَكُنْ حَكِيمًا بَيْنَنَا ؛ وَأَرْسَلَ إِلَى وَلَدَيْهِ مُوسَى وَهَارُونَ ، فَأَحْضَرَهُمَا الْأَمْرَ وَشَارَكَهُمَا فِي الرَّأْيِ ، وَأَمَرَ مُحَمَّدَ بْنَ اللَّيْثِ بِحِفْظِ مِرَاجِعَتِهِمْ ، وَإِبْرَاطِ مَقَالَتِهِمْ فِي كِتَابٍ .

فَقَالَ سَلَامٌ صَاحِبُ الْمَظَالِمِ ^(٣) :

أَيُّهَا الْمَهْدِيُّ ، إِنَّ فِي كُلِّ أَمْرٍ غَايَةً ، وَلِكُلِّ قَوْمٍ صِنَاعَةً ؛ أَسْتَفْرَغْتَ رَأْيَهُمْ ، وَأَسْتَفْرَقْتَ أَشْغَالَهُمْ ، وَأَسْتَفْتَدْتَ أَعْمَارَهُمْ ، وَذَهَبُوا بِهَا وَذَهَبْتَ بِهِمْ ، وَعَرِفُوا بِهَا وَعُرِفْتَ بِهِمْ ؛ وَلِهَذَا الْأُمُورَ الَّتِي جَعَلْتَنَا فِيهَا غَايَةً ، وَطَلَبْتَ مَعُونَتَنَا عَلَيْهَا أَهْوَأَ مِنْ أَنْبَاءِ الْحَرْبِ وَسَاسَةِ الْأُمُورِ وَقَادَةِ الْجُنُودِ وَفُرسَانِ الْهَزَاهِرِ وَإِخْوَانِ التَّجَارِبِ ، وَأَبْطَالَ الْوَقَائِعِ ؛ الَّذِينَ رَشَّحْتَهُمْ بِجَاهِلَاتِهَا ، وَفَيَّاتَهُمْ ظِلَالُهَا ، وَعَضَّتْهُمْ شِدَائِدُهَا ، وَقَرَّمْتَهُمْ نَوَاجِدُهَا ؛ فَلَوْ عَجَّمتَ مَا قَبْلَهُمْ ، وَكَشَفْتَ مَا عِنْدَهُمْ ؛ لَوَجَدْتَ نِظَائِرَ تَوْيْدِ أَمْرِكَ ، وَتِجَارِبَ تَوَافِقِ نَظْرِكَ ، وَأَحَادِيثَ تَقْوَى قَلْبِكَ ؛ فَأَمَّا نَحْنُ مَعَاشِرُ عُمَّالِكَ ، وَأَصْحَابُ دَوَاوِينِكَ ، فَحَسَنٌ بِنَا وَكَثِيرٌ مِنَّا أَنْ تَقُومَ بِثِقَلِ مَا حَمَلْتَنَا مِنْ عَمَلِكَ ، وَأَسْتَوْدِعْتَنَا مِنْ أَمَانَتِكَ ، وَشَغَلْتَنَا بِهِ مِنْ إِمضاءِ عَدْلِكَ ، وَإِنْتَازِ حُكْمِكَ ، وَإِظْهَارِ حَقِّكَ .

فَأَجَابَهُ الْمَهْدِيُّ : إِنَّ فِي كُلِّ قَوْمٍ حِكْمَةً ، وَلِكُلِّ زَمَانٍ سِيَاسَةً ، وَفِي كُلِّ حَالٍ تَدْبِيرًا يَبْطُلُ الْآخِرُ الْأَوَّلَ ، وَنَحْنُ أَعْلَمُ بِزَمَانِنَا وَتَدْبِيرِ سُلْطَانِنَا .

(١) كسروا الخراج أى كفوا عن أدائه . (٢) هو ابن الليث بن نصر بن سيار . وكان أرسل

المهدى أباه الليث لمحاربة المقنع فلم يتمكن منه . وكان أبوه محمد هذا من تحاب المهدي ولم تعرف سنة وفاته .

(٣) هو سلام بن الأبرش ، استعمله المنصور ثم تولى العقوبات فى أيام المهدي . (٤) الهزاهن :

صحريك البلايا والحروب فى الناس .

قال : نعم أيها المهديّ، أنت مُتَبِعُ الرَّأْيِ، وَثِيْقُ الْعُقْدَةِ، قَوِيّ الْمُنَّةِ، بَلِيغُ الْفِطْنَةِ، معصوم النَّيَّةِ، مُحْضَرُ الرُّوْيَةِ، مُؤَيَّدُ الْبَدِيْهِ، مُوَفِّقُ الْعَزِيْمَةِ، مُعَانٌ بِالظَّفَرِ، مُهْدِيٌّ إِلَى الْخَيْرِ، إِنْ هَمَمْتَ نَهَى عَزْمُكَ مَوَاقِعَ الظَّنِّ، وَإِنْ أَجْتَمَعَتْ صَدَعُ فِعْلِكَ مُتَيْسَّرَ الشُّكِّ، فَاعْزِمِ يَهْدِيَّ اللهُ إِلَى الصَّوَابِ قَلْبَكَ، وَقُلْ يُنْطِقُ اللهُ بِالْحَقِّ لِسَانَكَ، فَإِنَّ جُنُودَكَ جَمَّةٌ، وَخِزَانَتُكَ عَاهِرَةٌ، وَنَفْسُكَ سَخِيَّةٌ، وَأَمْرُكَ نَافِذٌ .

فأجابه المهديّ : إِنْ الْمَشَاوِرَةَ وَالْمُنَازِرَةَ بَابًا رَحْمَةً، وَمِفْتَاحًا بَرَكَةً ؛ لَا يَهْلِكُ عَلَيْهِمَا رَأْيٌ، وَلَا يَتَغَيَّرُ مَعَهُمَا حَزْمٌ، فَأَشِيرُوا بِرَأْيِكُمْ، وَقُولُوا بِمَا يَحْضُرُكُمْ؛ فَإِنِّي مِنْ وَرَائِكُمْ، وَتَوْفِيْقُ اللهِ مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ .

قال الربيع :

أَيُّهَا الْمَهْدِيُّ، إِنْ تَصَارِيْفُ وَجُوهِ الرَّأْيِ كَثِيْرَةٌ، وَإِنَّ الْإِشَارَةَ بِبَعْضِ مَعَارِيضِ الْقَوْلِ يَسِيْرَةٌ؛ وَلَكِنْ خِرَاسَانُ أَرْضٌ بَعِيْدَةٌ الْمَسَافَةِ، مُتَرَاخِيَةٌ الشُّقَّةِ، مُتَفَاوِتَةٌ السَّبِيْلِ؛ فَإِذَا أَرْتَأَيْتَ مِنْ مُحْكَمِ التَّدْيِيْرِ، وَمُبْرَمِ التَّقْدِيْرِ، وَبَابِ الصَّوَابِ، رَأْيًا قَدْ أَحْكَمَهُ نَظْرُكَ، وَقَلْبَهُ تَدْيِيْرَكَ، فَلَيْسَ وَرَاءَهُ مَذْهَبٌ طَاعِنٌ، وَلَا دُونَهُ مَعْلَقٌ لِنُحُومَةٍ عَائِبٍ؛ ثُمَّ أَجَبَتْ الْبُرْدُ بِهِ، وَأَنْطَوَتْ الرُّسُلُ عَلَيْهِ، كَانَ بِالْحَرَى أَلَّا يَصِلَ إِلَيْهِمْ مُحْكَمُهُ إِلَّا وَقَدْ حَدَثَ مِنْهُمْ مَا يَنْقُضُهُ؛ فَمَا أَيْسَرَ أَنْ تَرْجِعَ إِلَيْكَ الرُّسُلَ، وَتَرُدَّ عَلَيْكَ الْكُتُبَ بِحَقَائِقِ أَخْبَارِهِمْ، وَشَوَارِدِ آثَارِهِمْ، وَمَصَادِرِ أُمُورِهِمْ؛ فَتُحَدِّثَ رَأْيًا غَيْرَهُ وَتَبْتَدِعَ تَدْيِيْرًا سِوَاهُ؛ وَقَدْ أَنْفَرَجَتْ الْحِلَاقُ، وَتَحَلَّتْ الْعُقْدَةُ، وَأَسْتَرْنَحَى الْحِقَابُ، وَأَمْتَدَّ الزَّمَانُ، ثُمَّ لَعَلَّمَا مَوْقِعَ الْآخِرَةِ كَمَصْدَرِ الْأُولَى؛ وَلَكِنْ الرَّأْيُ لَكَ أَيُّهَا الْمَهْدِيُّ — وَفَقَّكَ اللهُ — أَنْ تَصْرِفَ إِجَالَةَ النَّظْرِ، وَتَقْلِبَ الْفِكْرَ، فِيمَا جَمَعْتَنَا لَهُ، وَأَسْتَشْرَرْتَنَا فِيهِ مِنَ التَّدْيِيْرِ لِحَرْبِهِمْ، وَالْحَيْلِ فِي أَمْرِهِمْ، إِلَى الطَّلَبِ لِرَجُلٍ ذِي دِيْنٍ

(١) المنسة : القوة . (٢) لا يتغير : لا يضعف (٣) معاريض الكلام ما عرض يد

ولم يصرح وهي التورية بالشئ، عن الشئ . (٤) الخاف شئ، تغذاه المرأة تعلق به معاليق الخلى تساه

على وسطها .

فاضل، وعقل كامل، وورع واسع، ليس موصوفاً بهوى في سواك، ولا متهماً في آثرة عليك، ولا ظليناً على دُخلةٍ مكروهة، ولا منسوباً إلى بدعة محدورة؛ فيقدح في مُلكك، ويربض الأمور لغيرك؛ ثم تُسند إليه أمورهم، وتفوض إليه حربهم، وتأمره في عهدك ووصيتك إياه بلزوم أمرك ما لزمه الحزم، وخلاف تهيبك إذا خالفه الرأي عند استحالة الأمور، وأشداد الأحوال التي يُنقض أمر الغائب عنها، ويثبت رأي الشاهد لها؛ فإنه إذا فعل ذلك فوائب أمرهم من قريب، وسقط عنه ما يأتي من بعيد، تمت الحيلة وقويت المكيدة، ونفذ العمل وأحد النظر، إن شاء الله .

قال الفضل بن العباس :

أيها المهديّ، إن وليّ الأمور وسائس الحروب ربما تحي جنوده، وفترق أمواله في غير ماضيق أمرٍ حزبه، ولا ضغطةٍ حال أضطرتّه؛ فيتعد عند الحاجة إليها، وبعد التفريفة لها عدما منها فاقدا لها، لا يثق بقوة، ولا يصوف بعادة، ولا يفزع إلى ثقة؛ فالرأي لك أيها المهديّ - وفقك الله - أن تُعني خرائتك من الإنفاق للاموال، وجنودك من مكابدة الأسفار، ومقارعة الأخطار، وتفرير القتال، ولا تُسرِع للقوم في الإجابة إلى ما يطلبون، والعتاء لما يسألون؛ فيفسد عليك أدبهم، وتجرى من رعيّتك غيرهم؛ ولكن أغرهم بالحيلة، وقاتلهم بالمكيدة، وصارعهم باللين، وخاتلهم بالرفق، وأبرق لهم بالقول، وأرعد نحوهم بالفعل؛ وأبعث البعوث، وجنّد الجنود، وكتب الكُتاب، وأعقد الأولوية، وأنصب الرايات، وأظهر أنك موجّه اليهم الجيوش مع أحنق قوادك عليهم، وأسويهم أثراً فيهم؛ ثم أدسس الرُّسل، وأبثت الكتب، وضع بعضهم على طمع من وعدك، وبعضاً على خوف

(١) ظليناً : متهماً . ودخلة مكروهة : أي نية سيئة . (٢) ربضه أي أثبته .

(٣) أبرق وأرعد بمعنى تهدّد وتوعد . (٤) البعوث : الجيوش .

من وعيدك؛ وأوقد بذلك وأشباهه نيرانَ التحاسد فيهم ، وأضرس أشجار التنافس بينهم ، حتى تُمَلَأَ القلوبُ من الوحشة ، وتنطوى الصدورُ على البغضة ، ويدخل كلاً من كَلِّ الحذرِ والهيبَةِ ؛ فإن مرام الظفر بالغيلة ، والقتال بالحيلة ، والمناصبة بالكتب ، والمكايذة بالرسل ، والمقارعة بالكلام اللطيف المُدخَل في القلوب ، القوي الموقِع من النفوس ، المعقود بالبحج ، الموصول بالحيل ، المبني على اللين الذي يستميل القلوب ؛ ويستترق العقول والآراء ، ويستميل الأهواء ، ويستدعي المواتة ، أنفسد من القتال بطبات السيوف وأسنة الرماح ؛ كما أن الوالي الذي يَسْتَنْزِل طاعة رعيته بالحيل ، ويفرق كلمة عدوه بالمكايذة ، أحكم عملاً وألطف منظرًا وأحسن سياسة من الذي لا ينال ذلك إلا بالقتال ، والإتلاف للأموال والتغريب والخطار^(١)

وليعلم المهديُّ أنه إن وجه لقتالهم رجالاً لم يسر لقتالهم إلا بجنود كشيعة ، تخرج عن حال شديدة ، وتقدم على أسفار ضيقة ، وأموال متفرقة ، وقواد غشاشة ؛ إن أنتمهم استنفدوا ماله ، وإن استنص بهم كانوا عليه لاله .

قال المهديُّ : هذا رأى قد أسفر نوره ، وأبرق ضوؤه ، وتمثل صوابه للعيون ، ومجد حقه في القلوب ، ولكن فوق كل ذي علم عليم ؛ ثم نظر الى ابنه عليّ فقال : ما تقول ؟

قال علي :

أيها المهديُّ ، إن أهل خراسان لم يتحلوا عن طاعتك ، ولم يتصبوا من دونك أحداً يقدح في تفسير مُلكك ، ويربض الأمور لفساد دولتك ؛ ولو فعلوا لكان الخطب أيسر ، والشأن أصغر والحال أدل ، لأن الله مع حقه الذي لا يتخذله ، وعند مواعده الذي لا يُخلفه ، ولكنهم قومٌ من رعيّتك ، وطائفة من شيعتك الذين جعلك الله عليهم وإلياً ، وجعل العدل بينك وبينهم حاكماً ، طلبوا حقاً ، وسألوا إنصافاً ، فإن أجبت الى دعوتهم ونفست عن^(٢)

(١) الخطار : الاشراف على هلكتة

(٢) نفست عنهم : فرحت عنهم .

(١) قبل أن يتلاحم منهم حال، أو يحدث من عندهم فتق، أطعت أمر الرب، وأطفت نائرة الحرب، ووقرت خزائن المال، وطرحت تغرير القتال، وعل الناس تحمل ذلك على طبيعة جودك، وسجية حلمك، وإسباح^(٢) خليقتك، ومعدلة نظرك، فأمنت أن تنسب الى ضعف، وأن يكون ذلك فيما بقي دُرْبَة؛ وإن منعهم ما طلبوا ولم تُجِبهم الى ما سألوا، أعتدت بك وبهم الحال، وساويتهم في ميدان الخطاب؛ فما أرب المهدي أن يعيد الى طائفة من رعيتيه، مقرين بمملكته، مدعين لطاعته، لا يخرجون أنفسهم عن قدرته، ولا يبرئونها من عبوديته، فيملكهم أنفسهم ويخلع نفسه عنهم، ويقف على الحيل معهم، ثم يحازبهم السوء في حد المنازعة ومضمار المخاطرة؛ أريد المهدي - وفقه الله - الأموال؟ فلعمرى لا ينالها ولا يظفر بها إلا بئافاق أكثر منها، مما يطلب منهم وأضعاف ما يدعى قبلهم، ولو نالها حُملت اليه، أو وُضعت بخرائطها بين يديه، ثم تجأفي لهم عنها وطال عليهم بها، لكان مما اليه ينسب وبه يُعرف من الجود الذي طبعه الله عليه، وجعل قُرّة عينه ونهمة نفسه فيه؛ فإن قال المهدي: هذا رأى مستقيم سديد في أهل الخراج الذين شكوا ظلم عمالنا، وتحامل ولاتنا؛ فأما الجنود الذين تقضوا موثيق العهود، وأنطقوا لسان^(٤) الإرجاف وفتحوا باب المعصية، وكسروا قيد الفتنة، فقد ينبغي لهم أن أجعلهم نكالا لتغيرهم وعظة لسواهم؛ فيعلم المهدي أنه لو أتى بهم مغلولين في الحديد، مقرنين في الأصفاد؛ ثم أوسع لحن دماهم عفو، وإقالة عثرتهم صفحة؛ وأسبغهم لما هم فيه من حزبه، أو لمن ييازتهم من عدوه، لما كان بدعا من رأيه، ولا مستنكرا من نظره، لقد علمت العرب أنه أعظم الخلفاء والملوك عفوا، وأشدّها وقعا، وأصدقها صولة؛ وأنه لا يتعاطمه عفو،

(١) نائرة الحرب : ما اشتعل واتقد منها .

(٢) الإسباح : مصدر أَسبَحَ الوالى . اذا أحسن العمو .

(٣) الخريطة : وعاء من آدم وغيره .

(٤) الارجاف : مصدر أَرَجَفَ القوم اذا خاضوا وأحبار الفتن على أن يوقعوا في الناس الاضطراب من غير أن

ولا يتكأده صفح ، وإن عظم الذنب وجل الخطب ، فالرأى للمهدى - وفقه الله تعالى - أن يحلَّ عُقْدَةَ الغيظ بالرجاء لحسن ثواب الله في العفو عنهم ، وأن يذكر أَوْلَى حالاتهم وضيعة عيالاتهم ، يرأ بهم وتوسعاً لهم ؛ فإنهم إخوان دولته ، وأركان دعوته ، وأساس حقه الذين بعزتهم يصول ، وبججتهم يقول ؛ وإنما مثلمهم فيما دخلوا فيه من مسأخطة ، وتعرضوا له من معاصيه ، وأنطوا فيه عن إجابته ، ومثله في قلة ما غير ذلك من رأيه فيهم ، أو قتل من حاله لهم ، أو تغير من نعمته بهم ، كقتل رجلين أخوين متناصرين متآزرين ، أصاب أحدهما خبلٌ عارضٌ ، وهو حادث ، فنهض الى أخيه بالأذى ، وتحمّل عليه بالمكروه ، فلم يزد أخوه إلا رقة له ولطفاً به ، وأحتيالاً لمداواة مرضه ومرآجة حاله ؛ عطفاً عليه ويرأ به ومرحمة له

فقال المهدى : أما على فقد كوى سمّت اللبان ، وفصّ القلوب في أهل خراسان ، ولكل نبأ مستفتراً ، ثم قال : ما ترى يا أبا محمد ؟ يعنى موسى ابنه .

فقال موسى :

أيها المهدى ، لا تسكن الى حلاوة ما يجرى من القول على ألسنتهم ، وأنت ترى الدماء تسيل من خلل فعلهم ؛ الحال من القوم ينادى بمضمرة شر ، وخفية حقد ؛ قد جعلوا المعاذير عليها سترا ، وآخذوا العلل من دونها حجبا ؛ رجاء أن يذافعوا الأيام بالتأخير ، والأموار بالتطويل ؛ فيكسروا حيل المهدى فيهم ، ويفنوا جنوده عنهم حتى يتلاحم أمرهم ، وتتلاحق مآذيتهم ، وتستفحل حربهم ، وتستمر الأمور بهم ؛ والمهدى من قولهم في حال غيرة ولباس أمانة ، قد فتر لها وأنس بها وسكن إليها ؛ ولولا ما اجتمعت به قلوبهم ، وبردت عليه جلودهم من المبالغة بالقتال ، والإضمار للفرار عن داعية ضلال ، أو شيطان فساد ، لرهبوا عواقب أخبار الولاة ، وغبّ سكون الأمور ؛ فليشد المهدى - وفقه الله -

أزره لهم ويكتب كتابه نحوهم ، وليضع الأمر على أشد ما يحضره فيهم ، وليوقن أنه لا يعطيهم خطة يريد بها صلاحهم إلا كانت دربة إلى فسادهم ، وقوة على معصيتهم ، وداعية إلى عودتهم ؛ وسبباً لفساد من يحضرتهم من الجنود ، ومن يبابه من الوفود ، الذين إن أقرهم وتلك العادة ، وأجراهم على ذلك الأرب ، ولم يبرح في فتق حادثٍ وخلاف حاضرٍ ؛ لا يصلح عليه دين ، ولا تستقيم به دنيا ؛ وإن طلب تغييره بعد استحكام العادة ، واستمرار الدربة ، لم يصل إلى ذلك إلا بالعقوبة المفرطة ، والمؤونة الشديدة ، والرأى للمهدى وقفه الله — ألا يقبل عثرتهم ، ولا يقبل معذرتهم ، حتى تطأهم الجيوش ، وتأخذهم السيوف ، ويستحرجهم القتل ، ويحديق بهم الموت ، ويحيط بهم البلاء ، ويطبق عليهم الذل ؛ فإن فعل المهدى بهم ذلك ، كان مقطعة لكل عادة سوءٍ فيهم ، وهزيمة لكل بادرة شرٍ منهم ، وأحتمال المهدى مؤونة غزوتهم هذه يضع عنه غزوات كثيرة ، ونفقات عظيمة .

قال المهدى : قد قال القوم فأحكم يا أبا الفضل .

فقال العباس بن محمد :

أيها المهدى :

أما الموالى فأخذوا بفروع الرأى ، وسلكوا جنات الصواب ، وتعدوا أمورا قصر بنظرهم عنها أنه لم تأت تجار بهم عليها .

وأما الفضل فأشار بالأموال ألا تنفق ، والجنود ألا تفرق ، وبألا يعطى القوم ما طلبوا ، ولا يبذل لهم ما سألوا ، وجاء بأمر بين ذلك استصغاراً لأمرهم وأستهانة بجرهم ؛ وإنما يبيع جسيات الأمور صغارها .

وأما على فأشار باللين وإفراط الرفق، وإذا جرد الوالى لمن غمط أمره وسفه حقه، اللين بحتاً والخير محضاً، لم يخلطهما بشدة تعطف القلوب عن لينه، ولا يشريحيهم إلى خيره، فقد ملكهم الخلع لعُدْرِهِمْ^(٢) وسَّع لهم الفُرْجَةَ^(٣) لئنى أعتاقهم؛ فإن أجابوا دعوته وقبلوا لينه من غير خوفٍ أضطَّروهم ولا شدَّةً، فزَوَّوهُم^(٤) في رءوسهم يستدعون بها البلاء إلى أنفسهم، ويستصرخون بها رأى المهدي فيهم؛ وإن لم يقبلوا دعوته ويسرعوا لإجابته باللين المحض والخير الصراح، فذلك ما عليه الظن بهم والرأى فيهم، وما قد يُشبهه أن يكون من مثلهم، لأن الله تعالى خلق الجنة وجعل فيها من النعم المقيم والملك الكبير ما لا يخطر على قلب بشر ولا تدركه الفكر ولا تعلمه نفس؛ ثم دعا الناس إليها ورغبهم فيها، فلولا أنه خلق ناراً جعلها لهم رحمة يسوقهم بها إلى الجنة، لما أجابوا ولا قبلوا.

وأما موسى فأشار بأن يعصوا بشدة لآلٍ فيها، وأن يرموا بشر لا خير معه، وإذا أضمر الوالى لمن فارق طاعته، وخالف جماعته، الخوف مفرداً، والشر مجزئاً، ليس معهما طمع ولا لين يثنيهم، أشتدت الأمور بهم، وأتقطعت الحلال منهم إلى أحد أمرين: إما أن تدخلهم الحمية من الشدة، والأنفة من الذلة، والآتعاض من القهر؛ فيدعوهم ذلك إلى التمادى في الخلاف، والاستبسال في القتال، والاستسلام للوت؛ وإما أن يتقادوا بالكراهة، ويذعنوا بالقهر على بغضة لازمة، وعداوة باقية، تُورث التفاق وتُعقب الشقاق؛ فإذا أمكنتهم فرصة، أو ثابت لهم قدرة، أو قويت لهم حال؛ عاد أمرهم إلى أصعب وأغلظ وأشد ما كان.

(١) غمط الأمر: ازدراه. وسفه حقه: أمتهه ويخسه

(٢) العُدْر جمع عذار.

(٣) الفُرْجَة: الوثوب إلى الشر.

(٤) زَوَّوهُم: نواه وشده.

وقال في قول الفضل :

أيها المهديّ، أكفني دليل، وأوضح بهان، وأبين خبر بان، قد أجمع رأيه وحزم نظره
على الإرشاد ببعثة الجيوش اليهم، وتوجيه البعث نحوهم، مع إعطائهم ما سألوها من الحق،
وإجابتهم الى ما سألوها من العدل .

قال المهديّ : ذلك رأي .

قال هارون :

ما خلطت الشدة أيها المهديّ باللين، وانتظم أمر الدنيا بالدين، فصارت الشدة أمر
فطام لما تكروه، وعاد اللين أهدي قائد الى ما تُحِبُّ ؛ ولكن أرى غير ذلك .^(١)

قال المهديّ :

لقد قلت قولاً بديعاً ، خالفت فيه أهل بيتك جميعاً ؛ والمرء مؤتمن بما قال ، وظنين^(٢)
بما ادعى حتى يأتي بيينة عادلة ، وحجة ظاهرة ، فأخرج عما قلت .

قال هارون :

أيها المهديّ، إن الحرب خدعة، والأعاجم قوم مكرّة؛ وربما اعتدلت الحال بهم،
وآتفت الأهواء منهم؛ فكان باطن ما يُسرون على ظاهر ما يُعلنون، وربما آفرت
الحالان، وخالف القلب اللسان، فأنطوى القلب على محجوبة تُبطن، وأستسر بمدخولة^(٣)
لا تُعلن؛ والطيب الرفيق يطبه، البصير بأمره، العالم بمقدم يده وموضع ميسمه؛ لا يتعجل^(٤)
بالدواء، حتى يقع على معرفة الداء، فالرأي للمهديّ — وفقه الله — أن يقتر باطن أمرهم
قر المسنة، ويخض ظاهر حالهم مخض السقاء بتابعة الكتب، ومظاهرة الرسل، وموالاتة

(١) الفطام هنا : القطع والاستئصال .

(٢) ظنين بما ادعى : منهم بدعواه .

(٣) الميسم : المكواة يومس بها الحيوان .

(٤) قر الدابة : فتح فاها وكشف عن أسانها ينظر ما سنها . والمس من الدواب ما دخل في الثامة

العيون ، حتى تُهتَكَ حجبُ عيونهم ، وتُكشَفُ أَعْظِيَةُ أمورهم ؛ فإنْ أُنْفِرَجَتِ الحالُ ، وأُفْضَتِ الأمورُ بهِ الى تغييرِ حالٍ أو دَاعِيَةٍ ضَلالٍ ، أَشْتَمَلتِ الأهواءُ عليه ، وأَقْتَادَ الرجالُ اليه ، وأَمْتَدتِ الأَعناقُ نحوه بدينٍ يَعْتَقِدُونَهُ ، وإِثْمٌ يَسْتَحِلُّونَهُ ، عَصَبَهُمْ بِشَدَّةٍ لا يَبِينُ فِيهَا ، ورمَاهم بعقوبة لا عفو معها ، وإنْ أُنْفِرَجَتِ العيونُ ، وَأَهْتَصِرَتِ السُّتُورُ ، ورُفِعَتِ الحُجُبُ ، والحالُ فِيهِمْ مَرِيعةٌ ، والأُمُورُ بِهِمْ مَعْتَدِلَةٌ فِي أرْزاقِ يَطْلُبُونَهَا ، وأَعْمالٌ يُنْكَرُونَهَا ، وظُلُماتٌ يَدْعُونَهَا ، وحقوقٌ يَسْأَلُونَهَا ، بِماتَهُ سَابِقَتَهُمْ ، ودَالَّةٌ مَنَاصِحَتَهُمْ ؛ فالرأى للمهدى — وفقه الله — أن يَتَسَعَّ لِمَ بِمَا طَلَبُوا ، وَيَتَجَبَّأُ لِمَ عَمَّا كَرِهُوا ، وَيَتَسَعَّبُ مِنْ أَمْرِهِمْ مَا صَدَعُوا ، وَيَرْتَقِ مِنْ قَتْفِهِمْ مَا قَطَعُوا ، وَيَوَلَّى عَلَيْهِمْ مِنْ أَحِبَّاءٍ ؛ وَيَدَاوِي بِذَلِكَ مَرَضَ قُلُوبِهِمْ ، وَفَسَادَ أُمُورِهِمْ ؛ فَإِنَّمَا المهدى وَأُمَّتُهُ ، وَسَوَادُ أَهْلِ مَمْلَكَتِهِ ، بِمَنْزِلَةِ الطَّيِّبِ الرَفِيقِ ، وَالوَالِدِ الشَّفِيقِ ، وَالرَاعِيِ الحِزْبِ الَّذِي يَحْتالُ لِمَرَابِضِ غَنَمِهِ ، وَضَوَّالٌ رَعِيْتَهُ ، حَتَّى يُبْرِئَ المَرِيضَةَ مِنْ دَاءِ عِلَّتِهَا وَيُرَدِّدُ الصَّحِيحَةَ إِلَى أُنْسِ جَماعَتِهَا ؛ ثُمَّ إِنَّ خِرَاسانَ بِخَاصَّةِ الدِّينِ لِمَ دَالَّةٌ مَحْمُولَةٌ ، وَماتَهُ مَقْبُولَةٌ ، وَوَسِيلَةٌ مَعْرُوفَةٌ ، وَحَقُوقٌ وَاجِبَةٌ ؛ لِأَنَّهُمْ أَيْدِي دَوْلَتِهِ ، وَسِیُوفُ دَعْوَتِهِ ، وَأَنْصارُ حَقِّهِ ، وَأَعوانُ عَدْلِهِ ؛ فَلَيْسَ مِنْ شَأْنِ المهدى الأَضْطِغاطُ عَلَيْهِمْ ، وَلا المُواخَذَةُ لَهُمْ ، وَلا التَّوَعِيرُ بِهِمْ ، وَلا المِکافَأَةُ بِإِساءَتِهِمْ ، لِأَنَّ مِبادِرَةَ حَسْمِ الأُمُورِ ضَعِيفَةٌ قَبْلَ أَنْ تَقْوَى ، وَمِحاوِلَةُ قَطْعِ الأَصُولِ ضَمِيلَةٌ قَبْلَ أَنْ تَعْلُظَ ، أَحْزَمٌ فِي الرَأْيِ ، وَأَصَحُّ فِي التَّدْيِيرِ مِنَ التَّأخِيرِ لَهَا وَالتَّهَانِ بِهَا ، حَتَّى يَلْتَمَّ قَلِيلُها بِكَثيرِها ، وَتَجْتَمِعَ أَطرافُها إِلَى جُمُهورِها .

قال المهدى : ما زال هارونُ يَقعُ وَقَعَ الحَيَا حَتَّى خَرَجَ خُرُوجَ القِذْحِ مِنَ المِاءِ ، وَأَنْسَلَّ أَسْلالُ السِّيفِ فِيما أَدْعَى ، فَدَعُوا ما سَبَقَ مُوسى فِيهِ أَنَّهُ هُوَ الرَأْيِ ، وَتَنَى بَعْدَهُ هارونُ ، وَلَكِنْ مِنَ لَأَعِنَّةِ الخِيلِ وَسِياسَةِ الحِربِ وَقادَةِ النَّاسِ إِنْ أَمَعْنَ بِهِمُ الجَّجْجُ ، وَأَفْرَطَتْ بِهِمُ الدالَّةُ ؟ .

(١) المائة : الحرمة والوسيلة .

(٢) التوعير بهم : التشديد عليهم .

قال صالح :

لسنا نبلغ أيها المهديّ بدوام البحث وطول الفكر أدنى فِرَاسَةٍ رأيتُك ، وبعضَ لحظّاتٍ نظرتُك ؛ وليس يَنْقُصُ عنك من بيوتات العرب ورجال العجم ذو دِينٍ فاضلٍ ، ورأى كاملٌ ، وتدير قوياً ؛ تقلِّدُه حربكُ ، وتستودِعُه جنديكُ ، ممن يَحْتَمِلُ الأمانةَ العظيمةَ ، ويضطَلِعُ بالأعباء الثقيلةَ ؛ وأنتُ بحمدِ الله ميمونُ النقيبةِ ، مباركُ العزيمةِ ، محبوبُ التجاربِ ، محمودُ العواقبِ ، معصومُ العزمِ ؛ فليس يقع اختيارُك ، ولا يقفُ نظرتُك على أحدٍ تولىه أمرُك ، وتُسندُ إليه تفركُ ، إلا أراك اللهُ ما تحبُّ ، وجمع لك منه ما تريد .

قال المهديّ : إني لأرجو ذلك لتقديمِ عادةِ الله فيه ، وحسينِ معونته عليه ؛ ولكن أحبُّ الموافقة على الرأي ، والأعتبار للشاورة في الأمر المهم .

قال محمد بن اللَّيث :

أهلُ خراسان أيها المهديّ ، قوم ذوو عِزَّةٍ ومَنَعَةٍ ، وشياطين خَدَعَةٍ ؛ زُرُوعُ الحِمِيَّةِ فيهم نابتةٌ ، وملايس الأثقة عليهم ظاهرةٌ ؛ فالروية عنهم عازبةٌ ، والعجلة فيهم حاضرةٌ ؛ تسبق سيولهم مطرهم ، وسيوفهم عدلهم ، لأنهم بين سيفلة لا يعدو مَبْلُغُ عقولهم مَنْظَرَ عيونهم ، وبين رؤساء لا يُلجَمُونَ إلا بشدَّةٍ ، ولا يَفْطَمُونَ إلا بالترَبِّ ؛ وإن ولى المهديّ عليهم وضيعة لم تنقذ له العظاءُ ، وإن ولى أمرهم شريفاً تحامل على الضعفاء ؛ وإن أخر المهديّ أمرهم ، ودافع حربهم ، حتى يُصيب لنفسه من حَشَمِه ومواليه ، أو بنى عمه أو بنى أبيه ؛ ناصحاً يتفق عليه أمرهم ، وثقةً تجتمع له أملاؤهم بلا أثقة تَلَزِمُهُم ، ولا حمية تدخلهم ، ولا مصيبة تنفرهم ؛ تنفست الأيامُ بهم ، وتراحت الخالُ بأمرهم ؛ فدخل بذلك من الفساد الكبير ، والضياع العظيم ، ما لا يتلافاه صاحبُ هذه الصِّعَةِ وإن جدَّ ، ولا يستصاحه وإن جهَد .

(١) ميمون النقيبة : أي مبارك العس يمجح فيما يحاول . ومحبور التجارب : حبيبها .

(٢) العازب : العائب .

(٣) العذل : اسم مصدر من العذل بمعنى اللوم ومنه المثل "سبق السيف العذل" يصبر لما قد فات .

إلا بعد دهر طويل وشركبير؛ وليس المهدي - وفقه الله - فاطماً عاداتهم، ولا قاربا صفاتهم، بمثل أحد رجلين لا ثالث لهما، ولا عدل في ذلك بهما :

أحدهما لسانٌ ناطقٌ موصولٌ بسمعك، ويدٌ ممثلةٌ لعينك، وصخرةٌ لا تُزعزعُ، وبهمةٌ لا يُثنى؛ وبازلٌ لا يُفزعُه صوتُ الجبل، نقيّ العِرض، نزيه النفس، جليل الخطر، قد أتضعت الدنيا عن قدره، وسمنا نحو الآخرة بهمته، فجعل العِرضَ الأقصى لعينه نصباً، والغرضَ الأدنى لقدمه مؤطناً؛ فليس يقبل عملاً، ولا يتعدى أملاً؛ وهو رأس مواليك، وأنصح بني أبيك؛ رجل قد عُذّي بلطيف كرامتك، ونبت في ظل دولتك، ونشأ على قوائم أدبك؛ فإن قلده أمرهم، وحملته ثقلهم، وأسندت إليه ثغرهم؛ كان قفلاً فتحه أمرُك، وباباً أغلقه نهيُك؛ فجعل العدل عليه وعليهم أميراً، والإنصاف بينه وبينهم حاكماً؛ وإذا حكم النصفَةَ وسلك المعدلة، فأعطاهم ما لهم وأخذ منهم ما عليهم، غرس في الذي لك بين صدورهم، وأسكن لك في السويداء داخل قلوبهم، طاعةً راسخة العروق، بأسقة الفروع، مماثلةً في حواشي عوامهم، متمكنة من قلوب خواصهم؛ فلا يبقى فيهم ريب إلا نفوه، ولا يلزمهم حقٌ إلا أدوه؛ وهذا أحدهما .

والآخر عودٌ من غيظتك؛ ونبعةٌ من أرومتك، قبي السن كهل الحلم راجح العقل محمود الصرامة مأمون الخلاف؛ يجرد فيهم سيفه، ويسط عليهم خيره بقدر ما يستحقون، وعلى حسب ما يستوجبون؛ وهو فلان أيها المهدي، فسلفه - أعزك الله - عليهم، ووجهه بالحيوش اليهم، ولا تمنك ضراعة سنه، وحدائمه مولده؛ فإن الحلم والثقة مع الحدائمه، خير من الشك والجهل مع الكهولة؛ وإنما أحداثكم أهل البيت فيما طبعكم الله عليه، وأختصكم به من مكارم الأخلاق، ومحامد الفعال، ومحاسن الأمور، وصواب التدبير، وصرامة الأنفس؛ كفيراج عتاق الطائر المحبكة لأخذ الصيد بلا تدريب، والعارفة

(١) ضراعة سنه : شبايه وحدائمه سه

(٢) عتاق الطير : كرام الطير .

لوجوه النَّفع بلا تأديب؛ فالحلمُ والعلمُ والعزمُ والحزمُ والجلودُ والثَّوْدَةُ والرَّفْقُ ثابتٌ في صدوركم ،
مزروعٌ في قلوبكم ، مستحْكِمٌ لكم ، متكاملٌ عندكم ، بطبائعٍ لازمة ، وغرائزٍ ثابتة .

قال معاوية بن عبد الله :

إِقْتَاءُ أَهْلِ بَيْتِكَ أَيُّهَا الْمَهْدِيُّ فِي الْحِلْمِ عَلَى مَا ذَكَرَ . وَأَهْلُ خِرَاسَانَ فِي حَالِ عِزِّ عَلَى
مَا وُصِفَ ، وَلَكِنْ إِنْ وُلِّيَ الْمَهْدِيُّ عَلَيْهِمْ رَجُلًا لَيْسَ بِقَدِيمِ الذِّكْرِ فِي الْجُنُودِ ، وَلَا بِنَيْبِهِ
الصُّوْتِ فِي الْحُرُوبِ ، وَلَا بِطَوِيلِ التَّجَرِبَةِ لِلْأُمُورِ ، وَلَا بِمَعْرُوفِ السِّيَاسَةِ لِلْجِيُوشِ وَالْهَيْبَةِ
فِي الْأَعْدَاءِ ؛ دَخَلَ ذَلِكَ أَمْرَانِ عَظِيمَانِ وَخَطَرَانِ مَهُولَانِ ، أَحَدُهُمَا : أَنْ الْأَعْدَاءَ يَتَّقِمِزُونَهَا
مِنْهُ وَيَحْتَقِرُونَهَا فِيهِ ، وَيَحْتَرُونَ بِهَا عَلَيْهِ فِي النُّهُوضِ بِهِ وَالْمُقَارَعَةِ لَهُ ، وَالْخِلَافِ عَلَيْهِ ، قَبْلَ
الِاخْتِبَارِ لِأَمْرِهِ ، وَالتَّكْشِيفِ لِحَالِهِ وَالْعِلْمِ بِطِبَاعِهِ . وَالْأَمْرُ الْآخِرُ : أَنْ الْجُنُودَ الَّتِي يَقُودُ
وَالْجِيُوشَ الَّتِي يَسُوسُ إِذَا لَمْ يَحْتَرُوا مِنْهُ الْبَأْسَ وَالنَّجْدَةَ ، وَلَمْ يَعْرِفُوهُ بِالصَّبِيَّةِ وَالْهَيْبَةِ ،
أَنْكَسَرَتْ شَجَاعَتُهُمْ ، وَمَاتَتْ نَجْدَتُهُمْ ، وَأَسْتَأْخَرَتْ طَاعَتُهُمْ إِلَى حِينِ آخْتِبَارِهِمْ ، وَوُقُوعِ
مَعْرِقَتِهِمْ ؛ وَرَبْمَا وَقَعَ الْبُورَاقِبُ الْإِخْتِبَارِ ؛ وَبِبَابِ الْمَهْدِيِّ - وَقَعَهُ اللَّهُ - رَجُلٌ مَهِيْبٌ
نَيْبُهُ حَيْنِكَ صَبِيَّةٌ ؛ لَهُ نَسَبٌ زَالِكٌ وَصُوتٌ عَالٍ ، قَدْ قَادَ الْجِيُوشَ وَسَاسَ الْحُرُوبَ ، وَتَأَلَّفَ
أَهْلَ خِرَاسَانَ ، وَاجْتَمَعُوا عَلَيْهِ بِالْمَقَّةِ ، وَوَقِفُوا بِهِ كُلِّ الثَّقَةِ ؛ فَلَوْ وُلَّاهُ الْمَهْدِيُّ أَمْرَهُمْ ،
لَكَفَاهُ اللَّهُ شَرَّهُمْ .

قال المهديّ : جَانَبَتِ قَصْدَ الرِّمِيَّةِ ، وَأَبَيْتَ إِلَّا عَصَبِيَّةً ؛ إِذْ رَأَى الْحَدَثَ مِنْ أَهْلِ
بَيْتِنَا ، كَرَأَى عَشْرَةَ حُلَمَاءَ مِنْ غَيْرِنَا ؛ وَلَكِنْ أَيْنَ تَرَكْتُمْ وُلِّيَ الْعَهْدَ .

قالوا :

لَمْ يَمْنَعْنَا مِنْ ذِكْرِهِ إِلَّا كَوْنَهُ شَبِيهَ جَدِّهِ ، وَنَسِيحَ وَحْدَهُ ؛ وَمِنْ الدِّينِ وَأَهْلِهِ ، بِحَيْثُ يَقْصُرُ
الْقَوْلُ عَنْ أَدْنَى فَضْلِهِ ؛ وَلَكِنْ وَجَدْنَا اللَّهَ عِزَّ وَجَلَّ حَجَبَ عَنِ خَلْقِهِ ، وَسَتْرَمَنْ دِهْنَ عِبَادِهِ
عِلْمَ مَا تَحْتَلِفُ بِهِ الْأَيَّامُ ، وَمَعْرِفَةَ مَا تَجْرِي عَلَيْهِ الْمَقَادِيرُ ، مِنْ حَوَادِثِ الْأُمُورِ وَرَيْبِ الْمُنُونِ

المُحْتَرِمَةَ نَحْوَالِي الْقُرُونِ وَمَوَاضِي الْمُلُوكِ ، فَكَرِهْنَا شُسُوعَهُ ^(١) عَنْ حَمَلَةِ الْمَلِكِ وَدَارِ السُّلْطَانِ وَمَقَرِّ
 الْإِمَامَةِ وَالْوَالِيَةِ وَمَوَاضِعِ الْمَدَائِنِ وَالخِزَانِ ، وَمَسْتَقَرِّ الْجُنُودِ وَمَعْدِنِ الْجُودِ ؛ وَتَجَمُّعِ الْأَمْوَالِ
 الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ قُطْبًا لِدَارِ الْمَلِكِ وَمِصْبَدَةً لِقُلُوبِ النَّاسِ وَمَنَابِتَةً لِإِخْوَانِ الطَّمَعِ وَتُورِ الْفِتَنِ ،
 وَدَوَاعِي الْبِدَعِ وَفِرْسَانَ الضَّلَالِ وَأَبْنَاءَ الْمَوْتِ . وَقُلْنَا : إِنْ وَجَّهَ الْمَهْدِيُّ وِلْيَّ عَهْدِهِ فَخَدَّتْ
 فِي جَبُوشِهِ وَجُنُودِهِ مَا قَدْ حَدَثَ بِجُنُودِ الرَّسُلِ مِنْ قَبْلِهِ ، لَمْ يَسْتَطِعِ الْمَهْدِيُّ أَنْ يُعَقِّبَهُمْ
 بغيرِهِ إِلَّا أَنْ يَنْهَدَ إِلَيْهِمْ بِنَفْسِهِ ؛ وَهَذَا خَطَرٌ عَظِيمٌ وَهَوْلٌ شَدِيدٌ ، إِنْ تَنَفَّسَتِ الْأَيَّامُ بِمَقَامِهِ ،
 وَأَسْتَدَارَتِ الْحَالُ بِإِمَامِهِ ، حَتَّى يَقَعَ عِوَضٌ لَا يُسْتَغْنَى عَنْهُ ، أَوْ يَحْدُثَ أَمْرٌ لَا يَدُّ مِنْهُ ،
 صَارَ مَا بَعْدَهُ مِمَّا هُوَ أَعْظَمُ هَوْلًا وَأَجَلٌ خَطَرًا لَهُ تَبَعًا وَبِهِ مُتَّصِلًا .
 قَالَ الْمَهْدِيُّ :

الْخَطْبُ أَيُّسْرُمًا تَذَهَبُونَ إِلَيْهِ ، وَعَلَى غَيْرِ مَا تَصِفُونَ الْأَمْرَ عَلَيْهِ ؛ نَحْنُ أَهْلُ الْبَيْتِ
 نَجْرِي مِنْ أَسْبَابِ الْقَضَايَا وَمَوَاقِعِ الْأُمُورِ ، عَلَى سَابِقِي مِنَ الْعِلْمِ وَمَحْتَوِيمِ مِنَ الْأَمْرِ ؛ قَدْ
 أَنْبَأَتْ بِهِ الْكُتُبُ ، وَنَبَأَتْ عَلَيْهِ الرَّسُلُ ؛ وَقَدْ تَنَاهَى ذَلِكَ بِأَجْمَعِهِ الْبِنَاءُ وَتَكَامُلِ بِحِذَائِرِهِ
 عِنْدَنَا ؛ فِيهِ نُدَبِرُ وَعَلَى اللَّهِ تَتَوَكَّلُ . إِنَّهُ لَا يَدُّ لَوْلَى عَهْدِي وَوَلِيَّ عَهْدِ عَقْبِي بَعْدِي أَنْ يَقُودَ
 إِلَى خِرَاسَانَ الْبُعُوثِ ، وَيَتَوَجَّهَ نَحْوَهَا بِالْجُنُودِ .

أَمَّا الْأَوَّلُ فَإِنَّهُ يُقَدِّمُ إِلَيْهِمْ رِسْلَهُ ، وَيُعْمَلُ فِيهِمْ حِيَلُهُ ؛ ثُمَّ يُخْرِجُ نَشِطًا إِلَيْهِمْ حَقِيقًا
 عَلَيْهِمْ ، يَرِيدُ أَلَّا يَدَعَ أَحَدًا مِنَ إِخْوَانِ الْفِتَنِ وَدَوَاعِي الْبِدَعِ وَفِرْسَانَ الضَّلَالِ ، إِلَّا تَوَطَّأَهُ
 بِحِزْمِ الْقَتْلِ ، وَأَلْبَسَهُ قِنَاعَ الْقَهْرِ ، وَقَلَّدَهُ طَوْقَ الذَّلِّ ؛ وَلَا أَحَدًا مِنَ الَّذِينَ عَمِلُوا فِي قِصِّ
 جَنَاحِ الْفِتْنَةِ ، وَإِنْمَادِ نَارِ الْبِدْعَةِ ، وَنُصْرَةِ وِلَاةِ الْحَقِّ ، إِلَّا أَجْرَى عَلَيْهِمْ دِيمَ فَضْلِهِ ، وَجَدَاوَلَ
 نَهْلِهِ ؛ فَإِذَا خَرَجَ مُزْمِعًا بِهِ مُجْبِعًا عَلَيْهِ ، لَمْ يَسِرْ إِلَّا قَلِيلًا حَتَّى تَأْتِيَهُ أَنْ قَدْ عَمِلَتْ حِيَلُهُ ،
 وَكَدَحَتْ كُتُبُهُ وَفَنَّدَتْ مَكَائِدُهُ ؛ فَهَدَأَتْ نَافِرَةَ الْقُلُوبِ ، وَوَقَعَتْ طَائِرَةُ الْأَهْوَاءِ ، وَأَجْتَمَعَ

(١) شسوعه : ابتعاده .

(٢) سعت ودأبت حتى أترت .

(٣) وقعت طائرة الأهواء : نهد غضبها وسكن روعها

عليه المختلِفون بالرضا ؛ فيميل نظراً لهم ، ويرأبهم ، وتعطف عليهم ، الى عدو قد أخاف سيئهم ، وقطع طريقهم ، ومنع حجَّاجهم بيت الله الحرام ، وسلب تجارهم رزق الله الحلال .

وأما الآخر فإنه يوجه اليهم ، ثم تُعتدله المجتة عليهم ، بإعطاء ما يطلبون ، وبذل ما يسألون ؛ فاذا سمحت الفرق بقراباتها له ، وجتأ أهل النواحي بأعناقهم نحوه ؛ فأصغت اليه الأئمة ، واجتمعت له الكلمة ؛ وقدمت عليه الوفود قصداً لأول ناحية نجحت بطاعتها وألقت بأزمتها ؛ فالبسها جناح نعمته ، وأنزلها ظل كرامته ، وخصها بعظيم حباؤه ؛ ثم عم الجماعة بالمعدلة ، وتعطف عليهم بالرحمة ؛ فلا تبقى فيهم ناحية دانية ولا فرقة قاصية ، إلا دخلت عليها بركته ، ووصلت اليها منفعتُه ؛ فأغنى فقيرها ، وجبر كسيرها ، ورفع وضعها ، وزاد رفيعها ما خلا ناحيتين ؛ ناحية يغلب عليها الشقاء ، وتسميهم الأهواء ، فتستخف بدعوته ، وتبطئ عن إجابته ، وتناقض عن حقه ، فتكون آخر من يبعث وأبطأ من يوجه ؛ فيصطلي عليها موجدة ويتنقى لها علة ، لا يلبث أن يهد بحق يلزمهم وأمر يجب عليهم ، فتستلحمهم الجيوش ، وتأكلهم السيوف ، ويستحزهم القتل ، ويحيط بهم الأسر ، ويفنيهم التتبع ؛ حتى يجرب البلاد ، ويؤتم الأولاد ؛ وناحية لا يبسط لهم أمانا ، ولا يقبل لهم عهدا ولا يجعل لهم ذمة ؛ لأنهم أول من فتح باب الفرقة ، وتدرع جلاباب الفتنة ، ورضض في شق العصا ؛ ولكنه يقتل أعلامهم ، ويأسر قوادهم ؛ ويطلب هربهم في لجج البحار ، وقلل الجبال ، وحمل الأودية ، وبطنون الأرض ، تقتيلا وتغليلا وتنكيلا ؛ حتى يدع الديار خرابا ، والنساء أيامي ؛ وهذا أمر لا نعرف له في كتبنا وقتا ، ولا نصح منه غير ما قلنا تفسيرا .

وأما موسى ولي عهدى فهذا أوان توجهه الى خراسان ، وحلوله بجرجان ؛ وما قضى الله له من الشخوص اليها ، والمقام فيها ، خير للسامين مغبة ، وله بإذن الله حاقبة من المقام ، بحيث يفسر في لجج بحورنا ، ومده أفسح سبيلنا ، ومجامع أمواجنا ؛ فيتصاغر عظيم فضيله ،

وَيَتَذَابُ^(١) مَشْرُقِ نوره، وَيَتَقَلَّلُ كثير ما هو كائن منه؛ فَمَنْ يَصْحَبُه من الوزراء وَيُخْتَارُه من الناس

قال محمد بن الليث :

أيها المهديّ : إن وليّ عهدك أصبح لأمتك وأهل ملتك علماً ، قد تَنَتَّ نحوه أعناقها ، ومَدَّت سَمْتَه أبصارها ؛ وقد كان لقرب داره منك ، ومحل جواره لك ، عَطَّلَ الحال غُفَلَ الأمر وإسَع العُدْر ؛ فأما إذا انفرد بنفسه وخلا بنظره وصار الى تدييره ، فإن من شأن العامة أن تُتَفَقَد مَخَارِجُ رأيه ، وتَسْتَنْصِت لمواقع آثاره ، وتَسْأَل عن حوادث أحواله في برّه ومرحمته وإقساطه ومعدّلته وتدييره وسياسته ووزرائه وأصحابه ؛ ثم يكون ما مسيق اليهم أغلب الأشياء عليهم وأملك الأمور بهم وأزَمها لقلوبهم ، وأشدّها استمالةً لرأيهم وعطفاً لأهوائهم ؛ فلا يفتأ المهديّ - وفقه الله - ناظراً له فيما يقوى عُمد مملكته ، ويُسدّد أركان ولايته ، ويستجمِع رضا أمته بأمرٍ هو أزين لحاله وأظهر لجماله ، وأفضل مَغَبَّة لأمره ؛ وأجل موقِعاً في قلوب رعيتِه ، وأحمد حالاً في نفوس أهل ملته ؛ ولا أدفع مع ذلك بأستجماع الأهواء له ، وأبْلِع في أستعطاف القلوب عليه ، من مرحمة نظهر من فعلِه ، ومعدّلة تنشر عن أثره ومحبّة للخير وأهله ، وأن يخار المهديّ - وفقه الله - من خيار أهل كل بلدة ، وفقهاء أهل كل مِصر ؛ أقواماً تَسْكُن اليهم العامة إذا ذكروا ، وتأنس الرعيّة بهم إذا وُصِفوا ؛ ثم تُسَهِّل لهم عِمارة سُبُل الإحسان وفتح باب المعروف . كما قد كان فتح له وسهّل عليه

قال المهديّ : صدقت ونصحت ، ثم بعث في ابنه موسى فقال :

أى بُنَيّ ، إنك قد أصبحت^(٢) ت وجود العامة نصّباً ، وليثني أعطاف الرعيّة غايه ؛ فحسنتك شاملة ، وإساءتك نائية ، وأمرك ظاهر ؛ فعليك بتقوى الله وطاعته ، فاحتمل

(١) يتذاب: ينجث . (٢) تُتَفَقَد مَخَارِجُ رأيه : أى تفحص عن وجوه رأيه وتدييره . (٣) أملك

الأمور : أمشيها . (٤) الهمة : المذهب والقصد . (٥) الأعطاف : جمع عطف وهو الحانق .

سَخَطَ النَّاسَ فِيهِمَا ، وَلَا تَطْلُبُ رِضَاهُمَا بِخِلَافِهِمَا ؛ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ كَافِيكَ مَنْ أَسَخَطَهُ عَلَيْكَ إِثَارُكَ رِضَاهُ ، وَلَيْسَ بِكَافِيكَ مَنْ يُسَخِطُهُ عَلَيْكَ إِثَارُكَ رِضَا مَنْ سِوَاهُ . ثُمَّ أَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى فِي كُلِّ زَمَانٍ فِتْرَةٌ مِنْ رُسُلِهِ ، وَبَقَايَا مِنْ صَفْوَةِ خَلْقِهِ وَخَبَايَا لِنُصْرَةِ حَقِّهِ ، يَجْتَدِدُ حِجْلَ الْإِسْلَامِ بِدَعْوَاهُمْ ، وَيَسْتَيْدُ أَرْكَانَ الدِّينِ بِنَصْرَتِهِمْ ؛ وَيَتَّخِذُ لِأَوْلِيَاءِ دِينِهِ أَنْصَارًا ، وَعَلَى إِقَامَةِ عَدْلِهِ أَعْوَانًا ؛ يَسْتَدُونَ الْخَلَلَ وَيَقِيمُونَ الْمَيْلَ ، وَيُدْفَعُونَ عَنِ الْأَرْضِ الْفَسَادَ ؛ وَإِذَا أَهْلُ خِرَاسَانَ أَصْبَحُوا أَيْدِي دَوْلَتِنَا ، وَسَيْفُ دَعْوَتِنَا الَّذِينَ نَسْتَدْفِعُ الْمَكَارَهَ بِطَاعَتِهِمْ ، وَنَسْتَصْرِفُ نَزُولَ الْعِظَائِمِ بِمَنَاصِحَتِهِمْ ؛ وَنُدَافِعُ رَيْبَ الزَّمَانِ بِعِزَائِمِهِمْ ، وَنُزَاحِمُ رُكْنَ الدَّهْرِ بِبِصَائِرِهِمْ ؛ فَهَمَّ عِمَادُ الْأَرْضِ إِذَا أُرْجِحَتْ كُنْفُهَا^(١) ، وَخَوْفُ الْأَعْدَاءِ إِذَا بَرَزَتْ صَفْحَتُهَا ، وَحِصُونُ الرَّعِيَّةِ إِذَا تَضَايَقَتِ الْحَالَ بِهَا ؛ قَدِمَتْ لَهُمْ وَقَائِعُ صَادِقَاتٍ ، وَمَوَاطِنُ صَالِحَاتٍ ؛ أُنْحَدَتْ نِيرَانُ الْفِتَنِ ، وَقَسَمَتْ دَوَاعِيَ الْبَدْعِ ، وَأَذَلَّتْ رِقَابَ الْجُبَّارِينَ وَلَمْ يَنْفَكُوا كَذَلِكَ مَا جَرَوْا مَعَ رِيحِ دَوْلَتِنَا ، وَأَقَامُوا فِي ظِلِّ دَعْوَتِنَا ، وَأَعْتَصَمُوا بِحِجْلِ طَاعَتِنَا ؛ الَّتِي أَعَزَّ اللَّهُ بِهَا ذِلَّتَهُمْ وَرَفَعَ بِهَا ضَعْفَهُمْ ؛ وَجَعَلَهُمْ بِهَا أَرْبَابًا فِي أَقْطَارِ الْأَرْضِ ، وَمَلُوكًا عَلَى رِقَابِ الْعَالَمِينَ بَعْدَ لِبَاسِ الذَّلِّ ، وَقِنَاعِ الْخَوْفِ ، وَإِطْبَاقِ الْبِلَاءِ وَمُخَالَفَةِ الْأَمْسِ ، وَجَهْدِ الْبَأْسِ وَالضَّرْبِ ؛ فَظَاهَرُوا عَلَيْهِمْ لِبَاسَ كِرَامَتِكَ ، وَأَنْزَلْتَهُمْ فِي حَدَائِقِ نِعْمَتِكَ ؛ ثُمَّ أَعْرِفْ لَهُمْ حَقَّ طَاعَتِهِمْ ، وَوَسِيلَةَ دَائِلَتِهِمْ ، وَمَا تَعَلَّقَتْ سَابِقَتُهُمْ ، وَحُرْمَةَ مَنَاصِحَتِهِمْ ؛ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ ، وَالتَّوَسُّعِ عَلَيْهِمْ ، وَالْإِنَابَةَ لِحُسْنِهِمْ ، وَالْإِقَالََةَ لِمُسِيئَتِهِمْ .

أَيُّ بُحْيٍّ ، ثُمَّ عَلَيْكَ الْعَامَّةُ فَاسْتَدْعِ رِضَاهَا بِالْعَدْلِ عَلَيْهَا ، وَاسْتَجْلِبْ مَوَدَّتَهَا بِالْإِنْصَافِ لَهَا ؛ وَتَحَسَّنْ بِذَلِكَ لِرَبِّكَ ، وَتَوَقَّقْ بِهِ فِي عَيْنِ رِعْيَتِكَ ، وَاجْعَلْ عَمَالَ الْعُدْرِ وَوَلَاةَ الْمُحْجَجِ مَقْدَمَةً بَيْنَ عَمَلِكَ ، وَنَصَفَةً مِنْكَ لِرِعْيَتِكَ ، وَذَلِكَ أَنْ تَأْمُرَ قَاضِيَ كُلِّ بَلَدٍ ، وَخِيَارَ أَهْلِ كُلِّ مِصْرٍ ، أَنْ يَخْتَارُوا لِأَنْفُسِهِمْ رِجَالًا تَوَلَّيَهُمْ أَمْرَهُمْ ، وَتَجْعَلَ الْعَدْلَ حَاكِمًا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُمْ ؛ فَإِنْ أَحْسَنَ حُدُوتَ ، وَإِنْ أَسَاءَ عُدْرَتَ . هَؤُلَاءِ عَمَالَ الْعُدْرِ وَوَلَاةَ الْمُحْجَجِ ، فَلَا يَسْقُطَنَّ عَلَيْكَ

(١) الكف : جمع كف وهو الجانب . وأرجفت : زلزلت

ما في ذلك اذا أنتشر في الآفاق ، وسبق الى الأسماع ، من أتعقاد ألسنة المرّجفين ، وكتب قلوب الحاسدين ، وإطفاء نيران الحروب ، وسلامة عواقب الأمور ؛ ولا ينفكّن في ظلّ كرامتك نازلا ، وبِعِراً حبلك متعلّقاً رجّلان : أحدهما كريمة من كرائم رجالات العرب ، وأعلام بيوتات الشرف به أدبٌ فاضل ، وحلم راجح ، ودين صحيح . والآخر له دين غير مغموز ، وموضع غير مدخول ، بصير بتقليب الكلام وتصريف الرأي وأنحاء العرب ووضع الكتب ، عالم بمجالات الحروب وتصاريف الخطوب ؛ يضع آداباً نافعة وآثاراً باقية ، من محاسنك وتحسين أمرك وتحلية ذكرك ؛ تستشيرُهُ في حربك ، وتُدخِله في أمرك ؛ فرجُلٌ أصبته كذلك فهو يأوى الى محلّتي ، ويرعى في خُصرة جناني ؛ ولا تدع أن تختار لك من فقهاء البُلدان ، وخيار الأمصار ، أقواماً يكونون جيرانك وسّمارك ، وأهل مُشاورتك فيما تُورد ، وأصحاب مناظرتك فيما تُصدر . فسِر على بركة الله ، أصحبك الله من عونه وتوفيقه دليلاً يهدى الى الصواب قلبك ، وهادياً يُنطق بالخير لسانك . وكتب في شهر ربيع الآخر سنة سبعين ومائة ببغداد .

(١) الكريمة : صاحب الكرم . وكرائم الرجال : أحابر رجال العرب وأحاسنهم . (٢) غير مغموز :

مطمون : وغير مدخول : لا يداخله فساد .

٢ - رسالة أبي الربيع محمد بن الليث التي كتبها للرشيد
الى قُسطنطين ملك الروم

من عبد الله هارون أمير المؤمنين الى قسطنطين عظيم اروم: سلام على من أتبع الهدى .
فإني أحمد الله الذي لا شريك معه ، ولا ولد له ، ولا إله غيره ، الذي تعالى عن شبه
المحدودين بعظمته ، وأحتجب دون المخلوقين بعزته ، فليست الأبصار بمُدركة له ، ولا
الأوهام بواقعة عليه ، انفراداً عن الأشياء أن يُشبهها ، وتعالى أن يشبهه شيء منها ، وهو
الواحد القهار ، الذي ارتفع عن مبالغ صفات القائلين ، ومذاهب لغات العالمين ، وفكر
الملائكة المقربين ، فليس كَيْفَ شيء ، وله كل شيء ، وهو على كل شيء قدير .

أما بعد ، فإن الله جل ثناؤه وتباركت أسماؤه ، قال لنبيه صلى الله عليه وسلم فيما أنزل
من آيات الوحي اليه : ﴿ اذْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بآيَاتِي
هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ . فرأى
أمير المؤمنين من أحسن قوله وأفضل فعله ، أن يكون الى سبيل ربه داعياً ، وبرسوله
صلى الله عليه وسلم متأسياً ، ولقوله : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَنَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ
إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ موافقاً . وكنت من كتب الله المتزلة ، وآياته المفصرة ، وخلقته الكثير
بحيث رجا أمير المؤمنين استماعك لموعظته ؛ وانتفاعك بمجادلته انتفاع بشركه كثير وحق
عظيم قد بُوت بأوزارهم مع وزيرك ، وأحتملت من آثامهم الى إثمك ، فأحب أن يدعوك
ومن رجا أن يتنفع بدعوته معك ، الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به
شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ؛ فإن توليتم عن ذلك رغبة عنه ،
أو تركتموه زهادة فيه ، فآثموا بأثام مسلمون . وأستمعوا ما أمر المؤمنين واصف لكم ،
ومحتج به إن شاء الله عليكم ، بقلوب شاهدة وآذان واعية ، ثم آتبعوا أحسن ما تسمعون .
ولا قوة إلا بالله .

فان الله عز وجل يقول فيما أنزل من كتابه وأقتص على عباده : ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادَ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ . إن الله تبارك اسمه وتعالى جده ، وصفت فيما أنزل من آياته ، وشرح من بيناته ، الأئمة الماضية ، والقرون الخالية ، والمثل المتفرقة ، الذين يجعلون مع الله آلهة أخرى لا برهان لهم بها ، ولا حجة لهم فيها ، فقال : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْفَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ نَلُّوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ .

قالت العرب الذين يعبدون الملائكة وأهل الكتاب الذين يقولون ثالث ثلاثة بأئمتنا آية يا محمد تزعم أن الله إله واحد ، فأنزل الله عز وجل في ذلك آية تشهد لها العقول ، وتؤمن بها القلوب ، وتعرفها الأبواب ، فلا تستطيع لها ردا ، ولا تطبق لها بحدا ، ذكر فيها اتصال خلقه واتفاق صنعه ، أيوقن الجاهلون من العرب ، والصالحون من أهل الكتاب ، أن الله السماء والأرض ، وما بينهما من الهواء والخلق ، واحدا لا شريك له ، خالق لا شيء معه ، فقال : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ ﴾ . فتفكر في تفسير هذه الآية من كلام الرب عز وجل ، وما أوضح فيها من بيان الخلق ، فإنه ما من مفكر ينظر فيما ذكر الله فيها مما بين السماء والأرض ، إلا رأى من اتصال بعض ذلك ببعض ، مثل ما رأى في تديره نفسه ، وعرف من اتصال خلقه ، فيما بين ذوائب شؤون رأسه الى أطراف أنامل قدمه . وفي ذلك أوضح آية وأبين دلالة ، على أن الذي خلقه وصنعه إله واحد لا إله معه ، ولا من شيء أبدعه . ولا على مثال صنعه . قد ترون بعيونكم وتعلمون بعقولكم ، أن الله عز وجل خلق الأنام الأرض ، وجعلها موصولة بالخلق ، فليس ندحوها إلا لهم ، ولا يدبها إلا معهم ، وجعل ذلك الخلق متصلا

بالتَّبَتِّ ، لا يَقُومُ إلا به ، ولا يَصْلُحُ إلا عَلَيْهِ . وجعل ذلك التَّبَتُّ الذي جعله مَنَاهَا لَكُمْ وَمَعَاشَا لِأَنْعَامِكُمْ ، مُتَّصِلًا بِالمَاءِ الذي يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ، لِمَعَايِشِ مَقْسُومٍ ؛ فليس يَجْمَعُ التَّبَتُّ إلا به ولا يَنْجُو إلا عَنْهُ . وجعل السَّحَابَ الذي يَسُطُّهُ كَيْفَ يَشَاءُ مُتَّصِلًا بِالرِّيحِ المُسَخَّرَةِ فِي جَوْ السَّمَاءِ تُبَيِّرُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَعْلَمُونَ ، وَتَسُوقُهُ وَأَتَمُّ تَنْظُرُونَ ؛ كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُبَيِّرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَدِيٍّ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَاهُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ الشُّورُ ﴾ . وَوَصَلَ الرِّيحُ التي يَصْرَفُهَا فِي جَوْ السَّمَاءِ بِمَا يُؤَثَّرُ فِي خَلْقِ الهَوَاءِ مِنَ الْأَزْمَنَةِ التي لَا تُتَبَّتُ الهَوَاجِرُ إِلَّا بِثَبَاتِهَا ، وَلَا يَزُولُ عَنْهُ بَرْدٌ إِلَّا بِزَوَالِهَا ؛ وَلَوْلَا ذَلِكَ لَظَلَّ رَاكِدًا بِالْحَرِّ المَيِّتِ ، أَوْ مَائِلًا بِالْبَرْدِ القَاتِلِ . وَوَصَلَ الْأَزْمَنَةُ التي جعلها مُتَّصِرَةً مُتَلَوَّنَةً بِمَسِيرِ الشَّمْسِ والقَمَرِ الدَائِمِينَ لَكُمْ المُخْتَلِفِينَ بِاللَّيْلِ والنَّهَارِ عَلَيْكُمْ . وَجَعَلَ مَسِيرَهُمَا الذي لَا تَعْرِفُونَ عَدَدَ السَّنِينَ إلا به ، وَلَا مَوَاقِعَ الحِسَابِ إلا مِنْ قِبَلِهِ ، مُتَّصِلًا بِدَوْرَانِ الفَلَكِ الذي فِيهِ يَسْبَحَانِ ، وَبِهِ يَأْفُلَانِ ؛ وَوَصَلَ مَسِيرَ الفَلَكِ بِالسَّمَاءِ لِلنَّاطِرِينَ سِوَاهُ . فَهَذَا خَلَقَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ، مَا فِيهِ تَبَايُنٌ وَلَا تَزَايُلٌ وَلَا تَفَاوُتٌ ؛ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ ﴾ . وَلَوْ كَانَ اللهُ شَرِيكًا أَوْ مَعَهُ ظَهِيرٌ عَلَيْهِ ، يُمَسِّكُ مِنْهُ مَا يُرْسِلُ ، وَيُرْسِلُ مِنْهُ مَا يُمَسِّكُ ، أَوْ يُؤَخِّرُ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ عَنْ وَقْتِ زَمَانِهِ ، أَوْ يَعْجَلُهُ قَبْلَ حَاجَتِهِ ؛ لِأَبْنِيهِ ، لِتَفَاوُتِ الخَلْقِ ، وَلِتَبَايُنِ الصَّنْعِ ، وَلِفَسَادِ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ ، وَلِذَهَبِ كُلِّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ ، كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ - وَكَذَّبَ المُبْطِلِينَ - : ﴿ زَيْلٌ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ .

وَالعَجَبُ : كَيْفَ يَصِفُ مَخْلُوقُ رَبِّهِ ، أَوْ يَجْعَلُ مَعَهُ إِلَهًا غَيْرَهُ ، وَهُوَ يَرَى فِيمَا ذَكَرَ اللهُ مِنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ صِنْعَةً ظَاهِرَةً ، وَحِكْمَةً بَالِغَةً ، وَتَأَلِيفًا مُتَّفَقًا ، وَتَدْبِيرًا مُتَّصِلًا ، مِنَ السَّمَاءِ والأَرْضِ ، لَا يَقُومُ بَعْضُهُ إِلَّا بِبَعْضٍ ، مُتَّجِلًا بَيْنَ يَدَيْهِ ، مَائِلًا نُصِبَ عَيْنِهِ ، يناديه إِلَى صَانِعِهِ ، وَيُلْهُ عَلَى خَالِقِهِ ، وَيَشْهَدُ لَهُ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ ، وَيَهْدِيهِ إِلَى رَبُّوبِيَّتِهِ ، ﴿ فَتَعَالَى اللهُ

عَمَّا يُسْرِكُونَ أَيْسِرُكُونَ مَا لَا يَحْتَقُّ شَيْئًا وَهُمْ يُحْلِقُونَ . حَقًّا مَا كَرَّرَهُؤَلَاءِ الْجَاهِلُونَ
 بِهِم الضَّالُّونَ عَنْ أَنفُسِهِمْ ، فِي خَلْقِ اللَّهِ النَّظَرَ ، وَلَا رَجَعُوا كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ
 الْفِكْرَ . وَلَوْ أَعْمَلُوا فِكْرَهُمْ وَأَجْهَدُوا نَظَرَهُمْ ، فَمَا تَسْمَعُ آدَانَهُمْ وَتَرَى أَبْصَارَهُمْ ، مِنْ
 حَوَادِثِ حَالَاتِ الْخَلْقِ ، وَعَجَائِبِ طَبَقَاتِ الصُّنْعِ ، لَوَجَدُوا فِي أَقْرَبِ مَا يَرُونَ بِأَعْيُنِهِمْ :
 مِنَ التَّأْلِيفِ لِتَرْكِيبِ خَلْقِهِمْ ، وَالْإِثْرِ فِي التَّدْبِيرِ بِصُنْعِهِمْ ، مَا يَدُلُّهُمْ عَلَى تَوْحِيدِ رَبِّهِمْ ،
 وَيَقِفُ بِهِمْ عَلَى انْفِرَادِهِ بِخَلْقِهِمْ . فَانْهَمَ يَرُونَ فِي أَنفُسِهِمْ بِأَعْيُنِهِمْ وَيَجِدُونَ بِقُلُوبِهِمْ ، أَنَّهَا مَخْلُوقَةٌ
 صَنْعَةً بَعْدَ صَنْعَةٍ ، وَمَحْوَلَةٌ طَبَقَةً عَنِ طَبَقَةٍ ، وَمَنْقُولَةٌ حَالًا إِلَى حَالٍ : سُلَالَةٌ مِنْ طِينٍ ، ثُمَّ
 نُظْفَةٌ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ، ثُمَّ عَلَقَةٌ ، ثُمَّ مُضْغَةٌ ، ثُمَّ عَظْمٌ ، كَسَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَحْمًا ، وَنَفَخَ فِيهِ رُوحًا ،
 فَإِذَا هُوَ خَلَقَ آخَرَ ، فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ، الَّذِي خَلَقَ فِي قَرَارِ مَكَانٍ ، مِنْ مَاءٍ قَلِيلٍ
 ضَعِيفٍ ذَلِيلٍ ، خَلَقًا صَوْرَهُ بِتَخْطِيطٍ ، وَقَدْرَهُ بِتَرْكِيبٍ ، وَأَلْفَهُ بِأَجْزَاءٍ مُتَفَقَّةٍ ، وَأَعْضَاءٍ
 مُتَّصِلَةٍ ، مِنْ قَدِيمٍ إِلَى سَاقٍ إِلَى نَفْذٍ إِلَى مَا فَوْقَ ذَلِكَ : مِنْ مَفَاصِلِ مَا يُعْلَنُ أَوْ عَجَائِبِ
 مَا يُبْطِنُ ، لِيَعْلَمَ الْجَاهِلُونَ وَيُوقِنَ الْجَاهِدُونَ ، أَنَّ الَّذِي صَنَعَ ذَلِكَ وَخَلَقَهُ وَدَبَّرَهُ وَقَدَّرَهُ
 وَهَيَّأَ ظَاهِرَهُ وَبَاطِنَهُ إِلَهًُ وَاحِدًا لِشَرِيكَ مَعَهُ . فَلَا يَذْهَبَنَّ ذِكْرُ هَذَا صَفْحًا عَنْكُمْ ، وَلَا تَسْقُطْ
 حِكْمَتُهُ جَهْلًا بِهِ عَلَيْكُمْ ؛ وَفَكِّرُوا فِي آيَاتِ الرِّسْلِ وَبَيِّنَاتِ النُّذُرِ ، فَإِنَّ فِي ذَلِكَ فِكْرًا لِلْبَصِيرِينَ ،
 وَبَصَرًا لِلْعَبِيرِينَ ، وَذِكْرًا لِلْعَابِدِينَ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

وَأَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَاصِفٌ لَكُمْ ، وَمَقْتَصٌ مِنْ ذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ، مَا فِيهِ شَهَادَاتٌ
 وَاصِحَاتٌ ، وَعَلَامَاتٌ بَيِّنَاتٌ ؛ وَمَبْتَدِئٌ بِذِكْرِ آيَاتِ نَبِينَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا أَنْزَلَ اللَّهُ
 مِنْهَا فِي الْوَحْيِ إِلَيْهِ ، فَإِنَّهُ مَا أَحَدٌ يَقْرَعُ بِآيَاتِ النُّبُوَّةِ قَلْبَهُ ، وَيَحْصِنُ بَيِّنَاتِ الْهُدَى عَقْلَهُ ، إِلَّا
 قَادَتْهُ حَتَّى يُؤْمِنَ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، لَا يَجِدُ إِلَى إِنْكَارِ مَا جَاءَ بِهِ مِنَ الْحَقِّ سَبِيلًا .
 فَأَرَدْتُ أَنْ تَكُونُوا عَلَى عِلْمٍ وَمَعْرِفَةٍ وَيَقِينٍ وَثِقَةٍ مِنْ أَمْرِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَحَقِّهِ ،
 وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ . فَأَحْضِرْ كِتَابَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فَهَمَّكَ ، وَأَلْقِ إِلَى مَا هُوَ وَاصِفٌ
 إِنْ شَاءَ اللَّهُ سَمْعَكَ . إِنْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَصْطَفَى الْإِسْلَامَ لِنَفْسِهِ ، وَأَخْتَارَهُ رُسُلًا مِنْ خَلْقِهِ ،
 وَأَبْتَعَتْ كُلُّ رِسُولٍ بِلِسَانِ قَوْمِهِ ، لِيَبِينَنَّ لَهُمْ مَا يَتَّبِعُونَ ، وَيَعْلَمَنَّهُمْ مَا يَجْهَلُونَ : مِنْ تَوْحِيدِ

الرب وشرايع الحق ﴿لَقَدْ كَانَ لِنَّاسٍ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ .
 فلم تزل رسلُ الله قائمةً بأمره ، متواليةً على حقه ، في مواضي الدهور ، وخوالي القرون ،
 وطبقات الزمان ، يصدّق آخرهم بنبوة أولهم ، ويصدّق قول آخرهم ؛ ومفاتيح دعوتهم
 واحدةٌ لا تختلف ، ومجامع ملتهم ملتئمةٌ لا تفترق ، حتى تناهت الولاية والوراثة التي بتي
 عيسى عليه السلام عليها وبشربها ، الى النبي الأُمّي الذي انتخبه الله لُوحيه ، واختاره بعلمه ؛
 فلم يزل ينقله بالآباء الأخايير ، والأُمّهات الطواهر ، أُمَّةً قائمةً ، وقرنا فقرنا ، حتى استخرجه
 الله في خيرِ أوان ، وأفضلِ زمان ، من أثبت محاتد أرومات البرية أصلا ، وأعلى ذوائب نبعات
 العربِ فرعا ، وأطيب منابت أعياص فريش مغرسا ، وأرفع ذرى مجد بنى هاشم سَمكا :
 محمد صلى الله عليه وسلم خيرها عند الله وخلقه نفسه ، على حين أوحشت الأرض من أهل
 الإسلام والإيمان ، وأمتلات الآفاق من عبدة الأصنام والأوثان ، وأشتعلت يدع في الدين ،
 وأطبقت الظلم على الناس أجمعين ؛ وصار الحق رسما عافيا ، خلقا باليا ، ميتا وسط أموات ،
 ما إن يُسسون للهدى صوتا يسمعونه ، ولا للدين أثرا يتبعونه . فلم يزل صلى الله عليه وسلم
 قائما بأمر الله الذي أنزل إليه ، يدعوهم الى توحيد الرب عز وجل ، ويحذّرهم عقوبات
 الشرك ، ويجاهدّهم بنور البرهان ، وآيات القرآن ، وعلامات الإسلام ، صابرا على الأذى ،
 محتملا للكره ؛ قد ألهمه الله عز وجل أنه مظهر دينه ، ومُعزّ تمكينه ، وعاصمه ومستخلفه
 في الأرض ، فليس يثنيه ريب ، ولا يلوّيه هيب ، ولا يعنيه أذى ؛ حتى اذا قهرت البيئات
 الباهية ، وبهرت الآيات أبصارهم ، وخصم نور الحق حجّتهم ، فلم تمتنع القلوب من المعرفة
 بدون صدقه ، ولم تجد العقول سبيلا الى دفع حقه . وهم على ذلك مكذّبون بأقوالهم ،
 وجاحدون بأقوالهم ؛ كما قال الله عز وجل العليم بما يُسرّون ، والخابر بما يُعلنون : ﴿ فَانهُمْ
 لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يِحْجِدُونَ ﴾ بغيا وعداوة ، وحسدا ولحاجة ، اقرض

(١) محاتد: جمع محند ، وهو الأصل . (٢) ارومات : جمع أرومة ، وهي الاصل .

(٣) نعات : أصول كريمة . (٤) أعياص فريش : أولاد أمية بن عبد شمس الأكبر ، وهم : العاص

ابو العاص والعيص وأبو العيص والعويص . (٥) في الأصل : "فلا

الله عليه قتالهم ، وأمره أن يجرد السيف لهم ، وهم في عصاة يسيرة ، وعدة قليلة ، مستضعفين مستذللين ، يخافون أن يتخطفهم العرب ، وتداعى عليهم الأمم ، وتستحملهم (٢) الحروب ، فأواهم في كنفه ، وأيدهم بنصره ، وأنذرهم بمقدمة من الرعب ، ومشغلة من الحق ، وجنود من الملائكة ، حتى هزم كثيرا من المشركين بقاتهم ، وغلب قوة الجنود بضعفهم ، إنجازاً لوعده ، وتصديقا لقوله : ﴿ وَإِن جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ (١) فأحسن النظر وقلب الفكر في حالات النبي صلى الله عليه وسلم من الوحي قائماً لله ، لتجد لمذاهب فكره وتصاريف نظرك ، مضطرباً واسعاً ، ومعتمداً نافعا ، وشعوباً جمّة ، كلّها خيرٌ يدعوك الى نفسه ، ويأنّ ينكشف لك عن محضه . وأخير أمير المؤمنين ما كنت قائلاً لو لم تكن البعثة للنبي - صلى الله عليه وسلم - بلغتك ، ولم تكن الأنبياء بأموره تقررت قبلك ، ثم قامت الحجّة بالاجتماع عندك ، وقالت الجماعة المختلفة لك : إنه نجم بين ظهرائي مثل هذه الضلّالات المستأصلة ، والجماعات المستأسدة ، التي ذكر أمير المؤمنين : من قبائل العرب ، وجماهير الأمم ، وصناديد الملوك ، ناجمٌ قد نصب لها وغرّى بها ، يجهل أحلامها ، ويكفر أسلافها ، ويفرق ألقاها ، ويلعن آباءها ، ويضلل أديانها ، وينادي بشهاب الحق بينها ، ويجهر بكلمة الإخلاص الى من تراخى عنها ، حتى حميت العرب ، وأنفت العجم ، وغضبت الملوك ، وهو على حال ندائه بالحق ودعائه اليه ، وحيدا فريدا ، لا يحفل بهم غضبا ، ولا يرهّب عنتاً ، يقول الله عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ أكنت تقول فيما تجرى الأفاويل به وتقع الآراء عليه ، إلا أنه أحد رجلين : إما كاذبٌ يجهل ما يفعل ويعمى عما يقول ، وقد دعا الحنف الى نفسه ، وأذن الله لقومه في قتله ، فليست الأيام باءة ولا الحال بثابتة له إلا ريثما تستلحمه أسبابهم ، وينهض به حملأوهم ، غضباً لرّبهم ، وأنفةً لدينهم ، وحميةً لأصنامهم ، وحسداً من عند أنفسهم . وإما صادقٌ

(١) أصله تداعى لحذفت إحدى تاءيه ، ومعناه يجتمعون عليهم ويتألبون بالعداوة .

(٢) تستحملهم : تلقى عليهم حملها وعماها . (٣) المستأسدة : القرية . (٤) تستلحمه :

تلقى به وتنشب .

بصير بموضع قدمه ومرعى نبله ، قد تكفل الله عز وجل بحفظه ، وصحبه بعزه ، وجعله في حريه ، وعصمه من الخلق ، فليست الوحشة بواصلة مع صحبة الله اليه ، ولا الهية بداخلة مع عصمة الله عليه ، ولا سيوف الأعداء بمأذون لها فيه . ثم ان آيتكم^(١) يا أهل الكتاب لو قيل لكم : إن الرجل الذي يدعى العِصمة ويتحل المنعة ، قد نجت الأمور به على ما قال ، وسلبت الحال له فيما آدعى ، حتى نصب لعارات العرب ، وجماعات الأمم ، يقاتل بن طاوغة من خالفه ، ومن تابعه من عانده ، جادا مشمرا ، محتسبا وانقا بموعدو الله ونصره ، لا تأخذُه لومة لائم في ربه ، ولا يوجد لديه غميرة^(٢) في دينه ، ولا يلفته خذلان خاذل عن حقه ، حتى أعز الله دينه ، وأظهر تمكينه ، وأنقادت الأهواء له ، وأجتمعت الفرق عليه ، ألم يكن ذلك يزيد حقه يقينا عندكم ، ودعوته ثبوتا فيكم ، حتى تقول الجماعة من حمائكم وأهل الحنكة من ذوى آرائكم : ما كان الرجل ، اذ كان وحيدا فريدا قليلا ضعيفا ذليلا معروفا بالعقل منسوبا الى الفضل ، ليجتري أن يقول : إن الله عز وجل أوحى اليه فيما أنزل من الكتاب عليه أن يعصمه من العرب جميعا ويمنعه من الأمم طرا ، حتى يبلغ رسالات ربه ، ويظهره على الدين كله ، ويدخل الناس أفواجا في دينه ، إلا وهو على ثقة من أمره ، ويقين من حاله .

فسبحان الله ! يا أهل الكتاب ما آين حق النبي صلى الله عليه وسلم لمن طلبه ، وأسأله لمن قصد له . وأستعملوا في طلبه ألبابكم ، وأرفعوا ... أبصاركم ، تنظروا بعون الله اليه ، وتقفوا ان شاء الله عليه ؛ فإن علامات نبوته وآيات رسالته ، ظاهرة لا تخفى على من طلبها ، جملة لا يحصي عددها ، منها خواص تعرفها العرب ، وعوام لا تدفعها الأمم ؛ فأما الخواص المعروفة لدينا ، المعلومة عندنا ، التي أخذتها الأبناء عن الآباء ، وقبيلها الأتباع عن الأسلاف ، فأمر قد كثرت البيئات فيها ، وتداولت الشهادات عليها ، وثبت الحجج بها ، وتراخت الأيام ببعضها ، حتى رأيناه عيانا ، وقبلناه إيقانا ؛ فهي أظهر فينا من الشمس ،

(١) كذا في الأصل . (٢) عمارات العرب : أحيائها العظيمة . (٣) عميرة : مطع

(٤) بياص في الأصل بمقدار كلمة .

وأبين لدينا من النهار؛ ولكن غيّت الأزمان عنكم أمرها، ولم ينقل الآباء اليكم علمها، وما لا يدرك إلا بالسمع موضوع الحجة عن العقل، فليس أمير المؤمنين مُجَّاحٌ لكم، ولا قاصد اليكم من قبلها. وأما الآيات العوام والدلالات الظاهرة في آفاق الأرضين، القاطعة مُجَّح المَبْطِلين، التي لا تنكر عقول الأمم وجوب حَقِّها، ولا تدفع ألباب الأعداء صحَّة أمرها، فسُيُوبُهَا أمير المؤمنين مسالك أسماكم، ويُعيد بها حجة الله في أعناقكم، من وجوه حجة وأبواب كثيرة، إن شاء الله: منها أنه لم تزل الشياطين، فيما خلا من قترات الرسل وتَدَرَاتِ النَّذْر، تصعدُ الى سماء الدنيا، وتُصَيَّبُ لِلأعلى فتسترق السمع وتحتفظ العلم، وتنزل به الى كلِّ أَفَّاكٍ أَيْمٍ، يَبْنُونَ أَكاذيبهم على واضح صدقهِ، وَيُفَقِّقُونَ أَباطيلهم بحسب حَقِّه، خطأ للباطل فيه، وسوها للعباد عليه. فلما بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم وأنزل آيات القرآن اليه، حُرِست السماء بالنجوم، ورُميت الشياطين بالشهب، وأنقطعت الأباطيل، وأضمحلَّت الأَكاذيب، وخلص الوحي، فبطلت الكُفَّان، وضلَّت السُّحَّار، وكذبت الأحلام، وتحيرت الشياطين، فكانت آيةً بينةً، وعلامةً واضحةً، وحجةً بالغةً، تبهِّر قرائح العقول، وتخرق حُجُب الغيوب، فلا يقوم مع ضيائها ظُلْمَةٌ، ولا يثبت عند مُحْكَمها شُبْهَةٌ، ولا يُقيم معها في مجد صلى الله عليه وسلم شكٌّ، لا من أصحابه خاصةً ولا ممن جاء بعده عامة. وإنما جعلها الله عز وجل آيةً باقيةً في الفارين، وحِرَاسَةً ثابتةً من الشياطين، لأن الله جل وعلا جعل نبينا صلى الله عليه وسلم آخر النبيين؛ فليس باعثاً بعده نبياً يكذب أفاويل الكهنة، ويقطع أخاير الجنة.

وستقول، فيما يذهب اليه الظن ويقع عليه الرأي، أنت ومن عقل من أمتك وأهل ملكك: هذه آية حاسمةٌ وحجة قاطعة بينة قائمة، مستعليةٌ لأمرها، مستغنيةٌ بنفسها، لا تحتاج الى ما قبلها، ولا يُتَّكل على ما بعدها، إن أقرت العقول بما تقول، أو قامت البينة على ما تدعى، بل؛ ثم تقول: وأنى لك بالبينة، واسنا نُقر بكابك، ولا تؤمن برسولك،

ولا تقبل قولك فيما قد سبقنا وإياك زمانه، وحجبت الغيوب عنا وعنك علمه؛ فأرجع اليكم إن قتم ذلك؛ فإن وجدان القضاة قبل طلب البيئات .

وليس يجعل أمير المؤمنين فيما يُنازِعك ويُحاجك فيه حاكماً غير عقلك، ولا قاضياً سوى نفسك؛ ولكنه يذكرك الله الذي اليه معادك وعليه حسابك، لما جعلت التفهم لمسأله من بالك، وركبت حدودها في جوابك، عادلاً بالفسط، قاضياً بالحق، قائلاً بالصدق ولو على نفسك، ناظراً بالأثرة لدينك؛ فلقد وفق الله لك آية، وأهدى اليك بينة، لا تستطيع دفعها لجنبها عن عقلك، ولا حجاً با لنورها دون بصرك، فلا تدفع الآية بقولك، والبيئنة بلسانك، بجحداً بقطع وصول الحجج اليك، ويد تغلق أبواب الفهم عنك؛ فإن اللسان لك مداول حيث شئت، ومنقاد تُصرفه فيما هويت؛ ولكن أنصب نفسك للفهم وأنت شهيد، وأرد الحق وقبوله فيما تريد . فاذا تصوّرت البيئات مجسدة في قلبك، وتبينت الحجج ممثلة لنظرك، قد أضاء صوابها لك وقرع حقائق قلبك، فاجعل القول بها شعاراً للسان به متصلاً . وأفهم المسئلة فهمك الله الحق، وجنّبك المجد، ما تقول أنت ومن قبلك في رجل كان يتياً ضعيفاً أجيراً ساهياً لاهياً عائلاً خاملاً، لم يتل كتاباً، ولم يتعلم خطأ، ولم يك في محلة علم، ولا إرث ملك، ولا معدن أدب، ولا بيت نبوة، فترأقت الأيام به، وأتصلت الحال بأمره، حتى نرجح الى العرب عامة والقبائل كافة، وحيدا طريداً شريداً، مخذولاً مجهولاً، محفواً مرمياً بالعقوق لآلهم، مقذوفاً بالكذب على أصنامهم، منسوباً الى الهجر لأديانهم، وهم مجعون على دعوة العصبية، وحمية الجاهلية، متعادون متباغون، مختلفة أهواؤهم، متفرقة أملاؤهم، يتسافكون الدماء، ويتناوحن النساء، ويستحلون الحرم، لا تمنعهم ألفة، ولا تعصمهم دعوة، [ولا] يحجزهم بر، فألف قلوبها، وجمع شتيتها، حتى تناصرت القلوب، وتواصلت النفوس، وترافدت الأيدي؛ ثم اجتمعت الكلمة، وأتفتت الافئدة، حتى صار غاية ملقى رحالم، ونهاية لمُتجمع

أسفارهم ، وصاروا له حزناً متفقين ، وجدداً مطيعين ، بلا دنيا بسطها لهم ، ولا أموال أفاضها بينهم ، ولا سلطان له عليهم ، ولا ملك سأنف لآبائهم فيهم ، ولا نباهة كانت له بين ظهرانيهم .
أقول إنه [ما] قال ذلك كله إلا بوحي عظيم ، وتنزيل كريم ، وحكمة بالغة ! فإن قلت ذلك فقد أقررت أن محمداً صلى الله عليه وسلم رسولٌ ، وتركت ما كنت تقولُ إنه لم يُدركه ولم يبلغه إلا بعقل سديد ، ونظر بعيد ، ورفق لطيف ، ورأى وثيق ، استبى به عقول الرجال ، وأستمال عليه أفئدة العوام . فإن قلت ذلك فانا سائلكم بالهكم الذي تعبدون ، ودينكم الذي تنتحلون ، لَمَّا صدقتم أنفسكم وتجنبتهم الهوى عنكم : أتؤمن قلوبكم ، وتقرّ عقولكم ، ويحتمل نظركم ، أن محمداً صلى الله عليه وسلم الذي وصفتموه بكال العقل ، وبيان الفضل ، ورفق التدبير ، كان يقول لرجال العرب ، وجماعات الأمم ، [و] دُهاة قريش : إن من آيات نبوتى ، ودلالات رسالتى ، وعلامات زمانى ، أن الشياطين تُرمى بنجوم السماء ، ولم تُك تُرمى بها فيما خلا ؛ ثم يجعل ذلك كتاباً يُقرأ ، وقرآناً يُتلى ، وهو كاذب فيما تلا ، ومبطل فيما ادعى ، إبطالا تدركه عيون الناظرين ، وكذبا يظهر لجميع العالمين ! سبحان الله ! أرايتم أن لو كان فيما قال من الكاذبين ، وعلى ما ادعى من الآثمين ، ثم حاول إبعاد القلوب ، وإغفال الصدور ، وإفطار النفوس ، وتفريق الجموع ، أكان يزيد على ذلك !

فيا أهل الكتاب لا يجهلنكم الإلف لدينكم على اللعب بتوحيدكم ! فلعمركم الله لئن تداركنم أنفسكم وناصحتم نظركم لتعلمن أن محمداً صلى الله عليه وسلم لو حاول الكذب أوراام الإفك ، لما كان يترك جميع الأرض ، وما يغيب عن بعض الخلق ويظهر لبعض ، ويقصد السماء المتصلة بالبصر ، البارزة للنظر ، التي لا تخفى على بشر ، ولا تعيب عن أحد ، فيدعى فيها كذبا ظاهراً ، وإفكا بارزاً مكشوفاً ، لا يلقى صغير ولا كبير ولا ذكر ولا أنثى ، إلا عرف أنه إفك وزور ، وكذب وغرور ، ولا سيما إذا كان يُلقى ذلك الى أقوام أكثرهم أعراب ، ليس بينهم وبين السماء حجاب ، إنما يُراعون الكواكب ويتفقدون الغيوم ، فأبعد عهد آعرهم بها تفقده لها ونظره إليها ، ساعة أو ساعتين ، أو ليلة أو ليلتين .

لَعَمْرُ اللَّهِ لو عَرَّتِ الْعَرَبُ مِنْ أَمْرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى كَذِبٍ لَكَانَ أَوَّلُ مَنْ يُؤَابِسُهُ بِهِ وَيُجَادِلُهُ فِيهِ أَعْدَاؤُهُ مِنْ قَرَيْشٍ عَامَةً ، وَحُسَّادُهُ مِنْ جَبَرِيَّتِهِ خَاصَّةً ، وَنَظَرَاؤُهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ ذِنْيَةً الَّذِينَ كَانُوا يَسْتَعِيرُونَهُ لِكُلِّ طَرِيقٍ ، وَيَقْعُدُونَ لَهُ عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ ، وَيَتَسَاءَلُونَ مِنْ أَمْرِهِ عَنْ كُلِّ ذِي حَادِثٍ ، فَيَتَعَلَّقُونَ بِالْحُرُوفِ الْمُشْكَلَةِ ، وَالآيَاتِ الْمُشْتَبِهَةِ ، جَدَلًا وَخِصُومَةً بِهَا ، وَطَعْنًا وَإِلْحَادًا وَمَنَازَعَةً فِيهَا ، حَتَّى لَقِدَ وَصَفَهُمُ اللَّهُ بِفَعْلِهِمْ ، وَأَخْبَرَ عَنْ ذَلِكَ مِنْ أَمْرِهِمْ ، فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ وَمَا كَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِيَقُولَ ذَلِكَ وَلَا لِأَحَدٍ أَنْ يَقُولَهُ عَلَى اللَّهِ فِي أَمْرِهِمْ إِلَّا عَنْ خِصُومَةٍ شَدِيدَةٍ ، وَمَنَازَعَةٍ بَلِيغَةٍ ، وَمَجَادَلَةٍ مَعْرُوفَةٍ . فَأَحْسِنِ النَّظَرَ لِنَفْسِكَ ، وَلَا تَهْلِكَنَّ شَفَقَةً عَلَى مُلْكِكَ ؛ فَأَيُّمُ اللَّهُ لئن قُلْتَ إِنَّ النُّجُومَ شَيْءٌ كَانَتِ الْعَرَبُ تَرَاهُ بَعْيُونَهَا وَتَعْرِفُهَا بِقُلُوبِهَا ، فَمَا كَانَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَهُوَ عَارِفٌ بِهَا غَيْرَ جَاهِلٍ لَهَا ، لِيَقُولَ فِيهَا إِلَّا حَقًّا ، وَيَنْتَحِلَ فِيهَا إِلَّا صِدْقًا ، لَقَدْ ثَبَتَتْ فُرُوعُ كَلَامِكَ فِيهَا عَلَى أَسْسِهِ ، وَوَصَلَتْ آخِرُ قَوْلِكَ لَهُ بِأَوَّلِهِ ، ثَبُوتًا عَلَى مَا ذَكَرْتَ مِنْ عَقْدِهِ ، وَلِزُومًا لِمَا قَرَّطْتَ مِنْ نَظَرِهِ ، وَلِكَفِّكَ لَا تَجِدُ مَعَ الْإِقْرَارِ بِذَلِكَ بُدْأً مِنَ التَّصْدِيقِ بِرِسَالَتِهِ ، وَلَا مَذْهَبًا عَنِ الْإِيمَانِ بِنَبِيِّتِهِ .

وَلئن زَعَمْتَ أَنَّهُ أَدْعَى أَمْرَ النُّجُومِ كَذِبًا وَأَنْتَحِلَهَا بِاطِّلا ، عَارِفًا كَانَ بِهَا أَمْ جَاهِلًا ، لَقَدْ نَسَبْتَهُ مِنَ الْخَطَا الَّذِي لَا يَعْمَى عَنْ بَصَرِهِ إِلَى مَا يَخْطِئُ فِيهِ بَشَرًا ، فَأَكْذَبْتَ نَفْسَكَ ، وَتَرَكْتَ قَوْلَكَ : إِنَّهُ لَمْ يَكُنِ التَّأْلِيفُ لِقُلُوبِ الْعَرَبِ وَالْجَمْعُ لَشَيْبَتِ الْقِبَائِلِ ، إِلَّا بِرَأْيِ سَدِيدٍ ، وَعَقْلِ أَصِيلٍ ، وَرَفْقٍ بِالْعَالِمِ ، إِلَى أَحَدِ أَمْرَيْنِ لَا تَجِدُ لِكَلَامِكَ وَجْهًا تَذْهَبُ إِلَيْهِ غَيْرَهُمَا ، وَلَا تَجْمَلًا تَضَعُهُ عَلَيْهِ سِوَاهُمَا : إِمَّا أَنْ تَقُولَ : إِنَّهُ أَلَّفَ قُلُوبَ الْعَرَبِ ، وَفَرَّقَ جُمُوعَ الْأُمَمِ بِتَنْزِيلِ الْوَحْيِ ، فَتَوَمَّنَ أَنَّهُ نَبِيٌّ ؛ وَإِمَّا أَنْ تَقُولَ : فَعَلَ ذَلِكَ بِجَهْلٍ ؛ وَهَذَا قَوْلٌ لَا يُقْبَلُ . كَيْفَ يَصِفُهُ أَحَدٌ مِنَ الْجَاهِلِينَ بِهِ الْمَكْذِبِينَ لَهُ بِغَاوَةٍ ، أَوْ يَرْمُونَهُ بِجَهَالَةٍ ، وَهُمْ يَجُوزُونَ بِهِ حُدُودَ الْأَنْبِيَاءِ ، وَيَرْفَعُونَهُ فَوْقَ أُمُورِ الْعُلَمَاءِ ، وَيَتَخَطَّوْنَ بِهِ مَرَاتِبَ الْحُكَمَاءِ ، وَمَنَازِلَ النَّاسِ

تكثرًا لعلمه ، وتسديدًا لعقله ، وتثبیتًا لفضله ، فيما لا يقدر الخلق عليه ولا تهتدى الألسنُ إليه ؛ حتى لقد تحلوه فعلَ الربِّ الذي لا يقدر عليه الخلق في وجوه كثيرة وأحماة جمّة : من ذلك أنه اذا قالت البقايا من أمتنا : كان مجد صلى الله عليه وسلم يُجبرنا بالغيوب قبل ظهورها ، ويصِفُ الأمور قبل حلّوها ، ويتجاوز [ما يكون] في زمانه من ذلك الى ما يكون في زماننا غيبًا أطلعه الله عز وجل عليه ، أضافوا ذلك علمًا اليه ، فقالوا : كان أعلم الناس بمواقع النجوم ، وأبصرهم بمنازل البروج ، وأنظرهم في دقائق الحساب . كيف ولم يكن الحجاز دار نجوم ولا محلّ حساب ولا معدن أدب ! بل كيف والمنجم يقيس ويخطئ ، ويشك فيما يدعى ، وهو آخر صواب لا شك فيه ، وفارس صدق لا قياس معه .

ومن ذلك أنه اذا قالت العلماء من المسلمين : كان نبينا صلى الله عليه وسلم [عليا] بباطن أخبار النبيين ، وخفيّ قصص القرون الأولى ، قالوا : كان أحيا الناس قلوبًا ، وأوسعهم سربًا ، وأسرعهم أخذًا ، يتتبع ذلك ويحبه ، وقد رواه وعلمه . سبحان الله ! أولا يعلمون أن المتعلم معروف المعلم ، متفاوت الحالات ، متنقل الطبقات ، وأنه ما أحدٌ يؤدّب صغيرًا أو يطلب العلم كبيرًا ، إلا وله درجاتٌ في علمه ، وتاراتٌ في أخذه ، ومنازلٌ في تعلمه ، تارة تلميذ ، وتارة مُقارِبٌ ، وأخرى حاذق ؛ وبكل ذلك موصوفٌ من أهله ، معروفٌ عند قومه ، ظاهرٌ لغيرته ، مستفيضٌ في عشيرته ، لا يجهل أمره ، ولا يخفى ذكره ، ولا يُنسى عند مواضع الحاجة اليه ، وتارات الاحتجاج به عليه . ولو كان ذلك معروفًا فيهم ، أو موجودا لديهم ، أو ظاهرا عندهم ، لما أمره الله عز وجل أن يخرج عليهم ويقول في ذلك لهم : لقد ليئتُ فيكم مُحمَّرًا من قبله ، لا أتلقوآنا ، ولا أدعِي وحيًا ، أفلا تعقلون !

وآيم الله ! لو كانوا يعقلون أو ينظرون ، لعلموا أن معلمه على غير الملة التي يعرفون ، لأنه لهم من المخالفين ، وعليهم من الطاعنين ، يذكر فضائح قولهم ، ومعائب أمرهم ، ومخازي أسلافهم ، وعوائر أديانهم ؛ وإنه لو كان معلمه نصرانيًا لدعاه الى النصرانية ، أو يهوديًا

لدعاه إلى اليهودية ، أو مجوسياً لدعاه إلى المجوسية . ولو لم يكن له معلّم لما وقع على الحقيقة هدايةً من تنقاء نفسه ومعرفةً بقوة عقله . ولو كان معلمه الشيطان لما دعاه إلى عبادة الرحمن ، ولا أمره بهجر الأوثان ، وكسر الأصنام ، وصلة الأرحام ، والإصلاح في الأرض ؛ كيف [و] كان الشيطان يُصدّ الناس عن سبيله ، ويُزهدهم في دينه ، وينهاهم عن طاعته ، ويخرجهم من عبادته ، ويدخلهم في مسآخطة ، ويحملهم على معاصيه ! إنه إذا لرحيمٌ بهم ، ناظرٌ لهم ، شفيقٌ عليهم ، كأنه هو المبعوث إليهم ؛ كلا ! ما كان ليُنقذهم من حَبَالِهِ ، ويُخلّصهم من مَصَايدِهِ ، ويُخْرِجهم من ولايته وطاعته وسلطانه وخُدَعه وفتنته وحزبه ، إلى غير ذلك من أمره . وما كان لينهى العرب أن يقتلوا أنفسهم ، ويتناوحوا حرّمهم ، ويُؤذوا ذريّتهم ، ولا يقول لهم : لم تعبدون نَحِيَّتَ الحجارة التي جعلها الله لكم عارا ، وتَدْرُونَ عبادةَ الرَّبِّ الذي خلقكم أطوارا ! هيات ! لقد ذهبتم بالشيطان الرجيم إلى صراط العزيز الحكيم ، فقلتم قولاً تُسكّره العقول ، وتدفعه القلوب ، وتستوحش منه النفوس . أَلَا تَسْمَعُونَ إلى قول الله عز وجل : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطُّعُوا أَرْحَامَكُمْ . أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ ﴾ فما كان الشيطان ليرضى للعرب باللعنة والبكم والعمى والصمم ؛ فَاتَّقِ اللَّهَ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْخَالِدِينَ . ومنها أنه إذا قالت الفقهاء والحكماء : أتانا محمد — صلى الله عليه وسلم — بكلام لم تسمع الآذان بمثله ، ولم تقع القلوب على لُغَتِهِ ، له رَوْنُقٌ حَبَابُ المَاءِ ، وَزَبْرُجٌ يَعْلُو وَلَا يَعْلَى وَعَجَابٌ لَا تَبَى وَلَا تَنْفَى ، وَجِدَّةٌ لَا تَتَغَيَّرُ ، [قالوا] : كان محمد — صلى الله عليه وسلم — أبلغهم قولاً ، وأحسنهم وصفاً . فيا سبحان الله ! ألا يعلمون أن لو كان القرآن كلاماً للعباد لما أقرت الأعداء من بفضلِهِ ، وَلَا عَجَزَتْ الْقَبَائِلُ طُرّاً عَنْ مِثْلِهِ ، وَهُوَ يناديهم في الكُتَابِ ويتحدّاهم في الوحي ، بصوت رفيع ، ونداء سميع ، فيقول : هَاتُوا سُورَةَ مِنْ مِثْلِهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ، وهم فرسان الكلام ، وإخوان البلاغة ، وأبناء الخطب ، وأهل عداوة له وبغى

عليه ، فتستحسر الأبصار ، وتثقل الأسماع ، وتثقل الألسن ، وتتحرس الخطباء ، وتعجز البلغاء ، وتتحار الشعراء ، وتستسلم الكهّان . ثم لقد قايست البصراء بالكلام والعلماء بالمنطق ، بين ما بأيدينا من كلام النبي — صلى الله عليه وسلم — وما جاء به من كلام الوحي ، فإذا بينهما بون بعيد وتفاوت شديد ، ليس يشبه له ولا مدان ولا قريب . وكذلك ينبغي لكلام الرب عز وجل أن يعلو كلام الخلق ، وألا يشبه قول العباد في تأليفه وأحاديثه ومعانيه وجميع ما فيه ؛ لأن الله عز وجل لا يشبهه شيء من ذلك أنه إذا قال المسلمون : كان محمد — صلى الله عليه وسلم — يرى ما ضي أسلافنا وصُحح آباؤنا من العجائب العظام ، والآيات الكبار ، ما هو جديدٌ عندنا ، بين قِبَلنا فلم يعف أثره ، ولم يدرُس خبره ، ولم يتقدم عهدُه : من شجرة ناداها فأقبلت ثم أمرها فرجعت ، ومن نحو بعير تظلم ، وذئب تكلم ، وأشباهٍ لذلك كثيرة ، ونظائر له عجيبة ، قالوا : كان محمد — صلى الله عليه وسلم — كاهنا حاذقًا ، وساحرًا ماهرًا ، يُشبهه بالخيال ، يأخذ بالأبصار . كيف والجموع الكثيرة تصدُر عن الأطمعة اليسيرة والمياه القليلة ، شباعاً رواء ، أيكون ذلك والسحر سواء ! والأخذ بالعيون لا يجرى في البطون ! ولو كانوا ينظرون لدينهم ويُنصفون من أنفسهم ، لعلموا أن أمر الساحر يدور على إفكٍ وغرور ، وأن لمحمد — صلى الله عليه وسلم — آثاراً قائمة ، ومنافع دائمة . ثم لو كانت الكهانة والسحريُّغان مثل هذا من الأمر ، لبطلت آيات الكُتب ، وعلامات الرسل ، ولعلت الشبهة ، وسقطت الحجّة ، وكذبت النبوة ، وبطل ما كان ^(١) يفعله [عيسى عليه السلام : من إبرائه الأكمة والأبرص وإحيائه الموتى . فلا يكون التقليد للرجال مبلغ علمك ، ولا القبول لدعواهم بلا بينة .

ومن ذلك [أنه] إذا قالت البصراء من أمتنا والعلماء بملتنا : كان النبي — صلى الله عليه وسلم — أمياً لا يُحسن الكتاب وحافظ لا ينسى القرآن ، وقلما يجتمع العقل السديد والحفظ السريع والنسيان البطيء ، قالوا : كان أخط الناس يداً ، وأذكاهم حفظاً ، كان يكتب بالنهار ، ويدرس بالليل .

ولعمرك الله أن لو كانت الحال كما يقولون والأمر كما يصفون ، لما خفيت الصحف له ، ولا أكتنمت الدراسة عليه ، ولما كان يطبق سترها عن أهله ، ولا يجأها دون قومه . وكيف تؤمن القلوب وتقرّ العقول أن رجلا كبيرا حمل علما كثيرا وحجما جماء : من آيات متشابهة ، وسور متوالية ، وهو صاحب أسفار مترامية ، وأخو حرب دائمة ، لا يبطن لفظه ، ولا يسقط حفظه ! لولا أن الله عز وجل كفاه أن يحرك به لسانه ، وصن له جمعه وقرآته ، فقال عز وجل : ﴿ سَتَرْنَاكَ فَلَا تَنسَى ﴾ فلم يكن يسقط أوأ ولا ألفا ، ولا ينسى كلمة ولا حرفا . ما أئين هذا وأعجبه ! وأعجب منه المنكره .

وأما قولهم في الخط وإكثارهم في الكتاب ، فإن الله عز وجل جعله أميا ليثبت حجته ، ويصدق مقالته ، ولئلا يشك المبطلون في أمره ، ويقولون : تعلمه من غيره ؛ فإنه قد قال ذلك بطائن من مناقفة العرب وطوائف من كفرة العجم ، فنطقت [به] الأعداء من جبرته ، والحسدة من عشيرته ، الذين بلغوا [ما بلغوا] من مجادلة حقه ، ومخاصمة ربه ، كفاة لمن قرب ، ووكلاء لمن بعد ، فيما لم تكن العرب واقعة عليه ، ولا الأمم مهتدية إليه ؛ لأنهم قد أحاطوا من علم خبره ، وخفي أثره ، بما كان عن غيرهم محتجبا ، ومن سواهم مكتما . وقالوا : لو كان محمد صلى الله عليه وسلم يتعلم من بشر أو يختلف إلى أحد ، لما خفى عنا ولسقط علينا . وحقا لو كان محمد صلى الله عليه وسلم يختلف إلى أحد صغيرا ، أو يتعلم من بشر كبيرا ، لعرف ذلك أثره المختلفون معه ورفقاؤه والمقتدون ، ولما جهل ذلك من حوله من جبرته نصره ، ولا من معه من أهل بيته دنية ، الذين عليهم يورد ومن قبلهم يصدر ، ولكان شائعا عند حشم معلمه وجبره موضعه الذين كان يختلف اليهم ، ويتأدب بين ظهرانيهم . ولو كانوا بذلك عالمين ، أو فيه من أمره شاكين ، ثم بلغهم وتقرر قبلهم أنه يقول : إن الله عز وجل أوحى إليه ، فيما أنزل من الكتاب عليه : ﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لِآرْتَابِ الْمُبِطُونَ ﴾ لخاصمه منهم من كفر ،

(١) في الأصل : «مراخية» . (٢) في الأصل : « ... ولا يسقط حقه ولولا أن ... الخ » .

(٣) زيادة يطلبها الكلام . (٤) في الأصل : « إلا أنهم ... » . (٥) في الأصل «ولاسقط» .

ولكفر به منهم من آمن . ثم يدعى ذلك قرآنا ، وينتقله وحيا ؟ أما كان يهَبُ أن ينتشر في الأقربين ، ويخرج إلى الأبعدين ، فتبطل حجته ، وتنقض دعوته ، وتسقط نبوته ، وينفر أصحابه الذين لم يصبروا معه في المجاهدة أنفسهم ، ويبدلوا عند الشدائد مهجهم ، وينفقوا فيه على الحاجة أموالهم ، مناصبين لأهل الشرق والغرب والعجم وكل الأمم ، وهم قليلون مُستضعفون عائلون جائعون ، لا طلباً لدنيا ولا طمعاً في منال ، إلا لما تعقبوا من قوله ، وعرفوا من صدقه . ولولا أنه أخبرهم ووعدهم أن يغلب كسرى وقيصر لهم ، فصدّقوا بقوله ، وآمنوا بوعدِهِ ، حتى قويت البصائر ، وصرمت العزائم ، وقويت النيات ، فنشطت النفوس ، وشجعت القلوب ، وحلت الأبدان ، لما وقع لهم طمع فيه ، ولا ذهب لهم وهل إليه . فكن من ذلك على يقين لا يخالجه شك ، ومعرفة لا يخطئها ريب ، إن شاء الله .

ومن ذلك أنه إذا قال المسلمون : ما من فعّالٍ مجود ، ولا مقالٍ معروف ، ولا خُلُقٍ كريم ، ولا أدبٍ فاضل ، إلا وقد أدب الله عز وجل به محمداً صلى الله عليه وسلم وأنزله في الكتاب إليه ، فكان يأمر بالمكارم ، ويحض على المحامد ، ويعمل بالمحاسن التي ليس فيها مدخل لشبهة طاعن ، ولا معلق لحجة قائل ، ولا مغمزاً لبصيرة عائب ، ولا موضعاً لخبث بشر ، في وعد أو عهد ، أو حلٍّ أو عقد ، أو مقالٍ أو فعّال ، أو غير ذلك من الأمور — قالوا : أمور حمل عليها نفسه ، ودعاها إليها عقله ، وصبر عليها ، لما أمل ورجا فيها . سبحان الله ! وما أمل بها وآرتجى منها ؟ إن قالوا : الدنيا ، فلقد أكذبهم إداره عنها ، حيث أمكنته القدرة منها ، وآعثرته الحال عليها . وإن قالوا : حب الأثرة ، فقد جعل نفسه للمسلمين أسوة : في سبأهم وقصاصهم ، وحُدودهم وحقوقهم ، وغير ذلك من أمورهم . وإن قالوا : الملْك ، فلقد كان أشد الناس لربه تواضعاً ، وأعظمهم في جنبه تصاغراً ، ما إن أكل متكاً قط إلا مرة ، ثم قعد كهيئة الفزع لها النادم عليها ، فقال :

”اللهم إني عبدك ورسولك“ . وإن قالوا : النعيم ، فمن كان أيسس منه معاشاً ، وأخشن رياشاً ، وأغلظ ما كلاً ! وكيف يذوق العيش أو يجحد لذيق النعيم ، من حرم السكر والخمر ، ونهى عن الدياج والقز ، وكان أكثر دهره صائماً ، وأطول ليله قائماً ! فإن قالوا : طلب الصوت ورغب في الدين ، فذلك ما لم يطلبه أحد في حب الصوت والتماس الحمد لما صبر مغاضب قومه ، وملاوم أهله ، وشتائم العرب وتوعد العجم ، وأستهزاء قريش ؛ يرمونه بالعقوق ، ويقذفونه بالحنون ، ويبهتونه بالسحر ، وليس يدرى ما يهجم به الأمر .^(٢)

أم يقولون طلب تأييل الملك لقومه ، وأراد توطئة الولاية لأقاربه فكيف يطلب لقومه ما قد زهد فيه لنفسه ! أم كيف يطلب لهم عز الملك وقد أوطأهم الذل ثم القتل . لعمرك الله أن لو أراد الملك لأقاربه ، وأراد طلب السلطان لذوى رحمته ، لو كد لهم عقداً لا يحل ، ولا برم لهم أمراً لا يئقظ ، ولأنل لهم في عنفوان أمره ملكاً لا يخرج من أيديهم ، ولا يبرح أبداً فيهم ، امتثالاً لصديقكم وأخذاءً على مثالكم ؛ مع أقاويل جمّة ونظائر كثيرة ، لا يستقيم لهم معها أن يقولوا إن محمداً صلى الله عليه وسلم غلب العرب وقهر العجم ؛ أو قال في أمر السلطان والنجوم بكذب .

فإن قلتم إن محمداً صلى الله عليه وسلم كان في قوة عقله وبيان فضله ، على ما قلنا وقلتم وصدقنا به نحن وأنتم ، ولكن هفت العلماء وزلت الحكياء وأخطأت القلوب ؛ فقد يعلم أمير المؤمنين — وأنتم بذلك من العالمين — أن خطأ قلوب العلماء نخطأ دائرة الرّحا ، ليست العلماء بخطئة إلا المزة والثنتين ، كما لا تخطئ الرّحا إلا الحبة والحبّتين . ومثل الذي نسبتهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم من الخطأ عندكم والجهل في أنفسكم ، كثير لا يحصيه أحد ، ولا يبلغه عدد . وأمير المؤمنين واصف بهضبه لكم ، ومورد ما حصر كتابه إن شاء الله لكم . وآيم الله على ذلك لو قالت العلماء من المسلمين هبوا محمداً صلى الله عليه وسلم كان

(١) الصوت : الذكر الحسن كالصيت . (٢) كذا وردت هذه الجملة في الأصل وهي مضطربة

(٣) في الأصل : ”ولا ينوح ...“ .

في أمر النجوم من المخطئين، فكيف أخطأت العرب وهفت الأمم في ترك مجادلته ورفض منازعته، وكيف لم تقل العلماء من إفادته والحكماء من حكمتهم، توبيخاً منهم له، وتعييراً لمن آمن معه : هذا أمرٌ من أوضاع الأكاذيب وأبطل الأباطيل؛ فلا يثبت مع قولهم إيماناً، ولا يُقيم على شرحهم إنسان . فإن قلت : فلعل ذلك قد كان، ولكنه درج على طول الأزمان، فكيف إذا صدقت العرب بنبوته، ولم تكفر القبائل برسالته، وهم يسمعون كذباً لا ينفع معه صدقٌ كان قبله، وباطلاً لا يعصم معه حقٌ حدث بعده . وإن قلت : أدخلهم بالقهر وضبطهم بالقتل وأكرههم بالسيف، فما بال القليل من المسلمين الذين قهرهم الكثير من المشركين، ما بالهم آمنوا وصدقوا، وصبروا وصابروا، وجدوا وجاهدوا، كيف لم تنكسر عزائمهم، وتهن بصائرهم، ويرجعوا إلى دينهم، ويهربوا عن توحيدهم! كلا! لو كان الأمر على ما تقول، لأرفض القوم عن الرسول، ولكان صلى الله عليه وسلم أول مقتولٍ أو مخذول . فأحسين النظر فيما تذهب الأهواء برأيك إليه من آيات النبي صلى الله عليه وسلم . وإن جمحت الدعوى بكم، فقاتل : فدالت به الأهواء في الباطل، فقال : إنه إلا يكن الأنبياء ذكرت النجوم في صُحفها بينت الحكماء منها ذكراً في كُتُبها، فجعلت المنقُص من الكواكب بين الأعوام، دليلاً على أمر يحدث تلك الأيام، ولا ما هذا الاختلاق يلط به الجاهل للفساق . ما ان وضعت الحكماء ذلك في الكتب، إلا ليألى ملئت السماء من الشهب . وبالله لو آدعيتم غير ذلك فكان حقاً، وكانت الفالاة منكم صدقا، لما كانت الدعوى بناقضية لآية النجوم حجة، ولا مدخلة على أحدٍ فيها شبهة؛ لأن رميا يقع قرط السنين من الكواكب، لا يُبطل رَجْماً قد ملأ السماء من كل جانب . ثم لو لم تكن النجوم آية دامغة، وحجة بالغة، ودلالة فاهرة، وعلامة باهرة، وأمارة ظاهرة، وشهادة قاطعة، وبينه عادلة، وداعية قائمة، تُبطل أظانين المشركين، وتردع أقاويل المناققين، لما كان النبي صلى الله عليه وسلم لِعِظَم أمرها، ولا ليكرّر في آي القرآن ذكرها، رهبةً

(١) كذا في الأصل . (٢) في هذا الموضع اضطراب . (٣) في الأصل "دافعة ..."

لمناهضة أحياء العرب ، ومعرفةً بمجادلة إخوان الكتب ، الذين لو وجدوا فيما كتبت به اليك أمير المؤمنين من أمر النجوم وأحجج [به] عليك من ذكر الرجوم ، موقعا لظن أو معالما بطعن أو مغمزا لقول ، لناصبوه اذا بالمجادلة ، وكاشفوه بالمنازعة ، وجاهره بالقول الذي لا يستطيع له ردا ، ولا يطيق له مجدا ، ولكنها آية ملأت الأفطار كثرة ، وحسرت الأبصار قوة ، قد وجلت العقول ، وولتهت القلوب ، وملأت النفوس حزنا ووجعا ، وفزعنا شغلهم عن الأولاد ، وأذهلهم عن البسلا ، حتى بلغ أمير المؤمنين وتقرز عند فقهاء المسامين أن الله عز وجل ، لما ملأ السماء حرسا ، وأحدث لها رصدا ، وخلق فيها شهبأ ، ذكرت العقلاء من العرب ، وقعات الله عز وجل في الكتب ، بقوم نوح وعاد وممود ، وأشباهم من مؤلفي تلك الجنود ، الذين كانوا أشد بطشا ، وأكثر جمعا ، فانقرجت أيديهم عن كرائم أموالهم ، وأرسلت أنفسهم متائن عقدهم . وإن أهل الطائف لما فعلوا ذلك بأموالهم ، وأجمعوا فيه الخروج الى قفرائهم ، قام فيهم رجل منهم ذوسن وعقل فقال :

يامعشر العرب ، لاثهلكوا أنفسكم قبل أن تهلكوا ، ولا تخرجوا من أموالكم قبل أن تخرجوا ، تفقدوا مواقع نجوم السماء ، وكواكب بدور الدجى ، فان كانت النجوم التي حدث الرمي بها والنجوم التي أخلتكم الأموال لها ، هي لبروج الشمس والقمر ومسالي الحيوان والشجر ، فهي جوائح الاستئصال ، المتلفة الأنفس والأموال ؛ وإن كانت النجوم التي حدث القذف بها ، إنما هي نجوم خلقت اليوم ، فليست المعرفة بواقعة على مبتدأها ، ولا الأبصار بلا حقة منتهاها ، فامسكوا العقد عليكم والأموال ، فإنه أمر يحدث في إحدى هذه الليال .

فإن قلت : وكيف وقعت الأمور في هذا الرجل كاليان ، وصارت المقالة منه كوعى الآذان ، أنباك أمير المؤمنين أن أوعية الفقه من المسامين ، الذين حملوا البناء سنن الدين ، هم

(٢) العقد : جمع عقدة وهي الصبغة أو العقار الذي اقتناه صاحبه .

(١) كذا في الأصل .

أَدُّوا ذلك الينا، وأَبْقَوْه نَفْرًا... علينا، فما إِنْ يَنْفَكُ مِنْهُمْ مُفْتَضِرٌّ يَقُولُ : أبونا الذي جَبَسَ على العرب الأموال والعقد، فما إِنْ يَدْفَعُ القَوْلَ فِي ذلكِ مِنَّا أَحَدٌ . هيهات ما كانت العربُ تُتَقَرَّرُ عند الفخار، إلا بَطُولٍ هو أَيْبُنُ فيها من ضوءِ النهار . فافهم ما كتب به أميرُ المؤمنين في هذا اليك، ولا يكن التعلُّلُ فيها بالشُّبُهَاتِ أَوْثَقَ ما لديك؛ فإنه قَلَّ حُجَّةٌ إلا وإلى جنبِها شبهةٌ تَحْيِلُ للعقول، وتَعَرِّضُ للقلوب، وتَجَلَّجُلُ في الصدور؛ فلا يثبت مع تَحْيُلِها، ولا يُقِيمُ لتعرضها بَشْرًا إلا من وَزَنَ الحقَّ والباطلَ بِمِيزانِ عادل، لا يميلُ إلى تَفْرِيطٍ، ولا يَنْحَطُّ في تقصير . وقد جعل الله عزَّ وجلَّ العقولَ موازينَ للأُمور، فزِنُوا ما سمعتم من حججِ كلامِ الربِّ عزَّ وجلَّ بما تَنفُونَ به الشبهةَ عن الحقِّ، ولا تُبْمِلُوا اللسانَ، فَتُخَسِّرُوا المِيزانَ . وسيعلُّ أميرُ المؤمنين إن شاء الله بما جاء عن ذكر ما كتب به اليكم من أمرِ النجومِ والرُّجُومِ والشُّبُه في القرآن والرواية والكتُب؛ فألْطِفُوا النظرَ في صحَّةِ معانيه، ونَحِّوا الهوى عن شبهةٍ ما وقعت فيه : قال الله عزَّ وجل : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ ﴾ وقال : ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ وَحَفَظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴾ وقال : ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الكَوَاكِبِ وَحَفَظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ ﴾ . وإن شطب عن الحقِّ شاطب، أو ذهب إلى الباطلِ ذاهب، لا يعرفُ مذاهبَ كلامِ العرب، ولا وجودَ معانيِ الكتب، ولا تفسيرَ آيِ القرآن، فقال : إنما جعلت الكواكبُ والمصابيحُ حفظًا من الله عزَّ وجلَّ للسماءِ، ورجُومًا للشياطينِ من قبل أن يبعثَ الله محمدًا صلى الله عليه وسلم بالدين .

فإن في آياتِ القرآن ما فيه بيانٌ مما يُبْطِلُ دعواه التي لا بينةَ عليها، ويكذبُ مقالته التي لا شُهودَ لها؛ فقالت الجنُّ — بفعلِ الله تبارك وتعالى قولها وحيا — وبه منها صدقًا : ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مَلِكًا حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا ﴾ . ألا ترون أنها كانت الجنُّ لمست السماء فلم تجدها ملكًا حرسًا شديدًا وشهبًا، وقعدت الشياطينُ منها مقاعدًا للسمع

فلم تجد شُهباً ولا رَصداً، ^(١) أو لا يسمعون الى ما يحقق ذلك ويسدده و يصدقه ويشهد له من قول الله تعالى : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يَقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴾ مع قول الجن أيام حُرست السماء ورُميت الشياطين : ﴿ وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشْرٌ أُرِيدُ يَمِّنَ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ . فاذا عملتم في ذلك فكركم ، وقلبتُم فيه نظركم ، فكنتم على برهان يقين ، ونور مستبين ، من استطاعة الجن للاستماع ، وقدرة الشياطين على الاستراق ، وإمكان السماء للعود في تلك الحال الأولى ، ففكروا في الحال الأخرى حيث حرست الآيات أن تعارض باطلاً بحق ، ومُنعت الشياطين أن تنزل بصدق ، وأمتنعت السماء أن يصعد اليها شيطان ؛ فقال الله عز وجل : ﴿ وَمَا تَنَزَّلُ بِهِ الشَّيَاطِينُ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَظِعُونَ مِنْهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَزُولُونَ ﴾ . قَالَتِ الْجِنُّ : ﴿ وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شُهَابًا رَصَدًا ﴾ إن في قولهم الآن لأعظم نور وبيان . وأبين من ذلك لكم وأصح لمن عقل إن شاء الله منكم ، إخبارُ الله عز وجل حين جعلت الكواكب حفظاً من كل شيطان مارد ، أنهم ﴿ لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَدِّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ دُخُورًا وَهُمْ عَذَابٌ وَأَصْبٌ ﴾ مع إخباره في الحال الأولى أنهم يسمعون ويقعدون وينزلون ويستطيعون ويتلون على ملك سليمان ، فكن لهذا من الحافظين ، وفيه من المفكرين .

ومن آيات النبي صلى الله عليه وسلم أنه لما نفرت القبائل من أعلام الشرك بمجموعها ، وتداعت القادة من صنديد الكفر باتباعها حذراً على غير لها أقبلت من الشام بصنوف رغائب أموال عظام ، فكانت العير والنفير طائفتين : طائفة ذات عُدّة كثيرة وشوكة شديدة ، وطائفة ذات أموال رغبية ورجال قليلة وفرصة ممكنة ، أخرج الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم وعده ومن معه من المساميين لإحداهما ، فكره المؤمنون جموع المشركين ، وأراد الله عز وجل أن يقطع دابر الكافرين ، ويشيد بذلك أركان الدين ، فلما تراءت الفئتان ، وتناوشت الفُرسان ، وتلاقى الناس ، وقبل ذلك ما قال الله عز وجل :

(١) كذا وردت هذه الجملة في الأصل وهي غير واضحة .

﴿ سِيْهُمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ قَبَضَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبْضَةً [مِنْ تَرَابٍ] حَتَّىٰ حَاثَهَا فِي وَجُوهِهِمْ ، فَلَمْ يَنْتَاهِ دُونَ مَنَاخِرِهِمْ وَعَيْونِهِمْ ، فَانْصَرَفُوا مِنْهُمْزِينَ بِلا كَثِيرٍ قِتَالٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ . يَا أَهْلَ الْكُتَّابِ ، فَإِنَّمَا آيَةٌ أَعْظَمُ حِجَّةً وَأَوْضَحُ بَيِّنَةٌ وَأَقْهَرُ غَلْبَةً مِنْ هَذِهِ الَّتِي لَوْ صَدَرَتْ الْأُمُورُ بِلا تَحْقِيقِ لَهَا ، لَانْفَضَّتِ الْجَمُوعُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ كَفَارًا بِهَا . أُبَشِّرُ اللهَ الْمُسْلِمِينَ بِإِمْدَادِ الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ ، وَهَزِيمَةِ نَفِيرِ الْمُشْرِكِينَ ، الَّتِي نَجَمَتْ الْأُمُورُ عَلَيْهَا ، وَتَنَاهَتْ الْحَالُ بِهَمِّ الْيَاسِرِ . أَمْ قَبْضَةٌ مِنْ تَرَابٍ يَسِيرٍ ، مَا مَلَأَ الْمَنَاخِرَ مِنْ عَدَدٍ كَثِيرٍ .

فَلَمَّا قَلَمْتُ : إِنْ هَذِهِ آيَاتُ بَيِّنَاتٍ ، وَعَلَامَاتُ وَاسْخَاحَاتٍ ، وَلِكُلِّ [لَا] نَقَرٌ لَكُمْ بِهَا وَلَا تَوْمَنٌ بِقَوْلِكُمْ فِيهَا .

أَفْتَوْمُنُونَ أَنْ مَجْدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَ مَا نَسَبْتُمُوهُ مِنَ الْفَضْلِ إِلَيْهِ ، كَانَ يَخْتَلِفُهَا كَذِبًا مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِهِ ، ثُمَّ يَدَّعِيهَا وَحِيًّا مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ ، وَهُوَ لَا يَدْرِي لَعَلَّ الْأُمُورَ [تَقَعُ] بِخِلَافِ مَا يَقُولُ ، فَيُظْهِرُ كَذِبُهُ ، وَيَرْفُضُ تَبَعَهُ . وَإِنْ تَزَعَمُ ^(١) أَنْ أَصْحَابَهُ كَانُوا كَثِيرًا أَقْوِيَاءَ ، نِشَاطًا جُلْدَاءَ ، فَكَانَ عَلَى مَعْرِفَةِ بَقْوَتِهِمْ وَيَقِينٍ مِنْ غَلْبَتِهِمْ ؛ فَقَدْ قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهِونَ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴾ . وَلَمْ يَكُنِ الرَّسُولُ وَلَا غَيْرُهُ لِيُخْبِرَ أَصْحَابَهُ مِنْ أُمُورِهِمْ بِمَا يَجْهَلُونَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، ثُمَّ يَدَّعِي ذَلِكَ تَنْزِيلًا مِنْ رَبِّهِمْ . هَذَا لَا تَقْبَلُهُ الْآرَاءُ ، وَلَا تَقْرَبُهُ الْحِكْمَاءُ ، وَلَا يَحْدَهُ النَّظَرُ .

أَمْ تَقُولُونَ : إِنَّمَا أَرَادَ مَجْدُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِبَشَارَتِهِ لَهُمْ وَإِخْبَارِهِ مَا أَخْبَرَهُمْ مِنْ هَزِيمَةِ اللهِ عَلَيْهِمْ ، أَنْ يَشْجَعَ جُنَّتَهُمْ وَيُقَوِّىَ ضَعْفَهُمْ ، فَكَيْفَ إِذَا لَمْ يَبْقَ لِمَا كَانَ يَرَى مِنْ كَثْرَةِ الْمُشْرِكِينَ وَقُوَّتِهِمْ ، وَضَعْفِ الْمُسْلِمِينَ وَقِلَّتِهِمْ ، بِظُهُورِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَى خِلَافِ قَوْلِهِ ، وَأَنْ يَحْمَالَ الْخَبْرَ عَلَى غَيْرِ ظَنِّهِ ، فَيَقَعُ ظَفْرُ يَكْذِبِ نَبْوَتِهِ ، وَيَقَطَعُ حِجَّتَهُ ، وَيَكُونُ لَهُ مَا بَعْدَهُ !^(٢) وَكَيْفَ إِذَا لَمْ يَنْسَبِ الْأَمْرَ إِلَى نَفْسِهِ وَيُنْحَى الْخَبْرَ عَنْ رَبِّهِ ، لِيَكُونَ الْخَطَرُ أَصْغَرَ وَالشَّانُ أَيْسَرَ ، إِنْ جَرَتْ الْأَقْدَارُ بِمَا يَحْذَرُ ، أَوْ وَقَعَتْ الْأُمُورُ عَلَى مَا يَكْرَهُ . وَلَكِنَّهُ أَثْبَتَهُ فِي كِتَابِ

(١) فِي الْأَصْلِ « وَرِعَمَ أَنْ أَصْحَابَهُ ... » وَالْكَلَامُ عَلَيْهِ عَيْرٌ رَاضِحٌ . (٢) هَكَذَا فِي الْأَصْلِ

مسطور، ورَقَّ منشور . فَعَلَّ لِعَمْرٍاءِ اللَّهِ يَدْلُ عَلَى النَّبِوةِ الَّتِي كَانَ بِهَا وَاتِّقَا، وَيَهْدِي إِلَى الْوَحْيِ الَّذِي كَانَ إِلَيْهِ سَاكِنًا .

وإن عَرَضَ لِنَظَرِكَ ، أَوْ وَقَعَ فِي خَلْدِكَ ، أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ عَوَّدَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْغَلْبَةَ وَأَجْرَاهُ عَلَى الْمَنَّةِ ، فَكَانَ يَجْرِي عَلَى عَادَةٍ قَدِ عَرَفَهَا ، وَيَسْلُكُ جَادَةً قَدِ خَبَرَهَا ؛ فَلَقَدْ كَانَتْ الْمَهْزِيْمَةُ فِي أَوَّلِ وَقْعَةٍ أَوْقَعَهَا اللَّهُ ، ثُمَّ لَقَدْ دَالَتْ الْحَرْبُ فِيهَا بَعْدَ سِبْغَالًا فِيهَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ : تَارَةً عَلَيْهِ لَهُمْ ، وَأُخْرَى لَهُ عَلَيْهِمْ . فَنَاصِحُوا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فِي نَظَرِكُمْ ، وَقَلْبُوا فِيمَا يَقُولُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ فَكَّرَكُمْ . فَلَعَمْرُؤُا اللَّهُ مَا كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِيَقُولَ لِلْمُلُوكِ الْمُشْرِكِينَ : إِنْ اللَّهُ هَزَمَكُمْ بِرَمِيَّةٍ مِنْ تَرَابٍ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ عِنْدَهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ . فَاحْضِرْ كِتَابِي هَذَا فَهَمَّكَ ، وَأَصْبِرْ لَهُ وَإِنْ خَصَمَكَ ؛ فَإِنَّ هَذِهِ آيَةٌ عَظِيمَةٌ ، وَحِجَّةٌ بَلِيغَةٌ ، وَبَيِّنَةٌ عَجِيبَةٌ ، فِي غَلْبَةِ الْعَرَبِ .

وَأَعْجَبَ مِنْ هَذِهِ وَالطَّفِّ ، وَأَكْثَرَ مِنْهَا وَأَعْظَمَ ، الْآيَةُ فِي غَلْبَةِ الْعَجَمِ . وَأَسْتَعِجْ : أَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهِ — صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — أَنْ يَقُولَ لِلْمُؤْمِنِينَ — وَكَانُوا كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فَيَسْلُبُ مَسْتَضْعَفِينَ — : إِنْ قَبَائِلُ الْعَرَبِ سَتَحَزَّبَ عَلَيْكُمْ ، وَإِنْ اللَّهُ سَيَهْزِمُهُمْ لَكُمْ ، وَحَيًّا أَنْزَلَهُ فِي الْكِتَابِ ، فَقَالَ : ﴿ جُنْدًا مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ ﴾ ؛ فَكَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَ مَا نَزَلَ هَذَا الْقَوْلُ عَلَيْهِ بِدَهْورٍ طَوِيلَةٍ وَسِتِّينَ كَثِيرَةٍ ، مَجْبُوسِينَ مَحْصُورِينَ فِي حُومَةِ الْمَوْتِ وَعَسْكَرِ الْخَوْفِ وَخَنْدَقِ الْقَهْرِ وَذَلِّ الْحَصْرِ ، سَوَادُهُمُ الْأَعْمَى وَجُلُّهُمُ الْأَعْظَمُ حُضَاةُ عُرَاةٍ عَالَّةٍ ، إِخْوَانُ دَيْرٍ ، وَأَصْحَابُ وَبَرٍ ، لَا قُوَّةَ بِهِمْ ، وَلَا مَنَّةَ لَهُمْ ، وَلَا أَسْلِحَةَ عِنْدَهُمْ ، وَلَا عُدَّةَ مَعَهُمْ ، قَدْ أَحْدَقَتْ الْعَرَبُ بِعَسْكَرِهِمْ وَأَحَاطَتْ الْقَبَائِلُ بِخَنْدَقِهِمْ ، وَسَالَتْ الْأَحْزَابُ تَصْدِيقًا لِحَتْمِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ ، تَرِيدُ أَنْ تَنْزِلَ أَقْدَامُهُمْ وَتُهْرِيقَ دِمَائِهِمْ ؛ فَكَانَ الْمُؤْمِنُونَ كَمَا وَصَفَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ سُوءِ الْحَالِ ، وَضَيْقِ الْمَالِ ، وَشِدَّةِ الْكِطَاطِ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ وَصَفَ لَهُمْ حَالَهُمْ ، وَأَذْكَرَهُمْ فَعَلَهُمْ ؛ وَلَمْ يَكُنِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِيُصِفَ لَهُمْ عَنِ اللَّهِ مَا يَجْهَلُونَ ، وَلَا لِيَذْكَرَهُمْ مِنْ أَمْرِهِ مَا لَا يَعْرِفُونَ ؛ حِدَارًا أَنْ تَتَكَبَّرَ

(١) فِي الْأَصْلِ : "فِيهَا بَعْدَ ... " . (٢) الْكِطَاطُ : التَّعَبُ وَالشَّدَّةُ

عزائمهم وتغير بصائرهم ، فتهزيم أفئدتهم وتموت نجدتهم ، وتختلف كلمتهم ؛ فقال الله عز وجل : ﴿ إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا . هُنَا لِكَ آتِيَتِ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ حتى قالت طائفة منهم لأهل المدينة : ﴿ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا ﴾ وقالت طائفة أخرى : يا رسول الله ، إن بيوتنا عورة ، فأذن لنا . يقول الله تعالى : ﴿ وَمَا هِيَ بِعُورَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ . فبيناهم على تلك الحال قد أجمعت العرب بتفريقهم في الجبال ، وتقسيمهم بالفداح ، وأخذهم بالأيدي ، إذ قال لهم الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيما ينهئهم به من علم الغيوب ، ويبشرهم به من أمر الفتوح : ” إن الله سينصركم على جمع الروم ويغلب لكم جنود فارس فيهزيم لكم جنودهم ويورثكم قصورهم ويستخلفكم في الأرض من بعدهم ويبدلكم من بعد خورفكم أمنا“ . وعدنا صدقه الكتاب ، وإشارة نطق بها الوحي ، فقال : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ . فقال أقوام وأناس ارتابوا حين تضايقت الحال ، وتزلزلت الأقدام ، وطارت القلوب ، ودارت العيون ، وأشرف الموت : مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا أَيْعَدُنَا هَزِيمَةَ جُمُوعِ الْأَحْزَابِ ، وَفَتَحَ قُصُورِ الشَّامِ ، وَعَلَبَةَ جُنُودِ كَسْرَى ، وَقَدْ سَالَتِ الْقَبَائِلُ عَلَيْنَا مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ، وَأُحْدَقَ الْمَوْتُ بِنَا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ، فَبَقِينَا فِي مَسْغَبَةٍ مِنَ الْجُوعِ ، وَبِجَهْدَةٍ مِنَ الْخُوفِ ، وَضُنْكِ مِنَ الْحَالِ ، مَقْهُورِينَ مَقْمُوعِينَ . ^(١) وقالت الخالصة من المؤمنين حين عاينوا الجموع من المشركين ، وذكروا ما خبرهم الله من تحزيبهم عليهم ومسيرهم اليهم : ﴿ هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴾ . فبينما أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم في مضايق تلك الحال ، وشدة ذلك الخصال ، وعموم تلك البلايا الباهظة ، والأمور الفادحة ، التي قد أخذَ بأنفاسهم عمها ، وبلغ

(١) مقموعين : مقهورين مدللين . (٢) الخصال : الصال .

مجهودهم كرهها، رافعين الى الله عز وجل أيديهم، يقابون في السماء أعينهم، إذ أرسل الله على تلك الجنود الكثيفة والجموع العظيمة والأحزاب المقتدرة، ريحاً من الأرض وجنوداً من السماء، فقطعتم الأبنية، وطيرت الأمتعة، وسفت التراب في العيون، وقذفت الرعب في القلوب، فولوا مذبرين، وخرجوا منهزمين، لا يلوي والد على ولد، ولا مولود على أحد. أمر صدق الله فيه قوله، وأنجز به وعده، وهزم الأحزاب وحده، وذكر المؤمنين نعمته فيهم، وعرفهم منته بهم، فقال: ﴿أذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا﴾ . وقال عز وجل : ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ ما كان الله عز وجل ليقصص على المسلمين في أنفسهم، إلا ما قد راوه بأعينهم .

لولا أن هذا ما لا ينكره عقلك ولا يدفعه نظرك، لما جادتك بالكتاب، ولا نازعتك بالتزليل . ولإني لأترك من آيات النبي صلى الله عليه وسلم وعلامات الوحي، ما هو أعظم من هذا وأبين وأجل وأوضح . ولكن ليس لي أن أحاجك من آيات القرآن، إلا بما عليه شاهد من برهان، ونخبر من بيان؛ لا يستطيع عقلك رداً له ولا قلبك بحمداً له . وكيف ينسبط لسألك أو يجترئ قلبك أن يقول: إن محمداً صلى الله عليه وسلم أخبر أصحابه بالكذب وهم يعلمون، فاقصص عليهم من أمورهم ما لا يعرفون! لا! ما يسوغ لك ولا يجمل بك، ولا يقبل منك أن محمداً صلى الله عليه وسلم يقوله من تلقاء نفسه؛ كيف! أما كان يخاف أن يكذبه أصحابه، وتنتقل أحواله، وتنتقص أموره! لعمر الله لو وصفت بهذا من لا يعرف بفضل ولا ينسب الى عقل، لما كان سائغاً لك ولا جائزاً منك، فكيف تصف به من يرفع عن الناس قدره، ويفضل عليهم عقلاه! وتقر أنك لم ترفى الدنيا أحداً صنع [ما صنع] وبلغ ما بلغ! فأيما آية فيما اقتص عليك أمير المؤمنين أعظم أو بينة أعجب: أما كان يتلى على المؤمنين في الكتاب من اجتماع قبائل الأحزاب بجنود عظيمة قبل اجتماعهم بسنين

كثيرة ، أم ما كان يُنادى به القرآن من الهزيمة لهم وينطق به الوحي من الفتح عليهم ، أم قول النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه : ” إن الله عز وجل يُؤمّنُ خَوْفَكُمْ وَيُعزّزُ نَصْرَكُمْ عَلَى الْأُممِ ” وهو على تلك الحال ثم تجمّعت الأمور على ما قال ، أم عسكران مطابقان وميشان متقابلان ، باتت الريح تحوس أحدهما حتى انهزموا ، وبات الآخرون منها في عافية وخطّاية^(٢) حتى أصبحوا ؟ فأحسن النظر في أمرك ، والتثبت في دينك إن شاء الله .

وأعلم أن من أعظم الآيات وأبين الدلالات ، على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وحقه ، وأن ليس يتقول شيئا من تلقاء نفسه ، أنه قال في عُفوان أمره : ” إنا لله عز وجل سَبِطُظْهِرٍ دِينِي عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ” وجاء مع ذلك بأثرية عن ربه ، في كتابٍ مخطوط وتزويل محفوظ . فأى أمرية لك أدلّ ، أو أيهما عندك أعجب ، إذ كنت بنبوته مصدقا ، ولسالته محققا : الخبر الذي أخبره ، أم الفعل الذي صدّقه ؟ لئن نظرت بعقلك وقلت في نفسك : كيف ترقّت الى هذا نيته وآرفعت نحوه همته ، أم كيف امتدّت اليه طنته وقويت عليه رويته ؟ بل كيف دعته اليه نفسه ، وشجعه عليه قلبه ، ودخل فيه طمعه ، وطاوعه فيه لسانه ، وهو يذكر جنود كسرى ، وجموع الروم ، وملوك الترك ، وملوك الشرك ، وقبول اليمن ، وصناديد الأمم ؟ إن هذا لعجّب ، ولا سيما إذا لم يكن في إرث مُلْكٍ قاهر ، ولا كَيْفٍ عزّ غالب ، ولا معيدين علم سالف .

ولئن أعدت النظر وكررت ، فقلت : كيف وافق خبره أمره ، وكيف صدّق فعله قوله ، حتى غلب الشرق والغرب ! إن هذا لعجّب ! وأعجب من هذا أمر يدلك أمير المؤمنين عليه ، ويهديك إن شاء الله اليه : لو قلت لأهل مملكتك ومن قبلك من أمتك : هل بلغكم أو تنقروا قبلكم ، أنه كان في الدهر الأول ، والعصر الخالي ، أحد مثل محمد - صلى الله عليه وسلم - بدأت الأمور به مثل حاله من الوحدة والضعف والدلة والقلّة ، وصدّرت الحُلّ به كفعاله في الغلبة والمنعة ، والقهر والظهور ، وغير ذلك ؟ لقالوا لا .

(١) في الأصل : « أما كان ... » . (٢) تحوس أحدهما : نشأه وتهيبه . وفي الأصل تحوش ... « بالشين المعجمة وهو تحريف

(٣) في الأصل : « فأى أمر بذلك ... » .

ثم أنت لا تؤمن بمقاتته، ولا تُقرِّر برسائته، إلفاً لدينك، وضناً بملكك، وطمَعاً في قليل من الدنيا قد نَعَاه الله اليك، ورغبةً في صُبابَةِ عيشٍ غيرِ باقيةٍ في يديك؛ فهذا حَجَبٌ .
وأعجبٌ من هذا أمرٌ يَقِفُكَ أميرُ المؤمنين على نورِ حقِّه، ويُوَضِّحُ لك إن شاء الله بيانَ أمره : أصبحت العربُ طراً والأُممُ جميعاً في مجدِ صلي الله عليه وسلم ثلاثةً لا رابعَ لهم ولا مُخْرَجَ للحقِّ من بينهم : رجلٌ مُصدِّقٌ به من المؤمنين، ورجلٌ مكذِّبٌ به من الكافرين، ورجلٌ شاكٌّ فيه من المنافقين .

فأما الشاكُّ فلَمَّا قيل له : أخرجتَ نفسَكَ من الحقِّ، وأبرأتها من الصوابِ، وأقررتَ عليها بالخطأ، لقولك : لا بدُّ أن يكونَ الحقُّ في التصديقِ أو التَكْذِيبِ، ولستَ على واحدٍ منهما، اعترلَ عنها .

وأما المكذِّبُ فلَمَّا قيل له : أنت مُنْكَرِ والمنْكَرِ ليسَ بمتدعٍ، ومن لم يدعَ لم يلزمه بيْنَةُ ولا يسألُ عن حجةٍ، اتبعَ صاحبه . وأيمُّ الله على ذلك، لو سُئِلَ هذا المدعى عن بيئته وكشِفَ حُجَّتُه، فقيل له : من أين عَرَفَ قلبُكَ، وأيقنتَ نفسُكَ إيقاناً لا يخالجه شكٌّ، ومعرفةً لا يشوبها ريبٌ ولا ينازعها شُبُهَةٌ، أن مجدا صلي الله عليه وسلم ليس برسولٍ، لَمَّا دَرَى ما يقول؛ لأنه لا يستطيع أن يتقولَ على الرسلِ، ولا أن يتكذِّبَ على الكتبِ، فيقول : قد أخبر الله فيها أنه لا يبعثُ نبياً، ولا يُنزلُ وحياً في كتابٍ مسطورٍ، بعد التوراة والإنجيل والزيور . بل قد يجد أهلُ الكتابِ في أقاويلِ رسلهم وأخبارِ كُتُبهم، أن الله تبارك وتعالى يُنزلُ كتاباً جديداً أو كلاماً حديثاً، بعد خرابِ بيتِ المقدسِ في آخر الزمانِ، ولم يُنزلَ بعد ذلك كتاباً إلا القرآن .

وأما الرجلُ المصدِّقُ بمحمد صلي الله عليه وسلم فقيل له : أما أنت فقد أدعيتَ، والمدعى يُسألُ عن الحجةِ ويُقبلُ منه البيْنةُ، فما بيئتكُ ومن يشهد لك؟ فقال : ألم تقولوا : إن الحقَّ لا يخرجُ من بيننا، ولا بدُّ أن يكونَ مع بعضنا؟ قالوا بلى ! قال : فأيةَ بيْنةٍ أحقُّ وأعدلُ، وأيُّ شهودٍ أركي وأفضلُ من شهادتكم بسقوطِ صاحبي وثبوتِ

الحق من بعدها في يدي؟ قالوا : إن الأمر لَكَمَا تقول، ولكنَّ البينة أشقى للصدور؛ فأقام بينةً من الكتاب، وشهوداً من الوحي، وآياتٍ سوى ذلك عظاماً، وبيِّناتٍ عوامً، من كلامٍ لا يقدر عليه الخلق، وصِدْقٍ لا يكون إلا من قِبَلِ الربِّ، شبيهاً بما أورده أمير المؤمنين عليكم، وكتبَ به في صدر كتابه هذا اليكم، مما قد تشهدُ له قلوبُ الأمم، ويزكِّيه فعَالُ العرب .

فلما أقام بينته، وثبتت حجته، ووجِبَ حُفُّه، وقُضِيَ به له، قيل له : وكيف توسعت الأمور عليك، وضافت المقالة لك، أن تقول : إن الله لا يبعث نبيا بعد محمد — صلى الله عليه وسلم — ولا وحيا ينزل غير القرآن، فأبطلت الكتب المحدثه، وأكذبت الوثيقة، ولم تترك وحيا غير القرآن، ولم يجز للنصارى أن تقول : لا نبي بعد عيسى عليه السلام، ولا كتاب خلف الإنجيل؛ وعن ذلك من أخبار الكتب ما قلنا كل متنبئ بعد نبينا كذاب، فشاعت وجازت الحجة، ووضع العذر . وأما النصارى فيجدون في أواخر كتبهم، وأقاويل رسلهم، أن الله عز وجل، يبعث نبيا حديثا، وينزل كتابا جديدا، فليس لهم أن يكذبوا نبينا — صلى الله عليه وسلم — ولا أن يردوا كتابنا .

فهؤلاء الثلاثة . أما الشاك فسقط، وأما المنكرف بطل، وأما المصدق فثبت ثبوتاً ليس فيه مدخل شبهة، ولا موضع لجة، ولا معلق لمنازعة . وذلك أن المنكرف لوجوب حقه، والشاك في ثبوت صدقه، لا يجد بدا من أن يُنحى الصدق عن الخلق، ويخلى الدنيا من الحق، وهذا قول المسكدين برهم، الشاكين في بعثهم، فأحسن النظر في معانيه ينكشف لك عما فيه، إن شاء الله .

ومن أبين آياته وأدَلِّ علاماته — صلى الله عليه وسلم — ووسع له فيما صدر إليه : أنه لما أخبرت النصارى واليهود أنهم لم يجدوا محمداً — صلى الله عليه وسلم — في التوراة والانجيل موصوفاً مكتوباً، تجعَّت العلماء منهم، وتدارست الكتب فيما بينهم؛ فلما نظروا

(١) في هذه الجملة غموض لم نوفق الى كشف سببه وان كان المراد منها واضحا .

الى اسمه وعائنه بنعته ، وكانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، ويستفتحون بذكره على من سواهم ، [كفرت] طائفة حسداً من عند أنفسهم ، وجمداً من بعد ما تبين لها ، وأمنت طائفة ، تصديقاً بكتابها ، وخوفاً من ربها .

فلعمراً لله لو [لا] أن الذين آمنوا بحقه وصدقوا بأمره ، رأوا صفته عياناً ، وقيلوا نعمته بإيقاناً ، لما farkوا أديانهم ، ولا جادلوا إخوانهم ، حتى وفقوهم على اسمه ونسبه ، وصفته وعلامته ، وهم علماء بني إسرائيل ، وحملة الإنجيل : من أهل الكتاب الذين احتج الله عز وجل بهم على العرب ، فقال عز وجل : ﴿ أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ . ولعمراً الله إنها لآية عظيمة ، وحجة بليغة ، ذكرها الله في كتابه ، وجعلها على العرب من بيناته ، فقال لهم : ﴿ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَجْرُونَ لِلآذْقَانِ سُجداً وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً ﴾ . يقولون : وعدنا أن يرسل رسولا ، فقد أرسله ، وحقق قوله ، وصدق وعده . واحتج النبي صلى الله عليه وسلم بذلك وذكره . ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم ليُجادل ويحتج في أمرهم بكذب وباطل ، ولم يكن ليقول للنصارى واليهود ، فيما ذكر الله من صدق الموعود : إنه في التوراة والإنجيل مكتوب موجود ، إلا وهو من ذلك على حق يقين ، ونور مستبين . وكيف كان يستشهد من التوراة والإنجيل بكذب ، ويتقول عليهم الباطل ، مع حرصه على تصديق أهل الكتاب ليستدعى به إيمان أحياء العرب . أما كان يعلم أنه إذا قال لهم : إنه موجود في متاني كتبهم ، وسمى على أفواه رسلهم ، فلم يجدوا خبره يقينا ، ولا وصفه مستبينا ، أنهم سيُدبرون عنه إدارا ، تزداد به العرب نفارا ، إلا أن يقولوا خطأ من علمه ، وهواء من خبره ، فكيف لم يخط إذاً في كتبهم حرفا غيره ، ولم يخالف منها شيئا سواه ، سبحان الله ! لقد أكثر المؤمنون العجب من ذهاب الأساقفة بكم ، فاتم إن تنكر ما يقولون لكم ، مما ليس لذي لب أن يأذن له أن يؤمن به ، ولا أن ينذ اليه

سمعه، يقولون : إن أنبياء الله ورسله ، المبعوثين بالرحمة الى خلقه ، لطفت النبوة منهم ، ووقعت الأخبار المنزلة عليهم ، على صغائر الأمور ، وغوامض الخطوب ، فسار الناس عليها ، وأشاروا لهم الى طلبها ، فهي مكررة في مثالي كتبهم ، ويطون صحفهم ، وأقاول رسلهم ، وتركوا من كلام الله النبا العظيم ، والأمر الكبير ، والذكر الحكيم ، الذي ملك آفاق الأرضين ، وأستفاض على جميع العالمين ، لم يذكروه بخير يأترون به ، ولا بشرية يتنون عنه ؛ كلا ! ما ترك الله على هذا خلقه ، ولا بهذا وصّف تبارك وتعالى نفسه ؛ إنه لأرحم الراحمين ، وأحكم الحاكمين .

ولئن رجعت الى قلبك ، لتقولن في نفسك : لعمر الله لو كان هذا الأمر الذي طلع طلوع الشمس ، وأمتد أمتداد النهار فيبلغ مشارق الأرض ومغاربها ، وسهول الآفاق وحزونها ، حقاً وصدقاً وعدلاً ، لبشرت الكتب به ، وتبأت الرسل عليه ، ودعت النذر اليه ، تزيينا له وترغيبا فيه ، وأمرأ به . ولو كان ضلالةً وجهالةً وعمايةً ، لتقدموا في التحذير منه ، والترهيد فيه ، والتشبيط عنه ؛ فيدعو ذلك الى أن تنظروا الى كتب الأنبياء وأقاول الرسل . فأيم الله لئن طلبت لتجدن ، ولئن أجتهدت لتتوقفن . وما الصواب بممنوع ، ولا الخير بمحذور . ولقد كانت العلماء بالكتب والبصراء بالتأويل تجده ، ولكنها كانت تكتمه بحريف كلام الكتب عن مواضعه ، وصرف تأويل الحكم الى أشباهه ، حسداً من عند أنفسهم وبغياً بعد ما تبين لهم . ثم لقد أقتديتم بهم وجرّيتم معهم وأخذتم عنهم ، بلا حجة لكم ، ولا قوة معكم إلا الاقتداء بالأباء والأتباع للاتار . فأتق الله في نفسك ، وأتهم الرجال على دينك ، ولا تجعل النظر الى غيرك من ذوى الشك في القلوب ، والفسخ في ... ^(٣) والثهم في التعطيل ، الذين لعلهم يعرض لأرائهم ويقع في أوهامهم أن يقولوا : فلعل ما يتلوع عليكم أمير المؤمنين من آيات القرآن ، ويقرع لكم من حجج الوحي شيء زيد

(١) هكذا في الأصل . (٢) في الأصل «أن ينظروا...» بياء الغيبة . (٣) كذا في الأصل

وظاهر أن كلمة بعد «في» سقطت من النسخ سماوا .

في المصاحف بعد النبي صلى الله عليه وسلم . وهذا ما لا يَحْتَمِلُه عقل صحيح ولا نظر قوى ، وذلك الشاك في شهادات الرجال ، متفقه من بلدان وأمصار مختلفة ، وشعوب وقبائل متفرقة ، ليس يدعوهم الى ما شهدوا ديناً ، ولا يحملهم على ما اتفقوا عليه دنيا ، لا يستقيم له أن يؤمن بما لم تدركه جوارحه وتُحيط به حواسه ؛ لإسقاطه حجة الإجماع وإبطاله شهادة العوام . وآتفاق المختلفين دلالة واضحة . فهو سائلكم عن الحجّة في الإنجيل والبيّنة على التوراة ، شكّاً في الربّ وتكذيباً بالرسول ، فما كنت قائله له أو يجيبه به في كتابكم ، فأجبه بمثله في كتابنا وإن كانت الأحوال منها غير معتدلة ولا مؤتلفة ولا مرتفقة ولا واحدة ، تمتدل حالاهما ، ويتفق أمرهما ، من كتابكم ما لم تنزل به الملائكة وحيا كالقرآن ، ولم يشافه المسيح به أصحابه باللسان ، إنما كان فعلاً أثبت من بعده ، ولم يكن الفعال موضوعاً بعده . وليس يكتب أمير المؤمنين بهذا اليك شكاً فيه ، ولا يورده عليكم مرية به .

ولقد علم أمير المؤمنين أن كُتِبَ الله عز وجل محفوظة ، وأن حُجَّجه مخزونة ، لا يُزاد فيها على تقادم عهد ، ولا يُنقص منها على تقارب دهر ، وأن ذلك ثبت في الإنجيل من بعد عيسى عليه السلام ، وأنه قال لمن آجتماع اليه من الحواريين : ” بالوحي أكلّمكم ، والأمثال أضرب لكم “ . فأمثاله المضروبة كلام ، وكلامه الرائع وحى . ولكن ما بال الشك يُنقى عن كتابكم ، بحجة الاجتماع عليه عندكم ، وهو على ما وصّف أمير المؤمنين لكم ، وسيان في تنزيل كتابنا ، وقد أدرك شهادة دينه ، إما ما قربا من عهده ومعانينته وحيه واجتماع على حفظه ، هذا حكم مختلف .

فقل للذين يشكون فيه ويرتابون به : أوقعوا أوهامكم على حالات الأوقات التي تعرفون ووقوها بطبقات الرجال الذين يهتمون .

فإن قالوا : أما طبقات الرجال التابعين ، وحالات زمان أمير المؤمنين ، فذلك ما لا يسوغ الأفاويل فيه ، ولا تدخل الشبهة عليه ، لأنشطار القرآن وأمتداد الزمان ،

(١) في الأصل : « لا يستقيم له أن يؤمن له بما ... » . بزيادة ” له “ . وهي قلقة في موضعها فلعلها زيدت من الناسخ . (٢) في هذا الموضع اصطراط في الكلمات ، والمراد واضح . (٣) كذا في الأصل .

وكثيرة الجملة لآياته فيهم، والحفظة لسانه منهم، ولكن الدين الذي نزل به القرآن، وقبض النبي صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم. وكيف يوقع تهمة أو دخول شبهة، على أقوام [لبث] النبي صلى الله عليه وسلم عشرين حجة فيهم يتلو كتاب الله عز وجل في كل عام عليهم، حتى حملوه في صدورهم، وحفظوه في قلوبهم، وكُرِّر في آذانهم مسموعاً، وأمرت على أبصارهم مكتوباً، وبحرى على ألسنتهم متلوّاً، وجمعه كثير منهم محفوظاً؛ ثم توارثوه فيهم وتداولوه فيما بينهم، حتى أدوه إلينا، وأوفوا به عندنا، من مواضع متفاوتة، وأصناف وأجناس متباينة، على كلمة واحدة!

فإن قالوا: اتفقت الرجال على الزيادة فيه وأمكنتم الحال من الحمل عليه، فليعلموا أن المؤمنين المخاصين ليسوا في الزيادة متهمين، وأن المنافقين الملحدون ليسوا على ذلك بقادرين. وكيف يقدر القليل من المنافقين على مخالفة الجمع من المؤمنين، بعد ما حفظته قلوبهم، ووعته أسماعهم، ثم تكتم القدرة لهم وتستر الزيادة منهم! هذا ما لا يقدر عليه منافق، ولا يطيقه مشرك ولا فاسق. وأيم الله أن لو قدرت اليهود على الزيادة في الإنجيل، لأفسدوا كتابكم وغيروا دينكم؛ ولو جعل الله المنافقين على الزيادة في كتابه قادرين، لبدلوا ديننا وغيروا حالنا. ولو كانوا لذلك مقرنين وعلى ذلك مقتدرين، لكان الذي كتب به أمير المؤمنين اليكم، وأورده من حجج الله عليكم، أولى ما تلقون، ورأس ما تقتفون. فلا تلقين إلى ما قاله [المضل] سمعك، ولا تُنصت الدهر إليه ذهنك، فإنه اتخذ الشك في كتابنا ذريعة إلى الإخلال بكتابك، وسألنا إلى الشك في دينك وعلّة في الطعن على ملكك؛ ولكن قل يا وليّ الشيطان: أتى وقع لك إيمان بأنك من ولد فلان؟ أقول: شهدت الجيرة، واجتمعت العشيّة، وأتفق المختلفون، فذهب الشك، وزال الريب، ووقع الإيقان، من غير العيان؟ صدقت. فما بال الشك فيما اجتمعت العاقبة على القول به، وأتفقت الجماعة في الشهادة عليه من آيات الكتب وبيّنات الرسل! وإن ذهب بهذا عن أمره، وباعده

عن شبهه ، فتؤمن أنه من نطفة خُلِقَ ، ومن رَحِمٍ نَجَحَ ، فإن جحدوا بي ألا يؤمن بما لا يرى ، فقل : أرايتَ لو كنت سميماً أعمى ، أكنتَ تؤمن بشيء مما في الدنيا : من سماء أو هواء ، أو بحر أو سبع ، أو أرض أو جبل ، أو شبه ذلك مما لم يدركه العيان ولم يقبله إلا عن الناس؟ فإن قال نعم ، فقل : فهل لك إلا بالاجتماع الكفر بالرب ، وما لدائه دواء غير الصلب . فاتقِ الله إذ كنتَ إماماً وقائداً لأهل ملكك ، لا تقدمهم الى النار فتحمل أوزارهم مع وزرك .

فإن من أين آيات الوحي ، وأدللّ علامات النبي صلى الله عليه وسلم أنه لا يتدع في الدين أمراً من تلقاء نفسه ، ولا يتقدم في الأمور بين يدي ربه . والله أظهرَ فيما أنزل من الكتاب أموراً كان يحسبها صلى الله عليه وسلم مستورة ، فقال تأديباً له ، وإخباراً لمن آمن من بعده : ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَخُفِيَ فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴾ . وقال : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْفَ جَاءَهُ الْأَعْمَى وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّه يُزَكَّى أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى أَمَا مِنْ آسْتَفْتَى فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى وَمَا عَلَيْكَ إِلَّا يَزَكَّى وَأَمَا مِنْ جَاءَكَ يَسْعَى وَهُوَ يَخْشَى فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً إِذَا لَأَذْنُكَ لَصِفَ الْحَيَاةِ وَضَعَفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْهَا نَصِيرًا ﴾ . وقال له حين صرف قلبه عن بيت المقدس الى البلد الحرام حين سكنت القلوبُ اليها ، وأنست النفوس بها : ﴿ وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ . وكانت القبلة التي صرفه الله اليها وأمره بها عظيمة على المنافقين واقعةً بخلاف الكافرين ، كبيرة ^(٣) إلا على الذين هدى الله من المؤمنين ؛ فإنهم قالوا : إذا اختلفت القبلتان واختلفت الطاعتان ، كانت الطاعة فيهما واحدة لا اختلاف فيها ولا افتراق عليها . وكيف تختلف الطاعة من رجلٍ بنى بأمر الله عز وجل ثم هدم بوحى الله .

(١) كذا في الأصل (٢) في الأصل : "لن آمن من بعده إذ يقول ... " وظاهر أن كلمة

" إذ يقول " غر مفيدة هنا . فلعلها زيدت مهوا من الناصح . (٣) في الأصل : " كثيرة ... " .

فإن قلت : إن الله حَوَّلَهُ عن أفضل القبليين وأقوم الجهتين ، فلا سواء في الفضل البين والخير السرّ : قبله سلط الله عليها الكافرين ولم يمنعهما من الظالمين ، وقبله منعهما بمنوّد من عنده ، وعصمه بغير ما حَوَّلَ من خلقه ولا حرمة يدعيها أحد من فيها ؛ فأرسل طيراً أبابيل ترمي الأعداء بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف ما كول . فإن تقل : هذا خبر نكوه ، وقول لا نعرفه ؛ فبأى حديث بعد هذا تؤمن ، وتشهد الله عز وجل أنه من قبله ، وأنتم تعلمون أنه أنزل الله عز وجل سورة الفيل على قوم أدركه منهم بشر كثير .

فإن قلت : إن محمدا صلى الله عليه وسلم خبرهم بما عاينوه وأدركوا خلافه ، نقل : إنه أراد أن يفرّقه عنده ويوحشهم منه ، وأحب أن يرموه بالكذب ، ويقذفوه بالحق ، ويصمونه بالحنون ، ويظنون به الظنون ، كلا ! ما كان نبي ولا غير نبي ليجاهد أقواما بخلاف ما رأت أبصارهم وشاهدت آباؤهم ، فيخبرهم بخلاف ما شهدوا ، وتكذيب ما عاينوا . فلا تكون في هذا من المترين ، ولا بأمر الفيل من المكذّبين .

فلعمراً لو كان من أمر النبي صلى الله عليه وسلم ما تُلحِد أنت وقومك إليه لما قام معه رجلان ولا اختلف فيه سيفان . وإن فيما صنع الله عز وجل بالفيل وأتباعه ، دلالة على قبلة الله وأنيائه . فأتق الله ! فقد شرح أمير المؤمنين علامات النبي صلى الله عليه وسلم وكشّف الأغطية لك عن النور بآيات الوحي . فإن مالت الأهواء بك ، وغلبت الأساقفة عليك ، وحضرك الرؤساء الذين يجعلون مع الله آلهة أخرى بلا حجة عندهم ، ولا سلطانٍ أتاهاهم فقل : أنبؤني عما آجتمعت عليه الصّرانية وذهبت إليه بهم المعاني من تشقيق الكلام وتصريف الكتب : أحروف تتعسفونها ، أم لغة تُعرفونها ؟ فإن قالوا : إنهم بغير لغة يتكلمون ، فهم إذا قوم يلعبون . وإن قالوا : إنهم يتكلمون باغة معروفة ومعانٍ معلومة ، فقل : أخبروني عن قولكم : أب وأبن ، أهما ما تعترف العقول من المنطق ويقع في القلوب من المعنى أم لا ؟ فإن قالوا : لا ، ليس ذلك بالذي

تذهب أوهام العباد اليه ، ولا بالذى تقع الحقائق فى الآباء والأبناء عليه ، إنما هو كقول الله عز وجل فى التوراة لإسرائيل : ”بكرى“ لا يعنى ولادة الرحم ؛ وكقول المسيح عليه السلام للحواريين : ”أتم إخوانى“ لا يعنى أخوة النسب . فذلك قولٌ لا يجدون معه بدءاً من أن ينسبوا عيسى عليه السلام عبداً . وإن قالوا : بل هو ما تجرى به ألسن العباد ، ويقع فى قلوب الخلق من الولادة المعروفة والأبوة المعلومة ، فليخبرونا متى كان الأب والدا ، والأبْنُ مولودا : أقبل الولادة أم بعدها ؟ فإن قالوا : قبلها ، رجعوا عن القول الأول بتثبيت الأبوة . إلا أن ذلك ليس بالشئ الذى تذهب إليه الأوهام ، ولا بالمعنى الذى يقع فى قلوب الأنام .

ولا بد إذا سقطت الولادةُ المعروفة وبطلت الأبوةُ الموجودة ، أن يقولوا : إن الأب والأبْن آسمانٌ علَّقا على غير معنى ، ونَسَبانٌ أُضيفا الى غير حق ؛ فيقترن أن عيسى عليه السلام خَلِقَ مثلهم ، وأنهم يتكلمون بغير لغة أحدٍ منهم .

وإن قالوا : إنما كان الابن مولودا والأب والدا بعد الولادة ، فقد أقرّوا بأن الابن حَدَثَ مخلوق وعبد مرئوب ، لقولهم إنه لم يكن حتى وُلِدَ ، ولم يُولد حتى خُلِقَ . وقيل لمن يقول الزور العظيم ، ويقذف بالإفك المبين : أليس الأبُ أباً على حياله ولم يزل ، والابن أبنا نُجِلَ ، وروح القدس كذلك ؟ فإن قالوا : نعم ، فقد أقرّوا بأنهم ثلاثةٌ متباينةٌ ، وقعت عليهم ثلاثة أسماء متفاوتة ، وتركوا قولهم : إنهم ثلاثةٌ أصلهم واحد .

وإن قالوا : الأب والابن وروح القدس واحد ، ولكن بعضه أبٌ وبعضه ابن وبعضه روح القدس ، فقد دخلوا فى التحديد الذى هو عيب عندهم ، وقالوا فى التبعض بما هو كفرٌ قبلهم . وإن قالوا : ليس مُبعضاً ، ولا مجزأً ، ولا محدوداً ، ولا ثلاثة متباينين ، فإذا هم قوم يلعبون : يقولون : الأبُ ابنٌ ، والابن أبٌ ، والوالد مولود ، والمولود والد ، والكبير صغير ، والصغير كبير ، والقليل كثير ، والكثير قليل . وهذا من أبين المحال وأخلف المقال . وليس من المنطق مالا يوجد فى لغة عرب ولا عجم ، ولا لسان أمة من الأمم . وإنما

أرسل الله عز وجل كل نبيّ بلسان قومه ليبيّن لهم ، فُيُضَلُّ الله الظالمين . ولولا ذلك لَمَا فَهَمَت الأُمم مذاهبَ أقاويل الرسل ولا معانيَ أحاديث الكتب . فلا تُطَع الذين يلعبون بأنفسهم ، ويتكلمون بغير لغتهم ، ويقولون : الثلاثةُ واحدٌ ، والواحد ثلاثةٌ ؛ وهذا محالٌ في تجارى المقال ، ومعاني الفِعال .

لعمركم لئن اتَّهَمَت عقولُ الأساقفة على دينك ، وأهتَمَّت بالنظر في توحيدك ، لتَعمَمنَ أن الواحدَ لا يكون ثلاثةً وأن الثلاثةَ لا تكون واحداً ، إلا على وجه ماله ثانٍ يقول به ، ولا منه مخرُجٌ تستريح إليه . فألقِ نحوه سمعك ، وأنصت إليه فهمك ؛ فإن أمير المؤمنين وإصْفُه لك ، وليس واقعاً إلا على المخلوقين ، ولا لازماً غير المحدودين ، ولا داخلاً على رب العالمين : وهو أن يكون الشيءُ أصله واحد وأجزاؤه كثيرة ، من نحو الانسان ، وهو أصل يجمعه اسم ، وله أجزاء تلزمها أسماء ؛ فليس الجزء بالأصل ، ولا الأصلُ بالجزء ، ولكن الجزء بعض الأصل . فإذا أردتَ الجزء ، قلت يد الانسان وسمع الانسان . ولولا أنه محدود مخلوق مجزأً مبعث لما جاز هذا القول فيه ولا دخل هذا المثل عليه ؛ وكذلك الشمس : الأصل واحد ، وهي شمس ، والأجزاء كثيرة وهو عينُ الشمس وضوءُ الشمس وشعاعُ الشمس وديقُها وغليظها وحرورها وأعلاها وأسفلها وأشباه ذلك .

فلئن قلت : سميتُ كلَّ جزء من الأجزاء على حياله إنساناً ، وكلَّ جزء من الشمس دون أصله شمساً ، ونسبتَ فعلَ الأصل الى بعض أجزائه ، وتركتَ أن تنسبَ الأصلَ فاعلاً ببعض الأجزاء ، كما تقول : بسطَ الانسانُ يده ، ومشى برجله ، ونظر بعينه ، ثم ضربتَ ذلك لله عز وجل مثلاً وجعلتَ الله له قياساً ، فقلت : الأصلُ واحد ، وهو الله عز وجل ، والأجزاء كثيرة وهي أب وأبن وروح القدس ، وكل جزء منها إله على حياله وربٌّ دون غيره ، لم تجِدْ بدءاً أن تُلحِقَ اليدَ والعينَ والنفسَ بالأب والأبن وروح القدس ، فُتكثرَ ألهتك ، وتحدَّدَ ربك ، وتتركَ قولك : إن الله ليس محدوداً ولا مجزأً ولا مبعثاً ؛ إلا أن يكون إنما تريد مذاهب الأسماء فتقول : المعنى واحد ، وهو الله عز وجل ، والأسماءُ أبُّ وأبْنُ وروح القدس .

فإن كنت تقول هذا وكنت إنما تعبد أسماء، فما تجدد بدأ من أن تعبد الأسماء كلها وتقول : إنها آلهة على حيالها ، حتى تقول باسم أرحمني ، وبثاني اغفر لي . فاتقوا الله يا أهل الكتاب ؛ فإن الله عز وجل ليس بأب ولا ابن ولا أسم ، ولكن له الأسماء الحسنی فادعوه بها ، وذروا الذين يُلحدون في أسمائه سيحزون ما كانوا يعملون .

فإن أشارت الأساقفة الى بعض الإنسان باليد والرجل وأشباه ذلك وقالوا ليس إنساناً ، فقل لا ، ولكنه للإنسان ، وقل هو إنسانٌ بكالهِ . وكذلك إن أشاروا الى بعض الشمس فقالوا : أليس هذا الشمس طالعا ، فقل لا ، ولكنه بعضها ، ولو كانت الأسماء التي تقع أبصاركم عليها وتشير أيديكم اليها من الشمس والسماء والهواء شمساً وهواءً وسماءً لكانت الشمس والهواء والسماء أكثر مما يبلغه الإحصاء . ولو قصدت بالإجابة لمسالك هذه الأودية ، لبطلت المجمع الداحضة وأنقطعت الأقاويل المتناقضة . وسل من قبلك من أساقف أمتك وشمامسة أهل ملتك الذين يزعمون أن عيسى المسيح ، ويرفعونه أن يكون عبداً : على أى شيء وقع اسمُ المسيح من عيسى : على الروح أم الجسد أم على كليهما؟ فإن قالوا : وقع على الروح نفسه ، لأن الروح إلهٌ دون غيره ، فقد أقرروا بأن إلههم يأكل ويشرب ، ويمشي ويركب ، لأنهم يجدون ذلك من فعل عيسى مبينا قبلهم ، موصوفاً عندهم . فإن قالوا : وقع اسمُ المسيح على الجسد بعينه ، فكان الجسد هو المسيح إذا دون غيره ، والمسيحُ إذا مخلوقٌ عندهم ، والإله إنسانٌ إذا مثلهم ، فلم يعبدون المخلوق ويدعون من خلقه وبرأه . وإن قالوا : وقع الاسم على الروح والجسد جميعاً ، فلن يجدوا محرّجاً ولا بدأً ولا محيصاً ، إذا أوقعوا الاسمَ عليهما ، من أن يضيفوا الأعمالَ إليهما ، فيقولوا : إن الجسد المخلوق هو خلقهم ، وإن الروح الخالقة قد ماتت قبلهم ، وذلك لما يجدون من ذكر موت عيسى عليه السلام في الكتب عندهم وفي الإنجيل الذي قبلهم . وسل من قبلك عن الأب والابن ، فقل أيهما أعظم وأيهما أصغر ؛ فإن قالوا : الأب أعظم والابن أصغر ، فقد جعلوهما متباينين . وإن قالوا : هما واحدٌ وكلاهما عظيم ، وليس الأب بأعظم من الابن ،

ولا الابن بأصغر من الأب، فقد تُقضى حينئذ جوابهم، وأكذب المسيح عليه السلام كلامهم، حيث يقول: ^(١) «لو كنتم تحبونى لفرحتم حيث أذهب الى إلهى فإن إلهى أعظم منى» فلم يقل أعظم منى، إلا وهو مقر بأنه أصغر منه . وسلهم عن قول المسيح: ^(٢) «أنا أذهب الى إلهى وإلهكم»، فقل: من هذا الإله الذى ذهب عيسى اليه صلى الله عليه وسلم: إله فى السماء متباين منه منقطع عنه؟ فهما اذا اثنان متباينان، أم إله كان به متصلاً وكانا جميعاً واحداً؟ فكيف اذا يجوز له أن يقول اذاً أذهب اليه! إلا أن يقولوا: إن بعضه ذهب الى بعض! وهذا مما لا يجوز عندهم فى صفة الرب عز وجل .

وسل من قبلك: أخرج المسيح من بطن أمه مريم بكاله حتى كان البطن منه فارغاً وكان هو منه بكاله خارجاً؟ فإن قالوا: نعم، فقد أنكسر قولهم: إن الله بكل مكان . وإن قالوا: لم يخرج المسيح ولم يخل البطن، فقد كذبوا اذاً فى قولهم: إنه قد خرج، وأقروا أنه قد ولد . فتعالى الله عما يصفون، وتزه عما يشركون . وسلهم لم يهبّ عيسى الى بطن مريم، وتجدد باللحم والدم؟ فإن قالوا: ليحقق الخطايا من الأرض ويربط الشيطان عن الخلق، فقل: كيف اذاً لم يربطه عن نفسه! وكيف جلاباه من اليهود بصلبه! ولم سلط على أهل دينه يتبعون فى كل شعبٍ ويقتلون بكل واد!

وقل للذين يقولون: إن الخالق فى كل مكانٍ من السماء والأرض وغير ذلك: أيهما أعظم: المحيط المشتمل، أم المحاط المشتمل عليه كما يقولون؟ تعالى الله عما يشركون . فإن قالوا: إنما ألحم بعضه دون بعض، فقد حدوا وبعضوا ونقصوا وأتقصوا، وإما قالوا فلن يجدوا بداً من أن يقولوا: إن بعض المسيح الذى جعلوه ربهم، وهو إله عندهم، ميت بعضه جيفة، وإن بعضه حتى طيب؛ لأنهم زعموا أنه ألحم بجسد حتى فيه

(١) الوارد فى إنجيل يوحنا (فصل ٤ آية ٢٨ ج ٣ ص ١٨٦ من الكتاب المقدس طبعة بيروت سنة ١٨٨٢ م):

«فلو كنتم تحبونى لفرحتون بأنى ماض الى الأب لأن الأب هو أعظم منى» .

(٢) الوارد فى إنجيل يوحنا (فصل ٢٠ آية ١٧ ح ٣ ص ١٩٦ من الكتاب المقدس): «بى صاعد

بى وأبيكم وإلهى وإلهكم» . (٣) كذا بالأصل .

رُوح، فلا بدّ أذاً أن يدخل عليه ما يدخل على الأجسام الحية من الخوف والفرح والعطش وأشباه ذلك، وهو عندهم كفر عظيم وإفكٌ مبین . فاتّقى عقوبته الله ربك، ولا تمش مُجأً على وجهك، ولكن أطلبْ وأتمسْ وأبحثْ؛ فقد قال عيسى عليه السلام في الإنجيل :
 «^(١) مَنْ سَأَلَ أُعْطِيَ وَمَنْ طَلَبَ وَجَدَ وَمَنْ اسْتَفْتَحَ فَتُحَّحَ لَهُ » .

اجمع العلماء والبصراء [الذين] عندك، والأساقفة والرهبان الذين قبلك، فقل : لأى شيء نَسبتم المسيح إلهاً وجعلتموه رباً؟ ونجد الله سمأه في الكتاب ابناً، وقد تجدونه قال :
 «إني أذهبُ الى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم أيضاً» . وهذا كلامٌ يحتمل وجهين أحدهما أولى به، وقولٌ لا يحتمل إلا وجهاً وهو الرُبوبية . أم كيف تنظرون الى كلامه : «أذهب الى أبي وأبيكم» . فتفردونها في نفسه وقد قالها فيه وفي غيره !

فاتق الله وكن من القائمين بالحق، الموحدين للرب . إن أمير المؤمنين قد ضرب لك أمثالاً جمّة، وصرف اليك مسائل كثيرة، وبين لك من آيات النبي صلى الله عليه وسلم وعلامات الوحي قليلاً من كثير، واضحاً من تفسير، لا تمتنع العقول من التصديق به، ولا القلوب من الإقرار به .

وسيدك أمير المؤمنين من علامات النبي صلى الله عليه وسلم في التوراة والإنجيل، ما يكتفى به، إن شاء الله، وباليسير منه؛ لأن كتب الله عز وجل محفوظة، وحججه محروسة، لا يزداد فيها ولا ينقص منها . وإذا وجدت فيها كلمة تدلّك على حق وتهديك على رشد، فليست واجداً أخرى تصدك عنه وتشككك فيه، إذا تلى ذلك بالحق ووضع على الصدق . ولكن ضلّت اليهود والنصارى بتحريف تأويل الكلام، وتصريف تفسير الكتب . وأمير المؤمنين يسأل الله العِصمة والتوفيق .

(١) الوارد في إنجيل متى (فصل ٥ آية ٤٢ ح ٣ من الكتاب المقدس) : «من سألك فأعطه . ومن أراد ان يقتصر منك فلا تمنعه» . والوارد في إنجيل لوقا (فصل ١١ آية ١٠ ح ٣ من الكتاب المقدس) . «من يسأل يعطى ومن يطلب يجد ومن يقرع يفتح له» .

من ذلك ما قد شهد به عيسى عليه السلام عندكم وبينه في الإنجيل لكم ، إذ قال للحواريين ^(١) : ”أنا أذهبُ وسيأتيكم البارقليط روح الحق الذي لا يتكلم من قبل نفسه إنما يقول كما يقال له ، وهو يشهد علىّ وأنتم تشهدون لأنكم معي من قبل الناس بالخطيئة ، وكل شيء أعد الله لكم يخبركم به“ . وترجمة البارقليط : أحمد . هذا ما لا شك ولا صرية فيه ، وهو الذي يُخبر بما وعد الله المؤمنين وصالحى الحواريين في القرآن ؛ ولستم تجدون ذلك في التوراة ولا في الإنجيل .

ومن ذلك قول أشعيا النبي عليه السلام : ”قيل لى : اقم بطارا ما ترى بخبرى؟ قال : ^(٢) أرى راكبين بعيرين مقبلين أحدهما يقول لصاحبه : سقطت بابل وأصنامها المنحوتة“ . ^(٤) ولسنا نعلم نبيا ركب بعد موسى صلى الله عليه وسلم بعيرا إلا محمدا صلى الله عليه وسلم كثيرا . ومن ذلك قول داود عليه السلام : ”اللهم ابعث جاعل السنة كى يعلم الناس أنهم بشر“ ^(٥) يقول : كى يتبين الناس أن عيسى عليه السلام إنسان . ولسنا نعلم نبيا وضع سنة تُنسب إليه إلا محمدا صلى الله عليه وسلم . أما عيسى فإنه نصب سنة موسى عليه السلام .

ومن ذلك قول حبقوق النبي ^(٦) في زمان دانيال : ”جاء الله من السماء والقديس من جبال فاران ، وأمتلأت السماء من تجميد أحمد وتقديسه ، ومسح الأرض يمينه ، ومالك رقاب الأمم“ . وقال أيضا ^(٨) : ”تضىء لنوره الأرض ، وتحمّل خيله في البحر“ . فالى من

(١) راجع إنجيل يوحنا (فصل ١٤ آية ٢٦ وفصل ١٥ آية ٢٦ وفصل ١٦ آية ١٣ ج ٣ ص ١٨٨ من الكتاب المقدس) .

(٢) راجع نبوة أشعيا (فصل ٢١ آية ٩ ج ٢ ص ٣٤٨ من الكتاب المقدس) . (٣) كذا بالأصل ، ولم يوفق الى تصحيحه . (٤) فى الأصل : «المنجرة» وقد استأنسا فى اثبات ما أثبتناه بالكتاب المقدس .

(٥) راجع سفر المزامير (فصل ٩ آية ٢١ ج ٢ ص ٥٢ من الكتاب المقدس) . (٦) راجع نبوة حبقوق (فصل ٣ آية ١٥ ج ٢ ص ٧٠٩ من الكتاب المقدس) . (٧) فى الأصل : ”من السماء ...“ .

(٨) راجع نبوة حبقوق (فصل ٣ آية ١٥ ج ٢ ص ٧٠٩ من الكتاب المقدس) .

ينحو هذا القول، وإلى أين يذهب بهذا المعنى؟ لئن دُهِبَ به إلى غير الذي [يحمل] خيلَهُ^(١) في البحر، وبدأ من جبال فاران أمره، وغلب على الأرض ومسحها، ومَلَكَ رِقَابَ الأُمَمِ كلها، لقد تركتم الحق وأنتم تعلمون .

ومن ذلك قول داود عليه السلام في الزُّبُور^(٢) : ” صَدَّقُوا رَبَّ تَسْبِيحًا حَدِيثًا سَبَّحُوا الَّذِي هَلَّلَهُ الصَّالِحُونَ . لِيَفْرَحَ إِسْرَائِيلُ بِخَالِقِهِ وَيَتُوبَ صَاهِبُونَ مِنْ أَجْلِ أَنْ اللَّهُ اصْطَفَى لَهُ أُمَّتَهُ ، وَأَعْطَاهُ النَّصْرَ وَسَدَّدَ الصَّالِحِينَ بِالكَرَامَةِ ، يَسْبِخُونَهُ عَلَى مَضَاجِعِهِمْ ، وَيَكْبُرُونَ اللَّهَ بِأَصْوَاتٍ عَالِيَةٍ ، بِأَيْدِيهِمْ سِوْفٌ ذَاتُ شَفَرَتَيْنِ ، لِيَنْتَقِمَ اللَّهُ مِنَ الأُمَمِ الَّذِينَ لَا يَعْبُدُونَهُ ، ثُمَّ يَقِيدُ مَلُوكَهُمْ بِالْقَيْدِ وَأَشْرَافَهُمْ بِالْأَغْلَالِ “ . فَأَيُّمَا أُمَّةٍ يَكْبُرُونَ اللَّهَ بِأَصْوَاتٍ وَأَذَانِ الصَّلَوَاتِ الدَّائِمَةِ وَعَلَى كُلِّ شَرْفٍ وَعِنْدَ كُلِّ حَرْبٍ ، وَأَيُّمَا أُمَّةٍ كَانَتْ سِوْفُهَا ذَاتَ شَفَرَتَيْنِ إِلَّا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ !

ومن ذلك قول أشعيا^(٥) : ” سَبَّحُوا رَبَّ تَسْبِيحًا حَدِيثًا ، وَيَسْبِجُهُ مِنْ آفَاقِ الأَرْضِ فَحَّحَ يَكُونُ فِي بَنِي فَيَارَ “ . وَبَنُو فَيَارَ قَرِيشُ أَهْلِ فَارَانَ الَّذِي نَزَلَ فِيهِ الْقُرْآنُ . وَأَيُّمَا أُمَّةٍ تَسْبِجُ مِنْ آفَاقِ الأَرْضِ إِلَّا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . عَدَى أَكْدَى .

ومن ذلك قول أشعيا^(٨) : ” عَبْدِي الَّذِي وَجِبَ بِهِ حَيِّي الَّذِي بَشَّرْتُ بِهِ نَفْسِي أُفِيضُ عَلَيْهِ رُوحِي ، يُوَصِّي الأُمَّمَ بِالْوَصَايَا ، لَا يَضْحَكُ وَلَا يُسْمَعُ صَوْتُهُ فِي الأَسْوَاقِ ، وَيَفْتَحُ العُيُونَ العُورَ ، وَيُسْمِعُ الأَذَانَ الصَّمَّ ، وَيُنْحِي القُلُوبَ العُلْفَ ، وَمَا أُعْطِيهِ لَا أُعْطِي غَيْرَهُ ، أَحْمَدُ يَحْمَدُ اللَّهَ حَمْدًا حَدِيثًا ، تَهْلِيلُهُ يَأْتِي مِنْ أَقْصَى الأَرْضِ ، يَجُوزُ المَاءَ بِشِدَّةِ أَمْوَاجِهِ ، وَيَفْرَحُ وَكُورَهَا ، سَكَانُهَا يَحْمَدُونَ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَرْفٍ ، وَيَكْبُرُونَهُ عَلَى كُلِّ رَابِيَةٍ “ .

(١) زيادة يدل عليها ما قبلها . (٢) في الأصل : ” مسحها ... “ . (٣) راجع سمر الزماني (فصل ١٤٩ آية ١ — ٩ ح ٢ ص ١٥٧ من الكتاب المقدس) . (٤) في الأصل ” هللكه الصالحون ... “ . (٥) راجع نوءة أشعيا (فصل ٤٢ آية ١٠ ح ٢ ص ٣٧٦ من الكتاب المقدس) . (٦) كذا في الأصل ، ولعله محرف عن «فوح» . والفوح : الجماعة من الناس . (٧) كذا بالأصل ، ولم ندر لها تيسر الكنتين ولالذ كرهما معنى . (٨) راجع نوءة أشعيا (فصل ٤٢ آية ١ — ١٠ ح ٢ ص ٣٧٦ من الكتاب المقدس) . (٩) كذا بالأصل .

(١) ومن ذلك قول داود عليه السلام في المزمور الخامس والأربعين ، يقول الله عز وجل
 لمحمد في الزبور : ” انصبت رحمتي على شفيتك من أجل ذلك باركتك الدهر ، تقهّد
 السيف على الأمم ، أيها الجبار على الأمم بالقتل والأسر والسبأ بهاك وحمدك أحمد بعلب
 الرمنك كلمة الحق وذلت لك الأشياء سيفك محسمة يمينك ونبالك مسمومة وتسقط
 عند الأمم “ . فأى نبي كان على الأمم جبارا ولهم بإذن الله قتالا إلا نبينا صلى الله عليه وسلم .

(٢) ومن ذلك في آخر التوراة : ” جاء الله تبارك وتعالى من سيناء وأشرف من ساعير
 واستبان واستعلن من جبال فاران ، وجاء عن يمينه ربوات القديسين “ . وتفسير هذا
 أن الله عز وجل أنزل التوراة على موسى في طور سيناء ، وأنزل الإنجيل على عيسى عليه
 السلام في جبل ساعير وهو جبل بالشام ، وأنزل القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم في جبال
 فاران وهي بلاد مكة . وأتم تجدون ذلك في كتبكم مكررا وتعرفونه جميعا بلغتكم .

(٣) ومن ذلك قول الله عز وجل لموسى عليه السلام «سأقيم لهم من إخوانهم مثلك أجعل
 كلامي على فهمه ولا يتكلم إلا بما أمره به» . فمن إخوة بني إسرائيل إلا بنو إسماعيل !
 أما تعلم أن لو كان الله عز وجل يعني أحدا منهم لقال لهم : أقيم لكم نبيا منكم ! .

فإن قلتم إنما قال من إخوانكم ، وهو يريد من أنفسكم ، فهب أمير المؤمنين قبل هذا
 الخلف منكم ووسع في هذا المجال لكم ، فكيف تصنعون بقول الله عز وجل في التوراة :
 ”مثل موسى في بني إسرائيل لا يقوم“ فهل تجدون من هذا مخرجا . ومن الإيمان أن المعنى
 وقع على محمد صلى الله عليه وسلم بدأ .

(١) راجع سفر المزامير (فصل ٤٤ « وفي بعض السح ٤٥ » آية ٣ — ٨ ج ٢ ص ٧٩ من الكتاب
 المقدس) . (٢) في الأصل : « في حمة وأربعين مزهورا » . (٣) في الأصل : « من
 أحل ذلك ماركل الدهر . واستعنا في تصحيحها بالكتاب المقدس الذي وردت فيه الجملة هكذا : « وقد اسكت
 العمه على شفيتك فلذلك باركك الله الى الأبد » . أما الباقي فلم نوفق الى تصحيحه فأشئناه كما وردت بالأصل .

(٤) راجع سفر ثنية الاشرع (فصل ٣٣ آية ٢ ج ١ ص ٤٤٣ من الكتاب المقدس) .

(٥) راجع سفر ثنية الاشرع (فصل ١٨ آية ١٥ ج ١ ص ٣١٨ من الكتاب المقدس) .

ألا تسمع قول الله عز وجل : "أجعلُ كلامي على فمهِ كى يعنى به ، أمي لا يقرأ ولا يكتب" .

أوليس قد أمر عيسى عليه السلام حواربيّه أن يقولوا فى صلواتهم : «يا أبانا الذى فى السماء تقدس اسمك» . كيف صار عيسى دونهم ابنا ، وصار له دونهم أباء ، وهم يقولون : يا أبانا ! أم كيف لم يجعل سليمان بن داود إلهاً وقد قال الله عز وجل لداود : "يؤتد لك غلامٌ يُسمى لى وأُسمي له" ! ولم يجعلون إسرائيل إلهاً وقد قال الله عز وجل له : "أنت بكرى" ! بل لم لا يُسمون المؤمنين عامّةً والحواريين خاصةً [آلهة] ، وقد قال المسيح للحواريين : أتم إخوتى ، وقد قال فى الإنجيل : "أعط كل من آمن بى سلطاناً يدعى له" . وإن كان هؤلاء كلهم للمسيح إخوة أفلا تجعلونهم كلهم آلهة ! وكيف يقولون : إن عيسى ابن الله ، وهو يقول فى مواضع جمة وأماكن كثيرة إنه ابن الانسان ! فكيف يكون ابن الانسان ابن الله ؟ ومتى كان ذلك ؟ لئن قالوا : إن عيسى لم يزل ابن الانسان ، لقد جعلوا مع الله إنساناً قديماً وجعلوا الله إنساناً حديثاً ، وجعلوا المسيح ابن الله لم يزل ، وابن الانسان فيما حدث . وهذه أمور متناقضة ، وحجج داحضة ، وأقويل فاحشة .

فإن قالوا : إنما نعبد المسيح لأنه رُح الى السماء ، فليعبدوا الملائكة فإنهم فى السماء قبله ، وإدريس فقد رفعه الله وغيره . وإن كانوا يعبدون المسيح لأنه لم يُخلق من ذكر ، فأدم وحواء لم يُخلقا من ذكر ولا أنثى ، ولم يقعا من غم الرحم وضيق البطن وحال الصبيا فيما [وقع] فيه المسيح .

وإن قالوا : إنما نعبد عيسى لأنه أحيا الموتى ، فما أحيا حزقيل أكثر ، وما كان من اليبس تلميذ إلياس أعجب ؛ لأنه أحيا الموتى بعد مئين من السنين . وإن طلبتم ذلك فى سير الملوك عند قصة اليبس أصبتموه ، إن شاء الله .

(١) راجع إنجيل متى (فصل ٦ آية ٩ ج ٣ ص ١٠ من الكتاب المقدس) . (٢) فى الأصل : «وصار دونه أباً ...» . (٣) لم يجد هداى الإنجيل . (٤) حزقيل نعى عنه الله تعالى الى بنى اسرائيل ، وهو الذى أحيا الله . القوم الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت ، فأحياهم الله تعالى بعد موتهم بدعوته . وهو ما يبشر اليه قوله تعالى : (ألم تر الى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت) الآية .

وإن كانوا إنما يعبدون المسيح من أجل الأسقام التي أبرأ والعجائب التي أرى ،
 فعجائبُ موسى أعجب وآياته أعظم . أين ما ذكرت لك من [عجائب] عيسى من عجائب
 موسى : من أنقلاب البحار له ، وسلوك الجحش معه ! أم أين ذلك من حجرٍ يضربه فيتفجر
 بعيون الماء ، ويمجله معه حيث شاء ! بل أين تلك وهذه وغير هذه من الآيات من حبس
 يُوَسَّعُ الشمسُ ثلاثَ ساعاتٍ ! وكلُّ ما صنع موسى وعيسى وغيرهما بإذن الله وأمره وقدره
 وقضائه . فاتقِ الله وكن من القائلين بالحق ، الموحدين للرب ، ولا تقبل على عيسى ما لم
 يَقُلْ ؛ فإنكم لا تجدونه قال لكم في شيء من كتبكم : اعبدوني فإني ربكم . تعالى الله عما يقول
 الظالمون ، ويذهب إليه الجاحدون .

وإن أمير المؤمنين قد أحب أن ينصح لك ، في أولى داريك بك وأهم شأنيك لك ،
 فدعاك الى الإسلام وأمرك بالإيمان الذي به تدخل الجنة وتنجو من النار . فإن قبلت
 فحفظك أصبت ، ونفسك أحرزت ، ولك ما للسلمين ، وطيبك ما عليهم . وإن رددت
 نصيحة أمير المؤمنين فيما فيه الخطأ في آثرتك ، فإن أمير المؤمنين ينصح لك فيما فيه الصلاح
 في عاجلتك : من إعطاء الجزية التي يحقن الله بها دماءكم ويمحرم بها سباءكم ، ويجعلها قواماً
 لمعاشكم ، وصلاًحاً لبلادكم ، وتوفيراً لأموالكم ، وأماناً لجنابكم ، وسعةً لسريركم ، وبركةً على
 نقرائكم ، وغنىً لأهل الحاجة والفاقة والمسكنة منكم .

وان يذكر أمير المؤمنين في الجزية لكم من حلول الأمن فيكم ، وعموم العافية إياكم ،
 وأستقامة البركة عليكم ، وكف أيدي المسلمين عنكم ، وبسطها على الأعداء منكم ، شيئاً إلا
 وفي قليل ما كان من أشباه ذلك أيام تلك الفدية التي كان الله أجرى نعمتها لكم على يده ،
 وفتح بركتها عليكم من قبله ، ما يدلُّكم على صدق أمير المؤمنين فيما يذكر ، ويشهد له على
 حقه فيما يقول ان شاء الله . فقد تعلمون أن الله قد أدخل على كل طرف من أطرافكم ،

(١) إشارة الى قصة يوشع بن نون قتي موسى عليهما السلام واستيقافه الشمس ؛ فقد روى أن يوشع قاتل
 الجبارين يوم الجمعة ، فلما أدبرت الشمس للغروب خاف أن تغيب قبل فراعه ويدخل السبت فلا يجلب له قاتله فيه ،
 مدد الله تعالى ، فرد له الشمس حتى فروع من قاتله . (٢) السر : الطريق .

وصُفَّ من أصفانكم، بتلك الفدية، أموراً عظيمة البركة، واسعة المنفعة، في أمور غير واحدة :

منها : أن قادة جنودكم وساسة حربكم ، كانوا بعد وقوع أمرها وأستحكام عقدها ، فراغاً لمحاربة أعدائكم ومناصبية من ناوأكم ، بين أن يستعجموهم في بلادهم^(١) ويتزلوا عليهم في ديارهم ، ولا يرهبون تعقب بشر إن ساروا في أرضهم ، ولا يتخوفون طراداً إن اجتمعوا لقتالهم أن يقيموا في خفيض ودعة ، وأمن وسعة ، مع الأزواج والأولاد والعيال والأوطان والرباع والمحال ، وهم اليوم يتربون الجيوش من كل شئ ويتخوفون الخوف في كل وقت ، لا يهدأ لهم جأش ، ولا يسكن لهم قرع ، ولا ينام لهم ليل ، ولا يأمن فيهم حال ، قد قطعت^(٢) الهموم دابرهم ، وأصمرت المخاوف جنوبهم ، وأستأصلت الجنود أموالهم .

ومنها : أن أهل الحراثة وإخوان العارة ، في بلادك وأطراف أرضك ، كانوا سراعاً الى عمارة أرضهم وإصلاح ماتحت أيديهم ، فيما لا قوام لهم ولا لمعاشهم إلا به ، ولا بقاء لدينهم إلا معه ؛ قد أمنا الجيوش ومعرتنا ، والجنود وبادرتها ، وأنتشروا للعارة ، وأبتكروا في الزراعة ، فارقوا رهوس الجبال وإقمام الغياض ، وراحوا في أوساط أوطانهم وظلال محالهم ، يشققون الأنهار ، ويفرسون الأشجار ، ويحجرون العيون ، حتى نمت الأموال ، وأخضرت الحال ، وأخصب الجنباب ؛ وأصبحوا اليوم عن الزراعة ممسكين ، وللحراثة تاركين ، وبغيرها مشتغلين في إصلاح آلات الحرب ، وإحراز العيال في الحصون ، ورم القلاع للجلاء ، وتحريش الحصون للبلاء ، قد آتقلوا عن منابت البر وكرائم الأرض ، ومجاري المياه ، الى أوشال الجبال ، وأشجار الغياض ، وبطون الأودية ؛ فليس يبلغون من عمارة بلادهم ، ولزوم أوطانهم ، [و] من تناول ثمارهم وقوام معاشهم مثل ما كانوا يبلغون ، ولا ينالون من خفض العيش وطيب الأمن ولذة الدعة ، قريباً مما كانوا ينالون .

(١) كذا في الأصل . (٢) في الأصل : « لا سكر لهم الخ » .

ومنها : أن إخوان التجارات ، وأصحاب الأموال وأهل الظُّلف والحافر ، كانوا يتناولون ما شارفهم من بلادنا وما قاربهم من أسواقنا ، فينفقون تجارتهم ويغلبون بضائعهم ، فتعظم الأرباح وتضعف الأثمان . وكانت الباعة من تجار المسلمين وغيرهم من الذميين ، يتناولونهم للبيع لهم ويتناولونهم للشراء منهم ، فعمت البركة وسهلت المنفعة ، حتى نالت الرعاء في جبالها واهلها ، والنساء في غزولهن وعمل أيديهن فضلا عن غيرهن .

ومنها : أنك ومن قبلك من ذوى العبادة والزهادة والتأله والنسك والنيات ، كنتم على عافية من أيام الرضا بالحرب ، وسلامية من أوزار الحص على قتال الخوف ؛ قد تجوتم من معصية المسيح في الدنيا التي نهاكم عنها ، والأمور التي أمركم بها ، من نحو قوله : ^(٣) "مَنْ لَطَمَ خَدَّكَ الْيَمِينَ فَأَمِكْنَهُ مِنَ الْإيسِرِ ، وَمَنْ أَنْتَرَعَ قَمِيصَكَ فَأَعِطَهُ كِسَاءَكَ ، وَمَنْ لَطَمَكَ فَاغْفِرْ لَهُ ، وَمَنْ شَتَمَكَ فَأَعْرِضْ عَنْهُ" .

ومنها : أن من بأقصى بلادك ونواحي حوزتك ، قد ذاقوا تلك الأيام من لذة الخفض ، ودعة الحال ، وحلاوة الأمن ، ورفاهية العيش ، وسعة العافية من سبأ أزواجهم ، وهبض أولادهم ، وحطم معاشهم ، وأسر رجالهم ، وغنمة بقرهم وغنمهم ، وإفساد شجرهم وثمارهم ، وإجلاء عن مساكنهم وأوطانهم . ما لم يكن لهم رأى يعرفه ، ولا ظن يبلغه ، ولا طمع يقاربه ، ولا أمل يذهب اليه . وما قد عرفت الخاصة من بطارقتكم ، والعامه من أهل ملتكم به : من رافتمكم بهم ، ورحمتكم لهم ، وشفقتكم عليهم ، وأثرتكم إياهم ، وبركة ولايتكم ملككم ، ومنفعة سياستكم أمرهم ، ما قد أزدادوا لكم به محبة ، وفي بقائكم رغبة ، ولأمركم طاعة ، وعلى ملككم شفقة ، وفيما نابكم نصيحة ؛ مع ما قد أزدتكم بذلك من الهيبة في صدور الأعداء ، والشرف في قلوب النظراء ، والعظم في عيون الأمم ، حتى أقروا لكم بقوة عزائم العقول ، وفضل سياسة الأمور ، وصحة تدبير الملك ، وصدق النية ، ولطف الحيلة التي

(١) في الأصل : "من بلادهم ... " . (٢) كذا في الأصل . (٣) راجع إنجيل متى

(فصل ٥ آية ٣٩ ح ٣ ص ٩ من الكتاب المقدس) .

جعلوا نسبة عملكم بها ، ومحل رأيكم فيها ؛ على أنكم نظرتم لضعفاتكم حتى قووا ، ولضعفاتكم حتى استغنوا ، ولقرانكم حتى بسوا وحيو ووفوا للمسلمين من أيام الحروب وأوزار القتال ، ومعصية المسيح عليه السلام ، ولأعدائكم الأبعدين وجيرتكم الأقربين ، حتى كنتم من فراغكم لهم ، وأستغالكم من أمركم بها ما أوطأتموه لحر بحر القتل ، وذلل الأسر وغلبة القهر ، والإذعان والاستسلام . وإما كفتيموهم بالصلاح ، وأستوتقتم منهم بالرهن .

فاذا ذكرت ما كان من هذا وأشباهه وأمثاله في الفدية ، فاعلموا أن أمثاله وأضعافه مقيم معكم في الجزية ، فلا يكونن لك رأى غيرها ولا أمر سواها ؛ فلقد أكثر أمير المؤمنين العجب من أمركم ، وأطال قلب الفكرة في بعضكم ، فظن أن إخراجكم من جميع ما كنتم فيه الى خلافه مما أصبحتم عليه من آنتظار وقعات الحروب ، وصولات الجنود وأكل الحدود ، وتوقع الجلاء والسياء والقتل ، والأسر والحصر ، شيئا آخذعكم الله عز وجل فيه عن أنفسكم وكيدا آستدركم به لما علم من قلوبكم .

ألا إن أعجب عذرکم وأفضعه كان عند أمير المؤمنين إذ بلغه جرأتكم على الله عز وجل في نقض عهده ، وأستخفافكم بحقه في خفر ذمته ، وتهاونكم بما كان منكم ، وأتم تعلمون أن مواثيق العهود ونذور الأيمان الذي وضعه الله عز وجل حرماً بين ظهراني خلقه ، وأماناً أفاضه في عبادته ، لتسكنن اليه نفوسهم ، وتطمئنن به قلوبهم ، وليتعاملوا به فيما بينهم ، وقيموا به من دنياهم ودينهم ؛ فما من ملك من الملوك ولا أمة من الأمم ، تبيح حرمي الله عز وجل ، تهاونا به وجرأة عليه ، إلا أجرى الله عليهم دائرة من دول الأعداء ، وأنزل عليهم عذابا من السماء . وقد رجا أمير المؤمنين أن يجرى الله نعمته منكم بأيدي المسلمين ، بعد إذ كان أعتقد عهدكم ، وأخذ ميثاقكم بالأيمان المغلظة ، والعهود الموكدة ، التي قد اعتقدها في رقابكم ، وحملها على ظهوركم ، فأشهدتم الله بها على أنفسكم ، وتسامع بها من حولكم ، وحكم بها بطارقتكم وأساقنتكم . فلا الله أنقيتم ، ولا من الناس أستحيتم ، نكثاً للعهد ، وبغضا للمسلمين ،

وَحَتْرًا بِالْأَمَانَةِ ، وَإِبَاحَةً لِلْحُمَى . فَتَرَقَعُوا الْعُقُوبَةَ ، وَانْتَظَرُوا الْغَيْبَ ؛ فَلَقَدْ وَثِقَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مَا هُوَ حَالٌّ إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِكُمْ .

وَمِنْ أَسْبَابِ مَا يَرِيدُ اللَّهُ مِنَ الْإِنْتِقَامِ مِنْكُمْ ، مَا قَدْ أَزْمَعَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَعَزَمَ عَلَيْهِ ، وَقَذَفَ اللَّهُ فِي قَلْبِهِ : مِنَ الْإِرَادَةِ وَالنِّيَّةِ وَالرَّغْبَةِ فِي إِيْطَاءِ الْجِيُوشِ بِأَدَاكُمْ ، وَاسْتِبَاءِ الْمَقَاتِلَةِ أَرْضَكُمْ ، وَالتَّفْرِغِ لَكُمْ مِنْ كُلِّ شِغْلٍ ، وَالْإِيْثَارَ لِلْجِهَادِ كُمْ عَلَى كُلِّ عَمَلٍ ، حَتَّى تَتَوَكَّلُوا بِاللَّهِ وَأَنْتُمْ طَائِعُونَ أَوْ كَارِهُونَ ، وَتَوَدُّوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَأَنْتُمْ صَاغِرُونَ . فَكُونُوا عَلَى عِدَّةٍ مِنَ الْجِزْيَةِ ، وَيَقِينُ مِنَ الْإِتِّجَاعِ الَّذِي لِطَاقَةِ لَكُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِهِ ، وَلَا صَبْرَ لَكُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ عَلَيْهِ ؛ فَإِنَّ جُنُودَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فَارِغَةٌ كَثِيرَةٌ ، وَنَحَائِشُهُ عَامِرَةٌ وَافِرَةٌ ، وَنَفْسُهُ سَخِيَةٌ بِالْإِنْفَاقِ ، وَيَدُهُ مَطْلُوقَةٌ بِالْبِذْلِ ، وَالْمَسْلُومُونَ نَشَاطُ الْيَوْمِ ، مَنَقَلِبُونَ عَلَيْكُمْ ، قَدْ عَوَّدَهُمُ اللَّهُ فِي لِقَائِكُمْ عَادَةً يَرْجُونَ أَنْتَظَارَ مِثْلِهَا ، وَأَبْلَاهُمْ فِي قِتَالِكُمْ بِلَاءَ مِنْ أَمْثَلِهَا ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

وَكِتَابُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ نَذِيرُهُ بَيْنَ يَدَيْ جُنُودِهِ ، وَمُقَدِّمُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ جِيُوشِهِ ، إِلَّا أَنْ تَوَدُّوا الْجِزْيَةَ عَنْ التِّي دَعَاكَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ إِلَيْهَا ، وَحَدَاكَ وَمَنْ قَبْلَكَ عَلَيْهَا ، رَحْمَةً لِلضَّعْفَاءِ الَّذِينَ لَا تَرْحَمُهُمْ ، وَتَوَجَّعًا لِلْمَسَاكِينِ مِمَّا لَا تَوَجَّعُ مِنْهُ لَمْ مِنْ الْجَلَاءِ وَالسَّبَاءِ وَالْقَتْلِ وَالْأَسْرِ وَالْقَهْرِ ، وَقَسَاوَةِ مِنْ قُلُوبِكُمْ ، وَأَثَرَةٍ لِأَنْفُسِكُمْ ، وَأَعْتَصَامًا بِخَوَاصِكُمْ ، وَإِجْلَاءً لِعَوَامِكُمْ الضَّعْفَاءِ الْفُقَرَاءِ الْمَسَاكِينِ الَّذِينَ لَا تَمْنَعُونَهُمْ بِقُوَّةٍ ، وَلَا تَدْفَعُونَ عَنْهُمْ بِجَهْلَةٍ ، وَلَا تَرَاقِبُونَ فِي الرَّحْمَةِ لَهُمْ وَالتَّعَطُّفِ عَلَيْهِمْ ، أَدَبَ الْمَسِيحِ إِيَّاكُمْ ، وَقَوْلَهُ فِي الْكِتَابِ لَكُمْ : ” طُوبَى لِلَّذِينَ يَرْحَمُونَ النَّاسَ ؛ فَإِنَّ أَوْلَئِكَ أَصْفِيَاءُ اللَّهِ وَنُورُ بَنِي آدَمَ “ .

وَأَيُّمُ اللَّهُ لَوْ يَعْلَمُ مَنْ قَبْلَكَ مِنَ الْمَسَاكِينِ وَالزَّرَاعِينَ وَالْفُقَرَاءِ وَالضَّعْفَاءِ وَالْعَمَلَةَ بِأَيْدِيهِمْ ، مَا لَمْ يَكُنْ عِنْدَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ لِتَحَدُّرِهِ عَلَيْهِمْ وَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ ، مِنْ إِيْوَائِهِمْ ؛ وَإِنْ زَالَهُمُ الْأَرْضُ الْوَاسِعَةُ ، وَإِمَّاكَانَهُمْ مِنْ مَسَائِلِ الْمِيَاهِ السَّائِحَةِ ، وَالْعَدْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا لَا تَبَاغَهُ أَنْتَ وَلَا تَقَارِبُهُ ، رَفَقًا بِهِمْ وَنَظَرًا لَهُمْ وَإِحْسَانًا إِلَيْهِمْ ، مَعَ تَخْلِيَّتِهِ إِيَّاهُمْ وَأَدْيَانِهِمْ ، لَا يُكْرَهُهُمْ عَلَى خِلَافِهَا وَلَا يَجْرَهُمْ عَلَى

غيرها ، لاختاروا قرب أمير المؤمنين على قربك ، وجواره على جوارك ، ولأتقذوا أنفسهم^(١) وأموالهم وأولادهم وأزواجهم وعيالاتهم ، مما يحمل بهم في كل عام ويلقون من كل غزاة . فاتق الله وأقبل ما عرّض عليك من الجزية ، ولا يمنعك ما فيه الحظ لك ولأهل مملكك . ونحن على رجاء أن الله لا يؤخر ذلك منكم ويدفعه عنكم ، إلا ليجعله على يد أهل بيت النبوة والرحمة ، ولأهل الورثة فيهم للكتاب والحكمة ، الذين لا يدخل عليكم في الإذعان [لهم] وأداء الجزية اليهم حميةً ولا تقيصة ولا عار ، والذين يقفون لكم بما يعقدون ، ويتبعون فعلهم ما يقولون .

ثم أمير المؤمنين بخاصة لما جعل الله عليه رأيه وفيه نظره من البر والرحمة والإقساط والوفاء بالعقود والعهود والشروط ، نظراً لدينه وخوفاً من ربه ، ولما كذب الله في قلبه وقلوب المسلمين من المحبة والطاعة والأثرة ، ولما جعلهم الله عليه من اجتماع الكلمة ، وأتفاق الأفتدة ، والنصائح في السر والعلانية ، وما عوده الله ممن نصب له بمجاذبة ورماء بمكيدة ، وعراه بمجيلة : من النصر العزيز ، والفتح القريب ، والظفر المبين . فأبدل من الجزية ما شئت ، وسّم منها ماهويت . وأعلم أن أمير المؤمنين ليس يحدوك عليها لحاجة به إليها ولا للمسلمين ، ولكن طاعة لربه وأثرة لحقه ، وليجعلها سبباً لما يريد أن يجرى فيما بينه وبينكم . وإنه إنما كان قبول المهدي — رحمه الله — الفدية منكم ، بطلبة أمير المؤمنين كانت إليه ، والحاجة كانت فيما عليه ؛ ولم يكن من رغبة فيها ، ولا حاجة إليها ، ولا استعظام لها ، ولقد كان يعطى في المجلس الواحد مراراً أمثالها ، ولكن ذلك كان رأى أمير المؤمنين يومئذ فيكم . فأما اليوم إذ استبان له غدركم وتقضكم ونكتكم واستخفافكم بدينكم وجرأتكم على ربكم ، فلاس بين أمير المؤمنين وبينكم : إلا الاسلام أو الحرب المجلية ، ان شاء الله . ولا حول بأمر المؤمنين ولا قوة إلا بالله ؛ عليه يتوكل وبه يثق وإياه يستعين . والسلام على من أتبع الهدى .

(١) في الأصل : "ولأبتدلوا ... " . (٢) كذا في الأصل وهو غير واضح ولعل أصل الجملة

"ولا يمنعك الشيطان مما فيه ... الخ" فسقط هذا أو محوه سهواً من النسخ . (٣) كذا في الأصل .

٣ - رسالة يحيى بن زياد في تقرير الرشد

أما بعد، فإنى أسأل الله لأمر المؤمنين في غير أمورهم، أحسن ما عودته في سالفها من السلامة التي حرسه بها من المكارة، والعز الذي قهر له به الأعداء، والنصر الذي مكّن له في البلاد، والهدى الذي وهب له به المحبة، والرفق الذي أدّره به الحلب، والاستصلاح الذي آتت له به الرعية، حتى يكون بما أعطاه من ذلك، وما هو مستقبل به منه، أبعد خلفائه في الخير ذكراً، وأبقاهم في العدل أثراً، وأطولهم في العمر مدةً، وأحسنهم في المعاد منقلماً.

ثم نحمد الله الذي جعل نعمته على أمير المؤمنين شواهد منه على منزلته منه ومكانه عنده، لا يحتاج معها إلى شهادات المثنيين، ولا صفات المقرّطين، ثم جعل ذكر نعمته على أمير المؤمنين ومناجحتها والمجاهدة لمن كادها فريضةً أوجبها على العباد، ومحبةً امتحنهم بها، وفارقاً مميّز به بينهم، فمن أصبح من رعيته أكثر شغله أن يستعمل لسانه في صفته، وذكّر محاسنه وفضائله، ووجوب حقه وطاعته؛ فقد أصبح أثراً أولى الأمور وأحسنها مقبلاً في دنياه ودينه؛ ومن بدّل ذلك عن قدرة عليه، ودفعه بعد معرفة، فلم يدعه إلا عن خذلان حاق به، أو بدعة آسألته؛ كانت حجة الله لأمر المؤمنين عليه هي الكافية لمؤنته. وقد كان علماء الناس وجهالهم يسوون في عام المعرفة بفضل أمير المؤمنين؛ فأما الخاص فلاهل الفضل فيه فضّلهم، غير أنه مهما كان من ذلك فقد أصبحوا وهم فيه على منازل ثلاث: حاسدٌ حجّب الحسد بصره عن مواقع الصواب أن يراه، والنعمة أن يشكرها، والحق أن يؤدبه؛ وكانت معرفته عليه وبألا، وحسده إلى الضربه قائداً. أو ذو هوى قاده الهوى إلى البدعة وأخرجته الضلالة من الجماعة، فهو عرضة لسوء الأدب أو سيف النكال، لم يوحش الله أحداً بفقدته، ولم يعز أحداً بمؤالاته. وموقف معصوم آستقده [الله]

بمؤالاة أمير المؤمنين من غل الحسد و بدع الآراء و جبّله على صحّة الهوى ، فهو إن نظر فبعينه ينظر ، وإن قال فبلسانه يقول ، لا يأمن حتى يعلم أنّ أمير المؤمنين قد استوطأ مهاد الخفض ، ولا يزال له طليعة رأي توفى على خطة حزم و غامض فطنة ، تغلغل الى لطيف منفعته [تكون] سهم مكيدة نحو عروة ، قد علم أنّ يوم أمير المؤمنين يومه ، وأن غده غده ، فهو وإن تعرض لأداء الحقّ في نصيحته ينظر لنفسه نظر من لا يأمل السلامة إلا بسلامته ، ولا البقاء إلا ببقائه . وقد رجوت بالقرابة التي جعلها الله لى به ، والواجب الذي عرفته من حقه ، والعظيم الذي حملته من معرفته ، ألا يكون أحد ينظر اليه بعين الإشفاق أقوم ما جعله الله أهله منى ، فإن أبلغ الذي أردت فتوفيق الله ، وإن أقصر فعن مثل ما حاولت قصر المجتهد .

فاؤل ما أنا ذا كره من فضله : أنّ الله قدم له الصنع في سابق علمه ، فجعل محتده خير المحاند عنصراً ، ثم آختر له أباً قابلاً لا ينقله من أبي الى أبي إلا نقل معه وإليه فضيلة العنصر الذي هو منه حتى صيره بعد فضائل آبائه الى أفضل بدنة ، فكان خير خلف من خير سلف ، وأفضل ولد من أفضل أبوة ، وأرضى إمام من أزكى أئمة ؛ ثم آختر له مكارم الأخلاق ، وألبسه جمال الصورة ، فلا نعلم نحن ولا آباؤنا خليفة أبعد في حلمه من ذلك ، ولا في هيئته من تجبر ، ولا في شدّته من عنف ، ولا في لينه من وهن ، ولا في أناته من غفلة ، ولا في اقتصاده من بخل ، ولا في بذله من إضاعة ، ولا أرق وجهاً عند لقاء ، ولا أحسن بشراً عند تحية ، ولا أغزر دمعاً عند موعظة ، ولا ألين قياداً عند تذكير بالله

(٢) أفضت اليه الخلافة وفي المال ما فيه من القلّة ، وفي الناس ما فيهم من الإحراج ، فما دفع عن مال يعطيه عن قلة ، ولا قطع عادة توسعة على رعيته ؛ ثم آستدرّ الحلب برفقه ، فكلمّا دزّله منه شخب فوقه طائفة من جنده حتى سقاها بعد التفويق رياءً ، وبعد النهل

(١) في الأصل : "عورة" . (٢) الإحراج : الصيق وفي الأصل . "الاستخراج" .

(٣) الشجب (بالصم) : ما خرج من تحت يد الحالب عد كل عمرة وعصرة للصرع . (٤) فوفه الشيء : أعطاه إياه قليلاً قليلاً .

علا؛ ثم ساس رعيته بألين السياسة فعفا عن مذنبها ولو شاء لعاقب، وآمن خائفها ولو طلب لأدرك، ودفع بالحسنة السيئة ولو كافأ لقدّر، فما برح صنع الله له يقض جموع الضلالة بلا قتال، ويعزله النصر بلا مكاثرة، حتى فرغ بشغله من كان لا يفرغ من الوزراء، ونام بسره من كان لا ينام من العامة، وأطمأنت^(١) بنا آتة للأسفار دار من كان لا ينال الخفض من الجنود حتى استوطئوا مركب الأمن فكلهم ضنين بمفارقتهم. أما ذو النية فركب إلى النقص. وأما من لا يبدله ففعل ما كان يؤخذ به من الاستكراه. وأما الحشر من الجند والرعاغ فغلبت عليهم عادة الهوينا، حتى لو رأيناه يجذب الأمر فما يجد له الأمر غناء عنده ولا نشاطا ولا حدا إن وكله إلى قوته، وقواه بماله^(٢).

فلما رأى ما رأى من تحاذل العامة، وتواكل الجنود، وتزور الفياء، وبجود الحلب، وأستكلاب العمال على الخيانة، وبجراة الرعية على منع الحق، ومال الفراغ بكثير من الناس عن القصد، فتحركت الأهواء، وأستعرت نيران العصبية، وجاشت صدور الحسدة وأشياهم بالأمانى، وظنوا أن لا شدة معه، وأن عفوه لا تكبر بعده، وأمير المؤمنين يرمقهم بعين بصيرة، وأذن مصيخة، وقلب يقظان، وقد وفر الحلم أن يخف لأول بوادر السفهاء، فهو ينتظر بالمدبر أن يقبل، وبالملك أن يعتدل، وبالملغوب على رأيه أن يتذكر فيصير، ثم في إثرهم تسمير من قدم الروية قبل العجلة، والنفوق قبل العقوبة، والتثبت قبل الإقدام، فاتخذ روابط أتعجها على الجلد والنشاط، ليست لهم سوايق تدعوهم إلى الإدلال، وتسمو بهم إلى كثير لم ينالوه؛ إنما همهم أن يتفاضلوا في النجدة، ويستوجبوا بالغناء، ثم فزقهم على خواص خدمه، فإذا أراد أن يتناول بهم فرصة ممكنة، أو عدوا غاظا^(٣). أو راتق فتى قبل الساعة، يغمس يديه إلى أيهم أراده، فينفذ لأمره ولم يشركه فيه مشير، ولم يخرج به توقيع، ولم يخص فيه عامة، ولم يطلع منه على مكيدة، فلم نعلم أننا رأينا جندا

(١) في الأصل : « بما آتته » . (٢) في الأصل : « إن وكله إلى قوته ولا نشاطا ولا حدا وقواه

بماله » . (٣) عاط : دخل

أسرع نهضة إذا مروا ، وأحسن إجابة إذا دُعوا ، وأفضل غناء إذا استكفوا من جنده ، ثم قصد بنفسه حتى مثل بين النواحي الى اهمها له فسأدا في البيضة ، وانتقاصا من الأطراف ، فأتى ناحية الشام فوطئها وطأة جمع الله بها لهم شتات الفرقة ، وأحمد بها بينهم نار الفتنة .

وأما الجزيرة فإنه ألناها وهي كالجرح النغل ، فاستأصل الله به منها شأفة الداء ، وأطفأ به عنها بوادير السفهاء ؛ وخير أمير المؤمنين من منزله الذي هو به منزلا جمع من بسطته في الموضع ، ورفاهيته في المعاش ، أنه حامل للجنود ، جامع للرافق ، فباشر أمره أمرا أمرا ، حتى إذا استدبره منها مبرم ، استقبل بعده جسام متقيص ؛ وإذا أشحن من غوره ثغرا لم يرض حتى يفتح من حصون أعدائه حصنا ، وإذا قضى الله عنه حجة ، وصل خطوه منها عزرا ؛ ثم رأينا ما عزم الله به عليه من ترك الصوائف مراقبا للذي كان من عموط أهل الشام لما كانوا فيه من النعمة ، فلم تتشكك في أنه توفيق من الله له وافق سخطا عليهم حتى استباحوا الحرم ، وتسافكوا الدماء ، ونقضوا ما بينهم من مبرم حبل الإسلام .

ومن ذلك أن أرمينية كانت فيها جنود تخرج عليهم أطاع تحمل اليها ، بعد أعرافهم بإخراجهم الأموال من كور الشام ، فلما رأى ذلك فعل كذا وكذا ، فلم يتوكل على الله في أمره فوكله الى نفسه ، ولم يكف به في حفظ طرف أو قاصية تغير لإكفاه مؤونته ، وعلم أن ما يدخل ممن أضعاف العافية من عوارض العلل ، إنما هو بتقدير من الله لا يمتنع بعذر ، ولا يستطيع دفعه بحيلة ، يصيب فيه أقواما بالبلايا والتحصيص ، ويقسم فيه لأقوام الأجر والجهاد والسعادة ، فرأى أن في عاجل ما يرفع عن أهل أرمينية من ضرر مؤوتهم وعمطهم نفعا للرعية ، وإجمالا للقي ، ورققا بالعامه مع اقتصاده في الأبواب على أكف سيجتها ، وفي سائر أرمينية على المقاتلة من أهلها ، ولم يزل منذ أراه الله ذلك ، يكفيه مؤونة ذاك الثغر ، ويكف عنه بوائقه ، حتى كأنه في هدوء الأحداث عنه ، وسكون الأئدة من

رَوَعَاتِهِ مِصْرَ مِنَ الْأَمْصَارِ ، وَاسِطُ الْحَلَّةِ مَأْمُونُ النَّائِرَةِ . فَلَمَّا آخَضْتُمْ حَاقَانَ مَا آخَضْتُمْ ، وَآتَهَزَ الْفُرْصَةَ مُبَادِرًا ، لِمَا قَدْ آيَقَنَ مِنْ مَعَالِجَةِ الْمُؤْمِنِينَ إِيَّاهُ ، فَكَأَنَّهُ حِينَ بَلَغَهُ ذَلِكَ مِنْ إِعْظَامِهِ إِيَّاهُ بِسَبَبِهِ لَهُ ، وَمَا أَنْصَبَ فِيهِ مِنْ بَدَنِهِ ، وَأَسْهَرَ فِيهِ مِنْ لَيْلِهِ ، وَأَنْصَبَ فِيهِ مِنْ نَهَارِهِ ، لَمْ يَعْلَمْ الَّذِي يَكُونُ مِنْ أَشْتَبَاهِهِ فِي الْأَزْمِنَةِ الْمَاضِيَةِ قَبْلَهُ ، وَأَنَّهُ بِذَلِكَ لِحُدُودِ عَالَمٍ ، غَيْرَ أَنَّ حِمِيَّتَهُ لِلْإِسْلَامِ وَشَفَقَتَهُ عَلَيْهِ وَامْتِنَاعَهُ مِنْ أَنْ يُتَنَاوَلَ شَيْءٌ مِنْ أَطْرَافِهِ ، قَدْ زَادَ ذَلِكَ عِنْدَهُ قَدْرًا فِي الْعِظْمِ ، وَتَفَاقُمًا فِي الْخَطْبِ ، حَتَّى أَكَلَ الْبَعَثَ بِأَكْثَرِ الْعَدَدِ ، وَأَكَلَ الْعُدَّةَ ، وَاسْتَقْتَلَ أَهْلَ الْكُورِ وَالْأَمْصَارِ ، وَنَدَبَ لَهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ مَنْ لَمْ يَتْرِكْ بَعْدَهُ نَهَابَةً فِي التَّخْيِيرِ ، وَكَانَ قَدْ صَرَفَ بِاللَّهِ إِلَى هَذَيْنِ الثَّقَرَيْنِ مِنَ الْخَزَرِ وَالرُّومِ ، وَإِلَى هَذَيْنِ الْعَدُوِّينِ الْحَارِيَيْنِ لَهُ مِنَ الْمَارِقَةِ الْمُنْتَعِبَةِ .

فَلَمَّا بَلَغَ اللَّهُ فِي إِحْكَامِ أَمْرِهِمَا مَا بَلَغَ ، لَمْ يَسْتَعْنِ عَنِ إِعَادَةِ النَّظَرِ فِي أَمْرٍ غَيْرِهِمَا مِنْ نَوَاحِيهِ لِيَسْتَبْرِيَّ بِهِ ، وَإِرَادَتِهِ فِي أَقْوَامٍ يُدَافِعُ ظُنُونَهُمْ بِهِ فِي أُخْرَى ، وَعَلِمَ غَيْرَهُمَا أَنَّ مَا سَمِلَ مِنْ بَمْدِينَةِ السَّلَامِ مِنَ الْأَمْنِ وَالْقَرَاخِ نَتِيجَةٌ مَكْرُوهُةٌ ، فَشَخَّصَ عَنْهَا لِتَحْقِيقِ ذَلِكَ مُؤَثِّرًا لِأَبْغَضِ وَطَنِيهِ عَلَى أَحَبِّهِمَا وَأَخْشَنَ عَيْشِيهِ عَلَى أَيْنِهِمَا ؛ فَلَمَّا ظَهَرَتْ لَهُ الْعَوْرَةُ أَقْدَمَ إِقْدَامَ ذِي الْحِجَّةِ ، فَلَمْ يَرْمِثْهَا نَارًا خَبَثَ ، وَسَجَابَةً أَقْشَعَتْ ، لَمْ يَسْفِكْ بِهَا دَمَ أَمْرِيٍّ مُسْلِمٍ صَبْرًا ، وَلَمْ يَنْتَهِكْ فِيهَا حُرْمَةَ مَحْرَمٍ إِبَاحَةً .

وَذَلِكَ أَنَّهُ بَسَطَ يَدَهُ بَسَطَ مِنْ يُرِيدُ الْأَسْتِصْلَاحَ لَا مِنْ يُرِيدُ الْإِنْتِقَامَ ، فَلَمْ يَلْبَثِ الظَّالِعُ أَنْ رَجَعَ عَنِ ظَلْعِهِ ، وَالنَّاطِقُ أَنْ صَمَّتْ عَنِ يَدْعَتِهِ ، وَالنَّاكِثُ أَنْ رَجَعَ إِلَى قَصْدِهِ ، وَأَزْدَادُ الْبَرِيءِ عَلَى الْبِرَاءَةِ فَرِحُوا ، وَالسَّلَامُ بِالسَّلَامَةِ آخْتِبَاطًا ، وَلَمْ تَزَمْتَهُ فِيمَا أَفْضَى اللَّهُ بِهِ إِلَيْهِ مِنْ خِلَافَتِهِ ، وَحَمَلَهُ مِنْ أُمُورِ عِبَادِهِ ؛ أَمَا لَيْلُهُ بِمَنَاجَاةِ رَبِّهِ فِيهَا وَاسْتِعَانَتِهِ إِيَّاهُ عَلَيْهَا فَسَاهِرٌ ؛ وَأَمَا نَهَارُهُ فِي حَلَبٍ فِيئِبِهَا وَإِحْكَامِ أُمُورِهَا فَتَعَبٌ ؛ وَأَمَا صَدَّقَاتُهُ عَلَى فَقَرَائِهَا وَأَهْلِ الْحَاجَةِ بِخَارِيَّةٍ ؛ وَأَمَا مَجْلِسُهُ مِنْ فُقَهَائِهَا وَصُلَحَائِهَا فِقَاصٌ ؛ وَأَمَا غِلْظَتُهُ عَلَى ظَالِمِهَا فَعَمِيدَةٌ ؛ وَأَمَا أَفْضَالُهُ لِمَظْلُومِهَا فَبَسُوطَةٌ ؛ وَلِئِنْ كَانَ الْحَقُّ أَرْزَمَ أَقْوَامًا اسْتَوْجَبُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ ،

إنّا لنعلم أنّ ما ترك أكثر، وأنه لولا ما حَقَّف من الوطأة على أقوام الحَمَل الواحد منهم مثل الذى حَمَله لجميع ، ولكنه رَضِيَ بالعفو، وبتخا نَفْسًا عن الاستقصاء، فأوجب أن يَسْتُط يدًا بغلظة ويتبعها أخرى بلين؛ فكان من ذلك نظره في هذه البقايا التي هي فيء المسلمين ومأل الله ، غير أن الله جعله قيمه فيه ، وفي أخذه وصرفه في وجوهه ؛ فلما رأى ضراوة العمال بها ومصانعتهم دونها ، وأن قد صارت كالتسنة اللازمة لا يدعها عفيفهم تورعًا ، ولا شريفهم تترها ، أحب مع توفيره للمسلمين فيهم ، أن يُحْدِث لهم أدبًا يَفْطِمُ به عنهم أهل الضراوة، ويعرف به ذؤوالاستخفاف بالأمانة، والأمر للتبعة؛ أن عليهم من تفقده وأديه عينًا ترمق ، ويدًا تقيض ، ولو أنه حين هم بأخذ تلك البقايا حمل على المؤسّر بقدر يساره، وأخذ المُعسر بطاعته ، كان قد أنصف ، كلاً! ولكنه أحب أن يستبق قوّة ، ولا يبلغ من المُكثِر جهداً، وأقتصر بهم على العُسر من ذلك ، كرمًا في القدرة حين رأى موضع الرفق ، وتجنّأ عن العلة حين عرّف مكان الغدر؛ فأى نعمة أعظم ، وأى بلاء أحسن من هذه البقايا! كانت في أيديهم جُمَامًا ، فلما أطلع طلوعها ، وأخذ ما أخذ، وترك ما ترك، محللاً مع ما جعل الله في ذلك من [كلمات] ^(٣) المقصّر من العمال المؤذية التي لم تكن تعدو أفواههم ، فليس منهم أحدٌ إلا وكان منه له واعظ ألا يكسر شيئاً من الخراج تضبيعاً ، أو يأخذه غلواً ^(٤) أو يُنْفِقه إسرافاً ، أو يتركه إرهاباً .

فلما تفرغ من علاج الداء المخوف وأستأصله ، ومن الفئء المتفترق بجمعه ، ومن الأمور المُعظلة فأحكّمها ، أستخلف على القيام بذلك من يحويه عقله عن حذر ، ولا إضاعة عن حفظ ، ولا لين عن تشدد ، ولا يستحل الأكلف عن نقض ما أبرم ، ولا مُزاولة ما أحكم ، ولا ففتح ما أغلق ، ولا إغلاق ما فتح ، فلان خيرة أبويه ، ومح بيضته ، وجوهر أرومته ، الفات سبقا ، البين عدواً ، الراضع عرفقا ، المنفجر بحجراً ، الحمود أمراً ، القائل فصلاً ،

(١) الضراوة : اللهب الشئ والإغراء به . (٢) في الأصل : « لهم » والسياق يقتضى ما أئبتناه

(٣) وضعت هذه الكلمة لأنها تتفق والسياق ، ومكانها في الأصل بياض . (٤) العلول : الطعام أو الشر

الذى يدخل في الجوف .

الحاكم عدلاً، ثم أنصرف بما أفاده الله من الأجر إلى جناحه الذي كان مده على من خلف من الأهل والأموال والرعايا والجنود، فلان سليله صلبه، وثمره قلبه، المحدثك مع قناء سنه عقلاً، والمأمون مع شدة شكيمة حملاً، والمحصد مع لينه وتعطفه أمراً، الشبيه بأمر المؤمنين إن نطق نطقاً، وإن نظر لحظاً، وإن سئل جوداً، وإن اهتمر عوداً، وإن ساس رفقاً، وإن غضب حائماً، وإن وصف عالماً، وإن كلم فهماً، وإن قدر عفواً، وإن لقي بشراً، وإن نازع فلجاً، وإن قارع ظفراً، فكان عند ظنه به، رايةً للحرمة، وحرماً في المكيدة، وحلباً للفيء، وحيطةً للغائب، ومباشرةً للشاهد؛ هذا قليلٌ من كثير. مما جعلك الله أهله، وإنما اقتصرت عليه لأني رأيت المتكلمين من الخطباء تركوه، وأن ما سمعت من الكتب المقروءة لم تنظمه، فأحببت أن يعلم أمير المؤمنين أن له في كل أمرٍ عملٍ به في رعيته حجة واضحة، وهدىً معروفاً، إن قام به متكلمٌ في خاصية حسن موقعه، وإن قرئ به كتابٌ في عامة، قويت به حجته .

والحمد لله الذي جعله وذريته أولياء هذه النعم، والمخصوصين بهذه الفضائل، ونسأله أن يُبقيه وإياهم للدين الذي سد بهم عورته، والحق الذي أقر بهم جادته، والعدل الذي أوضح بهم أعلامه، حتى يكونوا ورثة هذه الأمة وخلفاءها في غابر الدهر، وباقيات الأيام؛ مستقلين بالعدل، موقفين للسداد، معصومين من الشبهات، مستوجبين مع فضائل الدنيا لأفضل كرامات المعاد . والسلام .^(١)

(١) هذه الرسالة ورسالة أبي الربيع محمد بن الليث السابقة من كتاب اختيار المنظوم والمنثور لابن طيفور .

كتب الرشيد

١ - كِتَابُ عَهْدِ الْبَيْعَةِ^(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هذا كتاب لعبد الله هارون أمير المؤمنين ، كتبه محمد بن هارون أمير المؤمنين في صحبة من عقله ، وجواز من أمره ، طائعا غير مكره ، إن أمير المؤمنين ولأني العهد من بعده ، وصير البيعة لي في رقاب المسلمين جميعا ، وولي عبد الله بن هارون أمير المؤمنين العهد والخلافة ، وجميع أمور المسلمين بعدى ، برضا منى وتسليم ، طائعا غير مكره . وولاه خراسان وتغورها ، وثورها وحرها ، وجندها وخارجها ، وطرازها وبريدها ، وبيوت أموالها وصدقاتها ، وعشرها وعشورها ، وجميع أعمالها في حياته وبعده ، وشرطت لعبد الله هارون أمير المؤمنين ، برضا منى وطيب نفس ، أن لأخى عبد الله بن هارون على الوفاء بما عقد له هارون أمير المؤمنين : من العهد والولاية والخلافة ، وأمور المسلمين جميعا بعدى ، وتسليم ذلك له وما جعل له من ولاية خراسان وأعمالها كلها ، وما أقطعه أمير المؤمنين من قتيبة ، أو جعل له من عقدة أو ضيعة من ضياعه ، أو اتباع من الضياع والعقد ، وما أعطاه في حياته وصحته من مال ، أو حلي أو جوهر ، أو متاع أو كسوة ، أو متز أو دواب ، أو قليل أو كثير ؛ فهو لعبد الله بن هارون أمير المؤمنين ، موقرا عليه مسما له . وقد عرفت ذلك كله شيئا شيئا ، فإن حدثت بأمر المؤمنين حدث الموت ، وأفضت الخلافة الى محمد بن أمير المؤمنين ، فعلى محمد إنقاذ ما أمره به هارون أمير المؤمنين ، في تولية عبد الله بن هارون أمير المؤمنين خراسان وتغورها ، ومن ضم إليه من أهل بيت أمير المؤمنين بقرماسين ، وأن يمتضى عبد الله بن أمير المؤمنين الى خراسان والرّي ، والكور^(٢)

(١) هذا العهد ورد في تاريخ البقرى (ج ٢ ص ٥٠٢ طبعة ليدن) وفيه عبارات تخالف ما أثبتناه هنا

عن الطبرى . (٢) قرماسين : موضع بين الزبيدية ومكة .

التي سماها أمير المؤمنين حيث كان عبد الله ابن أمير المؤمنين من معسكر أمير المؤمنين وغيره ،
من سلطان أمير المؤمنين ، وجميع من ضم إليه أمير المؤمنين حيث أحب من لدن الرّي
الى أقصى عمل خراسان ، ليس لمحمد ابن أمير المؤمنين أن يحول عنه قائداً ولا مقوداً
ولا رجلاً واحداً ممن ضم إليه من أصحابه الذين ضمهم إليه أمير المؤمنين ؛ ولا يحول
عبد الله ابن أمير المؤمنين عن ولايته التي ولّاه إياها هارون أمير المؤمنين : من ثغور خراسان
وأعمالها كلها ، ما بين عمل الرّي مما يلي همدان الى أقصى خراسان ، وثغورها وبلادها ،
وما هو منسوب إليها ولا شخصه إليه ؛ ولا يفرق أحداً من أصحابه وقواده عنه ، ولا يؤلّي
عليه أحداً ، ولا يبعث عليه ولا على أحد من عماله وولاة أموره بتداراً ولا محاسباً ولا عاملاً ،
ولا يدخل عليه في صغير من أمره ولا كبير ضرراً ، ولا يحول بينه وبين العمل في ذلك كله
برأيه وتدييره ، ولا يعرض لأحد ممن ضم إليه أمير المؤمنين من أهل بيته وصحّابته ، وقضّاته
وعمّاله ، وكتّابه وقواده ، وخدمه ومواليه وجنده ، بما يلتمس إدخال الضرر والمكروه عليهم
في أنفسهم ، ولا قراباتهم ولا مواليتهم ، ولا أحد يتنسل منهم . ولا في دمائهم ولا في أموالهم ،
ولا في ضياعهم ودورهم ، ورباعهم وأمتعتهم ، ورقيقهم ودوابهم . شيئاً من ذلك صغيراً
ولا كبيراً ؛ ولا أحد من الناس بأمره ورأيه وهوادة ، وبترخيص له في ذلك ، وإدهان منه
فيه لأحد من ولد آدم ، ولا يحكم في أمرهم . ولا أحد من قضّاته ومن عمّاله ، ومن كان
بسبب منه ، بغير حكم عبد الله ابن أمير المؤمنين ورأيه ورأى قضّاته ؛ وإن تزع إليه أحد
ممن ضم أمير المؤمنين الى عبد الله ابن أمير المؤمنين ، من أهل بيت أمير المؤمنين وصحّابته ،
وقواده وعمّاله وكتّابه وخدمه ، ومواليه وجنده . ورفض اسمه ومكتبته ومكانته مع عبد الله
ابن أمير المؤمنين ، عاصياً له ، أو مخالفاً عليه ، فعلى محمد ابن أمير المؤمنين رده الى عبد الله
ابن أمير المؤمنين ، بصغره وقّاء^(٢) ، حتى يُنعدّ فيه رأيه وأمره ، فإن أراد محمد ابن أمير المؤمنين
خلع عبد الله ابن أمير المؤمنين عن ولاية العهد من بعده . أو عزّل عبد الله ابن أمير المؤمنين

عن ولاية خراسان ، وثغورها وأعمالها ، والذي من حدّ عملها مما يلي همدان ، والكور التي سماها أمير المؤمنين في كتابه هذا ، أو صرف أحد من قواده الذين ضمهم أمير المؤمنين إليه ، ممن قدم قرمّاسين ، أو أن يتنقّصه قليلا أو كثيرا ، مما جعله أمير المؤمنين له ، بوجه من الوجوه ، أو بجيلة من الحيسل ، صغرت أو كبرت ، فلعبد الله بن هارون أمير المؤمنين الخلافة بعد أمير المؤمنين ، وهو المقدم على محمد بن أمير المؤمنين ، وهو ولي الأمر من بعد أمير المؤمنين ، والطاعة من جميع قواد أمير المؤمنين هارون ، من أهل خراسان وأهل العطاء ، وجميع المسلمين في جميع الأجناد والأمصار لعبد الله بن أمير المؤمنين والقيام معه ، والمجاهدة لمن خالفه ، والنصر له والذب عنه ، ما كانت الحياة في أبدانهم ، وليس لأحد منهم جميعا من كانوا أو حيث كانوا أن يخالفه ولا يعصيه ، ولا يخرج من طاعته ، ولا يطيع محمد بن أمير المؤمنين في خلع عبد الله بن هارون أمير المؤمنين ، وصرف العهد عنه من بعده إلى غيره ، أو تنقصه شيئا مما جعله له أمير المؤمنين هارون ، في حياته وصحته ، وأشترط في كتابه الذي كتبه عليه في البيت الحرام ، وفي هذا الكتاب ، وعبد الله بن أمير المؤمنين المصدق في قوله ، وأتم في حل من البيعة التي في أعناقكم لمحمد بن أمير المؤمنين هارون ، إن نقص شيئا مما جعله له أمير المؤمنين هارون ، وعلى محمد بن هارون أمير المؤمنين أن يتقاد لعبد الله ابن أمير المؤمنين هارون ، ويسلم له الخلافة ، وليس لمحمد بن أمير المؤمنين هارون ، ولا لعبد الله بن أمير المؤمنين ، أن يخلعا القاسم بن أمير المؤمنين هارون ، ولا يقدموا عليه أحدا من أولادها وقراباتها ، ولا غيرهم من جميع البرية ، فإذا أفضت الخلافة إلى عبد الله بن أمير المؤمنين ، فالأمر إليه في إمضاء ما جعله أمير المؤمنين من العهد للقاسم بعده ، أو صرف ذلك عنه إلى من رأى من ولده وإخوته ، وتقديم من أراد أن يقدم قبله ، وتصيير القاسم بن أمير المؤمنين بعد من يقدم قبله ، يحكم في ذلك بما أحب ورأى ، فعليكم معشر المسلمين إنفاذ ما كتب به أمير المؤمنين في كتابه هذا ، وشرط عليهم وأمر به ، وعليكم السمع والطاعة لأمر المؤمنين فيما ألزمكم وأوجب عليكم لعبد الله بن أمير المؤمنين ؛

وعهدُ الله وذمته وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم وذم المسلمين ، والعهود والمواثيق التي أخذ الله على الملائكة المُقَرَّبِينَ والنبيين والمرسلين ، ووكَّدها في أعناق المؤمنين والمسلمين ، لتَفَنُّ لعبد الله أمير المؤمنين بما سَمِي ، ولمحمد وعبد الله والقاسم نبي أمير المؤمنين بما سَمِي ، وكتب في كتابه هذا وأشترط عليكم ، وأقررتم به على أنفسكم ؛ فإن أتمم بآلتكم من ذلك شيئا ، أو غيرتم أو نكثتم ، أو خالفتم ما أمركم به أمير المؤمنين ، وأشترط عليكم في كتابه هذا ، فبرئت منكم ذمة الله ، وذمة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، وذم المؤمنين والمسلمين ، وكلُّ مالٍ هو اليوم لكل رجل منكم ، أو يستفيده إلى خمسين سنة فهو صدقةٌ على المساكين ، وعلى كلِّ رجل منكم المثنى إلى بيت الله الحرام الذي بمكة خمسين حجة . نذرا واجبا ، لا يقبل الله منه إلا الوفاء بذلك ؛ وكلُّ مملوك لأحد منكم ، أو يملكه فيما يستقبل إلى خمسين سنة حرًّا ، وكلُّ امرأة له فهي طالق ثلاثا البتة ، طلاق الحرج لا مثنوية فيها ، والله عليكم بذلك كفيلاً وراعياً ، وكفى بالله حسيباً .

٢ - نسخة الشرط الذي كتب عبد الله بن أمير المؤمنين

بخط يده في الكعبة

هذا كتاب لعبد الله هارون أمير المؤمنين ، كتبه له عبد الله بن هارون أمير المؤمنين ، في صحفة من عقله ، وجوازٍ من أمره ، وصِدْق نية فيما كتب في كتابه هذا ، ومعرفة بما فيه من الفضل والصلاح له ولأهل بيته وجماعة المسلمين .

إن أمير المؤمنين هارون ولآنى العهد والخلافة ، وجميع أمور المسلمين في سلطانه . بعد أنى محمد بن هارون ؛ وولانى في حياته تُغور خراسان وكورها وجميع أعمالها ، وشرط على محمد بن هارون الوفاء بما عقَد لي من الخلافة ، وولاية أمور العباد والبلاد بعده ، وولاية خراسان وجميع أعمالها ، ولا يعرض لي في شيء مما أفضعنى أمير المؤمنين ، وأتباع لي من الضياع والعقد والرابع ، وأبتعت منه من ذلك ، وما أعطانى أمير المؤمنين من الأموال . والجوهر والكساء ، والمتاع والدواب ، والرقيق وغير ذلك ؛ ولا يعرض لي ولا لأحد من

عَمَّالِي وَكُتَّابِي بِسَبَبِ مَحَاسِبَةٍ ، وَلَا يَتَّبِعْ لِي فِي ذَلِكَ ، وَلَا لِأَحَدٍ مِنْهُمْ أَوَّلًا ؛ وَلَا يُدْخِلْ عَلَيَّ وَلَا عَلَيْهِمْ ، وَلَا عَلَيَّ مِنْ كَانَ مَعِي ؛ وَمَنْ آسَعَنْتُ بِهِ مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ مَكْرُوهًا فِي نَفْسٍ وَلَا دِمٍّ وَلَا شَعِيرٍ وَلَا بَشِيرٍ وَلَا مَالٍ ، وَلَا صَغِيرٍ مِنَ الْأُمُورِ وَلَا كَبِيرٍ ، فَأَجَابَهُ إِلَى ذَلِكَ وَأَقْرَبَهُ ، وَكَتَبَ لَهُ كِتَابًا أَتَكَدُّ فِيهِ عَلَيَّ نَفْسَهُ ، وَرَضِيَ بِهِ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ هَارُونَ ، وَقَبِلَهُ وَعَرَفَ صَدَقَ نَيْتَهُ فِيهِ ؛ فَشَرَطْتُ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَجَعَلْتُ لَهُ عَلَيَّ نَفْسِي أَنْ أَسْمَعَ لِمُحَمَّدٍ ، وَأَطِيعَ وَلَا أُعْصِيهِ ؛ وَأَنْصَحَهُ وَلَا أُغْشِيهِ ، وَأُوفِيَ بِبَيْعَتِهِ وَوَلَايَتِهِ ، وَلَا أُغْدِرُ وَلَا أَنْكُثُ ، وَأَنْفِذُ كُتُبَهُ وَأُمُورَهُ ، وَأُحْسِنُ مُؤَاذَرَتَهُ وَجِهَادَ عَدُوِّهِ فِي نَاحِيَّتِي ؛ مَا وَفَّقَ لِي بِمَا شَرَطْتُ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فِي أَمْرِي ، وَسَمَّيْتُ فِي الْكِتَابِ الَّذِي كَتَبْتُهُ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَرَضِيَ بِهِ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَلَمْ يَتَّبِعْنِي بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ ، وَلَمْ يَنْقُضْ أَمْرًا مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي شَرَطْتُهَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لِي عَلَيْهِ ؛ فَإِنْ أَحْتَاجُ مُحَمَّدَ ابْنَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى جُنْدٍ ، وَكَتَبْتُ إِلَيْكَ يَا مَرْفُوعُ بِإِشْخَاصِهِ إِلَيْهِ ، أَوْ إِلَى نَاحِيَةٍ مِنَ النَّوَاحِي ، أَوْ إِلَى عَدُوٍّ مِنْ أَعْدَائِهِ خَالَفَهُ ، أَوْ أَرَادَ نَقْضَ شَيْءٍ مِنْ سُلْطَانِهِ أَوْ سُلْطَانِي الَّذِي أَسْنَدْتُهُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِلَيْنَا ، وَوَلَّانَا إِيَّاهُ ، فَعَلَيَّْ أَنْ أَنْفِذَ أَمْرَهُ ، وَلَا أَخْلَفُهُ وَلَا أَقْصِرُ فِي شَيْءٍ كَتَبْتُ بِهِ إِلَيْكَ ؛ وَإِنْ أَرَادَ مُحَمَّدُ أَنْ يُوَلِّيَ رَجُلًا مِنْ وَلَدِهِ الْعَهْدَ وَالْخِلَافَةَ مِنْ بَعْدِي ، فَذَلِكَ لَهُ مَا وَفَّقَ لِي بِمَا جَعَلْتُهُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِلَيْكَ ، وَأَشْرَطْتُهُ لِي عَلَيْهِ ، وَشَرَطْتُ عَلَيَّ نَفْسِي فِي أَمْرِي ؛ وَعَلَيَّْ إِنْفِذُ ذَلِكَ وَالْوَفَاءَ لَهُ بِهِ لَا أَنْقُصُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أُغَيِّرُهُ وَلَا أَبَدِلُهُ وَلَا أَقْدِمُ قَبْلًا أَحَدًا مِنْ وَلَدِي وَلَا قَرِيبًا وَلَا بَعِيدًا مِنَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ ؛ إِلَّا أَنْ يُوَلِّيَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ هَارُونَ أَحَدًا مِنْ وَلَدِهِ الْعَهْدَ مِنْ بَعْدِي ، فَيُلْزِمُنِي وَمُحَمَّدًا الْوَفَاءَ لَهُ ، وَجَعَلْتُ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَمُحَمَّدَ عَلَيَّ الْوَفَاءَ بِمَا شَرَطْتُ وَسَمَّيْتُ فِي كِتَابِي هَذَا ، مَا وَفَّقَ لِي بِمُحَمَّدٍ بِجَمِيعِ مَا اشْتَرَطْتُ لِي أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ فِي نَفْسِي ، وَمَا أَعْطَانِي أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ الْمُسَمَّاةِ فِي هَذَا الْكِتَابِ الَّذِي كَتَبْتُهُ لِي ؛ وَعَلَيَّْ عَهْدُ اللَّهِ وَمِيثَاقُهُ ، وَذِمَّةُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَذِمَّتِي ، وَذِمَّةُ آبَائِي وَذِمَّةُ الْمُؤْمِنِينَ ؛ وَأَشَدُّ مَا أَخَذَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ مِنْ خَلْقِهِ أَجْمَعِينَ ، مِنْ عَهْوِهِ وَمَوَاقِيْقِهِ ، وَالْإِيْمَانُ الْمُؤَكَّدَةُ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ بِالْوَفَاءِ بِهَا ، وَنَهَى عَنْ تَقْضَاهَا وَتَبْدِيلِهَا ؛ فَإِنْ أَنَا تَقَضَّيْتُ شَيْئًا مِمَّا شَرَطْتُ

وسميت في كتابي هذا، أو غيرت أو بدلت أو نكثت أو غدرت، فبرئت من الله عز وجل، ومن ولايته ودينه، ومجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولقيت الله يوم القيامة كافراً مشركاً؛ وكل امرأة هي لي اليوم، أو أتزوجها إلى ثلاثين سنة طالق ثلاثاً البتة، طلاق الحرج؛ وكل مملوك هو لي اليوم، أو أملكه إلى ثلاثين سنة، أحرار لوجه الله؛ وعلى المشي إلى بيت الله الحرام الذي بمكة ثلاثين حجة، نذراً واجبا على في عني، حافياً راجلاً لا يقبل الله مني إلا الوفاء بذلك؛ وكل مال لي أو أملكه إلى ثلاثين سنة هدى بالغ الكعبة، وكل ما جعلت لأمر المؤمنين، وشرطت في كتابي هذا لأزمت لي، لا أضمر غيره، ولا أنوي غيره .
 وشهد سليمان بن أمير المؤمنين، وفلان وفلان . وكتب في ذي الحجة سنة ست وثمانين ومائة .

٣ - نسخة كتاب الرشيد الى العمال

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد، فإن الله ولي أمير المؤمنين وولي ما ولاة، والحافظ لما أسترعاه، وأكرمه به من خلافته وسلطانه، والصانع له فيما قدم وأنحر من أموره، والمنعم عليه بالنصر والتأييد في مشارق الأرض ومغاربها، والكلأ والحافظ والكافي من جميع خلقه، وهو المحمود على جميع آلائه، المسئول تمام حسن ما أمضى من قضائه لأمر المؤمنين وعادته الجميلة عنده، وإلهام ما يرضى به ويوجب له عليه أحسن الميزان من فضله؛ وقد كان من نعمة الله عز وجل عند أمير المؤمنين وعندك وعند عوام المسلمين ما تولى الله من محمد وعبد الله أبي أمير المؤمنين من تبليغه بهما أحسن ما أملت الأمة ومدت إليه أعناقها، وقذف الله لها في قلوب العامة من المحبة والموودة والسكون اليهما والثقة بهما إيمان دينهم وقوام أمورهم وجمع ألفتهم وصلاح دهمائهم ودفع المخذور والمكروه من الشتات والفرقة عنهم حتى ألقوا اليهما أزميتهم، وأعطوهما بيعتهم، وصفقات إيمانهم باليهود والمواثيق ووكيد الأيمان المغلظة عليهم؛ أراد الله فلم يكن له مرد، وأمضاه فلم يقدر أحد من العباد على تقضيه ولا إزالته، ولا صرف له عن محبته ومشيتته، وما سبق في عالمه منه؛ وأمير المؤمنين يرجو تمام النعمة

عليه وعليهما في ذلك، وعلى الأمة كافة لاعاقب لأمر الله ولاراد لقضائه ولا معقب لحكمه؛ ولم يزل أمير المؤمنين منذ اجتمعت الأمة على عقد العهد لمحمد ابن أمير المؤمنين من بعد أمير المؤمنين، ولعبد الله ابن أمير المؤمنين من بعد محمد ابن أمير المؤمنين يعمل فكره ورأيه ونظره ورويته، فيما فيه الصلاح لها وجميع الرعية؛ والجمع للكلمة، واللم للثقت، والدفع للثقات والفرقة، والحسم لكيد أعداء النعم من أهل الكفر والتناق، والغفل والشقاق، والقطع لآمالهم من كل فرصة يرجون إدراكها وأتهازها. منهما بانتقاص حقهما، ويستخير الله أمير المؤمنين في ذلك ويسأله العزيمة له على ما فيه الخيرة لهما، وجميع الأمة والقوة في أمر الله وحقه وأتلاف أهوائهما، وصلاح ذات بينهما، وتخصيئتهما من كيد أعداء النعم، ورد حسدهم ومكرهم وبنينهم وسعيهم بالفساد بينهما، فعزم الله لأمر المؤمنين على الشخوص بهما الى بيت الله وأخذ البيعة منهما لأمر المؤمنين بالسمع والطاعة والإنفاذ لأمره، وأكتتاب الشرط على كل واحد منهما لأمر المؤمنين ولها بأشد المواثيق والعهود، وأغلظ الإيمان والتوكيد، والأخذ لكل واحد منهما على صاحبه بما أتمس به أمير المؤمنين أجماع ألفتها وموتتها وتواصلها ومؤازرتها ومكاتفتهما على حسن النظر لأنفسهما، ولرعية أمير المؤمنين التي استرعاها، والجماعة لدين الله عز وجل وكتابه وسنن نبيه صلى الله عليه وسلم، والجهد لعدو المساميين من كانوا وحيث كانوا وقطع طمع كل عدو مظهر للعداوة ومسر لها، وكل منافق ومارق، وأهل الأهواء الضالة المضلة من فرقة تكيد بكيد توقعه بينهما، وبدحس يدحس به لهما، وما يلتمس أعداء الله وأعداء النعم وأعداء دينه من الضرب بين الأمة والسعي بالفساد في الأرض، والدعاء الى البدع والضلالة، نظراً من أمير المؤمنين لدينه ورعيته، وأمة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، وما صححة لله وجميع المساميين، وذبا عن سلطان الله الذي قدره وتوحد فيه للذي حمه إياه؛ والاجتهاد في كل ما فيه قربة الى الله، وما يتأل به رضوانه والوسيلة عنده .

فلما قَدِمَ مكةَ أظهرَ لمحمدٍ وعبد الله رأيه في ذلك وما نَظَرَ فيه لهما ، فَقِيلَ كُلُّ مادِطِهما اليه من التوكيد على أنفسهما بقبوله ، وكتبنا لأَمير المؤمنين في بطن بيت الله الحرام بخطوط أيديهما بمحض من شَهِدَ المَوسِمَ من أهل بيت أمير المؤمنين وقواده ، وصحَّابته وقُضَّاتِه ، وحجَّبة الكعبة وشهاداتهم عليهما ، كاتِبَينِ استودعهما أمير المؤمنين الحُجَّبةَ ، وأمر بتعليقهما في داخل الكعبة ؛ فلما فرغ أمير المؤمنين من ذلك كلِّه في داخل بيت الله الحرام وبطن الكعبة ؛ أمر قُضَّاتِه الذين شهدوا عليهما وحضروا كتابهما أن يُعلِّموا جميع مَنْ حضر الموسم من الحاجِّ والمَهمَّارِ وفود الأمصار ، ما شهدوا عليه من شَروطِهما وكتابهما وقراءة ذلك عليهما ، لِيُفهموه ويَعُوهُ ويعرفوه ويحفظوه ويؤدُّوه إلى إخوانهم وأهل بلدانهم وأمصارهم ، ففعلوا ذلك ، وقُرئَ عليهما الشرطان جميعا في المسجد الحرام ؛ فانصرفوا وقد أشتهر ذلك عندهم ، وأثبتوا الشَّهادةَ عليه ، وعرفوا نَظَرَ أمير المؤمنين وعنايته بصلاحتهم ، وحقَّقَ دمائهم ولمَّ شَعَثَهم ، وإطْفَاءَ جَمرةِ أعداء الله وأعداء دينه وكتابِه وجماعة المسلمين عنهم ، وأظهروا الدُّعاءَ لأَمير المؤمنين والشكرَ لما كان منه في ذلك ، وقد نَسَخَ لك أمير المؤمنين ذَيْنِكَ الشرطين اللذين كتبهما لأَمير المؤمنين أبناهُ محمد وعبد الله في بطن الكعبة في أسفل كتابه هذا ؛ فأحمد الله عزَّ وجلَّ على ما صنعَ لمحمدٍ وعبد الله وليَّيْ عَهْدِ المسلمين حَمدا كثيرا ، وأشكره ببلائه عند أمير المؤمنين وعند وليَّيْ عَهْدِ المسلمين وعندك وعند جماعة أُمَّةِ عَهْدِ صلي الله عليه وسلم كثيرا ؛ وأقرأ كتاب أمير المؤمنين على مَنْ قَبَلَكَ من المسلمين وأفهمهم إياه ، وقُمَّ به بينهم وأثبتته في الديوان قَبَلَكَ ، وقَبَلَ قَواد أمير المؤمنين ورعيته قَبَلَكَ ، وأكْتُبَ إلى أمير المؤمنين بما يكون في ذلك ، إن شاء الله . وحسبنا الله ونعم الوكيل ، وبه الحَوْلُ والقُوَّةُ والطَّوْلُ . كَتَبَهُ اسْماعيل بن صَبِيح يوم السَّبْتِ لسبْعِ لِيالِ بَقِيين من المحرم سنة ست وثمانين ومائة .

باب المنظوم

صوّرنا لك بالجلد الأوّل حالة الشعر في صدر الدولة العباسية وذكرنا لك بجملة صالحة من شعراء ذلك العصر ووعداك بذكر مختارات من شعرهم، وإليك ما وعدناك به .

١ - بَسَّارُ بْنُ بَرْدِ الْعُقَيْلِيِّ (١)

سأله المهديّ لما دخل عليه فقال له : فيمن تُعتدّ يا بَسَّارُ؟ فقال : أما اللسان والزبّيّ فَعَرِيَّانَ ، وأما الأصل فَعَجَجِيّ ، كما قلتُ في شعري يا أمير المؤمنين :

وَبَنَتْ قَوْمًا بِهِمْ جِنَّةٌ * يَقُولُونَ مَنْ ذَا وَكُنْتُ الْعَلَمَ
أَلَا أَيُّهَا السَّائِلِيُّ جَاهِدًا * لِيَعْرِفَنِي أَنَا أَنْفُ

(١) هو أبو معاذ بشار المرعش بن برد ، أشعر مخضرمي الدولتين ، ورأس الشعراء المحدثين ، ومهد طريق الاختراع ، والبديع للفننين ، وأحد البلاغ المكفوفين . وأصله من فرس طحارستان من سبي المهلب بن أبي صفرة ، ووقع ملك أبو به لبني عقيل بن كعب ، فنشأ بشار فيهم وترّب في منازلهم ، واختلف إلى الأعراب الضارين بالبصرة حتى خرج نابغة زمانه في الفصاحة والشعر . وكان أكله مجدور الوجه ، فيبج المنظر ، مفرط الطول ، ضخّم الجثة ، متوقد الذكاء ، صادق الحس ، لطيف الدراية ، شديد الجور والاستخفاف بالناس ، كثير الاستهتار بالدين ، قليل المبالاة للوقوع فيه ، متبها بالزندقة شعوبيا ، متصبا على العرب ، شديد الترم بالناس ، نهاشا لأعراضهم ، لا يسلم من لسانه خليفة ولا سوقة ، وكان من سعادة الرجل من أهل البصرة ألا يعرف بشارا ولا بشار يعرفه ، فانه إن لم يصبه في عرضه أصابه في ماله . وقال بشار الشعر ولم يبلغ عشرين ، وما بلغ الحلم إلا وهو مخشّي معرّة لسانه . وقد أجمع رواة الشعر وتقده على أن بشارا هو رأس المحدثين وأسبقهم إلى معاينة البديع ، وطرق أبواب المجون والخلاعة والغزل الرقيق الحصري والهجاء المقذع .

وأنة أوّل من جمع في شعره بين جزالة العرب ورقة المحدثين ، وفتى عن المعاني الدقيقة ، والأخيلة الطليعة ، حتى عدّ شعره برزخا بين الشعر القديم والحديث ، ومجازا يعبر عليه الشعر من مرابع البداوة إلى مقاصير الحضارة . وقد طرق كل باب من أبواب الشعر التي عرفت قبله وأرّب عليها ، وعلت عليه الهجاء والتشبيب بالنساء والحروح به عن الحدّ المألوف عند أهل زمه ، حتى أكره عليه العلماء والمتورعون لما رأوا من سوء أثره في شان الصرة . وقد نهاه المهدي عن التشبيب ، فكان اذا مالت له نفسه يذكر منه ما ينأى ويقول : إن الخليفة معه من كذا وكذا وأنه له مطيع .

وضمن ذلك بعض قصائد مدح بها الخليفة ، فلم يزد على أن حرّمه الخاترة ، وشجبه على ذلك وزيره يعقوب بن داود ، وكان متورطا ، فهجأهما ، فكان ذلك إلى زندقته سبب قتله . توفي سنة ١٦٧ هـ وقد نبغ على التسعين . وتجيد ترجمته في الأغانى (ج ٣ ص ١٩ وج ٦ ص ٧) وابن خلكان (ح ١ ص ٨٨) والشعر والشعراء (ص ٧٦) والفهرست (ص ١٥٩) .

نَمَتْ فِي الْكِرَامِ بَنِي عَامِرٍ * فَرُوْعِي وَأَصْلِي قُرَيْشُ الْعَجَمِ
فَإِنِّي لِأَعْنَى مَقَامِ الْفَتَى * وَأُصْبِي الْفَنَاءَ فَمَا تَعْتَصِمُ

وكان أبو ذؤلمة حاضراً ، فقال : كَلَّا! لَوْجَهْكَ أَقْبَحُ مِنْ ذَلِكَ ، وَجَهِي مَعَ وَجْهِكَ ،
فقال بشار : كَلَّا! وَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ رَجُلًا أَصْدَقَ عَلَى نَفْسِهِ وَأَكْذَبَ عَلَى جَلِيْسِهِ مِنْكَ ، وَاللَّهِ
إِنِّي لَطَوِيلُ الْقَامَةِ ، عَظِيمُ الْهَامَةِ ، تَامُّ الْأَلْوَابِ ، أَصْبَحُ الْخَلْدَيْنِ ، وَلِرَبِّ مُسْتَرْتَضَى الْمَزُورِينَ
لِلْعَيْنِ فِيهِ مَرَادٌ . ثُمَّ قَالَ لَهُ الْمَهْدِيُّ : مِنْ أَى الْعَجَمِ أَصْلُكَ ؟ فَقَالَ : مِنْ أَكْثَرِهَا
فِي الْفُرْسَانِ وَأَشَدَّهَا عَلَى الْأَقْرَانِ ، أَهْلُ طَخَارِيسْتَانَ ؛ فَقَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ : أَوْلَيْتُكَ الصَّفْعَدَ ،
فَقَالَ : لَا ! الصَّفْعَدُ تِجَارٌ ؛ فَلَمْ يَرُدُّ ذَلِكَ الْمَهْدِيُّ .

وكان بشار كثير التلؤن في ولاته ، شديد التشيع والتعصب للعجم ، مرة يقول يفتخر

بولاته في قيس :

أَمِنْتُ مَضْرَّةَ الْفَحْشَاءِ إِنْى * أَرَى قَيْسًا تُسَبُّ (١) وَلَا تُضَارُ
كَأَنَّ النَّاسَ حِينَ تَغِيْبُ عَنْهُمْ * نَبَاتُ الْأَرْضِ أَخْطَاهُ الْفِطَارُ
وَقَدْ كَانَتْ يَتَدُمَّرُ خَيْلُ قَيْسِ * فَكَانَ لَتَدْمُرُ فِيهَا دِمَارُ
بِحَى مِنْ بَنِي عَيْلَانَ سُوسِ * يَسِيرُ الْمَوْتُ حَيْثُ يُقَالُ سَارُوا
وَمَا نَلَقَاهُمْ إِلَّا صَدْرَنَا * يَرَى مِنْهُمْ وَهُمْ حِرَارُ

ومرة يتبرأ من ولاء العرب فيقول :

أَصْبَحْتُ مَوْلَى ذِي الْجَلَالِ وَبَعْضُهُمْ * مَوْلَى الْعُرَيْبِ بَعْدَ بَفْضِكَ فَانْفِرِ
مَوْلَاكَ أَوْ كَرَمٌ مِنْ تَمِيمِ كُلِّهَا * أَهْلُ الْفِعَالِ وَمِنْ قُرَيْشِ الْمَشْعَرِ
فَارْجِعْ إِلَى مَوْلَاكَ غَيْرَ مُدَافِعِ * سَبْحَانَ مَوْلَاكَ الْأَجَلِّ الْأَكْبَرِ

وقال يفتخر بولاء بني عَقِيلِ :

إِنِّي مِنْ بَنِي عَقِيلِ بْنِ كَعْبِ * مَوْضِعُ السِّيفِ مِنْ طَلِّ الْأَعْدَاقِ

(١) تشب : تزداد وترتفع .

وَوُلِدَ بَشَارَ أَعْمَى ، فَمَا نَظَرَ إِلَى الدُّنْيَا قَطُّ ، وَكَانَ يَشْبَهُ الأَشْيَاءَ بَعْضُهَا بَعْضًا فِي شِعْرِهِ ،
فِيَأْتِي بِمَا لَا يَقْدِرُ البُّصْرَاءُ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ ؛ فَقِيلَ لَهُ يَوْمًا وَقَدْ أُنْشِدَ قَوْلَهُ :

كَانَ مُنَارَ النَّقْعِ فَوْقَ رَعُوسِنَا * وَأَسْيَافَنَا لَيْلٌ تَهَاوَى كَوَاكِبَهُ

مَا قَالَ أَحَدٌ أَحْسَنَ مِنْ هَذَا التَّبْشِيهِ ، فَمِنْ أَيْنَ لَكَ هَذَا وَلَمْ تَرَ الدُّنْيَا قَطُّ وَلَا شَيْئًا فِيهَا ؟
فَقَالَ : إِنْ عَدِمَ النَّظَرَ يَقْوَى ذِكَاةَ القَلْبِ وَيَقْطَعُ عَنْهُ الشَّغْلَ بِمَا يَنْظُرُ إِلَيْهِ مِنَ الأَشْيَاءِ ،
فَيَتَوَقَّرُ حَسَّهُ وَتَذَكُّرُ يَجِئُهُ ؛ ثُمَّ أُنْشِدَهُمْ قَوْلَهُ :

عَمِيَتْ جَنِينًا وَالذِّكَاةُ مِنَ العَمَى * بَجِئْتُ عَجِيبَ الظَّنِّ لِلْعِلْمِ مَوْئِلًا

وَعَاضَ ضِيَاءَ العَيْنِ لِلْعِلْمِ رَافِدًا * بِقَلْبٍ إِذَا مَا صَبَّحَ النَّاسُ حَصَلًا

وَشِعْرٍ كَتَنُورِ الرُّوضِ لَأَمْ مَتُّ بَيْنَهُ * بِقَوْلٍ إِذَا مَا أَحْرَنَ الشَّعْرُ أَسْهَلًا

وَكَانَ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ تَبَرُّمًا بِالنَّاسِ . وَكَانَ يَقُولُ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي ذَهَبَ بِبَصْرِي .
فَقِيلَ لَهُ : وَلَمْ يَأَبَا مَعَاذَ ؟ قَالَ : لثَلَا أَرَى مَا أَبْغِضُ .

قَالَ الأَصْمَعِيُّ : بَشَارُ خَاتِمَةِ الشُّعْرَاءِ ، وَاللَّهِ لَوْلَا أَنْ أَيَّامَهُ تَأَخَّرَتْ لِفَضْلَتِهِ عَلَى كَثِيرٍ مِنْهُمْ .
وَقِيلَ لِأَبِي عُبَيْدَةَ : أَمْرَوَانَ أَسْعُرَ أَمْ بَشَارَ ؟ فَقَالَ : حَكَمَ بَشَارٌ لِنَفْسِهِ بِالأَسْتِظْهَارِ ،
إِنَّهُ قَالَ ثَلَاثَةَ عَشَرَ أَلْفَ بَيْتٍ جَيِّدٍ ، وَلَا يَكُونُ عَدَدُ الجَيِّدِ مِنْ شِعْرِ شُعْرَاءِ الجَاهِلِيَّةِ
وَالْإِسْلَامِ هَذَا العَدَدَ ، وَمَا أَحْسَبُهُمْ بَرَزُوا فِي مِثْلِهَا ، وَمَرْوَانَ أَمْدَحُ لِللُّوْكَ .

وَسُئِلَ الأَصْمَعِيُّ عَنْ بَشَارٍ وَمَرْوَانَ أَيُّهُمَا أَشْعَرُ ؟ فَقَالَ : بَشَارٌ ؛ فَسُئِلَ عَنِ السَّبَبِ لِذَلِكَ ؛
فَقَالَ : لِأَنَّ مَرْوَانَ سَلَكَ طَرِيقًا كَثُرَ مِنْ يَسُلُكِهِ ، فَلَمْ يَلْحَقْ بِمَنْ تَقَدَّمَه وَشَرَكَهُ فِيهِ مِنْ كَانَ
فِي عَصْرِهِ ، وَبَشَارٌ سَلَكَ طَرِيقًا لَمْ يُسَلِّكْ وَأَحْسَنَ فِيهِ وَتَفَرَّدَ بِهِ ، وَهُوَ أَكْثَرُ تَصَرُّفًا وَفَنُونِ
شِعْرٍ ، وَأَغْرَزُ وَأَوْسَعُ بَدِيعًا ، وَمَرْوَانَ لَمْ يَتَجَاوَزْ مَذْهَبَ الأَوَائِلِ .

وَقِيلَ لِبَشَارٍ : لَيْسَ لِأَحَدٍ مِنَ شُعْرَاءِ العَرَبِ شِعْرٌ إِلا وَقَدْ قَالَ فِيهِ شَيْئًا اسْتَنْكَرْتَهُ العَرَبُ
مِنْ أَلْفَاظِهِمْ وَشُكِّ فِيهِ ، وَإِنَّهُ لَيْسَ فِي شِعْرِكَ مَا يُسَلِّكُ فِيهِ ؛ قَالَ : وَمِنْ أَيْنَ يَأْتِينِي الخَطَأُ ؟
وَوُلِدْتُ هَاهُنَا ، وَنَشَأْتُ فِي حُجُورِ ثَمَانِينَ شَيْخًا مِنْ فُصَّحَاءِ بَنِي عُقَيْلٍ مَا فِيهِمْ أَحَدٌ يَعْرِفُ كَلِمَةً

من الخطأ، وإن دخلتُ الى نسائهم فנסأوهم أفصح منهم، وأيقعتُ فأبديتُ^(١) الى أن أدركتُ،
فمن أين يأتيني الخطأ؟ .

كان جرير بن المنذر السدوسي يفاخر بشارا، فقال فيه بشار :

أمثل بنى مُضِرٍ وأئبل * فقدتُك من فاخر ما أُجِنُ
أفى النوم هذا أبا منذر * نغيرا رأيتَ وخيرا يُكسِنُ
رأيتُك والفخر في مثلها * كعاجنة غير ما تطحِنُ

كان بشار يهوى امرأة من أهل البصرة، فراسلها يسألها زيارته، فوعده بذلك ثم
أخلفته، وجعل ينتظرها ليلته حتى أصبح، فلما لم تآته أرسل اليها ليعاتبها فأعذرت بمرض
أصابها، فكتب اليها بهذه الأبيات :

يا ليلتي تزدادُ نُكرا * من حُبِّ من أحببتُ يَكرا
حوراء ان نظرتُ اليه * لك سبقتك بالعينين نَحرا
وكان رجوعَ حديثها * قطعُ الرياضِ كُسينَ زهرا
وكان تحتَ لسانها * هاروتَ ينقُتُ فيه سِجرا
وتخال ما جُمعتُ علي * ه ثيابها ذهبًا وعِطرا
وكانها بَرْدُ الشِّرا * ب صفا وصادفَ منك فِطرا
ذلك أجلُّ أمرا
وكفالك أنى لم أحظ * بسكاة من أحببتُ خُبرا
إلا مقالة زائري * تترتُ لي الأحرانَ نَبرا
نحتتُعا تحت الهوى * عسرا و-

وكان إسحاق الموصلي لا يعتد بشار ويقول : هو كثير التخليط في نثره، وأشعاره مختلفة

لا يشبه بعضها بعضا، أليس هو التائل :

(١) أبدت أي أخرجت الى البادية .

إِنَّمَا عَظُمَ سُلَيْمِي حُبِّي * قَصَبُ السُّكَّرِ لَا عَظْمَ الْجَمَلِ
وَإِذَا أَدْنَيْتَ مِنْهَا بَصَلًا * غَلَبَ الْمِسْكُ عَلَى رِيحِ الْبَصَلِ

لو قال : كل شيء جيد ثم أضيف إليه هذا لزيّفه . وكان يُقدّم عليه مروان ويقول : هو أشدُّ استواءً شعر منه ، وكلامه ومذهبه أشبه بكلام العرب ومذاهبها ، وكان لا يعدُّ أبانؤاس البتّة ولا يرى فيه خيرا .

قال الجاحظ : كان بشار خطيباً صاحب منشور ومزدوج وسجع ورسائل ، وهو من المطبوعين أصحاب الإبداع والاختراع ، المتفتنين في الشعر ، القائلين في أكثر أجناسه وضروبه . وقال الشعر في حياة جرير وتعرض له ، وحكى أنه قال : هجوت جريراً فأعرض عني ، ولو هاجاني لكنت أشعر الناس ، وكان يدين بالرجعة ، ويكفر جميع الأئمة ، ويصوّب رأى إبليس في تقديم النار على الطين ، وذكر مثل ذلك في شعره فقال :

الْأَرْضُ مُظْلِمَةٌ وَالنَّارُ مُشْرِقَةٌ * وَالنَّارُ مَعْبُودَةٌ مُدَّكَانَتِ النَّارُ

وقال بعض الرواة لأبي عمرو : من أبداع الناس بيتاً؟ قال الذي يقول :

لَمْ يَطَّلْ لَيْلَى وَلَكِنْ لَمْ أَمِّ * وَفَقَى عَنِّي الْكِرَى طَيْفُ أَلَمِّ
وَإِذَا قَلْتُ لَهَا جُودَى لَنَا * نَحِرَجْتُ بِالصَّمْتِ عَنْ لَا وَنَعَمِ
رَوِّحِي يَا عَبَدَ عَنِّي وَأَعْلَمِي * أَنْبِي يَا عَبْدَ مَنْ لَحْمٍ وَدَمِ
إِنِّ فِي بُرْدِي جَسْمًا نَاحِلًا * لَوْ تَوَكَّأْتُ عَلَيْهِ لَأَنْهَدَمِ

وهذه الأبيات لبشار .

قال : فمن أمدح الناس؟ قال الذي يقول :

لَمَسْتُ بِكَفِّي كَفَّهُ أَبْتغِي الْغِنَى * وَلَمْ أُدْرِ أَنْ الْجُودَ مِنْ كَفِّهِ يُعَدِي
فَلَا أَنَا مِنْهُ مَا أَفَادَ ذُووُ الْغِنَى * أَفَدْتُ وَأَعْدَانِي فَأَتَلَقْتُ مَا عِنْدِي

وهذه الأبيات لبشار .

ودخل بشار على إبراهيم بن عبد الله بن حسن، فأنشده قصيدةً يهجو فيها المنصور
وئشير عليه برأى يستعمله في أمره، فلما قُتِل إبراهيم خاف بشار، فقلَّب الكُتَيْبَةَ وأظهر أنه
كان قاتلها في أبي مُسَلِّم، وحذف منها أبياتاً، وأولها :

أبا جَعْفَرٍ ما طوَّل عَيْشَ بَدَائِمِ * ولا سَأَلِمُ عَمَّا قَلِيلِ بِسَأَلِمِ
قَلْبَ هَذَا الْبَيْتِ فَقَالَ : أبا مُسَلِّم :

على الملك الجبار يَتَّقِمُ الردى * ويَصْرَعُهُ في المَازِقِ المُتَلَحِّمِ
كَأَنَّكَ لم تَسْمَعُ بِقَتْلِ مُتَوَجِّجِ * عَظِيمٍ ولم تَسْمَعُ بِفَنَكِ الأَعَاجِمِ
تَقَسَّمُ كَسْرِي رَهْطُهُ بِسَيُوفِهِمْ * وَأَمْسَى أَبُو العَبَّاسِ أَحْلَامَ نَائِمِ

يعنى الوليد بن يزيد

وقد كان لا يَخْشَى أَنْقِلَابَ مَكِيدَةٍ * عَلَيْهِ ولا جَرَى النُّحُوسِ الأَشْأَمِ
مُقِيماً على اللذات حتى بت له * وَجُوهُ المَنَايَا حَاسِرَاتِ العَامِ
وقد تَرَدُّ الأَيَّامُ غُرّاً وربما * وَرَدَّتْ كُلوْحًا بِأَدْيَاتِ الشَّكَاثِمِ
ومروان قد دارت على رأسه الرُّحَا * وَكانَ لِمَا أَجْرَمْتَ نَزْرَ الجِزَامِ
فأصبحت تجرى سَادِرًا في طَرِيقِهِمْ * وَلا تَتَّقِ أَشْبَاهَ تلكِ النَّقَامِ
تَجَرَّدَتْ للإسلام تعفو سبيلَه * وَتُعْرِى مَطَاهُ^(١) لِبُيُوتِ الضَّرَاغِمِ
فما زِلْتَ حتى أَسْتَنْصِرُ الدِّينَ أَهْلَهُ * عَلَيْكَ فَعَاذُوا بِالسُّيُوفِ الصَّوَارِمِ
فَرَمُّ وَزْرًا يُحْيِيكَ يا بَنَ سَلامَةٍ * فَلَسْتَ بِنَاجٍ مِنْ مَضِيمِ وَضَائِمِ

جعل موضع "يابن سلامة" "يابن وشيكة" وهي أم أبي مسلم

لَحَا اللهُ قوما رَأْسُوكَ عَلَيْهِمْ * وما زِلْتَ مرءوساً خَيْتَ المَطَاعِمِ
أَقول لِبَسَائِمِ عَلَيْهِ جِلالَةٌ * غدا أُرِيحِيَّ عَاشِقًا لِلْكَارِمِ
من الفاطميين الدُّعَاةِ إلى الهُدَى * جِهَارًا وَمِنْ يَدَيْكَ مِثْلُ ابْنِ فَاطِمِ

(١) مطاه : ظهره .

هذا البيتُ حذفه بشار من الأبيات :

سِرَاجٌ لِعَيْنِ الْمُسْتَضَى، وَتَارَةٌ * يَكُونُ ظَلَامًا لِلْعَدُوِّ الْمُرَاحِمِ
 إِذَا بَلَغَ الرَّأْيُ الْمَشُورَةَ فَاسْتَعِينُ * بِرَأْيِ نَصِيحٍ أَوْ نَصِيحَةٍ حَازِمِ
 وَلَا تَجْعَلِ الشُّورَى عَلَيْكَ غَضَاضَةً ^(١) * فَإِنَّ الْخَوَافِي قُوَّةٌ ^(٢) لِلْقَوَادِمِ
 وَمَا خَيْرُ كَيْفٍ أَمْسَكَ الْفُلَّ أَحْتَبَا ^(٣) * وَمَا خَيْرُ سَيْفٍ لَمْ يُؤَيِّدْ بِقِوَامِ
 وَخَلَّ الْهُوَيْنَا لِلضَّعِيفِ وَلَا تَكُنْ * تَوْوَمَا فَإِنَّ الْحَزْمَ لَيْسَ بِنَائِمِ
 وَحَارِبٌ إِذَا لَمْ تُعْطَ إِلَّا ظُلَامَةً * شَبَابُ الْحَرْبِ خَيْرٌ مِنْ قَبُولِ الْمَظَالِمِ ^(٤)
 وَأُذِنَ عَلَى الْقُرْبَى الْمُقْرَبِ نَفْسَهُ * وَلَا تُشْهِدِ الشُّورَى أَمْرًا غَيْرَ كَاتِمِ
 فَإِنَّكَ لَا تَسْتَطِرِدُ الْهَمَّ بِالْمُنَى * وَلَا تَبْلُغُ الْعَلِيَا بِغَيْرِ الْمَكَارِمِ
 إِذَا كُنْتَ فَرْدًا هَرَّكَ الْقَوْمَ مُقْبِلًا * وَإِنْ كُنْتَ أَذْنَى لَمْ تَفْزُ بِالْعِزَائِمِ
 وَمَا قَسَرَاعَ الْأَقْوَامِ مِثْلُ مُشِيعٍ ^(٥) * أَرِيْبٍ وَلَا جَلَى الْعَمَى مِثْلُ عَالِمِ

قال أبو عبيدة : ميميةٌ بشار هذه أحبّ إلى من ميميتي جريروانفرزدق . وقال الأصمعي لبشار : يا أبا معاذ ، إن الناس يُعجبون من أبياتك في المشورة ؛ فقال له : يا أبا سعيد ، إن المشاورين صواب يفوز بثمرته ، أو خطأ يُسارك في مكروهه ؛ فقال له : أنت في قولك هذا أشعر منك في شعرك .

توفي ابن لبشار بجزع عليه ، فقيل له : أجزعٌ قَدَمَتَهُ ، وفَرَطَ أَقْرَطَتَهُ ، وذُخْرُ أَحْرَزَتَهُ ؛ فقال : ولدتُ دَفْتَهُ ، وَكُلُّهُ تَجَلَّتُهُ ، وَغَيْبُ عِدَّتِهِ فَانْتَبَرَتَهُ ، وَاللَّهُ لئنْ لَمْ أَجْزَعْ لَلنَّقْصِ لَا أَفْرَحُ لِلزِّيَادَةِ . وقال يرثيه :

(١) العصاة : المقصاة . (٢) الخوافي : الريشات الصعيرات التي في جراح الطائر إذا ضمها خفيت ، واحدها حافية صدّ القوادم . (٣) العل بالضم : الحديدية التي تجمع بين يد الأسير وعقه وتسمى الجامعة . (٤) الشبا بالفتح جمع شبة وهي من كل شيء حده . (٥) المشيع : الشجاع .

أَجَارَتَنَا لَا تَجْزِعِي وَأَيْبِي * أَنَانِي مِنَ الْمَوْتِ الْمُطَّلِّ نَصِيبِي
 بُخِيَ عَلَى رُغْمِي وَنُخْطَى رُزْمَتُهُ * وَبَدَّلَ أَجَارًا وَجَالَ قَلِيبُ^(١)
 وَكَانَ كَرِيمَانَ الْعُرُوسِ تَخَالُهُ * ذَوَى بَعْدَ إِشْرَاقِ بَسْرٍ وَطِيبِ
 أَصْبَتُ بِهِ فِي حِينِ أَوْرَقِ غَصْنُهُ * وَأَلْفَى عَلَى الْهَمِّ كَلَّ قَرِيبِ
 عَجِبْتُ لِإِسْرَاعِ الْمِنْبَةِ نَحْوَهُ * وَمَا كَانَ لَوْ مُلِئَتْهُ بِعَجِيبِ

قيل لبشار : إنك لتجيء بالشيء المهجين المتفاوت ، قال : وما ذاك؟ قيل : بينا نقول
 نعرًا يُثير النقع وتُخلع به القلوب مثل قولك :

إِذَا مَا غَضِبْنَا غَضَبَةً مُضْرَبِيَّةً * هَتَكَ حِجَابَ الشَّمْسِ أَوْ تُطِطِرَ الدَّمَ
 إِذَا مَا أَعْرَضْنَا سَيِّدًا مِنْ قَبِيلَةٍ * ذُرَى مَنبَرٍ صَلَّى عَلَيْنَا وَسَلَّمَ
 نقول :

رَبَابَةٌ رَبَّةُ الْبَيْتِ * تَصُبُّ الْخَلْلَ فِي الزَّيْتِ
 لَهَا عَشْرُ دَجَاجَاتٍ * وَدِيكَ حَسَنُ الصَّوْتِ

فقال : لكل وجه ، فالقول الأول جد ، وهذا قلته في ربابة جاريتي ، وأنا لا أأكل البيض من
 السوق ، وربابة لها عشر دجاجات وديك ، فهي تجمع لى البيض ، فهذا عندها أحسن من
 «قِفَانِيك» عندك . وسألته جارية مغنية لبعض ولد سليمان بن علي ، وكانت محسنة بارعة
 الظرف ، أن يذكرها في قصيدة ولا يذكر فيها أسمها ولا أسم سيدها ويكتب بها إليها ، فأنصرف
 وكتب إليها :

وَذَاتِ دَلٍّ كَأَنَّ الْبَدْرَ صَوْرَتُهَا * بَاتَتْ تَغْنِي عَمِيدَ الْقَلْبِ سَكْرَانَا
 « إِنْ الْعَيُونَ الَّتِي فِي طَرْفِهَا حَوْرٌ * قَتَلْتَنَا ثُمَّ لَمْ يُحْيِنَ قَتْلَانَا »
 فَقُلْتُ أَحْسَنْتِ يَا سُوْلَى وَيَا أَمْلَى * فَأَسْمِعِينِي جَزَاكَ اللَّهُ إِحْسَانَا
 « يَا حَبْدًا جَبَلُ الرِّيَّانِ مِنْ جَبَلٍ * وَحَبْدًا سَاكِنُ الرِّيَّانِ مَنْ كَانَ »
 قَالَتْ فَهَلَّا فَدَتَكَ النَّفْسُ أَحْسَنُ مِنْ * هَذَا لِمَنْ كَانَ صَبَّ الْقَلْبِ حَيْرَانَا

« يا قوم أذني لبعض الحى عاشقة * والأذنُ تعشقُ قبل العين أحيانا »
 فقلتُ أحسنتِ أنتِ الشمسُ طالعةً * أضرمتِ في القلب والأحشاء نيرانا
 فاسمعي صَوْتًا مُطربًا هزجًا * يزيد صَبًّا حُبًّا فيك أشجانا
 يا ليني كنتُ تَفاحًا مفلجَةً * أو كنتُ من قُضْبِ الرِيحانِ ريحانا
 حتى إذا وَجَدتُ رِيحِي فأعجبها * ونحنُ في خَلْوَةٍ مثلتُ إنسانا
 فحزرتُ عودها ثم أنثتُ طربًا * تشدُّو به ثم لا تُخفيهِ كتمانا
 « أصبحتُ أطوعَ خَلْقِ اللَّهِ كُلِّهِمْ * لأكثر الخَلْقِ لى في الحُبِّ عِصيانا »
 فقلتُ أطربتينا يازينَ مجلسنا * فهاتِ إنك بالإحسان أولانا
 لو كنتُ أعلمُ أنَّ الحُبَّ يَقتلُنِي * أعددتُ لى قبل أن أفاك أكفانا
 فغنتُ الشَّرَبَ صَوْتًا موقفا رَمَلًا * يُدكي السرور ويُنكي العين ألوانا
 « لا يقتل اللهُ من دامت مودتُهُ * واللهُ يقتلُ أهلَ الغدرِ أحيانا »

كان الزُّوَّار يُسمَوْنَ في قديم الدهر الى أيام خالد بن برمك السُّؤال ، فقال خالد : هذا والله أسم أستبقه لطلاب الخير ، وأرفع قدر الكرم عن أن يسمى به أمثال هؤلاء المؤمنين ، لأن فيهم الأشراف والأحرار وأبناء النعم ، ومن لعله خير ممن يقصد وأفضل أدبًا ، ولكننا نسميهم الزُّوَّار ، فقال بشار يمدحه بذلك :

حَدَا خالد في فعله حَدَوَ برمك * فمجد له مُسْتَطَرَفٌ وَأَصِيلُ
 وكان ذُوو الآمالِ يَدْعُونَ قبله * بلفظٍ على الإعدام فيه دليل
 يسمون بالسؤال في كل موطنٍ * وإن كان فيهم نابه وجليل
 فسماهم الزُّوَّارَ سَترا عليهم * فأستاره في المهتدين سُدُولُ

وقال بشار هذا الشعر في مجلس خالد في الساعة التي تكلم خالد بهذا في أمر الزُّوَّار ، فأعطاه لكل بيت ألف درهم .

دخل بشار على عُقْبَةَ بنِ سَلْمٍ فَأَنشَدَهُ بَعْضَ مَدَائِحِهِ فِيهِ ، وَعِنْدَهُ عُقْبَةُ بنِ رُوْبَةَ يَنْشُدُهُ رَجْرًا يَمْدَحُهُ بِهِ ، فَسَمِعَهُ بِشَارًا وَجَعَلَ يَسْتَحْسِنُ مَا قَالَهُ إِلَى أَنْ فَرَّغَ ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى بِشَارٍ فَقَالَ : هَذَا طِرَازٌ لَا تُحْسِنُهُ أَنْتَ يَا أَبَا مُعَاذٍ ، فَقَالَ بِشَارٌ : أَلِي يَقَالُ هَذَا ! أَنَا وَاللَّهِ أَرْجَزُ مِنْكَ وَمِنْ أَبِيكَ وَجَدَّكَ ؛ فَقَالَ لَهُ : عُقْبَةُ أَنَا وَأَبِي فَتَحَنَّا لِلنَّاسِ بَابَ الْغَرِيبِ وَبَابَ الرَّجَزِ ، وَإِنِّي نَخْلِقُ أَنْ أَسُدَّهُ عَلَيْهِمْ ؛ فَقَالَ بِشَارٌ : أَرْحَمُهُم رَحِمَكَ اللَّهُ ، وَلَمَّا كَانَ مِنْ غَدٍ غَدَا عَلَى عُقْبَةَ ابْنِ سَلْمٍ وَعِنْدَهُ عُقْبَةُ بنِ رُوْبَةَ ، فَأَنشَدَهُ أَرْجُوزَتَهُ الَّتِي مَدَحَهَا فِيهَا :

يَا طَلَّلَ الْحَيَّ بِذَاتِ الصَّمْدِ * بِاللَّهِ خَبَّرْ كَيْفَ كُنْتُ بَعْدِي
 أَوْحَشْتُ مِنْ دَعْدٍ وَتَرْبٍ دَعْدٍ * سَقِيًّا لِأَسْمَاءِ ابْنَةِ الْأَشَدِّ
 قَامَتْ تَرَاعَى إِذْ رَأَتْنِي وَحَدِي * كَالشَّمْسِ تَحْتَ الزُّبُرِجِ الْمُنْقَدِّ (١)
 صَدَّتْ يَحْدُ وَجَلَّتْ عَنْ حَدِّ * ثُمَّ انْتَثَ كَالنَّفْسِ الْمُرْتَدِّ
 عَهْدِي بِهَا سَقِيًّا لَهُ مِنْ عَهْدٍ * تُخْلِفُ وَعَدَا وَتَفِي بِوَعْدِ
 فَتَحْنُ مِنْ جَهْدِ الْهَوَى فِي جَهْدٍ * وَزَاهِرٍ مِنْ سَبِطِ وَجَعْدِ
 أَهْدَى لَهُ الدَّهْرُ وَلَمْ يَسْتَهْدِ * أَفْوَافَ نَوْرِ الْحَبْرِ الْمُجَدِّ
 يَلْقَى الضُّحَى رِيحَانَهُ بِسَجْدِ * بَدَّلْتُ مِنْ ذَاكَ بَكِّي لَا يُجْدِي
 وَافِقَ حَظًّا مِنْ سَعَى بِجَدِّ * مَا ضَرَّ أَهْلَ النَّوْكَِ ضَعْفُ الْجَدِّ
 الْحُرِّيُّ يَلْحَى وَالْعَصَا لِلْعَبْدِ * وَلَيْسَ لِللَّحْفِ مِثْلُ الرَّدِّ
 وَالنَّصْفُ يَكْفِيكَ مِنَ التَّعَدَى * وَصَاحِبِ كَالدَّمَلِ الْمُدِّ
 حَمَلْتُهُ فِي رَقْعَةٍ مِنْ جِلْدِي * أَرْقُبُ مِنْهُ مِثْلَ يَوْمِ الْوَرْدِ
 حَتَّى مَضَى غَيْرَ فَقِيدِ الْقَدِّ * وَمَا دَرَى مَا رَغْبِي مِنْ زُهْدِ
 إِسْلَمَ وَحَيَّتْ أَبَا الْمُلْدِ * مِفْتَاحَ بَابِ الْحَدَثِ الْمُنْسَدِ
 مُشْتَرَكِ النَّيْلِ وَرِيِّ الزَّنْدِ * أَغْرَمَ لِبَاسِ ثِيَابِ الْحَمْدِ

(١) الزبرج : الزبية من وشى أو جوهر .

ما كان مثي لك غير الود * ثم شاء مثل ريح الورد
 نسجته في محكمات الند * فالبس طرازي غير مسترد
 لله أيامك في معد * وفي بني فطان غير عد
 يوماً بذى طخفة عند الحد ^(١) * ومثله أودعت أرض الهند
 بالمهفات والحديد السرد * والمقربات المبعيدات الجرد ^(٢)
 إذا الحيا أسدى بها لا تكدي * تلحم أمراً وأمورا شدي
 وابن حكيم إن أذاك يردي * أصم لا يسمع صوت الرد
 حيته بتخفة المبد * فأنهد مثل الجبل المنهد
 كل أمرئ رهن بما يؤدى * ورب ذى تاج كريم الحد
 كال كسرى وكال برد * أنكب جافٍ عن سبيل القصد
 * فصلته عن ماله والولد *

فطرب عقبة بن سلم وأجزل صلته، وقام عقبة بن رؤبة فخرج عن المجلس ينجزي وهرب
 من تحت ليلته فلم يعد إليه .

قال الجاحظ : فانظر الى سوء أدب عقبة بن رؤبة وقد أجمل بشاراً محضره وعشرته ،
 فقابله بهذه المقابلة القبيحة ، وكان أبوه أعلم خلق الله به ، لأنه قال له وقد فآخره بشعره :
 أنت يا بنى ذهبان الشعر ، إذا مت مات شعرك معك ، فلم يوجد من يرويه بعدك ، فكان
 كما قال له ، ما يعرف له بيت واحد ولا خبر غير هذا الخبر القبيح الإخبار عنه ، الدال على
 سخفه وسقوطه وسوء أدبه .

وقال بشار في هوى له كانت بالبصرة ، ثم خرجت مع زوجها الى عمان :
 هوى صاحبي ريح الشمال اذا جرت * وأشفتني لقلبي أن تهب جنوب
 وما ذلك إلا أنها حين تنهى * تنأهى وفيها من عبيدة طيب

(١) طنخفة : موضع بعد البياح وبعد إمرة في طريق لبصرة الى مكة ، ومنه يوم طخفة لبني يربوع على قابوس
 ابن المنذر بن ماء السماء . (٢) المقربات : الخطير التي يقرب مرعاتها ويملقها لئلا يمتها ،

عَذِيرِي مِنَ الْعُدَالِ إِذْ يَعِدُونَنِي * سَفَاهًا وَمَا فِي الْعَاذِلِينَ لِيَب
 يَقُولُونَ لَوْ عَزَّيْتُ قَلْبَكَ لَأَرْعَوِي * فَقُلْتُ وَهَلْ لِلْعَاشِقِينَ قُلُوبٌ
 إِذَا نَطَقَ الْقَوْمُ الْجُلُوسُ فَإِنِّي * مُيَكَّبٌ كَأَنِّي فِي الْجَمِيعِ غَرِيبٌ

جاء أبو الشمقمق إلى بشار يشكو إليه الضيقة ويحلف له أنه ما عنده شيء ، فقال له
 بشار : والله ما عندي ما يغنيك ، ولكن قم معي إلى عتبة بن سلم ، فقام معه ، فذكر له
 أبا الشمقمق وقال : هو شاعر وله شكرٌ وثناء ، فأمر له بخمسة درهم ، فقال له بشار :

يا واحد العرب الذي * أمسى وليس له نظير
 لو كان مثلك آخرًا * ما كان في الدنيا فقير

فأمر لبشار بألفي درهم ، فقال أبو الشمقمق : نفعتنا ونفعناك يا أبا معاذ ، فجعل
 بشار يضحك .

دخل يزيد بن منصور الحميري على المهدي وبشار بين يديه يُنشدُه قصيدةً امتدحه
 بها ، فلما فرغ منها أقبل عليه يزيد ، وكانت فيه غفلةٌ ، فقال : يا شيخ ، ما صناعتك ؟ فقال :
 أُنقِبُ اللؤلؤ ، فضحك المهدي ، ثم قال لبشار : أغرب ويليك ! أُنْتَنَادِرُ على خالي ؟
 فقال له : وما أصنع به ؟ يرى شيخا أعمى يُنشدُ الخليفةَ شعراً ويسأله عن صناعته .

وقف على بشار بعض المُجَنِّ ، وهو ينشد شعراً ، فقال له : أَسْتَرُّشَعْرَكَ هذا كما تستر
 عورتك ، فصفق بشار بيديه وغضب ثم قال له : ومن أنت ؟ ويليك ! قال : أنا — أعزك الله —
 رجل من بَاهِلَةَ ، وأخوالي سَأُولُ ، وأصهارى عُكْلُ ، وأسمى كَلْبُ ، ومولدى بأُضَاخِ ^(١) ،
 ومنزلى بظفر بلال ، فضحك بشار ، ثم قال : أذهب ويليك ! فأنت عتيق لؤمك ، قد علم الله
 أنك أسترت مني بحصون من حديد .

مر بشار برجل قد رحمته بغلةٌ وهو يقول : الحمد لله شكراً ، فقال له : بشار أستردّه يزدك .
 ومرّ به قومٌ يحملون جنازة وهم يُسرِّعون المشى بها ، فقال : ما لهم مسرعين ؟ أتراهم سرّقوه
 فهم يخافون أن يُلْحَقُوا فيؤخذ منهم .

رفع غلامٌ بشار إليه في حساب نَفَقَتِهِ جِلاءَ مِرْأَةٍ عَشْرَةَ دِرْهَمٍ ، فصاح به بشار وقال :
والله ما في الدنيا أعجب من جِلاءِ مِرْأَةٍ أَعْمَى بعشرة دراهم ، والله لو صَدِثْتُ عَيْنُ الشَّمْسِ
حتى يَبْقَى العَالَمُ في ظُلْمَةٍ ما بلغتْ أجرةً من يجلوها عشرة دراهم .

قال قُدَامَةُ بن نُوحٍ : كان بشارٌ يحشو شعره إذا أعوزته القافية والمعنى بالأشياء التي
لا حقيقة لها ؛ فمن ذلك أنه أنشد يوماً شعراً له فقال فيه : « غنني للغريص يا بن قنان »
فقيل له : من ابن قنان هذا ؟ لسنا نعرفه من مَعْنَى البصرة ، قال : وما عليكم منه ؟ أَلَمْ قَبِلْهُ
دين فطالبوه به ، أو تأثر تريديون أن تُدركوه ، أو كَفَلْتُ لكم به ، فإذا غاب طالبتموني
بإحضاره ؛ قالوا : ليس بيننا وبينه شيء من هذا ، وإنما أردنا أن نعرفه ، فقال : هو رجل
يعتني ولا يخرج من بيتي ، فقالوا له : إلى متى ؟ فقال : مذ يوم وُلِدَ وإلى أن يموت . وذكر
أيضاً في هذه القصيدة « البردان » فقيل له : يا أبا معاذ ، أين البردان هذا ؟ لسنا نعرفه
بالبصرة ، فقال : هو بيت في بيتي سمّيته بالبردان ، أفعليكم من تسميتي دارى وبيوتها شيء
مالوى عنه ؟ .

قالت امرأة لبشار : أرى رجل أنت لو كنت أسود اللحية والرأس ، قال : أما علمت
أن بيض البُرَّةِ أشهر من سودِ الغِربان ؟ فقالت له : أما قولك حسن في السمع ، ومن لك
بأن يحسن شيبك في العين كما حسن قولك في السمع ؟ فكان بشار يقول : ما أحفنى قطّ غير
هذه المرأة .

دعاه رجل إلى منزله فأكل وشرب ، ولما أراد الانصراف قامت جارية للرجل وأخذت
بيده ، فلما صار بالصحن أوما إليها ليقبلها ، فأرسلت يدها من يده ، فجعل يحوّل في العرصة
وخرج مولى الجارية فقال : مالك يا أبا معاذ ؟ فقال : أذنبت ذنباً ولا أبرح أو أقول شعراً ،
فقال :

أتوبُ إليك من السيئات * وأستغفرُ الله من فَعَلَتِي
تأولتُ ما لم أُرِدْ نَيْلَهُ * على جهل أمرى وفي سَكْرَتِي

ووالله والله ما جئتُه * لِعَمْدٍ ولا كان من همتي .
 وإلا قمتُ إذا ضائعا * وَعَدْبِي اللهُ في مِيتِي
 فمن نال خيرا على قُبلةٍ * فلا بارك اللهُ في قُبَلِي

لما كثر استهتار نساء البصرة وشبَّانها بشعر بشار، وقال سوار بن عبد الله ومالك بن دينار: ما شيء أَدعى لأهل هذه المدينة الى الفسق من أشعار هذا الأعمى، وما زالا يعظانه وكان واصل بن عطاء يقول: إن من أخذع حبايل الشيطان وأغواها لكلمات هذا الأعمى المُلحد، فلما كثر ذلك وآتته خبره إلى المهديّ نهَّاه عن ذِكر النساء وقول التشيب، وكان المهديّ من أشد الناس غيرةً، فقال في ذلك :

يا مَنْظَرًا حَسَنًا رأيتُه * في وجه جارية فدَيْتُه
 بعثتُ إلىّ تَسْؤمِي * ثوبَ الشاب وقد طويته
 والله رَبِّ محمدٍ * ما إن غَدَرْتُ ولا نويته
 أمسكتُ عنكِ وربما * عَرَضَ البلاءُ وما أبتغيته
 إن الخليفة قد أبى * وإذا أبى شيئا أبيتُه
 ومُخَضَّبٍ رَخِصَ البنا * ن بكي علىّ وما بكيتُه
 ويشوقني بنتُ الحبيد * ب إذا أذكرتُ وأين بيتُه
 قام الخليفةُ دونَه * فصبرتُ عنه وما قلَّيته
 ونهاني الملكُ الهما * مُ عن النساء وما عصيته
 لا بل وفيتُ فلم أضع * عهدا ولا رأيا رأيتُه
 وأنا المُطَلُّ على العدا * وإذا غلا الحمدُ أشرتُه
 أصفى الخليلَ إذا دنا * وإذا نأى عنى نأيتُه
 وأميلُ في أنسِ التديد * م من الحياء وما أشتيتُه

• وكان الخليل بن أحمد ينشد هذه الأبيات ويستحسنها ويعجب بها .

وكان لبشار خمسة نُدماء، فمات منهم أربعة وبقى واحد يقال له : البراء، فركب في زورق يريد عبور دجلة العوراء ففترق، فكان بشار يقول : ما خير في الدنيا بعد الأصدقاء؛ ثم رثى أصدقاءه بقوله :

يا بن موسى ماذا يقول الإمام * في فتاة بالقلب منها أوامُ
 بتُّ من حبِّها أوقرُّ بالكأ * س ويهفو على فؤادي الهيام
 لم يكن بينها وبينى إلا * كُتُبُ العاشقين والأحلام
 يا بن موسى أسقني ودع عنك سلمى * إن سلمى حمي وفي آحتشام
 ربُّ كأس كالسلسيل تعلد * تُّ بها والعيوتُ عني نيام
 حُبِست للشُّرة في بيتِ رأس^(١) * عتقت عائسا عليها الختام
 نفحت نفعةً فهزت نديمي * بنسيم وأشقى عنها الزُّكام^(٢)
 وكان المعلول منها إذا را * ح شح في لسانه برسام
 صدَّمته السَّمولُ حتى بعيند * ه أنكسارُ وفي المفاصل خام
 وهو باقي الأطراف حيث به الكأ * سُ وماتت أوصالُه والكلام^(٣)
 وفتى يشربُ المدامةَ بالما * ل ويمشى يروم ما لا يُرام
 أنقدت كأسه الدنانير حتى * ذهب العينُ وأستمرَّ السَّوام
 تركته الصهباءُ يرنو بعين * نام إنسانها وليست تنام
 جنَّ من شربةٍ تَعملُ بأخرى * وبكى حين سار فيه المدام
 كان لي صاحبًا فأودى به الده * سرُّ وفارقتُه عليه السلام
 بقيَ النَّاسُ بعد هلك نداما * ي وقوعا لم يشعروا ما الكلام
 تجزور الأيسار لا ككيدٍ فيه^(٤) * ما لي باغ ولا عليها سنام

(١) بيت رأس : قرية بالشام من قرى حلب ينسب إليها الخمر .
 م حادٍ يعرض للحجاب الذي بين الكبد والأمعاء ثم يتصل إلى الدماغ ،
 (٢) حجت بالإدغام لغة في حى
 (٣) الأيسار : جمع يسيرة وهو الألامعة بالمقايح .
 (٤) بيت رأس : قرية بالشام من قرى حلب ينسب إليها الخمر .

يا بن موسى فقد الحبيب على العي * من قذاة وفي الفؤاد سقام
كيف يصفولى النعيم وحيداً * والأخلاء في المقابر هام
ففسدتهم على أم المنايا * فانامتهم بعنف فناموا
لا يعيضا انسجام عيني عليهم * إنما غاية الحزين السجام

وقال في نهى الخليفة إياه عن ذكر النساء :

والله لولا رضا الخليفة ما * أعطيت ضيماً على في شجن
وربما خير لابن آدم في ال * كره وشق الهوى على البدن
فاشرب على أبنة الزمان فما * تلقى زماناً صفا من الأبن
الله يعطيك من فواضله * والمرء يعضي عيناً على الكمن^(٢)
قد عشت بين الریحان والز * هر في ظل مجلس حسن
وقد ملأت البلاد ما بين بعب * ور الى القيروان فاليمن
شعراً تصلى له العوايق والش * يب صلاة الغواة للوثن
ثم نهاني المهدي أنصرفت * نفسى صنيع الموفق اللقن
فالحمد لله لا شريك له * ليس بباقي شيء على الزمن

وأنشد المهدي قصيدته التي أولها :

تجاللت عن فهير وعن جارتي فهير * وودعت نعا بالسلام وبالبيسر
وقالت سلّمي فيك عنا جلادة * محلك دان والزياره عن عفير^(٣)
أخي في الهوى مالى أراك جفوتنا * وقد كنت تقفونا على العسر والبسر
تتأقت إلا عن يد أستفيدها * وزورة أملاك أشد بها أزرى
وأخرجني من وزر خمسين حجة * فتي هاشمي يقشع من الوزر

(١) فسدتهم : حسدتهم . (٢) الكمن واحدها كمنة وهي جرب وحمرة تبق في العين من رمد يساء علاجه .

(٣) العفير : قمة الزياره ، يقال : ما أناذا إلا

دَفَنْتُ الهوى حياَ فليستَ بزائرٍ * سليبي ولا صفراءَ ما قورقِر القمرى
 ومُصَفَّرَةٌ بالزعفرانِ جلودُها * اذا أَجْتَلَيْتُ مثلَ المفرطةِ الصفر
 فربَّ تَقالِ الرَّدْفِ هَبَّتْ تلومنى * ولو شَهِدْتَ قبرى لَصَلَّتْ على قبرى
 تركتُ لمهدى الأنامِ وصالها * وراعيتُ عهدا بيننا ليس بالَحْشَرِ
 ولولا أميرُ المؤمنينِ محمدٌ * لَقَبِلْتُ فاهَا أولَ كانِ بها فِطرى
 لعمرى لقد أوقرتُ نفسى خَطِيئَةً * فما أنا بالْمُزْدَادِ وقرا على وقر
 تَسَلَّى عن الأجابِ صَرامُ خُلَّةٍ * ووصالِ أنحى ما يُقِيمُ على أمر
 وركاضِ أفراسِ الصَّبابَةِ والهوى * جرتِ حِجْبا ثم استقرتُ فلا تجرى
 فأصبحن ما يركبنِ إلا الى الوغى * وأصبحتُ لا يزرى على ولا أزرى
 فهذا وإنى قد شرعتُ مع التقي * ومات هموى الطَّارِقَاتِ فماتسرى

ثم قال يصف السفينة :

وعذراء لا تجرى بلحم ولا دم * قليلة شكوى الأين مُلجَمة الدبر
 اذا ظننتَ فيها القُلُولَ تَشَخَّصَتْ * بفرسانها لا فى وُعُوثٍ ولا وَعَر
 وإن قصدتَ زلتَ على متنصب * ذليل القوى لا شىء يَفْرِى كما تَفْرِى
 تَلَّاعِبُ تيارِ البحرور وربما * رأيتَ نفوسَ القومِ من جَرِّها تجرى
 الى مَلِكٍ من هاشمٍ فى بُبُوَّةٍ * ومن حَمِيرٍ فى المُلْكِ والعَدَدِ الدُّثْرِ^(١)
 من المُشْتَرِينَ الحمدَ تَندى من الندى * يداه ويندى عارِضاه من العِطْرِ
 فالزمتُ حَبلى حبل من لا تُغيبه * عَفَاةُ النَّدى من حيث يدرى ولا يدرى
 بنى لك عبدُ الله يدَ خلافةٍ * نزلتَ بها بين الفَراقدِ والنَّسْرِ
 وعندك عهدٌ من وصاةِ محمدٍ * فرَعَتَ به الأملَأك من ولدِ النَّضْرِ

(١) كان قد قال : نيتان البحرور، فغابه بذلك سببويه، فجعله تيار البحرور .

(٢) الدرر : الكثير .

ولما آتشد الوليد بن يزيد قول بشار :

أيها الساقيان صبا شرابي * وأسقياني من ريق بيضاء رودي^(١)
 إن دائي الظأ وإن دوائى * شربة من رصاب تغير برود
 ولها مضحك كغز الأفاحي * وحديث كالوشى وشى البرود
 نزلت في السواد من حبة القل * يب ونالت زيادة المستريد
 ثم قالت نلقاك بعد لياي * والليالي يئلين كل جديد
 عندها الصبر عن لقائى وعندي * زفوات يا كلن قلب الحديد

طرب الوليد وقال : من لى بمزج كأسى هذه من ريق ساهى ، فيروى ظمى ، وتطفأ غلتي ،
 ثم بكى حتى مزج كأسه بدمعه ، وقال : إن فاتنا ذلك فهذا .

مدح بشار خالد بن برمك فقال فيه :

لعمري لقد أجدى على ابن برمك * وما كل من كان الغنى عنده يُجدي
 حلبت بشعري راحتيه فدرتا * سماحا كما در السحاب مع الرعد
 إذا جبهه للحمد أشرق وجهه * اليك وأعطاك الكرامة بالحمد
 له نعم في القوم لا يستنيبها * جزاء ويكل التاجر الممد بالمد
 مفيد ومتلاف سبيل ثرائه * إذا ما غدا أو راح كالجزر والمد
 أخالد إن الحمد يبق لأهله * جمالا ولا تبق الكنوز على الكد
 فاطعم وكل من عارة مستردة * ولا تبقيها إن العواري للرد

فأعطاه خالد ثلاثين ألف درهم ، وكان قبل ذلك يعطيه في كل وفادة خمسة آلاف درهم ،
 وأمر خالد أن يكتب هذان البيتان في صدر مجلسه الذي كان يجلس فيه ، وقال ابنه يحيى
 ابن خالد : آخر ما أوصانى به أبي العمل بهذين البيتين .

وكان إسحاق الموصلي يطعن على شعر بشار ويضع منه، ويذكر أن كلامه مختلف لا يشبه بعضه بعضا، ف قيل له : أقول هذا لمن يقول :

إذا كنت في كل الأمور مُعَاتِبًا * صديقك لم تلقَ الذي لا تعاتبُهُ
فَعِشْ واحداً أوِصِلْ أخاك فإنه * مُقَارِفٌ ذَنْبٍ مَرَّةً وَمُجَانِبُهُ
إذا أنت لم تشربِ مراراً على القَدَى * ظَمِئَتْ وأىُّ الناسِ تصفو مشاربه

وهي من غرر قصائده، مدح بها عمر بن هبيرة، ومنها قوله :

يخاف المنايا إن ترحلتُ صاحبي * كأن المنايا في المقام تُتأسبه
فقلت له إن العراق مُقَامُهُ * وخيمٌ إذا هبت عليك جنائبه
لألقى نبي عيَّلان إن فعالمهم * تريد على كل الفعال مراتبه
أولئك الأئى شقوا العمى بسيوفهم * عن العين حتى أبصر الحق طالبه
وجيشٌ بكنج الليل يزحف بالحصا * وبالشوك والخطى حمراً تغالبه
غدونا له والشمس في خدر أمها * تطالنا والطل لم يحر ذائبه
بضرب يذوق الموت من ذاق طعمه * وتذكر من نجي الفرار مثالبه
كأن مئثار النقع فوق رءوسنا * وأسيافنا ليل تهاوى كواكبها
بمئنا لهم موت الفجأة إننا * بنو الموت حفاق علينا سبابها^(٢)
فراحوا فريق في الإسار ومثله * قتيلٌ ومثلٌ لآذ بالبحر هاربه

ومنها :

إذا الملك الجبار صعر خده * مشينا إليه بالسيوف نعاتبه
رويداً تصاهل بالعراق جيدنا * كأنك بالضحك قد قام نادبه
وسام لمروانٍ ومن دونه الشجاء * وهول كلج البحر جاشت غواربه

(١) مقاريف ذنب : محاطه ومرتكبه من قارف الخطيئة اذا حالها . (٢) القذى : ما يسقط

في الشراب من دباب أو غيره . (٣) السباب : جمع سببه ، وهي شقة من الكنان رقيقة يريد بها الألوية .

أحلت به أم المنايا بناتها * بأسيافنا إنا ردَى من نحاربه
 وكنا إذا دبَّ العدو لسخطنا * وراقبنا في ظاهري لا نراقبه
 ركبنا له جهرا بكل مُثَقِّف * وأبيض تستسقى الدماء مضاربه
 ومنها :

فلما تولّى الحى وأعصر الثرى * لظى الصيف من تجم توقد لاهبه
 وطارت عصافير الشقائق وأكتسى * من الآل أمثال الحجر ناضبه
 غدت عانة تشكو بأبصارها الصدى * الى الجلب إلا أنها لا تخاطبه
 ومن حسن شعره :

لو كنت تلقين ما تلقى قسمت لنا * يوما نعيش به منكم ونبتهج
 لا خير في العيش إن كنا كذا أبدا * ما في التلقى ولا في قبلة حرج
 من راقب الناس لم يظفر بحاجته * وفاز بالطيبات الفاتك اللهج
 أشكو إلى الله هما ما يفارقي * وشرعا في فؤادى الدهر تغتليج
 وقال يهجو عبيد الله بن قزعة :

خليلي من كمب أعينا أحاكما * على دهره إن الكريم معين
 كأن عبيد الله لم يلق ماجدا * مخافة أن يرجو نداء حزين
 ولا يتجلا بجلّ ابن قزعة إنه * ولم يدّر أن المكرمات تكون
 قتل لأبي يحيى متى تدرك العلا * وفي كل معروف عليك يمين
 إذا جنته في حاجة سدّ بابها * فلم تلقه إلا وأنت كمين

وقد على خالد بن برمك فأنشده :

أخالد لم أخيط اليك بذمة ^(٢) * سوى أنى عاف وأنت جواد
 أخالد بين الأجر والحمد حاجتي * فأيهما تأتي فأنت عماد

(١) العانة : القطعة من الحير . والجلب : ذكرها ، ومعنى شكواها الصدى بأبصارها أن العطش قد تسبب في أحداقها وفارت ، وهذا من أحسن ما وصفت به الحمار والأترن . (٢) أى لم اطلب معروفك متوسلا اليك عهد أو قرابة .

فإن تُعْطِنِي أَفْرِغْ عَلَيْكَ مَدَائِحِي * وإن تَأْبَ لَمْ يُضْرَبْ عَلَيَّ سَدَادُ
رَكَابِي عَلَى حَرْفٍ وَقَلْبِي مَشِيحٌ * ومالَى بِأَرْضِ الْبَاخِلِينَ بِلَادِ
إِذَا أَنْكَرْتَنِي بِلَدَّةٍ أَوْ نَكْرَتْهَا * نَحَرَجْتَ مَعَ الْبَازِي عَلَى سَوَادِ

فدعا خالد بأربعة آلاف دينار في أربعة أكياس، فوضع واحدا عن يمينه، وواحدا عن شماله،
وآخرين يديه، وآخر خلقه، وقال: يا أبا معاذ، هل استقل العباد؟ فلمس الأكياس ثم قال:
استقل والله أيها الأمير .

قال أَبَانُ بن عبد الحميد : نزل في ظاهر البصرة قوم من أعراب قَيْسِ بن عِيْلَانَ ،
وكان فيهم بيان وفصاحة ، فكان بشار يأتهم وينشدهم أشعاره التي يمدح بها قيسا ، فيجلونه
لذلك ويعظمونه ، وكان نساءؤهم يجلسن معه ويتحدثن اليه وينشدهن أشعاره في الغزل ،
وكنت كثيرا ما أتى في ذلك الموضع فأسمع منه ومنهم ، فأتيتهن يوما فاذا هم ارتحلوا ، فبغتُ
الى بشار فقلت : يا أبا معاذ : أعلمت أن القوم قد ارتحلوا؟ قال : لا ، فقلتُ : فاعلم ، قال :
قد علمت لا علمت ، ومضيتُ ، فلما كان بعد ذلك بأيام سمعتُ الناسَ ينشدون :

دعا بفراق من تهوى أَبَانُ * ففاض الدمعُ وأحترق الجَنَانُ
كأن شرارةً وَقَعَتْ بِقَلْبِي * لها في مقلتي ودمي آسِنَانُ
إِذَا أَتَشَدْتُ أَوْ تَسَمَّتْ عَلَيْهَا * رِيَا حُ الصَّيْفِ هَاجَ لها دُخَانُ

فعلمت أنها لبشار ، فأتيته فقلت : يا أبا معاذ ، ما ذنبي اليك ؟ قال : ذنبُ غرابِ البين ،
فقلت : هل ذكرتنى بغير هذا ؟ قال : لا ، فقلتُ : أُنشِدْكَ اللهُ أَلَّا تَزِيدَ ، فقال : أمض
لشأنك فقد تركتك .

مدح بشار المهدي فلم يعطه شيئا ، فقيل له : لم يَسْتَجِدْ شعرك ، فقال : والله لقد
قلتُ فيه شعراً لو قيل في الدهر لم يُحْشَ صَرْفُهُ على أحدٍ ، ولكنا نكذب في القول فيكذب
في الأمل .

مدح بشار سليمان بن هشام بن عبد الملك ، وكان مقياً بحران وخرج إليه ، فأنشده قوله

فيه :

نَأْتِكَ عَلَى طُولِ التَّجَاوُرِ زَيْنُبُ * وما شعرت أن النوى سوف تَشَعْبُ
يرى الناس ما تلقى بزَيْنُبٍ إِذْ نَأَتْ * عَجِيبًا وَمَا تُنْفِي بِزَيْنُبٍ أَعْجَبُ
وَقَائِلَةٌ لِي حِينَ جَدَّ رَحِيلُنَا * وَأَجْفَانُ عَيْنَيْهَا تَجُودُ وَتَسْكُبُ
أَغَادِي إِلَى حَرَانَ فِي غَيْرِ شِيعَةٍ * وَذَلِكَ شَأْنٌ عَن هَوَاهَا مُعْتَبَرُ
فَقُلْتُ لَهَا كَلَّفْتَنِي طَلَبَ الْغَنَى * وَليْسَ وَرَاءَ ابْنِ الْخَلِيفَةِ مَذْهَبُ
سِيكْفِي قَتَى مِنْ سَعِيهِ حَدُّ سَيْفِهِ * وَكُورٌ عَلَانِيٌّ وَوَجْنَاءُ ذَهَابُ ^(٢)
إِذَا أُسْتَوْغَرْتُ دَارٌ عَلَيْهِ رَمَى بِهَا * بَنَاتِ الصُّبُورِ مِنْهَا رَكُوبٌ وَمُضْعَبُ
فَعَدَّتْ إِلَى يَوْمِ آرْتَحَلْتُ وَسَائِلِي * بِزُورِكَ وَالرَّحَالُ مِنْ جَاءِ يَضْرِبُ
لَعَلِّكَ أَنْ تَسْتَيْقِيَ أَنْ زُورَتِي * سَلِيْمَانَ مِنْ سِيرِ الْهَوَاجِرِ تُعْقِبُ
أَغْرَتْ هِشَامِي الْقِنَاةَ إِذَا آتَيْتِي * نَمَّتْهُ بُدُورٌ لَيْسَ فِيهِنَّ كُوكَبُ
وَمَا قَصَدْتُ يَوْمًا فِخْلِينَ خَيْلُهُ * فَتُصَرَّفُ إِلَّا عَن دِمَاءِ تَصَبُّبُ

فوصله سليمان بخمسة آلاف درهم ، وكان يتخلل ، فلم يرضها وأنصرف عنه مغضباً ،

فقال :

إِنْ أَمَسَ مِنْقَبُ الْيَدَيْنِ عَنِ النَّدَى * وَعَنِ الْعَدُوِّ مَخِيَسِ الشَّيْطَانِ
فَلَقَدْ أَرَوْحَ عَلَى اللَّكَامِ مَسْلَطًا * تَلِجُ الْمَقِيلُ مِنْمَّ النَّدْمَانَ
فِي ظِلِّ عَيْشِ عَشِيرَةٍ مَحْمُودَةٍ * تَنْدَى يَدِي وَيُخَافُ قَرَطُ لِسَانِي
أَزْمَانَ خَيْبِنِي الشَّبَابُ مَطَاوِعُ * وَإِذَا الْأَمِيرُ عَلِيٌّ مِنْ حَرَانَ
رِيمٌ بِأَحْوِيَةِ الْعِرَاقِ إِذَا بَدَأَ * بَرَقَتْ عَلَيْهِ أَكِلَةُ الْمَرْجَانِ
فَأَكَلُ بَعْدَةَ مَقْلَتِكَ مِنَ الْقَدَى * وَبِوَشْكَ رُؤَيْتِهَا مِنَ الْهَمَلَانَ
فَلْقَرُبُ مِنْ تَهْوَى وَأَنْتَ مَتِيمٌ * أَشْفَى لِدَائِكَ مِنْ بَنِي مَرْوَانَ

(٢)

قدم بشار على المهديّ بالرصافة فدخل عليه في البستان، فأنشده مديحا فيه تشييب
حسن، فنهاه عن التشييب لغيره شديدة كانت فيه، فأنشده مديحا يقول فيه :

كأنما جئتُه أبتُره * ولم أجيءُ راغبا ومُحتلِبا

يزين المنبر الأشمَ بعطقي * به وأقواله إذا خطبا

تشم نعلاه في الندي كما * يشم ماء الرياح مُنتهبا

قال : وقد طلب منه أن يُنشده شيئا من غزله :

وقائل هات شوقنا قُلتُ له * أنا ثم أنت يا عمرو بن سَمعان

أما سمعتَ بما قد شاع في مَضير * وفي الحليقين من بكرٍ وقَطّان

قال الخليفة لا تنسبُ بجارية * إياك إياك أن تشقى بعضيان

وقال له المهديّ : قل في الحب شعرا ولا تطل، وأجعل الحب قاضيا بين المحبين

لا تُسم أحدا، فقال :

أجعل الحب بين حبي وبيني * قاضيا إني به اليوم راض

فاجتمعنا قُلتُ يا حبّ نفسي * إن عيني قليلة الإغماض

أنتِ عدبتي وأُحلت جسمي * فأرحم اليوم دائم الأمراض

قال لي لا يحلّ حكي عليها * أنتِ أولى بالسقم والإعراض

قُلتُ لما أجبني بهواها * شَمِلَ الجورُ في الهوى كل قاض

فبعث إليه المهديّ : حكمت علينا ووافقنا ذلك، فأمر له بألف دينار .

وقال بشار في عشق السَّمع :

يا قومُ أذني لبعض الحى عاشقة * والأذنُ تعشق قبل العين أحيانا

قالوا بمن لا ترى تهدي قُلتُ لهم * الأذنُ كالعين تُوفي القلب ما كانا

هل من دواء لشغوفٍ بجارية * يَلقى بلقيانها رَوْحاً وريحانا

وقال في مثل ذلك :

قالت عُقَيْلُ بن كعب إذ تعلقها * قلبي فأضحى به من حبها أثرُ
أنى ولم ترها تهدي فقلت لهم * إن الفؤاد يرى ما لا يرى البصرُ
أصبحتُ كالحائم الحيران مجتنباً * لم يقض ورذا ولا يرجى له صدر

وقال :

يزهدنى في حب عبدة معشر * قلوبهم فيها مخالفة قلبي
فقلت دعوا قلبي وما آختر وأرتضى * فبالقلب لا بالعين يُبصر ذو الحب
فما تبصر العينان في موضع الهوى * ولا تسمع الأذنان إلا من القلب
وما الحسن إلا كل حسن دعا الصبا * وألف بين العشق والعاشق الصب

وقال :

يا قلب مالى أراك لا تقر * إياك أعنى وعندك الخبر
أدعت بعد الألى مضوا حرقاً * ما ضاع ما استودعوك إذ بكروا

وقال :

إن سُلَيْمى والله يكؤها * كالسكر يزداد على السكر
بلغت عنها شكلا فأعجبني * والسَّمعُ يكفيك غيبة البصر

وقال وقد مدح المهديَّ فخرمه :

خليلى إن العسر سوف يُفِيق * وإن يسارا في غد خلّيق
وما كنتُ إلا كالزمان إذا صحا * صحوتُ وإن ماق الزمان أموق^(١)
أدّماء لا أسطيع في قلّة الثرا * خُرُوزاً ووَشياً والقليل محيق
خذى من يدي ما قل إن زماننا * شموسٌ ومعروفُ الرجال رقيق
لقد كنتُ لأرضى بأدنى معيشةٍ * ولا يَسْتكى بخلا على رقيق

(١) ماق : حق في عبادة

خليفة إن المال ليس بنافع * إذا لم ينل منه أخ وصديق
 وكنت إذا ضاقت على محملة^(١) * تيممت أخرى ما على تضيق
 وما خاب بين الله والناس عامل * له في التقى أوفى المحامد سوق
 ولا ضاق فضل الله عن متعفف * ولكن أخلاق الرجال تضيق

هجا بشار يعقوب بن داود وزير المهدي - فقال :

بني أمية هبوا طال نومكم * إن الخليفة يعقوب بن داود^(٢)
 ضاعت خلافتكم يا قوم فالتسوا * خليفة الله بين النساء والعود

فاتهمه عند المهدي بالزندقة وقال : إنه قد هجا المهدي ، فأمر ، فضرب بالسياط حتى مات

(١) المحلة : منزل القوم . (٢) أصله من الموالي ، وقد استوزره الخليفة المهدي وسله الأمور كلها وأنتعل هو باللهو .

٢ - حماد عجرد^(١)

«ولو أتى أحببت أن أشخص حمادا لوصفته قبل كل شيء بحمّة الطبع ، وسوء الخلق ،
وحب الانتقام ، والإسراع إليه ، ثم بالصرافة في القول ، والملاءمة بينه وبين العمل ،
وبكره النفاق والانصراف عنه ، لا يعنيه أرضى الناس عنه أم خبطوا عليه ، ثم بحمّة اللسان
ومُضِيهِه وإفداعه وكلفه بفاحش القول وبجته عن أسوئه وأقبحه ، ثم بالسخرية من الناس
وأزدرائهم ؛ لا على أنه يتخذ ذلك فلسفة وأصلا من أصول الحياة كالوليد ومُطِيع وأبي نُوّاس ،
بل على أنه يتخذ ذلك وسيلة من وسائل الشعراء يخلص بها كتما ضاقت عليه المذاهب
وأخذت عليه ، أو دعتّه إلى ذلك حاجة . لم يكن حماد يَحْفِلُ بما يحْفِلُ به الناس من الوفاء
والانصراف عن التناقض ، وإنما كان صديقا مُخلصا حتى تبدوله حاجة أو تسوّح له فرصة
أو تضطره ضرورة ؛ فإذا صدقته قد استحالت إلى عداء ، وإذا هو ليس أقل صدقا
وإخلاصا في العداء منه في المودة والحُب : فقد مدح يحيى بن زياد وأتخذهُ صديقا ونال
جوائزَه ، ثم كان الخلافُ فهجَاه . وصادقَ بسّارا وصفاه ، ثم اختصما فلم يعرفا في الخصومة
رحمة ولا رِققا . وصافى مُطِيعا وأحبه ومدحه وأكثر في الثناء عليه ، ثم اختصما في امرأة
مرّة وفي غلام مرّة أخرى ، فهجَاه وأفدع في هجائه . وكان على هذا كله يؤثر شعره
وضروراته على البرّ بالناس في معاملتهم : هجا ذات يوم رجلا يقال له حُشَيْش وجعل اسمه
قافية لهذا الشعر وأراد أن يبلغ في ذمّه فشبهه بِحُشَيْش ، وكان بِحُشَيْش هذا رجلا من أهل البصرة

(١) هو حماد بن يحيى بن عمرو مولى عامر بن صعصعة . نشأ في الكوفة ثم واسط . وعاصر الدولتين ، لكنه نبغ في الدولة العباسية بعد أن نادى الوليد بن يزيد الأموي . وجاء بغداد أيام المهدي ومعه مطيع بن إلياس ويحيى بن زياد ، وكلهم من المهتمين في دينهم . وحماد من الشعراء المجيدين ، وكان ماجنا ظريفا خليعا متهما في دينه مرميا بالزندقة . وأدرك بشار بن برد وله معه أهاج فاحشة ، ولم يكن يهاب كبيرا ولا صغيرا ، طالما كان أوحليفة . توفي سنة ١٦٦ هـ . ومجد ترجمته في الأغانى (ج ١٣ ص ٧٣) وابن حنكحان (ج ١ ص ١٦٥) والشعر والشعراء (ص ٤٩٠) والفهرست (ص ٩١) . (٢) من بحوث صديق الدكتور طه حسين أستاذ الآداب العربية بالجامعة المصرية .

وإدعًا لا يعرف حمادًا ولا يعرفه حمادٌ، فلما قرأ الرجلُ هذا الشعرَ جَزِعَ له وسافرَ من البصرة حتى بلغ الكوفةَ فعاتبَ حمادًا؛ فقال له حمادٌ ضاحِكًا معتدِرًا: لا بأس عليك فإن هذا من آثام القافية ولن أعود إليه .

وكان السبب في مهاجاة حماد وبشار أن حمادًا كان نديما لِنَافِعِ بنِ عُقْبَةَ، فسأله بشارٌ تَبيخِرَ حاجة له من نافع فأبطأ عنها، فقال بشارٌ فيه :

مَوَاعِيدُ حَمَادٍ سَمَاءٌ نَحِيْلَةٌ * تَكْشِفُ عَنْ رَعْدٍ وَلَكِنْ سَتَبْرُقُ
 إِذَا حَمْتَهُ سَوَمَا أَحَالَ عَلَى غَدٍ * كَمَا وَعَدَ الْكَوْنُ مَا لَيْسَ يَصْدُقُ
 وَفِي نَافِعٍ عَنِّي جَفَاءٌ وَإِنِّي * لِأَطْرُقُ أحيانًا وَذُو اللَّبِّ يُطْرِقُ
 وَلِلنَّقَرِيِّ قَوْمٌ فَلَوْ كُنْتُ مِنْهُمْ * دُعَيْتُ وَلَكِنْ دُونِي الْبَابُ مُعْلَقُ
 وَمَا زِلْتُ أَسْتَأْنِيكَ حَتَّى حَسَرْتَنِي * بُوْعَدِ بَجَارِي الْأَلِ يَخْفَى وَيَخْفُقُ

فغضب حمادٌ وأنشد نافعًا الشعرَ فنع بشارا، فقال بشار :

أَبَا عَمْرٍو مَا فِي طِلَالِيكَ حَاجَةٌ * وَلَا فِي الَّذِي مَنِينَتَا شِمُّ أَحْجَرَا
 وَعَدْتِ فَلَمْ تَصْدُقِ وَقَلْتِ غَدًا غَدًا * كَمَا وَعَدَ الْكَوْنُ شَرِبًا مَوْخَرَا

فكان ذلك سببَ التهاجي بين بشار وحماد . وكان بشارٌ يرمى حمادًا بالزندقة ، وفي ذلك

إِبْنُ نَهْجٍ رَأْسٌ عَلَى تَقِيلٍ * وَأَحْتِمَالُ الرَّؤُوسِ خَطَبٌ جَلِيلٌ
 أَدْعُ غَيْرِي إِلَى عِبَادَةِ الْأَنْبِيَاءِ * مِنْ فِإْنِي بُوَاحِدٍ مَشْغُولُ
 يَا بَنَ نَهْجٍ بَرِئْتُ مِنْكَ إِلَى اللَّهِ جِهَارًا وَذَلِكَ مَنَى قَلِيلِ

فأشاع حمادٌ هذه الأبيات لبشار، وجعل فيها مكان : « فإني بواحد مشغول » « فإني عن واحد مشغول » ليصح عليه الزندقة والكفر بالله تعالى . فما زالت الأبياتُ تدور في الناس حتى انتهت إلى بشار، فأضطرب منها وجزع وقال : أشاط ابنُ الفاعلةِ بدمي، والله ما قلتُ إلا « فإني بواحد مشغول » فغيرها حتى شهرت في الناس .

كان رجلٌ من أهل البصرة يدخل بين حماد وبشار على أنفاقٍ منهما ورغماً بأن يتقل إلى كل واحد منهما وعنه الشعراءُ فدخل يوماً إلى بشار فقال له : إيه يا فلانُ ، ما قال ابن الفاعلة؟ فأشده :

إن تاه بشارٌ عليكم فقد * أمكنتُ بشاراً من التيه

فقال بشار : بأى شيءٍ ويحك؟ فقال :

وذاك إذ سميتُه باسمه * ولم يكن حراً نسيه

قال : سخنت عينه ، فأبى شيء كنت أعرف! إيه ، فقال :

فصار إنساناً بذكري له * ما يبتغي من بعد ذكريه!

فقال : ما صنع شيئاً ، إيه ويحك! فقال :

لم أضح بشاراً ولكني * هجوت نفسي بهجائه

فقال : على هذا المعنى دار وحوله حام . وتأم الأبيات :

لم أت شيئاً قط فيما مضى * ولست فيما عشتُ آتية

أسوأ لى فى الناس أهدوثة * من خطأ أخطأته فيه

فأصبح اليوم لسبى له * أعظم شأناً من مواليه

وقال بشارٌ لراوية حماد : ما هجاني به اليوم حماد؟ فأشده :

ألا من مبلغ عني ال * ذى والده بُرد

فقال : صدق ابن الفاعلة فما يكون؟ فقال :

إذا ما نُسب الناس * فلا قبل ولا بعد

فقال : كذب ، أين هذه العرصات من عقيل! فما يكون؟ فقال :

وأعمى قلوباً^(١) ما * على قاذفه حد

فقال : كذب ، بل عليه ثمانون جلدَةً ، هيه ، فقال :

وأعمى يُشبهه القِرْدَ * إذا ما عمى القِرْدُ

فقال : والله ما أخطأ حين شبّهني بقِرْدٍ ، حَسْبُكَ حَسْبُكَ ! ثم صفق بيديه وقال
ما حيلتي ! يراني فيشبّهني ولا أراه فأشبهه . وتأم الأبيات :

دَنِي لَمْ يَرْخِ يَوْمًا * إلى مَجْدٍ ولم يَفْدُ

ولم يَخْضِرْ مع الحُضَا * رِ في خَيْرٍ ولم يَبْدُ

ولم يُخْشَ له ذَمٌّ * ولم يُرْجَ له

جرى بالنَّحْسِ مُدْ كان * ولم يَجْرِي له سَعْدُ

هو الكلبُ إذا مات * فلم يُوجَدْ له قَفْدُ

وقال علي بن مهدي : أجمع علماء البصرة أنه ليس في هجاء حماد مجرد لبشار إلا أربعون بيتاً معدودة ، ولبشار فيه من الهجاء أكثر من ألف بيت جيد . وكل واحد منهما هو الذي هتك صاحبه بالزندقة وأظهرها عليه ، وكانا يجتمعان عليها ، فسقط حماد وهتك بفضل بلاغة بشار وجودة معانيه ، وبقى بشار على حاله لم يسقط ، حتى عُرف مذهبه في الزندقة فقتل به .

ومن أغلظ ما هجا به حماد بشاراً :

نَهَارُهُ أَخْبَثُ من لَيْلِهِ * ويَوْمُهُ أَخْبَثُ من أَمْسِهِ

وليس بالمُقَالِجِ عن غِيَّةِ * حتى يُوَارَى في ثَرَى رَمْسِهِ

كان حماد صديقاً ليحيى بن زياد ، فأظهر يحيى تورعاً وقراءةً وزُروعاً عما كان فيه وهجر حماداً وأشباهه ، فكان إذا ذُكر عنده ثلّبه وذُكر تهتكه ومجونه ، فبلغ ذلك حماداً فكتب إليه :

هَلْ تَذْكُرُنِي دَلَجِي الي * لك على المَضْمَرَةِ القِلاصِ

أَيَّامَ تُعْطِينِي وتَأ * حُدُّ من أباريق الرِّصَاصِ

إن كان نُسْكُكَ لا يَتِي * سُمُّ بغيرِ شَتِي وانتقاصِ

أو كنتَ لستَ بغيرِ ذَا * لك تَتَالِ منزلة الخِلاصِ

فعليك فاشتمُّ آمِنًا * كلَّ الأمان من القصاص
 وأقعد وطمَّ بي ما بدا * لك في الأداني والأقاصي
 فلطالما زكَّيتي * وأنا المقسيمُ على المعاصي
 أيامَ أنتَ اذا ذُكِر * تُ مُناضلٌ عني مُناسي^(١)
 وأنا وأنتَ على آرتكا * بالمؤبقات من الحِراس
 وبنّا مواطنُ ما بنا * في البرِّ أهلةُ العِراس

فاتصل هذا الشعرُ بيجي بن زياد، فنسب حمادا الى الزندقة ورماه بالخروج عن الإسلام؛ فقال حماد فيه :

لا مؤمنٌ يُعرفُ إيمانه * وليس يحيى بالفتى الكافر
 منافقٌ ظاهره ناسكٌ * مخالفُ الباطنِ للظاهر

كان حمادُ صديقا لحريث بن أبي الصلت الثَّقَفِيّ، وكان يعيبه بالبخل، وفيه يقول :

حريثُ أبو الفضلِ ذو خيرة * بما يُضِلُّحُ المعدِّ الفاسده
 تخوفُ ثُجَّةَ أضيافه * نعوذهمُ أكلةً واحده

ومن قوله :

ألا قُلْ لعبدِ الله إنك وإحدٌ * ومثلك في هذا الزمانِ كثيرُ
 قطعتَ إخائى ظالِمًا وهجرتني * وليس أنحى من في الإخاءِ يَجور
 أديمٌ لأهلِ الودِّ وُدِّي وإتني * لمن رام هجرى ظالِمًا لهَجُور
 ولو أن بعضي رآبني لقطعته * وإني يَقَطعُ الرائيينَ جَدِير
 فلا تُحسبنَ منحي لك الودَّ خالصا * لعزِّ ولا أتى إليك فقير
 ودونك حَظِّي منك لستُ أريده * طوآلَ الليالي ما أقامَ تَبِير^(٢)

(١) ماص : مداع، من قولهم ناصد ماصاة : أخذ كل بناصية صاحبه . (٢) تبير : اسم جبل

كان حماد صديقاً لحفص بن أبي بردة ، وكان حفص أعمش أفتس أعضب مفتح
الوجه ، فاجتمعوا يوماً على شراب وجعلوا يتناشدون ويتحدثون ، فأخذ حفص يطعن على
مُرَقِّش ويعيب شعره ويلحنه ؛ فقال له حماد :

لقد كان في عينك يا حفص شاغل * وأنف كئيل العود عما تتبع^(١)
تبع لحنا في كلام مرقيش * ووجهك مبي على اللحن أجمع
فأذناك إقواء وأنفك مكفأ * وعيناك إيطاء فانت المرقع

ومن قوله :

إني أحبك فاعلمي * إن لم تكوني تعلمينا
حبا أقل فليس له * بجميع حب العالمينا

وأنشد بشار قول حماد مجرد :

أحى كفف عن لومي فإنك لا تدرى * بما فعل الحب المبرح في صدري
أحى أنت تملحاني وقلبك فارغ * وقلبي مشغول الجوانح بالف
دواني وداني عند من يوراته * يقب عينيه لأقصرت عن زجري
فأقسم لو أصبحت في لوعة الهوى * لأقصرت عن لومي وأطبت في عذري
ولكن بلائي منك أنك ناصح * وأنت لا تدرى بأنك لا تدرى

فطرب بشار ثم قال : وبلكم أحسن والله ! من هذا ؟ قالوا : حماد مجرد ؛ قال : أوه وكلموني
والله ببيعة يومي لهم طويل ، والله لا أطمع ببيعة يومي طعاما ، ولأصومن غما بما يقول
النبطي مثل هذا .

قال محمد بن الفضل السلولي : لقيت حماد مجرد بواسطة وهو يمشي وأنا راكب ، فقلت
له : أنطلق بنا الى المنزل ، فإني الساعة فارغ لتحدث ، وحبست عليه الدابة ، فقطع شغل
عرض لي لم أقدر على تركه ، فمضيت وأنسيته ، فلما بلغت المنزل خفت شره فكتبت اليه :

أَبَا عَمْرٍو أَخْفَرَهَا هُدَيْتَ فَإِنِّي * قَدَ أَذْنَبْتُ ذَنْبًا مَحْطًا غَيْرَ عَامِدٍ
فَلَا تَجِدُنِي فِيهِ عَلَىٰ فَإِنِّي * أَقْرُبُ بِإِجْرَامِي وَلَسْتُ بِعَائِدٍ
وَهَبْهُ لَنَا تَفْدِيكَ نَفْسِي فَإِنِّي * أَرَىٰ نِعْمَةً أَنْ كُنْتَ لَسْتَ بِوَاجِدٍ
وَعُدْ مِنْكَ بِالْفَضْلِ الَّذِي أَنْتَ أَهْلُهُ * فَإِنَّكَ ذُو فَضْلٍ طَرِيفٍ وَتَالَهُ
فَأَجَابَنِي عَنِ الْآيَاتِ :

مُحَمَّدُ يَا أبا الْفَضْلِ يَا ذَا الْحَمَامِدِ * وَيَا بَهْجَةَ النَّادِي وَزَيْنَ الْمَشَاهِدِ
وَحَقِّكَ مَا أَذْنَبْتَ مِنْذَ عَرَفْتَنِي * عَلَىٰ خَطَا يَوْمًا وَلَا عَمْدٍ عَامِدٍ
وَلَوْ كَانَتْ مَا أَلْفَيْتَنِي مَتَسْرَعًا * إِلَيْكَ بِهِ يَوْمًا تَسْرَعُ وَإِجْدِ
وَلَوْ كَانَتْ ذُو فَضْلٍ يُسَمَّى لَفَضْلُهُ * بِغَيْرِ اسْمِهِ سُمِّيَتْ أُمُّ الْقَلَائِدِ

فَبَيْنَا رَقَعْتُهُ فِي يَدِي وَأَنَا أَقْرؤها إِذْ جَاءَنِي رَسُولُهُ بِرَقْعَةٍ فِيهَا :

قَدَ غَفَرْنَا الذَّنْبَ يَا بَنَ الْ * فَضْلِ وَالذَّنْبُ عَظِيمٌ
وَمَسِيءٌ أَنْتَ يَا بَنَ الْ * فَضْلِ فِي ذَاكَ مُلِيمٌ
حِينَ تَحْشَانِي عَلَى الذَّنْبِ * بِكَمَا يُحْشَى اللَّئِيمُ
لَيْسَ لِي إِنْ كَانَ مَا خَفَى * تَتَّ مِنْ الْأَمْرِ حَرِيمٌ
أَنَا وَاللَّهِ وَلَا أَفُ * خَرُّ اللَّغِيظِ كَطُومِ
وَبِأَصْحَابِي وَلَا رِيءُ * بَبَّةٌ بَرٌّ وَرَحِيمٌ
وَبِمَا يُرْضِيهِمْ عَنِّي * سِي وَيُرْضِينِي عَلِيمٌ

كَانَ عُمَانُ بْنُ شَيْبَةَ مُبْجَلًا وَكَانَ حَمَادٌ يَهْجُوهُ ، لَجَاءَ رَجُلٌ كَانَ يَقُولُ الشُّعْرَ إِلَى حَمَادٍ

فَقَالَ لَهُ :

أَعْنِي مِنْ غَنَاكَ بَيْتَ شِعْرٍ * عَلَى فَقْرِي لِعُمَانِ بْنِ شَيْبَةَ

فَقَالَ :

فَإِنَّكَ إِنْ رَضَيْتَ بِهِ خَلِيلًا * مَلَأْتَ يَدِيكَ مِنْ فَقْرٍ وَخَيْبَةٍ

فقال له الرجل : بَرَكَ اللهُ خيراً فقد عرَّفْتَنِي من أخلاقه ما قطعني عن مدحه وصنت وجهي عنه .

لما مات محمد بن أبي العباس طلب محمد بن سليمان حمادَ عَجْرَدَ لما كان يقولُه في أخته زينب من الشعر ، فعلم أنه لا مقامَ له معه بالبصرة ، فأستجار بقبر أبيه سليمان بن علي وقال فيه :

مِنْ مُقَرِّ بِالذَّنْبِ لَمْ يُوجِبِ اللد * هُ عَلَيْهِ سِيَّئٌ إِقْرَارَا
 لَيْسَ إِلَّا بِفَضْلٍ حَامِكُ يَع * تَدَّ بِلَاءٌ وَمَا يَعُدُّ آغْتَارَا
 يَا ابْنَ بَنِي النَّبِيِّ أَحْمَدُ لَا أَج * عَلُّ إِلَّا إِلَيْكَ مِنْكَ الْفِرَارَا
 غَيْرَ أَنِّي جَعَلْتُ قَبْرَ أَبِي أَيُّو * بَ لِي مِنْ حَوَادِثِ الدَّهْرِ جَارَا
 وَحَرِيٌّ مِنْ آسْتَجَارَ بِذَلِكَ ال * قَبْرِ أَنْ يَأْمَنَ الرَّدَى وَالْعِثَارَا
 لَمْ أَجِدْ لِي مِنَ الْعِبَادِ مُجِيرَا * فَاسْتَجَرْتُ التَّرَابَ وَالْأَحْجَارَا
 لَسْتُ أَعْتَاضُ مِنْكَ فِي بُغْيَةِ الْعِزَّةِ حُطَّانَ كُلِّهَا أَوْ نِزَارَا
 فَأَنَا الْيَوْمَ جَارٌ مِنْ لَيْسَ فِي الْأَر * ضِ مُجِيرٌ أَعَزُّ مِنْهُ جَوَارَا
 يَا ابْنَ بَنِي النَّبِيِّ يَا خَيْرَ مَنْ حَطَّ * تٌ إِلَيْهِ الْغَوَارِبُ الْأَكْشَوَارَا
 إِنْ أَكُنْ مَذْنِبًا فَأَنْتَ ابْنُ مَنْ كَا * نٌ لِمَنْ كَانَ مَذْنِبًا غَفَّارَا
 فَاعْفُ عَنِّي فَقَدْ قَدَّرْتَ وَخَيْرُ ال * عَفْوِ مَا قَلَّتْ : كُنْ ، فَكَأَنَّ آفْتِنَارَا
 لَوْ يُطِيلُ الْأَعْمَارَ جَارٌ لِعِزِّ * كَانَتْ جَارِي يُطَوِّلُ الْأَعْمَارَا

فقال : والله لأبُلِّقُ قَبْرَ أَبِي من دمه بما فهرب حماد إلى بغداد ، فعاذ بجعفر بن المنصور فأجاره ، وقال : لا أرضى أو تهجو محمد بن سليمان ، فقال يهجوه :

قُلْ لَوْجُهُ انْخَصِي ذِي الْعَارِ إِي * سَوْفَ أَهْدِي لَزَيْنَبَ الْأَشْعَارَا
 قَدْ لَعْمَرِي فَرَرْتُ مِنْ شِدَّةِ الْخَوْ * فِ وَأَنْكَرْتُ صَاحِبِي نَهَارَا
 وَظَنَنْتُ الْقُبُورَ تَمْنَعُ جَارًا * فَاسْتَجَرْتُ التَّرَابَ وَالْأَحْجَارَا

كنتُ عند أستجارتى بأبي آية * سوب أُنبي ضلالةً وسخاراً
لم يُبِرني ولم أجد فيسه حظاً * أضسرم الله ذلك القبر ناراً
فبلغ هجاؤه محمد بن سليمان فقال : والله لا يُفَلتني أبداً، وإنما يُزداد سخفاً بلسانه ! ولا والله
لا أعفو عنه ولا أتعاقل أبداً .

ومن قوله :

إن الكريم ليُخفي عنك عُسرته * حتى تراه غنياً وهو مجبهُود
وللبخيل على أمواله عِلٌّ * زُرُقُ العيون عليها أوجه سُود
إذا تكرمت أن تُعطي القليلَ ولم * تقدر على سعةٍ لم يُظهر الجُود
أبرقُ بخير تُرجى للنوالِ فما * تُرجى الثمارُ إذا لم يُورق العُود
وال ولا تمنعك قَلته * فكُل ما سدَّ فقراً فهو محمود

وقال أيضاً

كَمْ من أضح لك لست تُسكوه * ما دمت من دنياك في يسر
مُتصنِّع لك في مودته * يلقاك بالترهيب والبشر
يطرى الوفاءُ وذا الوفاءِ ويد * يحيى القدرَ مجتهداً وذا الغمدر
فإذا عدا، والدهرُ ذو غير، * دهرٌ عليك عداً مع الدهر
فأرضُ بجاهلٍ مودةً من * يقبل المِقْسَلَّ ويمسُق المُنثري
وعليك من حلاله وإحدة * في العسر إنا كنت واليسر
لا تحلطنهمُ بغيرهم * ن يحلِطُ العقياضُ بالصفر!

وهو القائل في محمد بن طلحة :

زرتُ امرأةً في بيته مرةً * له حياءٌ وله خير
يكوه أن يُنمِّمَ إخوانه * إن أذى التُّخمةِ محذور
ويستهي أن يُوجروا عنده * بالصوم والصائمُ مأجور
يا ابن أبي شهدة أنت أمرؤ * بصحة الأبدان مسرور

وهو القائل في محمد بن أبي العباس السَّفاح :

أرجوك بعد أبي العباس إذ بآنا * يا أكرم الناس أعرافا وأغصانا
لوحجَّ عودٌ على قوم عَصَارَتِهِ * لمجَّ عودك فينا المسك والبانا

قيل : إن حمادا مضى الى الأهواز ، فأقام هناك مُسْتَتِراً ، وبلغ محمدا خبره فأرسل مولى له الى الأهواز ، فلم يزل يطلبه حتى ظفِر به فقتله غيلةً . وقيل : إنه خرج من الأهواز يريد البصرة ، فمر بشيراز في طريقه ، ففرض بها ، فأضطرَّ الى المقام بسبب عاتته ، فأشتدَّ مرضه فمات هناك ودُفِن على تلَّةٍ . وكان بشارٌ بلغه أن حماداً عليلٌ ، ثم نُعيَ اليه قبل موته ، فقال بشار :

لو عاش حماد لهُونا به * لكانه صار الى النار

فبلغ هذا البيت حماداً قبل أن يموت وهو في السِّيَاقِ ، فقال يرثي عليه :^(١)

نُبئتُ بشاراً نَعَانِي ولد * موتِ برآني الخالقِ الباري
يا ليتني مِتُّ ولم أَهْجُه * نَعَم ولو صِرْتُ الى النار
وأى تَحِيٍّ هو آخرى من أن * يُقال لي يَا سَبَّ^(٢) بِشَار

فلما قتل المهديّ بشاراً بالبَيْطِیْحَةِ اتَّفَقَ أن حُمِلَ الى منزله مَيِّتاً ، فدُفِنَ مع حماد على تلك التَّلَّةِ ، فمزَّها أبو هشام البَاهِلِيُّ الشَّاعر البصري الذي كان يُهاجِي بشاراً ، فوقف على قبريها فقال :

قد تَبِعَ الأعمى قفا عَجْرِدٍ * فأصبعا جارَيْنِ في دار
قالتِ بِقَاعُ الأَرْضِ لا مَرَحِباً * بِقُرْبِ حَمَادٍ وَبِشَار
تَجَاوَرَا بَعْدَ تَنَائِيهِمَا * ما أَبْغَضَ الجارَ الى الجار
صارا جميعا في يَدَيِ مالِكٍ * في النارِ وَالكَافِرُ في النار

٣ - مروان بن أبي حفصة^(١)

« لم يكن مروان متصرفاً في فنون الشعر، ولعله لم يعد منها فناً أو فئتين؛ فلستنا نعرف له غيرَ لا إلا هذا الغزل الذي تعود الشعراء أن يبدؤوا به مدائحهم؛ ولستنا نعرف له هجاءً إلا هذا التحو من الهجاء الذي يضطر اليه الشعراء السياسيون حين يدافعون عن مذهبهم ويهاجمون خصومهم. على أت موقف مروان كان في هذا دقيقاً جداً، فهو لم يكن ينصر بني العباس على بني أمية فيبلغ منهم ما يريد، ويهجوهم في حرية؛ وإنما كان السيف هو الذي أنتصر للعباسيين من بني أمية، وكان العباسيون في حاجة إلى من ينصرهم على العلويين وأتباعهم من بني هاشم، ولم يكن هجاء العلويين يسيراً! كان الدين يأباه في ذلك الوقت، وكانت كرامة الخلافة العباسية نفسها تأباه أيضاً، فالعلويون من بني هاشم وهجأهم هجاءً للعباسيين؛ ومن هنا سلك مروان وأمثاله من الشعراء السياسيون الذين ناضلوا عن حقوق العباسيين مسلكت الدفاع والمناظرة الشريفة البريئة من الشتم والقذف، فكان دفاعهم أبلغ، وكانت مناظراتهم أحسن وقعاً من هجاء أولئك الشتاميين المسرفين في الشتم؛ ثم لا نعرف

(١) هو من الشعراء الموالى أصل جده من سبي اصطرخ، وكان غلاماً اشتراه عثمان بن عفان ووهبه لمروان بن الحكم، وأقام بعدئذ بالتمام، وقد اختلفوا في حقيقة نسبه. شب مروان على كره الشيعة لأنه من موالى بني أمية وقد حارب معهم، وكان شجاعاً مجرباً، فلما نبغ في الشعر قدم بغداد ومدح المهدي ثم الرشيد، وكان يتقرب إليه بهجاء العلويين، وهو من الفحول المقدمين، أول من شهره ونوه به معن بن زائدة الجواد المشهور بقصيدة تونية مدحه بها، مطلعها:

معن بن زائدة الذي زيدت به * شرقاً على شرف بنو شيبان

ولكنه اشتهر على الخصوص بقصيدة لامية مدح بها معن مطلعها:

سو مطريوم اللقاء كأنهم * أسودهم في بطن حفان أتبيل

فأجازه عليها بمال كثير، فكانت كلما زادت معن عطاء زاده مروان مدحا. توفى سنة ١٨١ هـ. وتجذ أخباره في الأغاني (ح ٩ ص ٣٦) وابن حلكان (ح ٢ ص ١٣٠) والشعر والشعراء (ص ٤٨١) ونزارة الأدب (ج ١ ص ٤٤٧) والفهرست لأبى النديم (ص ١٦٠).

(٢) من محوت صديق الدكتور حنين سناذ الآداب العربية بالجامعة المصرية.

لمروان مجونا ولا عبثا، فلم يكن كما قلنا ماجنا ولا غابنا وإنما كان بخيلا، والبخل والعبث شيان لا يتفقان، ومن ضنَّ على نفسه بالثمن وطيبات الطعام لم يستبح لنفسه نحرا ولا ما تستبعه النحر . ثم لا نعرف لمروان فخرا وما تحسب أنه فخر أو مال الى الفخر، فقد كان رجلا عمليا يعنيه أن يظفر بالمكانة والثروة وكان يضمن بوقته وجهده على الفخر الذي لا يفيد . لم يعرض إذن إلا لفتين آتيتين : المدح والرثاء، وهو في المدح أشعر منه في الرثاء وهذا طبعي، فهو راغب حين يمدح، يطلب المال ويحرص على أن يظفر به، فمعقول أن يُجيد وأن يبلغ من الإجادة حظا عظيما؛ أما في الرثاء فهو لا يرغب ولا يطلب مالا وإنما يقى بهد ويشكر صنيعة . ومعقول أن موقفه هذا لا يدفعه الى الإجادة إلا أن يكون حساسا دقيق الشعور راقى النفس، ولم يكن مروان من هذا كد في شيء، وإنما كان كما قلت لك رجلا عمليا يريد المال . على أنت رثاء لمعين ليس بالردىء وكذلك رثاؤه للهدى، وهل نستطيع أن نعدَّ رثاء للهدى رثاء! هو مدح لأنه عزاء للخليفة الجديد، ففيه ذكر للخليفة الراحل، والثناء على وارثه، وفيه المثوبة والعطاء . فهو الى المدح أقرب منه الى الرثاء .

أما مدح مروان فمن آيات المدح العربي، ونحن لا نحفظ منه إلا متفرقات قليلة ولكنها تكفي لنحكم أن مروان كان قد أتقن المدح وبرع فيه، بل نحسب أنه برز في هذا الفن على غيره من المعاصرين، ولكنَّ مدح مروان ينقسم الى قسمين متميزين : أحدهما المدح بالمعنى الشائع المعروف، وهو موجه لمعين بن زائدة، فهو يفتن في وصف معن بالجوهر والكرم والشجاعة والحب، ثم يفتن في مدح بني شيان الذين ينتمى اليهم معن، وهو لا يخرج في مدحه هذا عن سنة الشعراء من قبله، ولكنه جيد المعاني مُتقاهما، حسن الألفاظ صافيا .

وأما القسم الثاني فهو هذا المدح السياسي الذي كان يُنشد الخلفاء من بني العباس، وهو مدح إن شئت ولكنه يمتاز عن المدح المعروف بما فيه من هذا النضال السياسي

الذى كان يحتاج الى مَهارة وِفطنة ودَقَّة وخَفَّة ، والذي كان يضطر صاحبه الى أن يقهر العلويين دون أن يؤذيهم ، والى أن ينصّر العباسيين دون أن يزدري خصومهم ، وقد بلغ مروان من ذلك ما أراد ، فقد أغضب العلويين لانه آذاهم أو هجاهم فيما نعتقد ، بل لأنه كان خصما قويا عنيدا ماهرا في الخصام .

ثم هناك شيان لا بد من الإشارة اليهما ليكمل رأينا في مروان ، ولنستطيع أن نحكم على شعره حكما معلا إن صحّ هذا التعبير :

الأول : أت مروان لم يكن عراقيا ولم يرض الإقامة في العراق ولم يطل عشرة العراقيين من أهل الجُبون والعبّث ، وإنما كان من أهل اليمامة أقام فيها لا يترحها إلا واندأ على أمير أو وزير أو خليفة ، فاذا أنشد قصيدته وظفر بجائزته عاد الى اليمامة وأقام فيها عامه ثم أستأنف الرحلة . ولهذا أثره في شعر مروان ، فهو أقرب الى شعر الجاهليين والإسلاميين منه الى شعر المُحدّثين من شعراء الحضارة العباسية ، تفرّوه فتجد عليه هذه المسحة التي تخلو أو تكاد تخلو من الدُابة والخفّة ، وتمتاز بشيء من الجلال والرصانة ، يُمثّل البادية تمثيلا صحيحا ؛ ولهذا أثره من وجهة أخرى ، فقد رضى علماء اللغة جميعا عن مروان وأحبّوه من هذه الناحية ، وما أشكّ أنا في أنهم كانوا يودّون لو أستطاعوا إثارة على بشار وأبي نؤاس ، لأنه كان أقرب منهما الى الأسلوب البدوي القديم ، ولكن أنّى لهم ذلك ! وقد سلّط الله عليهم لسان بشار وأبي نؤاس فاضطروا الى أن يجابوا هذين الشاعرين ويتملقوهما ، وأجمعوا أو كادوا يُجمعون على تقديم بشار وإثارة على مروان . ومع ذلك فليس الى المقارنة سبيل بين الشاعرين اذا آتخذنا وجهة البحث والنقد ، هذه الوجهة التي كان يعنى بها علماء اللغة وهي وجهة المتانة والرصانة في اللفظ والأسلوب ، لا يُقاس الى مروان في هذا أحد من شعراء العراق ، أما اذا آتخذنا وجهة أخرى للنقد ، اذا آتخذنا اختلاف الفنون التي طرّقها الشاعر ، وقُرب المآخذ ، والدنو من أذهان الناس والقدرة على تمثيل حياتهم ، فليس مروان يقاس الى بشار ولا الى أبي نؤاس بنوع خاص ؛ على أنّ من علماء اللغة من أستطاع أن يكون شجاعا شريفا في فنّه لا يخاف

ولا يهاب فصدق نفسه وصدق الناس، وآثر مروان على غيره من الشعراء المعاصرين، وهذا العالم اللغوي هو ابن الأعرابي الذي ختم الشعر بمروان وأبى أن يدون لأحد من المحدثين بعده، والذي كان ينشد مع الإعجاب الشديد هذه الأبيات الجيدة من شعر مروان، وهي:

بُوَ مَطَرٍ يَوْمَ اللِّقَاءِ كَأَنَّهُمْ * أُسُودٌ لَهَا فِي بَطْنِ خَفَّانٍ أَشْبَلُ
هَمٌّ يَمْنَعُونَ الْجَارِ حَتَّى كَأَمَّا * يَلْجَأُهُمْ بَيْنَ السَّمَائِكَيْنِ مَنَزِلُ
لَهَا مِيمٌ فِي الْإِسْلَامِ سَادُوا وَلَمْ يَكُنْ * كَأَوْهَمُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَوْلُ
هُمُ الْقَوْمُ إِنْ قَالُوا أَصَابُوا وَإِنْ دُعُوا * اجَابُوا وَإِنْ أَعْطُوا أَطَابُوا وَأَجْرَلُوا
وَلَا يَسْتَطِيعُ الْفَاعِلُونَ فَعَالَهُمْ - وَإِنْ أَحْسَنُوا فِي النَّاتِبَاتِ وَأَجْمَلُوا

وكان ابن الأعرابي يقول: لو أن معنأ أعطى مروان كل ما يملك بهذه الأبيات لما

بلغ حقه

الثاني: أن مروان لم يكن سريعاً في الشعر ولا متعجلاً ولا مسترسلاً مع الطبع وإنما كان بطيئاً متهماً. كان يجيد الشعر لأنه كان يجوده. كان يسلك هذه الطريقة التي يزعم الرواة أن زهيراً كان يسلكها في هذه القصائد التي يُسمونها الحَوَلِيَّاتِ، كان يُنفق أشهراً في إنشاء القصيدة وأشهرها في إصلاحها وأشهرها في عرضها حتى إذا استقام له هذا كله أنشد قصيدته لمدوحه خليفة كان أو وزيراً أو أميراً، فليس عجيباً مع هذه الأناة أن يخلو شعره مما يُستنكر وأن يبرأ من الضعف والوحشية معا. ولقد يُحدثنا الرواة بطائفة من أخبار مروان مع اللغويين والشعراء الذين كان يعرض عليهم شعره قبل أن يُنشد الخلقاء. ولست أُشير إلا إلى سيرته مع بشار فلها معناها. كان مروان يعرض القصيدة على بشار ويسأله رأيه فيها فلا يجيبه بشار بأنها جيدة أو بأنها رديئة، بل يُقدر له قيمة القصيدة مالياً، فيقول: سيعطونك عليها كذا وكذا... وقد صدق بشار مرتين فأظهره مروان العجب من ذلك، فقال بشار: ألم أقل لك إني أعلم الغيب! ولم يكن يعلم الغيب،

وإنما كان يفهم مروان ويفهم الخلفاء ويفهم الميول السياسية التي كان من شأنها أن تُجْزِلَ حظَّ مروان من العطاء .

كان مروان متناقضا ولكنه تناقض مفهوم، كان شديد الحرص على الإجابة، فكان يشك في شعره، ويستشير فيه الشعراء والنحاة، ولكنه كان مع ذلك معجبا بنفسه لا يقدم عليها أحدا بعد هؤلاء الشعراء الثلاثة : الأخطل والفرزدق وجرير . وأسمع رأيه فيهم وفي نفسه، فقد عقده شعرا ليثبت كما يقول :

ذَهَبَ الْفَرَزْدُقُ بِالْفَخَّارِ وَإِنَّمَا * حُلُو الْقَرِيضِ وَمِرَّةُ الْحَرِيرِ
وَلَقَدْ هَجَا فَا مَضَّ أَخْطَلُ تَغْلِبِ * وَحَوَى اللَّهُ بِيَانِهِ الْمَشْهُورِ
كُلُّ الثَّلَاثَةِ قَدْ أَجَادَ فِدْحَهُ * وَهَجَاؤُهُ قَدْ سَارَ كُلِّ مَسِيرِ
وَلَقَدْ جَرَيْتُ فُتُّ غَيْرَ مَهْلَلِ * بِجَرَاءِ لَا قَرِيفٍ وَلَا مَبْهُورِ
إِنِّي لَأَنْفَ أَنْ أَحْبَرَ مِدْحَةَ * أبدأ لغير خليفة ووزير
مَا ضَرَّتْني حَسَدُ الثَّامِ وَلَمْ يَزَلْ * ذُو الْفَضْلِ يَحْسُدُهُ ذُووُ التَّقْصِيرِ

أما رأي مروان في النقد فبديع، كان يُنشد الشعر لأمرئ القيس ويقول : هو أشعر الناس، ثم ينشد شعر الأعشى ويقول : هو أشعر الناس، ثم ينشد شعر زهير ويقول : هو أشعر الناس، حتى إذا أنشد لطائفة كثيرة من الشعراء، فرأهم جميعا أشعر الناس، قال ضاحكا : الناس أشعر الناس ! ولست أعرف رأيا كهذا الرأي يمثل الشك في نقد الناقد المعاصرين والسخرية بهذا النقد .

وننتقل من ذلك الوصف الرائع الى ذكر نبذة صالحة من أخباره وأشعاره .

دخل مروان بن أبي حفصة على المهدي بعد وفاة معن، فأنشده مديحا فيه، فقال

له المهدي : ألسنت القائل :

أَقْنَأَ بِالْيَمَامَةِ بَعْدَ مَعْنٍ * مَقَامَا لَا نُزِيدُ بِهِ زَوَالَا
وَقَلْنَا أَيْنَ نَزَحَلُ بَعْدَ مَعْنٍ * وَقَدْ ذَهَبَ النُّوَالُ فَلَا نَوَالَا

قد ذهب النوال فيما زعمت، فلم جئت تطلب نوالنا؟ لاشيء لك عندنا . فلما كان من العام المقبل تطف حتى دخل مع الشعراء، وإنما كانت الشعراء تدخل على الخلفاء كل عام مرة، فمَثَل بين يديه، وأنشد — بعد رابع أو خامس من الشعراء — :

طَرَقْتِكَ زَائِرَةٌ فحَى حَيَالَهَا * بيضاء تُخْلِطُ بِالْجَمَالِ دَلَالَهَا
 قَادَتْ فَوَادِكَ فَاسْتَقَادَ وَمِثْلَهَا * قَادَ الْقُلُوبَ إِلَى الصَّبَا فَأَمَالَهَا
 فَكَأَنَّمَا طَرَقْتَ بِنَفْحَةِ رَوْضَةٍ * سَحَّتْ بِهَا دِيمُ الرِّبْعِ طِلَالَهَا
 بَاتَتْ تَسْأَلُ فِي الْمَنَامِ مُعْرَسًا * بِالْيَدِ أَسْعَثَ لَا يَمِيلُ سَوَالَهَا
 فِي فِتْيَةٍ هَجَعُوا غِرَارًا بَعْدَ مَا * سَمُوا مُرَاعِشَةَ السُّرَى وَمِطَالَهَا
 فَكَأَنَّ حَشْوَهُ شَاهِمٌ هِنْدَةٌ * نَحَلَتْ وَأَغْفَلَتِ الْقِيُونَ صِقَالَهَا
 وَضَعُوا الْخُدُودَ لِدَى سِوَاهُمْ جَنَى * تَشْكُو كَلُومَ صِفَاحِهَا وَكَلَالَهَا
 طَلَبْتُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَوَاصِلَتْ * بَعْدَ السُّرَى بِغَدُوقِهَا أَصَالَهَا
 زَعَتَ إِلَيْكَ صَوَادِيَا فَتَقَاذَفَتْ * تَطْوِي الْفَلَاحَةَ حُرُونَهَا وَرِمَالَهَا
 يَتَبَعْنَ نَاجِيَةً يَهْزُ مِرَاحُهَا * بَعْدَ النُّحُولِ تَلِيلَهَا وَقَدَالَهَا
 هُوَجَاءَ تَدْرِعِ الرُّبَا وَتُسْقِيهَا * شَقَّ الشَّمْسُ إِذَا تُرَاعَ جَلَالَهَا
 تَنْجُو إِذَا دَفَعَ الْقَطِيعُ كَمَا نَجَتْ * خَرَجَاءُ بَادَرَتْ الظَّلَامَ رِثَالَهَا ^(٢) ^(٣) ^(٤)
 كَالْقَوْسِ سَاهِمَةٌ أَنْتِ وَقَد تَرَى * كَالْبُرْجِ تَمَلَأُ رَحْلَهَا وَحِبَالَهَا

ومها

أَحْيَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مُحَمَّدٌ * سُنَنَ النَّبِيِّ حَرَامَهَا وَحَلَالَهَا
 مَلِكٌ تَفَرَّغَ نَبْعَةً مِنْ هَاشِمٍ * مَدَّ إِلَهُ عَلَى الْأَنَامِ ظِلَالَهَا
 جَبَلٌ لِأَمْتِهِ تَلُوذُ بِرُكْنِهِ * رَادَى جِبَالَ عَدُوِّهَا فَأَزَالَهَا

لم يَغشها مما يَخاف عَظِيمَةً * إلا أجال لها الأُمورَ مُجَاهَةً
 حتَّى يُفَرِّجها أغرُّ مَهْدَب * أَلْفَى أباه مُفَرِّجاً أُمثالها
 ثَبَّتْ على زَلَلِ الحِوادثِ راکِبٌ * من صَرَفَهِنَّ لِكُلِّ حالٍ حالها
 كَلِّنا يَدَيكَ جَعَلتَ فَضَلَ نِوَالِها * لِلسَّامِينِ ولِلعَدُوِّ وَبِأَمَّا
 وَقَعتْ مِواقِعها بِعَفْوِكَ أَنْفُسُ * أَذَهَبتْ بَعْدَ مَخافَةٍ أَوْجالها
 وَنَصَبتْ نَفْسَكَ خَيْرَ نَفْسٍ دُونَها * وَجَعَلتْ مالِكَ واقِياً أُموالها
 هَلْ تَعَلَمونَ خَلِيفَةً مِنْ قَبْلِهِ * أَجْرى لِغايَتِهِ التي أَجْرى لَها
 طَلَعَ الدَرُّ راعِناً سافِه * بِالخَيْلِ مُنصَلِباتِ يُجَدِّ نَعالها
 قُودٌ تَرَبِّعُ إلى أَغرِّ لُوجِهِهِ * نُورٌ يُضِيءُ أَمامِها وَخِلالها
 فَصُرَتْ حَمائلُهُ عليه فَفَلَّصَتْ * وَلَقَدْ تَحَفَّظَ قَينُها فَأَاطالها
 حتَّى إِذا وَرَدتْ أَوائلُ خَلِهِ * جِيعانَ بَتِّ على العَدُوِّ رِعالها^(١)
 أَحْمى بِلادَ المُسالمينَ عَلَيهِمُ * وَأَباحَ سَهْلَ بِلادِهِمُ وَجِبالها
 أَدَمَتْ دِوَابِرَ خَيْلِهِ وَشَكيمِها * غاراتِهِمُ وَأَلحَقَتْ أَطالها
 مَ تَبَقَ بَعْدَ مَغارِها وَطِرادِها * إِلا نَحائِزِها^(٢) وإِلا آهَها
 الخَلِيفَةُ نَاطِرِيٌّ وَراءِ * بِيدِ مِبارَكَةٍ شَكَرَتْ نِوَالها
 وَحَسِدتُ حتَّى قِيلَ أَصَبِحَ باغِيا * في المَشى مُتَرَفِّ شَبِيهٍ مُخْتالها
 وَلَقَدْ حَذِوتُ لِمَن أَطاعَ وَمِنَ عَصَى * نَعلا وَرِثتُ عَنِ النَّبِيِّ مِثالها

فَزَحَفَ المَهديُّ مِنْ صَدْرِ مُصَلِّاهِ حتَّى صارَ على البِساطِ إِعجاباً بما سَمِعَ ، ثم قال :
 كم هي ؟ قال : مائة بيت ، فأمر له بمائة ألف درهم ، فكانت أول مائة ألف درهم أُعطيها
 شاعر في أيام بني العباس ، وهكذا فعل معه الرشيد لما أئسده قصيدته التي يقول فيها :

لعمرك أنسى غداة المحصب ، إشارة سلمى بالبنان المخضب
 وقد سدر الحجاج إلا أفلهم ، مصادر شتى موكما بعد موك

(١) الرعال : القطع من الخيل واحدا رعاة . (٢) الحائر : الانسان

قال مروان : دخلت على المهدي في قصر السلام ، فلما سلمت عليه وذلك يعقب
سُخْطه على يعقوب بن داود ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، إن يعقوب رجل رافضى ، وإنه
سمعى أقول في الوراثه :

أنى يكونُ وليس ذاك بكائني * لىنى البناتِ وراثتهُ الأعمامِ
فذلك الذى حملة على عداوتى ، ثم أنشدته :

كانت أمير المؤمنين محمدا * لرأفته بالناس للناس والد
فقال له المهدي : والله ما أعطيك إلا من صلب مالى ، فاعذرنى ، وأمر لى بثلاثين ألف درهم
وكسانى جبة ومطرفا ، وفرض لى على أهل بيته ومواليه ثلاثين ألفا أخرى .

لما قدم معن من اليمن دخل عليه مروان والمجلس غاص بأهله ، فأخذ بعضادتى الباب
وأنشأ يقول :

أرى القلب أسمى بالأوانس مولعا * وإن كان من عهد الصبا قد تمتعا
ويقول فيها :

ولما سرى الهم الغريب قريته * قرى من ازال الشك عنه وأزما
عزمت فعجلت الرحيل ولم أكن * كذى لؤثة لا يطلع الهمم مطالعا
فأمت ركابى أرض معن ولم تزل * الى أرض معن حيثما كان نزعا
نجائب لولا أنها سُخْرت لنا * أبت عزرة من جهلها أن تورعا
كسونا رجال المئس منها غواربا * تدارك فيها التى صيفا ومرىبا
فما بلغت صنعاء حتى تواضعت * ذراها وزال الجهل عنها وأقلعا

الى أوه قال :

وما النيث اذ عم البلاد بصوبه * على الناس من معروف معن بأوسعا
تدارك معن قبة الدين بعدما * خشينا على أوتادها أن تُزعا

(١) انيس : شجر عظيم تخذ منه الرجال . (٢) اللى : الشمع .

أقام على الثغر الخوف وهاشم * تُسَاقِي سِيَمَا بِالْأَسِنَّةِ مُنْتَقَا
مُقامَ امرئٍ يَأْبَى سِوَى الخُطَّةِ التِي * تكون لَدَى غِيبِ الأحاديثِ أُنْعَمَا
وما أَجْمَمَ الأعداءُ عَنْكَ بَقِيَّةً * عَلَيْكَ وَلِيَكُنْ لَمْ يَرَوْا فِيكَ مَطْمَعَا
رَأَوْا مُخْذِرًا قَدْ جَرَّبُوهُ وَعَايَنُوا * لَدَى غَيْبِهِ مِنْهُمْ مَجْرًا وَمَضْرَعَا
وليس بَثَانِيهِ إِذَا شَدَّ أَنْ يَرَى * لَدَى نَحْرِهِ ذُرْقُ الأَسِنَّةِ شُرْعَا
له رَاحَتَانِ الغَيْثُ وَالخُتْفُ فِيهِمَا * أَبِي الله إِلا أَنْ تَضْرَا وَتَنْفَعَا
لقد دَوَّخَ الأعداءُ مَعْنُ فَاصْبَحُوا * وَأَمْنُهُمْ لا يَدْفَعُ الذَّلَّ مَدْفَعَا
نَجِيبُ مَنْاجِيْبٍ وَسَيِّدُ سَادَةٍ * دُرَى المَجْدِ مِنْ قَرَعِي نِزَارٍ تَفْرَعَا
لَبَانَتْ خِصَالُ الخَيْرِ فِيهِ وَأَكَلَتْ * وَمَا كُنْتُ نَحْمَسُ سِنُوهُ وَأَرْبَعَا
لقد أَصْبَحَتْ فِي كُلِّ شَرْقٍ وَمَغْرِبٍ * بِسَيْفِكَ أَعْنَاقُ المُرِيْبِينَ خُضْعَا
وِطِئْتَ خُدُودَ الخَضْرَمِيِّينَ وَطَاءَةً * لَهَا هُدَى رُكْنٍ مِنْهُمْ فَتَضَعُضَعَا
فَأَقْعَوْا عَلَى الأَذْنَابِ إِقْعَاءَ مَعْشِرٍ * يَرُونَ لِرُؤْمِ السَّلْمِ أُنْبَى وَأُودَعَا
فَلَوْ مَدَّتِ الأَيْدِي إِلَى الحَرْبِ كُلِّهَا * لَكَفَّوْا وَمَا مَدَّوْا إِلَى الحَرْبِ أَصْبَعَا

فقال له معن : احتكم، قال : عشرة آلاف درهم، فقال معن : ربحنا عليك تسعين ألفا،
قال : أقلني، قال : لا أقال الله من يُقيلُك .

لما مات المهديّ، وفَدَّتِ العَرَبُ عَلَى موسى الهادي يُهَيِّئُونَهُ بِالْخِلَافَةِ وَيُعَزِّوْنَهُ عَنِ
المهديّ، فَدَخَلَ مروان فَأَخَذَ بَعْضَ دَنَاقِ البَابِ وَقَالَ :

لقد أَصْبَحَتْ تَحْتَالُ فِي كُلِّ بَلَدَةٍ * بِقَبْرِ أميرِ المُؤْمِنِينَ المُقَابِرُ

وَإِذَا لَمْ تُسَكَّنْ نَابِغُهُ فِي مَكَانِهِ * لَمَّا بَرِحَتْ تَبْكِي عَلَيْهِ المُنَابِرُ

مرض عمرو بن مسعدة فدخل عليه مروان وقد أبل من مرضه، فأنشأ يقول :

لك التَّحْيِصُ وَالْأَجْرُ

قال موسى بن يحيى : أوصلنا الى مروان بن أبي حفصة في وقت من الأوقات سبعين ألف درهم ، وجمع اليها مالا حتى تمت مائة ألف وخمسين ألف درهم وأودعها يزيد بن مزيّد ، فبينما نحن عند يحيى بن خالد إذ دخل يزيد بن مزيّد ، وكانت فيه دُعابة ، فقال : يا أبا عليّ ، أودعني مروان خمسين ومائة ألف درهم ، وهو يشتري الخبز من البقال ؛ فغضب يحيى ثم قال : علىّ بمروان ، فأثى به ، فقال له : قد أخبرني أبو خالد بما أودعته من المال وما تتبناه من البقال ، والله لمأيرى من أثر البخل عليك أضرت من الفقر لو كان بك . ويروى أنه قال له : والله للبخل أسوأ عليك أثرا من الفقر لو صرت إليه فلا تبخل . وقال عمر بن شبة قال مروان : ما فرحت بشيء قط فرحي بمائة ألف وهبها لي أمير المؤمنين المهديّ ، فوزنتها فزادت درهما ، فاشتريت به لحما . وقال جهّم بن خلف : أتينا اليمامة فترلنا على مروان بن أبي حفصة فأطعمنا تمرا وأرسل غلامه بفلس وسكرجة ليشتري زيتا ، فلما جاء بالزيت قال لغلامه : خنّني ؛ قال : من فلس ! كيف أخونك ؟ قال : أخذت الفلس لنفسك وأستوهبت الزيت . وقال التوّزيّ : مرّ مروان بن أبي حفصة في بعض سفرائه وهو يريد معنى امرأة من العرب ، فأضافته ؛ فقال : لله علىّ إن وهب لي الأمير مائة ألف أن أهب لك درهما ؛ فأعطاه ستين ألف درهم ، فأعطاه أربعة دوانق . وقال أبو دعامة : أشتري مروان لحما بنصف درهم فلما وضعه في القدر وكاد ينضج داه صديق له ، فردّه على القصاب بنقصان دانق ، فشكاه القصاب وجعل ينادى هذا لحم مروان ، وظنّ أنّه يأنف لذلك ؛ فبلغ الرشيد ذلك فقال : ويحك ! ما هذا ؟ فقال : أكره الإسراف .

دخل مروان على موسى الهادي فأنشده قوله فيه :

تَسَابِهَ يَوْمًا بِأَسِهِ وَنَوَالِهِ * فَمَا أَحَدٌ يَدْرِي لِأَيِّهِمَا الْفَضْلُ

فقال له الهادي : أيما أحب اليك ؟ أنلاثون ألفا معجّلة ، أم مائة ألف تدوّن في الدواوين ؟ فقال له . يا أمير المؤمنين ، أنت تُحسِن ما هو خير من هذا ، ولحكك أُنسيته ، أفأذن لي أن أذكرك ؟ قال : نعم ؛ قال : تُعجّل لي الثلاثين ألفا وتدوّن المائة ألف في الدواوين ، فضحك وقال : بل يُعجّلان جميعا ، فحُمّل اليه المال أجمع .

قال محمد التوفلي : أجتاز مروان برجل من بأهله من أهل الإمامة ، وهو يُنشد قوما كان جالسا اليهم شعرا مدح به مروان بن محمد ، وأنه قُتل قبل أن يلقاه ويُشده إياه ، أوله :

مروانُ يابن محمد أنتَ الذي * زيدتُ به شرفا بنو مروانِ

فأعجبته القصيدة ، فأهمل الباهلي حتى قام من مجلسه ، ثم أتاه في منزله فقال له : إني سمعت قصيدتك وأعجبتني ، ومروان قد مضى ومضى أهله ، وفاتك ما قدرت عنده . أفتبيغي القصيدة حتى أنتحلها ، فإنه خير لك من أن تبقى عليك وأنت فقير؟ قال : نعم ؛ قال : بكم؟ قال : بثلاثمائة درهم ، قال : قد آبتعتها ، فأعطاء الدراهم وحلقه بالطلاق ثلاثا وبالإيمان المُحرَّجة ألا يتحلها أبدا ، ولا ينسبها الى نفسه ولا يُشدها ، وأنصرف بها الى منزله فغير منها أبياتا وزاد فيها وجعلها في معن ، وقال في ذلك البيت :

معنُ بن زائدة الذي زيدتُ به * شرفا على شرف بنو شيانِ

ووفد بها الى معن حتى أثرى وآتسعت حاله ، فكان معن أول من رفع ذكره ونوه به . وله فيه مدائحُ بعد ذلك شريفة ومراثٍ حسنة . قال مروان : كان المنصور قد طلب معن بن زائدة طلبا شديدا وجعل فيه مالا ، فحدثني معن باليمن أنه أصطر لشدة الطلب الى أن قام في الشمس حتى لَوحت وجهه ، وخفف عارِضيه ولحيته ، وليس جُبّة صوف غليظة ، وركب جملا من الجمال الثقالة يمضي الى البادية فيقيم بها ، وكان قد أبلى في حرب يزيد ابن عمر بن هُبيرة بلاء حسنا غاظ المنصور وجَدَّ في طلبه ، قال معن : فلما خرجتُ من باب حرب تبغى أسودُ متقلدا سيفا حتى اذا غبتُ عن الحرس قبض على خَطَامِ جملي فأناخه وقبض علىّ ، فقلت له : مالك؟ قال : أنت طليبة أمير المؤمنين ، قلت : ومن أنا حتى يَطْلُبني أمير المؤمنين؟ قال : معن ابن زائدة ، قلت : يا هذا ، آتق الله ، وأين أنا من معن؟ قال : دع هذا عنك ، فأنا والله أعرفُ بك منك ، فقلت له : فإن كانت القصة كما تقول ، فهذا جوهر حملته معي يبغي بأضعاف ما بذله المنصور لمن جاءه بي ، نخذه ولا تسفك دمي ، قال : هانه ، فأخرجته اليه ، فنظر اليه ساعة وقال : صدقت في قيمته ، ولستُ قابله حتى أسالك

عن شيء ، فإن صدقتني أطلتكتك ، فقلت : قل ، قال : إن الناس قد وصفوك بالحدود فأخبرني ، هل وهبت قط مالك كله؟ قلت : لا ، قال : فنصفه؟ قلت : لا ، قال : فثلثه؟ قلت : لا ، حتى بلغ العشر ، فاستحييت ، فقلت : أظن أني قد فعلت هذا ، فقال : ما أراك فعلته ، أنا والله راجل ورزق من أبي جعفر عشرون درهما وهذا الجوهر قيمته آلاف الدنانير وقد وهبته لك ، ووهبتك لنفسك ولحدوك المأمور عنك بين الناس ، ولتعلم أن في الدنيا أجود منك فلا تعجبك نفسك ، ولتُحقر بعد هذا كل شيء تفعله ولا تتوقف عن مكربة ، ثم رمى بالعقد في حجرى وخطى خطام البعير وأنصرف ، فقلت : يا هذا ، قد والله فضحتني وأسفك دمي أهون على مما فعلت ، فخذ ما دفعته اليك فإنى غني عنه ، فضحك وقال : أردت أن تكذبى في مقامى هذا ، والله لا أخذه ولا آخذ بمعروف ثمنا أبدا ومضى ، فوالله لقد طلبته بعد أن أمنت وبذلت لمن جاءنى به ما شاء ، فما عرفت له خبرا وكان الأرض آبتلته . وكان سبب رضا المنصور عن معن أنه لم يزل مستترا حتى كان يوم اداشمية^(١) ، فلما وثب القوم على المنصور وكادوا يقتلونه ، وثب معن وهو متمم فانتضى سيفه وقاتل فأبلى بلاء حسنا وذبح القوم عنه حتى نجا وهم يحاربونه بعد ؛ ثم جاء والمنصور راكب على بغلة ولجأها بيد الربيع فقال له : تنح فإنى أحق باللجام منك فى هذا الوقت وأعظم فيه غنا ، فقال له المنصور : صدق فادفعه اليه ، فأخذه ولم يزل يقاتل حتى أنكشفت تلك الحال ، فقال له المنصور : من أنت؟ لله أبوك! قال : أنا طليبتك يا أمير المؤمنين معن بن زائدة ؛ قال : قد أمتك الله على نفسك ومالك ومثلك يُصطع ، ثم أخذه معه وخلع عليه وحباه وزيته . ثم دعا به يوما فقال له : لى قد أملتك لأمر فكيف تكون فيه؟ قال : كما يجب أمير المؤمنين ؛ قال : قد وليتك اليمن فابسط السيف فيهم حتى ينقض حلف ربيعة واليمن ، وأبلغ من ذلك ما يجب أمير المؤمنين ؛ فولاه اليمن وتوجه إليها فبسط السيف فيهم حتى

(١) مدينة بناها السامك بالكوفة وذلك أنه لما ولي الخلافة نزل بقصر أبى هبيرة واستتم بناءه وجعله مدينة وسماها الهاشمية ، فكان الناس ينسبونها إلى ابن هبيرة على العادة ، فقال : ما أرى ذكر ابن هبيرة يسقط عنها ، فرفضها وبني حياها مدينة سماها الهاشمية ومرها

أسرف . قال مروان : وقدِمَ معن بعقب ذلك فدخل على المنصور ، فقال له بعد كلام طويل :
قد بلغ أمير المؤمنين عنك شيء لولا مكانك عنده ورأيه فيك لغضب عليك ؛ قال :
وما ذلك يا أمير المؤمنين ؟ قال : إعطاؤك مروان بن أبي حفصة ألف دينار لقوله فيك :

معنُ بنُ زائدة الذي زيدتُ به * شرفاً على شرف بنو شيبانِ
إن عُدَّ أيامَ الفِعالِ فإِنما * يوماه يومٌ نَدَى ويومٌ طِعانِ

فقال : والله يا أمير المؤمنين ما أعطيتُهُ ما بَلَغَكَ لهذا الشعر ، وإنما أعطيتُهُ لقوله :

ما زِلتَ يومَ الهاشميَّةِ مُعلِنًا * بالسيفِ دونَ خليفةِ الرحمنِ
فمَنعتَ حوزتَهُ وكنْتَ وقاءَهُ * مِن وقعِ كلِّ مهتدٍ وسِنانِ

فأستحيا المنصور وقال : إنما أعطيتُهُ ما أعطيتُهُ لهذا القول ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ؛
والله لولا مخافة الشُّعْبة لأمكتُهُ من مفاتيح بيوت الأموال وأبجته إياها ؛ فقال له المنصور :
لله دَرَكٌ من أعرابيٍّ ! ما أهونُ عليك ما يعزُّ على الرجال وأهل الحزم !

وأختم هذه الترجمة بموت مروان يَقْصُهُ قاتلُهُ . روى صاحب الأغاني عن رجل
يقال له صالح بن عطية الأصبجيم أنه قال :

لما قال مروان :

أني يكونُ وليس ذاكُ بكائينِ * لبني البناتِ وراثَةُ الأعمامِ

لَزِمَتْهُ وعاهدت اللهُ أن اغتاله فأقتله أيّ وقتٍ أمكنتني ، وما زلتُ الأَلاطِفَه وأبرَّهُ ، وأكتب
أشعاره حتى خُصِّصَتْ به فأنسَ بي جداء ، وعرفتُ ذلك بنو حفصة جميعاً فأنسوا بي ،
ولم أزل أطلب غيرةً حتى مرض من حمى أصابته ، فلم أزل أظهر له الجزع عليه والألامه
والألاطفه حتى خلا لي البيت يوماً ، فوثبتُ عليه وأخذتُ بحلقه فما فارقه حتى مات ، فخرجتُ
وتركتُهُ نخرج إليه أهله بعد ساعة فوجدوه ميتاً وأرتفعت الصَّيْحَةُ ، فحضرتُ وتباكيتُ
وأظهرتُ الجزع عليه حتى دُفِنَ وما قِطنُ لما فعلتُ أحد ولا آتهمني به .

٤ - أبو دَلَامَةَ

كان أوَّلَ ما حَفِظَ من شعره وأَسْنِيتِ الجِوَاثِرِ لَهُ به ، قَصِيدَةً مَدَحَ بِهَا أَبَا جَعْفَرِ المَنْصُورِ
وَذَكَرَ قَتْلَهُ أَبَا مُسْلِمٍ يَقُولُ فِيهَا :

أَبَا مُسْلِمٍ خَوْفَنِي القَتْلَ فَانْتَحَى * عَلَيْكَ بِمَا خَوْفَنِي الأَسَدَ الوَرْدُ

أَبَا مُسْلِمٍ مَا غَيْرَ اللَّهِ نِعْمَةً * عَلَى عِبْدِهِ حَتَّى يُغَيِّرَهَا العَبْدُ

أَنشَدَهَا المَنْصُورُ فِي مَحْفَلٍ مِنَ النَّاسِ فَقَالَ لَهُ : أَحْتَكِمْ ، فَطَلَبَ عَشْرَةَ آلَافِ دِرْهَمٍ ،
فَأَمَرَ لَهُ بِهَا ، فَلَمَّا خَلَا قَالَ لَهُ : إِيهَ ، أَمَّا وَاللَّهِ لَوْ تَعَدَّيْتَهَا لَقَتَلْتِكَ .

أَمَرَ أَبُو جَعْفَرٍ أَصْحَابَهُ بلبس السواد وقلائس طوالٍ تُدَعَمُ بَعِيدَانِ مِنْ دَاخِلِهَا ، وَأَنْ يُعَلِّقُوا
السُّيُوفَ فِي المَنَاطِقِ وَيَكْتُبُوا عَلَى ظُهُورِهِمْ : ﴿ قَسِيكَفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ ﴾ فَقَالَ
أَبُو دَلَامَةَ :

وَتَمَّا تُرَجِّحِي مِنَ إِمَامٍ زِيَادَةً * بِخَادِ بَطُولٍ زَادَهُ فِي القَلَانِسِ

تَرَاهَا عَلَى هَامِ الرِّجَالِ كَأَنَّهَا * دِنَانُ يَهُودٍ جَلَّتْ بِالْبِرَانِسِ

وَدَخَلَ إِلَى المَنْصُورِ مَرَّةً فَأَنشَدَهُ :

إِنَّ الخَلِيطَ أَجَدَّ البَيْنِ فَانْتَجَعُوا * وَرَوَّدوكَ خَبَالًا ، بِئْسَمَا صَنَعُوا

وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ كَادَتْ لِيَبْنِيهِمْ * يَوْمَ الفِرَاقِ حَصَاةُ القَلْبِ تَنْصَدِعُ

عَجِبْتُ مِنْ صِبْيَتِي يَوْمًا وَأُمَّهِمْ * أُمَّ الدَّلَامَةَ لَمَّا هَاجَهَا الجَمَزَعُ

(١) هو زندي بن الجون ، وسمي أبا دلامة نسبة إلى ابه دلامة ، وهو كوفي المنشأ أسود اللون مولى لبني أسد ،
وكان أبوه عبدا لرجل منهم فأعتقه . أدرك أبو دلامة أواخر الدولة الأموية ، ولكنه نبغ في الدولة العباسية ، واتفق
إلى أبي العباس السفاح والمصور والمهدى ، وكانوا يقصدونه ويصلونه ويستطيون محاسنه ونوادره ، وفيه دعاية
وطرف ، لا يخلو حديثه من نكتة أو ملحة ، وكان مع ذلك معدودا في جملة المهتمين بالزندقة وفساد الدين ،
وكان يشرب الخمر ولا يحضر صلاة ولا فريضة . توفى سنة ١٦١ هـ . وأخباره في الأغاني (ج ٩ ص ١٢٠) وابن
حلكان طبع بلاق (ج ١ ص ٢٦٧) والشعر والشعراء (ص ٤٨٧) والدميري (ج ١ ص ١٣٢) والمستطرف
(ح ٢ ص ٤٣) . (٢) في الشعر والشعراء : "أبا مجرم" . (٣) في الطبري ج ٢ ص ٣٧١ طبع أوربا
"فواد الامام المصطفى" .

لا بارك الله فيها من مُنْهَبَةٍ * هَبَّتْ تَلُومَ عِيَالِي بَعْدَ مَا جَمَعُوا
 وَنَحَرَ . مُشْتَبِهُوا الْأَلْوَانَ أَوْجُهَنَا * سُودٌ قَبَاحٌ وَفِي أَسْمَانِنَا شَسَعٌ
 إِذَا تَشَكَّتْ إِلَى الْجُوعِ قَلْتُ لَهَا * مَا هَاجَ جُوعَكَ إِلَّا الرَّيُّ وَالشَّعْبُ
 لَا وَالَّذِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قَضَى * لَكَ الْخِلَافَةَ فِي أَسْبَابِهَا الرَّعْبُ
 مَا زِلْتُ أُخْلِصُهَا كَسْبِي فَتَأْكُلُهُ * دُونِي وَدُونَ عِيَالِي ثُمَّ تَضْطَجِعُ
 شَوْهَاءُ مَشْنَأَةٌ فِي بَطْنِهَا يَجْرُ^(١) * وَفِي الْمَفَاصِلِ مِنْ أَوْصَالِهَا فَدَعُ
 ذَكَرْتُهَا بِكِتَابِ اللَّهِ حُرْمَتَنَا * وَلَمْ تَكُنْ بِكِتَابِ اللَّهِ تَنْفِيعُ
 فَأَخْرَجْتُمْ^(٢) ثُمَّ قَالَتْ وَهِيَ مُغْضِبَةٌ * أَنْتَ تَتْلُو كِتَابَ اللَّهِ يَا أَدُّ
 أَخْرَجْتُ لَتَبِيعَ لَنَا مَالًا وَمَرْزَعَةً * كَمَا لِحَيْرَانِنَا مَالٌ وَمُرْدَرَعُ
 وَأَخْدَعُ خَلِيفَتِنَا عَنَّا بِمَسْأَلَةٍ * إِنَّ الْخَلِيفَةَ لِلسُّؤَالِ يَنْخَدِعُ
 فضحك أبو جعفر وكتب له بضعة .

كان واقفا بين يدي السَّفَاحِ فقال له : سلتني حاجتك، قال : كلب أنصيده به، قال :
 أعطوه إياه، قال : ودابة أنصيده عليها، قال : أعطوه دابة، قال : وغلام يصيد بالكلب
 ويقوده، قال : أعطوه غلاما، قال : وجارية تُصَلِّحُ لَنَا الصَّيْدَ وَتُطْعِمُنَا مِنْهُ، قال :
 أعطوه جارية، قال : هؤلاء يا أمير المؤمنين عبيدك، فلا بد لهم من دارٍ يسكنونها، قال :
 أعطوهم دارًا تجمعهم، قال : فإن لم تكن لهم ضيعة فمن أين يعيشون؟ قال : قد أعطيتك مائة
 جَرِيْبِ عامرة، ومائة جَرِيْبِ غامرة، قال : وما الغامرة؟ قال ما لا نبات فيه، فقال : قد
 أقطعتك يا أمير المؤمنين خمسمائة ألف جَرِيْبِ عامرة من فيافي بني أسد، فضحك وقال :
 اجعلوها عامرة، قال : فأذن لي أن أُقْبِلَ يَدَكَ، قال : أما هذه فدعها، قال : والله ما منعت
 عيالي شيئا أقل ضررا عليهم منها، قال الجاحظ : فأنظر الى حدقه بالمسألة ولطفه فيها، ابتداء

(١) البجر : خروج البرة ونشوؤها وعلط أصلها . والقدح : أعوواح في الـ

(٢) أي غضبت .

الكف والقدم الى إنسيا .

بكلب فسَهَّل القصة به وجعل يأتي بما يليه على ترتيب وفكاهة حتى نال ما لو سأله بديهة
لما وصل إليه .

قال علي بن سَلَام : كنت أسقى أبا دلامة والسَّنْدِيّ إذ خرجت بنتُ لأبي دلامة ،
فقال فيها أبو دلامة :

فما وَلَدَتِكَ مريمٌ أم عيسى * ولا رَبَّكَ لِقمانَ الحكيم
أجز يا أبا عطاء ، فقال :

ولكنّ قد تَضُمُّكَ أم سوءٍ * الى لَبَّاتِها وأبِّ لئيم
فضحك لذلك ، ثم عدا أبو دلامة الى المنصور فألفاه في الرحبة يصلح فيها شيئاً يريد ، فأخبره
بقصة ابنته وأنشده البيتين ، ثم أندفع فأنشده بعدهما :

لو كان يَقَعْدُ فوقَ الشمس من كَرِيم * قومٌ لَقيلٍ أقعدوا يا آل عباس
ثم آرتقوا في شعاع الشمس كلُّهم * الى السماء فاتم أطهرُ الناس
وقدموا القائم المنصور رأسهم * فالعين والأنف والأذنان في الراس

فاستحسنها وقال : بأى شيء تحبُّ أن أُعِينَكَ على قُبْحِ ابنتِكَ هذه ؟ فأخرج خريطة كان
قد خاطها من الليل ، فقال : تملأ لي هذه دراهم ، فمأثت فوسعت أربعة آلاف درهم .
لما توفى أبو العباس السفاح دخل أبو دلامة على المنصور والناس عنده يعزونه ، فأنشأ
أبو دلامة يقول :

أسميت بالأنبار يا ابن محمد * لم تستطع عن عُقرها تحويلا
ويلى عليك وويل أهل كلهم * ويلاً وعولاً في الحياة طويلا
فلتبكين لك النساء بعبرة * وليد كين لك الرجال عويلا
مات الندى إذ مِتَّ يا ابن محمد * فجعلته لك في التراب عديلا
إني سألت الناس بعدك كلهم * فوجدتُ أسمح من سألتُ بخيلا
أليشقوقني أخرتُ بعدك للتي * تدعُ العزير من الرجال ذليلا
فلا حلفنَّ يمين حقي برة * بالله ما أعطيتُ بعدك سُولا

فأبكى الناس قوله ، فغضب المنصور غضبا شديدا وقال : لئن سمعتك تُنشد هذه القصيدة لأقطعن لسانك ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن أبا العباس أمير المؤمنين كان لي مكرما ، وهو الذي جاء بي من البدو كما جاء الله بإخوة يوسف فقل كما قال يوسف لإخوته : ﴿ لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ فسرى عن المنصور وقال : قد أفلتاك يا أبا دلامة ، فسل حاجتك ، فقال : يا أمير المؤمنين ، قد كان أبو العباس أمر لي بعشرة آلاف درهم وخمسين ثوبا وهو مريض ، ولم أقبضها . فقال المنصور : ومن يعرف هذا ؟ فقال : هؤلاء ، وأشار الى جماعة ممن حَضَرَ ، فوثب سليمان بن خالد وأبو الجهم فقالا : صدق أبو دلامة نحن نعلم ذلك ، فقال المنصور لأبي أيوب الخازن وهو مغيظ : ياسليان ، اِدْفَعْهُ اليه وسيِّره الى هذا الطاغية « يعنى عبد الله بن علي » وقد كان خرج بناحية الشام وأظهر الخلاف ، فوثب أبو دلامة فقال : يا أمير المؤمنين إني أعيدك بالله أن أخرج معهم ، فوالله اني لمشتوم ، فقال المنصور : امض ، فإن يُنمِي يَغْلِبْ شؤمك فأخرج ، فقال : والله يا أمير المؤمنين ما أحب لك أن تجزب ذلك متى على مثل هذا العسكر ، فإني لا أدري أيهما يَغْلِبْ ، أيمنك أم شؤمي ، إلا أني بنفسى أوثق وأعرف وأطول تجرِبَةً ، قال : دعني من هذا فإلك من الخروج بد ، فقال : إني أصدقك الآن ، شهدت والله تسعة عشر عسكرا كلها هزمت وكنت سببها ، فإن شئت الآن على بصيرة أن يكون عسكرك العشرين فافعل ، فاستغرب أبو جعفر ضحكا وأمره أن يتخلف مع عيسى بن موسى بالكوفة .

قال أبو دلامة : أتى بي المنصور أو المهدي وأنا سكران ، خلف ليُخرجني في بعث حرب ، فأخرجني مع رَوْح بن حاتم المهلبى لقتال الشراة ، فلما التقى الجمعان قلت لِرَوْح : أما والله لو أتتحتي فرسك ومعى سلاحك لأثرت في عدوك اليوم أثرا ترتضيه ، فضحك وقال : والله العظيم لأدفعن ذلك إليك ولأخذتك بالوفاء بشرطك ، ونزل عن فرسه ونزع سلاحه ودفعهما الى ودعا بغيرهما فاستبدل بهما ، فلما حصل ذلك في يدي وزالت عنى حلاوة الطمع قلت له : أيها الأمير هذا مقام العائذ بك ، وقد قلت أبيانا فأسمعها ، قال : هات ، فأنشدته :

إني أستجرتك أن أقدم في الوعى * لِنَطْأَعِنِ وَتَسْأُزِلِ وَحِرَابِ (١)
 فَهَيْبِ السُّيُوفِ رَأَيْتَهَا مَشْهُورَةً * فَتَرَكْتُهَا وَمَضَيْتُ فِي الْهُسْرَابِ
 ماذا تقول لما يبجيء وما يرى * من واردات الموت في الشباب .

فقال : دَعَّ عنك هذا وسَتَّعلم ، وبرز رجل من الخوارج يدعو للبارزة : فقال : اخرج
 اليه يا أبا دلامة ، فقلت : أَنَسُدُكَ اللهُ أَيُّهَا الأَمِيرُ فِي دَعْيِي ، قال : والله لَتَخْرُجَنَّ ، فقلت :
 أَيُّهَا الأَمِيرُ فَإِنَّهُ أَوَّلُ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ الآخِرَةِ وَآخِرُ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ الدُّنْيَا وَأَنَا وَاللهُ جَائِعٌ مَا شَبِعَتْ
 مِنِّي جَارِحَةٌ مِنَ الْجُوعِ ، فَمُرُّ لِي بِشَيْءٍ آكَلَهُ ثُمَّ أَخْرُجْ ، فَأَسْرُ لِي بِرَغِيفَيْنِ وَدَجَاجَةٍ ، فَأَخَذْتُ
 ذَلِكَ وَبَرَزْتُ عَنِ الصَّفِّ ، فَلَمَّا رَأَى الشَّارِي أَقْبَلَ نَحْوِي وَعَلَيْهِ فَرَوْقٌ أَصَابَهُ الْمَطَرُ فَأَبْتَلُ
 وَأَصَابَتْهُ الشَّمْسُ فَأَنْفَعَلَ وَعَيْنَاهُ تَقِدَّانِ ، فَأَسْرَعُ إِلَيَّ ، فقلت له : عَلَى رِسْلِكَ يَا هَذَا ، كَمَا أَتَى ،
 فوقف ، فقلت : أَتَقْتُلُ مِنْ لَا يَقَاتِلُكَ ؟ قال : لا ، قلت : أَتَقْتُلُ رَجُلًا عَلَى دِينِكَ ؟ قال :
 لا ، قلت : أَقَسْتَحَلَّ ذَلِكَ قَبْلَ أَنْ تَدْعُوَ مَنْ تَقَاتِلُهُ إِلَى دِينِكَ ؟ قال : لا ، فاذْهَبْ عَنِّي
 إِلَى لَعْنَةِ اللهِ ، قلت : لَا أَفْعَلُ أَوْ تَسْمَعُ مِنِّي ، قال : قُلْ ، قلت : هَلْ كَانَتْ بَيْنَنَا قَطُّ عَدَاوَةٌ
 أَوْ تَرَةً أَوْ تَعْرِفَنِي بِحَالٍ مُخْفِيكَ عَلَيَّ أَوْ تَعْلَمُ بِنَبِيِّ وَبَيْنَ أَهْلِكَ وَتَرًا ، قال : لا والله ، قلت :
 وَلَا أَنَا وَاللهُ أَضْمِرُكَ إِلَّا جَمِيلَ الرَّأْيِ ، وَإِنِّي لِأَهْوَاكَ وَأَتَعَلَّ مَذْهَبِكَ ، وَأَدِينُ دِينَكَ ، وَأُرِيدُ
 السُّوءَ لِمَنْ أَرَادَهُ لَكَ ، قال : يَا هَذَا جَزَاكَ اللهُ خَيْرًا فَانصِرْفْ ، قلت : إِنْ مَعِيَ زَادًا أَحَبُّ
 أَنْ آكُلَهُ مَعَكَ وَأَحَبُّ مَوَالِكِنَا لَتَنَا بَكَدِ المَوَدَّةِ بَيْنَنَا وَيَرَى أَهْلُ العَسْكَرِ هَوَانَهُمْ عَلَيْنَا ، قال :
 فَأَفْعَلُ ، فَتَقَدَّمَتْ إِلَيْهِ حَتَّى اخْتَلَفَتْ أَعْنَاقُ دَوَابِّنَا ، وَجَمَعْنَا أَرْجُلَنَا عَلَى مَعَارِفِهَا وَالنَّاسُ قَدْ غَلِبُوا
 صَحِيحًا ، فَلَمَّا اسْتَوْفِينَا وَدَعْنِي ، ثُمَّ قُلْتُ لَهُ : إِنْ هَذَا الجَاهِلُ إِنْ أَقَمَّتْ عَلَى طَلْبِ المَبَارَزَةِ
 نَدَبْنِي إِلَيْكَ فَتُسَبِّحُنِي وَتَتَعَبُ نَفْسَكَ ، فَإِنْ رَأَيْتَ أَلَّا تَبْرُزَ اليَوْمَ فَأَفْعَلُ ، قال : قَدْ فَعَلْتُ ،
 ثُمَّ أَنْصَرَفْتُ وَأَنْصَرَفْتُ فَقُلْتُ لِرُوحٍ : أَمَا أَنَا فَقَدْ كَفَيْتُكَ قِرْنِي ، فَقُلْ لغيري أَنْ يَكْفِيكَ قِرْنَهُ
 كَمَا كَفَيْتُكَ ، فَأَمَسَكَ ، وَخَرَجَ آخِرٌ يَدْعُو إِلَى البِرَازِ ، فَقَالَ لِي : ائْجِرْ إِلَيْهِ ، فقلت :

(٢) هكذا بالأصل ولعلها : انفعَل ، من

(١) الحراب بمعنى المحاربة وفي الأغاني « ضراب » .

فولم انفعلت يده : تعبضت .

إِنِّي أَعُوذُ بِرُوحِ أَنْ يَقْدَمَنِي * إِلَى الْبِرَازِ فَتَخْزِي بِي بِنُوْأَسَدٍ
 إِنَّ الْبِرَازَ إِلَى الْأَقْوَانِ أَعْلَمُهُ * مَا يَفْتَرِقُ بَيْنَ الرُّوحِ وَالْجَسَدِ
 قَدْ حَالَفْتُكَ الْمَنَابِإَ إِنْ صَمَدَتْ لَهَا * وَأَصْبَحْتَ لِجَمِيعِ الْخَلْقِ بِالرَّصَدِ
 إِنْ الْمُهَلَّبُ حَبُّ الْمَوْتِ أَوْ رَتَّكَ * وَمَا وِرِثْتُ أَخْتِيَارَ الْمَوْتِ عَنْ أَحَدٍ
 لَوْ أَنَّ لِي مُهْجَةٌ أُخْرَى بَلَدْتُ بِهَا * لَكُنَّهَا خُلِقْتُ فَرَدًا فَلَمْ أَجِدْ
 فضحك وأعفاني .

قال أبو أيوب المورياني لأبي جعفر وكان يشنأ أبا دلامة : إن أبا دلامة مُعْتَكِفٌ عَلَى
 الْخَمْرِ ، فَمَا يَخْضُرُ صَلَاةً وَلَا مَسْجِدًا وَقَدْ أَفْسَدَ فِتْيَانَ الْعَسْكَرِ ، فَلَوْ أَمْرَتْهُ بِالصَّلَاةِ مَعَكَ لَأَجْرَتْ
 فِيهِ وَفِي غَيْرِهِ مِنْ فِتْيَانِ عَسْكَرِكَ بِقَطْعِهِ عَنْهُمْ ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ أَبُو دَلَامَةَ قَالَ لَهُ : مَا هَذَا الْمُجُونُ
 الَّذِي يَبْلُغُنِي عَنْكَ ؟ فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا أَنَا وَالْمُجُونُ وَقَدْ شَارَفْتُ بَابَ قَبْرِي ! ، قَالَ :
 دَعْنِي مِنْ أَسْتِكَانَتِكَ وَتَضَرَّعِكَ ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَقْوَتَكَ الظُّهْرَ وَالْعَصْرَ فِي مَسْجِدِي ، فَلَمَّا فَاتَتْكَ
 لِأَحْسَنِّ أَدَبِكَ وَلِأَطِيلَتِ حَبْسِكَ ، فَوَقَعَ فِي شَرِّ وِلَازِمِ الْمَسْجِدِ أَيَّامًا ، ثُمَّ كَتَبَ قِصَّةً وَدَفَعَهَا
 إِلَى الْمَهْدِيِّ فَأَوْصَلَهَا إِلَى أَبِيهِ وَكَانَ فِيهَا :

أَلَمْ تَعْلَمَا أَنَّ الْخَلِيفَةَ لَزْنِي ^(١) * بِمَسْجِدِهِ وَالْقَصْرِ ، مَالِي وَاللِّقْصَرِ
 أَصْلِي بِهِ الْأُولَى جَمِيعًا وَعَصْرَهَا * فَوَيْلٌ مِنَ الْأُولَى وَوَيْلٌ مِنَ الْعَصْرِ
 أَصْلِيهِمَا بِالْكَرْهِ فِي غَيْرِ مَسْجِدِي * فَمَا لِي فِي الْأُولَى وَلَا الْعَصْرِ مِنْ أَجْرٍ
 لَقَدْ كَانَ فِي قَوْمِي مَسَاجِدُ جَمَّةً * وَلَمْ يَنْشَرْحْ يَوْمًا لَغِشْيَانَهَا صَدْرِي
 يَكْلَفُنْ مِنْ بَعْدِ مَا شَبِثَتْ خُطَّةً * يُحِطُّ بِهَا عَنِّي التَّقْيِيلُ مِنَ الْوِزْرِ
 يَا ضَرَّهَ وَاللَّهِ يَغْفِرُ ذَنْبِي * آتِ ذُنُوبَ الْعَالَمِينَ عَلَى ظَهْرِي

فقال : صدق ، ما يضرني ذلك ، والله لا يصلني هذا أبدا ، فدعوه يعمل ما يشاء .

(١) لزه بالشئ : أزره إياه .

وقال الهيثم في خبره : قد أعفيناك من هذا الحال ، ولكن على ألا تدع القيام معنا في ليالي شهر رمضان فقد أظلم ، فقال : أفعل ، قال : فإنك إن تأخرت لشرب الخمر علمت ذلك والله لئن فعلت لأحدثك ، فقال أبو دلامة : البلية في شهر أخف منها في طول الدهر ، سمعاً وطاعة ، فلما حضر شهر رمضان لزم المسجد ، وكان المهدي يبعث إليه في كل ليلة حرسياً يحمي به ، فشق ذلك عليه وفزع إلى الخيزران وإلى أبي عبيد الله وكل من يلوذ بالمهدي ليشفعوا له في الإعفاء من القيام ، فلم يجهم ، فقال له أبو عبيد الله : الدال على الخير كفاعله ، فكيف شكرك ؟ قال : أتم شكر ، قال : عليك بربطة فإنه لا يخالها ، قال : صدقت ، ثم رفع اليها رقعة يقول فيها :

أبلغا ربطة أتي * كنت عبدا لأبيها
 غضى يرحمه الله * له وأوصى بي إليها
 وأراها نسيتني * مثل نسيان أخيها
 جاء شهر الصوم يمشي * مشية ما أشتها
 قائداً إلى ليلة القدر * ركاتي أبتغيها
 تنطح القبلة شهرا * جهتي لا تأتليها
 ولقد عشت زمانا * في فيافي وجيها
 في ليالي من شتاء * كنت شيخاً أصطليها
 قاعداً أوقد ناراً * لضباب أشتويها
 وصبوح وغبوق * في علاب أحسها
 ما أبالي ليلة القدر * ر ولا نسمة فيها
 فأطلي لي فرجاً من * مها وأجرى لك فيها

ولما قرأت الرقعة صحكت وأرسلت إليه : أصطبر حتى تمضي ليلة القدر ، فكتب إليها : إن لم أسألك أن تكلميه في إعفائي عما قابلا ، وإذا مصت ليلة القدر فقد فني الشهر ، وكتب تحتها أبياتا :

خَافِي إِلَهِكَ فِي نَفْسٍ قَدْ أَحْتَضِرْت * قَامَتْ قِيَامَتُهَا بَيْنَ الْمُصَلِّينَا
 مَا لَيْسَلَةَ الْقَدْرَ مِنْ هَمِّي فَأَطْلِبَهَا * إِنِّي أَخَافُ الْمَنَايَا قَبْلَ عَشْرِينَا
 يَا لَيْلَةَ الْقَدْرِ قَدْ كَسَرْتَ أَرْجَلَنَا * يَا لَيْلَةَ الْقَدْرِ حَقًّا مَا تُؤْمِنُنَا
 لَا بَارِكَ اللَّهُ فِي خَيْرِ أَوْقَاتِهِ * فِي لَيْلَةٍ بَعْدَ مَا قَمْنَا ثَلَاثِينَا

فلما قرأت الرقعة ضحكك ودخلت الى المهدي فشفعت له اليه وأنشدته الأبيات ،
 فضحك حتى استأق ودعا به ورية معه في الجملة ، فدخل ، فأخرج رأسه اليه وقال : قد
 شفعتنا رية فيك وأمرنا لك بسبعة آلاف درهم ، فقال : أما شفاعة سيدي في حتى أعفيتني
 فأعفاها الله من النار ، وأما السبعة الآلاف فما أعجبتني ما فعلته إما أن نتمها بثلاثة آلاف
 فتصير عشرة أو ثقتصني منها ألفين فتصير خمسة آلاف ، فإني لا أحسن حساب السبعة ،
 فقال : قد جعلتها خمسة ، فقال : أعيدك بالله أن تختار أدنى الحالين وأنت أنت ، فعبث
 به المهدي ساعة ، ثم تكلمت فيه رية ، فأنتمها له عشرة آلاف درهم .

شرب أبو دلامة في بعض الحانات فسكر وأنصرف وهو ميل ، فلقية العسس ، فأخذوه
 وقالوا له : من أنت ، وما دينك ؟ فقال :

دِينِي عَلَى دِينِ بَنِي الْعَبَّاسِ * مَا خُتِمَ الطَّيْنُ عَلَى الْقَرْطَاسِ
 إِنِّي أَصْطَحَبْتُ أَرْبَعًا بِالْكَاسِ * فَقَدْ أَدَارَ شُرْبُهَا بِرَاسِي
 * فَهَلْ بَمَا قُلْتُ لَكُمْ مِنْ بَاسِ *

فأخذوه ومضوا وعرقوا ثيابه وسأجه ، وأني به أبو جعفر ، وكان يوتى بكل من أخذه
 العسس ، فحبسه مع الدجاج في بيت ، فلما أفاق جعل ينادى غلامه مرة وجاريته مرة ،
 فلم يجبه أحد ، وبينا هو في ذلك إذ سمع صوت الدجاج ورفاء الديوك ، فلما أكر قال له
 السجان : ما شأنك ؟ قال : وبيك من أنت ؟ وأبن أنا ؟ قال : في الحبس وأنا فلان

السَّجَانُ ، قال : من حَبَسَنِي ؟ قال : أميرُ المؤمنين ، قال : ومن حَرَّقَ طَيْلَسَانِي ؟ قال :
 الحَرَّسُ ، فطلب منه أن يَأْتِيَهُ بدَوَاةٍ وقرطاس ، ففعل ، فكتب الى أبي جعفر :
 أمير المؤمنين فدتك نفسى * علامَ حَبَسْتَنِي وَحَرَّقْتَ سَاجِي
 أمن صفراءَ صافيةِ المزاج * كأنَّ شُماعها لَهَبُ السَّراج
 وقد طِيخَتْ بنا ر الله حتى * لقد صارت من النُّطْفِ النَّضاج
 تَهَشُّ لها القلوبُ وتستهيها * اذا برزت تَرَقُّقُ في الرَّجَاج
 أقاد الى السجون بغير جُرم * كأني بعضُ عمَّالِ الحَرَاج
 ولو معهم حُبست لكان سهلاً * ولكنِّي حُبست مع الدَّجاج

فدعا به وقال : أين حُبست يا أبا دلامة؟ قال : مع الدجاج ، قال : فما كنت تصنع؟
 قال : أفوق معهن حتى أصبحتُ ، فضحك وخطى سبيله وأمر له بجائزة ، فلما خرج قال له
 الربيع : إنه شرب الخمر يا أمير المؤمنين ، أما سمعت قوله : وقد طِيخَتْ بنا ر الله ، يعنى
 الشمس؟ فأمر برده ، ثم قال : يا خبيث ، شَرِبْتَ الخمر؟ قال : لا ، قال : أفلم تقل : طِيخَتْ
 مس ؟ قال : لا والله ما عَنَيْتَ إلا نار الله الموقدة التي تَطْلِعُ على فؤاد
 الربيع ، فضحك وقال : خذها يا ربيع ولا تُعاود .

صام الناس فى سنة شديدة الحر على عهد المهدي ، وكان أبو دلامة يَتَجَزَّزُ جائزة أمر
 له المهديُّ بها ، فكتب اليه أبو دلامة رقعة يشكو فيها أذى الحرِّ والصَّوم ، وهى :

أَدْعوك بِالرَّحِمِ التي قد جَمَعْتُ * فى القرب بين قَرِيننا والأبعد
 إِلا سَمِعْتَ وَأَنْتَ أَكْرَمُ من مَشَى * من مُنْشِدٍ يَرْجُو جَزَاءَ المُنْشَدِ
 جاء الصَّيَّامُ فَصُمُّنُهُ متعبدا * أَرْجُو رَجَاءَ الصَّائِمِ المتعبدِ
 وَلَقِيْتُ من أمر الصَّيَّامِ وَحرَّ * أمرين قَيْسًا بالعذابِ المُؤْصَدِ
 وسجَّدتُ حتى جَبَّهتى مشجُوجَةً * مما يَنَّا طَحْنى الحِصَا فى المسجدِ
 فأمُنُّن بتسريحى بمَطْلُك بالذى * أسْلَفْتَنِيهِ من البلاءِ المُرْصَدِ

فلما قرأ المهديُّ رُفَعته غضب وقال : آى قرابة بينى وبينك ؟ قال : رحم آدمَ وحواءَ ،
أَنسَيْتَهُما يا أمير المؤمنين ! فضحك وقال : لا والله ما نَسَيْتُهُما ، وأمر بتعجيل ما أجاز به
وزاد فيه ، وأنشده أيضا في ذم الصوم :

هَلْ فِي البِلادِ لِرِزْقِ اللهِ مُفْتَرِشٌ * أم لافى جِلْدِهِ من خُشْنَةِ بَرَشِ^(١)
أُصْحَى الصِيَامِ مُنِيخًا وَسَطَ عَرَصَتِنَا * ليت الصيام بأرض دونها جُرُشُ
إن صمتُ أوجعنى بطنى وأقلقنى * بين الجوائح مَسُّ الجوع والعطش
وإن خرجت بلبيل نحو مسجدهم * أضرتنى بصر قد خانهُ العَمَشُ

دخل أبو دلامة على سعيد بن دَعْلَج مولى بنى تميم فقال :

إذا جئتَ الأميرَ فقل سلامٌ * عليك ورحمةُ الله الرحيم
وأما بعد ذلك فلى غريمٌ * من الأعراب قُبْح من غريم
غريم لازمٌ بفناء بيتى * لزوم الكلب أصحاب الرقيم
له مائة على ونِصفُ أخرى * ونِصفُ النِّصفِ فى صكِّ قديم
دراهم ما انتفعتُ بها ولكن * وصلتُ بها شيوخ بنى تميم
أَتَوْنِي بالعشيرة يسألونى * ولم أكُ فى العشيرة باللئيم

فأمر له بمائتين وخمسة وسبعين درهما وقال : ما أساء من أنصفَ ، وقد كافأناك عن
قومك وزدتك مائة .

دخل أبو دلامة على المهديِّ فأنشده قصيدته فى بغلته المشهورة :

أتانى ، بغلةً يَسْتام منى ، * عَرِيْقٌ فى الخَسارة والضلال
فقال تبيعها قلت أرتبطها . * بُمُحْكَمٍ إن بيعى غيرُ غال
فأقبل ضاحكا نحوى سرورا * وقال أراك سَمَحًا ذا جمال
هلم إلى يخلو بى خداعا * وما يدرى الشقّ لمن يُخالى

فقلتُ بأربعين ، فقال أحسنُ * إلى فإن مثلك ذو سجال
فأتركُ خمسةً منها لعلمي * بما فيه يصيرُ من الخبال

فقال المهدي : لقد أفلتَ من بلاءٍ عظيم ، قال : والله يا أمير المؤمنين لقد مكثت شهرا
أتوقع صاحبها أن يردّها ، ثم أتسدّه :

فأبدلتني بها يا ربَّ طرِّقا * يكون جمالَ مرَّكبه جمالا

فقال لصاحب دوابه : خيره من الإصطبل بين مركبين ، قال : يا أمير المؤمنين إن كان
الاختيارُ لي وقعتُ في شرٍّ من البغلة ، ولكن مره أن يختار لي ، فاختر له .

خاصم رجل أبا دلامة في داره فارتفعا الى عافية القاضي ، فأنشأ أبو دلامة يقول :

لقد خاصمتني دُهاةُ الرجال * وخاصمتها سنةٌ وافية
فما أدحضُ الله لي حجةً * ولا خيبَ الله لي قافية
ومن خفت من جورهِ في القضاء * فلست أخافك يا عافية

فقال له عافية : والله لأشكوتك الى أمير المؤمنين ، ولأعلمته أنك هجوتني ، قال : إذا
يعزبك ، قال : ولمه ؟ قال : لأنك لا تعرف المدح من الهجاء ، فبلغ ذلك المنصور فضحك
وأمر لأبي دلامة بجائزة .

دخل أبو دلامة على المهدي وعنده إسماعيل بن محمد وعيسى بن موسى والعباس
ابن محمد ومحمد بن محمد بن إبراهيم الإمام وجماعة من بني هاشم فقال له : أنا اعطى الله عهدا
أئن لم تهجَّ واحدا من في البيت لأقطعن لسانك ، فنظر اليه القوم ، فكلمنا نظر الى واحد منهم
غمزه بأن عليه رضاه . قال أبو دلامة : فعلمت أني قد وقعت وأنها عزيمة من عزماته لا بد
منها ؛ فلم أر أحدا أحقَّ بالهجاء مني ، ولا أدعى الى السلامة من هجاء نفسي ؛ فقلت :

ألا أبلغُ لديك أبا دلامه * فليس من الكرام ولا كرامه
إذا لبس العمامة كان قسردا * ويخزبرا إذا نزع العمامه

جَمَعَت دَمَامَةً وَجَمَعَت لُؤْمًا * كَذَاكَ اللُّؤْمُ تَتَّبِعُهُ الدَّمَامَةُ
 فَإِنْ تَكِ قَدْ أَصَبْتَ نَعِيمَ دُنْيَا * فَلَا تَفْرَحْ قَقْدَ دَنْتِ الْقِيَامَةِ
 فَضَحِكَ الْقَوْمُ وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَجَازُهُ .

خرج المهديّ وعلّيّ بن سليمان الى الصيد، فسَنَحَ لهما قَطِيعَ مِنَ الطَّيِّاءِ، فَأَرْسَلَتِ
 الْكِلَابَ وَأَجْرِيَتِ الْخَيْلَ، فَرَمَى الْمَهْدِيُّ ظَبِيًّا بِسَهْمٍ فَصْرَعَهُ، وَرَمَى عَلِيُّ بْنُ سُلَيْمَانَ، فَأَصَابَ
 بَعْضَ الْكِلَابِ فَقَتَلَهُ، فَقَالَ أَبُو دِلَامَةَ :

قَدْ رَمَى الْمَهْدِيُّ ظَبِيًّا * شَكَّ بِالسَّهْمِ فَوَادَهُ
 وَعَلِيُّ بْنُ سُلَيْمَانَ * نَ رَمَى كَلْبًا فَصَادَهُ
 فَهَنِيئًا لَهَا كَلٌّ * لَأَمْرِي يَأْكُلُ زَادَهُ

فضحك المهديّ حتى كاد يسقط عن سرجه وقال : صدق والله أبو دلامَةَ، وأمر له بجائزة
 سَنِيَّةٍ، فَلَقَّبَ عَلِيُّ بْنُ سُلَيْمَانَ صَائِدَ الْكَلْبِ، وَعَلَّقَ بِهِ .

أنشد أبو دلامَةَ المنصورَ يوماً :

هَاتِيكَ وَالذِّي عَجُوزٌ هِمَّةٌ ^(١) * مِثْلَ الْبَالِيَةِ دِرْعُهَا فِي الْمَشْجَبِ ^(٢)
 مَهْزُولَةُ الْخَيْلِينَ مِنْ يَرَاهَا يُقَلُّ * أَبْصَرْتُ غُولًا أَوْ خَيْالَ الْقَطْرِبِ ^(٣)
 مَا إِنْ تَرَكْتَ لَهَا وَلَا لِابْنِ لَهَا * مَا لَا يُؤَمِّلُ غَيْرَ بَكْرٍ أَجْرِبِ
 وَدَجَائِحًا نَحْسًا يَرْحَنُ الْيَهْمُ * لَمَّا يَبْضُنَ وَغَيْرَ عَنَزٍ مَغْرِبِ ^(٤)
 كَتَبُوا إِلَى صَحِيفَةِ مَطْبُوعَةٍ * جَعَلُوا عَلَيْهَا طِينَةً كَالْعَقْرِبِ
 فَعَلِمْتُ أَنَّ الشَّرَّ عِنْدَ فِكَا كَيْهَا * فَفَكَّكُمُهَا عَنْ مِثْلِ رِيحِ الْجَوْرِبِ
 وَإِذَا شَبِيهِه بِالْأَفَاعِي رُقُشَتْ * يُودِدُنِي بِتَمَامِظٍ وَتَشَوِّبِ
 يَشْكُونَ أَنْ الْجُوعَ أَهْلَكَ بَعْضَهُمْ * لَزَبًا فَوَيْلَ لَكَ فِي عِيَالِ لُزْبِ

(١) همة : هزيمة . (٢) المشجب : حشبات موزعة منصوبة توضع عليها الثياب وتنشر .

(٣) القطرب : ذكر الغيلان . (٤) المغرب : الأبيض من كل شيء .

لا يسألونك غيرَ طَلِّ سَحَابِيَةٍ * تَغْشَاهُمْ مِنْ سَيْلِكَ الْمُتَحَلِّبِ
يا باذِلَ الخَيْرَاتِ يَا بَنَ بَدْوِهَا * وَأَبْنَ الكِرَامِ وَكُلَّ قَرِيمٍ مُنْجِبِ
أَتَمُّ بَنُو العَبَاسِ يُعَلِّمُ أَنْكُمْ * قَدِمَا فَوَارِسُ كُلِّ يَوْمٍ أَشْهَبِ
أَحْلَاسِ خَيْلِ اللَّهِ وَهِيَ مُغِيرَةٌ * يَخْرُجْنَ مِنْ خَلَلِ العُبَارِ لِأَكْهَبِ

فأمر له بدار يسكنها وكسوة ودراهم، وكانت الدار قريبة من قصره، فأمر أن تزداد في قصره بعد ذلك لحاجة دعته إليها، فدخل عليه أبو دلامة فأنشده قوله :

يَا بَنَ عَمِّ النَّبِيِّ دَعْوَةَ شَيْخِ * قَدْ دَنَا هَذَا دَارِهِ وَدَمَارُهُ
فَهُوَ كَالْمَاخِضِ الَّتِي أَعْتَادَهَا الطَّلْدُ * قُتِّقَتْ وَمَا يَقِرُّ قَرَارُهُ
إِنْ تُحْزِرُ عُسْرَةً بِكَفَيْكَ يَوْمًا * فَبِكَفَيْكَ عُسْرُهُ وَيَسَارُهُ
أَوْ تَدْعُهُ فَلِلْبَوَارِ وَأَنْتَى * وَلِمَاذَا وَأَنْتِ حَتَّى بَوَارُهُ
هَلْ يَخَافُ المَلَاكُ شَاعِرَ قَوْمٍ * قَدِمْتُ فِي مَدِيحِهِمْ أَشْعَارُهُ
لَكُمْ الأَرْضُ كُلُّهَا فَاعْبِرُوا * شَيْخَكُمْ مَا أَحْتَوَى عَلَيْهِ جِدَارُهُ
فَكَأَنَّ قَدْ مَضَى وَخَلَّفَ فِيكُمْ * مَا أَعْرَبْتُمْ وَأَقْفَرْتُمْ مِنْهُ دَارُهُ

فاستعبر المنصور وأمر بتعويضه دارا خيرا منها ووصله .

دخل على المهديّ يوما وعنده مُحْرِزٌ ومُقاتِلٌ ابْنَا دُوَالٍ يعاتبانه على تقريبه أبا دلامة

ويعيبانه عنده فقال :

أَلَا أَيُّهَا المَهْدِيُّ هَلْ أَنْتَ مُحْرِي * وَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَفْعَلْ فَهَلْ أَنْتَ سَائِلِي
أَلَمْ تَرْحَمْ اللّٰئِيْنَ مِنْ لِحِيَّتَيْهِمَا * وَكَلَّتَاهُمَا فِي طَوْلِهَا غَيْرَ طَائِلِ
وَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَفْعَلْ فَهَلْ أَنْتَ مُكْرِمِي * بِجَلْقِهِمَا مِنْ مُحْرِيٍّ وَمُقَاتِلِ
فَإِنْ يَأْذَنُ المَهْدِيُّ لِي فِيهِمَا أَقُلُّ * مَقَالًا كَوَقْعِ السَيْفِ بَيْنَ المَقَاتِلِ
وَإِلَّا تَدْعُنِي وَالمَهْمُومُ تَنْوِبُنِي * وَقَلْبِي مِنَ العَلِجَيْنِ جَمُّ البَلَابِلِ

(١) يقال : فلان من أحلاس الخليل ، أي من راضتها وساستها والملازمين ظهورها .

فقال : أوأخذك منهما عشرة آلاف درهم يَفْدِيَانِ بهما أعراضهما منك ، قال :
ذلك الى أمير المؤمنين ، فأخذها له منهما وأمسك عنهما .

دخل على أم عبيدة حاضنة موسى وهارون ، فدفع اليها رُقعة قد كتبها الى الخَيْرَانِ فيها :

أبلغني سيّدتي بألّد * بهِ يا أمّ عبيده
أنها أرشدها اللد * له وإن كانت رشيدته
وعدتني قبل أن تخد * مرج للرج وليده
فتأنيت وارسلد * ست بعشرين قصيده
كلّما أَخْلَقَنَ أخلفد * ست لهاخرى جديده
ليس في بيتي لتميه * سد فراشي من قعيدته
غيرُ عَجْفَاءَ عَجْوِزٍ * ساقها مثل القديده
وجهها أقبح من حو * ست طرى في عصيده
ما حياةً مع أنثى * مثل عرسى بسعيدته

فلما قرئت عليها الأبيات ضحكّت وأستعادتها منه لقوله : «حوت طرى في عصيدة»

وجعلت تضحك ووهبت له جارية .

دخل يوما على المهديّ فحادثه ساعةً وهو يضحك وقال له : هل بقي أحد من أهل لم
يصلك ؟ قال : إن أمتني أخبرتك وإن أعفيتني فهو أحبُّ إليّ ، قال : بل تُخبرني وأنت
آمن ، قال : كلهم قد وصلني إلا حاتم بنى العباس ، قال : ومن هو ؟ قال : عمك العباس
ابن محمد ، فالتفت الى خادم على رأسه وقال : جأ عنقه ، فلما دنا منه صاح به أبودلامة :
نبح يا عبد السوء لا تُنحِتْ مولاك وتُكثِّه عهده وأمانه ، فضحك المهديّ وأمر الخادم
فَنَحَى عنه ، ثم قال لأبي دلّامة : ويلك ! والله عمي أبجّل الناس ، فقال أبودلامة : بل
هو أشنئى الناس ، فقال له المهديّ : والله لو مُتّ ما أعطاك شيئاً ، قال : فإن أبا أتمته

فأجازني ؟ قال : لك بكل درهم تأخذه منه ثلاثة دراهم ، فانصرف أبو دلامة فخر للعباس قصيدة ، ثم غدا بها عليه وأنشده :

فَفَ بِالْدِيَارِ وَأَيُّ الدَّهْرِ لَمْ تَقِفِ * عَلَى الْمَنَازِلِ بَيْنَ الظُّهْرِ وَالنَّجْفِ
 وَمَا وَقُوفِكَ فِي أَطْلَالِ مَثْرَلَةٍ * لَوْلَا الَّذِي اسْتَدْرَجَتْ مِنْ قَلْبِكَ الْكَئِيفِ
 إِنْ كُنْتَ أَصْبَحْتَ مَشْغُوفًا بِسَاكِنِهَا * فَلَا وَرَبِّكَ لَا تُشْفِيكَ مِنْ شَعْفِ
 دَعُ ذَا وَقُلْ فِي الَّذِي قَدْ فَازَ مِنْ مُضَرِّ * بِالْمَكْرُمَاتِ وَعِزٌّ غَيْرُ مُقْتَرَفِ
 هَذِي رِسَالَةٌ شَيْخٍ مِنْ بَنِي أَسَدٍ * يُهْدِي السَّلَامَ إِلَى الْعَبَّاسِ فِي الصُّحُفِ
 تَحُطُّهَا مِنْ جَوَارِي الْمَصْرِ كَاتِبَةٌ * قَدْ طَالَمَا ضَرَبْتُ فِي اللِّامِ وَالْأَلْفِ
 وَطَالَمَا اخْتَلَفْتُ صَيْفًا وَمِثَابَةً * إِلَى مُعَلِّمِهَا بِاللُّوْحِ وَالْكَئِيفِ ^(١)
 حَتَّى إِذَا نَهَدَ التَّدْيَانِ وَأَمْتَلَا * مِنْهَا وَخِيفَتْ عَلَى الْإِسْرَافِ وَالْقَرْفِ
 صَدَّ نِينٍ مَا تَرَى أَحَدًا * كَمَا يَصُونُ تِجَارَ دُرَّةِ الصَّدْفِ
 فِينَا الشَّيْخَ يَهُوَى نَحْوَ مَجْلِسِهِ * مُبَادِرًا لِمَلَاةِ الصَّبِيحِ بِالسَّدْفِ ^(٢)
 حَانَتْ لَهُ لِحَّةٌ مِنْهَا فَأَبْصَرَهَا * مُطَلَّةً بَيْنَ سِجْفَيْهَا مِنَ الْغُرْفِ
 نَفَرَ وَاللَّهِ مَا يَدْرِي غَدَاتِيذِ * أَخْرَمُنْ حِسْفًا أَمْ عَيْرِ
 وَجَاءَهُ النَّاسُ أَفْوَاجًا بِمَائِهِمْ * لِيَغْسِلُوا الرَّجْلَ الْمَغْشِيَّ بِالنُّطْفِ
 وَوَسَّوْهُوا بِقُرْآنٍ فِي مَسَامِعِهِ * نَخْفَاهُ الْجَنُّ وَالْإِنْسَانُ لَمْ يَخْفِ
 شَيْئًا وَلَكِنَّهُ مِنْ حَبِّ جَارِيَةٍ * أَمْسَى وَأَصْبَحَ مَوْقُوفًا عَلَى التَّلْفِ
 قَالُوا لَكَ الْوَيْلُ مَا أَبْصَرْتَ قَاتِ لَهُمْ * تَطَلَّمْتُ مِنْ أَعَالَى الْقَصْرِ ذِي الشُّرْفِ
 قَتَلْتُ أَيُّكُمْ وَاللَّهِ يَا جُورَهُ * يُعِينُ قُوَّتَهُ فِيهَا عَلَى الضَّعْفِ
 فِقَامَ شَيْخِ بَيْتِي مِنْ رِجَالِهِمْ * قَدْ طَالَمَا خَدَعَ الْأَقْوَامَ بِالْحَلْفِ
 فَابْتَاعَهَا لِي بِأَنْفِي دِرْهِيمٍ فَأَنِي * بِهَا إِلَى فَالِقَاهَا عَلَى كَيْفِي

(١) الكئيف : عظم عريض يكون في أصل كتف الحيوان كانوا يكدون فيه لقلعة القراطيس .

(٢) السدف : الضوء واقبال الصبح .

فبين ذلك كذا إذ جاء صاحبها * ينبغي الدراهم بالميزان ذي الكف
 وذكر حق على زئد وصاحبه * والحق في طرف والطين في طرف
 وبين ذلك شهود لا يضرهم * أكنت معترفاً أم غير معترف
 فإن يكن منك شيء فهو حقهم * أو لا فإنى مندفع الى التفت

فضحك العباس وقال : ويحك ! أصادق أنت ؟ قال : نعم والله ، قال : يا غلام أدفع
 إليه ألفي درهم ثمنها ، فأخذها ثم دخل على المهدي فأخبره القصة وما أحتال له ، فأمر له
 المهدي بستة آلاف درهم ، وقال له المهدي : كيف لا يضرهم ذلك ؟ قال : لأني مُعَدِم
 لاشيء عندي .

دخل على إسحاق الأزرق يعوده ، وكان إسحاق قد مرض مرضاً شديداً ثم تعافى منه
 وأفاق ، فكان من ذلك ضعيفاً وعند إسحاق طبيب يصف له أدوية تقوى بدنه ، فقال
 أبو دلامة للطبيب : أتصف هذه الأدوية لرجل أضعفه المرض ؟ ما أردت والله إلا قتله ،
 ثم ألفت الى إسحاق فقال : اسمع أيها الأمير ، قال : هات ما عندك يا أبا دلامة ،
 فأنشأ يقول :

نَحَّ عَنْكَ الطَّيِّبَ وَأَسْمَعَ لِنَعْقِي * إِنِّي نَاصِحٌ مِنَ النَّصَاحِ
 ذُو تِجَارِيْبٍ قَدْ تَقَلَّبْتُ فِي الصَّحَرِ * لَمَّةٌ دَهْرًا وَفِي السَّعَاءِ أُمْنَاحُ
 غَادِ هَذَا الْكِبَابَ كُلَّ صَبَاحٍ .. مِنْ مَتُونِ الْغَيْبَةِ النَّسَّاجِ
 فَإِذَا مَا عَطِشْتَ فَاشْرَبْ ثَلَاثًا .. مِنْ عَنِقِ فِي الشَّمِّ كَأَشْفَاحِ
 ثُمَّ عِنْدَ الْمَسَاءِ فَاعْكُفْ عَلَى ذَا * وَعَلَى ذَا بِأَعْظَمِ الْإِسْتِغَاثِ
 فَتُقَوِّى ذَا الضَّعْفِ مِنْكَ وَتَقْوِي * عَنِ لَيْلِ أَوْجِ هَذِي الصَّحَاثِ

فضحك إسحاق وعُوداه وأمر لأبي دلامة بنسائة درهم ، وكان الطبيب نصرانياً
 فقال : أعوذ بالله من شركك بإسكتل ، يريد يا رجل ، وقال الطبيب : أقبل مني أصادحك الله

ولا تسألني عن شيء قدامه، فقال أبو دلامة : أما وقد أخذتُ أجرة صَفَّقتي وقضيت الحق في نُصْح صديق فانتعت له الآن أنت ما أحببت .

دخل على المهديّ وبين يديه سامة الوصيف واقفا، فقال : إني أهديت اليك يا أمير المؤمنين مَهْرًا ليس لأحد مثله ، فان رأيتَ أن تُسَرِّفني بقبوله ، فأمر بإدخاله اليه ، فخرج وأدخل اليه دابته التي كانت تحته ، فاذا برَدُونُ مُحَطَّمٌ أُعْجِفُ هَرِمٌ ، فقال له المهديّ : أىّ شيء هذا؟ ألم تزعم أنه مُهْرٌ ؟ قال له : أو ليس هذا سامة الوصيف بين يديك قائمًا ، تسميه الوصيف وله ثمانون سنة ، وهو عندك وصيف ؟ فاذا كان سامة وصيفا فهذا مُهْرٌ ، فجعل سامةً يَسْتَمُه والمهديّ يضحك ، ثم قال المهديّ لسامة : ويلك ! إن لهذه منه أخوات ، وإن أتى بها في حَفِيفٍ فَضَحَكَ ، فقال أبو دلامة : والله لأفضحنّه يا أمير المؤمنين ، فليس من مَواليك أحد إلا وقد وصلني غيره ، فاني ما شربت له الماء قطُّ ، قال : فقد حكمت عليه أن يشتري نفسه منك بألف درهم حتى يتخلص من يدك ، قال : قد فعلت على ألا يعاود ، فقال له : ما ترى ؟ قال : أفعل ، فلولا أنّي ما أخذت منه شيئًا قطُّ ما فعلت معه مثل هذه ، فحضى سامة فحملها اليه .

(١)
أبان بن عبد الحميد اللاحق

ذكرنا في المجلد الأول أن أبان كان صديقاً للبرامكة متصلًا بهم أشدَّ اتصال ، يستشيرونه ويعتمدون عليه في تدبير أمورهم ، جدها وهزلهما ، صعبها وهينها . وكانوا قد اتخذوه أديبهم الرسمي ، وبالغوا في ذلك حتى جعلوا إليه امتحان الشعراء وتقدير ما يستحقون من الجوائز والصلوات . فغضب الشعراء لذلك ، وكان أشدهم غضبا أبو نواس الذي كان يكره البرامكة كرها شديدا ، وكانت بينه وبين أبان مهاجاة ذكرها صاحب الأغاني .

وكان أبان صديقا للمعدل بن غيلان ، وكانا مع صداقتهما يتعابثان بالهزاء ، فيهجو المعدل بالكفر وينسبه إلى الشؤم . ويهجو أبان وينسبه إلى الفسَاء الذي تُهَجَّى به عبد القيس وبالقصْر ، وكان المعدل قصيرا . فسعى في الإصلاح بينهما أبو عيينة المهلبى ، فقال له أخوه عبد الله وهو أسن منه : يا أحمى إن في هذين شرًّا كثيرا ولا بد من أن يُخرجاه ، فدعهما ليكون شرهما بينهما وإلا فزقاه على الناس .

ومن قوله يهجو أبا النضير :

إذا قامت بوايك * وقد هتكن أستارك
أُيُنِّينَ على قبرٍ * لك أم يلعن أحجارك
وما تترك في الدنيا * إذا زرتَ غدا نارك
ترى في سقر المثوى * وإبليسَ غدا جارك
بلى تترك بايك * ودنياك وأوتارك
ونحسًا من بنات اللد * مل قد أليسن أطارك
تعالى الله ما أقبح * حج إذ وليت أديارك

(١) تجد ترجمته في الجزء الأول من هذا الكتاب ص ٤٢٩ وقد ذكرناه هنا لمسببة ذكر ما عثرنا عليه من منظومته لكتاب كلية ودمة . وقد أضفنا هنا ما لم تذكره في ترجمته هناك .

خرج أبان من البصرة طالبا للاتصال بالبرامكة ، وكان الفضل بن يحيى غائبا فقصده ، فأقام ببابه مدة مديدة لا يصل إليه ، فتوسل الى من وصل له شعرا اليه ؛ وقال له :

يا عزيزَ النَّدى ويا جوهَرَ الجوى * هير من آل هاشمٍ بالبِطاحِ
 إن ظننى ، وليس يخلف ظننى * بك فى حاجتى سبيلَ النَّجاحِ
 إن من دونها لمُصمَّتْ بابٍ * أنت من دون قُفله مِفْتَاحِ
 تاقَت النفسُ يا خليلَ السَّماحِ * نحو بحر النَّدى مجارى الرياحِ
 ثم فكَّرتُ كيف لى وأستخرتُ اللهَ * عند الإساءة والإصباحِ
 وأمتدحتُ الأميرَ أصلحه اللهُ * بشعرٍ مُشهر الأوضاحِ

فقال : هات مديحك ؛ فأعطاه شعرا فى هذا الوزن وقافيته ، ترى فيه أن الرجل مُعجَب بنفسه ، مدل بعلمه وأدبه ، تياه لا حد لتيه وغروره :

أنا من بغية الأمير وكنز * من كنوز الأمير ذو أربابِ
 كاتبٌ حاسبٌ خطيبٌ أديبٌ * ناصحٌ زائرٌ على النُّصاحِ
 شاعرٌ مقلِّقٌ أخف من الريد * شة مما يكون عند الجناحِ

وهى طويالة ذكرناها فى المجلد الأول .

وكان أبان شديد الحرص على المال يضحى فى سبيله بأشياء كثيرة ، منها العقيدة والرأى . وكان يحسد مروان بن أبى حفصة لمكانه من الرشيد ولظفره بالصلات الضخمة والجوائز السنية ؛ فتسد آتتهى الأمر بنى العباس مع مروان بن أبى حفصة الى أن كانوا يمنحونه بالبيت ألف درهم ، فغاظ ذلك أبانَ وأراد أن يصيب من أموال الرشيد ما كان يصيب مروان ، فعاتب أبان البرامكة على تركهم إيصاله للرشيد وإيصال مديحه اليه ؛ فقالوا له : ما تريد من ذلك ؟ فقال : أريد أن أحظى منه بمثل ما يحظى به مروان بن أبى حفصة ، فقالوا : إن ذلك مذهبنا على ههنا . آل أبى طالبٍ وذمهم ، به يحظى وعليه يُعطى ، فاسلكه حتى نفعل ؛ قال : لا أستحل ذلك ؛ قالوا : فما تصنع ، لا يجيىء طلب الدنيا إلا بما لا يحل ؛ فقال أبان :

تَسَدَّتْ بِحَقِّ اللَّهِ مَنْ كَانَ مُسْلِمًا * أَعْمُ بِمَا قَدِ قُتِلَتْهُ الْعَجَمُ وَالْعَرَبُ
 أَعْمُ رَسُولِ اللَّهِ أَقْرَبُ زُلْفَةً * لَدَيْهِ أُمُّ ابْنِ الْعَمِّ فِي رُتْبَةِ النَّسَبِ
 وَأَيُّهُمَا أَوْلَى بِهِ وَبِعَهْدِهِ * وَمَنْ ذَا لَهُ حَقُّ الْوَرَاثَةِ بِمَا وَجَبَ
 فَإِنْ كَانَ عَبَّاسٌ أَحَقُّ بِتِلْكَكُمْ * وَكَانَ عَلَى بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى سَبَبِ
 فَأَبْنَاءُ عَبَّاسٍ هُمْ يَرِثُونَهُ * كَمَا الْعَمُّ لِابْنِ الْعَمِّ فِي الْإِرْثِ قَدْ حَجَبَ
 وهي طويلة .

فقال الفضل : ما يردُّ على أمير المؤمنين اليومَ شيءٌ أعجَبُ من أبياتك . فركبَ أنشدَها
 الرشيدَ ، فأمرَ لأبانَ بعشرين ألفَ درهم . ثم اتَّصلَ مدحُه للرشيد بعد ذلك وخصَّ به .
 وكان أبانُ هجاءَ قبيحَ اللسان ، وكان مع هذا شريراً قاسياً يؤثرُ الشرَّ ويمجدُ فيه لئدَّة .
 وقد روى له أبو الفرج قصةً تُمثِّلُ نصيبه من القسوة وحبَّ الشرِّ . كما أنها تعطينا صورة
 من شعره ومن الحياة في عصره . قالوا : كان يُقيمُ بالقرب من أبان رجلٌ تَقَفِيٌّ يقال له : محمد
 ابن خالد ، وكان عدواً لأبان ، فتزوجَ محمدٌ هذا تَقَفِيَّةً معروفةً هي عمارة بنت عبد الوهاب ،
 وكانت عمارة غنيَّة موفورة الثروة ، فاغتازَ أبان لهذا الزواج ، وقال هذه القصيدة التي
 بلغت عمارة فأفسدت زواجها :

لَمَّا رَأَتْ الْبِزَّ وَالشَّارَةَ * وَالْفَرَسَ قَدْ ضَاقَتْ بِهِ الْحَارَةَ
 وَاللُّوزَ وَآءَ مَهْمَى بِهِ * مِنْ فَوْقِ ذِي الدَّارِ وَذِي الدَّارَةَ
 وَأَحْضَرُوا الْمُلهِيْنَ لَمْ يَتْرَكُوا * طَبْلًا وَلَا صَاحِبَ ذِمَّةِ
 قُلْتُ : لِمَاذَا قِيلَ : أُعْجُوبَةٌ * عَمَارَةَ
 مَاذَا رَأَتْ فِيهِ وَمَاذَا رَجَتْ * وَهِيَ مِنَ النَّسْوَانِ مُخْتَارَةَ
 أَسَدٌ كَالسُّفُودِ نُسَمَى لَدَى الْ * نُورِ بِلِ مَحْرَاكُ قِيَارَةَ
 على اولادٍ : عصفه : طيارة

وأهله في الأرض من خوفه * إن أقرطوا في الأكل سيّارة
ويحك فترى واعصى ذا به * فهذه أختك فرّارة
إذا غفا بالليل فاستيقظي * ثم أطفري إنك طفّارة^(١)
فصعدت نائلة سلّما * تخاف أن تصعده الفارة
"سرور" غرّتها فلا أفلحت * فإنها الخناء غرّارة
لونت ما أبعدت من ريقها * إن لها نفثة سحرارة

فلما بلغت هذه القصيدة عمارة هربت، فخرم من جهتها مالا عظيما. والثلاثة الأبيات
الأخيرة التي أولها * فصعدت نائلة سلّما * زادها في القصيدة بعد أن هربت .

جلس أبان ليلة في قوم فلّبّ أبا عبيدة فقال : يقدر في الأنساب ولا نسب له . فبلغ
ذلك أبا عبيدة فقال في مجلسه : لقد أغفل السلطان كل شيء حين أغفل أخذ الجزية
من أنان اللاحق ، وهو وأهله يهود، وهذه منازلهم فيها أسفار التوراة وليس فيها
مصحف ، وأوضح الدلالة على يهوديتهم أن أكثرهم يدعي حفظ التوراة ولا يحفظ
من القرآن ما يصلّى به . فبلغ ذلك أبان فقال :

لا تميم عن صديق حديثا * وأستعد من تسرر النمام
وأخفّض الصوت إن نطقت بليل * وألفت بالنهار قبل الكلام

قال عيسى بن اسماعيل : كذا في مجلس أبي زيد الأنصاري فذكروا أبان بن عبد الحميد،
فقالوا : كان كافرا ، فغضب أبو زيد وقال : كان جاري فما فقدت قراءته في ليلة قط .



وكان أبان يهزق الشعراء في شيء نحسب أنه هو الذي سبق إليه ، فقد ابتكر في الأدب
العربي فنّا لم يتعاطه أحد من قبله . وهو فن الشعر التعليمي ، بطرق فيه فنونا مختلفة من العلم
والحكمة والدين . وقد تحدّث أبو الفرج أنه نظم للبرامكة كتاب «كلىة ودمنة» ليسهل عليهم

حفظه ، فأعطاه يحيى بن خالد عشرة آلاف دينار ، وأعطاه الفضل بن يحيى خمسة آلاف واكتفى جعفر بأن يكون راويته . وروى أبو الفرج أبياتا أربعة من هذا النظم ، وقد عثرنا على قطعة من كتاب مخطوط يوجد في دار الكتب المصرية تحت رقم (٥٩٤) تاريخ ، وهو كتاب «الأوراق» للصولي . وفي هذا الكتاب قطعةٌ صالحة من نظم أبان لكليلة ودمنة ، فرأينا أن نثبتها هنا ، لأن المنظومة ضاعت ولم يبق منها إلا الأبيات الأربعة التي رواها أبو الفرج . وها هي ذى :

هَذَا كِتَابٌ كَذِبٌ وَمِحْنَةٌ * وَهُوَ الَّذِي يُدْعَى كَلِيلَهُ دِمْنَةٌ
 دَلَالَاتٌ فِيهِ رُشْدٌ * وَهُوَ كِتَابٌ وَضَعَتْهُ الْهِنْدُ
 فَوَصَّفُوا آدَابَ كُلِّ عَالَمٍ * حِكَايَةً أَلْسِنَ الْبِهَامِ
 فَالْحِكْمَاءُ يَعْرِفُونَ فَضْلَهُ * وَالسَّخَفَاءُ يَسْتَهْوُونَ هَزْلَهُ
 وَهُوَ عَلَى ذَاكَ يَسِيرُ الْخِفْظِ * لَدَى عَلَى اللِّسَانِ عِنْدَ اللَّفْظِ
 يَا نَفْسُ لَا تَشَارِكِي الْجَهْلَالَ * فِي حَبِّ مَذْمُومٍ كَأَنْ قَدْ زَالَ
 يَا نَفْسُ لَا تَسْقَى وَلَا تَعْنَى * فِي طَلَبِ الدُّنْيَا وَلَا تَمْنَى
 مَا لَمْ يَنْلُهُ أَحَدٌ إِلَّا نَدِمَ * إِذَا تَوَلَّى ذَاكَ عَنْهُ وَسَدِمَ^(١)
 دُنْيَاكَ بِالْأَحْبَابِ وَالْإِخْوَانِ * كَثِيرَةَ الْآلَامِ وَالْأَحْزَانِ
 وَهِيَ وَإِنْ نِيلَ بِهَا السَّرُورُ * آفَاتُهَا وَغَمُّهَا كَثِيرُ
 يَا نَفْسُ لَا يَحْمِلُكَ حَبُّ أَهْبِ * وَلَا أَدَانِيكَ عَلَى أَنْ تَهْلِكِي
 فِي جَمْعٍ مَا يَرْضِيهِمْ فَإِنَّهُ * يَضْرِبُ مِنْ أَمْثَالِ ذَاكَ الدُّخْنَهُ^(٢)
 يَنَالُ قَوْمَ عَرَفَهَا وَتَحْتَرِقُ * رَأَى بِهِ يَرْضَى أَخُو الرَّأْيِ الْحَقُّ
 وَجَدْتُ ذَا النَّسِكِ الَّذِي قَدْ فَكَّرَا * فَزَادَهُ تَفْكَيرُهُ تَوْقُرَا
 وَقَلَّ لَمَّا رَضِيَ أَهْتَامُهُ * وَتَمَّ مِنْ سُرُورِهِ تَمَامُهُ

(١) ندم وحرى . (٢) الدخنة : نحو يدخن به النبات أو البيت وفي الأصل : «الدخنة» : يلجم وهو تحريف

وترك الدنيا لمن يشقى بها * ومن يقاسى الكد من أنصأها
فعتها نجا من الشرور * ونال أقصى غاية
ثم سخط عن كلِّ فان نفسه * فلقى السعد وغاب :
وأبصر الثواب في القيامة * فأمن : الحسرة والندامة
ومثل الدنيا كبرق الخلب * من به رمنة بسقي يكذب
وهو قاسا مثل نوم النائم * تُفرحه أضغاث حلم الحالم
حتى إذا استيقظ صارها * ما كان في النوم به المأ
فكيف بالصبر على أيام * عما قليل هن لأنصرام
يف والدنيا بلاء كلها * لا يأمن الآفات فيها أهلها
الله فرد واحد * أقر أو أنكر ذاك جاحد
ليس له كفوا ولا نيدا أحد * لم يلد الله ولا له ولد
وإني بما عملت مرتهن * ما كان منه من قبيح وحسن

من باب الأسد والثور

وإت من كان دني النفس * يرضى من الأرفع بالأخس
كمثل الكلب الشقى البائس * يفرحُ بالعظم العتيق اليأس
وإن أهل الفضل لا يرضيهم * شيء إذا ما كان لا يعينهم
كالأسد الذي يصيد الأرنب * ثم الى العير المجده ربا
فيرسل الأرنب من أظفاره * ويتبع العير على أدباره
والكلب مر . رفته ثرضيه * بلقمة تمذفها في فيه
يعش ما عاش غير حامل * له سرور دائم ونائل
فهو وإن كان * أطول عمرا من حليف فقير
ومن يعش في وحشه وضيق * وقلة المعروف في الصديق

(١) في الأصل "ثم لعير" والعير : الجماد

فهو وإن عَمَّرَ طولَ دهرِهِ * ليس بمغبوطٍ بطولِ عمرِهِ
 وقيل أيضا إنه قد ينبغى * للرجل الفاضل فيما يتبغى
 ألا يُرى إلا مع الأملِكِ * أو يعبد الله مع النَّسَكِ^(١)
 كالفيل لا يصلح إلا مَرَكبا * لمك أو راعيا مسييا
 قال له السبعُ لقد سمعتُ * وكَلَّ ما تقول قد فهمتُ
 لكنني لستُ أظنُّ ما تظنُّ * بالثور من غشِّ بلى ظنِّي حسن^(٢)
 قال له دمنةٌ من ثمَّ أتى * وهذه من حاله هي التي
 رفعتَه حتى تعدى طوره * وكان هذا لك منه شكره
 وتلك أخلاق اللئيم الفاجر * الكافر المغرور غير الشاكر
 يزال ناصحا نفاعا * حتى يرى حاله آرتفاعا^(٣)
 فعندها يسمو الى ما فوقها * الى التي لا تستطيع أوقها
 وربما كان هلاك الشجر * في حُسْنِ الغصن وطيب الثمر
 وذب الطاووس فهو زينه * كذلك أحيانا وفيه حينه
 وباذل النصح لمن لم يشكره * كطارح في سبخ ما يئذره
 لا خير للعاقل في ذى المنظره * إن هو لم يحمده عند المخبره
 وليس في الصديق ذى الصفاء * خير إذا لم يك ذا وفاء
 الرجلُ العاقلُ من لا تُسكِّره * كأسُ سموٍّ وأقدارُ بيطره^(٤)
 فالجبلُ الثابتُ في أصوله * لا تقى - لريحٍ على تحويله
 والناقصُ العقلِ الذي لا رأى له * يطغى إذا ما نال أدنى مترله
 مثلُ الحشيش أيمارٍ يرح جرت * مالت به فأقبلت وأدبرت
 الأهل والإخوان والأعوان * عند ذوى الأموال حيث كانوا

(١) الأملِك : الملوک (٢) د - له : « بل الظن الحسن » -
 (٣) أوقها : ثقلها . (٤) في الأصل هكذا "نظره"

والمال هادى الرأى والمرؤه * وهو على كل الأمور قوه
 والمأل فيه العز والجمال * والذل حيث لا يكون المأل
 وربما دعا الفقير فقره * الى التي يجبط فيها أجره
 فيخسر الدين كما كان خيسر * دنياه والخسران ما لا ينجبر
 وليس من شيء يكون مدحا * لذى النفسى إلا يكون برحا
 على الفقير ويكون ذمًا * كذلك يدعى وبه يسمى
 فإن يكن نجدًا يقولوا أهوج^(١) * كذلك عند الحرب لا يعرج
 وهو إذا كان جوادًا سيدا * سمي للفقير مضيعًا مفسدا
 أويك ذا حلم يقل ضعيف * أويك بساما يقل سخيف
 الرجل العاقل فيما يسدى * مقبط بكسبه للحميد
 لأنه باع قليلا فانيا * وأعتاض من ذاك كثيرا باقيا
 فأغبط الناس الكثير نائله * ومدرك النجح لديه سائله
 فلا تعدن ذا غنى غنيا * حتى يكون ماجدا سريا
 وأعلم بأن الملك المشاورا * ذا العقل فيما نابه المؤازرا
 فإنه يعضد بالتأييد * يغنى به عن كثرة الجنود
 والحازم التابع أمر الحزمة * النصحاء غير أهل التهمة
 بهم ورشدا * زيادة البحر إذا ما مددا
 فيه من أنهاره * حتى يهيج الموج من تياره
 والموت من مات كريما صابرا * خير من العيش ذليلا صاغرا

ولم ينقل لنا الصولى في كتابه إلا هذه القطعة . ويعد أبا ن في هذا ناظما لكتاب
 روف، ولكنه قد تجاوز نظم الكتب المعروفة الى تأليف كتب منظومة ، فنظم قصيدة
 طويلة في الصوم والزكاة . روى منها الصولى طرفا .

(١) أهوج : احقر . وفى الأصل : «هوج» الملام وهو تحريف .

فقيل لأبان بعد أن نظم كليله ودمنة : ألا تعمل شعرا في الزهد ؟ فعمل قصيدة مزدوجة في الصيام والزكاة . وترجمتها :

”قصيدة الصيام والزكاة * نقل أبان من فم الرواة“

وها هي ذى القصيدة :

هذا كتاب الصوم وهو جامع * لكل ما قامت به الشرائع
من ذلك المتزل في القرآن * فضلا على من كان ذا بيان
ومنه ما جاء عن النبي * من عهده المتبع المرضي
صلى الإلهُ وعليه سماء * كما هدى الله به وعلما
وبعضه على اختلاف الناس * من أثر ماضٍ ومن قياس
وإلجامع الذي اليه صاروا * رأى أبى يوسف مما اختاروا
قال أبو يوسف أما المفترض * فرمضان صومه إذا عرض
والصوم في فقرة الأيمان * من حيث ما يجري على اللسان
ومعه الحج وفي الظهر^(١) * الصوم لا يدفع بالإنكار
وخطأ القتل وحلق المحريم * لرأسه فيه الصيام فأفهم
فرمضان شهره معروف * وصومه مفترض موصوف^(٢)
والصوم في الظهر إن لم يقدر * مظاهر يوما على محرد
والقتل إن لم يك عمدا قتله * فإن ذلك في الصيام مثله
شهران في العدة كاملان * متصلان لا مفرقان
والحنث في رواية مقبوله * ثلاثة أيامها موصوله
ومثلها في عدة الأيام * للحرم الحائض في الإحرام
ثلاثة يصومها إـ حلقا * لا بأس إن تابعها أو فرقا

(١) الظهر مصدر ظاهر الرجل من أمرته إذا قال لها : أنت على كظهر أمي ، فكأن بالظهر عن البطن تأدما

(٢) في الأصل : ”موظوف“ .

والصومُ في المتعة ان لم يجد * هدياً وكان بالصيام يفتردي
صيامُ أيامِ مؤقَّاتٍ * ثلاثة في الحج مفروضات
وبعد ما يرجع صومُ سبعة * عشرة كاملة في المتعة
أما الثلاثة التي في الحج * فكان من أدركت من محتج
أو غيره ممن يرى أن يرويه * يقول يوماً قبل يوم التروية
ويومها وصوم يوم عرفه * مؤلفات الصوم لا مختلفه
قالوا وإن أحب أن يُفرقا * فذاك ما ليس عليه ضيقا
إن كان ذاك الصوم منه بعدما * يكون في عمرته قد أحرمنا
ولو أراد الصوم في شوالٍ * من بعد أن يوجب بالهلال
عمرته لكان ذاك مجزيا * بذاك يُفتى من أتى مستفتيا

وهي طويلة جداً

ونحسب أن مكانه من البرامكة هو الذي حمله على اختراع هذا الفن؛ فقد كان مكانه منهم مكان المؤدب لصبيانهم وشبابهم، وكان من الحق عليه أن يسهل لهم العلم تسيلاً . وليس من شك في أن هذه الأموال التي أصابها من البرامكة حينما نظم كليله ودمنة قد أطمعته، فنظم القصائد الأخرى ليصيب مثل ما أصاب .

أخبار حمدان بن أبان بن عبد الحميد بن أبان ومختار من شعره

قال أبو بكر الصولي: حدثني محمد بن زياد قال: كانت في عبد الصمد بن المعدل عريضة إذا سكر، فعربد يوماً في مجلس فيه حمدان بن أبان بن عبد الحميد بن أبان، وكان أيداً، فقال لهم: كآوه إلى وحدي، وأخذته وكتفه وجعله في بيت وأغلق بابه، وقال: إذا أصبحتم فأطلقوه، وأنصرف؛ فبلغه أن عبد الصمد حلف ليهجونه سنة، فقال حمدان يهجو:

قل لعبد الصمد الأح * حق لا تغضب طيبة
 وعلى أتمك فاغضب * وأكويها في الهن كية
 أمك العفلاء جاءت * نى بسلمى ورقية
 وهى ساقى ليلة فا * طمة أخرى اليه
 فقضينا فيهم الحق * وقلبنا السوية

وقد ذكر الصولى فى كتابه الأوراق ما اختاره من قصيدة حمدان بن أبان بن عبد الحميد

ابن أبان فى وصف الحب وأهله وهى طويلة، قال :

ما بال أهل الأديب * منا وأهل الكتب
 قد وضعوا الآدابا * وأتعبوا الكتابا
 لكل فن دفتر * منقط محبر
 ففرقت أجناسا * وعلموها الناسا
 بالجيل الرقيقه * والفطن الدقيقه
 فأرشدوا الضلّالا * وعلموا الجهّالا
 سوى المحبين فلم^(١) * يرعوا لهم حقّ الدّم
 فى علم ما قد جهلوا * وما به قد أبتلوا
 قد غلقت رهون^{٣٣} * واسـ
 وحالفوا السهادا * وخالفوا الرقادا
 فليلهم طويل * ونومهم قليل
 أبدانهم نحيلة * متعبة عليه
 نفوسهم حزينة * مشغوفة رزينة
 ظاهرة غمومهم * باطنة كلومهم

(١) فى الأصل : "كم".

بيوهم * قريحة جفونهم
 إن ظلموا لم يظلموا * وإن شكوا لم يرحموا
 أحبابهم في لعب * وفي دوام الطرب
 صافية ألوانهم * ضاحكة أسنانهم
 قد سكنوا القصورا * وقارنوا السرورا
 تفرغوا للهجر * وللتوى والغدر
 بعاشق يهواهم * بالله ما أقدمهم
 وعدهم وعيد * إقرارهم بـود
 يؤسى لأهل العشق * أهل الضنا والرق
 ليس هم وسيلة * ولا وجوه حيلة
 رأيت لما خذلوا * وفي هواهم وحلوا
 أن أريشد المغفلا * الجاهل المصلا
 الى الطريق الواضح * عند البلاء الفادح
 وأبتدى كتابا * للوصف بابا بابا
 يا أيها الناس فعوا * وصيتي وأسمعوا
 ففي صفاتي حجب * وفي كتابي أدب
 قصيدتي مقومة * ألفاظها منظمه
 فيها هوى العشاق * ومنية المشباق
 وصفت أهل العشق * ولم أمل عن حق
 فاسمع مقالا صادقا * يا من بيت عاشقا
 للحب خلتان * هما اللتان
 الصبر والرفق معا * يوما اذا ما اجتمعا

- في عاشقٍ مهجورٍ * مباعِدٍ مفرورٍ
 قَضَى قريبا وطَرا * وبلنَاهُ الوطرا
 ما الحسنُ والإحسانُ * والملكُ والسلطانُ
 يعدلُ وصلَ الإلفِ * وكسره للطَّرِفِ
 ما حَسَنٌ في العينِ * أحسنُ منِ الفيزِ
 يوما إذا ما ألتقيا * في مجلسٍ فاشتغيا
 مداومينَ للنظرِ * قد أينا كلَّ حذرِ
 يادارانِ الخلوَّةِ * ويُظهرانِ الصبوةِ
 مساعدينِ آتفقا * باتا ولم يفترقا
 هواهما مخزونُ * سرهما مدفونُ
 مداريينِ أصبعا * للناسِ لم يفتضحَا
 من جربِ الحبِّ عَرَفَ * ما بين ملكٍ وأسفِ
 لن يبلغَ الصبُّ المنى * إلا بصبرٍ وعنا
 إن الهوى ضروبُ * وأمره عجيبُ
 وأهله أطوارُ * فيه لهم أوطارُ
 للعاقِلِ الشريفِ * والأحمقِ السخيفِ
 فمنهمُ مرزوقُ * محبُّ معشوقُ
 على اضطرابِ الخلقِ * منه وسوءِ الخلقِ
 تُقضى له الأوطارُ * وتُعملُ الأشعارُ
 مقربٌ ما يقصى * مطاوعٌ ما يعصى
 ومنهمُ محرومُ * محارفٌ مشئومُ

على جمال هيئته * وحسنه وبهجته
 ومنهم من يتدا * ينال عيشاً رغدا
 من غير سعى وطلب * وغير كد ونصب
 قد ذاك الأسعد * والبخت منه أجود
 إذ فاز باللذات * ودرّك الحاجات
 ومنهم من يتعب * في حبه ويداب
 أسقمه طول الهوى * وشقه وجدّ الجوى
 فذاك صب قد شقي * برؤسى له ما ذا لقي
 ومنهم البصير * العاقل النصير
 يحتمل الهجرانا * ويحمل الأحزانا
 فلا يزال مبتلى * حتى ينال أملا
 ومنهم العميد * الجاهل البليد
 يحب بالتضجر * والجهل والتكبر
 يلقى الحبيب باهتا * فلا يزال ساكتا
 ومنهم من يهوى * بالغيب يأتي عفوا
 فيزرع العموما * مستجلباً هموما
 فذاك حب الغيب * ليس به من عيب
 من دونه حجاب * ودونه أبواب
 فما لذاك لبث * وليس منه مكث
 حتى يرى مقهورا * في حبه محسورا
 ومنهم جبار * في حبه أزورار
 زهى إذا ما عشقا * ورهنه قد علقا

يلترم البَّجَاجَةَ * فليس يُبَدِي الحَاجَةَ
فذاك حُبُّ القَوْتِ * وفيه كَرْبُ المَوْتِ
ومنهمُ من للنظَرِ * يهوى ولم يعدُّ البَصَرَ
إذا رأى خيلَه * داوى به غيلَه
يكتُمُ ما يقايبى * من أعين الجُلَّاسِ
ومنهمُ من أقتصرُ * على الحديث والنظَرِ
غايتهُ السَّلامُ * واللحظُ والكلامُ
مدافعٌ عن حبه * يكتُمُ وجد قلبه
ينفي الهوى وينكره * وبالتبري يستره
فذاك حُبُّ العاقلِ * حُبُّ أديبٍ كاملِ
وبعضهم لا يقنعُه * إلا عمودٌ يودعُه
قد طلبَ الحراما * وأتمسَّ الأثاما
فذاك حُبُّ النَّهَمِ * الماجنِ المقتلمِ
حقُّ له الحرمانُ * والمنعُ والخذلانُ
وبعضهم مَدَّاقُ * معانتُ مَسَاقُ
مستعملٌ للكذبِ * مُحَرَّفٌ في الكُتُبِ
فذاك حُبُّ الزُّورِ * يلسعُ كالزُّبُورِ
وبعضهم عميدُ * غايَةُ ما يريدُ
خَلوةٌ من يهواه * في مشهَدٍ يلقاهُ
لظنُّه مُسارِقَه * مبيتهُ مُعانِقَه
مكاتمٌ لحبه * في بُعدِه وقُربِه
فذاك حُبُّ يكذُ * يراهُ لا تجذُ

ومنهم من يهتف * بالحب حين يشغف
 ذا الحيد بدا * ولم ينله ودا
 تاه عليه وخرق^(١) * وصد عنه وحمق

وقال في آخرها :

قد تم مني وصف :: ولم يحسن الرصف
 وأنقضت القصيدة بحبوه
 والحمد للرحمن * ذى العز والسلطان
 الدم للشيطان * ذى العزم والطغيان^(٢)

(١) حرق : ضن عليه وبجل .

(٢) العزم : الشدة والشراسة . وفي الأصل : « العزم » .

٦ - منصور بن يحيى

كان ذا حيلة سياسية ، فأدرِك أن الرشيد يسره أن يُمدح بنى الإمامة عن عليّ والطعن عليه ، لما كان يراه من تقديم مروان بن أبي حفصة بسبب ذلك ، فسلك مذهبه ونحا نحوه - والشعراء يومئذ انما يطلبون الكسب - لكنه لم يصترح بالهجاء والسب كما فعل مروان ؛ ومن قوله فيه قصيدة مطلعها :

أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِلَيْكَ خُضْنَا * غَمَارَ الْهَوْلِ مِنْ بَلَدِ شَطِيرِ
بُحُوصٍ كَالْأَهْلَةِ خَافِقَاتٍ * تَلَيْنَ عَلَى السَّرِيِّ وَعَلَى الْهَجِيرِ
حَمَلْنَا إِلَيْكَ أَحْمَالًا تَقَالَا * وَمِثْلَ الصَّخْرَةِ الدَّرِّ النَّثِيرِ
فَقَدْ وَقَفَ الْمَدِيحُ بِمُنْتَهَاهُ * وَغَايَتِهِ وَصَارَ إِلَى الْمَصِيرِ
إِلَى مَنْ لَا تُشِيرُ إِلَى رَسُولٍ * إِذَا ذُكِرَ النَّدَى كَفَّ الْمُشِيرِ

وذَكَرَ فِي الْقَصِيدَةِ يَحْيَى بْنَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَسَنِ فَقَالَ :

يَذَلُّ مِنْ رِقَابِ بَنِي عَلِيٍّ * وَمَنْ لَيْسَ بِالْمُتِّ الصَّغِيرِ
مَنْتَ عَلِيٌّ ابْنُ عَبْدِ اللَّهِ يَحْيَى * وَكَانَ مِنَ الْخُتُوفِ عَلَى شَفِيرِ

(١) هو منصور بن الزبرقان بن سلمة النمرى الربعي ، من النمرين قاسط ، ثم من ربيعة بن زرار . شاعر من شعراء الدولة العباسية . من أهل الجزيرة ، وهو تلميذ كلثوم بن عمرو العتابي وراويه ، عنه أخذ ، ومن بحره استقى ، ومدمه تشبه . وصفه العتابي للفضل بن يحيى بن خالد وقرظه عنده حتى استفدته من الجزيرة واستصحبه ، ثم وصله بالرشيد ووجرت بعد ذلك بينه وبين العتابي وحشة حتى تهاجرا وتناقضا وسعى كل واحد منهما في هلاك صاحبه ، وكان النمرى قد مدح الفصّل بقصيدة وهو مقيم بالجزيرة ، فأوصلها العتابي إليه واستفده له وسأله استصحابه ، فأذن له في القدوم ، فحضر عنده ، وعرف مذهب الرشيد في الشعر وإرادته أن يصل مدحه بإياه بنى الإمامة عن ولد علي بن أبي طالب عليهم السلام والطعن عليهم وعلم مغزاه في ذلك مما كان يبلعه من تقديم مروان بن أبي حفصة وتقصيله بإياه على الشعراء في الحوائر ، فسلك مذهب مروان في ذلك ونحا نحوه . ولم يصرح بالهجاء والسب كما كان يفعل مروان ولكنه حام ولم يقع وأوماً ولم يحقق ، لأنه كان يتشيع ، وكان مروان شديد العداوة لآل أبي طالب وكان ينطق عن بنية قوية يقصد بها طلب الدنيا فلا يبقى ولا يذرو . وتجد أخباره في الأغاني (ج ١٢ ص ١٦ وح ١٧ ص ٣٢ و ١٤١) .

ولقد تخلص الى شيء ليس عليه فيه شيء وهو قوله :

فإن شكروا فقد أنعمت فيهم * وإلا فالندامة للكفور
وإن قالوا بنو بنت حفي * وردوا ما يناسب للذكور
وما لبني بنات من تراث * مع الأعمام في ورق الزبور

ومنها :

بني حسن ورهط بني حسين * عليكم بالسداد من الأمور
فقد دُقم قراع بني أبيكم * غداة الروع بالبيض الذكور
أحين شفوكم من كل وتر * وصمؤم الى كنيف ونير
وجادوكم على ظمأ شديد * سقيم من نوالهم الغزير
فما كان العقوق لهم جزاء * بفعالهم وآدى للنشور
وإنك حين تبلغهم أذاة * وإن ظلموا محزون الضمير

فقال له : صدقت وإلا فعلى وعلى، وأمر له بثلاثين ألف درهم .

وأشد الرشيد يوماً قصيدته التي أولها :

ما تنقضى حسرة مني ولا جزع * إذا ذكرت شباباً ليس يرتجع
بان الشباب وفالتي بلدته * صروف دهر وأيام لها خدع
ما كنت أوي شبابي كنه غرته * حتى أنقضى فاذا الدنيا له تبع

فقال الرشيد : أحسن ! والله لا يتبني أحد بعيش حتى يخطر في رداء الشباب

ومن قوله فيها يمدح الرشيد :

أى أمرى بات من هارون في سخط * فليس بالصلوات الخمس ينتفع
إن المكارم والمعروف أودية * أحلك الله منها حيث تجتمع^(١)

(١) رواية الأعاني : "تسع" .

إذا رَفَعَتْ أَمْرًا فَاللهُ يَرْفَعُهُ * وَمَنْ وَضَعَتْ مِنَ الْأَقْوَامِ مَتَضِعًا
تَقْسِي فِدَاؤُكَ وَالْأَبْطَالَ مُعَلِّمَةً * يَوْمَ الْوَعَى وَالْمُنَايَا صَابِئًا فَرَجًا

ومن قوله يمدح الرشيد :

يَا مَنَزَلَ الْحَى ذَا الْمَعَانِي * إِنَّعْمُ صَبَاحًا عَلَى بِلَاكَا
هَارُونَ يَا خَيْرَ مَنْ يُرَجَى * لَمْ يُطْعِ اللَّهَ مِنْ عَصَاكَ
فِي خَيْرِ دِينٍ وَخَيْرِ دُنْيَا * مِنْ أَتَقَى اللَّهَ وَأَتَقَاكَ

وناهيك بقصيدته التي رفعت السيف عن ربيعة بن نصيبين بعد أن جرده فيها الرشيد
وهي التي يقول فيها :

وقد علم العُدوانُ والجورُ والحنأ * بَأَنْكَ عَيَافٌ لَهْنٌ مُزَايِلُ
ولو عملوا فينا بأمرِك لم يكن * يَنَالُ بَرِيًّا بِالْأَذَى مُتَنَاوِلُ
لنا منك أرحامٌ ونعتد طاعةً * وبأسا إذا أصطك القنا والقنابل
وما يحفظ الإحسانَ مثلك حافظٌ * ولا يصلُّ الأرحامَ مثلك واصل
جعلناك فامنعنا معاذًا ومفزعًا * لنا حين عضتنا الخطوبُ الحلاللُ
لأنت إذا عادت بوجهك عودٌ * تطامنَ خوفٌ وأستقرت بلابل

اجتمع جماعة من الشعراء ببغداد وفيهم منصور النمرى، وكانوا على نبيذ، فأبى منصور
أن يشرب معهم، فقالوا له : إنما تعاف الشراب لأنك رافضى، وتسمع وتُصنئ إلى
الغناء، وليس تركك النبيذ من ورع، فقال :

خلا بين ندمائي موضعُ مجلسي * ولم يبق عندى للوِصال نصيب
ورُدَّتْ عَلَى السَاقِ تَفِيضٌ وَرَبَّمَا * رَدَدْتُ عَلَيْهِ الْكَأْسَ وَهُوَ سَلِيبُ
وَأىَّ أَمْرِي لَا يَسْتَهْشِ إِذَا جَرَّتْ * عَلَيْهِ بَنَانٌ كَقُفُونِ خَضِيبِ

(١) معرده قبل بفتح فسكون ثم فتح : الطائفة من الناس .

قال النمرى : كنت واقفا على جسر بغداد أنا وعبيد الله بن هشام ، وقد وخطبني الشيب يومئذ ، وعبد الله شاب حديث السن ، فاذا أنا بقصريّة ظريفة قد وقفت ، فجعلت أنظر إليها وهي تنظر الى عبيد الله ثم انصرفت ، وقلت فيها :

لما رأيت سَوامَ الشَّيبِ منتشراً * في لِمَسْتى وعبيدَ الله لم يَسِبْ

سَلَّلتِ سَهْمينَ من عَيْنِكَ فانتضلا * على سَبِيَّةِ ذى الأذْيالِ والطربِ

كذا الغوانى نرى منهنّ قاصدة * الى الفروع مُعْرَأةً عن الخشبِ

لا أنتِ أصبحتِ تعقدُ بيننا أرباً^(١) * ولا وعيشك ما أصبحتِ من أربى

إحدى وخمسين قد أنضيتِ جدتها * تحولِ بنى وبين اللّهُو واللّعبِ

لا تحسبيني وإن أغضيتِ عن بصرى * غفَلتُ عنكِ ولا عن شأنكِ العَجَبِ

غضب الرشيد على منصور النمرى لما أشد قصيدته في مدح العلويين وأوطأ :

شَاءَ من الناسِ راتِعٌ هاملٌ * يعللون النفوسَ بالباطلِ

وفيه يقول :

ألا مَسَاعِيرُ يغضبون لها^(٢) * بسَلَّةِ البيضِ والقنّاءِ الذابلِ

فغضب من ذلك غضباً شديداً وقال للفضل بن الربيع : أحضره الساعة ، فبعث الفضل

في ذلك ، فوجده قد توفّق ، فأمر بنبشه ليحرّقه ، فلم يزل الفضل يُلطِّف له حتى كَفَّ عنه .

واليك قصيدته في مدح العلويين نقلا عن الشعر والشعراء لابن قتيبة ، لأن صاحب

الأغاني أغفلها ولم يذكر منها إلا البيتين السابقين :

شَاءَ من الناسِ راتِعٌ هاملٌ * يعللون النفوسَ بالباطلِ

تُقْتَلُ ذُرِّيَّةُ - النَّبِيِّ - وَيَرُ * جونِ جنانِ الخُلودِ للقاتلِ

وَيْلُكَ يا قاتِلَ الحسينِ لقد * نُوتَ بِجَمَلِ يَبْوَاءِ بالاملِ

(١) كذا في الأصل ولعله : * لا أنت أصبحت يعقد بيننا أرب * بتسكين الفعل يعقد للضرورة وتسكين

الفعل في الضرورة وارد ومنه قول امرئ القيس : هاليوم أشرب غير مستحب * اثما من الله ولا وائل

(٢) في الشعر والشعراء "مصاليت" .

أَيْ جَبَاءِ حَيَوَاتِ أَحْمَدَ فِي * حُفْرَتِهِ مِنْ حَرَارَةِ النَّارِ كَلِّ
 بَأَى وَجْهَ تَلَقَى النَّبِيَّ وَقَدْ * دَخَلَتْ فِي قَتْلِهِ مَعَ الدَّاهِلِ
 هَلُمَّ فَاطْلُبْ غَدَاً شَفَاعَتَهُ * أَوْلَا فَرِدْ حَوْضَهُ مَعَ النَّاهِلِ
 مَا الشَّكُّ عِنْدِي فِي حَالِ قَاتِلِهِ * لَكِنِّي أُشْكُ فِي أَلْحَاذِلِ
 نَفْسِي فِدَاءَ الْحُسَيْنِ حِينَ غَدَاً * إِلَى الْمَنَابِيَا غُدُوًّا لَا قَافِلِ
 ذَلِكَ يَوْمٌ أُنْحَى بِشَفْرَتِهِ * عَلَى سَنَامِ الْإِسْلَامِ وَالْكَاهِلِ
 حَتَّى مَتَى أَنْتِ تَعْجَبِينَ أَلَا * تَتَرَّلُ بِالْقَوْمِ نِقْمَةً الْعَاجِلِ
 لَا يَعْجَلُ اللَّهُ إِنْ لَحَلَّتْ وَمَا * رَبُّكَ عَمَّا يَرِيدُ بِالْعَافِلِ
 وَعَاذِلِي أَنِّي أَحَبُّ بَنِي * أَحْمَدَ فَالْتَرَبُّ فِي قِيمِ الْعَاذِلِ
 قَدْ دُقْتُ مَا دِينُكُمْ عَلَيْهِ فَا * وَصَلْتُ مِنْ دِينِكُمْ إِلَى طَائِلِ
 دِينِكُمْ جَفْوَةَ النَّبِيِّ وَمَا لَ * جَافِي لَأَلِ النَّبِيِّ كَالْوَاصِلِ
 مَظْلُومَةَ وَالنَّبِيِّ وَالِدَهَا * نَذِيرُ أَرْجَاءِ مُقْلَةٍ حَافِلِ
 أَلَا مَصَالِيْتُ يَفْضُبُونَ لَهَا * بَسَلَةَ الْبَيْضِ وَالْقَنَا الذَّابِلِ

وقال أيضاً :

آل النبي ﷺ يتطامنون مخافة ألقته

أمنوا النصراني واليهود وهم * من أمة التوحيد في أزل^(١)

وأُشِيدَ الرَّشِيدُ هَذَا بَعْدَ مَوْتِهِ فَقَالَ : لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أُبَشِّرَهُ ثُمَّ أَحْرَقَهُ .

ومن جيد شعره قوله في الرشيد :

يا زائرنا من أَلْحِيَامِ * حَيَاكُمَا اللَّهُ بِالسَّلَامِ

يُحْزِنُنِي أَنْ أَطْفَأُ نَارِي * وَلَمْ تَنَالَا سِوَى الْكَلَامِ

(١) الأزل : الضيق والشدة

لِحلم تَطْبُرُفَانِي وَبِي حِرَاكُ * إلى حَلَالٍ وَلَا حَرَامِ
 هَيْهَاتَ لِلْهُسُو وَالتَّصَابِي * وللغَوَانِي وَلِلدَّامِ
 أَقْصَرَ جَهْلِي وَثَابَ جَانِي * وَنَهَنَ الشَّيْبُ مِنْ غُرَامِي ^(١)
 عَمِرُ أَيُّهَا لَقَدْ تَوَلَّتْ * سَالِمَةَ انْحَدَّ مِنْ عِذَامِي ^(٢)
 اللَّهُ حَيٌّ وَتَرَبُّ حَيٌّ * لَيْلَةَ أَعْيَاهَا مَرَامِي
 أَذِتَانِي يَطْوُلُ هَجِيرِ * وَغَرَّتَانِي مَعَ السَّوَامِ
 وَأَنْطَوَاتِي عَلَى مَلَامِ * وَالشَّيْبُ شَرٌّ مِنَ الْمَلَامِ
 بُوْرَكَ هَارُونَ مِنْ إِمَامِ * بِطَاعَةِ اللَّهِ ذِي آعْتِصَامِ
 لَهُ إِلَى ذِي الْجَلَالِ قُرْبِي * لَيْسَتْ لَعْدُلٌ وَلَا إِمَامِ
 يُسْعَى عَلَى أُمَّةٍ تَمَنَّى * أَنْ لَوْ تَقِيَهُ مِنَ الْجَمَامِ
 لَوْ اسْتَطَاعَتْ لِقَاسَمَتَهُ * أَعْمَارَهَا قِسْمَةَ السَّهَامِ
 يَا خَيْرَ مَاضٍ وَخَيْرَ بَاقٍ * بَعْدَ النَّبِيِّينَ فِي الْأَنَامِ
 مَا اسْتُوذِعَ الدِّينُ مِنْ إِمَامِ * حَامِي عَلَيْهِ كَمَا تُحَامِي
 يُؤْنَسُ مِنْ رَأْيِهِ بِرَأْيِ * أَصْدَقَ مِنْ سَلَةِ الْحُسَامِ

وقال :

أَعْمِرُ كَيْفَ لِحَاجَةٍ * طَلَبْتُ إِلَى صَمِّ الصُّخُورِ
 اللَّهُ دَرُّ عِدَائِكُمْ * كَيْفَ انْتَسَبَنَ إِلَى الْغُرُورِ
 أَرِ الْيَالِيَّ ضَمْنِي * وَوَسَّمَنِي سِمَةَ الْكَبِيرِ
 أَطْفَانُ نُورِ شَيْبَتِي * وَفَرَشَنِي كَنْفَ الْغُيُورِ
 وَلَقَدْ تَبَيَّتُ أَنَا مِلي * يَجْنِينَ رُقَانَ النَّحُورِ

٧ - السيد الحميري^(١)

« لم يكن السيد الحميري من أنصار الحسن والحسين ، أو بعبارة أوضح لم يكن من أنصار ولد الحسن والحسين ؛ وإنما كان من الكيسانية الذين كانوا ينصرون الأبن الثالث من أبناء علي : محمد بن خولة الحنفية ؛ والذين كانوا يدينون بأنه لم يمت وإنما تغيب عن الناس واحتجب عنهم حيناً وسيعود فيملاً الأرض عدلاً كما ملئت جوراً ، فلم يكن على السيد الحميري بأس أن يمدح بنى العباس ويتقرب منهم مادام صاحبه محمد بن الحنفية لم يعد من غيبته بعد . ثم نستطيع أن نميز هذا الشاعر بخصلة لم نرها في شاعر من الذين تحدثنا عنهم ، وهي أنه كان سخيفاً ضعيف العقل شديد الإيمان بالخرافات والأوهام ، ويظهر أن هذه الخصلة جاءت من مذهبه نفسه في الرجعة ، فقد أسرف في هذا المذهب كما أسرف في مدح العلويين والإيمان بهم حتى وصفهم من الخير والكرامة بما يقبل وما لا يقبل ؛ فكان كل خير يمكن أن ينسب إلى العلويين ، رضيه العقل أم لم يرضه ، وكان كل شر يمكن أن ينسب إلى خصوم العلويين ، رضيه العقل أم لم يرضه ، وكان يكفي أن يسمع رجلاً من أهل القصص ورواة الأساطير يروي كرامة من الكرامات يضيفها إلى أحد العلويين حتى ينظم فيها قصيدة طويلة جيدة ، ويتخذ هذه القصيدة وسيلة إلى ذم السلف والنهي عليه .

(١) هو اسماعيل بن محمد بن يزيد بن ربيعة بن مفرغ الحميري والسيد لقبه ويكنى أبا هاشم ، كان شاعراً متقدماً مطبوعاً ، يقال إن أكثر الناس شعراً في الجاهلية والاسلام ثلاثة : بشار وأبو العافية والسيد ، فانه لا يعلم أن أحداً قدر على تحصيل شعر أحد منهم أجمع ، وإنما مات ذكره وهجر الناس شعره لما كان يصرط فيه من سب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأزواجه في شعره ويستعمله في قذفهم والطنع عليهم فتحوى شعره من هذا الجففس وغيره لذلك وهجره الناس تحوفاً وترقياً ، وله طراز من الشعر ومذهب فلما يلحق فيه أو يقارب ، ولا يعرف له من الشعر كثير ، وليس يخلو من مدح بنى هاشم أو ذم غيرهم ممن هو عنده ضد لهم . توفي سنة ١٧٣ هـ . وتجد ترجمته وأخباره في الأغاني (ج ٧ ص ٢) وفوات الوفيات (ج ١ ص ١٩) .

(٢) - من بحوث صديق الدكتور رضه حسين أستاذ الآداب العربية بالجامعة المصرية .

وخصلة أخرى تقربه من الزنادقة الذين عاصروه ولكنها تجعل الصلة بينه وبينهم ضعيفة واهية في الوقت نفسه .

وهي أنه كان يستبيح ضروبا من اللهو والمنكر، ويسرف في شرب الخمر وغير ذلك من ألوان العَبَث، لا لأنه كان ييحد الدين أو يزيد به بل لأنه كان يدل على صاحب الدين؛ كان يحب النبي صلى الله عليه وسلم وآله ويمتحنهم مودته ونصره، ويعتقد أنهم سيعرفون له ذلك وسيشفعون له في ذنوبه وأثامه لما قدم بين يديه من مدح العلويين ونصرهم على خصومهم؛ وكان بنو هاشم وبنو علي خاصة يطعمونوه في ذلك ويعترفون له به، فإذا ذكر لهم أنه يلهو ويشرب الخمر قالوا: وأي ذنب يعظم على الله أن يغفره لرجل من أنصار أهل البيت! بل قال أحدهم: إنا من أحب آل علي لم تزل له قدم إلا ثبتت له أخرى؛ وعلى هذا كان السيد الحميري يلهو آمننا في دينه ودنياه، يعتمد في دينه على العلويين، ويعتمد في دنياه على العباسيين، يقدر أن العلويين سيشفعون له عند الله، ويعلم أن العباسيين يتقون شره ويؤثرون مدحه على هجائه؛ وكان من معاصريه من يكره ذلك ويمقت كل المقت، ويضمر للسيد عداً وحقداً لا يعدلها عداً ولا حقداً؛ ومن هؤلاء سوار بن عبد الله العتبري قاضي البصرة للمنصور، فقد كان العداً بينه وبين السيد شديداً، وكان قد أجمع ألا يقبل للسيد شهادة، وكان قد سعى بالسيد عند المنصور غير مرة؛ وكان السيد قد هجاه فأسرف في هجائه، فشكا ذلك إلى المنصور فهجاه المنصور عنه وأمره أن يذهب إلى القاضي فيعتذر إليه، وأبى القاضي أن يقبل معذرتة، فاستأنف السيد الهجاء وأخ فيه . ويقال إن سواراً أعد شهوداً يشهدون على السيد بالسرقة ليقطع يده، فعلم السيد ذلك فخرع وفرع إلى المنصور، فعزل المنصور سواراً من القضاء للسيد أو عليه، ولم يلبث سوار أن مات فتبعه السيد بعدائه وبغضه وهجائه .

قال أبو جعفر الأعرج: كان السيد أسمر تامم القامة، أشنب ذا وفرة، حسن الألفاظ جميل الخطاب، اذا تحدث في مجلس قوم أعطى كل رجل في المجلس نصيبه من حديثه؛

وقال الفرزدق : إنا ههنا لرجلين لو أخذنا في معنى الناس لما تكنا معهما في شيء : السيد الحميري
وعمران بن حطان السدوسي ، ولكن الله عز وجل قد شغل كل واحد منهما بالقول
في مذهبه ، وقال الأصمعي لما أنشد شيئا من شعره : ما أسلكه لطريق الفحول لولا مذهبه ،
ولولا ما في شعره ما قدمت عليه أحدا من طبقته ؛ وكان أبو عبيدة يقول : أشعرُ المُحدّثين
السيد الحميري وبشار .

وكان السيد يذهبُ مذهب الكيسانية ويقول بإمامة محمد بن الحنفية ، وله في ذلك
شعر كثير .

وقف السيد على بشار وهو ينشد الشعر ، فأقبل عليه وقال :

أيها المادح العبادِ لِعَطَى * إنا لله ما بأيدي العبادِ
فاسأل الله ما طلبت اليهم * وأرجُ نفعَ المنزلِ العوادِ
لا تُثقل في الجوادِ ما ليس فيه * وتُسمى البخيلَ باسم الجوادِ

قال بشار : من هذا؟ فعرّفه ، فقال : لولا أن هذا الرجل قد شغل عنا بمدح بني هاشم
لشغلنا ، ولو شاركنا في مذهبنا لتعبنا .

ومن قول السيد :

أتعرفُ رسمًا بالثويينِ قد دثر * عفته أهاضيبُ السحابِ والمطرُ
وجرت به الأذيالِ ريحانِ خلفه * صبا ودبور بالعيشيات والبكرُ
منازلُ قد كانت تكونُ بجوها * هضيمُ الحشى رياءُ الشوى سحرها النظرُ
قطوفُ الخلطِ خمصانهُ بختريه * كأنَّ حياها سنا دارية القمرُ
رمتني ببعدٍ بعد قُرْبٍ بها النوى * فبانت ولما أقض من عبدة الوطرُ
ولما رأني خشيةً البينِ موجعا * أكفكُف مني أدمعا ييضها دُررُ
أشارتُ بأطرافِ إلى ودمعها * كنظمِ جمانِ خانهُ السلكُ فانتثرُ
وقد كنتُ مما أحدثَ البنُّ حاذرا * فله يُغن عني منه خو في والحذرُ

لما استقام الأمر لبني العباس قام السيد إلى أبي العباس السَّفاح حين نزل عن المنبر فقال:

دُونِكُوهَا يَا بَنِي هَاشِمٍ * جَدُّدُوا مِنْ عَهْدِهَا الدَّارِسَا
 دُونِكُوهَا لَا عَلَا كَعْبُ مَنْ * كَانَتْ عَلَيْكُمْ مُلْكُهَا نَافِسَا
 دُونِكُوهَا فَالْبِسُوا تَاجَهَا * لَا تَعْدَمُوا مِنْكُمْ لَهُ لَابِسَا
 أَوْ خَيْرَ الْمُنْبِرِ فُرْسَانَهُ * مَا آخْتَارَ إِلَّا مِنْكُمْ فَارِسَا
 قَدْ سَاسَهَا قَبْلَكُمْ سَاسَةً * لَمْ يَتْرَكُوا رَطْبًا وَلَا يَابِسَا
 وَلَسْتُ مِنْ أَنْ تَمْلِكُوهَا إِلَى * مَهَبْتُ عَيْسَى فِيكُمْ آيِسَا

وبعث بهذه الأبيات إلى المهدي يسأله ألا يعطى آل بكر وعمر من مال الدولة :

قُلْ لِبَنِي عَبَّاسٍ بَنِي مُحَمَّدٍ * لَا تُعْطِينَ بَنِي عَدَى دَرَهْمَا
 إِحْرَامُ بَنِي تَيْمٍ بِنِ مِرَّةٍ لِمَنْهُمْ * شَرُّ الْبَرِيَّةِ آخِرًا وَمُقَدِّمًا
 إِنْ تَعْطَهُمْ لَنْ يَشْكُرُوا لَكَ نِعْمَةً * وَيَكْفَأُوكَ بَأَنْ تُدَمَّ وَتُسْتَمَّا
 وَإِنْ أَتَمْتَهُمْ أَوْ اسْتَعْمَاتَهُمْ * خَانُوكَ وَأَتَّخَذُوا خَرَاجَكَ مَغْنَمًا
 وَلَيْتَ مَنَعْتَهُمْ لَقَدْ بَدَعُواكُمْ * بِالْمَنْعِ إِذْ مَلَكُوا وَكَانُوا أَظْلَمًا
 مَنَعُوا تُرَاثَ مُحَمَّدٍ أَعْمَامَهُ * وَبَنِيهِ وَأَبْنَتَهُ عِدِيلَةَ مَرِيَمَا
 وَتَأَمَّرُوا مِنْ غَيْرِ أَنْ يُسْتَخْلَفُوا * وَكَفَى بِمَا فَعَلُوا هُنَاكَ مَاثِمًا
 لَمْ يَشْكُرُوا لِمُحَمَّدٍ إِعْنَانَهُ * أَفِيَشْكُرُونَ لِعَبْرِهِ إِنْ أَنْعَمَا
 وَاللَّهِ مَنْ عَلَيْهِمْ مُحَمَّدٌ * وَهَدَاهُمْ وَكَسَا الْجَنُوبَ وَأَطْعَمَا
 ثُمَّ آتَبُوا لَوْصِيَهُ وَوَلِيَّهُ * بِالْمَنْعِ كَرَاتٍ بِفِرْعَوْنَ الْعَلْمَا

أشيد السيد جعفر بن محمد هذه الأبيات يذكر فيها قبر الحسين :

أَمْرٌ عَلَى جَدِّتِ الْحُسَيْنِ * مِنْ قَتْلِ لِأَعْظَمِهِ الزَّكِيَّةِ
 أَعْظَمًا لَا زَلَّتْ مِنْ * وَطَفَاءَ سَاكِبَةٍ رَوِيَّةِ
 وَإِذَا مَرَّرْتَ بِقَبْرِهِ * فَأَطَّلْ بِهِ وَقَفَّ الْمَطِيَّةِ

وَأَبِكِ الْمُطَهَّرَ لَطَطٌ * مَهْرٍ وَالْمُطَهَّرَةَ النَّقِيَّةُ
كِبْكَاءٌ مُعْوَلَةٌ أَتَتْ * يَوْمًا لَوَاحِدَهَا الْمِنِيَّةُ

فانحدرت دموعُ جعفر على خديه وأرتفع الصراخُ والبكاءُ من داره حتى أمره بالإمساك
فأمسك .

ومن قول السيد في إمامة ابن الحنفية :

أَلَا يَا أَيُّهَا الْجَدِيدُ الْمَعْنَى * لَنَا مَا نَحْنُ وَيَحْكُ وَالْعَنَاءُ
أَتَبَصِّرُ مَا تَقُولُ وَأَنْتَ كَهْلٌ * تَرَكَ عَلَيْكَ مِنْ وَرَيْعٍ رِدَاءُ
أَلَا إِنَّ الْأَئِمَّةَ مِنْ قُرَيْشٍ * وَوَلَاةُ الْحَقِّ أَرْبَعَةٌ سِوَاءُ
عَلَى وَالثَّلَاثَةُ مِنْ بَيْتِهِ ^(١) * هُمْ أَسْبَاطُهُ وَالْأَوْصِيَاءُ
فَأَنَّى فِي وَصِيَّتِهِ الْبِهِم * يَكُونُ الشُّكُّ مَنَا وَالْمِرَاءُ
بِهِمْ أَوْصَاهُمْ وَدَعَا إِلَيْهِ * الْخَلْقُ لَوْ سَمِعَ الدَّعَاءُ
فَسَبَطُ سَبَطُ إِيْمَانٍ وَحِلْمٍ * وَسَبَطُ غَيْبَتِهِ كَرْبَلَاءُ
سِوَى جَدَثًا تَضَمَّنَهُ مِلْكٌ * هَتَفُ الرِّعْدِ مُرْتَجِزٌ رَوَاءُ
تَظَلُّ مُظَلَّةٌ مِنْهَا عِزَالٍ * عَلَيْهِ وَتَعْنِدِي آخِرَى مِلاءُ
وَسَبَطُ لَا يَذُوقُ الْمَوْتَ حَتَّى * يَقُودَ الْخَلِيلُ يَقْدَمُهَا الْوَاءُ
مِنَ الْبَيْتِ الْمَحْجَبِ فِي سُرَاةٍ * سُرَاةٍ نَفْ بِبَيْنِهِمُ الْإِخَاءُ
عَصَابٌ لَيْسَ دُونَ أَغْرَأَجَلَى * مَمْكَةٌ قَائِمٌ لَهَا الْهَاءُ

وأشد العتي قصيدته اللامية التي أولها :

هَلْ عِنْدَ مَنْ أَحْبَبْتَ تَنْوِيلُ * أَمْ لِإِنْ الْيَوْمَ تَبْضُلِيلُ
أَمْ فِي الْحَشَى مِنْكَ جَوَى بَاطِلٌ * لَيْسَ تُدَاوِيهِ الْأَبَاطِيلُ

(١) هم الحسن والحسين ومحمد . (٢) العزلاء من الراوية ويحوه ويقال : انزلت

سواء عزالها إشارة الى شدة وقوع المطر على التشبيه بزوبه من أفواه المنزاد

عَلَيْتَ يَا مَغْرُورُ خَدَاعَةً * بِالْوَعْدِ مِنْهَا لَكَ تَحْيِيلُ
رِيًّا رَدَّاحَ النَّوْمِ مُخْصَانَةً * كَأَنَّهَا أَدْمَاءُ عُطْبُولُ
يَسْفِيكَ مِنْهَا حِينَ تَحْلُوبُهَا * ضَمُّهُ إِلَى النَّحْرِ وَتَقْيِيلُ
وَذَوْقُ رَيْبِي طَيِّبِ طَعْمُهُ * كَأَنَّهُ بِالْمَسْكِ مَعْلُولُ
فِي نِسْوَةٍ مِثْلِ الْمَهَا تُخْرِدُ * تَضْيِيقُ عُنُقِ الْخَلَائِجِ

يقول فيها :

أُقْسِمُ بِاللَّهِ وَالْآلِهَةِ * وَالْمَرْءِ عَمَّا قَالَ مَسْئُولُ
إِنْ عَلَى بْنِ أَبِي طَالِبٍ * عَلَى التَّقَى وَالْبِرِّ مَجْبُولُ

قال : أحسنَ والله ما شاء، هذا والله الشعرُ الذي يهجمُ على القلبِ بلا حجاب .

قيل للسيد : مالك لا تستعملُ في شعركَ من الغريب ما تُسألُ عنه كما يفعل الشعراء؟

قال : لأنَّ أقولَ شعرا قريبا من القلوبِ يَلدُّه من سمعه، خيرٌ من أن أقول شيئا معقداً
تضللُ فيه الأوهام .

تقدم السيدُ الى سَوارِ القاضِي ليَشهدَ عنده، فلم يرضَ به، فقام مُغضباً من مجلسه،

وكتب رُقعةً يقول فيها :

يَا أَمِينَ اللَّهِ يَا مَنْ صَوَّرَ يَا خَيْرَ الْوَلَاةِ
إِنَّ سَوَّارَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ * مِنْ سِرِّ الْقَضَاةِ
نَعْتَلِي جَمَلِي * لَكُمْ غَيْرُ مُوَاتٍ
جَدُّهُ سَارِقُ عَتْرِ * بِحُجْرَةٍ مِنْ بَحْرَاتِ
بِ اللَّهِ وَالْقَا * ذِفُّهُ بِالْمُنْكَرَاتِ
وَأَبْنُ مَنْ كَانَ يُنَادِي * مِنْ وَرَاءِ الْحُجْرَاتِ
يَاهِنَاةُ أَنْحُرْجِ الْبِنَا * إِنَّا أَهْلُ هَنَاتِ
مَدَحْنَا الْمَدْحُ وَمَنْ رَرَّ * بِبِ بِالزَّفَرَاتِ
فَا كَفَيْهِ لَا كِفَاهَا اللَّهُ * الطَّارِقَاتِ

قيل : فلما قرأها سوار وثب من مجلسه وقصد أبا جعفر المنصور، وهو يومئذ نازل بالحسرة، فسبقه السيد إليه فأنشده :

قل للإمام الذي يُنجي بطاعته * يوم القيامة من مُجسّحة النار
لا تَسْتَعِنُ وجزاك الله صالحاً * يا خير من دبّ في حُكْمِ سَوار
لا تَسْتَعِنُ بنبيث الرأي ذى صلف * جمّ العيوب عظيم الكبر جبار
يُضحى الخصوم لديه من تجرّه * لا يرفعون إليه لحظّ أبصار
تيهاً و كبراً ولولا ما رَفَعَتْ له * من ضَبَعِه كان عين الجائع العارى

ودخل سوار، فلما رآه المنصور تبسم وقال : أما بلغك خبر إياس بن معاوية حيث قبل شهادة الفرزدق واستراد في اليهود ؟ فما أَحوجك للتعرض للسيد ولسانه ! ثم أمر السيد بمصاحته

دخل السيد على المهديّ لما بايع لأبيه موسى وهارون، فأنشأ يقول :

ما بأل تجرّى دمّك الساجم * أمّن قَدَى بات بها لازم
أمّ من هوى أنت له ساهر * صباية من قلبك الهائم
آليت لا أمدح ذا نائل * من معشر غير بني هاشم
أوليئهم عندي يد المصطفى * ذى الفضل والمنّ أبى القاسم
فإنها بيضاء محمودة * جزاؤها الشكر على العالم
جزاؤها حفظ أبي جعفر * خليفة الرحمن والقائم
وطاعة المهديّ ثم أبند * موسى على ذى الإربة الحازم
وللرشيد الرابع المرتضى * مفرص مرّ حقه اللازم
ملكهم نحسون معدودة * برغم أنف الحاسد الراغم
ليس علينا ما بقوا غيرهم * في هذه الأمة من حاكم
تى يردوها الى هابط * عليه عيسى مهم ناجم

ومن شعر السيد :

أجرت حَظْرَةً على القلب مني * فيك إلا استترتُ عن أصحابي
من دموع تجرى فإن كنتَ وحدي * خاليا أسعدتَ دموعي انتحابي
إن حَبِيَّ إِيَّاكَ قد سلَّ جسمي * ورماني بالشيب قبل الشباب
اللقا شفى بك صبا * هائم القلب قد توى في التراب

ومما قاله في الحبس :

قَفْ بالديار وحيتها يا مَرِيعُ * وأسأل وكيف يُجيب من لا يسمعُ
إنَّ الديار حَلَّتْ وليس بيجوها * إلا الضواجِعُ والحمامُ الوُقَعُ
ولقد تكونُ بها أوانسُ كالدمي * جُمْلٌ وعزَّةُ والرَّبابُ وبروع
حورٌ نواعمُ لا تُرى في مثلها * أمثالهن من الصيانة أربع
فَعَيْرِينَ بعد تأليف وتجمع * والدهر صاحِبٌ مُشْتَتٌ ما يجمع
لم فإنك قد نزلتَ بمزِيَةٍ * الأمير تُضَرُّ فيه وتنفع
تُوْتِي هَوَاكَ إذا نطقتَ بحاجةٍ * فيه وتَشْفَعُ عنده فاستمع
قلْ للأمير إذا ظفرتَ بحَلْوَةٍ * منه ولم يكُ عنده من يسمع
هَبْ لِي الذي أحببته وَا سِدِ * وبنيه إنك حاصد ما ترزع
يَحْتَصُّهُ مُحَمَّدٌ بِحَبَّةٍ * في الصدر قد طُوِيَتْ عليها الأضلع

وقال يهجو امرأة واريث موسير من خلانه ، وكانت تعذل زوجها على إسرافه :

أقول باليت ليلى في يدي حنق * من العداوة من أعدى أعاديها
يلعبها فوق رعين ثم يُحْدِرُهَا * في هُوَّةٍ قَدَّهَدَى يومها فيها
وَوَلِيَّتَهَا في عمار البحر قد عَصَفَتْ * فيه الرياحُ فهاجَتْ من أواذِهَا^(٢)

(١) الرص : أنف يتقدم الجدل جمعه رصون ورماد . والحبل . الطويل ودهدى الحجر فتدهدى ، أى درجه

فتدحرج . (٢) الأواذي : مواج البحر مفردا آذى .

أَوْلَيْتَهَا قَدَدَنْتَ يَوْمًا إِلَى فَرَسِي * قَدْ شُدَّ مِنْهُ إِلَى هَادِيهِ هَادِيهَا
 حَتَّى يَرَى لِحْمَهَا مِنْ حُضْرِهِ زَيْمًا^(١) * وَقَدْ آتَى الْقَوْمَ بَعْدَ الْمَوْتِ نَاعِيهَا
 فَنَ بَكَاهَا فَلَا جَفَّتْ مَدَامُعُهُ * لَا أَسْخَنَ اللَّهُ إِلَّا عَيْنَ بَاكِهَا

وقيل : إن آخر قصيدة له هي قوله :

أَشَاقَتَكَ الْمَنَازِلُ بَعْدَ هِنْدٍ * وَتَرَبِيهَا وَذَاتِ اللَّذْلِ دَعِيدٍ
 مَنَازِلُ أَقْفَرَتْ مِنْهُنَّ مَحْتٌ * مَعَالِمُهُنَّ مِنْ سَبِيلِ وَرَعِيدٍ
 وَرِيحٌ حَرَجَفَتْ تَسْتَنُّ فِيهَا * بَسَافَى التُّرْبِ تُلْحِمُ مَا تَسْدِي
 أَلَمْ يَبْلُغْكَ وَالْأَنْبَاءُ تَنِي * مَقَالَ مُحَمَّدٍ فِيمَا يُؤَدِّي
 إِلَى ذِي عَلَيْهِ الْمَهَادَى عَلَى * وَخَوْلَةَ خَادِمٍ فِي الْبَيْتِ تَرْدِي
 أَلَمْ تَرَأَنَّ خَوْلَةَ سَوْفَ تَأْتِي * بُوَارَى الزُّنْدِ صَافِي الْخَلِيمِ تَجْدِي
 يَفُوزُ بِكُنْيَتِي وَأَسْمَى لِأُنِّي * نَحْلُهُمَا هُوَ الْمَهْدَى بَعْدِي
 يُغَيِّبُ عَنْهُمْ حَتَّى يَقُولُوا * تَضَمَّنَهُ بِطَيْبَةِ بَطْنِ لُحْدِ
 سَنِينَ وَأَشْهَرًا وَيُرَى بَرَضَوَى * بَشَعْبِ بَيْنَ أُنْمَارٍ وَأُسْدِ
 سِيمٍ بَيْنَ آرَامٍ وَعَيْنِ * وَحَقَّافٍ تَرُوحُ خِلَالِ رُبْدِ^(٢)
 تُرَاعِيهَا السَّبَاعُ وَلَيْسَ مِنْهَا * مُلَافِيهِنَّ مُفْتَرِسًا بِحَدِّ
 أَمِنًا بِهِ الرَّدَى فَرَتَعَنَّ طَوْرًا * بَلَا خَوْفٍ لَدَى مَرَعَى وَوَرْدِ
 حَلَفْتُ رَبِّ مَكَّةَ وَالْمَدِينِ * وَبَيْتِ طَاهِرِ الْأَرْكَانِ فَرْدِ
 يَطُوفُ بِهِ الْجَحِيحُ وَكُلَّ عَامٍ * يَجَلُّ لَدَيْهِ وَفَدَّ بَعْدَ وَفَدِ
 لَقَدْ كَانَ ابْنُ خَوْلَةَ غَيْرَ شَاذٍ * صَفَاءَ وَلَا يَتِيَّ وَخُلُوصَ وَذِي
 سَوَى ذِي الْوَحَى أَحْمَدُ * أَسْرُ وَمَا أَبُوحُ بِهِ وَأَبْسَدِي
 وَلَا أَرْكِي وَأَطِيبَ مِنْهُ عِنْدِي

(١) الرِّيمُ : المُنْتَوَقُّ مِنَ اللَّحْمِ . (٢) الْحَقَّافَانُ : صَوَارِ الْعَوَامِ .

- ومن ذا يأبن خولة إذ رمته * بأسهمها المنية حين وعدى
 يدبب عنكم ويسد مما * تسلّم من حصونكم كسدى
 ومالى أن أمر به ولكن * أوئل أن يؤخر يوم فقدى
 فأدرك دولة لك لست فيها * يجبار فتوصف بالتعدى
 على قوم بغوا فيكم علينا * لتعدى منكم ياخير معد
 لتعل بنا عليهم حيث كانوا * بغور من تهامة أو بنجد
 إذا ما سرت من بلد حرام * الى من بالمدينة من معد
 وماذا عزهم والخير منهم * بأشوس أعصل الأنياب ورد
 وأنت لمن بغى وعدا وأذكى * عليك الحرب وأسترداك مُرد

٨ - سلم بن عمرو الخاسر^(١)

كان منقطعاً الى البرامكة والى الفضل بن يحيى خصوصاً من بينهم ، وفيه يقول أبو العتاهية :

إنما الفضل لسلمٍ وحده * ليس فيه لسوى سلمٍ دركٌ

وكان هذا أحد الأسباب الى فساد ما بينه وبين أبي العتاهية . ولسلم يقول أبو العتاهية وقد حجَّ مع عُتْبَةَ :

والله والله ما أبالى متى * ما مت يا سلمٌ بعد ذا السفرِ
أليس قد طُفْتُ حيث طافت وقب * لمتُ الذي قبلتُ من الحجرِ

وله يقول أبو العتاهية وقد حبس إبراهيم الموصلي :

سلمٌ يا سلمٌ ليس دونك سرٌ * حبس الموصلي فالعيشُ مرٌ
ما استطاب اللذات ، مُدْ سَكَنَ المُط * بق رأس اللذاتِ والله ،^١
ترك الموصلي من خلق اللد * هُ جميعاً وعيشهم مُقَسَّدٌ^٢

(١) هو سلم (ويقال سالم) بن عمرو أحد موالى أبي بكر الصديق ، نشأ في البصرة ، وكان شاعراً مطبوعاً منصرفاً في فنون الشعر ، وكان مظاهراً بالخلاعة والفسوق والمجون ، وزاد شاعرية وتمرساً بالشعر على يد بشار ، لأنه كان راويه وتلميذه ، أخذ عنه واغترف من بحره ونسج على منواله ، وكثيراً ما كان يأخذ أقواله فيسلخها ويمسخها كما مسح هذا البيت :

من راقب الناس لم يظفر بحاجته * وفاز بالطيبات القاتك اللهبج

فعله :

من راقب الناس مات غماً * وفاز باللذة الجسور

فيلج بيته بشاراً فغضب وأقسم ألا يدخل عليه ولا يعيده مادام حياً ، فاستشفع اليه بكل صديق حتى رضى ورجحه وقعه بمحصرة كانت بيده . وكان صديقاً لابراهيم الموصلي المغمى المشهور ولأبي العتاهية . وكان يمدح البرامكة وخصوصاً الفضل بن يحيى . توفي سنة ١٨٦ هـ . وتجد ترجمته في الأغانى ج ٢١ ص ١١٠ وابن خلكان

لما قال بشار قصيدته الميمية في عمر بن العلاء وهي التي يقول فيها :

إذا نَهَيْتُكَ صِعَابَ الْأَحْوَرِ * فَنَبِيَّةٌ لَهَا عَمْرًا ثُمَّ نَمَّ
فَتَى لَا يَبِيْتُ عَلَى دِمْنَةٍ ^(١) * وَلَا يَشْرَبُ الْمَاءَ إِلَّا بَدَمَ

بعث بها مع سلم إلى عمر بن الملاء، فوفاه، فأنشده إياها، فأمر لبشار بمائة ألف درهم، فقال له سلم : إن خادمك - يعني نفسه - قد قال في طريقه فيك قصيدة، قال : فإنك هناك ! قال : تسمع ثم تحكم ؟ قال : هات، فأنشده :

قد عَزَّنِي الدَاءُ فَأَلَى دَوَاءٍ * نَمَّا الْأَقَى مِنْ حِسَانِ النِّسَاءِ
قَلْبٌ صَحِيحٌ كُنْتُ أَسْطُو بِهِ * أَصْبَحَ مِنْ سَلَمَى بَدَاءِ عِيَاءِ
أَنْفَامُهَا مِسْكٌَ وَفِي طَرْفِهَا * سِحْرٌ وَمَا لِي غَيْرُهَا مِنْ دَوَاءِ
وَعِدَّتِي وَعَدًّا فَأَوْفِي بِهِ * هَلْ تَصْلُحُ النَّمْرَةُ إِلَّا بِمَاءِ

ويقول فيها :

كَمْ كَرْبَةٍ قَدْ مَسَّنِي ضَرْهَا * نَادَيْتُ فِيهَا عَمْرَ بْنَ الْعَلَاءِ

فأمر له بمشرة آلاف درهم، فكانت أول عطية سنية وصلت إليه .

ومن قوله يَرِنِي بِأَقْوَنَةَ بِنْتَ الْمَهْدِيِّ :

أَوْدَى بِأَقْوَنَةَ رَبِيبَ أَرْزَمَانَ * مَوْئِسَةَ الْمَهْدِيِّ وَالْحَيْرَانَ
لَمْ تَنْطَوِ الْأَرْضُ عَلَى مِثْلِهَا * مَوْلُودَةٍ حَنَّ لَهَا الْوَالِدَانَ
بِأَقْوَنُ يَا بِنْتَ إِمَامِ الْمَهْدِيِّ * أَصْبَحَتْ مِنْ زِينَةِ أَهْلِ الْحِنَانِ
بَكَتْ لَكَ الْأَرْضُ وَسَكَّانُهَا * فِي كُلِّ أَفْقٍ بَيْنَ لَانِسٍ وَجَانِ

دخل سلم على الفضل بن يحيى في يوم تيروز والهدايا بين يديه، فأنشد :

رَبِّعْ تَسَائِلُهُ * وَقَدْ أَقْوَتْ مَنَازِلُهُ
بِقَلْبِي مِنْ هَوَى الْأَطْلَا * لِ حَبِّ مَا يَزَايِلُهُ

رَوَيْدُكُمْ عَنِ الْمَشْعُو * فِإِنْ الْحَبَّ قَاتِلُهُ
 بَلَابِلُ صَدْرِهِ تَسْرِي * وَقَدْ نَامَتْ عَوَازِلُهُ
 أَحَقُّ النَّاسِ بِالْتَفْضِيهِ * لِمَنْ مِنْ تَرْجِي فَوَاضِلُهُ
 رَأَيْتُ مَكَارِمَ الْأَخْلَا * قِ مَا ضَمَّتْ حَمَائِلُهُ
 فَلَسْتُ أَرَى قَتِي فِي النَّا * سِ إِلَّا الْفَضْلُ فَاضِلُهُ
 يَقُولُ لِسَانُهُ خَيْرًا * فَتَفْعَلُهُ أَنْامِلُهُ
 وَمَهْمَا يَرْجِ مِنْ خَيْرٍ * فَإِنَّ الْفَضْلَ فَاعِلُهُ

وكان ابراهيم الموصلي وابنه إسحاق حاضرين، فقال لإبراهيم: كيف ترى وتسمع؟ قال: نَ مرئي ومسموع، وفضل الأمير أكثر منه؛ فقال: خذوا جميع ما أهدى إلى اليوم فاقسموه بينكم أثلاثا إلا ذلك الثمالة، فإني أريد أن أهديه اليوم إلى دنانير؛ ثم قال: لا والله ما هكذا تفعل الأحرار، يقوم ويدفع اليهم ثمه ثم تهديه، فقوم بالنفي دينار، فحملها إلى القوم من بيت ماله وأقسموا جميع الهدايا بينهم .

كان المهدي يعطي مروان وسما الخاسر عطية واحدة، فكان سلم يأتي باب المهدي على البرذون الفاره، قيمته عشرة آلاف درهم بسرج ولحام مفضضين، ولباسه الخبز والوشى وما أشبه ذلك من الثياب الغالية الأثمان. ورائحة المسك والطيب والغالية تفوح منه، ويحيى مروان بن أبي حفصة عليه فروجك^(١) وقبيص^(٢) كرايس وعمامة كرايس^(٣) وخفاجيل وكساء غليظ، وهو ممتن الرائحة، وكان لا يأكل اللحم حتى يقرم إليه بجلا، فإذا قرم أرسل غلامه فاشترى له رأسا فأكله، فقال له قائل: أراك لا تأكل إلا الرأس. قال: نعم أعرف سعره فأمن خيانة الغلام ولا أشتري لحمًا فيطبخه فيأكل منه، والرأس آكل منه ألوانا: آكل من عنده لونا ومن غلصمته لونا^(٤) ومن دماغه لونا .

كان سلم قد بُيِّ بالِكيمياء، فكان يذهب بكلِّ شيء له باطلاً، فلما أراد الله عز وجل أن يصنع له عرف أن باب الشام صاحب كيمياء عجبياً، وأنه لا يصل إليه أحد إلا ليلاً، فسأل عنه، فدلوه عليه . قال : فدخلت إليه الى موضع معور^(١)، فدققت الباب فخرج إلىّ، فقال : من أنت عافاك الله؟ فقلت : رجل معجب بهذا العلم، قال : فلا تشهرني فإني رجل مستور إنما أعمل القوت، قلت : إني لا أشهرك إنما أقتبس منك، قال : فاكنتم ذلك، وبين يديه كوزٌ شبه صغير، فقال لي : ألق عروته، فقلعتها، فقال : اسبكها في البوتقة^(٢)، فسبكها، فأخرج شيئاً من تحت مصلاه فقال : ذره عليه، ففعلت، فقال : أفرغه، فأفرغته، فقال : دعه معك، فاذا أصبحت فأخرج فيه وعد إلىّ : فأخرجته الى باب الشام فبعث المتقال بأحد وعشرين درهماً ورجعت إليه فأخبرته، فقال : اطلب الآن ما شئت، قلت : تُفيدني؟ قال : بنجسائة درهم على ألا تعلمه أحداً، فأعطيته وكتب لي صفة فامتحنها فاذا هي باطلة، فعدت إليه . فقيل لي : قد تحوّل وإذا عروة الكوز الشبه من ذهب مركبة عليه، والكوز شبه، ولذلك كان يدخل إليه من يطلبه ليلاً ليخفي عليه، فانصرفت وعلمت أن الله عز وجل أراد بي خيراً وأن هذا كله باطل .

قال أبو المستهل : دخلت يوماً على سلم واذا بين يديه قراطيس فيها أشعار يرثي بعضها أم جعفر . وبعضها جارية غير مسماة . وبعضها أقواماً لم يموتوا، وأم جعفر يومئذ باقية، فقلت له : ويحك ما هذا؟ فقال : تحدثت الحوادث فيطالبوننا بأن نقول فيها ويستعجلوننا ولا يجمل بنا أن نقول غير الجيد . فتعد لهم هذا قبل كونه . فمتى حدثت حادثاً أظهرنا ما قلناه فيه قديماً على أنه قيل في الوقت .

دخل سلم على الرشيد فأنشده :
 حَى الأَحِبَّةَ بِالسَّلَامِ * فقال الرشيد : حياهم الله
 بِالسَّلَامِ ؛ فقال سلم :
 أَعَلَى وَدَاعِ أُمِّ مَقَامٍ * فقال الرشيد : حياهم الله على أيّ ذلك كان، فأنشده :

لَمْ يَبْقَ مِنْكَ وَمِنْهُمْ * غَيْرُ الْجُلُودِ عَلَى الْعِظَامِ

(١) معور : مخوف . (٢) الشبه : لتعاضد الأصغر . (٣) البوتقة : الوعاء الذي يذيب فيه الصانع .

فقال له الرشيد : بَلْ مِنْكَ ، وأمر بإخراجه ، وتطير منه ومن قوله ، فلم يسمع منه باقى الشعر ولا أمابه بشيء .

استوهب اسحاق الموصلي من الرشيد تركة سلم ، وكان قد مات عن غير وارث ، فوهبها له قبل أن يتسأها صاحب الموارث ، فحصل منها على خمسين ألف دينار ، وروى أنه رُفِعَ الى الرشيد أن سلما قد توفى وخلف مما أخذه منه خاصة ومن زُبَيْدة ألف ألف وخمسمائة ألف درهم سوى ما خلفه من عقارٍ وغيره مما اعتقده قديما ، فقبضه الرشيد وتظلم اليه مواليه من آل أبي بكر الصديق رضوان الله عليه ؛ فقال : هذا خادمى ونديمى ، والذي خلفه من مالى فانا أحقُّ به ، فلم يُعْطِهِمْ إلا شيئا يسيرا من قديم أملاكه .

(١) املكه .

٩ - رِبِيعَةُ الرَّقِيِّ^(١)

كان مُنْقَطِعًا عن الحضارة ، بعيدًا عن مُجَالَسَةِ الخلفاء ، فَتَحَمَلَ ذِكْرَهُ بسبب ذلك ؛ لكنهم كانوا يستقدمونه اليهم . وأوَّل من فعل ذلك المَهْدِيُّ ، فمدحه ونال جَوَائِزَهُ ؛ وكان ابنُ المُعْتَرِي ربيعةَ أشعرَ غَزَلًا من أبي نُؤاس ، لأن في غَزَلِ أبي نُؤاس بردًا كثيرًا ، وغَزَلَ هذا سليمٌ عُدب سهل ، ولذلك فإن شهرته بلغت إلى بلاط الخليفة . وكان يمدح غير الخلفاء ويتأل جوائزهم ويعود الى بلده ، وإن قصر أحد في إعطائه هجاء ، وله في ذلك حديثٌ مع العباس بن محمد بن علي من أمراء بني العباس .

ومن قوله يمدح يزيد بن حاتم المهلبي ويهجو يزيد بن أسيد السلمي :

حَلَفْتُ يَمِينًا غَيْرَ ذِي مَثْنَوِيَّةٍ * يَمِينِ أَمْرِي آلِي بِهَا غَيْرِ أَيْمِ
لَسْتَانِ مَا بَيْنَ الْيَزِيدِيْنَ فِي النَّدَى * يَزِيدِ سُلَيْمٍ وَالْأَعْمَرِ ابْنَ حَاتِمِ
يَزِيدُ سُلَيْمٍ سَالِمُ الْمَالِ ، وَالْفَقِي * أَخُو الْأَزْدِ لِلْأَمْوَالِ غَيْرُ مُسَالِمِ
فَهَمَّ الْفَقِي الْأَزْدِيَّ بِإِتْلَافِ مَالِهِ * وَهَمَّ الْفَقِي الْقَيْسِيَّ بِجَمْعِ الدَّرَاهِمِ
فَلَا يَحْسَبُ التَّمَتُّامُ أَنِّي هَجَوْتُهُ * وَلَكِنِّي فَضَّلْتُ أَهْلَ الْمَكَارِمِ

قال رجلٌ لربيعه : يا أبا أسامة ، ما حملك على أن هجوت رجلاً من قومك وفضلت عليه رجلاً من الأزدي؟ فقال : أخبرك ، أملتُ فلم يبق لي إلا دارى ، فرهنتها على خمسمائة درهم ، ورحلتُ اليه الى أرمينية ، فأعلمته بمكاني ومدحتي ، وأقمتُ عنده حولاً ، فوهب لي

(١) هو أبو أسامة ربيعة بن ثابت من موالى سليم ، ويكنى أبا شباية ، وكان ينزل الرقة ، وبها مولده ومشوؤه ، فأشخصه المهدي إليه ، مدحه بسدة قصائد وأثابه عليها نواباً كبيراً ، وهو من المكثرين الجيدين ، وكان ضريراً وإنما أحمل ذكره وأسقطه عن طبقته بعده عن العراق وتركه خدمة الخلفاء ، ومحالطة الشعراء . ومع ذلك فما عدم مفضلاً مقدماً له . - وتجده أخباره في الأغاني (ح ١٥ ص ٣٨) ونزارة الأدب للغدادي (ج ٣ ص ٥٥) .

نعمسائة درهم ، فحملتُ وصرتُ بها الى منزلي ، فلم يبقَ معي كبيرُ شيءٍ ، فنزلتُ في دارِ يكرَاءَ ، فقلتُ : لو أتيتُ يزيدَ بنَ حاتمٍ ، ثم قلتُ : هذا ابنُ عمي فعلَ بي هذا الفعلَ فكيفَ بغيره ! ثم حملتُ نفسي على أن أتياه ، فأعلمَ بمكاني ، فتركني أشهرا حتى صحرتُ ، فأكرتُ نفسي من الحمالين . وكتبتُ بيتاً في رُقعةٍ فالقيتهُ في دِهليزه ، والبيتُ :

أرأيتُ ولا كُفْرَانَ لله راجِعاً * بجنْفِ حُتَيْنٍ من يزيدِ بنِ حاتمٍ

فوقعت الرُقعةُ في يد حاجبه ، فأوصلها اليه من غير علمي ولا أمرى ، فبعثَ خَلْفِي ، فلما دخلتُ عليه قال : هيه أنشدني ما قلتُ ، فتممتُ ، فقال : والله لئن شِدَدتني ، فأنشدته ، فقال : والله لا ترجعُ كذلك ، ثم قال : أنزعوا حُقيهِ ، فَنَزِعَا فُشَاهُمَا دنانيرَ وأمر لي بِنِلمَانٍ وجوارِ وكسِي ، ألا ترى لي أن أمدحَ هذا وأهجوَ ذاك ؟ قلتُ : بلى والله ، وسارِ شعري حتى بلغَ المهديَّ ، فكان سببَ دخولي اليه .

قيل لأبي زيد النحوي : إن الأصمعي قال : لا يقال شَتَانٌ ما بينهما ، وإنما يقال : شَتَانٌ ما هما ، وأنشد قول الأعشى : * شَتَانٌ ما يؤمى على كُورِها * فقال : كَذَبَ الأصمعيُّ ، يقال : شَتَانٌ ما هما وشَتَانٌ ما بينهما ، وأنشد لربيعه الرقي : « لَشَتَانٌ ما بين اليزيديين » وفي آسْتَشهادِ مِثْلِ أبي زيد على دَفْعِ قولِ مثلِ الأصمعيِّ بشعيرِ ربِيعَةٍ كِفايَةً له في تفضيله .

أمتدح ربِيعَةُ العبَّاسِ بنِ محمدِ بنِ علي بقصيدة لم يُسَبِّقِ إليها حُسْنًا ، وهي طويَلة ، يقول فيها :

لو قيل للعبَّاسِ يا بنَ محمدٍ * قُلْ « لا » وأنتَ مُخَلَّدٌ ما قالها

ما إن أَعُدُّ من المكارمِ حَصلَةً * إلا وجدتُك عمَّها أو خالها

وإذا الملوكُ تَسايَروا في بلدِ * كانوا كواكبها وكنْتَ هلالها

إن المكارمَ لم تزلْ معقولةً * حتى حَلَّتْ بِرِاحَتِكَ عِقالها

فبعثَ اليه بدينارين ، وكان يُقدَّرُ فيه ألفين ، فلما نظر الى الدينارين كاد يُبْحِنَ غِيظًا وقال للرسول : خذْ هذين الدينارين فهما لك على أن تُردَّ الرُقعةُ اليّ من حيث لا يدري العبَّاسُ ، ففعل الرسولُ ذلك ، فأخذها ربِيعَةُ وأمر من كتب في ظهرها :

مدحتك مدحة السيف المحلى * لتجري في الكرام كما جريت
فهبها مدحة ذهب ضياعاً * كذبت عليك فيها وأفريت
فانت المرء ليس له وفاء * كأني إن مدحتك قد زينت

ثم دقهما الى الرسول وقال : ضعها في الموضع الذي أخذتها منه ، فردها الرسول ؛ فلما كان من الغد أخذها العباس فنظر فيها ، فلما قرأ الأبيات غضب وقام من وقته فركب إلى الرشيد ، وكان أثيراً عنده يُجِله ويقدمه ، وكان قد هم أن يحطب إليه آبنته ، فرأى الكراهة في وجهه ، فقال : ما شأنك ؟ فقال : هجاني ربيعة الرقي ، فأحضر ، فقال له الرشيد : تهجو عمي وأثر الخلق عندي ؟ لقد هممت أن أضرب عنقك ، فقال : والله يا أمير المؤمنين لقد مدحتك بقصيدة ما قال مثلها أحد من الشعراء في أحد من الخلفاء ، ولقد بالغت في الثناء وأكثرت في الوصف ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمره بإحضارها ! فلما سمع الرشيد ذلك منه سكن غضبه وأحب أن ينظر الى القصيدة ، فأمر العباس بإحضار الرقعة ، فتلكأ عليه العباس ، فقال له الرشيد : سألتك بحق أمير المؤمنين إلا أسررت بإحضارها ، فلم العباس أنه قد أخطأ وغلط . فأمر بإحضارها ، فأحضرت ، فأخذها الرشيد واذا فيها القصيدة بعينها ، فاستحسنها وأستجدها وأعجب بها وقال : والله ما قال أحد من الشعراء في أحد من الخلفاء مثلها ، لقد صدق ربيعة وبر ، ثم قال للعباس : بم أثبتت عليها ؟ فسكت العباس وتغير لونه وجرض بريقه ، فقال ربيعة : أثنابي عليها يا أمير المؤمنين بدينارين ، فتوهم الرشيد أنه قال ذلك من الموجدة على العباس ، فقال : بجياتي يا رقي بك أتابك ؟ قال : وحياتك يا أمير المؤمنين ما أثنابي عليها إلا بدينارين ، فغضب الرشيد غضباً شديداً ونظر في وجه العباس وقال : سوء لك ! أي حالٍ قعدت بك عن إتابته ؟ الأموال ؟ فوالله لقد مولتك جهدي ، أم انقطع المادّة عنك ؟ فوالله ما انقطعت ، أم أصلك ؟ فهو الأصل لا يُدانيه شيء . أم نفّسك فقلت ذلك بك حتى فضحت آباءك وأجدادك وفضحتني

وَنَفْسِكَ؟ فَكَفَسَ الْعَبَّاسُ رَأْسَهُ وَلَمْ يَنْطِقْ، فَقَالَ الرَّشِيدُ: يَا غَلَامُ، أَعْطِ رِبْعَةَ ثَلَاثِينَ أَلْفَ دَرَاهِمٍ وَخِلْعَةً وَأَحْمِلْهُ عَلَى بَغْلَةٍ؛ فَلَمَّا حَمَلَ الْمَالُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَالْبَيْسَ الْخِلْعَةَ قَالَ: بِحَيَاتِي يَارِقُ لَا تَذْكُرْهُ فِي شِعْرِكَ لَا تَعْرِضْهُ وَلَا تَصْرِيحًا، وَقَرَّرَ الرَّشِيدُ عَمَّا كَانَ هَمُّهُ بِهِ أَنْ يَتَرَوَّجَ إِلَيْهِ، وَظَهَرَ لَهُ مِنْهُ بَعْدَ ذَلِكَ جَفَاءً كَثِيرًا وَأَطْرَاحَ لَهُ .

قال أبو بشر: كُنْتُ حَاضِرًا رِبْعَةَ الرَّقِيِّ يَوْمًا وَجَاءَتْهُ أَمْرَأَةٌ فَتَالَتْ: تَقُولُ لَكَ فُلَانَةٌ إِنْ بِنْتَ مَوْلَايَ مَحْمُومَةً فَإِنْ كُنْتَ تَعْرِفُ لَهَا عَوْدَةً فَأَفْعَلْ، فَقَالَ أَكْتُبْ لَهَا أَبَا بَشْرٍ هَذِهِ الْعَوْدَةُ:

تُقُوا نُقُومًا بِأَسْمِ الْهَمِيِّ الَّذِي * لَا يَعْرِضُ السُّقْمَ لِمَنْ قَدْ شَفَى
أُعِيدُ مَوْلَاتِي وَمَوْلَاتَهَا * وَأَبْتَهَا بِعَوْدَةِ الْمُصْطَفَى
مَنْ شَرًّا مَا يَعْرِضُ مِنْ عِلَّةٍ * فِي الصَّبْحِ وَاللَّيْلِ إِذَا أَسَدْنَا

فقلتُ له: يَا أَبَا ثَابِتٍ، لَسْتُ أَحْسِنُ أَنْ أَكْتُبَ نُقُومًا نُقُومًا، فَكَيْفَ أَكْتُبُهَا؟ قَالَ أَنْضَحَ الْمِدَادَ مِنْ رَأْسِ الْقَلَمِ فِي مَوْضِعَيْنِ حَتَّى يَكُونَ كَالنَّقْثِ، وَأَدْفَعُ الْعَوْدَةَ إِلَيْهَا فَإِنَّهَا نَافِعَةٌ، فَفَعَلْتُ وَدَفَعْتُهَا إِلَيْهَا، فَلَمْ تَلْبَثْ أَنْ جَاءَتْ الْجَارِيَةُ وَهِيَ لَا تَمْلِكُ صَحْكًا، فَقَالَتْ لَهُ: يَا مَجْنُونُ مَا فَعَلْتَ بِنَا! كِدْنَا نَفْتَضِحُ بِمَا صَنَعْتَ! قَالَ: فَمَا أَصْنَعُ! أَشَاعِرُ أَنَا أَمْ صَاحِبُ تَعَاوِيذٍ! .

وَأَتَّفَقَ لِلرَّقِيِّ أَيْضًا مِثْلَ ذَلِكَ مَعَ مَعْنِ بْنِ زَائِدَةَ، وَقَدْ لَقِيَهُ فِي بَعْضِ قَدَمَاتِهِ إِلَى الْعِرَاقِ .
فَدَحَهُ، فَلَمْ يَهَسَّ لَهُ، فَهَجَّاهُ بِقَصِيدَةٍ مَطْلَعُهَا:

مَعْنُ يَا مَعْنُ يَا بَنُ زَائِدَةَ الْكَلْبِ الَّذِي فِي الذَّرَاعِ لَا فِي الْبَنَانِ
لَا تُفَاحِرْ إِذَا نَفَرْتَ يَا أَبَا * بُكِّ وَأَنْفَرْ بِعَمِّكَ الْحَوْفِرَانَ ^(٣)

(١) العودَة : الرقية يرقى بها الإنسان من ورع أو جنون أو مرض . (٢) الغث البصاق اليسير ينهته الرقيق في العقدة عند الرقية .

(٣) الحوفران هو الحارث بن شريك الشيباني، سمى بذلك لأن قيس بن عاصم التميمي حمزه بالرح حين خاف أن يفوته، وقد نخر بذلك سوار بن حبان المقرئ فقال: ونحن حفزنا الحوفران بطعنة * سقته مجيحا من دم الحوف أشكلا

ومن غزله آياتٌ يُغنى بها، وهي :

- * سِوَاهَا وَهَذَا الْبَاطِلُ الْمُتَقَوِّلُ
- * وَتَزَعُمُ أَنِّي قَدْ تَبَدَّلْتُ خَلَّةً
- * لَمَّا اللَّهُ مِنْ بَاعِ الصَّدِيقِ بغيره * فَقَالَتْ نَعَمْ حَاشَاكَ إِنْ تَكُ تَفْعَلُ
- * سَتَصِيرُ إِنْسَانًا إِذَا مَا صَرَمْتَنِي * بِحَبِّكَ فَانظُرْ بَعْدَهُ مِنْ تَبَدَّلَ

(١) الخلة : الخلية

١٠ - الرقائش^(١)

كان سهّل الشعر مطبوعاً ، وكان مُنْقَطِعاً إلى آل بَرَمَك ، مُسْتَعْتَباً بهم عن سواهم ، وكانوا يَصُولون به على الشعراء ، ويُرَوون أولادهم أشعاره ، ويدُونونها القليل والكثير منها ، تَعْصَباً له ، وحِفْظاً لخدمته ، وتَتَوِيهاً باسمه ، وتحريكاً لنشاطه ، حَفِظَ ذلك لهم . فلما نُكِبوا صار إليهم في حبسهم ، فأقام معهم مدة أيامهم يُنشدُّهم ويُسامرهم حتى ماتوا ، ثم رثاهم فأكثر من رثائهم ؛ فمن ذلك قوله في جعفر :

كَمْ هَاتِفٍ بِكَ مِنْ بَالِكٍ وَبَاكِئَةٍ * يَا طِيبَ اللَّضِيفِ إِذْ تُدْعَى وَبِالْجَارِ
إِنْ يُعَدَمَ الْقَطْرُ كُنْتَ الْمُزْنَ بَارِقَهُ * لَمَعُ الدَّانِيَرِ لَا مَا خَيْلَ السَّارِي

وقوله :

لَعَمْرُكَ مَا بِالْمَوْتِ عَارٌّ عَلَى الْفَتَى * إِذَا لَمْ تُصِبْهُ فِي الْحَيَاةِ الْمَعَارِ^(٢)
وَمَا أَحَدٌ حَىٌّ وَإِنْ كَانَ سَالِمًا * بِأَسْلَمَ مِمَّا غَيَّبَتْهُ الْمَقَابِرُ
وَمَنْ كَانَ مِمَّا يُحَدِّثُ الدَّهْرُ جَازِعًا * فَلَا بَدَّ يَوْمًا أَنْ يُرَى وَهُوَ صَابِرُ
وَلَيْسَ لَدَى عَيْشٍ عَنِ الْمَوْتِ مُقَصِّرٌ * وَلَيْسَ عَلَى الْأَيَّامِ وَالذَّهْرِ غَابِرُ
وَكُلُّ شَبَابٍ أَوْ جَدِيدٍ إِلَى الْبَلِي * وَكُلُّ أَمْرِيٍّ يَوْمًا إِلَى اللَّهِ صَائِرُ
فَلَا يُبْعِدُنكَ اللَّهُ عَنِّي جَعْفَرًا * بِرُوحِي وَلَوْ دَارَتْ عَلَى الدَّوَابِرُ
فَأَيَّتُ لَا أَنْفَكَ أُبَيْكَ مَا دَعَتْ * عَلَى قَنِينٍ وَرَقَاءُ أَوْ طَارَ طَائِرُ

ومن ذلك قوله لما صُلبَ الفضل بن يحيى وأجتاز به الرقائش وهو مصلوبٌ على

الخدع ، فوقف يبكي ثم قال :

(١) هو الفضل بن عبد الصمد مولى رقاش ، وهو من أهل الصرة . توفى سنة ٢٠٠ هـ . وتجد ترجمته

في الأغاني (ج ١٥ ص ٣٥) ورويات الوفيات (ح ٢ ص ١٢٥) والشعر والشعراء (ص ٥١٥) .

(٢) المعاري : المعايير .

أما والله لولا خَوْفُ وإِش * وَعَيْنٌ لِلخليفة لا تَتَّامُ
لَطْفَنَا حولِ جِدْمِكَ وَأَسْتَأْمِنَا * كما للناسِ بِالْحَجَرِ أَسْتَلَامُ
فما أَبصرتُ قَبْلَكَ يا ابنَ يَحْيَى * حُسَامًا حَتْفَهُ السيفُ الحُسَامُ
عِلى اللِّدَا ، والدنيا جميعا * ودولةِ آلِ بَرْمَكِ السِّلَامِ

فكتب أهل الأخبار بذلك الى الرشيد، فأحضره فقال : ما حملك على ما قلت؟ فقال :
يا أمير المؤمنين كان إلى مُحْسِنًا ، فلما رأيتُه على الحال التي هو عليها حرّكتني إحسانه فما ملكتُ
نفسى حتى قلتُ الذى قلته؛ قال : ولم كان يُجرى عليك؟ قال : ألف دينارٍ فى كلِّ سنةٍ ،
قال : إنا قد أضعفناها لك .

ومن قوله يَصِفُ جاريةً :

صَفَاتٌ وَحُسْنٌ أَوْرْنَا القَلْبَ لَوْعَةً * تَضَرَّمُ فى أَحشَاءِ قَلْبِ مَنِيمٍ
مُتَّئِلُهُا نَفْسِي لِمَنِى فَأَنْتَنِى * عليها بِطَرْفِ النَّاطِرِ المِتِّيمِ
يُحْمَلِي حُبِّي لها فَوْقَ طاقِي * من الشوقِ دَابَّ الحائِرِ المِتِّقِمِ

(١)
١١ - أبو العتاهِ

قال أحمد بن زهير : سمعت مُصعب بن عبد الله يقول : أبو العتاهية أشعر الناس ،
فقلت له : بأى شيء أستحق ذلك عندك ؟ فقال بقوله :

تعلقتُ بآمالٍ * طِوالٍ أَىَّ آمالٍ
وأقبلتُ على الدنيا * مُلِحًا أَىَّ إقبالٍ
أيا هذا تَجَهَّزًا * فِراقِ الأهلِ والمالِ
فلا بد من الموت * على حال من الحال

ثم قال مصعب : هذا كلام سهل حق لا حشو فيه ولا نقصان ، يعرفه العاقل ويقتر به
الجاهل . وكان الأصمعي يستحسن قوله :

(١) هو أبو إسحاق إسماعيل بن القاسم بن سويد ، أطبع أهل زمانه شعرا وأكثرهم قولاً وأسهلهم لفظاً ،
وأسرعهم بديهة وأرتجالاً ، وأزل من فتح للشعراء باب الوعظ والزهد في الدنيا والنهي عن الاعتزاز بها ، وأكثر
من الحكمة .

ولد بين القرنين ١٣٠ هـ ونشأ بالكوفة في عمل أهله . وكانوا باعة جرار ، إلا أنه وبأب نفسه عن عمله وقال
الشعر في صباه وامتزج بلحمه ودمه حتى صار كما قال هو عن نفسه « لو شئت أن أجعل كلامي كله شعرا لمعلت »
فذاع صيته وسلك طريق حلعاء الكوفة . ثم قدم ببغداد وودج المهدي وتعرف بعض خدام قصر الخلافة
وجواريه فتعشق منهن فتاة تدعى عتبة ، ولما يس منها لها عنها بعض الشيء . ودرس كثيرا من مذاهب المتكلمين
والشيعة والجبورية والزهاد فكان يسلك كل مذهب منها مدة ثم ينتقل عنه إلى الآخر حتى احتار له من كل ذلك
عقيدة مختلطة أضمت به إلى العبادة والزهد في الدنيا قولاً ومعيشة على إفراط منه في حب المال والجمع له
واليحل به على الأهل والولد والخدم .

ولم يأت عصر الرشيد حتى أضرب عن العزل وقصر قوله على الزهد في الدنيا والتذكير بالموت وأهواله ، وهو في حلال
ذلك يمدح الخليفة ومولوك الدولة ويأخذ جوائزهم ، ثم عرضت له حال امتنع فيها عن قول الشعر البتة حتى حبسه الرشيد
لعدم تلبية ما اقترحه عليه من القول فيه ثم أطلقه بعد أن أجاب طلبه ، وعاد إلى قول الشعر على عادته فيه وترك العزل
والهجاء ، وبقى على ذلك مدة الرشيد والأمير وأكثر أيام المأمون . توفي سنة ٢١١ هـ .

وله ديوان مطبوع في بيروت سنة ١٨٨٧ وتجسد أثنائه في الأغاني ح ٣ ص ١٢٦ وح ٦ ص ١٨٦
وح ٨ ص ٢٤ وأن خلكان ح ١ ص ٧١ وطبقات الشعراء ص ٤٩٧ والفهرست ص ١٦٠ .

أنت ما استغنيت عن صا * حيك الدهر أخوه
فاد تجت إليه * ساعة مجك فوه

وأنشد له سلم الخاسر :

سكن يتيق له سكن * ما بهذا يؤذن الزمن
نحن في دار يخبرنا * بيلاها ناطق لسن
دار سوء لم يدم فرح * لأمرىء فيها ولا حزن
في سبيل الله أنفسنا * كلنا بالموت مرتين
كل نفس عند ميتتها * حظها من مالها الكفن
إن مال المرء ليس له * منه إلا ذكره الحسن

وقال عبد الله بن عبد العزيز العمري : أشعر الناس أبو العتاهية حيث يقول :

ما ضرّ من جعل التراب مهاده * ألا ينام على الحرير إذا قنع

وقيل لأبي العتاهية : كيف تقول الشعر؟ قال : ما أردته قط إلا مثل لي ، فأقول

ما أريد وأترك ما لا أريد . وكان يقول : لو شئت أن أجعل كلامي شعرا كله لفعلت .

حم الرشيد فصار أبو العتاهية إلى الفضل بن الربيع برقة فيها :

لو علم الناس كيف أنت لهم * ماتوا إذا ما أت أجمعهم
خليفة الله أنت ترشح بالناس * س إذا ما وزنت أنت وهم
قد علم الناس أن وجهك يغ * نى إذا ما رآه معدمهم

فأنشدها الفضل بن الربيع الرشيد ، فأمر بإحضار أبي العتاهية ، فما زال يسامرهم ويحدثه

إلى أن برى ، ووصل إليه بذلك السبب مأل جليل . وقد حدث ابن الأعرابي بهذا

الحديث ، فقال له رجل بالمجلس : ما هذا الشعر بمستحق لما قلت ؟ قال : ولم ؟ قال :

لأنه ضعيف ؛ فقال ابن الأعرابي ، وكان أحد الناس ، الضعيف والله عقلك لا شعر

أبي العتاهية، الأبي العتاهية تقول إنه ضعيف الشعر! فوالله ما رأيتُ شاعراً قطَّ أطبعَ
ولا أقدر على بيت منه، وما أحسب مذهبه إلا ضرباً من السحر؛ ثم أنشد له :

قَطَّعْتُ مِنْكَ حَبَائِلَ الْآهَالِ * وَحَطَّطْتُ عَنْ ظَهْرِ الْمَطِيِّ رِحَالِي
وَيَسْتُ أَنْ أَبْقَى لشيءٍ نِلْتُ مَمَّ * مَا فِيكَ يَا دُنْيَا وَأَنْ يَبْقَى لِي
فَوَجَدْتُ بَرْدَ الْيَاسِ بَيْنَ جَوَانِحِي * وَأَرَحْتُ مِنْ حِلٍّ وَمِنْ تَرَحَالِ
يَأْيَاهَا الْبَطْرِ الَّذِي هُوَ مِنْ غَدٍ * فِي قَبْرِهِ مَمْتَزِقُ الْأَوْصَالِ
حَدَفَ الْمُنَى عَنْهُ الْمُشَمَّرُ فِي الْهَدَى * وَأَرَى مِنْكَ طَوِيلَةَ الْأَذْيَالِ
حَيْلُ ابْنِ آدَمَ فِي الْأُمُورِ كَثِيرَةٌ * وَالْمَوْتُ يَقْطَعُ حِيَلَةَ الْمُحْتَالِ
مَا لِي أَرَاكَ لِحْرَ وَجْهِكَ مُحَلِّقًا * أَخْلَقْتَ يَا دُنْيَا وَجُوهَ رِجَالِ
قَسْتُ السُّؤَالَ فَكَانَ أَعْظَمَ قِيمَةً * مِنْ كُلِّ عَارِفَةٍ بَحْرَتْ بِسُؤَالِ
فَإِذَا أَبْتَلَيْتَ يَبْدُلُ وَجْهَكَ سَائِلًا * فَايْدُلُهُ لِلتُّكْرَمِ الْمِفْضَالِ
وَإِذَا حَشَيْتَ تَعَدَّرًا فِي بَلَدَةٍ * فَاشْدُدْ يَدَيْكَ بِعَاجِلِ التَّرْحَالِ
وَأَصْبِرْ عَلَى غَيْرِ الزَّمَانِ فَإِنَّمَا * فَرَجَ الشَّدَائِدِ مِثْلُ حَلِّ عَقَالِ

ثم قال للرجل : هل تعرف أحداً يحسن أن يقول مثل هذا الشعر؟ فقال له الرجل :
يا أبا عبد الله، جعلني الله فداءك، إني لم أزد عليك ما قلت، ولكن الزهد مذهب
أبي العتاهية، وشعره في المديح ليس كشعره في الزهد؛ فقال: أفليس الذي يقول في المديح:

وَهَارُونَ مَاءُ الْمُنَى يَسْنِي مِنَ الصَّدَى * إِذَا مَا الصَّيْدِي بِالرِّيقِ غَصَّتْ حَنَاجِرُهُ
وَأَوْسَطُ بَيْتٍ فِي قَرِيشٍ لَبِيْتُ * لِي عِزٌّ فِي فَرِيشٍ وَ
وَزَحْفٌ لَهُ تَحْكِي الْبُرُوقِ سَيُوفُهُ * وَتَحْكِي الرُّعُودَ الْقَاصِفَاتِ حَوَافِرُهُ
إِذَا حَمِيَتْ شَمْسُ النَّهَارِ تَصَاحَكْتُ * إِلَى الشَّمْسِ فِيهِ بَيْضُهُ وَمَعَا فِرُهُ
إِذَا نَكَبَ الْإِسْلَامُ يَوْمًا بِنَكْبَةٍ * فَهَارُونَ مِنْ بَيْنِ الْبَرِيَّةِ نَائِرُهُ
وَمَنْ ذَا فَيُوتِ الْمَوْتَ وَالْمَوْتَ مُدْرِكٌ * كَذَا لَمْ يَفُتْ هَارُونَ صِدْقُ بِنَافِرُهُ

فتخلص الرجل من شرّ ابن الأعرابي بأن قال له : القول كما قلت ، وما كنت سمعت له مثل هذين الشعرين ، وكتبهما عنه .

قال مُثَمَّة بن أُشْرَس أنشدني أبو العتاهية :

إذا المرء لم يُعْتِقْ من المال نفسه * تملكه المأل الذي هو مالكه

ألا إنما مالى الذى أنا مُنْفِقٌ * وليس لي المأل الذى أنا تاركه

إذا كنت ذا مال فبادر به الذى * يَحْقِّقْ وإلا استهلكته مهالكه

فقلت له : من أين قضيت بهذا؟ فقال : من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إنما لك من مالك ما أكلت فأفانيت أو لبست فألبيت أو تصدقت فأمضيت" . فقلت له : أتؤمن بأن هذا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنه الحق؟ قال : نعم؛ قلت : فلم تحبس عندك سبعا وعشرين بدرة في دارك ولا تأكل منها ولا تشرب ولا تزكي ولا تقدمها ذنرا ليوم فقرك وفاقتك؟ فقال : يا أبا معن ، والله إن ما قلت هو الحق ، ولكنى أخاف الفقر والحاجة إلى الناس ؛ فقلت : ويم تريد حال من أفقر على حالك وأنت دائم الحرص ، دائم الجمع ، شحيح على نفسك ، لا تشتري اللحم إلا من عيد إلى عيد؟ فترك جواب كلامي كله . ثم قال لى : والله لقد اشتريت في يوم عاشوراء لحما وتوابله وما يتبعه بخمسة دراهم ؛ فلما قال هذا القول أضحكني حتى أذهلني عن جوابه ومعاتته ، فأمسكت عنه وعلمت أنه ليس ممن شرح الله صدره للإسلام .

زار مرة عمرو بن مسعدة فحجب عنه ، فلزم منزله ، فاستبطأه عمرو ، فكتب إليه :

كسلى اليأس عنك فما أر

فقع طرفي اليك من غسل

إني إذا لم يكن أني ثقة

قطعت منه حبال الأمل

وكتب إليه مرة أخرى

مألك قد حلت عن إحاثك وآس

لم يك عندي في هجره نظره

(١)

لَسْمُ تَرْجَةٍ لِلْحَسَابِ وَلَا * يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ مُنْفَطِرَةً
لَكِنْ لَدُنِيَا كَالظَّلِّ بِهَجَّتِهَا * سَرِيعَةَ الْإِقْتِضَاءِ مُذْشِمِرَةً
قَدْ كَانَ وَجْهِي لَدَيْكَ مَعْرِفَةً * فَالْيَوْمِ أَحْضَى حَرْفًا مِنَ النَّكْرِه

جاس المهدى للشعراء يوما فأذن لهم ، وفيهم بشار وأشجع ، وكان أشجع يأخذ عن بشار ويعظمه ، وكان في القوم غير هذين أبو العتاهية ، قال أشجع : فلما سمع بشار كلام أبي العتاهية قال : يا أحاسليم ، أهذا ذلك الكوفي الملقب ؟ قلت : نعم ، قال : لا جرى الله خيرا من جمعنا معه ؛ ثم قال له المهدى : أنشد ، فقال : ويحك ! أو يستشد أيضا قلبنا ؟ فقلت : قد ترى ؛ فأنشد :

أَلَا مَا لَسَيْدَتِي مَا لَهَا * أَدُلًّا فَاحْمَلْ إِدْلَاهَا
وَيْلَا تَجَنَّتْ وَمَا * جَنَيْتَ سِوَى اللَّهِ أَطْلَاهَا
أَلَا إِن جَارِيَةً لِلْإِمَا * مَ قَدْ أَسْكَنَ الْحَسَنَ سِرْبَاهَا
مَشَّتْ بَيْنَ حُورٍ قِصَارِ الْخَطَا * تُجَادِبُ فِي الْمَشَى أَكْفَالَهَا
وَقَدْ أَتَعَبَ اللَّهُ نَفْسِي بِهَا * وَأَتَعَبَ بِاللَّوْمِ عُدَاهَا

فقال بشار لأشجع : ويحك يا أحاسليم ! ما أدرى من أى أمر به أعجب ، أمن ضعف ، شعره أم من تشبيهه بجارية الخليفة وهو يسمع ذلك بأذنه ؟ حتى أتى على قوله :

أَنْتَهِ الْخِلَافَةُ مُنْقَادَةٌ * إِلَيْهِ تُجَرَّرُ أَذْيَاهَا
فَلَمْ تَكِ تَصْلُحْ إِلَّا لَهُ * وَلَمْ يَكِ يَصْلُحْ إِلَّا لَهَا
وَلَوْ رَامَهَا أَحَدٌ غَيْرُهُ * لَزُلْزِلَتْ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا
وَلَوْ لَمْ تُطْعَمْ بِنَاتِ الْقُلُوبِ * لَمَّا قِيلَ اللَّهُ أَعْمَالَهَا
وَإِنْ الْخَلِيفَةُ مِنْ بَغِضٍ "لَا" * إِلَيْهِ لِيُبْغِضُ مَنْ قَالَهَا

فقال بشار لأشجع وقد آهتر طربا : ويحك يا أحاسليم ، أترى الخليفة لم يطر عن فراشه طربا لما أتى به هذا الكوفي !

ولما آتته منصور بن عمار بالزندقة، لأنه لا يذكر في شعره الجنة والنار وإنما يذكر

الموت، قال فيه :

يا وأعظ الناس قد أصبحت متهما * إذ عبت منهم أمورا أنت تأتيها
كالمليس الثوب من عرى وعورته * للناس بادية ما إن يوارىها
فأعظم الإثم بعد الشرك نعلمه * في كل نفس عمّاها عن مساويها
عرفانها بعيوب الناس تبصرها * منهم ولا تبصر العيب الذي فيها

وقيل له : زعم الناس أنك زنديق، فقال : والله ما ديني إلا التوحيد ، فقيل له قل

شيئا يتحدث به عنك، فقال :

ألا إنا كلنا بائد * وأى بى آدم خالد
وبدوهم كان من ربهم * وكل إلى ربه عائد
فيأجبا كيف يعصى الإله أم كيف يحده الجاحد
وفي كل شيء له آية * تدل على أنه واحد

وسمع الجاحظ مرة من ينشد أرجوزة أبي العتاهية التي سماها "ذوات الأمثال" حتى

أتى على قوله :

بالشباب المرح التصابي * روائح الجنة في الشباب

فقال للشهد : قف، ثم قال : أنظروا إلى قوله : «روائح الجنة في الشباب» فإن له معنى

كعنى الطرب لا يقدر على معرفته إلا القلوب، وتعجز عن ترجمته الألسنة إلا بعد التطويل وإدامة التفكير، وخير المعاني ما كان القلب إلى قبوله أسرع من اللسان إلى وصفه . وهذه

الأرجوزة من بدائع أبي العتاهية، ويقال : إن فيها أربعة آلاف مثل، منها قوله :

حسبك مما تبغيه القوت * ما أكثر القوت لمن يموت
الفقر فيا جاوز الكفا * من أتقى الله رجاً وخافا
هي المقادير فلنبي أو قدر * إن كنت أخطأت فما أخطأ القدر

لِكُلِّ مَا يُؤْذِي وَإِنْ قَلَّ أَلَمٌ ما أطول الليل على من لم يَنَمْ
ما أنتفع المرءُ بمثل عقْلِهِ وخيرُ ذُنُوبِ المرءِ فعله
إِنْ الفسادُ ضِدُّه الصِّلاحُ ورُبَّ جِدِّ سره المُزاحُ
مَنْ جَعَلَ التَّامَّ عَيْنًا هَلَكَا مُبْلِغَكَ الشَّرَّ بَكَائِهِ لَكَا
إِنْ الشَّبَابَ والقِرَاعَ وَالْحَدَه مَفْسَدَةٌ للِرءِ أَى مَفْسَدَه
تُغْنِيكَ عَرَبِيَّةٌ كَلَّ قَبِيحُ تَرْكُهُ يَتَّبِعِينَ الرَّأْيَ الْأَصِيلَ شَكُّهُ
ما عيش من آفته بقاؤه نَقَصَ عَيْشًا كَلَّهُ فَنَاوَهُ
يَارُبُّ مَنْ أَسْخَطْنَا بِجَهْدِهِ * سَرَّنا اللهُ بِغَيْرِ
ما تَطْلُعُ الشَّمْسُ وَلَا تَغِيْبُ إِلَّا لِأَمْرِ شَأْنُهُ عَجِيبُ
لكل شيء معبدن وجوهر وَأَوْسَطُ وَأَصْفَرُ وَأَكْبَرُ
مَنْ لَكَ بِالْحَيْضِ وَكُلُّ مُمْتَرِجٍ وَسَاوِسٌ فِي الصَّدْرِ مِنْهُ تَعْتَلِجُ
وَكُلُّ شَيْءٍ لِاحِقٌ بِجَوْهَرِهِ أَصْغَرُهُ مُتَّصِلٌ بِأَكْبَرِهِ
ما زالت الدنيا لنا دار أذى مَمْزُوجَةَ الصَّفْوِ بِالْوَانِ الْقَذَى
الْخَيْرُ وَالشَّرُّ بِهَا أَزْوَاجُ لَذَا نِتَاجُ وَلَذَا نِتَاجُ
مَنْ لَكَ بِالْحَيْضِ وَلَيْسَ مُحْضٌ يَخْبَثُ بَعْضٌ وَيَطِيبُ بَعْضُ
لكل إنسان طيبتان سَرَّ وَهَمَا ضِدَارُ
إِنَّكَ لَوْ تَسْتَشِقُّ الشَّحِيحَا رِيحَا
وَالْخَيْرُ وَالشَّرُّ إِذَا مَا عَدَا بَيْنَهُمَا بَوْنٌ بِهِ أَدْجِدَا
عَجِبْتُ حَتَّى غَمَمْنِي أَيْ حَائِرٌ مَبْهُوتٌ
كَذَا قَضَى اللهُ كَيْفَ أَصْدُ الصَّمْتُ إِنْ ضَاقَ الْكَلَامُ أَوْسَعُ

ومن قول أبي العتاهية في الوحدة والتبرم بالناس :

بَرِمْتُ بالناس وأخلاقِهِمْ * فَصِرْتُ أَسْتَأْسُ بِالوَحْدَةِ

مَا أَكْثَرَ النَّاسَ لِعَمْرِي وَمَا * أَقْلَهُمْ فِي حَاصِلِ الْعِدَّةِ

قال الأصمعي : شِعْرُ أَبِي الْعِتَاهِيَةِ كَسَاحَةِ الْمَلُوكِ ، يَقَعُ فِيهَا الْجَوْهَرُ وَالذَّهَبُ وَالتَّرَابُ

وَالخَرْفُ وَالتَّوْبَى .

كان أبو العتاهية لا يفارق الرشيد في سَفَرٍ وَلَا حَضْرًا إِلَّا فِي طَرِيقِ الْحِجِّ ، وَكَانَ يُجْرِي

عَلَيْهِ فِي كُلِّ سَنَةٍ خَمْسِينَ أَلْفَ دَرَاهِمٍ سِوَى الْجَوَائِزِ وَالْمَعَاوِنِ ، فَلَمَّا قَدِمَ الرَّشِيدُ الرَّقَّةَ لَيْسَ

أَبُو الْعِتَاهِيَةِ الصُّوْفَ وَتَزَهَّدَ . وَتَرَكَ حَضُورَ الْمُنَادِمَةِ وَالْقَوْلَ فِي الْغَزْلِ ، وَأَمَرَ الرَّشِيدُ بِجَبْسِهِ

حُبْسِهِ ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ مِنْ وَقْتِهِ :

أَنَا الْيَوْمَ لِي وَالْحَمْدُ لِلَّهِ أَشْهُرُ * يَرُوحُ عَلَيَّ الْهَمُّ مِنْكُمْ وَيَبْكُ

تَذَكَّرَ أَمِينَ اللَّهِ حَقِّي وَحُرْمَتِي * وَمَا كُنْتُ تُؤَلِّينِي كَذَلِكَ يُذَكِّرُ

لِي لِي تَدْنِي مِنْكَ بِالقَرْبِ مَجْلِسِي * وَوَجْهَكَ مِنْ مَاءِ البَشَاشَةِ يَقْطُرُ

فَمَنْ لِي بِالْعَيْنِ الَّتِي كُنْتُ مَرَّةً * إِلَىٰ بِهَا فِي سَالِفِ الدَّهْرِ تَنْظُرُ

فَلَمَّا قَرَأَ الرَّشِيدُ الْأَبْيَاتَ قَالَ : قَوْلُوا لَهُ : لَا بَأْسَ عَلَيْكَ ؛ فَكَتَبَ إِلَيْهِ :

أَرِقْتُ وَطَارَ عَنِ عَيْنِي النَّعَاسُ * وَنَامَ السَّامِرُونَ وَلَمْ يُؤَسُّوا

أَمِينَ اللَّهِ أَمْنُكَ خَيْرُ أَمِينٍ * عَلَيْكَ مِنَ التَّقِي فِيهِ لِبَاسُ

نُتَّاسُ مِنَ السَّمَاءِ بِكُلِّ بَرٍّ * وَأَنْتَ بِهِ تَسُوسُ كَمَا تُتَّاسُ

كَأَنَّ الْخَلْقَ رَكَّبَ فِيهِ رُوحَهُ * لَهُ جَسَدٌ وَأَنْتَ عَلَيْهِ رَاسُ

أَمِينَ اللَّهِ إِنْ الْحَبْسُ بَاسٌ * وَقَدْ أُرْسَلْتَ : لَيْسَ عَلَيْكَ بَاسٌ

وَكَتَبَ إِلَيْهِ أَيْضًا فِي الْحَبْسِ :

وَكَلَّفَتْنِي مَا حُمَّتْ بَيْنِي وَبَيْنَهُ * وَقَلْتُ سَأَبْغِي مَا تُرِيدُ وَمَا تَهْوَى

فَلَوْ كَانَ لِي قَلْبَانِ كَلَّفْتُ وَاحِدًا * هَوَاكَ وَكَلَّفْتُ الْخَلِيَّ لِمَا يَهْوَى

فَأَمْرٌ بِاطْلَاقِهِ .

كان الهادى واجدا على أبي العتاهية ملازمته أخاه هارون في خلافة المهدي، فلما ولي موسى الخلافة قال أبو العتاهية يمدحه :

يَضْطَرِبُ الخَوْفُ والرَّجَاءُ إِذَا * حَرَّكَ موسى القَضِيبَ أَوْ فَكَّرَ
 مَا أَيْبِنَ الفَضْلَ فِي مَغِيبٍ وَمَا * أَوْرَدَ مِنْ رَأْيِهِ وَمَا أَصْدَرَ
 فَكَمْ تَرَى عَنَ عِنْدِ ذَلِكَ مِنْ * مَعَشِيرِ قَوْمٍ وَذَلَّ مِنْ مَعَشِرِ
 يُثْمِرُ مِنْ مَسِّهِ القَضِيبُ وَلَوْ * يَمْسُهُ غَيْرُهُ لَمَّا أَمَّرَ
 مَنْ مِثْلُ موسى وَمِثْلُ والدِهِ الـ * مَهْدِيَّ أَوْ جَدَّهُ أَبِي جَعْفَرَ

فرضى عنه . فلما دخل عليه أنشده :

لَهْفِي عَلَى الزَّمَنِ القَصِيرِ * بَيْنَ الخَوْرِيقِ وَالسَّيْدِ
 إِذْ نَحْنُ فِي غُرْفِ الحِنَا * نِ نَعُومِ فِي بَحْرِ السَّرُورِ
 فِي فِتْيَةِ مَلَكِوَاعِنَا * نَ الدَّهْرِ أَمْثَالِ الصُّقُورِ
 مَا مِنْهُمْ إِلَّا الجَسُورُ * رُ عَلَى الهَوَى غَيْرِ الحِصُورِ
 يَتَعَاوَرُونَ مُدَامَةً * صَهْبَاءَ مِنْ حَلْبِ العَصِيرِ
 عَذْرَاءَ رَبَّهَا شُوعَا * عُ الشَّمْسِ فِي حَرِّ المَجِيرِ
 تَدْرُ مِنْ نَارٍ وَلَمْ * يَعلقَ بِهَا وَضَرَ القَدُورِ
 وَمُقَرَّطِي يَمْشِي أَمَا * مِ القَوْمِ كَالرَّشَاءِ الغَرِيرِ
 بِزَجَاجِهِ لَسْتَ تَخْرُجُ الـ * مِنَ الدَّفِينِ مِنَ الضَّمِيرِ
 زَهْرَاءَ مِثْلِ الكَوَكَبِ الـ * رَى فِي كَفِّ المُؤَدِّ
 تَدْعُ الكَرِيمَ وَلَيْسَ يَدُ * رَى مَا قَيْسَلٌ مِنْ دَبِيرِ
 وَمُحَصَّراتُ زُرْنَنَا * بَعْدَ الهَدْوِ مِنَ الخَدُورِ
 رِيًّا رَوادِفِهِنَّ يَدُ * بَسْنِ الخَوَاتِمِ فِي الخِصُورِ
 غُرَّ الوجوهِ مُحَجَّبَا * تَاصَدَاتِ الصُّفِّ حُ

مُتَّعَمَاتٍ فِي النَّعْمِ * سِيمَ مُمْتَصَّخَاتٍ بِالْعَبِيرِ
 يَرْفُلْنَ فِي حُلَلِ الْحَمَا * سِنَ وَالْمَجَاسِدِ وَالْحَرِيرِ
 مَا إِنْ يَرَيْنَ الشَّمْسُ إِلَّا * الْقُرْطُ مِنْ حَلَلِ السُّتُورِ
 وَإِلَى أَمِينِ اللَّهِ مَهْ * رَبُّنَا مِنَ الدَّهْرِ الْعَثُورِ
 وَإِلَيْهِ أَتَعَبْنَا الْمَطَا * يَا بِالرَّوَّاحِ وَالْبُكُورِ
 صُعْرَ الْخُدُودِ كَأَنَّمَا * جُتِحْنَ أَجْنَحَةَ النُّسُورِ
 مُسْتَرِبَاتٍ بِالظَّلَا * مِ عَلَى السُّهُولَةِ وَالْوُوعُورِ
 حَتَّى وَصَلْنَ بِنَا إِلَى * رَبِّ الْمَدَائِنِ وَالْقُصُورِ
 مَا زَالَ قَبْلَ فِطَامِهِ * فِي سِنِّ مُكْتَهَلٍ كَبِيرِ

استنشده المأمون أحسن ما قال في الموت فأنشده :

أُنْسَاكَ مَحْيَاكَ الْمَمَانَا * فَطَلَبْتَ فِي الدُّنْيَا الثَّبَانَا
 أَوْثَقْتَ بِالدُّنْيَا وَأَنْز * تَ تَرَى جَمَاعَتَهَا شَتَانَا
 وَعَزَمْتَ مِنْكَ عَلَى الْحَيَا * ةِ وَطَوَّحَهَا عَزْمًا بَتَانَا
 يَا مَنْ رَأَى أَبُوَيْهِ فِيهِ * مَنْ قَدْ رَأَى كَانَا فَمَا نَا
 هَلْ فِيهِمَا لَكَ عِبْرَةٌ * أَمْ حَلَّتْ أَنْ لَكَ أَنْفِلَانَا
 وَمَنْ الَّذِي طَلَبَ النَّقْلُ * تَ مِنْ مَنِيَّتِهِ فَقَانَا
 كُلُّ تَصَبَّحِهِ الْمُنَى * لُهُ أَوْ تَبَيَّتِهِ بِيَانَا

دخل أبو العتاهية على المأمون فأنشده :

مَا أَحْسَنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالَهَا * إِذَا أَطَاعَ اللَّهُ مَنْ نَالَهَا
 مَنْ لَمْ يُوَاسِ النَّاسَ مِنْ فَضْلِهَا * عَرَضَ لِلْإِدْبَارِ إِقْبَالَهَا

فقال له المأمون : ما أجود البيت الأول ، فأما الثاني فما صنعت فيه شيئا ، الدنيا تُدْرِعُ مَنْ
 وَاسَى مِنْهَا أَوْضَنَ بِهَا ، وَإِنَّمَا تُوجِبُ الدَّمَاحَةَ بِهَا الْأَجْرَ وَالضَّنَّ بِهَا الْوِزْرَ ، فقال : صدقت

يا أمير المؤمنين، أهل الفضل أولى بالفضل وأهل النقص أولى بالنقص، فلما كان بعد أيام عاد فأنشده :

كَمْ غَافِلٍ أودى به الموتُ * لم يأخذ الأهبةَ للموتِ
من لم تزل نعمته قبَّله * زالَ عن النعمة بالموتِ

فقال له : أحسنت، طيبت المعنى، وأمر له بعشرين ألف درهم :

كان أبو العتاهية يُحج كل سنة، فاذا قدم أهدى الى المأمون بُردًا ومُطرفًا ونعلًا سوداء ومسًاويك أراك، فيبعث اليه بعشرين ألف درهم، فأهدى مرة له كما كان يهدى كل سنة إذا قديم، فلم يُثبته ولا بعث اليه بالوظيفة، فكتب اليه أبو العتاهية :

خبروني أن من ضرب السنَّة * جدُّدًا بيضا وصُفرا حسنه
أحدثت لكنني لم أرها * مثل ما كنت أرى كل سنه

فأمر المأمون بحمل العشرين الألف وقال : أغفلناه حتى ذكركنا .

أنشد المأمون بيت أبي العتاهية يخاطب سلمًا الخاسر :

تعالى الله يا سلم بن عمرو * أذلَّ الحرصُ أعناق الرجال

فقال المأمون : إن الحرص لمُفسد للدين والمرءة ، والله ما عرفت من رجلٍ قط حرصًا ولا شرًا فوجدتُ فيه مُصطنعًا، فبلغ ذلك سلمًا فقال : ويل على الحرار الزنديق جمع الأموال وكترها وعبأ البدور في بيته ثم تزهد مُراءاةً ونفاقًا، فأخذ يهتف بي اذا تصدَّيت للطلب .

كان الرشيدُ مما يعجبه غناء الملاحين في الزلازل اذا ركبها، وكان يتأذى بفساد كلامهم ولحنهم، فقال : قولوا لمن معنا من الشعراء : يعملوا لهؤلاء شعرا يغنون فيه ، فقيل : ليس أحد أقدر على هذا من أبي العتاهية وهو في الحبس ، فوجه اليه الرشيدُ : قل شعرا حتى أسمعته منهم ، ولم يأمر بإطلاقه ، ففاظَّه ذلك وقال : والله لأقولن شعرا يُحزنه ولا يُسرَّبه ، فعَمِل شعرا ودفعه الى من حفظه من الملاحين ، فلما ركب الحرَّاقة سمعه وهو :

خَانَكَ الطَّرْفُ الطَّمُوحُ * أَيُّهَا الْقَلْبُ الْجَمُوحُ
لِدَوَاعِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ * دُنُوءٌ وَنُزُوحٌ
هَلْ لِمَطْلُوبٍ بِذَنْبٍ * تَوْبَةٌ مِنْهُ نَصُوحٌ
كَيْفَ إِصْلَاحُ قُلُوبٍ * إِنَّمَا هُنَّ قُفُوحٌ
أَحْسَنُ اللَّهِ بِنَا * إِنَّا الْخَطَايَا لَا تَفُوحُ
فَإِذَا الْمُسْتَوْرُ مِنَّا * بَيْنَ تَوْبَيْهِ فُضُوحٌ
كَمْ رَأَيْنَا مِنْ عَزِيزٍ * طُوبَيْتَ عَنْهُ الْكُشُوحُ
صَاحٌّ مِنْهُ بِرَحِيلٍ * صَاحُّ الدَّهْرِ الصَّدُوحُ
مَوْتُ بَعْضِ النَّاسِ فِي الْأَرْضِ * ضَى عَلَى قَوْمٍ قُتُوحُ
سَيَصِيرُ الْمَرْءُ يَوْمًا * جَسَدًا مَا فِيهِ رُوحُ
بَيْنَ عَيْنِي كُلِّ حَيٍّ * عَلمُ الْمَوْتِ يَلُوحُ
كَلْنَا فِي غَفْلَةٍ وَالْ * مَوْتُ يَغْدُو وَيُرُوحُ
لَيْبِنِي الدُّنْيَا مِنَ الدُّزِّ * يَا غَبُوقُ وَصَبُوحُ
رُحْنٌ فِي الْوَشْيِ وَأَصْبَحُ * بِنَ عَلَيْهِنَّ الْمُسُوحُ
كُلُّ نَطَاجٍ مِنَ الدَّهْرِ * رَلَهُ يَوْمًا نَطُوحُ
نُحِّ عَلَى نَفْسِكَ يَا مَسَّ * كَيْنَ إِنْ كُنْتَ تَنُوحُ
تَمُوتَنَّ وَإِنْ عُمَّ * رَتَ مَا عَمَّرُنُوحُ

فلما سمع ذلك الرشيد جعل يبكي وينتحب ، وكان الرشيد من أغزر الناس دموعا
في وقت الموعظة ، وأشدّهم عسفاً في وقت الغضب والغلظة ؛ فلما رأى الفضل بن الربيع
كثرة بكائه أوما إلى الملاحين أن يسكتوا .

لما عقد الرشيد العهد لبنيه الثلاثة : الأمين والمأمون والمؤمن ، قال أبو العتاهية :

رَحَلْتُ عَنِ الرَّبْعِ الْحَيْلِ قَعُودِي * إِلَى ذِي زُحُوفٍ بَهْمَةٍ وَجُنُودِ
وَرَأَيْتُ بِرَأْيِ اللَّيْلِ فِي حَفْظِ أُمَّةٍ * يَدَافِعُ عَنْهَا الشَّرَّ غَيْرَ رُقُودِ

- بِالْوَيْةِ جَبْرِيلُ يَقْدُمُ * ورايات نصرِ حوله وبنود
تَجَانِي عَنِ الدُّنْيَا وَأَيُّقِنُ أَنَّهَا * مُقَارِقَةٌ لَيْسَتْ بِدَارِ خُلُودِ
وَشَدَّ عُرَى الإِسْلَامِ مِنْهُ بَفْتِيَةٍ * ثَلَاثَةٌ أَمْلَاكِ وِلَاةِ عُهُودِ
هُمْ خَيْرُ أَوْلَادِهِمْ خَيْرُ وَالِدِ * لَهُ خَيْرُ آبَاءٍ مَضَتْ وَجُدُودِ
بَنُو المِصْطَفَى هَارُونَ حَوْلَ سَرِيرِهِ * نَفْسُهُ قِيَامِ حَوْلَهُ وَقُعُودِ
تَقَلَّبَ أَلْحَاطُ المِهَابَةِ بَيْنَهُمْ * عَيُونَ طِبَاءٍ فِي قُلُوبِ أُسُودِ
جُدُودِهِمْ شَمْسٌ أَتَتْ فِي أَهْلَةٍ * تَبَدَّتْ رِأْيَ فِي نَجُومِ سُعُودِ
فوصله الرشيدُ بصلّة ما وصل مثلها شاعرًا قط .

١٢ - مَسْلَمُ بْنُ الْوَلِيدِ^(١)

أحد الشعراء المفلّحين والبلغاء المبدعين

قال الشَّعْرَى فِي صِباهِ، وَلَمْ يَتجاوِزْ بِهِ الْأُمراءَ وَالرؤساءَ، مَكْتَفِيًا بِما يَنالُهُ مِنْ قَليلِ العِطاءِ، وَيُنْفِقُهُ عَلى مَلاذِّهِ مَعَ إِخوانِهِ مِنْ خُلَفاءِ الشُّعراءِ، ثُمَّ انْقَطَعَ إِلى يَزِيدِ بْنِ مَزيدِ الشَّيبانِيِّ قائِدِ الرِّشيدِ، ثُمَّ اتَّصَلَ بِالخَليفَةِ هارونَ الرِّشيدِ وَعَدَّ مِنْ شِعرائِهِ، وَمَدَحَهُ وَمَدَحَ البِرامِكَةَ وَحَسَّنَ رَأْيَهُم فِيهِ . وَلَمَّا أَصْبَحَ الحَلِّ وَالعَقْدَ بِيَدِ ذِي الرِّياستينِ الفَضلِ بْنِ سَهْلِ وَزَيرِ المأمونِ فِي أوَّلِ خِلافَتِهِ قَرَّبَهُ وَأَداناهُ : لِأَنَّهُ كانَ مِنْ حَاصِثَتِهِ قَبْلَ وَزارَتِهِ، وَوِلاهُ أَعمالًا يُجْرِجانَ اِكْتَسَبَ مِنْها أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ ثُمَّ لَزِمَ مَنزَلَهُ إِلى أَنْ أَنْفَقَها فِي اللِّذاتِ ، وَعادَ إِلى الفَضلِ فَقَدَّه الضَّياعَ بِأَصْهَبانَ فَاِكْتَسَبَ مِنْها أَلْفَ أَلْفِ أَيضًا . وَلَمَّا قُتِلَ الفَضلُ لَزِمَ مَنزَلَهُ وَتَسَكَّ وَلَمْ يَمْدَحْ أَحَدًا إِلى أَنْ ماتَ بِجِرجانَ .

وَمَسْلَمٌ أوَّلُ مَنْ تَكَلَّفَ البِديعَ فِي شِعرِهِ وَأَسْتَكثَرَ مِنْهُ فِي قَوْلِهِ ، وَسَبَقَهُ بِشارَ إِلى ذَلِكَ إِلا أَنَّهُ لَمْ يَبْلُغْ شَأْوَ مَسْلَمٍ فِيهِ . وَقَدِ عَدَّ العُلَماءُ هَذا التَّصَنُّعَ وَالتَّكَلُّفَ إِفْسادًا لِالشُّعْرِ، إِذْ قَدْ تَبِعَهُ فِي ذَلِكَ الشُّعراءُ مِثْلَ البَحْتَرِيِّ وَأَبِي تَمامٍ وَابنِ المَعْتَرِّ وَغَيرِهِمْ .

(١) هُوَ مَسْلَمُ بْنُ الوَلِيدِ مولى الأَنْصارِ يَلقَبُ صَرِيعَ العِوانِيِّ ، شاعِرٌ مَتَقَدِّمٌ مِنْ شِعراءِ الدِولَةِ العِباسِيَةِ ، مَنشُوءٌ وَمولودُهُ الكُوفَةُ . وَهُوَ فِما زَعَموا أوَّلُ مَنْ قالَ الشُّعْرَ المَعروفَ بِالبِديعِ ، وَهُوَ لَقِبَ هَذا الجِنسَ البِديعَ وَالطَّيِّفَ ، وَتَبِعَهُ فِيهِ جِماعَةٌ ، وَأَشهرُهُمْ فِيهِ أَبُو تَمامٍ الطَّائِيُّ ، فَانَّهُ جَعَلَ شِعرَهُ كُلَّهُ مَذْهَبًا واحِداً فِيهِ ، وَمَسْلَمٌ كانَ مَتَمِنًا مَتَصَرِّفاً فِي شِعرِهِ . قالَ مُحَمَّدُ بْنُ يَزِيدَ : كانَ مَسْلَمٌ شاعِرا حَسَنَ النِّمطِ ، حَسيدَ القَوْلِ فِي الشُّرابِ ، وَكَثيرَ مِنَ الرِّواةِ يَقْرَهُهُ بِأَبِي نِواَسٍ فِي هَذا المَعنى ، وَهُوَ أوَّلُ مَنْ عَقَدَ هَذا المَعانِي الطَّرِيقَةَ واسْتَخْرَجَها . وَقالَ القاسِمُ بْنُ مَهروِيهِ : أوَّلُ مَنْ أفسَدَ الشُّعْرَ مَسْلَمُ بْنُ الوَلِيدِ ، جاءَ بِهَذا الفَنِّ الَّذى سَمَّاهُ النَّاسُ البِديعَ ثُمَّ جاءَ الطَّائِيُّ بِعَدِهِ فَنَمَسَ فِيهِ . تَوَفَّى بِجِرجانَ سَنَةَ ٨٢٠ هـ وَلهُ دِويانٌ مَطبُوعٌ فِي لِيدَنِ سَنَةَ ١٨٧٥ م . وَتَجَدَّ أَخبارُهُ فِي الأَغاني (ح ١٣ ص ٩) وَالشُّعْرِ وَالشُّعراءِ (ص ٥٢٨) وَالعَقْدَ العَرِيدِ (ج ١ ص ١٤٢) .

وقد مزج مسلم كلام البدويين بكلام الحضريين ، فضمنه المعاني اللطيفة ، وكساه الألفاظ الظريفة ، فله جَزَالَة البدويين ، ورقة الحضريين .

لقى مسلم أبو نواس فقال له : ما أعرف لك بيتا إلا فيه سَقَطٌ ؛ قال له : فما تحفظ من ذلك ؟ قال : قل أنت ما شئت حتى أريك سَقَطَكَ فيه ؛ فأنشد :

ذَكَرَ الصَّبُوحَ بِسُحْرَةِ فَارَتَا حَا * وَأَمَلَهُ دَيْكُ الصَّبَاحِ صِيَا حَا

فقال له مسلم : فَلِمَ أَمَلَهُ وهو الذى أذكره وبه أرتاح ؟ فقال أبو نواس : فأنشدنى شيئا من شعرك ليس فيه خَلَلٌ ؛ فأنشده مسلم :

عَاصَى الشَّابَّ فَرَا حَ غَيْرَ مُقَنَّدٍ * وَأَقَامَ بَيْنَ عَزِيمَةٍ وَتَجَبَّدُ

فقال له أبو نواس : قد جعلته رائحا مقيا فى حالة واحدة وبيت واحد ، فَنَشَأَبَا وَتَسَابَا سَاعَةً . وكلا البيتين صحيح المعنى .

أجتمع أصحاب المأمون عنده يوما ، فأفاضوا فى ذكر الشعر والشعراء ، فقال له بعضهم : أين أنت يا أمير المؤمنين من مسلم بن الوليد ؟ قال : حيث يقول ماذا ؟ قال : حيث يقول وقد رنَّ رجلا :

أَرَادُوا لِيُخَفُّوا قَبْرَهُ عَنْ عَدْوِهِ * فِطِيبُ تَرَابِ الْقَبْرِ دَلَّ عَلَى التَّبْرِ

وحيث مدح رجلا بالشجاعة فقال :

يَجُودُ بِالنَّفْسِ إِذْ صَنَّ الْجَوَادُ بِهَا * وَالْجُودُ بِالنَّفْسِ أَقْصَى غَايَةِ الْجُودِ

وهما رجلا بفتح الوجه والأخلاق فقال :

قَبِّحَتْ مَنَاظِرُهُ لِحَيْنِ خَبْرَتِهِ * حَسَنَتْ مَنَاظِرُهُ لِضَبْحِ الْمَخْبَرِ

وتغازل فقال :

هَوَى يَجِدُ وَحَيْبٌ يَلْعَبُ * أَنْتَ لَقِيَّ بَيْنَهُمَا مَعْدَبُ

فقال المأمون : هذا أشعر من خضتم اليوم فى ذكره .

قال يزيد بن مزيّد : أرسل الى الرشيد يوما في وقت لا يرسل فيه الى مثلى ، فأثبته لأبساً سلاحى مستعداً لأمر إن أراده منى ، فلما رآنى ضحك الى ثم قال : يا يزيد، خبرنى من الذى يقول فيك :

تراه فى الأمن فى درع مضاعفة * لا يامن الدهر أن يدعى على محجل
ضافي العنان طموح العين همته * فكّ العناة وأسر القاتك الخطل

فقال : لا أعرفه يا أمير المؤمنين ؛ فقال : سوءة لك من سيد قوم يمدح بمثل هذا الشعر ولا يعرف قائله ، وقد بلغ أمير المؤمنين فرواه ووصل قائله ، وهو مسلم بن الوليد ! فانصرفت فدعوت به ووصلته ووليته .

وروى أنه دخل على الرشيد فقال له : يا يزيد، من الذى يقول فيك :

لا يعبق الطيب خديه ومفرقه * ولا يمسخ عينيه من الكحل
إذا أنتضى سيفه كانت مسالكه * مسالك الموت فى الأبدان والقلل
وإن خلت بحديث النفس فكرته * حى الرجاء ومات الخوف من وجل
كالليث إن هجته فالموت راحته * لا يستريح الى الأيام والدؤل

فقال : لا أعرف قائله يا أمير المؤمنين ، فقال له هارون : أيقال فيك مثل هذا الشعر ولا تعرف قائله ! ففرج من عنده تجلا ، فلما صار الى منزله دعا حاجبه فقال له : من الباب من الشعراء؟ قال : مسلم بن الوليد؛ قال : وكيف حجبتة عنى ، فلم تعاننى بمكانه ! فقال : أخبرته أنك مضيع ، وأنه ليس فى يدك شىء تعطيه إياه ، وسألته الإمساك والمقام أياما الى أن أتسع ؛ فأنكر ذلك وقال : أدخله ، فأدخله اليه ، فأنشدته قوله فيه :

أجررت^(١) جبل خليع فى الصبا غزيل * وشمرت همم العذال فى عدل
هاج البكاء على العين الطموح هوى * مفروق^(٢) بين توديع ومحمل
كيف السلو لقلب راح محتبلا * يهذى بصاحب قلب غير محتبل

(١) أجزرت فلانا رسنه : تركته وشأنه ، والخليع : الذى حلج عذاره فى الصبا . (٢) الطموح :

المرتفعة فى النظر الى الأحبة . ومفروق : مقسم .

عَاصَى العِزَاءَ غَدَاةَ البَيْنِ مُنْهِمِلٌ * من الدَمُوعِ جَرَى فِي إِثْرِ مُنْهِمِلِ
لَوْلَا مُدَارَاةُ دَمْعِ العَيْنِ لَا نَكْشِفْتُ * مَتَى سِرَائِرٌ لَمْ تَظْهَرْ وَلَمْ تُخْشَلِ^(١)
أَمَا كَفَى البَيْنَ أَنْ أُرْمَى بِأَسْهُمِهِ * حَتَّى رَمَانِي بِلِحْظِ الأَعْيُنِ النُّجُجِلِ
مِمَّا جَنَى لِي وَإِنْ كَانَتْ مَتَى صَدَقَتْ * صَبَابَةٌ خَلَّسَ التَّسْلِيمَ بِالمَقْلِ
مَاذَا عَلَى الدَّهْرِ لَوْلَا نَتَّ عَرِيكَتُهُ * وَرَدَّ فِي الرَّأْسِ مَتَى سَكَاةَ القَنْزَلِ
جُرْمُ الحَوَادِثِ عِنْدِي أَمَا اخْتَلَسْتُ * مَتَى بَنَاتِ غِذَاءِ العُكْرَمِ وَالكِلالِ^(٢)
وَرُبَّ يَوْمٍ مِنَ اللِّذَاتِ مُحْتَضِرٌ * قَصْرَتُهُ بِلِقَاءِ الرَّاحِ وَانْخُلَسِ
وَلِيَاةٌ خُلِسْتُ لِلعَيْنِ مِنْ سِنَةٍ * هَتَكَتُ فِيهَا الصَّبَا عَنْ بَيْضَةِ المَجَلِ
قَدْ كَانَ دَهْرِي وَمَا بِي اليَوْمَ مِنْ كَبَرٍ * شُرِبَ المِدَامُ وَعَزِفَ القَيْنَةُ العُطْلِ
إِذَا شَكُوْتُ إِلَيْهَا الحَبَّ حَقَرَهَا * شَكَاوِي فَاحْمَرَّتْ خَدَاهَا مِنَ النُّجَلِ
كَمْ قَدْ قَطَعْتُ وَعَيْنُ الدَّهْرِ رَاقِدَةٌ * أَيَامَهُ بِالصَّبَا وَاللَّهُوِ وَالجَدَلِ
وَطَيْبَ الفِرْعِ أَصْفَانِي مَوَدَّتَهُ * كَافَأْتُهُ بِمَدِيحٍ فِيهِ مُتَخَلِّ^(٥)
وَبِلَدَةٍ لِمَطَايَا الرِّكْبِ مُنْضِيَةٌ * أَنْضِيَتْهَا بِوَجِيفِ الأَيْنِقِ الدُّلِّ^(٦)
فِيمَ المَقَامِ وَهَذَا النُّجْمُ مُعْتَرِضًا * ذَنَا النَّجَاءِ وَحَانَ السَّيْرِ فَارْتَجِلِ^(٧)
يَا مَائِلَ الرَّأْسِ إِنْ اللِّيثُ مُفْتَرِسٌ * مِيَلَ الجَمَاجِمِ وَالأَعْنَاقِ فَاعْتَسِدِ
حَذَارٍ مِنْ أَسَدٍ ضَرِغَامِيَّةٍ بَطْلٍ * لَا يُؤَلِّغُ السَّيْفَ إِلَّا مَهْجَةَ البَطْلِ
لَوْلَا يَزِيدُ لِأَضْحَى المُلْكِ مُطْرَدًا * أَوْ مَائِلِ السَّمَكِ أَوْ مُسْتَرْنِي الطُّوَلِ^(٨)
سَلَّ الخَلِيفَةُ سَيْفًا مِنْ بَنِي مَطَرٍ * أَقَامَ قَائِمُهُ مِنْ كَانَ ذَا مِيَلِ
كَمْ صَائِلٍ فِي ذَرَا تَمْهِيدِ مَمْلُوكَةٍ * لَوْلَا يَزِيدُ بَنِي شَيْبَانَ لَمْ يَصُلِّ

(١) أي لم تقض ذنوبه . (٢) يريد الحجر والجواري . (٣) محضرة، أي حصرته اللذات . وانخلل جمع خلة وهي الصدقة . (٤) خفرها . أي ولد عليها الحفر وهو شدة الحياة . (٥) أي محضار (٦) منضية : منعة . والوجيف : ضرب من السير . واندلل : الصامرات . (٧) يريد بالنجم الزبا . ومعترضا : منتصبا . (٨) مطردا، أي مخذولا . وصرب السمك والطنول مثلا .

ناب الإمام الذي يفتّر عنه اذا * ما أفتّرت الحرب عن أنيابها العُصَل
 من كان يَحْتَلِ قِرْنَا عند موقفه * فإن قِرْنَ يزيد غير مُحْتَمَل
 سَدَّ النُّغُورَ يَزِيدُ بعد ما أُنْفَرَجَتْ * بقائم السيف لا بالَحْتَلِ والحِجَلِ
 كم قد أذاق حِمَامَ الموت من بَطَل * حامى الحقيقة لا يُؤْتَى من الوَهَلِ
 أغرَّ أبيضُ يُغْشى البِيضَ أبيضُ لا * يرضى لمولاه يومَ الرُّوعِ بالفَسَلِ
 يُغْشى الوغى وشهابُ الموت في يده * يرمى الفوارسَ والأبطالَ بالشُّعَلِ
 يفتّر عند أفتّار الحرب مبتسماً * اذا تغيّر وجه الفارسِ البطلِ
 مؤفٍ على مَهْجٍ واليومُ ذو رَهْجٍ * كأنه أجَلٌ يسعى الى أملِ
 ينال بالرفق ما يعيا الرجالُ به * كالموت مستعجلاً يأتي على مهلِ
 لا يُلْفِحُ الحربَ إلا رِيثَ يَنْتَجِها * من هالكٍ وأسيرٍ غيرِ مُحْتَمَلِ
 إن شيمَ بارقِهِ حالت خلائقُهُ * بين العطيّة والإمساكِ والعِللِ
 يُغْشى المنايا المنايا ثم يَفْرِجُها * عن النفوسِ مُطَلَّاتٍ على الهَبَلِ^(١)
 لا يرحلُ الناسُ إلا نحوَ حَجْرته * كالبيتِ يُضْحِي إليه مُلتقى السُّبُلِ^(٢)
 يَقْرِي المنيّةَ أرواحَ الكُفّةِ كما * يَقْرِي الضيوفَ شُحُومَ الكُومِ والبَزْلِ^(٣)
 يكسو السيوفَ دماءَ الناكثينَ به * ويجعل الهامَ تيجانَ القنّاءِ الذُّبْلِ
 يغدو فتغدو المنايا في أسنّته * شوارعاً تتحدّى الناسَ بالأجَلِ
 إذا طَغَتْ فنةٌ عن غِبِّ طاعتها * عبيّ لها الموتَ بين البيضِ والأَسَلِ
 قد عَوَدَ الطيرَ عاداتٍ وثِقنَ بها * فهنَّ يَتَبَعْنَهُ في كلِّ مُرْتَحَلِ
 تراه في الأمنِ في درعِ مُضَاعَفَةٍ * لا يَأْمَنُ الدهرَ أنْ يدعى على عَجَلِ
 ضافي العنانِ طموحَ العينِ همتُهُ * فَكَّ العنّاءَ وأسرَ الفاتكِ الخَطَلِ^(٤)
 لا يعبقُ الطيبُ خديهِ ومفْرِقَهُ * ولا يمسحُ عينيه من الكُحْلِ

(١) الهبل: فقدان . (٢) يعني البيت الحرام . (٣) الكوم: العظام الأسنمة واحدها كوما .

والبزل: جمع بازل وهو ماله تسعة أعوام . (٤) جمع خان وهو الأسير . والخطل: ذو الخطل وهو الخطأ

إذا آتتضى سيفه كانت مسالكه * مسالك الموت في الأبدان والقسل
 وإن حلت بحديث النفس فكرته * حتى الرجاء ومات الخوف من وجل
 كاللث إن هجته فالموت راحته * لا يستريح إلى الأيام والدول
 إن الحوادث لما رمن هضبتة ^(١) * أزمعن عن جار شيان بمقتل
 فالدهم يغبط أولاه أو أخره * إذ لم يكن كان في أعصاه الأول
 إذا الشريك لم يفخر على أحد ^(٢) * تكلم الفخر عنه غير متحل
 لا تكذبن فإن الحلم معدنه * ورائته في بني شيان لم تزل
 سلوا السيوف فأغشوا من يحاربهم * حبطا بها غير ما نكلي ولا وكنل
 الزائديون قوم في رماحهم * خوف الخيف وأمن الخائف الوجيل
 كبيرهم لا تقوم الراسيات له * حلما وطفلهم في هدى مكنهيل
 أسلم يزيد فما في الدين من أود ^(٣) * إذا سلمت وما في الملك من خال
 أثبت سوق بني الإسلام فاطادت ^(٤) * يوم الخليج وقد قامت على زل
 لولا دفاك بأس الروم إذ بكرت ^(٥) * عن عترة الدين لم تأمن من الشك
 ويوسف البرم قد صبحت عسكه ^(٦) * بعسكر يلفظ الأقدار ذى زجل
 غافضته يوم عبر النهر مهلته ^(٧) * وكان محتجزا في الحرب بالمهل
 والمارق ابن طريف قد دلفت له ^(٨) * بعسكر للنبايا مسيل هطل
 لما رآك مجدا في منيته * وإن ذك لا يسطاع بالحيل
 شام التزل فأبرقت اللقاء له * مقدم الخطو فيها غير متكل
 ماتوا وأنت غليل في صدورهم * وكان سيفك يستغني من الغل

- (١) هذا مثل، يريد لما رامت الحوادث من استجاره . (٢) نسبة إلى شريك، وهو أحد أجداد يزيد .
 (٣) هكذا في الأصل . وعندنا أن الكلمة محرفة عن (اتلدت) أي ثبتت . وهي وزان اعتمل من وطد .
 وكانت وتطد ثم قلبت فاء الاعتلاء تاء وأدغم المثل في المثل . (٤) عترة الندير : جماعة الاسلام .
 (٥) أحد الخوارج على الرشيد . (٦) غافضه : فاحاه على عترة . (٧) هو نونيد بن صريف الشاري .

لو أن غير شريكى أطاف به * فاز الوليدُ بقُدحِ الناضلِ الخِصَلِ^(١)
 وقلتَ بالدينِ يومَ الرِّسِّ فأعدلتَ * منه قوائِمُ قد أوفتَ على مِيلِ
 ما كانَ جمعُهُمُ لما لقيتَهُمُ * إلا كمثلِ نَعَامِ رِيعِ مُنَجِفِلِ
 تابوا ولو لم يتوبوا من ذنوبِهِمُ * لآبَ جيشُك بالأسرى وبالنَّقلِ
 كم آمِنَ لك نائى الدارِ مُتَمَتِّعِ * أخرجته من حصونِ المُلكِ والحوَلِ
 يابى لك الدَّمُ فى يومِك إن دُكرَا * عَضْبُ حُسَامٍ وعِرَضُ غيرِ مُبْتَدَلِ
 وما رِقِينِ غُرَاةٍ من بيوتِهِمُ * لا يَنكُونَ ولا يؤتَونَ من نَكَلِ
 خَلَفَتِ أجسادَهُمُ والطيرُ عاكِفَةً * فيها وأفقلتَهُمُ هاما مع القَفَلِ
 فانخرَفَها لك فى شيبانِ من مَثَلِ * كذلك ما إبنى شيبانِ من مَثَلِ
 كم مشهَدٍ لك لا تُحصى ماثرُهُ * قَسَمَتِ فيه كرزقِ الإنسانِ والخبَلِ
 لله مِن هاشمِ فى أرضِهِ جَبَلِ * وأنتِ وأبُنُك رُكُنَا ذلكَ الجَبَلِ
 قد أعظَموكَ فإِ تَدعى لِهَيْبِنِسةِ * إلا لِمُعِصَلَةِ تَسْتَنِ^(٢) بالِعَضَلِ
 يا ربَّ مَكْرَمَةٍ أصبحتِ واحداها * أَعْيَتِ صَنادِيدَ رَامُوها فلم تُنَلِ
 تَسَاخَلَ الناسُ بالدينِا وَزُخرفِها * وأنتِ من بَدَلِكِ المَعروفِ فى شُغَلِ
 أقسَمْتُ ما ذُبَّ عن جَدَوَاكِ طالِبُها * ولا دَفَعْتَ أَعْتِرامَ الحِدِّ بالهَزَلِ
 يابى لسانُكَ مَنَعَ الجودِ سائلُهُ * ما يُلجِجُ بينَ الجودِ والبَحَلِ
 صَدَقْتَ ظَنى وصَدَقْتَ الظنُونِ به * وحَطَّ جودُكَ عَقَدَ الرَّحْلِ عن جَمَلِ

فقال له يزيد : قد أمرنا لك بخمسين ألف درهم فاقبضها وأعذر ؛ فخرج الحاجب فقال
 لمسلم : قد أمرنى أن أرهن ضيعة من ضياعه على مائة ألف درهم : خمسون ألفا منها لك
 وخمسون ألفا لنفقته ، فأعطاه إياها . وكتب صاحب الخبر بذلك الى الرشيد ، فأمر ليزيد
 بمائتى ألف درهم وقال : إقبض الخمسين ألفا التى أخذها الشاعر وزده مثلها ، وخذ

(١) الناضل : المصيب . والخصل مثله . (٢) الرس : وادى أذربيجان . (٣) تستن بالعضل :

مائة ألف لفتك ، فافتك ضيئته وأعطى مسلماً خمسين ألفاً أخرى . ولما أنشدته :
« لا يعبق الطيب » البيت . قال بخاريتيه : حرم علينا مسلم الطيب .

كان داود بن يزيد بن حاتم المهلبي يجلس للشعراء في السنة مجلساً واحداً ، فيقصدهونه لذلك اليوم وينشدونه ، فوجه إليه مسلم راويته بقصيدته التي أولها : « لا تدعُ بي الشوق » فقدم عليه يوم جلوسه للشعراء ولحقه بعقب خروجهم عنه ، فتقدم الى الحاجب وحسّر لثامه عن وجهه ، ثم قال له : أستاذن لي على الأمير ؛ قال : ومن أنت ؟ قال : شاعر ، قال : قد أنصرم وقتك وأنصرف الشعراء وهو على القيام ؛ فقال له : ويحك ! إني قد وفدتُ على الأمير بشعر ما قالت العرب مثله ، وكان مع الحاجب أدبٌ يفهم به ما يسمع ، فقال : هاتِ حتى أسمع ، فإن كان الأمر كما ذكرت أوصلتك إليه ؛ فأنشده بعض القصيدة ، فسمع شيئاً يقصر عنه الوصف ، فدخل على داود فقال له : قدم على الأمير شاعر بشعر ما قيل فيك مثله ؛ فقال : أدخل قائله ؛ فلما مثل بين يديه سلّم وقال : قدمت على الأمير — أعزه الله — بمدح يسمعه فيعلم تقدّمى على غيرى ممن آتمدحه ؛ فقال : هات ، فلما أفتتح القصيدة وقال : « لا تدعُ بي الشوق » استوى جالسا وأطرق حتى أتى الرجل على آخر الشعر ، ثم رفع رأسه إليه فقال : أهذا شعرك ؟ قال : نعم أيها الأمير ؛ قال : في كـ قلته يا فتى ؟ قال : في أربعة أشهر أبقاك الله ؛ قال : لو قلته في ثمانية أشهر لكنت محسناً . وقد آتهمتك ، بلجودة شعرك ونحول ذكرك ، فان كنت قائل هذا الشعر فقد أنظرتك أربعة أشهر في مثله ، وأمرت بالإجراء عليك ، فان جئنا بمثل هذا الشعر وهبتُ لك مائة ألف درهم وإلا حرمتك . فقال : أو الإقالة أعزّ الله الأمير ؛ قال : قد أقتك ؛ قال : الشعر لمسلم بن الوليد وأنا راويته والوافد عليك بشعره ؛ فقال : أنا ابن حاتم . إنك لما أفتحت شعره فقلت : « لا تدعُ بي الشوق إني غير معمود » سمعت كلام مسلم يناديني . فأجبت نداءه وأستويت جالسا ؛ ثم قال : يا غلام . أعطه عشرة آلاف درهم . وأحمل الساعة انى مسلم مائة ألف درهم . وهذه هي القصيدة :

- (١) لا تَدْعُ بِي الشُّوقِ إِنِّي غَيْرُ مَعْمُودٍ * نَهَى النَّهْيَ عَنِ هَوَى الْهَيْفِ الرَّعَادِيدِ
 لَوْ شِئْتُ لَأَشِئْتُ رَاجِعَتُ الصَّبَا وَمَشَّتْ * فِي الْعَيُونِ وَفَانَتْنِي يَجْهُودُ^(٢)
 سَلْ لَيْلَةَ الْخَيْفِ هَلْ أَمْضَيْتُ آخِرَهَا * بِالزَّاحِ تَحْتَ نَسِيمِ الْخُرْدِ الْغَيْدِ
 شَجَّجْتُهَا بِلُعَابِ الْمُزْنِ فَاعْتَرَلْتُ^(٣) * نَسْجِينَ مِنْ بَيْنِ مَحْلُولٍ وَمَعْقُودِ
 كِلَا الْجَدِيدِينَ قَدْ أُطِعِمْتُ حَبْرَتَهُ^(٤) * لَوَالِ حَى إِلَى عُمَيْرٍ وَتَخْلِيدِ
 أَهْلًا بِوَأْفِدَةٍ لِلشَّيْبِ وَاحِدَةٍ * وَإِنْ تَرَأَتْ بِشَخْصٍ غَيْرِ مَوْدُودِ
 لَا أَجْمَعُ الْحَلْمَ وَالصَّبَاءَ قَدْ سَكَنْتُ * نَفْسِي إِلَى الْمَاءِ عَنِ مَاءِ الْعِنَايِدِ
 لَمْ يَنْهِنِي فَندٌ عَنْهَا وَلَا كَبِيرٌ * لَكِنْ صَحُوتُ وَعُصْنِي غَيْرَ مَحْضُودِ
 أَوْفَى بِي الْحَلْمُ وَأَقْتَادُ النَّهْيِ طَلَقًا * شَأْوَى وَعِغْتُ الصَّبَا مِنْ غَيْرِ تَفْنِيدِ
 إِذَا تَجَافَيْتِ بِي إِلَهَاتِ عَنِ بَلَدِ * نَازَعَتْ أَرْضًا وَلَمْ أَحْفِلْ بِتَمْهِيدِ
 لَا تَطْيِينِي الْمُنَى عَنِ جَهْدِ مُطَلَبِ^(٥) * وَلَا أَحْوَلُ لَشَيْءٍ غَيْرِ مَوْجُودِ
 وَجَهْلِي كَأَطْرَادِ السَّيْفِ مُحْجِيزِ * عَنِ الْأِدْلَاءِ مَسْجُورِ الصَّيَاخِيدِ
 تَمْشِي الرِّيَاحُ بِهِ حَسْرَى مُوَلَّغَةً * حَيْرَى تَلُودُ بِأَطْرَافِ الْجَلَامِيدِ
 مُوقِفِ الْمَتْنِ لَا تَمْضِي السَّبِيلُ بِهِ * إِلَّا التَّخْلُلَ رَيْثًا بَعْدَ تَجْمِيدِ
 قَرِيئَتِهِ الْوُخْدَ مِنْ خَطَاةِ سُرْحِ^(٦) * تَفَرَّى الْفَلَاةَ بِإِرْقَالِ وَتَوْخِيدِ
 إِلَيْكَ بَادَرْتُ إِسْفَارَ الصَّبَاحِ بِهَا * مِنْ جُنْحِ لَيْلِ رَحِيبِ الْبَاعِ مَمْدُودِ
 وَبَلَدِيَّةِ ذَاتِ غَوْلٍ لَا سَبِيلَ بِهَا * إِلَّا الظَّنُونُ وَإِلَّا مَسْرَحِ السَّيِّدِ
 كَأَنَّ أَعْلَامَهَا وَالْأَلَّ يَرْكَبُهَا * بَدُنُّ تَوَافِي بِهَا نَدْرٌ إِلَى عَيْدِ

(١) لا تدعى بي الشوق، أى لا تدعى مشتاقا . وسأله دعيلى عن معنى ذلك فقال : لا تدعى صريع الغواني فلست كذلك ، وكان لهذا اللقب كارها . ومعمود : عاشق . والهييف : الصامرات الخصور . (٢) أى ذهبت بجلى . (٣) اعترلت : اختلطت ، ويريد بالنسجين : ما ولى الماء من الخمر أسرع فيه الماء فله ، وما ولى منها القاع يق على حاله لم يحله الماء . بعد . (٤) الخبرة : التعميم . (٥) الفتد : اللوم . والمخضود : الواهن . (٦) أى لا تدعونى الى نفسها . (٧) الخطارة : الناقة تحرك ذنبها . والسرْح : الخفيفة .

كَلَّفْتُ أَهْوَالَهَا عَيْنًا مَوْرِقَةً * اليك لولاك لم تكحل بتسديد
 حتى أتتك بي الآمال مُطْلِعًا * لليسر عندك في سربال محسود
 من بعد ما ألفت الأيام لي عرضًا * مُلِقَى رَهِينٍ ^(١) السيف مَصْفُود
 وساورتني بناتُ الدهر فامتحننت * رُبْعِي بِمُحَلَّةٍ شِبْهَاءِ جَارُودٍ ^(٢)
 الى بنى حاتم أدى ركائبنا
 تَطْوِي النَّهَارَ فَإِنْ لَيْلٌ تَحْمِطُهَا ^(٣)
 مِثْلَ السَّمَاءِ بَعِيدَاتِ الْمَقِيلِ إِذَا * أَلْقَى الْهَجِيرُ يَدًا فِي كَلِّ صَيْخُودٍ
 حَلَّتْ يَدَاوُدَ فامتاحت وأعجلها ^(٤)
 أعطى فافى المني أدنى عطيته
 والله أطفأ نار الحرب إذ أُعْرِبُ * سَرَهَا بِمَوْقِدِهَا فِي الْغَرْبِ دَاوِدِ
 لم يأت أمرًا ولم يظهر على حدث * إِلَّا أَعِينَ بِتَوْفِيقٍ وَتَسْدِيدِ
 مَوْحِدِ الرَّأْيِ تَنْشِقُ الظُّنُونُ لَهُ * عَنْ كُلِّ مُلْتَبِسٍ مِنْهَا وَمَعْقُودِ
 ثَمَى الْأُمُورِ لَهُ مِنْ نَحْوِ أَوْجُوهِهَا * وَإِنْ سَلَكَنَّ سَبِيلًا غَيْرَ مَوْرُودِ
 إذا أباحت حي قوم عقوبته * غَادَى لَهُ الْعَفْوُ قَوْمًا بِالْمُرَاصِيدِ
 كالليث بل مثله الليثُ المَهِصُورِ إِذَا * غَنَى الْخَدِيدُ غِنَاءً غَيْرَ تَغْرِيدِ
 يلقي المنيّة في أمثال عُدَّتْهَا * كَالسَّلِيلِ يَنْزِفُ جَاهُودًا بِجَاهُودِ
 إن قصر الرمح لم يمش الخطأ عددًا * أَوْ عَرَدَ السَّيْفُ لَمْ يَهْمُ بِتَغْرِيدِ
 إذا رعى بلدًا دأى مناهله * وَإِنْ بَيْنَ عَلَى تَنْحِيطٍ وَتَبْعِيدِ
 جرى فأدرك لم يعنف بمهاتته * وَأَسْتَوْدَعُ الْبَهِرَ أَنْفَاسَ الْمَجَاوِدِ ^(٥)

(١) الرهين : الأسير . والمصفود : الموثق بالحديد . (٢) المحلّة : السنة الجديّة . والجارود

المنجردة من النبات . (٣) تحمطها : سال بها . والقرايد : جمع قرد ، وهو المرتفع من الجبال .

(٤) السماء : طائر يشبه القطا . والصيخود : شدة الحر . (٥) التحريد من الحر ، وهو داء يصيب الإبر

في قوائمها . والأين : التعب . (٦) البهر : هو ما يعترى الإنسان عند اعتدوا من الهبت وتتابع النفس

آلُ المَهَابِ قَوْمٌ لَا يَزَالُ لَهُمْ * رِقِّ الصَّرِيحِ وَأَسْلَابُ الْمَدَاوِدِ ^(١)
 مُظَفَّرُونَ تُصِيبُ الْحَرْبُ أَقْسَمَهُمْ * إِذَا الْفِرَارُ تَمَطَّى بِالْمَحَايِيدِ ^(٢)
 نَجَلٌ مَنَاجِبٍ لَمْ يَعْدَمِ بِلَادُهُمْ * فَتَى يُرَجَى لِنَقِيضٍ أَوْ لِنُوكِيدِ
 قَوْمٌ إِذَا هَدَاةٌ شَامَتْ سَيُوقَهُمْ * فَإِنَّهَا عُقْلُ الْكُومِ الْمَقَاحِيدِ ^(٣)
 نَفْسِي فِدَاؤُكَ يَا دَاوُدَ إِذْ عَلِقْتَ * أَيْدِي الرِّدَى بِنَوَاصِي الضَّمْرِ الْقُودِ
 دَاوَيْتَ مِنْ دَائِهَا كَرْمَانَ وَأَتَنَصَفْتَ * بِكَ الْمُنُونِ لِأَقْوَامٍ مَجَاهِيدِ
 مَلَأْتَهَا فَرَزَةً أَخْلَى مَعَايِلَهَا * مِنْ كُلِّ أْبْلَغٍ سَاحَى الطَّرْفِ صِنْدِيدِ ^(٤)
 لَمَّا نَزَلَتْ عَلَى أَدْنَى بِلَادِهِمْ * أَلْقَى إِلَيْكَ الْأَفَاصِي بِالْمَقَالِيدِ
 لَمَسْتَهُمْ بِيَدٍ لِلْعَفْوِ مُتَّصِلِ * بِهَا الرِّدَى بَيْنَ تَلْيِينٍ وَشَدِيدِ
 أُنَيْتَهُمْ مِنْ وَرَاءِ الْأَمْنِ مُطَّلَعًا * بَانَجِيلِ تَرْدِي بِأَبْطَالٍ مَنَاجِيدِ
 وَطَارَ فِي إِثْرٍ مِنْ طَارَ الْفِرَارُ بِهِ * خَوْفٌ يُعَارِضُهُ فِي كُلِّ أُخْدُودِ
 فَاتُوا الرِّدَى وَطُبَاتُ الْمَوْتِ تَنْشُدُهُمْ * وَأَنْتَ نَضَبَ الْمَنَايَا غَيْرُ مَنَشُودِ
 وَلَوْ تَلَبَّتْ دِيَانَ لَهَا رَوِيَتْ * مِنْهُ وَلَكِنْ شَآهَا عَدُوٌّ مَزْمُودِ ^(٥)
 أَحْرَزَهُ أَجَلٌ مَا كَادَ يُحْرِزُهُ * فَتَرَى طَوِيَّ عَلَى أَحْشَاءِ مَقُودِ ^(٦)
 وَرَأْسُ مِهْرَانَ قَدْ رَكَّبْتَ قُتْلَهُ * لَدَنَا كَفَاهُ . كَانَ الْآيَتِ وَالْجِيدِ
 قَدْ كَانَ فِي مَعَزِلٍ حَتَّى بَعَثَتْ لَهُ * أُمَّ الْمَيْتَةِ فِي أَبْنَائِهَا الصَّيْدِ
 أَجْحَقَ أُمَّ أَسْلَمَتَهُ الْفَاضِحَاتِ إِلَى * حَادٍ مِنَ السَّيْفِ مِنْ يَعْلَقُ بِهِ يُودِ
 الْحَقَّتَهُ صَاحِبِيهِ فَاسْتَمَرَّ بِهِمْ * ضَرْبٌ يَفْرُقُ ضَبَاتِ الْقَهَاحِيدِ ^(٧)

(١) رِق الصريح، أى استعباد الحر . والمداويد : الانجاد واحده منذود . (٢) المحاييد : الجناء

جمع محياد . (٣) الهداة : الفترة . (٤) الأبلغ : المتكبر .

(٥) شآها : سبقها . ومزموود : مرعوب . (٦) المقنود : الذى أصيب فواده . (٧) الصبات :

أوصال الرأس . والقهاحيد : جمع قحودة وهى العظم الناقى فى مؤخر الرأس بين القفا وأعلى الرأس .

أَعْدَرُ مَنْ قَرَمَ مِنْ حَرْبٍ صَبَرَتْ لَهَا * يوم الحُصَيْنِ شِعَارٌ غَيْرَ مَجْحُودٍ ^(١)
 يَوْمَ اسْتَضَبَّتْ سِجِسْتَانُ طَوَائِفَهَا * عليك من طالبٍ وَثْرًا وَمَحْمُودٍ ^(٢)
 نَاهَضْتَهُمْ ذَائِدَ الْإِسْلَامِ تَقَرَّعَهُمْ * عنه ثَلَاثَ وَمِثْنَى بِالْمَوَاحِيدِ
 تَجُودُ بِالنَفْسِ إِذَ أَنْتَ الضَّمِينِ بِهَا * والجُودُ بالنفسِ أَقْصَى غَايَةِ الجُودِ
 تَلِكُ الْأَزَارِقُ إِذْ ضَلَّ الدَّلِيلُ بِهَا * لم يُنْخِطْهَا التَّقْصِدُ من أَسْيَافِ دَاوُدَ
 كَانَ الحُصَيْنُ يُرَجَى أَنْ يَفُوزَ بِهَا * حتى أَخَذَتْ عَلَيْهِ بِالْأَخَادِيدِ
 مَا زَالِ يَعْنُفُ بِالنَّعْمَى وَيَغْمِطُهَا * حتى اسْتَقْبَلَ بِهِ عَوْدُ عَلَى عَوْدِ
 مِثْ تَرْتَابِ الرِّيحِ بِه * وتَحْسُدُ الطَيْرَ فِيهِ أَضْبَعُ الْيَدِ ^(٣)
 تَعْدُو الضَّوَارِي فَتَرْمِيهِ بِأَعْيُنِهَا * تَسْتَشِقُ الجَوَّ أَفْكَاسًا بِتَضْعِيدِ
 يَبْعُنُ أَفْيَاهُ طُورًا وَمَوْرَهُ * يَلْفَنَ فِي عَاقِي مِنْهُ وَتَجْسِيدِ
 فَكَانَ فَارِطًا قَوْمِ حَانَ مَكْرَعُهُمْ * بِأَرْضِ زَادَانَ شَتَى فِي المَوَارِيدِ
 يَوْمَ جَرَّاشَةَ إِذْ شَيَانٌ مُوجِفَةٌ * يَنْجُونَ مِنْكَ بِشِلْوَمِنْهُ مَقْدُودِ ^(٤)
 زَاخَفْتَهُ بَابِنِ سَفْيَانٍ فَكَانَ لَهُ * شَاءَ يَوْمَ بَطَّهَرَ الغَيْبِ مَشْهُودِ
 نَجَا قَلِيلًا وَوَأْفَى زَجْرُ عَائِفِهِ * بِيَوْمِهِ طَيْرَ مَنْحُوسٍ وَمَسْعُودِ
 وَلَى وَقَدْ جَرَعَتْ مِنْهُ القَنَا جُرْعًا * حَىَّ الخَافَةَ مَيْتًا غَيْرَ مَوْدُودِ ^(٥)
 زَالَتْ حُشَّاشَتُهُ عَنِ صَدْرِ مُعْتَدِلِ * دَانِي الكَعُوبِ بَعِيدِ الصَّدْرِ أُمْلُودِ ^(٦)
 إِذَا السُّيُوفُ أَصَابَتْهُ تَقَطَّعَ فِي * سُرَادِقِ بَحْوَامِي الخَيْلِ مَمْدُودِ
 يَفِيدِي بِمَا نَحَلَّتْهُ مِنْ خِلَافَتِهِ * حُشَّاشَةَ التُّرْكَصِ مِنْ جَرْدَاءِ قَيْدُودِ ^(٧)
 حَلَّ اللُّوَاءِ وَخَالَ الخِمْدَرِ عَائِدَهُ * فَعَاذَ بِالْخِمْدَرِ تَرْبُ الكَعَابِ الرُّودِ

(١) اعدر: جاء بما يعذر عليه . (٢) أي أعرت طوائفها . (٣) ترتب: أي استنكر .

(٤) الأفياء: جمع في، وهو الضال . الحسد: الهم . (٥) موجفة: سريعة .

(٦) أمبود: أبلس . (٧) قصيرة الشعر، ومقدود: لاقفة الصريلة الصخر .

- (١) وإن يكن شَبَّها حرباً وقد نَحَمْتُ * فنائياً حيث لا هيد ولا هيد
 كَلُّ مَلَّتْ به في مثل خُطَّتْه * قَتَلَا وَأَصْجَعَتْه في غير مَلْحُود
 عَافُوا رِضَاكَ فَعَاقَتْهُمْ بَعْقُوتُهُمْ ^(٢) * عن الحياة منايهم لِمَوْعُود
 وَأَنْتَ بِالسَّنْدِ إِذَا هَاجَ الصَّرِيحُ بِهَا * وَأَسْتَفَدْتُ حَرْبُهَا كَيْدَ الْمَكَايِدِ
 وَأَسْتَغْزِرُ الْقَوْمَ كَأَسَا مِنْ دِمَائِهِمْ * وَأَحْدَقَ الْمَوْتَ بِالْكَرَّارِ وَالْحَيْدِ
 رَدَدْتَ أَهْمَالَهَا الْقَصُوى مَحْيَسَةً ^(٣) * وَشِمْتَ بِالْبَيْضِ عَوْرَاتِ الْمَرَاصِيدِ
 كُنْتُ الْمُهَلَّبَ حَتَّى شَكَّ عَالِمُهُمْ * ثُمَّ أَنْفَرَدْتَ وَلَمْ تُسَبِّقْ بِتَسْوِيدِ
 لَمْ يَقْبَلِ السَّلْمَ إِلَّا بَعْدَ مَقْدَرَةٍ * وَلَا تَأَلَّفْتَ إِلَّا بَعْدَ تَبَايِدِ
 حَتَّى أَجَابُوكَ مِنْ مَسْتَأْمِنٍ حَذِرِ * رَاجِحٍ وَمَتَظَرِّ حَتْفَا وَمَثْمُودِ
 أَهْدَى إِلَيْكَ عَلَى الشَّحْنَاءِ أَلْفَتَهُمْ * مَوْتُ تَفْزُقُ فِي شَتَى عِبَادِيدِ
 وَفِي يَدَيْكَ بَقَايَا مِنْ سَرَاتِهِمْ * هُمْ لَدَيْكَ عَلَى وَعْدٍ وَتَوْعِيدِ
 إِنْ تَعَفُّ عَنْهُمْ فَأَهْلُ الْعَفْوِ أَنْتَ وَإِنْ * تُمَضُّ الْعِقَابِ فَأَمْرٌ غَيْرُ مَرْدُودِ
 اسْمِعْ فَإِنَّكَ قَدْ هَيَّجْتَ مَلْحَمَةَ * وَقَدَّتْ مِنْهَا بَارِوِاحِ الصَّنَادِيدِ
 أَقْبِزْ أَبَا مَالِكٍ فِيهَا يَكْنُكُ بِهَا * وَيَسْعَ فِيهَا بِجَدِّكَ مِنْكَ مَجْدُودِ
 يَمْضِي بَعِزْمَكَ أَوْ يَجْرِي بِشَاوِكَ أَوْ * يَفْرَى بِجَدِّكَ كُلَّ غَيْرِ مَحْدُودِ
 لَا يَعْدَمَنَّكَ حِمَى الْإِسْلَامِ مِنْ مَلِكٍ * أَقَمْتَ قُلْتَهُ مِنْ بَعْدِ تَأْوِيدِ
 كَفَيْتَ فِي الْمُلْكِ حَتَّى لَمْ يَقِفْ أَحَدٌ * عَلَى ضِيَاعٍ وَلَمْ يَحْزَنْ لِمَفْقُودِ
 أَعْطَيْتَهُمْ مِنْكَ نُصْحًا لَا كِفَاءَ لَهُ * وَأَيْدُوكَ بَرَكْنَ غَيْرَ مَهْدُودِ
 لَمْ يَبِيعْ الدَّهْرُ يَوْمًا بَعْدَ لَيْلَتِهِ * إِلَّا أَنْبَعَثَ لَهُ بِالْبَأْسِ وَالْجُودِ
 أَجْرَى لَكَ اللَّهُ أَيَّامَ الْحَيَاةِ عَلَى * فَعَلِ حَمِيدٍ وَجَدَّ غَيْرِ مَنكُودِ

(١) كِلْتَانِ زِحْرِهِمَا الْإِبْرَ . (٢) بَعْقُوتُهُمْ، أَيْ نَصَانَتُهُمْ . (٣) الْأَهْمَالُ : جَمْعُ هَمَلٍ ، وَهِيَ

التى - المسيب ، ويراد به الصعب ، ومحيسة : مدالة .

لا يفقد الدين خيلاً أنت قائدها * يمهّدن في كل ثغر غير معهود
 محلات إذا آبت غنائمها * ومقدمات على نصر وتأيد
 هناك أنك مَعْدَى كُلِّ ملتمس * جوداً وأنك مأوى كل مضرود
 تستأنف الحمد في دهر أوائله * موسومة بفعال ك محمود
 إذا عزمت على أمر بطشت به * وإن أثلت فنيلاً غير تصريد
 عودت نفسك عادات خلقت لها * صدق الحديث وإنجاز المواعيد

دخل الوليد على الفضل بن سهل لينشده شعراً، فقال له : أيها الكهل ، إني أجالك
 عن الشعر فسل حاجتك ؛ قال : بل تستتم اليد عندي بأن تسمع ، فأنشده :

دموعها من حذار البين تنسكب * وقلبها مغرم من حرّها يجب
 جدّ الرحيل به عنها ففارقها - لبيته اللهو واللذات والطرب
 يهوى المسير إلى مرو ويحزنه * فراقها فهو ذو نفسين يرتقه

فقال له الفضل : إني لأجلك عن الشعر ؛ قال : فأغنى بما أحببت من عملك ، فولاه
 البريد ^(١) بيجرجان .

هجا مسلم قرينشا ونغر بالأنصار بشعر يمثل لك ناحية من نواحي العصبية بين القبائل
 وهو يعتبر، الى حدّ ما ، من الشعر السياسي ، فقال :

قل لمن تاه إذ با عزّ جهلا - ليس بالتيه يفخر الأحرار
 فتناهوا وأقصرُوا فلقد جا - رت عن القصد منكم الأبصار
 أيكم حاط ذا جوارٍ بعزّ - قبل أن تحتويه من الدار
 أوجاً أن يفوت قوماً بوتر * لم تزل تمنطيم الأوتار
 لم يكن ذلك فيكم فدعوا الفح - ر بما لا يسوع فيه أفتحار
 ونزارا ففاحروا تفصّلوهم - ودعوا من به عبيد نزار

(١) بلدة عظيمة كانت بالقرب من بحر قزوين حوّل إلى قرية ما

فبنا عزّ منكمّ الذلّ والدهر * سرّ عليكم بريبه . تزار
 حاذروا دولة الزمان عليكم * إنه بين أهله أطوار
 فَتَرَدُّوا ونحن للحالة الأو * لى وللاوحد الأذلّ الصغار
 فاخترتنا لما بسطنا لها الفخز * رقريش ونفرها مستعار
 ذكرت عزّها وما كان فيها * قبل أن تستجيرنا مُستجار
 إنما كان عزّها في جبال * ترتقيها كما ترقى الوبار
 أيها الفاحرون بالعز والعد * زلقوم سواهم والفقار
 أخبرونا من الأعزّ أألمد * صورحتى آعتلى أم الأنصار
 فلنا العز قبل عزّ قريش * وقريش تلك الدهور تيجار

فانبرى له آبن قنبر يحميه فقال :

ألا أمثل أمير المؤمنين بمسليم * وأقلق به الأحشاء من كل مجرم
 ولا ترجع عن قتله باستنابة * فما هو عن شتم النبي مجرم
 ولا عن مساواة له ولقومه * قريشا بأصداء لعاد وجرهم
 ويفخر بالأنصار جهالا على الذى * بنصرته فازوا بحظّ ومغتم
 وتموا به الأنصار لا عزّ قائل * أراد قريشا بالمقام المدم
 ومنهم رسول الله أزي من آنتى * الى نسب زك ومجد مقدم
 وما كانت الأنصار قبل اعتصامها * بنصر قريش في المحل المعظم
 ولا بالألى يُعلون أقدار قومهم * صداء وخولان ونحم وسلهم
 ولحكّهم بالله عاذوا ونصرهم * قريشا ومن يستعصم الله يعصم
 فعزّوا وقد كانوا وفطيون فيهم * من الذل في باب من العزم بهم
 يسومهم الفطيون ما لا يسامه * كريم ومن لا ينكر الظلم يظلم
 وإن قريشا بالماثر فضلت * على الخلق طرا من فصيح وأعجم

فما بال هذا العليج ضلّ ضلاله * يُدّ اليهم كفّ أجدم أعسم
 يُسامى قرينسا مسلمٌ وهُمُ هُمُ * بمولى يمانى وبيت مهتم
 إذا قام فيه غيرهم لم يكن لهم * مقام به من لؤم مبنى ومدعم
 جعاسيس^(١) أشباه القروذ لو أنهم * يباعون ما آبتعوا جميعا بدرهم
 وما مسلمٌ ولاء ولا أذ * ولكنه من نسل عليج ملّكم
 تولى زمانا غيرهم ثم ادعى * فلم يكرم ولما يُكرم
 فإن يك منهم فالتضير ولقهم * واليه لا من يدعى بالترعم
 وإن تدّعه الأنصار مولى أسمهم * بقافية تنكره الجلد بالده
 عقبا لهم في إفكهم وأدعائهم * لأقلف منقوش الذراع
 فلا تدّعوه وآنتموا منه تسلموا * بنفيكوه من مقال وماثم
 وإلا ففضوا الطرف وآنتموا الردى * إذا آخلفت فيكم صوارد أسهمى
 ولم تجدوا عنها مجنا يحنكم * إذا أطلعت من كل فج ومعلم
 وأنتم بنو أذنان من أتم له * ولستم بأبناء السنام المقدم
 ولا يبنى الرأس الرفيع محله * فيسمو بكم مولى مسام ويتنمى
 فكيف رضيتم أن يُسامى نبيكم * بيتكم الرث القصير المهتم
 ساحط من سامى النبي تطأولا * عليه وأكوى منتهاه بميسمى
 أيعدل بيت يثرب بكعبة * ثوتها قريش في المكان المحرم
 قريش خيار الله والله خصمهم * بذلك فاتعس أيها العليج وأرغم
 ومن تدعى منه الولاء مؤخر * إذا قيل للجارى الى الخجد أقدم

وكان مسلم قال قصيدته في قريش وكتمها . فوَقعت إلى ابن قنبر وأجابها عنها . فاستعلى

عليه وهتكه وأغرى به السلطان . فلم يكن عند مسلم في هذا جواب أكثر من الانتفاء منها

(١) الجعاسيس : اللثام في الخلق والخلق .

ونسبها الى ابن قنبر والادعاء عليه أنه ألصقها به ونسبها اليه ليعرضه للسلطان وخافه، فقال
ينتفى من هذه القصيدة :

دعوتَ امير المؤمنين ولم تكن * هناك ولكن من ينف ينجّم
وانك اذ تدعو الخليفة ناصرا * لكالمترقى في السماء بسلم
كذلك الصدى تدعوه من حيث لا ترى * وان توهمه تمت في التوهم
هجوتَ قريشا عامدا وتحتني * رؤيدك يظهر ما تقول فيعلم
اذا كان مثلي في قبلي فإنه * على ابن لوى قصرة غير منهم
سيكشفك التعديل عما قذفتي * به فتأخر عارفا أو تقدم
فإن قريشا لا يغادر ودّها * ولا يُستمال عهدّها بالترحم
مضى سلف منهم وصلّى بعبقهم * لنا سلف في الأول المتقدم
جروا فجرينا سابقين بسبقهم * كما أتبت كف نواشر معصم
وإن الذي يسعى ليقطع بيننا * كالتمس اليربوع في حجر أرقم
أضلك قرع الآبدات طريقها * فأصبحت من عميائها في تهم
وخانتك عند الجرى لما أتبتها * تمم فحاولت العلاء بالتقحم
فأصبحت ترميني بسهمى وتسبق * يدي يدي أصليت نارك فاضرم

ثم هجاه ابن قنبر بقصيدة أولها :

قل لعبد النّضير مُسلمٍ الوغد * مد الدّين اللّيم سنخ النّصاب
إخس يا كلب اذ نجحت فإني * لست من يجيب نبج الكلاب
أفأرضى ومنصبى منصب العز * وبيتى فى ذروة الأحساب
أن أخط الرفيع من ستمك بيتى * بمهاجاة أوشب الاوشاب
من اذا سيل من أبوه بدا منه * به حياء يئمه رجح الجسواب

وإذا قيل حين يقبل من أذ * ست ومن تعتريه في الأنساب
قلت ها هي آبن قبر قنسر بد * ست بذكري نخرأ لدى النساب

وهي قصيدة طويلة فلم يجبه عنها مسلم بشيء فقال فيه آبن قبر أيضا :

لست أنفيك إن سواى نفاكا * عن أيبك الذى له منماكا
وإذا أنفيك يابن الوليد * من أب إن ذكرته أنزاکا
ولو أنى طلبت الأم منه * لم أجده إن لم تكن أنت ذاکا
لو سواه أبوك كان جعلنا * ه اذا الناس طاوعونا أباکا
حاك دهرأ بغير حدق لبرد * وتحوك الأشعار أنت كذاکا

ثم هجاه بشعر أقذع فيه ، فغشى اليه قوم من مشايخ الأنصار وأستعانوا بمشيخة من قواء
تميم وذوى الفضل والعلم ، فمشوا معهم اليه ، فقالوا : ألا تستحي من أن تهجو من لا يحيك !
أنت بدأت الرجل فأجابك ، ثم عدت فكف ، وتجاوزت ذلك الى ذكر أعراض الأنصار التي
كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجيها ويذب عنها ويصونها لغير حال أحلت ذلك منهم .
فما زالوا به يعظونه ويقولون له كل قول حتى أمسك عن المناقضة لمسلم فانقطعت .

ولمسلم بن الوليد :

وإنى وإسماعيل يوم وداعه * لكالعمد يوم الروع فارقه النصل
أما والحبالات المترات بيننا * وسائل أذتها المودة والوصل
لما خنت عهدا من إخاء ولا نأى * بذكرك نأى عن صميرى ولا شغل
وإنى فى مالى وأهلى كأنى * لنايك لا مال لدى ولا أهل
يدكرنيك الدين والفضل والحجا * وقيل نخسا وأخلم واعمه والحيل
فألفاك عن مذمومها متزها * وألقاك فى محمودها وأك الفضل
وأحمد من أخلاقك البخل إنه * بعرضك لا بالمل حشاك البخل
أمتجعأ مروا بأتمسال همسه * دمع القتل وأحمل حجة ما هنا بقل

ثناء كعرف الطيب يهدى لأهله * وليس له إلا بنى خالد أهل
فإن أغش قوما بعدهم أو أزورهم * فكالوحش يستدنيه للقنص المحل

وله يرثي يزيد بن مزيد :

أحَقُّ إنه أودى يزيد * تأمل أيها الناعي المشيد
أتدري من نعت فكيف فاهت * به شفتاك كان به الصعيد
أحامي المجيد والإسلام أودى * فما للأرض ويحك لا تميد
تأمل هل ترى الإسلام مالت * دعائمها وهل شاب الوليد
وهل شيمت سيوف بني نزار * وهل وضعت عن الخليل اللبود
وهل تسقى البلادَ عشارُ مزَن * بدرتها وهل يخضرُّ عود
أما هدت لمصرعه نزار * بلى وتقوض المجد المشيد
وحل ضريحه إذ حلَّ فيه * طريف المجد والحسب التليد
أما والله ما تنفك عيني * عليك بدمعها أبدا تجود
فإن تجد دموع لئيم قوم * فليس لدمع ذى حسب جمود
أبعد يزيد تختزن البواكي * دموعا أو تُصان لها خدود
لتبكت قبّة الإسلام لما * وهت أطناها ووهى العمود
ويبكك شاعر لم يُبق دهر * له نَسبًا وقد كَسَدَ القصيد
فمن يدعو الإمام لكل خطب * ينوب وكل مُعضلة تُؤد
ومن يحيى الخليس إذا تعايا * بجيلة نفسه البطل التجيد
فإن تهلك يزيد فكلَّ حي * فريس للنبيّة أو طريد
ألم تعجب له أن المنايا * فتكن به وهن له جنود
لقد عزى ربيعة أن يوما * عليها مثل يومك لا يعود

وكان أبو الهذيل العلاف يُغضبه ويلعنه لقوله :

إذا أردتُ سلواً كان ناصرَكم * قلبي وما أنا من قلبي بمتصير
فاكثروا أو أقلوا من إساءتكم * فكل ذلك محمولٌ على القدرِ

فكان أبو الهذيل يلعنه ويقول : يعقد الكفر والفجورَ في شعره، فقال العباس — وقال

محمد بن يحيى : وأظن أنه يهجو به أبا الهذيل وما سمعتُ للعباس هجاءً غيره — :
يامنُ يكذب أخبارَ الرسولِ لقد * أخطأتَ في كلِّ ما تأتي وما تذرُ
كذبتَ بالقدرِ الجارى عليك فقد * أذاك مني بما لا تشتهي القدرُ

قيل للأصمعي : ما أحسنُ ما تحفظ للمحدثين؟ قال : قولُ العباس بن الأحنف :

لو كنتِ عاتبةً لسكنَ روعي * أملي رضاك وزرتُ غيرَ مراقبِ
لكن مللتِ فلم تكن لي حيلةً * صدُّ الملولِ خلافُ صدِّ العاتبِ

ومما أنشده له ابراهيم بن العباس :

قالت ظلومُ سميةُ الظلم * مالى رأيتك ناحلَ الجسمِ
يامن رمى قلبي فأقصده * أنت العليمُ بموضعِ السهمِ

ولشعره الغزلي وقع في النفس، فانهم كانوا يغنون كثيرا منه كقوله :

لو كنتِ عاتبةً لسكنَ روعي * أملى رضاك وزرت غير مراقبِ
لكن مللت فلم تكن لي حيلة * صدُّ الملولِ خلاف صدِّ العاتبِ

وأنشده الأصمعي :

أتأذنون لصبِّ في زيارتكم * فعندكم شهواتُ السمع والبصرِ
لأيضمرِ السوءَ إن طال الجلوسُ به * عفَّ الضميرِ ولكن فاسقِ النظرِ

فقال : ما زال هذا الفتى يدخل يده في جرابه فلا يُخرج شيئاً حتى أدخلها فأخرج هذا،

ومن آدم من طلبَ شيءَ ظفر ببعضه .

وقال سَعِيدُ بنُ جُنَيْدٍ : ما أعرف أحسنَ من شعر العباس في إخفاء أمره حيث يقول

أُرِيدُكَ بِالسَّلامِ فَأَتَقِيمُهُ * فَأَعْمِدُ بِالسَّلامِ إِلَى سِوَاكَ
وَأَكْثِرُ فِيهِمْ ضَحْكَى لِيَحْفَى * فِىنِّى ضاحِكٌ وَالقَلْبُ باكَ

ومما تمثل به الواثقُ في شرَّكانِ بينه وبين بعضِ جواريه :

عَدَلٌ مِنَ اللَّهِ أَبْكَانِي وَأَضْحَكُنِي * فَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَدَلٌ كُلُّ ما صَنَعَا
اليَوْمَ أَبْكَى عَلَى قَلْبِي وَأَنْدَبَهُ * قَلْبٌ أَلَحَّ عَلَيْهِ الحُبُّ فَانصَدَعَا

ومما تمثل به أيضا في مثل ذلك :

أما تَحَسَّبِنِي أَرَى العاشِقِينَ * بَلَى تُمَّ لَسْتُ أَرى لى نَظِيرًا
لَعَلَّ الَّذى بِيَدَيْهِ الامور * سَيَجْعَلُ فى الكُرْه خَيْرًا كَثِيرًا

وقال الزبيرُ : ابن الأحنفُ أشعُرُ الناسِ فى قولهِ :

تَعْتَلُّ بِالشَّغْلِ عَنَّا ما تَكَلَّمْنَا * الشَّغْلُ لِلقَلْبِ ايسِ الشَّغْلِ لِلبَدَنِ

ويقول : لا أعلم شيئًا من أمور الدنيا خيرها وشرها إلا وهو يصلح أن يتَّملَّ فيه بهذا النصف الأخير .

وقال إسحاقُ : لقد ظُفِرَ ابنُ الأحنفِ فى قولهِ — يصف طولَ عهدِهِ بالنوم — :

قِفَا خِبرانى أَيها الرِجالانِ * عَنِ النِّومِ إِنْ المِجْرَ عَنْهُ نَهائى

وكيف يكون النُّومُ أم كيف طعمُهُ * صِفَا النِّومِ لى إِنْ كُنْتُمْ تَصِفانِ

على قلة إعجابهِ بمثل هذه الأشعار .

قال أحمد بن إبراهيم : رأيت سَلَمَةَ بنَ عاصمٍ ومعه شعر العباس بن الأحنف . وقالت

مثلك أعزك الله يحمل هذا! فقال : ألا أحملُ شعرَ من يقول :

أَسَأْتُ إِذْ أَحسَنْتُ ظَنِّي بِكُمْ * وَالخِزْمُ سِوَهُ النَّضْرِ بِالنَّاسِ

يُقَلِّبُنِى الشِّشْوُوقُ فَأَتَسَكُّ * وَالقَلْبُ مُسَلِّمٌ مِنَ اىسِ

وقال أحمد بن إبراهيم: أتاني أعرابي فصيحٌ ظريف، فجعلتُ أكتب عنه أشياءً حسناً، ثم قال: أنشدني لأصحابكم الحَضْرَيْن، فأنشدته للعباس بن الأحنف:

ذَكَرْتُكَ بِالتَّفَاحِ لِمَا شَمَمْتُهُ * وَبِالرَّاحِ لِمَا قَابَلْتَ أَوَّجَهُ الشَّرِيبُ
تَذَكَّرْتُ بِالتَّفَاحِ مِنْكَ سَوَالِفًا * وَبِالرَّاحِ طَعْمًا مِنْ مَقْبَلِكِ الْعَذِيبِ

فقال: هذا عندك وأنت تكتب عني! لا أنشدك حرفاً بعد هذا.

وقال عبد الله بن العباس بن الفضل: ما أعرف في العراق أحسن من قول ابن الأحنف:

سَبْحَانَ رَبِّ الْعَلَا مَا كَانَ أَغْفَلَنِي * عَمَّا رَمَتْنِي بِهِ الْأَيَّامُ وَالزَّمَنُ
مَنْ لَمْ يَذُقْ فِرْقَةَ الْأَحْبَابِ ثُمَّ يَرَى * آثَارَهُمْ بَعْدَهُمْ لَمْ يَذِرْ مَا الْحَزَنُ

قال حسين بن الضحَّاك: لوجاء العباس بقول ماقاله في بيتين في أبياتٍ لُعْدِر، وهو قوله:

لَعَمْرُكَ مَا يَسْتَرِيحُ الْمَحَبُّ حَتَّى يَبْسُوحَ بِأَسْرَارِهِ
فَقَدْ يَكْتُمُ الْمَرْءُ أَسْرَارَهُ * فَتُظْهِرُ فِي بَعْضِ أَشْعَارِهِ

ثم قال: أما قوله في هذا المعنى الذي لم يتقدمه فيه أحد فهو:

الْحَبُّ أَمْلَكُ لِلزُّوَادِ بِقَهْرِهِ * مَنْ أَنْ يَرَى لِلسَّيْرِ فِيهِ نَصِيبُ
وَإِذَا بَدَأَ سُرَّ اللَّيْبُ فَإِنَّهُ * لَمْ يَسُدُّ إِلَّا وَالْقَى مَغْلُوبُ

وقال أبو العتاهية: ما حسدتُ أحداً إلا العباس بن الأحنف في قوله:

إِذَا امْتَنَعَ الْقَرِيبُ فَلَمْ تَنْلُهُ * عَلَى قَرَبٍ فَذَلِكَ هُوَ الْبَعِيدُ

وقال اليعنبي: العباس بن الأحنف مابحٌ ظريفٌ حكيمٌ جَزَلٌ في شعره، وكان قليلاً

ما يُرْضِيهِ الشَّعْرُ، فَكَانَ يُنْشِدُهُ كَثِيرًا:

أَلَا تَعْجَبُونَ كَمَا أَعْجَبُ * حَبِيبٌ يُسِيءُ وَلَا يُعْتَبُ
وَأَبْنَى رِضَاهِ عَلَى سُخْطِهِ * فَيَأْبَى عَلَيَّ وَيَسْتَصْعَبُ
فِيالِيتِ حَظِّي إِذَا مَا أَسَأَ * تَأْتُكَ تَرْضَى وَلَا تَقْضُبُ

وكان ابراهيم الموصلي مشغولاً بشعر العباس فيغني في كثير من شعره، فما غني فيه :
 وقد ملئت ماء الشباب كأنها * قضيب من الزمان ريان أخضر
 هم كتموني سيرهم حين أزمعوا * وقالوا اتعدنا للروح وبكروا
 ومنه :

تمني رجال ما أحبوا وإنما * تمنيت أن أشكوا لك وتسمعا
 أرى كل معشوقين غيري وغيرها * قد استعذبا طول الهوى وتمتعا
 ومنه :

يكت غيني لأنواع * من الحزن وأوجاع
 وإنما كل يوم عنكم يحظى بي الساعي
 أعيش الدهر إن عشت * بقلب منك مراتع
 وإن حل بي البعد - سينعاني لك الناعي

وقال الواثق بللسائه : أريد أن أصنع لنا في شعر معناه أن الإنسان كأننا من كان
 لا يقدر على الاحتراس من عدوه، فهل تعرفون في هذا شيئاً؟ فأنشدوه ضرباً من الأشعار،
 فقال : ما جئتم بشيء مثل قول العباس بن الأحف :

قلبي الى ما ضرني داعي * يكثر أسقامي وأوجاعي
 كيف احتراسي من عدوي اذا * كان عدوي بين أضلاعي
 أسلني للهب أشياعي * لما سعي بي عندها الساعي
 لقلما أبقي على كل ذا * يوشك أن ينعاني الناعي
 ومما غني فيه من شعره :

أبي الذي أذاقوني مودتهم * حتى اذا أيقظوني للهوى رقدوا

وقال ابراهيم بن العباس : ما رأيت كلاماً محدثاً أجزل في رقة ، ولا أصعب في سهولة .

ولا أبلغ في إيجاز، من قول العباس بن الأحف :

تعاني نجد دارس العهد بيننا * كالأما على طول الحقاء مأنوم

وأشد إبراهيم بن العباس للأحنف :

إن قال لم يفعل وإن سئل لم * يبدل وإن عوتب لم يعتب
صب بعضياني ولو قال لي * لا تشرب البارد لم أشرب
إليك أشكو رب ما حل لي * من صد هذا المذنب المغضب

ثم قال : هذا والله الكلام الحسن المعنى ، السهل المتورد ، القريب المتناول ، المليح اللفظ ، العذب المستمع .

ومما غنى فيه من شعره

نام من أهدى لي الأرقا * مستريحا سامني قلقا
لو بيت الناس كلهم * بسهادي بيض الحدقا
كان لي قلب أعيش به * فاصطلي بالحب فاحترقا
أنا لم أرزق مودتكم * إنما للعبد ما رزقا

وقال ابن المعتز : لو قيل : ما أحسن شيء تعرفه لقلت : شعر العباس بن الأحنف :

قد سحب الناس أذيال الظنون بنا * وفرق الناس فينا قولهم فرقا
فكاذب قدرى بالحب غيركم * وصادق ليس يدري أنه صدقا

ومما تمثل به الفضل بن الربيع في أمر كان بينه وبين إحدى جواريه :

تحمل عظيم الذنب ممن تحبه * وإن كنت مظلوما فقل أنا ظالم
فإنك إلا تغفر الذنب في الهوى * يفارقك من تهوى وأنتك راغم

أنشد محمد الموصلي قصيدته التي يقول فيها :

كل شيء أقوى عليه ولكن * ليس لي بالفراق منك يدان

بفعل يستحسنه ويردده ، فقال له عبد الله بن ربيعة الرقي : أنت الفداء لمن ابتداء هذا

المعنى فأحسن فيه حيث يقول — وهو العباس بن الأحنف — :

سلبتني من السرور ثياباً * وكستني من الهموم ثياباً
كلما أغلقت من الوصل باباً * فتحت لي الى المنية باباً
عذبتني بكل شيء سوى الصدق فما ذقت كالمصدود عذاباً

قال الرياشي - وقد ذكر عنده العباس بن الأحنف - : والله لو لم يقل من الشعر
إلا هذين البيتين لكفياً :

أحرم منكم بما أقولُ وقد * نال به العاشقون من عَشَقُوا
صرتُ كاتِي دُبَالَةً نُصِبْتُ * تُضِيءُ للناس وهي تَحْتَرِقُ

ألف الرشيد العباس بن الأحنف، فلما خرج الى خراسان طال مقامه بها، ثم خرج الى
أرمينية والعباس معه، فاشتاق الى بغداد، فعارضه في طريقه، فأنشده :

قالوا خراسانُ أَقْصَى ما يُرَاد بنا * ثم القُفُولُ تقصد جئنا خراساناً
ما أقدر الله أن يُدْني على شَحْطِ * سكانِ دِجْلَةَ من سكانِ جِيحَانَا
مضى الذي كنتُ أرجوه وأملُهُ * أما الذي كنتُ أَخشاه فقد كانا
عينُ الزمانِ أصابتنا فلا نظرتُ * وعدتُ بصُنُوفِ الهَجْرِ ألوانا

فقال له الرشيد : قد اشتقت يا عباس ، وأذنت لك خاصة ، وأمر له بثلاثين ألف درهم .

وقال مُصعبُ الزُّبيري : العباسُ بن الأحنف وعمر بن أبي ربيعة ما ابتدلا شعرهما
في رغبة ولا رهبة ، ولكن فيما أَحَبَّاه ، فلزِمَا فناً واحداً لولزمه غيرهما ممن يكثرُ مِثْرَاهما
لضعف فيه .

١٤ - ابن مناذر^(١)

كان يَتَحَوَّنُو عَدِيَّ بن زَيْدٍ في شِعْرِهِ، وَيَمِيلُ إِلَيْهِ وَيَقْدِمُهُ، وَقَدْ مَدَحَ آلَ بَرْمَكٍ وَغَيْرِهِمْ . وَلَمَّا نَكَبَتِ الْبَرَامِكَةُ وَالَّتِ الْوِزَارَةُ إِلَى عَدُوِّهِمُ الْفَضْلِ بنِ الرَّبِيعِ أَصْبَحَ شِعْرَاءُ الْبَرَامِكَةِ فِي حَظْرِهِ، فَأَرَادَ ابْنُ مَنَازِرٍ أَنْ يَتَقَرَّبَ إِلَى الرَّشِيدِ طَلَبًا لِلرِّزْقِ، فَأَغْتَمَ ذَهَابَهُ إِلَى الْجَبِّ وَقَدَّمَ إِلَيْهِ يَوْمَ التَّرْوِيَةِ بِقَصِيدَةٍ، فَلَاحَ الْبِشْرُ فِي وَجْهِ الرَّشِيدِ؛ فَقَالَ الْفَضْلُ بنِ الرَّبِيعِ لِلرَّشِيدِ : هَذَا شَاعِرُ الْبَرَامِكَةِ ! فَنَبَسَ الرَّشِيدُ؛ فَقَالَ الْفَضْلُ : مُرْهُ أَنْ يُنْشِدُكَ قَوْلَهُ فِيهِمْ : أَنَا نَا بَنُو الْأَمْلَاقِ مِنْ آلِ بَرْمَكٍ، فَأَمْرُهُ، فَاعْتَذَرَ، فَأَلْحَ عَلَيْهِ، فَأَنْشَدَهُ هَذِهِ الْقَصِيدَةَ الَّتِي يُطَوِّرُ بِهَا الْبَرَامِكَةَ :

أَنَا نَا بَنُو الْأَمْلَاقِ مِنْ آلِ بَرْمَكِ * فَيَا طَيْبَ أَخْبَارِ وَيَا حُسْنَ مَنَظَرِ
 إِذَا وَرَدُوا بِطَحَاءِ مَكَّةَ أَشْرَقَتْ * بِيحْيَى وَبِالْفَضْلِ بنِ يَحْيَى وَجَعْفَرِ
 فَتُظَلِّمُ بِنَفَادٍ وَيَجْلُو لَنَا الدُّجَى * بِمَكَّةَ مَا حَجَّجُوا ثَلَاثَةَ أَقْمَرِ
 فَمَا صَلَّحَتْ إِلَّا بِالْجُودِ أَكْفَهُمْ * وَأَرْجُلُهُمْ إِلَّا لِأَعْوَادِ مَنبَرِ
 إِذَا رَاضَ بِيَحْيَى الْأَمْرَ ذَلَّتْ صِعَابُهُ * وَحَسْبُكَ مِنْ رَاجِعٍ لَهُ وَمُدَبِّرِ
 تَرَى النَّاسَ إِجْلَالًا لَهُ وَكَانَهُمْ * غَرَانِيقَ مَاءٍ تَحْتَ بَازٍ مُصْرِصِرِ^(٢)

ولما فرغ منها أتبع ذلك قوله : « كانوا أولياءك يا أمير المؤمنين لما مدحتهم » فأمر الرشيد أن يُلَطِّمَ، فَلَطَمُوهُ، وأمر أن يسحب، فسحبوه وخرج لا يَلْوِي على شيء؛ فَلَقِيَهُ

(١) هو محمد بن مناذر، مولد لبني يربوع، ويكنى أبا جعفر، شاعر صريح، مقدم في العلم باللغة وإمام فيها حتى أخذ عنه أكار أهلها. وكان في أول أمره يتعبد ثم عدل عن ذلك، فهجا الناس وتهتك وخلع وقذف أعراض أهل البصرة حتى نهى عنها إلى الخجاز، فأت هناك سنة ١٩٨ هـ. وتجد أخباره في الأغاني (ج ١٧ ص ٩) والشعر والشعراء (ص ٥٥٣). (٢) الفرانيق: جمع عرنوق، وهو طائر مائي أسود وقيل أبيض يشبه الكركي. (٣) مصرصر: صاخ بسده.

أبو نواس فدفع إليه صُرةً فيها ثلثمائة دينار ، وقال له : استعنْ بهذه وأعدرنى . ولم يُعد
أبنُ مناذر يرى خيراً بعد البرامكة .

قال الحسن بن علي كما عند باب سُفيان بن عُيينة وقد هَرَبَ منا وعنده الحسنُ بن علي
التَّخْتَاخ ورجلٌ من أصحاب الرشيد ، فخلا بهم وليس يأذُن لنا ، فجاء أبنُ مناذر فقرب من
الباب ثم رفع صوته فقال :

بِعَمْرٍو وبِالزُّهْرِيِّ والسَّافِ الأُي * بهم تَبَّتْ رِجْلَاكَ عِنْدَ المِقَادِمِ
جَعَلَتْ طَوَالَ الدَّهْرِ يَوْمًا لِصَالِح * وَيَوْمًا لِصَبَّاحٍ وَيَوْمًا لِحَاتِمِ
وَلِلْحَسَنِ التَّخْتَاخِ يَوْمًا وَدُونِهِمْ * خَصَّصْتَ حَسِينًا دُونَ أَهْلِ المَوَاسِمِ
نَظَرْتُ وَطَالَ الفِكْرُ فَيْكَ فَلَمْ أَجِدْ * رَحَاكَ جَرَّتْ إِلا لِأَخِيذِ الدَّرَاهِمِ

نُفِرَجَ سَفِيَانٌ وَفِي يَدِهِ عَصَا وَصَاح : خَذُوا الفَاسِقَ ؛ فَهَرَبَ أبنُ مَنَازِرٍ مِنْهُ وَأذِنَ لَنَا فَدَخَلْنَا .
كَانَ الرِّشِيدُ قَدْ وَصَلَ أبنَ مَنَازِرٍ مَرَّاتٍ صِلَاتٍ سَنِيَّةً ، فَلَمَّا مَاتَ الرِّشِيدُ رَنَاهُ بِقَوْلِهِ :

مَنْ كَانَ يَتَّبِعِي اللُّعْلَا * مَلِكًا وَلِلْهِمَّ الشَّرِيفَهُ
فَلْيَبِكْ هَارُونَ الخَلِيْفَةَ لِلخَلِيْفَةِ

قال علي بن محمد النوفلي : رأيتُ أبنَ مناذرٍ في الحجِّ سنة ثمان وتسعين ومائة وهو قد كُفِّفَ
بصره تقوده جويرية حرة وهو واقف يشتري ماء قربة ، فرأيتُه وسخ الثوب والبدن ، فلما
صرنا الى البصرة أُنْتَنَا وفأته في تلك الأيام .

كان يحيى بن زياد يُرمَى بالزندقة ، وكان من أظرف الناس وأنظفهم ، فكان يقال :
أظرف من الزنديق ، وكان الحاركي ، واسمه محمد بن زياد ، يُظهِرُ الزندقةَ تَظَارُفًا ؛ فقال فيه
ابن منادر :

يَا أبنَ زِيَادٍ يَا أَبَا جَعْفَرٍ * أَظْهَرْتَ دِينَا غَيْرَ مَا تُحْفَنِي
مُرْتَدُّكَ الظَّاهِرَ بِاللَّفْظِ فِي * بَاطِنِ إِسْلَامٍ فَتَى عَفَّ
بِزَنْدِيقٍ وَلِكُنَّا * أَرَدْتَ أَنْ تُوسِّمَ بِالظَّرْفِ

ومن قوله يرى سفيان بن عيينة :

يُخِنِّي مِنَ الْحِكْمَةِ نُورَاهَا * مَا تَشْتَمِي الْأَنْفُسَ أَلْوَانَا
 يَا وَاحِدَ الْأُمَمَةِ فِي عَالَمِهِ * لَقِيتَ مِنْ ذِي الْعَرْشِ غُفْرَانَا
 رَاحُوا بِسُفْيَانَ عَلَى نَعْشِهِ * وَالْعِلْمُ مَكْسُورِينَ أَكْفَانَا
 إِنْ الَّذِي غُوْدِرَ بِالْمُحْتَمَى * هَدَّ مِنَ الْإِسْلَامِ أَرْكَانَا
 لَا يُبْعِدُنكَ اللَّهُ مِنْ مَيِّتٍ * وَرَثْنَا عِلْمًا وَأَحْزَانَا

خطب أبو أمية امرأة من تميم فرد عنها ، وتصدى للقاضي أن يضمه مالا من أموال

اليتامى فلم يجبه الى ذلك ولم يثق به ؛ فقال فيه ابن منذر :

أَبَا أُمَيَّةَ لَا تَغْضَبْ عَلَيَّ فَا * بَرَاءُ مَا كَانَ فِيَا بَيْنَنَا الْغَضَبُ
 إِنْ كَانَ رَدُّكَ قَوْمٌ عَنْ قَاتِهِمْ * فَفِي كَثِيرٍ مِنَ الْخُطَابِ قَدْ رَغِبُوا
 قَالُوا عَلَيْكَ دِيُونٌَ مَا تَقَوْمُ بِهَا * فِي كُلِّ عَامٍ بِهَا تُسْتَحَدَّثُ الْكُتُبُ
 وَقَدْ تَقَحَّمْ مِنْ خَمْسِينَ غَايَتَهَا * مَعَ أَنَّهُ ذُو عِيَالٍ بَعْدُ مَا أَنْشَعَبُوا
 وَفِي الَّتِي فَعَلَ الْقَاضِي فَلَا تَجِدُنُ * فَلَيْسَ فِي تِلْكَ لِي ذَنْبٌ وَلَا ذَنْبُ
 أَرَدْتَ أَمْوَالَ أَيْتَامٍ تُضَمُّنُهَا * وَمَا يُضَمَّنُ إِلَّا مَنْ لَهُ نَسَبُ

قال له جعفر بن يحيى قل في وفي الرشيد شعرا تصف فيه الألفة بيننا ، فقال :

قَدْ تَقَطَّعَ الرَّحِمُ الْقَرِيبُ وَتُكْفَرُ النَّدَى * نَعْمَى وَلَا كَتَقَارِبِ الْقَلْبَيْنِ
 يُدْنِي الْهَوَى هَذَا وَيُدْنِي ذَا الْهَوَى * فَإِذَا هُمَا نَفْسٌ تُرَى نَفْسَيْنِ

١٥ - صالح بن عبد القدوس^(١)

كان متهما بالزندقة ، فبلغ الى المهديّ خبر زندقته ، فبعث اليه يستقدمه من دمشق ، وكان قد رحل اليها وهو شيخ طاعن في السن ، فلما جاء بغداد ومثّل بين يدي المهديّ قال له المهديّ : ألسنت القائل :

والشيخ لا يترك أخلاقه * حتى يُورَى في ثرى رَمْسِه

قال : بلى يا أمير المؤمنين ! قال : وأنت لا تترك أخلاقك حتى تموت ، فأمر به ، فقتل وصُلب على جسر بغداد سنة ١٦٧ هـ . وأكثر شعره في الحكيم الفلسفية .

ومن أحسن أقواله القصيدة التي منها ذلك البيت ، وهو يقول فيها :

لا يبلغ الأعداء من جاهل * ما يبلغ الجاهل من نفسه

والشيخ لا يترك أخلاقه * حتى يُورَى في ثرى رَمْسِه

إذا بي عاد الى جهله * كذى الضنا عاد الى نكسه

وإن من أدبته في الصبا * كالعود يُسقى الماء في غمره

حتى تراه مورقا ناصراً * بعد الذي أبصرت من يُسه

وفوله :

لا يُعجبك من يصون ثيابه * حدّر الغبار وعرضه مبدول

ولربما أفقر القتي فرأيتَه * دَس الثياب وعرضه مغسول

(١) هو صالح بن عبد القدوس بن عبد الله بن عبد القدوس ، من حكاة الشعراء ، منهم بالزندقة ، قوی آهجة ،

له منزلة سامية عند أهل مذهبه . نشأ في البصرة ، وكان يقص على الناس ويعظهم . توفي سنة ١٦٧ هـ وتجد

أكثر أخباره في فوات الوفيات (ج ١ ص ١٩١) والدميري (ج ١ ص ٢٦) .

وكان فيه ميل الى العزلة والانتطاع عن الناس شأن الفلاسفة، ومن ذلك قوله
 أَنْسَتْ بَوَّحْدِي وَلَزِمْتُ بَيْتِي * فَتَمَّ الْعَزْلَى وَتَمَّ السَّرُورُ
 وَأَدْنَيْي الزَّمَانُ فَلَيْتَ أُنِّي * هُجِرْتُ فَلَا أُرَارُ وَلَا أَزُورُ
 وَلَسْتُ بِقَائِلٍ مَا دَمْتُ حَيًّا * أَقَامَ الْجُنْدُ أُمَّ نَزَلَ الْأَمِيرُ

وهو القائل :

إذا لم تستطع شيئاً فدعه * وجاوزه الى ما تستطيع

وله قصيدة حكيمة أخلاقية بدیعة، وهي التي يقول فيها :

المرء يجمع والزمان يفترق * ويظلل يرقع والخطوب يمزق
 ولأن يعادى عاقلاً خير له * من أن يكون له صديق أحمق
 فأربأ بنفسك أن تصادق أحمقاً * إن الصديق على الصديق مصدق
 وزين الكلام إذا نطقت فإنما * بيدي عقول ذوى العقول المنطق
 ومن الرجال إذا آسنوت أخلاقهم * من يستشار إذا استشير فيطرق
 حتى يحل بكل واد قلبه * فيرى ويعرف ما يقول فينطق
 لا ألفينك ثاويًا في غربة * إن الغريب بكل سهم يرشق

وله منها :

ما الناس إلا عاملان فعامل * قد مات من عطش وأخر يغرق
 والناس في طلب المعاش وإنما * بالحد يرزق منهم من يرزق
 لو يرزقون الناس حسب عقولهم * ألفت أكثر من ترى يتصدق
 لكنه فضل المليك عليهم * هذا عليه موسع ومضيق
 وإذا الجنازة والعروس تلاقيا * ورأيت دمع نوائح يتفرق
 سكت الذي تبع العروس مهتأ * ورأيت من تبع الجنازة ينطق
 بقي الذين إذا بقولوا يكذبوا * ومضى الذين إذا بقولوا يصدقوا

وله من قصيدته المعروفة بالزينية :

- وَأَبْدَأُ عُدُوكَ بِالتَّحِيَّةِ وَتَتَكُنُّ * مِنْهُ زَمَانُكَ خَائِفًا تَتَرَقَّبُ
وَأَحْدَرُهُ إِنِّ لَأَقِيْتَهُ مُتَبَسِّمًا * فَالليث يَبْسُدُونَابُهُ إِذْ يَغْضَبُ
إِنِ العُدُوكَ وَإِنِ تَقْدَامُ عَهْدُهُ * فَالْحِفْدُ بَاقٍ فِي الصَّدُورِ مُغَيَّبُ
وَإِذَا الصَّيْدِيْقُ لَقِيْتَهُ مُتَمَلِّقًا * فَهُوَ العُدُوكَ وَحَقَّقَهُ يُجَنَّبُ
لَا خَيْرَ فِي وُدِّ أَمْرِي مُتَمَلِّقِي * حُلُوِّ اللِّسَانِ وَقَلْبُهُ يَتَلَهَّبُ
يَلْقَاكَ يَحْلِفُ أَنَّهُ بِكَ وَائِقُ * وَإِذَا تَوَارَى عَنْكَ فَهُوَ العَقْرَبُ
يُعْطِيكَ مِنْ طَرَفِ اللِّسَانِ حَلَاوَةَ * وَيُرُوغُ مِنْكَ كَمَا يُرُوغُ التَّعْلَبُ
وَصِلِ الكِرَامَ وَإِنِ رَمُوكَ بِجَفْوَةٍ * فَالصَّفْحُ عَنْهُمْ وَالتَّجَاوُزُ أَصُوبُ
وَآخِرَ قَرِيْنِكَ وَاصْطَفِيْهِ تَمَافِحًا * إِنِّ التَّقْرِيْنَ إِلَى المُقَارِنِ يُنْسَبُ
إِنِّ العَفْيَ مِنَ الرِّجَالِ مُكْرَمٌ * وَتَرَاهُ يُرْجَى مَا لَدَيْهِ وَيُرْهَبُ
وَيُبَشُّ بِالتَّرْحِيْبِ عِنْدَ قُدُومِهِ * وَيُقَامُ عِنْدَ سَلَامِهِ وَيُقَرَّبُ
وَالفَقْرَ شَيْنَ لِلرِّجَالِ فَإِنَّهُ * حَقًّا يَهُونُ بِهِ الشَّرِيفُ الأَنْسَبُ
وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلأَقْرَابِ كُلِّهِمْ * بِتَذَلُّلٍ وَأَسْتِجْحَابِ لِمَ إِنِّ الأَذْنِبُوا
وَدَعْ الكَذُوبَ فَلَا يَكُنْ لَكَ صَاحِبًا * إِنِّ الكَذُوبَ يَشِينُ حَرًّا يَصْحَبُ
وَزِيْنَ الكَلَامِ إِذَا نَطَقْتَ وَلَا تَكُنْ * ثِرْنَارَةً فِي كُلِّ نَادٍ تَحْطَبُ
وَأَحْفَظْ لِسَانَكَ وَأَحْتَرِزْ مِنْ لَفْظِهِ * فَالْمَرْءُ يَسَلِّمُ بِاللِّسَانِ وَيَعْطَبُ
وَالسَّرُّ فَكُتْمُهُ وَلَا تَنْطِقْ بِهِ * إِنِّ الرُّجَاةَ كَسَرُهَا لَا يُسْعَبُ
وَكَذَلِكَ سَرٌّ إِنْ لَمْ يَطُوهُ * نَشْرَتُهُ أَلْسِنَةً تَزِيدُ وَتَكْذِبُ
لَا تَحْرِصَنَّ فَالْحِرْصُ لَيْسَ بِزَائِدٍ * فِي الرِّزْقِ بَلْ يُشْقِي الحَرِيصَ وَيُتْعِبُ

وَأَرَعَ الْأَمَانَةَ وَالْحَيَانَةَ فَاجْتَنِبْ * وَأَعْدِلْ وَلَا تَقْظِمِ يَطْبَ لَكَ مَكْسَبٌ
 وَإِذَا أَصَابَكَ نَكْبَةٌ فَاصْبِرْ لَهَا * مَنْ ذَا رَأَيْتَ مُسَلِّمًا لَا يُنْكَبُ
 وَإِذَا رُمِيتَ مِنَ الزَّمَانِ بِرَيْبِيَةٍ * أَوْ نَالَكَ الْأَمْرُ الْأَشَقُّ الْأَصْعَبُ
 فَاضْرَعْ لِرَبِّكَ إِنَّهُ أَذْفَى لِمَنْ * يَدْعُوهُ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ وَأَقْرَبُ
 وَأَحْذَرُ مَصَاحِبَةَ اللَّئِيمِ فَإِنَّهُ * يُعِيدِي كَمَا يُعِيدِي الصَّحِيحَ الْأَجْرَبُ
 وَأَحْذَرُ مِنَ الْمَظْلُومِ سَهْمًا صَائِبًا * وَأَعْلَمُ بَأَنَّ دُعَاءَهُ لَا يُجْجَبُ
 وَلَقَدْ نَصَحْتِكَ إِنْ قَبِلْتَ نَصِيحَتِي * وَالنُّصْحُ أَغْلَى مَا يُبَاعُ وَيُوهَبُ

(١)
١٦ - سعيد بن وهب

كان شاعراً مطبوّطاً ومات في أيام المأمون، وأكثر شعره في الغزل والتشبيب بالمدكّر، وكان مشغوفاً بالغلمان والشراب، ثم تنسك وتاب ورجّ راجلاً على قدميه ومات على توبة وإقلاع ومذهب جميل، ومات وأبو العتاهية حيّ وكان صديقه فرثاه .

أخبر عليّ بن سليمان الأخفش عن محمد بن مزيد قال : حدثت عن بعض أصحاب أبي العتاهية قال : جاء رجل إلى أبي العتاهية ونحن عنده، فسأته في شيء، فبكى أبو العتاهية، فقلنا له : ما قال لك هذا الرجل يا أبا إسحاق فأبكاك؟ فقال - وهو يحدثنا لا يريد أن يقول شعرا - :

قال لي مات سعيد بن وهب * رحم الله سعيد بن وهب
يا أبا عثمان أبكيت عيني * يا أبا عثمان أوجعت قلبي

قال : فعجبنا من طبعه، وإنه يحدث فكان حديثه شعرا موزونا .

وكان سعيد بن وهب الشاعر البصري مولى بني سامة قد تاب وتزهد وترك قول الشعر، وكان له عشرة من البنين وعشر من البنات، فكان إذا وجد شيئا من شعره نحرقه وأحرقه، وكان أمراً صديق، كثير الصلاة، يزكي في كل سنة عن جميع ما عنده، حتى إنه ليزكي عن فضة كانت على امرأته .

وكان سعيد بن وهب يتعشق غلاما يتشطر يقال له سعيد، فبلغه أنه توعده أن يجرحه، فقال فيه :

(١) هو سعيد بن وهب أبو عثمان مولى بني سامة بن لؤي بن نصر، مولده ومشوره بالبصرة ثم صار إلى بغداد فأقام بها . وكانت الكتابة صناعته، فنصرف مع البرامكة فاصطنعوه وتقدّم عندهم . وتجد أنه ه في الأعاني (٢١ - ص

مَنْ عَذِيرِي مِنْ سَمِيٍّ * مَنْ عَذِيرِي مِنْ سَعِيدٍ
أَنَا بِاللَّحْمِ أَجَاهُ * وَيَحْيَى بِالْحَدِيدِ^(١)

ونظر سعيد بن وهب إلى قوم من كُتَّاب السلطان في أحوال جميلة، فأنشأ يقول :

مَنْ كَانَ فِي الدُّنْيَا لَهُ شَارَةٌ * فَنَحْنُ مِنْ نَظَارَةِ الدُّنْيَا
نَوْمُهَا مِنْ كَتِّبِ حَسْرَةً * كَأَنَّا لَقَطُّ بِلَا مَعْنَى
يَعْلُو بِهَا النَّاسُ وَأَيَّامُنَا * تَذْهَبُ فِي الْأَرْذَلِ وَالْأَدْنَى

وحدث حماد بن إسحاق عن أبيه قال : كان سعيد بن وهب لى صديقا، وكان له ابن يكنى أبا الخطاب من أكيس الصبيان، وأحسنهم وجها وأدبا، فكان لا يكاد يفارقه في كل حال، لشدة شغفه به ورقته عليه، فمات وله عشر سنين، فبزغ عليه جزعا شديدا وأنقطع عن لذاته، فدخلت إليه يوما لأعاتبه على ذلك وأستعطفه، فحين رأى ذلك في وجهي فاضت دموعه، ثم أتتبع حتى رحمته، وأنشدني :

عَيْنِ جُودِي عَلَى أَبِي الْخَطَّابِ * إِذْ تَوَلَّى غَضًّا بِمَاءِ الشَّبَابِ
لَمْ يُقَارِبْ ذَنْبًا وَلَمْ يَبْلُغِ الْحِنْدَ * سِتَّ مَرْجِيٍّ مَطْهَرِ الْأَثْوَابِ
فَقَدَّتْهُ عَيْنِي إِذَا مَا سَعَى آتٍ * رَابِعُهُ مِنْ جَمَاعَةِ الْأَثْرَابِ
إِنْ غَدَا مُوَحِّشًا لِدَارِي فَقَدْ أَصَدَّ * يَحِجُّ أُنْسَ الثَّرَى وَزَيْنَ التَّرَابِ
أَحْمَدُ اللَّهِ يَا حَيْبِي فَإِنِّي * بَكَ رَاجٍ مِنْهُ عَظِيمِ الثَّوَابِ

ثم ناشدني ألا أذاكره بشيء مما جئتُ إليه، فقممتُ ولم أخاطبه بحرف .

دخل سعيد بن وهب على الفضل بن يحيى في يوم قد جلس فيه للشعراء، فجعلوا يئشذونه ويأمرهم بالجوائز حتى لم يبق منهم أحد، فالتفت إلى سعيد بن وهب كالمستنطق، فقال له : أيها الوزير، إني ما كنت أستعددتُ لهذه الحال، ولا تقدمتُ لها عندي مُقدمَةً فأعير فيها،

(١) وحاده بوجاهه ويجاهه : ضرب به باليد أو بالسكين . وحففه الحدرة ها هنا للشعر .

ولكن قد حضرني بيتان أرجو أن ينوبا عن قصيدة؛ فقال : هاتهما، فرب قليل أبلغ من الكثير؛ فقال سعيد :

مَدَحَ الْفَضْلُ نَفْسَهُ بِأَعَالِي * فَعَلَا عَن مَدِيحِنَا بِالْمَقَالِ
أَمْرُونِي بِمَدْحِهِ قَلْتُ كَلًّا * كَبُرَ الْفَضْلُ عَن مَدِيحِ الرِّجَالِ

قال : فطرب الفضل وقال له : أحسنت والله وأجدت ، ولئن قل القول وتزر ، لقد أتسع المعنى وكثر ، ثم أمر له بمنزل ما أعطاه كل من أنشده مديحا يومئذ ، وقال : لا خير فيما يحيى بعد بيتك ، وقام من المجلس ، وخرج الناس يومئذ باليتين لا يتناشدون سواهما .

وحدث الخريجي قال : كان الفضل بن يحيى ينافس أخاه جعفرا وينافسه جعفر ، وكان أنس بن أبي شيخ خاصا بجعفر ، يتادمه ويأنس به في خلواته ، وكان سعيد بن وهب بهذه المنزلة للفضل ، فدخلت يوما إلى جعفر ودخل إليه سعيد بن وهب فحدثه وأنشده ويتادله ، وحكى عن المتنادرين وأتى بكل ما يسر ويطرب ويضحك ، وجعفر ينظر إليه لا يزيد على ذلك ، فلما خرج سعيد من عنده تجاهلت عليه وقلت له : من هذا الرجل الكثير الهديان ؟ قال : أو ما تعرفه ؟ قلت : لا ؛ قال : هذا سعيد بن وهب صديق أخي أبي العباس وخُصاناه وعشيقه ، قلت : وأى شيء رأى فيه ؟ قال : لا شيء والله إلا القدر والبرد والغثاء ، ثم دخلت بعد ذلك إلى الفضل ، ودخل أنس بن أبي شيخ فحدث ونذر وحكى عن المضحكين وأتى بكل طريفة ، فكانت قصة الفضل معه قصة جعفر مع سعيد ، فقلت له بعد أن خرج من حضرته : من هذا المبرم ؟ قال : أو لا تعرفه ؟ قلت : لا ؛ قال : هذا أنس بن أبي شيخ صديق أخي الفضل وعشيقه وخاصته ، قلت : وأى شيء أعجبه فيه ؟ قال : لأدرى والله إلا القدر والبرد وسوء الاختبار ؛ قال : وأنا والله أعرف بسعيد وأنس من الناس جميعا ، ولكنني تجاهلت عليهما وساعدتهما على هواهما .

وحدث عمرو بن بانه قال : كان في جوارى رجل من البرامكة ، وكانت له جارية شاعرة طريفة يقال لها حسناء ، يدخل إليها الشعراء ويسألونها عن المعاني ، فتأتي بكل

مُسْتَحْسِنٍ مِنَ الْجَوَابِ ؛ فَدَخَلَ إِلَيْهَا سَعِيدُ بْنُ وَهَبٍ يَوْمًا وَجَلَسَ إِلَيْهَا فَخَادَشَهَا طَوِيلًا
ثُمَّ قَالَ لَهَا بَعْدَ ذَلِكَ :

حَاجَيْتُكَ يَا حَسَنًا * ءُ فِي جِنْسٍ مِنَ الشَّعْرِ
وَفِيهَا طَوْلُهُ شِبْرٌ * وَقَدْ يُوفِي عَلَى الشَّيْبِ
لَهُ فِي رَأْسِهِ شَقٌّ * نَطُوفٌ بِالنَّدَى يَجُورِي
إِذَا مَا جَفَّ لَمْ يَجْرِ * لَدَى بَرٍّ وَلَا بَحْرِ
وَإِنِّ بُلٌّ أُنَى بِالْعَدِ * جَبِّ الْعَاجِبِ وَالسَّحْرِ
أَجِيبِي لَمْ أَرِدْ مُخْشَا * وَرَبَّ الشَّفْعِ وَالْوَتْرِ
وَلَكِنْ صَغْتُ أَبْيَاتًا * لَهَا حَظٌّ مِنَ الزُّبْرِ

قال : فغضب مولاها وتغير لونه وقال : أنفحش على جاريتي تخاطبها بالحنى؟ فقالت
له : خفض عليك، فما ذهب الى ما ظننت وإنما يعني القلم؛ فسرى عنه، وضحك سعيد
وقال : هي أعلم منك بما سمعت .

١٧ الحسن بر وهب

حدّث ميمون بن هارون : قال : كما عند الحسن بن وهب فقال لِيَتَّانَ : غَنَيْتُ :
 أَنَاذُونَ لَصَبٌ فِي زِيَارَتِكُمْ * فعندكم شَهَوَاتُ السَّمْعِ وَالْبَصِيرِ
 لَا يُضْمِرُ السُّوءَ إِنْ طَالَ الْجُلُوسُ بِهِ * عَفَّ الضَّمِيرِ وَلَكِنْ فَاسَقُ النَّظَرِ
 قال فضحكت ، ثم قالت : فأىّ خير فيه إن كان كذا أو أىّ معنى ؟ نخجل الحسن من
 بادرته عليه ، ونحجبنا من حدّة جوابها وفطنتها .

وحدّث محمد بن عيسى قال : جاء عبد الله بن العباس بن الفضل بن الربيع إلى الحسن
 ابن وهب ، وعنده بنان جارية محمد بن حمّاد ، وهى نائمة سكرى وهو يبكي عندها ، فقال له :
 مالك ؟ قال : قد كنت نائماً فجاءتني فأنبهتني وقالت : اجلس حتى تشرب بجلست ،
 فوالله ما غنّت عشرة أصوات حتى نامت ، وما شربت إلا قليلاً . فتذكرت قول أشعر
 الناس وأظرفهم العباس بن الأحنف :

أبكي الذين أذأفوني مودتهم * حتى إذا أيقظوني للهوى رقّدوا

فأنا أبكي وأنشد هذا البيت .

وحدّث محمد بن موسى بن حمّاد قال : دعا الحسن بن وهب إبراهيم بن العباس فقال
 له : اركب وأجيتك عشياً فلا تنتظرنى بالغداة ، فأبطأ عليه ، وأسرع الحسن فى شربه فسكّر
 ونام ، وجاء إبراهيم فرآه على تلك الحال ، فدعا بدواة وكتب :

رُحْنَا إِلَيْكَ وَقَدْ رَاحَتْ بِكَ الرَّاحُ * وَأَسْرَعَتْ فَيْكَ أوتارٌ وَأَفْرَاحُ

وحدّث أيضاً محمد بن موسى قال : نظر إبراهيم بن العباس الحسن بن وهب وهو

مخمور فقال له :

عيناك قد حكّا تك كفت كفتة كف كان

ولرب عينه قد بت صاحبها عم

فأجابه الحسن بن وهب بعشرين بيتاً وطالبه بمثلها ، فكتب إليه أربعة أبيات وطالبه بأربعين بيتاً . وأبيات إبراهيم :

أبا علي خيرُ قولك ما * حصلت أنجعه ومُختَصَّره
 ما عندنا في البيع من غَبْنٍ * للمستقلِّ بواحد عشره
 أنا أهلُ ذلك غيرُ محتشمٍ * أرضي القديمَ وأفتني أثره
 ها نحن وفيناك أربعة * والأربعون لديك منتظره

وقال عبيد الله بن سليمان : لعمرى ما في الكتاب أشعرُ من أبي إسحاق وأبي عليّ (يعني عمه الحسن بن وهب) .

حدثت عليّ بن يحيى قال : قلت لإسحاق بن إبراهيم الموصليّ ، وقد جرى ذكرُ أحمد بن يحيى المكيّ ، : يا أبا محمد ، لو كان أبو جعفر أحمد بن يحيى المكيّ مملوكاً كم كان يساوي؟ فقال : أخبرك عن ذلك ، انصرفت ليلةً من دار الوائق ، فاجترتُ بدار الحسن بن وهب فدخلت إليه ، فإذا أحمد عنده ، فلما قام لصلاة العشاء الآخرة قال لي الحسن بن وهب : وكم يساوي أحمد لو كان مملوكاً؟ قلت : يساوي عشرين ألف دينار . قال : ثم رجعت فغنيّ صوتاً ، فقال لي الحسن بن وهب : يا أبا محمد ، أضعفها . قال : ثم تغني صوتاً آخر ، فقلت للحسن : يا أبا عليّ أضعفها ، ثم أردتُ الانصراف فقلت لأحمد غنيّ :

لولا الحياءُ وأن السير من خُلُقٍ * إذا قعدتُ اليك الدهر لم أقيم
 أليس عندك سُكْرٌ لتي جمعت * ما أبيض من قادمات الرأس كالحمم

فغناه أحمد بن يحيى المكيّ فأحسن فيه كلّ الإحسان ، فلما قمتُ للانصراف قلت للحسن : يا أبا عليّ ، أضعف الجميع ، فقال له أحمد : ما هذا الذي أسمعُك تقولانه ولست أدري ما معناه؟ قال نحن نبيّعك ونشتريك منذ الليلة وأنت لا تدري .

وحدثت محمد بن موسى قال : كان أبو تمام يعشق غلاماً نحريراً للحسن بن وهب ، وكان الحسن يتعشق غلاماً رومياً لأبي تمام ، فرآه أبو تمام يوماً يعبت بغلامه ، فقال له :

وإله لئن أعنقت إلى الروم لتركضن إلى الخزر؛ فقال له الحسن: لو شئت حكتنا واحتكمت؛ فقال له أبو تمام: أنا أشبهك بدادود عليه السلام وأشبهه نفسي بخصمه؛ فقال الحسن: لو كان هذا منظوماً خفناه، فأما وهو مشهورٌ فلا، لأنه عارض لا حقيقة له؛ فقال أبو تمام:

أبا عليٍّ بصرف الدهر والغير * وبالحوادث والأيام فاعتير^(٢)
أذكرني أمر داودٍ وكنتُ فتى * مصرف القلب في الأهواء والفكر
أعندك الشمس لم يحظ المغيّب بها * وأنت مضطرب الأحشاء للقمير
إن أنت لم تترك السير الحثيث إلى * جاذر الروم أعقنا إلى الخزر
إن القطوب له مني محل هوى * يحل مني محل السمع والبصر
ورب أمتع منه جانباً وحى * أمسى وتكته مني على خطير
جرت فيه جنود العزم فأنكشفت * عنه غيابه عن بخره هدير
سبحان من سبحته كل جارحة * ما فيك من طمحان العين بالنظر
أنت المقيم فما تغدو راحله * وفعله أبداً منه على سفر

وحدث وهب بن سعيد قال: جاء دُعيل إلى الحسن بن وهب في حاجة بعد موت أبي تمام، فقال له رجل في المجلس: يا أبا عليٍّ، أنت الذي تطعن على من يقول: شهدت لقد أقوت مغانيكم بعدى * وتحت كما تحت وشائع من برد وأنجدتم من بعد إتهام دارم * فيادمع أنجدني على ساكني تجدي فصاح دُعيل: أحسن والله! وجعل يردد:

* فيادمع أنجدني على ساكني تجدي *

ثم قال: رحمه الله، لو كان ترك لي شيئاً من شعره لقلت: إنه أشعر الناس.

(١) أعقت: أسرعت. (٢) وردت هذه الأبيات في الأعاني رفيفاً بعض ألفاظ تحمل نالآداب.

فأثبتها هنا كما وردت في ديوان أبي تمام.

وحدث أحمد بن عبيد الله بن ناصح قال : قلت لدعبل وقد عرّض عليّ قصيدة له
يمدح بها الحسن بن وهب أوطاه :

* أعاذتي ليس الهوى من هوانيا *

فقلت له : ويحك أتقول فيه هذا بعد قولك :

أين محلّ الحى يا حادى * خبر سقاك الرائح الغادى

وبعد قولك :

قالت سلامة أين المأل قلت لها * المال ويحك لاقى الحمد فاصطحبا

وبعد قولك :

فعلى أيماننا يجرى الندى * وعلى أسيافنا تجرى المهج

والله إنى أراك لو أنشدته إياها لأمر لك بصفع ، فقال : صدقت والله ، ولقد نبهتني
وحدرتني ، ثم مرّ قها .

وحدث محمد بن موسى قال : أنشدنى الحسن بن وهب لمحمد بن عبد الملك أبياتا

يرثي بها سكرانة أم ابنه عمر ، وجعل الحسن يتعجب من جودتها ويقول :

يقول لى الخللان لو زرت قبرها * فقلت وهل غير الفؤاد لها قبر

على حين لم أحدث فأجهل قدرها * ولم أبلغ السن التي معها الصبر

وحدث محمد بن يزيد قال : دامت الأمطار بـ«سمر من رأى» ، فتأخر الحسن بن وهب

عن محمد بن عبد الملك الزيات ، وهو يومئذ وزير والحسن يكتب له ، فاستبطأه محمد ،

فكتب إليه الحسن يقول :

أوجب العذرة فى تراخى اللقاء * ما توالى من هذه الأنواء

لست أدرى ماذا أقول وأشكو * من سماء تعوقنى عن سماء

غير أنى أدعو على تلك بالشك * لى وأدعو لهذه بالبقاء

فسالأم الإله أهديه غضا * لك منى ياسيد الوزراء

وحدث محمد بن موسى قال : اعتل الحسن بن وهب فتأخر عن محمد بن عبد الملك أياما كثيرة ، فلم يأته رسوله ، ولا تعرف خبره ، فكتب إليه الحسن قوله :

أي هذا الوزيرُ أيديكَ اللد * ه وأبقاك لي بقاءً طويلاً
أجيبلاً تراه يا أكرم الناس * س لكيا أراه أيضاً جميلاً
إنتي قد أفتت عشرًا عيلاً * ما ترى مُرسلاً إلى رسولاً
إن يكن موجبُ التعمد في الصر * حة منا على منك طويلاً
فهو أولى ياسيد الناس برأ * وافتقاداً لمن يكون عيلاً
فلماذا تركنتي عرضة الظن * ن من الحاسدين جيبلاً بجيبلاً
الذني؟ فما علمت سوى الشك * ر قريناً لنتي ودخيلاً
أم ملالٍ؟ فما علمتك للصا * حب مثلي على الزمان ملولاً
قد أتى الله بالشفاء فما أع * ر ف مما أنكرت إلا قليلاً
وأكلتُ الدرَّاج وهو غذاء * * أفتت عتي عليه أقولاً
بعد ما كنت قد حملتُ من الع * دة عبأً على الطَّبَّاع ثقيلاً
ولعلِّي قدمتُ قبلك آتية * ك غذا إن وجدتُ فيه سبيلاً

فأجابه محمد بن عبد الملك :

دفع الله عنك نائبة الده * ر وحاشاك أن تكون عيلاً
أشهدُ الله ما علمتُ وما ذا * ك من العذر جائزاً مقبولاً
ولعمري أن لو علمتُ فلازم * تك حولاً لكان عندي قليلاً
إنتي أرتجي وإن لم يكن ما * كان مما نَقَمْتَ إلا جليلاً
أن أكونَ الذي إذا أضمر الإخ * بلاص لم يَلْتِمَسْ عليه كفيلاً
ثم لا يبذلُ المودة حتى * يجعلَ الجهدَ دونها مبدولاً
فاذا قال كان ما قال إذ كا * ن بعيداً من طبعه أن يقولاً

فاجعلن لي إلى التعلق بالهدى * رسيلا إن لم أجد لي سيلا

فقد بما ما جاد بالصفح والعف * ووما سآخ الخليل انطليلا

وكتب محمد بن عبد الملك إلى الحسن بن وهب وقد تآخر عنه :

قالوا جفاك فلا عهد ولا خبر * ما ذا تراه دهاه قلت أيلول

شهر يجد جبال الوصل فيه فنا * عقد من الوصل إلا وهو محلول

وكان محمد قد نذبه لأن يخرج في أمر مهم فآجابه الحسن فقال :

إني بحول أمري أعليت رتبته * فخطه منك تعظيم وتجميل

وأنت عُدته في نيل همته * وأنت في كل ما يهواه مأمول

ما غالني عنك أيلول بلدته * وطيبه ولنعم الشهر أيلول

الليل لا قصر فيه ولا طول * والجو صاف وظهر الكأس مرحول

والعود مستنطق عن كل معجبة * يضحى بها كل قلب وهو متبول

لكن توقع وشك البين عن بلد * تحله فوكاء العين محلول

ما لي إذا شمرت بي عنك مبتكرا * دهم البغال أو الهوج المراسيل

إلا رعاياتك الآتي يعود بها * حد الحوادث عني وهو مفلول

وكان الحسن بن وهب يسأير محمدا على مسنة^(١)، فعدل عن المسنة لكلا يضيق لمحمد

الطريق، فظن محمد أنه أشفق على نفسه من المسنة، فعدل عنها ولم يساعده على طريقه،

وظن بنفسه أن يصيبها ما يصيبه، فقال له محمد :

قد رأيناك إذ تركت المسنة * ة وحاذيتني يسار الطريق

ولعمري ما ذاك منك وقد جد * بك الحد من فعال الشفيق

فقال له الحسن :

إن يكن خوفي الختوف أراي * أن تراني مشها بالعقوق

فلقد جارت الظنون على المشد * فق والظن موع بالشفيق

(١) المسنة : ما ينهى في وجه السيل .

عَدَّرَ السَّيِّدَ الْأَجَلَ وَقَدَّسَا * رَعَى الْخَوْفَ مِنْ يَمِينِ الطَّرِيقِ
فَأَخَذَتْ الشَّمَالَ بَقِيًّا عَلَى السَّيِّدِ إِذْ هَالَتْ سُلُوكَ الْمِضْبِقِ *
إِنْ عِنْدِي مَوَدَّةٌ لَكَ حَازَتْ * مَا حَوَى عَاشِقٌ مِنَ الْمَعشُوقِ
طَوْدُ عِزٍّ خُصِّصَتْ مِنْهُ بَيْرٌ * صَارَ قَدْرِي بِهِ مَعَ الْعَيْشِوقِ
وَبِنَفْسِي وَإِخْوَتِي وَأَبِي السَّبْرِ وَعَمِّي وَأُسْرَتِي وَصَدِيقِي
مَنْ إِذَا مَا رَوَّعَتْ أَمَّنَ رَوْعِي * وَإِذَا مَا شَرَّفَتْ سَوَّغَ رَيْقِي

وحدث المبرد قال : استسقى الحسن بن وهب من محمد بن عبد الملك نبيذا ببلد الروم

وهو مع المعتصم ، فسقاه وكتب إليه :

لَمْ تَلْقَ مِثْلِي صَاحِبًا * أُنْدَى يَدًا وَأَعَمَّ جُودًا
يَسْقَى النَّدِيمَ بِقَفْرَةٍ * لَمْ يَسْقِ فِيهَا الْمَاءُ عُودًا
صَفْرَاءَ صَافِيَّةً كَأَنَّ * بَكَاسِمًا دُرًّا نَضِيدًا
وَأَجُودٌ حِينَ أَجُودَ لَا * حَصْرًا بِذَلِكَ وَلَا بَلِيدًا
وَإِذَا اسْتَقَلَّ بِشِكْرَهَا * أَوْجِبَتْ بِالشُّكْرِ الْمَزِيدًا
خُذْهَا إِلَيْكَ كَأَنَّهَا * كُتِبَتْ زُجَاجَتُهَا عَقُودًا
وَأَجْعَلْ عَلَيْكَ أَنْ تَقُو * مَ بِشِكْرَهَا أَبَدًا عَهُودًا

ومن جيد شعره قوله :

بَأَبِي كَرِهْتُ النَّارَ لَمَّا أُوقِدْتُ * فَعَرَفْتُ مَا مَعْنَاكَ فِي إِبَاعِدَا
هِيَ ضَرَّةٌ لِكَ بِالتَّمَاعِ ضِيَائِهَا * وَبِحَسَنِ صَوْرَتِهَا لَدَى إِقَادَا
وَأَرَى صَنِيعَكَ بِالقُلُوبِ صَنِيعَهَا * بِسَيَالِهَا وَأَرَاكِهَا وَعَرَادَا
شَرِيكَكَ فِي كُلِّ الْأُمُورِ بِحَسَنِهَا * وَضِيَائِهَا وَصَلَاحِهَا وَقَسَادَا

ومات الحسن بن وهب فرثاه أخوه سليمان بن وهب :

مَضَى مَذْمُوعًا عِزُّ الْمَعَالَى وَأَصْبَحَتْ - لِأَلِي الْحِجَا وَالْقَسُولِ لَيْسَ لَهَا نَظْمٌ
وَأَضْحَى نَجْمُ الْفِكْرِ بَعْدَ فِرَاقِهِ * إِذَا هُمْ بِالْإِفْصَاحِ مَنَاطِقَهُ كَنَظْمٌ

وكتب الحسن بن وهب يشكر:

مَنْ شَكَرَكَ عَلَى دَرَجَةٍ رَفَعْتَهُ إِلَيْهَا ، أَوْ ثَرَوَةً أَقْدَرْتَهُ عَلَيْهَا ، فَإِنَّ شُكْرِي لَكَ عَلَى مُهْجَةٍ
 أَحْيَيْتَهَا ، وَحُشَّاشَةٍ أَبْقَيْتَهَا ، وَرَمَقٍ أَمْسَكَتَ بِهِ ، وَقَمَتَ بَيْنَ التَّلَفِ وَبَيْنِهِ ؛ فَلِكُلِّ نِعْمَةٍ مِنْ
 نِعَمِ الدُّنْيَا حُدٌّ تَنْتَهَى إِلَيْهِ ، وَمَدَى يُوقِفُ عِنْدَهُ ، وَغَايَةٌ مِنَ الشُّكْرِ يَسْمُو إِلَيْهَا الطَّرْفُ ، خِلا
 هَذِهِ النِّعْمَةِ الَّتِي فَاقَتْ الوَصْفَ ، وَأَطَالَتِ الشُّكْرَ وَتَجَاوَزَتْ قُدْرَهُ ، وَأَنْتَ مِنْ وَرَاءِ كُلِّ غَايَةٍ ؛
 رَدَدْتَنَا عَنَّا كَيْدَ العَدُوِّ ، وَأَرْغَمْتَ أَنْفَ الحَسُودِ ، فَنَحْنُ نَلْجَأُ مِنْكَ إِلَى ظِلِّ ظَلِيلٍ ، وَكَنْفِ
 كَرِيمٍ ، فَكَيْفَ يَشْكُرُ الشَّاكِرُ ، وَأَيْنَ يَبْلُغُ جُهْدَهُ المَجْتَهِدُ ؛ — .

١٨ - أشجع السلمي^(١)

كان متصلا بالبرامكة وله فيهم أشعار كثيرة ، منها قوله في يحيى بن خالد وكان قد غاب :

قد غاب يحيى فما أرى أحدا * يأتس إلا بذكره الحسين
أوحشت الأرض حين فارقتها * من الأيادي العظام والميزن
لولا رجاء الإياب لأنصدعت * قلوبنا بعده من الحزن

وقال أيضا :

رأيت بقاء الخير في كل وجهة * لغيبة يحيى مستكينين خضعا
فإن يمس من في الرقتين مؤملا * لأوبة يحيى نحوها متطلعا
فما وجه يحيى وحده غاب عنهم * ولكن يحيى غاب بالخير أجمعا

وقال فيه أيضا :

إذا غاب يحيى عن بلاد تغيرت * وشئرق إن يحتالها فتطيب
وإن فعال الخير في كل بلدة * إذا لم يكن يحيى بها لغريب

وقال فيه حين أعتل :

لقد قرعت شكاة أبي علي * قلوب معاشر كانت صحاحا
فإن يدفع لنا الرحمن عنه * صروف الدهر والأجل المتأحا

(١) هو أشجع بن عمرو بن ولد الشريد بن مطرود السلمي ، وكان يكنى أبا الوليد ، شاعر إسلامي عباسي ، نشأ بالبصرة ، وقال الشعر وأجاد فيه حتى عد من الفحول ؛ وكان الشعر يومئذ في ربيعة والنين ، ولم يكن لقيس شاعر ، فلما نجم أشجع وقال الشعر افتخرت به قيس . وأنقطع الى البرامكة ومدحهم وأخص بجعفر فأصفاه مدحه ، فأعجب به جعفر ووصله الى الرشيد ومدحه فأعجب به أيضا وأمده بالمال فأثرى وحسنت حاله في أيامه ، وتقدم عنده ، وله فيه المدائح المختارة ، والقصائد السائرة . وتجد أشعاره وأخباره في الأغاني (ح ١٧ ص ٣٠) والشعر والشعراء (ص ٥٦٢) .

فقد أمسى صلاحُ أبي عليّ * لأهل الأرض كلهم صلاحاً
إذا ما الموت أخطاه فلَسْنَا * نبأ الموت حيث غدا وراحاً

وهو القائل ،

ليس للحاجاتِ إلا * من له وجهٌ وقَاحُ
ولسانٌ طِرْمَذَارُ^(١) * وغدوٌ ورواحُ
إن أكنُّ أبطأَ الحَا * جةً عني فاللحاحُ
فعلى الجهدُ فيها * وعلى الله النجاحُ

ويستجاده في مدح الرشيد :

وصلت يدك السيف يوم تقطعت * أيدي الرجال وزلت الأقدامُ
وعلى عدوك يا ابن عم محمد * رصدانِ ضوء الصبح والإظلامُ
فإذا تنبه رُعتَه وإذا غفا * سلَّت عليه سيوفك الأحلامُ

ويستجاده أيضاً قوله :

غداً يتفرَّق أهلُ الهوى * ويكثرُ بكِ ومسترجعُ
وتختلف الأرضُ بالطاعنين * وجوهاً تُشَدُّ ولا تُجمَعُ^(٢)
وتفنى الطلولُ ويبقى الهوى * ويصنع ذو الشوقِ ما يصنعُ
وأنت تُبكي وهم جيرةٌ * فكيف يكون إذا ودَّعوا
أطمع في العيش بعد الفراق * فبئسَ لعمرك ما تطمعُ

وفيها يقول في جعفر بن يحيى :

بديته مثلُ تديره * متى هجته فهو مستجمعُ
إذا همَّ بالأمر لم يئنَّه * هجوعٌ ولا شادنٌ أفرعُ
ففي كفه الغنى مطبُّ * وللسرِّ في صدره موضعُ

(١) الطرمذار : المتكرر بما لا يعقل . (٢) نفر

وكم قائل إذ رأى بهجتي * وما في فُضُويَ الغنى أصعُ
غدا في ظلالِ ندى جعفي * يُجْرِيَابَ الغنى أشجعُ
وما خلفه لأمرئٍ مطمعٌ * ولا دونه لأمرئٍ مَقْنَعُ

وهو القائل في محمد بن منصور بن زياد يرثيه :

أنعى فتى الجودِ الى الجودِ * ما مثلُ من أنعى بوجودِ
أنعى فتى أصبح معروفه * منتشراً في البيض والسودِ
أنعى فتى مصّ الثرى بعده * بقية الماء من العودِ
قد نلّم الدهرُ به ثلثة * جانبها ليس بمسدودِ
أنعى فتى كان ومعرفه * يملأ ما بين ذرى اليدِ
فأصبحا بعد تساميهما * قد جمعا في بطن ملحودِ
الآن نخشى عثراتِ الندى * وعدوة البخيلِ على الجودِ

ويستجاد له قوله في إبراهيم بن عثمان بن نبيك وكان صاحب شرط الرشد وكان

جبارا عبوسا :

في سيف إبراهيم خوف واقع * بذوى النفاق وفيه أمنُ المسلمِ
ويبيت يكلأ والعيونُ هواجع * مالَ المُضِيعِ ومهجة المستسلمِ
جعل الخطام بأنف كل مخالف * حتى استقام له الذى لم يُحْطَمِ
لا يُصلح السلطان إلا شدة * تغشى البرى بفضل ذنبِ المجرمِ
ومن الولاة مقمّم لا يتقى * والسيفُ تقطرُ شفرتها من الدمِ
منعتُ مهابتك النفوسَ حديثها * بالأمر تكهه وإن لم تعلمِ

وقال لأخيه :

أبت غفلات قلبك أن تزوحا * وكأس لا تزالها صَبُوحَا
كأنك لا ترى حسناً جميلاً * بعينك يا أخی إلا قبيحَا

ويستجاد له قوله في الرشيد :

لا زلت تنشر أعياداً وتطويها * تمضي بها لك أيامٌ وتثنيها
مستقبلاً جِدَّة الدنيا وبهجتها * أيامها لك نظمٌ في لياليها
العيدُ والعيد والأيام بينهما * موصولةٌ لك لا تفتى وتُفنيها
وليتهنك النصرُ والأيامُ مقبلةٌ * إليك بالفتح معقوداً نواصيها

ويستجاد له قوله يمدح اسماعيل بن صبيح :

له نظرٌ لا يغمض الأمرُ دونه * تكادُ ستورُ الغيب عنه تمزقُ

وهو القائل :

وما ترك المُدَّاح فيك مقالةً * ولا قال إلا دون ما فيك قائلُ

وقال أيضا :

مضى ابنُ سعيدٍ حين لم يبق مشرق * ولا مغربٌ إلا له فيه مادحٌ
وما كنتُ أدري ما فواضلُ كفه * على الناسِ حتى غيَّبته الصفائحُ^(١)
فأصبح في لحيدٍ من الأرض ميتاً * وكانت به حياً تضيق الصِّباحُ^(٢)
سأبيك ما فاضتْ دموعي فإن تغيض * فحسبك مني ما تُجيب الجوائحُ^(٣)
فأنا من رُزءٍ وإن جل جازعٌ * ولا بسرورٍ بعد موتك فارحٌ
كأن لم يمتْ حتى يسواك ولم يقم * على أحدٍ إلا عليك النوايحُ
لئن حسنتُ فيك المراثي وذكرها * لقد حسنتُ من قبلُ فيك المدائحُ

(١) الصفائح : أجماع عراض تغطي بها القبور . (٢) الصباح : جمع صحصح : وهي الأرض

الجرداء المستوية الواسعة ذات حصى صغار . (٣) الجوائح : الصلوع .

١٩ - علي بن الجهم^(١)

كان علي بن الجهم قد هجا بختيشوع، فسبه عند المتوكل فحبسه المتوكل . فقال علي بن الجهم في حبسه عدة قصائد كتب بها الى المتوكل، فأطلقه بعد سنة ثم نفاه بعد ذلك الى نخراسان . فقال أول ما حُيس قصيدة كتب بها الى أخيه، أولها قوله :

توَكَّلْنَا على رَبِّ السَّمَاءِ * وَسَلَّمْنَا لِأَسْبَابِ الْقَضَاءِ
وَوَطَّنَا على غَيْرِ اللَّيَالِي * نَفُوسًا سَامِحَتْ بَعْدَ الْإِبَاءِ
وَأَفْنِيَةُ الْمُلُوكِ مَحْجِبَاتٌ * وَبَابُ اللَّهِ مَبْدُولُ الْفِنَاءِ
هِيَ الْأَيَّامُ تَكْكُلُمُنَا وَتَأْسُو * وَتَأْتِي بِالسَّعَادَةِ وَالشَّقَاءِ
وَمَا يُحْدِي الثَّرَاءَ على غَنِيٍّ * إِذَا مَا كَانَ مَحْظُورَ الْعَطَاءِ
حَلَبْنَا الدَّهْرَ أَشْطَرَهُ وَمَرَّتْ * بِنَا عَقَبُ الشَّدَائِدِ وَالرَّخَاءِ
وَجَرَّبْنَا وَجَرَّبَ أَوْلُونَا * فَلَا شَيْءَ أَعَزَّ مِنْ الْوَفَاءِ
وَلَمْ نَدْعِ الْحَيَاءَ لِمَسِّ ضَرِّ * وَبَعْضُ الضَّرِّ يَذْهَبُ بِالْحَيَاءِ
وَلَمْ نَحْزَنْ على دُنْيَا تَوَلَّتْ * وَلَمْ نُسَبِّقْ إِلَى حَسَنِ الْعِزَاءِ
تَوَقَّ النَّاسَ يَا بَنَ أَبِي وَأُمِّي * فَهَمَّ تَبَعُ الْخِيفَةِ وَالرَّجَاءِ

(١) هو عربي قرشي شاعر فصيح مطبوع، وقد خص بالمتوكل حتى صار من جلسائه ثم أبغضه لأنه كان كثير السعاية اليه بدمائه فكان اذا خلا به عرفه أنهم يعيبونه ويثلبونه، فيكشف الخليفة عن ذلك فلا يجد له حقيقة، فنفاه الى نخراسان بعد أن حبسه مدة . وكان مذهبه في الشعر مذهب مروان بن أبي حفصة في هجاء آل أبي طالب وذمهم والإغراء بهم وهجاء الشيعة كقوله :

ورافضة تقول بشعب رضوى * إمام، خاب ذلك من إمام

إمام من له عشرون ألفاً * من الأتراك مشرعة السهام

وله أقوال في الغزل والعتاب وفي الوصف، توفي سنة ٢٤٩ هـ . ويحجده أخباره في الأغاني (ج ٩ ص ١٠٤)

وابن خلكان (ج ١ ص ٤٩٧) .

ولا يغررك من وغد إخاء * لأمرٍ ما غدا حسن الإخاء
 ألم تر مظهرين على عتبا * وهم بالأمس إخوان الصفاء
 فلما أن بليت غدوا وراحوا * على أشد أسباب البلاء
 أبت أخطارهم أن ينصروني * بمالٍ أو بجاه أو نراء
 وخافوا أن يقال لهم خذلتهم * صديقا فادعوا قدم الجفاء
 تظافرت الروافض والنصارى * وأهل الإعتزال على هجائي
 وعابوني وما ذنبي إليهم * سوى علمي بأولاد الزناء
 فبخيشوع يشهد لأبن عمرو * وعزون لهارون المرأى
 وما أجدماء بنت أبي سمير * يجذماء آل اللسان على الخناء
 إذا ما عدتكم رجالا * فما فضل الرجال على النساء
 عليكم لعنة الله ابتداء * وعودا في الصباح وفي المساء
 إذا سميت للناس قالوا * أولئك شر من تحت السماء
 أنا المتوكل هوى ورأيا * وما بالواقفة من خفاء
 وما حبس الخليفة لي بعار * وليس بمؤينني منمنه التنائى

كان سبب حبس المتوكل على بن الجهم أن جماعة من الحنساء سعوا به اليه وقالوا له :
 إنه يجيش الخدم ويغمزهم ، وإنه كثير الطعن عليك والعيب لك والإزراء على أخلاقك ،
 ولم يزالوا به يوغرون صدره عليه حتى حبسه ، ثم أبلغوه عنه أنه هجاه ، فنجاه الى خراسان
 وكتب بأن يُصلب اذا ردها يوما الى الليل ، فلما وصل الى الشاذيخ حبسه طاهر بن
 عبد الله بن طاهر بها ، ثم أخرج فُصلب يوما الى الليل مجزدا ثم أنزل ، فقال في ذلك :

لم ينصبوا بالشاذيخ عشيّة الإثنين * مسبوقا ولا مجهولا
 نصبوا بحمد الله ملء قلوبهم * شرفا وملء صدورهم تجيلا
 ما أزداد إلا رفعة بنكوله * وأزدادت الأعداء عنه نُكولا

هل كان إلا الليث فارق غيَّله * فرأيتَه في مجمل محمولاً
 لا يأمنُ الأعداءُ من شدَّاته * شدداً يفصلُ هامهم تفصيلاً
 ما عابه أن بُزعه لبأسه * فالسيفُ أهولُ ما يرى مسلولاً
 إن يُتَدَلُّ فالبدْرُ لا يُزرى به * إن كان ليلةً تمه مبذولاً
 أو يسلبوه المالَ يُحزنُ فقده * ضيفاً ألمٌ وطارقاً ونزيراً
 أو يحسوه فليس يُحبسُ سائرُ * من شعره يدعُ العزيرَ ذليلاً
 إن المصائبُ ما تعدتُ دينه * نعم وإن صعبتُ عليه قليلاً
 والله ليس بغافلٍ عن أمره * وكفى بربك ناصرًا ووكيلاً
 ولتعلمن إذا القلوب تكشفت * عنها الأكنة من أضل سبيلاً

وكتب المتوكل الى طاهر بن عبد الله بإطلاق عليّ بن الجهم، فلما أطلقه قال :

أطاهرُ إني عن نُرَاسانَ راحلُ * ومُسْتَخْبِرٌ عنها فما أنا قائلُ
 أصدقُ أم أكني عن الصدق أياً * تحيَّرتُ أدته اليك المحافلُ
 وسارت به الركبُ وأصطفقتُ به * أكفُ فيانٍ وأجبتَه القبائلُ
 وإني بعالي الحمد والذم عالمٌ * بما فيهما نامي الرميّة ناضلُ
 وحقاً أقولُ الصدقُ إني لمائلُ * اليك وإن لم يحظَ بالود مائلُ
 ألا حرمةٌ تُرعى ألا عقدُ ذمّةٍ * لجارٍ إلا فعلٌ لقولٍ مُشاكلُ
 ألا منصفٌ إن لم نجد متفضلاً * علينا ألا قاضٍ من الناس عادلُ
 فلا تقطعن غيظاً على أناملًا * فقبلك ما عُصت على أناملُ
 أطاهر إن تُحسِنُ فإني محسنٌ * إليك وإن تجملُ فإني باخلُ

فقال له طاهر : لا تقل إلا خيراً، إني لا أفعل بك إلا ما تحب، فوصله وحمله

وقال علي بن الجهم للتوكل :

عفا الله عنك! ألا حرمة * تجود بعفوك أن أبعدا
 لئن جلّ ذنبٌ ولم أعتمد * لأنت أجل وأعلى يدا
 ألم تر عبداً عداً طوره * ومولى عفا ورشيداً هدى
 ومفسداً أمرٍ تلافيته * فعاد فأصلح ما أفسدا
 أقلنى أقالك من لم يزل * يقيك ويصرف عنك الردى

وأحسن شعر قاله في الحبس قصيدته التي أولها :

قالوا حبست فقلت ليس بضائري * حبسى وأى مهتد لا يعمد
 أو ما رأيت الليث يألف غياله * كبراً وأوباش السباع تردد
 والشمس لولا أنها محجوبة * عن ناظريك لما أضاء الفرقد
 والبدر يُدركه السرار فتنجلي * أيامه وكأنه متجدد
 والغيث يحصره الغمام فما يرى * إلا وريقه يراع ويرعد
 والزاعية لا يقيم كموبها * إلا الثفاف وجذوة تنوقد
 والنار في أحجارها نخبوءة * لا تُصطلى إن لم تُثرها الأزند
 والحبس ما لم تغشه لندية * شنعاء نعم المنزل المتودد
 بيت يحد للكريم كرامة * ويزار فيه ولا يزور ويُمد
 لو لم يكن في الحبس إلا أنه * لا يستدلك بالحجاب الأعبد
 كم من عليّ قد تحطاه الردى * فنجا ومات طبيبه والعود
 يا أحمد بن أبي دؤاد إنما * تدعى لكل عزيمة يا أحمد
 أبلغ المؤدونه * خوض الردى ومخاوف لا تنفد
 أتم بنو عم النبي محمد * أولى بما شرع النبي محمد
 ما كان من كريم فأنتم أهله * كرمت مغارسكم وطاب المختد

أَمِنَ السَّوِيَّةَ يَأْبَنُ عَمَّ مُحَمَّد * خصم تقربه وانخرتبه
 إن الذين سَعَوْا اليك باطل ك التي لا تُجحد
 شهِدُوا وَغَبْنَا عَنْهُمْ فَتَحَكُّوا * فينا، وليس كغائب من يشهد
 لو يجمع الخُصَمَاءَ عِنْدَكَ مَجْلَسٌ * يوما لَبَّانَ لَكَ الطَّرِيقُ الْأَقْصَدُ
 فَبَأَى جُرْمٌ أَصْبَحَتْ أَعْرَاضُنَا * نَبَا تَقَسَّمَهَا اللَّئِيمُ الْأَوْغَدُ

(١) خرج علي بن الجهم إلى الشام في قافلة فخرجت عليهم الأعراب في خُسَافٍ، فهرب من كان في القافلة من المُقَاتِلَةِ وَتَبَّتْ عَلَيَّ بن الجهم، فقاتلهم قتالا شديدا وثاب الناس إليه فدفعهم ولم يَحْظُوا بشيء . فقال في ذلك :

صَبَرْتُ وَمِثْلِي صَبْرُهُ لَيْسَ يُنْكَرُ * وليس علي ترك التَّقَحُّمِ يُعَدَّرُ
 غَرِيزَةٌ حَرًّا لَا أَحْتَلِقُ تَكْلُفٌ * إذا خَامَ فِي يَوْمِ الْوَعْيِ الْمُتَصَبِّرُ (٢)
 ولما رأيت الموت تهفو بنوده * وبانت علامات له ليس تنكر
 وأقبلت الأعراب من كل جانب * وثار عَجَاجٌ أَسْوَدُ اللَّوْنِ أَكْدَرُ
 بكل مُشِيحٍ مُسْتَمِيَةٍ مُشْتَرٍ * يحول به طِرْفٌ أَقْبُ مُشْتَرٍ (٣)
 بأرض خُسَافٍ حين لم يك دافع * ولا مانع إلا الصفيحُ المذكَرُ
 فقلل في عيني عظيم جموعهم * عزيمة قلب فيه ما جل يصغر
 بمعترك فيه المنايا حواسر * ونار الوعْيِ بِالمُشْرِفَةِ تُسْعَرُ
 فاصنت وجهي عن ظُباتِ سيوفهم * ولا آنحزت عنهم والقتنا نتكسر
 ولم أك في حرِّ الكريمة مُحْجَا * إذا لم يكن في الحرب للورد مصدر
 إذا ساعد الطرفُ القتي وجنانه * وأسمرُ حَظِيٌّ وَأَبْيَضُ مِبْتَرُ
 فذاك وإن كان الكريم بنفسه * إذا أصطلت الأبطالُ في النقع عسكر

(١) برية بين البس وحلب . (٢) حام : نكص وحب .

(٣) المشيح : المانع لما وراء ظهره . والأقف من الخليل : الدقيق الحصر الصامر البطن .

منعهم من أن ينالوا قلاماً * وكنت شجاهم والأسيمة تقطُر
وتلك سجاياها قديماً وحادثاً * بها عُرِفَ الماضي وعزَّ المؤخَّر
أبت لي قروم أنجبتني أن أرى * وإن جَلَّ خَطْبُ خاشعاً أتضجَّر
أولئك آل الله فيهرُّ بن مالك * بهم يُجَبَّرُ العظمُ الكسيرُ ويُكسَّر
هم المنكبُّ العالى على كل منكبي * سيوفهم تُفني وتُفني وتُفقر

كان علي بن الجهم يعاشر جماعة من فتيان بغداد لما أطلق من حبسه وردَّ من النفي،
وكانوا يتقانون ببغداد ويلزمون منزل مغنٍ بالكرخ يقال له المفضل، فقال فيه علي بن الجهم:

زلنا بباب الكرخ أطيب منزل * على مُحسناتٍ من قِيانِ المفضل
فلا بن سُرَيْجٍ والغريص ومعبد * بدائعُ في أسماءنا لم تبدل
أوانس ما للضيف منهنَّ حشمةً * ولا رهبنَّ بالجليل المبجل
بسرَّ إذا ما الضيفُ قلَّ حياؤه * ويغفل عنه وهو غير مُغفل
ويكثر من ذمِّ الوقار وأهله * إذا الضيفُ لم يأنس ولم يتبدل
ولا يدفع الأيدي المريسة غيرة * إذا نال حظاً من لبوسٍ ووأكل
ويطرق إطراق الشجاع مهابةً * ليطلق طرف الناظر المتأمل
أشريد وأغمز بطرفٍ ولا تخف * رقيباً إذا ما كنت غير مبخل
وأعرض عن المصباح وألهج بمثله * فإن نحمد المصباح فادنُّ وقبل
وسل غير ممنوع وقل غير مسكت * ونمَّ غير مذعور وقم غير معجل
لك البيت ما دامت هداياك جمةً * وكنت ميا بالبيد المعسل
فبادر بأيام الشباب فإنها * تقضى وتفنى والغواية تجلي
ودع عنك قول الناس أتلف ماله * فلان فاضحى مدبراً غير مقبل
هل الدهر إلا ليلة طرحت بنا * أو انحرها في يوم لهو معجل
سقى الله باب الكرخ من منزه * الى قصر وضح فبركة زلزل

مَسَّحِبِ أَذْيَالِ الْقِيَانِ وَمَسْرُحِ الْ * حَسَانٍ وَمَثْوَى كُلِّ خَرِقٍ مُعَدَّلٍ
 لَوْ أَنَّ أَمْرَأَ الْقَيْسِ بِنِ حُجْرٍ يَحْلُهَا * لِأَقْصَرَ عَنْ ذِكْرِ الدُّخُولِ وَحَوْمَلِ
 إِذَا لَرَأَى أَنْ يَمْنَحَ الْوَدَّ شَادِنَا * مُقَصَّرِ أَذْيَالِ الْقِنَا ضَيْرِ مُسْتَبِيلِ
 إِذَا اللَّيْلُ أَدْنَى مَضْجَعِي مِنْهُ لَمْ أَقُلْ * "عَقَرْتَ بَعِيرِي يَا أَمْرَأَ الْقَيْسِ فَأَنْزِلِ"

دخل عليّ بن الجهم يوما على عبد الله بن طاهر في غداة من غدوات الربيع وفي السماء
 غيم رقيق، والمطر يهيج قليلا ويسكن قليلا، وقد كان عبد الله عزم على الصبح فغاضبته
 حَظِيَّةُ لَهُ، فتنقص عليه عزمه وقتر، فخبّر عليّ بن الجهم بالخبر وقيل له : قل في هذا المعنى
 لعله ينشط للصبح؛ فدخل عليه فأنشده :

أَمَا تَرَى الْيَوْمَ مَا أَحْلَى شَمَائِلَهُ * صَخْوٌ وَغَيْمٌ وَإِبْرَاقٌ وَإِرْعَادُ
 كَأَنَّهُ أَنْتَ يَا مَنْ لَا شَبِيهَ لَهُ * وَصَلُّ وَهَجْرٌ وَتَغْرِيْبٌ وَإِبْعَادُ
 قَبَاكِرِ الرَّاحِ وَأَشْرَبَهَا مُعْتَقَةً * لَمْ يَدْنِرْ مِثْلَهَا كِسْرَى وَلَا عَادُ
 وَأَشْرَبَ عَلَى الرَّوْضِ إِذْ لَاحَتْ زَخَارِفُهُ * زَهْرٌ وَنَوْرٌ وَأُورَاقٌ وَأُورَادُ
 كَأَنَّمَا يَوْمُنَا فَعَلُ الْحَيْبِ بِنَا * بَدَلٌ وَبُخْلٌ وَإِبْعَادُ وَمِيعَادُ
 وَلَيْسَ يَذْهَبُ عَنِّي كُلُّ فِعَالِكُمْ * عَنِّي وَرُشْدٌ وَإِصْلَاحٌ وَإِفْسَادُ

فاستحسن الأبيات وأمر له بثلاثمائة دينار وحمله وخلع عليه .

لما أطلق عبد الله بن طاهر عليّ بن الجهم من الحبس أقام معه بالشاذباخ مدة، فخرجوا
 يوما الى الصيد . واتفق لهم مَرَجٌ كثير الطير والوحش وكانت أيام الزعفران، فاصطادوا
 صيدا كثيرا حسنا، وأقاموا يشربون على الزعفران، فقال عليّ بن الجهم يصف ذلك :

وَطِئْنَا رِيَاضَ الزَّعْفَرَانِ وَأَمْسَكْتُ * عَلَيْنَا الْبُرْأَةُ الْبَيْضُ حَمْرَ الدَّرَاجِ (١)
 وَلَمْ تَقْمِهَا الْأَدْغَالُ مِنَّا وَإِنَّمَا * أَبْجَنَّا حِمَاَهَا بِالْكَلابِ الْبَوَارجِ
 بِمَسْتَرِّوْحَاتِ سَابِحَاتِ بَطُونِهَا * عَلَى الْأَرْضِ أُمْتَالِ السَّهَامِ الْزَوَارجِ (٢)

(١) واحده دراج (بضم الدال وتشديد الراء) وهو طائر على خلفه القفا إلا أنه أطف

(٢) الزاج من سهام : الذي يمشى على وجه الأرض ثم يمضى .

ومستشرفات بالهوادي كأنها * وما عُفِفَتْ منها رؤوس الصَّوَابِجِ
 ومن دالعاتِ ألسنًا فكأنها * لِحَى من رجال خاضعين كوَاصِجِ
 قَلِينَا بها الغِيْطَانُ قَلِيَا كأنها * أَنَامِلُ إِحْدَى التَّغَانِيَاتِ الحَوَاجِجِ
 فقل لُبْغَاةِ الصَّيْدِ هل من مُفَاخِرٍ * بصيْدٍ وهل من وَاصِفٍ أَوْ مَخَارِجِ
 قَرْنَا بُزَاةً بِالصَّقُورِ وَحَوْمَتْ * شَوَاهِيْنَا من بعد صيْدِ الرَوَاجِجِ^(١)

لما فُلِحَ آبنُ أَبِي دُوَادٍ شَمِتَ بِهِ عَلِيُّ بْنُ الْجَهْمِ وَأَظْهَرَ ذَلِكَ لَهُ وَقَالَ فِيهِ :

لَمْ يَبْقَ مِنْكَ سِوَى خَيْالِكَ لَامِعًا * فَوْقَ الْفِرَاشِ مَهْمَدًا يُوَسِّدًا
 فَوِرِحَتْ بِمَصْرَعِكَ الْبَرِيَّةُ كُلَّهَا * مَنْ كَانَ مِنْهُمْ مُوقِنًا بِمَعَادِ
 كَمْ مَجْلِسَ اللَّهِ قَدْ عَطَلْتَهُ * كَيْ لَا يُحَدِّثَ فِيهِ بِالْإِسْنَادِ
 وَلَكُمْ مَصَابِيحٌ لَنَا أَطْفَأْتَهَا * حَتَّى نَزُولَ عَنِ الطَّرِيقِ الْهَادِي
 وَلَكُمْ كَرِيمَةٌ مَعْشِيرُ أَرْمَلْتَهَا * وَمَحَدَّثَتْ أَوْثَقَتْ فِي الْأَقْيَادِ
 إِنْ الْأَسَارَى فِي السَّجُونِ تَفْرَجُوا * لِمَا أَنْتَكَ مَوَاصِبُ الْعَوَادِ
 وَغَدَاً لِمَصْرَعِكَ الطَّيِّبُ فَلَمْ يَجِدْ * شَيْئًا لِدَائِكَ حَيْلَةَ الْمُرْتَادِ
 فَذُقِ الْهَوَانَ مَعْجَلًا وَمُؤَجَّلًا * وَاللَّهُ رَبُّ الْعَرْشِ بِالْمُرْصَادِ
 لَا زَالَ فَالْحُكَّ الَّذِي بَكَ دَائِبًا * وَجِئْتَ قَبْلَ الْمَوْتِ بِالْأَوْلَادِ

ومن جيد شعره قوله :

نَطَقَ الْهُوَى بِجُوى هُوَ الْحَقُّ * وَمَلِكْتَنِي فَلِيْمَنِكَ الرَّقُّ
 رِفْقًا بِقَلْبِي يَا مَعْدَبَهُ * رِفْقًا وَلَيْسَ لظَالِمٍ رِفْقُ
 وَإِذَا رَأَيْتَكَ لَا تُكَلِّمْنِي * ضَاقَتْ عَلَيَّ الْأَرْضُ وَالْأَفْقُ

وله أيضا :

يَا رَحْمَةً لِلْغَرِيبِ بِالْبَلَدِ النَّا * زِيحَ مَا دَا بِنَفْسِهِ صَنَعَا
 فَارَّقَ أَحْبَابَهُ فَمَا آتَنَفَعُوا * بِالْعَيْشِ مِنْ بَعْدِهِ وَمَا آتَنَفَعَا

(١) الراجح : الملواح الذي يصاد به الصقور ونحوها من جوارح الطير

٢ - علي بن جبلة^(١)

قال المأمون يوما لبعض جلسائه : أقسم علي من حضر من يحفظ قصيدة علي بن جبلة الأعمى في القاسم بن عيسى إلا أنشدنيها ؛ فقال له بعض الجلساء : قد أقسم أمير المؤمنين ولا بد من إبرار قسمه ، وما أحفظها ولكنها مكتوبة عندي ؛ قال : قم فحطني بها ، فمضى وأتاه بها وأنشده إياها ، وهي :

ذادِ رَدَ النَّحْيِ عَنِ صَدْرِهِ * وَأَرْعَوَى وَاللَّهُوْ مِنْ وَطْرِهِ
وَأَبَتْ إِلَّا الْبِكَاءَ لَهُ * ضَحِكَاتُ الشَّيْبِ فِي شَعْرِهِ
نَدِمِي أَنْ الشَّبَابَ مَضَى * لَمْ أَبْلُغْهُ مَدَى أَشْرِهِ
وَأَنْقَضَتْ أَيَّامُهُ سَلَمًا * لَمْ أَجِدْ حَوْلًا عَلَيَّ غَيْرِهِ
حَسْرَتٌ عَنِّي بِشَاشَتِهِ * وَذَوَى الْمَحْمُودُ مِنْ قَمْرِهِ
وَدِيمٌ أَهْدَرْتُ مِنْ رَشَا * لَمْ يُرِدْ عَقْلًا عَلَيَّ هَدْرِهِ
فَأَتَتْ دُونَ الصَّبَا هَنَّةٌ * قَلْبْتُ فُوقَ عَلَيَّ وَتَرِيهِ
جَارَاتًا لَيْسَ الشَّبَابُ لِمَنْ * رَاحَ مَحْنِيًّا عَلَيَّ كِبَرِهِ
ذَهَبَتْ أَشْيَاءُ كُنْتُ لَهَا * صَارَهَا حَلْمِي إِلَى صُورِهِ^(٢)

(١) هو علي بن جبلة الأنباري والعمكوك لقبه ، وهو من الموالى أبناء الشيعة الخراسانية من أهل بغداد ، ولد في الحربية منها ونشأ فيها ، وكان ضريرا منذ ولادته مثل بشار بن برد ، وهو شاعر مطبوع عذب اللفظ حزينه ، لطيف المعاني ، مداح حسن التصرف ، وقد استندت شعره في مدح أبي دلف العجلي وأبي عاتم حميد بن عبد الحميد الطوسي ، وزاد في تفضيلهما وتفضيل أبي دلف خاصة حتى فضل ربيعة على مصر ، فاستاء المأمون من ذلك وطلع أبيات قائلها العمكوك في أبي دلف منها :

كل من في الأرض من عرب * بين يديه إني حضره
مستعير منك مكرمة * بكتسيها يوم مفتخره

توفي سنة ٢١٣ هـ . وتجده أكثر أخباره في الأغاني (ح ١٨ ص ١٠٠) وابن حلكان ضع بولاق (ح ١

- دَعَّ جَدَا حَقَّانَ أَوْ مُضِرَّ * فِي يَمِيهِ وَفِي مُضَرِّهِ
 وَامْتَدَّحَ مِنْ وَائِلِ رَجُلًا * عَصُرُ الْآفَاقِ فِي عَصْرِهِ
 الْمَنَايَا فِي مَنَاقِيهِ * وَالْعَطَايَا فِي ذَرَا حُجْرِهِ
 مَلِكٌ تَنَدَّى أَنَامِلُهُ * كَانِبِلَاجِ النَّوَى عَنْ مَطَرِهِ
 مُسْتَهْلٌ عَنْ مَوَاهِبِهِ * كَابْتِسَامِ الرُّوضِ عَنْ زَهْرِهِ
 جَبَلٌ عَزَّتْ مَنَاصِكُهُ * أَمِنَتْ عَدَنَانُ فِي ثَغْرِهِ
 لِمَا الدُّنْيَا أَبُو دُلْفٍ * بَيْنَ مَبْدَاهِ وَمُحْتَضِرِهِ
 فَإِذَا وَوَلَّى أَبُو دَلْفٍ * وَلَّتِ الدُّنْيَا عَلَى أَثَرِهِ
 لَسْتُ أَدْرِي مَا أَقُولُ لَهُ * غَيْرَ أَنَّ الْأَرْضَ فِي خَفَرِهِ
 يَأْدُوهُ الْأَرْضَ إِنْ فَسَدَتْ * وَمَدِيدَ الْيُسْرِ مِنْ عُسْرِهِ
 كُلِّ مَنْ فِي الْأَرْضِ مِنْ عَرَبٍ * بَيْنَ بَادِيهِ إِلَى حَضَرِهِ
 مُسْتَعِيرٌ مِنْكَ مَكْرَمَةٌ * يَكْتَسِبُهَا يَوْمَ مُفْتَخِرِهِ

وفيه يقول :

- وَزُحُوفٍ فِي صَوَاهِلِهِ * كَصِيَاحِ الْحَشْرِ فِي أَنْوَرِهِ
 قُدَّتْهُ وَالْمَوْتُ مَكْتَمُنٌ * فِي مَذَاكِيهِ وَمُشْتَجِرِهِ
 فَرَمْتُ حَقْوِيهِ مِنْهُ يَدٌ * طَوَّتِ الْمَنْشُورَ مِنْ نَظَرِهِ
 زَرْتَهُ وَالْحَيْلُ عَابِسَةٌ * تَحْمِلُ الْبُؤْسَى عَلَى عُنُقِهِ
 خَارِجَاتٍ تَحْتَ رَايَتِهَا * تَخْرُجُ الطَّيْرُ مِنْ وَكْرِهِ
 وَعَلَى النَّعْمَانِ عُجَّتْ بِهِ * عَوَجَةً ذَادَتْهُ عَنْ صَدْرِهِ
 تَعَمَّطَ النَّعْمَانُ صَفْوَتَهَا * فَرَدَدَتْ الصَّفْوَةَ فِي كَدْرِهِ
 وَلَقَرَقُورٌ أَدْرَتْ رَحًا .. لَمْ تَكُنْ تَرْتَدُّ فِي فِكْرِهِ

فقد تأتيت البقاء له فأبى المحتوم مر قدره
 وطسنى حتى رفعت له * خُطَّةٌ شنعاء من ذكره
 فغضب المأمون وأعتاظ، وقال : لست لأبى إن لم أقطع لسانه أو أسفك دمه .

وكان يمدح حميد بن عبد الحميد، فلما سمع حميد هذا في أى دلف قال : أى شى
 بقيت لنا بعد هذا من مدحك؟ فقال :

إنما الدنيا حميدٌ * وأبأديه الحسامُ
 فاذا ولّى حميدٌ * فعلى الدنيا السلامُ

وهو القائل في حميد :

دجلةٌ تسقى وأبو غانم * يطعم من تسقى من الناس
 والناسُ جسمٌ وإمامُ الهدى * رأس وأنت العينُ فى الراس

وقال للحسن بن سهل :

أعطيتنى يا ولى الحق مبتدئاً * عطيةً كافأت مدحى ولم ترفى
 ما شئتُ برق حتى نلت ريقه * كأنما كنت بالجدوى تُبادرنى

وهو القائل فى حميد :

إلى أكرم فظانٍ * وصلنا السهب بالسهب
 إلى مجتمع النيل * وملقى أرحل الركب
 حميدٌ مفرع الأثر * لة فى الشرق وفى الغرب
 كأن الناس جسمٌ وهـ * وممنه موضع القلب
 إذا سالم أرضاً غـ * بينت آمنة السرب
 وإن حار بها حلت * بها راغية السقب
 إذا لاقى ريعل المو * ت بالشطبة والشطب
 وبالمأذية الخضر * وبالهندية القصب

دَعَجَ جَدًا حَقَطَانُ أَوْ مُضِيرٌ * فِي يَمَانِيهِ وَفِي مُضِيرِهِ
 وَامْتَدَحَ مِنْ وَائِلٍ رَجُلًا * عَصُرُ الْآفَاقِ فِي عَصِيرِهِ
 الْمَنَايَا فِي مَنَاقِيهِ * وَالْعَطَايَا فِي ذَرَا حُجَّيرِهِ
 مَلِكٌ تَتَدَى أَنْامِلُهُ * كَانِبِلَاجِ النَّوْءِ عَنِ مَطَرِهِ
 مُسْتَبِيلٌ عَنِ مَوَاهِبِهِ * كَابِتْسَامِ الرُّوْضِ عَنِ زَهْرِهِ
 جَبَلٌ عَزَّتْ مَنَاقِبُهُ * أَمِنَتْ عَدْنَانُ فِي نُغْرِهِ
 إِنَّمَا الدُّنْيَا أَبُو دُلْفٍ * بَيْنَ مَبْدَأِهِ وَحُحْتَضِرِهِ
 فَإِذَا وَلَّى أَبُو دُلْفٍ * وَلَّتِ الدُّنْيَا عَلَى أَثَرِهِ
 لَسْتُ أُدْرِي مَا أَقُولُ لَهُ * غَيْرَ أَنَّ الْأَرْضَ فِي خَفَرِهِ
 يَأْدُوهُ الْأَرْضَ إِنْ فَسَدَتْ * وَمَدِيلَ الْيُسْرِ مِنْ عُسْرِهِ
 كُلُّ مَنْ فِي الْأَرْضِ مِنْ عَرَبٍ * بَيْنَ بَادِيهِ إِلَى حَضَرِهِ
 مُسْتَعِيرٌ مِنْكَ مَكْرَمَةٌ * يَكْتَسِبُهَا يَوْمَ مُفْتَحِرِهِ

وفيها يقول :

وَزُحُوفٍ فِي صَوَاهِلِهِ * كَصِيَاحِ الْحَشْرِ فِي أَنْرِهِ
 قُدَّتْهُ وَالْمَوْتُ مَكْتَمٌ * فِي مَدَاكِيهِ وَمُشْتَجِرِهِ
 فَرَمْتُ حَقْوِيهِ مِنْهُ يَدٌ * طَوَّتِ الْمَنْشُورَ مِنْ نَظَرِهِ
 زَرْتَهُ وَالخَيْلُ عَابِسَةٌ * تَحْمَلُ الْبُؤْسَى عَلَى عُنُقِهِ
 خَارِجَاتٍ تَحْتَ رَايَتِهَا * تَخْرُجُ الطَّيْرُ مِنَ وُكْرِهِ
 وَعَلَى النِّعْمَانِ نَجَّتْ بِهِ * عَوَجَةٌ زَادَتْهُ عَنِ صَدْرِهِ
 غَمَطَتِ النِّعْمَانُ صَفْوَتَهَا * فَرَدَدَتْ الصَّفْوَةَ فِي كَدْرِهِ
 وَلَقَرَقُورٌ أُدْرِتَ رَحًا * لَمْ تَكُنْ تَرْتَدُّ فِي فِكْرِهِ

قد تَأَيَّتَ البقاءَ له * فأبى المحتومَ من قَدَرِه
 ووطنى حتى رفعتَ له * خُطَّةَ شِمْعَاءَ من ذِكْرِه
 فنغضب المأمونَ وأعتاظا، وقال : لست لأبى إن لم أقطع لسانَه أو أمفِكِ دمه .

وكان يمدح حميد بن عبد الحميد، فلما سمع حميد هذا في أبي دلف قال : أى شيء
 بقيت لنا بعد هذا من مدحك؟ فقال :

إنما الدنيا حميدٌ * وأيديهِ الحسامُ
 فاذا ولَّى حميدٌ * فعلى الدنيا السلامُ

وهو القائل في حميد :

ديجةٌ تَسْقَى وأبو غانم * يُطْعِمُ مَنْ تَسْقَى من الناس
 والناسُ جسمٌ وإمامُ الهدى * رأسُ وأنت العينُ فى الراس

وقال للحسن بن سهل :

أعطينى يا ولىّ الحق مبتدئاً * عطيةً كافأت مدحى ولم تترى
 ما شئتُ برقك حتى نلتُ ريقه * كأنما كنتُ بالحدوى تُبادرنى

وهو القائل في حميد :

إلى أكرم حَظانٍ - وصلنا السَّهْبَ بالسَّهْبِ
 إلى مجتمع النِّيل * ومُلِقَى أرْحَلِ الرُّكْبِ
 حميدٌ مَفْرَعُ الأُمَدِ * لمة فى الشرقِ وفى الغربِ
 كأنَّ الناسَ جسمٌ وهـ * يومنه موضعُ القلبِ
 إذا سَأَلَمَ أرضاً غـ * نَبِيتُ أَمْنَةَ السَّرْبِ
 وإن حارَبها حَلَّتْ * بها رَاغِبَةُ السَّقْبِ
 إذا لاقى رَعِيلَ المو * ت بالثَّطْبَةِ والثَّطْبِ
 وبالمأذية الخُضْرِ * وبالمهندية القُصْبِ

غدا مجتمع القلب * له جند من الرعب
 فيافوز الذي وآلى * ويا يؤسى أذى الذنب
 أيا ذا الجود فاسلم ما * جرت حقب إلى الحقب
 فانت الغيث في السلم * وأنت الموت في الحرب
 وأنت الجامع الفار * ق بين البعد والقرب
 بك الله تلافى النا * س بعد العثر والنكب
 ورد البيض والبيض * إلى الأعماد والمجرب
 بإقدامك في الحرب * وإطعامك في اللزب
 فك أمنت من خير * وكم أشغبت
 وكم أصلحت من خط * وكم أيمت من خط
 وما تمهـرها إلا .. دراك الطعن والضرب
 تاهت بك قطان * إلى الغاية والحسب
 ففانت شرف الأحياء * قوت الرأس للعجب (١)

ومما أسرف فيه فكفر أو قارب الكفر قوله في أبي دلة

الذي تنزل الأيام مرها .. وتنقل الدهر من حال إلى حال
 وما مددت مدى طرفي إلى أحد .. إلا قضيت بأرزاق وآجال
 تزور سخطا فتمسى البيض راضية .. وتستهل فبكي أوجه المال

وقال فيها :

كأن خيلك في آند عموتها أرسل قاطرتها في فوق إرسال
 يخرجن من غمرات الما : منه نشر الأثامل من ذى القرة الصالى

وقال أيضا :

جلاء مشيبٍ نَزَل * وأُسُّ شبابٍ رَحَل
طوى صاحبٌ صاحبًا * كذاك اختلافُ الدَّوَل
أعاذلتني أقصيرى * كفاك المشيبُ العَدَل
بدا بدلًا بالشبا * ب ليت الشبابَ البدل
جلالٌ ولكنه * تحاماه حورُ القل

وقد كان حميد ركب يوم عيد في جيش عظيم لم ير مثله ، فقال على بن جبلة يصف ذلك :

غدا بأمر المؤمنين ويمنه * أبو غانم غدو الندى والسحاب
وضافت فجاج الأرض عن كل موكب * أحاط به مستعلياً للواكب
كأن سموا النقع والبيض فوفهم * سماوة ليل قوت بالكواكب
فكان لأهل العيد عيدٌ بنسكهم * وكان حميد عيدهم بالمواهب
ولولا حميد لم تبلج عن الندى * يمين ولم يدرك غنى كسب كاسب
ولو ملك الدنيا لما كان سائلٌ * ولا أعتام فيها صاحبٌ فضل صاحب
له ضحكة تستغرق المال بالندى * على عبسة تشجي القنا بالترائب
ذهبت أيام العلاء فإردا بها * وصرمت عن مسعك شأو المطالب
وعدت ميل الأرض حتى تعذلت * فلام يئاً منها جانبٌ فوق جانب
بلغت بأدنى الحزيم أبعاد قُطريها * كأنك منها شاهدٌ كل غائب

شخص على بن جبلة إلى عبد الله بن طاهر إلى خراسان ، وقد مدحه فأجرل صلته ، واستأذنه في الرجوع فسأله أن يقيم ، وكان برّه يتصل عنده ، فلما طال مقامه اشتاق إلى أهله فدخل إليه فأنسده :

رأه الشيبُ إذ نزل * وكفاه من العَدَل
وأنقضت مدة العسا * وأنقضى الله النزل

قد لعمرى دَمَلْتَهُ - بِخِضَابٍ مَا أَدْمَلُ
 فَايَكِ لِلشَّيْبِ إِذْ بَدَأَ - لَا عَلَى الرَّبْعِ وَالطَّلَلِ
 وَصَلَّ اللهُ نَالِئِي - بِرِغْمَرِي الْمَلِكِ فَاتَّصِلْ
 مَلِكُ عَزْمِهِ الرِّمَاءُ - نَبْتُ وَأَفْصَالُهُ الدُّوَلُ
 كَكِسْرِيٍّ، يَجِدُهُ - يَضْرِبُ الضَّارِبُ الْمَثَلُ
 وَإِلَى ظِلِّ عِزِّهِ - يَلْجَأُ الْخَائِفُ الْوَجِلُ
 كُلِّ خَلْقٍ سِوَى الْإِمَامِ - إِذْ لِإِنْعَامِهِ خَسُولُ
 نَيْتِهِ حِينَ جَادَنِي - بِالْغِنَى جَادَ بِالْقَفْلِ

فضحك وقال : آيَّتْ إِلَّا أَنْ تُوحِشْنَا، وَأَجْزَلِ صِلَاتِهِ وَأَذْنُ لَهُ .

دخل على بن جبلة العكوكي على حميد الطوسي في أول يوم من شهر رمضان، فأنشده :

جعل الله مدخل الصوم فوزاً - لِحَمِيدٍ وَمُنْعَةً فِي الْبَقَاءِ
 فهو شهر الربيع للقتراء - وَفِرَاقِ النَّدْمَانِ وَالصَّهْبَاءِ
 وأنا الضامن المثل لمن عا - قَرَّهَا مُفْطِرًا بِطُولِ الظَّهَاءِ
 وكأني أرى الندامي على الحساء - فَيَرْجُونَ صَبْحَهُمْ بِالْمَسَاءِ
 قد طوى بعضهم زيارة بعض - وَاسْتَعَاذُوا مَصَاحِفًا بِالْغِنَاءِ

ومعها يقول :

بَحْمِيدٍ - وَأَيْنَ مِثْلُ حَمِيدٍ - نَخَّرَتْ طِيءٌ عَلَى الْأَحْيَاءِ
 جودُه أظهر الساحة في الآر - ضِ وَأَغْنَى الْمُقْوَى عَنِ الْإِقْوَاءِ
 ملكك يأمل العباد نداءه - مِثْلَ مَا يَأْمَلُونَ قَطْرَ السَّمَاءِ
 صاعه لله مضمع الناس في الآر - ضِ وَصَاغَ السَّحَابَ لِلْإِسْقَاءِ

فأمره بخمسة آلاف درهم. وقال : استعن بهده على نفقة صومك ، ثم دخل إليه ثاني

شوال فأنشده :

عَلَّانِي بَصَفُو مَا فِي الدَّنَانِ .. وَأَتْرَكَ مَا يَقُولُهُ الْعَاذِلَانِ
 وَأَسِيقًا فَاجَعَ الْمَيْتَةَ بِالْعِيدِ .. بِشِ فَكَلَّ عَلَى الْجَدِيدِينَ فَانِي
 عَلَّانِي بِشَرْبَةِ تُذْهَبُ الْمُهْ .. مَّ وَتَنْفِي طَوَارِقَ الْأَحْزَانِ
 وَالْقِيَا فِي مَسَامِعِ سَدَّهَا الصَّو .. م رُقَى الْمَوْصِلَى أَوْ دَحْمَانَ
 قَدْ أَنَا شَوَّالٌ فَاقْتَبِلَ الْعِيدِ .. شُ وَأَعْدَى قَسْرًا عَلَى رَمَضَانَ
 نَيْمَ عَوْنُ الْفَتَى عَلَى نُوبِ الدَّهْرِ .. بِرِ سَمَاعُ الْقِيَانِ وَالْعِيدَانِ
 وَكُوُوسٌ تَجْرِي بِمَاءِ كَرُومِ .. وَمَطَى الْكُوُوسِ أَيْدِي الْقِيَانِ
 مِنْ عُقَايِنِ مُيْتِ كَيْلِ احْتِشَامِ .. وَتُسْرُ النَّدْمَانَ بِالنَّدْمَانِ
 وَكَأَنَّ الْمِزَاجَ يَقْدَحُ مِنْهَا .. شَرًّا فِي سَبَائِكِ الْعِيقَانِ
 فَاشْرَبِ الرَّاحَ وَأَعِصْ مَنْ لَامَ فِيهَا .. إِنَّمَا نَيْمَ عُدَّةَ الْفَتِيَانِ
 وَأَحْبَبِ الدَّهْرَ بِارْتِحَالِهِ وَحِلِّ .. لَا تَحْتَفُ مَا يَحْمِرُهُ الْحَادِثَانِ
 حَسْبُ مَسْتَظْهِرٍ عَلَى الدَّهْرِ رِكَا .. بِجَيْدِ رِدْعَا مِنْ الْحَدِثَانِ
 مَلِكٌ يَقْتَنِي الْمَكَارِمَ كَثْرًا .. وَتَرَاهُ مِنْ أَكْرَمِ الْفَتِيَانِ
 خُلِقَتْ رَاحَتَاهُ لِلْعُودِ وَالْبَا .. سِ وَأُمُوَالُهُ لَشُكْرِ اللِّسَانِ
 مَلِكُهُ عَلَى الْعِبَادِ مَعْدٌ .. وَأَقْرَبَتْ لَهُ بَنُو خَطَّانِ
 أَرِيحِيُّ النَّدَا جَمِيلُ الْمُحَا .. يَدُهُ وَالسَّاحُ مَعْتَقِدَانِ
 وَجْهَهُ مُشْرِقٌ إِلَى مُعْتَفِيهِ .. وَيَدَاهُ بِالغَيْثِ تَنْفَجِرَانِ
 جَعَلَ الدَّهْرَ بَيْنَ يَوْمِيهِ قَسْمِي .. بِنِ بَعْرِيفِ جَزَلٍ وَحَرَ طِعَانِ
 فَإِذَا سَارَ بِالْخَمِيسِ لِحَرْبٍ .. كَلَّ عَنْ نَصِّ جَاهِهِ الْخَافِقَانِ
 وَإِذَا مَا هَزَزَتْهُ لِنَوَالٍ .. ضَاقَ عَنْ رَحْبِ صَدْرِهِ الْأَفْقَانِ
 غَيْثٌ جَدِيدٌ إِذَا أَقَامَ رَيْبِعٌ .. يَتَغَشَّى بِالسَّيْبِ كُلَّ مَكَانِ
 يَا أَبَا غَاثِمٍ بَقِيَّتْ عَلَى الدَّهْرِ .. بِرِ وَخَلَّدَتْ مَا بَجَرَى الْعَصْرَانِ

ما نُبَالِي إِذَا عَدَّتْكَ الْمَنَايَا * مِنْ أَصَابَتْ بِكُلِّكِ وَجِرَانِ
 قَدْ جَعَلْنَا إِلَيْكَ بَعَثَ الْمَطَايَا * هَرَبًا مِنْ زَمَانَا الْخَوَانِ
 وَحَلْنَا الْحَاجَاتِ فَوْقَ عِتَاقِ * ضَامِنَاتِ حَوَائِجِ الرِّجَالِ
 لَيْسَ جُودٌ وَرَاءَ جُودِكَ يُنْتَأَى * بُّ وَلَا يَعْتَفِينِي لِفَيْرِكَ عَانِي

فأمر له بعشرة آلاف درهم، وقال: تلك كانت للصوم تخففت وخففنا، وهذه للفطر
 فقد زدتنا وزدناك .

ولما مات حميد الطوسي رثاه بقصيدته العينية المشهورة التي تمّت من نادر الشعر
 وبديعه، وهي :

اللَّهِيرِ تَبْكِي أُمَ عَلَى الدَّهْرِ تَجْزَعُ .. وَمَا صَاحِبُ الْأَيَّامِ إِلَّا مُفْجَعُ
 وَلَوْ سَهَلْتَ عَنكَ الْأَسَى كَانَ فِي الْأَسَى .. عِزَاءً مَعِزًّا لِلْيَبِّ وَمَقْنَعُ
 تَعَزَّ بِمَا عَزَيْتَ غَيْرَكَ إِنَّمَا .. سِهَامُ الْمَنَايَا حَائِمَاتٌ وَوَقْعُ
 أَصْبُنَا بِيَوْمٍ فِي حَمِيدٍ لَوْ أَنَّهُ * أَصَابَ عُرُوشَ الدَّهْرِ ظَلَّتْ تَضَمُّعُ
 وَأُذْبِنَا مَا أَذَبَ النَّاسَ قَبْلَنَا * وَلِيَكُنْ لَمْ يَبِيقُ لِلصَّبْرِ مَوْضِعُ
 أَلَمْ تَرَ لِلْأَيَّامِ كَيْفَ تَصَرَّمَتْ .. بِهِ . وَبِهِ كَانَتْ تُدَادُ وَتُدْفَعُ
 وَكَيْفَ التَّقَى مَثْوَى مِنَ الْأَرْضِ ضَيْقُ * عَلَى جَبَلٍ كَانَتْ بِهِ الْأَرْضُ مُنْمَعُ
 وَلِمَا أَنْقَضَتْ أَيَّامُهُ أَنْقَضَتْ الْعَلَا * وَأَضْحَى بِهِ أَنْفُ النَّدَى وَهُوَ أَجْدَعُ
 وَرَاحَ عَدُوِّ الدِّينِ جَذَلَانٌ يَتَّحَى .. أَمَانِي كَانَتْ فِي حَشَاهُ تَقَطُّعُ
 وَكَانَ حَمِيدٌ مَعْقِلًا رَكَعَتْ بِهِ * قَوَاعِدُ مَا كَانَتْ عَلَى الضَّمِيمِ تَرْكَعُ
 وَكُنْتُ أَرَاهُ كَالرِّزَايَا رُزِيئَتَهَا .. وَلَمْ أَدْرَأَنَّ الْخَلْقَ تَبْكِيهِ أَجْمَعُ
 حِمَامٌ رَمَاهُ مِنْ مَوَاضِعِ أَمْنِهِ * حِمَامٌ . كَذَلِكَ الْخَطْبُ بِالْخَطْبِ يُقَدِّعُ
 وَلَيْسَ بَغْرِيو أَنْ تُصِيبَ مَيْتَةً .. حِي أَخْتَهَا أَوْ أَنْ يَنْدَلَ الْمُنْمَعُ
 لَقَدْ أَدْرَكْتُ فِينَا الْمَنَابَا بِأَرَاهُ : وَحَلَّتْ بِخَطْبٍ وَهَيْسَهُ لَيْسَ يُرْقِعُ

نعاء نَا للسرَايا إِذَا غ
 وَللَّذَهَقِ الْمَكْرُوبِ ضَاقَتْ بِأَمْرِهِ * فلم يدر في حوماتها كيف يصنع
 وَللْبَيْضِ خَلَّتْهَا الْبَعُولُ ولم يدع
 كَأَنَّ حِمِيدًا لم يُقَدِّ جيشَ عسْكَرِ
 ولم يَبِعَتْ الْخَيْلَ الْمَغِيرَةَ بِالضَّحَى
 رَوَاجِعَ يَجْلَنُ النَّهَابَ ولم تكن
 هوى جِبَلِ الدُّنْيَا الْمُنْبِعِ وَغَيْثُهَا الـ
 وَسَيْفُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَرَمْحُهُ
 فَأَقْنَعَهُ مِنْ مُلْكِهِ وَرِبَا
 على أَى شَجْوٍ تَشْتَكِي النَّفْسُ بَعْدَهُ
 أَلَمْ تَرَأَنَّ الشَّمْسَ حَالَ ضِيَاؤِهَا
 وَأَوْحَشَتِ الدُّنْيَا وَأَوْدَى بِهَاؤُهَا
 وَقَدْ كَانَتْ الدُّنْيَا بِهِ مَطْمَئِنَّةً
 بِكِي فَقَدَهُ رُوحَ الْحَيَاةِ كَمَا بِكِي
 وَفَارَقَتِ الْبَيْضُ الْخُدُورَ وَأُبْرِزَتْ
 وَأَيَّقُظُ أَجْفَانًا وَكَانَ لَهَا الْكِرَى * ونامت عيونٌ لم تكن قبل تهجم
 وَلَكِنَّهُ مَقْدَارَ يَوْمِ ثَوَى بِهِ
 وَقَدْ رَأَى اللهُ الْمَلَأَ بِجَمْدِ
 أَعْرَى، على أَسْيَافِهِ وَرِمَاحِهِ
 حَوَى عَنْ أَيْهِ بِذَلِّ رَاحَتِهِ النَّدَى
 تَذَاذَ بِأَطْرَافِ الرَّمَاحِ وَتَوَزَّعَ
 إِلَى عَسْكَرِ أَشْيَاعِهِ لَا تَرَوُّعَ
 مِرَاحًا ولم يَرْجِعْ بِهَا وَهَى طُلُوعُ
 كَتَائِبُهُ إِلَّا عَلَى النَّهْبِ تَرْجِعُ
 مَرْبِيعُ وَحَامِيهَا الْكَمْيُ الْمَشِيعُ
 وَمَفْتَاخُ بَابِ الْخَطْبِ وَالْخَطْبُ أَنْظَعُ
 وَنَائِلُهُ قَفْرٌ مِنَ الْأَرْضِ بَلْقَعُ
 إِلَى شَجْوِهِ أَوْ يَذْخُرُ الدَّمْعَ مَدْمَعُ
 عَلَيْهِ وَأَضْحَى لَوْنُهَا وَهُوَ أَسْفَعُ
 وَأَجْدَبَ مَرْعَاهَا الَّذِي كَانَ يَمْرُغُ
 فَقَدْ جَعَلَتْ أَوْتَادُهَا نَتَقْلَعُ
 نَدَاهُ النَّدَى وَأَبْنُ السَّبِيلِ الْمُدْمَعُ
 عَوَاطِلَ حَسْرَى بِهِ لَهْ لَا تَقَعُ
 وَنَامَتْ عَيْونٌ لَمْ تَكُنْ قَبْلَ تَهْجَمُ *
 لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْ نِهَالٍ وَمَشْرَعُ
 وَبِالْأَصْلِ يَنْبَى فِرْعُهُ الْمَنْفَرَعُ
 تُقَسِّمُ أَنْفَالَ الْخَمِيسِ وَتُجْمَعُ
 وَطَمَنَ الْكَلْبُ وَالزَّرَاعِيَّةُ شَرَعُ

(مطبعة دار الكتب المصرية ٥٤٩/١٩٣٧/٢١٥٠)

عصر المأمون



الدكتور

أحمد فرید زفای

المفتش بوزارة الداخلية

المجلد الثالث

(حقوق الطبع محفوظة للؤلف)

[الطبعة الأولى]

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٣٤٦ هـ - ١٩٢٧ م

فهرسب

المجلد الثالث من عصر المأمون

ملحق الكتاب الثالث - عصر الأمين والمأمون

باب المشور :

- صفحة
- ١ نص كتاب الأمين والمأمون - نص كتاب الأمين الى المأمون
- ٢ نص كتاب الأمين الى أخيه صالح
- ٥ القول بخلق القرآن (ما كتبه المأمون الى ولاته)
- ١٧ عهد طاهر بن الحسين
- ٢٦ رسالة الخميس (ما كتبه المأمون الى أهل خراسان)
- ٣٨ ما كتبه السيدة زبيدة الى المأمون - ما كتبه المأمون اليها
- ٣٩ رسالة أحمد بن يوسف

رسائل سهل بن هارون :

- ٤٨ وصفه وتاريخ حياته - ما حكاه الجحظ عنه
- ٤٩ ما حكاه دعبل الخزامي الشاعر عنه
- ٥٠ كتبه وطريقته في التأليف
- ٥٢ من كلام له في آياه ثعلبة وعفرة
- ٥٣ ما كتبه الى صديق له أبل من ضعف - رسالته في الجهل
- ٥٧ شيء من شعره

رسائل عمرو بن مسعدة :

- ٥٩ وصفه وتاريخ حياته
- ٦١ من كلام له - ما كتبه الى الحسن بن سبل - ما كتبه الى المأمون
- ٦٢ من حكاه

صفحة	
٦٤	ما كتبه الى بعض الرؤساء
٦٥	شئ من شعره
٦٦	حكاية له
٧٠	ما قاله أبو محمد عبد الله بن أيوب التيمي فيه

سائل الجاحظ :

٧٢	وصفه وتاريخ حياته — رسالته في بنى أمية
٨٠	ما كتبه الى بعض إخوانه في ذم الزمان
٨٢	وصفه لتقرئش وبنى هاشم
٨٣	ما كتبه في الاعتذار — ما كتبه في الاستعصاف
٨٤	ما كتبه في ذم الحمد — دفاعه عن مؤلفاته
٩٢	ما كتبه في أخذ البرى، بدنب المدب
٩٨	ما كتبه في قسام البيان
١٠١	ما كتبه في مدح الكتب
١١٥	ما كتبه في الترغيب في اصطناع الكتب

الرسائل :

١٢٨	نصوص المنتخب من الرسائل المختارة في كل فن — كتب رجل الى صديق له
١٣١	فصل لسعيد بن حميد
	فصل في هدية — فصل في شفاعة — فصل لرحل تميمي — فصل لأحمد بن يوسف
١٣٣	فصل في الصبح لأبي علي — فصل لأحمد بن يوسف
١٣٤	فصل نعتال بن تبة — فصل في التوديع — فصل في الصبح — جواب في فتح
١٣٥	فصل في الصبح عن الجفاء — فصل في الاعتذار
١٣٦	الى المؤمن من عامل — فصل لابن الكلبي
١٣٧	فصل لأبراهيم بن اسماعيل بن داود
١٣٨	فصل لعمر بن مسعدة
١٣٨	فصل ليعيسى بن واضح الى الفصل بن ربيع — فصل لجبل بن يزيد
١٣٩	وله في المطر — وله الى بعض إخوانه
١٤٠	فصل لابن أعين كاتب الخيزران — فصل لابن الكلبي — فصل لعلي بن عبيدة الى ابن الكلبي
١٤١	فصل لعارة — فصل لسعيد بن عبد الملك

فهرس المجلد الثالث

(٥)

صفحة

- ١٤٢ فصل لجل بن يزيد الى بعض اخوانه — وله الى بعض اخوانه أيضا
- ١٤٤ فصل في شكره
- ١٤٥ فصل في صفة الجند
- ما كتبه جعفر بن محمد الأشمت الى زجل لم يكتبه — ما كتبه الفضل بن يحيى الى رجل
١٤٦ يشاوره في أمر حدث — ما كتبه أحمد بن يوسف الى اسحاق بن ابراهيم الموصلي — توسل
ما كتبه طاهر بن الحسين الى الفضل بن سهل — ما كتبه محمد بن الجهم — ما كتبه
١٤٧ محمد بن مسعر — ما كتبه ابن وهب في الاعتذار

التحامييد :

- ١٤٨ التحميد الأول — التحميد الثاني
صدر تحميد مفرد — صدر تحميد آخر — تحميد مختار لكاتب خزيمة بن حازم في فتح
١٤٩ الصنارية — تحميد لأحمد بن يوسف الى الولاية عن الخليفة
تحميد لابراهيم بن العباس في فتح اسماعيل بن اسحاق — التحميد الثاني — تحميد له مبتدأ
١٥٠ مقام بين يدي الخليفة
١٥١ تحميد ثان — تحميد ثالث
١٥٣ تحميد في فتح لابن العباس
وله في فتح ابن البغيث لما صفر به
١٥٣ وله صدر كتاب الخميس في تحميد الله وتحميد
١٥٤ تحميد لأحمد بن يوسف في صدر رسالة الخميس التي كانت تقرأ بخراسان
١٥٥ تحميد للعباس في مقام له بين يدي الأمامون — تحميد لعبد الحميد في أبي العلاء الخروزي
١٥٦ تحميد في فتح الى أمير لقمامة — صدر تحميد لسان بن عبد الحميد في حصة موجهة — تحميد
١٥٧ لعبد الحميد في فتح
١٥٨ تحميد ثالث
١٥٩ تحميد لأنس بن أبي شيخ — تحميد لعبد الحميد في فتح يعصر فيه أمر الاسلام
١٦٠ تحميد لعبد الحميد أيضا
١٦١ تحميد لقمامة — تحميد لزيد بن علي — تحميد في الاسلام
١٦٢ تحميد لأبي عبيد الله
١٦٣ صدر رسالة في الخميس لابراهيم بن المهدي
١٦٤ تحميد في الاسلام وما امتن به على أهله
١٦٥ تحميد في الجهاد وما بعث به النبي صلى الله عليه وسلم

صفحة	
١٦٨	تحميد في فتح لسعيد بن حميد
١٦٩	تحميد لابن المقفع .
١٧١	تحميد لفسان بن عبد الحيد — تحميد لأحمد بن يوسف في فتح السند... ..
١٧٢	تحميد لأبي عبيد الله — تحميد لسعيد بن حميد... ..
١٧٣	فيا يقترظ به الخليفة
١٧٧	تحميد لأبي عبيد الله
١٨٠	ما يكتب به في الخالفين وقت الهزيمة
١٨١	ما يكتب به في صفة الخالفين
١٨٤	ما يكتب به في العصة — ما يكتب به في مدح قواد الجيوش وصفة الأولياء في أحوالهم ...
١٨٧	وصف الأولياء في الكتب
١٨٨	ما يقترظ به أمير المؤمنين في أواخر الكتب — سعيد بن حميد

التحاميد في أواخر الكتب :

١٨٨	تحميد لسعيد بن نصر — تحميد لابراهيم بن العباس — تحميد لأبي عبيد الله
١٩٢	الدهاء لأمر المؤمنين في أواخر الكتب

مختار ما كتب من باب التهانى في كل فن :

	تهنئة خليفة بظفر — ما كتبه ابراهيم بن المهدي الى المنتمص بهته بخروجه عن أرض الروم
١٩٣	بعد فتح عمورية
١٩٤	ما كتبه أحمد بن يوسف الى عبد الله بن طاهر بهته بظفر — تهنئة خليفة ببحج ...
١٩٥	تهنئة بولاية — تهنئة لسعيد بن حميد الى بعض اخوانه... ..
١٩٧	ما كتبه محمد بن مكرم الى أحمد بن دينار
١٩٨	تهنئة بعزل عامل عن عمله
١٩٩	ما كتبه محمد بن مكرم الى ابراهيم بن المدبر
٢٠٠	تهنئة بزواج وبناء بأهل
٢٠١	تهنئة بمولود كتبها العباس بن الحسن الطالبى الى المأمون... ..
٢٠٤	ما كتبه ابن المقفع الى صديق له ولدت له جارية
٢٠٥	تهنئة لمحمد بن مكرم الى نصرانى أسلم

باب المنظوم :

٢٠٦	أبونواس
٢٤٩	العنانى

فهرس المجلد الثالث

(ز)

صفحة	
٢٥٥	دعبل
٢٦٥	حسین بن الضحاک
٢٧٨	محمد بن عبد الملك الزيات
٢٨٣	ابن البواب
٢٨٦	الخریعی
٢٩٥	عبد الله بن طاهر
٢٩٨	ما قبل فی هجاء الأملین وراثته
٣٠٣	هجاء یحیی بن أکثم
٣٠٥	وصف ثورة بغداد وحرقها

مُلْحَقٌ

الكتاب الثالث

باب المنشور

(١) نصوص كتب الأمين والمأمون

١ - نص كتاب الأمين الى المأمون؛ وهو الكتاب الذى أشرنا اليه فى الجزء الأول .
إذا ورد عليك كتاب أخيك - أعاده الله من فقدك - عند حلول ما لا مرد له
ولا مدفع، مما قد أخلف وتناخخ الأمم الخالية، والقرون الماضية، بما عزاك الله به .
وَأَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ جَلَّ شَأْؤُهُ ، قَدْ اخْتَارَ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَفْضَلَ الدَّارِينَ ، وَأَجْرَلَ الحَظِينَ ،
فَقَبَضَهُ اللَّهُ طَاهِرًا زَاكِيًا ، قَدْ شَكَرَ سِعِيَهُ ، وَغَفَرَ ذَنْبَهُ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ . فَنَقُمْ فِي أَمْرِكَ قِيَامَ
ذِي الحِزْمِ وَالْعِزْمِ ، وَالنَّاطِرِ لِأَخِيهِ وَنَفْسِهِ ، وَسُلْطَانِهِ وَعَامَةِ الْمُسْلِمِينَ . وَإِيَّاكَ أَنْ يَغْلِبَ
عَلَيْكَ الحِزْمُ ، فَإِنَّهُ يُحِيطُ الأَجْرَ ، وَيُعِيقُ الوِزْرَ ؛ وَصَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ حَيًّا وَمَيِّتًا .
وَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ . وَخُذِ البَيْعَةَ عَلَى مَنْ قَبْلَكَ ، فَمَنْ قَوَادِكَ وَجُنْدِكَ ، وَخَصَّتِكَ
وَعَامَتِكَ ، لِأَخِيكَ ثُمَّ لِنَفْسِكَ ، ثُمَّ لِلْقَاسِمِ ابْنِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، عَلَى الشَّرِيطَةِ الَّتِي جَعَلَهَا لَكَ
أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ : مِنْ نَسَخِهَا لَهُ وَإِبْطَاتِهَا ، فَإِنَّكَ مُقَلَّدٌ مِنْ ذَلِكَ ، مَا قَدَدَكَ اللَّهُ وَخَلِيفَتُهُ .

واعلم من قبلك رأيت فى صلاحهم ، وسد حجتهم ، والتوسعة عليهم ؛ فمن أنكركه عند
بيعته ، أو أتهمته على طاعته ، فابعث الى برأسه مع خبره . وإياك وإفأته ، فإن النار أولى

به . وأُكْتُبُ الى عمال تُغورك، وأُصْرَأِ أجنادك، بما طَرَقَكَ من المصيبة بأمر المؤمنين ؛ وأَعْلِيهِمْ أَنَّ الله لم يَرْضِ الدنْيَا له ثوابا ، حتى قبضه الى رُوحِه وراحته وجتته ، مَبْطُوطا محمودا، قائدا لجميع خلفائه إلى الجنة إن شاء الله . ومُرَّهم أَنْ يأخذوا البيعةَ على أجنادهم ، وخواصهم وعوامهم ، على مثل ما أمرتك به ، مِنْ أَخْذِهَا على مَنْ قَبْلَكَ ؛ وأوعز إليهم في ضبط نُفُوسِهِمْ ، والقُوَّةِ على عدوِّهم . أتى متفقَدًا حالاتهم ، ولأَمْ شَعَثَهُمْ ، ومُوَسَّعَ عليهم ، ولأنَّ في تقوية أجنادى وأنصارى . ولتكنْ كُتُبُكَ اليهم كُتُبًا عامَّةً لِنَقْرَأَ عليهم ، فإنَّ ذلك ما يسكنهم ، ويسبِّطُ أَمَلَهُمْ . وأعمل بما نَأْمُرُ به لمنْ حضرك ، أو نَأَى عنك من أجنادك على ب ما ترى ونَسَاه . فإنْ أخاك يعرف حَسَنَ آخِتَارِكَ ، وصحَّةَ رأيك ، وبعْدَ نظرك ، وهو يستحفظ الله لك ، ويسأله أن يَسُدَّ بِكَ عضده ، ويجمع بك أمره ، إنه لطيف لما يَسَاء . وكتب بكرين المُعْتَمِرِينَ يدي وإملائي في شوال سنة ١٩٢ هـ

٢ — وهذا كتاب محمد الأمين الى أخيه صالح .

بسم الله الرحمن الرحيم

إذا ورد عليك كتابي هذا . عند وقوع ما قد سبق في علم الله ، ونقذ من قضائه ، في خُلفائه وأولِيائِهِ ، وجرت به سنته في الأنبياء والمرسلين ، والملائكة المقربين ، فقال : كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ أُوْحَاكُمُ وَيَلِيهِ رُجْعُونَ . فأحمدوا الله على ما صار إليه أمير المؤمنين ، من عظيم ثوابه ومُرَافقة أنبيائه ، صلوات الله عليهم ، إننا إليه راجعون ؛ وإياد نسال أن يُحْسِنَ الخِلافةَ على أمة نبيسه محمد صلى الله عليه وسلم . وقد كان لهم عَصْمَةٌ وكهفا ، وبهم رءوفا رحيا .

فشمز في أمرك . وإيالك أن تُلقِي بيديك ، فإن أخاك قد آخرتك لما آستهنضك له . وهو مُتفقَدُ مواضع فقدانك . فحقق ظنسه ، ونسال الله التوفيق . وخذ البيعة على مَنْ قَبْلَكَ ، من ولد أمير المؤمنين . وأحل بيته ومواليه وخاصته وعامته لحمد أهير المؤمنين ، ثم لعبد الله ابن أمير المؤمنين . ثم للقاسم ابن أمير المؤمنين ، على الشريطة التي جعلها

أمير المؤمنين - صلوات الله عليه - من فسخها على القاسم أو إثباتها . فإن السعادة وأمين في الأخذ بمهده والمضي على مناهجه .

وأعلم من قبلك من الخاصة والعامة رأيت في استصلاحهم ، ورد مظالمهم ، وتفقد حالاتهم ، وأداء أرزاقهم ، وأعطياتهم عليهم . فإن شغب شاغب . أو نعر ناعرا . فأسط به سطوة تجعله نكالا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للتين . وأضمت إلى الميمون ابن الميمون الفضل بن الربيع ولد أمير المؤمنين وخدمه وأهله . ومُره بالمسير معهم فيمن معه ، وجنده ورباطته ؛ وصير إلى عبد الله بن مالك أمر العسكر وأحداثه ، فإنه ثقة على ما يلي . مقبول عند العامة ؛ وأضمت إليه جميع جند الشرط ، من الروابط وغيرهم ، إلى من معه من جنده ؛ ومُره بالحد واليقظ ، وتقديم الخرم في أسره كله . ليأه ونهازه .

فإن أهل العداوة والتفاق لهذا السلطان يقتنمون مثل حلول هذه المصيبة ؛ وأقر حاتم بن هرثمة على ما هو عليه ، ومُره بحراسة ما يحفظ به قصور أمير المؤمنين ، فإنه من لا يُعرف إلا بالطاعة ، ولا يدين إلا بها . بمعاقد من الله . مما قدم له من حال أبيه المحمود عند الخلفاء ؛ ومُره الخدم بإحضار روابطهم ، من يُسند بهم وبأجنادهم مواضع الخلل من عسكرك ، فإتهم حد من حدودك ؛ وصير مقدمتك إلى أسد بن يزيد بن مزيد ، وسأقتك إلى يحيى بن معاذ . فيمن معه من الجنود . ومرهما بمنابتك في كل ليلة .

وألزم الطريق الأعظم . ولا تعدون المراحل . فإن ذلك أرفق بك ؛ ومر أسد بن يزيد ، أن يختار رجلا من أهل بيته أو قواده ، فيصير إلى مقدمته ، ثم يصير أمامه ، تهيئة المنازل ، أو بعض الطريق ؛ فإن لم يحضرك في عسكرك بعض من سميت . فاختر لمواضعهم من تثق بطاعته ، ونصيحته وهيبته . عند العوام ؛ فإن ذلك لن يعوزك . من قوادك وأنصارك ، إن شاء الله .

وإياك أن تُفد رأيا ، أو تُبرم أمرا ، إلا برأي شيخك ، وبقية آبائك . الفضل بن الربيع ، وأقرر جميع الخدم على ما في أيديهم من الأموال والسلاح والخزائن وغير ذلك ؛

ولا تُخْرِجَنَّ أَحَدًا مِنْهُمْ ، مِنْ ضَمْنِ مَا بِي ، إِلَى أَنْ تَقْدَمَ عَلَيَّ . وَقَدْ أَوْصَيْتُ بِكَرْبِنِ الْمُعْتَمِرِ
بِمَا سَيُلْفَنُكَ ؛ وَأَعْمَلُ فِي ذَلِكَ بِقَدْرِ مَا تَشَاهِدُ وَتَرَى . وَإِنْ أَمَرْتُ لِأَهْلِ الْعَسْكَرِ بِعَطَاءٍ
أَوْ رِزْقٍ فَلْيَكُنِ الْفَضْلُ بِنِ الرَّبِيعِ الْمُتَوَلَّى لِإِعْطَائِهِمْ ، عَلَى دَوَاوِينَ يَتَّخِذُهَا لِنَفْسِهِ ، بِمَحْضَرٍ
مِنْ أَصْحَابِ الدَّوَاوِينَ ؛ فَإِنَّ الْفَضْلَ بِنِ الرَّبِيعِ لَمْ يَزَلْ مِثْلَ ذَلِكَ لِمَهْمَاتِ الْأُمُورِ . وَأَنْفِذْ
إِلَيَّ عِنْدَ وَصُولِ كِتَابِي هَذَا إِلَيْكَ إِسْمَاعِيلَ بْنَ صَبِيحٍ ، وَبَكْرَ بْنَ الْمُعْتَمِرِ ، عَلَى مَرَكَبَيْهِمَا
مِنَ الْبَرِيدِ ؛ وَلَا يَكُونُ لَكَ عُرْجَةٌ وَلَا مُهْلَةٌ ، بِمَوْضِعِكَ الَّذِي أَنْتَ فِيهِ ، حَتَّى تُوجَّهَ إِلَى
بِعَسْكَرِكَ بِمَا فِيهِ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْخِزَائِنِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ . أَخُوكَ يَسْتَدْفِعُ اللَّهُ عَنْكَ ، وَيَسْأَلُهُ لَكَ
حَسَنَ التَّأْيِيدِ بِرَحْمَتِهِ . وَكُتِبَ بِكَرْبِنِ الْمُعْتَمِرِيِّينَ يَدِيَّ وَإِمْلَأْنِي فِي شَوَّالِ سَنَةِ ١٩٢ هـ .

(ب) القول بخلق القرآن

وهاك مثلاً مما كتبه المأمون إلى ولاته في الأخذ بمذهبه في القول بخلق القرآن، وهو ما أرسله إلى عالمه إسماعيل بن إبراهيم وما يرويه لنا الطبري مما حصل .
أما الكتاب فهو :

أما بعد، فإن حق الله على أئمة المسلمين وحُفَافِهِم الاجتهادُ في إقامة دين الله الذي استَحفظَهُم، وموارِيثُ النبوة التي أورشَهُم، وأَثَرِ العِلْمِ الذي استودَعَهُم، والعمل بالحق في رعيتهم، والتشمير لطاعة الله فيهم؛ والله يسأل أمير المؤمنين، أن يوقفه لعزيمة الرشد وصريته، والإقساط فيما ولّاه الله من رعيتِهِ، وبرحمته وميته؛ وقد عرّف أمير المؤمنين أن الجمهور الأعظم، والسواد الأكبر، من حشو الرعية، وسفلة العاقبة، ممن لا نظر له ولا روية، ولا استدلال له بدلالة الله وهدايته، ولا استضاءة بنور العلم وبرهانه، في جميع الأقطار والآفاق، أهل جهالة بالله وعمى عنه، وضلالة عن حقيقة دينه وتوحيده، والإيمان به، ونكوي عن واضحاته وأعلامه وواجب سبيله، وقصور أن يقدرُوا الله حق قدره، ويعرفوه كُنْه معرفته، ويفتقروا بينه وبين خلقه، لضعف آرائهم، ونقص عقولهم، وجفائهم عن التفكير والتذكر؛ وذلك أنهم ساووا :

القرآن، فأطبقوا مجتمعين، وآتفقوا غير متعاجمين، على أنه قديم أول، لم يخلقه الله . ويحدثه ويختصره، وقد قال الله عز وجل في مُحْكَمِ كِتَابِهِ، الذي جعله لنا في الصدور شفءاً، وللمؤمنين رحمةً وهدى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ۗ . فكل ما جعله الله فقد خلقه، وقال : بِرَحْمَةِ اللَّهِ الَّتِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ . وقال عز وجل : ﴿ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ . فأن خبر أنه قصصُ لأُمُورٍ أحدثه بعدها . وتلا به مُتَقَدِّمَهَا، وقال : ﴿ الرِّكَاتُ أَحْكَمُ آيَاتِهِ ثُمَّ فَصَّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ . وكل مُحْكَمٌ مُفَصَّلٌ، فله مُحْكَمٌ مُفَصَّلٌ، والله مُحْكَمٌ كِتَابُهُ وَمُفَصَّلُهُ، فهو حَالِقُهُ وَمُبْتَدِعُهُ،

ثم هم الذين جادلوا بالباطل، فدعوا إلى قولهم، ونسبوا أنفسهم إلى السنة، وفي كل فصل من كتاب الله قصص من تلاوته، مبطل قولهم، ومكذب دعواهم، يرد عليهم قولهم ويختمهم، ثم أظهروا مع ذلك أنهم أهل الحق والدين والجماعة، وأن من سواهم أهل الباطل والكفر والفرقة، فاستطالوا بذلك على الناس، وغرروا به الجهال، حتى مال قوم من أهل السمات الكاذب، والتخشع لغير الله، والتقصف لغير الدين إلى موافقتهم عليه، ومواطنهم على سيء آرائهم، تزيئاً بذلك عندهم، وتصنعاً للرياسة والعدالة فيهم، فتركوا الحق إلى باطلهم، واتخذوا دون الله وليجة إلى ضلالتهم، فقيلت بتركيتهم لهم شهادتهم، ونفذت أحكام الكتاب بهم، على دغل دينهم، ونغل أديمهم، وفساد نياتهم ويقينهم؛ وكان ذلك غايتهم التي إليها جروا، وإياها طلبوا في متابعتهم، والكذب على مولاهم، وقد أخذ عليهم ميثاق الكتاب، ألا يقولوا على الله إلا الحق، ودرسوا ما فيه، أولئك الذين أصمهم الله، وأعمى أبصارهم، ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ، أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾. فرأى أمير المؤمنين أن أولئك شر الأمة، ورعوس الضلالة، المنقوصون من التوحيد حظاً، والمخسوسون من الإيمان نصيباً، وأوعية الجهالة وأعلام الكذب، ولسان إبليس الناطق في أوليائه، والهائل على أعدائه، من أهل دين الله، وأحق من يئتم في صدقه، وتطرح شهادته، ولا يوثق بقوله ولا عمله، فإنه لا عمل إلا بعد يقين، ولا يقين إلا بعد استكمال حقيقة الإسلام، وإخلاص التوحيد؛ ومن عمى عن رشده وحظه، من أهل الإيمان بالله وبتوحيده، كان عمى سوى ذلك من عمله، والقصد في شهادته. أعمى وأضل سبيلاً، ولعمراً أمير المؤمنين أن أجمي الناس بالكذب في قوله، وتخرص الباطل في شهادته من كذب على ووحيه، ولم يعرف الله حقيقة معرفته، وأن أولاهم برد شهادته، في حكم الله ودينه من رد شهادة الله على كتابه، وبهت حق الله بباطله، فاجمع من بحضرتك من القضاة، واقرا عليهم كتاب أمير المؤمنين هذا إليك، فابدأ بامتحانهم فيما يقولون، وتكشيفهم عما يعتقدون، في خلق الله القرآن وإحداثيه، وأعلمهم أن أمير المؤمنين غير مستعين في عمله، ولا واثق

ملحق الكتاب الثالث

فيا قلده الله، وأستحفظه من أمور رعيته بمن لا يوثق بدينه، وخلوصه .
 فإذا أقرّوا بذلك، ووافقوا أمير المؤمنين فيه . وكانوا على سبيل الهدى والنجاة، فُرِّمَ بِنَصِّ
 مَنْ يَحْضُرُهُمْ مِنَ الشُّهُودِ عَلَى النَّاسِ . وَمَسْأَلَتُهُمْ عَنِ الْقُرْآنِ . وَتَرَكَ إِثْبَاتَ شَهَادَةِ
 مَنْ لَمْ يُقَرِّأْهُ مَخْلُوقٌ مُخَدَّثٌ وَلَمْ يَرَهُ، وَالامْتِنَاعَ مِنْ تَوْعِيقِهَا عِنْدَهُ، وَأَكْتَبَ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ
 بِمَا يَأْتِيكَ، عَنْ قُضَاةِ أَهْلِ عَمَلِكَ فِي مَسْأَلَتِهِمْ، وَالْأَمْرَ لَهُمْ بِمِثْلِ ذَلِكَ، ثُمَّ أَشْرَفَ عَلَيْهِمْ،
 وَتَفَقَّدَ آثَارَهُمْ، حَتَّى لَا تُتَّفَقَ أَحْكَامُ اللَّهِ . إِلَّا بِشَهَادَةِ أَهْلِ الْبَصَائِرِ فِي الدِّينِ . وَالْإِحْلَاصِ
 لِلتَّوْحِيدِ؛ وَأَكْتَبَ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا يَكُونُ فِي ذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ . وَكُتِبَ فِي شَهْرِ
 رَجَبِ الْأَوَّلِ سَنَةِ ٢١٨ هـ .

وكتب المأمون، الى إسحاق بن إبراهيم، في إشخاص سبعة نفر، منهم : محمد بن سعد
 كاتب الواقدي، وأبو مسلم مستمل ي زيد بن هارون، ويحيى بن معين . وزهير بن حرب
 أبو خيثمة، وإسماعيل بن داود، وإسماعيل بن أبي مسعود، وأحمد بن الذؤوق .
 فَأَشْخَصُوا إِلَيْهِ، فَامْتَحَنَهُمْ . وَسَأَلَهُمْ عَنِ خَلْقِ الْقُرْآنِ . فَأَجَابُوا جَمِيعًا أَنَّ الْقُرْآنَ مَخْلُوقٌ .
 فَأَشْخَصَهُمْ إِلَى مَدِينَةِ السَّلَامِ . وَأَحْضَرَهُمْ إِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ دَارَهُ . فَشَهَّرَ أَمْرَهُمْ وَقَوْلَهُمْ
 بِحَضْرَةِ الْفُقَهَاءِ، وَالْمَشَائِخِ مِنْ أَهْلِ الْحَدِيثِ . فَأَقْرَأُوا بِمِثْلِ مَا أَجَابُوا بِهِ الْمَأْمُونُ نَحْلَى سَبِيلِهِمْ .
 وَكَانَ مَا فَعَلَ إِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ مِنْ ذَلِكَ بِأَمْرِ الْمَأْمُونِ .

وكتب المأمون بعد ذلك إلى إسحاق بن إبراهيم :

أما بعد، فإن من حق الله على خُلَفَائِهِ فِي أَرْضِهِ . وَأَمَانَتُهُ عَلَى عِبَادِهِ، الَّذِينَ أَرْتَضَاهُمْ
 لِإِقَامَةِ دِينِهِ، وَحَمَلِهِمْ رِعَايَةَ خَلْقِهِ، وَإِمَاضَاءَ حُكْمِهِ وَسُنَنِهِ . وَالْإِتِّمَامَ بِعَدْلِهِ فِي بَرِيَّتِهِ . أَنْ
 يَجْهَدُوا لِلَّهِ أَنْفُسَهُمْ . وَيَنْصَحُوا لَهُ فِيمَا أَسْتَحْفَظُهُمْ وَقَادَهُمْ . وَيَدُلُّوا عَلَيْهِ — تَبَارَكَ اسْمُهُ
 وَتَعَالَى — بِفَضْلِ الْعِلْمِ الَّذِي أَوْدَعَهُمْ . وَالْمَعْرِفَةِ الَّتِي جَعَلَهَا فِيهِمْ، وَيَهْدُوا إِلَيْهِ مَنْ زَاغَ
 عَنْهُ . وَيُرِدُّوا مَنْ أَدْبَرَ عَنْ أَمْرِهِ . وَيَنْهَجُوا رِعَايَاهُمْ سَمْتِ نَجَاتِهِمْ . وَيَقْفُوهُمْ عَلَى حُدُودِ
 إِيمَانِهِمْ . وَسَبِيلِ فُوزِهِمْ وَعَصَمَتِهِمْ . وَيَكْشِفُوا عَنْهُمْ مِنْ بَعْضِ غَطِّيَاتِ أُمُورِهِمْ . وَمُسْتَهْبَاتِهَا

عليهم ، بما يدفعون الريب عنهم ، ويعودُّ بالضياء والبينة على كآفتهم ؛ وأنَّ يؤثروا ذلك من إرشادهم وتبصيرهم ، إذ كان جامعا لفنون مصانعهم ، ومتظما لحظوظ عاجلتهم وآجلتهم ، ويتذكروا أنَّ الله مُرصدٌ من مساءلتهم عما حُمِّلوه ، ومجازاتهم بما أسلفوه ، وقدموا عنده ؛ وما توفيقُ أمير المؤمنين ، إلا بالله وحده ، وحسبه الله وكفى به . ومما بينه أمير المؤمنين برويته ، وطالعه بفكره ، فتبين عظيم خطره ، وجليل ما يرجع في الدين من وكفه وضرره ما ينال المسلمون بينهم من القول في القرآن الذي جعله الله إماما لهم ، وأثرا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصفيه محمد صلى الله عليه وسلم باقيا لهم ، وأشتباهه على كثير منهم ، حتى حسُن عندهم . وتزين في عقولهم . ألا يكون مخلوقا ، فتعرضوا بذلك لدفع خلق الله ، الذي بان به عن خلقه ، وتفرّد بجلالته من ابتداع الأشياء كلها بحكمته ، وإنشائها بقدرته ، والتقدم عليها بأوليته . التي لا يُبلغ أولاهها ، ولا يدرك مداها ، وكان كلُّ شيء دونَه ، خلقا من خلقه ، وحدثا هو المُحدث له ، وإن كان القرآن ناطقا به ، ودالا عليه ، وقاطعا للاختلاف فيه ، وضاهوا به قول النصارى ، في ادّعاتهم في عيسى بن مريم أنه ليس بمخلوق ، إذ كان كلمة الله ، والله عز وجل يقول : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ . وتأويل ذلك : إنا خلقناه . كما قال جل جلاله : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ . وقال : ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴾ . ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا ﴾ . فسوى عز وجل ، بين القرآن ، وبين هذه الخلائق . التي ذكرها في شية الصنعة ، وأخبر أنه جاعله وحده ، فقال : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴾ . فقال ذلك على إحاطة اللوح بالقرآن ، ولا يحاط إلا بمخلوق ، وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ . وقال : ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ ﴾ . وقال : ﴿ قَنَ أَظْلَمُ مِمَّنْ أَقْرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ﴾ . وأخبر عن قوم ذمهم بكذبهم ، أنهم قالوا : ﴿ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشِيرٍ مِنْ شَيْءٍ ﴾ . ثم أكذبهم على لسان رسوله ، فقال لرسوله : ﴿ رُقُلٌ مِنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى ﴾ . فسمى الله تعالى القرآن قرآنا وذكرا ، وإماما ونورا وهدي ومباركا وعربيا

وقصصا، فقال : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ ﴾ .
 وقال : ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْحِجْنُ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ﴾ .
 وقال : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ ﴾ . وقال : ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ
 وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ﴾ . فجعل له أوْلا وآخرا ، ودل عليه . أنه محدود مخلوق ، وقد عظم هؤلاء
 الجهلة بقولهم في القرآن ، الثلم في دينهم ، والخرج في أمانتهم ، وسهلوا السبيل لعدو
 الإسلام ، وأترفوا بالتبديل والإلحاد على قلوبهم حتى عرفوا ، ووصفوا خلق الله وفعله
 بالصفة التي هي لله وحده وشبهوه به ، والإشباع أولى بخلقه . وليس يرى أمير المؤمنين .
 لمن قال بهذه المقالة حظا في الدين . ولا نصيبا من الإيمان واليقين . ولا يرى أن يُجَلَّ
 أحدا منهم محل الثقة في أمانة ولا عدالة ولا شهادة . ولا صديق في قول ولا حكاية . ولا تولية
 لشيء من أمر الرعية ؛ وإن ظهر قصد بعضهم . وعرف بالسداد هُتدُ فيهم . فإن الفروع
 مردودة الى أصولها ، ومحمولة في الحمد والذم عليها . ومن كان جاهلا بأمر دينه ، الذي
 أمره الله به ، من وحدانيته ، فهو بما سواه أعظم جهلا . وعن الرشد في غيره أعمى وأضل
 سبيلا .

فأقرأ على جعفر بن عيسى وعمد الرحمن بن إسحاق القاضي كتاب أمير المؤمنين . بما
 كتب به إليك ، وانصصهما عن علمهما في القرآن . وأعلمهما أن أمير المؤمنين لا يستعين
 على شيء من أمور المسلمين ، إلا بمن وثق بإخلاصه وتوحيده . وأنه لا توحيد لمن لم يُقتر
 بأن القرآن مخلوق ، فإن قالوا بقول أمير المؤمنين في ذلك فتقدم اليهما في امتحان من يحضر
 مجالسهما ، بالشهادات على الحقوق . ونصهم عن قولهم في القرآن ، فمن لم يقل منهم إنه
 مخلوق ، أبطلا شهادته . ولم يقطعا حكما بقوله . وان ثبت عناقفه بالتصدد والسداد في أمره .
 وأفعل ذلك بمن في سائر عملك من القضاة ، وأشرف عليهم إشرافا يزيد الله به ذا البصيرة
 في بصيرته ، ويمنع المرتاب من إغفال دينه . واكتب إلى أمير المؤمنين بما يكون منك
 في ذلك إن شاء الله .

ثم لننظر ما حصل بعد ذلك مما يرويه لنا الطبري قال :

فأحضر إسحاق بن إبراهيم لذلك جماعة من الفقهاء والحُكَّام والمحدثين ، وأحضر أبا حسان الزبائدي ، وبشر بن الوليد الكندي ، وعلي بن أبي مقاتل ، والفضل بن غانم ، والذبال بن الهيثم ، وسجادة ، والقواريبي ، وأحمد بن حنبل ، وقتيبة ، وسعدويه الواسطي ، وعلي بن الجعد ، وإسحاق بن أبي إسرائيل ، وأبن الهريش ، وأبن عيسى الأكبر ، ويحيى ابن عبد الرحمن العمري ، وشيخا آخر من ولد عمر بن الخطاب ، كان قاضي الرقة وأبا نصر الثمار وأبا معمر القطيعي ، ومحمد بن حاتم بن ميمون ، ومحمد بن نوح المَضروب ، وابن الفرخان ، وجماعة منهم الأنضر بن شميل ، وابن علي بن عاصم ، وأبو العوام البزاز ، وابن شجاع ، وعبد الرحمن بن إسحاق . فأدخلوا جميعا على إسحاق ، فقرأ عليهم كتاب المأمون هذا مرتين . حتى فهموه ، ثم قال لبشر بن الوليد : ما تقول في القرآن؟ فقال : قد عرفت مقاتلي لأمر المؤمنين غير مرة ، قال : فقد تجدد من كتاب أمير المؤمنين ما قد ترى ، فقال : أقول القرآن كلام الله ، قال : لم أسألك عن هذا ، أمخلوق هو؟ قال : الله خالق كل شيء ، قال : ما القرآن شيء؟ قال : هو شيء ، قال : فمخلوق؟ قال : ليس بمخلوق ، قال : ليس أسألك عن هذا ، أمخلوق هو؟ قال : ما أحسن غير ما قلت لك ، وقد استعهدت أمير المؤمنين ألا أتكلّم فيه ، وليس عندي غير ما قلت لك ، فأخذ إسحاق بن إبراهيم رقعة كانت بين يديه ، فقرأها عليه ، ووقفه عليها ، فقال : أشهد أن لا إله إلا الله أحدا فردا لم يكن قبله شيء . ولا بعده شيء . ولا يشبهه شيء من خلقه ، في معنى من المعاني ، ولا وجه من الوجوه ، قال : نعم . وقد كنت أضرب الناس على دون هذا ، فقال للكاتب : أكتب ما قال .

ثم قال لعبد أبي مقاتل : ما تقول يا علي؟ قال : قد سمعت كلامي لأمر المؤمنين في هذا غير مرة ، وما عندي غير ما سمع ، فانهجنه بالرقعة ، فأقر بما فيها . ثم قال : القرآن مخلوق؟ قال : القرآن كلام الله . قال : لم أسألك عن هذا ، قال : هو كلام الله وإن أمرنا أمر المؤمنين بشيء سمعنا وأطعنا . فقال للكاتب : أكتبه .

ملحق الكتاب الثالث

ثم قال للذيال نحواً من مقالته لعلّ بن أبي مقاتل ، فقال له مثل ذلك . ثم قال لأبي حسان الزبدي : ما عندك ؟ قال : سلّ عما شئت ، فقرأ عليه الرقعة . ووقفه عليها فأقرّ بما فيها . ثم قال : من لم يقل هذا القول فهو كافر ، فقال : القرآن مخلوق هو ؟ قال : القرآن كلام الله والله خالق كل شيء ، وما دون الله مخلوق . وأمير المؤمنين إمامنا وبسببه سمعنا عامة العلم ، وقد سمع ما لم نسمع ، وعلم ما لم نعلم ، وقد قلده الله أمرنا . فصار يُقيم حجّتنا وصلاتنا ، وتودّي اليه زكاة أموالنا ، وبجاهد معه . ونرى إمامته إمامة . وإن أمرنا ائتمرنا ، وإن نهانا أنتهينا ، وإن دعانا أجبنا ، قال : القرآن مخلوق هو ؟ فأعد عليه أبو حسان مقالته ، قال : إن هذه مقالة أمير المؤمنين ، قال : قد تكون مقالة أمير المؤمنين ولا يأمر بها الناس ، ولا يدعوهم إليها ، وإن أخبرتني أن أمير المؤمنين أمرك أن أقول قلت ما أمرتني به ، فإنك الثقة المأمون عليه . فيما أبلغتني عنه من شيء . فإن أبلغتني عنه بشيء صرتُ إليه ، قال : ما أمرني أن أبلغك شيئاً ، قال علي بن أبي مقاتل : قد يكون قوله كاختلاف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في الفرائض والمواثيق . ولم يحملوا الناس عليها ؛ قال له أبو حسان : ما عندي إلا السمع والطاعة ، فمرني آتيمر . قال : ما أمرني أن أمرك ، وإنما أمرني أن أمتحنك .

ثم عاد إلى أحمد بن حنبل . فقال له : ما تقول في القرآن ؟ قال : هو كلام الله . قال : مخلوق هو ؟ قال : هو كلام الله لا أزيد عليها . فامتنع بها في الرقعة . فبما أتى نبي (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) وأمسك عن لا يشبهه شيء من خلقه . في معنى من المعاني ، ولا وجه من الوجوه ؛ فاعترض عليه ابن البكاء الأصغر . فقال — أصلحك الله — : إنه يقول : سميع من أذن ، بصير من عين . فقال إسحاق لأحمد بن حنبل : ما معنى قوله سميع بصير ؟ قال : هو كما وصف نفسه ، قال : فما معناه ؟ قال : لا أدري هو كي وصف نفسه ؛ ثم دعا بهم رجلاً رجلاً كلهم يقول : القرآن كلام الله . إلا هؤلاء المفر : قبيبة . يد الله بن محمد بن الحسن ، وابن عليّة الأكبر . وابن البكاء . وعبد الله بن إدريس

ابن بنت وهب بن مَنبّه ، والمُظفر ابن مُرَجّا ، ورجلا ضريرا ليس من أهل الفقه ، ولا يُعرَف بشيء منه إلا أَنَّهُ دُسّ في ذلك الموضوع ، ورجلا من ولد عمر بن الخطاب قاضي الرقة ، وابن الأحمر ، فأما ابن البكاء الأكبر فإنه قال : القرآن مجعول لقول الله تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ ، والقرآن مُحدَّث لقوله : ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٌ ﴾ قال له إسحاق : فالجعول مخلوق؟ قال : نعم ، قال : فالقرآن مخلوق؟ قال : لا أقول مخلوق ولكنه مجعول ، فكتب مقاله ، فلما فرغ من امتحان القوم وكتب مقالاتهم أترض ابن البكاء الأصغر فقال - أصلحك الله - : إن هذين القاضيين أئمة ، فلو أمرتهما فأعادا الكلام ! قال له إسحاق : هما من يقوم بحجة أمير المؤمنين ، قال : فلو أمرتهما أن يُسمعانا مقالاتهما ليحكى ذلك عنهما ! قال له إسحاق : إن شهدت عندهما بشهادة فستعلم مقالاتهما إن شاء الله ، فكتب مقالة القوم رجلا رجلا ووجهت الى المأمون ، فكثت القوم تسعة أيام ثم دعا بهم . وقد ورد كتاب المأمون : جوابُ كتاب إسحاق بن إبراهيم في أمرهم . وهاك هو ما جعله ختاماً لكلماتنا .

بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد ، فقد بلغ أمير المؤمنين كتابك جواب كتابه ، كان اليك فيما ذهب إليه مُتصّعة أهل القبلة ، ومُلتَمِسو الرياسة فيما ليسوا له بأهل من أهل الملة ، من القول في القرآن ، وأمرك به أمير المؤمنين ، من امتحانهم . وتكشيف أحوالهم ، وإحلالهم محالهم . تذكر إحضارك جعفر بن عيسى ، وعبد الرحمن بن إسحاق ، عند ورود كتاب أمير المؤمنين ، مع من أحضرت ممن كان ينسب الى الفقه ، ويُعرَف بالجلوس للحديث ، وينصب نفسه للفتيا بمدينة السلام ، وقراءتك عليهم جميعا كتاب أمير المؤمنين ، ومساأتك إياهم عن اعتقادهم في القرآن ، والدلالة لهم على حظوظهم ، وإطباقتهم على نفي التشبيه ، واختلافهم في القرآن ، وأمرك من لم يقل منهم إنه مخلوق بالإمساك عن الحديث والفتوى ، في السر والعلانية ، وتقدمك الى السندي ، وعباس مولى أمير المؤمنين مما

تقدمت به فيهم الى القاضيين بمثل ما مثل لك أمير المؤمنين، من امتحان من يحضر مجالسهما من الشهود، وبث الكتب الى القضاة في النواحي من عملك بالقدوم عليك، لتحميلهم وتميخهم على ما حده أمير المؤمنين، وتبينتك في آخر الكتاب أسماء من حضر ومقالاتهم، وفهم أمير المؤمنين ما اقتضت، وأمير المؤمنين يمد الله كثيرا كما هو أهله، ويسأله أن يصلي على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم، ويرغب الى الله في التوفيق لطاعته، وحسن المعونة، على صالح نيته برحمته.

وقد تدبر أمير المؤمنين ما كتبت به من أسماء من سألت عن القرآن، وما رجعت اليك فيه كل امرئ منهم، وما شرحت من مقالهم، فأما ما قال المغرور بشر بن الوليد في نفي التشبيه، وما أمسك عنه من أن القرآن مخلوق، وأدعى من تركه الكلام في ذلك وأستعاده أمير المؤمنين، فقد كذب بسرفي ذلك وكفر، وقال الزور والمنكر، ولم يكن بحرئ بين أمير المؤمنين وبينه في ذلك، ولا في غيره، عهد ولا نظر أكثر من إخباره أمير المؤمنين من اعتقاده كلمة الإخلاص والقول بأن القرآن مخلوق، فادع به إليك، وأعلمه ما أعلمك به أمير المؤمنين من ذلك، وانصصه عن قوله في القرآن، واستتبته منه، فإن أمير المؤمنين يرى أن تستيب من قال بمقالته إذ كانت تلك المقالة الكفر الصراح والشرك المحض عند أمير المؤمنين، فإن تاب منها فأشهر أمره، وأمسك عنه، وإن أصر على شركه، ودفع أن يكون القرآن مخلوقا بكيفه وإخاذه، فاضرب عنقه، وأبعث الى أمير المؤمنين برأسه، إن شاء الله، وكذلك إبراهيم بن المهدي فامتحنه بمثل ما تمتحن به بشرا، فإنه كان يقول بقوله، وقد بلغت أمير المؤمنين عنه بالغ، فإن قال إن القرآن مخلوق، فأشهر أمره وأكشفه، وإلا فاضرب عنقه، وأبعث الى أمير المؤمنين برأسه إن شاء الله.

وأما علي بن أبي مقاتل فقتل له: أئست القائل لأمر المؤمنين إنك تحال وتحوم والمكلم له بمثل ما كآته به، مما لم يذهب عنه ذكره، وأما الذبالب بن لهيثم، فأعلمه أنه كان في الطعام الذي كان يسرقه في الأنبار، وفيما يستوفى عليه من أمر مدينة أمير المؤمنين

أبي العباس ما يشغله ، وأنه لو كان مقتفياً آثار سلفه ، وسالكا مناهجهم ، ومُتَحَذِياً سبيلهم ، لما خرج إلى الشرك بعد إيمانه ؛ وأما أحمد بن يزيد المعروف بأبي العَوَّام ، وقوله إنه لا يُحَسِّن الجواب في القرآن ، فأعلمه أنه صبيٌّ في عقله ، لا في سنه ، جاهل ، وأنه إن كان لا يُحَسِّن الجواب في القرآن فسيُحَسِّنُه ، إذا أخذه التأديبُ ، ثم إن لم يفعل كان السيف من وراء ذلك إن شاء الله .

وأما أحمد بن حنبل ، وما تكتب عنه ، فأعلمه أن أمير المؤمنين قد عرَّفَ قَوِي تلك المقالة ، وسبيله فيها ، وأستدَلَّ على جهله ، وآفته بها ؛ وأما الفضل بن غانم ، فأعلمه أنه لم يَحْتَفِ على أمير المؤمنين ما كان منه بمصر ، وما آكسب من الأموال في أقلَّ من سنة ، وما شَجَرَ بينه وبين المُطَلِّب بن عبد الله في ذلك ، فإنه من كان شأنه شأنه ، وكانت رغبته في الدينار والدرهم رغبته ، فليس بمُسْتَنَكِر أن يبيع إيمانه طمعا فيهما ، وإيثارا لعاجل نفعهما . وإنه مع ذلك ألقائِلُ لعلِّي بن هشام ما قال ، والمخالفُ له فيما خالفه فيه ، فما الذي حال به عن ذلك ، ونقله الى غيره ؛ وأما الزَّيَادِيّ ، فأعلمه أنه كان مُتَّحِلًا لأقولٍ دعِيَّ كان في الإسلام خُورِافٍ فيه حكمُ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وكان جديرا أن يسلك مسلكه فأنكر أبو حسان أن يكون مولى لزياد ، أو يكون مولى لأحد من الناس ، — وذكَّر أنه إنما نَسِبَ الى زياد لأمر من الأمور — وأما المعروف بأبي نصر التَّمَّار ، فإن أمير المؤمنين شَبَّه خساسةَ عقله بخساسةَ متَّجَرِدٍ ؛ وأما الفضل بن الفرَّخَان ، فأعلمه أنه حاول بالقول الذي قاله في القرآن أخذَ الودائع التي أودعها إِيَّاه عبد الرحمن بن إسحاق وغيره ، تَرَبِّصًا بمن أستودعه . وطمعا في الاستكثار لما صار في يده ، ولا سبيل عليه عن تقادم عهده ، وتطاول الأيام به ، فقل لعبد الرحمن بن إسحاق لاجزلك الله خيرا عن تقويتك مثل هذا ، واثِّمَانِك إِيَّاه ، وهو معتقدٌ للشرك ، منسلخٌ من التوحيد .

وأما محمد بن حاتم ، وابن نوح ، والمعروف بأبي مَعْمَر ، فأعلمهم أنهم مشاغلٌ بأكل الرِّبَا ، عن الوقوف على التوحيد ، وأن أمير المؤمنين لو لم يستحلَّ محاربتهم في الله ومجاهدتهم ،

إلا لإربابهم ، وما نزل به كتاب الله في أمثالهم ، لأستحل ذلك ، فكيف بهم وقد جمعوا مع الإرباء شركاء ، وصاروا للنصارى مثلاً ، وأما أحمد بن حنبل ، فأعلمه أنك صاحبُه بالأمس ، والمستخرج منه ما أستخرجته من المال الذي كان أستحله من مال علي بن هشام ، وأنه ممن الدينار والدرهم دينه ؛ وأما سعدويه الواسطي فقل له : قبح الله رجلاً بلغ به التصنع للحديث ، والترين به ، والحرص على طلب الرياسة فيه ، أن يمتي وقت المحنة فيقول بالتقرب بها : متى يمتحن فيجلس للحديث ؛ وأما المعروف بسجادة . وإنكاره أن يكون سمع ممن كان يجالس من أهل الحديث ، وأهل الفقه ، القول بأن القرآن مخلوق . فأعلمه أنه في شغله بإعداد النوى . وحكته لإصلاح سجدته ، وبالودائع التي دفعها إليه علي بن يحيى وغيره ما أذهله عن التوحيد وألهاه ، ثم سلّه عما كان يوسف بن أبي يوسف . ومحمد بن الحسن . يقولانه إن كان شاهدهما وجالسهما . وأما القواريري ففما تكشف من أحواله ، وقبوه الرشا والمصانعات ما أبان عن مذهبه . وسوء ضريقته . وسخافة عقله ودينه ، وقد انتهى إلى أمير المؤمنين أنه يتوقى لجعفر بن عيسى الحسنى مسأله . فتقدم إلى جعفر بن عيسى في رفضه ، وترك الثقة به ، والاستئمانه إليه .

وأما يحيى بن عبد الرحمن العمري . فإن كان من ولد عمر بن الخطاب بجوابه معروف ؛ وأما محمد بن الحسن بن علي بن عاصم فإنه لو كان مقتدياً بمن مضى من سابقه لم ينتحل النحلة التي حكيت عنه ، وإنه بعد صبي يحتاج إلى تعلم . وقد كان أمير المؤمنين وجه إليك المعروف بأبي مسهر . بعد أن نصه أمير المؤمنين عن محنته في القرآن . فحجم عنها ، وبتلج فيها . حتى دعا له أمير المؤمنين بأنسيف ، فأقر ذمياً . فانصصه عن إقراره . فإن كان مقياً عليه فثمهر ذلك وأظهره إن شاء الله . ومن لم يرجع عن شركه ممن سميت لأمير المؤمنين في كتابك . وذكره أمير المؤمنين . أو أمسك عن ذكره في كتابه هذا . ولم يقل إن القرآن مخلوق . بعد بشر بن الوليد . وببراهيم بن لبيد . فأحلبهم أجمعين ، مؤتمنين

الى عسكر أمير المؤمنين مع من يقوم بحفظهم ، وحراستهم في طريقهم ، حتى يؤتوهم الى عسكر أمير المؤمنين ، ويسأهم الى من يؤمر بتسليمهم اليه ، لينصهم أمير المؤمنين ، فإن لم يرجعوا ويتوبوا حملهم جميعا على السيف إن شاء الله ، ولا قوة إلا بالله ؛ وقد أنفذ أمير المؤمنين كتابه هذا في خريطة بُندارية ، ولم ينظر به أجتاع الكتب الخرائطية مُعجلا به ، تقربا الى الله عز وجل بما أصدر من الحكم ، ورجاء ما أعتمد ، وإدراك ما أمل ، من جزيل ثواب الله عليه ، فأنفذ لما أتاك من أمر أمير المؤمنين ، وعجل إجابة أمير المؤمنين بما يكون منك في خريطة بُندارية مفردة عن سائر الخرائط ، لتعرف أمير المؤمنين ما يعملونه إن شاء الله . وكتب سنة ٢١٨ هـ .

(ج) عهد طاهر بن الحسين

قال ابن طيفور: ولما عهد طاهر بن الحسين الى عبدالله ابنه هذا العهد، تنازعه الناس وكتبوه وتدارسوه، وشاع أمره حتى بلغ المأمون، فدعا به وقرئ عليه، وقال: ما أبق أبو الطيب شيئا من الدين والدينا، والتدبير والرأى، وإصلاح المذك والرعية، وحفظ البيعة، وطاعة الخلفاء، وتقويم الخلافة الا وقد أحكمه، وأودى به، وتقدم فيه. وأمر أن يكتب بذلك الى جميع العمال في نواحي الأعمال. ولما كان هذا العهد من الوثائق التاريخية التي لها قيمتها العلمية والأدبية والاجتماعية والسياسية آثرنا ذكره على ما فيه من طول رغبة منا في ألا يخلو كتابنا من هذا الأثر العظيم القيمة والخطر. وهآكاه :

« عليك بتقوى الله وحده لا شريك له. وخشيتته ومراقبته ومزاياة سخطه، وحفظ رعيته، وألزم ما أنسك الله في العافية بالذکر لمعادك، وما أنت صائر إليه، وموقوف عليه. ومسئول عنه، والعمل في ذلك كله بما يعصمك الله ويحيك يوم القيامة من عذابه وأليم عقابه، فإن الله قد أحسن اليك. وأوجب عليك لرافقة بمن استرعك أمرهم من عباده. وألزمك العدل عليهم، والقيام بحقه وحدوده فيهم. ولذب عنهم. والمدفع عن حريمهم ويضتهم، والحقن لدمائهم. والأمن لسبيلهم. وإدخال الراحة عليهم في معاشهم. ومؤاخذك بما فرض عليك من ذنوب، وموقفت عليهم. ومساثلك عنه. ومئيبك عليه بما قدمت وأخرت. ففرغ لذلك فكرك وعقلك وبصرك ورويتك. ولا يذهلك عنه ذهل. ولا يشغلك عنه شغل، فإنه رأس أمرك وملاكك شأنك. وأول ما يوقفك الله به لرشدك، وليكن أول ما تلزم به نفسك وتنسب اليه فعالتك. المواظبة على ما افترض الله عليك من الصلوات الخمس، والجماعة عليهم بالناس قبلت في مراقبتها على منبها في إسباغ الوضوء لها وأفتتاح ذكر الله فيها. وترتل في قراءتك. وتمكن في ركوعك وسجودك وتسببك. وتصدق فيها لربك نيتك. وأحضض عليها جماعة من معك وتحت يدك. وأدأب عليها فيها كج

قال الله تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، ثم أتبع ذلك الأخذ بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم، والمثابرة على خلائقه، واقتفاء آثار السلف الصالح من بعده، وإذا ورد عليك أمر فاستعن عليه باستخارة الله وتقواه، ولزوم ما أنزل الله في كتابه، من أمره ونهيه، وحلاله وحرامه، وإتمام ما جاءت به الآثار عن النبي صلى الله عليه وسلم، ثم قم فيه بما يحق لله عليك، ولا تمل عن العدل فيما أحببت أو كرهت، نهر الناس أو بعيد، وآثر الفقه وأهله، والدين وحمته وكتاب الله والعاملين به، فإن أفضل ما تزين به المرء الفقه في دين الله، وأطلب له والحث عليه، والمعرفة بما يتقرب به إلى الله، فإنه الدليل على الخير كله، والقائده، والأمر به. والنهي عن المعاصي والموبقات كلها، وبها مع توفيق الله تزداد العبادة معرفة بالله، عز وجل، وإجلالا له ودركا للدرجات العلى في المعاد، مع ما في ظهوره للناس من التوفير لأمرك والهيبة لسلطانك، والأئسة بك والثقة بعدك. وعليك بالاعتقاد في الأمور كلها فليس شيء أئين نفعاً ولا أحضر أمناً ولا أجمع فضلاً من القصد، والقصد داعية إلى الرشده، والرشد دليل على التوفيق، والتوفيق منقاد إلى السعادة، وقوام الدين والسنن المسادية بالاعتقاد، فآثره في دنياك كلها، ولا تقصر في طلب الآخرة والأجر والأعمال الصالحة، والسنن المعروفة ومعالم الرشده، فلا غاية للاستكثار من البر والسعي له، إذا كان يطلب به وجه الله ومرضاته، ومرافقة أوليائه، في دار كرامته.

وأعلم أن القصد في شأن الدنيا يورث العز، ويحصن من الذنوب وأنت لن تحوط نفسك ومن يليك. ولا تستصليح أمورك، بأفضل منه، فآته، وأهتد به تم أمورك، وتزد مقدرتك، وتصليح خاصتك وعامتك، وأحسن الظن بالله عز وجل، تستقم لك رعيتك، والتمس الوسيلة إليه في الأمور كلها، تستدم به النعمة عليك، ولا تنهض أحدا من الناس، فيما توليه من عملك، قبل تكشف أمره بالتهمة، فإن إيقاع التهم بالبراء والظنون السيئة بهم مأثم، وأجعل من شأنك، حسن الظن بأصحابك، وأطرد عنك سوء الظن بهم، وأرفضه عنهم، يعنك ذلك على أصطناعهم ورياضتهم، ولا يجدن عدو الله الشيطان في أمرك مغمزاً،

فإنه إنما يكتفى بالقليل من وهنك فيدخل عليك من النعم. في سوء الظن ، ما يُنقص عليك لئلا تذاذ عيشك ، وأعلم أنك تجد بحسن الظن . قوّة وراحة ، وتكفّي به ما أحببت كفايته من أمورك ، وتدعو به الناس الى محبتك ، والاستقامة في الأمور كلها لك . ولا يمنعك حسن الظن بأصحابك ، والرأفة برعيّتك ، أن تستعمل المسئلة والبحث عن أمورك والمباشرة لأمر الأولياء ، والحياطة للرعية ، والنظر فيما يقيمها ويصالحها ، بل لتكن المباشرة لأمر الأولياء ، والحياطة للرعية ، والنظر في حوائجهم ، وحمل مؤناتهم ، آثر عندك مما سوى ذلك . فإنه أقوم للدين ، وأحيا للسنة ، وأخلص نيتك في جميع هذا . وتفرد بتقويم نفسك ، وتفرد من يعلم أنه مسئول عما صنع ، ومجزى بما أحسن ، فإن الله جعل الدين حرجاً وعزاً . ورفع من أتبعه وعزّزه . فاسألك بن تومسه وترعاه ، نبيج الدين ، وطريقة الهدى ، وأقيم حدود الله في أصحاب الجرائم على قدر منازلهم ، وما استحقوه . ولا تُعطل ذلك ولا تهأون به ، ولا تؤخر عقوبة أهل العقوبة ، فإن في تفريطك في ذلك ، لما يُفسد عليك حسن ظنك ، واعزم على أمرك في ذلك بالسنن المعروفة ، وجانب الشبهة والبدعات ، يسلم لك دينك . وتقم لك مروءتك . وإذا عاهدت عياداً فب به ، وإذا وعدت الخير فأنجزه ، وأقبل الحسنة ، وأدفع بها . وأغضض عن عيب كل ذي عيب من رعيّتك . وأشدّد نساك عن قول الكذب والزور ، وأبغض أهله . وأقص أهل النيمة ، فإن أول فساد أمرك في عاجل الأمور وأجلها ، تقريب الكذوب ، والجرائ على الكذب . لأن الكذب رأس الماتم . والزور والنيمة خاتمها . لأن النيمة لا يسلم صاحبها . وقائلها لا يسلم له صاحب ولا يستقيم لمطيعها أمر ، وأحب أهل الصدق والصالح ، وأعن الأشراف بالحق . وواصل الضعفاء ، واصل الرّحم ، وأبتغ بذلك وجه الله . وعزّزه أمره . وآتس فيه ثوابه والدار الآخرة . وجذب سوء الأهواء والبحور ، وأصرف عنها رأيك ، وأظهر من ذلك لرعيّتك . وأنعم بالعدن سياستهم ، وقم بالحق فيهم ، وبالعرفة التي تنهى بنت الى سبيل الهدى ، وأملك نفسك عند الغضب ، وآثر الوقار والحد . وحرية وحدّة ونظيس والغرور فيما أنت بسبيله ، وإياك أن

تقول : إني مُسَلِّطٌ أَفْعَلُ ما أشاءَ فإن ذلك سريعٌ فيك إلى تقصُّ الرأى ، وقلةُ اليقين بالله وحده لا شريك له ، وأخلصُ لله وحده النية فيه ، واليقين به ، وأعلمُ أن الملكَ لله ، يعطيه من يشاء ، ويترعه من يشاء ولن تجدَ تغيرَ النعمة ، وحلولَ البقعة ، إلى أحدٍ أسرعَ منه ، إلى حملةِ النعمة ، من أصحابِ السلطان ، والمبسوطِ لهم في الدولة ، إذا كفروا بنعمِ الله وإحسانه وأستطالوا بما آتاهم الله من فضله ، ودع عنك شره نفسك ، ولتكن ذخائرك وكنوزك التي تَدَّخِرُ وتكثُرُ ، البرَّ والتقوى ، والمعدلة ، وأستصلاحِ الرعية وعمارةِ بلادهم ، والتفقدَ لأموورهم ، والحفظَ لدمائهم ، والإغاثةَ للمهوفهم ، وأعلمُ أن الأموال إذا كثرتُ ودُخِرَت في الخزائن ، لا تُثْمَرُ ، وإذا كانت في إصلاحِ الرعية ، وإعطاءِ حقوقهم ، وكفِّ المؤونة عنهم ، نمت ورتبت ، وصلحت به العامة ، وترينت به الولاة ، وطاب به الزمان ، وأعتقد في العزِّ والمنفعة ، فيلكن كثرَ خزائنتك تفريقِ الأموال في عمارةِ الإسلامِ وأهله ، ووفر منه على أولياءِ أمير المؤمنين قبلك حقوقهم ، وأوفِ رعيّتك من ذلك حصصهم ، وتعهد بما يصلحُ أمورهم ومعايشهم ، فإلك إذا فعلت ذلك قوتِ النعمة عليك ، وأستوجبتَ المزيدَ من الله ، وكنت بذلك على جايةِ نَراجك ، وجمعُ أموالِ رعيّتك وعمالك أقدرك ، وكان الجميعُ لما سئلهم من عدلك وإحسانك أسلسَ نطاعتك . وأضيب نفساً بكل ما أردت . فاجهد نفسك ، فيا حدتُ لك في هذا الباب ، وَتَعَظُمُ حِسْبَتُكَ فِيهِ . فإنما يبقى من المال . ما أنفق في سبيلِ حقهِ ، وأعرِفَ للشاكرين شكرهم . وأثيبهم عليه ، وإيّاك أن تَنسِيكَ الدنيا وغرورها هَوَى الأخرى ، فنتهاونَ بما يحقُّ عليك ، فإن التهاونَ يوجبُ التفريطَ والتفريطُ يورثُ البوارَ ، وليكن عملك لله ، وفيه تبارك وتعالى ، وأرجُ الثواب . فإن الله قد أسبغَ عليك نعمته في الدنيا ، وأظهرَ لديك فضله ، فاعتصمِ بالشكر ، وعليه فاعتمد . يزدك الله خيراً وإحساناً . فإن الله يثيبُ بقدرِ شكرِ الشاكرين وسيرةِ المحسنين ، وقضاءِ الحقِّ فيما حل من النعم . وألبس من العافية والكرامة ، ولا تحتقرن ذنباً ، ولا تمالئ حاسداً . ولا ترحم . فاجرا ، ولا تصبأ كفوراً ، ولا تدهن عدواً ، ولا تصدقَ نكماً ، ولا تأمنَ غداراً . ولا توالينَ فاسقاً ، ولا تبتعنَ غاوباً ، ولا تمدن

مَرَاتِبًا ، وَلَا تَحْقِرَنَّ إِنْسَانًا ، وَلَا تَرُدَّنْ سَائِلًا فَقِيرًا ، وَلَا تَجِبَنَّ بِاطْلَا . وَلَا تَلَا حِظْنَ
مُضْحَكًا ، وَلَا تُخْلِفَنَّ وَعْدًا ، وَلَا تَذْهَبَنَّ نَفْرًا . وَلَا تَظْهَرَنَّ غَضَبًا . وَلَا تَأْتِيَنَّ بِذَخَا ،
وَلَا تَمْسِئَنَّ مَرَحًا . وَلَا تَرْكَبَنَّ سَفَهًا . وَلَا تُفْرِطَنَّ فِي طَلَبِ الْآخِرَةِ ، وَلَا تَدْفَعْ الْأَيَّامَ عِيَانًا ،
وَلَا تُغْمِضَنَّ عَنِ الظَّالِمِ رَهْبَةً مِنْهُ ، أَوْ مَخَافَةً ، وَلَا تَطْلُبَنَّ ثَوَابَ الْآخِرَةِ فِي الدُّنْيَا ، وَأَكْثَرَ
مِشَاوَرَةِ الْفُقَهَاءِ ، وَأَسْتَعْمِلَنَّ نَفْسَكَ بِالْحِلْمِ . وَخُذْ عَنِ أَهْلِ التَّجَارِبِ وَذَوِي الْعَقْلِ وَالرَّأْيِ
وَالْحِكْمَةِ ، وَلَا تُدْخِلَنَّ فِي مَشُورَتِكَ أَهْلَ الدَّقَّةِ وَالْبُحْلِ ، وَلَا تَسْمَعَنَّ لَهُمْ قَوْلًا . فَإِنَّ
ضَرَرَهُمْ أَكْثَرَ مِنْ مَنفَعَتِهِمْ ، وَلَيْسَ شَيْءٌ أَسْرَعَ نَسَادًا لِمَا اسْتَقْبَلَتْ فِي أَمْرِ رَعِيَّتِكَ مِنْ
الشُّحِّ ، وَأَعْلَمُ أَنَّكَ إِذَا كُنْتَ حَرِيصًا ، كُنْتَ كَثِيرَ الْأَخْذِ . قَلِيلَ الْعَطِيَّةِ ، وَإِذَا كُنْتَ كَذَلِكَ
لَمْ يَسْتَقِمْ لَكَ أَمْرُكَ إِلَّا قَلِيلًا ، فَإِنَّ رَعِيَّتَكَ إِنَّمَا تَعْتَقِدُ عَلَى مَحَبَّتِكَ بِالْكَفِّ عَنِ أُمُومِهِمْ .
وَتَرِكَ الْجُورَ عَلَيْهِمْ ، وَيُدُومُ صَفَاءُ أَوْلِيَانِكَ لَكَ . بِالْإِفْضَالِ عَلَيْهِمْ . وَحَسَنَ الْعَطِيَّةِ لَهُمْ .
فَأَجْتَنِبِ الشُّحَّ ، وَأَعْلَمُ أَنَّهُ أَوَّلُ مَا عَصَى بِهِ الْإِنْسَانُ رَبَّهُ ، وَإِنَّ الْعَاصِيَ بِمَنْزِلَةِ حَرْبِي .
وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، ﴿ وَمَنْ يُؤَخِّرْ نَفْسَهُ فَأُخِّرْكَ اللَّهُ وَالْمُؤَخَّرُونَ ﴾ فَسَمِّلْ طَرِيقَ الْجُودِ
بِالْحَقِّ ، وَاجْعَلْ لِلْمُسْلِمِينَ كُلِّهِمْ مِنْ نَيْتِكَ حِظًّا وَنَصِيبًا . وَأَيِّقَنَّ أَنَّ الْجُودَ مِنْ أَفْضَلِ أَعْمَالِ
الْعِبَادَةِ . فَأَعِدِّهِ لِنَفْسِكَ حُلُقًا . وَأَرْضَ بِهِ عَمَلًا وَمَذْهَبًا . وَتَفَقَّدْ أُمُورَ الْجَنَّةِ فِي دِرَاوِينِهِمْ .
وَمَكَاتِبِهِمْ ، وَأَدْرِرْ عَلَيْهِمْ أَرْزَاقَهُمْ ، وَوَسِّعْ عَلَيْهِمْ فِي مَعَايِنِهِمْ . لِيُدْهَبَ بِذَلِكَ اللَّهُ فَاقْتَهُمْ .
وَيَقُومَ لَكَ أَمْرُهُمْ ، وَيَزِيدَ بِهِ قُلُوبَهُمْ فِي طَاعَتِكَ وَأَمْرِكَ . خُلُوصًا وَأَنْشِرَاحًا . وَحَسَبُ
ذِي سُلْطَانٍ مِنَ السَّعَادَةِ ، أَنْ يَكُونَ عَلَى جَدِّهِ وَرَعِيَّتِهِ . رَحْمَةً فِي عَدْلِهِ وَحَيْضَةً وَبُصْرَةً
وَعَنَايَةً ، وَشَفِيقَةً وَرِيَّةً وَتَوْسِعَةً . فَيُزِيلُ مَكْرُوهَ الْبَلِيَّتِينَ . بِاسْتِشْعَارِ نِكْمَةِ لِبَابِ الْآخِرِ
وَلِزُومِ الْعَمَلِ بِهِ تَأْتِقُ أَنْ شَاءَ اللَّهُ نَجَاحًا وَصَلَاحًا وَفَلَاحًا .

وَأَعْلَمُ أَنَّ الْقَضَاءَ مِنَ اللَّهِ . بِالْمَكَانِ الَّذِي لَيْسَ مِثْلَهُ شَيْءٌ مِنَ الْأُمُورِ . لِأَنَّهُ مِيزَانُ اللَّهِ الَّذِي
تَعْتَدِلُ عَلَيْهِ الْأَحْوَالُ فِي الْأَرْضِ . وَبِإِقَامَةِ الْعَدْلِ فِي الْقَضَاءِ وَالْعَمَلِ تَصْلُحُ أَرْعِيَّةٌ . وَتُؤَمِّنُ
السُّبُلَ ، وَيُنْتَصِفُ الْمَظْلُومَ . وَيَأْخُذُ النَّاسَ بِحُقُوقِهِمْ . وَتُحْسِنُ الْمَعِيشَةَ . وَيُؤَدِّي حَقَّ

الطاعة ، وَيَرْزُقُ اللهُ العافية والسلامة ، ويقوم الدين ، وتجري السنن والشرائع ، وعلى تجارها يُنْجِزُ الحَقَّ والعدل في القضاء . وأشدت في أمر الله وتوَرَّعَ عن النَّطْفِ وأمض لإقامة الحدود ، وأقل العجلة ، وأبعد من الضجر والقلق ، وأقنع بالقسمة ، ولتسكن رِيحُكَ ، وَيَقْرَ جَدَّكَ ، وانتفع بتجربتك ، وانبه في صمتك ، وأسدد في منطقتك ، وأنصف الخصم ، وقِفْ عند الشبهة ، وأبلغ في الحجَّة ، ولا يأخذك في أحد من رعيِّتك مُحاباة ولا مُجاملة ، ولا لوم لائم ، وثبت وتأن ، وراقب وأنظر ، وتدبر وتمكَّر ، واعتبر وتواضع لربك ، وأراف بجميع الرعية ، وسأط الحق على نفسك ، ولا تسرعن إلى سفك دم ، فإن الدماء من الله بمكان عظيم اتهاكًا لها بغير حقها ، وأنظر هذا الخراج الذي استقامت عليه الرعية ، وجعله الله للإسلام عزًا ورفعة ، ولأهله سعة ومنعة ، ولعدوه وعدوهم كبتًا وغيظًا ، ولأهل الكفر من معاهدتهم ذلًا وصغارًا . فوزَّعه بين أصحابه بالحق والعدل والتسوية ، والعموم فيه ، ولا تدفعن منه شيئًا عن شريف لشرفه ، وعن غنى لغناه ، ولا عن كاتب لك ، ولا أحد من خاصتك ، فلا تأخذن منه ، فوق الاحتمال له ، ولا تكلفن أمرًا فيه شطط ، وأحمل الناس كلهم على مَرِّ الحَقِّ ، فإن ذلك أجمع لألئقتهم ، وألزم لِرِضَى العامة ، واعلم أنك جعلت بولاياتك خازنًا وحافظًا ، وراعيًا . وإنما سمي أهل عملك رعيِّتك ، لأنك راعيهم ، وقيمتهم ، تأخذ منهم ما أعطوك ، من عفوهم ومقدرتهم . وتنفقه في قوام أمرهم وصلاحهم ، وتقويم أودهم ، واستعمل عليهم في كُورِ عملك . ذوى الرأى والتدبير والتجربة والخبرة بالعمل ، والعلم بالسياسة والعفاف ، ووسع عليهم في الرزق ، فإن ذلك من الحقوق اللازمة لك فيما تقلدت ، وأسند اليك ، ولا يشغلنك عنه شاغل ، ولا يصرفنك عنه صارف ، فإنك متى آثرته ، ووقت فيه بالواجب ، استدعيت به زيادة النعمة من ربك ، وحسن الأحدوثة في عملك ، واستجردت به المحبة من رعيِّتك ، وأعنت على الإصلاح ، فدرت الخيرات ببلدك ، وفشت العمارة بناحيتهك ، وظهر الخصب في كورك ، وكثرت حراجك ، وتوقرت أموالك ، وقويت بذلك على آرتباط جنسك . وإرضاء العامة ، بإفاضة العطاء فيهم من

نفسك ، وكنّت محمود السياسة ، مرضى العدل في ذلك عند عدوك ، وكنّت في أمورك كلها ، ذا عدل وقوة ، وآلة وعدّة ، فنافس في هذا ، ولا تقدّم عليه شيئاً ، ثمّ مدّ مغبة أمرك ، إن شاء الله ، وأجعل في كل كورة من عملك أمينا ، يخبرك أخبار عمالك ، ويكتب اليك بسيرتهم وأعمالهم ، حتى كأنك مع كل عامل في عمله ، معاين لأمره كله ، وإن أردت أن تأمره بأمر ، فانظر في عواقب ما أردت من ذلك ، فإن رأيت السلامة فيه والعافية ، ورجوت فيه حسن الدفاع ، والنصح والصنع فأمضه ، وإلا فتوقف عنه ، وراجع أهل البصر والعلم ، ثم خذ فيه عدته ، فإنه ربما نظر الرجل في أمر من أمره ، قد واتاه على ما يهوى ، فقواه على ذلك وأعجبه ، وإن لم ينظر في عواقبه أهلكه ، وتقص عليه أمره ، فاستعمل الحزم في كل ما أردت وبأشبه بعد عون الله بالقوة ، وأكثر استخارة ربك ، في جميع أمورك ، وأفرغ من عمل يومك ، ولا تؤخره لعدك ، وأكثر مباشرته بنفسك ، فإن لغير أموراً وحوادث تلهيك عن عمل يومك الذي أتت ، وأعلم أن اليوم إذا مضى ذهب بما فيه ، وإذا أتت عمله أجمع عليك أمر يومين ، فشغلك ذلك حتى تعرض عنه ، فإذا أمضيت لكل يوم عمله ، أرحت نفسك وبدنت ، وأحكمت أمور سلطانك ، وانظر أحرار الناس وذوى الشرف منهم ، ثم استيقن صفاء طويتهم ، وتهذيب مودتهم لك ، ومظاهرهم بالنصح والمحافظة على أمرك ، فاستخلصهم . وأحسن إليهم ، وتعاهد أهل البيوتات ممن قد دخلت عليهم الحاجة ، فاحتمل مؤوتهم وأصنع حالهم ، حتى لا يجدوا خلقتهم مساً ، وأفرد نفسك للنظر في أمور الفقراء والمساكين . ومن لا يقدر على رفع مظلمة إليك ، والمحتقر الذي لا علم له بطلب حقه ، فاسأل عنه أخفى مسألة ، ووكل بأمثاله أهل الصلاح من رعيتك ، ومُرهم برفع حوائجهم وحالاتهم إليك ، لتنظر فيها بما يصلح الله به أمرهم ، وتعاهد ذوى الدساء ويَتَماهم وأراملهم ، وأجعل لهم أرزاقاً من بيت المال اقتداءً بأمر المؤمنين أعزّه الله في العطف عليهم والصلاة لهم ، ليصلح الله بذلك عيشتهم ، ويرزقك به بركة وزيادة ، وأجر للأمرء من بيت المال ، وقدم حَمَلة

القرآن منهم، والحافظين لأكثره، في الجراية على غيرهم، وأنصب لمرضى المسلمين دوراً
تؤويهم، وقواماً يرفقون بهم، وأطباء يعالجون أستاذهم، وأسعفهم بشهواتهم، ما لم يؤد ذلك
إلى سرف في بيت المال، وأعلم أن الناس إذا أعطوا حقوقهم، وأفضل أمانيتهم لم يرضهم
ذلك، ولم تطب أنفسهم، دون رفع حوائجهم إلى ولاتهم؛ طمعا في نيل الزيادة، وفضل
الرفق منهم، وربما يرم المتصفح لأموال الناس لكثرة ما يرد عليه، ويشغل فكره وذهنه، ومنها
ما يناله به مؤونة ومشقة، وليس من يرثب في العدل ويعرف محاسن أموره في العاجل
وفضل ثواب الآجل، كالذي يستقبل ما يقتر به إلى الله، ويبتمس رحمته به، وأكثر الإذن
للناس عليك، وأبرز خم وجهك، وسكن لهم أحراسك، وأخفص لهم جناحك، وأظهر لهم
بشرك، ولئن لم في المسألة والمنطق، وأعطف عليهم بيجودك وفضلك، وإذا أعطيت فأعط
بساحة وطيب نفس، وأتمن الصديعة والأجر، غير مكدر ولا متأن، فإن العطية على ذلك
تجارة مريحة إن شاء الله، وأعتبر بما ترى من أمور الدنيا، ومن مضى من قبلك، من أهل
السلطان والرياسة. في القرون الخالية والأمم البائدة، ثم اعتصم في أحوالك كلها بأمر الله،
والوقوف عند محبته. والعمل بشريعته وسنته وإقامة دينه وكتابه، واجتنب ما فارق ذلك
وخالته، ودعا إلى سخط الله، وأعرف ما تنجع عمالك من الأموال، وينفقون منها،
ولا تجمع حراما. ولا تنفق إسرافا. وأكثر مجالسة العلماء، ومشاورتهم ومخالطتهم، وليكن
هواك اتباع السنن وإقامتها، وإيثار مكارم الأمور ومعاليتها، وليكن أكرم دخلائك وخاصتك
عليك من إذا رأى عيبا فيك لم تمنعه هيبتك من إنهاء ذلك اليك، في سر، وإعلامك
ما فيه من النقص. فإن أولئك أنصح أوليائك وهؤلاء همك، وأنظر عمالك الذين بحضورك،
وكتابك فوقت لكل رجل منهم في كل يوم وقتا يدخل عليك فيه بكتبته ومؤامراته
وما عنده من حوائج عمالك وأمر كورنك ورعيتك، ثم فرغ لما يورده عليك من ذلك
سمعا وبصرك، وفهما وعقلك، وكرر النظر إليه والتدبير له، فما كان موافقا للحزم والحق
فامضه وأستخر الله فيه، وما كان مخالفا لذلك فاصرفه إلى التثبيت فيه والمسألة عنه،

ولا تمنن على رعيتك ولا على غيرهم بمعروف تأتيه اليهم، ولا تقبل من أحد منهم إلا
الوفاء والاستقامة والعون في أمور أمير المؤمنين، ولا تضع المعروف إلا على ذلك،
وتفهم كتابي اليك، وأكثر النظر فيه، والعمل به، وأستعن بالله على جميع أمورك وأستخره،
فإن الله مع الصّالح وأهله، وليكن أعظم سيرتك، وأفضل رغبتك، ما كان لله رضًا،
ولدينه نظامًا، ولأهله عزًا وتمكينًا، وللذمة والملة عدلا وصلاحًا، وأنا أسأل الله أن يحسن
عدوك وتوفيقك، ورشدك وكلاءك، وأن ينزل عليك فضله ورحمته، بتمام فضله عليك،
وكرامته لك، حتى يجعلك أفضل أمثالك نصيبًا، وأوفرهم حظًا، وأسألهم ذكرا وأمرًا، وأن
يهلك عدوك ومن تأواك وتغى عليك، ويرزقك من رعيتك العافية، ويحجز الشيطان
عنك ووساوسه، حتى يستعلى أمرك بالعز والقوة والتوفيق، إنه قريب مجيب .

(د) رسالة الخميس

من عبد الله الإمام المأمون أمير المؤمنين، الى المبايعين على الحق، والناصرين للدين، من أهل نُرَاسَانَ وغيرهم من أهل الإسلام : سلام عليكم ، فإن أمير المؤمنين يَمَّحَدُ اليكم الله الذي لا إله إلا هو، ويسأله أن يُصَلِّيَ على محمد عبده ورسوله .

أما بعد، فالحمد لله القادر القاهر، الباعث الوارث، ذى العِزِّ والسلطان، والنور والبرهان. فاطم السموات والأرض وما بينهما، والمتقدِّم بالمنِّ والطَّوْلِ على أهلها، قبل استحقاقهم لثَنُوْتِهِ، بالمحافظة على شرائع طاعته، الذى جعل ما أودع عباده من نعمته، دليلاً هادياً لهم الى معرفته، بما أفادهم من الأبواب، التى يفهمون بها فصل الخطاب، حتى آقننوا علم موارد الاختبار، وثقفوا مصادر الاعتبار، وحكوا على ما بطن بما ظهر، وعلى ما غاب بما حضر، وأستدلوا بما أراههم من بالغ حكمته، ومُتَّقِنِ صَنَعَتِهِ، وحاجة مترايل خلقه ومُتَوَاصِلِهِ، الى القوم بما يَلْمُهُ وَيُضَالِحُهُ، على أن له بارئاً أنشأه وأبتدأه، ويسر بعضه لبعض . فكان من أقرب وجودهم ، ما يباشرون به من أنفسهم فى تصرّف أحوالهم ، وفنون انتقالهم، وما يظهرون عليه من انعجز عن التأتى لما تكاملت به قواهم، وتمت به أدواتهم ؛ مع أثر تدبير الله عز وجل وتقسيره فيهم ، حتى صاروا الى الخلقة المحكمة، والدورة المعجبة، ليس لهم فى حى - ربه ، ولا مقصد يعتمدونه من أنفسهم ؛ فإنه قال تعالى

ذِكْرُهُ: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّبَكَ رَبِّكَ الْكَرِيمَ الَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَجَّكَ . ثم ما يتفكرون فيه من خلق السموات، وما يجرى فيها من الشمس والقمر والأجرام مسخرات، على مسير لا يثبت العالم إلا به من تصاريف الأزمنة التى بها صلاح الحَرث والنسل، وإحياء الأرض . وتفتح النبات والأشجار، وتعاور الليل والنهار، ومر الأيام والشهور والسنين التى تُحصى بها الأوقات ؛ ثم ما يوجد من دلائل التركيب فى طبقات السقف المرفوع . والمهاد الموضوع، باختلاف أجزائه وألوانها . ونحوق الأنهار، وإرساء

الجمال . ومن البيانِ الشاهدِ ما أخبر الله عز وجل به من إنشائه الخلق ، وحدوثه بعد أن لم يكن مترقياً في السماء ، وثباته إلى أجله في البقاء ، ثم محاربه مُتَمِضِياً إلى غاية الفناء . ولو لم يكن له مُفْتَسِحٌ عدد ولا مُنْقَطَعُ أمد ، ما آزداد ينشوء ، ولا تَحْيِفُه نقصان ، ولا تفاوت على الأزمان ؛ لأن ما لا حد له ، ولا نهاية ، غيرُ ممكن الاحتمال للنقص والزيادة . ثم ما يوجد عليه منفَعته من ثبات بعضه لبعض ، وقوام كل شيء منه بما يسر له . في بدء استمداده إلى منتهى نفاذه ؛ كما احتج الله عز وجل على خلقه ، فقال : ﴿ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴾ . وقال عز وجل : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَسْقِي وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ . وكل ما تقدم من الأخبار عن آيات الله عز وجل ودلالاته في سمواته التي تبى ، وأطباق الأرض التي دحا ، وآثار صنعه فيما برّ وذرّاً ، ثابت في فطر العقول ، حتى يسخر أولى الزرع ما يدخلون على أنفسهم من الشبهة فيما يجعلون له من الأضداد والأنداد . جل عما يُشركون . ولولا توحيده بالتدبير ، عن كل معين وظهير . لكان الشركاءُ جُدراء أن تختلف بهم إرادتهم فيما يخلقون ، ولم يكن التخلف في إثباته وإزالته ليخلو من أحد وجهيه ، وأيهما كان فيه فالعجز والنقص مما أتاه وبرأه . جل البديع خالق الخلق ومالك الأمر عن ذلك وتعالى علواً كبيراً ؛ كما قال سبحانه : ﴿ مَا آخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ . ثم من عظيم نعمة الله عز وجل على خلقه آفتقاده إياهم . وأنه يسددهم ويُدلِّم على منافعهم ، ويُجَنِّبهم مضارهم . ويهديهم لما فيه صلاحهم . ويرغبهم في المحافظة على التمسك بدين الله عز وجل ، الذي جعله عِصْمَةً لهم وحاجراً بينهم .

ولولا ما تقدم به من تلافيمهم وأستدراكهم بفصل رحمته . لاجتاحهم التلُّف . لقصور معرفتهم عن التأتى لأقواتهم ومعانيهم . ولم يكونوا ليقنصروا على حضورهم وأقسامهم عما بنوا عليه من الجمع والرغبة ، ولتألكوا بنى بعضهم على بعض ، وعدوان قويتهم على ضعيفهم . ولكنه بعد تعريفه إياهم ملك قدرته وجلاله عزته ، بعث إليهم أنبياءه ورسله مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ،

بِآيَاتِ الَّتِي لَا تَأْتِيهِمْ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ يُخَوِّفُونَ ، وَآرْتَدَعُوا عَنِ التَّبَاغِي وَالظُّلْمِ ،
لَمَّا وَعَدُوا مِنَ الثَّوَابِ الْجَسِيمِ وَخُوفُوا مِنَ الْعِقَابِ الْأَلِيمِ ، وَلَمْ يَكُونُوا لِيُطِيعُوا أَمْرًا
لَا أَمْرًا وَلَا نَهْيًا لِنِسَاءِ ، إِلَّا بِحُجَّةٍ يَتَّبِعُونَ بِهَا الْحَقُّ عَلَى مَنْ خَالَفَهُ مِنَ الْمُبْطِلِينَ ، وَتَخْوِيفٍ
يَتَّقُونَ بِهِ مُقَارَفَةَ مَا حُرِّمَ عَلَيْهِمْ ، وَرَجَاءٍ يَتَجَشَّمُونَ لَهُ مَوْوَنَةً مَا تُعْبَدُوا بِهِ . فَانْفَتَحَ اللَّهُ عَزَّ
وَجَلَّ بِأَبْيَهُمْ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَعَلَّمَهُ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ، وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ بِالسُّجُودِ لَهُ —
كَمَا اقْتَصَصَ فِي وَحْيِهِ الْمَنْزِلِ — وَكَرَّمَ وَلَدَهُ وَفَضَّلَهُمْ ، فَقَالَ جَلَّ وَعَزَّ : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ
وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْإِبْرَةِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ .
وَجَعَلَ مَا قَطَّرَهُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْعَطْفِ عَلَى ذُرَارِيهِمْ وَأَبْنَائِهِمْ سَبَبًا لَمَّا أَرَادَ مِنْ بَقَائِهِمْ وَتَسَالُفِهِمْ ،
وَمَا أَخْتَصَمَهُمْ بِهِ مِنَ الْعِلْمِ وَالْفَهْمِ حُجَّةً عَلَيْهِمْ ، لِيَتَّخِذَ طَاعَتَهُمْ ، وَيَلْمُؤُهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ
عَمَلًا . وَلَمْ تَزَلْ رَسُلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى خَلْقِهِ تَتَرَى بِالنُّورِ السَّاطِعِ ، وَالْبِرْهَانِ الْقَاطِعِ ،
لَا يَجِدُونَ لَمَّا يُورِدُونَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْحَقِّ الْقَاهِرِ مَرَدًا وَلَا مَدْفَعًا ؛ لِقَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ :
﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ يُخَوِّفُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ
حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ . فَلَمْ يَجِدِ الْمَكْدُوبُونَ مَسَاغًا إِلَى دَفْعِ مَا أُقِيمَ عَلَيْهِمْ مِنْ لَازِمِ الْحُجَّةِ ،
إِلَّا الْمَعَانِدَةَ وَالْمُجَاهِدَةَ . وَكَانَ أَنْبِيَاءُ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ ، يُبْعَثُونَ فِي أَعْصَارِ الْحَقِّبِ ،
نُذْرًا لِلْأُمَّمِ ، حَتَّى خَنَمَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِالنَّبِيِّ الْأُمِّيِّ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَجِئْتَهُ فُورًا
وَحِيدًا لَا عَاضِدَ لَهُ وَلَا رَافِدَ ، إِلَى قَوْمٍ يَعْبُدُونَ أَصْنَامًا بُكْرًا ، وَحِجَارَةً صَمًّا ، فَكَذَّبَ بِهِ
الْقَوْمُ الَّذِينَ بُعِثَ فِيهِمْ أَوَّلَ مَا دَعَاهُمْ ، وَرَامَهُ مَلُوكُ أَقْطَارِ الْبِلَادِ بِتَوْجِيهِ الْأَجْنَادِ ،
وَمُرَافِدَةِ الْقِسْوَةِ وَالْعِتَادِ وَبِغِي الْعَوَائِلِ ، وَنَصَبِ الْجَبَائِلِ ، وَهُوَ يَدْعُو إِلَى سَبِيلِ رَبِّهِ
بِمَا أَمَرَهُ بِهِ ، إِذْ يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ
بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ . ثُمَّ جَاهَدَ مِنْ أَطَاعِهِ مَنْ عَصَاهُ ، وَمِنْ أَتْبَعَهُ مَنْ خَالَفَهُ ، حَتَّى
أَعَزَّ اللَّهُ كَلِمَتَهُ ، وَأَظْهَرَ دَعْوَتَهُ ، وَأَكْلَلَ لِعِبَادِهِ دِينَهُمُ الَّذِي آرْتَضَى لَهُمْ . فَلَمَّا اخْتَارَ اللَّهُ لَهُ
مَا لَدَيْهِ ، وَأَخْتَصَمَهُ بِمَا عِنْدَهُ : مِنَ النِّعَمِ الْمُقِيمِ ، وَالْجِزَاءِ الْكَرِيمِ ، بَعْدَ اسْتِقَامَةِ الدِّينِ

ودخول الناس فيه أفواجا، خلفه، إذ ختم به الأنبياء، بالبررة النجباء من أديانهِ ولُحْمَتِهِ، لإقامة الشرائع المُفْتَرَضَةِ، وإنفاذِ حُكْمِ اللَّهِ الْمُتَزَلِّ، وأقتفاءِ السُّنَّةِ الْمَأْتُورَةِ وَحِفْظِهَا لِه فِي قَرَابَتِهِ وَمُجِيبِي دَعْوَتِهِ، وَإِتْمَامِ مَا أَوْجِبَ لَهُ مِنَ الْفَضِيلَةِ، وَقَرِيبِ الْوَسِيلَةِ، وَانْجَازِ مَا وَعَدَهُ مِنْ إِظْهَارِ مَا بَعَثَهُ بِهِ، مِنْ دِينِهِ الَّذِي أَصْطَفَاهُ وَأَرْضَاهُ. وَكَانَ آخِيارِ أَوْلَى الْفَضْلِ مِنْ لُحْمَتِهِ وَعَصْبَتِهِ لِإِرْثِ خِلافَتِهِ، وَمِنْ عَظِيمِ الرَّأْفِ الَّتِي رَغِبَ إِلَى اللَّهِ فِيهَا أَنْبِيَاؤُهُ، وَبِمَا أَقْصَى فِي مُتَزَلِّ وَحِيهِ، وَأَخْضَعَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَا أَمَرَهُ بِهِ مِنْ مَسْأَلَةِ أُمَّتِهِ تَصْيِيرَ مَوَدَّتِهِ فِي الْقَرِيبِ جِزَاءَهُ مِنْ تَبِعِهِ عَلَى الرِّسَالَةِ، وَهَدَاهُ مِنَ الضَّلَالَةِ؛ فَكَانَتْ فَضِيلَتُهُمْ عَزِيمَةً مِنَ اللَّهِ عِزِّ وَجَلِّ، دُونَ طَلَبِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَلْزَمَهُ تَأْدِيتِهِ إِلَى خَلْقِهِ وَأَلْزَمَهُمْ أَدَاءَهُ، فَقَالَ عِزِّ وَجَلِّ: **يَا قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى**. . . وَدَلَّ بِمَا أَخْبَرَهُ وَأَظْهَرَهُ مِنْ تَطْهِيرِهِ إِيَّاهُمْ وَإِذْهَابِهِ الرَّجْسَ عَنْهُمْ، عَلَى أَصْطِفَائِهِ لَهُمْ؛ فَقَالَ تَعَالَى: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا**. . . وَكَانَ مِمَّا أَوْجِبَ لَهُمْ بِهِ حَقُّ الْوَرَاثَةِ فِي مُحْكَمِ تَنْزِيلِهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: **﴿ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾**. . . ثُمَّ قَرَنَ طَاعَتَهُمْ بِطَاعَتِهِ، فَقَالَ: **﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾**. . . وَأَحْلَاهُمْ مِنَ النَّبَاهَةِ وَالصَّيْتِ بِالْمَحَلِّ الَّذِي أَعْلَىٰ بِهِ أَمْرَهُمْ وَرَفَعَ بِهِ ذِكْرَهُمْ، لِمَا أَحَبَّ مِنَ النَّبِيِّينَ فِي الدَّلَالَةِ عَلَيْهِمْ، وَاهْتِدَايَةِ إِلَيْهِمْ، فَإِنَّهُ يَقُولُ عِزِّ وَجَلِّ: **يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ**. . . وَلَوْ كَانَ الْأُمَّةُ الْمُتَقَلِّدُونَ أَمْرَ عَبْدِهِ خَامِلَةً أَنْسَابُهُمْ، مُتَنَطِّعَةً أَسْبَابُهُمْ، غَيْرَ مُخْصِصِينَ بِفَضِيلَةِ يَوْمِهِمْ بِهَا دُونَ غَيْرِهِمْ، لَمْ تَمُدَّ طَلِبَتُهُمْ عَقْدَ اخْتِلافِهِمْ، وَأَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُفْتَرَضَاتِ عَلَى كَافَّةِ الْأُمَّةِ، أَوْ عَلَى بَعْضِ دُونَ بَعْضٍ، فَإِنْ كَانَ لِأَهْلِ الشَّرْقِ وَالغَرْبِ مِنْ ذَوِي النَقْصِ وَالْجَمَلِ أَنْ يَخْتَارُوا لِأَنْفُسِهِمْ، فَالَيْسَ فِي آجِنَاعِ آرَائِهِمْ مَعَ تَفَرُّقِهِمْ وَأَخْتِلافِهِمْ طَمَعٌ آخَرَ إِلَّا يَمُّ الدَّهْرِ، وَإِنْ كَانَ إِلَى خَاصِيَةِ دُونَ عَامِيَةٍ، فَسَتَحْتِاجُ الْعَامَةِ مِنْ طَلَبِ مَعْرِفَةِ نَهْجِ الْحَلِّ إِلَى مَلِّ مَا أَحْتاجُوا إِلَيْهِ فِي أُمَّتِهِمْ؛ إِذْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُ الْأَرْتِيَابِ وَالطَّلَبِ مِنْ أَعْلَامِ الْأَفْوَاقِ لِيَتَوَاطَّأُوا عَلَى اتِّفَاقٍ،

لنفاد آجالهم قبل بلوغهم غاية الاجتهاد في الفحص والتكشيف ، وحاجتهم الى اختبار البلدان ، وتمحيص أولى الفضائل بالامتحان ، وما هو حاق عليهم من الشبه في اختيارهم ، والاختلاف فيمن عَسُوا أن يَجْتَبُوهُ وَيُقَدِّمُوهُ ، حتى تهالك الرعية بتظالمها بينها ، وَيَطْرُقَ مَنْ يَلِيهَا مِنَ الْأُمَمِ بِإِيَّاهَا ؛ إذ لا ذائد عنها ولا مُحَامَى . فإذا ألزمت الأمة الحاجة إلى نَصَبِ الْحُكَّامِ لإقامة الدين ، وتقسيمِ الحقوق من المسلمين ، ومُجَاهِدَةِ عَدُوِّهِمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، لم يكن لهم في الإمام عليهم مجاز إلى التخلص من حقه إليهم ، ولا ريب عند المعرفة برأفة الله ورحمته ، ولطفه وحكمه ، في دفعه عن عباده ما لم يجعل في حيلتهم له وسعاً ، ولا في حيلتهم له دُرُكاً . وكفائته إيّاهم ما يُعْجِزُهُمْ مِنَ الْبَحْثِ وَالتَّنْقِيحِ عَنْ وِلَاةِ أَسْرَمٍ ، بِنَصْبِهِ إِيَّاهُمْ ، وما رفعهم إليه من الدرجة التي أعلاها وأسناها ، إذ وصل نسبهم برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأقرض مودتهم على خلقه ، ولم يَشْنِمْ جَهْلُهُمْ لِلْغُرُضِ الَّذِي لَزِمَهُمْ لَهُ ، ولم يجب عليهم فرض في معرفة من سواهم . ولم يزل سياق أئمة الهدى مُطْرَدًا ، ونظامهم مُتَّصِلًا ، يتلقاه كابر عن كابر ، ويؤديه أول الى آخر ، حتى تنهاى الى أمير المؤمنين ، وهو حائل دار دعوته . وبين أنصاره من أهل نُرَّاسَانَ ، فنظر به خيرهم ، وعرفوا ما تصرفت به أحوالهم ، وظهير لهم من بيان حُجَّتِهِ عَلَى مَنْ نَازَعَهُ فِي الْأَمْرِ ، وشاهدوا من إبلاغه في العذر . واستظهاره بالثاني والصبور . ما أزعج عنهم الشبهة وكشط الحيرة ، حتى استرأوا نهوضه بحقه ، وخافوا الزيغ على أديانهم فيما أعطوه من صَفَقَةِ أَيَانِهِمْ ، وهو ماض على عادته ، مستديمٌ لثوابه . ^(١) متلوم على المراجعة ، بالغ غاية ما في وسعه من الرخصة في دفع الولاية التي نهته برب الرعية . حتى ضاق عليه في دينه ترك القيام بما أنضه الله به من ثقلها وقلده من حملها . وخف الخلو فأنبعث بالشرة والغرة ، فتناول أولياء الحق باغيا طاغيا ، لما أراد الله من تأييدهم عيسه بالبيان واجحة التي يجب لها قلبه ، ويفت بها في عضده ، ويقبل الله ما ترفك به من النصر والغلبة فيه التي جعلها الله للتيقن . فاجت

لكم معشر أهل خراسان في دولة أمير المؤمنين ثلاث خلال اختصكم الله بفضيلتها، و مراتبها، دون ثلاث شملتكم وغيركم .

أما الأولى من اللواتي خصكم الله بهن ، فما تقدم لأسلافكم من نصرة أهل بيت النبي .
والتأمين بميراثه من آباء أمير المؤمنين .

وأما الثانية ، فما آثركم الله به من نصرته في دعوته الثانية .

وأما الثالثة ، فما تقدمتم به من صحة ضمايركم ، ومحض مناصحتكم .

وأما الثلاث اللواتي هن لكم ولغيركم :

فمنهن ما أكد الله لأmir المؤمنين في أعتاق المسامين : من العهد لذي أخذ بضره ، وألهمهم الوفاء به والتمسك بوثائق عصمته ، عند محاولة الخلويع ما حوّل من الإعلان بالردة .
وآتمس من تبديل معالم الدين وتعمية آثاره ، فلم يلف الزعية سدى مهملين ، لا جامع لأمرهم ، ولا ضام لثرتهم .

ومنهن ما أفادكم الله وإياهم من العبر ، عند حلول الغير بمن غدر وخر ، تذكرة لأولى النبي ، وحجة بالغة على من أدبر وتولى ، ليبتدى متحيراً ويتعظ مردجراً ، وليمحص الله الذين آمنوا ويحقق الكافرين . . ومنهن أجتاع أهل الفضل من المسلمين : من لم يكن له نصر ولا أزر في الدعوة الأولى على المشايعة في الدعوة الثانية . فأصبح دعاة أمير المؤمنين من أهل الحرمين والمصريين ومدينة السلام والمشرق والمغرب ممن غار أو أنجد من المتمسكين بدمهم الموفين بنذورهم ، من إخوانكم . وإن كان الله قد قدمكم في الأمرين جميعاً بتفوق حاكم على غيركم ، يعتدون من معاضدتكم ومكانتكم بما جعله الله عز وجل ألفة لكم ومودة بينكم ، يبديها ما كان الشيطان يترغ به بين أهل التباعد في الأنساب .
والتنأى في الأوطان من إيقاع العداوة والبغضاء . ولا نطواء على الأحقاد والدم . وطلب تقديم الإحن . وصار أهل السمو إلى الدرحة العليا والاعتصام بالغرورة الوثيق من أولياء أمير المؤمنين وشيعته . منسرحة صدورهم بمكافئته . مبهسطة أيديهم بمعونته على حقه .

منفسحةً آمالهم في إذكاء ناره على عدوه والإثخان في بلاده وافتتاح ممتنع حصونه ، بما جمعهم الله عليه من الألفة ، ورفع عنهم من الحمية والعصبية ؛ راجين عودتهم الى أحسن ماضى عليه سلفهم ، في عهد نبيه صلى الله عليه وسلم ، من سلامة الصدور ، وصلاح ذات البين ، واجتماع القوى على مجاهدة من شاقهم ؛ قد أفرد الله عنهم نفرة التحارب والتجاذب ، وجعل ما كان يسعى به بعضهم من الإعداد لبعض ، زيادة في ريجهم ، وحدًا في شوكتهم ، لاثتلافهم في دولة أمير المؤمنين المجدودة المؤيدة بصدق الضمائر ، ونفاذ البصائر . والى الله يرغب أمير المؤمنين في إعانتة على صالح نيته ، وتبليغه منتهى سؤله وغاية همته ، في اعزاز دينه وإذلال من صد عن سبيله ؛ إنه سميع قريب .

ومن أقوى الأسباب إلى استدعاء الشكر على النعمة تذكروا ما كانت عليه الحال قبلها ، فاستديموا الإفاضة فيما رفع الله من خصاصتكم وأعلى من أقداركم ، بنصرة أهل بيت نبيكم صلى الله عليه وسلم ، وما أبلاكم الله في الدعوة الأولى مما لا يؤدى حقه إلا بعون الله وتوفيقه ، فإنه ارتاح لهم بلطفه وتوفيقه ، فأنا لهم رغائب الأقسام وسني الحظوات ، ورفع درجاتهم ودرج خلوهم وأعقابهم من بعدهم ، بعد إذ هم مستضعفون يخافون أن يتخطفهم الناس ، مذبذبون بقهر عدوهم واستئثاره عليهم ، ثم لم يلبثوا أن صاروا الى الحال التي يرونهم بها من الغبطة والبهجة ، إلا أنهم أخذوها بحقها ؛ وكانت في أيدي الظلمة من أهل بيت اللعنة وأتباعهم بحمد الله الباطل ومحنة الابتلاء ، وليلعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوي عزيز (١) . وليس أحد منكم بخارج من المحنة بما ألبس من النعمة ، وإن كنتم أهلها الآخذين لها بحقها ، بل الذي يلزمكم استدامتها والقيام بحفظها ، على حسب ما أولاكم الله منها ، فربما كان الذي يعقب أهلها من الغفلة والاعتثار ويلهيهم بها من حبورها وسرورها ، أعظم إثما وحوماً مما يخوف على أهل البطالة والصد من ضعف العزم وقلة الصبر ، لما استولى عليهم من استكانة الذلّة ، والاعتثار بالتقصير ، والنزج الى رهيم في تفتيس كربهم ، فإنه

(١) كذا في الأصل يو

تبارك وتعالى قد وصف أهل الطبقتين فقال : ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ۗ ۝۱۰۰ ۚ فَجَاجِكُمْ إِذَا آخَجَكُمُ اللَّهُ سَعِيمًا وَأَبْطَرَكُم بِطَلَيْتِكُمْ ، إِلَى حِيَاطَةٍ مَا أَوْدَعَكُمُ اللَّهُ مِنْ مِثْنِهِ وَ ۝۱۰۱ ۚ مِنْ فَضْلِهِ ، بِالشُّكْرِ الْمُتَمَرِّ لِلزَّيْدِ .

فتمهدوا معشر شيعة أمير المؤمنين أنفسهم بتذكركم ما سهل الله لكم من الحزونة . وذلل لكم من الصعوبة ، وحكم لكم به من النصر ، على مرقاة الملّة ومخالفى أهل القبلة . وأباحكم من ديارهم وأموالهم ، فأصبحتم بمن الله عليهم حمة الدين ، وأنصار الأئمة الراشدين ، وحصون كافة المسلمين ، بعد ما آجنت الله بكم قرون الفراق ، وأهد بكم صناديد الضلالة ، وشرّد من لم تستحمله سيوفكم ، وأضرع اليكم من أذعن وأستسلم . وقد استشرّفكم معشر شيعة أمير المؤمنين أهل الشان ، ولاحظوكم بأعين الحسد والمافسة ، فبين ذلك مجهر معالين . ومستسرّ مداهن . وداخل في عدادكم ، وواج في سوادكم ، يرى أمتة بين ظهوركم . فطعنه عليكم في دوتكم بريية التويه وخدع التشبيه ، أيسر عليه كلفة وأعظم فيكم جرحا ونكايه ، فتوقفوا هذه الطبقة أشد التوقى ، فإن أكثر من يلجأ الى استباحة الحيلة ، من عجز عن المباداة والإصحار ، وعند ظهور الحازم وغلبته يحترز من لطيف الخدع وخفى الاستدراج .

وأحذروا معشر شيعة أمير المؤمنين من استمراء الطرّاءة . والركون الى راحة الدعة ما قد رأيتم وباله عاد على أهله ، وأورتهم عواقبه طول الندم والخسرة ، فإنكم قد كنتم في حال المراقبة لعدوكم ، والخوف لباقته متيقظين متحفّظين لما كان يرومكم به من خنله وحيله . ثم أفضيت الى الحج وقد جهدكم السعى ومسكم النصب ، وسيلقى الشيطان في أمانكم أن قد اكتفيتم بسالف ما قاسيتم ، ويجد من ضعف العزائم معينا داعيا الى اغتنام الخفض ، والإخلاق الى الأرض ، ما لم تعتصموا بما عايتم من الاعتبار ، وتمثلوا مواضى الآثار فيمن سلف من القرون الخالية ، وما أفضت به اليه العزة من زوال انعم ووقوع الغير ، وإن جميع ما خولكم الله وأفادكم مرتهن بما أزمكم من حياطته واستنائه ، فقد وجبت عليكم النجّة بما حصّكم الله

عليه ، وعظمت عليكم المنة بما هداكم اليه ، وأراكم من آياته ومثلاته فيمن خلا قبلكم ما فيه أبلغ الإعدار والإنذار لكم . ومن أجمع له اقتناء صواب من تقدمه الى ما ينبعث من نفسه ، فكأنه قد آخبر بالنجربة ، مع استمداده بما يستفيد ، ويستريد ما يفتح لبه ورأيه ، وأيقنوا أنكم لن تصلوا الى من سواكم ، ممن هو أعرس طاعةً عليكم وأعذر بمعصيتكم ، حتى تبدوا باستصلاح أنفسكم ، وأنه لن يرجح لكم القوة على مجاهدة عدوكم حتى تقووا على مجاهدة أهوائكم ، فإن على كل امرئ رية من أمره ، وغطاء من غيبه ، لا يكشفه إلا صحة المعرفة ، والإذعان بالنصفه ؛ فهناك يؤمن عليه الجليل والمعانده . وإذا أميت هاتان الخلتان آنست بإذن الله تلم الآفات ، وتوقى المكاره . فإنه لا يخاف الضلال على من آتدى ، ولا اعتماد الجور على من آتصرف من هوى .

ولكن أول ما نتعهدون به أنفسكم ، وتثابرون عليه من صالح أدبكم تناصف الحق بينكم . بتقديم أهل الفضائل والآثار المحمودة منكم وتفخيم أمركم ؛ فقد علمتم أن منكم المبرز الفائق الذي لا يدرك شأوه ولا يوازي بلاؤه ، حين كشف الإبلاء ضمائر القلوب وجلا مشتهيات الضنون ، فصرح بالحاربة بعد التقدم في الحجّة ، وفاءً بمؤكّد العهد وركوبا منه لهائل نخطر . غير حائب مع حجة الحق ما برق لديه الناكس المخلوع ورعد ، ولا مستوحش فيما تنزّد به الى من تولى وأدبر . حتى أتى الغاية التي أجرى إليها في الله عز وجل وفي خليفته ؛ ثم لرؤسائكم من أهل المشايعة والمكانفة والنصرة والحظ الحزيل والأثر المبين ، ثوابهم واجب وحقهم لازم ؛ ثم منكم من يُحفظ أسلفه وأوله من الآباء الذين يحفظون ولايتهم . فإن الله عز وجل يقول في ذكر اليتيمين : ﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ ﴾ الآية . وقال على لسان يعقوب لابنه يوسف : ﴿ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ الآية . وأمير المؤمنين يرى توريث الحكمة والذمام سنة عليه في أخلاقه التي يرعاها ويحافظ عليها ؛ كما أنه يرى وراثته التركة فريضة واجبة ، فيخلف السلف الصالح عنده من المزية والفضل ما يتلون به أهل الفناء بأنفسهم ، ثم

يتلوه من آتدى [بهم] وأهتدى بهديهم . والسابق المتقدم من آتد بلاء نفسه الى بلاء سلفه ، ثم يتبعه بعد الملبى بنفسه . ثم يتلوهما المتوسل بآبائه . ثم الصاعد به هواه ورأيه ، طبقةً فطبقة ؛ فليقرر كل أمرى منكم على المرتبة التى أحله بها سعيه . ويسلك الى الأزدباد فيها بالزيادة من نفسه ؛ فإن من الفتوق العظيمة على أهل الدول ما يترغ به الشيطان بينهم ، ويكثر عندهم ما يكون منه ، فيوافق من الخيف لألأنفس ما يجعد به مساعدا الى ما يروم من إيقاع الشحاء بينهم ، وتثبيت الإحن فى صدورهم ؛ بعد التآزر والتناصر . ومتى يجمع المرء لمزية من فوقه ، واغترباط من دونه كفى ماترك . وان تخلص نياتكم . وتسلم ضمائرکم ، حتى تمحصوا شكر ما أوليه إخوانكم ، وتعتدوا ما نالهم شاملا لكم ، وتجانبوا طريقة من اقتصر بأمنيته على خاصته ، وتعب فيما أوتربه أهل الفضل دونه . وكفى عظةً فيما نهاكم الله عنه من ذلك ؛ يقول الله عز وجل : ﴿ وَلَا تَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ الآية . ولا يلمس أحد مودته عن سوء نية بحسن مداراة فى طاهر ، فإن الله مقاد كل امرى ربقة عمله ومطوقه طوق سريره . ولا يقدرك فيما يلزمه لإمامه ؛ فإنه إنما يقدر فى حظّه ويخص قسمة ، ويخص نفسه . ثم لا يقتصرن على استصلاحها حتى يتدول من كانت مته عليه من أقربيه وحسويه ؛ فإن يسير ما هو معانٍ من ناديتهم لا ينشب أن يتجاوز أدنى المراتب الى أقاصيها ، وقربها الى متناهيها . حتى يستفيض شاملا علما . بعد أن بدا محلا خاصا .

واعلموا أن أمير المؤمنين متفقد من تثقيفكم وتقويمكم على صالح الأدب ومحمود السيرة ، ما لا يتفقد به من سواكم بإفاته إن كان يُوجب على نفسه استصلاح الرعية وحملهم على ما فيه رشدهم وقوامهم ؛ لما يلزمه من فضل العناية بالأخص والأولى فالأولى ، فإن فى أخلائكم من التقديم فى التأديب والتعهد ، وجوها من الضرر : منها : أنكم أولى بحسن الطاعة وسرعة الإجابة ، للطف محلكم وقرب مكانكم عند أمير المؤمنين .

ومنها : أنكم يأنس بكم المؤمنون ويقتدي بكم التابعون ؛ فحتى قصرتم وأخلتكم ، أقتنى أثركم من نصبتهم له أعلاما ، ثم لم يكن لكم أن تزروا عليه ، ولا أن تأخذوا فوق يده ، بل كان قينا أن يكون يسومكم الرضا بمثل ما سمعتموه ، ثم تجرى هذه العادة في الطبقات ، حتى يطرد السياق ، الى أن يستفيض الفساد في حشو الناس وعامتهم ، فلا تُعنى قوة ولا حزم ولا شدة ، إلا العجز والاضاعة ؛ ثم يجد الأعداء مَسَاغا الى الطعن والعيب ، فلا يملكون أن يهقوكم ويستولي عليكم النشل ؛ فإن الأيدي إنما تُبسط بِنِفاذ العزائم ، والعزائم إنما تُنفذ بثبات الحجّة ، والحجّة إنما تثبت إذا كانت عن الحق . وإذا أُضيع أول هذه الرسوم ، التي رسم لكم أمير المؤمنين ، تبعته تواليه وشفتته لواحقه ، ووجد العدو الملاحظ مكان العورة ، مطمئا في إهمال ما كان يعدله من الغزاة ، ويتوق به من مناهزة الفرصة ، وليكن ما تُفيضون فيه وتعدونه ظهيرا على طاعين إن طعن في دولتكم ، ما ألهم الله أمير المؤمنين : من شمول رعيته بالعدل ، وفرش الأمر في مضمراتها ومتقلبيها ، ورفع به عنهم من سير الجود ، وبسط به يده من إنابة أهل البلاء ، وتعمد الجرائم لأولى الزائل ، والإبلاغ في دعاء من عاند وشاق الى التوبة والإنابة ، وإقالة العثرة بعد القدرة ، والحقن لمباح الدماء ، فلم تعلموه صبر مجمل ، ولا هتك لأحد ممن أظفره الله به سِترا ، ولا وقفه على عورة . ثم تولى الله أمير المؤمنين ، في حروبه شرقا وغربا ، التي أغناه الله عن الإطباب في وصف صنع الله لكم فيها ، لاستفاضة أخبارها في دهمائكم ، مع ما أحب من مطالعته إياكم ببالغ أدبه وشافي عطفه ، أن يشكّب من الإسهاب ، في غير ما صمده ورأى من تقرير أسماعكم وأذنانكم ، لوعى ما التمس أن تعود من تبصيركم حضمكم ، وتبهيكم على رشدكم . وحسب أمير المؤمنين في نفسه وفيكم الله ، وكفى به مبينا .

وإن أمير المؤمنين مع ما تقدم به اليكم لعلّ ثمة من حياطة الله خلاقته التي جعلها عزرا لدينه وقواما لخلقته ، وأنه ليس بها ممن أدبر عن حقها آنتلال بل من خلع ربقتها وأضاع حظها منها ، جلب الخلة والحاجة وخسران الدنيا والآخرة . وإنما أتى

المُقَصَّرُونَ فِي إِعْظَامِ حَقِّهَا مِنْ ضَعْفِ الرَّوِيَةِ عَنْ بُلُوغِ مَا تُقْضَى بِهِمْ إِلَيْهِ مَصَادِرُ الْعَوَاقِبِ ، وَتُؤَدِّيهِمْ إِلَيْهِ رَوَاجِعُ مَا قَدَّمُوا ، فَلَا يَكُونُونَ بِعَمَلِهِمْ غَيْرَ مُتَجَاوِزِينَ بِهِمْ ، وَفِيهِمُ الَّذِي هُمْ فِيهِ إِلَى مَا يَمْتَنِعُهُ .^(١)

وَاسْتَدِيمُوا مَعَشَرَ الْمَسْلَمِينَ سَابِغَ النِّعْمَةِ بِمُحَمَّدٍ مُوَلِيَهَا وَالْمُتَطَوِّلَ بِهَا . وَقَدْ تَرَوْنَ مَا كُنْتُمْ فِيهَا قَبْلَهَا وَمَا آلَتْ إِلَيْهِ حَالٌ مِنْ سُلْبِهَا ، ثُمَّ يُعْقِبُ النَّدَامَةَ حِينَ لَا مُسْتَعْتَبٌ وَلَا نَظْرَةٌ يُمْكِنُ فِيهَا اسْتِقَالَةُ الْفَارِطِ بِتَقْصِيرٍ وَلَا هَفْوَةٍ زَلَالٍ . وَتَقْوَى مِنْ رِعَايَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مُحَمَّدٍ آتَارِكُمْ ، وَمَا مَضَى مِنْ بَلَاءٍ كُلِّ أَمْرٍ مِنْكُمْ ، بَمَا تَطْمَئِنُّونَ إِلَيْهِ وَتَتَوَقَّعُونَ عَادَتَهُ ، بِأَسْنَى مَا تَرْفَعُ إِلَيْهِ آمَالَكُمْ وَتَسْمُو إِلَيْهِ هَمَمَكُمْ ، إِلَى مَا يَدْنُرُ اللَّهُ لِمَنْ تَمَسَّكَ بِهَدَاهِ ، وَاعْتَصَمَ بِتَقْوَاهِ ، وَجَاهَدَ عَنْ حَقِّهِ ، وَإِفْيَا بِأَمْرِ عَهْدِهِ مِنْ جَزِيلِ ثَوَابِهِ وَكَرِيمِ مَأْبِهِ ، إِلَى الدَّارِ الَّتِي هِيَ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ : وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا .

أَحَبُّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَتَعَهَّدَكُمْ بِعِظَةِ تَلْبِيهِمْ عَلَى حِطِّكُمْ . وَتُثَبِتَ مِنْ بَصَائِرِكُمْ ، وَتَقْطَعَ مِنْ طَمَعِ الشَّيْطَانِ وَحَزْبِهِ فِيكُمْ ، لِيَأْتِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ إِرْشَادِكُمْ . وَيَرْجُو مِنْ تَأْدِيَةِ حَقِّ اللَّهِ عِزَّ وَجَلَّ فِيكُمْ ، وَلِيَأْتِيَ مِنْ اتِّصَالِكُمْ بِمَجْلِهِ ، وَمَا يَشْمَأُهُ مِنَ الصَّنِيعِ فِيهَا وَلَا كَمُ اللَّهِ بِهِ ، وَتَوَلَّاهُ لَكُمْ .

وَأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ يَسْأَلُ اللَّهُ الَّذِي دَلَّ عَلَى الدَّعَاءِ تَطَوُّلًا ، وَتَكْفُلُ بِالْإِجَابَةِ حَتْمًا ، فَقَالَ عِزَّ وَجَلَّ : ﴿ اذْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ ، أَنْ يَجْمَعَ عَلَى رِضَا أَلْفَتِكُمْ ، وَأَنْ يَصِلَ طَاعَةَ حَبْلِكُمْ ، وَأَنْ يُتَمَّعَكُمْ بِأَحْسَنِ مَا أَوْدَعَكُمْ مِنْ مَنَنِهِ . وَيُوزِعَكُمْ عَلَيْهَا مِنْ شُكْرِهِ . لَكُمْ مَزِيدَهُ ، وَأَنْ يَكْفِيَكُمْ كَيْدَ الْكَافِرِينَ ، وَحَسَدَ الْبَاطِنِينَ ، وَيَحْفَظُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فِيكُمْ بِأَفْضَلِ مَا حَفِظَ بِهِ أَمَامَ هُدَى فِي أَوْلِيَائِهِ وَشِيعَتِهِ . وَيَجْعَلُ عَنْهُ تَقَالُ مَا حَمَنَهُ مِنْكُمْ . وَبِاللَّهِ يَسْتَعِينُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ، عَلَى مَا يَنْسُو مِنْ جَزَائِكُمْ بِالْحَسَنِ ، وَحَمَلِكُمْ عَلَى الصَّرِيفَةِ الْمُثَلَّى ، وَبِهِ يَرْضَى نَاصِرًا وَوَلِيًّا ، وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا . وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ .

وللمأمون — لما كتبت إليه السيدة زُبَيْدَة بعد مقتل ولدها الأمين خطابها
الآتي تستعطفه :

كُلُّ ذَنْبٍ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِنْ عَظُمَ صَغِيرٌ فِي جَنْبِ عَفْوِكَ . وَكُلُّ زَلَلٍ وَإِنْ جَلَّ
حَقِيرٌ عِنْدَ صَفْحِكَ . وَذَلِكَ الَّذِي عَوَّدَكَ اللَّهُ ؛ فَأَطَالَ مَدَّتَكَ ، وَتَمَّ نِعْمَتَكَ ، وَأَدَامَ بِكَ الْخَيْرَ ،
وَرَفَعَ لَكَ الْوَجْهَ .

هذه رُفْعَةُ الْوَالِدِ الَّتِي تَرْجُوكَ فِي الْحَيَاةِ لِنَوَائِبِ الدَّهْرِ ، وَفِي الْمَمَاتِ لِجَمِيلِ الذِّكْرِ . فَإِنَّ
رَأَيْتَ أَنْ تَرْحَمَ صَعْفَى ، وَأَسْتَكَانِي ، وَقَلَّةَ حَيَاتِي ، وَأَنْ تَصِلَ رَحِمِي ، وَتَحْتَسِبَ فِيمَا جَعَلَكُ
اللَّهُ لَهُ طَالِبًا وَفِيهِ رَاغِبًا فَافْعَلْ ، وَتَذَكَّرْ مَنْ لَوْ كَانَ حَيًّا لَكَانَ شَفِيعِي إِلَيْكَ .

فكتب إليها المأمون :

وَصَلَّتْ رُفْعَتُكَ يَا أَمَانَةَ ، أَحَاطَ اللَّهُ وَتَوَلَّىكَ بِالرَّعَايَةِ ، وَقَفَّتْ عَلَيْهَا وَسَاءَنِي — شَهِدَ
اللَّهُ — جَمِيعُ مَا أَوْضَحْتِ فِيهَا ، لَكِنَّ الْأَقْدَارَ نَافِذَةٌ ، وَالْأَحْكَامَ جَارِيَةٌ ، وَالْأُمُورَ مُتَصَرِّفَةٌ ،
وَالْمَخْلُوقُونَ فِي قَبْضَتِهَا . لَا يَقْدِرُونَ عَلَى دِفَاعِهَا ، وَالدُّنْيَا كُلُّهَا إِلَى شَتَاتٍ ، وَكُلٌّ حَتَّى إِلَى مَمَاتٍ ،
وَالْعَدْرُ وَالْبَغْيُ حَنْفُ الْإِنْسَانِ ، وَالْمَكْرُورُ رَاجِعٌ إِلَى صَاحِبِهِ . وَقَدْ أَمَرْتُ بِرَدِّ جَمِيعِ مَا أَخَذَ
لَكَ ، وَلَمْ تَقْدِرْ مَنْ مَصَى إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ إِلَّا وَجْهَهُ . وَأَنَا بَعْدَ ذَلِكَ لَكَ عَلَى أَكْثَرِ مَا
تَخْتَارِينَ ، وَالسَّلَامُ .

(٥) أحمد بن يوسف^(١)

رسالة ممتعة لأحمد بن يوسف ذكرها ابن طيفور في اختيار المنظوم والمنثور وهي :

أما بعد فالحمد لله القاهر القادر الخالق الرازق ، فاطر السموات والأرض ، الذي أحاط بكل شيء علما ، ونطق به خبرا ، وأتقنه حكمة وعلما ، وألف بين مختلفه ومختلفه ، ليدل بقوام بعضه على بعض ، على اتصال تدير مشيئته ومبتدعه ، وأنه أحد صمد . لا يصد له ولا يند ، إذ قدر له حاجته ثم شدتها بلاغها إلى الغاية التي جعلها ، فقال جل وعز ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴾ وحكى عن نجيحه موسى عليه السلام ، ﴿ قَالَ رَبَّنَا الَّذِي آعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ ، وقال الله تعالى ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلَنَاهُ تَفْصِيلًا ﴾ ثم لم يكلف العباد من شكره كفاء نعمته ، بل رضى مهمم باليسير ، وقبل منهم العفو ، وجعل طاعتهم إياه عائدة عليهم بجزيل الحظ في دينهم ودنياهم . لغناه عن عبادتهم . وأوسع قدرته بالتطول عليهم ، مفتيحا وخاتما ، وبإدنا وابتدا .

الحمد لله الذي أصطفى محمدا صلى الله عليه وسلم . نبيا لرسالته . وأتممه على وجه . وأنزل عليه كتابه العزيز ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه . ولا من خلفه . تنزيل من حكيم حميد ، فأدى إلى خلقه الرسالة ، وأستنقدهم من الضلالة . وصدع بأمر ربه وجاهد في سبيله ، ونصح لأئمة حتى أتاه اليقين من ربه . بعد استناره الحق . وظهور نجة . فصلى الله عليه بشيرا ونذيرا ، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا قد تلافى من أخطأه . وجمع الألفة بعد الفرقة ، وأوضح الهدى بعد الدروس . ومعالم الرشيد بعد الظموس . وكان بالمؤمنين رحيا .

والحمد لله الذي قفى على آثار المرسلين . والأئمة الراشدين . الهادي اتقى ، الظاهر الزكى ، الإمام المأمون أمير المؤمنين . أعز الله نصره . فسدت لهمتهم ، ورأب صدعهم وقأدهم خلاقتهم ، وجعله لكافة المسلمين غيانا ورحمة . وجعل من أهداه من العدل والإحسان

(١) راجع ما كتبناه عنه في الصل العاشر من الكتاب . ثالث في الحمد لأور .

عصـ المأمون

إيهم . مِنَّة عليه ورحمة ذنَّرها له ، دون الخلفاء قَبْلَهُ ، فيما أظهر من فضل زمانه على الأزمنة ، وسياسة مَنْ تقدَّمه ، ومنح الرعية من عطفه ونظَّره ، ما لا يحلَّ عنهم أو به ولا يؤدي عنهم شكره ، الا هو لا شريك له ؛ وأحسن الله جَزاء أمير المؤمنين ومثوبته ، على صلَّة رَحِم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، التي هي رَحِمه وقربته ، وأختياره لولاية عهده الأمير الرضى على بن موسى ، حفظه الله ، حين أحمد سيرته ، ورضى محبته ، وعرف أستقلاله ، بما قلَّده في هديهِ ، ودينه ووفائه ، بما أكَّد الله به عليه ، من عهد أمير المؤمنين أيده الله ، في أعتيابه من ازره وأسَّاه بما شَفَّع رأيه ، وأنفَذَ تدبيره ، حين همَّ لأستصلاح ما أسترعاه الله ، من أمور عباده ، لما أتتقى القائم بدعوته ، ورئيس شريعته ، الأمير ذا الرياستين رحمه الله ، فاتخذهُ مَكاتباً ظهيراً ووزيراً دون من سواه ، فاتبع منهاج أمير المؤمنين أيده الله ، وسار بسيرته ، شرقاً وغرباً ، وغوراً ونجداً ، مُوفياً بعهده ، قائماً بدعوته ، مقتفياً لأثره وسُنَّته ، فحسَمَ اللهُ به الأذواء ، وقَعَ به الأعداء ، من عتاة الأمم ، وطواغيت الشرك ، وأباد على يده ، أهل الشقاق والنفاق ، في كلِّ أفقٍ وطرفٍ ، بجدِّ أمير المؤمنين أعزَّهُ اللهُ ، وبركة سياسته ودولته ، ونُجْح سَعَى من قام بُصيرة من قام بحقه . وأدبر بهانته . حتى توفاه الله عز وجل ، حين بلغ همته وغايته . وحَمَّ أجْله ، وأنقضت مدته ، سعيداً حميداً ، شهيداً فقيداً ، عند إمامه أكرمه الله ، وعند الخاصة والعامة . وكان من إجلال أمير المؤمنين ، الحادثُ الذى نزل به ، فأحيا آثاره ، بوصف محاسنه ، في مشاهدته ومجَامعِهِ ، وترجمه عليه عند ذكره ، وحَفِظَهُ في نُحْمته ، وأهل حُرْمته . وفيمن كان يمجِّد الله على طاعته ونصيحته ، ما أتمَّ به نعمته ، عندنا وعندكم معشر الشيعة . فقد أصبح أمرُكم منقطعاً ، وموقعه من جماعتكم متمكناً ، يقبضكم ما قبضه ، ويسطركم ما بسطه من أومة المصيبة . وحسن العُقْبى . وقد علمتم معشر أهل الحجا والنهى ، والطاعة لله عز وجل وخذلتمته . وذوى الغناء والبلاء في دعوته من أهل خراسان وغيرهم ممن حضر من أمتحن الله قلبه بوفاء العهد والاستبصار في حق أمير المؤمنين أبقاء الله ، والمجاهدة دونه . والصبر على مواطن الصدق والأداء . والدَّبَّ عن البيضة والحريم ،

والمتحملين للنَّصَب، والمصائب التي أَجَلَّتْ، حتى كأن لم تكن . وبقى أجزاها على الله عز وجل .
ومجودٌ ذكرها شائعا في الناس ، إن نِعِمَّ اللهُ ، قد جَلَّتْ ولَطُفَتْ . وَخَصَّتْ وَعَمَّتْ ، وَطَلَّتْ
وسَمَّتْ ، وتمت ودامت ، حتى قصرنا عن موازينها ، والإحاطة بأدائها ، فإذا لم يكن لنا
معشر إخواننا سببٌ إلى مكافأة بلائه بالعمل ، فنحن جُدراء أن نجتهد في القول . ونُظِيب
في الوصف إن شاء الله جلَّ وعزَّ ، فقد جعل ذكر الشُّمِّ من أسباب الشُّكْرِ ، وقد جَدَّدْنا
أُميرُ المؤمنين أيده الله من الحياة والكرامة ، وجزيل الحِيطَةِ ، وسنَى الرِّبَةِ التي قُورِي بها عليكم
كُتَابُهُ ما يَسْتَفْرِقُ جَهْدَنَا ، وَيَسْتَفْرِغُ وَسْعَنَا ، فَرُغِبْ إلى الله عز وجل ، ولي الرِّغْبَةُ ، ومُؤْتَى
السُّؤْلِ والطَّلِبَةِ ، في إعانتنا على تأدية ما وَجَبَ له ، فيما منحنا من فوائده ونَحَلَهُ . ثم نَسْتَرِفِدْكُمْ
ونَسْتَعِينْكُمْ على شُكْرِهِ ، وإمدادنا بما بَلَّغْتَهُ طاقَتِكُمْ في السَّعْيِ له فقد آدَانَا نِقْلُ ما حَمَلْنَا ، ونِقْلُ
ما طَوَّقْنَا ، وعَظُمَتْ فاقَتنا إلى آسْتِمْعَالِ القَوِيِّ من الأَنْفُسِ والحَامَةِ ، والخاصَّةِ والعامةِ ،
في جَزَاءِ ما جَلَّلَ أمير المؤمنين فينا من سُنَّتِهِ ، وشِمْائِلِها من تانِدِ أَيْدِيهِ وطَارِفِيها . وقد يَمِيها
وحدِيثِها ، وكيف يُوجَدُ إلى موازاة أمير المؤمنين سبيلٌ يبذل جَهْدَهُ ، أو يبلوغ حَشْدَهُ ، فإنما
نَقْتَدِي هُدَاهُ ، ونَعْشُو بنوره في ديننا ، وليس عَجْزُنا عن أن نَجْزِي حَقَّهُ ، بواضِعِ عَدَا مؤونَةٍ
الدُّووبِ في التَّحْزِي لتأديته ، فإن الله عز وجل ، قد أَخْبَرَ بِفَضائلِ الشُّكْرِ ومناقبِهِ ، وجعلهُ
من أسمائِهِ ، ﴿ وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ . وقد قال تعالى ﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَدَائِكُمْ
إِنَّ شُكْرُكُمْ وَأَمْنُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ . وقال تعالى ﴿ إِنْ تَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضْعِفْهُ
أَكْمُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شُكُورٌ حَلِيمٌ ﴾ . ولولا أن الله عز وجل رَضِيَهُ لِنَفْسِهِ ، لأَجَلَّناهُ عن
التَّسْمِيَةِ إذ كان أكثر ما نَسْتَعْمَلُهُ ، ونَعْرِفُهُ في مكافأة من مَنْ وَأَطْوَلُ ، ثم نَبِيٌّ بذكر فضلِهِ
في العباد ، فإن الله تبارك وتعالى أَفْتَحَ أول ما عَلَّمَ حَقِّقَهُ بِالْحَسَدِ . وجعلهُ بَدْءَ كُتَابِهِ ، وخاتمة
دعوة أهل جَنَّتِهِ ، فقال عز وجل . ﴿ وَأَحْرُدْ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ، وخالقُ الله
السَّمَوَاتِ والأَرْضِ ، ومن بَرَّ وَذَرَأَ في الحياة يُبَلِّغُوا عِبَادَهُ بِشُكْرِهِ . وأَعَدَّ اجْزِيَةَ في الآخِرَةِ
لمن شُكْرَهُ ، والنارَ لمن كَفَرَهُ ، وقال الله تعالى : ﴿ وَيَذَرِّيذُنَّ رَبِّكُمْ لِيُنَّزِلَنَّ لَكُمْ مِنْ سَمَوَاتِهِ
سُحُوفًا مَسْكُومًا ﴾ .

كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۖ قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُشْكُرُونَ ۗ ﴾ ، فحمل التقوى واقعة ، والشكر مرجوا ليدل على ارتفاع رتبته ، وعلو درجته عنده ، وقال لنبيه موسى عليه السلام : ﴿ إِنِّي أَصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَيَكَلَامِي نَحْنُ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ۗ ﴾ . فلم يكلفه الا أخذ ما أعطاه ، والشكر على ما آتاه ، وأخبر بعزته في العباد . فقال تعالى : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ ۗ ﴾ ، فأية نعمة أجل قدرًا ، وأسمى أمراء . معشر الشيعة من نعمة أمير المؤمنين ، أيده الله ، عند الأمير ذى الرياستين ، ومراتبه التي رتبها بها ، فإنه أعطاه رياسة الحرب . ورياسة التدبير ، وعقد له على رأسها علمًا في رواية دعوته ، وقلده سيفهما وختمه بحاتم الخلافة ، وخاتم الدولة ، وجعل صلاته بين صاحب حرسه ، وصاحب شرطته . ومسيره بين أمير المؤمنين وبينهما ، أمامه وخلفه ، وصير له الجلوس على الكرسي بحضرته ، في صدر كل مجلس جلس . الا أن يُؤثر به من أحب من أبناء الخلفاء . وقدمه في دخول دار الأمير راجعا الى أقصى مكان ينتهي إليه أحد من بنى هاشم ، لأنه منهم ، وأعظمهم غناء عنهم ، فسماه صاحب دعوته وسيفه على عدوه وبابه الذي يدخل اليه منه ، وولاه خيوله في أقطار الأرض . ومقدمته بحضرته ، وقلده من الثغور ما قد علمت . بما أوردته في عهده ، الى ما أنقذه من أمره ، في جميع سلطانه ومملكه ، من مشارق الأرض ومغاربها ، وأين يأتي الوصف على ما فضله به ، وقدمه وشرفه على الناس كافة . ونكنا محظُر بذكره . ثم نكل السامعين الى ما يرجعون إليه من المعرفة التي لا تبلغها الصفة ، ثم لم يكن ما أكرمه به في حياته بأعلى مما أكرمه به في وفاته ، تولى غسله وتكفينه ، ومباشرته لخهازده ، الى حفرة بيده ، وقاسى من النقص ، وبرحاء الحزن ، وإدراء العبرة ، وإراقة الدمعة ما حال بينه وبين الكلام . وكاد يمنع من القول والدعاء في صلته نليه ، من الحكم ، وحفظ أهل الحرمة ، به رعاية له فيهم . ووفاء بعهده من بعده ، وأقر خاصته ، وقواده وعماله . وكتابه على مراتبهم ، وحيد بحمده ، وذم بذمه ، وجدد بخنده ، وتل كريتته ، نظرا وعظما ، فلم يبق عليه في إحياء ذكره ، وبلوغ كل ما يحبه في حياته غاية الا أتى من ورائها ؛

وأمر بقراءة قُتُوحة، كما كانت تُقرأ على عهده، وأضاف كل ما حَدَّث من بعده الى ما تقدم من سعيه، وأخبر أنه كان سببه، والمفتتح به، وولى محمد بن الحسن خِلافه، ونصبه منصبه، وأقامه مقامه الى أن جدد العهد لى. فاستخلفته على ما ولى بحضرتة، ثم تتابعت كتب أمير المؤمنين، أكرمه الله بعد مصاب الأمير ذى الرياستين، بما لا يقارب التفضيل، والإطلاق والتفويض الذى كنتم سمعتم به وبلغكم، فلم يكن يرى وراءه مجازاة، ولا فوقه مَصْعَدًا، حتى جدد لنا من كرامته، ما قد قرئ عليكم فى كتابه. فبلغ بنا ما لم تكن اهتم بتلغه، والأمانى لِئَحْيِطَ به، لولا ما منحنا الله عز وجل من الترقى فى الفضل. انى ما تحسّر من دونه الأبصار، وتتقطع دونه الآمال، وإنما أقتصصناه وذكرنا ما أبلانا وأصطع عندنا من بلائه بدعائنا الى الله عز وجل، والى طاعته بالعدل والإحسان انى رعيته والنظر بالصفح، والأخذ بالفضل، والأمر بالمعروف، وصلة المروءة بالوفاء بالعهد، والشكر للئن، ورعاية الأخلاق المحمودة، وإحطاء أهلها، وإقامة سوقها، حتى تنافسوها وتساخوا فيها، وصارت هى الدرائع اليه، والوسائل عنده، فلو تأمل متأمل أهل الرقة، والأثرة لديه، لوحد الأخص فالأخص، والأعلى قدرا عنده هو الأفضل دينا ومروءة. فلو لم يكن فى الحظوة عنده إلا إيجابها لصاحبها صحة المحبة. والتزاهة عن كل ظنة. لكان فيها أعظم العبطة. وأعدل الشهادة والدلالة، وستنص عليكم بما أخبرناكم عنه مالا سبيل الى مجده وإنكاره. بوضوح معاملة ومنائره، أو ليس المجاهد عن دين الله. والمحمى عن بيضة المسامين. والمواتى لأغظ عدوهم شوكة، وأخوفهم عداوة، والمُنْجِح فى بلادهم. بمن كان لا يرام. ولا يحاول لاستصعابه وشدة مقاساته، حتى أذعن جينويه بالعبودية له. ثم أباح حرمة حين تمرد عليه، حتى بلغ السبى الى ولده. وحادونا به. وتغلغات خيونه. حتى توصب الى قبته، ومنتهى عزه، أو ليس مسكن التهيج بالمشرف. حتى حبت المراز فيه. وأذعن رؤساؤها وقادتها. أو ليس غازى بلاد بابل حين طغى أمرها. وبذل ونكث ونقص. حتى أجتئت أرومته، وأباح حرمة، وأراح المسلمين من معتوته، أو ليس راء المغورة ومحصن

عَوْرَاتِهَا . وَالْمَبَاسِرَ لِتُدْبِرْهَا ، وَالْمُسْعِدَا الْمُكَايِدَةَ الْمُدْجِحَ فِيمَنْ أَرَادَهَا ، وَقَالَ الْعُنَاةُ ، مِنْ رِقِّ
 الْإِسَارِ . وَنَاشِرَ الرَّحْمَةَ عَلَى فَقَرَاءِ الْمَسَالِمِينَ وَضَعْفَائِهِمْ وَأَهْلِ الْمَسْكِنَةِ ، وَالخَلَّةَ مِنْهُمْ ، وَقَاسِمَ
 الصَّدَقَاتِ فِي أَهْلِهَا ، وَعَاوِمَ الْمَوْسِمِ وَمَحْصَنَهُ مِنَ الْآفَاتِ حِيَاطَةَ لِلْمَسَالِمِينَ فِي حَجَّتِهِمْ ،
 وَمَا يَتَقَرَّبُونَ بِهِ إِلَى رَبِّهِمْ ، وَهَلْ أَقْتَرَنَ لِأَحَدٍ مِنَ الْأُمَّةِ مَا أَقْتَرَنَ لَهُ فِي الْمَلِكِ وَالِدِّينِ وَالْعَزَّ ،
 وَالتَّوَاضِعِ وَالسَّعَةِ . وَالبَدْلَ وَالْقُدْرَةَ . وَالْعَفْوَ وَالغُلْظَةَ ، وَاللَّيَانَ فِي مَوَاضِعِهَا ، وَالنَّسْكَ مَعَ
 الْهَمَّةِ . وَالسُّطُورَةَ مَعَ الْإِقَالَةِ ، وَهَلْ تَرَكَ مَعْشَرَ الْأَوْلِيَاءِ وَالْإِخْوَانَ فِي الدِّينِ غَايَةً لَمْ يَسْمُ بِهَا إِلَى
 شَرَفِهَا ، وَعَلَى مَرَاتِبِهَا ، وَمُسْتَرَادِ الْحِطِّ فِي عَاجِلٍ وَأَجَلٍ ، لَمْ يَبْلُغْنَاهُ وَنَخْتَارُ لَنَا خَاصَّ مَكْرَمَتِهِ ،
 وَمُدْخَرَ عَاقِبَتِهِ . أَرَشَدْنَا إِلَى الدِّينِ ، وَسَلَّكَ بِنَا سُبُلَ الْجَنَّةِ ، حَازَلْنَا الْمَلِكَ . فَلَمْ يَبْقَ وَرَاءَ
 مَا مَلَكَتْهَا غَايَةً ، وَوَرَدَ بِنَا الْحُرُوبَ وَسَاسَهَا لَنَا ، فَلَمْ يَدَعْ غَايَةً لِلتَّعْلِيمِ وَالتَّدْرِيَةِ ، سُلِّطَ عَلَيْنَا
 بِسُلْطَانِ اللَّهِ الَّذِي أَنَاهُ فَلَمْ يَدَعْ غَايَةً فِي التَّقْلِيدِ وَالْفَقْهِ . فَكَمْ عَلَّمْنَا الْفَضَائِلَ ، ثُمَّ فَضَّلْنَا بِهَا ،
 غَلَبَ لَنَا الْأُمَّمَ . ثُمَّ خَوَّلْنَاهَا . عَلَّمْنَا طَرَائِقَ الشَّرْفِ ، ثُمَّ شَرَّفْنَا بِهَا . أَخْبَرْنَا عَنِ الْأَنْبَاءِ فَكَفَّمْنَا
 مَوْوِنَةَ التَّمَاثِيَا ، وَأَغْنَانَا بِمَا عِنْدَهُ فِيهَا ، أَخَذَ عَلَى أَيْدِينَا الْخَيْرَ لِلرَّعِيَةِ ، فَوَهَبَ لَنَا شُكْرَهَا ، وَصَدَّقَ
 مَقَالَتَنَا عِنْدَ الشُّمَّةِ ، وَأَنْقَذَ أَمْرَنَا فِي التَّدْبِيرِ .

فِيهَا آيَةُ الْإِمَامِ الْمَنْصُورِ الْمَهْدِيِّ الرَّشِيدِ حَزَتْ فِضَائِلَ الْآبَاءِ ، وَأَهْتَدَيْتُ بِهِدْيِ
 الْأَنْبِيَاءِ . أَنْشُكْرُكَ عَنِ الْإِسْلَامِ . فَأَنْتَ الْقَائِمُ بِهِ الدَّاعِي لَهُ ، وَالنَّاصِرُ لِحَقِّهِ ، أَمْ نَشْكُرُكَ
 عَنِ الْأَمْصَارِ . فَأَنْتَ الْمُفْتِيحُ لِمَتَعِهَا عَنُودَ . وَالْمَتَطَوِّلُ عَلَى أَهْلِهَا بِالرَّحْمَةِ ، وَالْمَنْعُطِفُ عَلَيْهِمْ
 بِحَسَنِ الْفَائِدَةِ بَعْدَ مَا هِيَجَتْ مِنْكَ سُورَةُ الْغَضَبِ . فَأَطْعَمْتَ نَارَهَا . وَأَحْمَدْتَ لَهَبَهَا ،
 وَعُدْتِ عَلَى مَنْ سَفِهَ . وَأَضَاعَ حِظَّهُ ، أَمْ نَشْكُرُكَ عَلَى الْمَسَاجِدِ . فَأَنْتَ الَّذِي أُسِّسْتُهَا عَلَى
 التَّقْوَى . وَعَمَّرْتَهَا بِتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ . وَطَهَّرْتَ الْمَنَابِرَ وَرَوَّجْتَهَا . تَعَلَّوْهَا صَائِمًا . وَتَنَطَّقُ عَلَيْهَا
 صَادِقًا . وَتَدْعُو إِلَى الرَّسَدِ عَلَيْهَا نَاحِحًا . وَتَحْتَمُّ الْقُرْآنَ قَبْلَ أَنْ تَبْدَأَهَا مُحْسِنًا ، وَتَتَلُو مِنْ قَوَارِعِهِ ،
 مَا تَصِيخُ لَهُ الْأَسْمَاعُ وَتَلِينُ لَهُ الْقُلُوبُ ، أَمْ نَشْكُرُكَ عَلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ، وَالرَّكْنِ وَالْمَقَامِ ،
 وَالْحِجْرِ وَزَمْزَمَ ، وَمَشَاعِرِ الْحَجِّ . وَأَنْتَ ذَبَبْتَ عَنْهَا ، وَأَعَدْتِ إِلَيْهَا عَهْدَهَا ، فِي مَبْعَثِ نَبِيِّهَا ،

صلى الله عليه وسلم ، فأمنتَ النازع إليها ، من كلِّ فجٍ عميق . وخالقن بها من الركوع
والسجود ، أم نشكرك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيما حتمت فيهِ من عثرته ،
بعفوك عن مجرمهم ، ومضاعفتك ثوابَ محسنهم ، وإحيائك من أمرهم ، كان قد آندرس
وأنطمس ، بعد اللقاء بنبي الله صلى الله عليه وسلم ، وقد راعيت منه في قرابته وقربتك .
وذوى رحمه ورحمك ، ماضيع الناس . ووصلتَ منهم ما كان وصله ، إذ كان الله عز وجل .
قد فرضَ صِلَةَ الأرحام ، فكان أطوع خَلق الله عز وجل فيما قرَضَ عليه . أم نشكرك
عن العوام . فقد ألبست المسلمين ثوبَ الأمن . وأذقتهم طعم السَّعة والزَّفاهة . وعدَّنت
بينهم بالإنصاف ، وتوليت دونهم النَّصَب ، وآوتهم الراحة . أم نشكرك عن الملوك والقواد
والأجناد ، فأنت الذي رفعتَ منازلهم . ووقرتَ عددهم . فلم يكن في دهر أحدٍ من الخفاء
أسعدَ ولا أخطى منهم في سلطانك ، بما بذلتَ لهم من المعاون . ووليتهم من الغور
والأمصار ، وأدررتَ عليهم من الأرزاق والخواص . أم نشكرك عن الأحكام والسِّنن . فأنت
الذي أنهجتَ سبيلها ، فأوجبتَ فرضها . ونافستَ في أهلها ، أم نشكرك عن الأعداء فأنت
الذي بدأتهم بالهجرة . ودعوتهم إلى الفِئمة والإِنابة . ثم ثبتتَ معقبا بالعفو . ونعشتهم بعد
البؤس ، وآنتهم من الوحشة ، أم نشكرك على مكاره الأخلاق . وأنت الذي ثبتتَ وطأتها .
ونفيتَ عنها أضدادها ، ولو نطقَت بالفضل . لنصقتَ بشكرك . في إزالتك إيها عن اللثام .
وإخطائك من آعترى إليها ، أم نشكرك عن الغور . فأنت الذي تَممتها . وحصنتَ عورتها .
أم نشكرك عن السلف . فأنت الذي أشدَّتْ بفعالهم . وحَفَظتَهم في أبنائهم . أم نشكرك عن
بُرد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعن القضيبي الذي تنحَّص به . حتى جعلتهما زينتك .
وسموتَ بهما في أعيادك ، عند حشدك . على الطَّهر والزكاة ، والنسك والتقوى . أم نشكرك
عن المسلمين في رعايتك إياهم ، وما نزعهم من جنابك . وتمي عنهم من الآفات . وتميل
عنهم من جباة الكفر . وتفض من جيوش الشرك والنكث . وتفتح من أخصون
المُستصعبة . وتسهل من الطُّرق الوعرة . أم نشكرك عن تواضعك لله عز وجل ونصائح

المسلمين طلبا للرفعة عند الله، أم نشكرك عن الدين وقد جعلت السلطان عبدا وفاندا ومنقذا . وكان مأورا بجماعة آسرا، وآلة للقوة بجلت القوة له آلة، فيأمن اتصل شكره بشكر الله عز وجل، ونعمته بنعمة الله تعالى وطاعته، بطاعة الله فوهب الله لك شرف المنازل، ورقاك درج الفضائل. وجزاك الله عنا وعن غيرنا. مما شكر من ناطق أو صامت، جزيل الثواب ورفيع الدرجات. وأمتك ما أتاك وأمتع الأمة ما أتاهم منك، والحمد لله ذي الرغبات، ومتمم الصالحات، شكريا لب العالمين. فإنه مبلغ طاقتنا، ومُنْتَهَى جَهْدِنَا، وبه نستعين على تأدية فرائضه، أنه لا يعين على ذلك الا هو. أحببت أن نشكر اليك أمير المؤمنين أيده الله، اذ ورد على من أنعمه وفضاله. ما لا يبلغه بالفعل، وأن يكون ما أقصصنا عليكم. داعيا لكم، الى أن تشكروه عنا، وعن أنفسكم، وعن الإسلام والمسلمين، ورجوت بما وقفنا الله له، فيما شرحنا وأوضحنا، من الدلالة والبيان أن يكون مجتمعا يتنفع به من حضرة، ومن عسى أن يُؤدَى إليه الخبرُ عنا، أو حدث بعدنا، وضنت بهذه المكرمة الرائعة، والمائزة البارعة، التي أدت بها الله لأمر المؤمنين، أعز الله نصره، وأفرده بها، دون الأئمة والخطباء، أن تمر بالاسماع صفحا، وتجنأز على القلوب سهوا، حتى تُؤكَّد بالشواهد والبرهان، ليقب ذكُرها ونفعُها في الخُلوْف والأعقاب، ونحن نسأل الله عز وجل الذي جمع بأمر المؤمنين — مد الله في عمره — ألفتنا، وعلى طاعته أهواءنا وضمائرنا، وأنالنا من الغبطة في دولته وسلطانها، ما لم تُجْهِد شِيعَةَ إمام، ولا أنصار خليفة، أن يُتم نور أمير المؤمنين، ويُعل كعبه، وتمتعا مقامه، حتى يبلغه سؤاله وهمته في الاستكثار من البر وأدخار الأجر،

مدد وانسداد، وانسداد، وبرا به الصدع، ويصلح على بدنه الفساد ويرتق به فهو هدهد، ويخجن بسياسة ونكايته في عدوها. ويتابع الفئوخ في بلدانهم حتى يؤتبه من نُجْح السعي. ورضايب الخط في الدنيا. ما يجزل عليه ثوابه في الآخرة، وأرشد الذين يقول لهم. فإنا نأمر الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله

ومن توقعاته نقلا عن كتاب الصولى .

وقع الى عامل ظالم « الحق طريق واضح لمن طلبه تهديده محجته ولا تخاف عثرته
وتؤمن فى السر مغبته فلا تستقلن منه ولا تعدلن عنه فقد بالغت فى مناصحتك فلا تحوجنى
الى معاودتك فليس بعد التقدمة اليك إلا سطوة الإنكار عليك » .

ووقع فى عناية بإنسان الى بعض العمال « أنا بفلان تام العناية وله شديد الرعاية وكنت
أحب أن يكون ما أرعيتته طرفك من أمره فى كتابي مستودعا سمعك من خصاىي فلا تعدلن
بعنايتك الى غيره ولا تمنحن بعقدك سواه حتى تنيله إرادته وتجاوز به أمنيته إن شاء الله » .

وفى كتاب ابن طيفور من توقعات أحمد بن يوسف الشئ الكثير فارجع ليه
إن شئت .

(و) رسائل سهل بن هارون^(١)

من كلامه :

حكى الجاحظ قال : — لقي رجل سهل بن هارون فقال : هب لي ما لا ضرر به عليك ؛ فقال : وما هو يا أحمى ؛ قال : درهم ؛ قال : لقد هونت الدرهم وهو طامع الله في أرضه

(١) هو من أبناء العرس وكان من رجالات بلاغة والعلم والحكمة في دولتي الرشيد والمأمون ، وقد وضع كتابا حاكى به كتاب كيلة ودمة وسماه « نغلة وعنزة » . وكان قيم بيت الحكمة (مدير دارالكتب) في عهد المأمون . ولد مسهل بن هارون في مدينة ميسان بين واسط والبصرة ، وفي رواية في دستمسان كورة بين الأهواز وواسط والبصرة ، في أواخر النصف الأول من القرن الثاني تقديرا ، ولا يعرف من نسبه إلا أنه سهل بن هرون بن راهون (راهبون) وكنيته أبو عمرو . فارسي الجنس . أهوازي أو حوزي المولد ، عراقى المنشأ ، تحول الى البصرة في سن لم تعرف ، وكانت البصرة إذ ذاك مدينة العلم في الدولة الاسلامية ، بل مدينة العلم في العالم كله ، أو كما قيل فيها « قبة الإسلام ، وحرارة العرب » حوت من العلم الانساني أصوله وفروعه ، ومن القاميين على تيمته مصاقفه وغفوله ، فغذى روحه بلبان محاسنها وبج معها ، واستنار عقله بما اقتبسه من نور معارفها فتخرج بمنابها ، ولا شك أنهم كانوا طبقة عالية جدا ، في كل مطلب من مطالب الآداب . وقيل : أن سهل بن هارون كان شيعيا ، وشيعة العراق في زمنه كانوا على الاطلاق معتزلة ، ولم يؤثر عنه أنه تنقص أحدا من الصحابة الكرام ، بل عرف بالاعتدال مع الأموات ، إعتداله مع الأحياء ، وما أثر عنه أنه خاض عمار مباحث الكلام التي كانت على أشد حرارتها إذ ذاك ولا سيما في البصرة ودار السلام بغداد ، وأتهموه بأنه كان مع الشعو بين الذين يصغرون شأن العرب ، ولا يرون لهم على المعجم فضلا ، وبذا صححت هذه التهمة فن الصعب التوفيق بين مذهب من يقول بالشعوية ومن يقول بالتشيع ، على المعنى الذي فسر به بعد قرون .

وصفه الجاحظ فقال : « كان سهل سهلا في نفسه ، عشيقا للوحه ، حسن الشارة ، بعيدا من الغدامة (الغى) معتدلا القامة ، مقبول الصورة ، يقضى له بالحكمة ، قن الخبرة ، وبرقة الذهن ، قن المخاطبة ، وبدقة المذهب ، قبل الامتحان ، وبالنبيل ، قبل التكشف (الظهور) . وكان الجاحظ مازجه وثافته . وقيل لحراني ولعله ابراهيم بن ذكوان كاتب الهادي ووزيره ، يملك وبين سهل بن هارون صداقة فأنته لنا كي نعرف ، فقال : « هو كالخير ، وازن العلم ، واسع الحلم ، إن حودث لم يكذب ، وإن موزح لم يفضب ، كانهيث أين وقع ، نفع . وكالشمس حيث أولت ، أحييت ، وكالأرض ما حملتها حملت ، وكالماء طهورا للتمسه ، ونافع لقله من حر إليه ، وكالهواء الذي تقطف منه الحياة بالنسيم ، وكالنار التي يمش بها المقرر ، وكالماء التي قد حسنت بأصناف النور » . ٥٠١ . صورتان جميلتان في وصف سهل صورهما مصوران مبدعان غاشا بقره ، وهنئما بخلفه وخلقه .

وأتهموا سهل بن هارون دلبل وأوردوا له قصصا ونوادير ، وربما كان آتهمه بالبخل مبالغا فيه تراد به التكنة والمادة ٥٠١ . من محاضرة للاستاذ الباحث السيد محمد كرد علي ألقاها بالجمع العلمي العربي دمشق ونشرها بجملي التجميع والتقتضف .

لا يعصى ، وهو عُشر العشرة ، والعشرة عشر المائة ، والمائة عشر الألف ، والألف دية المسلم ، ألا ترى الى أين أتته الدرهم الذى هونتته ، وهل بيوت الأموال إلا درهم على درهم ! فانصرف الرجل ؛ ولولا أنصرافه لم يسكت .

وحكى دِعْبِيلُ الخزاعى - الشاعر قال : أقفنا يوماً عند سهل بن هارون ، وأطلنا الحليث حتى أضرَّ به الجوع ، فدعا بغذائه فَأَتَى بِصَحْفَةٍ فِيهَا مَرَقٌ تَحْتَهُ دِيكٌ حَرِيمٌ ، فأخذ كسرةً وتفقد ما فى الصحفة فلم يجد رأس الديك فبقى مطرقة . ثم قال للغلام : أين الرأس ؟ قال : رميتُ به ؛ قال : ولم ؟ قال : لم أظنك تأكله ؛ قال : ولمَ ظننت ذلك ! فوالله لاني لأمقتُ من يرمى برجله فكيف برأسه ! ولو لم أكره ما صنعت الا للطَّيْرَةَ والفأل لكِهْتُهُ ، أما علمت أن الرأس رئيس يُتَفَاءَلُ به ، وفيه الحواس الخمس . ومنه يصيح الديك ، ولولا صوته ما أريد . وفيه فرقه الذى يُتَبَرَّكُ به . وعينه التى يضرب بصفاها المثل فيقال : شرابُ كعين الديك ، ودماغه عجب لوجع الكليبة ، ولم أرَ عظمةً قطُّ أهش تحت الأسنان منه ، وإن كان بلغ من نُبُك أنك لا تأكله . فعندنا من يأكله . أو ما علمت أنه خيرٌ من طرف الجناح ومن رأس العنق ! أنظر أين رميته ؛ فقال : والله ما أدري ؛ قال : أنا والله أدري ! إنك رميت به . والله فى بطنك . والله حسيبك .

ومن مؤلفاته كتابُ البخلاء .

ولما صنَّف سهلٌ كتابه فى البخل أهداه الى الحسن بن سهل وأسماحه . فكتب إليه الحسن : قد مدحت ما ذمَّه الله ، وحسنت ما قبحه الله ، وما يقوم بسداد . هناك صلاح لفظك ، قد جعلنا ثواب مدحك فيه قبول قولك ، فما نُعطيك شيئاً .

وأتهم سهلُ بن هارون بالبخل واوردنه فى ذلك قصصٌ وبيادرٌ وعده الجاحظ من "متعاقلى البخلاء وأنحاء العلماء" قال : ما علمتُ أن أحداً جرَّد فى البخل كتاباً إلا سهل بن هارون ، وأبا عبد الرحمن الثورى . والبخل فى الفرس غالب فى الجملة . غيبة الكرم على

طبائع العرب ، فاقضى ذلك التفريط الذى رآه سهل فى تبذير العرب ، أن يدلى لقومه بأرائه المفرطة فى الاقتصاد والإمساك . وما شُهد قط تفريطاً آو إلى جانبه إفراط .

كتبه وطريقته فى التأليف :

كان سهل بن هارون مُنقطع القرنين فى صنوف العلم والآداب ، وناهيك بعالم كبير كالجاحظ كان يؤلف الكتاب الكثير المعانى ، الحسن النظم ، فيُسبهُ الى نفسه فلا يرى الأسماع تُصنِى اليه ، ولا القلوب تيمُّ نحوه ثم يؤلف كما قال عن نفسه ، ما هو أنقص منه مرتبة وأقل منه فائدة ، فينحله عبد الله بن المقفع ، أو سهل بن هارون ، فيُقيل الناس عليها ، ويسارعون الى نسخها .

ويقال إن طريقة سهل فى كتابته طريقة أمير المؤمنين على بن أبى طالب لا يتكلف لكلامه ، فلا يُشاهد فيه الناقد أمر التعمُّل ، بل لا يكلف بغير إرسال النفس على سيجتها ، فهو وأبن المقفع والجاحظ على غيرِ واحد .

وقيل إن سهلاً كاتب سلاطين ، والجاحظ مؤلف دواوين . وكان كلامه نعمة موسيقية تُعرف آتباء جملته من رثتها بعد أن ملكت عليك مشاعرك ، لا يحفل بالأبجاء إلا إذا مادت عقوَ الخاطر ، شأن بلغاء الصدر الأول . وكان يقول الشعر وأكثر شعره مما أملاه قلبه ، فى غرض من أغراض المجتمع . وعده الجاحظ من الخطباء والشعراء الذين جمعوا الشعر والخطب والرسائل الطوال والقصار ، والكتب الجبار المجلدة ، والسير الحسان المولدة ، والأخبار المدونة . ولقبه مرةً بالكاتب ، ولعل لقب الكاتب فى شرفه أكبر من عالم . وذكره ابن النديم فى البلغاء وقال : إنه ساعرٌ مُقِلٌّ ، وعده فى الشعراء الكُتاب . وقال : إنه كان ممن يعمل الأسمار والخرفات على ألسنة الناس والطير والبهائم هو وعبدُ الله بن المقفع وعلى بن داود كاتب زبيده . وشعره خمسون ورقةً . أما الدهشة فى تأليفه ، فله ديوان رسائله ، وكتاب النمر والثعلب ، وكتاب اسباسيوس (أسانوس) فى اتخاذ الإخوان ، كتاب أسد بن أسد ، كتاب سحرَةِ العقل ، كتاب تدبير الملك والسياسة ، كتاب الى عيسى بن أبان

في القضاء، كتاب الفرس، كتاب الغزاليين، كتاب ندود وودود وأدود، كتاب الرياض، كتاب ثعلبة وعفراء، (وفي رواية ثعلبة وعفراء) على مثال كتاب كليلة ودمنة، قلده في أبوابه وأمثاله .

وقال المسعودي: يزيد عليه أي على كليلة ودمنة في حسن نظمه وقد صنّفه للمأمون .
ومن تأليفه: كتاب الهزلية والمخزومي، كتاب الوامق والصدراء إلى غير ذلك من المصنّفات التي لم تبق الأيام وبالأأسف على واحد منها فيما علمنا .

دخل سهل على الرشيد وهو يضاحك المأمون، فقال: اللهم زد من الخيرات، وأبسط له من البركات، حتى يكون في كل يوم من أيامه مُرِيّاً على أمسه، مُقصرًا عن غدّه، فقال الرشيد: يا سهل، من روى من الشعر أحسنه وأرصنه، ومن الحديث أفصحه وأوضحه، إذا رام أن يقول لا يعجزه القول؟ فقال سهل: يا أمير المؤمنين، ما ظننت أن أحدا تقدمني إلى هذا المعنى، قال بل أعشى همدان حيث يقول:

رأيتك أميس خير بني لوى * وأنت اليوم خير منك أميس

وأنت غداً تزيد الخير ضعفاً كذاك تزيد سادة عبد شمس

وقد شهد مقتل البرامكة في سنة ١٨٧هـ وحدث في كان عليه يحيى وجعفر من البلاغة فقال: إن سبّاحي الخطب، ومُجبري القريض عيال على يحيى بن خالد بن برمك وجعفر بن يحيى، ولو كان كلاماً يتصور درأً، ويحييه المنطق السريّ جوهرًا . لكان كلامهما، والمُنتقى من لفظهما، ولقد كانا مع هذا عند كلام الرشيد في بديته وتوقعاته في كُتبه. فذمّين عيين، وجاهلين آميين، ولقد تحمّرت معهم. وأدركت طبقة المتكلمين في أيامهم، وهم يرون أن البلاغة لم تُستكمل إلا فيهم، ولم تكن مقصورةً إلا عليهم. ولا أفادت إلا هم. وأنهم محض الأناج، وأبواب الكرام، ومبئج الأيام. عسق مصر. وجوده مخبر. رجالة منصوص، وسهولة لفظ، ونزاهة نفس. وكتل خصال. حتى لو حرت. نينا بقليل أيامهم. والمأثور

من خصّاهم ، كثير أيام من سواهم من لُذْنِ آدَمَ أيهم الى النفخ في الصور، وأبتعات أهل القبور، حاشا أنبياء الله المكرمين، وأهل وَحْيِهِ المرسلين، لما باهتِ إلّا بهم، ولا عولتُ في الفخر إلا عليهم، ولقد كانوا مع تهذيب أخلاقهم، وكريم أعرافهم، وسعة آفاقهم، ورفق ميثاقهم، ومعسول مذاقهم، وبهاء إشراقهم، ونقاوة أعرّاضهم، وتهذيب أغراضهم، وآكتمالِ خَلَالِ الخير فيهم، الى ملء الأرض مثلهم في جنب محاسن المأمون كالنّفثَةِ (التفلة) في البحر، والحدّلة في المهمة القفر.

قيل : وهذا الكلام على ما فيه من حقيقة في بيان سجايا البرامكة والرشيد والمأمون لم يختم بالنصفة الحقّة ، ومال به سهل الى المصانعة ، ونحرجه على نحو مبالغة الفرس ، في الإطراء والمآق لولى الأمر .

وروى بعض الرواة أن المأمون كان استقل سهل بن هارون ؛ وقد دخل عليه يوما والناس على مراتبهم ، فتكلّم للمأمون بكلام ذهب فيه كلّ مذهب ، فلما فرغ من كلامه أقبل سهل بن هارون على الجمّح فقال : مالكم تسمعون ولا تعون ، وتُشاهدون ولا تُفقهون ، وتفهمون ولا تتعجبون ، وتتعجبون ولا تُصِفون ! والله إنه ليقول ويفعل في اليوم القصير ما فعلَ بنو مروان في الدهر الطويل ، عَرَبَكُمْ كعجمكم ، وعجمكم كعبيدكم ، ولكن كيف يُعرّف بالدواء من لا يشعرُ بالداء . فرجع المأمون فيه الى الرأى الأول ؛ وعرف أنه الرجل كلّ الرجل ، فقرّبه وأدناه على النحو الذي كان عليه في عهد والده .

ومن كلام له في كتابه تعلقة وعفرة :

”اجعلوا أداء ما يجبُ عليكم من الحقوق مُقَدِّمًا قبل الذي تجودون به من تفضلكم ، فإنّ تقديم النافلة مع الإبطاء في الفريضة شاهدٌ على وهن العقيدة ، وتقصير الرّويّة ، ومُضَرٌّ بالندبير، ومحلٌّ بالاختيار، وليس في نفع تجمّد به عوض من فساد المروءة، ولزوم النقيصة“ .

وهذا مأخوذ من قوله في يحيى بن جعفر :

عدوُّ نِلاَدِ المَالِ فيما يَنْسُوبُهُ * مَنْوعٌ إذا ما مَنَعَهُ كانَ أَحْرَمًا
مُدَلَّلٌ نَفْسٍ قد أَبَتْ غيرَ أن تَرَى * مكارِهَ ما تَأْتِي من العَيْشِ مَفْسَمًا

وكتب الى صديق له أبلل من ضعف :

” بلغني خبر الفتره في الماسها وانحسارها، والشكاية في حلولها وارتجالها. فكاد يشغل

القلق بأوله عن السكون لآخره، وتذهل الحيرة في ابتدائه، عن المسرة في انتهائه، وكان

تغيري في الحالين بقدرهما آرتياغا للأولى، وارتياحا للآخري “ .

*
*

وكتب في البخل :

بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أصالح الله أمركم وجمع شملكم وعلمكم الخير وجعلكم من أهله . قال الأحف بن قيس :

يا معشر بني تميم ، لا تُسرِعوا الى الفتنة فإن أسرع الناس الى القتال أقلهم حياء من الفرار .

وقد كانوا يقولون : اذا أردت أن ترى العيوب جمّة فتأمل عياباً فإنه إنما يعيب الناس

بفضل ما فيه من العيب . ومن أعيب العيب أن أعيب ما ليس بعيب . وقبح أن تنهى

مُرشدًا وأن تُغري مُشفيقًا . وما أردنا بما قلنا إلا هدايتكم وتقويتكم . وإصلاح فاسدكم .

وإبقاء النعمة عليكم . وما أخطأنا سبيل حسن النية فيما بيننا وبينكم . وقد آمنون

أنا ما أوصيناكم إلا بما آخترناه لكم ، ولأنفسنا قبلكم . وشبهة به في الأفق دونكم . ثم نقول

في ذلك ما قال العبد الصالح لقومه : (وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَخَالِفَكمَ إِنِ ما أَنهَأَكُمَ عَنْهُ إِنِ أُرِيدُ

إلا الإصلاح ما أستطعت وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أُنيبُ) فما كان أحقنا

منكم في حرمتنا بكم أن ترعوا حقَّ قَصْدِنا ، بذلك اليكم على ما رعيده من واجب حقكم ؛

فلا العذر المبسوط بلغتم ولا بواجب الحرمة فتم . ولو كان ذكر العيوب يراد به نحر لرأينا

في أنفسنا من ذلك شغلا .

عَبْتُمُونِي بِقَوْلِي لَخَادِمِي : أَجِيدِي الْعَجِينَ فَهُوَ أَطْيَبُ لَطَعْمِهِ وَأَزِيدُ فِي رَيْعِهِ . وَقَدْ قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : أَمَلِكُوا الْعَجِينَ فَإِنَّهُ أَحَدُ الرَّيَعِينَ .

وَعَبْتُمُونِي حِينَ خَتَمْتُ عَلَى مَا فِيهِ شَيْءٌ تَمِينٌ مِنْ فَاكِهَةٍ رَطْبَةٍ تَقِيصَةٌ وَمِنْ رَطْبَةِ غَرِيبَةٍ عَلَى عَبْدٍ نَهَيْتُهُمْ وَصَبِيَّ جَشِعَ وَأَمَةً لَكَمَاءَ وَزَوْجَةً مُضِيعَةً .

وَعَبْتُمُونِي بِاللَّعْمِ وَقَدْ خَتَمْتُ بَعْضَ الْأَثَمَةِ عَلَى مِرْوَدٍ سَوِيْقٍ وَعَلَى كَيْسِ فَارِغٍ . وَقَالَ : طِينَةٌ خَيْرٌ مِنْ طَيِّبَةٍ ، فَأَمَسَكْتُمْ عَمَّنْ خَتَمَ عَلَى لَأْشَيْءٍ وَعَبْتُمْ مِنْ خَتَمٍ عَلَى شَيْءٍ .

وَعَبْتُمُونِي أَنْ قُلْتُ لِلْغُلَامِ : إِذَا زِدْتَ فِي الْمَرْقِ فَرِدْ فِي الْإِنضَاجِ لِيَجْتَمَعَ مَعَ التَّادِيمِ بِاللَّعْمِ طَيْبُ الْمَرْقِ .

وَعَبْتُمُونِي بِخُصْفِ النَّعْلِ وَبِتَصْدِيرِ الْقَمِيصِ وَحِينَ زَعَمْتُ أَنْ الْمُخْصُوفَةَ مِنَ النَّعْلِ أَيْقَى وَأَقْوَى وَأَشْبَهَ بِالشَّدِّ وَأَنَّ التَّرْقِيْعَ مِنَ الْحَزْمِ وَالتَّفْرِيطَ مِنَ التَّضْيِيعِ . وَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخْصِفُ نَعْلَهُ وَيُرْقَعُ ثَوْبَهُ وَيَقُولُ : لَوْ أَهْدَى إِلَى ذِرَاعٍ لَقَبَلْتُ ، وَلَوْ دُعِيْتُ إِلَى كُرَاعٍ لَأَجَبْتُ . وَقَالَتِ الْحَكَمَاءُ : لَا جَدِيدَ لِمَنْ لَمْ يَلْبَسِ الْخَلْقَ . وَبَعَثَ زِيَادٌ رَجُلًا يَرْتَادُ لَهُ مُحَدَّثًا وَأَسْتَرْطَ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ عَاقِلًا فَأَتَاهُ بِهِ مُوَافِقًا فَقَالَ لَهُ : أَكُنْتُ بِهِ ذَا مَعْرِفَةٍ ؟ قَالَ : لَا ، وَلَكِنِّي رَأَيْتَهُ فِي يَوْمٍ فَأَنْظَرَ يَلْبَسُ خَلْقًا وَيَلْبَسُ النَّاسَ جَدِيدًا ، فَتَفَرَّسْتُ فِيهِ الْعَقْلَ وَالْأَدَبَ . وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ الْخَلْقَ فِي مَوْضِعِهِ مِثْلَ الْجَدِيدِ فِي مَوْضِعِهِ . وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا وَسَمًا بِهِ مَوْضِعًا كَمَا جَعَلَ لِكُلِّ زَمَانٍ رَجُلًا وَلِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالًا . وَقَدْ أَحْيَا اللَّهُ بِالسَّمِّ وَأَمَاتَ بِالدَّوَاءِ وَأَغْصَّ بِالْمَاءِ . وَقَدْ زَعَمُوا أَنْ الْإِصْلَاحَ أَحَدُ الْكَاسِبِينَ كَمَا زَعَمُوا أَنَّ قِلَّةَ الْعِيَالِ أَحَدُ الْيَسَارِينِ . وَقَدْ جَبَرَ الْأَخْنُفَ بِنَ قَيْسِ يَدِ عَنَزٍ وَأَمَرَ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ

(١) الرِّيعُ : النَّمَاءُ وَالزِّيَادَةُ . (٢) إِمْلَاكُ الْعَجِينِ : إِتْمَاعٌ . (٣) الْكَمَاءُ : الْحَمَاءُ

(٤) الْمِرْوَدُ : وَطَاءُ الزَّادِ . وَالسَّوِيْقُ : طَعَامٌ يُخَذُ مِنَ الْحَنْظَلَةِ أَوِ الشَّعِيرِ . (٥) حَصْفُ النَّعْلِ : خَرْزُهُا

(٦) تَصْدِيرُ الْقَمِيصِ : أَنْ يَجْعَلَ لَصَدْرِهِ بَطَانَةَ .

يفرك التعل . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : من أكل بيضة فقد أكل دجاجة .
ولبس سالم بن عبد الله جلد أضحية . وقال رجل لبعض الحكماء : أريد أن أهدى اليك
دجاجة . فقال : إن كان لابد فأجعلها بيوضاً .

وعبتمونى حين قلتُ : من لم يعرف مواضع السرف في الموجود الرخيص لم يعرف
مواضع الاقتصاد في المُنْتَعِ العالى . ولقد أُتيتُ بماء للوضوء على مبلغ الكفاية وأشدت من
الكفاية ، فلما صرت الى تفریق أجزائه على الأعضاء والى التوفير عليها من وَضِيعَةِ الْمَاءِ^(١)
وجدتُ في الأعضاء فضلاً عن الماء ، فعلمتُ أن لو كنتُ سَكَتُ الاقتصادَ في أوائله
لخرج آخره على كفاية أوله ولكان نصيبُ الأول كنصيب الآخر . فعبتمونى بذلك وشعتم
على ؛ وقد قال الحسن وذَكَرَ السرف : أما إنه ليَكُونُ في الماء والكَلأ فلم يرَضْ بذكر
الماء حتى أردفه الكَلأ .

وعبتمونى أن قلت : لا يَغْتَرِّقُ أحدكم بطول عمره وتَقْوِيسِ ظَهْرِهِ وَرِقَّةَ عَظْمِهِ وَوَهْنَ
قُوَّتِهِ وَأَنْ يَرَى نَحْوَهُ أَكْثَرُ ذُرِّيَّتِهِ ، فيدعوه ذلك الى إخراج ماله من يده وتحويله الى ملك
غيره والى تحكيم السرف فيه وتسيط الشهوات عليه ، فلعله يكون مُعَمَّرًا وهو لا يدري ،
وممدوداً له في السن وهو لا يُشْعِرُ ، ولعله أن يُرْزَقَ الْوَالِدَ عَلَى الْيَأْسِ وَيُحَدِّثُ عَلَيْهِ مِنْ آفَاتِ
الدهر ما لا يُحْطَرُ عَلَى بَالٍ وَلَا يُدْرِكُهُ عَقْلٌ ؛ فيسترده ممن لا يرده ويُظْهِرُ الشكوى انى من
لا يرحمه أَصْعَبَ مَا كَانَ عَلَيْهِ الطلِبَ وَأَقْبَحَ مَا كَانَ بِهِ أَنْ يَطْلُبَ . فعبتمونى بذلك ؛
وقد قال عمرو بن العاص : ” اِعْمَلْ لِدُنْيَاكَ كَأَنَّكَ تَعِيشُ أَبَدًا ، وَاعْمَلْ لِآخِرَتِكَ كَأَنَّكَ
مَيِّتٌ غَدًا “

وعبتمونى بان قلت : بان السرف والتبذير الى مال المواريث وأموال الملوك وأن
الحفظ لئال المكتسب والغنى المحتلب والى من لا يُعْرَضُ فِيهِ بَذَاهُ الدِّينِ وَأَهْتَضَمَ
لِعَرَضٍ وَنَصَبَ الْبَدَنَ وَأَهْتَمَّ الْقَلْبَ أَمْرَعُ وَمَنْ لَمْ يَحْسَبْ نَفَقَتَهُ لَمْ يَحْسَبْ دَخْلَهُ

ومن لم يحسب الدخل فقد أضاع الأصل . ومن لم يعرف الغنى قدره فقد أوزن بالفقر وطاب نفساً بالذل .

وعبتموني بأن قلت : إن كَسْبَ الحلال يضمن الإتفاق في الحلال . وإن الخبيث يترع إلى الخبيث ، وإن الطيب يدعو إلى الطيب ، وإن الإتفاق في الهوى حجاب دون الهدى ؛ فعبتم على هذا القول ، وقد قال معاوية : لم أرتبذيراً قط إلا وإلى جنبه حق مضيع . وقد قال الحسن : إن أردتم أن تعرفوا من أين أصاب الرجل ماله فانظروا فيما إذا يُنفقه فإن الخبيث إنما يُنفق في السرف . وقلت لكم بالشفقة عليكم وحسن النظر مني لكم وأتم في دار الآفات ، والجوائح غير مأمونات : فإن أحاطت بـمال أحدكم آفة لم يرجع إلا إلى نفسه . فاحذروا التعم باختلاف الأمكنة فإن البلية لا تجرى في الجميع إلا بموت الجميع .

وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في العبد والأمة والشاة والبعير : فزقوا بين المناسيا . وقال ابن سيرين لبعض البحريين : كيف تصنعون بأموالكم ؟ قالوا : نُفِّقُهَا فِي السُّقْنِ فَإِنْ عَطِبَ بَعْضُ سَلِيمٍ بَعْضٌ . ولولا أن السلامة أكثر ما حملنا أموالنا في البحر . قال ابن سيرين : " تحسبها تحرقاء وهي صناع ^(١) " .

وعبتموني بأن قلت لكم عند إشفاقي عليكم : إن للغنى لسكراً وللمال لتزوة ^(٢) فن لم يحفظ الغنى من سكره فقد أضاعه ، ومن لم يرتبط المال لخوف الفقر فقد أهمله .

فعبتموني بذلك وقد قال زيد بن جبلة : ليس أحد أقصر عقلاً من غنى أمين الفقر ، وسكر الغنى أكثر من سكر الخمر . وقد قال الشاعر في يحيى بن خالد بن برمك :

وَهُوبُ تِلَادِ الْمَالِ فِيمَا يُنُوبُهُ * مَنُوعٌ إِذَا مَا مَنَعَهُ كَانَ أَحْرَبًا

وعبتموني حين زعمتم أني أقدم المال على العلم ، لأن المال به يُفَادُ العلمُ وبه تقوم النفس ، قبل ان تعرف فضل العلم ، فهو أصل والأصل أحق بالترتيب من الفرع ، فقلتم :

(٢) الزوة : الثوة أو الوثة

(١) هذا مثل يصرب لمن تظن به العفلة وهو فطن بقط

كيف هذا؟ وقد قيل لرئيس الحكماء: الأغنياء أفضل أم العلماء؟ قال: العلماء. قيل له: فما بال العلماء يأتون أبواب الأغنياء أكثر مما يأتى الأغنياء أبواب العلماء؟ قال: ذلك لمعرفة العلماء بفضل المال وجهل الأغنياء بحق العلم. فقلت: حالها هي القاضية بينهما. وكيف يستوى شيء حاجة العامة إليه وشيء يغني فيه بعضهم عن بعض.

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يأمر الأغنياء باتخاذ الغنم والفقراء باتخاذ الدجاج. وقال أبو بكر رضى الله عنه: إني لأبئض أهل بيت ينفقون نفقة الأيام في اليوم الواحد. وكان أبو الأسود الدؤى يقول لولده: إذا بسط الله لك الرزق فأبسط وإذا قبض فاقبض.

وعبتموني حين قلت: فضل الغنى على القوت إنما هو كفضل الآلة تكون في البيت إذا احتيج إليها استعملت وإن استغني عنها كانت عُدَّة. وقد قال الحصين بن المنذر: ودِدْتُ أن لى مثل أحد ذهباً لا أنتفع منه بشيء. قيل له: فما كنت تصنع به؟ قال: لكثرة من كان يخدمنى عليه لأن المال مخدوم. وقد قال بعض الحكماء: عليك بطلب الغنى فلو لم يكن فيه إلا أنه عزٌّ في قلبك وذُلٌّ في قابِ عدوك لكن الحظ فيه جسيماً والنفع فيه عظيماً.

ولسنا ندع سيرة الأنبياء وتعليم الخلفاء وتأديب الحكماء لأصحاب الأهواء ونستمع عن تردون ولا رأي تفتنون، فقدموا النظر قبل العزم وأدركوا ما لكم قبل أن تُدركوا ما لكم. والسلام عليكم.

وسهل هو القائل:

تَقَسَّمَنِي هِمَانٍ قَدْ كَسَفَا بَالِي ۖ وَقَدْ تَرَكَ قَلْبِي مَحَبَّةً يَبَّالٍ
هِيَ أَذْرِيَا دَمَعِي وَلَمْ تُدْرِ عِبْرَتِي ۖ رَهِينَةٌ خَدَّ ذَاتُ مِمْصِ وَخَطَلٍ
وَلَا قَهْوَةٌ لَمْ يَبْقَ مِنْهَا سِوَى الَّذِي ۖ عَنِ أَنْ تُحَاكِيَ النُّورَ فِي رَأْسِ ذَيْبٍ

تحمل منها جرماً وتماسكت * لها نفس معدوم على الزمن الخالي
 ولكننا أبكي بعين سخيّة * على حدّ تبكي له عين أمثالي
 فراق خليل لا يقوم به الأسي * وخلة حرّ لا يقوم بها مالي
 فواحسرتي حتى متى القلب موجع * لنفّر خليل أو تعذر إفضال
 وما الفضل إلا أن تجود بنائل * وإلا لقاء الحلّ ذي الخلق العالی

وهو القائل :

إذا أمرؤ ضاق عني لم يضق خلقي * من أن يراني غنياً عنه باليأس
 لا أطلب المال كي أغني بفضليته * ما كان مطلبه فقراً من الناس

(ز) عمرو بن مسعدة

كان كاتباً بليغاً، جَرَلَ العبارة وجيَّزها، سديداً المقاصد، فضله شائع، ومبهُ ذائع؛ أشهر من أن يُنَبَّه عليه، أو يُدَلَّ بالوصف إليه؛ قد ولى للمأمون الأعمال الجليلة، وألحق بذوي المراتب النبيلة. وسماه بعض الشعراء وزيراً لعظم منزلته لا لأنه كان وزيراً، وهو قوله:

لقد أسعد الله الوزير بن مسعدة * وبث له في الناس شكرٌ ومجده

(١) هو عمرو بن مسعدة بن سعد بن صول بن صول. ووصول (بضم الصاد) كان رجلاً تركياً وكان ملكاً وأخوه فيروز على جرجان وبجسا بعد التركة وتبها بالفرس.

بدأ عمرو بن مسعدة في خدمة الدولة عاملاً من العمال فظهرت كفايته وبلاغته، وبالبلغة توصل إلى الخليفة فعدَّ أحد أفراد قلائل في رجاله، قال أحمد بن يوسف الكاتب: دخلت يوماً على المأمون ويسده كتاب يعاود قراءته تارة بعد أخرى، ويصعد فيه ويصوب، فلما مررت على ذلك مدة من زمانه التفت إلى وقال: يا أحمد أراك مفكراً فما تراه مني، قلت: نعم، فقال: إن في هذا الكتاب كلاماً نظيراً سمعت الرشيد يقول في البلاغة، زعم أن البلاغة إنما هي التبعاد عن الاطالة، والتقرب من معنى البغية، والدلالة بالقليل من اللفظ على الكثير من المعنى، وما كنت أتوهم أن أحداً يقدر على ذلك. وقال: هذا كتاب عمرو بن مسعدة اليانعة فكأنه ناداه فيه: «كاتبني إلى أمير المؤمنين، ومن قبل من قواده، ورؤسا، أجناده، في الاقبياد والاطاعة، على أحسن ما تكون طاقة جند تأخرت أرفاقهم، واقبياد كفاة تراخت أعطيناهم. وحدثت لذلك أحواضهم. والثالث معه أمورهم». وما قرأته قال: إن استحسناني إليك يعني أن أمرت بجند قبله بأعطيتهم لسعة أشبه. وأن على جرحه لكتاب يستبخته من حل محله في صناعته. وفي رواية أن المأمون أمر لعمرو بن مسعدة برزق ثمانية أمدار وثلثين ديناراً لأحمد بن يوسف. لله در عمرو ما أبلغه! ألا ترى إلى إدماجه المسألة في الأحبار، وإعقابه سلفانه من الأبحار.

وكان عمرو بن مسعدة وكنيته أبو الفضل أبيص أحر نوحه، وكان الأهول يسميه الرومي يبيص وجهه وكان يخضب وتوفي بأذنة سنة سبع عشرة ومائتين. وقد تعرف مشأه ومولده وأساتيده وغاية معرفته أنه كان أحد إخوة أربعة أحسن أروم — وكان كاتباً أيضاً — تربيتهم كل الإحسان حتى جاءت من أحدهم هذه البلاغة النادرة التي كان من أثرها أن أصبح عشير المأمون، وكان هو أو عواد ثابت من يحيى يكنى بن يديه ويخضون معه ويمازحانه. ولكي يصل الرجل إلى هذا المقام مع مثل هذا الخليفة العصبي في كل شؤونه يجب أن يصور عن صفات عالية يميز مثلها في الأقران والأتراب.

قال عمرو بن مسعدة: كنت أوقع بين يدي جعفر بن يحيى البرمكي فرج إليه ثوباً ورقة يستريح به في روثه فرمى بها إلى وقال: أجب عنها فكنتبت: «قلبي دائم خير من كثير منقطع» ضرب بيده في ظهره وذا .

فهو كما كتب الحسن بن سهل الى محمد بن سماعة القاضي وقد احتاج الى رجل يؤيِّه بعض الأعمال فقال: إنه يريد رجلا جامعاً لحصال الخير، ذا عفة ونزاهة طعمة؛ قد هدبته الاداب، وأحكمته التجارب، ليس بظنين في رأيه، ولا بمطعون في حسبه إن أؤتمن على الأسرار قام بها . وإن قلد مهماً من الأمور أجزاء فيه، له سن مع أدب ولسان، تُعقده الرئانة، ويسكته الحلم، قد فر عن ذكاء وفطنة، وعص على قارحة من الكمال، تكفيه اللحظة، وترشده السكنة، قد أبصر خدمة الملوك وأحكماها، وقام في أمور خمد فيها، له أناة الوزراء، وصولة الأمراء، وتواضع العلماء، وفهم الفقهاء، وجواب الحكماء، لا يبيع نصيب يومه بجرمان غده، يكاد يسترق قلوب الرجال بجلالة لسانه، وحسن بيانه، دلائل الفضل عليه لائحة، وأمارة العلم له شهادة، مضطماً بما استنص، مستقلاً بما حمل .

== أى وزير فى جلدك . وقد شهد لعمر بن مسعدة بالبلاغة أعيان البيان فى عصره ومنهم الفضل بن سهل فقال فيه : إنه أبلغ الناس، ومن بلاغته أن كل أحد اذا سمع كلامه ظن أنه يكتب مثله فاذا رآه بعد عليه . وهذا كما قيل لأحد اللغاة : ما حد البلاغة؟ فقال : التى اذا سمعها الجاهل ظن أنه يقدر على مثلها، فاذا رآها استصعبت عليه .

ولم يؤثر عن عمرو أنه ألف فى موضوع خاص وأفرد مسألة فى التأليف، وعده ابن النديم فى الشعراء الكتاب ولم يذكر له إلا أن له ولأخيه مجاشع خمسين ورقة من الشعر وهى من الضائع أيضاً . والغالب أن مهام الدولة لم تنزك له وقتاً يصرفه فى درس خاص، أو وضع كتاب أو رسالة : وما تلقطه العلماء والأدباء من كلامه، فهو مما صدر عنه بالمناسبات، ورواه له المعجبون به، وما أعظم المقنود منه . والمظنون أن لو كانت جمعت له رسائله على إنجازها لكان منها ديوان كبير، لأن من صرف أحوالاً طويلاً وهو قابض على براعته يعالج بها الموضوعات السياسية والادارية فى ذلك المجتمع العظيم لا شك أنه تجتمع له صفحات كثيرة مهما كان مقلاً معروفاً بالإنجاز . ا هـ من محاضرة للاستاذ الباحث محمد كرد على نشرها بمجلة المجمع العلمى العربى . وفى عمرو بن مسعدة قال محمد البيهقي وقد احتل :

قالوا أبو الفضل معتل فقلت لهم * نفسى الفداء له من كل محذور

يا ليت علمه بى غير أف له * أجر العليل وإنى غير ماجور

وتجد ترجمته فى معجم الأدباء لياقوت (ج ٦ ص ٨٨) وابن خلكان (ج ١ ص ٥٥٥) والوفاء بالوفيات

لصفدى (ج ٥ ص ٥٠٢ قسم ثالث من الأصل الفترغرافى المحفوظ بدار الكتب المصرية) .

(١) فى الأساس : ومن الحجاز فلان طيب الطعمة وخيىث الطعمة (بالكسر) وهى الجهة التى منها يرتق

(بوزن الحرية) . (٢) أجزاء كذا : كفاى . (٣) فر عن ذكاء، وفطنة، أى جرب واختبر

فيها . (٤) وعص على قارحة، كناية عن بلوغه درجة الكمال .

ومن كلام عمرو بن مسعدة :

أعظمُ الناس أجراً، وأبهمهم ذكراً، مَنْ لم يَرْضَ بموت العدل في دولته، وظهور الحق في سلطانه، وإيصال المنافع الى رعيته في حياته، وأسعدُ الرعاة مَنْ دامت سعادتهُ الحق في أيامه، وبعد وفاته وانقراضه .

وقال : الخطَّ صورُ الكُتُبِ تُرَدُّ اليها أرواحُها .

وقال : الخطَّ صورةٌ ضئيلةٌ لها معانٍ جليلة . ورُبما ضاق عن العيون ، وقد ملأ اخطار الفنون .

وقال : لا تستصحب مَنْ يكون استمتاعه بمالك وجاهك ، أكثرَ من إمتاعه لك بشكر لسانه وفوائده علمه ، ومن كانت غايتهُ الاحتيال على مالك وإطراءك في وجهك . فإن هذا لا يكون إلا ردىء الغيب ، سريعاً الى الذم .

وكتب الى الحسن بن سهل :

أما بعد ، فإنك من اذا غرَّس سقى ، واذا أسس بنى ، ليستتم تشييد أسسه ، ويخني ثمار غرسه ، وثناؤك عندي قد شارف الدروس ، وغرسك مشف على اليوس . فدارك بناء ما أسست ، وسقى ما غرست إن شاء الله .

وكتب الى بعض أصحابه في شخص يعز عليه :

أما بعد ، فوصل كتابي اليك سالم والسلام . أريد قول الشاعر :

يُديروني عن سالم وأديهم - وجِلدةُ بين العين والأنف سالم

أى يحل مني هذا المحل .

وكتب الى المأمون في رجل من بني ضبة يستشفع له بالزيادة في منزلته وجعل كتابه

تعريضا :

أما بعد ، فقد استشفع بي فلان يا أمير المؤمنين لتصونك على . في إلحاقه بظفره من

الخاصة فيما يرتقون به ، وأعلمته أن أمير المؤمنين لم يجعاني في مراتب المستشفعين .

وفي ابتدائه بذلك تعدي طاعته والسلام .

فكتب إليه المأمون : "قد عرفنا توطئتَكَ له ، وتعريضَكَ لنفسك ، وأجبتناك اليهما ، ووافقناك عليهما" . وقوله : "إن أمير المؤمنين لم يجعلني في مراتب المستشفين ، وفي ابتدائه بذلك تعدى طاعته" : من الكلام السرى الذى يدل على مبلغ أدب عمرو وبعده غوره فى السياسة ووقوفه على رُوح عصره ونفسية الخلفاء .

قَدِمَ رجل من أبناء دَهَاقِين قريش . على المأمون لِعِدَّة سلفت منه ، فطال على الرجل انتظارُ خروج أمر المأمون ، فقال لعمرو بن مسعدة : تُوَصَّلْ منى رُقعةً الى أمير المؤمنين تكون أنت الذى تكتبها تكن لك على نعمتان . فكتب : "إن رأى أمير المؤمنين أن يَفُكَّ أسرَ عبده من رِبقة المَظَلِّ بقضاء حاجته ، أو يَأْذَنَ له بالانصراف الى بلده فعل إن شاء الله" .

فلما قرأ المأمون الرقعة دعا عمرا فجعل يَجَبُّ من حسن لفظها ، وإيجاز المراد . فقال عمرو : فما نيتها يا أمير المؤمنين؟ قال : الكتاب له فى هذا الوقت بما وعدناه ، لئلا يتأخر فضل استحساننا كلامه ، وبجائزة مائة ألف درهم ، صِلَةً عن دناءة المَظَلِّ . وسَمَاجَةِ الإغفال .

وهذا مما يدل على سعة عقل المأمون وولوعه بالبلاغة وقدره أهلها حتى قدرهم ، دَع ما هنالك من نفس ما أحببت إلا الجود والعطاء .

ومن حِكَمِ عمرو بن مسعدة :

العبودية عبودية الإخاء . لا عبودية الرِّقِّ . الود أعطف من الرِّحْمِ . إن الكريم ليرعى من المعرفة مارعى الوصل من القرابة . عليكم بالإخوان فإنهم زينة فى الرخاء ، وعدة للبلاء . مثل الإخوان مثل النار . قليلها متاع ، وكثيرها بوار . النفس بالصديق ، أنس منها بالعشيق ، وغزَلُ المودة ، أرَقُّ من غَزَلِ الصبابة . من حقوق المودة ، عفو الإخوان ، والإغضاء عن تقصير إن كان . ذكر رجل رجلا فقال : حسبك أنه خُلِقَ كما تشتهى إخوانه . المودة قرابة

(١) الدهاقير : الرعاء، أرباب الأملاك بالسواد ، وأحدهم دهقان (بكسر الدال مترب) .

مستفاداً . ما توأصل اثنان فدام توأصلهما ، الا لفضلهما أو فضل أحدهما . أسرع الأشياء انقطاعا مودة الأشرار . المحروم من حريم صالحى الإخوان . لقاء الخليل شفاء الفليل . قلة الزيارة ، أمان من الملالة . إخوان السوء كشجر النار يحرق بعضه بعضا . علامة الصديق اذا أراد القطيعة أن يؤخر الجواب ، ولا يبتدىء بالكتاب . لا يفسدك الظن على صديق قد أصلحك اليقين له . من لم يقدم الامتحان قبل الثقة ، والثقة قبل الأئس ، أثمرت مودته ندما . اذا قدمت الحُرمة ، تشبهت بالقرابة . العتاب حياة المودة . ظاهر العتاب خير من باطن الخقد . ما أكثر من يُعاتب لطلب علة ، ويبقى الود ما بقى العتاب . كُفون الخقد فى الفؤاد ككُفون النار فى الزناد . القريب بعيد بعداوته ، والبعيد قريب بمودته . لا تأمن عدوك وإن كان مقهورا ، واحذرهُ وإن كان مفقودا ، فإن حدَّ السيف فيه وإن كان مغموذا ؛ لا تتعرض لعدوك فى دولته ، فإنها اذا زالت كفتك مؤونته . نصح الصديق تأديباً ، ونصح العدو تأديب .

روى البيهقي قال : أخبرنا بعض أصحابنا قال : شهدت المأمون يوماً وقد خرج من باب البستان ببغداد فصاح به رجل بصريّ : يا أمير المؤمنين إنى تزوجت بأمرأة من آل زياد وإن أبا الرازى فزق بيننا وقال : هى امرأة من قريش ؟ قال : فأمر عمرو بن مسعدة فكتب الى أبى الرازى :

إنه قد بلغ أمير المؤمنين ما كان من الزبادية وخنك إياها إذ كانت من قريش . فنى تحاكت اليك العرب ؟ لا أم لك فى أنسابها ، ومتى وكلتسك قريش يابن الخماء بأن تلصق بها من إيس منها ؟ فغسل بين الرجل وامرأته ، ففى كان زياد من قريش ، إنه لأبن سمية بغي عاهرة ، لا يفتحرج ، بقرابتها ولا يتطاول بولادتها . وثئن كان ابن عبيد ، لقدباء بأمر عظيم ، إذ أدعى الى غير أبيه ، لحظ تعجله ، ومملك قهره .

وأمر المأمون عمرو بن مسعدة أن يكتب لرحلى به عية الى بعض العمال فى قضاء حقه ، وأن يختصر كتابه ما أمكنه ، حتى يكون ما يكتب به فى سطر واحد . لا زيادة عليه . فكتب عمرو :

كُتِبَ إِلَيْكَ كِتَابٌ وَاثِقٌ بَمَنْ كَتَبْتُ إِلَيْهِ ، مَعْنَى بَمَنْ كُتِبَ لَهُ ، وَلَنْ يَضِيعَ بَيْنَ الثَّقَةِ وَالْعَنَايَةِ حَامِلُهُ .

وكتب الى بعض الرؤساء، وقد تزوجت أمه فسأه ذلك ، فلما قرأها ذلك الرئيس نَسَلَى بها، وذهب عنه ما كان يجيده . وقيل: إن هذه الرسالة من إنشاء ابن العميد وهي :

الحمد لله الذي كَشَفَ عَنَا سِتْرَ الْحَيْرَةِ ، وَهَدَانَا لَسِتْرِ الْعَوْرَةِ . وَجَدَعَ بِمَا شَرَعَ مِنَ الْحَلَالِ أَنْفَ الْغَيْرَةِ ، وَمَنَعَ مِنَ عَضَلِ الْأَمْهَاتِ ، كَمَا مَنَعَ مِنَ وَأْدِ الْبَنَاتِ ، اسْتِزَالَا لِلنَّفُوسِ الْأَبِيَّةِ . عَنِ حِمِّيَةِ حِمِّيَةِ الْجَاهِلِيَّةِ ، ثُمَّ عَرَضَ لِحَزِيلِ الْأَجْرِ ، مَنِ اسْتَسْلَمَ لَوَاقِعِ قَضَائِهِ ، وَعَوَّضَ جَلِيلَ الذَّنْحِ مَنْ صَبَرَ عَلَى نَازِلِ بَلَائِهِ ، وَهَتَاكَ الَّذِي شَرَحَ لِلتَّقْوَى صَدْرَكَ ، وَوَسَّعَ فِي الْبَلَاوَى صَبْرَكَ ، وَأَلْهَمَكَ مِنَ التَّسْلِيمِ لِمَشِيئَتِهِ ، وَالرِّضَا بِقَضِيَّتِهِ ، مَا وَقَفَكَ لَهُ مِنْ قَضَاءِ الْوَاجِبِ فِي أَحَدِ أَبْوَابِكَ ، وَمَنْ عَظَّمَ حَقَّهُ عَلَيْكَ ، وَجَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى جُدَّهُ مَا تَجَرَّعَتْهُ مِنْ أَنْفٍ ، وَكُظْمَتَهُ مِنْ أَسْفٍ ، مَعْدُودَا فِيمَا يُعَظَّمُ بِهِ أَجْرَكَ ، وَيَجْزُلُ عَلَيْهِ ذُنُوكَ ، وَقَرْنَ بِالْحَاضِرِ مِنْ امْتِعَاظِكَ بِفَعْلِهَا ، الْمُتَنَظِّرِ مِنْ ارْتِمَاظِكَ بِدَفْنِهَا ، فَتَسْتَوِي فِيهَا الْمَصِيبَةُ ، وَتَسْتَكْمَلُ عَنْهَا الْمُثُوبَةُ ، فَوَصَلَ اللَّهُ لِسِيدِي مَا اسْتَشْعَرَهُ مِنَ الصَّبْرِ عَلَى عُرْسِهَا ، بِمَا يَكْتَسِبُهُ مِنَ الصَّبْرِ عَلَى نَفْسِهَا ، وَعَوَّضَهُ مِنْ أَسْرَةِ فَرْتِمِهَا ، أَعْوَادَ نَعْمِهَا ، وَجَعَلَ تَعَالَى جُدَّهُ مَا يَنْعَمُ بِهِ عَلَيْهِ بَعْدَهَا مِنْ نِعْمَةٍ ، مَعْرَى مِنْ نِقْمَةٍ ، وَمَا يُولِيهِ بَعْدَ قَبْضِهَا مِنْ مِئْتَةٍ ، مُبْرَأً مِنْ مِحْنَةٍ ، فَأَحْكَامَ اللَّهُ تَعَالَى جُدَّهُ ، وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ ، جَارِيَةٌ عَلَى غَيْرِ مُرَادِ الْخَالِقِينَ ، لَكِنَّهُ تَعَالَى يَخْتَارُ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ مَا هُوَ خَيْرٌ لَهُمْ فِي الْعَاجِلَةِ ، وَأَبْقَى لَهُمْ فِي الْآجِلَةِ ، اخْتَارَ اللَّهُ لَكَ فِي قَبْضِهَا إِلَيْهِ ، وَقُدُومِهَا عَلَيْهِ ، مَا هُوَ أَفْضَعُ لَهَا ، وَأَوْلَى بِهَا ، وَجَعَلَ الْقَبْرَ ، كُفُوءًا لَهَا وَالسَّلَامَ .

وقال عبد العزيز بن يحيى المكي الذي ناظر بشر بن غياث المرئسي بحضرة أمير المؤمنين في مسألة خالق القرآن :

جاءني خليفة عمرو بن مسعدة ومعه جمع من الفرسان والرجالة حمانى مكرماً على دابته حتى صار الى باب أمير المؤمنين فأوقفني حتى جاء عمرو بن مسعدة فدخل بجلوس في محجرتي

التي كان يجلس فيها ثم أذن لي بالدخول عليه فدخلت فلما صيرت بين يديه أجلسني ثم قال لي : أنت مقيمٌ على ما كنت عليه أو قد رجعت عنه ؟ فقلت : بل مقيمٌ على ما كنت وقد ازدددت بتوفيق الله تعالى إياي بصيرةً في أمرى ؛ فقال لي عمرو بن مسعدة : أيها الرجل ، قد حملت نفسك على أمرٍ عظيم ، وبلغت الغاية في مكروهاها . وتعرضت لما لا قوام لك به في مخالفة أمير المؤمنين ، وأدعيت بما لا يثبت لك به حجةٌ على مخالفتك ، ولا لأحدٍ غيرك . وليس وراءك بعد الحجّة عليك الا السيف ، فانظر لنفسك وبادر أمرَك ، قبل أن تقع المناظرة وتظهر عليك الحجّة ، فلا تنفعك الندامة ولا يقبل منك معذرةٌ ولا تُقال لك عثرةٌ ، فقد رحمتك وأشفقتُ عليك مما هو نازلٌ بك ، وأنا أستقبلُ لك أمير المؤمنين وأسأله الصّحاح عن جرمك ، وعظيم ما كان منك اذا أظهرت الرجوع عنه والندم على ما كان ، وأخذتُك الأمان منه والخاصة ، فان كانت لك علامةٌ أرلتها عنك ون كانت لك حاجةٌ قضيتها لك ، فانما جلستُ رحمةً لك مما هو نازلٌ بك بعد ساعة إن أقمت عنى ما أنت عليه ورجوت أن يخلصك الله تعالى على يدى من عظيم ما أوقعت نفسك فيه .

شعره :

قلنا أمثلةً قليلةً من شعر عمرو بن مسعدة ، أما شعره فجميلٌ جداً . ذكر المترجمون له أنه كان له فرسٌ أدهمٌ أغرٌ . لم يكن لأحد مثله فراهةً وحسناً . فنع المؤمن خبره . وبلغ عمرو ابن مسعدة ذلك . نخاف أن يأمر بقوده اليه فلا يكون له فيه تحمّده . فوجه به اليه هدية وكتب معه :

يا إماماً لا يُدا	نيه إذا عدت إمام
ففضل الناس كما يُفد	مضل نقصان تمام
قد بعثت بجواد	مشابه أيس يرأه
فرس يزهي به ناد	يحسن سرج وجمام
دونه الخيل كما يش	ملك في الفضل الأمام

وجَّههُ صَبِيحٌ وَلَكِنْ : سائر الجسَمِ ظِلَامٌ
والَّذِي يَصْلُحُ لِلدَّوْءِ * لَى عَلَى الْعَبْدِ حَرَامٌ

وعمرُوهُوَ الْقَائِلُ :

مُسْتَعْدِبٌ لِلهَجْرِ وَالْوَصْلِ أَعْدَبُ * أَكْثَمُهُ حُسْبِي فَيَنَائِي *
إِذَا جَدْتُ مَنِي بِالرِّضَا جَادَ بِالْحَقِّمَا * وَيَزْعُمُ أَنِّي مُدْنِبٌ وَهوَ أَدْنِبُ
تَعَلَّمْتُ أَلْوَانَ الرِّضَا خَوْفَ هَجْرِهِ * وَعَلِمَهُ حُسْبِي لَهُ كَيْفَ يَغْضَبُ
وَلِي غَيْرُ وَجْهِ قَدْ عَرَفْتُ طَرِيقَهُ * وَلَكِنْ بَلَ قَلْبِي إِلَى أَيْنَ أَذْهَبُ

وَوَقَعَ مَرَّةً فِي ظَهْرِ رُقْعَةٍ لِرَجُلٍ :

أَعَزِّزْ عَلَيَّ بِأَمْرِي أَنْتَ طَالِبُ * لَمْ يُمَكِّنِ التُّنْجُحُ فِيهِ وَأَنْقَضَى أَمْدَهُ

(١)

ولعمرو بن مسعدة حكايات منها ما حكاها القاضي التنوخي في كتاب الفرج بعد الشدة : قال عمرو بن مسعدة : كنت مع المأمون عند قدومه من بلاد الروم حتى اذا نزلت الرقة قال : يا عمرو، ما ترى الرجحي قد احتوى على الأهواز، وهي سلة الخير وجميع المال قبله وطمع فيها. وكتبته متصلة بجمالها، وهو يتعلل ويتربص بي الدوائر؟ فقلت : أنا أكفي أمير المؤمنين هذا، وأنفذ من يضطره الى حمل ما عليه، فقال : ما يقنعني هذا، فقلت : فيأمر أمير المؤمنين بأمره، فقال : فانخرج اليه بنفسك حتى تصفده بالحديد، فتحمله الى بغداد وتقبض على جميع ما في يده من أموالنا، وتنظر في أعمالنا وترتب لها عمالا، فقلت : السمع والطاعة، فلما كان في غد دخلت عليه فقال : ما فعلت فيما أمرتك به ؟ قلت : أنا على ذلك، قال : أتريد أن تجيء في غد مودعا؟ قلت : السمع والطاعة، فلما كان في غد جئته مودعا، فقال : أريد أن تحلف لي أنك لا تقيم ببغداد إلا يوما واحدا، فاضطربت من ذلك الى أن حضني وأستحلفني ألا أقيم فيها أكثر من ثلاثة أيام، فخرجت

(١) راجع (ج ٢ ص ٣٤ طبعة الهلال) . والعقد لفريد لابن عبد ربه (ج ٢ ص ٢١١ طبعة بولاق)

حتى قدمت بغداد ، فلم أقم بها إلا ثلاثة أيام وأتحدت في زلالي^١ أريد البصرة وجعل لي في الزلالي خيش واستكثرت من الثلج لشدة الحر .

فلما صرت بين جرجان وجبل سمعت صوتا من الشاطئ يصبح : يا ملاح ، فرفعت بحجف الزلالي وإذا بشيخ كبير السن جالس حاسر الرأس حافي القدمين خلق القميص ، قلت للغلام : أجبه ، فأجاب ، فقال : يا غلام ، أنا شيخ كبير السن على هذه الصورة التي ترى ، وقد أحرقتني الشمس وكادت لتلتفني ، وأريد جبل ، فأحملوني معك فان الله يحسن أجر صاحبكم ، قال : فشمته الملاح وأتهره . فأدركتني رقة عليه وقلت : خذوه معنا ، فتقدمنا الشط وصحنا به وحملناه ، فلما صار معنا في الزلالي^٢ واتحدنا نتقدم فدفعت اليه قبصا ومندبلا وغسل وجهه واستراح وكأه كان ميتا وعاد الى الدنيا فحضر وقت الغذاء وتقدمت وقلت للغلام : هاتيه يا كل معنا ، فجاء وقعد على الضعام ، فأكل أكل أديب نظيف غير أن الجوع أثر فيه ، فلما رفعت المائدة أردت أن يقوم ويغسل يده ناحية كما تفعل العامة في مجالس الخاصة فلم يفعل . فغسلت يدي وتذمت أن أمر بقيامه . فقلت : قدموا له الطشت فغسل يده ، وأردت بعدها أن يقوم لأنام فلم يفعل . فقلت : يا شيخ . أي شيء صناعتك؟ قال : حائك أصاحك الله . فقامت في نفسي : هذه الحياكة علمته سوء الأدب . فتناومت عليه ومددت رجلي فقال : قد سألتني عن صناعتى وأنت أعزك الله ما صناعتك ؟ فأكبرت ذلك وقلت : أنا جنيت على نفسي هذه الجدية ولا بد من حياكها ، أتره لأحق لا يرى زلالي^٣ وغلماني ونعمتي وأن مثلي لا يقال له هدا . فقامت : كاتب . فقال : كاتب كامل أم كاتب ناقص فإن الكتاب خمسة . فيهم أنت ؟ فورد على قول الخائف موردا عظيما وسمعت كلاما أكبرته وكتمت متكأ فحسنت ، ثم قلت : فصل الخمسة قال :

نعم . كاتب يحتاج أن يكون عالما بالشروط والظنوس والحساب والمساحة والبهوق والفتنوق والزنوق . وكاتب أحكام يحتاج أن يكون عالما بحلال وحرام

(١) في العقد المرید : « بين دبره رق ودبره قوس » .

والاحتجاج والإجماع والأصول والفروع . وكاتبٌ معونة يحتاج أن يكون عالماً بالقصاص والحدود والجراحات والمواثبات والسياسات . وكاتبٌ جيش يحتاج أن يكون عالماً بمجلى الرجال وشيآت الدوابِّ ومُدَّاراة الأولياء وشيئا من العلم بالنسب والحساب . وكاتب رسائل يحتاج أن يكون عالماً بالصدور والفصول والإطالة والإيجاز وحُسن البلاغة والخط ، قال : فقلت : إني كاتب رسائل ، قال : فأسألك عن بعضها ، قلت : قل ، فقال لى :

أصلحك الله ، لو أن رجلا من إخوانك تزوج أمتك فأردت أن تكتابه مهنتا فكيف كنت تكتابه ؟ ففكرتُ في الحال فلم يخطر ببالي شيء ، فقلتُ : ما أرى للتهنئة وجهها ، قال : فكيف تكتب إليه تعزيه ففكرت فلم يخطر ببالي شيء ، فقلت : اعفنى ، قال : قد فعلت ، ولكك لست بكاتب رسائل ، قلت : أنا كاتب نجاج ، قال : لا بأس ، لو أن أمير المؤمنين ولآك ناحية وأمرك فيها بالعدل والإنصاف وتقضى حاجة السلطان فيتظلم اليك بعضهم من مسأحيك وأحضرتهم للنظر بينهم وبين رعيتك ، خلف المسأح بالله العظيم لقد أنصفوا وما ظلموا ، وحلفتُ الرعية بالله إنهم لقد جاروا وظلموا ، وقالت الرعية : قف معنا على ما مسَّحوه وأنظر من الصادق من الكاذب ، فخرجت لتقف عليه ، فوقفوا على براح شكُّه قاتل قنا ، كيف كنتَ تمسحه ؟ قلت : كنت آخذ طولَه على أنعراجِه وعرضه ثم أضربه في مثله ، قال : إن شكل قاتل قنا أن يكون زاويتاه محدودتين وفي تحديده تقويس ، قلت : فأخذ الوَسَط فأضربه في العَرَض ، قال : إذا يتنى عليك العمود ، فأسكتنى ، فقلت : ولستُ كاتب نجاج ، قال : فإذا ما أنت ؟ قلت : أنا كاتب قاض ، قال : رأيت لو أن رجلا توفى وخلف امرأتين حاملتين إحداهما حرَّة والأخرى سريَّة ، فولدت السريَّة غلاما والحرَّة جارية ، فعَدَّت الحرَّة الى ولد السريَّة فأخذته ، وتركَّت بدله الجارية فاختصما في ذلك ، فكيف الحُكْم بينهما ؟ قلتُ : لا أدري ، قال : فلست بكاتب قاض ، قلتُ : فإنا كاتب جيش ، فقال : لا بأس ، رأيت لو أن رجلين جاءا اليك لتُحلِّيَهما وكلَّ واحد مهما أسمه وآسم أبيه كاسم الآخر إلا أن أحدهما مشقوق الشفة العليا ، والآخر مشقوق

الشفة السفلى؟ كيف كنت تحليهما، قال: قلت: فلان الأفلح وفلان الأعم، قال: إن رزقهما مختلفان وكل واحد منهما يجيء في دعوة الآخر. قلت: لا أدري، قال: فلست بكتاب جيش، قلت: أنا كاتب معونة، قال: لا تبالي. لو أن رجلين رُفعا إليك قد نَجَّح أحدهما الآخر شجرة مؤصحة^(١)، وشج الآخر شجرة مأمونة، كيف كنت تفصل بينهما؟ قلت: لا أدري، قال: لست إذا كاتب معونة، اطلب لنفسك أيها الرجل شغلا غير هذا. قال: فصغرت إلى نفسي وغازني، فقلت: قد سألت عن هذه الأمور ويعجز ألا يكون عندك جوابها كما لم يكن عندي، فإن كنت عالما بالجواب فقل، فقال:

نعم، أما الذي تزوج أمك فكتب اليه: أما بعد. فإن الأمور تجري من عند الله بغير محبة عباده ولا اختيارهم. بل هو تعالى يختار لهم ما أحب، وقد بلغني تزويج الوالدة خا الله لك في قبضها، وإن القبور أكرم الأزواج وأستر العيوب والسلام.

وأما براح فقاتل قنا فتمسح العمود حتى إذا صار عددا في يدك ضربته في مثله ومثل ثلثه فما خرج فهو المساحة.

وأما البخارية والغلام فيوزن بين الاثنين. فأيهما كان أخف فالبخارية له.

وأما الجنديان المتفقان الحمين. فإن كان الشق في الشفة العليا قبل فلان الأعلى، وإذا

كان في الشفة السفلى قمت فلان الأفلح.

وأما صاحب الشجتين فصاحب الموضحة ثمث الندية. وصاحب المأمونة نصف

الندية، فلما أجاب بهذه المسائل تعجبت منه وامتحنه بأشياء كثيرة غيرها فوجدته ههرا

في جميعها حاذقا بليغا. فقالت: ألسن زعمت أنك حاذق. فقال: أنا أصلحك الله حاذق

كلام ولست بحاذق تساجد. وأنشأ يقول:

مَا مَرَّ بِؤُسٍ وَلَا نَعِيمٍ . . . لَا وَفِي فِيهِمَا نَصِيبٌ

فَذَقْتُ حُلُوًّا وَذَقْتُ مَرًّا . . . كَذَلِكَ عَيْشُ الْفَقْرِ ضَرْوبٌ

نَوَائِبُ الْمَدْحَرِ أَذْبَتْنِي . . . وَإِنَّمَا يُوعَظُ الْأَدِيبُ

(١) الموضحة: الشجة التي تبدي وجه لعماء.

عصر المأمون

قلتُ : فما الذى بك من الحال؟ قال : أنا رجلٌ كاتبٌ دامت عُنُقَتِي ، وكَثُرَتْ عَيْتِي ، وتواصلتِ مِحْنَتِي ، وَقَلَّتْ حِيلَتِي ، فَخَرَجْتُ أَطْلُبُ تَصَرُّفاً فَقَطِّعُ عَلَى الطَّرِيقِ فَصَرْتُ كَمَا تَرَى . فَمَشَيْتُ عَلَى وَجْهِى ، فَلَمَّا لَاحَ لِي الزَّلَالَى اسْتَغْنَتْ بِكَ ، قُلْتُ : فَإِنِ قَدْ خَرَجْتُ إِلَى مُتَصَرِّفٍ جَلِيلٍ أَحْتَاجُ فِيهِ إِلَى جَمَاعَةٍ مِثْلِكَ ، وَقَدْ أَمَرْتُ لَكَ بِبَعْضَةِ حَسَنَةِ تَصْلُحُ لِمِثْلِكَ وَخَمْسَةَ آلَافِ دَرَاهِمٍ تُصَلِّحُ بِهَا أَمْرَكَ . وَتُنْفِدُ مِنْهَا إِلَى عِيَالِكَ ، وَتُقَوِّى نَفْسَكَ بِبَاقِيهَا ، وَتَصِيرُ مَعَى انِّى عَمَلِي فَأَوْلِيكَ أَجَلَهُ ، فَقَالَ : أَحْسَنَ اللَّهُ جِرَاءَكَ إِذَا تَجَدَّدْتَنِي بِحَيْثُ أَسْرَكَ ، وَلَا أَقْوَمُ مَقَامَ مَعْذَرِ الْيَسْكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ، وَأَمَرْتُ بِتَقْبِيضِهِ مَا رَسَمْتُ لَهُ قَبْضَهُ ، وَانْحَدَرْتُ إِلَى الْأَهْوَازِ مَعَى ، بِفِعْلَتِهِ الْمُنَاطِرَ لِلرَّحْمَى وَالْحَاسِبَ لَهُ بِحَضْرَتِي ، وَالْمُسْتَخْرَجَ لِمَا عَلَيْهِ ، فَقَامَ بِذَلِكَ أَحْسَنَ قِيَامٍ وَعَظَّمْتُ حَالَهُ مَعَى ، وَعَادَتْ نِعْمَتُهُ إِلَى أَحْسَنَ مَا كَانَتْ عَلَيْهِ .

وفى عمرو بن مسعدة يقول أبو محمد عبد الله بن أيوب التيمي :

أَعْنَى عَلَى بَارِقٍ نَاصِبٍ * خَفِيَّ كَوْحِيكَ بِالْحَاجِبِ
كَأَنَّ تَأَلَّقَهُ فِي السَّمَاءِ * يَدَا كَاتِبٍ أَوْ يَدَا حَاسِبِ
فَرَوَى مَنَازِلَ تَذَكَّرَهَا * يَهِيَّجُ مِنْ شَوْقِكَ الْغَالِبِ
غَرِيبٌ يَمِينٌ لِأَوْطَانِهِ * وَيَسْكِي عَلَى عَصْرِهِ الْذَاهِبِ
كَفَنَّاكَ أَبُو الْفَضْلِ عَمْرُو النَّدَى * مَطَالَعَةَ الْأُمَلِ الْكَاذِبِ
وَصَدَقُ الرِّجَاءِ وَحُسْنُ الْوَفَاءِ * لِعَمْرُو بْنِ مَسْعَدَةَ الْكَاتِبِ
عَرِيضُ الْفِتْنَاءِ طَوِيلُ الْبِنَا * فِي الْعِزِّ وَالشَّرَفِ الثَّاقِبِ
بَنِي الْمَلِكِ طَوْدُهُ لَهُ يَبْتَه * وَأَهْلُ الْخِلَافَةِ مِنْ غَالِبِ
هُوَ الْمُرْتَجَى لِمَصْرُوفِ الزَّمَانِ * وَهُوَ مُتَصَمِّمُ الرَّاغِبِ الرَّاهِبِ
جَوَادٌ بِمَا مَلَكَتْ كَفَّهُ * عَلَى الضَّيْفِ وَالْحَارِ وَالصَّاحِبِ
بِأَدَمِ الرِّكَابِ وَوَتْنِي التَّيْبِ * بِِ الطَّرْفِ وَالطَّفَلَةِ الْكَاعِبِ
تَوَمَّلْهُ لِحَسَامِ الْأُمُورِ * وَنِزْجِهِ لِلجَلَلِ الْكَارِبِ

خَصِيْبُ الْجَنَابِ مَطِيْرُ السَّحَابِ * بِشَيْمَتِهِ لَيْنُ الْجَانِبِ
 يُرَوِّى الْقَنَّا مِنْ نَحْوِ الْعِدَا * وَيُقْرِقُ فِي الْجُودِ كَالْأَعْبِ
 إِلَيْكَ تَبَدَّتْ بِأَكْوَارِهَا * حَرَجِيحُ فِي مَهْمِهِ لِأَحِبِ
 كَأَنَّ نِعَامًا تَبَارَى بِنَا * بِسَوَائِلِ مِنْ بَرِّدِ عَاصِبِ
 يَرْدُنَ نَدَى كَفِّكَ الْمُرْتَجَى * وَيَقْضِيْنَ مِنْ حَقِّكَ الْوَاجِبِ
 وَلِلَّهِ مَا أَنْتَ مِنْ خَابِرِ * بِسَجْلِ لِقَوْمٍ وَمِنْ خَارِبِ
 قَسَّقَى الْعِدَا بِكُؤُوسِ الرَّدَى * وَتَسْقِيْكَ مَسْئَلَةَ الطَّالِبِ
 وَكَمْ رَاغِبٍ نَلْتَهُ بِالْعَطَا * وَكَمْ نَلْتِ بِالْعَطْفِ مِنْ هَارِبِ
 وَتِلْكَ الْخَلَائِقُ أُعْطِيْتِمَا * وَقَضَلُّ مِنَ الْمَانِعِ الْوَاجِبِ
 كَسَبْتَ الثَّنَاءَ وَكَسَبْتَ الثَّنَا * أَفْضَلُ مَكْسَبَةِ الْكَاسِبِ
 يَقِيْنُكَ يَجْلُو سَتُورَ الدُّجَى * وَظَنَّتْ يُحْبِرُ بِالْغَائِبِ

رسائل الجاحظ

رسالته في بني أمية

قال أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ : ^(١) أطال الله بقاءك ، وأتمّ نعمته عليك ، وكرامته لك . أعلم أُرشد الله أمرَك ، أت هذه الأمة قد صارت بعد إسلامها ، والخروج من جاهليتها ، الى طبقات مُتفاوتة ، ومنازلٍ مختلفةٍ : فالطبقة الأولى عصر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وأبي بكر وعمر ، رضى الله عنهما ، وستُّ سنين من خلافة عثمان رضى الله عنه ، كانوا على التوحيد الصحيح ، والإخلاص المحض ، مع الألفة ^(٢) واجتماع الكلمة على الكتاب والسنة ، وليس هناك عمل قبيح ، ولا بدعة فاحشة ، ولا نزعٌ يد من طاعة ، ولا حسدٌ ولا غلٌّ ولا تآؤُلٌ ، حتى كان الذى كان : من قتل عثمان ، رضى الله عنه ، وما أنتمك منه ، ومن خبطهم إياه بالسلاح ، وبعج بطنسه بالحراب ، وفَرى أوداجه بالمشاقص ، وشدخ

(١) هو إمام الأدب أبو عثمان عمرو الجاحظ بن بحر بن محبوب الكنانى البصرى صاحب التصانيف المنتمية والزمان المبدعة . وقد تقدّم الكلام عليه في المجلد الأول من هذا الكتاب (ص ٤٢١) .

ولد حوالى سنة ١٦٠ هـ بمدينة البصرة ونشأ بها فتناول كل فن ومارس كل علم عرف في زمانه مما وضع في الاسلام أو نقل عن الأمم الأوائل فأصبح له مشاركة في كل ما يقع عليه الحس أو يخطر بالبال فهو راوية . متكلم . فيلسوف . كاتب . مصنف . مترسل . شاعر . مؤرخ . عالم بالحيوان والنبات والموت . وصاف لأحوال الناس ووجوه معانيهم واضطرابهم وأحلافهم وحيلهم إلا أنه عاب عليه أمران : الكلام على طريقة المعتزلة فهو بذلك إمام الطائفة الجاحظية من المعتزلة والأدب المزوج بالمسئلة والمكاهة فهو أول من ألف الكتب الجامعة لفنونه ككتاب البيان والتبيين وكتاب الحيوان وغيرها .

وكان غاية في الذكاء ودقة الحس وحسن الفراسة إلى دعابة هسية ، وقلة اعتداد بها يأخذ به الناس انفسهم ويتعلون من الرسوم والعادات وأنواع العصبية المذهبية وتعدم مبالاة بوقوع المتورعين فيه . وكان سمحا جوادا كثير الموااساة لإخوانه وكان على دمامة خالقه وتناقض خلقه خفيف الروح ، فكما المجلس ، غاية في الظرف وطيب المكاهة وحلاوة الكلام وهو على الجملة أحد أفذاذ العالم وُحد جميع اللسان العربى . توفي سنة ٢٥٥ هـ ببغداد بمقبرة الحيران . وتحد ترجمته في معجم الأدباء لباقوت (ج ٦ ص ٥٦ — ٨٠) وابن حلكان (ج ١ ص ٥٥٣) .

(٢) في الأصل : « المخلص » .

سامة بعمد، مع لعه عن البسطة وميه عن الامتاع، مع عريسه هم قبل ذلك : من
 كم وجه يجوز قتل من شهيد الشهادة، وصلّى القبلة، وأكل الذبيحة، ومع ضرب نسائه
 بحضرتة، وإحقام الرجال على حرمة، مع اتقاء نائلة بنت الفرافصة عنه بيدها، حتى أطنوا^(٢)
 إصبعين من أصابعها، وقد كشفت عن قناعها، ورفعت عن ذيلها ليكون ذلك رادعا لهم،
 وكاسرا من غرهم، مع وطئهم في أضلاعه بعد موته، وإلقائهم على المذبلة جسده مجودا
 بعد سبحة، وهي الخزرة التي جعلها رسول الله صلى الله عليه وسلم كفشا لبناته وأياما وعقائله .
 بعد السب والتعطيش والحصر الشديد، والمنع من القوت، مع احتجاجه عليهم وإحمامه لهم .
 ومع اجتماعهم على أن دم الفاسق حرام، كدم المؤمن، إلا من ارتد بعد إسلامه . أوزى
 بعد إحسان، أو قتل مؤمنا على عمد، أو رجل عدا على الناس بسيفه فكان في امتناعهم
 منه عطبه، ومع اجتماعهم على ألا يقتل من هذه الأمة، ولا يُجهز منها على جريح .
 ثم مع ذلك كله دَمروا عليه^(٣) وعلى أزواجه وحرمة وهو جالس في محرابه ومُضعفه يروح
 في حجره، لن يرى أن مؤحدا يقدم على قتل من كان في مثل صفته وحاله .

لأجرم لقد احتلبوا به دما لا تطير رغوته . ولا تسكن فورته . ولا يموت نائره . ولا يكلى
 طالبه، وكيف يضيع الله دم وليه، والمتقم له . وما سمعنا بدم عاد دم يحيى بن زكريا عليهما
 السلام، غلا غليانه، وقُتل ساحته، وأدرك بطائنه . وبع كل محبته، كدمه رحمة الله
 عليه .

ولقد كان لهم في أخذه . وفي إقامته للناس، والاقتصاص منه . وفي بيع ما ظهر من
 رباعه، وحدائقه، وسائر أمواله، وفي حبسه بما بقي عليه، وفي طمره حتى لا يحس .
 بذكره، ما يُعنيهم عن قتله إن كان قد ركب كل ما قد فوه به . وأدعوه عليه . وهذا كله
 بحضرة جلة المهاجرين والسلف المقدمين . والأئصار والتابعين .

(١) قال في شرح التماموس : كل ما في العرب من هذا الاسم «فرصة» فهو بصم نساء الا فراصة إبانة

فهو الفتح لا غير . (٢) أضوا : نضوا . (٣) حص بعضهم بعضا عليه متهددين .

ولكنّ الناس كانوا على طبقاتٍ مختلفة، ومراتبٍ متباينة : من قاتلٍ ومن شاد على عضده، ومن خاذل عن نصرته، والعاجز ناصر بإرادته، ومطيع بحسن نيته، وإتّما الشكّ متأفّفه ، وفي خاذله ، ومن أراد عزله والاستبدال به ؛ فأما قاتله ، والمعينُ على دمه ، والمريدُ لذلك منه ، فضلالٌ لاشكّ فيهم ، ومُراقٍ لامترأء في حكمهم ؛ على أنّ هذا لم يعدْ منهم الفجورَ : إِمّا على سوء تأويل ، وإمّا على تعمد للشقاء ، ثم ما زالت الفتن متصلة ، والحروبُ متردفةً ، كحرب الجبل ، وكوقائع صقّين ، وكيوم النهروان ، وقبل ذلك يوم الزابوقة^(١) ، وفيه أسير ابن حنيفة ، وقُتل حكيم بن جبلة ، الى أن قتل أشقاها على بن أبي طالب رضوان الله عليه ، فأسعده الله بالشهادة ، وأوجب لقاتله النار واللعة ؛ الى أن كان من اعتزال الحسن عليه السلام الحروبَ وتخلّيته الأمورَ ، عند انتشار أصحابه ، وما رأى من الخلل في عسكره ، وما عرّف من اختلافهم على أبيه . وكثرة تلونهم عليه ؛ فعندها استوى معاويةً على الملك ، واستبدّ على بقية الشورى ، وعلى جماعة المسلمين ، من الأنصار والمهاجرين ، في العام الذي سَمّوه عام الجماعة ، وما كان عام جماعة ، بل كان عام فرقةٍ وقهرٍ وجبريةٍ وغلبةٍ ، والعام الذي تحوّلت فيه الإمامة ملكاً كسروياً ، والخلافة غصباً قيصرياً ، ولم يعدْ ذلك أجمع الضلال والفسق . ثم ما زالت معاصيه من جنس ما حكينا ، وعلى منازلٍ مارتبنا ، حتى ردّ قضية رسول الله صلى الله عليه وسلم رداً مكشوفاً ، وجمّد حكمه جمّداً ظاهراً ، في ولد الفيراش وما يجب للعاهر . مع اجتماع الأمة أنّ سُمّية لم تكن لأبي سفيان فراشا ، وأنه إنما كان بها عاهراً . ثم خرج بذلك من حكم الفجّار الى حكم الكفار ، وليس قتل حُجْر بن عدى . وإطعام عمرو بن العاص نرجاص مصر ، وبيعة يزيد الخليج ، والاستئثار بالنبي ، واختيارُ الولاية على الهوى ، وتعطيلُ الحدود بالشفاعة والقرابة ، من جنس محمد الأحكام المنصوصة ، والشرائع المشهورة ، والسّنن المنصوبة ، وسواءً في باب ما يستحقّ من الكفار جمّد الكتاب ، وردّ السنة إذا كانت السنة في شهرة الكتاب وظهوره ، إلا أنّ أحدهما

(١) الزابوقة : موضع قريب من البصرة كانت فيه وقعة الجبل أوّل النهار .

أعظم ، وعقاب الآخرة عليه أشد ، فهذه أول كُفْرَةٍ . كانت من الأئمة . ثم لم تكن إلا فيمن يدعى إمامتها ، والخلافة عليها ؛ على أن كثيرا من أهل ذلك العصر قد كفروا بترك إكفارده ، وقد أربت عليهم نابتة عصرنا ، ومبتدعة دهرنا ، فقالت : لا تسبوه ، فإن له صحبة ، وسب معاوية بدعة ، ومن يفضسه فقد خالف السنة . فوعثت أن من السنة ترك النبوة . ممن بحمد السنة ؛ ثم الذي كان من يزيد آبنه . ومن عماله . وأهل نصرته . ثم غز ومكة ، ورمى الكعبة ، واستباحة المدينة ، وقتل الحسين عليه السلام . في أكثر أهل بيته . مصابيح الظلام ، وأوتاد الإسلام . بعد الذي أعطى من نفسه ، من تفريق أتباعه ، ولرجوع إلى داره وحرمه ، أو الذهاب في الأرض ، حتى لا يُحسَّ به أو المُقام حيث أُسِرَ به . فبؤا ، لا قتله ، والزول على حكمهم . وسواء قتل نفسه بيده . أو أسأها إلى عدوه . وخير فيها من لا يبرد غليله إلا بشرب دمه . فاحسبوا قتله ليس ككفر ، وإباحة المدينة ، وهتك الحرمه . ليس بحجة ؛ كيف تقولون في رمي الكعبة ، وهدم البيت الحرام . وقبلة المسلمين ؟ فإن قاتله ليس ذلك أرادوا بل إنما أرادوا المتحوز به . والمتحصن بحيطانه . إنما كان في حق البيت وحرمة أن يحصروه فيه ، إلى أن يُعطى بيده ! وأى شيء بقي من رجاء قد أحذر إلا موضع قدمه ! واحسبوا ما رويوا عليه من لأشعار . التي قو

شيثا مصنوعا ، كيف تصنع بنقر القضيب بين شيتي الحسين زم ، وحما

رسول الله صلى الله عليه وسلم حوانسراً على الأفتاب العاربية ، والإيل الصعاب ، والكشف عن عودة على بن الحسين عند الشك في بؤغه ! تنهم إن وجدوه ، وقد أبيت قتلوه وإن لم يكن أنبت حملوه ، كما يصنع أمير جيش المسلمين . بذراوى المشككة . مكف . تقول في قول عبید الله بن زياد لإخوته وخاصته . دعوني أقتله ، فإنه بقية هذا النسل . فأحسب به هذا القرن ، وأميت به هذا البداء ، وأقطع به هذه المدة !

خبرونا علام تذل هذه القسوة ، وهذه الغلظة ! بعد أن شفوا أنفسهم بقتلهم . وانوا ما أحبوا فيهم ، أتدل على نصب . وسوء رأي وحقد ، وبغضاء ونفاق . وعلى يقين مدخول

وإيمانٍ مخروج ! أم تدلّ على الإخلاص ، وعلى حبّ النبي صلى الله عليه وسلم ، والحِفْظ له ، وعلى براءة الساحة وصحة السريرة ! فإن كان على ما وصفنا لا يعدو الفسق والضلال ، وذلك أدنى منازل ، فالناسق ملعون ، ومن نهى عن نهى الملعون فملعون .

وزعمت نابتة عصرنا ، ومبتدعةُ دهرنا ، أن سبّ ولاةِ السوءِ فتنَةٌ ، ولعنَ الجورَةَ بدعةٌ ، وإن كانوا يأخذون السَّيِّئَ بالسَّيِّئِ ، والوَلِيَّ بِالوَلِيِّ ، والقَرِيبَ بِالقَرِيبِ ، وأخافوا الأولياءَ ، وأقنوا الأعداءَ ، وحكموا بالشفاعةِ والهوى ، وإظهارِ الغدرةِ والتهاونِ بالأمةِ ، والتَّمَعِ للزعامةِ ، وأنهم في غيرِ مداراةٍ ولا تقيّةٍ ، وإن عدا ذلك إلى الكفرِ ، وجاوز الضلال إلى الجحْدِ ، فذلك أضلّ ممن كَفَّ عن شتمهم ، والبراءةِ منهم ، على أنه ليس من استحقَّ اسمَ الكفرِ بالقتلِ كمن استحقَّه برتُّ السنةِ وهدم الكعبةِ ، وليس من استحقَّ اسمَ الكفرِ بذلك كمن شبه الله بخلقه ، وليس من استحقَّ الكفرَ بالتشبيهِ كمن استحقَّه بالتجويرِ ، والنابتة في هذا الوجه أكفرُ من يزيدَ وأبيه ، وابن زيادَ وأبيه ، ولو ثبت أيضا على يزيدَ أنه تمثل بقول بن الزبَيْرِ :

ليتَ اشياخى ببدرٍ شهدوا * جزعَ الخوارجِ من وقعِ الأسَلِ
لاستطاروا واستهلّوا فرحاً - ثم قالوا يا يزيدُ لا ته
قد قتلنا الغرّ من ساداتهم * وعدلناه ببدرٍ فاعتدل

كان تجويرُ الناجي لربه ، وتشبيهه بخلقه ، أعظم من ذلك وأقطع ، على أنهم مُجْعون على أنه ملعون من قتل مؤمناً ، متعمداً أو متأولاً ؛ فإذا كان القاتل سلطاناً جائراً ، أو أميراً عاصياً ، لم يستحلوا سبّه ، ولا خلعه ، ولا نفيه ، ولا عيبه ، وإن أخاف الصلحاء ، وقتل الفقهاء ، وأجاع الفقير . وظلم الضعيف . وعطل الحدود والثغور ، وشرب الخمر ، وأظهر الفجور . ثم ما زال الناس يتسكعون مرّة ، ويدهنونهم مرّة ، ويقارونهم مرّة ، ويشاركونهم مرّة إلا بقيّةً من عصمه الله تعالى ذكره . حتى قام عبد الملك بن مروان ، وابنه الوليد ،

وعاملهما الحجاج بن يوسف ، ومولاه يزيد بن أَى مَسْلِمٍ . فأعادوا على البيت بالهدم . وعلى حرم المدينة بالغرؤ ، فهدموا الكعبة ، واستباحوا الحُرْمَةَ ، وحولوا قبلة واسطاً ، وأترو صلاة الجمعة ، الى مُغَيِّرِ بَانَ الشمس ، فإن قال رجل لأحدهم : اتق الله فقد أُنحرت الصلاة عن وقتها ، قتله على هذا القول جِهاراً غير خنيل ، وعَلَانِيَةً غير سرية . ولا يَعْلَمُ القتل على ذلك إِلا أَفْجَحَ من إنكاره ، فكيف يكفر العبد بشيء ولا يكفر بأعظم منه !

وقد كان بعض الصالحين رتباً وعظاً لجباية . وخوفهم العواقب ، وأراهم أن في الناس بقية يَنْهَوْنَ عن الفساد في الأرض ، حتى قام عبد الملك بن مروان . والحجَّاج بن يوسف . فزجرا عن ذلك ، وعاقبا عليه ، وقتلا فيه ، فصاروا لا يَتَنَاهَوْنَ عن منكر فعلوه . فاحسب تحويل القبلة كان غلطاً ، وهدم البيت كان تأويلاً . واحسب ما رووا من كل وجه . أنهم كانوا يزعمون أن خليفة المرء في أهله أرفعُ عنده من رسوله اليهم ، باضلاً ومسموعاً مولداً واحسب وسم أيدي المسلمين وتقس أيدي المسلمات ، وردَّهم بعد الهجرة الى قرَاهم . وقتل الفقهاء . وسب أئمة الهدى ، والنصب لعترت رسول الله صلى الله عليه وسلم . لا يكون كفراً ، كيف تقول في جمع ثلاث صلوات فيهن الجمعة ، ولا يُصلون أولاهن ، حتى تصير الشمس على أعلى الجُدُرَانِ . كالملءِ المعصفر . فإن نطق مسلمٌ ، حُطِبَ بالسيف . وأخذته العمد ، وشك بالزجاج . وإن قال قائل : اتق الله أخذته العزة بالإثم . ثم لم يرص الأبتدماغه على صدره . وبصنه حيث تراه عياله . ومما يدل على أن القوم لم يكونوا إلا في طريق تمرد على الله عز وجل . والاستخفاف بالدين . والتهاون بالمسلمين ، والابتدال لأهل حق . أكل أمرائهم الضعفاء . وشربهم الشراب على منابرهم أيام جمعهم وجموعهم . ففعل ذلك حَيْشُ بن دُبَلَّة ، وطارق مولى عثمان ، والحجَّاج بن يوسف . وغيرهم ، وذلك إن كان كفراً كله فلم يبلغ كفراً نابتة

(١) بشر بذلك أن ما ورد عن الحجج أنه قول في كلامه : ويحك حبيبة أحمدة في أهله تكبر ذنبه أم رسوله اليهم ، يريد بذلك تفضيل مقدم الخلافة على مقام رسالة ويمثل حسداً يرى الحجج يكفر وقد غش نفسه إن عدل به في العقد المراد فصلاً بين زعم أن الحجج ككفر راجع العقد المراد ٣ ص ٢٣

(٢) في الأصل : «حسن» وهو حصاً وحصراً . أي بئس . كما في شرح تقيموس وطبرى .

عصرنا، وروايف دهرنا ، لأن جنس كفر هؤلاء غير كفر أولئك . كان اختلاف الناس في القدر على أن طائفة تقول كل شيء بقضاء وقدر، وتقول طائفة أخرى كل شيء بقضاء وقدر إلا المعاصي ، ولم يكن أحد يقول إن الله يعذب الأبناء ليغيظ الآباء، وإن الكفر والإيمان مخلوقان في الإنسان، مثل العمى والبصر، وكانت طائفة منهم تقول إن الله يرى، لا تزيد على ذلك، فإن خافت أن يُظن بها التشبيه قالت يرى بلا كيف تَقَرَّرًا من التجسيم والتصوير، حتى نبتت هذه النابتة، وتكلمت هذه الرافضة، فقالت جسيما، وجعلت له صورة وحدًا، وأكفرت من قال بالرؤية على غير التجسيم والتصوير، ثم زعم أكثرهم أن كلام الله حسن وبين وحيته وبرهان، وأن التوراة غير الزبور، والزبور غير الإنجيل، والإنجيل غير القرآن. والبقرة غير آل عمران؛ وأن الله تولى تأليفه، وجعله برهانه على صدق رسوله، وأنه لو شاء أن يزيد فيه زاد، ولو شاء أن ينقص منه نقص، ولو شاء أن يبدله بآله، ولو شاء أن ينسخه كله بغيره نسخ، وأنه أنزله تنزيلا، وأنه فصله تفصيلا، وأنه بالله كان دون غيره، ولا يقدر عليه إلا هو، غير أن الله مع ذلك كله لم يخلق به فأعطوا جميع صفات الخلق، ومنعوا اسم الخلق .

والهجب أن الخلق عند العرب إثمًا هو التقدير نفسه، فإذا قالوا: خلق كذا وكذا، ولذلك قال: أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ . وقال: وَيَخْلُقُونَ إِفْكًا . وقال: وَإِذْ خُلِقُوا مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَقَالُوا: صَنَعَهُ وَجَعَلَهُ وَقَدَرَهُ . وَأَنْزَلَهُ وَفَصَلَهُ وَأَحْدَثَهُ، ومنعوا خلقه، وليس تأويل خلقه أكثر من قدره . ولو قالوا بدل قولهم: قدره ولم يخلقه خلقه ولم يقدره ما كانت لمسألة عنهم إلا من وجه واحد؛ والعجب أن الذي منعه بزعمه أن يزعم أنه مخلوق، أنه لم يسمع ذلك من سلفه، وهو يعلم أنه لم يسمع أيضا من سلفه أنه ليس بمخلوق . وليس ذلك يهيم . ولكن لما كان الكلام من الله تعالى عندهم على مثل خروج الصوت من اجوف . وعلى جهة تقطيع الحروف، وإعمال اللسان والشفقتين، وما كان على غير هذه الصورة والصفة فلايس بكلام، ولما كنا عندهم على غير هذه الصفة،

وكما لكلامنا غير خالقين ، وجب أن الله عز وجل لكلامه غير خالق ؛ اذ كما غير خالقين لكلامنا ، وإنما قالوا ذلك ، لأنهم لم يجدوا بين كلامنا وكلامه فرقاً ، وإن لم يُقروا بذلك بالستهم فذلك معانهم وقصدهم .

وقد كانت هذه الأمة لا تتجاوز معاصيها الإثم والضلال ، إلا ما حكيت لك عن بنى أمية ، وبنى مروان ، وعمّالهم ، ومن لم يدين بكفارهم حتى نجت النوابت . وقابتها هذه العوام ، فصار الغالب على هذا القرن الكفر ، وهو التشبيه والجر ، فصار كفرهم أعظم من كفر من مضى في الأعمال التي هي الفسق ، وشركاء من كفر منهم بتوليهم ، وترك إكفارهم ، قال الله عز وجل من قائل : ﴿ وَمَنْ يَتَّوَلَّهُمْ فَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ .

وأرجو أن يكون الله قد أغاث المحققين . ورحمهم وقوى ضعفهم . وكثر قلتهم . حتى صار ولاة أمرنا في هذا الدهر الصعب والزمن الفاسد أشد استبصاراً في التشبيه من عليتنا ، وأعلم بما يلزم فيه مناً ، وأكشفت للقناع من رؤسائنا ، وصارفوا الناس وقد انتظموا معان الفساد أجمع ، وبلغوا غايات البدع ، ثم قرنوا بذلك العصبية التي هلك بها عالم بعد عالم ، والحمية التي لا تبقى ديناً إلا أفسدته ، ولا دنياً إلا أهلكتها ، وهو ما صدرت إليه العجم من مذهب الشعوبية ، وما قد صار إليه الموائى من الفخر على العجم والعرب . وقد نجت من الموائى ناجمة ، ونبئت منهم نابتة ، تزعم أن الموائى بولائه قد صار عربياً . لقول النبي صلى الله عليه وسلم : « مؤتى القوم منهم » ولقوله : « الولاء حمة كحمة النسب لأساء ولا يؤه .

قال : فقد علمنا أن العجم حين كان فيهم الملك والنبوة كانوا أشرف من العرب . ولما حوّل ذلك إلى العرب صارت العرب أشرف منهم ، قالوا : ففتح معاشر الموائى بقديمنا في العجم أشرف من العرب . وبالحدِيث الذي صار لنا في العرب أشرف من العجم . وللعرب القديم دون الحديث . ولنا خصمتان جميعاً وافرطان فينا . وصاحب الخصمتين

(١) كذا في الأصل . ونقله . وصارو شركاء ، ح . (٢) معب بفتح الميم وبعين : المذمة والعتل .

أفضل من صاحب الخصلة ، وقد جعل الله المولى بعد أن كان عجمياً عربياً بولائه ، كما جعل حليف قريش من العرب قرشياً بحلفه ، وجعل اسماعيل بعد أن كان أعجمياً عربياً ولولا قول النبي صلى الله عليه وسلم : « إن اسماعيل كان عربياً » ما كان عندنا إلا أعجمياً لأن الأعجمي لا يصير عربياً ، كما أن العربي لا يصير أعجمياً ، فإنما علمنا أن اسماعيل صيره الله عربياً بعد أن كان أعجمياً ، بقول النبي صلى الله عليه وسلم ، فكذلك حكم قوله « مولى التوم منهم » وقوله : « والولاء حمئة » . قالوا : وقد جعل الله إبراهيم عليه السلام أباً لمن لم يلد ، كما جعله أباً لمن ولد ، وجعل أزواج النبي أمهات المؤمنين ، ولم يلدن منهم أحداً ، وجعل الجار والد من لم يلد في قول غير هذا كثير قد أتينا عليه في موضعه ، وليس أدعى إلى الفساد ، ولا أحلب للشر من المفارقة ، وليس على ظهرها إلا نخور (الآليل) وأى شيء أعظم من أن يكون عبدك يزعم أنه أشرف منك ، وهو مقتر أنه صار شريفاً بعثتك إياه .

وقد كتبت — مد الله في عمرك — كتباً في مفارقة حيطان ، وفي تفضيل عدنان ، وفي رد المولى إلى مكانهم من الفضل والنقص ، وإلى قدر ما جعل الله تعالى لهم بالعرب من الشرف ، وأرجو أن يكون عدلاً بينهم ، وداعية إلى صلاحهم ، ومنبهة عليهم ولهم ؛ وقد أردت أن أرسل بالجزء الأول اليك ثم رأيت ألا يكون إلا بعد استئذانك ، واستئثارك ، والانتباه في ذلك إلى رعبتك ، فرأيت فيه موفق إن شاء الله عز وجل وبه الثقة .

وكتب إلى بعض إخوانه في ذم الزمان

بسم الله الرحمن الرحيم

حفظك الله حفظ من وفقه للقناعة . وأستعمله بالطاعة ؛ كتبت اليك وحالي حال من كثفت غمومه ، وأشككت عليه أموره ، وأشتبه عليه حال دهره ، ومخرج أمره ، وقيل عنده من يثق بوفائه ، أو يحمده مغبة إخوانه ، لاستحالة زماننا ، وفساد أيامنا ، ودولة أندالنا ؛ وعندما كان قدم الخيلاء على نفسه ، وحكم الصدق في قوله ، وآثر الحق في أموره ، ونبت المشتبهات عليه من شؤونه . تمت له السلامة ، وفاز بوفور حظ العافية ، وحمد مغبة مكروه

العاقبة ؛ فنظرنا إذ حال عندنا حكمه ، وتمحّلت دولته ؛ فوجدنا الحياء متصلا بالحرمان والصدق آفة على المال ، والقصد في الطلب بترك استعمال القصة ، وإخلاق العريض من طريق التوكل دليلا على سخافة الرأي ، إذ صارت الحظوة البالغة ، والنعمة السابغة ، في لؤم المشيئة ؛ وسناء الرزق من جهة محاشاة الرخاء ، وملاسة معزة العار ؛ ثم نظرنا في تعقب المتعقب لقولنا ، والكاشمير مجتنب ؛ فأقننا له علما واضحا ، وشاهدا قائما ، ومناورا يئنا ؛ إذ وجدنا من فيه السفولية الواضحة ، والمثالب الفاضحة . والكذب المبرح ، والخلف المصرح ، والجتهالة المفرطة ، والركاكة المستحقة ، وضعف اليقين والاستنبات ، وسرعة الغضب والجوراء . قد استكمل سروره ، واعتدلت أموره ، وفاز بالسهم الأغلب . واحظ الأوفر ، والقدر الرفيع . ونجوز الطائع ، والأمر النافذ ؛ إن زلّ قيل حكم ، وإن أخطأ قيل أصاب . وإن هدى في كلامه وهو يقظان قيل رؤيا صادقة من نسمة مباركة ؛ فهذه مجتنب والله على من زعم أن الجهل يخفيض ، وأن النوك يردى ، وأن الكذب يضرب ، وأن الخلف يزرى ؛ ثم نظرنا في الوفاء والأمانة والتبيل والبلاغة وحسن المذهب وكمال المروءة وسعة الصدر وقلة الغضب وكرم الطبيعة ، والفاق في سعة علمه ، والحاكم على نفسه . وانعالم لهواه . فوجدنا فلان بن فلان ؛ ثم وجدنا الزمان لم ينصفه من حقه ، ولا قام له بوضائف فرضه . ووجدنا فضائله الفاتمة له قاعدة به ؛ فهذا دليل أن الطلاح أجدى من الصلاح ، وأن الفضل قدم مصي زمانه . رعت آثاره ، وصارت الدائرة عليه كما كانت الدائرة على ضده ؛ ووجدنا العقل يشقى به نريته ، كما أن الجهل والحق يحظى به حديثه . ووجدنا الشعر ناطقا على الزمان ، ومغربا عن الأيام حيث يقول :

تَحَامَقَ مَعَ الْحَقِّ إِذَا مَا تَمَّتْهُمْ . وَلَا قِيَمَ بِالْجَهْلِ فَعَلَّ أَحْيَى بِالْجَهْلِ
وَحَاطَّ إِذَا لَا قِيَتَ يَوْمًا مَحَاطًّا . يَحَاطُّ فِي قَوْلٍ صَحِيحٍ وَفِي هَزَلٍ
فِي رَأْيِ الْمَرْءِ يَشْقَى بِعَقْلِهِ . كَمَا كَانَ قَبْلَ الْيَوْمِ يَسْعَدُ بِأَعْقَلٍ

فبقيتُ — أبقالك الله — مثل من أصبح على أوفاز، ومن الثقلة على جهاز، لا يسوغ له نعمة ، ولا تطعم عينه غمضة ، في أهاويل بياكره مكروهاها ، ويرأوحه عقائبها ؛ فلو أت الدعاء أجيب ، والتضرع يُمع ، لكانت العدة العظمى ، والرَّجفة الكبرى ؛ فليت أي أنى ما أستبطئه من النَّفخة ، ومن بحة الصيحة ، قُضى لغان ، وأذن به فكان ؛ فوالله ما عُدبت أمة برجفة ، ولا ريج ولا سخطة ، عذاب عيني برؤية المغايطة المدمنة ، والأخبار المهالكة ، كأن الزمان يُوكَل بعذابي ، أو يُنصَب بأياحي ، فما عيش من لا يسر بأخ شفيق ، ولا يصطح في أول نهاره ، إلا برؤية من يكرهه ، ويغمه بطلعته ؛ فقد طالت الغمة ، وواظبت الكربة ، وأدلمت الظلمة ؛ ونحمد السراج ، وتبأط الأفرج .

وصف الجاحظ لقريش وبنى هاشم

مد على الناس كيف كرم قريش وسخاؤها ، وكيف عقولها ودهاؤها ؛ وكيف رأيا وذاكاؤها ، وكيف سياستها وتدبيرها ؛ وكيف إيجازها وتحسيرها ، وكيف رجاحة أحلامها إذا خف الحليم ، وحدة أذهانها إذا كل الحديد ؛ وكيف صبرها عند اللقاء ، وثباتها في الأواء ؛ وكيف وفائها إذا استحسن الغدر ؛ وكيف جودها إذا حب المال ؛ وكيف ذكرها لأحاديث غد ، وقلة صدودها عن جهة القصد ؛ وكيف إقرارها بالحق وصبرها عليه ؛ وكيف وصفها له ودعاؤها إليه ؛ وكيف سماحة أخلاقها ، وصونها لأعراقها ؛ وكيف وصلوا قديمهم بمحدثهم . وطريفهم بتليدهم ؛ وكيف أشبهه علايتهم سرهم ، وقولهم فعلهم ، وهل سلامة صدر أحدهم إلا على قدر بعد غديره ، وهل غفلته إلا في وزن صدق ظنه ، وهل ظنه إلا كيقين غيره .

وكتب في الاعتذار :

أما بعد فنعم البديل من الزلة الاعتذار، وبئس العوض من التوبة الإصرار، وإن أحق من عطفت عليه بحلمك من لم يستشفع إليك بغيرك، وإني بمعرفتي بمبلغ حلمك وغاية عفوك، ضمنت لنفسى العفو من زلتها عندك، وقد مستنى من الأثم ما لم يشفه غير مواصلتك .

وله في الاستعفاف :

ليس عندي أعزك الله سبب ولا أقدر على شفع إلا ما طبعت الله عليه من الكرم والرحمة والتأميل الذي لا يكون إلا من نتاج حسن الظن وإثبات الفضل بحال المأمون وأرجو أن تكون من الشاكرين فتكون خير مُعتَب. وأكون أفضل شاكر. ولعل الله يجعل هذا الأمر سببا لهذا الإنعام، وهذا الإنعام سببا للإيقاض إليكم والكون تحت أجنحتك، فيكون لأعظم بركة، ولا أنمي بقية من ذنب أصبحت فيه، وبمثلك - جُمِلتُ فدك - عاد الذنب وسيلة، والسيئة حسنة، ومثلك من آتلق به الشر خيرا والغرم غنا .

من عاقب فقد أخذ حظه، وإنما الأحرى الآخرة. وطيب الذكر في الدنيا، على قدر الاحتمال وتجرع المرارة وأرجو، ألا أصعب وأهلك فيما بين كرمك وعقلك. وما أكثر من يعفو عن صغر ذنبه وعظم حقه، وإنما الفضل والثناء العفو عن عظيم الجرم ضعيف الحرمة. وإن كان العفو عظيما مُستطرفا من غيركم فهو تباد فيكم، حتى ربما دعا ذلك كثيرا من الناس إلى مخالفة أمركم، فلا أتم عن ذلك تتكلمون، ولا على سالف إحسانكم تتدمون. وما مثلك إلا كمثل عيسى بن مريم عليه السلام حين كان لا يترجم إلا من جى إسرائيل إلا أسمعوه شرا وأسمعهم حيرا، فقال له شمعون الصفا :، رأيتُ كالْيَوْمِ كَلِمًا أسمعوك شرا أسمعهم حيرا فقال : كل أمرئ يُففق مما عنده وليس عنده إلا الخير ولا فى أوعيتكم إلا الرحمة "وكل إناء بالذى فيه ينضح" .

وله في ذم الحسد :

الحسد — أبقاك الله — داء يتهك الحسد ، علاجه عسير وصاحبه شجر وهو باب غامض ، وما ظهر منه فلا يدأوى وما بطن منه فُداويه في عَناءٍ ، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم « دَبَّ اليك داءُ الأُم من قبلكم : الحسدُ والبغضاء » . الحسد عَقِيد الكفر ، وحليف الباطل ، وضد الحق منه تُتولد العداوةُ وهو سبب كلِّ قطيعة ومفرق كلِّ جماعة ، وقاطع كلِّ رَحِم من الأقرباء ومُحَدِّث التفرق بين القرناء ، ولمُحَقِّ الشَّرِّ بين الحلفاء .

دفاع الجاحظ عن مؤلفاته :

(١)
وقد ذكر الجاحظ جَلَّ مؤلفاته في كتاب "الحيوان" ودافع عنها بعد أن وصفها فقال :
جَبَّكَ اللهُ الشَّبهَةَ ، وَعَصَمَكَ مِنَ الحَيْرَةِ وجعل بينك وبين المعرفة نَسَبًا ، وبين الصدق سببًا ، وَحَبَّبَ اليك التَّبَتَّ ، وزين في عينك الإنصاف ، وأذافك حلاوة التقوى ، وأشعر قلبك عِزَّ الحقِّ ، وأودع صدركَ بَرْدَ اليقين ، وطرد عنك ذُلَّ الطمع ، وعرفك ما في الباطل من الدَّلة ، وما في الجهل من القِلَّة ، ولعمري لقد كان غيرُ هذا الدِّعاء أصوبَ في أمرك ، وأدَلَّ على مقدار وِزْنِكَ ، وعلى الحال التي وَضَعْتَ نفسك فيها ، ووسمت عِرْضَكَ بها ، ورَضَيْتَها لدينك حِظًّا ، ولمرءوتك شِكلًا ؛ فقد انتهى إلى مِيلِك على أبي إسحاق ، وحَمَلَك على ، وطعنك على مَعْبَدٍ ، وتَقَصُّصُك له في الذي كان جرى بينهما في مساوي الديك ومحاسنه ، وفي ذكر منافع الكلب ومضارده ؛ والذي خرجا إليه من استقصاء ذلك وجمعه ، ومن تَبَّعَهُ ونظمه ، ومن الموازنة بينهما ، والحكم فيهما .

ثم عِبْتَنِي بِكُتَابِ حَبِيلِ اللُّصُوصِ ، وَكُتَابِ غَشِّ الصَّنَاعَاتِ ؛ وَعِبْتَنِي بِكُتَابِ المَلْحِ والطَّرْفِ ، وما حَرَّ من النواذر وبرْدُ ، وعاد باردُها حارًا بفرط برْدِهِ ، حتى أمتعَ بأكثر من أمتاع الحارِّ ؛ وَعِبْتَنِي بِكُتَابِ أَحْتِجَاجَاتِ البُخْلَاءِ ، ومناقضتهم للسُّمَحَاءِ ، والقول في الفرق بين

(١) اعتمدنا في تصحيح هذه العُصُولِ على الأُصُولِ العُتُوعِرافِ المحفوظ بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤٢٨٥

آداب ، لأن النسخة المطبوعة من كتاب الحيوان مطبوعة السعادة بمصر في غاية التعريف وملائي الأخطاء .

الصدق اذا كان ضارا في العاجل ، والكذب اذا كان نافعا في الآجل . ولم جعلنا الصدق أبدا محمودا ، والكذب أبدا مذموما ، والفرق بين الغيرة وإضاعة الحرمة ، وبين الإفراط في الحمية والأثمة ، وبين التقصير في حفظ حق الحرمة ، وقلة الأكرات بسوء القالة ؛ وهل الغيرة آكساب وعادة ، وبعض ما يعرض من جهة الديانة وبعض التريث فيه والتحسين به ، أو يكون ذلك شيئا في طبع الحرية وحقيقة الجوهرية ، ما كانت العقول سليمة . والآفات متفنية ، والأخلاق مُعدّلة ؛ وعبتي بكتاب الصرحاء والمُجَنّاء ، ومُفانرة السودان والمُحرّان . والموازنة بين حق الخُوْولة والمُؤومة ؛ وعبتي بكتاب الزرع والنخل . والزيتون والأعناب . وأقسام فضول الصناعات ، ومراتب التجارات ؛ وكتاب فضل ما بين الرجل والنساء . وفَرَق ما بين الذكور والإناث ، وفي أيّ موضع يعلَبَن ويفضَلَن ، وفي أيّ موضع يكتَن المغلوبات والمفضولات ، ونصيب أيّهما في الوند أوفر ، وفي أيّ موضع يكون حقهن أوجب ، وأيّ عمل هو بين أليق ، وأيّ صناعة هنّ فيها أبلغ ؛ وعبتي بكتاب القحطانية وكتاب العَدَنانية في الرد على القحطانية ، وزعمت أنّي تجاوزتُ فيه حدّ الحية . إلى حدّ العصبية ، وأنّني لم أصل إلى تفضيل العَدَنانية إلا بتقص القحطانية ؛ وعبتي بكتاب العرب والموالي ، وزعمت أنّي بحسّت الموالى حقوقهم ، كما أنّي أعطيت العرب ما ليس لهم ؛ وعبتي بكتاب العرب والعجم ، وزعمت أنّ القول في فرق ما بين العرب والعجم هو القول في فرق ما بين الموالى والعرب ، ونسبتني إلى التكرار والترداد . وإلى التثكير والجهل بما في المعد من الخطل ، وحمل الناس الموقن ؛ وعبتي بكتاب الأصنام . وبذكر أعتلالات الهندها . وسبب عبادة العرب إياها . وكيف آخنا في جهة العلة مع انهماقها على جملة الديانة . وكيف صار عباد البدّة^(١) والمتمسكون بعبادة الأوثان المنحوتة ، والأصنام الممجورة . أشدّ الناس إنفا لما دانوا به ، وشعنا بما عبدوا له ، وأظهرهم حدا ، وأشدّهم على من خالفهم ضغنا . وبمادنا صباة ومُجبا . وما الفرق بين البُدّ والأوث . وما الفرق بين الأوث والصنم . وما الفرق

(١) بُددة جمع بدّ . وهو بيت فيه الصم أو الصنم نسخة كما قال ابن شريد .

بين الذميمة والْحُثَّة ، ولم صَوِّروا في محاربيهم وبيوت عباداتهم صَوْرَ عِظَائِهِمْ وَرِجَالِ
دَعْوَتِهِمْ ، ولم تَأْتَقُوا في التَّصْوِيَةِ ، وَتَجَرَّدُوا في إِقَامَةِ التَّرْكِيبِ ، وَبَالِغُوا في التَّحْسِينِ وَالتَّفْخِيمِ ،
وَكَيفَ كَانَتْ أَوْلِيَّةَ تِلْكَ الْعِبَادَاتِ ، وَكَيفَ افْتَرَقَتْ تِلْكَ النَّحْلُ ، وَمِنْ أَمَى شَيْءٍ كَانَتْ خُدَعُ
تِلْكَ السَّدَنَةِ ، وَكَيفَ لَمْ يَزَالُوا أَكْثَرَ الْأَصْنَافِ عِدْدًا ، وَكَيفَ شَمِلَ ذَلِكَ الْمَذْهَبُ الْأَجْنَاسَ
الْمُخْتَلِفَةَ !

وعبتي بكتاب المعادن، والقول في جواهر الأرض، وفي اختلاف أجناس الفانز،
والإخبار عن ذائبها وجامدها، ومخلوقها ومصنوعها، وكيف يُسْرَعُ الْأَقْتِلَابُ إِلَى بَعْضِهَا
وَيُطَيِّئُ عَنْ بَعْضِهَا ، وَكَيفَ صَارَ بَعْضُ الْأَلْوَانِ يَصْبِغُ وَلَا يَنْصَبِغُ ، وَبَعْضُهَا يَنْصَبِغُ
وَلَا يَصْبِغُ ، وَبَعْضُهَا يَصْبِغُ وَيَنْصَبِغُ ، وَمَا الْقَوْلُ فِي الْإِكْسِيرِ وَالتَّلْطِيفِ ؛ وَعَبْتِي بِكِتَابِ
فَرْقِ مَا بَيْنَ هَاشِمٍ وَعَبْدِ شَمْسٍ ، وَبِكِتَابِ فَرْقِ مَا بَيْنَ الْحَقِّ وَالْإِنْسِ ، وَفَرْقِ مَا بَيْنَ الْمَلَأَمَكَةِ
وَالْحَنْ ، وَكَيفَ الْقَوْلُ فِي مَعْرِفَةِ الْمُهْدُودِ وَأَسْتَطَاعَةِ الْعَفْرِيتِ ، وَفِي الَّذِي كَانَ عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنْ
الْكِتَابِ ، وَمَا ذَلِكَ الْعِلْمُ ، وَمَا تَأْوِيلُ قَوْلِهِمْ : كَانَ عِنْدَهُ اسْمُ اللَّهِ الْأَعْظَمِ ؛ وَعَبْتِي بِكِتَابِ
الْأَوْفَاقِ وَالرِّيَاضَاتِ ، وَمَا الْقَوْلُ فِي الْأَرْزَاقِ وَالْإِنْفَاقَاتِ ، وَكَيفَ أَسْبَابُ التَّثْمِيرِ^(١) وَالتَّرْقِيقِ
وَكَيفَ تَجْتَلِبُ اتِّجَارُ الْحُرَفَاءِ ، وَكَيفَ الْأَحْتِيَالُ لِلْوَدَائِعِ ، وَكَيفَ التَّسَبُّبُ إِلَى الْوَصَايَا ، وَمَا الَّذِي
يُوجِبُ لَهُمُ التَّعْدِيلَ . وَيَصْرِفُ إِلَيْهِمْ بَابَ حُسْنِ الظَّنِّ ، وَكَيفَ ذَكَرْنَا غَشَّ الصَّنَاعَاتِ
وَالتَّجَارَاتِ . وَكَيفَ التَّسَبُّبُ إِلَى تَعْرِفِ مَا قَدْ سَتَرُوا ، وَكَشْفِ مَا مَوَّهُوا ، وَكَيفَ بَابُ
الاحتراس منه والسلامة من أهله ! . وَعَبْتِي بِرِسَائِلِي ، وَبِكُلِّ مَا كَتَبْتُ بِهِ إِلَى إِخْوَانِي وَخَطَائِي
مِنْ مَرَّحٍ وَجِدِّ ، وَمِنْ إِفْصَاحٍ وَتَعْرِيفٍ ، وَمِنْ تَعَاْفُلٍ وَتَوْقِيفٍ ، وَمِنْ هِجَاءٍ لَا يَزَالُ وَسْمُهُ
بَاقِيًا ، وَمَدِيحٍ لَا يَزَالُ أَثَرُهُ نَامِيًا ، وَمِنْ مَلْحٍ ، تُضْحِكُ ، وَمَوَاعِظَ تَبْكِي ، وَعَبْتِي بِرِسَائِلِي
الهاشمية . وَاحْتِجَاجِي فِيهَا ، وَأَسْتَقْصَايَ مَعَانِيهَا ، وَتَصْوِيرِي لَهَا فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ ،
وَإِطْهَارِي لَهَا فِي أَمَمِ حَلِيَّةٍ ، وَزَعَمْتُ أَنِّي قَدْ نَحَرَجْتُ بِذَلِكَ مِنْ حَدِّ الْمُعْتَرِلَةِ إِلَى حَدِّ الزَّيْدِيَّةِ ،

(١) الثمر والترقيح : نمو المال واصلاحه .

ومن حدّ الاعتدال في التشيع والاقتصاد فيه الى حدّ السرف والإفراط فيه، وزعمت أن مقالة الزيدية خطبة مقالة الرافضة ، ومقالة الرافضة خطبة مقالة الغالية . وزعمت أن في أصل القضية ، والذي جرت عليه العادة أن كل كبير فأقوله صغير . وأن كل كبير فإنما هو قليل يجمع الى قليل ، وأنشدت قول الراجز :

قد يلحق الصغير بالجليل * وإنما القوم من الأفيل^(١)

« وضح الخيل من الفسيل *

وأنشدت قول الشاعر :

رب كبير ها جبه صغير * وفي البحور تعرق البحور

وقلت وقال يزيد بن الحكم :

وأعلم بحى فإنه * بالعلم يتفجع العليم

إن الأمور دقيقتها * ما يبيح له العظيم

وقلت وقال الآخر :

صار جدًا ما مزحت به * رب جد ساقه اللب

وأنشدت قول الآخر وهو عنزة^(٢) :

ما تظنون بحق وردة فيكم * تقضى الأمور ورهط وردة غيب

قد يبعث الأمر الكبير صغيره * حتى تظن له الدماء تصعبت

وقالت كبشة بنت معديكرب :

جددكم بعبد الله أنف قومه * حى ما زلت أن سب راعي الخنزير

وقال الآخر :

أية ناري قدح القادح * وأى جد يغ الخارح

(١) الأفيل : صغر الإبر .

(٢) والنصواب أن البيتين لظرفه وهم من جهة بيت في ديوانه .

وتقول العرب : « العَصَى من العَصِيَّة ولا تلِد الحِيَّة لِأَحْيِيَّة » ؛ وعبت كِتَابِي فِي حَاقِ الْقُرْآن ، كَمَا عَبَت كِتَابِي فِي الرَّدِّ عَلَى الْمُشَبَّهَةِ ؛ وعبت كِتَابِي فِي أُصُولِ الْفُتْيَا وَالْأَحْكَامِ ، كَمَا عَبَت كِتَابِي فِي الْإِحْتِجَاجِ لِنَظْمِ الْقُرْآنِ ، وَغَرِيبِ تَأْلِيفِهِ ، وَبَدِيعِ تَرْكِيبِهِ ؛ وعبت مُعَارَضَتِي الزَّيْدِيَّةَ ، وَتَفْضِيلِ الْأَعْتِرَالِ عَلَى كُلِّ نَحْلَةٍ ، كَمَا عَبَت كِتَابِي فِي الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ ، وَكِتَابِي عَلَى النَّصَارَى وَالْيَهُودِ ؛ ثُمَّ عَبَت بُحْلَةَ كِتَابِي فِي الْمَعْرِفَةِ ، وَأَتَمَمْتُ تَهْجِيئَهَا بِكُلِّ حِيلَةٍ ، وَصَغَّرْتُ مِنْ شَأْنِهَا ، وَحَطَّطْتُ مِنْ قَدْرِهَا ، وَاعْتَرَضْتُ عَلَى نَاسِخِهَا وَالْمُسْتَفْعِينَ بِهَا .

وعبت كِتَابَ الْجَوَابَاتِ وَكِتَابَ الرِّسَائِلِ ، وَكِتَابَ الرَّدِّ عَلَى أَصْحَابِ الْإِلَهَامِ ، وَكِتَابَ الْحُجَّةِ فِي تَثْبِيْتِ نُبُوَّةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَكِتَابَ الْأَخْبَارِ ؛ ثُمَّ عَبَت كِتَابِي لِإِنْكَارِي بِصِيْرَةِ غَنَامِ الْمُرتَدِّ ، وَبصِيْرَةِ كُلِّ جَاحِدٍ وَمُأَجِدٍ ، وَتَفْرِيقِ بَيْنِ اعْتِرَاقِ الْغَمْرِ وَبَيْنِ اسْتَبْصَارِ الْحَقِّ ؛ وعبت كِتَابَ الرَّدِّ عَلَى الْجَهْمِيَّةِ فِي الْإِدْرَاكِ ، وَفِي قَوْلِهِمْ فِي الْجَهَالَاتِ ، وَكِتَابَ الْفَرْقِ مَا بَيْنَ النَّبِيِّ وَالْمُنْتَبِيِّ ، وَالفَرْقِ بَيْنَ الْحَيْلِ وَالْمَخَارِقِ ، وَبَيْنَ الْحَقَائِقِ الظَّاهِرَةِ وَالْأَعْلَامِ الْقَاهِرَةِ ؛ ثُمَّ قَصَدْتُ إِلَى كِتَابِي هَذَا بِالتَّصْغِيرِ لِقَدْرِهِ ، وَالنَّهْجِ لِنَظْمِهِ ، وَالْإِعْتِرَاضِ عَلَى لَفْظِهِ ، وَالتَّحْقِيرِ لِمَعَانِيهِ زَرَّيْتُ عَلَى نَحْتِهِ وَسَبَكِهِ ، كَمَا زَرَّيْتُ عَلَى مَعْنَاهِ وَلَفْظِهِ ، ثُمَّ طَعَنْتُ فِي الْغَرَضِ الَّذِي إِلَيْهِ نَزَعْنَا ، وَالْغَايَةَ الَّتِي إِلَيْهَا أُجْرِينَا ، وَهَذَا كِتَابٌ مَعْنَاهُ أَنْبَهُ مِنْ أَسْمِهِ ، وَحَقِيقَتُهُ أَنْقُ مِنْ لَفْظِهِ ، هُوَ كِتَابٌ يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْمُتَوَسِّطُ الْعَامِّيُّ ، كَمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْعَالِمُ الْخَلَاعِيُّ ، وَيَحْتَاجُ إِلَيْهِ الرِّئِضُ ، كَمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْحَازِقُ .

أَمَا الرِّئِضُ فَلْتَعَلَّمِ وَالذَّرْبَةَ ، وَلِلتَّرْتِيبِ وَالرِّيَاضَةَ ، وَلِلتَّمْرِينِ وَتَمَكِينِ الْعَادَةِ ، إِذَا كَانَ جَلِيلَهُ يَنْتَقِمْ دَقِيقَهُ ، وَإِذَا كَانَتْ مَقْدَمَاتُهُ مَرْتَبَةً ، وَطَبَقَاتُ مَعَانِيهِ مُنْزَلَةً ؛ وَأَمَا الْحَازِقُ فَالِكِفَايَةِ الْمُؤَوَّنَةِ ، وَلِأَنَّ كُلَّ مَنْ التَّمَطَّ كِتَابًا جَامِعًا ، وَبَابًا مِنْ أَمْهَاتِ الْعِلْمِ مَجْمُوعًا كَانَ لَهُ غَنَمُهُ ، وَعَلَى مُؤَلِّفِهِ غُرْمُهُ ، وَكَانَ لَهُ نَفْعُهُ ، وَعَلَى صَاحِبِهِ كَدُّهُ ، مَعَ تَعَرُّضِهِ لِمَطَاعِنِ الْبُعَاةِ ، وَاعْتِرَاضِ

(١) الغمر مثلثة الفين : من لم يبحر الأمور . والجاهل الأبله .

(٢) أُجْرِينَا : قَصَدْنَا .

المنافسين، ومع عَرْضِهِ عقله المَكْدُودَ على العقولِ المارِغةِ، ومعانيه على الجَهَابِذَةِ، وتَحَكُّمِهِ
فيه المتأَوِّلينَ والحَسَدَةَ، ومتى ظفرَ بِمِثْلِهِ صاحبَ علمٍ، أو هَجَمَ عليه طَاطِبُ فَتْنِهِ . وهو وادِع
رَافِهِ، ونَشِيطُ جامٍ، ومُؤَلِّفُهُ مُتَعَبٌ . كدود . فقد كَفَى مَؤُونَةَ جَمْعِهِ . وخرنه وتبعه، وطلبه .
وأغناه ذلك عن طُولِ التَّفَكِيرِ، واستنفادِ العَمْرِ . وقَلَّ الحَدَثُ . وأدركَ أَقْصَى حاجته . وهو
مُجْتَمِعُ القُوَّةِ، وعلى أن له عند ذلك أن يجعل هُجُومَهُ عليه ضرباً من التوفيق . وظَفَرَهُ به
باباً من التسديد .

(وهذا كتاب) تستوى فيه رَغْبَةُ الأُمَمِ، ونشابهه فيه العرب والعجم، لأنه وإن كان عربياً
أعربياً، وإسلامياً إجماعياً، فقد أخذ من طُرَفِ الفِلسَفَةِ، وجمع بين معرفة لِسْمَاعِ وعده
التجربة، وأشرك بين علم الكُتَّابِ والسَّنَةِ . وبين وجدان الحاسة وإحساس الغمزية،
ويشتميه الفِثْيَانُ كما يشتميه الشيوخ، ويشتميه الفاتك كما يشتميه السمت . ويشتميه اللاعب
ذو اللهب كما يشتميه الإلخديّ ذو الخزم، ويشتميه العقول كما يشتميه الأديب . ويشتميه النغيّ
كما يشتميه الفِظْنُ ؛ وعبثني بحكاية قول العثمانية والضَّرَّارِيَّةِ وأنت سمعتني أقول في أول
كتابي : وقالت العثمانية والضَّرَّارِيَّةِ، وكما سمعتني أقول : وقالت الرافضة والزُّبَيْدِيَّةُ . حكمت
على بالنَّصْبِ لحكايتي قول العثمانية . فهلا حكمت على بالتشيع لحكايتي قول الرافضة . وهلا
كنتُ عندك من الغالية لحكايتي مُجْحِجِ الغالية . كما كنتُ عندك من الناصبة لحكايتي قول
الناصبة . وقد حكينا في كتابنا قول الإباضية والتَّصْفَرِيَّةِ ، كما حكينا أقوالنا لأرارقة
والنجديّة ، وعلى هذه الأركان الأربعة بُنِيَتِ الخارِجِيَّةُ ؛ وكلُّ أئمِّمِ سِوَاهَا إِنَّمَا هُوَ فِرْعٌ
ونتيجة وأشتقاق منها . ومحمول عليها ، فهلا كُأَ عندك من المحمكة الخارِجَةِ . كما صرنا عندك
من الضَّرَّارِيَّةِ، والناصبة ! وكيف رضيت بأن تكون الشيعة إلى أعراض الناس أسرع
من المارقة ! اللهم إلا أن تكون وجدت حكايتي عن العثمانية والضَّرَّارِيَّةِ أضع وأجمع .
وأتمُّ وأحكم وأجود صَنَعَةً ؛ وأبعد غايَةً . ورأيتني قد وهنتُ حتى لو بك بقدر ما قويتُ
باطل أعدائك ، ولو كان ذلك كذلك لكن شاهدك من الكُتُبِ حاضر . وبرهانك عن
ما أَدْعَيْتُ واضحاً .

وعبثى بكتاب العباسية فهلا عبثى بحكاية مقالة من ادعى وجوب الإمامة ، ومن يرى الامتناع من طاعة الأئمة الذين زعموا أن ترك الناس سدى بلا قيم أرد عليهم ، وهؤلاء بلا راج أريح لهم ، وأجدد أن يجمع لهم ذلك بين سلامة العاجل ، وغنمة الآجل ، وأن تركهم نشر لانظام لهم أبعدهم من المفسد ، وأجمع لهم على المرشد! بل ليس ذلك بك ، ولكنه لما بهرك ما سمعت ، وملا صدرك الذي قرأت ، وأبعلك وأبطرك فلم تنجبه للجنة وهي لك معترضة ، ولم تعرف المقاتل وهي لك بادية ، ولم تعرف باب المخرج إذ جهلت باب المدخل ، ولم تعرف المصادر إذ جهلت الموارد ؛ ورأيت أن سب الأولياء أشقى لدائك ، وأبلغ في شفاء سقمك ؛ ورأيت أن إرسال اللسان أحضر لذة ، وأبعد من النصب ، ومن إطالة الفكرة ، ومن الاختلاف الى أرباب هذه الصناعة ؛ ولو كنت حين فطنت لمعجزك وصلت نقصك بتمام غيرك ، وأستكنيت من هو موقوف على كفاية مثلك ، وحبيس على تقويم أشباهك ، كان ذلك أزين في العاجل ، وأحق بالمشورة في الآجل ، وكنت إن أخطأتك الغنمة لم تحطتلك السلامة ، ولقد سلم عليك المخالف ، بقدر ما ابتلى به منك الموافق ؛ وعلى أنه لم يبدل منك إلا بقدر ما أزمته من مؤونة تثقيفك ، والتشاغل بتقويمك ؛ وهل كنت في ذلك إلا كما قال العربي : * وهل يضر السحاب نبح الكلاب * ؟ وإلا كما قال الشاعر :

هل يضر البحر أمسى زاحرا * أن رمى فيه غلام بحجر

وهل حالنا في ذلك إلا كما قال الأول :

ما ضر تغلب وإل أهجوتها * أم بلت حيث تآطح البحران

وقال حسان :

ما أبلى أنب الحزن تيس * أم لحاني بظهر غيب لثيم

وما أشك أنك قد جعلت طول إعراضنا عنك مطية لك ، ووجهت حامننا عنك الى الخوف منك ، وقد قال زفر بن الحارث لبعض من لم برحق الصفح بجعل العفو سببا الى سوء القول :

فإن عُدت والله الذى فوق عرشه * ممتحنك مسنون الغارين أزرقا
فإن دواء الجهل أن تُضربَ الطل^(١) * وأن يغمس العريض حتى يفرقا^(٢)

وقال الأول :

وما ننى عنك قوما أنت خائفهم * كمثل وفك جهالا يجهال
فاقس إذا حدبوا وأحدب إذا قعسوا * ووازين الشر مثقالا بمثقال

وقال الآخر :

وضفائى دوايتها بضغائين * حتى يمتن وبالخُود حُودا

وإنى وإن لم يكن عندى سنان زقر بن الحارث، ولا معارضة هؤلاء : الشر بالشر،
والجهل بالجهل، والحقد بالحقد. فإن عندى ما قال المسعودى :

ممسًا تراب الأرض منها خُلقتا ، وفيها المعاد والمصير الى الحشر
ولا تعجباً أرب ترجعا فَنُسلما .. فما حُشى الأفواهُمُ شراً من الكبر
فلو شئت أذنى فيكاً غير واحد * علانية أو قال عندى فى ستر
فإن أنا لم أمر ولم أنه عنك * ضحك^(٣) له حتى يلج ويسشرى

وقال الثمير بن توبل :

جزى الله عنى حمزة بنه نوفل * جزاء مغل بالأمانة كاذب

بما خبرت. عنى الوشاة ليكذبوا * على وقد أوليتها فى النوائب

يقول :. أخرجت خبرى الى من يشمى أن أعاب عندها .

ولو شئنا لعارضناك من القول بما هو أقيح أثراً، وأبقى وشماً، وأصدق قبلاً، وأعدل

شاهداً، وليس كل من ترك المعارضة فقد صفع، كما أنه ليس كل من عارض فقد انتصر.

(١) الطل : الأعتاق .

(٢) العريض : الذى يتعرض للناس بالشر .

(٣) كذا فى الأصل ، وفى اللسان فى مادة ليج : تضحك حتى يبلع ويسشرى .

وقد قال الشاعر قولاً إن فِئته كَفَيْتَنَا مَوْئونة المعارضة ، وكفيت نفسك لزوم العار ، وهو قوله :

إِنْ كُنْتَ لَا تَرْهَبُ ذَمِّي لِمَا * تَعْرِفُ مِنْ صَفِيحِي عَنِ الْجَاهِلِ
فَاخْشِ سَكَوتِي آذَانًا مُنْصِتًا * فَيْكَ لِمَسْمُوعِ خَنَا الْقَائِلِ
فَالسَامِعُ الذَّمَّ مُقْتَرَبُهُ * كَالْمَطْعَمِ الْمَاكُولَ لِالْآكِلِ
مَقَالَةُ السُّوءِ إِلَى أَهْلِهَا * أَسْرَعُ مِنْ مُنْحَدِرِ سَائِلِ
وَمَنْ دَعَى النَّاسَ إِلَى ذَمِّهِ * ذَمُّهُ بِالْحَقِّ وَبِالْبَاطِلِ
فَلَا تَهْجُ إِنْ كُنْتَ ذَا إِرْبَةٍ * حَرْبِ أُنْحَى التَّجْرِبَةِ الْعَاقِلِ
فَإِنَّ ذَا الْعَقْلِ إِذَا هَجَّتْهُ * هَجَّتْ بِهِ ذَا خَبَلِ خَابِلِ
يُبْصِرُ فِي عَاجِلِ شِدَاتِهِ * عَلَيْكَ غِبُّ الضَّرْرِ الْآجِلِ

وقد يقال : إن العفو يُفسدُ من اللئيم بقدر إصلاحه من الكريم ؛ وقد قال الشاعر :

وَالْعَفْوُ عِنْدَ لَيْبِ الْقَوْمِ مَوْعِظَةٌ * وَبَعْضُهُ أَسْفِيهِ الْقَوْمِ تَدْرِيْبٌ

فإن كُنَّا قد أسأنا في هذا التقرُّع والتوقيف ، فالذي لم يأخذ فيما نُحْكَمُ القرآن ، ولا بأدب الرسول عليه الصلاة والسلام ، ولم يفزع إلى ما في الفِطْنِ الصحيحة ، أو إلى ما توجَّبه المقاييسُ المطردة ، والأمثالُ المضروبة ، والأشعارُ السائرة ، أو إلى بالإساءة ، وأحقُّ باللائمة ، قال الله جلَّ شأؤه : ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى الْأَنْزُرَ وَإِرْزَ وَزُرَّ أُخْرَى ﴾ . وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام : " لا تجنَّ يمينك على شمالك " وهذا حكمُ الله جلَّ وعزَّ ، وأدبُ رسوله ، والذي أنزل به الكتاب ، ودلَّ عليه وُجَّجَ العقول .

أَخَذَ الْبَرِيءُ بِذَنْبِ الْمَذْنَبِ

ثم قال في أخذ البريء بذنب المذنب : فأما ما قالوا في المثل المضروب ، "رَمَتْنِي بِدَائِمِهَا وَأَنْسَلَتْ" . وأما قول الشعراء وذم الخطباء لمن أخذ إنساناً بذنب غيره ، وما ضربوا في ذلك من الأمثال ، كقول اللابغة حيث يقول في شعره :

وَكَفَفْتَنِي ذَنْبَ أَمْرِي وَتَرْكَتَهُ * كَذِي الْعَرِيكِيِّ غَيْرُهُ وَهُوَ رَاتِعٌ

وكانوا إذا أصاب إليهم العزكروا السليم ليذهب العز عن السقيم فاسقموا الصحيح من غير أن يُبرئوا السقيم ، وكانوا إذا كثرت إبل أحدهم فبلغت الألف فقتلوا عين الفحل . فإن زادت الإبل على الألف فقتلوا عينه الأخرى ، فذلك المفقأ والمعنى اللسان سمعت بهما قال الفرزدق :

غلبتُك بالمفقأ والمعنى ^(١) . وبيت المجتبي ^(٢) وانخافقت

وكانوا يرمون أن المفقأ يطرد عنها العين والسواف والغارة فقال الأول :

فَقَاتُ لَهَا عَيْنَ الْفَحِيلِ تَعِيْفًا * وفيهِنَّ رَعْلَاءُ الْمَسَامِعِ وَالْحَامِ

الرَعْلَاءُ : التي تُسَقُّ أذنها وتترك مدلاة لكرمها .

وكانوا يقولون في موضع الكفارة والأمنية . كقول الرجل إذا بلغت إبل كذا وكذا . وكذلك غنمى ذبحت عند الأوثان كذا وكذا عتيرة ، وعتيرة : من نُسك الرَّجِيَّةِ ، والجمع عتائر ، والعتائر من الشاء ، فإذا بلغت إبل أحدهم أو غنمه ذلك العدد استعمل الذويل وقال : إنما قلت : إني أذبح كذا وكذا شاة ، والظباء : شاء . كما أن الغنم شاء ، فجعل ذلك القران كاهم ما يصيد من الظباء ، فذلك يقول الخارث بن حنزة البشكري :

عَتَاءٌ بِاطْلَا شُدُوْحًا كَمَا نَعْدُ . تَرَعُنُ مِجْرَةَ الرَّيْبِيضِ الظُّبَاءِ

بعد أن قال :

أُمِ عَلَيْنَا جُنَاحُ كِنْدَةَ أَنْ يَغْدُ * نَمِ غَازِيهِمْ وَمَا الْجَزَاءُ

وكانوا إذا أوردوا البقر فلم تشرب ، إما لكدر الماء ، وإما لقلة العيش . ضربوا الشور ليقتم الماء لأت البقر تبعه كما تتبع الشور الفحل ، وكما تتبع أثن النوحش الخمار ، فقال في ذلك عوف بن الحرير :

تَمَنَّتْ طَيِّءٌ جُهْلًا وَجُبْنًا * وَقَدْ حَايَيْتِهِمْ فُؤُؤًا خَلَائِي

مَجُونِي أَنْ هَجَوْتُ جِبَالَ سَلَمَى * كَصَرْبِ الشُّؤْرِ لَابِقِ النَّظْرِ

(١) في اللسان مادة «فقأ» بمعنى « . » (٢) كذا في الأصل وفي النسب « المجتبي »

بالحاء المهملة . (٣) أسواف : مرض ذئب . (٤) كذا في الأصل وفي النسب مادة «ر» و«طها» .

وقال في ذلك أنس بن مُدْرِكة في قتله سُلَيْك بن السَّلَكَة :

إِنِّي وَقَتْلِي سُلَيْكًا ثُمَّ أَعْقَلُهُ * كَالثَّوْرِ يُضْرَبُ لِمَاعَفَاتِ الْبَقْرِ
أَنْفَتٍ لِلرَّءِ إِذْ تُغْشَى حَلِيلَتُهُ ^(١) * وَإِذْ يُسَدُّ عَلَى وَجْعَائِهَا النَّفْرُ ^(٢)
^(٣)

وقال الهَيْبَانُ الْفَهْمِيُّ :

كَمَا ضُرِبَ الْعَسُوبُ أَنْ عَافَ بَاقِرٌ * وَمَا ذَنْبُهُ أَنْ عَافَتِ الْمَاءَ بَاقِرٌ

ولما كَانَ الثَّوْرُ أَمِيرَ الْبَقْرِ، وَهِيَ تَطِيعُهُ كَطَاعَةِ إناثِ النَّحْلِ لِلْعَسُوبِ سَمَاهُ بِأَسْمِ أَمِيرِ

النَّحْلِ .

وَكَانُوا يَزْعَمُونَ أَنَّ الْجِلْحَ هِيَ الَّتِي تَصَدُّ الْبَيْرَانَ عَنِ الْمَاءِ حَتَّى تُمَسِّكَ الْبَقْرَ عَنِ الشَّرْبِ

حَتَّى تَهْلِكَ ؛ وَقَالَ فِي ذَلِكَ الْأَعْمَشِيُّ :

وَإِنِّي وَإِنْ كَلَفْتُمُونِي وَرَبِّكُمْ * لِأَعْلَمُ مَنْ أَمْسَى أَحَقُّ وَأَحْوَبًا
لِكَالْثَّوْرِ وَالْجُنْحِيُّ يُضْرَبُ ظَهْرَهُ * وَمَا ذَنْبُهُ أَنْ عَافَتِ الْمَاءَ مَشْرَبًا
وَمَا ذَنْبُهُ أَنْ عَافَتِ الْمَاءَ بَاقِرٌ * وَمَا إِنْ تَعَافَى الْمَاءُ إِلَّا لِتَضْرَبَا

كَأَنَّهُ قَالَ : إِذْ كَانَ يُضْرَبُ أَبَدًا لِأَنَّهَا تَافَتِ الْمَاءَ، فَكَأَنَّهَا إِذَا تَافَتِ الْمَاءَ لِيُضْرَبَ ؛

وَقَالَ يَحْيَى بْنُ مَنْصُورِ الدَّهْلِيِّ فِي ذَلِكَ :

لِكَالْثَّوْرِ وَالْجُنْحِيُّ يُضْرَبُ وَجْهَهُ * وَمَا ذَنْبُهُ إِنْ كَانَتْ الْجُنْحُ ظَالِمَةً

وَقَالَ نَهْشَلُ بْنُ جَرِّ :

أَتَتْرُكُ عَارِضٌ وَبَسُو عَدِي * وَتَقْرَمُ دَارِمٌ وَهُمْ بَرَاءُ
كَدَابِ الثَّوْرِ يُضْرَبُ بِالْهَرَاوِي * إِذَا مَا عَافَتِ الْبَقْرُ الظَّأُ
وَكَيفَ تَكْلَفُ الشَّعْرَى سَهِيلاً * وَبَيْنَهُمَا الْكَوَاكِبُ وَالسَّمَاءُ

(١) في اللسان : « عضبت » . (٢) في الأصل « وإن » والتصويب عن اللسان .

(٣) النفر : السير الذي في مؤن السرج .

وقال أبو نُؤَيْرَةَ بن حُصَيْنٍ حين أَخَذَهُ الحَكَمُ بنُ أَيُوبَ بذَنْبِ العَطْرِيقِ :

أبا يوسُفَ لو كنتَ تعلمَ طاعتي * ونُصحي إذا ما بَعَثَنِي بالمُخْلِيقِ
ولا ساقَ سراقِ العُرافَةِ صاحِبُ * بَنِيَّ ولا كُفِّتُ ذَنْبَ العَطْرِيقِ

وقال خَدَّاشُ بن زُهَيرٍ حين أَخَذَ بدماءِ بَنِي مُحَارِبِ :

أَكَلْتُ قَتْلَ مَعْشِرِ لَسْتُ مَنَّهُمْ * ولا دارهم داري ولا نَصْرهم نَصْرِي
أَكَلْتُ قَتْلَ العَيْصِ عَيْصِ شُواحِطِ * وذاك أمرٌ لم تُسَفِّ له قِدرِي

وقال الآخر :

إذا عَرَكَتْ عَجَلٌ بنا ذَنْبَ طَيْئِ * عَرَكَنا بَنِيَّ اللَّاتِ ذَنْبَ بَنِي عِجْلِ

ولما وجد اليهوديُّ أَخا حَنِيصِ الصَّبَّابِيَّ في مِيزَنِهِ نَخَصاءَ فَمَاتَ ، وأَخَذَ حَنِيصُ بنِي عَبَسَ
بِجَنابَةِ اليهوديِّ قال قَيْسُ بن زُهَيرٍ : أتاخِذُنا بِذَنْبِ غَيْرِنا ، وتَسألُنا العَقْلَ ، والقائِلُ يهوديٌّ
من أَهلِ تَيْمَاءَ ؟ قال : واللهِ لو قَتَلَهُ هَيْفَ الرِّيحِ لودِدْتُموهُ ، فقال قَيْسُ بنِي عَبَسَ : الموتُ
في بَنِي دُبَيَّانِ خَيْرٌ لَكُمُ من الحِياةِ في بَنِي عامِرٍ ، ثم أَنشأَ يقولُ :

أَكَلْتُ ذا الخُصِيِّينَ إِنْ كانَ ظالِمًا * وإِنْ كُنْتُ مَظْلُومًا وإِنْ كُنْتُ شاطِئًا
خَصاءَهُ أَمْرًا من أَهلِ تَيْمَاءَ طابِئِ * ولا يَعدِمُ الإنسِيَّ والجُنَّ طابِئًا
فَهَلَّا بنِي دُبَيَّانِ أُمُّكَ هابِلُ * رَهَنْتَ بِهَيْفِ الرِّيحِ إِنْ كُنْتُ رَاهِنًا
إذا قَلْتُ قَدِ أَفُتُّ من شَرِّ حَنِيصِ * أَتاني بِأُخْرَى شَرُّهُ مُتَباطِئًا
فَقَدِ جَعَمَاتُ أَجْادِنا تَجْتَوِيكُم * كما تَجْتَوِي سُوْقُ العِضاهِ الكَرانِيا

ولما قَتَلَ لَقْمانُ بنَ عادِ أَبَتَهُ وهى حُحْرٌ بنتُ لَقْمانَ قالَ حينَ قَتَلها : أَلَسِيتِ أَمْرَأَةً ؟
وذلك أَنَّهُ تزوجَ عِدَّةَ نِساءٍ وكُلَّهِنَّ حُخَّةً في أَنفُسِهِنَّ ، فَمَما قَتَلَ أَشْرَاحَهُ ونَزَلَ من الجبلِ كانَ
أَوَّلَ من تَلقاه حُحْرُ ابْنَتِهِ ، فوثبَ عليها فقتلها ، وقالَ وَأنتِ أَيْضًا أَمْرَأَةٌ ، وكانَ قَدِ أَبْتَلَى أَيْضًا
بأنِ أَخْتَهُ كانتَ مُجَمَّعَةً ، وكذلكَ كانَ زواجِها . فقالت لِإِحدى نِساءِ لَقْمانَ : هذه ليلَةُ طُهْرِي

وهي ايلتك، فدعيني أتم في مضجعتك، فإن لقمان رجلٌ مُتَّجِبٌ، فعسى أن يقع عليَّ فَأُتَّجِبَ،
فوقع على أخته فحملت بَلْقَمٍ وفي ذلك قول النمر بن تولب :

لَقِيمٌ بِنُ لِقْمَانَ مِنْ أُخْتِهِ * فَكَانَ ابْنَ أُخْتٍ لَهُ وَابْنًا
لِيَالِي حَمَقٍ فَاسْتَحْصَنَتْ * عَلَيْهِ فغُرِّبَهَا مُظْلَمًا
فَأَحْبَاهَا رَجُلٌ مُحْكَمٌ^(١) * بَخَاءَتِ بِهِ رَجُلًا مُحْكَمًا

فضربت العرب في ذلك المثل بقتل لقمان بنته صخرًا فقال حُفَّافُ بْنُ نَدْبَةَ فِي ذَلِكَ :
وَعَبَّاسٌ يُدَبُّ لِي الْمَنَائِيَا * وَمَا أَذْنَبْتُ إِلَّا ذَنْبَ صُخْرِي

وقال في ذلك ابنُ أُذَيْنَةَ :

أَجْمَعُ تَهَامًا بِلَيْلَى إِذَا نَأَتْ * وَهَجْرَانَهَا ظُلْمًا كَمَا ظَلَمْتِ صُخْرِي

وقال الحارث بن عباد :

قَرَّبًا مَرْبُطَ النَّعَامَةِ مَنِي * لَفِيحَتِ حَرْبٍ وَائِلٍ عَنِ حِيَالِ
لَمْ أَكُنْ مِنْ جِبَاتِهَا عِلْمٌ لَدَّ * لَهْ وَإِنِّي بِمَجْرَدِ الْيَوْمِ صَالِي

وقال الشاعر وأظنه ابن المقفع :

فَلَا تَلِمِ الْمَرْءَ فِي شَأْنِهِ .. فَرَبٌّ مَلُومٌ وَلَمْ يُذْنِبْ

وقال آخر :

لَعَلَّ لَهُ عَذْرَا وَأَنْتَ تَلُومٌ * وَكَمْ لَائِمٌ قَدِ لَامَ وَهُوَ مُلِيمٌ

وقال بعض العرب في قتل بعض المملوك سِنْيَارَ الرَّوْحِيِّ : فَإِنَّهُ لَمَّا عَلَا الْخُورَنَقَ، وَرَأَى
بُنْيَانًا لَمْ يَرْمَثْهُ، وَرَأَى ذَلِكَ الْمُسْتَشْرِفَ، وَخَافَ إِنْ هُوَ اسْتَبْقَاهُ أَنْ يَمُوتَ فِيبَنِي مِثْلَ ذَلِكَ
الْبُنْيَانِ لِمَلِكٍ آخَرَ فَأَمَرَ بِهِ فَوَجِيَّ مِنْ فَوْقِ الْقَصْرِ فَقَالَ فِي ذَلِكَ الْكَلْبِيِّ فِي شَيْءٍ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ
بعض المملوك :

(١) وروى : نائه .

جزائى جزاه الله شرَّ جزائه * جزاء سنَّار وما كان ذا ذنوب
 سوى رصّه البنيان سبعين حجة .. يُعلّى عليه بالقواميد والسكيب
 فلما رأى البنيان تمَّ سحقه .. وأض كمثل الطودذى الذبح الصعب
 فظنَّ سنَّارُ به كلَّ حَبْوة * وفاز لديه بالمسودة والقرب
 فقال اقدفوا بالعليج من رأس شاهق * فذلك لعمر الله من أعظم الخطيب

وجاء المسلمون يروى خلف عن سلف . وتابع عن سابق . وأتبع عن أول ، أنهم
 لم يختلفوا في عيب قول الخجاج : لأخذن ، السعى بالسمى والولى بالوبى . وإخدر بالجزر ،
 ولم يختلفوا عن لعن شاعرهم حيث يقول :

إذا أخذ البرىء بغير جريم * تجنّب ما يُخديره السقيم

قال : وقيل لعمر بن عبيد إن فلانا لما قدم رجلاً ليصرب عنته فقبل له : إنه
 مجنون ، قال : لولا أن المجنون يد عقلاً خلّيت سبيله . قال فقال عمرو : وما خلق الله النار
 إلا بالحق .

ولما قالت التغلّبية للجحاف بن حكيم في وقعة البشر : وقص الله عمادك . وأطال سهادك .
 وأقل رمادك . فوالله إن قتلت إلا نساء أساطهن دمي . وأعالين ندى . فقل لمن حوله : لولا
 أن تلد هذه مثلها خلّيت سبيلها . فبلغ ذلك أحسن فقال : إن الجحاف جدوة من نارجهيم .
 قال وذم رجلٌ عند الأحنّف بن قيس الكجاة بالسمن . فقل عند ذلك الأحنّف : ربّ
 مَلوم لا ذنب له . فهذه أسيرة سرت فينا . وما أحسن ما قال سعيد بن عبد الرحمن
 ابن حسان :

وإن امرأً يمسى وبصبح سالماً * من الناس إلا ما جرى لسعيد

وقلت : وما بأهل العلم والمظر . وأصحاب الفكر والعبر . وربّ النحل . والعهد
 بخارج الملل . وورثة الأنبياء . وأعوان الخلفاء . يكتبون كتب الظرف . والمجاد . وكتب
 الفراغ والخلفاء . وكتب الملاهي والكمكاه . وكتب أصحاب الخصومات والمرايا . وكتب

أصحاب العصبية، وحمية الجاهلية، حتى كأنهم لا يحاسبون أنفسهم، ولا يوازنون بين ما عليهم ولهم، ولا يخافون تصفح العلماء، ولا لأئمة الأدباء وشرف الأكفاء، ومساءة الجلوساء؛ فهلاً أمسكت رحمك الله عن عينا، والظعن عليها، وعن المشورة والموعظة، وعن تخويف ما فيه سوء العاقبة الى أن تبلغ حال العلماء، ومراتب الأكفاء .

أقسام البيان

وبعد أن تكلم في تقسيم العالم الى ثلاثة أقسام، وذكر أقسام الحيوان، قال في أقسام

البيان :

ووجدنا الحكمة على ضربين : شئٌ جعلَ حكمةً وهو لا يعقل الحكمة ولا عاقبة الحكمة ، وشئٌ جعلَ حكمةً وهو يعقل الحكمة وعاقبة الحكمة ، فاستوى بَدَنُ الشئ العاقل وغير العاقل في جهة الدلالة على أنه حكمة ، واختلفا من جهة أن أحدهما دليلٌ لا يستدلُّ ، والآخر دليلٌ يستدلُّ ، فكلُّ مُستدلِّ دليلٌ ، وليس كلُّ دليلٍ مستدلًّا ، فشارك كلُّ الحيوان سوى الإنسان جميع الجاد في الدلالة وفي عدم الاستدلال ، واجتمع للإنسان بأن كان دليلاً مستدلًّا ، ثم جعلَ للمستدلِّ سببٌ يدلُّ به على وجوه استدلاله ، ووجوه ما نتج له الاستدلالُ ، وسموا ذلك بيانا ؛ وجعل ذلك البيان على أربعة أقسام : لفظٍ وخطٍ وعقد وإشارة ، وجعل بيان الدليل الذي لا يستدلُّ تمكينه المُستدلِّ من نفسه واقتياده كلَّ من فكر فيه الى معرفة ما استخزن من البرهان ، وحشي من الدلالة ، وأودع من عجيب الحكمة ؛ فالأجسام الخرس الصامتة ناطقة من جهة الدلالة ، ومُعربةٌ من جهة صحة الشهادة ، على أنّ الذي فيها من التدبير والحكمة تلوحان لمن استحبرهما ، وينطقان لمن استنطقهما كما يحير الهزال وكمود اللون عن سوء الحال ، وكما ينطق السَّمَنُ والنَّصْرَة عن حسن الحال ، وقد قال الشاعر :

فعاجوا فأثبوا بالذي أت أهله * ولو سكتوا أثنت عليك الحقايبُ

وقال آخر :

متى تك في عدو أو صديق . تخبرك العيون عن القلوب

وقد قال العُكَلِيُّ في صدق شبه الذئب ، وفي شدة حسه وأستر واحة :

يستخبر الريحُ إذا لم يسمع * بمثل مقراع الصفا الموقع

وقال عنتره وهو يصف نعيبَ غراب :

حَرِّقِ الجَنَاحِ كَأَن حَرَّقَ رَأْسَهُ * جَاهَانُ بِالْأَخْبَارِ هَشَّ مَوْعُهُ

وقال الفضل بن عيسى بن أبان في قصيدته : سل الأرض فقل : من شق أنهارك .

وغرس أشجارك ، وحجى ثمارك ، فإن لم تجب حوارا . أجازتك اعتبارا . فموضوع الجسم ونصبته دليل على ما فيه . وداعية اليه ومنبهة عليه . فالجمد الأبرم الأخرس من هذا الوجه قد شارك في البيان الإنسان الخي الناطق ، فمن جعل أقسام البيان نعمة فقد ذهب أيضا مذهبا له جواز في اللغة . وشاهد في العقل . فهذا أحد قسمي الحكمة . وأحد معني ما استخزنها الله تعالى من الوديعه .

القسمه الأخرى ما أودع صدورُ صنوف ما تراخيوان من ضروب المعارف . وفطرها على غريب الحيدانيات ، وبختر حناجره له بضرب النغم الموزونة ، والأصوات الملحنة ، والمخارج الشجية ، والأغاني المطربة . فقد يدل : إن جميع أصوتيه معدلة . وموروة موقعة . ثم الذي سبب لنا من الرفق العجيب في الصنعة مما دانه الله تعالى لنا قهرها وأكتمها . وكيف فتح لها من باب المعرفة على قدر ما هيها من الآلة . وكيف أعطي كثير منها من الحس الناطيف ، والصنعة البديعة عن غير أديب وتثنيف . وعن غير تقويم وتفنين ، وعن غير تدريج وتقرين ، فبعت بعفوها ومقدار قوي فطرها من بديه والآرتحال . ومن الابتداء والأقتضاب ، ما لا يقدر عليه حدائق رحل الرأي ، وفلاسهه عماء البشر بيد ولا آله ، بل لا يبلغ ذلك من الناس أكملهم خصالا . وأتمهم حاللا . من جهة الارتجال والأقتضاب ولا من جهة التعسف والأقتدار . ولا من جهة التقديس فيه . ولتأني له . والترتيب لمقدماته . وممكن لأسباب المعية عليه فصار جهة الإنسان الناطف الحس ، الجامع القوي . المتصرف في وجوده متعدد في الأمور عجز عن عنو كثير منها . وينظر انظر

الى ضرور ما ينجي منها كما أُعطيَت العنكبوت ، وكما أُعطيَت السُرْفَةُ ، وكما عُلِّمَ النحلُ ، بل عرَّفَ التَّوتُّطُ من بديع المعرفة ، ومن غريب الصنعة في غير ذلك من أصناف الخلق ثم لم يوجد لهم العجز في أنفسهم في أكثر ذلك إلا عما قوى عليه الهَمَجَ والخشاشَ وصِغَارَ الحشرات ، ثم جعل الإنسان ذا العقل والتمكين ، والاستطاعة والتصريف ، وذا التكلف والتجربة ، وذا التأني والمُنَافَسَة ، وصاحب الادخار والمتفقد لشأن العاقبة متى أحسن شيئا كان كلُّ شيءٍ دونه في الغموض عليه أسهل ، وجعل سائر الحيوان وإن كان يُحسِّنُ أحدها ما لا يُحسِّنُ أحذق الناس متى أحسن شيئا عجيبا لم يمكنه أن يُحسِّنَ ما هو أقرب منه في الظن ، وأسهل منه في الرأي ، بل لا يحسن ما هو أقرب منه في الحقيقة ؛ فلا الإنسان جعل نفسه كذلك ، ولا شيء من الحيوان اختار ذلك ، فأحسنت هذه الأجناس بلا تعلم ما يتمتع على الإنسان ، وإن تعلم فصار لا يحاوله إذ كان لا يطعم فيه ، ولا يحسدها إذ كان لا يأملُ الخلق بها ، ثم جعل تعالى وعز هاتين الحكمتين إزاء عيون الناظرين ، ونجاة أسماع المعتبرين ، ثم حث على التفكير والأعتبار ، وعلى الآتعاظ والأزدجار ، وعلى التعزف والتبيين ، وعلى التوقف والتذكرة ، فجعلها مُذَكِّرَةً منبهةً ، وجعل الفطر تنشيء الخواطر ، وتجول بأهلها في المذاهب ، ذلك رب العالمين . سبحان الله رب العالمين .

وهذا كتاب موعظة وتعريف ، وتفقه وتنبه ، وأراك قد عبته قبل أن تقف على حدوده ، وتنفكر في فصوله ، وتذكر آخره بأوله ، ومصادره بموارده ، وقد غلطك فيه بعض ما رأيت في أثنائه من مزج لم تعرف معانيه ، ومن بطلالة لم تدرك غورها ، ولم تدبر لم أجبت وأى علة تكلفت ، وأى معنى أربغ بها ، وأى جد احتمل ذلك الهزل ، ولأية رياضة تجمت تلك البطلانة ، ولم تدبر أن المزاج جد إذا اجتلب لأن يكون علة للجد ، وأن البطلانة وقار وزمانة إذا تكلفت لتلك العاقبة ، ولما قال الخليل بن أحمد : لا يصل أحد من علم النحو الى ما يحتاج اليه حتى يتعلم ما لا يحتاج اليه ؛ قال أبو شمر : اذا كان لا يصل الى ما يحتاج اليه إلا بما لا يحتاج اليه فقد صار ما لا يحتاج اليه يحتاج اليه ؛ وذلك

مثل كتابنا هذا، لأننا إن حملنا جميع من يتكأف قراءة هذا الكتاب على مر الحق، وصعوبة الجهد، ونقل المؤونة وحقيقة الوقار، لم يصبر عليه مع طوله إلا من قد تجرد للعلم وفيهم معناه. وذاق من ثمرته، وأستشعر من عزه، ونال من سروره على حسب ما يورث الطول من الكد، والكثرة من السامة، وما أكثر من يقاد الى حفظه بالسواجير، والسوق العنيف، وبالإخافة الشديدة.

مدح الكتب

ثم ذكر فقرات حسناً في مدح الكتب فقال :

ثم لم أرك رضيت بالظن على كل كتاب لي بعينه، حتى تجاوزت ذلك، إلى أن عبت وضع الكتب كيفما دارت بها الحال، وكيف تصرفت بها الوجوه، وقد كنت أعجب من عيبك البعض بلا علم، حتى عبت الكل بلا علم، ثم تجاوزت ذلك إلى التشنيع، ثم تجاوزت التشنيع إلى نصب الحرب، فعبت الكتاب ونعم الذخر والعدة. ونعم الجليس والعمدة، ونعم النشوة والزهوة، ونعم المشتغل والحرفة، ونعم الأنيس ساعة الوحدة، ونعم المعرفة ببلاد الغربة، ونعم القرين والدخيل، ونعم الوزير والنزيل. والكتاب وعاء ملاءمها، وظرف حشيش خرفا. وإناء شجن مزاجها وجداب. إن شئت كان أمين من سبحان وانلي، وإن شئت كان أعيان من باقل، وإن شئت صحت من بوادره. وإن شئت عجبت من غرائب فوائده، وإن شئت ألتصق نوادره. وإن شئت شجنت مواظله. ومن لك بواعظ مله، وبزاجر مغر، وبناسك فاك. وبناطق أنرس، وببارد حار، وفي البارد الحار يقول الحسن بن هاني :

قل زهير إذا أتممتي وشدا - أقلل أو أكثر فئت مهذار
سختت من شدة البرودة حتى صرت عندي ككأنت النار
لا يعجب السامعون من مقي - كذلك الثلج بارد حار

وَمَنْ لَكَ بِطَيْبِ أَعْرَابِيٍّ ، وَبِرُومِيٍّ هِنْدِيٍّ ، وَبِفَارِسِيٍّ يُونَانِيٍّ ، وَبِقَسْدِيمٍ مَوْلَدٍ ،
 وَبِمَيْتٍ تُتَبَعُ ، وَمَنْ لَكَ بِشَيْءٍ ، يَجْمَعُ لَكَ الْأَوَّلَ وَالْآخِرَ ، وَالنَّاقِصَ وَالْوَافِرَ ، وَالخَفِيَّ وَالظَّاهِرَ ،
 وَالشَّاهِدَ وَالغَائِبَ ، وَالرَّفِيعَ وَالْوَضِيعَ ، وَالغَنَمَ وَالسَّمِينَ ، وَالشَّكْلَ وَخِلَافَهُ ، وَالْجِنْسَ وَضِدَّهُ .
 وَبَعْدَ ، فَهِيَ رَأْيَتُ بَسْتَانَا يُجْمَلُ فِي رُؤْنِ ، أَوْ رَوْضَةً تُتَقَابُ فِي حِجْرِ ، وَنَاطِقًا يَنْطِقُ عَنِ
 الْمَوْتِ ، وَيُتَرَجِّمُ كَلَامَ الْأَحْيَاءِ ، وَمَنْ لَكَ بِمُؤْنِسٍ لَا يَنَامُ إِلَّا بِنَوْمِكَ ، وَلَا يَنْطِقُ إِلَّا بِمَا
 تَهْوَى . آمِنٌ مِنَ الْأَرْضِ ، وَأَكْمَلُ لِلسَّرِّ مِنَ صَاحِبِ السَّرِّ ، وَأَضْبَطُ لِلوَدِيعَةِ مِنَ أَرْبَابِ
 الْوَدِيعَةِ ، وَأَحْفَظُ لِمَا اسْتَحْفَظُ مِنَ الْأَمِّيِّينَ ، وَمِنَ الْأَعْرَابِ الْمَعْرِيِّينَ ، بَلْ مِنْ الصَّبِيَّانِ
 قَبْلَ اعْتِرَاضِ الْأَشْغَالِ ، وَمِنَ الْعُمَيَّانِ قَبْلَ التَّمَتُّعِ بِتَمَيِّزِ الْأَشْخَاصِ ، حِينَ الْعِنَايَةُ تَامَةٌ لَمْ تَتَّقُصْ ،
 وَالْأَذْهَانُ فَارِغَةٌ لَمْ تَقْتَدِمْ ، وَالْإِرَادَةُ وَافِرَةٌ لَمْ تَسْتَعِبْ ، وَالطَّيْنَةُ لَيْنَةٌ فَهِيَ أَقْبَلُ مَا تَكُونُ لِلطَّابِعِ ،
 وَالْقَضِيبُ رَطْبٌ فَهِيَ أَقْرَبُ مَا يَكُونُ مِنَ الْعُلُوقِ ، حِينَ هَذِهِ الْخِصَالُ لَمْ يَسَلَّ جَدِيدُهَا ،
 وَلَمْ يُقَلَّ غَرِبُهَا ، وَلَمْ تُتَفَرَّقْ قُوَاهَا ، وَكَانَتْ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

أَنَا فِي هَوَاهَا قَبْلَ أَنْ أُعْرِفَ الْهَوَى * فِصَادِفِ قَلْبَا فَارِغَا فَتَمَكَّنَا
 وَقَالَ عَبْدَةُ بْنُ الطَّيِّبِ :

لَا تَأْمَنُوا قَوْمًا يَشِبُّ صَبِيَّهُمْ * بَيْنَ الْفَوَابِلِ بِالْعَدَاوَةِ يُنْشَعُ *

هَذَا مَعَ قَوْلِهِمْ : التَّعْلَمُ فِي الصَّغَرِ كَالْقَشِّ فِي الْحَجْرِ ؛ وَقَالَ جِرَانُ الْعَوْدِ :

تُرَكِّنُ بِرِحْلَةِ الرُّوحِ حَتَّى * تَتَكَبَّرَ الدِّيَارُ عَلَى الْبَصِيرِ

كَوْحِي فِي الْخِجَارَةِ أَوْ وَشُومِ * بِأَيْدِي الزُّومِ بَاقِيَةَ النَّوْرِ

النُّورُ : شَيْءٌ كَانَ يُعْمَلُ فِي الْحَاطِلَةِ مِثْلَ الْخَصْرِ الْيَوْمِ .

وَقَالَ آخَرُهُ وَهُوَ صَالِحُ بْنُ عَبْدِ الْقَدُوسِ :

وَإِنَّ مِنْ أَدَبَتِهِ عَلَى الصَّبَا * كَالْعَوْدِ يُسْقَى الْمَاءَ فِي غَرَسِهِ

حَتَّى تَرَاهُ مُورِقًا أَخْصَرَ * بَعْدَ الَّذِي أَبْصَرْتَ مِنْ يُسِّهِ

(١) كَذَا فِي الْأَصْلِ ، وَلِهَا : « نَبْطِي » .

(٢) فِي الْأَصْلِ : « تَمِيرَةٌ » وَهُوَ خَطُّ صَوَابِهِ مَا أَبْتَنَاهُ عَنِ الشَّعْرِ وَالشَّعْرَاءِ لِأَنَّ قَبِيَّةَ .

وقال آخر :

يَقُومُ مِنْ مَيْلِ الْغُلَامِ الْمُؤَدَّبِ * وَلَا يَنْفَعُ التَّأْدِيبُ وَالرَّأْسَ أَشْيَبُ

وقال آخر :

أَدَبْتُ عِرْسِي بَعْدَ مَا هَرِمْتُ * وَمَنْ الْعَنَاءُ رِيَاضَةُ الْهَرِيمِ

وقد قال ذو الرمة لعيسى بن عمر : اَكْتُبْ شِعْرِي فَالْكَتَابُ أَعْجَبُ لِي مِنَ الْخَفِظِ ،

إِنَّ الْأَعْرَابِيَّ يَنْسِي الْكَلِمَةَ قَدْ سَهَرَتْ فِي طَلَبِهَا لَيْلَةً ، فَيَضَعُ فِي مَوْضِعِهَا كَلِمَةً فِي وَزْنِهَا ثُمَّ يَنْشُدُهَا النَّاسَ ، وَالْكَتَابُ لَا يَنْسَى ، وَلَا يُبَدِّلُ كَلِمًا بِكَلِمَةٍ ؛

وعبت الكتاب ولا أعلم جارا أبتره ، ولا خليطا أنصف . ولا رفيقا أطوع ، ولا معنما أخضع . ولا صاحبا أظهر كفايته ، ولا أقل جناية . ولا أقل إملا ولا براما . ولا أقل خلافا وإجراما ، ولا أقل غيبة ، ولا أبعد من عضية . ولا أكثر أعجوبة وتصرفا . ولا أقل صلفا وتكلفا ، ولا أبعد من وراءه ، ولا أكثر شغيب ، ولا زهد في حدال . ولا أكثر عن قتال ، من كتاب ، ولا أعلم قريبا أحسن مواناة ، ولا أعلم مكافأة . ولا أحضرا مؤونة ، ولا أخف مؤونة . ولا شجرة أصول عُمرا . ولا أجمع أمرا ، ولا أطيب ثمرة . ولا أقرب نجى . ولا أسرع إدراكا ، ولا أوجد في كل إبان من كتاب . ولا أعلم نتاجا في حداثة سنه ، وقرب ميلاده . ورخص نمسه ، وإمكان موجوده ، يجمع من التداير العجبية ، والعلوم الغربية . ومن آثار العقول الصحيحة ، ومجود الأذهان اللصيفة ، ومن الحكم الرفيعة . والمذاهب القديمة . والتجارب الحكيمة . ومن لأخبار عن التفسير والمأضية . والبلاد المترخية . والأمثال السائرة . والأهم البائدة ما يجمع لك الكتاب .

وقد قال الله عز وجل لنبية عليه الصلاة والسلام : اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ

بِالْقَلَمِ ، وصف نفسه تبارك وتعالى حده بأن علم بالقلم . كما وصف نفسه بالكرم ، واعتد

ذلك في نعمه العظام ، وفي أياديه الحسام . وقد قالت : القلم أحد اللسانين .

وقالوا : كل من عرف فضل النعمة في بيان اللسان كان بفضل النعمة في بيان القلم

أعرف ؛ ثم جعل هذا الأمر قرآنا ، ثم جعله في أول التنزيل ، ومُسْتَفْتِحِ الْكِتَابِ ، ثم أعلم - يرحمك الله تعالى - ان حاجة بعض الناس الى بعض صفة لازمة لطبائعهم ، وحلقة قائمة في جواهرهم ، وثابتة لا تزالهم ، ومحيطة بجماعتهم ، مشتملة على أذانهم وأقاصيهم ، وحاجتهم الى ما غاب عنهم ، مما يُعَيْشُهُمْ وَيُحْيِيهِمْ ، ويأخذ بأرماقهم ، ويصلح بالهم ، ويجمع شملهم ، والى التعاون على دَرَكَ ذلك ، والتوازر عليه كحاجتهم الى التعاون على معرفة ما بحضرتهم ، والتوازر على ما يحتاجون من الارتفاق في أمورهم التي لم تغب عنهم ، فحاجة الغائب موصولة بحاجة الشاهد ، لاحتياج الأدنى الى معرفة الأقصى ، وأختلال الأدنى الى معونة الأقصى ، معاني متضمنة ، وأسباب متصلة ، وحبال متقيدة ، وجعل حاجتنا الى معرفة أخبار من كان قبلنا كحاجة من كان قبلنا الى أخبار من كان قبلهم ، وحاجة من يكون بعدنا الى أخبارنا ، ولذلك تقدمت في الكتب البشارات بالرسول ، ولم يُسَخَّرْ لهم جميع خلقه إلا وهم يحتاجون الى الارتفاق بجميع خلقه ، وجعل الحاجة حاجتين : إحداهما قوام وقوت ، والأخرى لذة وإمتاع ، وازدياد في الآلة ، وفي كل ما أجدل النفوس ، وجمع لهم العتاد ، وذلك المقدار من جميع الصنفين وفق لكثرة حاجتهم وشهواتهم ، وعلى قدر اتساع معرفتهم ، وبعده غورهم ، وعلى قدر احتمال طبع البشرية ، وفطرة الإنسانية . ثم لم يقطع الزيادة عنهم إلا لعجز حائقهم عن احتمالها ، ولم يجوز أن يفترق بينهم وبين العجز إلا بعدم الأعيان ، اذا كان العجز صفة من صفات الخلق ، ونعنا من نعوت العبيد ، ولم يخلق الله تعالى أحدا يستطيع بلوغ حاجته بنفسه دون الاستعانة ببعض من سُخِّرَ له ، فأدناهم مُسَخَّرًا لِقِصَاصِهِمْ ، وأجلهم مُبَسَّرًا لِدَقِّهِمْ ، وعلى ذلك أحوج المملوك الى السوق في باب ، وأحوج السوق الى المملوك في باب ، وكذلك الغني والفقير ، والعبد وسيده .

ثم جعل الله تعالى كل شيء للإنسان خولا وفي يده مذابحا ميسرا ، إما بالاحتيال له ، والتلطف في إراغته وأستمالته ، إقا بالوصولة عليه والفتك به ، وإنا أن يأتيه سهوا ورهوا ، وعلى أن الإنسان لولا حاجته إليها لما احتال لها ، ولما صال عليها ، إلا أن الحاجة تفترق

في الجلس والجهة، وفي الحظ والتقدير، ثم تعبد الإنسان بالفكر فيها. والنظر في أمورهم
 وبالأعتبار بما يرى، ووصل بين عقولهم، وبين معرفة تلك الحكم الشريفة، وتلك الحاجات
 اللازمة بالنظر والتفكير، والتنقب والتنقيب، والتثبت، والتوقف، ووصل معارفهم بمواقع
 حاجاتهم إليها، وشاعروهم بمواضع الحكم فيها بالبيان عنها، وهو البيان الذي جعله الله تعالى
 سببا فيما بينهم، ومُعبرا عن حقائق حاجاتهم، ومُعترفا بمواضع سد الخلة، ودفع الشبهة،
 ومُداواة الخيرة؛ ولأن أكثر الناس عن الناس أنهم منهم عن الأشباح المثلثة. والأجسام
 الجامدة، والأجرام الساكنة التي لا يتعزف ما فيها من دفائن الحكم وكنوز الأدب.
 وينابيع العلم، الآ بالعقل اللطيف الثاقب، وبالنظر التام الدقيق، وبالإنارة الكامنة،
 وبالأسباب الوافرة، والصبر على مكروه الفكر، والاحتراس من وجود الخدع. وتحفظ من
 دواعي الهوى، ولأن الشكل أنهم عن شكله وأسكن إليه وأصب به. وذلك موجود
 في أجناس البهائم وضروب السباع، والصبي عن الصبي، فهم وله آلف، وإليه أتزع.
 وكذلك العالم والعالم، والجاهل والجاهل، وقال الله عز وجل نبييه عليه الصلاة والسلام:
 ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَاءً مَّا كَانَتْ لِجَعَلْنَاهُ رَحْلًا﴾ لأن الإنسان عن الإنسان أنهم، وطباعه بطباعه آس.
 وعلى قدر ذلك يكون موقع ما يسمع منه، ثم لم يرض من البيان ثم اصنف واحده بل جمع
 ذلك ولم يفترق، وكثير ولم يُقتل. وأظهر ولم يُخف. جعل أصناف البيان التي بها يتعارفون
 معانيهم، والترجمان الذي إليه يرجعون عند اختلافهم في أربعة أشياء وفي خصبة خمسة،
 وإن نقصت عن بلوغ هذه الأربعة في جهاتها، فقد تكفى بحسنه الذي وضع له.
 وصرف إليه.

وهذه الخصال الأربع: هي اللفظ والخط والإشارة والعقد، وخصلة الخامسة:
 ما أوجد من صحة الدلالة، وصدق الشهادة، ووضوح البرهان في الأجرام الجامدة الصامتة.
 والساكنة الثابتة، التي لا تيس ولا تفهم، ولا تحس وتحتك إلا بداخل دخل عليها، أو عند
 لمسك حتى عنها بعد تقييده كان لها، ثم قسم الأقسام، ورتب المحسوسات، وحصل

الموجودات ، فجعل اللفظ للسامع ، وجعل الإشارة للناظر ، وأشرك بين الناظر واللامس ، في معرفة العَقْدِ إِلَّا بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ نَصِيبَ النَّاطِرِ فِي ذَلِكَ عَلَى نَصِيبِ اللّامِسِ ، وجعل الخط دليل على ما غاب من حوائجهم عنه ، وسببا مَوْصُولًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَعْوَانِهِ ، وجعله خازنا لما لا يَأْمَنُ نَسْيَانَهُ مِمَّا قَدْ أَحْصَاهُ وَحَفِظَهُ ، وَأَتَقَنَهُ وَجَمَعَهُ ، وتكلف الإحاطة به ، ولم يجعل للشام والذائق في ذلك نصيبا .

ولولا خطوط الهند لضاع من الحساب الكثير البسيط ، ولَبَطَلَتْ معرفة التضاعيف ، ولَعَدِمُوا الإحاطة بالباورات ، وِباوراتِ الباورات ، ولو أدركوا ذلك لما أدركوه ألا بعد أن تَغْلُظُ الْمُؤَوَّنَةُ ، وَتَنْتَقِصُ أُمَّتُهُ ، ولصاروا الى حال مَعِجَزَةٍ وَحُسُورٍ ، والى حال مضية وكلال حد ، مع التشاغل بأمور لولا فقد هذه الآلة لكان أربح لهم ، وأرد عليهم أن يصرفوا ذلك الشغل في أبواب منافع الدين والدنيا ، ونفع الحساب معلوم ، والخلة في موضع فقده معروفة ، قال الله تعالى : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ ثم قال : ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ مُحْسَبَانِ ﴾ وبالبيان عَرَفَ النَّاسَ الْقُرْآنَ ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ﴾ فأجرى الحساب مجرى البيان وألحق البيان بالقرآن ، ومُحْسَبَانِ منازل القمر عرّفنا حالات المدد والجُزْرِ ، وكيف تكون الزيادة في الأهلة وأنصاف الشهور ، وكيف يكون التقصان في خلال ذلك ، وكيف تلك المراتب وتلك الأقدار .

ولولا الكُتُبُ المدوّنة ، والَاخْبَارُ المُخَدَّةُ ، وَالْحِكْمُ المخطوطة التي تُحْصِرُ الحِسَابَ وغير الحساب ، لَبَطَلْ أَكْثَرَ الْعِلْمِ ، ولغلب سلطان النسيان سلطان الذكر ، ولما كان للناس مَفْرَعٌ الى موضع آسْتَدَكَارٍ ، ولو تم ذلك لَحُرْمْنَا أَكْثَرَ النِّفْعِ ، اذ كُنَّا قَدْ عَلِمْنَا ان مقدار حِفْظِ النَّاسِ لِعَوَاجِلِ حَاجَتِهِمْ وَأَوَاجِلِهَا لَا يَبْلُغُ مِنْ ذَلِكَ مَبْلَغًا مَذْكَورًا ، ولا يعنى فيه غناء محمودا ، ولو كُفِّ عَاقِمَةٌ مَن يَطْلُبُ الْعِلْمَ ، وَيَصْطَنِعُ الْكُتُبَ ، أَلَّا يَزَالَ حَافِظًا لِفَيْهِرِسِ كُتُبِهِ لَاعْجِزُهُ ذَلِكَ ، وَلَكُفِّ شَطَطًا ، وَأَشْغَلَهُ ذَلِكَ عَنْ كَثِيرٍ مِمَّا هُوَ أَوْلَى بِهِ ، فَفَهْمَكَ

لمعاني كلام الناس ينقطع قبل انقطاع فهم عين الصوت مجزأ ، وأبعد فهمك لصوت صاحبك ومعاملك ، والمعان لك ما كان صياحاً حراً . وصوتاً متعماً . ونداء خالص . ولا يكون مع ذلك ألا وهو بعيد من المناجحة . وعص من الدلالة ، بفعل الله جل وعز اللفظ لأقرب الحاجات ، والصوت لأنفس من ذلك قبلاً . ولكتاب لنازح من حاجات .

فأما الإشارة فأقرب المفهوم منها رفع الحواجب ، وكسر الأجنان ، ونق الشفاه . وتحرير الأعناق ، وقبض جلدة الوجه . وأبعدها أن تلوي بنوب على مقطع جبل تجاه عين الناظر ، ثم ينقطع عملها . ويدرس أهداء . ويموت ذكراها . ونصير بعد كل شيء نقصاً عن انتهاء مدة الصوت ، ومنتهى الضرف في الخاحة . في التذامم بخصوص والكتب . ذي نفع أعظم . وأي مرفق أعون من الخط . وإحاط فيه كما ذكره :

وليس للعقد حظ الإشارة في بعد الغاية . ولا للانتزعة حظ الخط في بعد الغاية . فلذا وضع الله عز وجل القم في المنكان الربيع . ونوه بذكره في المنصب الشريف حين قال : زَانَ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ فَأَقْسَمَ بِاللَّهِ كَمَا أَقْسَمَ بِمَا يُحِطُّ بِالَّذِي لَوْ كَانَ النَّاسُ لَا يَتَعَاطَى شَأْوَهُ . وَلَا يَشْقَى عِبَارَهُ . وَلَا يَجْرِي فِي حَمَتِهِ . وَلَا يَتَكَلَّفُ بَعْدَ غَايَتِهِ . وَكَانَتْ كَانَتْ حاجات الناس باحضة أكثر من حاجاتهم في سائر الأوقات . وكانت الحاجة إلى بيان اللسان حاجة دائمة وإكراه ، وراهنة زيمة ، وكانت الحاجة لربيب الله عز وجل في القية وعند النائمة . ولا ما سقت به الدواب ، بل كان لها اليد . ونوره عن ، فلكم قدموا اللسان على القم ، فإسان لأن تم حوى . ومع اليد والمرافق التي فيها ما راجت التي تبغها ، في ذلك حصناً وقسطها من منافع الإشارة . ثم تصبها في تقويم القلم . ثم حفظها في التصوير ، ثم حفظها في الصناعات ، ثم حفظها في العفد ، ثم حفظها في الدفع عن النفس ، ثم حفظها في إيصال الطعام والشراب إلى الفم ، ثم التوضؤ والامساح . ثم آتت بالدبابير والدراهم . ثم لبس الثياب ، وفي الدفع عن النفس أصناف الرمي ، وأصناف الضرب . وأصناف الطعن . ثم الضرب التقن بالعود وتحريك الوتر ، ولولا ذلك لبطل الطرب كله أو عامته ، وكيف

لا تكون كذلك ولها ضرب الطبل والدّف وتحريك الصفاقتين ، وتحريك محارق خروق المزامير ، وما في ذلك من الإطلاق والحبس ؛ ولو لم يكن في اليد إلا إمساك العنان والزمام والخطام ، لكان ذلك من أعظم الحظوظ .

وقد اضطربوا في الحكم بين العقد والإشارة ، ولولا أنّ مغزانا في هذا الكتاب سوى هذا الباب لقد كان هذا مما أحبّ أن يعرفه إخواننا وخطاؤنا ، ولا ينبغي لنا أيضا أن نأخذ في هذا الباب من الكلام إلا بعد الفراغ مما هو أوّل بنا منه ، إذ كنت لم تنازحني ، ولم تعب كُتبي من طريق فضل ما بين العقد والإشارة ، ولا في تمييز ما بين اللفظ وبينهما ، وأتمّ قَصْدنا بكلامنا الى الإخبار عن فضل الكتب .

والكتاب هو الذي قيّد على الناس كُتّب علم الدين ، وحساب الدواوين ، مع خِفة ثقله ، وصغر حجمه ، صامت ما أسكته ، وبلغ إذا استنطقته ، ومن لك بمسامر لا يتبدّئك في حال شغلك . ويدعوك في أوقات نشاطك ، ولا يحوّجك الى التجمّل له ، والتذم منه ؛ ومن لك بزائر أن شئت جعل زيارته غيباً ، ووروده خمساً ، وإن شئت لزمتك لزوم ظلك ، فكان منك مكان بعضك .

والقلم مكْتَفٍ بنفسه ولا يحتاج الى ماعند غيره ، ولا بد لبيان اللسان من أمور ، منها : إشارة اليد ، ولولا الإشارة لما فهموا عنك خاصّ الخاصّ ، اذا كان أخصّ الخاصّ قد يدخل في باب العام ، إلا أنه أدنى طبقاته ، وليس يكتفي خاصّ الخاصّ باللفظ عمّا أداه ، كإكتفاء عامّ العامّ ، والطبقات التي بينه وبين أخصّ الخاصّ .

والكتاب هو الجليس الذي لا يطريك ، والصديق الذي لا يغريك ، والرفيق الذي لا يملك ، والمستمع الذي لا يستريدك ، والجار الذي لا يستبطنك ، والصاحب الذي لا يريد أستخراج ما عندك بالملق ، ولا يعاملك بالمكر ، ولا يخدعك بالنفاق ، ولا يحتمل لك بالكذب .

والكتاب هو الذي إن نظرت فيه أطال إمتاعك ، وشخذ طباعك ، وبسط لسانك ،
وجود بسانك ، ونغم أظاظك ، وبيح نفسك ، وعمر صدرك ، ومنحك تعظيم العوام ،
وصداقة الملوك ؛ وعرفت به في شهر ما لا تعرفه من أفواه الرجال في دهر ، مع السلامة
من الغرم ، ومن كد الطلب ، ومن الوقوف بباب المتكسب بالتعليم . وبالجلوس بين يدي من
أنت أفضل منه خلقا ، وأكرم عرفا ، ومع السلامة من مجالسة البغضاء ، ومقارنة
الأغبياء .

والكتاب هو الذي يطبعك بالليل كطاعته بالنهار ، ويطبعك في السفر كطاعته في الحضر ،
ولا يعتل بنوم ، ولا يعتره كلال السهر ؛ وهو المعلم الذي إن اقتفرت لم يحقرك . وإن
قطعت عنه المادة لم يقطع عنك الفائدة . وإن عزلت لم يدع طاعتك . وإن هبت ريح
أعاديك لم ينقلب عليك ؛ ومتى كنت منه متعلقا بسبب ، أو معتصما بأدنى حبل . لم تضطرب
معه وحشة الوحدة الى جليس السوء ؛ ولو لم يكن من فضله عليك ، وإحسانه إليك ،
إلا منعه لك من الجلوس على بابك ، والنظر الى المرأة بك ، مع ما في ذلك من التعرض
للحقوق التي تلزم ، ومن فضول النظر ، ومن عادة الخوض فيما لا يعنينك . ومن ملابسة
صغار الناس ، ومن حضور أظاظهم الساقطة ، ومعانيتهم الفاسدة ، وأحلاقهم الرديئة .
وجاهلاتهم المذمومة ، لكان في ذلك السلامة ثم العيمة ، وحرار الأصل مع استنادة الفرع .
ولو لم يكن في ذلك إلا أن يشغلك عن تخف المني ، وعن اعتياد الراحة . وعن اللعب .
وكل ما أشبه اللعب . لقد كان في ذلك على صاحبه أسع النعمة . وأعظم ننتة ؛ وقد علمنا
أن أمثل ما يقطع به الفزاع نهارهم ، وأصحاب الفكاهات ساعات ليالهم ، هو الشيء الذي
لا ترى له فيهم مع التليل أثرأ في آزدياد في تجر به ولا في عقل ، ولا في مروءة ولا في صون
عرض ، ولا في إصلاح دين ، ولا في تثير مال ، ولا في تربية صديعه . ولا في ابتداء بيانام .

قال أبو عبيدة قال المهلب لبنيه في وصيته : يا بني لا تقفوا في الأسواق إلا على

زرايد أو وراق .

وحدثني صديق لي قال : قرأت على شيخ شامي كتابا فيه ما أثر عطفان ، فقال لي : ذهبت المكارم إلا من الكتب ؛ وسمعت الحسن اللؤلؤي يقول : عبرت أربعين عاما ما قلت ولا بت التكاثر إلا والكتاب موضوع على صدرى ؛ وقال ابن الجهم : اذا غشيتي النعاس في غير وقت نوم ولبس الشيء النوم الفاضل عن الحاجة ، تناولت كتابا من كتب الحكم فأجد أहतازي للفوائد ، والأرجمية التي تعزيني عند الظفر ببعض الحاجة ، والذي يغشني قلبى من سرور الاستبانة ، وعز التبين ، أشد إيقاظا من نهيق الحمير ، وهذه الهدم .

وقال ابن الجهم : اذا استحسنت الكتاب وأستجدته ، ورجوت منه الفائدة ، ورأيت ذلك فيه ، فلو ترونى وأنا ساعة بعد ساعة أبصركم ببق من ورقه مخافة أستفاده ، وأنقطاع المادة من قبله ، وإن كان المنصّح في عظيم الحجم ، وكان الورق كثير العدد ، لرأيتكم كيف تم عيشى ، وكل مرورى .

وذكر القتيبي كتابا لبعض القدماء فقال : لولا طوله ، وكثرة ورقه ، لنسخته ؛ قال ابن الجهم : لكننى ما رغبتى فيه إلا الشيء الذى زهدك فيه ، وما قرأت كتابا قط كبيرا فأخلاقى من فائدة ، وما أحصى كم قرأت من صغار الكتب فخرجت منها كلها دخلت .

وقال القتيبي ذات يوم لابن الجهم : ألا تتعجب من فلان ! نظر فى كتاب الإقليدس مع جارية سمويه فى يوم واحد ومائة واحدة ، ففقد فرغت الجارية من الكتاب وهو بعد لم يحكم مائة واحدة . على أنه حزنه وتلك أمة مقصورة ، وهو أحرص على قراءة الكتب من سمويه على تعليم حارثية ؛ قال ابن الجهم : قد كنت أظن أنه لا يفهم منه شكلا واحدا وأرادك ترجم أنه قد فرغ من مقلتها ؛ قال القتيبي : وكيف ظننت به هذا الظن كله وهو رجل ذو لسان وادب ؟ قال : لأنى سمعته يقول لأبنة : كم أنفقت على كتاب كذا وكذا ؟ قال : أنفقت كذا وكذا . قال : إنما رغبتى فى العلم أنى ظننت أنى أنفق قليلا وأكتسب كثيرا ، إنما عدت الشئ الكثير وليس فى يدى منه إلا المواعيد فأنى لا أريد

العلم بشيء . والإنسان لا يعلم حتى يكثر سماعه ، ولا بد من أن تصير كُتُبُه أكثر من سماعه ، ولا يعلم ولا يجمع ولا يختلف حتى يكون الإتيان عليه من ماله الذِّ عنده من الإتيان من مال عدوه ، ومن لم تكن نفقته التي تخرج في الكُتُب الذِّ عنده من عشاق القيان ، والمستهترين بالبنيان ، لم يبلغ في العلم مبلغاً رصياً . وليس ينفع بإتفاهه حتى يؤثر لذّة إتخاذ الكتب إتيان الأعرابي فرسه باللبن على عياله ، وحتى يُؤمّل في العلم مالا يُؤمّل الأعرابي في فرسه .

وقال إبراهيم بن السّديّ مرّةً : ودِدْتُ أَنْ الزنادقة لم يكونوا حُرّصاء على المغالاة بالورق النقيّ الأبيض ، ولا على تخيير الحبر الأسود البراق ، ولا على استجدادة الخطّ وإرغاب لمن يخطّ ، فإنّي لم أركورق كتبهم ورقاً ، ولا كالخطوط التي فيها خطأ . وإني غيرت مالا عظيماً مع حبي للآل وبغضى للغرم ، لأنّ سخاء النفس بالإتفاق على الكتب دليل على تعظيم العلم ، وتعظيم العلم دليل على شرف النفس وعلى السلامة من سُكر الآفات . وقت لإبراهيم : إنّ إتفاق الزنادقة على الكتب كإتفاق النصارى على البيع . ولو كانت كتب الزنادقة كُتُبَ حِكْمَةٍ . وكتبَ فلسفة ، وكانت مقاييسَ تبيين ، أو لو كانت كتبهم كتباً تعرّف الناس أبواب الصناعات . أو سبيلَ التكبُّب والتجارات ، أو كتب إرفاق ورياضات ، أو بعض ما يتعاطاه الناس من الفِصْن والأدب . أو كان ذلك لا يُقرب من غنى ، ولا يباعد من مآثم ، لكانوا ممن قد يجوز أن يُضقّ بهم تعظيم البيان والرغبة في التبيين ، ولكنهم ذهبوا فيها مذهب الديانة على طريق تعظيم المِلَّة . فأنما يُفقهون في ذلك كإتفاق الجوس على بيت النار . وإتفاق النصارى على صُلبان الذهب . أو كإتفاق الهند على سدنة البُدّه . ولو كانوا العلم أرادوا لكان العلم لهم معرصاً . وكتب الحكمة لهم مبدولة ، والطرق إليها مهلة . وروفة . فما بهم لا يصنعون ذلك إلا بكتب ديانهم كما يُحرف النصارى بيوت عبادتهم . أو لو كان هذا المعنى مُستحسناً عند المسلمين . وكانوا يرون أنّ ذلك داعية إلى العبادة وباعنة على الخشوع ، تلبغوا في ذلك بعقوبهم ، لا يبيعه المصارى بغاية جهدهم .

وقد رأيتهم مَسْجِدَ دِمَشقٍ حين استجاز هذه السبيلَ مَلِكٌ من ملوكنا ، ومن رآه فقد علم أن أحدا لا يرومه ، وأن الروم لا تسخو أنفسهم به ؛ فلما قام عمر بن عبد العزيز جلَّه بالحلال ، وغطاه بالكرابيس^(١) ، وطبخ سلاسل القناديل حتى ذهب عنها ذلك التلاؤو والبريق ، وذهب الى أن ذلك الصنيع بجانب لُسنة الاسلام ، وأن ذلك الحُسن الرائع والمحسن الدقاق مَذهلة للقلوب ، مشغلة دون الخشوع ، وأن البال لا يكون مُجتمعا وهناك شيء يُفترقه ويعترض عليه .

والذي يدلنا على ما قلنا أنه ليس في كتبهم مثل سائر ، ولا خبر طريف ، ولا صنعة أدب ، ولا حكمة غريزية ولا فلسفية ، ولا مسألة كلامية ، ولا تعريف صناعة ، ولا استخراج آلة ، ولا تعليم فلاحه ، ولا تدبير حرب ، ولا مقارعة عن دين ، ولا مناضلة عن نحلة ؛ وجله ذكر النور والظلمة ، وتناحُ الشياطين ، وتسافد العفاريت ، وذكر الصنديد والتهويل بعمود السنخ ، والاخبار عن شقلون وعن الهامة والهامة ، وهذر وعي ودعوى وخرافة وسخف وتكذب ، لا ترى فيه موعظة حسنة ، ولا حديثا مؤثقا ، ولا تدبير معاش ولا سياسة عامة ، ولا ترتيب خاصة ؛ فأى كتاب أجهل ، وأى تدبير أفسد من كتاب يُوجب على الناس الطاعة والبُخوع بالديانة على جهة الاستبصار والمحبة ، وليس فيه صلاح معاش ، ولا تصحيح دين ، والناس لا ينجبون إلا دينا أو دنيا .

فأما الدنيا فاقامة سُوقها وإحضار نفعها . وأما الدين فأقل ما يُطمع في استجابة العامة واستمالة الخاصة ، أن يصور في صورة مغالطة ، ويؤمّه تمويه الدينار بهرج والدرهم الزائف الذي يغلط فيه الكثير ويعرف حقيقته القليل . فليس اتفاقهم عليها من حيث ظننت . وكل دين يكون أظهر آخلاقا وأكثر فسادا يحتاج من الزريع والتمويه ومن الاحتشاد له والتغليظ فيه الى أكثر من غيره .

(١) الكرابيس جمع كرس . نوب من النطر الأبيض وقيل : الثوب الخشن ، فارسي معرب .

وقد علمت أن النصرانية أشد انتشاراً من اليهودية تعبدًا ، فعلى حسب ذلك يكون تزيدهم في توكيده ، واحتفالهم في إظهار تعظيمه .

وقال بعضهم : كنتُ عند بعض العلماء فكنتُ أكتبُ عنه بعضًا وأدع بعضًا . فقال لي : اكتب كل ما تسمع ، فإن أحس ما سمع خير من مكانه أبيض . وقال الخليل بن أحمد : تكثر من العلم لتعريف ، وتقل منه لتحنظ . وقال أبو إسحاق : القليل والكثير للكتب ، والقليل وحده للصدر ، وأشد قول ابن يسير :

أَمَا لَوْ أَعَى كُلَّ مَا أَسْمَعُ * وَأَحْفَظُ مِنْ ذَلِكَ مَا أَجْمَعُ
وَلَمْ أَسْتَفِدْ غَيْرَ مَا قَدْ جَمَعْتُ لِقِيلٍ هُوَ الْعَالِمُ الْمُتَنَبِّعُ
وَلَكِنْ تَفَسَّى إِلَى كُلِّ نَوْ * عَجَّ مِنَ الْعِلْمِ تَسْمَعُهُ تَزْرِعُ
أَشَاهِدُ بِالْعَمَى فِي تَجْلِي * وَعَالِمِي فِي الْبَيْتِ مُسْتَوْدَعُ
فَلَا أَنَا أَحْفَظُ مَا قَدْ جَمَعْتُ وَلَا أَنَا مِنْ جَمْعِهِ أَشْبَعُ
وَمَنْ يَكُ فِي عَالِمِهِ هَكَذَا * يَكُنْ دَهْرَهُ الْقَهْقَرَى يَرْجِعُ
إِذَا لَمْ تَكُنْ حَافِظًا وَإِعْيَا * بِفَمْعِكَ لِلْعَالِمِ لَا يَنْفَعُ

قال أبو إسحاق : كلف ابن يسير الكتب ما ليس عليها . إن الكتب لا تُنحَى الموتى ، ولا تُحوَّلُ الأحق عاقلاً ، ولا البليد ذكياً ، وذلك أن الطبيعة إذا كان فيها أدنى قبول فالكتب تُسجَد وتُتَقَرَّبُ وتُرَهَف وتُسْفِي . ومن أراد أن يعلم كل شيء فينبغي لأهله أن يداؤوه . فإن ذلك إنما تصووره لشيء اعتراه . فمن كان عاقلاً ذكياً حافظاً فيقصد إلى شيئين ، أو ثلاثة أشياء : فلا يتزع عن الدرس والمطارحة ، ولا يدع أن يتر على سمعه وعلى بصره وعلى ذهنه ما قدر عليه من سائر الأصناف فيكون عالماً بخواص ويكون غير غفل من سائر ما يجري فيه اللاس ويتوضون فيه ، ومن كان مع الدرس لا يحفظ شيئاً إلا نسي أكثر منه فهو من الحفظ من أفواه الرجال أبعد .

وحدثني موسى بن يحيى قال : . كان في حرنة كتب يحيى وفي بيت مدرسه كتاب إلا وله فيه ثلاث نسخ .

وقال أبو عمرو بن العلاء : ما دخلت على رجل قط ولا مررت ببابه فرأيتَه ينظر في دفتر وجليسُه فارغ اليد إلا اعتقدت أنه أعقل منه وأفضل .

قال أبو عمرو وقيل لنا يوماً : إن في دار فلان ناسا قد اشتَمَلوا على سوءة ، وهم جلوس على نُخْمِرة لهم وعندهم طُنبور ، قال : فَذَمَرْنَا عليهم في جماعة من رجال الحى ، فاذا قَتَّى جالس في وَسَط الدار وإذا أصحابه حوَّله ، واذا هم بيضُ اللحي ، واذا هو يقرأ عليهم كتاب شعر ، فقال الذى كان سعى بهم : السَّوءة في ذلك البيت ، وإن دخلتموه عَثَرْتُم بها ؛ قال قلت : والله لا أكشف قَتَّى أصحابه شيوخ وفي يده دفتر علم ولو كان في ثوبه دمُ يحيى بن زكرياء . قال وأنشد رجل يونس النحوى قوله :

أُسْتَوِدِعَ الْعِلْمَ قِرطاسا فَضَيَّعَهُ * فَيُنْسُ مُسْتَوِدِعَ الْعِلْمِ الْقِرطاسِ

قال فقال يونس : فانه الله ، ما أشدَّ صبايته بالعلم وأحسنَ صيايته له ! إن علمك من رُوحك ، ومالك من بدنك ، فضعه منك بمكانِ الرُوح ، ووضعه مالك بمكانِ البدن .

وقيل لابن داحية وأخرج كتاب أبي الشَّمَقَمَقِ واذا هو في جلود كوفية ودفتين طائفتين وبخط عجيب ، فقيل له : لقد ضيَّعَ درهمه من تجوِّد لشعر أبي الشَّمَقَمَقِ ؛ قال : لا جرمَ والله إن العلم ليعطيك على حساب ما تُعطونه ، ولو استطعت أن أودعه سُوداء قلبي وأجعله مخطوطا على ناظري لمعلت .

واقدم دخلت على إسحاق بن سليمان في امرته ، فرأيت المماطين بين يديه والرجال مُثوِّلاً كأن على رءوسهم الطير ، ورأيت فيرشته ويزته ^(٢) ، ثم دخلت عليه وهو معزول ، واذا هو في بيت كتبه وحواليه الأسفاط والرفوف والقفاطر والدفاتر والمساطر والمحابر ، فرأيتَه قَطُّ أنغم ولا أنبل ولا أهيب ولا أجزل منه في ذلك اليوم ، إلا أنه جمع مع المهابة المحبة ، ومع الفخامة الحلاوة ، ومع السؤدد الحكمة .

(١) كذا في الأصل . ولعلها رائدة . (٢) المرشة : الهيئة .

وقال ابن داحة : كان عبد الله بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب لا يجالس الناس ، ونزل مقبرة من المقابر ، وكان لا يكاد يرى إلا وفي يده كتاب يقرأه ، فسئل عن ذلك وعن نزوله المقبرة ، فقال : لم أر أوعظ من قبر ، ولا أمتع من كتاب ، ولا أسلم من الوحدة ؛ فقليل له : فقد جاء في الوحدة ما قد جاء ، قال : ما أفسدها للجاهل وأصلحها للعاقل !

وضروب من الخطوط بعد ذلك تدل على قدر منفعة الخط ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿ كَرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ وقال الله عز وجل : ﴿ فِي نُحُفٍ مُكْرِمَةٍ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴾ وقال : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ يَمِينَهُ ﴾ وقال : ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴾ وقال : ﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ .

الترغيب في اصطناع الكتب

(وبعد أن تكلم عن الخط في الأرض عند التمسك وما قيل في ذلك من الأشعار ، وذكر الخط ومقدار الحاجة إليه ، وتاريخ الشر قبل الإسلام ، وبيان أن فضيلته مقصورة على العرب ، استورد القول بالترغيب في اصطناع الكتب) فقال :

« إن على من شكر المعرفة بمغاوى الناس ومراشدهم ومضارهم ومنافعهم . أن يحتمل ثقل مؤونتهم في معرفتهم ، وأن يتوحي إرشادهم وأن جهنوا فضل ما يسدى إليهم . وإن يسان العلم بمثل بذله ، وإن تستبقي النعمة فيه بمثل نشره . على أن قراءة الكتب المنع في إرشادهم من تلاقهم ، إذ كان مع التلاقي يندب التصنع . ويكثر الظالم . وتفرط العصبيّة ، وتقوى الخبيّة . وعند المواجهة والمقابلة يشتد حب الغلبة ، وشهوة المباهاة والرياسة مع الاستحياء من الرجوع . والأنفة من الخضوع . وعن جميع ذلك تحدث الضغائن ويظهر التباين ؛ فإذا كانت القلوب على هذه الصفة وعلى هذه الهيئة . امتنعت من التعرف ، وعميت عن موضع الدلالة ؛ وليست للكتب علة تمنع من درك الغيبة . واصابة الخجة ، لأن المتوحد بدرسها والمنفرد

بِقَهْمٍ معانيها ، لا يباهى نفسه ، ولا يُغالبُ عقلَه ، وقد عدم من له يباهى ، ومن أجله يغالب ؛ والكتاب قد يفضل صاحبه ويتقدم مؤلفه ، ويرجح قلبه على لسانه بأمرٍ :

منها، أن الكتاب يُقرأ بكلِّ مكان، ويظهر ما فيه على كلِّ لسانٍ، ويوجد مع كلِّ زمان على تفاوت ما بين الأعصار، وتباعد ما بين الأمصار؛ وذلك أمرٌ يستحيل في واضع الكتاب، والمنازع بالمسألة والجواب ؛ ومناقلة اللسان وهدايته لا تجوزان لمجسِّس صاحبه ، ومبلغ صوته ؛ وقد يذهب الحكيم وتبقى كتبه ، ويفنى العقل ويبقى أثره . ولولا ما تسمت لنا الأوائل في كتبها، وخلدت من عجيب حكمتها، ودونت من أنواع سيرها، حتى شاهدنا بها ما غاب عنا، وفتحنا بها كلِّ مُستغلقٍ كان علينا، بجمعنا الى قليلنا كثيرهم ، وأدركا ما لم نكن ندرکه إلا بهم ، لقد خس حظنا من الحكمة ، وضعف سببنا الى المعرفة ؛ ولو أُلحِثنا الى قدر قوتنا، ومبلغ خواطرننا، ومنتهى تجربتنا لما تُدرکه حواسنا وتشاهد نفوسنا، لقد قلت المعرفة ، وقصرت الهمة، وانتقصت المنّة، وعاد الرأي عقيا، والخطر فاسدا، ولكلِّ الحدِّ، وتبدل العقل . وأكثر من كتبهم نفعا، وأشرف منها خطرا، وأحسن موقعا، كُتب الله تعالى التي فيها الهدى والرحمة . والإخبار عن كلِّ عبرة ، وتعريف كلِّ سيئة وحسنة . وما زالت كتب الله تعالى في الأواح والصحف والمهاريق والمصاحف ، فقد قال الله عز وجل : ﴿ أَلَمْ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ وقال : ﴿ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ ويقال لأهل التوراة والإنجيل : أهل الكتاب . وينبغي أن يكون سببنا لمن بعدنا كسبيل من كان قبلنا فينا . على أننا قد وجدنا من العبرة أكثر مما وجدنا، كما أن من بعدنا يجد من العبرة أكثر مما وجدنا، فيما ينتظر العالم بإظهار ما عنده، وما يمنع الناصر للحق من القيام بما يلزمه ، وقد أمكن القول ، وصلح الدهر ، وهوى نجم التقيّة ، وهبت ريح العلماء ، وكسد العي والجهل ، وقامت سوق البيان والعلم . والإنسان ليس يجد في كلِّ حال إنسانا

(١) المهاريق جمع مهراق ، وهو ثوب حرير أبيض يسق بالصبغ ويصقل ثم يكت به ، فارسيّ معرب .

يُدْرَسُهُ وَمُقَوِّمًا يُتَقَفَّهُ، والصبر على إفهام الرِّبِّضِ شديداً، وصرف النفس عن مغالبة العالم أشد منه هما .

والمتعلم يهد في كلِّ مكان الكتاب غنيداً، وبما يحتاج إليه قائماً . وما أكثر من فوط في التعلِّم أيام نحول ذكره وأيام حادثة سنِّه . ولولا جِداد الكتب وحسَّنها ، ومُبِينُهَا ومُختصرُهَا، ثم تحزكت همِّ هؤلاء لطالب العلم، ونازعت إلى حب الأدب، وأغت من حال الجهل وأن تكون في غمار الحشو لدخل على هؤلاء من الضرر والمضرة والجهل وسوء الحال ما عسى ألا يمكن الإخبار عن مقداره إلا بالكلام الكثير .

ولذلك قال عمر رضى الله تعالى عنه : تفقهوا قبل أن تُسودوا . وقد تجد الرجل يطلب الآثار وتأويل القرآن ويجالس الفقهاء، نحسين سنِّه ، ولا يعدد فقيها ولا يعمل قاضياً، وما هو إلا أن ينظر في كتب أبي حنيفة وأشباه أبي حنيفة . ويحفظ كتب الشروط في مقدار سنة أو سنتين حتى تمرَّ بابه فتظنُّ أنه باب بعض العالِمِ ؛ وبالْحَرَى ألا يتم عليه من الأيام إلا اليسير حتى يصير حاكماً على مصر من الأمصار . أو بلدة من البلدان .

وينبغي لمن كتب كتاباً ألا يكتبه إلا على أن الناس كلُّهم له أعداء . وكلُّهم عالم بالأمر ، وكلُّهم مُتفرِّغ له ؛ ثم لا يرضى بذلك حتى يدع كتابه يغيب ويختتم . ولا يثق بالرأى النطير؛ فإن لأبتداء الكتاب فتنةً وعُجبا . فإذا سكنت الطيعة وهدأت الحركة ، وتراجعت الأخلاط، وعادت النفس وأفرقة ، أعاد النظر فيه وتوقف عند فصوله وتوقف من يكون وزن طمعه في السلامة أنقص من وزن خوفه من العيب، ويتفهم معنى قول الشاعر :

إن الحديث تغرُّ القومَ خلوته . حتى يكون لسه عيٌّ وإخبار

ويقف عند قولهم في المنسل : "كلُّ مجرٍّ في الخلاء يسمر" . فيخاف أن يعتربه ما يعترى من أجرى فرسه وحده، أو خلا بقاءه عند فقد خصومه وأهل المنزلة من أهل صناعته ، وليعلم أن صاحب العلم يعتربه ما يعترى المؤدب عند ضربه وعقابه ؛ فما أكثر من يعزم على

عشرة أسواط فيضرب مائة، لأنه ابتداء الضرب وهو ساكن الطباع فأراه السكون أن الصواب في الإقلال، فلما ضرب تحرك دمه فأشاع فيه الحرارة وزاد في غضبه، فأراه الغضب أن الرأي في الإكثار؛ وكذلك صاحب القلم، فما أكثر من يتدنى الكتاب وهو يريد مقدار سطرين فيكتب عشرة. والحفظ مع الإقلال أمكن، وهو مع الإكثار أبعد.

وأعلم أن العاقل إن لم يكن بالمشبع فكثيراً ما يفتن من ولده ويحسن في عينه منه التبيح في عين غيره، فليعلم أن لفظه أقرب إليه نسبا من ابنه، وحركته أمس به رجاً من ولده؛ لأن حركته شيء أحده من نفسه وبذاته، ومن عين جوهره فصات، ومن نفسه كانت، وإنما الولد كالمحطة يخطها؛ كالنخامة يقذفها، ولا سواء إخراجك من نفسك شيئاً لم يكن منك، واطهارك حركة لم تكن حتى كانت منك؛ ولذلك نجد فتنة الرجل بشعره وفتنه بكلامه وكتبه، فوق فتنة بجمع نعمته.

وليس الكتاب إلى شيء أحوج منه إلى إلهام معانيه حتى لا يحتاج السامع بما فيه إلى الروية فيه. ويحتاج من اللفظ إلى مقدار يرتفع به عن ألفاظ السفلة والحشو، ويحطه عن غريب الأعراب، ووحشي الكلام. وليس له أن يهدبه جداً ويثقحه ويصفيه ويؤوقه حتى لا ينطق إلا باللب والسر، وباللفظ الذي قد حذف فضوله وتعرق زوائده، حتى عاد خالصاً لا شوب فيه؛ فإنه إن فعل ذلك لم يفهم عنه إلا بأن يجتهد لهم إلهاماً وتكراراً، لأن الناس كلهم قد تعودوا المبسوط من الكلام، وصارت أفهامهم لا تزيد على عاداتهم إلا بأن تعطس عليها وتؤخذ بها؛ ألا ترى أن كتاب المنطق الذي قد وسم بهذا الاسم لو قرأته على جميع خطباء الأمصار وبلغاء الأعراب لما فهموا أكثره؛ وفي كتاب إقليدس، كلام يدور وهو عربي وقد صني، ولو سمعه بعض الخطباء لما فهمه، إلا بأن يفهمه من يريد تعليمه؛ لأنه يحتاج إلى أن يكون قد عرف جهة الأمر، وتعود اللفظ المنطق الذي استخرج من جميع الكلام.

وقد قال معاوية بن أبي سفيان رضى الله تعالى عنهما لصحاري العبدى : ما الإيجاز ؟ قال أن يجيب فلا يُبْطِئُ ، وتقولَ فلا تُحْطِئُ ؛ قال معاوية : أو كذلك تقول . قال صحار : ألقى يا أمير المؤمنين ، لا تُحْطِئُ ولا تُبْطِئُ . فلو أت سائلا سألك عن الإيجاز فقلت : لا تُحْطِئُ ولا تُبْطِئُ وبحضرتك خالد بن صفوان لما عرَف بالبدية وعند أول وهلة أت قولك لا تُحْطِئُ مُضْمَن بالقول ، وقولك لا تُبْطِئُ مُضْمَن بالجواب . وهذا حديث — كما ترى — قد ارتضوه ورووه ؛ ولو أن قائلا قال لبعضنا : ما الإيجاز ؟ لظننتُ أنه كان سيقول الاختصار والإيجاز ، ليس يعني به قلة عدد الحروف واللفظ . وقد يكون الباب من الكلام من أتى عليه فيما يَسَعُ بطن طُومار^(١) فقد أوجز، وكذلك الإطالة . وإنما ينبغي أن يحذف بقدر ما لا يكون سببا لإغلاقه ولا يُرَدِّد وهو يُكْتَمَى في الإفهام بشطره ، فما فَضَّل عن المقدار فهو الخطل .

وقلت لأبى الحسن الأَخْفَش : أنت أعلم الناس بالنحو، فلم لا تجعل كتابك مفهومة كلها؟ وما بالناس فهم بعضها ولا نفهم أكثرها، وما بالك تقدم بعض العويص وتؤخر بعض المفهوم؟ قال : أنا رجل لم أضع كتبى هذه لله ، وليست هى من كتب الدين ، ولو وضعتها هذا الوضع الذى تدعونى اليه قلت حاجتهم إلى فيه . وإنما غايى المنالة . فإذا أضع بعضها هذا الوضع المفهوم لتسدعوهم حلاوة ما فهموا إلى التماس فهم ما لم يفهموا . وأنا قد كسبت فى هذا التدبير إذ كنت إلى التكمسب ذهبت . ولكن ما بأل إبراهيم النظام وفلان وفلان يكتبون الكتب لله بزعمهم ، ثم يأخذها مثلى فى موافقته وحسن نظره وشدة عنايته ، فلا يفهم أكثرها ؟

وأقول لو أن يوسف السَّمْعَى كتب هذه الشروط أيام جاس سَلمان بن ربيعة شهرين للقضاء فلم يتقدم اليه رجلان والقلوب سليمة والحقوق على أهلها موقرة . لكان ذلك خطلا ولغوا ، ولو كتب فى دهرًا شروط دهر سَلمان لكان ذلك غمارة ونقصا ،

وجَهلاً بالسياسة وما يَصْلُح لكلِّ دهرٍ؛ ووجدنا الناس إذا حَظَبُوا في صُلح بين العشارِ
أطالوا، وإذا أُنشِدوا الشعر بين السَّمَّاطين في مدح الملوك أطالوا؛ فلإِطالة مَوْضِعٍ وليس
ذلك بِحَظَلٍ، ولإِغفال مَوْضِعٍ وليس ذلك مِن عجز .

ولو لا أتى أتكل على أنك لا تَمَلِّ باب القول في البعير حتى تخرُج الى الفيل، وفي الذرة
حتى تخرُج الى البؤضة، وفي العقرب حتى تخرُج الى الحية، وفي الرجل حتى تخرُج الى
المرأة، وفي الذبَّان والتحل حتى تخرُج الى الغربان والعقبان، وفي الكلب حتى تخرُج الى
الديك، وفي الذئب حتى تخرُج الى الضبع، وفي الظلف حتى تخرُج الى الحافر، وفي الحافر
حتى تخرُج الى الخف، وفي الخف حتى تخرُج الى البرثن، وفي البرثن حتى تخرُج
الى الخلب؛ وكذلك القول في الطير وعامة الأصناف، رأيت أن ذلك يُوجب اللال،
ويُعيب الفترة المانعة من البلوغ في الفهم، وتعرّف ما يُحتاج منه الى التعرف، فرأيت أن
جملة الكتاب وإن كثُر عدد ورقه، أن ذلك ليس مما تَمَلِّ من كثرة قراءته أبداً وتعتدّ على
فيه بالإطالة، لأنّه وإن كان كتاباً واحداً فإنه كُتِب كثيرة، وكلّ مصحف منها أم على
حدة . فإن أراد قراءة الجميع لم يطل عليه الباب الأول حتى يهجم على الثاني، ولا الثاني
حتى يهجم على الثالث، فهو أبداً مُستفيد ومُستطِرف، وبعضه يكونُ جَماماً لبعض،
ولا يزال نشاطه زائداً، ومتى خرَج من آي القرآن صار الى أثر، ومتى خرَج من أثر
صار الى خبر، ثم يخرُج من الخبر الى شعر، ومن الشعر الى نوادر، ومن النوادر الى حِكَم
عقلية ومقاييس سداد، ثم لا يترك هذا الباب فلعله أن يكون أثقل، والملاّل اليه أسرع،
حتى يُقضى به الى مزح وفكاهة والى سُخف وخرافة . ولست أراه سخفاً إذ كنت إنما
استعملت سيرة الحكماء ومأدبة العلماء، ورأينا الله تبارك وتعالى إذا خاطب العرب
والأعراب أنحرج الكلام مُخرِج الإشارة والوحي والحذف، وإذا خاطب بنى إسرائيل
أوحى عنهم جعله مبسوطاً وزاد في الكلم . فأصوب العمل أتباع آثار العلماء والأخذاء

على مثال القدماء ، والأخذ بما عليه الجماعة . وقال ابن يسير في صفة الكتُب
في كلمة له :

أقبلت أهرُب لا ألو مُبَاعَدَةً ، في الأرض منهم فلم يُحِصِنِي الحَرْبُ
بَقَصْرٍ أَوْسٍ فَمَا وَالَّتِ حَخَادِقُهُ ، إلى النواويس فلما خُوِرُ فالحَرْبُ
فأبما مؤئيلٍ منها اعتصمتُ به ، فمن ورأى حينًا منهم الطَّابُ
لما رأيتُ بأبي غيرٍ مُعْجِزِهِمْ ، قوتًا ولا هربًا قوتتُ أحتجِبُ
وَصِرْتُ في البيتِ مَسْرُورًا به جَدَلًا * جَارًا لِبُوءَةٍ لَا شَكْوَى وَلَا شَغْبُ
فَرَدًا تُحَدِّثُنِي المَوْتَى وَتَنْطِقُ لِي ، عن علمٍ ما غاب عني منهم الكُتُبُ
هَمَّ مَوْسُونَ وَأَلْفَ غَيْثٍ سِيمٍ ، فليس في في أليس غيرهم أَرَبُ
لله من جُلساءٍ لا جليسهُمُو * ولا عَشِيرَهُمُو لَسُوءٍ مَرْتَقِبُ
لا بادِرَاتِ الأَدَى بِحَتَّى رَفِيقَهُمْ * ولا بِلُاقِيهِ مِنْهُمْ مَنْطِقُ دَرَبُ
أَبْقُوا لَنَا حِكْمًا تَبَقَى مَنَافِعُهَا ، أُخْرَى اللَّيَالِي عَلَى الأَيَّامِ وَأَنْشَبُوا
فأبما أَدَبٍ مِنْهُمْ مَدَدَتْ يَدِي ، يَوْمًا إِلَيْهِ فَدَانٍ مِنْ بَدَى كَدَبُ
إِنْ شِئْتُ مِنْ مُحْكَمِ الأَبَارِ يَرْفَعُهَا ، إلى النَّسَبِ نِقَاتٍ بِرَّةٍ تُجِبُ
أَوْ شِئْتُ مِنْ عَرَبٍ عَالِمًا بِأَوْفَا ، في الجاهليَّة أنبتني به العَرَبُ
أَوْ شِئْتُ مِنْ سِيرِ الأَمْلَاقِ مِنْ عَجْمٍ * تَلْبِي وَتَحْبِيرِ كَيْفِ الرُّؤْيِ وَالْأَدَبُ
حَتَّى كَأَنِّي قَدْ شَاهَدْتُ عَصْرَهُمُو ، وَقَدْ مَضَّتْ دُونَهُ مِنْ دَهْرِهِمْ حَقَبُ
يَا قَاتِلًا قَصْرَتْ في العِلْمِ نَيْبُهُ ، أَمَسَى إلى الجَهْلِ فَمَا قَالَ يَنْتَسِبُ
إِنَّ الأَوَائِلَ قَدْ بَانُوا بَعْدَهُمْ * خِلَافَ قَوْلِكَ قَدْ مَاتُوا وَقَدْ ذَهَبُوا
مَا مَاتَ مِنَّا امْرُؤٌ أَبَقَ لَنَا أَدَبًا * يَكُونُ مِنْهُ إِذَا مَا مَاتَ يَكْتَسِبُ

وقال أبو وجرة وهو يصف صحيفة كتبت له فيها بستين وسقا :

راحت بستين وسقا في حقيبتها * ما حملت حملها الأدنى ولا السددا
ولا رأيت قلوفا قبها حملت * ستين وسقا ولا جابت بها بلدا

وقال الراجز :

تعلمن أن الدواة والقلم * تبقى ويفنى حادث الدهر الغم

يقول كتابك الذي تكتبه على يتيق فتأخذني به وتذهب غنبي فيما يذهب . وما يدل على نفع الكتاب أنه لولا الكتاب لم يجوز أن يعلم أهل الرقة والموصل وبعداد واسط ما كان بالبصرة وحدث بالكوفة في بياض يوم ، فتكون الحادثة بالكوفة غدوة فيعلمها أهل البصرة قبل المساء .

وذلك مشهور في الحمام الهدى : اذا جعلت بردا قال الله جل وعز ، وذكر سليمان ومملكه الذي لم يؤت أحدا مثله ، فقال : ﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ ﴾ إلى قوله : ﴿ أَوْ لَا ذُبْحَنُ أَوْ لِيَأْتِنِي سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴾ . فلم يلبث أن قال الهدهد : ﴿ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ . قال سليمان : ﴿ أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقَاهُ إِلَيْهِمْ ﴾ وقد كان عنده من يبلغ الرسالة على تمامها من عفرية ومن بعض من عنده علم من الكتاب فرأى أن الكتاب أهى وأنبل وأكرم وأخف من الرسالة عن ظهر لسان وإن أحاط بجميع ما في الكتاب . وقالت ملكة سبأ : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّ إِلَهِكَ يَا آلِ كِتَابٍ كَرِيمٍ ﴾ فهذا مما يدل على قدر اختيار الكتب وقد يريد بعض الحلة الكبار وبعض الأدباء والحكماء أن يدعو بعض من يجرى مجراه في سلطان أو أدب الى مادبة أو ندام أو خروج الى متنته أو بعض ما يشبه ذلك ، فلو شاء أن يبلغه الرسول إرادته ومعناه لأصاب من يحسن الأداء ويصدق في الإبلاغ فيرى أن الكتاب في ذلك أسرى وأنه وأبلغ ولو شاء النبي صلى الله عليه وسلم ألا يكتب الكتب الى كسرى وقيصر والنجاشي

والمقوقس وإلى بنى الجندى وإلى العبايلة من حمير وإلى هودة بن علي وإلى الملوك العظام والسادة النبلاء لفعل ولوجد المبلغ المعصوم من الخطأ والتبديل، ولكنه عليه السلام علم أن الكتاب أشبه بتلك الحال، وأليق بتلك المراتب، وأبلغ في تعظيم ما حواه الكتاب، ولو شاء الله أن يجعل البشارات على الألسنة بالمرسلين ولم يودعها الكتب لفعل ولكنه تعالى وعزّ علم أن ذلك أتمّ وأكمل، وأجمع وأنبئ؛ وقد يكتب بعض من له مرتبة في سلطان أو ديانة إلى بعض من يشاكلة أو يتجرى مجراه فلا يرضى بالكتاب حتى يتجزمه ويختمه، وربما لم يرض بذلك حتى يعنونه ويُعظمه .

قال الله جل وعز: ﴿أَمْ لَمْ يَنْبَأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ﴾ فذكر صحف موسى الموجودة وصحف إبراهيم البائدة المعدومة ليُعرف الناس مقدار النفع والمصلحة في الكتب . قالوا : وكانت فلاسفة اليونانية تُورث البنات العين وتورث البنين الدين ؛ وكانت تصل العجز بالكفاية والمؤونة بالكلفة وكانت تقول : لا تورثوا الأب من المال إلا ما يكون عوناً له على طلب المال ، وأغذوه بحلاوة العلم وأطبعوه على تعظيم الحكمة ليصير جمع العلم أغلب عليه من جمع المال ، ويرى أنه العادة والعناد ، وأنه أكرم مُستفاد ، وكانوا يقولون : لا تورثوا الأب من المال إلا ما يسد الخلة ، ويكون له عوناً على درك الفضول إن كان لا بد من الفضول ، فإنه إن كان فاسداً زادت تلك الفضول في فساده ، وإن كان صالحاً كان فيما أورثتموه من العلم ، وبقية له من الكفاية ما يكسبه الحال ، فإن الحال أفضل من المال ، ولأن المال لم يزل تابعا للحال ، وقد لا يتبع الحال المال ، وصاحب الفضول بعرض فسادٍ وعلى شفا إضاعة مع تمام الحنكة واجتماع القوة ؛ فما ظنكم بها مع غرارة الحداثة وسوء الاعتبار وقلة التجربة ! وكانوا يقولون : خير ميراث ما كسبك الأركان الأربعة ، وأحاط بأصول المنفعة ومجل لك حلاوة المحبة ، وبق لك الأحدوث الحسنة ، وأعطاك عاجل الخير وآجله ، وظاهره وباطنه ؛ وليس يجمع ذلك إلا كرام الكتب النفيسة المشتمة على ينابيع العلم ، والجامعة لكنوز الأدب ومعرفة الصناعات وفوائد الإرفاق ؛

وحجج الدين الذي بصحته وعند وضوح برهانه تسكن النفوس وتتلج الصدور، ويعود القلب معمورا، والعزرا سخيا، والأصل فسيحا، وهذه الكتب هي التي تزيد في العقل وتسهله، وتداويه وتصلحه، وتهذبه وتنفي الخبث عنه، وتفيدك العلم وتصادق بينك وبين الحق، وتعودك الأخذ بالثقة وتجلب الحال وتكسب المال. ووراثه الكتب الشريفة والأبواب الرفيعة منبهة للمورث وكثر عند الوارث، إلا أنه كثر لا يجب فيه الزكاة ولا حق السلطان، وإذا كانت الكنوز جامدة ينقصها ما أخذ منها كان ذلك الكثر مائعا يزيده ما أخذ منه، ولا يزال بها المورث مذكورا في الحكماء ومثوها باسمه في الأسماء، وإماما متبوعا، وعلما منصوبا، ولا يزال الوارث محفوظا، ومن أجله محبوبا ممنوعا، ولا تزال تلك المحبة نامية ما كانت تلك الفوائد قائمة ولن تزال فوائدها موجودة ما كانت الدار دار حاجة، ولن يزال من تعظيمها في القلوب أثر ما كان من فوائدها على الناس أثر.

وقالوا: متى ورثته كتابا وأودعته علما فقد ورثته ما يغل ولا يستغل، وقد ورثته الضيعة التي لا تحتاج إلى إثارة، ولا إلى سقي، ولا إلى إسجال باغار، ولا إلى شرط ولا تحتاج إلى أكار ولا إلى أن يثار، وليس عليها عشر ولا للسلطان عليها نرج، وسواء أفدته علما أو ورثته آلة علم، وسواء دفعك إليه الكفاية أو ما يجلب الكفاية، وأما تجرى الأمور وتصرف الأفعال على قدر الإمكان، فمن لم يقدر إلا على دفع السبب لم يجب عليه إحضار المسبب، فكتب الآباء تحييب للأحياء، ومحيا لذكر الموتى.

وقالوا: ومتى كان الأب جامعا بارعا وكانت موارثه كتباً بارعة، وآدابا جامعة، كان الولد أجدر أن يرى التعلم حظا وأجدر أن يسرع التعليم إليه ويرى تركه خطأ، وأجدر أن يجري من الأدب على طريق قد أنجح له، ومنهاج قد وطئ له، وأجدر أن يسرى إليه عرق من نجله وسقى من غرسه، وأجدر أن يعمل بدل الطلب للكتب النظر في الكتب، فلا يأتي عليه من الأيام مقدار الشغل بجمع الكتب، والاختلاف في سماع العلم، إلا وقد بلغ بالكفاية غاية الحاجة وإنما تفسد الكفاية من تمت آدابه، وتوافت إليه أسبابه، فأقا

الحدّث الغرير، والمَقْصُوفُ الفقير، خَيْرُ مَوَارِيثِهِ الكِفَايَةُ اِىْ أَنْ يَبْلُغَ التَّامَ، وَيَكِلُ لِلطَّلَبِ .
 خَيْرُ مِيرَاثٍ وَرَّثَ كَتَبٌ وَعِلْمٌ، وَخَيْرُ المُوَرِّثِينَ مَنْ أَوْرَثَ مَا يَجْمَعُ وَلَا يَفْرُقُ، وَيَبْصُرُ وَلَا
 يُعْمَى، وَيُعْطَى وَلَا يَأْخُذُ، وَيَجُودُ بِالكُلِّ دُونَ البَعْضِ، وَيَدَّعُ لَكَ الكَثْرَ الَّذِي لَيْسَ
 لِلسُّلْطَانِ فِيهِ حَقٌّ، وَالرَّكَازَ الَّذِي لَيْسَ لِلفُقَرَاءِ فِيهِ نَصِيبٌ، وَالنَّعْمَةَ الَّتِي لَيْسَ لِلعَامِدِ فِيهَا
 حِيلَةٌ، وَلَا لِلصُّوَصِ فِيهَا رِغْبَةٌ، وَلَيْسَ لِلنَّخْمِ عَلَيْكَ فِيهِ حِجَّةٌ، وَلَا عَلَى الجَارِ فِيهِ مَوْوَنَةٌ .

وأما ديمقراط فإنه قال: ينبغي أن يعرف أنه لا بد من أن يكون لكل كتاب علم وضعه
 أحد من الحكماء ثمانية أوجه، منها الهمة والمنفعة، والنسبة والصحة، والصنف والتأليف .
 والإسناد والتدبير، فأقولنا أن تكون لصاحبه همة . وأن يكون فيها وضع منفعة، وأن يكون له
 نسبة ينسب إليها، وأن يكون صحيحاً، وأن يكون على صنف من أصناف الكتب معروفاته .
 وأن يكون مؤتلفاً من أجزاء خمسة . وأن يكون مستنداً إلى وجه من وجوه الحكمة، وأن يكون
 له تدبير موصوف . فذكر أن أبقراط قد جمع هذه الثمانية الأوجه في هذا الكتاب وهو
 كتابه الذي يُسَمَّى «أَفُورِيسْمُوسُ» تفسيره: كتاب الفصول . وقولك وما بلغ من قدر الكتاب
 مع لوم أصله، وخبث طبعه . وسقوط قدره . ومهانة نفسه . ومع قلة خيره وكثرة شره،
 واجتماع الأمم كلها على استسقاطه واستسقاله . ومع ضربهم المثل في ذلك كله به . ومع
 حاله التي يعرف بها من العجز عن صولة السباع، وقسارها . ومع تمنعها وتشرفها
 وتوحشها . وقلة إسماعها، وعن مساندة البهائم وموادعتها، وتمكين من إمامة صاحبها .
 والانتفاع بها . إذ لم يكن في طبعها دفع السباع عن أنفسها . ولا الاحتياض المعاشها . ولا
 المعرفة بالمواضع الحريزة من المواضع الخوفية . ولأن الكتاب ليس بسميع تام ولا بهيمة تامة
 حتى كأنه من الخلق المركب . والطابع الملققة . والأخلاق المخبلة . كالبخل المتلون في أخلاقه
 الكثير العيوب المتولدة عن مزاجه . وتمر الصباغ ما نجدته . لأعرق المتضددة لأخلاق
 المتفاوتة . والعناصر المتباعدة، كالزاعي من الخدم الذي ذهب عنه هدية الخدم . وشكل
 هديره وسرعة طيرانه . وبطل عهه نمر الورشان . وقوة جناحه . وبتدنه عصبه . وحسن

صوته ، وشجا حلقه ، وشكل لحونه وشدة إطرابه ، وأحتماله لوقع البنادق ، وجرح الخالب .
 وفي الراعي أنه مُسْرُولٌ مُثْقَلٌ ، وحدّث له عِظَمَ بدنٍ وثِقَلَ وزنٍ لم يكن لأبيه ولا لأمته .
 وكذلك البغل خرج من بين حيوانَيْن يَلِدَانِ حيوانا مثلهما ويعيش نتاجهما ويبقى بقاءهما ،
 وهو لا يعيش له ولد وليس بعقيم ، ولا يبقى للبغلة ولد وليست بعاقرة ؛ فلو كان البغل عقيماً
 والبغلة عاقراً لكان ذلك أزيدَ في قوتها وأتمّ لشدهما ، فع البغل من الشبق والنعظ ما ليس
 مع أبيه ، ومع البغلة من الشوس وطلب السّفاد ما ليس مع أمها ؛ وذلك كلّ قرح في القوّة
 ونقص في البنية ، ونخرج غُرمولهُ أعظَمَ من غراميل أعمامه وأخواله ، فترك شبههما ونزع
 الى شيء ليس له في الأرض أصل ، ونخرج أطولَ عُمرًا من أبويه وأصبرَ على الانتقال من
 أبويه ؛ أو كابن المذكرة من النساء ، والمؤنث من الرجال ، فإنه يكون أخبث نتاجاً من البغل
 وأفسدَ أعراقاً من السَّمع ، وأكثرَ عيوباً من العسبار ، ومن كلّ خَلْقٍ خُلِقَ إذا تركب من
 ضد ، ومن كلّ شجرة مُطعمَةٌ بخلاف ؛ وليس يعترى مثل ذلك الخِلاسيّ من الدجاج ،
 ولا الوردانيّ من الحمام ؛ وكلّ صَعْفٌ دخل على الخِلقة ، وكلّ رِقّة عرّضت للحيوان ، فعلى
 قدر جنسه وعلى وزن مقداره وتمكّنه يظهر العجز والعيب . وزعم الأصمعيّ أنه لم يسبق
 الخلبة فرس أهضم قط . وقال محمد بن سلام لم يسبق الخلبة أبلق قط ولا بقاء .

والهداية في الحمام والقوّة على بعد الغاية إنما هي للمصمّنة من الخضر . وزعموا أنّ
 الشّيات كلّها ضعف ونقص ، والشّبة : كلّ لون دخل على لون . وقال الله جلّ وعزّ : ﴿ قَالَ إِنَّهُ
 يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلِّمَةٌ لَا سِيَةَ فِيهَا ﴾ . وزعم عثمان
 ابن الحكم أنّ ابن المذكرة من المؤنث يأخذ أسوأ خصال أبيه وأردأ خصال أمه فتجتمع

(١) السمع بكسر السين وإسكان الميم والعين المهملة : ولد الذئب من الضبع وهو سبع مركب فيه شدة الصبح
 وقوتها وجرأة الذئب وخفته (راجع حياة الحيوان للدميري ج ٢ ص ٣٢) . (٢) العسبار بكسر العين وبالسين
 الساكنة والأنثى عسبارة : ولد الضبع من الذئب وجمعه عسابر (راجع حياة الحيوان للدميري ج ٢ ص ١٣٩) .
 (٣) الخلاسي : الولد بين أبوين أبيض وأسود ، والدريك بين دجاجتين هندية ومارسية . (٤) الورداني
 بالراء المهملة طائر متولد بين الوردان والحمام وله غرابة لون وظرافة قد .

فيه عظام الدواهي وأعيان المساوي، وأنه اذا خرج كذلك لم يُنَجِّح فيه أدب ولا يَطْمَع في علاجه طيب، وأنه رأى في دور تميف قتي آجتمعت فيه هذه الخصال، فما كان في الأرض يوم إلا وهم يتحدثون عنه بشيء يصغر في جنبه أكبر ذنب كان ينسب اليه . وزعمت أن الكلب في ذلك كالخنثى الذي هو لا ذكر ولا أنثى، أو كالخصي الذي لما قُطِع منه ما صار به الذكر مخلًا خرج من حد كمال الذكر بفقدان الذكر، ولم يكمل لأن يصير أنثى للغريزة الأصلية وبقية الجوهرية، وزعمت أنه يصير كالنبيذ الذي يفسده إفراط الحز، فيُخرِجه من حد الخل، ولا يدخله في حد النبيذ . وقال مرداس بن خدام :

سَقِينَا عَقَالًا بِالنَّوِيَةِ شَرِبَةً * فَمَاتَ بُلْبُ الكَاهِلِي عِقَالِ
فَقَلْتُ اصْطَبِحْهَا يَا عِقَالُ فَإِنَّمَا * هِيَ النَّمْرُ خَمَلْنَا لَهَا بِجَمَالِ
رَمَيْتُ بِأَمِّ الخَلِّ حَبَّةَ قَلْبِهِ * فَلَمْ يَنْعِشْ مِنْهَا ثَلَاثَ لَيَالِ

بفعل النمر أم الخلل قد يتولد عنها ، وقد يتولد عن الخلل اذا كان نمرًا مرة النمر .

وقال سعيد بن وهب

هَلَا وَأَنْتَ بِمَاءِ وَجْهِكَ تُشْتَمِي * رُودُ الشَّبَابِ قَلِيلُ شَعْرِ العَارِضِ
فَالآنَ حِينَ بَدَتْ بِحَذِّكَ لِحِيَةً * ذَهَبَتْ بِمَنْحِكَ مَلءَ كَفِّ القَابِضِ
مَثَلُ السَّلَافَةِ عَادَ نَمْرٌ عَصِيرَهَا * هَدَّ اللَّذَاذَةَ خَلَّ نَمْرٌ حَامِضِ

ويصير أيضا كالشعر الوسط والغناء الوسط . والنادرة العذرة التي لم تخرج من الحز الى البرد فتضحك السن . ولم تخرج من البرد الى الحز فتضحك السن .

باب الرسائل

١ - الفصول المتخبة من الرسائل المختارة في كل فن ^(١)

كتب رجل الى صديق له :

إن آباءك شادوا أكارمهم بالفضائل التي كانت فيهم ، وإنك قد كنت أخذت في مدرجتهم فأوفيت على غايتهم ، ثم أختلجك الهوى ببعض جديلتك وجودك ، من لباس فضلك الذي كنت تطول به على أكفائك ، وتملك به أعنة كافة جنلك ، وألقيت مالك على شر عواقبه عليك لا لك إن زلت مكاره بوادره عنك .

فصل - قيل : إن مروءة الرجل في نفسه نَسْبُ لقوم آخرين ، فإنه إذا فعل الخير عُرِفَ له ، وبقِيَ في الأَعقاب والأصحاب ، ولَقِيَهِ يوم الحساب .

فصل - إن حق الله على المسلمين أن ينظروا في دينهم بالنصيحة لأئمتهم ، فإن الأئمة إذا صلحوا بَدَلُ الحسنى بالتقوى في قلوبهم ، وماتت سورة الغضب فيهم لأحلامهم ، وسكنت العامة الى عدلهم وذات لإنصافهم . وإذا كان للحسن من الحق ما يُقننه ، وللظالم من التَّكثير ما يَقمعه ، بَدَلُ المحسن الحق عليه رغبةً ، وذَلَّ المسيء بالحق عليه رهبةً . فأقول ما أمرك به رجاء الله وتقواه . فأما رجاءه فإن تُحسِنَ به في الصنع إذا أطلعته . ويكون لك وقاية إذا أثرته مطمئنا . وأما تقواه فإن تكون له فيما أمرك به وبهاك عنه مُراقِبًا ، فإن تَقِيَةَ المؤمن تزيد في أنتسراح صدره ، وإن شدة خوفه تردَّ هواه على عقله .

(١) نقل عن اختيار المنظوم والمشور لأن طيمور .

(٢) الجديدة : الناصبة واحالة والطريقة .

فصل — تبه اذا نُبِئت، وأذكر اذا ذُكِرْت. وأنتفع فقد رُعِطت، وأسمع فقد نُوديت، تبهك الوعيد. وحذرك الزاجر، وأمرك ونهاك الكتاب. وتفتك آثار الموت، ودعاك الى الجنة مليء جواد، فالجِدْ الجِدْ. فقبل المهجرة يُرِج المُلْدِج .

فصل — ما نظرتُ في معروفٍ عند أحد، فوجدته قُصر عن أمهه وكان يمكنني أن يكون أكثر منه، إلا عدته سيئة لي عنده، لأني ذوقته ما أحب، ثم منعه إياه، وكأني قصدت لإشخاص قلبه. ولا نظرتُ في معروفٍ عند أحد فوجدته قد تنهى عند تنهى أمهه وكان يمكنني أن يكون أكثر منه، إلا رأيتني في ذلك وترأى نفسي. لأنه كفى عياله وإزراء بها، أن أفنع... فضل تغذده بمثل ما أفنع رجلا من فضل يتخذ عليه.

فصل — ما أنت من يعلم من جهل به. ولا تحس منه بادرة زلة، ولا يقابل بين أمرين إلا عرف خيرهما فآثره، وشَرهما فاجتنبه. وقد رأيت ما ساءت اليك نطاعة من حظ العاجلة، فلا تتعرض لزوال ما أنت فيه، فتخسر الحظين، وتدم في الدين. فقد رأيت من عاند الحق كيف صرعه الله وبسط يده ووليه على سمته دمه. وإحلال التهمة به، فصار بعد أن كان في الأمانة مثلاً. وجميع انحلل غاية وأملاً، فكرة في الاعتبار، وعظمة للأبصار. فلا يبعد الله إلا من ظلم وحر، وذهب عن الحق وذر. وانت اليوم محكم في أمرك، مخير في رأيك، تدعى الى حظك باخط الخزييل بتدليل، فاهتبل ما قد هدف لك وهو ممكن ليدك. فإنك إن أهملت وتراخيت. لم يكن بالحق ووليه وحشة اليك، ومضت أحكام الله في نصرها وتأهدها على أذلالها. وصفرت يدك بما لا يشرف لك بمثاله. وأخطرت بدمك وأسفته أخطت مسيل وأصل سبيل. حيث لا تبكي عليك السماء والأرض.

(١) بياص في الأصل. وسنه: ما أفنع نفسي محض أخذته من ما أفنع رجلا ح.

(٢) عن أذلالها: عن وجوهها وصفها.

فصل - الناس رجالات : عالم لا غنى به عن الازدياد، وجاهل به أعظم الحاجة الى التعلم ، وليس في كل حال يكون العالم لما بيده من الأمور معدداً ، ولا المتعلم على ما يستفيد منه قادراً وفيّاً .

فصل - إن أنت عطلتنا من أمورك ، وأعفيت ظهورنا من أمتالك ومؤونتك ، وتركتنا أغفالا في ولايتك من تنبيهك وتحريكك ، فقد أنزلتنا منزلة من لا خير عنده ، وجعلت نفسك أسوة من لا معين له ، وكفى بذلك ظالما .

فصل - إن إعلامي إياك ... غير محدد شيئا ، ولكنه أقرب من الجليل في معرفة عذر المعتذر ، وأحمل للأئمة على المسيء المقصر .

فصل - الذي آعتمدنا عليه من رأيك ، ونيق به من جميل نظرك ، قد خلطني بأهل صنائعك ، والخاصة من قياتك ، وبسط أمل فيك الى غاية خير يرتجى ، أو جزيل حظ يؤمل .

فصل - ليس يسوغ لأحد في الأمير أمل ، ولا يتوجه اليه منه رغبة ، ولا يلزمه في قضاء حقه ، ودانة مؤونته إلا وفضله مستغرق لها .

فصل - من أحمد الأمور وأجمل المذاهب ، ما كان آخره موصولا بأقوله ، ومؤدباً بدؤه الى حد عاقبته ؛ حافظ على الأمور التي حسن فيها عند أمير المؤمنين أترك ، مستقلاً فيها لكثير ما يكون منك ، معتدلاً بها في النعم عندك ، والإحسان الواصل اليك ، فيما يوفقك الله له منها ويخصك به من الفضل في اختيارها ، وأمير المؤمنين يستحفظه الله لك ، ويستمتع في النعمة فيك .

فصل - قد كان يجب أن تجعلنا بتابعة النعم علينا في خاصة الشاكرين لفضلك ، ولا تجعلنا بتواتر الإساءات الينا في عامة الشاكرين لك .

(١) بياض في الأصل . ولعل الكلمة المتروكة «بحاجتي» . والظاهر أن كلمة «محدد» محذوفة عن كلمة «مجد» .

(٢) كذا بالأصل .

فصل - عيسى بما بنى الله عليه أخلاق الأمير أكرمه الله، وجعل عليه رأيه في بسط العدل على رعيته، وبث الفضل على ملتَمِسِي فضله. يعثني على الكتاب في مثل ما كتبتُ إليه فيه، من ظلامة مظلوم يستعِذ فيها بعبده، وحاجة ملهوف يرجع فيها إلى فضله؛ فأجمع إلى ما التمس من الثواب في ذلك موافقة رأي الأمير، وإذ كاره ما يجب أن يذكر به؛ فزاد الله الأمير من نعمه، وأوزعه من الشكر عليها ما يوجب له متابعتها عنده. وترادفها له.

فصل - أنت والحمد لله من أحتمل الصديعة. وقيل لأدب. وصدق الخيالة وخلص على المحنة وحسن الظن؛ فاستقامت طريقته وقدمه جميل مذهبه وآثاره. وجرئت على قصد السبيل طاعته، وأستدت على السريرة والعلانية مناصحته. فأصبح أمير المؤمنين لا ينتأه في ريك وتكرمتك. إلا رآك مستحقاً لها ولم فوقها. ولا يعرفك لى درجة إلا رآك أهلاً لأشرف منها؛ صنعا من الله لك بما وفقك له من طاعته. ووهب لك من جميل مراتبه، والمكان منه والأثرة عنده.

فصل - فضل مشاركتنا إياك في محبوب الأمور ومكروها يجملنا في السرور بالنعمة عندك - بخدده؛ الله لك - ويوجب الشكر بما يكون حقها قاضيا. وللازيد فيها موجبا.

سعيد بن حميد - شغلك يقضينا عن مطالبتك بالحق في جوابات كتبنا إليك. وصدق مودتنا لك يمنعنا من التقص في أئجة عليك. ومن يكك لى رأيك فإنه لا يفي بك إلا لك؛ صلة إخوانك والتعاهد لهم من ريك، بما يشبه فضلك والنعمة عليهم فيك.

وفلان يبنى وينسه مودة أقدمه بها على الأخرة؛ لأنك اسم قرب ما بين المودة والقربة. وقد بلوته على أخالات كلها. فم يزدنى أختباره إلا اختيار له. ولا أعم بانسك جليلا إلا وهوى صديق؛ يشكر بشكره ويوجب عن نفسه المنة في آتى إليه؛ فأفنا من بين إخوانه فلست أعذل عن قضاء حقته. ولا أتأخر عن معروف أساسي إليه. فون رأيت أن

تُجَاهَهُ بِالْحَجْلِ الَّذِي يَسْتَحِقُّهُ بِنَفْسِهِ وَسَلْفِهِ، فَوَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ سُوقَ الْأَحْرَارِ أَنْفَقَ مِنْهَا عِنْدَكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ؛ أَبِى اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِأَقْيَمِكُمْ وَرَحِمَ مَاضِيَكُمْ .

فصل - إنَّ أَحَدًا لَيْسَ بِمُسْتَخْلِصٍ شَيْئًا مِنْ غَضَارَةِ عَيْشٍ إِلَّا مِنْ بَيْنِ خِلَالَ مَكَارِهِ، فَمَنْ أَنْتَظَرَ بِعَاجِلِ الدَّرَكِ آجَلَ الْأَسْتِقْصَاءِ سَلَبَتْهُ الْأَيَّامُ فُرْصَتَهُ، لِأَنَّ مِنْ صِنَاعَتِهَا السَّلْبَ، وَمَنْ شَرَطَ الزَّمَانَ الْإِفَاتَةَ .

فصل - إنَّ الْأَمِيرَ قَدْ جَلَّ فَضْلُهُ عَنْ أَنْ يُحِيطَ بِهِ وَصْفٌ، أَوْ يَأْتِيَ عَلَى تَعْدَادِهِ اجْتِهَادٌ، فَلَوْ كَانَ شَيْءٌ أَكْثَرَ مِنَ الشُّكْرِ لَكَانَ الْأَمِيرُ يَسْتَحِقُّهُ عَلَيْنَا، وَيَسْتَوْجِبُهُ مِنَّا .

فصل - قَدْ أَصْبَحَ الْمُخْتَلِفُونَ مَجْتَمِعِينَ عَلَى تَقْرِيزِهِ وَمُدْحِهِ، حَتَّى إِذَا الْعَدُوُّ يَقُولُ اضْطَرَّارًا مَا يَقُولُهُ الْوَلِيُّ اخْتِيَارًا؛ وَالْبَعِيدُ يَثِقُ مِنْ إِعْنَامِهِ عَلَيْنَا بِمَا يَثِقُ بِهِ الْقَرِيبُ خَاصًّا .

فصل - الْمَائِلُونَ إِلَيْهِ بَيْنَ نَعْمٍ مُكْتَنِفَةٍ مِنْ تَالِدٍ بِهِ يَسْتَدِيمُونَهُ، وَطَارِفٍ مِنْهُ يَسْتَعِيدُونَهُ، وَمَوَاهِبَ مُتَجَدِّدَةٍ، وَفَوَائِدَ مُتْرَادِفَةٍ؛ هِيَ مَبْسُوطَةٌ بِهِ إِلَى بَرَكَةِ أَيَّامِهِ، وَعُلُوُّ حَظِّ^(١) مَنْ أَنْتَصَلَ بِهِ، فَزَادَهُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ، وَزَادَ أَوْلِيَاءَهُ بِهِ وَبِرَكَّةِ دَوْلَتِهِ .

فصل - اعْتَمَدْتُ أَحَا لَا يَدُومُ إِحَاؤُهُ، وَلَا تُتَكَرَّحُ أحوَالُهُ، عَلَى بَعْدِ الدَّارِ وَقُرْبِهَا، وَأَنْتِصَالَ الْمَكَاتِبَةَ وَأَنْتِصَاعَهَا؛ تَجِدُهُ مُتَّصِرًا مَعَكَ فِي الْخُطُوبِ الَّتِي يَطْرُقُ بِهَا الزَّمَانُ، وَيَدَا لَكَ فِي الْأُمُورِ الَّتِي يُتِمَّنُّ فِيهَا الْإِخْوَانُ .

فصل - أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ مَا تَطُولُ بِهِ فِيهِ مِنَ الْجَلَالَةِ فِي الْقُلُوبِ وَالْعِيُونَ عِنْدَ الْوَلِيِّ وَالْعَدُوِّ مَوْصُولًا بِالْإِنْسَاءِ فِي مُدَّتِهِ، وَالْإِدَامَةِ لِعِزِّهِ وَسَلَامَتِهِ، وَالْأَعْلَاءَ لِيَدِهِ وَكَلِمَتِهِ .

أحمد بن يوسف - عندى فلان وفلان، فإن كنا من شأنك فقد آذناك .

في صفة حرب - كانت لكم الكثرة، وعليهم الدبيرة؛ فعملوا حملة كاذبة، أتبعناها

بأخرى صادقة .

(١) في الأصل: «حظة» والسياق يقتضى ما أثبتناه .

فصل في هدية — قد أهديتُ اليك من فنون كلامي وعيونِ مقالِي ، دفترا ظريف المعاني ، شريف المباني ، صحيح الألفاظ ، يلدُّ بأفواه الناطقين . ويلين على أسماع الصامتين .
فصل في شفاقة — لفلان قبلك حاجة ، ليس يحتاج فيها الى معدلتك ونصفتك المبسوطتين لمن لا يتوسل بحطبتك ومعرفتك ، ولكنه يريد ما في ذلك العسدل والإنصاف من الرفق والإحسان المذكورين للخاصة والإخوان .

فصل لرجل تميمي — ضَعَفَ حالي يدعوني اني كثرة الطاب ، ومَعْرِفِي بِجِبِلِ رايك تحجزني عن الإلحاح عليك ، خوفاً أن أكون جاهلا بعنايتك ، وحسن نظرتك ، والكرم يستحي بعضه لبعض ، ويعتُّ بعضه بعضاً ، ودين حيلته الغير على العقود . بيعته كرمه للنهوض ، أو دعاه هواه الى المنع ، بغناه عقله على البذل ، وحالي جاهجة لدى فضلك ونعمة الله عليك من سدِّ حلتها ، ومداواة عنتها بجهك الواسع ، ورفدك النافع .

أحمد بن يوسف — قد بدت لنا من نفسك أعزُّ مبدول وأفسه . ولمودة التي كلما يُحمد من صاحبها . فهو نافع . وثقتنا بك واستنامتنا الى ناحيتك . على أحسن ما أكد الله بيننا وبينك . وإن كان منى اللقاء بيننا لم يطل فأنتل مه ما يرده أهل الوفاء والمخالصة ، ويقصر في المحافظة عليه وعلى أكثر مه . من دخلت بيته . وضعت حلتها .

فصل — قد أصبحت لخاصة عدو . ولعمامة عصمة ، والأمان نعمة في مصححت .

فصل في الصفح لأبي علي — بَ لَدَى فَرَضِ مِنْكَ . وَإِنْ تَجَوَزَ مِنِّي مَا أَرْضَاهُ لَكَ ، لَمْ يَبِيعْ مَا يُغْضِبُنِي عَلَيْكَ . وَحِيتِ تَهْمِي ، يَخْلُغُنِي مِنْ قَوْلِكَ وَفِعْلِكَ . فَبِئْسَ وَرَاءَهُ تَعَمُّدًا مَنِي لِإِسَاءَتِكَ وَصَمَحًا عَنْ زَنْتِكَ ، فَبِئْسَ تَأَمُّدًا لَا تُحْنُكَ . وَإِنْ يَسُوْ ظَنُّكَ فَإِنَّمَا نَحْتَاجُ إِلَى إِصْلَاحِهِ مِنْكَ .

أحمد بن يوسف — اني رهيم بن المهدي في هدية استقبلني :

بلغني استقلالك بنا أنطقك . وادي شس عنيه من الأئس . هبل علينا قبة الحشمة لك في البر . فهدينا هدية من لا يخشيم اني من لا يغتم .

كتب عَقَّالُ بنُ شَبَّهٍ — الى خالد بن عبد الله في شفاعته :

إن الله اتعجبك من جوهرة كرمٍ ومَنِيَّتْ شرفٍ ، وقَسَمَ لك خَطراً شَهْرَتُهُ العَرَبَ وتَحَدَّثَتْ به الحاضِرَةُ والبادية ، وأعان خَطْرَكَ بِقُدْرَةِ مبسوطة ، ومَنزِلَةٍ ملحوظة ؛ بجمیع أكفائك من جماهير العَرَبِ ، یَعْرِفُ فضلك ، ویسره ما خارا لله لك ، ویس كلهم أداله الزمان ولا ساعده الخطب ؛ وأنت أحق من تَعَطَّفَ على أهل البيوتات ، وعاد لهم بما یُوقِ له ذِكره ویُحَسِّنُ به نَشْرَه . مثلك . وقد وَجَّهْتُ اليك فلانا ، وهو من دِنِيَةِ قِرابتی ، وذوی الهیئة من أَسْرَتی ، وعرف معروفك ؛ وأجبتُ أن تُلبسه نِعْمَتِكَ وتَصْرِفَه الىّ وقد أودعنی وإياه ما تجده باقیاً على النَّشْرِ . جمیلاً فی الغیب .

فصل فی التودیع

استودعُ اللهُ الأَمیرَ بأحسَنِ ودَّاعِهِ ، وأسأله أن یجعله فی كَنَفِهِ وحِرْزِهِ ، فقد أكرم المثنوی ، وأحسن الِابْتِغَاءَ ؛ فأطال الله له البقاء ، وأدام علیه النِّعماء .

فی الصَّفح

بلغنی كتابك ، تذكرك كتابی الیك بوضعی عنك مَوجِدتی ، وردی لك الى أحسن ما عَهِدَت من منزلتك عِنْدی . وقد حَلَّتْ مِنَّا المَحَلَّ الذی خلطناك فیهِ بأنفسنا ، وأدخلناك منه مداخل أهل نِقَتِنَا ؛ ولست تُؤْتی من جهالة بما أنت فیهِ ، ولبعض ما أنت علیه من التجارب تُسْتَفاد بمنزلها العبر ، ویُتَفَع بها فی عطف الأمور .

جواب فی فتح

كتب سالم بن هشام الى يوسف بن عمر حين قتل زيد بن علي رحمة الله عليه :

قد بلغ أمير المؤمنين كتابك بما أبلت الله في مِدره السوء ، وأنه لما عصته الحرب ، وآلمهم الحديد ، عادوا بالمسجد الجامع ، قد أكَذَّبَ اللهُ ظنونهم ، وخَدَّلَ مَحْرَجَهُمْ ، وقتل إمام ضلالتهم ؛ وحَفِظَ لِأَمیرِ المَؤْمِنين ما ضیعوا من حقه ، وحاط له ما أباحوا من الغدر فيه ؛ وقد رأى أمير المؤمنين أن يجعل من شكر الله على نِعْمِهِ ، الصَّفح عنهم ، وتعمد حرمهم

وأن يعيهم من عدله ، بما يردّ به الجاهل عن جهله ، والغوي عن غوايته ؛ ويعلمون مكانه من الله ، واستجابته لعزّه ونصره ؛ وأنه الخليفة المتّق ، والإمام المتألف ؛ وأنه يُقدّم العفو في الطاعة ، على الحجّة في العقوبة ، والحسبة في الاستصلاح ، على القوة في التأيّد ؛ فأمسك عنهم بيدك ؛ فإنّ أمير المؤمنين قد وهب ذلك كلّّه لله ، ورجا به ما ليس ضائعا عنده من ثوابه .

في الصفح عن الجفاء

لو كان من نازع الى الغدر ، قدناه عنان الحجر ، لم يكن أقرب منا الى الذنب ، ونحن نردّ عليك من نفسك ، ونأخذ لنفسك منك ، حتى يكون تركنا إياك ، وعذرنا فيه وافرا .

فصل - الحمد لله على البلية التي طال أمدها ، وبعد ما بين طرفيها .

آخر - آتفترت في التثبت أناة ذوى الحجى ، وقدمت المقدم من الأناة على العجلة ، وأطعت في أمرك النظرة ، واتهيت الى العذرة والمعرفة ، فلكت ما ملكك ، وحكت على الذي حكم عليك ، فأخذت مثل الذي أعطيت .

فصل - بدء أسباب الأمور دليل على عواقب الأمل فيها ، والخيرة بعد الله عزّ وجلّ .

فصل اعتذار

لو كان الناس يقضون الحقوق التي يجب عليهم ، ويحافظون على الأمور التي تلزمهم ، لقلت للأئمة ، وخلصت المودة ، وارتفعت أسباب العتاب ؛ ولكنهم عجزة متقوصون ، يضعفون عن العلم ، بأكثر ما تدركه عقولهم ، وتوقعهم عن ذلك أشغال لا يجب بها العذر ، ولا تستحقّ الإيثار ؛ ولم أزل عاتبا على نفسي فيما ضيّعت من مكاتبتك ، مع معرفتي بفضلك ، وموقع ذلك عندك ، وما اعتذارى اليك ، سوء ظنّ بك ، ولا مخافةً للائمتك ؛ ولئن فعلت ما ظلمت ؛ غير أنّي أحببت أن أكفيك المؤونة ، فيما عسيت أن تقبض عنه من مقايستي ومعاتبتي ؛ وأنا أحب أن تقبل العذر ، وتعيّن على مستقبل البرّ .

فصل - أنت في زمان إن لم تغالط أهله ، وتختلهم على ما في أيديهم ، وتصبر على مكاره الأمور بعد المطالبة ، لم تصل الى شيء ، ولم تجد أحدا ما على فضل منك وإن عرفه فيك ، ولم يفتنه من محاسنك شيء ، إلا رأى في مساوئ غيرك عوضا منه ؛ فكان بذلك أئرج ، واليه أسكن ؛ فمليك بالصبر ، فإن غابته الى خير ، وأقل ما فيه أن صاحبه لا يلوم نفسه ، ولا يلومه أحد ، ولعآ يظفر أو يدلل .

الى المأمون من عامل

قل من يسارع الى بذل الحق من نفسه . إذا كان الحق مضرا به ، وقل من يدع الاستعانة بالباطل ، إذا كان فيه صلاح معاشه ، وسبب مكتسبه ؛ وإذا تفرق الحق في أيدي جماعة فطوبت به ، تشابهت في الكره لبذله . وتعاونت على دفعه ومنعه ، بالحيل والشبه قولاً وفعلاً ؛ واحتاج المبتلى باستخراج ذلك الحق من أيديها ، الى استعمال مجاهدتها ومصابرتها على الحيلة في مدافعتها .

ابن الكلبي

كان حبر ما أبلاك الله في فلان بعد أمانه ما عزمت عليه من الأمان ، حبرا عظم مكانه من أمير المؤمنين ، وحسن موقعه من الدين ؛ ثم ردف خبرك بإذاعانه عند ما عضه من بأسك . ومسه من مؤلم إيقاعك للاستسلام ، وطلب عقد الأمان ؛ وإنك بذلت له ما طلب لا لرهبة بقيت في ناحيتك ، إلا الاحتذاء على مثال أمير المؤمنين وأدبه ؛ فكان إياؤه ما عرضت عليه في أول أمره ذحيرة حظ فيما كشفت عنه البلوى من محمود أترك ، واجتمع لك في ذلك حظان : الظفر آخرأ ؛ والدرك لما حاولته أولا ، فلا زلت على نصيبك من الحظ . مؤيدا بالنصر والمعونة ، والحمد لله على ما حقق من الظن ... من هذه النعمة على يدك وبسعيك .

(١) يياص في الأصل . ولعل الكلمة المتروكة «وتى» .

ابراهيم بن اسماعيل بن داود الى ذى الرياستين

وصل الى كتابك بخط يدك المباركة، فلم أرقليلاً أجمع، ولا إيجازاً أكفاً من إطناب، ولا اختصاراً أبلغ في معرفة وفهيم منه؛ وما رأيت كتاباً على وجازته، أحاط بما أحاط، وضربت ظني في فلان فعظم ذلك سرورى، وقد يُستعطف الظالم، ويُستعجب المتجني؛ وفي رفقك وعلمك بالأمر ما يصلح الفاسد، ويُذلل الصعب. ويُقبل المدبرة ولا يمنعك جور من جار عليك، من الاعتقاد في الحجّة عليه، والأخذ بالثقة في أمره، فإن الله عز وجل لم يجعل عليك في ذلك منقصة ولا غضاضة، بل فيه الإعذار والإنذار والاستبصار، وقضاء حاجة النفس، مع التأدية الى السلامة، والأمن من الندامة .

فصل - أنا في حال عافية، تتجاوز الى حال نعمة، والحمد لله حتى يرضى، فقد أرضى؛ فإما ما أشرت به، وخبرت من إمضاء رأيك فيه، والإمساك عنه، فثلك جعل لمن نصحه شركاء في كل أمره، ولم يجعل رأيه قرصاً لبعضه أن يتعدى،^(١) وذكرت أدب فلانة، وعندنا لفلانة الطمع المستقبل مع الإنعام المتقدم، مع أنه لا شيء لها عندنا قل ولا جل. ولو كان ما استحللنا حبسه صفة كف، ولا تغميض طرف؛ وذكرت أنه لا يستغنى مثلنا عن مثلها، وأبدال الله كثيرة عتيدة، وما بان علينا فقد أحد ممن كان قبلها في دارنا، فال بيننا وبينه حائل، ولا اختلنا له مع نظر الله تبارك وتعالى وأخلافه؛ وبعد هذا فأحسن الله جزاءك، وحاط لي فيك ما أحب منك، وكفالك المهم وكفانيه بك، فما تقوم نفس لو كانت لي أخرى مقامك في نصيحتي وبرى. والاهتمام لي، بما أنا عنه ساهية لاهية من أمرى، لا أعدميك الله ولا النصيحة منك .

فصل - قال أبو جعفر الكرمانى للحسن بن سهل ووعده شيئاً فأبطأ عليه :
أنا أعيرف تكامل الثقة فيك، ورجاحة الفضل بك، وأعلم أن فعلك يربى على قواك، وأن إنجازك أكثر من وعدك؛ فقدم لي من كرمك، ما أثمره إلى أن يابحقه المتأخر

(١) بياض في الأصل . وما وضعه يناسب المقام .

عنه ، وإلا فُدّنتي على ما أقول اذا سألني من بعثته على شركك ، عما بلغه من الحظ على نيتك .
فقال الحسن : تقول ما ينبغي ، فقال : فافعل ما ينبغي أقاله .

عمرو بن مسعدة

وصل الى كتابك ، على ظمأ مني اليه ، وتطلع شديد ، وبعد عهد بعيد ، ولوم مني على ما مستني به ، من جفائك ، على كثرة ما تابعت من الكتب ، وهدمت من الجواب ، فكان أول ما سبق الي من كتابك السرور بالنظر اليه أنسا بما تجتدي من رأيك ، في المواصلة بالكتابة ، ثم تضاعف المسرة ، بنجر السلامة ، وعلم الحال في الهيئة ؛ ورأيتك بما تظاهرت من الاحتجاج ، في ترك الكتاب ، سالكا سبيل التخصص مما أنا مُحلّصك منه ، بالإغضاء عن إلزامك المحجة ، في ترك الابتداء والإجابة . وذكرت شغلك بوجوه من الأشغال كثيرة متظاهرة ممكنة ، لا أجشحك متابعة الكتب ، ولا أحمل عليك المشاكلة بالجواب ؛ ويقنعني منك في كل شهر كتاب ، ولن [تُلزم] من نفسك في البر قليلا ، إلا ألزمت نفسي عنه كثيرا ، وإن كنت لا أستكثر شيئا منك ، أدام الله مودتك وثبت إخاءك ، وأستراح لي منك ؛ فرأيتك في متابعة الكتب ومحادثتي فيها بنجرك موقفا إن شاء الله .

عيسى بن واضح الى الفضل بن الربيع

قد أكد الله من حرمتي بك ، ووصل من الشعب بيني وبينك ماجعله ذخيرة ليوم الحاجة ،
وعدّة عند مليّ النازلة .

جبل بن يزيد

أما بعد فإن من صحب الدنيا لم يخلُ من تصرف أحوالها ، وكثرة معاريف جفائعها ، في احترام الأنفس في خواصها ، ومواقع البلايا بين ذلك فيما يهدتها ، ويفر من الأشياء عليها ؛ وكان ذلك لا سبيل اى دفعه ، ولا حيلة يُستعان بها عند نزوله ، إلا الرضا عن الله عز وجل فيما قضى ، والتسليم لأمره في كل ما أتى ، والسكون الى الأسوة التي نهج الله سبلها ، وخفف

(١) السياق يقتضى وضع هذه الكلمة ، وهي متروكة في الأصل .

بها مواقع المصيبات على أهلها؛ ثم الرجاء بعد ذلك لحسن ثواب الله، [وقد] جعله الله لمن لزم أمره وأجشم نفسه مكروهها في مواطن الصبر على المصيبة، والشكر في حال العافية .

وله في المطر

قد كنتُ كتبتُ الى أمير المؤمنين أعلمه المطرة التي أصابتنا، وما أنزل الله بها من رحمته ثم عادت لنا بعدها من الله عائدة رحمة، بوليّ مطرٍ أنزله الله بأحسن ما رأينا من المطر وبالاجودا، لا يفتر غزيره ولا يعوى جوده، إلا الى ديمة عن ديمة، يتراخى اليها يسيرا ريثما تعود، فأقامت علينا سماءه مستهله بذلك وكذلك الى غروب الشمس؛ ثم أقطع مطرها بسكون من الريح، ودور من القتر، وفضل من الله عظيم، ينشر به رحمته، ويسط به رزقه، فأسبغ النعمة، وأوسع البركة، وأوبق بجمد الله معارف الخصب والحى. والله مجود على آلائه ومشكور على بلائه، وما أنزل الله من سقيه ورحمته، بعد الذي أهدت به السنة البرية والقحط وعدم الإمداد، وشدة ما بلغ الناس من القنوط وسوء الظنون .

وله الى بعض إخوانه

أما بعد، فإن أعظم الأمور فيما بين الناس حقا أمران: منهما الإخاء في الدين، فهو سبب وصية الله بين عباده بالألفة والمحبة التي أقطعت بها قرائن القلوب من بعضهم الى بعض، فأتصلت بمجالتهم مرائر حبلها، وتقطعت فيما بينهم عاطفات وصلها؛ ومنها مجاملة جميل الأعداء، وحفظ ما يحق لأهل حسن البلاء؛ ثم الصنائع بعد ذلك في مواقعها فضائل بقدر ما جرت به أسبابها ولطفت مداخلها .

فصل - الصناعة ليست يزيدا الأخلاق الجميلة، ويزيد في أسبابها وأوصار المودة؛ وقد جعلك الله في صناعتك مقدما، وفي مودتك متفضلا؛ فلا زالت عنك نعم الله، ولا برحت سكا لإخوانك، وأنسا وموضعا لما تستميحون من معروفك، ويستميرون من يدبرك .

فصل - إن لك من قلبي لموضعا معمورا بالموّدة والثّقة ، والاسترسال
والأنسة ، فلا تُخرج فلانا من سعة جميل برك ، الى عُقبى استحقاقه .

آخر

قد طالّت الصباية اليك ، وللدهر عُقب عائدة بالنع والصبح ، ولا سيما لمن كان على
مثل شاكلتك في أدبك وفضلك وإنصافك لإخوانك وبرّك بهم ، وما توجهه على نفسك
لهم مما يُقصرون عن شأوك فيه .

الكَلْبِيّ

كان أسلافنا تقارضوا دُيوننا من الصفاء يَسْتَأْذِنُهَا كُلَّ عَقِبٍ من صاحبه ؛ وقد أورتونا
موّدة لا نَعِجْزُ عن اكتساب مثلها .

ابن أعين كاتب الخيزران

ليس يكون منك شيء وإن حسن ، إلا وحسن ظني بك يبلغه ، فاستم أحسن ما كان
منك ، يتم لك أحسن ما يُحب مني . ولا يمتنعك الاكتفاء بحالك اليوم من طلب الزيادة
في غد ؛ فإنه لقل شيء لا يزيد إلا نقص ، والزمان يحق الكثير ، كما يربو على الزيادة القليل ما

ابن الكَلْبِيّ

أنت من أطول بمكانه وأثقي بجميل رأيه ، وأعتمد على رِفده . وأرجو دَرَك كل فضيلة
به ؛ ومما أحب علمه مَقَرَّ بعم الله عز وجل لديك ما

على بن عبيدة الى ابن الكَلْبِيّ

وصل الله أيام عمري باتباع موافقتك ؛ ولولا موعد أخذ علي ، لأطعتك فيما أمرت به ،
متبعا مع إجابتك سرور نفسي برؤيتك في السلامة .

أما بعد ، فإنني أصبحت وقد استفرغ الأميره مني كل موّدة ونصيحة ، وبلغ جهد
وطاقة فيما عرفت له فيه موافقة .

فصل - فإن الذى شَعَبَ الله بيننا من التواصل والتكاتب، يدعونى الى متابعة الكتب اليك فى تعهد حَقِّكَ ، وإن كان الخبر عن ظاهر الحال قلباً يُعْنَى ، فإن له من الأئس والموقع فى الكتب ما ليس لِمُسْتَعْرَضَاتِ الأخبار .

فصل - قد كنتُ أعلمت الأمير انقطاع بنى فلان الى فلان ، بأهوائهم وبصائرهم وشراء ما قَبَلَهُ بغيره ، وما كان وصل الينا فى ذلك من الأمور التى حملوا إضرها ، وبقى لنا أجرها وذكرها وناقلتها وسابقتها ؛ فنحن عدد الأمير وخباياه وذخائره ، ومن يأمل يومه وغده ، ولا مُتَخَطِّى له عنه ولا مقتصر دونه .

عُمارة

بلغنى كِتَابُكَ يصف كذا . فإن رأيتَ ألا تعتمد على ما لصقت [به] من عذرِكَ . وأطعت فيه الهوى من قبول عفوِكَ ، وتجعلنى أحدَ من يُسرِّ بسرورِكَ ، وتُشركه فى مهماتِ أمورِكَ ، فإنى أحدهم وأوسطهم عناية بما عَنَّاكَ وتوسطا لما عراك ، فعلت .

فصل - والدتو من دارك إذ الدار جامعةٌ والحبل مُتَّصِلٌ ، إذ نحن فى الاستيفاء بالخبر والعلم بدخلة الحال ، بمنزلة من كأنه يُعانى من يشناق اليه ويصوبه فى كل يوم ، حتى نأت النوى ، وأنت فى اللقاء والإنظار فى كل أمر وعلى كل حال من لا يُسَكِّ فى صفاء غيبه ، وصدق إخوانه .

فصل - مشاركتنا إياك فى محبوب الأمور ومكروها يحلنا محلك فى السرور بالنعمة يحددها الله لك ، ويوجب من الشكر علينا مثل الذى يوجب عليك . فوصل الله كل نعمة يهبها لك من الشكر بما يكون لحقها قاضيا ، وللمزيد فيها موجبا .

سعيد بن عبد الملك

كتبت على شُغْلٍ فى قِطْعٍ من القِرطاس ، ولم يقطع بى حسنُ الظنِّ بك فى قبولك العذر ، وتحسينك ما أنت أهلٌ لتحسينه ؛ فإنك تقبل دون حَقِّكَ ، وتَهَبُ الذنب فيه ، فيكون شُكْرُكَ

(١) فى الأصل : « ... وسراء ما قبله ... » : (٢) فى الأصل « عليها ... » وهو لا يؤدى الغرض المراد .

جاريا على سبيلين، كلاهما يبين لك عن فضلك، ويوجب لك ما لا يقصر معه إلا مغبونُ
الحظ خسيسُ النصيب .

فصل - وقد ظهر من أمير المؤمنين في فلان بعد وفاته، ما هو أعدل شاهد على
حسن مُنْقَلَبِهِ ، وردّ اليك من رأيه وتفقدته ما أرجو أن يكون فيه أعظم العِوض . والله
أسأل أن يتولى لك أمورك في السراء والضراء، والشدة والرخاء، والشكر وحسن العزاء .

جبل بن يزيد الى بعض إخوانه

تم الله علينا وعليك النعم ، وأجزّل لنا ولك محاسن صالح القِسَم . إن الله تبارك وتعالى
أجرى بيننا وبينك لطيف مودة، وخاصّ أخوة ، غير أنّ المعرفة قد تُمُحَد بعد الخبرة ،
والثقة إنما تعرف بعد التجربة، وقد أحببتُ أن يعلم من قبلك^(٢) الذي أحدث الله لك من
حال دولتك ، وأن يُعلم هل أبقت لنا منك النعمة سعةً، أم تركت لنا منك صَفْحَةً نعرف
بها عهدك ونأمل بها وصلك؟ فإن أصحاب السلطان ، بحال بلوى في التغيّر والانتقال ،
إلا من نالته من الله تبارك وتعالى عصمة . فإن كنت على ما رجونا من الوقاء، وحسن
الحفظ للمودة والإخاء ، فمثلك لم يرض لنفسه إلا بأجل الأخلاق وأوفقها للسداد . وإن
حجزك عن ذلك ما تأتي به الأقدار في مُتَصَرِّف الليل والنهار ، نَعْدرك بما نَعْدُر به أهل
السلطان ، اذا غيرتهم الحال ، وتكرت شمائلهم بين الإخوان .

وله الى بعض إخوانه أيضا :

إعلم أنّي اليك مشوق ، وأنّ صلة الإخوان كرمٌ ، وخير الصّلات ما لم يكن لها وجه
إلا الرجاء والحفظ وتجديد المودة وتصحيح الإخاء ؛ فإن الذي يكتب إخوانه على حال
الرضا يكفى القائل كتابه حيث شاء ، إن أحب مال به الى الصحة ، وإن شاء وضعه
للرغبة ، والرغبة أملكهما به . والذي يكتب إخوانه على حال الضرورة ، فقد يستقطع الصّلة^(٣)

(١) في الأصل : وأجزلنا

(٢) في الأصل : « ما قبلك » .

(٣) في الأصل : « وأملكها ... » .

عند الحدّث غفافة الملامة من الناس على القطيعة الشنعاء المشهورة لإخوانه ؛ فإنّ الذي لا مودة له قد يصل ذلك في تلك القطيعة بأهل البلاء .

والكتاب على مثل حالنا وحالك اليوم شاهدٌ على أن ذلك ليس إلاّ صحّة الإخاء والشوق الى المحادثة بالكتاب ، حين لا يلومك اللائمون لمنزلة البلاء تلك اللائمة على التقصير ، ولا يوضع منك الرغبة في الإطعام . إياك أن تعتلّ بالأشغال أن كنت في خاصة نفسك ، فإن أداء الحق وصلة الإخوان أعظم الخاصة بك خاصة . وإنما أمرنا في كل هذا كأمرك في الذي يستغني من خاصتك تلك التي لنا ، فإن لنا ما لك ، وهذه التي لنا لك ؛ أليس ما سرتنا سرك وما سلبنا حظا لك ، فهذه كذلك وذلك كهذي . والله يوفّقنا وإياك . وأنت أبا يوسف . هكذا حال ما بيننا وبينك ما وصفت لأبي سعيد ، غير أنه سألنا أمرا لم يسألناه قطّ ، فله فضل سبق علينا في المسألة ، ولنا فضل المنزلة عليك في اللائمة . ولنا أدعك والفضل ، دون أن تشفعه بالعمل الذي هو صلة القول . وسلام عليك ورحمة الله ، وقضى الله عز وجل بالحسنى لنا ولك .

فصل — أتاني كتابك ، فأنتعت أن يسرنى بسلامتك ، وما حق فيه كرم برك ، ولطيف عنايةك ، ما لم أفقد في حالة من حالاتك ، فكان الكتاب مصدقا لما سلف ، مبشرا بما يستأنف ، مذكرا منك عهدا موصو^(٢) مثاله طرفي وقلبي ، ملصقا ذكره بلساني وقلبي . فلا عدمتك ، بل أمتعني الله بك فأطال ، وكثرتني ببقائك .

فصل — أتاني كتابك فطامن قلبي وطرفي ، بعد ما كان شاخصا اليه . متشوقا الى رؤيته ، ثم ملائني سرورا ما رأيتُ فيه من آثار برك وكرم تفقدك . وأفضل ما عندي منك قبلي ، مما إن ذكرته ، فلا استراحة الى الذكر ، وإن أمسكتُ ، فلهعجز عن الشكر . فأما الضمير فبني على الإقرار بفضلك ، والنية خالصة بشرك . وقليل ذلك لك ، فأعطاك الله فأطاب ، ووهب فأجزل .

(١) في الاصل : « غفافة السلامة من الناس ... » . (٢) في الاصل ياض . (٣) في الأصل : « فلا استراحة ... » .

فصل - وصل الى كتابك نُحَيْلَ لى حين نظرت الى أثر يدك تجرى قلبك فى بطن صحيفتك ، أنك مائل بين عيني : أنظر الى شخصك وأسمع من لفظك ، فابتعت ذلك منى طربا شائقا ، وصبا به هيجت الأحران وذكرت الإخوان . وكنت من إخوانى الذين أفرج بسلامتهم للود الذى أحرى الله بيننا وبينك ، فتواصلنا بجرمته ، وتعاطفنا بوصله .

فصل - إن الله جعل عاقبة كل نعمة وإن عظمت ، تبعا لأوطأ ، وجعل الشكر عليها سببا لتمامها وموجبا لأحسن الزيادة منها .

فصل فى شكر - فإن الله جعلك للخير معدنا ، وللفضل موضعا ، فيما حملته نفسك من ثقل أعباء المرءة ، وحملتها عليه من عظام المكارم ، حتى صرت بما أنعم الله به عليك ، منتهى كل أمل وغاية كل رغبة . ثم ألست النعمة لباس التواضع ، وناسبت فى الأخلاق من سبقت به عليك الأمور ، حتى كأنهم فى النعمة لك شركاء . وتحننت على الأقربين والمتقربين من الاخوان والأكفاء ، حتى كأنهم لك ولد ، وأجبرت نفسك حين ساعدك الدهر ، على طبيعة التقرب الى العامة ؛ فكلمهم يدلى اليك بدلو رغبته ، ويمتاع منك متآحة فضل ؛ فلا عدمت ألا تزال تتعش سقطا ، وتقبل عثرة ، وتسد خلا ، وتبيل أملا ؛ ولا عديم من شهيد ذلك منك . أن يستتم هذه النعمة عليك وعلى نفسه ؛ فإن من سعادة العامة أن يجعل ساژها عند خيارها . ومن البلاء العظيم عليها الموجه لها . أن يخص شرارها بموضع رغباتها .

فاسلم كلاك الله بهذه النعمة . غير منغص بها ، ولا مكدر عليك صفوها ، حتى تسلمك النعمة العاجلة الى النعمة الباقية ؛ فإننا وإن علمنا أن من شأن الدهر الغدران فى العواقب فقد علمنا أنك فيما أهدى الله اليك من النعمة . قد أدت حق الله عز وجل ثم حق إخوانك فيها . فكننت أحر من نال فضلك ، كرما فى السناء ، ورضا فى الأثرة ، غير متطاول لما نأمل . ولا متضعض لما تحذر ؛ فإننا تجزى شكر الماسح منك . ورجاء الباقي ،

(١) و الأصل : " ولا مكدر عليها صفوها ... "

فرى تضييعا منا في عَقْدِ الرَّأْيِ ، وإِزْرَاءِ بنا في وثائقِ الأُمُورِ ، أَلَّا نَمَحُكَ مِنْ أَنْفُسِنَا مَوَدَّةَ الْوَالِدِ وَرِقَّةَ الْوَالِدِ . وَإِذَا أَعْطَاكَ أَمْرٌ ثَمْرَةَ فَوَادِهِ ، فَقَدْ فَرَّغَ إِلَيْكَ مِنْ جَمِيعِ حَقِّكَ ، لِأَنَّ ذَاتَ يَدِ أَمْرِي فِي الْبِذْلِ أَهْوَنُ عَلَيْهِ مِنْ ذَاتِ نَفْسِهِ فِي الشُّكْرِ . وَكُنْفَى لِأَمْرِي مِنْ أَمْرِي أَنْ يَسْتَوِيَ عَلَيْهِ حَتَّى لَا يَدْعَ لغيرِهِ فِيهِ فَضْلاً . وَكُنْفَى بِكَ لَنَا مِنْ غَيْرِكَ . وَكَثِيرٌ مِمَّا أَنْ تَقْوَى عَلَى أَدَاءِ أَدْنَى صِنُوفِ حَقِّكَ ، غَيْرَ أَنْ أَوْثِقَ أُمُورِنَا فِيكَ عِنْدَ أَنْفُسِنَا أَلَّا نَسَامَ النَّظَرَ إِلَى فِئَاثِكَ بِهَيِّجِينَ بِكَ إِنْ بَرَزْتَ ، وَعَاذِرِينَ لَكَ إِنْ شُغِلْتَ .

فصل — إِنْ الْهَدَى وَالضَّلَالَةَ يَقْتَسِمَانِ دَوْلَ الْأَزْمِنَةِ ، لِغَيْرِ كِرَامَةِ لِلْبَاطِلِ ، وَلَا هَوَانَ لِلْحَقِّ . وَأَهْلُ الْحَقِّ كَيْفَ تَصَرَّفَتْ أَحْوَالُهُمْ فِي كِرَامَةِ مِنَ اللَّهِ عِزِّ وَجَلِّ ، وَنِعْمَةٍ بَيْنَ دَوْلَةِ تَكُونُ لَهُمْ ، يَقُومُونَ لِلَّهِ فِيهَا بِحَقِّهِ وَيُظْهِرُونَ هِدَاةَ وَدِينِهِ ، وَدَوْلَةٌ تَكُونُ لِلْبَاطِلِ ، يَكُونُونَ فِيهَا كَهَوْفًا لِلغَيْرَاتِ ، وَمَعْدِنًا لِلْمَغْسَنَاتِ ، يَسْتَكِنُّ الْحَقُّ فِي صُدُورِهِمْ ، وَيَأْوِي الْبِرُّ وَالصَّدَقُ إِلَيْهِمْ ؛ فَهَمَّ بَيْنَ يَوْمِي صَبْرٌ وَشُكْرٌ ، لَيْسَ أَحَدُهُمَا دُونَ صَاحِبِهِ فِي الْفَضْلِ .

وَأَهْلُ الْبَاطِلِ كَيْفَ تَصَرَّفَتْ أُمُورُهُمْ بَيْنَ تُخَطُّ اللَّهُ وَعَقُوبَتِهِ ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَجْعَلِ فِي الْبَاطِلِ قَرَجًا لِأَهْلِهِ ، وَإِنْ كَانَتْ لَهُمْ دَوْلَةٌ كَانَتْ إِمْلَاءً وَاسْتِدْرَاجًا ، وَكَانُوا فِيهَا عَلَى مَدْرَجَةِ هَلَاكَةٍ وَسَبِيلِ نِقْمَةٍ ؛ وَإِنْ كَانَتْ الدَّوْلَةُ لِأَهْلِ الْحَقِّ ، كَانُوا فِيهَا بَيْنَ ذَلِّ وَضَمِيمٍ ، وَخَوْفٍ وَجَزَعٍ ، وَقَدْ سَدَّتْ عَلَيْهِمُ الْمَطَالِعُ ، وَضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحَّبَتْ . فَفِي أَيِّ يَوْمِيَّهِمْ مَسْتَرَا حُهُمْ : أَيُّومَ دَوْلَتِهِمْ ، وَهَمَّ لَا يَشْكُرُونَ النِّعْمَةَ وَلَا يَقْطَعُونَ أَسْبَابَ النِّقْمَةِ ؟ أَمْ يَوْمَ عِلْوِ الْحَقِّ عَلَيْهِمْ ، وَهَمَّ لَا يَصْبِرُونَ عَلَى الْحِجْنَةِ وَلَا يَبْصُرُونَ مِنَ الْعَمَى ؟ وَأَهْلُ الْحَقِّ بَيْنَ حَالِي غَبْطَةٍ وَحَسْبَةِ ، وَأَهْلُ الْبَاطِلِ بَيْنَ حَالِي إِمْلَاءٍ وَنِقْمَةٍ .

فصل في صفة الجند — إِنْ الْغَالِبَ عَلَى أَهْوَاءِ جَمَاعَةٍ مِنْ فِئَاتِ أَوْلِيَاءِ الْأَمِيرِ وَجُنْدِهِ إِعْظَامُ الْأَمِيرِ وَمَعْرِفَةُ فَضْلِهِ ، وَالتَّقَرُّبُ إِلَى اللَّهِ بِمُحَبَّتِهِ وَمُنَاصَحَتِهِ وَطَاعَتِهِ ، وَمُعَادَاةُ عَدُوِّهِ ؛ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ يَتَعَدَّوْنَهَا وَيَتَقَرَّبُونَ إِلَى اللَّهِ بِهَا ، وَيَتَوَسَّلُونَ إِلَى الْأَمِيرِ بِخِزْيِ قَوْمِ حَالِفُوا .

فصل - حل بين فلان وبين التشريد بهم والاجتياح لهم ، فإن ذلك أرضى لربك ، وأجمع للألفة ، وأقوم لعمود الخلافة الذي سدد الله دعائم الإسلام وأسس الدين به . وأعلم أن من حاط الله دينه ، ورمث عن فؤقه الجماعة ، وعادى أهل النقص لها ، ابتعثه الله آمنًا من هول الحساب وضيق المحشر ، والله بنصره أحق وأولى . وكن لله بحيث افترض عليك ، فإنه قال لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ ﴾ .

كتب جعفر بن محمد بن الأشعث الى رجل لم يكتبه

لست بما صرفت الى من معروفك بأسر مني ، بما أهديت الى من قضاء الحق عنك ، وقلة ذوى الحرمة بك ، لأنك قد تصل من لا يثق ولا يأنس إلا بمن يعتمد عليه .

كتب الفضل بن يحيى الى رجل يساوره في أمر حدث

ليس كل امرئ وإن كان ذا عزيمة في رأيه ، وأصالة في عقله ، يستغني عن مكاشفة أهل الرأي ؛ لتوزيع الله عز وجل ، أقسام الفضل في خلقه ، وإشراكه إياهم ، في عطاياه ، فرائك في كذا .

ركب ابراهيم بن المهدي الى أحمد بن يوسف ، فكتب أحمد

الى إسحاق بن ابراهيم الموصلي

عندي من أنا عبده ، ومجتنا عليك ، إعلامنا إياك .

توسل

توسل رجل الى رجل ب محمد بن عبد الملك وادعى قرابته منه ، وبلغ ذلك محمدًا فكتب

الى المتوسل اليه :

بلغني أن رجلا ادعى قرابتي ، وأورد عليك كتابا ذكر أنه مني ، وما أنكر أن ينتفع بي من توسل بنسبي ، إلا أنه من ادعى قرابته ، ولا قرابته له ، كان استعمال الشفاعة في أمره أولى .

كتب طاهر بن الحسين الى الفضل بن سهل
أسعدك الله بحاربتك ، التي بذلت فيها مُهجَتَكَ ، ومُهَجَ مَنْ هو موصولٌ بك منا .

محمد بن الجهم

وليس في جميع الناس أعدى لك : من صديق مؤمل ، أو حميم راجح ، إن منعتهما شتماك
وبهتاك ، وإن أعتهما لاهمه اغتلاك .

محمد بن مسعر

قال : كنتُ أنا ويحيى بنُ أكرم عند سُفيان ، فبكى سُفيان ، فقال له يحيى : ما يُبكيك
يا أبا محمد؟ قال :

بعد مجالستي من جالس أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم آبتيتُ بمجالستكم ؛
فقال له يحيى : مُصيبةٌ من جالست منهم بمجالستهم إياك بعد أصحاب رسول الله صلى الله
عليه وسلم أعظمُ من مُصيبتك بنا ؛ فقال : يا غلامُ ، أظنَّ السلطانَ سيحتاج اليك .

دخل ميمون بن مهران على بعض خلفاء بني أمية — وأحسبه عمر بن عبد العزيز — فقال
له وقد قعد في أحريات مجلسه : عطني ، فقال له : إنك لمن خير أهلِكَ إنْ وقيتَ ثلاثاً ، قال :
ما هنَّ؟ قال : السلطانُ وقدرته ، والشبابُ وغرته ، والمالُ وفنته ، فقال : أنت أولى بمكانى
متى فارتفع اليّ؟ فأجلسه معه على سريره .

ابن وهب في الاعتذار

لو لم نَعذرَكَ لم نَعذرْ أنفسنا بقطيعتك ، فكُنْ لنا في لأئمة نفسك ، كما تكُنْ لك في عذرِكَ .

وفي مثله

ليس في الإساءة فضلٌ عن الاعتذار ، وفي عائدتك فضل عن إساءتنا ، فمن أين يسقط
بين فضلِكَ والاعتذار !

آخر

فلان من حملة المعروف، يكثر عندهم قليله في شكرهم، ويقبل لهم كثيره في عظيم حقوقهم .

فصل — لئن عميت عن الأذى فيك، لقد أبصرته بك .

فصل — تغيب فأشتاق، وثلقتي فلا أشتنى .

٢ — فصول من رسائل مختارة في كل فن

وهي مثل مما كتب به الكتاب في أبواب لا نظير لها

فمن ذلك ما كتبت به في التحميد لله عز وجل في أوائل الفسوح وأواخرها وأوائل الكتب التي فيها تحميد الله عز وجل .

التحميد الأول

الحمد لله القادر القاهر، المتوحد بالسلطان والربوبية، والمنفرد بالبقاء والقدرة، والمتجبر بالكبرياء والعظمة، ذي الجلال والإكرام، والإفضال والإنعام، والعز والبرهان، والأسماء الحسنى، والمثل الأعلى، الأول بلا غاية، والآخر بلا نهاية، الذي لا يحيط به وصف الواصفين، ولا تبلغ مدى عظمته أوهام المتوهمين، ولا تدركه الأبصار، وهو يدرك الأبصار، وهو اللطيف الخبير، لا يؤدده حفظ كبير، ولا يعزب عنه علم صغير، يعلم حائثة الأعين وما تخفي الصدور، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها، ولا حية في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين .

التحميد الثاني

الحمد لله الذي خلق الأشياء على غير مثال ولا رسوم، وأنشأها على غير حدود، ودبر الأمور بلا مشير، وقضى في الدهور بلا ظهير، وسمك السماء بقدرته، وبنهاها على إرادته، وأسكنها ملائكته الذين أصطنعهم لمجاورتته، وجبلهم على طاعته، وزههم عن معصيته،

وجعلهم حملة عرشه، وسُكَّانَ سَمَواته، ورسَّاهُ الى أنبيائه، يُسَبِّحُونَ الليل والنهارَ لَا يَفْتُرُونَ؛ ودحا الأرض وبسطها لكافة خلقه، وقسَّم بينهم الأرزاق. وقدر لهم الأقوات، فهم في قبضته يَتَقَلَّبُونَ وعلى أفضيته يَجْرُونَ، حتَّى يرثَ اللهُ الأرضَ ومن عليها وهو خير الوارثين.

وصدر توحيد مفرد

الحمد لله العلىّ مكانه، المنير برهانه، التامة كلماته، الشافية آياته؛ والحمد لله ولىّ أوليائه وعدو أعدائه.

وصدر توحيد

الحمد لله الغالب الذى لا يُقَلَّبُ، والمُتَسَدِّرِ الذى لا يُعَانُ، والمُنَجِّزِ وعدّه، والمُؤَيِّدِ أوليائه، والخاتمِ بالفالج^(١) والظهور لهم، والمدبيل من أعدائه، ومُحِيطِ دائرة السوء بهم.

ولكاتب نُزَيْمَةُ بن خازم فى فتح الصَّنارِيَّةِ توحيد مختار

أما بعد، فالحمد لله ذى المَلَكُوتِ والقُدْرَةِ، والجَبْرُوتِ والعِزَّةِ، والسلطان والقوة؛ أهلِ المحامد كلّها، ومدبّر الأمور ووليّها، وخالق الخلائق وبارئها، ومهيّتها ومحييها، وباعثها ووارثها؛ الذى أوجب على نفسه بما نَفَذَ من مشيئته، وسبق من علمه، وثبت فى اللوح المحفوظ عنده إعزاز ديه، وإظهار حقه، وإعلاء كلمته، وإبلاج حجته، وإزهاق باطل أعدائه؛ الصارفين عن طاعته، والجاحدين لربوبيته، المكذّبين بكتبه ورسله؛ بلغ بذلك أمره، ونطق به كتابه؛ فإنه يقول تبارك اسمه فى المُتَرَلِّ من فوقانه: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾.

وتوحيد لأحمد بن يوسف الى الولاية عن الخليفة

أما بعد، فالحمد لله ذى المِنِّ الظاهرة، والخُججِ القاهرة؛ الذى قطع بينه وبين عباده المَعذِرَةَ، ورادف عليهم البيّنة، ومُهَيِّلَةَ النِّظَرَةِ؛ وجعل ما أتاهم من حظوظ الدنيا بالقسَمِ

(١) الفالج: القلب والظفر. يقال فالج فلان على خصمه. أى علب وطغر.

المكتوب، وما دَّخَر لهم من ثواب الآخرة بالنَّجْح المطلوب؛ فهم في العاجلة شركاء في النعمة، وفي الآجلة شقَّى في الرحمة؛ يَنْخَص بها أهلها المستفيعين بما ضرب لهم من الأمثال، وتصريف الحال بعد الحال؛ المبادرين بأعمالهم الى انقضاء مددِ آجالهم، قبل حلول ما يُتَوَقَّع، وفوت ما لا يُرْتَجَع.

وتحميد لابراهيم بن العباس في فتح اسحاق بن اسماعيل

الحمد لله مُعزِّ الحقِّ ومُؤدِّيه، وقامعِ الباطلِ ومُزِيلِهِ، الطالبِ فلا يفوته مَنْ طلب، والغالبِ فلا يُعْجِزه مَنْ غلب؛ مؤيدِ خليفته وعنده، وناصرِ أوليائه وحزبه؛ الذين أقام بهم دعوتَه، وأعلى بهم كلمتَه، وأظهر بهم دينه، وأدال بهم حقَّه، وجاهد بهم أعداءه، وأثار بهم سبيلَه؛ حمداً يتقبَّله ويرضاه، ويوجب أفضلَ عواقب نصره، وسواغ نَعْمائِهِ.

التحميد الثاني

الحمد لله الغالبِ ذى القُدرة، والقاهرِ ذى العِزة؛ الذى لم يقابل بالحقِّ باطلاً في موطنٍ من مواطن التحاكم بين عبادِه، إلَّا جعل أولياء الحقِّ منهم حُرْبَه وجُنْدَه، وجعل الباطلِ بهم فلا منكوباً، ودَحِيضاً زهُوقاً؛ إن نهَض به أوليائه كانت مراصدُ عواقبه مُفرِّقةً ما جُمِع، ومُبتَرَّةً ما أُعِدَّ، وقائدةً باشياعه الى مَصْرَعِ الظالمين، حتَّى يكون الحقُّ الطالبَ الأعزَّ، والباطلُ المطلوبَ الأذلَّ؛ وأولياءَ الحقِّ الأعْزَمين يداً وأيدا، وأشياعَ الضلالِ الأَخْسَرين أعمالاً وكيدا؛ قضاءً الله وسُنَّتَه، وعادةً الله وإرادتُه، في الفِئَةِ المنصورة أن تعزَّ فلا تُترام، وأن يُمكن لها في الأرض كما مَكَّن للذين من قبلها؛ وفي الفِئَةِ الناكبين عنه، أن تزلَّ فتكون كلمتها السُّفلى، وكلمة الله هي العليا، والله عزيز حكيمٌ.

وتحميد له مبتدأ مقام بين يدى خليفة

أما بعد، فالحمد لله الأول بلا أيدٍ يُحْصَى، والآخِر بلا أيدٍ يَفْنَى؛ الظاهرِ خلقه بعِزَّتِهِ، العزيزِ في سلطانه بعظمتِهِ، الفردِ في وحدانيته بقدرته، المدبِّرِ في ملكه بجزبوتِهِ؛ الذى نأى عن الأشياء أن يكون فيها محوياً، واتصل بها فلم يك من علمها حلياً، وهو فيها غير مُستَكين،

ومعها غيرُ مُمّاس في لُحج البحار ، ومفاوز القفار ، وشِواخِ الجبال ، وكُثبان الرمال ؛ مع كلِّ خَلق ، وفي كلِّ أَفق ، وعلى كلِّ شَرَف ومكان ، وفي كلِّ وقت وأوان ، موجود إذا طُلِب ، وقريبٌ حيثُ نُدب ؛ عالمٌ خَفِيّات الغيوب ، وخَطَرَات القلوب ، وما في السموات وما في الأرض ، ما يكون من نَجْوَى ثلاثةِ الِاهوِ وابْعُهُم ، ولا نَمْسَةِ الِاهوِ سادُسُهُم ، ولا أَدْنَى من ذلك ولا أَكْثَرَ الِاهوِ معهم ؛ وما تسقط من ورقةٍ ألا يعلمها ولا حَبّةٍ في ظُلُمات الأرض ولا رَطْبٍ ولا يابسٍ ألا في كِتابٍ مبين .

وتحميد ثامن يتلو الأول

الحمد لله المتعالى عن تشبيه الجاهلين ، وتحديدِ الواصفين ، وتكليفِ الناعتين ؛ يُوصَفُ لا بالعرض والطول ، ويُنتَعَتُ بغيرِ الشبَحِ المَثْمُولِ ، ويُحَدُّ لا بالخلقِ العدودِ ، والجسمِ الموجودِ ؛ بل يُتَنَاهَى من وصفه ، الى ما دَلَّ عليه من صُنْعِهِ ، ويُوَقَّفُ عليه من نَعْتِهِ ، على ما أَخْبَرَ به عن نفسه ؛ وكيف يُوصَفُ مَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ ، ويُحَدُّ مَنْ لَمْ يَحْدِهِ بَلَدٌ ؛ أو يُشَبَّهَ غَيْرُ ذِي أَعْضَاءِ ، أو يُكَيَّفَ غَيْرُ ذِي أَعْجَاءِ ؛ أَوْ رُبِّي أَوْصِفَ ، ولو وُصِفَ بِمِثْلٍ ، ولو مُشَبَّهَ لِمِثْلِهِ لَكَانَ لَهُ نَظِيرٌ ؛ سبحانه وتعالى عن ذلك عُلُوًّا كَبِيرًا . لا تُحَنَّنُ الأَقْطَارُ . ولا يَجْوِيهِ قَوَارِبُ ، ولا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وهو يدرك الأَبْصَارَ ، وهو اللطيف الخبير ؛ لا يوصف أولاده . ولا يدرك أنحراه ، ولا يُعرَفُ مَتَاهُ ؛ عَظُمَ أَنْ يَحْصِرَهُ وَهْمٌ ، وَجَلَّ أَنْ يَدْرِكَهُ فَيْهٌ ، وامتنع من أن يخاله عِلْمٌ ، ولا يُغَيِّرُهُ لَيْلٌ ولا يَوْمٌ ؛ ولا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ ولا نَوْمٌ ، له ما في السموات وما في الأرض من ذا الذى يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشئ من علمه إلا بما شاء ، وسِعَ كَرْسِيُّ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ ولا يُؤْودُهُ حِفْظُهُمَا ، وهو العلى العظيم .

وتحميد ثالث

الحمد لله الذى أَلْهَمَا من الإقرار برؤيته . والإيمان بوحدانيته ، وأنه غيرُ ذى صاحبة يسكنُ إليها من وَحْشَةٍ ، ولا ولدٍ يتكذَّبُ به من ضَعْفِ قَلْبَةٍ ، ولا شريكٍ يعاونه من عجزِ قُدْرَةٍ ، ولا ظهيرٍ يكافئه لملالِ قُدْرَةٍ ؛ ما جعل لنا به أوثق الأسبابِ لَدَيْهِ ، وأرجى الوسائلِ

اليه ؛ إذ كان من أنكر ما دللنا الإقرار به بصير يجحد ما أخنعنا الاعتراف فيه ، الى أليم عقوبته بالمعصية التي استحكت السُّخطة على أهلها ، وحلت النِّقمة بمن فارقها ؛ ثم جعلنا تبع إشراف كثير على أنفسنا في مشيئة منه ، بسط اليها آمالنا وأحسن عليها أطعنا بكرم عفوه ، وعظيم حلمه ، وسعة رحمته ، التي وعد أهل الإيمان بها ؛ إذ صار من فارقهم في ذلك بما استهوت عليهم ، بترينه لهم شياطينهم ، ورائت على أفئدتهم ... وما ظلمته^(١) قرواؤهم الى الناس من كل طمع يُجدي وخبر يُنجي ؛ جزاء بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ، إن الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، ومن يُشرك بالله فقد حبط عمله ، وهو في الآخرة من الخاسرين .

وتمجيد يتلو الثالث في هذا المقام

الحمد لله الذي ابتدع لا من شيء ما أنشأ ، وابتدأ على غير مثال ما ابتدأ ؛ فجعل كثيرا من لطائف تقديره ، وصنوف تدييره ، وتصاريف أموره ؛ مُججبا واضحة ، وآيات بينة ، وعبرا شافية ؛ تشهد له بعزة القدرة ، ونفاذ الحول والقوة ؛ فخلق مدبرا بلا مشورة أحد ، سبعا دحاهن على الماء على غير سन्द ؛ مبسوطات في تكائف أجزائهن ، على معين ماء مسخر من تحتهن ، حخر خلاهن أنهارا ، وقدر فيهن من المعاش أقواتا ، وجعل لهن من الجبال أوتادا ، ثم استوى الى السماء وهي دحان ، فقال لها وللأرض آتينا طوعا وأكرها قالنا آتينا طائعين . ففطر من الدخان في خفته على الهواء سبعا ، جعل بينهن من الجو متسعا ، سبع سموات طباقا مرفعات ، بلا دعائم قبلها ولا علاقات ، يمسكهن بقدرة أن يرتفعن فوق ما حبسن عليه ، وأن يهوين الى قرار دون ما رفعهن اليه ؛ فأتقن صنعها ، وأوحى في كل سماء أمرها ، وزين السماء الدنيا بالمصابيح النيرة ، والشهب الثاقبة ، والنجوم الواضحة ؛ وخبّر الشمس والقمر عابا للهتدين ، وسراجا للبصيرين ، ورجوما للشياطين ، وأوقاتا لاختلاف السنين ، ومعرفة لكل حين ؛ لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل

(١) في الاصل بياض . وفي العبارة اضطراب ظاهر .

سابق النهار وكل في فلك يسبحون ؛ ففضاهن سبع سموات في يومين . ولو شاء خلقها في أسرع من طرف العين ؛ إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ؛ بلا معاناة لقول ، ولا ضعف من حول ؛ ثم أسكنهن من خلقه ملائكة اصطفاهم لعبادته ، واجتباهم لتبليغ رسالته ، معصومين من أن يشركوا بالله ، ما لم يتزل به سلطانا ، وأن يقولوا على الله إفاكا وبهتاناً ؛ يسبحونه بالليل والنهار لا يفترون ولا يسأمون من عبادته ، ولا يستحسرون عن طاعته ؛ يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون .

ونحميد في فتح لابن العباس

أما بعد ، فالحمد لله الذي حمد نفسه ، وفرض حمده على خلقه ، وأعز دينه وأكرم بطاعته وأولياءه ، وأكرم طاعته بأوليائه ، فجعل جنده منهم المنصورين ، وحزبه منهم الغالبين ؛ نهج بهم سبيله ، وأقام بهم محبته ، وجاهد بهم أعداءه ، وأظهر بهم حقه ، وقمع بهم الباطل وأهله ؛ وأعلى كلمتهم ، وأيد نصرهم ، وألف لهم وبهم . ومكن لهم في الأرض ، فجعلهم أئمة وجعلهم الوارثين .

والحمد لله المعز لدينه ، المظهر لخلقه ، الناصر لخلفائه ، الممكن لحزبه ؛ المنتقم بهم ممن صدف عنه ، مؤيدا لدينه بالنصر ، ليظهره على الأديان ، وحقه بالعز ، فلا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ؛ وجنوده بالفلاح فهم الأعلون إن استنصر بهم ، والأعزون إن كادهم ؛ والأقربون منه إخلاصا وعملا ؛ حمدا يؤازر نعمه ، ويمتري بمثله فواضله ومزيده .

وله في فتح ابن البعيث لما ظفر به

أما بعد ، فالحمد لله ناصر أنبيائه وخلفائه ، وهادي أوليائه ، وأولياء الحق وحزب الهدى ؛ الذين أقام بهم سبل الرشاد ، ونصب بهم مناهج الدين ، فأظهره على الدين كله ولو كره المشركون .

وله صدر كتاب الخميس في تمجيد الله وتمجيده

أما بعد ، فالحمد لله الذي جلت نعمه ، وتظاهرت منته ، وتتابعت أياديه ، وعم إحسانه ، إليه كل شيء وخالفه ، وبارئه ومصوره ، والكاثر قبلة ، والباقي بعده ، كما قال في كتابه : ((كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)) . العالی فی مشیتته والقاهر فوق عباده ، المتعالی عن شبه خلقه ، ليس كمثل شيء وهو السميع البصير ، خالق العباد بقدرته ، وهدهم برحمته ، وأوضح لهم السبيل الى معرفته بما نصب لهم من دلائله ، وأراهم من عبره ، وصرفهم فيه من صنعه ، كما قال جل جلاله : ((الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ)) .

وذلك كله من خلقه إياهم بتمثله ما مثل لهم من الدلائل التي نصبها لهم ، والأعلام التي جعلها إزاء قلوبهم ، وأسماعهم وأبصارهم ، ويسر لهم خواطرم وفكرهم ، والهيئة التي היאهم لها ليقع الأمر والنهي عليهم ، فلا يكلفهم فوق طاقتهم ، ولا يُجشّمهم ما يقصر عنه وسعهم ، نظرا منه تبارك وتعالى إليهم ورحمة بهم ؛ ليؤمنوا به ويعبدوه ، فيستحقوا به رحمته ورضوانه ، والخلود في النعيم المقيم ، والظلّ المديد ، والعيش الدائم ؛ كما قال تعالى ذكره : ((إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)) . وكان من نظره ورأفته بهم أن يبعث فيهم أنبياء ورسله ، يدعونهم الى طاعته ، ويبينون لهم هُداة ، ويوصّون لهم سبيله ؛ ويهدونهم الى رحمته ، ويعدونهم ثوابه ، وينذرونهم عقابه ، ويسطون لهم توبته ، ويحذرونهم سُخطه ، ويبينون لهم سنته وشرائعه ، ويكشفون لهم مواظله ، ويعلمونهم كتابه وحِكْمته ، كما قال تبارك وتعالى : ((لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيْنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَن بَيْنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ)) . وكان من رأفته بهم ، ونظره لهم ، أن بعثهم بالحقّ الظاهرة ، والأعلام البينة ، والشواهد الناطقة ، التي أظهر بها صدقهم ، وأقام بها برهانهم ، وأوضح

بها دليلهم ، وأثابهم عمَل سواهم ، ليكون أدعى لهم الى تصديقهم ، والقبول عنهم ، وأؤكد للحجة على من أبى ذلك منهم .

وتحميد أحمد بن يوسف في صدر رسالة الخميس التي كانت تقرأ بخراسان

أما بعد، فالحمد لله القادرِ القاهرِ، الباعث الوارث، ذى العز والسلطان ، والنور والبرهان ، فاطر السماء والأرض وما بينهما ، والمتقدم بالمرتب والطول على أهلها؛ قبل استحقاقهم لمؤوبته ، بالمحافظة على شرائع طاعته ، الذى جعل ما أودع عباده من نعمته ، دليلا هاديا لهم إلى معرفته ، بما أفادهم من الألباب ، التى يقهون بها فصل الخطاب ؛ حتى آقتنوا علم موارد الاختبار ، وثقفوا مصادر الاعتبار ، وحكموا على ما بطن بما ظهر ، وعلى ما غاب بما حضر ؛ واستدلوا بما أراهم من بالغ حكمته ، ومثقت صنعته ، وحاجة مترايل خلقه ومُتواصله ، الى القوام بما يلمه ويصلحه ، على أت له بارئا هو أنشأه وابتدأه ، ويسر بعضه لبعض ، فكان من أقرب وجودهم ، ما يباشرون به من أنفسهم ؛ فى تصرف أحوالهم ، وفنون انتقالها ، وما يُظهرون عليه من العجز عن التأتى لما تكلمت به قواهم ، وتمت به أدواتهم ، مع أثر التدبير والتقدير فيهم ، حتى صاروا الى الخلقسة المحككة ، والصورة المعجبة ، ليس لهم فى شىء منها تطفئ يتيمونه ، ولا مقصد يعتمدونه من أنفسهم ؛ فإنه قال تعالى ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّبَكَ رَبِّكَ الْأَلَدَى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَبَّكَ ﴾ . وما يتفكرون فيه من خلق السماء ، وما يجرى فيها من الشمس والقمر ، والنجوم مسخرات على مسير لا يثبت العالم إلا به ، من تصاريف الأزمنة ، التى بها صلاح الحرث والنسل ، وإحياء الأرض ، ولقاح النبات والأشجار ، وتعاور الليل والنهار ، ومتر الشهور والأيام ؛ والسنين التى تُحصى بها الأوقات ؛ ثم ما يوجد من دليل التركيب ، فى طبقات السقف المرفوع ، والمهاد الموضوع ، باختلاف أجزائه والتتامها ، وخرق الانهار ، وإرساء الجبال ، ومن التمام الشاهد على ما أخبر الله به من إنشائه الخلق وحدوثه بعد أن لم يكن ، مُترقيا فى السماء ، وشباته الى أجله فى البقاء ، ثم تحاره مُتفضيا الى آخر القناء ؛ ولم يكن له

مُفْتَحُ عَدَدٍ ، وَلَا مُنْقَطِعُ أَمْدٍ ، وَمَا زَادَ بِشَوْءٍ ، وَلَا تَحَيَّفُهُ تَقْصَانٌ ، وَلَا تَفَاوَتْ عَلَى الْأَزْمَانِ ، لِأَنَّ مَا لَا حَدَّ لَهُ وَلَا نِهَايَةَ ، غَيْرُ مُمَكِّنِ الْإِحْتِمَالِ لِلتَّقْصِ وَالزِّيَادَةِ ؛ ثُمَّ أَجْرَى فِيمَا ذَكَرَ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ وَخَلْقِ الْإِنْسَانِ إِلَى ذِكْرِ مَا تَفَضَّلَ اللَّهُ بِهِ عَلَى عِبَادِهِ الْأَنْبِيَاءِ ، وَمَا اخْتَصَمَهُ بِهِ مِنْ مَبْعَثِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، إِلَى ذِكْرِ الْخُلَفَاءِ أَوَّلًا ، ثُمَّ إِلَى ذِكْرِ الْمَأْمُونِ وَدَوْلَتِهِ .

وتحميد للعباس في مقام له بين يدي المأمون

الحمد لله على نعمه علينا ، وإحسانه إلينا ، بالأرض المبسوطة ، والسماء المرفوعة ، والرياح المسخرة ، والأمطار النازلة ، والأوقات القائمة ، والمنافع الدائمة ، والدين المبين ، والأدب القويم ؛ حمداً يكون إليه صاعداً ، ولديه نامياً ، ولملكوته مالئاً ؛ والحمد لله حمداً يثبت رضوانه ، ويورث إحسانه ، ويوجب مزيده ؛ فهو المنعم المحمود ، والمتطول المشكور ؛ لا إله إلا هو لا شريك له ، كما شهد الله وملائكته قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم .

وتحميد لعبد الحميد في أبي العلاء الحروري

الحمد لله الناصر لدينه ، وأوليائه وخلفائه ، المظهر للحق وأهله ، والمبدل لأعدائه وأهل البدعة والضلالة ؛ الذي لم يجمع بين حق وباطل ، وأهل طاعة ومعصية ، إلا جعل النصرة والفلاح والعاقبة لأهل حقه وطاعته ، وجعل الخزي والذل والصغار ، على أهل الباطل والخلاف والمعصية ؛ حمداً يتقبله ويرضاه ، ويوجب به لأمر المؤمنين وأهل طاعته الزيادة التي وعد من شكره ؛ والحمد لله على ما يتسول من إعزاز أمير المؤمنين ونصره وإفلاجه وإظهار حقه ، على ما وقع بأعدائه وأهل معصيته والخلاف عليه من سطواته ونقباته وبأسه ، فيما ولي أمير المؤمنين من موالاته من الإله ، وعداوة من بنى عليه وعاداه ؛ لا يكفه في شيء من الأمور إلى نفسه ، ولا إلى حوله وقوته ومكيدته ، فإنه لا حول ولا قوة لأمر المؤمنين إلا به .

وتحميد في آخر فتح

الحمد لله المُعزِّدِ لدينه ، المُظهِرِ لحقّه ، الناصِرِ لأوليائه ، المُنتقمِ من أعدائه أهل الكفر ؛ المُنزِلِ بهم من بأسه ، وتَقَمُّنته وجَوائِحه ؛ الذي لم يجمع بين أهل حقّه ، وباطل عدوّه ، في مَوطِنٍ من مواطنِ التحاكُم ، إلّا جعل فيه لأوليائه الظفر ، وأفرغ عليهم الصبر ، ومنحهم النصر ؛ وجعل الدائرة وسوء العاقبة على عدوه ، وأهل الكفر ؛ حمدا كثيرا يرضاه من الشكر ، ويحسُن به المزيد .

وتحميد في فتح الى أمير لقمامة

الحمد لله الفُتّاح العليم ، الذي خَصَّ الأميرَ بأفضل الكرامة وأتمَّ النعمة ؛ وأحسَّن الولاية ، وأعظم الكفاية ؛ وحفظ ما استرعاه ، وأعزَّ أوليائه ، وقمع بالمدَّة أعداءه ، وجعل حسن العاقبة له ولأهل طاعته ، ودائرة السوء على أهل معاندته ؛ حمدا يحسُن به القضاء ، وتزيد به النعماء .

وصدر تحميد لغسان بن عبد الحميد في خطبة موجزة

الحمد لله الذي لا يدرك خيره إلّا برحمته ، ولا يُنَالُ الفضلُ إلّا بنعمته ؛ وليّ التوسيد للחסنات ، والعصمة من السيئات .

تحميد لعبد الحميد في فتح

الحمد لله العليّ مكانه ، المنير برهانه ، العزيز سلطانه ، الثابتة كلماته ، الشافية آياته ، النافذ قضاؤه ، الصادق وعده ، الذي قدر على خلقه بملكه ، وعزّ في سماواته بعظمته ، ودبر الأمور بعلمه ، وقدرها بحلمه ، على ما يشاء من عزّمه ؛ مُبتدعا لها بإنشائه إياها ، وقدرته عليها ، واستصغارها عظيمهما ، نافذة إرادته فيها ، لا تجرى إلّا على تقديره ، ولا تنتهي إلّا الى تأجيله ، ولا تقع إلّا على سبق من حتمه ؛ على كلّ ذلك بلطفه وقدرته ، وتصريف وحيه ؛ لا معدل لها عنه ، ولا سبيل لها غيره ، ولا علم أحدٌ بخفاياها ومعادها إلّا هو ؛ فإنه يقول في كتابه الصادق : وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ ... إلى آخر الآيات .

وتحميد ثالث

الحمد لله الذى علا بالجُحْب التى آستر بها عن جميع خَلْقِه ، وأسْتغنى بها عنهم لما تَوَحَّد به دونهم من عبادة الذين فطَرهم على المعرفة ، رءوفا عليهم بَمَنِّه ومُتَطَوِّلا وهو فيما يُمِضى من أقداره ، مفصلا لهم بابتدائه خَلْقهم فى أحسن تقويم ، وإعطائه إياهم عاجل كل خير مقسوم ، وتسخيره لهم جميع ما فى السموات والأرض ، وبَسْطه لهم فى معاشهم أوسع الرزق ، وإسباغه عليهم فيما أفضل النعم التى لَطُفت فبطنت ، وعظُمت فظهرت ، وليست فعمت ، وانتشرت بخلَّت ، وكثرت فلا يحصيها عاد ، وجُزئت فلا يؤدى حق ما أقرض منها شاكر ، فإنه يقول : ﴿ وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

والحمد لله الذى لم يقتصِر بهم فى إكرامه وتفضيله إياهم على عاجل ، فإنه مُضْمَحِل زائل مما أعظام إياه ولم يكلمهم فى معرفة خالقهم تبارك وتعالى ، ومُتَوِّى النعم عليهم ، والاحسان اليهم ، والارتياش لهم ؛ ولا فى مُبتغى سبيل طاعته ، وأداء حقه ، وشكر نِعْمته ، واستيجاب غبطة المعاد اليه الى أن يعوا ذلك بعقولهم ، والنظر فيه بألبابهم ، والتصريف له على أهوائهم ؛ فإنه لو أبلغنا ذلك اليهم ، وأفردهم فيه الى أنفسهم ، ووكلمهم فيما أمرهم به الى مقدرتهم ، لحارت عنه منهم الأبصار ، ولناهت فيه منهم العقول ، ولأضلهم عن قصده العمى ، ولمال بهم الى غيره الهوى ، ولا استحكم عليهم ترك الردى ؛ ولكنه بعث فيها أنبياء الهادين ، يدعونهم الى الصراط المستقيم ، بنوره المضىء ، ودينه القويم ، وآياته البينة ، وكُتبه الفارقة التى بين فيها بحابه ومكروهه ، وطاعته ومعصيته ، وثواب الفريقين فى ذلك من عباده ليحذروا ما حذرهم فيه من سُخطه ، ونزل بهم فيه من نِقْمته ؛ وليسارعوا فيما جعل لأهله به الى أفضل المثوبة ، وأحسن العاقبة فى الدنيا والآخرة ، وكشَف لهم الجهالة ، وهدى من الضلالة ، وبصرهم سبيل الحق ، وبين لهم معالم الإسلام ، ليرجع جائز ، ويقصد زائغ ، ويعرف جاهل ، وليعبد الرب بما وحد به نفسه ، وليستبين العلم ، ويستضىء الحق ، وليتغنى من الله الثواب بلزوم دينه الذى شرع ، وأداء فرائضه التى قرَض ، وإيثار طاعته التى أوجب ، ويكون لله

الحجة البالغة على عباده فيما تركوا من ذلك وسفّوها بعد استبانتهم لهم ، واستفاضته فيهم وإعذاره اليهم ، فانه يقول : ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيْنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيْنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ ويقول ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَسَنَىٰ ﴾ .

للأنس بن أبي شيخ

الحمد لله الذي بالقلوب معرفته ، وبالعقول محجته ، الذي بعث محمدا صلى الله عليه وسلم آمينا فوق له ، ومبلغا فأدى عنه ففتح به المنكر ، وتآلف به المدبر ، وثبت به المستبصر ، الى أن توفاه على منهاج طاعته ، وشرعة دينه ، ثم أورثكم عهدَه وخصمكم بكلمة التقوى ، وجعلكم الأمة الوسطى .

ولعبد الحميد في ففتح

يُعَظَّمُ فِيهِ أَمْرَ الْإِسْلَامِ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
أما بعد ، فالحمد لله الذي أصطفى الإسلام ديناً رضى شرائعه ، وبين أحكامه ونور هداياه ، ثم كنفه بالعز المؤبد ، وأيده بالظفر القاهر ، وأزره بالسعادة المنتجة ، وجعل من قام به داعيا اليه من جنده الغالبين ، وأنصاره المسطّين ، كلما قهر بهم مناونا أورثهم رباعتم المأمولة ، وأمواهم المثرية ، ودارهم الفسيحة ، ودولتهم المطوية ، أصرا حتمه على نفسه ، ثم جعل من عاندهم وأبتغى غير سبيلهم مسلما قد آستهوته ذلة الكفر بظلمها ، وحيرة الجهالة بجوارها ، وتيه الشقاء بمغاويه ، وكلما ازدادوا لدعوة الحق إباء ، ازداد الحق اليهم آزلافا ، وعليهم عكوفاً ، وفيهم إقامة ، الى أن يحل بهم عز الغلبة ، ونجاة المتجاوز ، راغبين فيما شوقهم اليه ، مُحَاطِظِينَ عَلَى مَا نَدَّبَهُمْ لَهُ ، قد بذلوا في طاعة الله دماءهم ، وقبّلوا المعرض عليهم في مبايعة ربهم لهم بأنفسهم الجنة . محمود صبرهم ، مسهل بهم عزهم ، الى خير الدنيا والآخرة .

والحمد لله الذي أكرم محمدا صلى الله عليه وسلم بما حفظ له من أمور أمته ، أن اختار لموارث نبوته ما أصار الى أمير المؤمنين من تطويقه ما حمل بحسن نبؤيه به وضح عليه ، ومأففة فيه . أن فعل وفعل . والحمد لله الذي تم وعده لرسوله وحليفته في أمة نبيه مسددا

له فيما أعتزم عليه . والحمد لله المعزّ لدينه ، المتولّي نصرأتمته بنبّيه المتخلّي من عاداهم وناوأمهم ، حمداً يزيد به من رضى شُكره ، وحمداً يعلو حمداً الحامدين من أوليائه الذين تكاملت عليهم نعمه فلا توصف ، وجلت أياديده فلا تُحصى ، الذى حمّلنا ما لا قوة بنا على شكره إلا بعونه ، وبالله يستعين أمير المؤمنين على ذلك ، واليه يرغب ، إنه على كل شىء قدير .

ولعبد الحميد أيضاً

أما بعد ، فالحمد لله الذى اصطفى الإسلام لنفسه ، وأرتضاه ديناً لملائكته ، وأهل طاعته من عباده ، وجعله رحمةً وكرامةً ونجاةً وسعادةً لمن هدى به من خلقه ، وأكرمهم وفضّلهم وجعلهم بما أنعم عليهم منه أولياءه المقربين ، وحزبه الغالبين ، وجنده المنصورين ، وتوكل لهم بالظهور والفلج ، وقضى لهم بالعلو والتمكين ، وجعل من خالفه وعزّب عنه وابتغى سبيل غيره أعداءه الأقلين ، وأولياء الشيطان الأخرسين ، وأهل الضلالة الأسفلين ، مع ما عليهم فى دنياهم من الذل والصغار ، وما عجل لهم فيها من الخذلان والانتقام ، إلى ما أعد لهم فى آخرتهم من الخزي والهوان المقيم ، والعذاب الأليم ، إنه عزيزٌ ذو انتقام .

وفى ذكر الإسلام وأهله وما فضّلهم الله تعالى به

أما بعد ، فالحمد لله الذى عظم الإسلام تعظيماً ، وفضّله تفضيلاً ، فلم يبق ملك مقرب ، ولا نبي مرسل ، ولا إمام لأهل حق مهتدٍ إلا دانّ به ، واتّصل الى ولاية الله بما هداه له منه ، وليس فى دين الله الذى ارتضى ، وخيرته من أهل الإسلام الذين اصطفى ، تغاشم ولا تظالم ، ولا تجاسد ، ولا تقاطع ولا تدابر ، ولكنهم كما وصفهم الله عزّ وجلّ بالتبائر والتراحم ، والتوادّ والتناصّف ، قلوبهم متفقتة ، وأهواؤهم مؤتلفة ، وأيديهم على أهل معصيته مبسوطة ، أعوانا على الحق ، وإخوانا فى الدين ، ألفت الله بينهم ، وجعل الإسلام نسبهم ، فقال فى كتابه : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ ... ﴾ الى آخر الآية . فهذه صفة الله أهل دينه فيما بينهم ، وكذلك كان أسلاف الحق قبلهم ، فى توادّ وتبائرهم ، وتواصلهم وتعاونهم ، وبذلك دانّ أهل السماء ، فلم يختلّفوا فيه ، ولم يرغبوا عنه ، ولم يمتدوا مثالا غيره ، وبه يدين

لله الباقون من خلقه ، المتمسكون بحقه الى يوم القيامة ، سنة مسنونه ، وشريعة متبوعة ، لا يتبنون بها بدلا ، ولا يريدون عنها حولا ، فأهل طاعة الله أهل سلامة في دنياهم ، وإخوان كما قال الله عز وجل في آحرتهم ، لم تقطع الولاية فيما بينهم ، لانقطاع الدنيا عنهم ، ولكن الله وصلها بالآخرة لهم ، فجمعهم في داره وجواره ، كما آلف في الدنيا بين قلوبهم ، وعصم بالإسلام أفتهم .

تحميد

الحمد لله المنيب على حمده وهو ابتداءؤه ، والمنعم بشكره وعليه جزاؤه ، والمثني بالإيمان وهو عطاؤه .

ولقأمه

الحمد لله الذي أكرم الإسلام وفضله ، وشرفه وعظمه ، وأعلى منزلته ، وجعل أهله القائمين به ، والحامدين عليه ، وأولياءه وحزبه الذين قضى لهم بالتمكين ، والظهور على الدين كله ولو كره المشركون .

ولزيد بن علي رحمة الله عليه خطبة

الحمد لله الواصل النعم بالشكر ، والشكر بالمزيد ، حمد من يعلم أن الحمد فريضة واجبة ، وأن تركه خطيئة مهلكة ، وأومن بالله إيمانا نفى إخلاصه الشرك ، وبقينه الشك ، وأتوكل عليه توكل الواثق به ثقة أهل الرجاء ، ومفزع أهل التوكل .

تحميد في الإسلام

الحمد لله الذي آختر الإسلام ديناً لنفسه ، وأنبيائه ورسله ، وشرفه وعظمه ، وأناره ، وأظهره ، ونزهه وأعزه ومنعه ، ولم يقبل غيره ، ولم يجعل حُسن الجزاء إلا لأهله ، الذين كتب لمن أسعده بالوليعة فيه منهم الرضوان والمغفرة والرافة ، وعلى من خالفه وابتغى غير سبيله الحسرة والندامة ، والدلة والصغار في الآخرة والأولى ، والمات والمحميا ، إذ يقول الله عز وجل (وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ)

والحمد لله الذي اجتبي محمداً صلى الله عليه وسلم بما اصطفاه من نبوته ، واختاره له من رسالته ، وجبّه بفضيلته ، وأجابه من أفضل عمائر العرب ، وأشرفها منصباً ، وأعرقها حسباً ، وأكرمها نسباً ، وأوراها زناداً ، وأرفعها عماداً ، فبعثه بالنور ساطعاً ، وبالحق صادقاً ، وبالهدى آمراً ، وعن الكفر زاجراً ، وعلى النبيين مُهيمناً ، وإلى سبيل ربّه داعياً ، وبالكتاب عاملاً ، فبلغ عن الله الرسالة ، وهدى من الضلالة ، وانتاش من الهلكة ، وأنجج معالم الدين وأدى فرائضه ، وبين شرائعه ، وأوضح سننه ، ونصح لأُمَّته ، وجاهد في سبيل الله حق جهاده حتى أتاه اليقين ، صلى الله عليه وسلم .

تحميد لأبي عميد الله

الحمد لله الذي شرع لظهار حقه وإنفاذ سابق قضائه فيمن ذرأ وبراً من عباده ، بإدخال من أراد أن يدخل في رحمته ، وإنجاز ما حق له من العبادة على خلقه ، بابتدائه خلقهم ، ومظاهرتة الآلاء عليهم ، وإحسانه البلاء عندهم ، وإبلاغه في الحجج إلى عامتهم ، ديناً رضيهم لنفسه وملائكته الذين أسكن سماواته ورسله ، فأتمن على وجه من لم يرض إلا به ، ولم يقبل إلا إياه ، ثم كان ما أعز به نفسه ، وأظهر به نوره ، وأراد أن يسلوبه عباده ، تحقيقاً لما سبق به علمه ، وإنفاذاً لما جرت به مقاديره ، أن بعث لما شرع من دينه ، وأصطفى لتسبيحه وتقديسه من ملائكته المقربين ، من ارتضى واختار من أنبيائه ورسله المحبتين ، لتبليغ رسالته وإظهار حقه ، وأستشلاء^(١) من أراد سعادته من خلقه بالرحمة التي أطلعت عليهم وعمتهم ، ليعبد مخلصاً له ، محموداً بما استحمد به إلى خلقه ، مشهوداً له بما أشهد به من كلمة الحق ، فكان منهم التبليغ لما أرسلوا به ، والنصيحة لمن أرسلوا إليه ، غير مختلفين فيما بعثوا له ، ولا متفرقين فيما استعملوا فيه ، يدعوهم آخر إلى ما دعاهم إليه أول ، فيصدق بذلك بعضهم بعضاً ، ويهدون إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، فمضت رسل الله وأنبيائه على ذلك سالكين منهاج الحق وسبيله ، والدعاء إلى الله عز وجل وإلى

(١) الاستشلاء : الاقناذ .

طاعته، هادين مهديين غير مبخوسين شيئاً مما كانوا أهله في المنزلة عند الله، والقربة منه، والوسيلة إليه، هم ومن آمن بهم وعززهم، وأتبع النور الذي أنزل معهم، حتى تقضت بهم الأعمار، وتقطعت بهم الآثار، وتحرمتم الاجال .

وكذا لأبي عبيد الله

الحمد لله الذي جعل الإسلام رحمةً قدمها لعباده قبل خلقه إياهم، واستيجابهم إياها منه، فاصطفاه لنفسه وشرعه لهم ديناً يدينون به، ثم جعل تحديده وحيه ومتابعة رسله رحمةً تلافاهم بها بعد تقديمها، ومِنَّةً ظاهرها عليهم قبل استيجابهم لها، تطولاً على العباد بالنعاء، وإعذارا إليهم بالحجج، وتقدمة بالوعد، وإنذاراً إليهم عواقب سخطة في المعاد .

والحمد لله الذي ابتعث محمداً صلى الله عليه وسلم بهداه وشرائع حقه على قرة من الرسل، وطُموس من معالم الحق، ودروس من سبل الهدى، عند الوقت الذي بلغ في سابق علمه ومقاديره، أن يجتبي لدينه الأصفياء، ويختار له الأولياء، الظاهرين بجمعه، القاهرين لمن ابتغى سبيلاً غير سبيله، فعظم حرمة، ووسع حوزته، وصدع بأمره، وجاهد عن حقه في حومات الضلالة وظلمات الكفر، بالحق المبين، والسراج المنير، ثم جعله مصدقاً لمن سبقه من الرسل ومُجدداً لما بعثوا له وهدى ورحمةً به، ثم جعل لدينه وظائف وظفها على أهله، وشرائع شرعها لهم لا يكفل دينهم إلا بها، وجعل أداها إليه، واعتصامهم بها إماماً لدينه، ونظاماً لنوره، وقواماً لحقه، واستيجاباً لما وعد عليه من ثوابه، وأماناً لما أوعده من خالفه من عقابه، فليس يسع أهل الإيمان بالله الذين أكرمهم به وأجزل لهم فضله وأجره، وجعل لهم عزه وعلوه، واختار لهم الغلبة والعاقبة على من فارقه في إلامعرفتها، وأداؤها بما يستكمل به حدودها، ومآلها من كذا وكذا .

إبراهيم بن المهدي — صدر رسالة له في الخميس

الحمد لله الذي اختار الإسلام ديناً لنفسه، ورضى أن يعبدَه من في سمواته من الملائكة المقربين، ومن في أرضه من النبيين والمرسلين، ومن آمن بالنور الذي هداهم له من الثقلين،

واختار لرسالته في سابق علمه ، والذكر الحكيم عنده ، محمداً صلى الله عليه وسلم ، وأنزل عليه كتابه وجعل طاعته وطاعة نبيه صلى الله عليه وسلم موصولةً بكذا فقال : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ .

تحميد

الحمد لله المتكبر في جبروته المتعزِّز بسلطانه ، المتعالى في سمواته ، المحتجب عن خلقه ، فلا تُدرکه في الدنيا أَبصارُ الناظرين ، ولا تُحيط به أوهامُ المتوهِّمين ، ولا تبُلغه صفاتُ الواصفين ، الذى لا يؤوده عظيم ، ولا يفوته مطلوب ، ولا يعجزه شئٌ في الأرض ولا في السماء ، وهو السميع العليم .

تحميد آخر

الحمد لله الحكيم العدل ، الذى فصل بين الحق والباطل ، فنفذ قضاؤه في خلقه ، وحكم فيهم بحكمه على إرادته ، يقضى بالنصر والتأييد ، والعز والفلج ، والتمكين للحق وأهله ، وبالذل والوقم والحزى والصغار للباطل وأهله ، وجعل ذلك من فضله وحكمه عادةً جاريةً باقيةً ، وستة ماضيةً ، لا رادَّ فيما قضى منه لقضائه .

والحمد لله الذى اختص محمداً صلى الله عليه بكراماته ، واصطغمه لرسالته ، وأنزل عليه كتابه العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيم حميد ، بما أحل وحرّم ، ورضى وسخط ، وأمر به ونهى عنه ، وجعله خاتم النبیین والمُهمِّين عليهم ، وكتابه الذى أنزل ، آخر الكتب المصدق بها النبي صلى الله عليه وسلم .

تحميد في الإسلام وما أمتن به على أهله من مبعث النبي

صلى الله عليه وسلم ، وهو في صدر الجهاد

أما بعد ، فإنّ لدين الله الذى ارتضاه لنفسه ، ولین اصطفاه من خلقه ، واجتباه من عباده وجعله معاً بين الهدى والضلالة ، وفُرقانا بين الحق والباطل ، وحاجرا بين الكُفر والإيمان ، وظائف وظفها على أهلها ، وشرائع شرعها لهم ، بفعل أداءها إليه ومعرفتها له ، ومحافظتهم عليها ،

واعصامهم بها قواما لدينه، ونظاما لنوره وثباتا لحقه، واستجابا لما وعد من ثوابه، وأما لما أوعد من عقابه؛ فليس يسع أهل الإيمان بالله والإقامة على حقه من المسلمين الذين سماهم المسلمين بالإسلام، وأحرز لهم فضله وعزه، وأصار لهم الغلبة على من خالفهم وفارقهم بما ركنوا إليه من الصدود عن سبيله، والتكذيب بكتبه ورسليه، ودلتهم فيه قُرباؤهم، وقادتهم إليه أهواؤهم، من الملل الضالة، والأديان المجموعة، التي لم يتزل بها من الله سلطانٌ، ولا تابٌ ولا برهان، إلا معرفتها وأداؤها بما يُستكمل من حُددها ومعالمها .

تحميد في الجهاد وما بعث به النبي صلى الله عليه وسلم

أما بعد، فإن الله خلق الخلائق بقدرته، وقدر الأمور بعلمه، وأنفذ على ما مضى من مشيئته، من غير أن يكون له ظهير في ملكه، أو معين على ما يرى من عجائب خلقه، واحتذاء منه على سابق من صنعة غيره، فوحد نفسه بما تفرد به دون غيره من خلقه، ليُعبد مُخلصا مبرا من الأنداد، إتماما لنوره، وتعزيزا لتوحيده، وتأييدا لدينه، وإعلاء لمن أعظم به، وإفلالا لمن خالعه وعند عنه وعبد غيره، وإحقاقا لكلمته، فإنه يقول: ﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ الآية؛ بذلك أنزل كتبه، وأرسل رُسله، واحتج بهم وبما أنزل إليهم على من مضى من القرون السالفة، والأمم الخالية، يدعو آخرهم إلى ما سبق إليه أولهم، من عبادته وتوحيده، لا يستوحشون من قلة، ولا يؤتون من كثرة؛ يعزهم الله بقوته، ويُؤيدهم بجنده، وينصرهم وينصرهم إلى أن بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم بما خصهم به، وجعله مُصدقا لهم، ومهيمننا عليهم، وخاتم النبيين بعدهم؛ يمضي لأمر الله، ويجاهد من لم يبيح له الدخول في دين الله، فأظهره الله وأثار حقه، وأرهب عدوه، وأنجز له ما وعده وأتم بذلك النعمة عليه وعلى من أتبعه، فإنه يقول: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى﴾ .

تحميد في فتح

الحمد لله الفتح العليم، الرحمن الرحيم، العزيز الحكيم، الذي أعز الإسلام بقدرته، وأيده بنصره؛ فلم يُجد فيه مُحدداً، ويسع في تشتيت الكلمة وشق العصا سباع، ويوضع

في الكفر والمعصية مَوْضِعٌ ، ويمتنع من فضائه وإرادته مُمْتَنِعٌ إِلَّا أَدَلَّهُ اللهُ وَقَصَمَهُ ، وَأَضْرَعَ خَدَّهُ ، وَأَنْعَسَ جَدَّهُ ، وَضَلَّ سَعِيَهُ ، وَعَجَّلَ بَوَارِهِ وَاسْتَنْصَالَهُ ؛ حَمْدًا دَائِمًا لَا انْقِطَاعَ لَهُ ، وَلَا نِفَادَ لِمُدَّتِهِ .

تحميد ثامن

والحمد لله الذي اختار الإسلام وشرفه ، وكرمه وطهره ، وأظهره وأعزّه ، وفطر عليه ملائكتَه ، وبعث به أنبياءه ورُسلَه ، واختار له خيرته من خلقه محمدًا صلى الله عليه ، فبعثه برسالته ، وأكرمَه بوحيه ، وأصطفاه على خلقه ؛ يُبَشِّرُ بِالْجَنَّةِ مَنْ أَطَاعَهُ ، وَيُنذِرُ بِالنَّارِ مَنْ عَصَاهُ ؛ وَجَعَلَهُ دِينَهُ الْقِيمَ الَّذِي لَا يَقْبَلُ دِينًا غَيْرَهُ وَلَا يُثِيبُ أَحَدًا إِلَّا عَلَيْهِ .

تحميد في فتح

الحمد لله العزيز في ملكوته القاهر فوق بريته ، الذي خلق الخلق بقدرته ، وأنفذ فيهم إرادته وسئتيه ، وقدّر كل شيء وأتقنه وأحكمه ، وأحاط علمًا به ؛ فلا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين .

صدر تحميد في فتح

الحمد لله الذي ابتدع الخلق لا من شيء ، وجعل الليل والنهار كهفًا ومَسْتَجِنًا لكلٍ حتى ؛ بِقُدْرَتِهِ تَجَرَّتِ الْبِحَارُ ، وَجَرَّتْ لِمَوَاقِيَتِهَا الْأَنْهَارُ ؛ فِدَارٌ وَتَطَارِدُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ .

والحمد لله الذي فات بعظمته أبصار المرتئين ، وعلا بجده عن خَطَرَاتِ الْحَاسِبِينَ ، وَأَحْتَجَبَ بِأَسْتَارِ جَبْرُوتِهِ عَنِ مَوَاقِعِ فِكْرِ الْمُحْصِلِينَ الْمُتَعَمِّقِينَ ؛ فَلَمْ تَحْوِهِ الْكَيْفِيَّةُ ، وَلَمْ يَقَعْ عَلَيْهِ أَدْوَاتُ التَّحْصِيلِ وَالْكَفِيَّةِ ، وَلَا أُدْرِكُهُ هَاجِسُ تَبْعِيضٍ وَلَا كَلْبِيَّةٌ ، وَلَمْ يُنْسَبْ إِلَى زِيَادَةٍ فِي حِينٍ ، وَلَا إِلَى تَقْصِيرٍ فِي شَهْوَرٍ وَلَا سَنِينَ ، فَكُلُّ أَمْرِهِ — عَزَّ جَلَالُهُ — تَمَامٌ وَدَوَامٌ ، وَكُلُّ صِفَاتِ صَنْعِهِ أَعْتَدَالٌ وَكِبَالٌ ؛ وَكُلُّ مَا دُونَهُ يَحْتَكِمُ فِيهِ الْفَنَاءَ وَالزَّوَالَ ، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ .

والحمد لله الذى عرفنا ربوبيتة إماما ، ونهج لنا سُبُلَ طاعته متا وإكراما، وتعبدا
بفرضه تقويما وتعلينا وأمتنانا؛ فقامت علينا وعلى الخلق مُجْتَمَعَةً ، بالصّادع بأمره ، والمُبلِّغ
لرسالته ، والمُجاهد فيه حقّ جهاده، مجد صلى الله عليه وسلم . والحمد لله الذى أعزّ دينه ، وأظهر
تَمَكِينَه ، ونصرَ وليه ، وخدَل عدوه ، وأوقع بأسه ونقمته بمحلّ الفرية ، وجُرثومة الضلالة ،
ومناخ الشرك ، ومركز الكفر؛ بعد طول الإملاء ، والاعتداء فى سفك الدماء ، والمُثَلَّة
بالأسرى ، وقلة المُرَاقبة والأرعواء .

تحميد

الحمد لله حمدا يكون رضاه متناه ، والمزِيدُ من فضله جِزَاءَه . والحمد لله حمدا اليه يتناهى
حمد الحامدين ، وشكرُ الشاكرين . والحمد لله الذى لا تُمَحْصَى نِعَمَاهُ ، ولا تُحْجَرَى آلاؤُهُ ، ولا
يُكَافَأُ بِلَاؤُهُ ، ولا يُبْلَغُ شُكْرُهُ إِلَّا بِمَنَّةٍ وتوفيقه ؛ حمدا يرضاه ويتقبّله ، ويزكو لديه ، ويوجب
ما تأذن للشاكرين من يده .

تحميد على فتح

أما بعد ، فالحمد لله الواحد القهار ، العزيز الجبار ، ذى المُنِّ والإِنعام ، والجلال والإكرام ؛
الذى أصطفى الإسلام دينا ، وأصطفى له من عباده أهلا هداهم له ، وأكرمهم به وبيت
لهم ما يأتون ، ولم يتركهم فى ريب من أمرهم ، ولا شبهة من دينهم ؛ فله المِجْزَى البالغة ليهلك
من هلك عن بينة ، ويحيى من حي عن بينة ، وإن الله لسميع عليم .

والحمد لله الذى ختم محمد صلى الله عليه وسلم النبوة ، وأتعبه لتبليغ الرسالة ، وبعثه إلى
خَلْقِهِ كافة ، قبَلْ رسالته ، وصدع بأمره ، وقام فيما بعثه له بحقه ، ثم أنجز له وعده ، وأتم له
كَلِمَتَهُ ، وأظهر دين الإسلام به على الدّين كُلِّهِ ولو كره المشركون .

تحميد فى فتح

أما بعد ، فالحمد لله الأوّل الآخر ، الظاهر الباطن ، الولي الحميد ، القويّ العزيز ؛
الذى لا يقدر العبادُ قدره ، ولا يُحْصون نعمه ، ولا يبلغون شكره ؛ المحيط بكلّ شيء عالما ،

والمُحصَى كُلُّ شَيْءٍ عَدَدًا؛ فَلَا يُعْجِزُهُ كَبِيرٌ، وَلَا يُعْزِبُ عَنْهُ صَغِيرٌ، وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ .

تحميد

الحمد لله المتوحد بالخلق والأمر، قادرا قاهرا أحاط بكل شيء علما، وأحصى كل شيء عددا، وملاة عظمة، ووسعه عدلا، وأتقنه صنعا. والحمد لله الذي أعزَّ بالحق من أطاعه، وأذلَّ بالباطل من عصاه، وجعل الطاعة والجماعة حِزًّا حَرِيْزًا، وموثلا مُنِيْفًا؛ فلم يجمع بين أهل كفر وإيمان، وطاعة وعِصْيَان، إِلَّا تَوَحَّدَ بِالصَّنْعِ لِأَهْلِ طَاعَتِهِ، وَأَنْجَحَ سَعْيَهُمْ، وَأَعْلَى كَلِمَتِهِمْ، وَأَفْلَحَ نَجَّتِهِمْ، وَأَنْزَلَ بِأَهْلِ الْكُفْرِ الْمُعَانِدِينَ عَنْهُ، الرَّادِينَ لِأَمْرِهِ الدَّلَّةَ وَالصَّغَارَ فِي عَاجِلِهِمْ وَأَجَلِهِمْ؛ حَمْدًا يَكُونُ لِمُزِيدِهِ مُوْجِبًا، وَلِحِقِّهِ مُؤَدِيًا .

تحميد في فتح لسعيد بن حميد عن وصيف

أما بعد، فالحمد لله الحميد المجيد، الفعال لما يريد؛ الذي خلق الخلق بقدرته، وأمضاه على مشيئته، ودبره بعلمه، وأظهر فيه آثار حكيمته التي تدعو العقول إلى معرفته، وتمهد لذوى الألباب بربوبيته، وتدل على وحدانيته؛ لم يكن له شريك في ملكه فينازعه، ولا معين على ما خلق فتلزمه الحاجة إليه؛ فليس يتصرف عباده في حال إلا كانت دليلا عليه، ولا تقع الأبصار على شيء إلا كان شاهدا له، بما رسم فيه من آثار صنعه، وأبان فيه من دلائل تديبه، إعدارا بحجته، وتطوُّلا بنعمته، وهداية إلى حقه، وإرشادا إلى سبيل طاعته، وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده، وهو أهون عليه؛ وله المثل الأعلى في السموات والأرض، وهو العزيز الحكيم .

والحمد لله العزيز القهار، الملك الجبار، الذي أصطفى الإسلام وأختاره، وأرتضاه وطهره، وأعلاه وأظهره؛ فجعله حجة أهله على من شاقهم، ووسيلتهم إلى النصر على [من] عد في حقهم، وأبغى غير سبيلهم؛ وبعث به رسالة يدعون إلى حقه، ويهدون إلى سبيله،

بالآيات التي يبيّنون بها عن المخلوقين ، ويوجبون بها الحجّة على المخالفين ؛ حتى انتهت كرامة الله إلى خاتم أنبيائه ، وحامل كتابه ، ومِفْتَاحِ رَحْمَتِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ على حين قَرَّةٍ من الرسل ، واختلاف من المَلَلِ ، ودُثُورٍ من اِعلامِ الحَقِّ ، واستعلاء من الباطل ، والناس عاندون عن سبيل ربّهم ، يتساقفون دماءهم ، ويُمَجِّلونَ ما حَرَّمَ اللهُ عليهم ، ويعبدون من دون الله ما لا يضرّهم ولا ينفعهم ؛ وأيّدوا بالبرهان الواضح ، والمُحجِّجِ القواطع ، والآيات الشواهد ؛ وأنزل عليه كتابه العزيرَ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيم حميد ؛ وجعل فيه أوضح الدليل على رسالته ، وأعدّل الشواهد على نُبوّته ؛ إذ عجز المخلوقون عن أدّياتها على مرّ الأيام ، وكثرة الأعداء والمنازعين ؛ يتحدّاهم به في المواسم ، ويقصدُهم بحجّته في المحافل ؛ ولا يزدادون عنه إلا حُسُورا وعجزا ، ولا تزداد حُجّة الله عليهم إلا تظاهرا وعلوا ؛ ثمّ أيّدوا بالنصر بأصاير ألفٍ بينهم بطاعته ، وجمعهم على حقه ، ولمّ شعّتهم بنُصرة دينه ، بعد الشقاق المتّصل بينهم ، والحرب المُفرّقة لجماعتهم ؛ كما قال عزّ وجلّ : ﴿ هُوَ الَّذِي آتَاكَ بُنْصِرَهُ وَابْتَدَأَ بِالنُّصُرَةِ وَاللَّيْلُ لَبَّاسًا لِلنُّجُومِ ﴾ . وقَدَّمَ إليه وَعَدَّهُ بالنُصرة والتَمَكُّنِ ؛ بفعله بُشْرَى للْمُؤْمِنِينَ ، وَحُجَّةً على الكافرين ، ودليلا على ما بعثه به من الدّين ؛ فهزَمَ بِالْقَلْبِ مِنْ عَدَدِهِمُ الْكَثِيرِينَ مِنْ عَدَدِ أَعْدَائِهِمْ ، وَغَلَبَ بِضِعْفَائِهِمْ أَهْلَ الْقُوَّةِ مِمَّنْ نَاوَأَهُمْ ؛ فَفَقَلَ بِهِ حُدُومَهُمْ ، وَفَضَّ جَمْعَهُمْ ، وَأَنْتَحَى حَصُونَهُمْ ، وَحَرَّزَ مَعَاقِلَهُمْ ؛ وَأَظْهَرَ بِحُجَّتِهِ وَنَصْرِهِ عَلَيْهِمْ ، وَأَنْجَزَ سَابِقَ وَعْدِهِ لَهُمْ وَفِيهِمْ ، وَاللَّهُ لَا يُخْلِفُ الْمِعَادَ .

محمّد لابن المقفع

الحمد لله ذي العظّمة القادّسة ، والآلاءِ الظاهرة ؛ الذي لا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ وَلَا يَمْتَنِعُ مِنْهُ ، وَلَا يُدْفِعُ قَضَائِهِ وَلَا أَمْرُهُ ؛ ﴿ وَإِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ . والحمد لله الذي خلق الخلق بعلمه ، ودبّر الأمور بحكّمه ، وأنفذ فيما اختار وأصطفى منها عزّمة ؛ بقدرته منه عليها ، ومَلَكَةً مِنْهُ لَهَا ، لَا مَعْقَبَ لِحُكْمِهِ ؛ وَلَا شَرِيكَ لَهُ فِي شَيْءٍ مِنَ الْأُمُورِ ، يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ . مَا كَانَ لِلنَّاسِ الْخَيْرَةُ فِي شَيْءٍ مِنْ أُمُورِهِمْ . سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ .

والحمد لله الذى جعل صَفْوَةَ ما آختر من الأمور دِينَهُ الذى أَرْضَىٰ لِنَفْسِهِ ولمن أراد كرامته من عبادِهِ ، فقام به ملائِكَتُهُ المقربون ، يُعَظِّمون جلالَهُ ، ويُقَدِّسون أَسْمَاءَهُ ، ويزكرون آلاءَهُ ، لا يَسْتَحْسرون عن عبادته ولا يَسْتَكْبرون ، يُسَبِّحون اللَّيْلَ والنَّهَارَ لا يَفْتَرُونَ ، وقام به مَنْ آختر من أنبيائه وخُلَفائِهِ وأوليائه فى أرضِهِ ، يُطِيعون أمرَهُ ، وَيُذِيبُونَ عن حَرامِهِ ، وَيُصَدِّقُونَ بوعْدِهِ ، وَيُوفُونَ بعهده ، وَيَأْخُذُونَ بِحَقِّهِ ، وَيُجَاهِدُونَ عَدُوَّهُ ، وكان لهم عند ما وعدَهُم مِن تصديقِهِ قولَهُم وإفلاجِهِ حُجَّتِهِم ، وإِعزازِهِ دينَهُم ، وإظهارِهِ حَقِّهِم ، وتَمَكِينِهِ لَهُم ، وكان لعَدُوِّهِم وعدوِّهِم عند ما أوعدهم من حَزْبِهِ ، وإِحلالِهِ بِأَسْمِهِم ، وأنتقامِهِ منهم ، وغَضَبِهِ عليهم ، مضى على ذلك أمرُهُ ، ونفذ فيه قضاؤُهُ فِيا مَضَى ، وهو مُمِضِيهِ ومَتَّقُهُ على ذلك فِيا بَقِيَ ، لِيَتِمَّ نوره ولو كره الكافرون ، وَلِيُحَقِّقَ الحَقَّ وَيُطْلَعَ الباطل ولو كره المحرمون .

والحمد لله الذى لا يَقْضِي فى الأمور ولا يُدَبِّرُها غيرُهُ ، ابتدأها بعلمِهِ ، وأمضاها بقُدْرَتِهِ ، وهو وليها ومَتَبَّها ، وولى الخيرة فيها ، والإمضاء لما أحبَّ أن يُمِضِيَ منها ، يَخْلُق ما يشاء ويختار ، ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يُشْرِكُونَ .

والحمد لله الفتح العليم ، العزيز الحكيم ، ذى المَنِّ والطول ، والقدرَةِ والحَوْل ، الذى لا تَمْسُكُ لما فتح لأوليائه من رحمته ، ولا دافع لما أنزل بأعدائه من نَقْمَتِهِ ، ولا راد لأمرِهِ فى ذلك وقضائه يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد .

والحمد لله المُنِيبُ بجمده ومِنه ابتداءهُ ، والمُنِيعُ بشكره وعليه جِراؤُهُ ، والمُنِئى بالإيمان وهو عطاؤُهُ .

لآخر

والحمد لله الذى يَتَطَوَّلُ بالنعَمِ مُبْتَدِئًا ، وَيُعْطِي الخَيْرَ مِنَّ شِئْءٍ وَيُثِيبُ عَلَيْهِ .

تحميد لغسان بن عبد الحميد

كاتب جعفر بن سليمان في المطر :

الحمد لله الذي نَشَرَ رحمة في بلاده ، وبَسَطَ سَعَتَهُ على عباده ، الذي لا يَزَالُ العبادُ منه في رزقٍ يَتَسَمَوْنَه ، وفضلٍ يَتَنظَرُونَه ، لا يَنْقُضُه ما قَبْلَه ، ولا يَنْقُضِي ما بَعْدَه .

لأحمد بن يوسف في فتح السند

الحمد لله وَلِيّ الحمد ، وأهلِ الثناء والمجد ، خالقِ الخلق ، ومُدَبِّرِ الأمر ؛ المسيح على عباده والمُوجِبِ عليهم حُجَّتِه ؛ فليسوا يرجون إلا سَعَةَ فَضْلِه ، ولا يَحْذَرُونَ إلا ما آجَتْرَحُوا من مَعْصِيَتِه ؛ لما سبق من جَزِيلِ إحسانه ، وتظاهر من أَمْتِنَانِه ، وتَقَدَّمَ به الإِعْذَارُ والإِنْتِذَارُ اللذان لا يَسْتَحِيفُ بما عَظُمَ منهما إلا مَنْ أَسْتَحُوذَ عليه الشيطان ، وأَسْتَوَى عليه الخلدان ، وقاده الحين إلى موارد المَلَكَتِ .

التحميد الثاني

الحمد لله الذي أَصْطَفَى الإسلامَ دِينًا فَطَهَّرَه وَأَسْنَاه ، وأَظْهَرَه وأَعْلَاه ؛ وزَيَّنَه بكلِّ حَسَنَةٍ ، ونَفَى عنه كلَّ سَيِّئَةٍ ، وجعله إلى مَذْخُورِ كرامته سببا واصلًا ، وسبيلًا نَهْجًا ، وبعث به محمدا صلى الله عليه وسلم ليَهْدِي مَنْ كان حَيًّا ، وَيَحِقِّ القَوْلَ على الكافرين .

تقريظنه في الخليفة

الحمد لله الذي أَصْطَفَى أمير المؤمنين لخلافته ، وتَلَفَّى الأمة بِسُلْطَانِه ، فجعله القائم فيهم بقسطه ، والمُسْتَفْرَعُ في أَلْتِماسِ مصلحتهم هَمَّهُ .

لأحمد بن يوسف

عن ذى الرياستين إلى إبراهيم بن إسماعيل بن داود صدر فتح :

أما بعد ، فالحمد لله الذى حَفِظَ من دينه ما صَيَّعَ المَلحدون ، ورَأَبَ منه ما [فرقتَه] ^(١) الصدقة ؛ وأعاد من حبله ما حاولوا نَقْضَه ، حتى أعاد لعباده أحسن أَلْفَتَمِهم ، وردَّ اليهم أجمل

(١) بياض في الأصل . وما أثبتناه يناسب المقام .

عَوْدِهِمْ ، من الاستشلاء بعد التردى فى فِخْمِ المعاطب ، والاستنقاذ بعد التوريط فى المهالك ؛ وبلغ خليفته القائم بحقه ، الْمُؤْتَمَّ بِكُتَابِهِ ، الذائد عن حَرِيمِ الدِّينِ ، وميراث النبیین ، أَجْزَلَ ما بلغ الخلفاء الراشدين المهديين ، من إعلاء الكَلِمَةِ ، وغلبة الأعداء ، والفوز بالعاقبة التى وَعَدَهَا المتقين ؛ وفرغهُ لما أشعر قلبه ، وشرح له صدره ، من إمضاء حُكْمِ الفرائض المَوْجِبَةِ ، واقتفاء السنن الهادية ، حيث سلك به من المناهج ؛ حمدا يوازى نعمه ، ويبلغ أداء شكره ، ويوجب مزيده .

والحمد لله على ما خصنا به من إعلاء الدرجة ، وإسناء الرتبة ، فى مشايعة أمير المؤمنين — أيدِه الله — والمجاهدة عن حقه ، والوفاء لله بما عقده له ؛ لا يزيد بما كان منا إلا وجهه ، ولا نسعى فيه إلا لرضاه ؛ حمدا لا يحصى عدده ، ولا يتقطع أمده .

تحميد لأبى عبيد الله

أما بعد ، فالحمد لله ذى الآلاء والقُدرة ، والطول والعزّة ؛ الذى أصطفى الإسلام دينا لنفسه ، وملائكته وأنبياؤه ومن كرم عليه من خلقه ؛ فبعث به محمدا صلى الله عليه وسلم اختصاصا له فى ذلك بكراماته ، وأصطفاه له به على عباده ؛ فأعزّه ومنعه ، وكفاه وحاطه ، وتوكل لأهله بالعلم والتكين ، والظهور والتأييد ؛ فلم يُلحد فيه ملحد ، ولم يَزِغ عن قبول حقه زائغ ، بعد إغذار الله إليه ، وإعادة الحجة لله عليه ، إلا أنزل به من الذل والصغار والأجتياح والاستئصال ما يجعل له فيه قعبا ؛ حمدا كثيرا دائما مرضيا له ، مؤمنا من غيره ، موجبا لأفضل مزيد ثوابه .

تحميد لسعيد بن حميد فى فتح

أما بعد ، فالحمد لله المُنعم فلا يبلغ أحد شكر نعمته ، والقادر فلا يُعارض فى قدرته ، والعزيز فلا يُغالب فى أمره ، والحكم العدل فلا يُرد حكمه ، والناصر فلا يكون نصره إلا للحق وأهله ، والمالك لكل شئ فلا يخرج أحد عن سلطانه ، والهادى إلى سبيل رحمته فلا يضل من أنقاد لطاعته ، والمقدم إذآرهُ لِيُظَاهِرَ به مُجتبه ؛ الذى جعل دينه لعباده رحمة ، وخلافته عصمة ، وطاعة خلفائه فرضا واجبا على كافة الأمم ؛ فهم المُستَحْفَظُونَ فى أرضه

على ما بعث به رُسله ، وأماؤد على خلقه فيما دعاهم إليه من دينه ، والخاللون لهم على مناهج حقه ، لئلا تُشعب بهم الطرق المخالفة لسبيله ، والهادون لهم إلى صراطه ليجمعهم على الجادة التي تذب إليها عبادهم ؛ بهم حُجى الدين من البُغاة الطاغين ، وحُفِظت معالم الحق من الغواية المخالفين ، مُحْتَجِينَ على الأمم بكتاب الله عز وجل الذي استعملهم به ، ورُعاة للأمر بحق الله الذي اختارهم له ؛ إن جادلوا كانت حُجة الله معهم ، وإن حاربوا فالنصر لهم ، وإن جاهدوا كان في طاعة الله نصرهم ، وإن بغاهم عدو كانت نكايه الله حائله دونهم ، ومعقلا لهم ، وإن كادهم كائد فالله في عونهم ؛ نصبهم الله لإعزاز دينه ، فمن عاداهم فإتاما عادى الذين عزبهم وحرس بهم حقه ، ومن ناوهم فإتاما طعن على الحق الذي تكلفه حراسهم ، جيوشهم بالرعب منصوره ، وكأئبهم بسلطان الله من عدوهم محوطة ، وأيديهم بذئبها عن دين الله عالية ، وأشياعهم بتناصرهم غالبه ، وأحزاب أعدائهم بينهم مَقْمُوعَةٌ ، وُحُجَّتْهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَخَلَقَهُ دَاحِضَةٌ ، وَسَائِلُهُمْ إِلَى النَّصْرِ مَرْدُودَةٌ ، وَأَحْكَامُ اللَّهِ بِمُخْذِلَانِهِمْ وَاقِعَةٌ ، وَأَقْدَارُهُمْ بِإِسْلَامِهِمْ إِلَى أَوْلِيَانِهِ جَارِيَةٌ ، وَعَادَتُهُ فِيهِمْ وَفِي الْأُمَمِ السَّالِفَةِ وَالتُّرُونِ الْخَالِيَةِ مَاضِيَةٌ ، لِيَكُونَ أَهْلُ الْحَقِّ عَلَى ثِقَةٍ مِنْ إِتْمَانِ سَابِقِ الْوَعْدِ ، وَأَعْدَاؤُهُ مَحْجُوجِينَ بِمَا قَدَّمَ إِلَيْهِمْ مِنَ الْإِنذَارِ ، مُعْجَلَةً لَهُمْ نِقْمَةَ اللَّهِ بِأَيْدِي أَوْلِيَانِهِ ، مُعْتَدًا لَهُمُ الْعَذَابَ عِنْدَ رُدِّهِمْ إِلَيْهِ خِزْيًا مَوْصُولًا بِنَوَاسِعِهِمْ فِي دُنْيَاهُمْ ؛ وَعَذَابُ الْآخِرَةِ مِنْ وَرَائِهِمْ وَمَا اللَّهُ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ .

وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ أَمِينِهِ الْمَصْطَفَى ، وَرَسُولِهِ الْمُرْتَضَى ، وَالْمُتَّقِدِ مِنَ الضَّلَالَةِ وَالْعَمَى ، صَلَاةً نَامِيَةً بِرُكَّاتِهَا ، دَائِمًا أَتْصَالُهَا ، وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا .

والحمد لله تواضعا لعظمته ، والحمد لله إقرارا بربوبيته ، والحمد لله اعترافا بقصور أقصى منازل الشكر عن أدنى منزلة من منازل كرامته .

فِي مَا يَقْرَظُ بِهِ الْخَلِيفَةَ

والحمد لله الذى حاز لأمر المؤمنين وراثته ، وساق إليه خلافته ، بالحاجة منها إليه ، والرغبة منه عنها ، وأستخلص من خلقه من جعله ظهيرا للخوارث ، وعدة للنوازل ؛ فلما

(١١)
أفضتِ الخِلافةَ إليه حِسرَ أَمامِهِ أَحاجِلَتِهِ ، وكشَفَ قِناعَهُ لُحارِبَتِهِ ، فالحمْدُ لله الذي اختَصَّ أميرَ المؤمنينَ بِخِلافتِهِ ، وآرَتِضاهُ لولايَةِ أَمْرِ أُمَّةٍ نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَالقيامَ بِحَقِّهِ ، وَالذَّبَّ عن حُرْمَاتِهِ ؛ وَحاطَ لَهُ ما أَسْتَرطاهُ من ذلك ، وَقلَّدَهُ بِحَسَنِ الوِلايَةِ وَالكَفَايَةِ ، وَتَوَكَّلَ لَهُ بِالْحِفْظِ وَالتأيِيدِ ، وَالنصرِ وَالغلبَةِ وَالظهورِ على مَنْ عَدَدَ عن طاعَتِهِ ، وَصدَفَ عن حَقِّهِ ، وَأَبْتَنَى غيرَ سَبيلِهِ ؛ كِرامَةَ من اللهُ تَطَوَّلَ بِها عَلَيْهِ ، وَمِنَّةً مِنْهُ تَوَحَّدَ بِها لَهُ .

والحمد لله الذي جعل نبيّة أمير المؤمنين عزيمته ، وفكره ورويته ، منذ أفضى الله بالخِلافةَ إليه ، وجعله القائم بآرث نبيّه محمد صلى الله عليه وسلم وأستحفظه من عباده وبلادهم فيما فيه عز الدين ، ونظام أمر المسلمين وترهينُ الشكر ، وإذلالُ الأعداء ، وإشجاؤهم ووقئهم ، وتحصينُ البيضة ، وإشجانُ الثغور ، ولمُ المنتشر ، وضمُّ الأطراف ؛ لا يفتأ عن ذلك فائئاً ، ولا يذَهله عن تَفَقُّدِ كَبيرِ أمرِهِ وصغيرِهِ ومقابلتِهِ ذاهلاً ؛ يَسْتَقِلُّ كَثِيرَ ما يُنْفِقُ من الأموالِ في سَدِّ الثغورِ ، وَتَحْصِينِها وحِراسَتِها ، لِمَا يَرجو فِيهِ من جَسيمِ الحِظِّ ، وَجَزِيلِ الذُّخْرِ ، وَكثيرِ الأَجْرِ ؛ تَقَرَّباً إلى اللهِ وَأَحْتِساباً لَهُ في جَنبِ ثوابِهِ ، وَكَرِيمَ ما بِهِ ، حَتى رَأى بِهِ الصَّدْعَ ، وَرَتَّقَ بِهِ الفَتقَ ، وَأَمَّنَ بِهِ السَّبيلَ ، وَأقامَ بِهِ العِوَجَ ، وَأفْلَجَ بِهِ الحُججَ ، وَأَعلى بِهِ الدَّرَجَ ، وَأزْهَقَ بِهِ الباطِلَ ، وَأَحيا بِهِ الحَقَّ ، وَأشامَ بِهِ سِوْفَ أَهْلِ الضلالَةِ وَالفِتنَةِ ؛ لا تَأخُذُهُ في القيامِ بِحَقِّ اللهِ وَالانتِصارِ لِدِينِهِ ، وَالانتِصاحِ لأُمَّةِ نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَالذَّبِّ عن حوزَتِهِمْ ، وَالرِّمى من ورائِهِمْ ، وَدَفْعِ بائِئَةِ أَهْلِ الشَّقاقِ وَالنِّفاقِ وَالخِلافِ وَالْمَعْصِيَةِ عَنْهُمْ قَترَةً وَلا سَامةً ؛ توفيقاً من اللهُ ، وَتَسديداً لِحُرْمَتِهِ ، وَتأييداً لِعِزِّهِ ، إِذْ كانَ اللهُ شاكِراً ، وَلِدِينِهِ ناصِراً ، وَبِحَقِّهِ قائِماً ؛ وما توفيقُ أميرِ المؤمنينِ إِلاَّ بِاللَّهِ وَحَدَّهُ ، عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ وَعَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ .

والحمد لله الذي لم يزل منذ أفضى الى أمير المؤمنين بخِلافتِهِ ، وَحِياهِ بِكَرامَتِهِ ، يَخْتَصِبُهُ بِالخِيرةِ في كُلِّ ما أَمْضَى ، من أمرِهِ ، وَيَتَوَلَّاهُ بِالتوفيقِ في كُلِّ ما أَرَمَ من تَدبيرِهِ ، وَيَجِئِلُ عَنْهُ

(١) هكذا وردت في الأصل . ولم توفق الى تحقيقها .

أعباء ما حمّله ، ويُعيّنه بتأييده على ما قلّده ، ويحوّطه بجميل الصنع فيما ولاه وأستحفظه ،
ويُلهمه جهاد عدوه ، ويجبوه بنصره ؛ حمدا قاضيا لحقّ نعمته ، مُوجبا أفضل مزيده .

والحمد لله الذي أورث أمير المؤمنين موارث نبوّته ، وصير إليه مقاليد خلافته ،
وأوجب ذلك له بالقرابة برسوله صلى الله عليه وسلم ، والوراثة لوراثته من عُصْبته وأولى الناس
به ؛ ثم أعزّ نصره ، وأعلى كلمته ، وأفلج حُجّته ، وأظهر على المشركين والمنافقين ، ومن حادّه
وعانده من الناكثين والمارقين ، والباغين والملحدّين ، فأتعس جدودهم وفعل وفعل .

والحمد لله الذي عرّف أمير المؤمنين منذ استخلفه في أرضه ، وأثمنه على خلقه ، من
عظيم نعمه ، ولطيف صنّعه ، وجميل بلائه ، واعزاز نصره ، واعلاء يده وكلمته ، وإفلاج
حُجّته على مَنْ ضاده وحادّه ، إن الله بعظيم طوله ومته آرتضى أمير المؤمنين لدينه ، وأصطنعه
لخلافته ؛ فخلّاه سربالها ، ورداه بهاءها وجمالها ، فاستعمله بالكتاب والسنة والحق والعدل
فيها ؛ فأيدّه بقوّته ، وأعزّه بنصره ، وحاطه بكفايته ، وتولّى الصنع له في جميع أموره ؛ فلم
يكدر كائدا ، ويعانده معاندا ، ويمسرق عن طاعته الواجبة مارق ، ويُلحد في إمامته مُلحد ،
مَنْ يعالِن بمعصية وشقاق ، أو ينطوي على غلّ ونفاق ، إلّا أوهن الله كيده ، وأتعس جدّه ،
وعاجل المبادئ بعداوته ، الشاهر على الدّين والمسامين سيفه ، باصطلام وبوار ، وأمکن
منه بذلّة وصغار ، وقتل المسرّ غيره ، المنطوي على غلّه بغيظه وعمّه ، وأماته بدائه وحسرتّه ؛
إنجازا منه جلّ ثناؤه لوعده ، وإتماما لكلمته فيما وعد الذين آمنوا وعملوا الصالحات من
أستخلافهم في أرضه ، وأتمكين في دينه ؛ وله الحمد دائما ، والشكرُ خالصا ، كما هو أهله وكما
ينبغي أن يُحمد ويُشكر ، لا إله إلّا هو الواحد القهار .

والحمد لله الذي لم يُبق لأمير المؤمنين عدوا من الناكثين والجاحدين ، والمشركين
والمنافقين ، حاول نقضا لإمامته التي صيرها الله إليه ، وقلّده إياها ؛ أو صاول جيشا من
جيوشه التي أعدّها للحاماة عن دين الله ومحارمه ، وإقامة سننه ومعامله ، إلّا أحلّ به التقمّة ،
وأصاره الى الصّغار والذلّة ، والبوار والهلّكة ، ونجّله الى ناره وعذابه .

والحمد لله الذي لم يزل يتولى أمير المؤمنين بجباطته ، ويتوحد له من إعزاز نصره وإِعلاء كَمِيتِه ، وإِفلاج حُجَّتِه ، وتأييد أوليائه وأنصار حَقِّه ؛ وأنزل البأس والنقمة والمثلثات والسطوة بن عانده ، والدَّبَّ عن حريم المسلمين وأهلِه ؛ بما يبيِّن به عن مكانه منه ، ومنزلته عنده ؛ حميدا ربنا بذلك كما هو أهله ومستحقه ، مشكورا بعظيم منه فيه وطوله ، مسؤلا تمام أحسن عائدته وماضى سنته ؛ فإن الله المحمود على نعمه ، المشكور بالآلته ، لم يزل ما يتوحد به لأمر المؤمنين بسلطانه من التعزيز ، وفي أوليائه من التأييد بنصره ، عادة يبيِّن بها برهانه ، ويُفَلِّج بها حُجَّتِه ، ويدلُّ بها على كرامته عليه ، ويُخبر بها عن منزلته عنده ؛ ويجعل ما نزل بأعدائه المتولِّين عنه ، الراغبين إلى غيره ، المُلحدِّين في حَقِّه ، عِظَّة لمن قسا قلبه ، وران عليه سوء عمله ، ليكون ما يُعْطيه من البسط في مُلكه ، والتمهيد فيا خَوْلَه له ، ويوفِّقه من السطوة بعدوه ، والتنكيل بمن خالفه ، حُجِّين متظاهرين ، وعبرتين بعين ؛ فيعتصم مُعْتَصِم ، وينجو ناجح ، وليشجِب [شاجب] ^(٢) ويهلك هالك ، وقد مضت من الله المشيئة ، ووضع منه الإِعدار ، وكان الله بعباده عليما ، وبأعمالهم خبيرا .

والحمد لله الذي أكرم أمير المؤمنين بخِلافته : وجعله وارث وحيه ، وقِيَمَه بكتابه في عباده ، وأكرم هذه الأمة التي جعلها خير أمة أُخْرِجَت للناس به ؛ فهو الميمون في تدبيره المتجح حَوِيلُه ، الميمونُ الذنِيبُ ، المُوفِّقُ الرَّأْيَ والسياسة ؛ فإن الله عز وجل خالق الخلائق بقدرته ، وأختارهم بعلمه ، فاختر أمير المؤمنين لخِلافته ، وأصطنعه للقيام في العباد والبلاد بأمره وقِسْطِه ، وألهمه إقامة أحكامه وفرائضه ، والعمل بحَقِّه وعدله ، وأبلى أهل الشرك به ، وأخراها إلى أيام دولته ، وحظَّرها عمَّن كان قبله ؛ حتى حاز له أجرها ، وأبقى له سَئِئَها وذِكْرَها ، ونشر عنه أُحدوثها وسماعها ؛ وفتح عليه البلدان القاصية ، والمدائن المُتَنائية ، التي لم تكن تُرام من أهلها ، ولا يُطَمَع في زوالها ؛ وذَلَّت له الملوك القديم عتوها وعنادها ، والأُمم المُستصعبُ مراسها وجهادها ، الحامية في آباد الدهور رحاما ؛ فأنفذ فيهم مكيده ، وأنجح

(١) كذا في الأصل ، ولعلها بالفتير . (٢) كذا في الأصل ، ولعلها ويشجب .

سعيه، ورماهم بالتخريف، وملاً قلوبهم رعباً منه؛ فأذعن مدّعيهم بطاعته، وآقادوا لأمره، وصاروا يداً وأعوانا لأوليائه على أعدائه .

أما بعد، فإن أعظم النعم قدراً، وأجلها أمراً، وأسرّها موقفاً، وأوجبها شكراً، ما عمّ الإسلام والمسلمين نفعها، وعادت عليهم عائدتها . وجعل الله فيه عزّ الدين، ودلّ المشركين؛ وقد جعل الله ذلك في خلافة أمير المؤمنين أطال الله بقاءه بمنه وبركاته، وما أخلص الله من نيّته وطاعته، وتأدية حقّه فيما استحفظه من أمر دينه وعباده، وفرغ له نفسه، وأنصب فيه بدنه، وأسهر فيه ليله، من حياة حريم الإسلام، والزيادة في حدودها متصلاً متتابعاً، والنعم متظاهرة ومتوافرة، فسهّل الصعب، ودلّل له العزيز، وقصم عتاة الأعداء ومتكبريهم، والمستعصين والمستصعبين منهم . في آباء الدهور على من رامهم، وفتح عليهم حصون مدائنهم؛ ومتمتع قلاعهم، وأنفذ مكيدته فيهم؛ فبين مقتول ومأسور، وشريد طريد عن محلّته، وموضع عزّه ومنعته، مُستسلم مُعطي قيادته باخع بطاعته . وكذا فإن الله بمنه وطوّله قد أوصل لأمر المؤمنين من صنّعه له فيما قلده من خلافته، وحياطته إياها فيما يحوطه من دينه، وعمرّفه من كفايته فيما قام به من حقّه، وأيده من نصره فيما جاهد عنه في سبيله، ما قد جعل النعمة به عامة، والشكر به لازماً، وإنيّة به واجبة، والصنع عظيماً؛ فالحمد لله على نعمه في ذلك كثيراً .

والحمد لله الذي جعل أجهاد أمير المؤمنين ومقام أمره وتدييره، في آناء الليل ونهاره، فيما فيه صلاح عباده، وإعزاز دينه وإقامة حقه .

تحميد

الحمد لله الذي لمّا افترض من الطاعة لولاية الأمر من خلفائه جعل أوائلها ناطقة عن فضل أوآخرها، وبوادئها محمّرة عن حميد عواقبها، ومواردها مبشرة بالعلو في مصادرها، بما يعقبه أهلها من السعادة في الماضين من أوليائها القائمين بحقّها؛ وعاد من السقوة على متّارفي العصية المُلحدّين إليها؛ حين أقبلت بهم هوادى الفتن، وكشفت لهم تواليها عن البوار

والهلكة ؛ مُعتزدين حين لا عذر ولا مُجبة ، طالين للمهَارِبِ بعد أن كانت منازل السلامة بهم مُطمئنة ، وخائفين وقد كانت سُبُل الأمان لهم واضحة ؛ قد جعلتهم النعمة الواقعة بهم أمثالا سائرة ، وفزقت بينهم وبين النعم الشاملة ، وحصلت السعادة لمن أعظم بهم باقية ، سنة من الله فيهم ماضية ، وعادة جارية ، ولن تجد لِسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا .

والحمد لله الذي اختار أمير المؤمنين لخلافته فخرس به دينه من البُغاة الناكِلين عنه ، وأختصه بأعلاء رُتب كرامته ، وأفترض طاعته على عباده ، وجعلها بمواقعا في دينه نظاما لسائر فرائضه ، فتاركها مفارق لعصمة حقّه ، خارج من جملة الأمة التي سبقت لها رحمة ؛ يستنصر أشياع الباطل والله خاذله ، ويُغالب الحق والله غالبه ، ويطلب مالا سبيل له إليه والله طالبه ؛ حتى يخلجه أجله عن أمله ، وأقدار الله فيه عن تقديره ، ونفوذ قضاء الله فيه عن نفوذ حيله ؛ فضلا من الله على أوليائه وقضاء منه عدلا في أعدائه ، والله ذو الفضل العظيم .

والحمد لله الذي اختار أمير المؤمنين لرعاية عباده ، وحفظ بلاده ، وتنفيذ أحكامه ، وإقامة حدوده ؛ بجمع به الألفة ، وكف به بوائق الفتنه ، وأصلح به أمور الأمة ، وسكن به الدهماء ، ودفع به عظيم البلاء ، وأتقذ به من الجُهد والألواء ؛ وجدد لرعيته العبر الشافية ، والعظة الناهية ، وجعل همه السعي لربه ، وطلب الحق الذي أوجبه له من خلافته ، ليؤدّي فرضه في الأمانة التي حملها ؛ فيوجب له بذلك مالا يزول ولا ينقطع من ثوابه ، فأعمل رأيه في الرأفة بمن ولّاه أمره ، والحياطة له ، والعناية بصلاحهم ؛ فأعطاء لمن الموعظة في وقت التاني ، والنفوذ لإقامة الحجّة والبيّنة ، وشِدّة السطوة على من عمط النعمة وعند به الإضرار عن التزوع والفيئة ؛ منا من الله وتفضلا ، وإحسانا وتطوّلا ، والله ذو فضل عظيم .

ويسأل الله أمير المؤمنين مُبتدئا ومُعقبا ، وأولا وآخر ، وقبل كلّ مسألة ، وأمام كلّ رغبة ، ومُقدمة كلّ طلبية ؛ أن يُصلّي على صفوته من عباده ، وخيرته وخاتم أنبيائه ورُسله ، محمد عبده ورسوله ، أفضل صلواته ؛ ويبارك أكثر بركاته ، وأن يُديم له كرامته ، ويُجبري عنده أجمل عاداته ، ويُتمّم له ما آتخص به من إحسانه ؛ حتى يملأ الأرض عدلا وقسطا ،

والإسلام تَأْيِيداً وَعِزّاً، وَالشَّرْكَ ذُلًّا وَقَمْعاً؛ إِنَّهُ وَلِيَ كُلِّ نِعْمَةٍ، وَمُنْتَهَى كُلِّ رَغْبَةٍ، وَغَايَةُ كُلِّ حَاجَةٍ .

ولم يزل أمير المؤمنين منذ الوقت الذي أفضى الله إليه بخلافته ، وأكرمه برؤيته ، من إرث نُبُوَّتِهِ ، يتلقى عظيم النعمة في ذلك بالإخلاص للنسبة والطوية في الصفح عن كل زلة ، والإفالة لكل عثرة ، والتعمد للهفوة وقبول الفينة ، والإجابة ممن عظم جرمه ، وجل ذنبه ، وظن أن لا توبة له ؛ وكما جدد الله له نعمة ، جدد له في ذلك نية حسنة ، شكراً لله عز وجل على ما ابتدأه به ، وارتهاناً لنعمه عنده ، واستراداً من جميل مواهبه . وتقديم الاهتمام بما فيه صلاح رعيته ، وأستقامة أمورها ، وحياطها والذب عنها . وكف الأذى والمكروه عن الداني والقاصي منها ؛ ويتخاص إلى ذلك بكل ما يجد إليه السبيل ويجهد فيه ، ويعمل لكثرة أوقات دهره في كل ما بلغه محبته نظراً لها ، وحداباً على كافتها ، وإشفاقاً من سوء حالها ؛ إذ كان لها والداً براً ، وراعياً كالئماً ، وناظراً لطيفاً ؛ ويستعمل كل ما يرجو اثباتها ، والإبقاء على أحوالها ، والسلامة لها في دينها ودنياها ؛ وينصب لذلك ليله ونهاره ، ويذيب فيه نفسه ، ويجعله شغله دون غيره .

والحمد لله الذي أصطفى أمير المؤمنين بخلافته ، وأكرمه بإرث نُبُوَّتِهِ ، وجعل خلافته خلافة يمين وبركة ، ولطف وسعادة ؛ انتاش بها أوليائه من موارد الملكة ترفع منزلتهم ، وشرف درجاتهم ، وأعلى كلمتهم ، وأذل بها أعداءهم ، وجدد دوابهم ، ورد دائرة السوء عليهم ؛ وجباه مزية نصره وتمكينه ، وإعزازة وتأْيِيدِهِ ، وإظهاره على من ناوأه وعند عن حقه ، وصدف عن طاعته ؛ فإن الله لما اختار أمير المؤمنين لخلافته فأيدته بها ، جعل الحق نبيته ، وإعزاز الدين بغيته ، ومجاهدة أعداء الله ترفاً وغرباً وبراً وبحراً تهمة وإرادته ؛ ثم يسره في ذلك لما أحسن به عونه ، على من استحفظه وقلده ، فضلاً من الله ونعمة ، والله عالم حكيم .

والحمد لله الذي كان لسابق علمه وسالف قضائه، الذي لا يستطيع الناس رده، ولا منعه ولا صرفه، ما ولى أمير المؤمنين من خلافته، وما آتته له من النصر لدينه، والطلب لحقه، والجهاد لأعدائه؛ وأحسن في ذلك عونه فيه وبلاءه، وأيده في نفسه، لم يتقصه خذلان خاذل، ولا مخالفة من خالف، ولم يزد أمره في شيء من ذلك إلا تماما وإحكاما؛ حتى أظهر حقه، وأفجع مجتبه، ومحق باطل أعدائه، وأدحض حججهم؛ وجعل أهل طاعته حربه الغالبين، وجنده المنصورين؛ وجعل عدوه وعدوكم حزب الشيطان الخاسرين، وأوليائه الأذنين؛ بغير حول من أمير المؤمنين في شيء مما ولّاه وأبلاه، ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم .

لأبي عبيد الله

والحمد لله الذي أكرم أمير المؤمنين بما أصار إليه من الخلافة وإرث النبوة، وجعله القائم بأمر عباده وبلايه، وأنجي أسننه، والدّابّ عن دينه وحقه، والمُنَاصِبَ لأهل الشرك والجُود به؛ ثم نصره وأظهر فضل أيامه ودوّته، ومكّن له في بلاد عدوه، وجعل كلمته العليا وأنصاره الغالبين، ومنّ نواؤه من أهل الخلاف الأذنين المقهورين؛ وعرفه من نعمته في ذلك وميته وجميل صنعه وعاداته، أحسن ما عود أحدا من أوليائه الدائين عن الإسلام وأهله؛ حمدا متّابعا لا أقطع له ولا أنصرام، دون بلوغ حقه، وقد كان كذا وكذا .

ما يكتب به في المخالفين في وقت الهزيمة

نكسوا على أديارهم منكموين مهزومين، قد ضرب الله وجوههم، وفّت في أعضادهم، ومنح الأولياء أكتافهم؛ فقتلهم في كل فج، وعلى رأس كل تلعة ومهرب ومسك؛ أباد الله خضراءهم وغضراءهم، وحصد شوكتهم، وفلّ حدّهم، وأباخ نيران ضلالتهم وكفرهم، وشفّى منهم الصدور، وأدرك منهم الإحن؛ ونقل المسامين أموالهم وذرايرهم، وجعلهم لهم خولا وعبيدا، وأورثهم أرضهم وديارهم، وأحلّ الله بهم من البأس والنقمة والجائحة

والظهور والعلبة جزاءً من الله لمن أخذ إلى المعصية وأبتى غير سبيله المسلوكة . وكذلك يفعل الله بالقوم الظالمين ، ويستدرجهم من حيث لا يعلمون ، إن الله لا يخلف الميعاد . ثم أنزل الله عز وجل من صار إلى الأمصار منهم هرباً ، وأحصم بالحصون ، وتعوذ بالجلال ، ولأذ بالقلاع ، ولبأ إلى الأودية ، من صباصبيهم ، وأمكن من نواصبيهم : وأستخرجهم من أوزارهم ومعاقبهم وتعوذهم ، وأخذ أسيراً ذليلاً منكوباً خائفاً قد نخب الوجل قلبه وملاً الرعب صدره ، متوقفاً أن ينزل الله به من النقات والمثلثات مالا مرد له عن مثله من القوم الظالمين ، وفشت في الكفرة الجراحات ، وعضتهم السيوف ، وشرعت فيهم القنا ، ودرتهم نار الحرب ، وغالم التزال ، ومارسهم الأبطال ، وأستحز فيهم القتل ، فصبر لهم الأولياء أحسن صبر ، فلم يطبقوا بالموت مراماً ولا على الحرب مقاما .

في صفة الخالعين

الناصبين لدين الله ، المكذبين بآياته ، الجاحدين رسله . الجاعلين معه إلهاً ، لا إله إلا هو ، لطول مدتهم ، وشدة شوكتهم ، وصعوبة مرامهم . وقطعهم السبل وأتهاكهم المحارم وسفكهم الدماء التي أوجب الله على من سفكها بغير حيلها وأقترف وأحتمل وزرها ، أليم العذاب وشديد العقاب ، فأبوا إلا تمادياً في ضلالتهم . وعُتُوا في طغيانهم ، وشبوتاً على عصيانهم ، ومقاماً على كفرهم ، لأحداثة السالفة . وغوائله المتقدمة . وبوائقه المشجية ، فوقف ميملاً بين ثكل التقدم وحقيقة الأصطلام في التأخر . دعاهم إلى الفينة والمراجعة والإجابة وقبول الأمان والدخول في الطاعة ، أستظهاراً بالجمعة عليهم ، ورجاءً لصنع الله فيهم . فلما بلغهم نزول فيمن معي ، جمع أصحابه ، وضم جنده ، وتحزز في معسكره ، وخذق على منزله ، وأحترس بجهدده . فأقتت معسكرى . وأنا مع ذلك في كل يوم أوجه رُسلي وأدعوه إلى حظّه ، من طاعة أمير المؤمنين والدخول في أمانه ، وأعلمه أن له نظراً من عمط الطاعة ، وسفه الجماعة ، وقد ركضوا في الفتنة عمرهم وسعوا فيه دهرهم ، فانتشر خبرهم ، وكثرتبهم ، وكبر وزرهم ، وتقل وقهرهم ، ثم أذعنوا لظاعتهم . وأستقلوا

ناهضين من عَثْرَتِهِمْ ، ومتعشين من زَلَّتِهِمْ ، فُغْفِرَتْ ذُنُوبِهِمْ ، وَقَبِلَتْ تَوْبَتَهُمْ ، وَفُسِّحَ لَهُمْ فِي أَمَانِهِمْ ، وَشُرِّفَتْ مَنَزَلَتُهُمْ ، وَاسْتَبَدَلُوا بِالْخُوفِ أَمْنًا وَبِالذَّلِّ عِزًّا ؛ فَأَبَى بِهِ مِيلَ الْهَوَى ، وَعَلَبَةَ الشَّقْوَةِ ، وَمَسْتَعْلَى الْفَوَايَةِ ، وَالْقَدْرَ الْحَارِبِ ، وَالْقَضَاءَ الْمَحْتَمُومَ . وَتَقَدَّمْتُ فِي مَوَاقِفِهِمْ وَتَرغِيبِهِمْ ، وَالْأَخْذَ بِالْمُخْتَقِ مِنْهُمْ ، مِنْ غَيْرِ قِتَالٍ ، وَلَا تَنَاوُلِ سِلَاحٍ ، وَلَا تَنَاوُشِ صِيَالٍ ^(١) ، وَعَرَضْتُ عَلَيْهِمُ التَّوْبَةَ ، وَدَعَوْتِهِمْ إِلَى الْإِنَابَةِ ، وَأَعْطَيْتِهِمُ الْأَمَانَ ، وَأَعْلَمْتِهِمْ أَنَّهُمْ إِنْ قَبِلُوا حَمْدَتَهُمْ وَأَحْمَدَتْ نَارَ الْحَرْبِ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ ، وَإِنْ أَبَوْا إِلَّا تَمَادِيًا فِي غَيْبِهِمْ وَنُكُوصًا عَلَى شِقَائِهِمْ ، وَلَيْتُ مَنَاجِرَتَهُمْ وَعَرَفْتُ مِنْ اللَّهِ الْخَيْرَةَ فِي مَحَارِبِهِمْ ، وَأَسْتَعْنَتْهُ عَلَيْهِمْ وَأَسْتَكْفَيْتُهُ أَمْرَهُمْ ، وَرَجَوْتُ حَسْنَ عَادَتِهِ عِنْدَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فِي أَمْنَالِهِمْ . ثُمَّ وَجَّهْتُ الْأَوْلِيَاءَ فَنَفَذُوا نَحْوَ عَسْكَرِهِمْ لَيْلًا وَهُمْ مَتَفَرِّقُونَ فِي رِحَالِهِمْ ، مَغْتَرِّبُونَ فِي أَوْطَانِهِمْ ، قَدْ أَمِنُوا خَدَعَ الْحُرُوبِ وَمَكْرَهَا وَمَكِيدَتَهَا ، وَوَقَعَةَ الْبَيَّاتِ وَهَوْلَهَا ، إِلَّا طَائِفَةً مِنْهُمْ أَهْلَ عَدَدٍ وَعُدَّةٍ ، وَبَاسٍ فِي أَنْفُسِهِمْ وَقُوَّةٍ ، انْتَحَذُوا اللَّيْلَ جَمَلًا ، وَسَرَّوْا نَحْوَنَا يَرْجُونَ غَيْرَتَنَا وَيَأْمُلُونَ غَفْلَتَنَا ، فَوَقَفَ جُنْدُنَا بِمَكَانِهِمْ أَخْذِينَ أَهْبَتَهُمْ . مَتَسَكِّينَ بِالطَّاعَةِ فِيمَا بِهِ أَمْرَتُهُمْ ، فَاسْرَعْتُ إِلَيْهِمْ مِنْ أَعْدَائِهِمْ طَائِفَةً فَنَدَفَعُوهُمْ عَنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَنَاوَاهُمْ بِجَرَاحَاتٍ مَعَ قِتْلِي مِنْهُمْ عِنْدَ تَنَاوُسِهِمْ ، ثُمَّ نَكَصُوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ ، وَرَجَعُوا الْقَهْقَرَى عَلَى أَعْقَابِهِمْ إِلَى الْبَاقِينَ مِنْ سَرِيَّتِهِمْ ، فَاسْتَجَاشُوهُمْ فَاجَاهُمْ بِالْمَكَانِفَةِ وَالْمُؤَاوَزَةِ ، وَأَقْبَلُوا بِحَيْجَتِهِمْ وَحَقَّقَهُمْ حَتَّى حَمَلُوا حِمْلَةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ ، وَضَاقَ الْفَضَاءُ وَطَارَتْ أُنْفُودُ جُنْدُنَا رُعبًا مِنْ حَمَلَتِهِمْ ، وَبَلَغَتْ الْقَالُوبُ الْحُنَاجِرَ مِنْهُمْ ، إِلَّا طَائِفَةً قَلِيلَةً مِنْ لَوَائِقِ الْحَرْبِ وَمَوَاضِي رَوَائِجِهَا وَأَشْبَالِ لِبْدَتِهَا ، تَزِينُوا بِالطَّاعَةِ فَأَمَّا حَسْنَ الْعَاقِبَةِ ، وَنَصَرُوا الدِّينَ . فَوَثِقُوا بِاتِّمَاسِكِهِمْ . آتَدَبُوا إِلَيْهِمْ ، وَوَقَفُوا لَهُمْ ، وَآزَدَادُوا بِصَبْرِهِمْ فِي أَمْرِهِمْ ، وَنَفَاذًا وَجِدًّا فِي أَحْجَادِهِمْ وَمَجَاهِدَتِهِمْ ، فَثَبَتُوا قَائِمِينَ بِالْقُسْطِ فِي أَحْوَالِهِمْ ، قَائِلِينَ بِالْعَدْلِ فِي أَمْلَائِهِمْ . يَسْأَلُونَهُمُ الْكِرَّةَ بَعْدَ الْكِرَّةِ . وَيَعِدُّونَهُمُ الْعَاقِبَةَ ، وَيُتَمَنُّونَهُمُ السَّلَامَةَ ، وَيُضْمِنُونَ لَهُمُ الْغَنِيمَةَ ؛ فَفَاءُوا إِلَيْهِمْ ، وَرَجَعُوا إِلَى الْحَقِّ لِقَاءَ اللَّهِ عِزِّ وَجَلِّ عَلَيْهِمْ ، فَشَافَعُوا سَاعَةَ الْبَقِي

(١) الصيال مصدر صال على قوته : سطا عليه .

بعد تلاميهم إرشافاً . بالسهام فلما رأى أعداء الله جدهم ، وعرفوا صدقهم ، وخافوا حدهم ،
نكصوا على أعقابهم ، يريدون الخلق بمعسكرهم ، وتحرك أصحابنا في طلبهم ، ورجوا أسوء
الصباح لهم ، فأمعنوا في أثرهم ؛ فلما أحسوا الفساق أعطوهم الضمة وآووا إلى ديارهم
لا يلقى قريب على قريب ، ولا ذورحم على حبيب ؛ والنهم القتيّ فدرستهم ، وعصت
هامهم السيوف فكلمتهم ، وحيل بينهم وبين الدخول من باب عسكرهم ، فأخذوا في غير طريقه
منهزمين ، قد فل الله حدهم ، وقلل كثيرتهم ، وقتل عاقمتهم ؛ ورجع أصحابنا إلى معسكر أعدائهم
بعد التشريد والتفريق بجماعتهم ، فأحاطوا بهم في آخر ليلتهم ، فلما رأوا غفلتهم ، وأمنوا
غرتهم ، وأتتهوا مكان الفرصة منهم أحاطوا بهم وهم نائمون ، فازون غافلون متفرقون ،
فوضعوا السلاح فيهم . ضرباً بالسيوف ، وطعنا بالرماح ، وضرباً بالأعمدة ، وذبحاً بالشفار ،
لا يسبون من جرحوا ، ولا يبقون من كملوا ، غير مدفوعين ولا ممنوعين ، حتى آثنت
السيوف ، وتحطمت القتيّ وأندقت الأعمدة ، وكلت الشفار ، وبقيت منهم عدة يسيرة
وشردمة قليلة ممن لم ينله القتل ، فأخذوا أسرى ، وأوثقوا حديداً ، وكبّلوا قيوداً . وكان
أول رأس أتاني بخبره بتسريحهم وأسرع به إلى ذو المعرفة منهم رأس^(٢) عدو الله المارق
الباغي ، الشاق لعصا المسلمين ، ملأني رئيس ضلالتهم ، وفائد جهالتهم ، ومستغوى
جماعتهم ، عرفته بجليته ونعته وصفته في عدد كثير من رؤوس قواده وأهل الفتنة وأئمة
البدعة ، فلم يلبثوا إلا ريثما تصدعوا في كل جبل ونحر ، منهزمين هارين ، لا يستطيعون لما
أتاهم من عذاب الله دفعا ولا معاً بأيدي ولا قوّة ؛ ولا ينجئون إلى ركن وعصمة ، قد تشنت
بهم نظامهم ، وفارقهم وجوههم وأعلامهم . فأخذهم أسراً قسراً قدمهم لل نصب ، وملأ
قلوبهم الرعب وتخزمتهم الوقائع ، ونخبتهم الحزائم ، ونخبتهم القتل ، وغلب الله عز وجل
لأمير المؤمنين على حصنه الذي كان مناف عزده . وموضع منعه في نفسه ، ومجتمع عدته ،
ومادة قوته ، فقوضوا عساكرهم ، وأقتنعوا عن حصنهم يتبع آخرهم أوطم ، متحيرين متلذذين .

(١) في الأصل : « بخبرهم » . (٢) في الأصل « برأس عدو الله » .

أذلة خاسرين، ففتزقوا لا نظام لهم ولا جامع لشتاتهم . فلما استحز القتل فيهم ، وفشت الحراحت في عامتهم ، وطحنتم الحرب بكلكها ، وألما وقع حديد أنيابها ومساعرها ، قذف الله الرعب في قلوبهم وزلزل بهم أقدامهم ، فولوا منزهين مغلولين ، وركب المسلمون أكفاهم ، يقتلونهم في رهوس جبالهم ، وخلال غياضهم ، وبطون أوديتهم ، ومقاصي تلاعهم ، وفي كل ناحية من نواحيهم ، حتى عجز الليل دونهم ، وأعجزوهم هربا في معاقلهم .

وفي العصاة

حتى إذا ظن أن قد عزَّ بضلاله ، وتحصن بمعاقله ، وأستكمل قواه ، وكثف تديره ، وبلأ إلى مانع منه ودافع عنه ، عطفت عليه عواطف الحق بأولياء الحق وأنصاره ، ناقضين ما أبرم ، وامتدوا إلى ما سدد ، ومتوغلين إلى غيبه ببصائرهم ، وإلى باطله بحقهم ، فاستترل عن موضع عزه قسرا ، وأمكن الله أولياءه أسرا ؛ سنة الله فيمن عتد عن سبيله ، وألحد في دينه ، ومزق عن الطاعة وثائقها ، وأستبدل بالحق ومنهاجه ، ولن تجد لسنة الله تبديلا ، ولن تجد لسنة الله تحويلا ، ولن تجد من دونه ملتحدا ولا نصيرا ؛ حتى إذا تراءى الجمعان تبرأ الشيطان من حزبه ، وأرهق الله باطلهم بحقه ، وجعل الفلج والظفر لأولى الحزبين به ، بذلك جرت سنة الله في الماضين من خلقه ، وذلك ما وعد من تمسك بأمره وطاعته .

وفي مدح قواد الجيوش وصفة الأولياء في أحوالهم

لما بلأ من طاعته ، وأختبر من نصيحتته ، ويمن نقيته ، وشدة شكيمته ، وصحة عزيمته ، وصدق نيته ، وثقل وطأته على أعداء الله وأعداء الدين والمسلمين ، وعلمه بمراوضة الحرب وممارستها ، ومكايده الأعداء ومواقفتهم فيها ، فشمّر تسمير أهل الحسبة وحسن الظن بالله من غير ونية ولا فترة ولا بقاء جد ولا أجتهد ، راجيا أن يُنجح الله سعيه ، ويُفلج حجتَه ، ويظهره على عدوه من الاستقلال الذي حمله ، والاضطلاع بما أسند إليه ، والامتثال لسيرته ، والاتهاء إلى أمره ، والقبول لأدبه ، والخوف بما يستنضه له من حروبه وأموره مثل الذي جعل عند فلان : يفضلهم بطوله ، ويطولهم بحجاسنه ، ويتقدمهم بحسن بلائه وعقائه ،

ومواقفه ومساعيه، لم يختبره أمير المؤمنين في جميع خصاله إلا وجده عند الاختبار والتحصيل سالكا لمناهجه، قابلا لأمره، متبعا لأثره، ساميا بهيمته إلى أقصى الغايات وأعلى الدرجات، حتى صار عند أمير المؤمنين مقدما في القدر والرتبة، مخصوصا بالمرتلة والرفعة، يرى ذلك قليلا في كثير ما وجب بطاعته ونصيحته، فبارك الله عليه وليا ظهيرا . فأقدموا متوكئين على الله مسلمين لأمره صابرين على ما نالهم من اللاأواء والجهد والتعب وكَلَب الشتاء وحمارة القيظ، وصعوبة المرام من أعداء الله الكفرة، يرجون نصر الله وتبجز ما وعد الصابرين والمجاهدين في سبيله من الظفر والنصر والغلبة على عدوهم، توحد به من نصرهم وإعزازهم أن كان الله عز وجل تكفل لأولياؤه بالنصر والعز والحيطه، وجعل حسن العاقبة لهم، وكَبَت من حادثهم وأخذهم إلى المعصية والكفر والأسر، ليكونوا بذلك عظة ونكالا لمن أمهله الله منهم، ولتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، والله عزيز حكيم؛ أعظمهم غنَاء، وأحسنهم بلاء، وأشدهم صولة، وأقساهم نكايه، وأمنهم سريرة، وأضاهم عزيمه، وأربطهم جأشا، وأصدقهم بأسا، وأملاهم للأقران، وأرعاهم لوثائق الإيمان، وأشدتهم تحديبا على السلطان، فأزره بهم، وحصن أطراف خلافته بأيديهم، فكفوه المهتم وقاموا دونه بالملء، غير مستطيلين بغياء، ولا متعرضين لطاب جزاء، قد تعبدتهم الوفاء، وغنوا بقرية الولاء؛ فإن الله جعل آباءه أعلاما في الطاعة يهدون إليها وأولئته قادة إلى سبيل النصيحة يتمسك المناصحون بآثارهم فيها، باقيا على كثر الأيام ذكر مساعيمهم، وزائدة على تصرف الأيام حقوقهم، وياديا للعيون حميد أفعالهم، لا تتصرم الأخبار عن سالف لهم إلا وصلوه بمحادث، ولا يتقدم لهم من بلائهم أول إلا أتبعه آخر. ففلان يجرى في أمره على منهاج قد أوضحوه له، ويسلك في الطاعة طريقا قد سهلوا له مذاهبه، ويتمسك بعرا وثيقة قد رأى آثارها على من تقدمه، والله محمود . ولم يزل الله يعترف أمير المؤمنين في كل ما أسنده إلى فلان من أعماله وقلده من أموره، المبالغة في قضاء الحق عليه ويمن النقيبة فيما يتولاه، والاجتهاد في كل ما قربه من الله وخليقته . وأمير المؤمنين يحمده الله على ما ينحبه

به من نعمته ، وإياه يستعين على قضاء حقه ، إنه سميع قريب . فإن كتابك ورد على أمير المؤمنين بما لم ينزل يتطالع اليه منك ويؤمله عندك ، ويرجو أن يوفقك الله فيه لرشدك ، ويؤثرك منه بمحظك ، للذي كان يبلغه وينتهي اليه . من خبرك ، في أحوالك وتصرفك في خصال الخير ، وتثقلك في درجتها ، مساميا لاهل الفضل في مراتبهم ، مترينا بصالح أفعال الملوك في قصد سيرتهم ، وحسن طريقتهم ، ولين أكافهم . فحقق الله ظنه بك ، وأجاب دعاءه لك ، وبلغ بك أميته ، وأعطاه فيك رغبته . وكنت فيما هُديت له بانقيادك إليه راغبا ، ودخولك فيه محتسبا ، مستوليا على أسنى الأمور مؤونة ، وأفضلها ذخيرة ، وأعلاها درجة ، وخيرها عاقبة . وأعمها سلامة ، وأمنعها كهفا ، وأبقاها شرفا ، وأعدلها حكما ، وأطولها سلما ، مستحقا بذلك على الله عز وجل زيادة المملك فيها ، وبهاء الثروة ، وأنسباط القدرة ، واتساع المملكة ، وظهور الغلبة وعز التمكين ، والنصرة في الدار التي حُيت فيها بقليل ما يرجو أن تصير اليه من ثواب الله عز وجل وحسن مجازاته بالنعيم المقيم في دار الأمد ، ومحل الأبد ، بما لا يبلغه إحصاء ، ولا يكون له انتهاء ؛ وملاؤه فرحا وأبتهاجا ، وسرورا وجدلا ، ورجاء لك من الله عز وجل حسن عونه وتوفيقه أن يغلب لك على حظك ، وأن يأخذ إلى تقواه بقلبك ويجعل فيما عنده رغبتك ، وإلى ذلك سموك وهمتك . وليس ينفك أمير المؤمنين مقتفرا فيك أثرا يحمده ، ومتصفحا بغير يهجه ، ومستحدثا نعمة من الله عز وجل يرجو اتصالها وأتساقها لديه بك ، حتى يتناهى إلى الدرجة العليا ، والغاية القصوى ، فيما [يتبعه] من آجتثاث أرومة الفسقة وقطع دابره . وبالله الثقة والحوال والقوة ، متعزفا من الله فيما فارقه من جهاد عدوه أتم مصادق وعد القائمين بحقه ، الصابرين في جنبه ، وأحسن ما أبل ، ذائدا عن حريم ، ومحصنا أبيضة ، ومدافعا عن ملة ، فشمر شاريا لله نفسه ، طارحا عنه لباس الغفلة . متجافيا عن مهاد الوطأة ، وليس تدخله الخلة والوحشة على من كنت قريبا منه ، ولا يتمتع لأمر المؤمنين طرف أنت فيه ، ولا أمر يُعين عليه ويمسك بسبب من أسبابه .

(١) ياضر في الأصل والسياق يقتضى ما تشاء .

وصف الأولياء في الكتب

وصار أهل السُّمُو إلى الدرجة العليا، والاعتصام بالعروة الوثقى، من أولياء أمير المؤمنين وشيعته، مُنْشَرَحَةٌ صدورهم بمكانفته، مُنْبَسِطَةٌ أيديهم بمعاونتته؛ وقسم لأُمير المؤمنين من أولياء دينه وأنصاره، قَوْمٌ آزرهم بالنصر، وَكَتَفَهُم باليقين، وألَّف بصائرهم على الحق، وأيدهم بمُؤيَّدات التقوى؛ فلما أمرهم أطاعوا أمره، ولما فَرَضُوا في ذات الله طاعته، فرض الله نصرهم وتمكينهم، فجاهد مجاهدتهم مُسْتَبِصِرًا مُحْتَسِبًا، وقام قائمهم بالحق عليه مُخْلِصًا مُجْتَهِدًا؛ وقادتهم طلائع الدين ودواعيه أرسالا قُدَمَا، فَاتَّبَعُوا سبيله لا ناكين عن إقدام، ولا مُتَوَقِّفين عن آرتياب، ولا مُتَبَيِّنين، مع دخالهم وبصائرهم، عدوا ولا عنادا؛ طالبين بئثار الدين بُغَاةً، وبطوائل الإسلام عِدَاةً : من صنوف أمم الكفر ومردة الفناء وأئمة المُلْحدين؛ متقلدين للحق ونُصرتَه، وثَنُّنٌ الحَقَّ بهم ومضى، ولين مع الحق مَرَّ نَكَّت عنه بالسُّتْم وأيديهم، حتى فتح الله عزَّ وجل لأُمير المؤمنين معال الشُّرك وأُمَّة، وأناخ الباطل وأركانَه، وأعلام البِدَع وأبناعها، فَضَلًّا من الله وَنِعْمَةً، والله عليمٌ حكيمٌ؛ إن هزرتهم قطعوا قطع الحُسام، وإن أجزيتهم في عظيمةٍ وقعوا وقع الجياد، وإن استغنيت ودام الغناء لك عن جميع العالمين، كانوا رصداً لك فوق أعناق الحاسدين .

ما يُقرِّظ به أمير المؤمنين في أواخر الكتب

ليعرفوا موقع نعم الله عند أمير المؤمنين، يحوطه به في أوليائه، من النصر والتمكين؛ وعلى أعدائه من الوُقم والتودين؛ ويشكر الله على النعمة في ذلك، إن الشكر مُخَصَّن للنعم، وأمان من الغير، لِتَحَلُّوْ مواقع النعمة عليهم، فيما يجمع الله بأُمير المؤمنين من كلمتهم، ويحوط من حريمهم، ويحلُّل من بأسه ونقمته بمن صدف عن سبيله وحاول تشيت جماعتهم وتوهين حَقِّهم، ويقابلون ذلك بما تُرتبِط به نعمه، وَيُسْتَدْرَ مزِيدُه .

سعيد بن حميد

ليشكروا الله على ما منح خليفته من هؤلاء المتزاق الخارجين من جماعة المسلمين ، فإن الشكر أمان من الغير ومادة للزيد .

٣ - التماميد في أواخر الكتب

تحميد لسعيد بن نصر في آخر كتاب فتح له

الحمد لله المعز لدينه ، المظهر لحقه ، المؤيد لأوليائه ، الصانع للإسلام وأهله ، الناصر لخليفته ، الحافظ لما استحفظه ، المتوحد بالنعمة عليه فيما حمله .

تحميد لإبراهيم بن العباس في آخر كتاب فتح

فالحمد لله المزيل لما يمهّد المبطلون ، ويمكر به الماكرون ، ويكيد به الملهدون ، تمكيناً لعبده وخليفته ، وذباً عن دينه وحقه ، وإظهاراً لأوليائه وحزبه ، وإمضاءً لعزائمه وقدرته ، منعها قادراً ، ومُغنياً ممهلاً ، عدلاً إذا استدريج ، متفضلاً إذا أنعم ، حمداً يُستنزَلُ به نصره ، ويُبلَّغُ به رضوانه ، ويمتري بمثلته فواضل مزريده .

تحميد في فتح لإبراهيم بن العباس

والحمد لله بجميع تحامده التي حمد بها ، على جميع آلائه وجميل بلائه ، فيما ولي به خليفته ، ونصر به دينه ، وأقام به حقه ، وأعزّ به وليه ، وقع به من ألدّ عن سبيله ، حمداً يؤدّي حق نعته ، ويوجب به أفضل مزريده بمنه وطوله .

تحميد لأبي عبيد الله في آخر كتاب

فالحمد لله على ما يحدث لأمير المؤمنين في دولته وسلطانه ، ولعامة المسلمين من صنعه وكراماته ، في جسيم الأمور ولطيفها ، وخاصها وعامها ، بما يجعله للنعمة تماماً ، وعلى ما يحل بعدوه من بأسه وقوارعه ، ويوقع بهم من جوائحه وأستنصاله ، ما يكون لموعوده إنجازاً ، حمداً يبلغ رضاه وليستوجب مزريده .

تحميد آخر

الحمد لله الذي تم لأمر المؤمنين نعمته ، وأكمل دعوته ، وجعل العاقبة فيه لمن أختاره لخلافته ، ورد إليه من شدّ عنه من رعيته ، وأتى أمير المؤمنين بصنعه على حدّ نيته وقدر أمنيته ، ولم يُفِضْ رأيه ولم يُخلف ظنه ، حمدا كثيرا دائما بما يركو عنده فيقبله ، ويرفع إليه فيبلغ رضاه ؛ حمدا يكون لأوسع نعمه جزاء ، ولأفضل إحسانه كفاء . وللزبد من فضله وإحسانه موجبا ، وإلى أعلى الدرجات عنده مؤذيا ، وللخلود في جنته وسيلة وسببا .

آخر :

الحمد لله الذي جمع لأمر المؤمنين ما حبّاه بمزية نصره وتمكينه وإعزازة وتأبيده ، وإظهاره على من ناوأه وصدّ عن حقه ، وصدف عن طاعته ، ووفقه لأختصاص فلان بما وكّله إليه وعصبه به من أعباء أموره وجلائل أعماله ، وأجرى بفلان وعلى يديه وبركته وسعادة جدّه ويمنّ طائرّه ، من نتائج الفتوح ، وتواتر النصر ، وإقبال الصنع ، وإعلاء الحق وإنارته ، وإزالة الباطل وإبادته ، حمدا يؤدّي حقه ، ويرى عزه ، ويمير من أحسن^(١) مزيده ، بكرمه وجوده .

آخر :

الحمد لله الذي أكرم أمير المؤمنين بالخلافة ، وخصه بالإمامة ، وقلده من أمور عباده وبلاده ما تولّاه بكفائته وكلاءته وتأبيده وحياطته . حمدا يوجب المزيد من فضله .

ولإبراهيم بن العباس

الحمد لله الذي أنجز وعده ، ونصر عبده ، وأيدّ جنده ، وجعل فتوح أمير المؤمنين ترفقا وغربا مشفوعة بين إقامة حق وإدالة باطل وإزالة عائد وإبادة عائد وإقامة مستقيل . ويسأل الله أمير المؤمنين ، مسألة العبد سيده ومولاه رغبة إليه متذللا له أن يصلّى أفضل صلواته عنده على أكرم أنبيائه .

(١) سقطت في الأصل كلمات فابتدأ ما يقوم مقدمها .

دعاء أمير المؤمنين في الكتب والدعاء له

وأمر المؤمنين يسأل الله ربه ووليّه ، أن يكفنه فيما حباه وأستحفظه عليه بأفضل تأييده وأعز نصره ، وأن يهب له مع كل نعمة يجتدها له حارساً من شكرها ، يتابع به أفضل مزيده ، فإن النعمة منه ، والشكر بتوفيقه ، والمزيد لمن شكره .

وأمر المؤمنين يسأل الله ربه وربكم ووليّ النعم عليه وعليكم ، أن يُلهمه وإياكم أداء حقّه وشكر نعمته وحمده عليها ، ويطوّقه وإياكم أفضل الأعمال وأرضاها عنده وأشدّها أستيجاباً لما وعد الشاكرين من مزيده ؛ إنه سميع قريب .

وأمر المؤمنين يسأل الله الذي ولّاه خلافته وأعلاه بها ، أن يطوّقه ما حمّله ، ويلهمه العدل بين رعيتيه ، ويلهمهم نصيحتته وطاعته ، ويصلح أمرهم به في ولايته وخلافته . ويرغب الى الله الذي أيّده بنصره ومكن له بغير حول منه ولا قوة ، أن يُلهمه وإياكم شكره وذكره وخشيته ، ويشمله وإياكم بطاعته ومَرْضاته ومحبته ، وأن يعترفه وإياكم الزيادة في نعمه والنصر على عدوّه والتمكين في بلاده ؛ إنه ذو فضل عظيم .

والى الله يرغب أمير المؤمنين في إعانتته على نيته وتبليغه منتهى سؤاله وعاية همته وإعزاز دينه وإذلال من صدّ عن سبيله ؛ إنه سميع قريب . وأمر المؤمنين يسأل الله الذي دلّ على الدعاء تطوّلاً وتكفلاً بالإجابة حتماً ، فقال : ﴿ اُدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ أن يجمع على رضاه ألفتكم وأن يصل على الطاعة حبلكم ، وأن يمتعكم بأحسن ما عودكم من منته ، ويوزعكم عليها من شكره ما يواصل لكم به مزيده ، وأن يكفيكم كيد الكائدين ، وحسد الباغين ؛ ويحفظ أمير المؤمنين فيكم ، أفضل ما حفظ به إمام هدى في أوليائه وشيعته ؛ ويحمل عنه ثقل ما حمّله من أمركم ؛ وباللّهِ يستعين أمير المؤمنين على ما ينوي من جزائك بالحسنى ، وحملكم على الطريقة المثلى ، وبه يرضى لكم ناصراً وولياً ، وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً .

ويسأل الله أمير المؤمنين ، أن يُحسّن على صلاح نيته وعونه ، وأن يتولّاه فيما أسترعاه ،

ولايةً جامعة ، لصلاح ما قلّده ، إنه سميع قريب .

ويسأل الله أمير المؤمنين الذي بيده مفاتيح مقاديره وفواضله ، أن يُصَلِّيَ أفضل صلواته على أفضل أنبيائه ، وأن يجعل ما اذخر لأمر المؤمنين إلى دولته وخلافته ، وجباة به من وسائل الخير عنده ، أن يجمع إلى أحسن توفيقه لما يرضى من شكره وحسن معونته على ما أصلح له ربه ، فإنه شاكر يحب من شكره ويوجب لمن وثق لشكره مزيدا بمنه وطوله وفضله وإنعامه ، إنه جواد كريم .

ويسأل الله أمير المؤمنين مُبتدئا ومُعقبا وأولا وآخرا ، وقبل كل مسألة ، وأمام كل رغبة ومقدمة كل طلبة ، أن يصلي على صفوته من عباده وخير خلقه وخاتم أنبيائه ورسوله ، مجد عبده ورسوله ، أفضل صلواته ، ويبارك عليه أكثر بركاته ، وأن يديم له كرامته . ويحجى عنده على أجل عاداته ، وأن يتم له ما اختصه به من إحسانه ، حتى يملأ الأرض عدلا وقسطا ، والإسلام تأييدا وعزا ، والشرك ذلا وقمعا ، إنه ولي نعمته ومنتهى كل رغبة ، وغاية كل حاجة ، وهو على كل شيء قدير .

وأمر المؤمنين يقول : أحمده طاعة لأمره ، وأعتصما من الفتنة بشكره . وأستدامة^(١) لنعمة المترايدة عنده ، إنه سميع قريب .

وأمر المؤمنين ، يسأل الله السامع كلام من جهرا ، والعالم بغيب من أسرا ، المطيع على ضمائر العباد ووسوستهم ، والمستنقذ من نساء برحمته ، والمؤمن على من نساء بقدرته ، أن يجمع على الحق أهواءكم وينصركم على أعدائكم ويصلح ذات بينكم ولا يكلكم في موطن من مواطن اللقاء ، والتحاكم والتناجز ، إلى أنفسكم ، ويكفيكم ويكفيكم بك إنه سميع قريب .

الدعاء لأمر المؤمنين في أواخر الكتب

ونسأل الله أن يبتأ أمير المؤمنين ما صنع له ، ويعينه على شكر ما أولاد ، إنه ولي ذلك وإنا إليه فيه راغبون والسلام .

(١) في الأصل المتأخذ . وما أثبتناه صحيح .

وله :

ونسأل الله أن يهبنا أمير المؤمنين الكرامات التي يتابعها ، والنعم التي يظاهاها عليه ، والفتوح التي جعلها في خلافته ، وولاياته ودولته ، ويهب له من المعرفة بحقه في ذلك والشكر له بحسن بلائه فيه ، ما يبلغ أعظم رغبة وأقصى أمنية ، من ذخائر الخير وفضيلة الأجر وحسن الثواب في الدنيا والآخرة .

أسأل الله لأمر المؤمنين في غابر أموره ، أحسن ما عوّده في سالفها ، من السلامة التي حرسه بها من المكاره ، والعز الذي قهر له به الأعداء ، والنصر الذي مكّن له في البلاد ، والهدى الذي وهب له به الحجة ، والرفق الذي أدّر له به الحلب ، والاستصلاح الذي آتت له به الرغبة ، حتى يكون بما أعطاه من ذلك ، وما هو مستقبل به ، أبعد خلفائه ذكرا ، وأبواقهم في العدل أثرا ، وأطولهم في العمر مُدّة ، وأحسنهم في المعاد مُتقبّلا .

أسأل الله لأمر المؤمنين نعمة لا تزول ، وكرامة لا تتفد ، وعز لا يضام ، ونصرا لا يقاب ، وكفاية ينتظم بها جميع الصلاح ، حتى لا يكون بأول من ذلك أسعد منه بآثر ، ولا بفاض أسر منه بمستقبل .

أسأل الله لأمر المؤمنين في عاقبة كلّ نعمة أفضل ما وهب له في عاجلها ، حتى يجعل كلّ نعمة أنعم بها عليه ، وكرامة حازها له ، موصولة بالتمام ، محوطة بالحفظ ، مكثورة من الغير ، ممدودة الى طول غايات البقاء ؛ لا يشوب صفوها كدر ، ولا سلامتها غير ، ولا سرورها تنغيص ؛ وهنّا الله أمير المؤمنين الظفر ، وأدام له عادة النصر والتمكين الموضع ، ومُجّته المدحضة لمحجة أعدائه ، والغلبة المظهرة لحقه ، المُجّاحة لمن خالفه ؛ ثم لا برحت نعمة الله راهنة بمثله في الأولياء نصرا ، وفي الأعداء إباحة ، وفي الناكثين تنكيلا .

سر الله أمير المؤمنين بما أهدى له من كفايته ، وحاطه به من منعته ، وأيده به من نصره ، وجنبه وما استرعاه من دينه وسُلْطانه ، في كنفه الذي لا يُستباح وتحت يده المانعة وجناحه المحفوظ .

أدام الله لأمر المؤمنين السرور بما يُقَدِّى به عيون أعدائه في تمكينه وتوهمينهم، ونَصْرِهِ
 وخِذْلَانِهِمْ، وإِعْزَازِهِ وَالْمُجَاهِدَةَ لَهُمْ؛ وَلَا زَالَتْ نِعْمَةُ اللَّهِ تَرْبِيدَهُ فِي قُوَّةِ الظَّفَرِ، وَعِزَّةِ النِّصْرِ،
 وَتَفْصِدِ مِنْ آفَاقِ الْأَرْضِ بِالْبِشَارَاتِ وَالْفَتْوحِ، حَتَّى تَمَلَأَ لَهُ مَا بَيْنَ طَرَفَيْ مُلْكِهِ أَمْنَا وَعِزًّا،
 وَيَمَلَأَ بِهِ قُلُوبَ أَعْدَائِهِ خَوْفًا وَرِعْبًا، وَيَعِدَّهُمْ عَلَى خِلَافِهِ سَطْوَةً وَتَسْكِينًا .

أحمد بن يوسف

وهنا الله أمير المؤمنين نِعْمَةً، ومَلَأَهُ كِرَامَتَهُ، وَأَوْلَى لَهُ قُتُوحَهُ، وَأَدَامَ إِعْزَازَهُ، وَتَوَلَّى
 حَيَاطَتَهُ وَكِفَايَتَهُ، فِيمَا دَنَا مِنْهُ وَمَا غَابَ عَنْهُ، وَأَطَالَ بَقَاءَهُ وَالِامْتِنَاعَ بِهِ .

مختار ما كتب من باب التهاني في كل فن

تهنئة خليفة بظفر

الحمد لله الذي جمع لأمر المؤمنين مع الغلبة المحجة، ومع الظفر المعذرة، وجمع لعدوه
 مع الذل السطوة، ومع دحوض المحجة النكال؛ فلم يجمعه والناكثين موطئ من مواطن
 الصبر، إلا جعل المحجة عليهم فيه، ولسان العذر فيه معه، ويد الظهور فيه له؛ ثم وهب له
 عند الظفر من الشكر، وعند الفلج من التواضع، وعند القدرة من العفو، ما جعله مستوجباً
 لما أصفاه به، معترفاً بأن العذر منقطع ممن نكبه، وأن مستراد المحجة ومطلب السلامة،
 في التمسك بطاعته ومناصحته، والمجاهدة دونه .

وفي مثله :

أدام الله لأمر المؤمنين السرور بما يُقَدِّى به عيون أعدائه .

وكتب إبراهيم بن المهدي إلى المعتصم يهنئه بخروجه عن أرض الروم

بعد فتح عمورية

الحمد لله الذي تم لأمر المؤمنين غزوته، فأذل بها رقاب المشركين وشفى بها صدور
 قوم مؤمنين؛ ثم سهل الله له الأوبة سالماً غانماً، وكذا وكذا؛ وليهنئه ما كتب الله له، مما

أحصاه فلا ينسأه، ليقفه به موقفا يرضاه، فإنه عز وجل يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ الآية، فطوى الله لأمر المؤمنين نازح البعد بزا وبجرا، ووقاه وصب السفر سهلا ووعرا، وحاطه بحراسته كالثا، ودافع عنه بحفظه راعيا؛ حتى يوديه الى المحل من داره، والوطن من قراره؛ وجزاه عن الإسلام خاصة، وعن رعيته كافة، بتخييره مستخلفا عليهم، وقائما مقامه فيهم هرون ابن أمير المؤمنين؛ فقد استخلفه ريفا شميقا، حليا وقورا، يقظان ساكنا؛ لم يندب عليه أمر، ولم ينتشر عليه طرف، ولم يضع معه سبيل، ولم يسخط وليا مكانفا، ولا عدوا مخالفا، بلا سيف أشرعه، ولا سور أقرع به؛ فمثل جزاء أمير المؤمنين في تخييره إياه، بجزاه الله على ما حفظ من وصاته، على محمود مقامه، إنه مجيب الداعي .

وكتب أحمد بن يوسف الى عبد الله بن طاهر

يهنئه بظفر

بلغني - فتح الله عليك - خروج ابن السري اليك، فالحمد لله الناصر لدينه المعز لوليته وخليفته على عبادته، المذل لمن صد عن حقه ورغب عن طاعته؛ ونسال الله أن يظهر النعم ويفتح بلدان الشرك به؛ والحمد لله على ما والاك منذ ظننت لوجهك، فإننا نتذاكر سيرتك في حربك وسلمك، ونكثر التعجب لما وقفت له، من وضع الشدة والليان بموضعهما، ولا نعلم سائر جند ولا رعية عدل بينهم عدلك، ولا عفا بعد القدرة عمّن أسفه وأضعفه عقوك .

تهنئة خليفة بجح

أصلح الله أمير المؤمنين وأراه من الزيادة في نعمه، ما يكون تماما لما ابتداء به من فضله؛ والحمد لله على ما خص به أمير المؤمنين من كرامته، وأعطاه من الفضل في نيته، وجعله يستعين على دينه، بما بسط له في دنياه، ويحل على بدنه النصب فيما يتقرب به اليه؛ فيجفو عن دعتيه على لينها، ويشخص عن طمأنينته على فضلها، إثارا لآخرته، وأداء لحق ربه؛ بادر له بذلك ليكرمه به، ثم يستعمل فيه نفسه، تقربا اليه، فيسعد بالإذن

في ذلك حين كان من الله له ، وبالعامل فيه حين كان لله منه ؛ فيكون قبوله الخير حين يعرضه له ، دليلا على قبوله الخير عنه حين يعمل لربه ؛ وكان من ذلك ما أذن الله لأمر المؤمنين في زيارة نبيه صلى الله عليه وسلم العام ، وموافاة مشاعره العظام ، في وقتها من الأيام ، التي لاتوافق إلا معها . ولا تكون مناسبة إلا فيها ؛ فكتب الله له في ذلك الآثار الصالحة والأعمال المبرورة ، فدخل في الإحرام له بتعظيم حقه ، وخرج منه بقضاء نسكه ، اجرا عقده الله عليه في آبتدائه ، ثم آتمه له باستيفائه .

ولمحمد بن مكرم تهنئة لحاج

بلغك الله الرضا في أمك من نوح كل حاجة وإبلاغ كل أمنية ، وتقبل كل دعوة خصصت بها نفسك أو عممت بها أحدا من أهلك ، في جامع وفوده ، ومعتزل قراره ، فكنت شافع من شاهدك ، ووافد من غاب عنك ، يستفتح بدعائك ، وبرجى بركة محضرك ، والقربة الى الله عز وجل بفضل جاهك .

تهنئة بولاية

نرى ما أحدث الله لك من الولاية ، لنا حاصا وإلينا واصلا .

آخر :

ولم تخطني النعمة إذ أصابتك ، ولم تتعدني إذ دخلت بك ، ولم أخل من لازم شكرها ، وما ينفلك الله منها ، إذ قلدها ، اعتدادا بكل ما طوقت من المن ، وإيحا با على نفسى ما حملت من الشكر .

ولسعيد بن حميد الى بعض إخوانه

سرك الله بتتابع نعمه ، وترادف إحسانه ، وزادك من فواضل أقسامه . بلغنى — أكرمك الله — ما وهب الله لك من سلطانك ، فقواك الله على ما استرتاك . ورزقك الشكر على ما أولاك .

وفي مثل ذلك :

أكل الله لك السعادة ، وزادك في الكرامة ، وخصّصك بدوام النعمة . بلغنى ما وهب الله لك من سلطانك ، فسُرت به ، وسألت الله إتمام نعمه عليك فيه بتأييدك ، وتوفيقك للعدل في سيرتك ، وغرس المحبة لك في قلوب رعيّتك ، وأن يُعينك عليه ، ويرزقك السلامة في الدين والدنيا .

وله في مثله :

أَنَا أَهْنِي بِكَ الْعَمَلَ الَّذِي وُلِّيتَهُ ، وَلَا أَهْنَيْتُكَ بِهِ ، لِأَنَّ اللَّهَ أَصَارَهُ إِلَى مَنْ يُورِدُهُ مَوَارِدَ الصَّوَابِ ، وَيَصْدِرُهُ مَصَادِرَ الْحِجَّةِ ، وَيَصُونُهُ مِنْ كُلِّ خَلَلٍ وَقَصِيرٍ ، وَيُضْمِيهِ بِالرَّأْيِ الْأَصِيلِ ، وَالْمَعْرِفَةِ الْكَامِلَةِ ، قَرَنَ اللَّهُ لَكَ كُلَّ نِعْمَةٍ بِشُكْرِهَا ، وَأَوْجِبَ لَكَ بَطُولَهُ الْمَزِيدَ مِنْهَا ، وَأَوْزَعَكَ مِنَ الْمَعْرِفَةِ بِهَا مَا يَصُونُهَا مِنَ الْفِتَنِ ، وَيَحُوطُهَا مِنَ النِّقْصِ .

آخر :

قَدْ وُلِّيتَ مِنَ الْعَمَلِ مَا أَسْأَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَرْزُقَكَ بِرِكَتِهِ بِدَعْوَةِ عَاقِبَتِهِ ، وَيُعْطِيكَ الرِّضَا مِنْ وَايَتِهِ لَهُ وَعَلَيْهِ .

آخر :

هَنَّاكَ اللَّهُ هَذِهِ النِّعْمَةَ الْمُقْبِلَةَ ، الدَّالَّ أَوْطَأَ عَلَى تَامِمِهَا ، وَأَوْزَعَكَ شُكْرَهَا .

آخر :

أَسْعَدَكَ اللَّهُ بِهَذِهِ الْوَلَايَةِ وَجَعَلَهَا مَبَارَكَةً ، تَنْتَقِلُ بِظِلِّ السَّلَامَةِ مِنْهَا ، وَنَيْلِ الْكِفَايَةِ فِيهَا إِلَى أَمَلِكَ بِنَهَائِهِ وَرَجَائِكَ بِغَايَتِهِ ، وَرَزَقَكَ السَّلَامَةَ مِنْ وَايَتِهِ لَهُ وَعَلَيْهِ .

آخر :

سَرَّكَ اللَّهُ بِمَا جَدَّدَ لَكَ مِنْ هَذِهِ الْمَنْزِلَةِ ، وَفَعَّلَكَ بِهَذِهِ الْوَلَايَةِ ، وَأَرْضَى عَنْكَ مِنْ وَايَتِهِ لَهُ وَمَنْ وَايَتِهِ عَلَيْهِ .

وكتب محمد بن مكرم الى أحمد بن دينار :

نحن من السرور أيها الأمير بما قد استفاض من جميل أثرك فيما تلي من أعمالك ،
 وزمك إياها بجزمك وعزمك ، وأتياشك أهلها من جور من وليهم قبلك ، وسرورهم بتطاول^(١)
 أيامك والكون في ظل يدك وجناحك ، في إعانة من تتخصه وتعمه نعمتك ، وتحول به
 الجول حيث حالت بك ، فالحمد لله الذي جعل العاقبة لك ، ولم يردد علينا آمالنا فيك
 منكوسة ، كما ردّها على غيرنا في غيرك . ولو ددّت أن أباك كان عين آثارك هذه ومناقبك ،
 وإن كان الأفتراق لم يقع بينكما حتى علم أنك خلقتك ، وألقى اليك بأمره ومعاهد ثقته ،
 وجعلك موضع اختصاصه وأثرته ، وصرف ذلك عن من كان لا يستحقّه ، وذم سالف رأيه
 فيك وفيه وحيد آخره ، ثم نعمة أتصلت لك بما قبلها ، انتظمت بها أمورك فاعتدلت ،
 وتلاحمت عليها وآسقت ، ما منحت في كاتبك ، ووستقتز ثقتك ، وحامل أعبائك ، من
 الكفاية والنصيحة ، ووضع عن قلبك مؤونة التهمة والقص لأثره ، وإدخاله راحة الطمأنينة
 إليه وروح الثقة به ، لا كما ابتلي أخوك ، فإنه صحبه غلظ عليه أمره ، وأقشى أسراره الى
 صاحب بريده ، فأنفل ذلك بينهم ، وقطع جبالهم ، حتى هجنت آثاره مع حسنها ووضوحها ،
 وصفرت يده من حظ عمله ، ولزيمه الذم من أهله ؛ فهذه كُتبه إلى ، في أطراح نصيحة له
 كانت فيه ، ويسألني أن أشخص إليه كتابا يحمل ثقله ، ويفتح له ما أرتجه من أمره . وهذا
 من سعادة جدك ، ويمن طائرک ، وإقبال الأمور اليك ، وسعيا على طريق موافقتك ،
 وديننا هناك الله نعمة خاصها وعاقها ، وأوزعك شكرها ، وأوجب لك بالشكر أحسن المزيد فيها .

تهنئة بعزل

كتب رجل الى مالك بن طوق لما عزل عن عمله :

أصبحت والله فاضحا متعبا : أما فاضحا فللكل وال قبلك بحسن سيرتك ؛ وأما متعبا

فللكل وال بعدك أن ياحقمتك .

(١) أتياشك أهلها ؛ استفادهم .

فصل

سواء علينا أوليت أم صرفت ، إنا لنشهد بك الولاية ، بما بسط الله من يدك ببذل العرف ، ونهنتك بالعرف بما يلحقك من ثناء ما أسلفت من الجميل ؛ ولا نخاف عليك أن تفارق عملا وأنت محل له ، ولا أن تصحبه وليس به فاقه إليك . فهناك الله النعمة ، وأطانك على الشكر ، وأيدك بالمزيد .

تهنئة بعزل عامل عن عمله

بإغنى صرفك ، فخار الله لك ، وهنالك لطيف نظره وجميل إحسانه ، فإني أرى الرجل عند خروجه من العمل سالما نقيًا من مآثمه ودنسه ، أولى بالتهنئة منه عند دخوله فيه ، وأرى الدعاء له عند بدء تلبسه به بالخلاص منه معصوما بريئا من تبعاته ورواجع آثامه ، أولى بن عبي به وأحب صلاحه ، ولذلك قدمت تهنيتك .

ولسعيد بن حميد في مثله الى بعض إخوانه :

حفظك الله بحفظه ، وأسبغ عليك كرامته ، وأدام اليك إحسانه . إن سرورى بصرفك ، أكثر من سرور أهل عمالك بما خصصوا به من ولايتك . وقد كنت — أعزك الله — فيما يربأ بك عنه ، بما أنت عليه في قدرك وأستهالك ؛ ولكنا رجونا أن يكون سببا لك الى ما تستحق ، فطبنا نفسا بالذى رجونا . فالحمد لله الذى سأمك منه ، ونسأله تمام نعيمه عليك وطينا فيك ، بتبليغك أملك وآماننا فيك ، وشفاع ما كان من ولايتك بأعظم الدرجات وأشرف المراتب ؛ ثم خصك الله بجميل الصنع ، وبلغك غاية المؤمنين . إن من سعادة الوالى — حفظك الله — وأعظم ما يُخص به فى عمله وولايته السلامة من بوائق الإثم ، ونواب الدنيا وشرها ، والعاقبة مما يُخاف منها ؛ وقد خصك الله منها بتمه وطوله ما نرجو أن يكون سببا لك الى نيل ما تستحق من المراتب . والله نسأل إيزاعك شُكرا ما من به عليك ، وتبليغك غاية أملك فى جميع أمورك ، برحمته وفضله .

آخر :

ما أحسن ما كَشَفْتَ عنك الولاية، وأجمل ما أبرزت منك العمل ، قد كسبك الله حمد ولايتك وعَزَل عنك لآئمتها ، بما أنشرك من عدلك ، وظَهَرَ من معروفك ، فاذا ساءك هذا فليسررك .

وكتب محمد بن مكرم الى ابراهيم بن المدبر :

الحمد لله رب العالمين حمداً يُجوز حمدَ الحامدين ، الذي جعل قضاءه خيرة لك ؛ فإن زادك نعمة وَّفَقك لشكرها ، وإن آمتحك ببلوى من نَفَث حاسد أو كَيْد كائد ؛ أثار برهانك وأفْلَح مُجْتَحِك وجمع بين وليِّك وعدوك في الشهادة لك ؛ وإن نَقَلَ أمرا عن يدك ، فربما يرجعه اليك مُخْتَلًا لفقْدك . هذا الى ما جعل عندك من خواص النعم التي إن ذكرناها فأطنبنا أو تجوزنا فقصرنا ، كان غايتنا الى الحُسُور دون مَدَى غايتك . وقد زادك الله بهذا الحادث فضلا عظيما ؛ لما ظهر من وَلهِ العامة اليك وتطلُّعها الى ما كانت فيه : من لين إنصافك وكرم أخلاقك ، ووَحْشَةِ الخِصَّةِ لما فَقَدْت من حُسن مُعاملتك وكثير تفضُّلك . وأيقن أهل الرأى والتأمل لصفحة الامور ، أن كل ما نَحْرَج عنك فعائد اليك ومتصل به غيره ، حتى تستقر في يدك عُرا الامور ومعاقدها ، وتُفْتَح برأيك وتديريك أبوابها ومغالقاتها ، فليهنك أن كل ما زاد غيرك نقصا زادك فضلا ، وكل ما نقص من الرجال وحطها ألحق بك شرفا . فزادك الله وزادنا منك ، وجعلنا ممن يقبله رأيك ، ويقدمه اختيارك ، ويقع من الامور بموافقتك ، ويجرى منها على سبيل طاعتك .

وكتب سعيد بن حميد الى بعض إخوانه :

جعلني الله من السوء والمكروه فداءك ، وأطال في الخير والسرور بقائك ، وأتم نعمه عليك ، وأحسن منها من يدك ، وبلغك أقصى أم نيتك ، وقدمني أمامك ، وقد بلغني ما اختار الله لك ، فسُررتُ من حيث يغم لك من لا يعرف قدر النعمة عليك ، ولا يراك بعين استحقاقك .

ولئن ساءنى ما ساء إخوانك من عزلك ، لقد سرّنى ما يسّر الله لك . والحمد لله الذى جعل انصرافك محمودا ، وقضى لك فى عاقبتك الحسنى ، وأقول :

لَيْهَيْكَ أَنْ أَصْبَحْتَ مُجْتَمَعَ الْحَمْدِ * وَرَاعَى الْمَعَالَى وَالْحَمَامَى عَنِ الْمَجِيدِ
وَأَنْكَ صُنْتَ الْأَمْرَ فِيمَا وَلَيْتَهُ * فَفَرَّقْتَ مَا بَيْنَ الْعَوَايَةِ وَالرُّشْدِ
فَلَا يَحْسِبُ الْبَاغُونَ عَزْلَكَ مَعْنَا * فَإِنَّ إِلَى الْإِصْدَارِ عَاقِبَةَ الْوَرْدِ
وَمَا كُنْتُ إِلَّا السَّيْفَ جُرْدًا لِلْوَعَى * فَأَحْمَدُ فِيهَا ثُمَّ رُدُّهُ إِلَى الْغَمْدِ

وقد قال الأول :

فمن يكنُ بورود العزل مُكتئبا * فإننى بورود العزلٍ مسرور
بعدّ الولاية عزلٌ يستبين به * طولُ الولاية وبعدّ العزلِ تأمير

أما ما عندى مع تصوّر العاقبة لك فى نفسى ، فيمسنى فى أمرك فى حال المحنة ما يخصنى منه فى وقت تجدد النعمة . وبحسب ضميرك الشاهد على ما عندى ما أجده لك فى نفسى . فلا زلت فى نعيم متابعة متجددة ، ولا عدمت الثروة والزيادة ؛ وبلغك الله أقصى أملك ، وأمل أخيك لك ، وكبت أعدائك ، وجعلنى وِقائك المقدم عنك . أحب أن تشرح لى صورة الأمر لإلام تأدّت ، وكيف كان الابتداء ؛ فإنى لا أشك أنها حيلة ونية من عزّ الصاحب الجليل القدر ؛ ولها عاقبة منه إن شاء الله محمودة ، وتُفضى من ذلك الى ما تسكن اليه نفسى ، إن شاء الله .

تهنئة بتزويج وبناء بأهل

بطائر اليمين فليكن هذا البناء ، وبأسباب السعادة فليتصل عقد هذا الاجتماع ، وبكل ذكاء الولد ، وثروة العدد ، فلتجرك الأقدار ، وفى أطول غايات البقاء فتندم هذه الغبطة والسرور .

تهنئة بتزويج -

بلغنى تزوجك من فلانة ، فبالرفاء والبنين ، تهنئة السلف الصالحين ، ومبلغ سنة المجتهدين المتبحرين ، ونقول على يمين الطائر ، وسعادة الحدّ ، ونماء العدد ، واتفاق الهوى ، وطيب

المناسمة، واجتماع الشمل، وثبات الربيع، وتملئ النعم . أسأل الله الذى قضاها أن يجعلها لك سَكًا ويجعلك لها شجنا ، وأن يُؤخر جماعها الى آتباء نفسك عنها ، وجعلك جائزا تُربها ، ووليت المال وهناءة العيش وملاهاة الفوانى بعدها .

تهنئة لغسان بن عبد الحميد بتزويج

قد بلغنى جمع الأمير أهله على الحال التى جمعهم عليها من نعمة الله عليه . فالحمد لله على كل ما يرى الأمير فيها له فيه نعمة . فأسأل الله أن يجعل الطائر فى ذلك ميمونا ، والشملى مجتمعا ، والبركة عظيمة ، والأمر سليمة ، وكذلك فقد عظم الله القسم منه لزوجه ، جعل الأمير سَكًا لها ، وأجرى المودة والرحمة بينهما ، فإنه يقول عز وجل : ﴿ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ . فلما كان الأمير هو المنظور اليه ، وهى المنظور إليها . آخارها الأمير لنفسه وآخار نفسه لها ، وأراد الله عز وجل أن يزيدها مع فضلها فى نفسها فضلا باختيار الأمير إياها ، وباختصاص الله لها بالأمير دون غيرها ؛ فكان ذلك فضلا من الله زينه بفضل ، وكرامة من الله وصل بعضها ببعض . فترغب الى الله عز وجل فى أن يزيد الأمير فى كل سعة مبسوطة ، ونعمة مقسومة ، ويعطيه فى ذلك شكرا يكون رضاه موجبا ، كما أعطاه فضلا كان الشكر له به واجبا ؛ ثم يملئ الأمير ذلك بأحسن ما ملئ أحدا من خلقه كرامة اصطنعها عنده .

تهنئة بمولود

كتب العباس بن الحسن الطالبى الى المأمون يهنئه بمولود له :

قد كان أجدنلى ما أحدث الله لأمر المؤمنين من الموهبة التى ليس ، وإن كان أولى بها من غيره ، بأعظم فيها حظا من رعيته . فعمّر الله لك يا أمير المؤمنين قلوبهم بنور الحكمة وأبصارهم حتى يئسد بهم عضدك ، ويئسد بهم نؤتكت . ويبلغهم الغاية المأمول لهم بلوغها بعدك ، غير مقعد بك مهل ، ولا محل بك أجل ، ولا مكذبك أمل ، ولا منقطعة أيامك ، حتى تحترم أنفسنا قبلك .

وكتب أحمد بن يوسف الى بعض إخوانه يهئته بمولود له :

بارك الله في مولودك الذى أتاك، وهنأك نعمته بعطيته ، وملاك كرامته بفائدته ،
وأدام سرورك بزيادته ، وجعله باراً تقياً ، ميمونا مباركا زكيا ، ممدودا له في البقاء ، مُبلّغا غاية
الأمل ، مشدودا به عَضُدُكَ ، مُكثِّرا به ولُدُكَ ، مُداما به سرورك ، مدفوعا به الآفات عنك ،
مشفوعا بأكثر العدد، من طَيِّبِ الولد .

وله في مثل ذلك :

هَنَّاكَ الله هذه الفائدة التى أفادكها ، وبارك الله فى الهبة التى رزقكها ، وشفعها بإخوة
متواترين ، يَسُرُّونك فى حياتك وَيُخْلِفُونَكَ فى عَقْبِكَ .

تهنئة بمولود

كتب رجل الى رجل يهئته بمولود :

جُعِلَتْ فِدَاكَ . للبقاء مولودك ، فى السناء نباته ، وفى الأيمن شبابه ، وعلى البركة ميلاده .

تهنئة بمولود .

كتب الحسن بن سهل الى ذى الرياستين :

إنه ليس من نعم الله ، وفوائده قِسَمَه — وإن خَصَّ موقعها ووجب شكرها — نعمة تُعَدِّل
النعمة فى الولد ، لتأتمها فى العدد ، وزيادتها فى قوة العضد ، وما يُتَّعَجَلُ به من عظيم هيجتها ،
وُيرجى من باقى ذكرها فى الخُلوْف والأعقاب ، ولاحق بركتها فى الدعاء والأستغفار . وإت
الله قد أفادك وأنالك غلاما سَرِيًّا ، سَمِيَّتَه فلانا ، فكان ميلاده عند فتح الله على أمير المؤمنين .
فرجوت أن تكون موافاته بالنصر الذى أظهرنا الله به على عدو الدين والمسلمين من دلائل
بركته ويُمْنِه ، وشواهد سعادته والسعادة به . فبارك الله لأمير المؤمنين فى طارف نعمه
وتالدها ، وَشَفَّعَ له قديم مننه بجادتها ، ورزقه ذكورا طَيِّبين مهديين ، يأنس بهم رُبْعُه ،
ويتصل بهم نجاحه ، ويعلمهم ذزية زاكية ، وبقية صالحة .

آخر :

بلغنى الذى وهب الله لك ، فجعله الله ذُخراً سدياً ، وعقباً كريماً .

عمرو بن مسعدة الى الحسن بن سهل

أما بعد ، فات هبة الله لك هبةً لأمر المؤمنين ، وزيادته إياك فى عدده لمحكك عنده ومكانك فى دولتك من دولته . وقد بلغ أمير المؤمنين أن الله وهب لك غلاماً سرياً ، فبارك الله لك فيه ، وجعله بازاً تقياً ، مباركا سعيداً زكياً .

تهنئة بمولود

الحمد لله الذى رضى منا بسير القول عند عظيم النعمة ، حمداً نستوجب به بقاء هذه الموهبة للنماء والفائدة ؛ فات نعمة الله وإن كانت لم تزل متتابعة ، فقد كان ما يقبض الأمل منا ذكر أفراد الأمير بنفسه وقلة نسله ، وما لا يؤمن من انقطاع الذكر بفوات الأجل ، ومن دُثور الأنام ، بواقع الجمّام ، وقد أصبحنا من الله من يدين فى فسحة المهل ، ومدته مواقع الأجل ، لمن أراد فيه موضع أملنا فى حسن الخلافة من الأمير وإحياء ذكره .

تهنئة بمولود

سرورك سرور يحضنى منه ما يحضك ، وتلبسنى فيه النعمة ما تلبسك ، والحمد لله على النعمة فيك وعندك .

كتب أحمد بن يوسف الى بعض إخوانه يهنئه بمولود :

أما بعد ، فقد بلغنى من متجدد نعم الله عز وجل عليك ، وإحسانه اليك فيما رزقك من الهبة ما أشتد جذلى به ، وسألت الله أن يشفعه بأمثاله ؛ ولذلك أقول :

قد شُفِعَ الواحد بالوافد * وأرغم الأنف من الحاسد

أبا حسين قرّ عيناً بما * أعطيته من هبة المساجد

قد قلتُ لِمَا بَشَّرُونِ بِهِ * بُورِكُ فِي الْمَوْلُودِ لِلْوَالِدِ
إِنَّا نَرْجُو وَافِدًا مِثْلَهُ * وَالطَّائِرُ الْمَيْمُونُ لِلْوَالِدِ

وله الى بعض إخوانه يهنته بمولود :

أما بعد، فإنه ليس من أمر يجعل الله لك فيه سرورا وفرحا، إلا كنتُ به بهجًا، أعتد فيه بالنعمة من الله الذي أوجب عليّ من حَقِّكَ وعِرْفاني من جميل رأيك . فزادك الله خيرا، وأدام إحسانه اليك . وقد بلغني أن الله وهب لك غلاما سريًا، أكل لك صورته، وأتم خلقه، وأحسن البلاء فيه عندك، فاشتد سروري بذلك، وأكثرت حمد الله عليه . فبارك الله فيه، وجعله بارًا تقيًا، يَشُدَّ عَضُدَكَ، وَيُكثِرُ عَدَدَكَ، وَيُقِرُّ عَيْنَكَ .

وكتب إسحاق بن يحيى الى بعض إخوانه يهنته بابنة له :

رُبَّ مَكْرُوهٍ أَعْقَبَ مَسْرَةً، وَمَحْبُوبٍ أَعْقَبَ مَعْرَةً . وَخَالِقُ الْمُنْفَعَةِ وَالْمُضِرَّةِ، أَعْلَمُ
بِمَوَاضِعِ الْخَيْرَةِ .

كتب ابن المقفع الى صديق له ولدت له جارية :

بارك الله لك في الأبنسة المستفادة، وجعلها لكم زينا، وأجرى لكم بها خيرا، فلا تكرها، فإنهن الأمهات والأخوات، والعلمات والخالات، ومنهن الباقيات الصالحات، ورب غلام ساء أهله بعد مسرتهم، ورب جارية فرحت أهلها بعد مساعتهم .

وكتب عبد الحميد بن يحيى الى أخ له في مولود ولد له وهو أول

مولود كان :

أما بعد، فإن مما أتعرف من مواهب الله، نعمة خُصِّصْتُ بِمِزْيَتِهَا، وَأَصْطَفَيْتُ بِخُصِّيصَتِهَا، كَانَتْ أَسْرَى مِنْ هِبَةِ اللَّهِ وَوَلَدَا سَمِيئَةً فَلَانَا، وَأَمَلْتُ بِبِقَائِهِ بَعْدَى حَيَاةٍ وَذَكَرَى، وَحَسَنَ خِلَافَتِي فِي حُرْمَتِي، وَإِشْرَاكَه إِيَّايَ فِي دَعَائِهِ، شَافِعَا إِلَى رَبِّهِ عِنْدَ خُلُوتِهِ فِي صَلَاتِهِ وَحُجَّتِهِ، وَكُلَّ مَوْطِنٍ مِنْ مَوَاطِنِ طَاعَتِهِ، فَإِذَا نَظَرْتُ إِلَى شَخْصِهِ تَجَمُّعًا بِهِ وَجَدِي وَظَهَرَ بِهِ



سرورى، وتعطف عليه منه أنه الولد، وتولت عني به وحشة الوحدة، فأنا به جليل
في معيبي ومشهدي، أحاول مس جسده بيدي في الظلم، وتارة أعانقه وأرشفه، ليس يعيدله
عندي عظيمات الفوائد، ولا منفسات الرغائب. سررتي به واهبه لي على حين حاجتي،
فشد به أزرى، وحملي من شكره فيه ما قد أدنى بتقل حمل النعم السالفة التي به، المقرونة
سرأوها في العجب بقدر ما يدركني به من رقة الشفقة عليه، مخافة مجاذبة المنايا إياه،
ووجلا من عواطف الأيام عليه. فأسأل الله الذي آمتن علينا بحسن صنعه في الأرحام،
وتأديته بالزكاه، وحرصه بالعافية، أن يرزقنا شكر ما حملنا فيه وفي غيره، وأن يجعل ما يهب لنا
من سلامته والمدة في عمره موصولا بالزيادة، معروفا بالعافية، محوطا من المكروه، فإنه
المتان بالمواهب والواهب بالمني، لا شريك له. حملي على الكتاب اليك لعلم ما سررت به
علمي بحالك فيه وشرك إياي في كل نعمة أسداها التي وتي النعم. وأهلل الشكر أولى
بالمزيد من الله جل ذكره. والسلام عليك.

تهنئة بنقلة الى دار جديدة

تأهى التي نقلتلك الى الدار التي أرجو أن يجعلها الله نُقْلة المكروه عنك، ونُقْلة السرور
اليك، ودوام نعمة الله عليك. جعلها الله لك أيمن دار وأعظمها بركة، ووصل نعمة فينا
عندك ونعمه عندنا فيك.

تهنئة لمحمد بن مكرم الى نصراني أسلم

أنا أقول الحمد لله الذي وفقك لشكره، وعرفك هدايته، فطهر من الأرتياب قلبك،
ومن الإفتراء عليه لسانك. وما زالت مخايلك مُثَمَّاة لنا بحملي ما وهب الله لك، حتى كأنك لم
تزل بالإسلام مؤسوما، وإن كنت على غيره مقيا. وكنا مؤميين لِمَا صرّت اليه، مشفقين
لك مما كنت عليه، واذكاد إشفاقنا يستعلي رجاءنا، أنت السعادة بما لم تزل الأنفس
تعد منك. فأسأل الله الذي تور لك في رأيك وأضاء لك سبيل رُشدك، أن يوفقك
لصالح العمل، وأن يؤتيك في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ويقيك عذاب النار.

باب المنظوم

١ - أبو نواس^(١)

كان أبو نُوَاسَ ينادم ولدَ المهديّ ويلازمهم فلم يُلَفِّ مع أحدٍ من الناس غيرهم ،
ثم نادى القاسمَ بنَ الرشيد ولقى منه أشياءَ كرهها وكُرِهَتْ له ، ففارقه .

(١) هو أبو علي الحسن بن هاني ، الشاعر المتفنن ، الجادّ المساجن ، صاحب الصيت الطائر ، والشعر السائر ،
ورأس المحدثين بعد بشار . وهو فارسي الأصل . ولد بقرية من كورة خوزستان سنة ٤٥ هـ ونشأ يتيمًا فقدمت به
أمه البصرة بعد سنتين من مولده ، فتعلم العربية ورغب في الأدب ، فلم تعبأ أمه بحاله وأسلمته الى عطار بالبصرة ،
فكثت عنده لا يفتر عن معاناة الشعر والاختلاف الى الأدباء والمجان ، الى أن صادفه عند العطار والبة بن الحبيب
الشاعر المساجن الكوفي في إحدى قدماته الى البصرة ، فأعجب كل منهما بالآخر ، فأخرجه والبة معه الى الكوفة ،
فبقى معه ومع ندمائه من خلفاء الكوفة وتخرج عليهم في الشعر وفاقهم جميعا . وقدم بغداد وقد أربت سنه على
الثلاثين ، فاتصل ببعض الأمراء ومدحهم ، وبلغ حبه الرشيد فأذن له في مدحه ، فدحه بقصائد ملئانة وحبسه مرة
على هجومه مضر .

وكان يقصد بعض عمال الولايات ومدحهم ومنهم الخصب عامل مصر ، ثم انقطع الى مدح محمد الأمين ،
وثبت عنده بعض ما يوجب تعزيره فسجنه ، ولم يلبث بعد خروجه من السجن أن مات ببغداد .
وكان أبو نواس جميل الصورة ، فكه المخضر ، كثير الدعابة ، حاضر البديهة ، متينا في اللغة والشعر والأدب ،
متعبا اليمانية على المصرية . وأجمع أكثر علماء الشعر وتقدمته وغول الشعراء على أن أبا نواس أشعر المحدثين بعد بشار
وأكثرهم تفنا وأرصنهم قولاً وأبدعهم خيالاً مع دقة لفظ وبديع معنى ، وأنه شاعر مطبوع برز في كل فن من
نون الشعر .

وامتاز عن كل الشعراء بقصائده الخمريات ومقطعاته المجونيات ، وكان شعره لقاح الفساد والقودة السيئة ، نقله
العزل من أوصاف المؤنث الى الذكر واخرج بذلك عن مألوف العرب وآدابهم إذ لم يكن ذلك معروفاً قبله وقبل
شيطانه والبه . وزاد على ذلك انفراده بالإبداع في وصف الخمر ، فكان نموذج سوء لمن تأخر ، فافتن بشعره الشبان
في زمانه وبعده وحاكوه وغلب عليهم هذا المذهب حتى صار الشاعر لا يعدد ظر يفا إلا اذا مزج شعره بشئ من
ذلك وإن لم يقع في محظوراته .

وصفه عبد الله الجوازقي قال : كان أطرف الناس منطلقا ، وأعزهم أدبا ، وأقدرهم على الكلام ، وأسرعهم
جوابا ، وأكثرهم حياء ، وكان أبيض اللون ، جميل الوجه ، مليح النعمة والاشارة ، ملفف الأعضاء بين الطويل
والقصير ، مسنون الوجه ، قائم الأنف ، حسن العينين والمضحك ، حلو الصورة ، لطيف الكف والأطراف ، وكان
فصيح اللسان ، جيد البيان ، عذب الألفاظ ، حلو الشبائل ، كثير النوادر ، وأعلم الناس كيف تكلمت العرب ، =

ثم جلس أبو نواس الى الناشئ الراوية فقرأ عليه شعر ذى الرمة ، فأقبل الناشئ على أبيه هاني وقال له : إن عاش ابنك هذا وقال الشعر ليقولنه بلسان شتوم .
ثم اتصل بوالية بن الحباب الأسدي ، لقيه بدار النجاشي الأسدي والى الأهواز للنصور ، فقال له والبة : لني أرى فيك مخايل فلاح ، وأرى أنك لا تضيعها ، وستقول الشعر وتلوفيه ، فأصحبني حتى أخرجك ، فقال : ومن أنت ؟ قال : أبو أسامة ، قال : والبة ؟ قال : نعم ، قال : أنا والله جعلت فدأك في طلبك ، وقد أردت الخروج الى الكوفة والى بغداد من أجلك ، قال : ولماذا ؟ قال : شهوة لقتائك ولأبيات سمعتها لك ، قال : وما هي ؟ فأنشده :

ولها ولا ذنب لها * حب كأطراف الزماح
جرحت فؤادي بالهوى * فالقلب مجروح النواحي
سل الخليفة صارماً * هو للفساد وللصلاح
أجداه كف أبي الوائد يداً مبارية الرياح
ألقى بجانب خصره * أمضى من الأجل المتأج
وكأ نما ذر الهبا * ء عليه أنفاس الرياح

فرضي معه ، ثم سأله أن يخرج الى البادية مع وفد بني أسد ليتعلم العربية والغريب ، فأخرجه مع قوم منهم ، فأقام بالبادية سنة ، ثم قدم ففارق والبة ورجع الى بغداد .

وكان أبو نواس متكلماً جديلاً راويةً خلا ، رقيق الطبع ثابت الفهم في الكلام اللطيف .
ويدل على معرفته بالكلام أشياء من شعره ، منها قوله :

وذات خد مورد * فضية المتجرد
تأمل العين منها * محاسناً ليس تنفد

= راوية للأشعار ، علامة بالأخبار ، كان كلامه شعر موزون . توفي - ١٩٩ هـ . ٥ . وتجدر ترجمته وأخياره وأشعاره في كتاب خاص باسم « أحار أبي نواس » لأبن منظور طبع مصر سنة ١٩٣٤ والأغاني (ج ١٨ ص ٢) و(ج ٦ ص ١١٠ ، ١٧٠ ، ١٨٦) و(ج ١٦ ص ١٤٨) وابن حلكات (ج ١ ص ١٣٥) وطبقات الأدباء (ص ٩٦) والشعر والشعراء (ص ٥٠١) والفهرست (ص ١٦٠) والعقد المرشد (ج ٣ ص ٣٣٧) .

فبعضه قد تنهى * وبعضه يتوَلَدُ

والحسن في كل شيء * منها مُعاد مرَدَدٌ

ومنها قوله :

يا عاقدَ القلبِ عني * هلا تذكرتَ حلًّا

تركتَ غيًّا قليلًا * من القليلِ أَقلًّا

يكاد لا يتجزى * أقلُّ في اللفظِ مِن لا

ومنها قوله في امرأة أسماها حُسن :

ان اسم حُسن لوجهها صفةٌ * ولا أرى ذا في غيرها جُمعًا

فهى إذا سُميت فقد وُصفتُ * فيجمعُ الإسمَ معنيينَ معًا

ومن قوله فيما يتعلق بالحكمة :

قل لزهير إذا حدًا رَشَدًا * أقلُّ أو أكثرُ فانت مهذارُ

سُخِنَتَ من شدَّة البرودة حتى صرتَ عندى كأنك النارُ

لا يعجبُ السامعونَ من صفتي * كذلك الثلجُ باردٌ حارُ

هذا شيء أخذه أبو نواس من مذهب حكاء الهند، فانهم يقولون: إن الشيء إذا أفرط

في البرودة انقلب حارًّا، وقالوا: إن الصنْدَل يحكُّ منه اليسير فيبرد، فاذا أكثر منه سخن .

قالوا: كان أبو نواس دعياً يخالط في دعوته . فمن ذلك قوله يهجو عربَ البصرة :

ألا كل بصرى يرى أنما العُلا * مَكْمَهةٌ سُخِقَ لهنَّ جَرِينُ^(١)

فان تغرسوا نخلاً فان غراسنا * ضرابٌ وطعنٌ في النحورِ سَخِينُ

فان أك بصرياً فان مهاجرى * دِمَشقُ وَاكِنُّ الحديتِ فنونُ

مجاور قوم ليس بينى وبينهم * أوأصرُ إلا دعوةٌ وظنونُ

إذا مادعا باسمي العريف أجبتُه * الى دعوةٍ مما على تهنونُ

(١) المكْمَهة : الفراس الكثيرة . والسْحَق : الطويلة ، يريد المحل . والجَرِين هما : موضع تجفيف التمر .

ثم هجا اليمن في هذه القصيدة بقوله :

لأزد عَمَّانٍ بالمهلبِ تزوةٌ * إذا افتخر الأقوامَ تمّ تليُنُ
وبكر ترى أن النبوةَ أنزلت * على مسمعٍ في الرِّحْمِ وهو جنينُ
وقالت تميمٌ لا نرى أن واحدا * كأحفتنا حتى المماتِ يكونُ
فما لمتُ قيساً بعدها في قُتَيْبة * ونغير به إن الفخار فنونُ
ولما نشأ أبو نواس بالبرصه وليس له بدمشق قبلُ ولا بعدُ .

ومما هجا به اليمن أيضا قوله لهاشم بن حديج :

وردنا على هاشم مصره * فبارت تجارتنا عنده

يقول فيها :

رأيتك عند حضور الخوا * ن شديدا على العبد والعبيده
وتتحدث حتى يخاف الجليد * س شذاك عليه من الحته
وتحتم ذاك بفخري عليه * يكندة فاسلح على كنده
فإن حديجا له هجرة * ولكنها زمن الرده
وما كان إيمانكم بالرسول * سوى قتلكم صهره بعده
تعدونها في مساعيمكم * كعدت الأهلة معتده
وما كان قاتله في الرجال * بجمل لظهر ولا يرشده
فلو شهدته قريش البطا * ح لما تحشت تارككم جلده^(١)

وقوله أيضا :

ما منك سلمى ولا أطلالها الدرس * ولا نواطق من طير ولا تحرس
يا هاشم بن حديج لو عدت أبا * مثل القلنس لم يعلق بك الدنس
إذ أصبح الملك النعمانُ وافته * ومن قضاة أسرى عنده حبس

(١) الحش : قشراجلد عن اللحم .

فابتاعهم بإخاءِ الدهر ما عَمَرُوا * فلم ينل مثلها من مثلهم أنس
 أورحت مثل حوى في مكارمه * هيات منك حوى حين يلمس
 أو كالسّموءل اذ طاف الهامُ به * في جحفل لحب الأصوات يرتجس
 فاخترتُكلاً ولم يفدر بدمته * إذ قيل أشرف تر الأوداج تنجس
 ما زاد ذلك على تيه خُصِصت به * وكيف يعدل غير السوءة الغرس
 وقوله :

يا هاشمُ بنِ حُدَيجٍ ليس نخرُكم * بقتل صهرِ رسولِ الله بالسّدِ
 أدرجتم في إهاب العيرِ جنته * فبئس ما قدّمت أيديكم لعدِ
 إن تقتلوا ابنَ أبي بكرٍ فقد قتلْت * مُجراً بدارةٍ مَلحوبِ بنو أسدِ
 وطردوكم الى الأجدال من أجأ * طردَ النعام إذا ما تاه في البلادِ
 وقد أصاب شراحيلاً أبو حنّيش * يومَ الكلابِ فما دافعتمُ بيدِ
 ويومِ قلمِ لزيدٍ وهو يقتلكم * قتل الكلابِ لقد أبرحت من ولدِ
 وكلّ كنديةٍ قالت لجارتها * والدمعُ ينهل من مثنى ومنفردِ
 ألهى امرأاً القيسُ تشبيبُ بغانية * عن ناره وصفاتُ النوءِ والودِ

وقد رقى أبو نواس خَلقاً الأحمر بعد موته بقصائد من شعره، منها قصيدته التي أوتها
 قوله :

لو كان حى وائلاً من التالف^(١) * لو ألت شغواءً في أعلى شَعَفِ
 أم فرنجٍ أحرزته في الحلف^(٢) * مُزغَبَ الأَغَادِ لم يَأْ كُلُّ بِكْفِ
 كأنه مستقعدٌ من الحرف^(٣) * هاتيك أو عصماء في أعلى شرفِ
 تزوع في الطباقي والتزيع الأثف^(٣) * أودى جماعُ العلم مُدْ أودى خَلْفِ

(١) وائلاً : ناجياً . ووألت : بلأت . والشغواء : العقاب . والشعف : رؤس الجمال .

(٢) الحلف : العارفي الجليل . ومزغب : صار ذا زغب ، والزغب صغار الريش . والأغاد جمع لعد بالصم

وهو لحمة في الخلق . (٣) الطباقي والزرع : نوعان من الشجر .

من لا يَعُدُّ العِلْمَ إلا ما عَرَفَ * قَلِيدٌ مِنَ العَالِمِ الخُصْفُ
كَمَا مَتَى نَشَأُ مِنْهُ نَعْتَرَفُ * رَوَايَةٌ لَا تُجْتَنَى مِنَ الصَّحْفِ
ومنها قوله يرثيه :

لَا تَتَلَّ العُصْمُ فِي المِضَابِ وَلَا * شَفْوَاءُ تَعْدُو فَوْخِينَ فِي بَحْفِ
يُكْنَى الحَوْثُ فِي النَّهَارِ وَيُو * وَيَا سَوَادُ الدُّجَى إِلَى شَرَفِ
تَحْنُو بِجُوشِهَا عَلَى ضَرِيمِ * كَقَعْدَةِ المُنْحَنِ مِنَ الخَرْفِ
وَلَا شَبُوبٌ بَاتَتْ تُورَفُهُ النَّشْرَةُ مِنْهَا بِوَابِلِ قِصْفِ
دَائِنٌ عَلَى الأَرْضِ وَالمَوْصِيدِ فِي * بِهِ أَمِينِ الإِيَادِ ذِي هَدْفِ
دِيدَنُهُ ذَاكَ طَوَّلَ لَيْلَتِهِ * حَتَّى إِذَا أَنجَابَ حَاجِبُ السَّدْفِ
غَدَا كَوَقْفِ المَهْلُوكِ يَنْهَفْتُ النَّقِطِطُ مِنَ مَنِيَّتِهِ وَالمَكْتِفِ
كَأَنَّ شَدْرًا وَهَتْ مَعَاقِدُهُ * بَيْنَ صَلَاةِ فَلَعَبِ الشَّنْفِ
وَأَخْدَرِيٌّ صُلبِ النَّوَاهِقِ صَلِّصَالِ أَمِينِ الفُصُوصِ وَالمُؤَظِفِ
مَنْفَرْدٌ فِي الفَلَاةِ تُوسِعُهُ * رِيًّا وَمَا يُحْتَلِبُهُ مِنَ عَلْفِ
مَا تَرَكَ المَمُوتِ مِنْ أَوَّلِ شَبْحًا * بَادَتْ بِتِلْكَ القَلَالِ وَالمُشَعَفِ
لَمَّا رَأَيْتُ المَمُوتَ أَخَذَةً * كَلَّ شَدِيدٍ وَكَلَّ ذِي ضَعْفِ
بَتْ أُعْزَى الفِؤَادِ عَنْ حَلْفِ * وَبَاتَ دَمْعِي إِلَّا يَفِضُّ يَكِيفِ
أُنْسَى الرِّزَايَا مَيْتٌ جُمْتُ بِهِ * أَمْسَى رَهِينَ السَّرَابِ فِي جَدْفِ

- (١) القليل : البئر العزيرة . والعالم : جمع عليم وهو البئر الكثيرة الماء . والخسف جمع حسبة وهي البئر التي حمرت في حمارة فبع منها ماء عزيز لا ينقطع . (٢) الجوشوش : الصدر . وانصرم : فرح العقاب . (٣) الشيوب : الشاب من الثيران والعجم . والنثرة : مربة من منازل القمر . (٤) الوصيد : بيت كاخظيرة يحذ من الحجارة لئلا أى العجم وعيرها في الجمال . والإياد : التراب يجعل حول الحوض أو الخباء يقوى به أو يمنع ماء المطر . والهدف : كل مرتفع من بناء أو كتيب زمل أو جبل . (٥) يهمت : يساقط ويحفص . والنقطة : المطر الصغير المنتاع العظيم القطر وقيل هو دون الزداد وقيل البرد أو صغاره .

كان يُسنى برفقه غُلَقًا ^(١) * في غير عِيٍّ منه ولا عَفٍّ
 يجوبُ عنك التي غُشيتَ بها * من قبلُ حتى يَشْفِكَ في لَطْفٍ
 لا يهيم الحاءُ في القراءة بالخا * ء ولا لامها مع الألف
 ولا يُعَمِّي معنى الكلام ولا * يكون إنشاده عن الصُّحُفِ
 وكان ممن مضى لنا خَلَفًا * فليس منه إذ بان من خَلَفٍ

واختلف أبو نواس الى أبي زيد فكتب الغريب من الألفاظ، ثم نظر في نحو سيويوه، ثم طلب الحديث فكتب عن عبد الواحد بن زياد ويحيى القطان وأزهر السَّمان وغيرهم، فلم يتخلف عن أحد منهم، وأدرك الناس فعلم، ثم قدم بغداد بعد ذلك .

وكان أيضا يتزرد ويدعى للفردق . ثم وقع بينه وبين الحكم بن قنبر المازني، فهجاه الحكم وذكر بربه العود وبغى عليه ونكبه . ولما قال أبو نواس قصيدته التي يهجو بها خنِيف، وهي :

ألم ترَّجَّ على الطَّلِّ الطَّاسُ * عَفَّاه كلُّ أَسْحَمِ ذِي ارْتِجَاسِ ^(٢)
 وذاري التُّرْبِ مُرْتِكِّمُ حَصَّاه * نَسِجِ المِثِّ مِعْنَقَةِ الدَّهَّاسِ ^(٣)
 سوى سُنْفَعِ أعارتها الليالي * سوادَ الليلِ من بعدِ اغْبِساسِ ^(٤)
 وأورقَ حالفِ المشوأةِ هابٍ * كضابويِّ الفِراخِ من الهَلَّاسِ ^(٥)
 منازلُ من عَفَّيرةِ أو سُلَيْمِي * أو الدهماءِ أختِ بني الجِماسِ
 كأنَّ معاقِدَ الأوضاحِ منها * يبيدُ أغنَّ تومِ في الكِباسِ
 وتَبَسُّمُ عن أغرِّ كأنَّ فيه * مُجَجَّجِ سُلَافَةِ من بيتِ راسِ ^(٦)
 فَمَنْ ذَا مَبْلَغُ عَمْرًا رَسولًا * فَقَدْ ذَكَرَتْ وَدَكَ غَيْرَ ناسِ

(١) سناه تسنية : سهله وفتحها . (٢) طاس بالكسر : دارس . والأسحم : السحاب . والارتجاس :

الرعذ . (٣) المعنقة : حبل في الرمل .

(٤) الاغبساس : يياص فيه كذرة . والسفع : يريد بها الأنافي . (٥) الهلاس : الصمور وهاب :

لونه لون الهباء . (٦) بلدة بالشأم تنسب اليها الخمر .

فلم أهرجك هجر قبلي ولكن * نوابئ لا يزال لها تُقاسي
 نوابئ تعجز الأبداء عنها * ويعيا دونها اللين النطاسي
 وقد ناخفت عن أحساب قوم * هم ورثوا مكارم ذي نواس
 فإن تك أو قُدت للحرب نار * فما غطيت خوف الحرب راسي
 سأبلي خيرا ما ألبى محام * اذا ما النبيل ألجم بالقياس^(١)
 وسمت الوائلين بفاقرات * بهن وسمت رهط أبي فراس
 وقالت كاهل وبنو قعين * حنانك إننا لسنا بناس
 فما بال التجاج نغت بشتمى * وفي زمعاتهن دم الفراس
 وما حامت عن الأحساب إلا * لترفع ذكرها بأبي نواس

عارضه الحكم وهجاه ، فانقلب على التزارية وأدعى أنه من حاء وحكم ؛ فزجره يزيد بن منصور الحميري خال المهدي وقال له : أنت خوزي ، فمالك ولحاء وحكم ! فقال له : أنا مولى لهم ، فتركوه ، وقال بعضهم لبعض : إنه لظريف اللسان غزير العلوم فدعوه ، وبهذا الولاء يتعصب لنا ويكيد عنا ويهجو التزارية ؛ فكان كما قالوا وكما ظنوا ، فانقلب الى اليمن وعدل عن كنيته بأبي فراس واكتفى بأبي نواس ، تشبها بكنية ذي نواس كما كانت اليمن تكتفى ، وندم على هجاء اليمن ، ووجدهم له أنصر ولدعوته أقبل ، فاعتذر الى هاشم بن حديج الكندي من هجائه ، ومدح اليمن فقال :

أهاشم خدمني رضاك وإن أتى * رضاك على نفسي فغير ملوم
 فأقسم ما جاوزت بالشم والدي * وعرضي وما مزقت غير أديمي
 فعدت بحقوي هاشم فأعاذني * كريم أراه فوق كل كريم
 وإن أمراً أغضى على مثل زلتني * وإن جرحته فيه لجد حليم
 تطاول فوق الناس حتى كأنما * يرون به نجا أمام نجوم

إذا آتت الأَحْسَابُ يوماً بأهلها * أنَاخَ إلى عَادِيَةِ وَصَمِيمِ
إلى كَلِّ مَعْصُوبٍ به التَّاجُ مَقُولِ * إليه أَيَادِي عَامِرٍ وَتَمِيمِ

وكان قبل أن يَتِمِّي لليمن ويدعى لِنَزَارٍ يتعاجم في شعره، فمن ذلك قوله :

فاسقنيها وغمَّ صَوِّ * تَأْ، لك الخَيْرُ، أَعْجَا

ليس في نَعْتِ دِمْنِيَةِ * لا ولا زَجْرَ أَشْمَا .

وكان الجاحظ يقول : ما أعرف لأبي نواس شعرا يفْضَلُ هذه القصيدة وهي :

وَدَارِ نَدَامِي عَطَلُوهَا وَأَدْبَلُوهَا * بها أَثَرٌ مِنْهُمْ جَدِيدٌ وَدَارِسُ

مَسَاحِبُ مِنْ جَرِّ الرِّقَاقِ عَلَى التَّرِي * وَأَضْغَاثُ رِيحَانٍ جَنِيٌّ وَيَابِسُ

حَبَسْتُ بِهَا صَحْبِي بِجَدَدْتُ عَهْدَهُمْ * وَإِنِّي عَلَى أَمْثَالِ تِلْكَ لِحَابِسُ

وَلَمْ أَدْرِ مِنْهُمْ غَيْرَ مَا شَهِدْتُ بِهِ * بِشَرِّقٍ سَابِطِ الدِّيَارِ البَسَابِسُ

أَقْنَمْنَا بِهَا يَوْمًا وَيَوْمًا وَنَالْنَا * وَيَوْمًا لَهُ يَوْمُ التَّرْحَلِ خَامِسُ

تُؤَدِّدُنَا عَلَيْنَا الرَّاحُ فِي عَسْجَدِيَةِ * حَبَّتْهَا بِأَنْوَاعِ التَّصَاوِيرِ فَارِسُ

قَرَارُهَا كَسَرِي وَفِي جَنَابَاتِهَا * مَهَّا تَدْرِيهَا بِالْقِسِيِّ الْفَوَارِسُ

فَالخَمْرُ مَا زُرَّتْ عَلَيْهِ جُيُوبُهَا ^(١) * وَلِلْءَاءِ مَا دَارَتْ عَلَيْهِ الْقَلَانِسُ

وقوله يصف كَرَمَةً وعبر عنها بِالْمَجْمَعَةِ وهو يريد الدَّانان :

لَنَا هَجْمَةٌ لَا يُدْرِكُ الذُّبُّ سَخْلَهَا * وَلَا رَاعَهَا نَزْوُ الْفِحَالَةِ وَالخَطَرِ

إِذَا أَمْتَحَنَتْ أَلْوَانُهَا مَالَ صَفْوُهَا .. إِلَى الْكَمْتِ إِلَّا أَنْ أَوْ بَارَهَا خُضْرُ

وَإِنْ قَامَ فِيهَا الْخَالِبُونَ أَتَقْتَهُمْ * بِنَجْلَاءِ ثَقْبِ الْجُوفِ دِرْتُهَا الْخَمْرُ

مَسَارِحِهَا الْغَرْبِيُّ مِنْ نَهْرِ صَرَصَرٍ * فَقَطَّرَ بِلَ فَالصَّالِحِيَّةُ فَالْعَقَرُ

(١) يعني أن الخمر مصبوبة فيها إلى خلوق الصور صرفاً . وقوله : وللاءء ، يعني انهم صبوا الماء في مزجها حتى

تُرَاثُ أَبِي سَاسَانَ كَسْرِيٍّ وَلَمْ تَكُنْ * مَوَارِيثًا مَا أَبَقْتَ تَمِيمٌ وَلَا بَكْرٌ
قَصْرَتْ بِهَا لَيْلِيٌّ وَلَيْلِ ابْنِ حُرَّةٍ * لَهُ حَسَبٌ زَائِكٌ وَلَيْسَ لَهُ وَفَرٌ

وفي تعاجم أبي نواس في شعره يقول الرقاشي يهجوهُ :

نَبَطِيٌّ فَإِذَا قِيلَ لَهُ * أَنْتَ مَوْلَى حَكِيمٍ قَالَ أَجَلٌ
هُوَ مَوْلَى اللَّهِ إِذَا كَانَ بِهِ * لِاحِقًا فَاللَّهُ أَعْلَى وَأَجَلٌ
وَإِذَا نَسَبْتَهُ حَيْثُ اشْتَمَى * فَإِذَا مَا رَابَهُ رَبٌّ رَحَلٌ

فقال أبو نواس يهجوهُ :

هَجَوْتُ الْفَضْلَ دَهْرِيٌّ وَهُوَ عِنْدِي * رَقَاشِيٌّ كَمَا زَعَمَ الْمَسْئُولُ
فَلَمَّا سُئِلْتُ عَنْهُ رَقَاشٌ * لِنَعْلَمَ مَا تَقُولُ وَمَا يَقُولُ
وَلَمَّا أَنْ نَصَّصْنَا إِلَيْهَا * لِنَعْلَمَ مَا يُقَالُ وَمَا نَقُولُ
وَجَدْنَا الْفَضْلَ أَبَعَدَ مِنْ رَقَاشٍ * مِنْ الْأُنْتُنِ آدَعَتْ فِيهَا الْفَيْوَلُ
وَجَدْنَا الْفَضْلَ أَكْرَمَ مِنْ رَقَاشٍ * لِأَنَّ الْفَضْلَ مَوْلَاهُ الرَّسُولُ

يريد بذلك قوله صلى الله عليه وسلم : «أنا مولى من لا مولى له» .

وقال أيضا يهجوهُ :

قُلْ لِلرَّقَاشِيِّ إِذَا جَنَّتْهُ * لَوْ مَتَّ يَا أَحْمَقُ لِمَ أَهْجَا
لَأَنْتَ أَكْرَمُ عَرَضِيٍّ وَلَا * أَقْرَبُهُ يَوْمًا إِلَى عَرَضِكَ
إِنْ تَهْجُنِي تَهْجُ فَنِي مَا جَدَا * لَا يَرْفَعُ الصَّرْفُ إِلَى مِثْلِكَ
دُونَكَ عَرَضِيٍّ فَاهْجُهِ رَاشِدًا * لَا تَدْنُسُ الْأَعْرَاضُ مِنْ هَجْوِكَ
وَاللَّهِ لَوْ كُنْتُ جَرِيرًا لَمَّا * كُنْتُ بِأَهْمِي لَكَ مِنْ أَصْلِكَ

وقال أيضا يهجوهُ :

يَا عَرَبِيًّا مِنْ صَعَةِ السُّوقِ * وَصِنْعَةُ السُّوقِ ذَاتُ تَشْقِيقِ
مَا رَأَيْكُمْ يَنْزَارُ فِي رَجُلٍ * يَدْخُلُ فِيكُمْ مِنْ خَلْقِ مَخْلُوقِ

ويحمل الوطْبَ وَالْعَلَابَ وَلَا * يَصْلُحُ إِلَّا لِجَمَلِ الْبَرِيقِ
 لَقَدْ ضَرَبْنَا بِالطَّبْلِ أَنْكَ فِي السَّقُومِ صَحِيحٌ وَصِيحٌ فِي الْبُوقِ
 قَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِنْ رِقَاشٍ عَلَى * تَرْكِهِمُ الْمَجْدَ بِالْمَوَائِقِ
 فَالْأَسَاسُ يَسْعَوْنَ لِلْعَلَا قُدَمَا * وَهَمُّ وَرَاءُ مَكْسَرِ السُّوقِ
 هَذَا كَذَا كَمْ فِي الْهَيَاجِ إِذَا * هِجَجَ فَمَا شِئْتَ مِنْ بَوَاشِقِ^(١)

وقال أيضا بهجوه :

أَصْبَحَ الْفَضْلُ ظَاهِرَ التَّيِّهِ * وَذَلِكَ مَذْ صِرْتُ أَهَاجِيهِ
 اللَّهُ شَعْرِي ، أَى مِفْوَاهَةِ * لِكُلِّ مَنْ دُونِي قَوَافِيهِ
 كَمْ بَيْنَ فَضْلِي مِنْذَ هَاجِيَتِهِ * وَبَيْنَهُ قَبْلَ أَهَاجِيهِ
 فَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمْ * أَحْفِلُ بِقَوْمٍ نَصَحُوا فِيهِ
 رَضِيْتُ أَنْ يَشْتَمَنِي سَاقِطٌ * شِسْعِي خَيْرٌ مِنْ مَوَالِيهِ

وكان أبو نواس في دعاويه يتماجن ويبعث ويحنى نسبه واسم أمته لئلا يهيجي ، وذلك مشهور عنه . ولو غضب هو نفسه على أبيه لهجاه ولم يحنثهم . والمذكور من أمره أنه كان مولى الحكيمين ، يفتخر باليمن ويمدح العجم ويذكركم لأنه منهم ، فلذلك قال في العجم ما قال .

قال ابو الفرج الأصفهاني : كان أبو عبيدة يقول : ذهبت اليمن بجهد الشعر وهزله : امرؤ القيس بجده ، وأبو نواس بهزله . وكان يقول : ذهبت اليمن بجهد الشعر في قديمه وحديثه : امرؤ القيس في الأوائل ، وأبو نواس في المحدثين . وكان يقول : شعراء اليمن ثلاثة : امرؤ القيس وحسان بن ثابت وأبو نواس . وقال أيضا : أبو نواس في المحدثين مثل امرؤ القيس في المتقدمين ، فتح لهم هذه الفطن ودلهم على المعاني وأرشدهم الى طريق الأدب والتصرف في فنونه . وكان يقول : يعجبني من شعر أبي نواس قوله :

(١) جمع باشق وهو اسم طائر ، أجمعى معزب .

بَنِينَا عَلَى كَسْرِي سَمَاءٌ مُدَامِيَةٌ * مَكَلَّةٌ حَافِئُهَا بِنَجُومٍ
فَلُورُذِي كَسْرِي بِنَ سَاسَانَ رُوْحِهِ * إِذَا لِأَصْطَفَانِي دُونَ كُلِّ نَدِيمٍ

وسئل يعقوب بن السكيت عما يختار روايته من أشعار الشعراء، فقال: إذا أردت من الجاهليين فلا مرئ القيس والأعشى، ومن الإسلاميين فلجيري والفرزدق، ومن المحدثين فلا أبي نواس فحسب. وقيل: للعتبي من أشعر الناس؟ قال: عند الناس أم عندي؟ قيل عند الناس؟ قال: امرؤ القيس؛ قيل: فعندك؟ قال: أبو نواس.

وقال عبد الله بن محمد بن عائشة: من طلب الأدب فلم ير شعر أبي نواس فليس بتمام الأدب. وسئل: من أشعر المحدثين؟ فقال: الذي يقول:

كَأَنَّ ثِيَابَهُ أَطْلَعُ * بِنَ مِنْ أَرْزَارِهِ قَمَرًا
يَزِيدُكَ وَجْهَهُ حَسَنًا * إِذَا مَا زِدْتَهُ نَظْرًا
بَعِيرٌ خَالِطُ التَّفْتِيَةِ * مَرُّ مِنْ أَجْفَانِهَا الْحَوْرَا
وَوَجْهٌ سَابِرٌ لَوْ * تَصَوَّبَ مِائَةٌ قَطْرًا
وَقَدْ خَطَّتْ حَوَاضَتُهُ * لَهُ مِنْ عَنِيرِ طُرَرًا

وقال إبراهيم بن العباس الطويل: إذا رأيت الرجل يحفظ شعر أبي نواس علمت أن ذلك عنوان أدبه ورائد ظرفه.

وكان أبو نواس يقول عن نفسه: سُلِّتُ عَنْ طَبَقَةٍ مِنْ تَقَدَّمَنِي مِنَ الشُّعْرَاءِ وَعَلَوْتُ عَنْ طَبَقَةٍ مَنْ مَعِيَ وَمَنْ يَجِيءُ بَعْدِي، فَأَنَا نَسِيحٌ وَحَدِي.

وحدث جماعة من الرواة من شاهد أبا نواس قالوا: كان أقل ما في أبي نواس قول الشعر، وكان خلا راوية عالم.

وقال أبو عبيدة: بلغني أن أبا نواس يتعاطى قرص الشعر فتلقاني وهو سكران ما طر شاربه بعد، فقلت له: كيف فلان عندك؟ فقال: ثقيل الظل، جامد النسيم؛ فقلت: زد؛ فقال: مظلم الهواء؛ متنق الفناء؛ فقلت: زد، فقال: غليظ الطبع، بارد الشكل؛

قلت : زد ؛ فقال : وَخَمِ الطَّلَعَةُ عَسِرَ القَلَمَةُ ؛ قلت : زد ؛ قال : نَائِيَّ الجَنَابَاتِ ، بارد الحركات ؛ قال : نَحَفْتُ عَنْهُ ؛ فقال : زدني سؤالاً ؛ أزدك جواباً ؛ فقلت : « كفى من القلادة ما أحاط بالعنق » .

وقال سليمان بن أبي سَهْلٍ لأبي نواس : ما الذى استُجِيد من أجناس شعرك ؟ فقال : أشعارى فى الخمر لم يُقَلْ مثلُها ، وأشعارى فى الغزل فوق أشعار الناس ، وهما أوجود شعرى إن لم يراحم غزلى ما قتلته فى الطرد .

وكان يقول : ما قلت الشعر حتى رَوَيْتُ لستين امرأة من العرب منهن الخنساء ولبلى ، فما ظنك بالرجال ؟ وانى لأروى سبعائة أرجوزة ما تُعرف .

وكان قد استأذن خَلْفًا فى نظم الشعر ، فقال : لا آدُنُ لك فى عمل الشعر إلا أن تحفظَ أَلْفَ مقطوع للعرب ما بين أرجوزة وقصيدة ومقطوعة ؛ فغاب عنه مدة وحضر اليه فقال له : قد حفظتها ؛ فقال : أنشدُها ، فأنشده أكثرها فى عدة أيام ، ثم سأله أن يأذن له فى نظم الشعر ؛ فقال له : لا آدُنُ لك إلا أن تنسى هذه الألف أرجوزة كأنك لم تحفظها ، فقال له : هذا أمر يصعب علىّ فإنى قد أتقنت حفظها ، فقال له : لا آذن لك إلا أن تنساها ، فذهب الى بعض الديرة وحلا بنفسه وأقام مدة حتى نسيها ، ثم حضر فقال : قد نسيتها حتى كأن لم أكن قد حفظتها قط ؛ فقال له : الان فانظم الشعر .

وكان أبو نواس يقول : لا أكاد أقول شعراً جيداً حتى تكون نفسى طيبة ، وأكون فى بستان مونتق ، وعلى حال أرتضيها من صلته أوصل بها أو وعد بصلته ، وقد قلت وأنا على غير هذه الحال أشعاراً لا أرضاها . وكان يعمل القصيدة ثم يتركها أياماً ، ثم يعرضها على نفسه فيسقط كثيراً منها ويترك صافيها ، ولا يسره كل ما يقذف به خاطره . وكان يهمله الشعر فى الخمر فلا يعمله إلا فى وقت نشاطه . ولم يكن فى الشعر بالبطيء ولا بالسريع بل كان فى منزلة وسطى .

وكان الأصمعي يقول : يعجبني من شعر الشاعر بيتٌ واحد قد أجاد قائله وهو :

ضعيفَةٌ كَرَّ الطَّرْفَ تحسَّبَ أنها * قريضةٌ عهدٌ بالإفاقة من سُقيم
ولمَّا لآتَى الأمرَ من حيث يُتَّقَى * ويعلم سَهْمِي حينَ أَنْزِعَ منَ أَرْمِي

قال العتّابي لرجلين تناظرا في شعر أبي نواس : والله لو أدرك الخبيثُ الجاهليةَ ما فُضِّلَ عليه أحد .

وقال أبو عمرو الشيباني : أشعرُ الناس في وصف الخمر ثلاثة : الأعشى والأخطل وأبو نواس .

قال محمد بن عمر : لم يكن شاعراً في عصر أبي نواس إلا وهو يحسده ليل الناس إليه وشهوتهم لمعاشرته ، وبُعدِ صبيته وظرف لسانه .

وقال أبو حاتم : سئل أبو نواس عن شعره فقال : إذا أردتُ أن أجدَّ ، قلتُ مثل قصيدى « أيها المتأب عن عُفْرِه » ، وإذا أردت العبتَ قلتُ مثل قصيدى : « طاب الهوى لعמידه » ، فأما الذى أنا فيه وحدى وكله جيدٌ فاذا وصفت الخمر .

وقال أبو ذكوان : كما عند التوزيِّ فذكرتُ عنده أبا نواس ، فوضع منه بعضُ الحاضرين ؛ فقال له التوزي : أتقول هذا لرجل يقول :

يخافُه الناسُ ويرجؤونه * كأنه الجنةُ والنارُ

ويقول :

فما جازدُ جوداً ولا حلَّ دونَه * ولكن يصير الجودُ حيث يصيرُ

ويقول :

فتمشَّت في مفاصلهم * كتمشَّى البرء في السقم

قال ابن الأعرابي يوماً لجلسائه : ما أشعرُ ما قال أبو نواس في الخمر؟ فقال بعضهم :

إذا عبَّ فيها شاربُ القومِ خلتَه * يُقبَلُ في داچ من الليل كوكبا

وقال آخر:

كَانَ كُبْرَى وَصُغْرَى مِنْ فِقَاقِهَا * حِصْبَاءُ دُرٍّ عَلَى أَرْضٍ مِنَ الدَّهَبِ

وقال آخر:

تَرَى حَيْثُ مَا كَانَتْ مِنَ الْبَيْتِ مَشْرِقًا * وَمَا لَمْ تَكُنْ فِيهِ مِنَ الْبَيْتِ مَغْرِبًا

وقال آخر:

فَكَانَ الْكُتُوبَ مِنَّا نَجُومٌ * دَائِرَاتُ بَرُوجِهَا أَيْدِينَا

وقال آخر:

صَفْرَاءُ لَا تَنْزِلُ الْإِحْزَانَ سَاحَتَهَا * لَوْ مَسَّهَا حَجَرٌ مَسَّهُ سَرَّاءُ

فقال ابن الأعرابي : إن هذا كله لشاعر أنفرد بالإحسان فيه ، وتقدم من سبقه ومن تأخر عنه ، ولكنه أشعر من هذا كله في قوله :

لَا يَنْزِلُ اللَّيْلُ حَيْثُ حَلَّتْ * فَدَهْرٌ يُشْرَابُهَا نَهَارٌ

قال مسلم بن بهرام : لَقِيتُ أبا الْعَتَاهِيَةَ فَقُلْتُ لَهُ : مِنْ أَشْعُرِ النَّاسِ ؟ قَالَ : تَرِيدُ

جَاهِلِيَّيَا أَوْ إِسْلَامِيَّيَا أَوْ مَوْلِدَهَا ؟ قَالَ : كَلَّا أُرِيدُ ، قَالَ : الَّذِي يَقُولُ فِي الْمَدِيحِ :

إِذَا نَحْنُ أَثْنِينَا عَلَيْكَ بِصَالِحٍ * فَأَنْتَ كَمَا تُثْنِي وَفَوْقَ الَّذِي تُثْنِي

وَإِنْ جَرَّتِ الْأَلْفَاظُ يَوْمًا بِمَدْحَةٍ * لَغَيْرِكَ إِنْسَانًا فَأَنْتَ الَّذِي نَعْنِي

والذي يقول في الزهد :

أَلَا رَبِّ وَجْهِ فِي التُّرَابِ عَتِيقِي * وَيَارَبِّ حُسْنٍ فِي التُّرَابِ رَقِيقِي

وَيَارَبِّ حَزْمٍ فِي التُّرَابِ وَتَجْدِيدِي * وَيَارَبِّ رَأْيٍ فِي التُّرَابِ وَثِيقِي

فَقُلْ لِقَرِيبِ الدَّارِ إِنَّكَ رَاحِلٌ * إِلَى مَنزِلِ نَائِي الْمَحَلِّ سَمِيقِي

وَمَا النَّاسُ إِلَّا هَالِكٌ وَإِنَّ هَالِكِي * وَدُوْنَسِي فِي الْهَالِكِينَ عَرِيقِي

إِذَا امْتَحَنَ الدُّنْيَا لَيْبٌ تَكْشِفْتُ * لَهُ عَن عَدُوِّ فِي ثِيَابِ صَدِيقِي

وكان يقول : سبقني أبو نواس الى ثلاثة أبيات وِدِدْتُ أنى سبقته إليها بكل ما قلتها فإنه أشعر الناس فيها، منها قوله :

يا كبير الذنب عفوُ الله * ه من ذنبك أكبر

وقوله :

من لم يكن لله متهما * لم يُمسَّ محسباً الى أحد

وقوله :

إذا امتحن الدنيا لليب تكشفت * له عن عدوِّ في ثياب صديق

ثم قال : قلت في الزهد ستة عشر ألف بيت وِدِدْتُ أن أبا نواس له ثلثها بهذه الأبيات .

وقال الجاحظ : سمعت النِّظَام يقول ، وقد أنشد شعراً للأبي نواس : كأن هذا الفتي جُمِع له الكلام فاختار أحسنه . وقال بعضهم : كأن المعاني حُبِسَتْ عليه ، فأخذ حاجته وقرق الباقي على الناس . وقال أبو حاتم : كانت المعاني مدفونة حتى أثارها أبو نواس .

حدّث الحسين بن الخصب الكاتب ، قال : قال أحمد بن يوسف الكاتب : كنتُ أنا وعبدُ الله بن طاهر عند المأمون ، وهو مستلقٍ على قفاه ، فقال لعبد الله بن طاهر : يا أبا العباس ، من أشعر من قال الشعر في خلافة بني هاشم ؟ فقال : أمير المؤمنين أعرُف بهذا وأعلى عينا ؛ فقال له المأمون : على ذلك قفُّ . تكلم أنت يا أحمد بن يوسف . فقال عبد الله بن طاهر : أشعرهم الذي يقول :

ويا قبرٍ معني كنت أول حُفرة * من الأرض خُطت للسباحة منزلا

قال أحمد بن يوسف الكاتب : فقلت : بل أشعرهم الذي يقول :

أشبهت أعدائي فصرتُ أُحِبُّهم * إذ كان حطى منك حطى منهم

فقال المأمون : يا أحمد أبيت إلا غزلا ! أين أتم عن الذي يقول :

يا شقيق النفس من حكم * نمت عن ليلٍ ولم أتم

فقلنا : صدقت يا أمير المؤمنين .

وكان المأمون يقول : لو سُئِلت الدنيا عن نفسها فنطقت ، لما وصفت نفسها كما وصفها أبو نواس في قوله :

إذا امتحن الدنيا ليُبِّ تَكَشَّفَتْ * له عن عدوِّ في ثياب صديقي

وَرَدَ على العتَابي بِجَلْبِ عِدَّةٍ من الجِبَارِ من أهل قَنَسْرين ، فدخلوا وسَأَمُوا ؛ وكان في يده رُقعة ينظر إليها ، فقال لهم : لقد سَلَكَ صاحبُ هذه الرُقعة وادياً ما سلكه أحدٌ قبله ؛ فنظروا فإذا هو شعر أبي نواس في جِنَانِ جارية آل عبد الوهَّابِ الثَّقَفِيّ ، وهو قوله :

رَبِّعِ الكَرَى بين الجفونِ حَيْلُ * عَفَى عليه بُكْيٌ عليك طویلُ

يا ناظراً ما أَقلعتُ لخطأته * حتى تشحطَ بينهن قَتيلُ

أحَلَّتْ قَلْبِي من هَوَاكِ حِمْلَةً * ما حلَّها المشروبُ والمأكولُ

بكالِ صورتك التي من دونها * يَخْخِرُ التشبيهُ والتَّمثِيلُ

فوقَ القصيرةِ والقصيرةُ فوقها * دون السِّمينِ ودونها المَهزولُ

وما أنشدته العتابي لأبي نواس فقال أحسن وأجاد :

متأبِهٌ بِجِمالِهِ صَافٍ * لا يَسْتَطاعُ كَلامُهُ تَبِيهاً

لِلْحَسَنِ في وَجَناتِهِ بِدَعٍ * ما إن يَمَلُّ الدَرَسَ قاريها

لو كانتِ الأَشياءُ تَعقلُهُ * أَجَلَّناهُ إِجْلالاً باريها

لو تَسْتَطيعُ الأَرْضُ لِأَتقبضتْ * حتى يَصيرُ جَميعُهُ فيها

وقوله :

إن السحابَ لَتَسْجِي إذا نظرتُ * إلى نَدائِكَ ففاسِئَتُهُ بِما فيها

حتى تَهَمَّ بِإِقْلاعِ فِمنعُها * خوْفٌ من السُّحُطِ من إِجْلالِ منشيها

قال محمد بن صالح بن بيهس الكلابي : لما دخلتُ العراقَ صرْتُ إلى مدينةِ السلامِ

فسألتُ عَمَّنْ بها من الشعراءِ الحَسِينِ ، وذلك في أيامِ خلافةِ الأَمِينِ أو عند موتِهِ قبل

دخولِ المأمونِ بِبَسيرٍ ، فقلتُ لِي : قد غلبَ عليهم فَتَيَّ من أهلِ البصرةِ يُقالُ لَهُ الحَسَنُ

ابن هانيء ويعرف بأبي نواس ، وقد كنت سمعتُ شيئا من شعره ، فأتاني فتي كان من أهل الأدب ، فقلت له : هل تروى لأبي نواسكم هذا شيئا؟ قال : أروى له أبياتا في الزهد وليس هو من طريقته ، فقلت أنشدنيها ، فأنشدني :

أخى ما بأل قلبك ليس يَتَّقِي * كأنك لا تَظُنُّ الموتَ حَقًّا
 ألا يا بَنَ الذينَ فَنُوا وبادوا * أما والله ما ذهبوا لَتَبَقِي
 وما للنفسِ عندك من مُقَام * إذا ما آستكَلتُ أَجَلًا وِرْزُقا
 وما أَحَدٌ بَزادك منك أَحْظَى * ولا أَحَدٌ بذنبك منك أَشَقِي
 ولا لَكَ غيرَ تقوى الله زاد * إذا جعلتُ الى اللَهواتِ تَرَقِي

فقلت له : أحسن والله ! قال : أفلا أنشدك أحسن من هذا؟ قلت بلى ، فأنشدني في رثاء محمد الأمين :

طوى الموتُ ما بيني وبين محمد * وليس لما تَطَوَّى المنيَّةُ ناشِرُ
 فلا وصلَ إلا عِبْرَةٌ تَسْتَدِيمُها * أحاديثُ نَفْسِ ما لها الدهرُ ذا كُرُ
 لئن عَمَرْتُ دورَ بنِ لا أودُه * لقد عَمَرْتُ من أحبِّ المقابِرُ
 وكنتُ عليه أَحذرُ الموتِ وحده * فلم يَبْقَ لى شىءٍ عليه أَحاذِرُ

فقال : بحق ما غلب هذا على أهل الأدب وقدموه على غيره .

قال محمد بن جعفر الأصم : كما عند أبي نُعَيْم ، فنذا كرنا قول عائشة أم المؤمنين

رضي الله عنها حين ذكرتُ شعرَ لبيد يَرِي أخاه أربد :

ذَهَبَ الذينَ يُعَاشُ في أكافِهِم * وَبَقِيَتْ في خَلِيفِ بحلِّد الأجرِبِ

ولقد أنشدني أبو نعيم أبياتا ، قلنا : أنشدناها ، فقال :

ذَهَبَ الناسُ فاستَقَلُّوا وِصْرانا * حَلَفًا في أرادلِ النَّسائِ
 في أناسِ نَعُدُّهم من عديِدِ - فاذا فَنَشُّوا فليسوا بناسِ

كلما جئتُ أبتغى الفضلَ منهم * بدروني قبل السؤالِ بياس
وبكّوا لي حتى تمنيتُ أني * مُقلتُ عنـد ذاك رأساً براس

ثم قال : أتدرون لمن الشعر؟ قلنا : لا، قال : لحسن بن هانيء .

قال أبو عبد الرحمن الضَّرير : رأيتُ مسلم بن الوليد يُجرجان وهو يتولّاهما ، فسألني عن
خَلْفَت من الشعراء ؛ فقلت له : أما من الكوفيّين فأبو نواس ، وهو مقدّم عندهم ؛ فقال :
ويحك ! كيف يتقدّم وهو يقول : رُوَيْدَكَ يَا إِنْسَانُ لَا أَنْتَ تَفْغِزُ أَرَأَيْتَ قَوْلَهُ : « تَفْغِزُ »
نَحِجَّتْ مِنْ بَيْنِ فَكَيْ شَاعِرٍ قَط ! ثم قال : ويحك ! وكيف يكون كذلك وهو يُحِيلُ وَيَتَخَطَّى
من صفة المخلوق الى صفة الخالق ؟ فقلت : مثل ماذا من قوله ؟ قال : أما فيما أحال فكقوله :
وأخفتَ أهلَ الشَّرِكِ حتى إنه * لَتَخَافُكَ التَّنَطُّفُ الـتي لم تُخَلِّقْ
وهذا من الإغراق المستحيل في العقول ومما ليس على مذهب القوم ؛ وأما في تَخَطُّيهِ
بصفة المخلوق الى صفة الخالق فكقوله :

يَجَلُّ أَنْ تَلْحَقَ الصِّفَاتُ بِهِ * فَكَلَّ خُلُقِي خُلُقَهُ مِثْلُ

وكقوله :

* برىء من الأشباه ليس له مثل *

ومما قيل عن أبي نواس إن الشعر إنما هو بين المدح والهجاء وأبو نواس لا يُحسِنُهما ،
وأجودُ شعره في الخمر والطَّرْد ، وأحسنُ ما فيهما مأخوذ ليس له وإنما سرّقه ، وحسبُك من
رجل يريد المعنى ليأخذه فلا يُحسن أن يئني عليه حتى يجيء به قبيحا ، مثل قوله : « ودأوني
بالتى كانت هي الداء » أخذه من قول الأعشى : « وأخرى تداويتُ منها بها » والذي أخذه منه
أحسن . ومنها أيضا قوله : « إن الشَّبَابَ مطيئةُ الجهيلِ » أخذه من قول النابغة الجعدي :
« فإت مطيئةُ الجهيلِ الشَّبَابُ » . وقوله : « كطلعة الأشمط من إهابه » أخذه من قول أبي النجم :
« كطلعة الأشمط من كِسائه » . ولكن رزق أبو نواس في شعره أن سار وحمله الناس وقدمه
أهل عصره ، وإن له على ذلك لأشياء حسنا لا يدفعها ولا يطرحها إلا جاهل بالكلام
أو حاسد .

ومن أحسن مدائح أبي نواس قوله من أرجوزته التي يمدح بها الفضل بن الربيع وهي :

وبلدة فيها زور * صعرأ تحظى في صعر
 مررت إذا الذئب افتقر * بها من القوم الأثر^(١)
 كان له من الجزر * كل جنين ما اشتر^(٢)
 ولا تملأه شعر * ميت النساحي الثغر
 عسفتها على خطر^(٣) * وغرير من العرر
 يباري حين فطر * يهزه حين الأشر
 لا متشك من سدر^(٤) * ولا قريب من خور
 كأنه بعد الضمر * وبعد ما جال الضفر^(٥)
 وأتمح في حسر : * جاب رباع المنغر^(٦)
 يحدو بحقب كالأكر * ترى بأباج القصر^(٧)
 منهن قوشيم الجدر * رعين أباكار الحضر
 شهري ربيع وصفر * حتى إذا الفحل جفر^(٨)
 وأشبه السفى الإبر * ونش أذخار الثغر^(٩)
 قلن له : ما تأتمر؟ * وهن إذ قلن : أشر
 غير عواص ما أمر * كأنها لمن نظر
 ركب يسيمون مطر * حتى إذا الظل قصر

- (١) المرت : الأرض لا نبات فيها، واقفرا الأثر : اقفاه وتبهه . (٢) الجزر (بفتحين) :
 ما يذبح من الشاء ذكرا كان أو أنثى . وحده : جزرة . وما اشتر : لم يثبت له الشكر وهو الضمير من الشعر
 الذي لا يكاد يظهر . (٣) عسفتها : سلكها متخططا ، والعرر : الخطر . (٤) السدر : التحير .
 (٥) الضمر (بالصم وبضمين) : الهزال . والضفر : جمع ضمائر (بالفتح) وهو ما يشد به البعير من شعر مضفور .
 (٦) الجاب : الحمار العليظ من حمر الوحش . (٧) الأباج جمع شبح وهو وسط الشيء ، والقصر
 جمع قصرة وهي أصل العنق . (٨) جمر : امتنع عن الصراب .
 (٩) السفى : كل شجر له شوك ، ونش : نضب ، والقر : جمع نقرة وهي الوهدة المستديرة من الأرض .

يَمَنَّ مِنْ جَنبِي هَجْرٌ * أَخْضَرَ طَهَامَ الْعَكْرَ
وَبَيْنَ أَحْقَافِ الْقَتْرِ * سَارَ وَايَسَ لِلسَّمْرِ
وَلَا تَلَاوَاتِ السُّورَ * يَمَسِّحُ مِرْنَانًا ^(١) يَسْرَ
زُمَّتْ بِمَشْزُورِ الْمِرْرِ * لِأَيِّ حُلُقُومِ النُّغْرِ ^(٢)
حَتَّى إِذَا ضَطَّفَ السُّطْرُ * أَهْدَى لَهَا لَوْ لَمْ يُجْرُ
دَهْيَاءَ يَحْدُوهَا الْقَدْرُ * فِتْلِكَ عَسَّ لَمْ تُدْرُ
ثُمَّبَا إِذَا الْآلُ ظَهَرَ * إِلَيْكَ كَلْفْنَا السَّقْرَ
حُوصًا يُجَاذِبِنَ النَّظْرَ * قَدْ انطَوَتْ مِنْهَا السَّرْرُ
طَى الْقَرَارَى الْحَبْرَ * لَمْ تَتَقَعَّدْهَا الطَّيْرُ ^(٣)
وَلَا السَّيْحُ الْمَزْدَجْرُ * يَافْضُلُ الْقَوْمِ الْبَطْرُ
إِذْ لَيْسَ فِي النَّاسِ عَصْرُ * وَلَا مِنْ الْخُوفِ وَزْرُ
وَنَزَلَتْ إِحْدَى الْكُبْرَ * وَقِيلَ صَمَاءُ الْغَيْرِ
فَالنَّاسُ أَبْنَاءُ الْحَدْرُ : * فَرَجَّتْ هَاتِيكَ الْغَمْرُ
عَنَا « وَقَدْ صَابَتْ بَقْرٌ » ^(٤) * كَالشَّمْسِ فِي تَخْنِصِ بَشْرِ
أَعْيَا مُجَارِيكَ الْخَطْرُ * أَبُوكَ جَلِيٌّ عَنِ مُضْرُ
يَوْمَ الرِّوَاقِ الْمُحْتَضِرُ * وَالْخُوفُ يَقْضِي وَيَذْرُ
لَمَّا رَأَى الْأَمْرَ الْقَطْرُ * قَامَ كَرِيمًا فَانْتَصِرُ ^(٥)
كَهَزَّةِ الْعَضْبِ الدَّكْرُ * مَا مَسَّ مِنْ شَيْءٍ هَبْرُ ^(٦)

(١) المران : القوس . (٢) زمت : شدت ، ومشزور مفعول ، والمرر : جمع مرة وهي قوة القتل ، واللام : الشديد ، والعر : كهرة اللبل . والعر تشبه الدقيق بالأوتار والاقليم النقران . (٣) القرارى : الخياط (٤) القر : القرار ، يقال اذا وقع الأمر ، وقعه : صابت بقر ووقت بقر . قال طرفة بن العبد البكرى :

كنت منهم كالمطى رأسه * فأنجلى اليوم عطافى ونحر

سادرا أحسب غيى رتدا * فتناهيت وقد صابت بقر

(٥) اشند . (٦) هبر : قطع .

وأنت تَقْتَأُ الأَنْسَرَ * من ذى مُجْجُولٍ وَغُرَّرَ
 معيدٍ وَرِيدٍ وَصَدَرَ * وإن علا الأمرَ أَقْتَدَرَ
 فأين أصحابُ الغَمَرِ * اذْشَرُوا كَأْسَ المِقْرِ^(١)
 وَتُصْرُوا فِيمَنْ قُصِرَ * هيئات لا يَنْجِي القَمَرِ
 أَصْحَرَتْ اذْذَبُوا الخَمْرَ * شَكَرًا ، وَحُرٌّ مَنْ شَكَرَ^(٢)
 فَاللهُ يُعْطِيكَ الشُّبْرَ * وفي أعاديك الظَّفَرُ^(٣)
 والله مَنْ شَاءَ نَصَرَ * وأنت إن خِفْنَا الحَصْرَ^(٤)
 وَهَرَّ دَهْرٌ وَكَشَّرَ * عن نَاجِدِيهِ وَبَسَرَ^(٥)
 أَغْنَيْتَ مَا أَغْنَى المَطَرُ * وفيك أخلاقُ البَسْرِ
 فَانْأَبُوا إِيَّالِ العَسْرِ * أَمْرَتْ حَبَلًا فَاسْتَبْرَ^(٦)
 حَتَّى تَرَى تِلْكَ الزَّمْرَ * تَهْوِي لِأَذْقَانِ النَّعْرِ^(٧)
 مِنْ جَذْبِ الأَوَى لَوْ تَرَى * إِلَيْهِ طَوْدًا لِأَنَاطِرِ^(٨)
 صَعِبَ إِذَا لَاقَى أَبْرَ * وَإِنْ هَفَا القَوْمُ وَقَرَّ
 أَوْ رَهَبُوا الأَمْرَ جَسَرَ * ثُمَّ تَسَامَى فَفَعَّرَ
 عَنِ شِقْشِقِ ثَمَّ هَدَرَ * ثُمَّ تَنَاجَى نَفْطَرَ^(٩)
 بَدَى سَيْبٍ وَعُدْرَ * يَمْضِعُ أَطْرَافَ الوَبْرِ
 هَلْ لَكَ وَالْهَلْ خَيْرٌ * فِيمَنْ إِذَا غَبَتَ حَضْرُ^(١٠)
 أَوْ نَالَكَ القَوْمُ نَارَ * وَإِنْ رَأَى خَيْرًا شَكَرَ
 * أَوْ كَانَ تَقْصِيرَ عَدْرَ *

- (١) المِقْرُ : المرء . (٢) أَصْحَرَتْ : برزت الى الصحراء . وَذَبُوا الخمر : مشوا محتمين . والخمر : ما سترك من شجر أو بهاء أو نحوه . (٣) الحير والقوة . (٤) الضيق . (٥) كشرأبدي عن ناجديه ، وبسر : عبس . (٦) أى أحكمت فتله . (٧) جمع ثغرة وهي ثغرة النحر . (٨) الأوى : الشديد الخصومة . (٩) اسوح وأثنى . (١٠) السيب : شعر الذنب والعراف والاصية ، والعدر جمع عذار . (١١) قصد لفظ هل الاستهامية فأدخل عليها الألف واللام .

ولما عمل أبو نواس القصيدة التي أوّطأ : * ومستعبد إخوانه بثرائه * بلغت
 الأمين ، فبعث إليه ، وعنده سليمان بن جعفر . فلما دخل عليه قال له : يا عاصُ بَطْرُ أمه
 العاهرة ، ويا مدعى ولاءِ حاءٍ وحكم ! أتدري يا بن الخناء من توليت والى من ادّعت ؟
 الى الأم قبيلتين في اليمن ، علّوج باغين . أنت تكتسب بشعرك أوساخ أيدى الناس اللثام ،
 وتقول : * ولا صاحب التاج المحجّب في القصر * أما والله ما نلت مني شيئاً بعد ذلك
 أبداً ! فقال له سليمان بن أبي جعفر : إي والله ! نعم هو مع هذا من كبار الثنوية^(١) (وكان يُرمى
 بذلك) ؛ فقال له محمد الأمين : وهل يشهد عليه شاهد بشيء من ذلك ؟ فأتاه سليمان بعدة
 نفر ، فشهدوا عليه أنه شرب في يوم مطير فوضع قدحَه تحت السماء في المطر فوقع فيه
 المطر ؛ فقالوا له : ما تصنع بذلك ويحك ؟ قال : أتم ترعمون أنه ينزل مع كل قطرة
 ملك ، فكم ترائي أشرب من الملائكة ! ثم شرب ما في القدح ؛ فغضب محمد ، وأمر به
 الى السجن . فذلك قول أبي نواس :

ياربِّ إن القومَ قد ظموني * وبلا اقترايفٍ معطلٍ حبسوني
 وإلى الجحود بما عرفتَ خلفه * ربّي إليسك بيكذبهم نَسبوني
 ما كان إلا البحرى في ميسدانهم * في كلّ خزى والمجانة ديني
 لا العذر يُقبل لى ويفرق شاهدى * منهم ، ولا يرضون حلف يميني
 ما كان - لو يدرون - أول محباً * في دار منقصة ومنزل هوب
 أما الأمينُ فلستُ أرجو دفعه * عني ، فن لي اليوم بالمأمون
 بلغت أبياتهُ المأمون ، فقال : والله لئن لحفته لأغنيته غني لا يؤمله . فمات قبل دخول
 المأمون بغداد .

لما وصلت الخلافة الى محمد الأمين وولى الفضل بن الربيع الوزارة ، تفرغ محمد
 للهو والصيد والزهه ، وكان لا يخرج إلا لصيد أو لزهه . فخرج ذات يوم وقد أمر الجند

(١) الثنوية أصحاب الاثني الأربين وهم الذين يزعمون أن النور والطلبة أزيان قديمان ، بخلاف الجوس

فانهم قالوا بحدوث الظلام .

والقوَادَ فركبوا، وليس ثيابَه وتقلد سيفه، وأعدت الحَرَاقَاتِ وَالرَّوَالِجَاتُ فِي دِجْلَةٍ ؛
فقال له اسماعيلُ بنُ صُيُوحٍ - وكان كاتبَ سِرِّه - : يا أمير المؤمنين ان قوادك وجندك وعامة
رعيته قد حُبَّتْ نفوسُهُم ، وساعتَ ظنونُهُم ، وكَبُرَ عندهم ما يرون من احتجائكِ عنهم ،
فلو جلستَ لهم ساعة من نهار فدخلوا عليك ! فإن في ذلك تسكيناً لهم ومراجعة لآمالهم !
بِغْلِيسِ فِي مَجْلِسِهِ وَأَذِنَ لِلنَّاسِ عَامَةً فَدَخَلُوا عَلَى مَرَاتِبِهِمْ وَمَنَازِلِهِمْ ، وَقَامَ الْخَطْبَاءُ نَحْطَبُوا ،
وَالشُّعْرَاءُ فَأَنشَدُوا ، فلم يكن أحد منهم يتعدى الى الاطناب والتطويل ، الا أمر بالسكوت
ومُنِعَ من القول .

وقام فيمن قام أبو نواس ، فقال : يا أمير المؤمنين ! هؤلاء الشعراء أهل حَجَرٍ وَمَدَرٍ ،
وإبلٍ ووصفٍ للبقر وبيوت الشعر ، قد جَفَّتْ أَلْفَاظُهُمْ ، وغَلُظَتْ معانيهم ، ليس لهم
بَصَرٌ بمدح الخلفاء ونسب مكارمهم ، فان رأى أمير المؤمنين أن يأذن لى في إنشاده فليفعل ،
فأذن له فأنشده :

أيا دارِها بالماء حتى تُليِّئها * فلن تُكْرِمَ الصَّهْبَاءَ حتى تُهَيِّئها
أُغَالِي بها حتى اذا ما ملكتها * أهنتُ لإكرام الخليل مَصُونَهَا
وصفراءَ قبل المَرْجِ بيضاءَ بعده * كأن شعاع الشمس يلقاك دونها
ترى العينَ تستعفيك من لمعانها * وتحسُرُ حتى ما تُقِلَّ جفونها
نُزُوعُ نَفْسِ المرءِ عما يسُوِّه * ويُجَيِّدُهُ أَلَا يَزَالُ قَرِينَهَا
كأن يواقيتا رواكُدَ حولها * وزُرُقَ سَنَانِيرٍ تديرُ عيونها
وشُمَّطَاءَ حَلِّ الدهرِ منها بنجوةٍ * دلفتُ إليها فاستلَّتْ جينها
كأنَّا حُلُولُ بَيْنِ أَذَانِ رَوْضَةٍ .. إذا ما سَلَبْنَاها مع الليل طينها

الى أن أكمل القصيدة . فقال له محمد : ألم أُنهَكَ عن شربِ الخمر ! قال : بلى
يا أمير المؤمنين ، والله ما شربتها منذ نهيتني عنها ومنعتني من شربها ، وأنا الذى أقول :

(١) الحراقَاتُ : ضرب من السفن فيها مراعى يراعى بها العدو فى الحرب .

أَيُّهَا الرَّائِحِينَ بِاللُّومِ لَوْ مَا * لَا أَذُوقُ الْمِدَامَ إِلَّا شَمِيمًا
 نَالِي بِالْمَلَامِ فِيهَا إِمَامٌ * لَا أَرَى لِي خِلَافَهُ مُسْتَقِيمًا
 فَاصْرِفَاها إِلَى سِوَايَ فَإِنِّي * لَسْتُ إِلَّا عَلَى الْحَدِيثِ نَدِيمًا
 كَبْرُحَطِّي مِنْهَا إِذَا هِيَ دَارَتْ * أَنْ أَرَاهَا وَأَنْ أَشْمُ النَّسِيمًا
 فَكَأَنِّي وَمَا أَزِينُ مِنْهَا * قَعْدِي يُحَسِّنُ التَّحْكِيمًا^(١)
 كُلٌّ عَنْ حَمَلِهِ السَّلَاحَ إِلَى الْحَرْبِ * بَ فَاوَصَى الْمُطِيقَ إِلَّا يَقِيمًا

فتبسم محمد، وقال له : أحسنت ! وقام بعض الشعراء فأنشد :

تَرُقُّ فِي فِضَائِلِهِ الْإِمِينُ * وَزَايِلُهُ الْمُشَاكِلُ وَالْقَرِينُ
 وَأُورِقُ زَهْرَةُ التَّقْوَى وَعَزَّتْ * خِلَافَتُهُ وَصُدِّقَتِ الظُّنُونُ
 تَمَسُّ مِنْبَرَ الْخُلَفَاءِ مِنْهُ * يَدٌ بِخِلَافِ طَاعَتِهَا الْمُنُونُ
 يَخَافُ الْخَوْفُ صَوْلَتَهُ وَيَرْجُو * نِدَاهُ الْجُودُ فَهَوَ لَهُ خَدِينُ

فقال عتده ممن حضر : قد أوجز وأجاد، أكرم الله أمير المؤمنين ! فقال أبو نواس : أشعر منه يا أمير المؤمنين الذي يقول :

أَلَا يَا خَيْرَ مَنْ رَأَتْ الْعَيُونُ * نَظِيرُكَ لَا يُحَسُّ وَلَا يَكُونُ
 وَفَضْلُكَ لَا يُحَدُّ وَلَا يُجَارَى * وَلَا تَحْوِي حَيَازَتَهُ الظُّنُونُ
 فَأَنْتَ نَسِيحٌ وَحَدِكَ لَا شَبِيهَ * مُخَاشِيهِ عَلَيْكَ وَلَا خَدِينُ
 خَلَقْتَ بِلَا مَشَاكَلَةٍ لَشَيْءٍ * فَأَنْتَ الْفَوْقُ وَالْتَفْلَانُ دُونُ
 كَأَنَّ الْمَلِكَ لَمْ يَكُ قَبْلُ شَيْئًا * إِلَى أَنْ قَامَ بِالْمَلِكِ الْإِمِينُ

قال : ففضله محمد وأحسن جائزته . ويقال : إنه قالها بديها .

(١) القعدى من الخوارج : الذى يرى رأى القعدة الذين يرون التحكيم حقا ، غير أنهم قعدوا عن الخروج على الناس .

ثم نهض محمد من مجلسه ذلك، فركب الحُرَّاقَةَ الى الشَّامِسيَّة، واصطَفَتْ له الخيل
وعليها الرجال على شاطئ دجلة، وحملت معه المطايح والخزائن . وكان ركو به حُرَّاقَةً^(١)
على مثال الأسد . فما رأى الناس منظرًا كان أبهى ولا مسيرًا كان أحسن من ذلك المنظر
والمسير . وركب أبو نواس معه يومئذ وهو ينادمه، فقال :

سَخَّرَ اللهُ لِلْأَمِينِ مَطَايَا * لَمْ تَسْخَرْ لِصَاحِبِ الْمِحْرَابِ^(٢)
فَإِذَا مَا رَكَابُهُ سِرَّتَ بَحْرًا * سَارَ فِي الْمَاءِ رَاكِبًا لَيْتَ غَابِ
أَسَدًا بَاسِطًا ذِرَاعِيهِ يَدُو * أَهْرَتَ الشَّدَقِ كَلِخَ الْأَنْيَابِ^(٣)
لَا يَعَانِيهِ بِاللَّجَامِ وَلَا السَّو * طٍ وَلَا تَعْمَزُ رِجْلُهُ فِي الرَّكَابِ
عَجِبَ النَّاسُ إِذْ رَأَوْكَ عَلَى صَو * رَةٍ لَيْتَ تَمَرُّ مَرَّ السَّحَابِ
سَبَّحُوا إِذْ رَأَوْكَ سَرَّتَ عَلَيْهِ * كَيْفَ لَوْ أَبْصَرُوكَ فَوْقَ الْعُقَابِ
ذَاتَ زَوْرٍ وَمِنَسِيرٍ وَجَنَاحِ * بَيْنَ تَشَقُّ الْعُبَابِ بَعْدَ الْعُبَابِ
تَسْبِقُ الطَّيْرَ فِي السَّمَاءِ إِذَا مَاسَ * تَعْمَلُوهَا بِجَيْثِيَّةٍ وَذَهَابِ
بَارَكَ اللهُ لِلْأَمِينِ وَأَبْقَا * هِ وَأَبْقَى لَهُ رِذَاءَ الشَّبَابِ
مَلِكٌ تَقْصُرُ الْمَدَائِحُ عَنْهُ * هَامِيٌّ مَوْفِقٌ لِلصَّوَابِ

ويقال : ان هذا الشعر قاله أبو نواس في محمد ، وقد ركب حرَّاقته الدُّلْفَيْنِ ؛ فقال له
شَيْخٌ الى جانبه : إتق الله يا هذا ! فقال له أبو نواس : يا شيخ ، إن الله لم يسخر لصاحب
المحراب الدُّلْفَيْنِ ، وقد سخر له ما هو خير من الدلفين ، فأى شئ تنكر من هذا ؟

قل ابن حبيب : كنت مع مؤنس بن عمران ، ونحن نريد الفضل بن الربيع ببغداد ،
فقال مؤنس : لو دخلنا على أبي نواس في السجن فسلمنا عليه ! فقلنا ؛ فقال أبو نواس

(١) وذلك أنه كان للأمين ثلاث من السفن المعروفة بالحرقاقات لركوبه خاصة ، وهي الليث والعقاب

والدلفين . (٢) صاحب المحراب هو سليمان بن داود عليه السلام لأنه بنى بيت المقدس .

(٣) أهرت الشدق : واسمه . ركاخ الأنياب : كاشرها .

لمؤنس: أين تريد؟ فقال: أريد أبا العباس الفضل بن الربيع؛ قال فبلغته رقعةً أعطيها؛ قال: نعم؛ فأعطاه رقعةً فيها:

ما من يد في الناس واجدة * كيد أبو العباس مَولاهَا
 نام البُغاةُ على مضاجعهم * وسرَى الى نفسى فأحيَاهَا
 قد كنتُ خِفْتُكَ ثم أَمَّنِي * من أن أخافَكَ خوْفُكَ الله
 فَعَفَوْتَ عَنِّي عَفْوَ مَقْتَدِر * وَجَبَّتْ لَهُ نِقَمٌ فَالغَاهَا

فكانت هذه الأبيات سبب خروجه من السجن .

انصرف أبو نواس من بعض المواخير سكراناً، فمر بمسجد قد حضرت فيه الصلاة، فدخل ققام في الصف الأول؛ فقرأ الأمام: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ فقال أبو نواس من خلفه: لبيك؛ فلما قضيت الصلاة لبَّيْوه وقالوا له: يا كافر نشهد عليك بالكفر ودفعوه. فبلغ خبره الرشيد، فدعا له حمدويه صاحب الزندقة، وأحضر أبا نواس فقال له حمدويه: يا أمير المؤمنين، إن هذا ماجن، وليس هو بحيث يُظنُّ؛ فقال له الرشيد: وَبِحُكِّ! إنه وقع في نفسى منه شيء، فامتحنه. قال: نَحَطُّ له صورة مائى، وقال له: أبصق عليها؛ فأهوى أبو نواس بفيه ليقىء عليها؛ فقال له حمدويه: قد قلت لك يا أمير المؤمنين إنه ما جن. قال: ودعا برجل من الزنادقة مشهور، وقال له: ابصق عليها؛ فقال: وما معنى البصاق! إنه من أخلاق الشرك ولا أفعله، وأبى أن يفعل. فقال الرشيد لبعض خدم القصر: امض بهذا (يعنى أبا نواس) الى السندي، فقل له: أذبه وأطلقه،

(١) لبوه: أخذوا بلبه، وهو موضع الفلادة في الصدر. (٢) هومانى بن فاتك الحكيم، الذى ظهر في زمن سابورذى الاتخاف بن أزدشير، وقتله بهرام بن هرمز بن سابور، وذلك بعد عيسى عليه السلام. اتخذ له ديناً بين الهوسية والنصيرية. وكان يقول بنبوة المسيح عليه السلام، ولا يقول بنبوة موسى عليه السلام. حكى محمد بن هارون المعروف بأبي عيسى الوراق، وكان في الأصل مجوسياً عارفاً بمذاهب القوم، أن الحكيم مائى زعم أن العالم مصنوع مركب من أصلين قديمين: أحدهما نور والأخر ظلمة، وأنهما أزيلان لم يزالا ولن يزالا، وأنكر وحود شئ، إلا من أصل قديم، وأنهما لا يزالان قوتين حساستين سميعتين بصيرتين، وهما مع ذلك في النفس والصورة والعمل والتدبير متضادتان، وفي الحيز متحاذيتان تحاذى الشخص والظل.

(انظر الملل والنحل للشهرستاني)

وبهذا (يعني الزنديق) فقل له : احبسه قبلك الى أن تستببه ، فان تاب وإلا قتلناه .
قال : ففضى بهما الخادم ، فلما صار في آخر الصحن ، قال أبو نواس للخادم : الى أين تذهب بنا ؟ قال : الى السندي ؛ قال : فما تقول له ؟ قال : أقول له : يحبسك قبلكه حتى تُستتاب أو تُقتل ، ويؤدب هذا ويطلقه . قال : فرجع أبو نواس يده ولطمه ، وقال له : يا بن الزانية ، من الساعة نسيت ! . وبصّر بهم الرشيد ، فقال : ردوهم ؛ فقال لأبي نواس : ما هذا الذي رأيت منك ؟ قال : أراد والله أن يهلكني ويطرخني بحيث أُسسى أبدا أو أبقى مخلّدا ، سألته يا أمير المؤمنين عن الرسالة ، فاذا هو قد غيرها ؛ فضحك من أبي نواس وأطلقه .

قال رزّين الكاتب : اجتمعنا يوما وأنا وأبو نواس وعليّ بن الخليل في سوق الكرخ ، وكنا نجتمع وتناشد الأشعار وتذاكر الأخبار وتحدّث بها . فقال أبو نواس : أدبر من كان في نفسي وكان أسرع الخلق في طابعتي ، فما أدري ما أحتمل له ؟ فقال علي بن الخليل يمازحه : يا أبا علي ، سلّ شيخك وأستاذك يعطفه عليك ؛ فقال له أبو نواس : من تعني ؟ قال : من أنت في طاعته ليلاً ونهارك (يعني ابليس) فان لم يقض لك هذه الحاجة ، فما ينبغي لك أن تسأله مسألة ولا أن تُقر عينه بمصيبة ؛ فقال : هو أسد لرأيه من أن يُجِلّ بي أو يُخدّلي ؛ وانقضى مجلسنا ذلك . فلما كان بعد أيام اجتمعنا في ذلك الموضوع ، وأخذنا في أحاديثنا ، فضحك أبو نواس ؛ فقلنا له : ما أضحكك ؟ فقال : ذكرت قول علي بن الخليل يومئذ : سلّ شيخك يعطفه عليك . حينئذ قد سألته يا أبا الحسن فقضى الحاجة ، وما مضت والله ثالثة حتى أتاني من غير أن أبعث اليه ومن غير أن أستريه ، فعاتبني واسترضاني ، وكان الغضب منه والحيجي ، وأحسب الشيخ (يعني ابليس) كان يتسمع علينا في وقت كلامنا ؛ وقد قلت أبياتا في ذلك ؛ فقلنا : هاتما ، فأنشد :

لما جفاني الحبيبُ وامتنعتُ . عنّي الرسالاتُ منه والخبرُ

واشتدّ شوقي فكاد يقبلني . ذكرُ حبيبي والهَمُّ والفِكرُ

دعوتُ إبليسَ ثم قلتُ له * في خَلوةِ والدموعِ تحسدر:
 أما ترى كيف قد بليتُ وقد * أفرح جَفنى البكاءُ والسهرُ؟
 إن أنت لم تُلقِ لى المودةِ فى * صدر حبيبي وأنت مقتدر
 لا قلتُ شعرا ولا سمعتُ غنًا * ولا جرى فى مفاصلي السُّكْرُ
 ولا آزالُ القرآنَ أدرسه * أروح فى درسه وأبتكرُ
 وألزم الصومَ والصلاةَ ولا * أزال دهرى بالخير آتمرُ
 فما مضت بعد ذلك تالئةً * حتى أتانى الحبيبُ يعتذرُ
 ويطلب الودَّ والوصالَ على * أفضل ما كان قبلَ يهتجرُ
 فيألفها مِنَّةً لقد عظمتُ * عندى لإبليس ما لها خَطْرُ

(١)

لما قَدِمَ أبو نواس على الخَصيبِ بمصر أذن له وعنده جماعة من الشعراء فاستنشده ، فقال له : هنا جماعة من الشعراء هم أقدم منى وأسنّ ، فأذن لهم فى الإنشاد ، فان كان شعرى نظير أشعارهم أنشدتُ وإلا أمسكتُ ، فاستنشدهم الخَصيبُ ، فأنشدوا مديحا فى الخَصيبِ ، فلم تكن أشعارهم مقاربةً لشعر أبى نواس ، فتبسّم أبو نواس ثم قال : أُشيدُك أيها الأمير قصيدةً هى بمنزلة قصا موسى نثلقُف ما يافكُون؟ قال هات ، فأنشده قصيدته التى أولها :
 أجارةً يبتينا أبوك غيسورُ * وميسورُ ما يربحى لديك عيسيرُ
 حتى أتى على آخرها ، فانفضّ الشعراءُ من حوله .

ويقال : إن أبانواس كان خرج الى مصر فى زى الشُّطار^(٢) وتقطيعهم بَطْرَة قد صَفَّفها وُكِّين واسعين وذيل مجرور ونعل مطبق ، وكان خروجه مع سليمان بن أبى سهل ، فلما دخل على الخَصيبِ بهده الصورة ازدراه واستخفّ به ، وكان تُورد عليه كتبُ الحِلَّةِ ممن

(١) هو الخَصيب بن عبد الحميد العمري أمير مصر على الخراج . واليه تنسب منية الخَصيب باوجه القبل وليس نابى صاحب نهر أبى الخَصيب ، ذاك عبد للنصور يقال له مزروق . وكان هذا رئيسا فى أراضيه . فانقل الى بغداد وصار كاتب مهرويه الرازى ، ثم انتقل الى الامارة .
 (٢) الشُّطار : جمع شاطر وهو من أعيا أهله خبثا .

باب السلطان، ووردت كتب أبي نواس فيها قفراً ولم يستنشد، فانصرف مهموماً .
 وجاءه أهل الأدب فاستمعوا شعره وكتبوه وأنشدوه للخصيب؛ فاستحضره فأنشده :
 أجارةً بَيْتِنَا أبوكَ غيُورٌ * وميسورٌ ما يُرجمي لَدَيْكَ عَسِيرٌ
 فان كنتِ لا حِلْمًا ولا أنتِ زوجةٌ * فلا بِرَحْتِ دُونِي عَلَيْكَ سُورٌ^(١)
 وجاورتُ قوماً لا تزاوَرُ بينهم * ولا وصلَ الآ أن يكونَ نُسورٌ
 فما أنا بالمشغوفِ ضربةً لا زيبٌ * ولا كلُّ سلطانٍ على قَدِيرٍ
 واتي لَطْرَفَ العَيْنِ بالعينِ زاَجِرٌ * فقد كدتُ لا يَخْفِي على ضَمِيرٍ
 كما نَظَرْتُ والرَّيحُ ساكنةٌ لها * عُقَابٌ بأرساغِ اليدينِ نُدُورٌ^(٢)
 طوتُ ليلتينِ القوتِ عن ذى ضرورةٍ * أزيغِبَ لم يَنْبُتْ عليه شَكِيرٌ^(٣)
 فأوفتُ على عِلاءٍ حينَ بدا لها * من الشمسِ قرنٌ والضَّرِبُ يمورٌ^(٤)
 تَقَلَّبُ طرفًا في حِجَابِي مغارةٍ * من الرأسِ لم يدخُلْ عليه دُرُورٌ^(٥)

ولما قال أبو نواس :

تقول التي من بيتها خفف مركبي : * عزيزٌ علينا أن نراك تَسِيرُ
 أما دون مصيرٍ للغني متطَبُّ ؟ * بلى إن أسباب الغنى لكثير
 فقلتُ لها واستعجلتها بوادرٌ * جرت بَحْرِي في جَرْمِينِ عَيرِ
 ذَرِينِي أَكثَرُ حاسدِيكِ بِرحلَةٍ * إلى بَلَدٍ فِيهِ انْخَصِيبُ أَمِيرِ

قال له الخصيب : إذا يكثرُ حسادها وتبلغ أملها، وأمر له بالف دينار .

(١) الخلم : الصديق . (٢) الندور : خروج العظم من موضعه أو زواله وفي البيت من سوء التركيب ما فيه ، والتقدير فيه كما نظرت عقاب لها بأرساغ اليدين ندور والريح ساكنة . (٣) أزيغب تصغير أزعب وهو الفرخ ذو الرغب أى الريش الدقيق اللين . والشكير : الريش أول ما ينبت . (٤) الضريب : الطلح أو الجليد . ويمور : ينجوك أو يجمى . ويذهب أو يسيل على وجه الأرض . (٥) الحجاجان منى حجاج وهو العظم الذى ينبت عليه شعر الحاجب . والذور : ما يدور في العين من الدواء .

وتأملها :

اذا لم تَرُزْ أرضَ الخصبِ ركابنا * فأى قتي بعد الخصبِ تزور!
 فما جازه جودٌ ولا حلّ دونه * ولكن يصير الجودُ حيث يضير
 قتي يشتري حسنَ الثناء بماله * ويعلم أن الدائراتِ تدورُ
 ولم ترعيني سوددًا مثلَ سوددِ * يحلُّ أبو نصيرٍ به ويسير
 وأطرق حياتِ البلادِ حليّةً * خَصِيبةً التصمِيمِ حينَ سُورِ^(١)
 سموت لأهل الجورِ في حالِ أمنهم * فأحجورًا وكلُّ في الوثاقِ أسيرُ
 اذا قام غبته على الساقِ حليّةً * لها خَطْوُهُ عند القيامِ قصيرُ
 فمن يكُ أمسى جاهلاً بمقالتي * فان أميرَ المؤمنينِ خيرُ
 فما زلتُ توليه النصيحةَ يافعًا * الى أن بدا في العارضينِ قديرُ
 اذا غاله أمرٌ فأما كفتيه * وإما عليه بالكفاءِ تُشيرُ
 إليك رمت بالقومِ هوجًا كأنما * جماجها تحت الرِّحالِ قبور
 رحلن بنا من عقرقوفٍ وقد بدا * من الصبحِ مفتوقُ الأديمِ شهيرُ
 فما نجتُ بالماءِ حتى رأيتها * مع الشمسِ في عيني أباعَ تغورُ^(٢)
 وعُمرن من ماء النقيبِ بشربةٍ * وقد حان من ديك الصباحِ زميرُ
 وواقينِ إشراقا كأنسٍ تدمرٍ * وهنَّ الى رُعنِ المدخنِ صورُ^(٣)
 يؤمن أهل الغوطتين كأنما * لها عند أهل الغوطتين مؤورُ
 وأصبحن بالحلوانِ يرضخنِ صخرها * ولم يبق من أجراحهن شطورُ
 وقاسينِ لبلادٍ ينسانَ لم يكد * ستنا صبيحه للناظرينِ يسيرُ
 وأصبحن قد فوزنَ من نهرِ فطرسٍ * وهنَّ عن البيتِ المقدسِ زورُ^(٤)

(١) تسور : تب . (٢) القتير : الشيب . (٣) عقرقوف : اسم موضع .

(٤) نجت : عرقت .

(٥) صور : ماثلات . (٦) يرضخن : يكسرن . (٧) زور : جمع زورا بمعنى ماثلة .

طوبال بالركبان غرة هاشم * وفي القرم من حاجهن شقور^(١)
ولما أتت فسطاط مصر أجارها * على ركبها أن لا تزال مجير
من القوم بسأم كأن جبينه * سنا الفجر يسرى ضوءه وينير
زها بالخصيب السيف والرمح في الوغى * وفي السلم يزهو منبر وسرير
جواد إذا الأيدي كففت عن الندى * ومن دون عورات النساء غيور
له سلف في الأعجمين كأنهم * إذا استؤذنوا يوم السلام بدور
ولماني جدير إذ بلغتك بالمني * وأنت بما أملت منك جدير
فان تولني منك الجيـل فأهله * وإلا فإني عاذر وشكور

وقال يمدح العباس بن الفضل بن الربيع وأجاد :

ساد الملوك ثلاثة ما منهم * إن حصّلوا إلا أغر قريع
ساد الربيع وساد فضل بعده * وعلت بعباس الكريم فروع
عباس عبّاس إذا احتدم الوغى * والفضل فضل الربيع ربيع

وقال يعاتب عمر الوراق :

يا من جفاني وملا * نسيت أهلا وسهلا
ومات مرحب لما * رأيت مالي قالا
اني أظنك تحكي * فيما فعلت القيرلي^(٢)
تلقاه في الشرى ينأي * وفي الرخا يتدلى

وله في عزة النفس :

ومستعيد إخوانه يثرأته * لست له كبيرا أبر على الكبر
إذا ضمّني يوماً وإياه محفل * يرى جاني وعراً يزيد على الوعر

(١) جمع شقر وهو الأمر الملتصق بالقلب المهم له .

(٢) القرلي : كان لمحبر وكان لا يسمع لأحد شيئاً إلا جاء إليه وداحله ولا يخلف عن طعام لأحد ، وإذا سمع

بخصوصه لم يقرب ذلك ، فصر به المثل حتى قيل لطير من طيور الماء ، يوفى عليه : القرلي .

أخالفه في شكله وأجره * على المنطق المبرور والنظر الشَّزِرِ
وقد زادني تيمًا على الناس أني * أراني أغناهم وإن كنتُ ذا فقير
فوالله لا يُبدي لساني بلحاجة * إلى أحد حتى أُغيب في قبري
فلا يطمعن في ذلك مني طامع * ولا صاحبُ التاج المحجب في القصر
فلو لم أَرثُ نخرًا لكانت صيانتى * عن الناس حسبي من سؤالي من الفخر
دخل أبو نواس بعد ما نسك على قوم من إخوانه عندهم شرابٌ ومغنٌ ، فعرضوا عليه
الجلوس فأبى ، وأخذ الدواءَ والقرطاس وكتب :

إذا لم تته نفسك عن هواها * وتحسن صوتها فاليك عني
فاني قد شبتُ من المعاصي * ومن إدامتها وشيعن مني
ومن أسوا وأفحج من لبيب * يرى متطيرًا في مثل سني

ومن شعر أبي نواس :

عني المصلّي وأقوت الكئيب * مني فالمربدان فاللهب
منازلٌ قد عمّرتها يفعًا * حتى بدا في عذارى الشهب
في فتية كالسيوف هزهم * شرح شبابٍ وزانهم أدب
ثم أراب الزمان فاقسموا * أيدى سبًا في البلاد فانشعبا
لن يُخلف الدهر مثلهم أبدا * على هيات شأنهم عجب
لما تيقنت أن روتهم * ليس لها ما حيت متقلب
أبليت صبرا لم يُبليه أحد * واقسمتني مارب شعب
لذاك أتى إذا رزئتُ أحًا * فليس بيني وبينه نَسب
فطربل مربعي ولي بقصري ال * كرخ مصيف وأمي العنب
ترضعتني درها وتلحفني * بطلها والهجير يلهب
إذا تلتته العصور جللي * فينان^(١) ما في أديمه جرب

(١) الفيان : الظل الكثيف ، والحرب ، أي لا حل فيه .

تَبَيْتُ فِي مَأْتَمِ حَمَامِهِ * كَمَا تَرَأَى الْفَوَاقِدُ السُّلْبُ
يُهْبُ شَوْقِي وَشَوْقُهُنَّ مَعًا * كَأَنَّمَا يَسْتَحِضُّنَا الطَّرْبُ
فَقَعْتُ أَحْبُوبِي إِلَى الرِّضَاعِ كَمَا * تَحَامِلُ الطِّفْلُ مَسَّهُ السَّغْبُ
حَتَّى تَحْمِلَتْ بِنْتُ دَسَكْرَةَ * قَدْ عَجَمَتْهَا السُّنُونُ وَالْحَقْبُ
هَتَكَتْ عَنْهَا وَاللَّيْلُ مَعْتَكُرًا * مَهْلَهُلُ النَّسِجِ مَالَهُ هُدْبُ
مَنْ نَسَجَ حَرَفَاءَ لَا تُسَدِّدُهَا * أُخْيَةِ فِي الثَّرَى وَلَا طُنْبُ
ثُمَّ تَوَجَّاتُ خَضْرَاهَا بَسْبَابًا * بِإِسْفَى بَغَاءَاتٍ كَأَنَّهَا لَهْبُ
فَاسْتَوَسَّقَ الشَّرْبُ لِلنَّدَامِ وَأَجَّ * رَاهَا عَلَيْنَا الْجُبْنَ وَالغَرْبُ (١)
أَقُولُ لِمَا تَحَاكِيَا شَبَهَا * أَيُّهَا لِلتَّشَابُهِ الذَّهَبُ
هِيَ سَوَاءٌ وَفَرَقٌ بَيْنَهُمَا * أَنَّهُمَا جَامِدٌ وَمَنْسِكِبُ
مَسٌّ وَأَمَّا هِيَ مَحْفَرَةٌ * صُورٌ فِيهَا الْقُسُوسُ وَالصُّلْبُ
يَتَلَوْنَ إِنْجِيلَهُمْ وَفَوْقَهُمْ * سَمَاءٌ نَحْمِرُ نَجْمُومَهَا حَبَبُ
كَأَنَّهَا لَوْلَوْ تَبَدَّدَهُ * أَيَّدِي عَدَارِي أَفْضَى بِهَا اللَّعْبُ

ومن جيد شعره قوله لما منعه الأيمن من شرب الخمر: وذلك أن المأمون أمر الخطباء
بخراسان أن يعيبوا الأيمن بشعر أبي نواس ويقولوا هو جليسه ونديمه وينشدوا على المنابر
شعره، فمنعه الأيمن فقال :

غَنَّا بِالطَّلُولِ كَيْفَ بَايَنَا * وَأَسْقِنَا نُعْطِكَ التَّنَاءَ الثَّمِينَا
مَنْ سُلَافٍ كَأَنَّهُ كُلُّ طَيْبٍ * يَبْنِي مَخْبِرٌ أَنْ يَكُونَا
أَكَلَ الدَّهْرُ مَا تَجَسَّمُ مِنْهَا * وَتَبَقَّى لُبَّهَا الْمَكُونَا
ثُمَّ شَجَّتْ فَاسْتَضْحَكَتْ عَنْ لَأَلٍ * لَوْ تَجْعَرْنَ فِي يَدِي لِأَقْتِينَا
وَإِذَا مَا لَمَسْتَهَا فَهَبَاءٌ * تَمْنَعُ الْكِفِّ مَا تُبِيحُ الْعِيُونَا

في كؤوس كأنهن نُجُومٌ * جارياتٌ برُوجها أيديتنا
 طالعاتٌ من السقاة علينا * فإذا ما غرَبنَ يغرُبنَ فينا
 لوترى الشربَ حولها من بعيدٍ * قلتَ قَدومٌ من قِرَّةٍ يصطلونا
 وغزالٍ يُديرها بنان * ناعماتٍ يزيدُها العسرُ لينا
 ذاكَ عيشٌ لو دام لي غيرَ أني * عِفْتُهُ مكرهاً وخِفْتُ الأَمينا
 أدركأس حان أن تسقينا * وأنقُرِ العودَ إنه يلهينا
 ودع الذكْرَ للطلولِ إذا ما * دارتِ الكأسُ يسرةً ويمينا

ومن قول أبي نواس يمدح العباس بن عبد الله بن جعفر بن أبي جعفر:

غرَّد الديكُ الصُّدوحُ * فاسقني طاب الصُّبوحُ
 اسقني حتى تراني * حسناً عندى القبيحُ
 قهوةٌ تذكر نوحاً * حين شاد الفلكَ نوحُ
 نحن نُخفيها ويأبى * طيبُ عَرِفٍ فيفوحُ
 فكان القومُ نهبي * بينهم مسكٌ ذبيحُ
 أنا في دنيا من العبيد * اس أغدو وأروحُ
 هاشمى عبدي * عنده يغلو المديحُ
 علم الجودِ كتابٌ * بين عينيه يلوحُ
 كلُّ جِوٍ يا أميري * ما خلا جودك ريحُ
 إنما أنت عطايا * أبدا ما تستريحُ
 يح صوتُ المالِ ممَّا * منك يشكو ويصبحُ
 ما لهذا أحدٌ فو * ق يديه أو نصيحُ
 جذت بالأموالِ حتى * قيل ما هذا صحيحُ
 فهو بالمالِ جوادٌ * وهو بالعرضِ شحيحُ
 صور الجودِ مثلاً * وله العباسُ رُوحُ

قال محمد بن عيينة : اقيمت أبا نُوَاسٍ بعسكرٍ مُكْرَمٍ فقلت له : أحبُّ أنْ تلتشدني من

شعرك شيئاً تَضَنُّ به على غيري ، فألتشدني :

يَكْنِي الكَرِيمَ من الكلا * م لمن يحادثه أَقْبَهُ
والشئُ شئٌ لم يَزَلْ * بأدقِّه يأتى أَجَلُهُ
إن لم يُصَبِّكَ من الكريد * سم الحُرِّ وأبله فطَلُهُ
يُبْدِي مكارمه كما * يُبْدِي فِرْدَ السيفِ سَلَّهُ
والنذلُ يُوقِعُ نفسه * متعمِّداً فيما يُبْذَلُهُ
والحرُّ يكرِّمُ نفسه * بالصفحِ عمن لا يُجِلُّهُ

وقال أبو نواس يمدح الأمين :

صبيتُ على الأمين ثيابَ مدحى * فكلُّ الناسِ حَسَنٌ وأستجادا
ولولا فضلُهُ ما جاد شعري * ولا أعظني الفِطْرُ القِيادا
وقالوا قد أجدتُ فقلتُ إنِّي * وجدتُ القولَ يَمَكِّنِي بفادا

ومن نحرياته :

ذكر الصُّبُوحِ بُسْحَرَةَ فَأَرْتاحا * وأملَهُ ديكُ الصُّباحِ صِيادا
أوفى على شَرَفِ الحدارِ بَسْدَفَةِ * غِرْدًا يصفقُ بالجناحِ جَناحا
فأدرُ صباحك بالصُّبُوحِ ولا تكن * كَمُسَوِّفِينَ غَدُوا عليك شِجَاحا
إن الصُّبُوحِ جِلاءُ كلِّ نَجْمَر * بدرتُ يَداهُ بكأسه الإصباحا
وَخَدِينِ لَدَاتِ مَعْلَلِ صاحِبِ * تفتاتُ منه فكاهاةٌ ومزاحا
نَهْتُهُ والليلُ ملتبسٌ به * وأزحتُ عنه نَعاسُهُ فَأَنزاحا
قال ابْنُ عِينِ المصباحِ ، قلتُ له أَتَيْتُ * حَسْبِي وحَسْبُكَ ضَوْوُها مصباحا
فسكبتُ منها في الزجاجةِ شَرِبَةً * كانت له حتى الصُّباحِ صَباحا

من قهوةٍ جاءتكِ قبلِ مزاجِها * عطُلاً فالبسها المزاجُ وشاحاً
 شكُّ الزَّالِ فؤادها فكأنها * أهدتُ اليكِ بريحتها تُفاحاً
 صفراءُ تفترسُ النفوسَ فلا ترى * منها بهنَّ سوى السُّبَّاتِ جراحاً
 ومنها :

لا تَبِكِ لَيْلَى ولا تطربُ الى هند * وأشربُ على الوردِ من حمراءِ كالوردِ
 كأساً اذا انحدرتُ في حلقِ شاربها * أجدتهُ حمرتها في العينِ والحدِّ
 فالخمرِ ياقوتةٌ والكأسُ لؤلؤةٌ * من كفِ لؤلؤةٍ ممشوقةٍ القَدِّ
 تسقيكِ من طَرَفِها نحرًا ومن يدها * نحرًا فما لكِ من سكرينِ من بدِّ
 لي نشوتانِ والنَّدمانِ واحدةٌ * شيءٌ خُصِّصْتُ به من دونهمِ وحدي

كان الأصبغى يفضل أبا نواس على شعراء زمانه بهذه القصيدة :

أما ترى الشمسَ حلَّتِ الحَمَلَا * وطاب وقتُ الزمانِ واعتدلاً
 وغنَّتِ الطيرُ بعد عُجْمَتِها * واستوفتِ الخمرُ حوْمًا كَمَلَا
 واكتسبتِ الأرضُ من زخارِنِها * وشئى ثيابٍ تخالُه حُلَلَا
 فاشربُ على جِدَّةِ الزمانِ فقد * أصبح وجهُ الزمانِ مقتبلا
 من قهوةٍ تُذهِبُ الهمومَ فلا * أرهبُ فيها الملامَ والعَدَلَا
 كَرِخِيَّةٍ تتركُ الطويلَ من العيد * ش قصيراً وتبسُّطُ الأملَا
 تلمعُ لمعَ السرابِ في قَدَحِ الـ * يقوم اذا ما حَبَّأُها اتصلا
 يقول صرَّف اذا مزجتُ له * من لم يكن للكثيرِ محتملا
 فسَقَّ هذا بقدرِ طاقته * وأحملُ على ذا بقدرِ ما احتملا
 عُجْنَا بشيئينِ من طبائِعِها * حسنٍ وطيبٍ ترى به المشَلَا

كان أبو نواس لا يُسْتَشَدُّ شيئاً من شعره إلا أنشد هذه القصيدة :

وَحَيْمَةَ نَاطُورٍ بِرَأْسِ مُنْيَةِ ^(١) * تَهَمَّ يَدَا مَنْ رَامَهَا بِزَيْلِ ^(٢)
 إِذَا عَارَضَتْهَا الشَّمْسُ فَأَءَ ظِلَّهَا * وَإِنْ وَاجَهَتْهَا آذَنْتُ بِدُخُولِ
 حَطَطْنَا بِهَا الْأَنْفَالَ قُلَّ هِجْرَةٍ ^(٣) * عَبُورِيَّةٍ تُدْذِكِي بِغَيْرِ قَيْلِ
 تَأْتَتْ قَلِيلًا ثُمَّ فَاءَتْ بِمَذْقَةٍ ^(٤) * مِنْ الظِّلِّ فِي رَثِّ الْأَبَاءِ ضَيْلِ
 كَأَنَّا لَدَيْهَا بَيْنَ عِطْفَى نَعَامَةٍ * جَفَا زورُهَا عَنْ مَبْرِكٍ وَمَقِيلِ
 حَلَبْتُ لِأَصْحَابِي بِهَا دِرَّةَ الصَّبَا * بِصَهْبَاءٍ مِنْ مَاءِ الْكِرْوَمِ شَمُولِ
 إِذَا مَا أَنْتِ دُونَ اللَّهَاءِ مِنَ الْغَنَى * دَعَا هَمَّهُ مِنْ صَدْرِهِ بِرَحِيلِ
 فَلَمَّا تَوَقَّى الشَّمْسَ جِنَحُ مِنَ الدُّبْحَى * تَصَابَيْتُ وَأَسْتَجَمَلْتُ غَيْرَ جَمِيلِ
 وَعَاطَيْتُ مِنْ أَهْوَى الْحَدِيثِ كَمَا بَدَا * وَذَلَلْتُ صَعْبًا كَانَ غَيْرَ ذَلِيلِ
 فَنَنَى وَقَدْ وَسَدْتُ يُسْرَى خَدَّهُ * أَلَا رَبِّمَا طَالِبْتُ غَيْرَ مُنْيِلِ
 وَأَنْزَلْتُ حَاجَاتِي بِجَقْوَى مُسَاعِدِ * وَإِنْ كَانَ أَدْنَى صَاحِبِ وَخَلِيلِ
 وَأَصْبَحْتُ أَلْحَى السُّكْرَ وَالسُّكْرَ مَحْسِنٌ * أَلَا رَبِّ إِحْسَانٍ عَلَيْكَ تَقْبِيلِ
 كَفَنِي حَزَنًا أَنْ الْجَوَادَ مَقْتَرٌ * عَلَيْهِ وَلَا مَعْرُوفَ عِنْدَ بَجِيلِ
 سَأَبِغِي الْغَنَى إِمَّا جَلِيسَ خَلِيفَةٍ * يَقُومُ سِوَاءِ أَوْ خِيفَ سَبِيلِ
 بِكُلِّ فِتْنَى لَا يُسْتَطَارُ جَنَانُهُ * إِذَا نَوَّهَ الرَّحْفَانَ بِاسْمِ قَيْلِ
 لَتَخْمِسَ مَالَ اللَّهِ مِنْ كُلِّ فَاجِرٍ * أَنَحَى بِطْنِيَةِ لِلطَّيْبَاتِ أَكُولِ
 أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْمَالَ عَوْنٌ عَلَى النَّدَى * وَليْسَ جَوَادٌ مَقْتَرٌ كَبَخِيلِ

(١) الناطور : حافظ النخل والكرم والزروع وفي الجارح : الناصر والناطور بالهاء المهملة حافظ الزرع ، من كلام أهل السواد وليس عربي محض . (٢) الزليل مصدر كالزلل . (٣) أى منزهة هاجرة ، وعبورية نسبها إلى الشعرى العبور وأيام طلوعها أيام الحر الشديد . (٤) أى انشمس ، أى توقفت في الجوع عند زوالها . وفاءت بمذقة ، أى دخلت عليهم من تلك الخيمة أخلة التي ثبتت على الأبناء الضعيف من القصب الرث فلم تقو الشمس عليهم لم تمنعهم الخيمة بستر قوى فيصير ظلا ولكنه شمس وظل ، فشبهت بالمدنوق من اللبن ، أى المروج .

فإن استريد أنشد هذه القصيدة الأخرى :

كان الشباب مطية الجهل * ومحسن الضحكات والمهزلي
 كان الجمال إذا أردت به * ومشيت أخطر صيت النعل
 كان البليغ إذا نطقت به * وأصاحت الآذان للملي
 كان المشفع في مآربه * عند الفتاة ومدرك التبيل
 والامرئ حتى إذا عزمت * نفسي أعان يدي بالفعل
 فالآن صرت الى مقاربة * وحططت عن ظهر الصبار حلي
 والراح أهواها وإن رزأت * بلغ المعاش وقالت فضلي
 صفراء مجدها مرآزبها * جلت عن النظراء والمثلي
 ذحرت لآدم قبل خلقته * فتقدمته بخطوة القبيل
 فأناك شيء لا تلامسه * إلا بحسن غيرية العقل
 فترود منها العين في بشر * حر الصفيحة ناصع سهل
 فاذا علاها الماء ألبسها * حبا شبيهه جلاجل الحلي
 حتى إذا سكنت جوائمها * خطت بمثل أكارع الثملي
 خطين من شتى وجمع * غفيل من الإعجام والشكلي
 فاعذر أخاك فإنه رجل * مرنت مسامعه على العذل

ومن طيب شعره، والشطر الأول من القصيدة لفظ ابن الدمينه :

أعادل ما على وجهي قنوم * ولا عرضي لأول من يسوم
 يفضني على الفتيان أني * أبيت فلا ألام ولا ألوم
 أعادل إن يكن برداي رثا * فلا يعدمك بينهما كريم
 شقت من الصبا واشتق مني * كما اشتقت من الكرم الكروم
 فاست أسوم للذات نفسي * مياومة كما دفع الغريم

ومتصلٍ بأسباب المعالي * له في كل مكرمةٍ قديمٌ
 رفعتُ له النداءَ بقمُ نخدُها * وقد أخذتُ مطالعها النجومُ
 بتفديّةٍ تزالُ النفسُ فيها * ومُتمنٍ الخسوفُ والعمومُ
 فقام وقتُ من أخوينِ هاجا * على طسربٍ وليهما بهيمُ
 أجز الرِّق وهو يجرُ رجلا * يحور به العاسُ ويستقيمُ
 سَلِ الندمان ما أولته منها * وسلها ما احتوى منها الكريمُ
 كلا الشخصين متصِفٌ ولكن * قضت وطرا وذا منها سقيمُ

وقال :

إني صرفتُ الهوى الى قمرٍ * لم تبذلْه العيونُ بالنظرِ
 اذا تأملته تعاطمك آل * بإقرار أنه من البشرِ

ومن قوله :

يا شقيقَ النفيس من حَكَمٍ * نمت عن ليلَى ولم أَمِّ
 فأسقني البكر التي آخمرتُ * بِخَمَارِ الشيبِ في الرَّحِمِ
 نمت أنصت الشبَاب لها * بعد ما جازتُ مدى الهَرَمِ
 فهى لليومِ السقى بُزِلتْ * وهى تُربُّ الدهيرِ في القَدَمِ
 عتقت حتى لو أتصلت * بلسانِ ناطقٍ وقِيمِ
 لأحبتُ في القومِ مائةً * ثم قصتُ قصةَ الأُمِّ
 فرعتها بالمزاجِ يَدٌ * خُلقتُ للسيفِ والقلمِ
 في نَدَامَى سادةٍ زُهرٍ * أخذوا اللذاتِ من أَمِّ
 فتمشّت في مفاصلهم * كتمشّى البرء في السَّمِّ
 فعلتُ في البيتِ اذ مُزجتُ * مثل فعلِ الصبحِ في الظلمِ
 فاهتدى سارى الظلامِ بها * كاهتداءِ السّفَرِ بالعلمِ

ومن طرديات أبي نواس في صفة الكلب :

أنعتُ كلباً أهله من كده * قد سعدتُ جدودهم بجدده
فكلّ خيرٍ عندهم من عنده * وكلّ رفسد نالهم من رفسده
يظّل مولا له كعبده * بيتُ أدنى صاحبٍ من مهده
وإن عرى جلّله ببرده * ذا غرةٍ محجّلا بزنده
تلذّ منه العينُ حسنَ قدّه * يا حُسنَ شديقهِ وطولَ قدّه
تلقيَ الطبّاءُ عتّاً من طرده * يشربُ كأساً شدها من شده
* يالك من كلبٍ نسيجٍ وحده * *

أبو نواس وجنان

قال أبو الفرج: كانت جنان هذه جارية آل عبد الوهاب بن عبد الحميد النخعي، وكانت حلوة جميلة المنظر أديبة، ويقال: إن أبا نواس لم يصدّق في حبّ امرأة غيرها، وقيل له يوماً إن جنان قد عزمت على الحج، فكان هذا سبب حجه وقال: أما والله لا يفوتني المسير معها والحجّ عامي هذا إن أقامت على عزيمتها، وقال وقد حج وعاد:

ألم تر أنني أفنيتُ عمري * بمطلبها ومطلبها عسيرُ
فلما لم أجد سبباً إليها * يقربني وأعيثني الأمورُ
حججتُ وقلتُ قد حججتُ جنانُ * فيجمعني وإياها المسيرُ

قال من شهده حين حجّ مع جنان وقد أحرم: لما جنّه الليل جعل يليّ بشعره ويحدّو به ويطبّ، فغنىّ به كلّ من سمعه وهو قوله:

الهنّا ما أعدّ لك * ما ليك كلّ من ملك
ليتك قد ليئتُ لك * ليك إن الحمد لك
والملك لا شريك لك * والليل لما أن حلّك

والساجحات في الفلك * على مجارى المنسلك
 ما خاب عبد أملك * انت له حيث سلك
 لولاك يا رب هلك * كل نبي وملك
 وكل من أهل لك * سبج أو لبي فلك
 يا مخطئا ما أغفلك * عجل وبادر أجلك
 واختم بخير عملك * ليك ان الملك لك
 والحمد والنعمة لك * والعز لا شريك لك

وفيها يقول :

جفن عيني قد كاديس * قط من طول ما اختاج
 وفؤادي من حرج * بك والهجير فد نضج
 خبريني فدتك نف * سى وأهلى متى الفرج
 كان ميعادنا نرو * ج زياد فقد نرج
 أنت من قتل عائد * بك فى أضيق الحرج

قال الأصفهاني : قال محمد بن ابراهيم بن كثير الصوفي : دخلنا على أبي نواس نعوده
 فى علته التى مات فيها ، فقال له على بن صالح الهاشمى : يا أبا على ، أنت فى أول يوم من أيام
 الآخرة وآخر يوم من أيام الدنيا ، وبينك وبين الله عز وجل هذات ، قُب إلى الله عز وجل ،
 فبكى ساعة ثم قال : ساندونى ساندونى ، ثم قال : أأخوف بالله عز وجل وقد حدثنى حماد
 ابن مسلم عن زيد الرقاشى عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
 « لكل نبي شفاعته وإنى اختبأت شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى يوم القيامة » أفترانى
 لا أكون منهم ؟

ومن قوله في مرض موته :

دَبَّ فِي السَّقَامِ عَلَوًا وَسُفْلًا * وَأَرَانِي أَمُوتُ عُضُوهَا فُضُوهَا
 ليس تَمِضِي من لِحْظَةٍ بِي إِلَّا * نَقَصْتَنِي بِمَرِّهَا فِي جُزْوَآ
 ذَهَبْتُ بِجِدَّتِي بِحَاجَةِ نَفْسِي * وَتَطَلَبْتُ طَاعَةَ اللَّهِ نِضُوهَا
 هَلَفَ نَفْسِي عَلَى لَيْالٍ وَأَيَا * م تَجَاوَزْتَهُنَّ لِعِبَاً وَهَلَّوهَا
 قَدْ أَسَانَا كُلَّ الإِسَاءَةِ فَالِدَا * هَمَّ صَفْحًا عَنَا وَغَفْرًا وَعَفْوًا

ثم قال :

شِعْرِي حَىَّ أَتَاكَ مِنْ لَفْظِ مَيِّتٍ * صَارَ بَيْنَ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ وَقْفَا
 قَدْ بَرَّتْ جِسْمَهُ الْخَوَادِثُ حَتَّى * كَادَ عَنِ عَيْنِ الْخَلَائِقِ يَخْفَى
 لَوْ تَأَمَّلْتَنِي لَتُبْصِرَ وَجْهِي * لَمْ تَبْنُ مِنْ كِتَابِ وَجْهِي حَرْفَا
 وَلَكَّرْتِ طَرْفَ عَيْنِكَ فِيمَنْ * قَدْ بَرَاهِ السَّقَامِ حَتَّى تَعْفَى

وكان عمر أبي نواس تسعا وثمانين سنة ، وكانت وفاته قبل دخول المأمون مدينة

السلام بست سنين (سنة ١٩٨) .

٢ - العتّابيّ^(١)

قال أحمد بن سهل: تذاكرنا شعر العتّابيّ فقال بعضنا: فيه تكلف، ونصره بعضنا.

فقال: شيخ حاضر، ويحكم! أيقال إن في شعره تكلفا وهو القائل:

رُسلُ الضمير اليك تترى * بالشوق ظالمة وحسرى
مترجّيات ما يندى * ن على الوجان بعد مسرى^(٢)
ما جفّ للعينين بعد * مدك يا قير العين مجرى
فأسلمت سائمت مبرأ * من صبوق أبدا معرى

(١) هو كلثوم بن عمرو بن أيوب العتّابيّ النخعي من ولد عتاب بن أسيد ثم من بني تغلب بن وائل، شاعر مترسل بلغ مطبوع متصرف في فنون الشعر مقدّم، من شعراء الدولة العباسية، وكان منقطعاً إلى اليرامكة فوصفه للرشيد ووصلوه به، فبلغ عنده كل مبلغ وعظمت فوائده منه.

وكان حسن الاعتدال في شعره ورسائله وله مصنفات في المنطق والأدب واللغة وكان يقيم في رأس عين بميسدا عن دور الخلفاء والأمراء. وبلغ الرشيد قصيدة قالها فأعجب بها فطلب إشخاصه إليه بغناء وطابه قبيص غليظ وفروة وخف، وعلى كتفه ملحفة جافية بغير سراويل، فلما رفع الأخير بقدمه إلى الرشيد أمر بأن تفرش له حجره وتقام له وظيفة فعملوا، فكانت المائدة إذا قدّمت إليه أخذ منها رقاقة وملعاً وحافظ الملع بالتراب فأكلها، فاذا كان وقت النوم نام على الأرض، وانخدم يتفقدونه ويتحجبون من فعله. وسأل الرشيد عنه فأخبروه فأمر بطرده فخرج حتى أتى يحيى بن سعيد العقيلي وهو في منزله فسلم عليه واتسب له ورحب به وقال له «ارتفع» فقال «لم آتك للخلوس» قال «فما حاجتك» قال «دابة أبلغ عليها إلى رأس عين» فقال: «يا علام» أعطه الفرس الثلاثي: فقال: لا حاجة لي في ذلك ولكن تأمر أن تشتري لي دابة أتبلغ عليها: فقال لعلامه «امض معك فابعث له ما يريد» فضى معه فعدل به العتّابيّ إلى سوق الخير فقال لعلام: إنما أحرز أن ابتاع لك دابة: فقال له: انه أرسلك معي ولم يرسلني معك فان عملت ما أريد والا انصرف: فضى معي فاشترى حماراً بمائة وخمسين درهماً وقال: ادفع إليه ثمنه: فدفعه إليه فرك الحمار عريا برمشة عليه وبرذعة وساقا مكشوفتان. فقال له يحيى بن سعيد «ضحني! أهملني يحمل مالك على هذا!» فضحك وقال «ما رأيت قدرك يستوجب أكثر من ذلك» ومضى إلى رأس عين.

توفى سنة ٢٢٠ هـ وتجد أحباره في الأغاني (ج ١٢ ص ٢) وروايات الوفيات (ج ٢ ص ١٢٧).

(٢) أي متبلمات بالقليل حتى يصلح إليك.

إن الصبابة لم تدع * منى سوى عظيم مبرى
ومدامع عبرى على * كبد عليك الدهر حرى

أوبقال إنه متكأف وهو الذى يقول :

فلو كان للشكر شخصين * اذا ما تأمله الناظر
لمثلته لك حتى تراه * لتعلم أنى أمرؤ شاكر

وَجَدَ الرِّشِيدُ عَلَى الْعَتَابِيِّ فَدَخَلَ سِرًّا مَعَ الْمُتَظَلِّمِينَ بِغَيْرِ إِذْنٍ ، فَثَلَّ بَيْنَ يَدَيْ الرِّشِيدِ وَقَالَ لَهُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، قَدْ آذَنْتَنِي النَّاسَ لَكَ وَلِنَفْسِي فِيكَ ، وَرَدَّ نِي أَبْتَلَاؤُهُمْ إِلَى شُكْرِكَ ، وَمَا مَعَ تَذَكُّرِكَ قِنَاعَةَ بَغِيرِكَ ، وَلِنِعْمِ الصَّائِنُ لِنَفْسِي كُنْتُ لَوْ أَعَانَنِي عَلَيْكَ الصَّبْرُ ، وَفِي ذَلِكَ أَقُولُ :

أَخِضْنِي الْمَقَامَ الْعَمْرَانَ كَانْ غَرَّنِي * سَنَا خَلْبٍ أَوْ زَلَّتِ الْقَدَمَانِ
أَتْرَكْنِي جَدَّبَ الْمَعِيشَةَ مُقْتَرًا * وَكَفَاكَ مِنْ مَاءِ النَّدى تِكْفَانِ
وَتَجْعَلْنِي سَهْمَ الْمَطَامِعِ بَعْدَ مَا * بَلَّتَ يَمِينِي بِالنَّدَى وَلِسَانِي

فأعجب الرشيد قوله، وخرج وعليه الخلع، وقد أمر له بجائزة .

كَلَّمَ الْعَتَابِيُّ يَحْيَى بْنَ خَالِدٍ فِي حَاجَةِ بَكَلَمَاتٍ قَلِيلَةٍ ، فَقَالَ لَهُ يَحْيَى : لَقَدْ نَزُرُ كَلَامُكَ الْيَوْمَ وَقَلٌّ ، فَقَالَ لَهُ : وَكَيْفَ لَا يَقُلُّ وَقَدْ تَكْتَفِينِي ذَلَّ الْمَسْأَلَةَ وَحَيْرَةَ الطَّلَبِ وَخَوْفَ الرَّدِّ؟ فَقَالَ : وَاللَّهِ لَئِنْ قَلَّ كَلَامُكَ لَقَدْ كَثُرَتْ فَوَائِدُهُ ، وَقَضَى حَاجَتَهُ .

قال يحيى بن خالد البرمكى لولده : إن قدرتم أن تكتبوا أنفاس كلثوم بن عمرو العتابي فضلا عن رسائله وشعره ، فلن ترؤا أبدا مثله .

وقف العتابي باب المأمون يلتمس الوصول إليه ، فصادف يحيى بن أكرم جالسا ينتظر الإذن ، فقال له : إن رأيت أعزك الله أن تذكر أمرى لأمير المؤمنين إذا دخلت فافعل ، قال له : لست أعزك الله بحاجبه ، قال : فإن لم تكن حاجبا فقد يفعل مثلك ما سألت ، واعلم أن الله عز وجل جعل في كل شى زكاة ، وجعل زكاة المال رفا المستعين ، وزكاة الجاه إغاثة الملهوف ؛ واعلم أن الله عز وجل مقبلٌ عليك بالزيادة إن شكرت ، أو بالتغيير إن كفرت .

وإني لك اليوم أصلح منك لنفسك، لأني أدعوك الى أزيداد نعمتك وأنت تأتي، فقال له يحيى: أفعل وكرامة، ونخرج الإذن ليحيى، فلما دخل لم يبدأ بشيء بعد السلام إلا أن أستاذنا المأمون للعتابي، فأذن له .

وقيل له : لو تزوجت، فقال : إني وجدت مكابدة العقبة أيسر على من الاحتيال لمصلحة العيال .

قال دِعِيل : ما حسدتُ أحدا قطّ على شعركما حسدتُ العتّابيّ على قوله :

هَيْبَةُ الإِخْوَانِ قَاطِعَةٌ * لِأَخِي الحَاجَاتِ عَن طَلْبَةٍ

فَإِذَا مَا هَيْبَتَ ذَا أَمَلٍ * مَاتَ مَا أَمَلْتَ مِن سَبِيهِ

كان العتّابي جالسا ذات يوم ينظر في كتاب، فتربه بعض جيرانه، فقال : أيش ينفع العلم والأدب من لا مال له؟ فأنشد العتّابي قوله :

يَا قَاتِلَ اللَّهِ أَقْوَامًا إِذَا تَمَقَّفُوا * ذَا اللَّبِّ يَنْظُرُ فِي الآدَابِ وَالْحَيْكَمِ

قَالُوا وَلَيْسَ بِهِمْ إِلَّا نَفَاسَتُهُ^(١) * أَنَا فَعُذِّعْ ذَا مِنَ الإِقْتَارِ وَالْعُذْمِ

وليس يدرون ما الحظ الذي حرموا * - لحاهم الله - من علم ومن فهم

ومن قوله أيضا :

لئن كانت الدنيا أنالتك ثروة * فأصبحت ذا يسر وقد كنت ذا عسر

لقد كشف الإثراء منك محازيا * من اللؤم كانت تحت ستر من الفقر

وقال أيضا :

رحل الرجاء اليك مغتريا * حُشِدْتُ عَلَيْهِ نَوَائِبُ الدَّهْرِ

رَدَّتْ إِلَيْكَ نَدَامَتِي أَمَلِي * وَشَأْنُكَ إِلَيْكَ عِنَانَهُ شُكْرِي

وجعلتُ عتَبَكَ عَتَبَ مَوْعِظَةٍ * وَرَجَاءَ عَفْوِكَ مَتْنِي أَمَلِي

لما سعى منصور الثمري بالعتّابي الى الرشيد أغتاض عليه فطلبه، فسأره جعفر بن يحيى

عنه مدّة وجعل يستعطفه عليه حتى أسئل ما في نفسه وأمنه، فقال يمدح جعفر بن يحيى :

ما زلتُ في عَمَرَاتِ الموتِ مُطَرَّحًا * قد ضاق عني فسيحُ الأرضِ من حيلِ
ولم تزلْ دائبًا تسعى بلفظك لي * حتى آخِئتُ حياتي من يَدَيِ أَجَلِي
عاد عبد الله بن طاهر وإسحاق بن إبراهيم بن مُصعبِ كلثوم بن عمرو العتّابي في علة
أعتلها، فقال الناس : هذه خُطرةٌ خَطَرَتْ ، فبلغ ذلك العتّابي ، فكتب الى عبد الله بن
طاهر :

قالوا الزيارةُ خُطرةٌ خَطَرْتُ * ويحارُّ بِرُكِّ ليس بالخطرِ
أبطلُ مقاتلهم بثانية * تستفيدُ المعروفِ مِن شكري
فلما بلغت أبياته عبد الله بن طاهر ضحك من قوله وركب هو وإسحاق فعاداه مرة
ثانية .

كانت له امرأة من باهلة ، فلما مضى الى رأس عين قالت له : هذا منصور التمرى :
قد أخذ الأموال فحلى نساءه وبنى داره وأشترى ضياعاً وأنت ههنا كما ترى ، فأنشأ يقول :
تلوم على ترك الغنى باهليّةً * ذوى الفقر عنها كل طرف وتالد
رأت حولها النسوان يرقفن في الثرى : مقلدة أعناقها بالقلائد
أسرك أنى نلت ما نال جعفر * من العيش أو ما نال يحيى بن خالد
وأن أمير المؤمنين أغصني * مغمصهما بالمسرهفات البوارد
رأيت رفاعات الامور مشوبةً * بمستودعات في بطون الأسود
دعيني تجنني ميتي مطمئنةً * ولم اتجشم هول تلك الموارد

لما قدم العتّابي مدينة السلام على المأمون أذن له ، فدخل عليه وعنده إسحاق بن إبراهيم
الموصلى ، وكان العتّابي شيخاً جليلاً نبيلاً ، فسلم فردّ عليه وأدناه وقربه حتى قرّب منه ، فقبل
يده ، ثم أمره بالجلوس بفلس ، وأقبل عليه يسأله عن حاله وهو يجيبه بلسان دُلقي طاق ،
فاستظرف المأمون ذلك وأقبل عليه بالمداعبة والمزاح ، فظن الشيخ أنه استخف به ، فقال :
يا أمير المؤمنين ، الإبناس قبل الإبناس ، فاشتبه على المأمون قوله ، فنظر الى إسحاق مستفهما ،
(1)

فأوما إليه وعمره على معناه حتى فهم، فقال: يا غلام، أَلَفَ ديناراً، فأَتَى بذلك، فوضع بين يدي العتّابي وأخذوا في الحديث، وعمر المأمونَ إِسحاقَ بن إبراهيم عليه، فجعل العتّابي لا يأخذ في شيء إلا عارضه إِسحاق، فبقي العتّابي متعجباً، ثم قال: يا أمير المؤمنين، أتأذن لي في سؤال هذا الشيخ عن اسمه؟ قال: نعم سَلْ، فقال لإسحاق يا شيخ، من أنت وما اسمك؟ قال: أنا من الناس وأسمي كُلُّ بَصَلٍ، فتبسم العتّابي وقال: أما أنت فمُعرُوف وأما الاسم فمُنكر، فقال إِسحاق: ما أقلُّ إنصافك! أنتكر أن يكون اسمي كل بصل، وأسمك كلثوم، وكلثوم من الأسماء، أو ليس البصل أطيب من الثوم؟ فقال له العتّابي: لله دُزْلُ! فما أَججك، أتأذن لي يا أمير المؤمنين في أن أصله بما وصلني به؟ فقال المأمون: بل ذلك موقرٌ عليك وأنامر له بمثله: فقال له إِسحاق: أما إذ أقررت بهذه فتوهمني تجدني، فقال: ما أظنك إلا إِسحاق الموصلي الذي يتناهى البنا خبره، قال: أنا حيثُ ظننت، وأقبل عليه بالتحية والسلام، فقال المأمون - وقد طال الحديث بينهما - : أما إذ قد اتفقتما على المودة فانصرفا متناديين، فانصرف العتّابي الى منزل إِسحاق فأقام عنده .

قال عثمان الورّاق: رأيت العتّابي يأكل خبزاً على الطريق بساب الشام، فقلت له: وَيْحَكَ! أما تستحي؟ فقال لي: رأيت لو كنا في دارها بقر كنت تستحي وتحنّشهم أن تأكل وهي تراك؟ فقال: لا، قال: فاصبر حتى أعلمك أنهم بقر، فقام فوعظ وقص ودعا حتى كثرت الزحام عليه ثم قال لهم: روى لنا غير واحد أنه من بلغ لسانه أرنبة أنفه لم يدخل النار، فما بقي أحد إلا أخرج لسانه يومئذ به نحو أرنبة أنفه ويقدره حتى يباغها أم لا، فلما تفرقوا قال لي العتّابي: ألم أخبرك أنهم بقر؟

قال الفضل: رأيت العتّابي بين يدي المأمون وقد أسرّ، فلما أراد القيام قام المأمون فأخذ بيده واعتمد الشيخ على المأمون، فما زال المأمون يُنهِضه رويداً رويداً حتى ألقاه فنهض .

وكتب كلثوم بن عمرو العتّابي الى صديق له يستجديه :

أما بعد — أطل الله بقاءك وجعله يمتدّ بك الى رِضوانه والجنّة — فإنك كنت
 عندنا روضة من رياض الكرم، تبهج النفوسُ بها، وتستريحُ القلوب اليها؛ وكنا نعيمها
 من النّجعة^(١) استمتاما لزهرتها، وشفقةً على خضرتها، وأذخارا لثمرتها، حتى أصابتنا سنةٌ
 كانت عندي قطعة من سيني يوسف أشتدّ علينا كلبها، وغابت قِطمتها، وكذبنا غيومها،
 وأحلقنا بروقها، وفقدنا صالح الإخوان فيها، فانتجعتك^(٢). وأنا بانتجاعي إياك شديدُ الشفقة
 عليك، مع علمي بأنك موضع الرائد، وأنت تغطّي عين الحاسد. والله يعلم أني ما أعدك
 إلا في حومة^(٣) الأهل. وأعلم أن الكريم اذا أستجيا من إعطاء القليل ولم يمكنه الكثير،
 لم يُعرف جوده ولم تظهر همته. وأنا أقول في ذلك :

إذا تكرمت عن بذل القليل ولم * تقدر على سعة لم يظهر الجود

بث النّوأل ولا تمنعك قِلته * فكل ما سدّ فقرا فهو محمود

قيل فشاطرّه جميع ماله .

(١) النّجعة : طلب الكلاء في موضعه . (٢) الكلب : القحط وبلاء الشتاء ومرض يصيب

الكلاب . (٣) الرائد : الطالب . (٤) الحومة ها : الجماعة والطائفة .

٣ - دَعْبِل^(١)

شاعر متقدم مطبوع هجاء خبيث اللسان، لم يسلم منه أحد من الخلفاء ولا من وزراءهم ولا أولادهم ولا ذواتهاة أحسن إليه أم لم يحسن، ولا أفلت منه كبيراً أو صغيراً .

وكان دعبل من الشيعة المشهورين بالميل الى صلوات الله عليه . وقصيدته : «مدارس آيات خَلَّتْ من تِلَاوَةٍ» من أحسن الشعر وفانر المدائح المَقُولَةِ في أهل البيت عليهم السلام، وقصد بها أبا علي بن موسى الرضا بخراسان، فأعطاه عشرة آلاف درهم من الدراهم المضروبة باسمه وخلع عليه خلعة من ثيابه، فأعطاه بها أهل قُم ثلثين ألف درهم، فلم يبعها فقطعوا عليه الطريق فأخذوها؛ فقال لهم : إنها إنما تُراد لله عز وجل وهي محترمة عليكم، فدفعوا إليه ثلاثين ألف درهم، فخلف ألا يبيعها أو يعطوه بعضها ليكون في كفته، فأعطوه فردكم، فكان من أكفائه .

قال ابراهيم بن المهدي للأمون قولاً في دعبل يحترضه عليه؛ فضحك الأمون وقال : إنما تحترضني عليه لقوله فيك :

يا معشر الأجناد لا تقنطوا * وأرضوا بما كان ولا تسخطوا
فسوف تعطون حنينية^(٢) * يلتذها الأمرد والأشمط
والمعبديات لفقواكم * لا تدخل الكيس ولا تربط
وهكذا يرزق قواده . خليفة مصحفه البربط

(١) هو دعبل بن علي بن رزين من خراة، أصله من الكوفة وجاء بغداد بطلب من الرشيد . وهو شاعر مطبوع هجاء خبيث اللسان، لم يسلم منه أحد من الخلفاء ولا وزراءهم ولا أولادهم ولا ذواتهاة أحسن إليه أو لم يحسن، ولا أفلت منه كبيراً أو صغيراً . فكان الناس يحافونه وبتونه حتى الأمون فإنه هجاء شديداً واحتمل ذلك منه . توفي سنة ٢٤٦ هـ . وتجد أخباره في الأغاني ج ١٨ ص ٢٩ وابن خلكان ج ١ ص ١٧٨ والشعر والشعراء ص ٥٣٩ والفهرست (ص ١٦١) .
(٢) يريد أصواتاً منسوبة الى حنين الحيرى المغنى .
(٣) يريد أصواتاً منسوبة الى معبد المغنى .

قد حَمَّ الصَّكُّ بِأَرْزَاقِكُمْ * وَصَحَّ الْعِزْمُ فَلَا تَسْخَطُوا
بِعَبَّةُ إِبْرَاهِيمَ مَشْمُومَةٌ * يُقْتَلُ فِيهَا الْخَلْقُ أَوْ يَقْحَطُوا

فقال له إبراهيم : فقد والله هجأك أنت يا أمير المؤمنين ؛ فقال : دع هذا عنك فقد عفوت عنه في هجائه إياي لقوله هذا، وضحك . ثم دخل أبو عبَّاد، فلما رآه المأمون من بُعد قال لإبراهيم : دعبل يحسر على أبي عبَّاد في الهجاء ويُحجم عن أحد! فقال له : وكان أبا عبَّاد أبسط يدا منك يا أمير المؤمنين ؛ قال : لا ! ولكنّه حديد جاهل لا يؤمن، وأنا أحلم وأصفح، والله ما رأيتُ أبا عبَّاد مقبلا إلا أضحكني قولُ دعبل فيه :

أولى الأمورِ بضيعةٍ وفساد * أمرٌ يدبره أبو عبَّاد
نحرقُ على جلسائه فكأنهم * حضروا الملحمة ويومِ جِلاذ
يسطو على كتابه يدواته * فمضّمخ بدم ونضخ مِداد
وكانه من دبيرِ هرقل مُفلت * حرِد ييجز سلاسل الأقياد
فاشدُّ أمير المؤمنين وثاقه * فاصح منه بقية الحداد

وكان «بقية» هذا مجنوناً في البهارستان .

قال أبو خالد الخزازي لدعبل : ويحك ! قد هجوت الخلفاء والوزراء والقواد وتوتت الناس جميعاً، فأنت دهرَك كلّه شريداً طريداً هارب خائف، فلو كفتت عن هذا وصرفت هذا الشر عن نفسك ! فقال : ويحك ! انى تأملتُ ما تقول فوجدت أكثر الناس لا يتنفع بهم إلا على الرهبة، ولا يبالى الشاعر وإن كان مجيداً إذا لم يُخف شرّه، ولئن يتقيك على عرضة أكثر ممن يرغب اليك في تشريفه، وعيوب الناس أكثر من محاسنهم، وليس كل من شرفته شرف، ولا كل من وصفته بالجوود والمجد والشجاعة ولم يكن ذلك فيه أنتفع بقولك، فاذا رأك أوجعت عرض غيره وفضحتته أتقاك وخاف من مثل ما جرى على الآخر، ويحك يا أبا خالد ! إن الهجاء المقذع أخذ بضغ الشاعر من المديح المضرع؛ فضحك أبو خالد وقال : هذا والله مقال من لا يموت حتف أنفه .

كان سببُ خروجِ دعبِل من الكوفة أنه كان يتَشَطَّر ويصحب الشُّطَّار، فخرج هو ورجل من أشجع فيما بين العشاء والعمَّة، فجلسا على طريق رجل من الصَّيارفة، وكان يروح كل ليلة بكيسه الى منزله، فلما طلع مقيلا اليهما وثبا اليه بخرجاه وأخذما ما في كُفَّه، فاذا هي ثلاث رُمَّانات في خرقة، ولم يكن كيسه ليلتئذ معه، ومات الرجل مكانه، وأستر دعبِل وصاحبه وجَدَ أولياء الرجل في طلبهما وجدَّ السلمان في ذلك، فطال على دعبِل الاستتار فاضطر الى أن هرب من الكوفة، فما دخلها حتى لم يبق من أولياء الرجل أحد.

قال أحمد بن خالد: كما يوما بدار صالح بن علي من عبد القيس ببغداد ومعنا جماعة من أصحابنا، فسقط على سطح البيت ديك طار من دار دعبِل، فلما رأيناه قلنا: هذا صَيِّدنا، فأخذناه، فقال صالح: ما نضجع به؟ قلنا: نذبجه، فذبجناه وشويناه. وخرج دعبِل فسأل عن الديك فعرف أنه سقط في دار صالح، فطلبه منا فخذناه وشربنا يومنا، فلما كان من الغد خرج دعبِل فصلَّى الغداة ثم جلس على باب المسجد— وكان ذلك المسجد مجمع الناس يجتمع فيه جماعة من العلماء ويتأهبهم الناس— فجلس دعبِل على باب المسجد وقال:

أَسْرَ الْمُؤَدَّنَ صَاحِحٌ وَضِيؤُهُ * أَسْرَ الْكَمَى هَمًّا خِلَالِ الْمَافِطِ
بَعَثُوا عَلَيْهِ بَنِيهِمْ وَبَنَاتِهِمْ * مِنْ بَيْنِ نَافِئَةٍ وَأَخْرَ سَامِطِ
يَنْتَازِعُونَ كَأَنَّهُمْ قَدْ أَوْتَقُوا * خَافَانِ أَوْ هَزَمُوا قِبَائِلَ نَاعِطِ
نَهَشُوهُ فَانْتَرَعَتْ لَهُ أَسْنَانُهُمْ * وَتَهَشَّمَتْ أَفْنَائُهُمْ بِالْحَائِطِ

فكتبا الناس عنه ومَضَوْا، فقال لي أبي، وقد رجع الى البيت: ويحكم! ضاقت عليكم المآكل فلم تجدوا شيئا تأكلونه سوى ديك دعبِل! ثم أئسَدنا الشعر، وقال: لا تدع ديبكا ولا دجاجة تقدر عليه إلا آشتريته وبعثت به الى دعبِل وإلا وقعنا في لسانه؛ ففعلت ذلك. قال أحمد بن أبي كامل: كان دعبِل ينشدني كثيرا هجاء له، فأقول له فيمن هذا؟ فيقول ما أستحقه أحدٌ بعينه بعد، وليس له صاحب، فاذا وجد على رجل جعل ذلك الشعر فيه وذكر اسمه في الشعر.

(١) قبيلة من همدان، وأصله جين بزوايه همسوا به.

كان دعبيل يختلف الى الفضل بن العباس بن جعفر بن محمد بن الأشعث، وهو خرجته
وفهمه وأذبه، فظهر له منه جفاء وبلغه أنه يعيبه ويذكره وينال منه، فقال يهجوهُ :
يا بُؤس للفضل لو لم يأت ما عابه * يستفرغ السم من صماء قِرْصَابَه
ما إن يزال وفيه العيبُ يجمعه * جهلا لأعراض أهلِ المجد عيابه
إن عابني لم يعب إلا مؤدبه * ونفسه عاب لما عاب أذابه
فكان كالكلب ضراء مكلبه * لغيره فعدا فاصطاد كلابه
كان دعبيل يقول : ما كانت لأحد قط عندي منة إلا تمتتُ موته .

كتب دعبيل الى أبي تَهْشَل بن حَمِيد الطُّوسِي قوله :

إنما العيشُ في مُدامَةِ الإخِوا * ن لا في الجلوس عند الكُتاب
ويصيرُ كأنها ألسن البر * قي إذا استعرضت رقيق السحاب
إن تكونوا تركتم لذة العيد * ش حدار العقاب يوم العقاب
فدعوني وما ألد وأهوى * وأدفعوا بي في صدر يوم الحساب

قال محمد بن زكريا الفرغانى : سمعت دعبلا يقول في كلام جرى «لَيْسَك» فأنكرته عليه ؛
فقال : دخل زيد الخليل على النبي صلى الله عليه وسلم فقال له : «يا زيد ما وُصِف لى
رجل إلا رأيتَه دون وصفه لَيْسَك» يريد غيرك .

قال عمرو بن مسعدة : حضرتُ أبا دُلْف عند المأمون وقد قال له المأمون : أى شىء
تروى لأخى خُزاعة يا قاسم ؟ فقال : وأى أخى خُزاعة يا أمير المؤمنين ؟ قال : ومن تعريف فيهم
شاعرا ؟ فقال : أتما من أنفسهم فأبو الشَّيْص ودعبيل وابن أبي الشَّيْص وداود بن أبي رزيق ،
وأما من مواليتهم فطاهر وأبنة عبد الله ، فقال : ومن عسى من هؤلاء أن يسأل عن شعره
سوى دعبيل ! هات أى شىء عندك فيه ؛ فقال : وأى شىء ، أقول فى رجل لم يسلم عليه أهل
بيته حتى هجَاهم ، ففقرن إحسانهم بالإساءة وبذلهم بالمنع وجودهم بالبخل ، حتى جعل كل
حسنة منهم بزازة سيئة منه ؛ قال : حين يقول ماذا ؟ قال : حين يقول فى المطَّلب بن عبد الله

أبن مالك، وهو أصدق الناس له وأقربهم منه، وقد وفد إليه الى مصر فأعطاه الجزيل وولاه، ولم يمنعه ذلك أن قال فيه :

إِضْرِبْ تَدَى طَلْحَةِ الطَّلْحَاتِ مَتِينًا * بَلْؤُمِ مَطْلَبٍ فِينَا وَكُنْ حَكِيمًا
: تُخْرِجُ نُخْرَاعَةً مِنْ لُؤْمٍ وَمِنْ كَرَمٍ * فَلَا تَحْسَبْ لَهَا لُؤْمًا وَلَا كَرَمًا

فقال المأمون : قاتله الله ! ما أغوصه وأطفه وأدهاه، وجعل يضحك . ثم دخل عبد الله ابن طاهر فقال : أى شيء تحفظ يا عبد الله لدعبل ؟ فقال : أحفظ أبيانا له في أهل بيت أمير المؤمنين ؛ قال : هاتها ويحك ! فأنشده :

سَقِيًّا وَرَعِيًّا لِأَيَّامِ الصَّبَابَاتِ * أَيَّامِ أَرْفُلٍ فِي أَثْوَابِ لَذَائِقِ
أَيَّامِ غَضْبِي رَطِيبٌ مِنْ لَيَاتِهِ * أَصْبَوَالِي غَيْرِ جَارَاتٍ وَثَمَّاتِ
دَعِ عَنكَ ذِكْرَ زَمَانٍ فَاتِ مَطَالِبُهُ : وَأَقْذِفْ بِرَحْلِكَ عَنِ مَتْنِ الْجَهَالَاتِ
وَأَقْصِدْ بِكُلِّ مَدِيحٍ أَنْتَ قَائِلُهُ * نَحْسُ وَهُدَاةُ بَنِي بَيْتِ الْكِرَامَاتِ

فقال المأمون : إنه قد وجد والله مقالا فقال، ونال ببعيد ذكرهم ما لا يناله في وصف غيرهم .
ومن قول دعبل وفيه غناء :

أَيُّ الشَّبَابِ وَأَيَّةَ سَلَاكَ * لَا أَيْنَ يُطَلَبُ ضَلٌّ مِنْ هَلَاكَ
لَا تَعْجِبِي يَا سَلَمٌ مِنْ رَجُلٍ * ضَحِكَ الْمَشِيبُ بِرَأْسِهِ فَبَكَ
يَا لَيْتَ شَعْرِي كَيْفَ يَوْمُكَ * يَا صَاحِبِي إِذَا دَمِي سَفِيكَ
لَا تَأْخُذُوا بِظُلَامَتِي أَحَدًا * قَلْبِي وَطَرْفِي فِي دَمِي أَشْتَرَاكَ

قال إبراهيم بن المدبر : لقيت دعبل بن علي فقلت له : أنت أجسر الناس عندي وأقدمهم حيث تقول :

إِنِّي مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ سَيَوْنُهُمْ .. قَتَلْتُ أَخَاكَ وَشَرَفْتُكَ بِمَقْعَدِ
رَفَعُوا مَحَلَّكَ بَعْدَ طَوْلِ نَحْمُولِهِ * وَأَسْتَنْتُكَ مِنَ الْحَضِيضِ الْأَوْهَدِ

وأولها :

أخذ المشيبُ من الشباب الأغيذِ * والناثباتُ من الأنامِ بمَرصدٍ .
فقال : يا أبا إسحاق ، أنا أحمل خشيتي منذ أر بعين سنة ، فلا أجد من يصلبني عليها .

كان دعبل يخرج فيغيب سنين يدور الدنيا كلها ويرجع وقد أفاد وأثرى ، وكانت
الشراة والصعاليك يلقونه فلا يؤذونه ويؤاكلونه ويشاربونه ويبترون به ، وكان إذا لقيهم وضع
طعامه وشرا به ودعاهم اليه ودعا بغلاميه : ننف وشعف ، وكانا مغنيين ، فأقعدهما يغنيان
وسقاهم وشرب معهم وأنشدهم ، فكانوا قد عرفوه وألفوه لكثرة أسفاره ، وكانوا يواصلونه
ويصلونه . وأنشد دعبل لنفسه في بعد أسفاره :

حَلَّتْ مَحَلًّا يَقْصُرُ الْبَرْقُ دُونَهُ * وَيَعْجِزُ عَنْهُ الطَّيْفُ أَنْ يَجْشِمًا

قال البحتري : دعبل بن علي أشعر عندي من مسلم بن الوليد ، لأن كلام دعبل
أدخل في كلام العرب من كلام مسلم ، ومذهبه أشبه بمذاهبهم ، وكان يتعصب له .

كان المعتصم يبغض دعبلًا لطول لسانه . وبلغ دعبلًا أنه يريد اغتياله وقتله ، فهرب
إلى الجبل ، وقال يهجوهُ :

بَكَى لِسَانَاتِ الدِّينِ مَكْتَبٌ صَبُّ * وَفَاضَ بَقْرَطِ الدَّمْعِ مِنْ عَيْنِهِ غَرَبٌ
وَقَامَ لِإِمَامٍ لَمْ يَكُنْ ذَا هِدَايَةٍ * فَلَيْسَ لَهُ دِينٌ وَلَيْسَ لَهُ لُبٌ
وَمَا كَانَتْ الْأَنْبَاءُ تَأْتِي بِمِثْلِهِ * يُمَلِّكُ يَوْمًا أَوْ تَدِينُ لَهُ الْعُرْبُ
وَلَكِنْ كَمَا قَالَ الَّذِينَ تَتَابَعُوا * مِنَ السَّلَفِ الْمَاضِينَ إِذْ عَظُمَ الْخَطْبُ
مَلُوكِ بَنِي الْعَبَّاسِ فِي الْكُتُبِ سَبْعَةٌ * وَلَمْ تَأْتِنَا عَنْ ثَامِنٍ لَهْمٌ مُكْتَبٌ
كَذَلِكَ أَهْلُ الْكَهْفِ فِي الْكَهْفِ سَبْعَةٌ * خِيَارٌ إِذَا عُدُّوا وَثَامِنُهُمْ كَلْبٌ
وَإِنِّي لِأَعْلَى كَلْبَهُمْ عَنْكَ رَفْعَةٌ * لِأَنَّكَ دَوَّذَنْبٌ وَلَيْسَ لَهُ ذَنْبٌ
لَقَدْ ضَاعَ مُلْكُ النَّاسِ إِذْ سَاسَ مُلْكُهُمْ * وَصَيَّفَ وَأَشْنَأَسَ وَقَدْ عَظُمَ الْكَرْبُ
وَفَضَّلَ بَنُ مَرْوَانَ يُسَلِّمُ تُسَامَةً * يَظَلُّ لَهَا الْإِسْلَامُ لَيْسَ لَهُ شَعْبٌ

لم مات المعتصم قال محمد بن عبد الملك الزيات يرثيه :

قد قلتُ إذ غَيَّبوه وأنصرفوا * في خيرٍ قبرٍ لخيرٍ مدفون
لن يجبر الله أمةً فقدت * مثلك إلا بمثل هارون

فقال دعبل يعارضه :

قد قلتُ إذ غَيَّبوه وأنصرفوا * في شرِّ قبرٍ لشرٍ مدفون
إذهب إلى النار والعذاب ثما * خلقتك إلا من الشياطين
مازلت حتى عقدت بيعةً من * أضرت بالمسلمين والدين

وقال في ذلك وفي قيام الواصل :

الحمد لله لا صبرٌ ولا جلدٌ * ولا عزاءٌ إذا أهلُ البلا رقدوا
خليفة مات لم يحزن له أحد * وأحرقام لم يفرح به أحد
ولقد أحسن في وصف سفر سافره، فطال ذلك السفر عليه، فقال فيه :

ألم يأن للسفر الذين تحلوا * إلى وطنٍ قبل الممات رجوع
فقلت ولم أملك سوا بقى عبءة * نطقن بما ضمت عليه ضلوع
تبتن فكم دار تفرق شملها * وشمل شيت عاد وهو جمع
كذلك الليالي صرهن كما ترى . لكل أناس جذبته وديع

ثم قال : ما سافرت قط إلا كانت هذه الأبيات نصب عيني في سفري وهجرأي ومسلتي
حتى أعود .

ومن قول دعبل وفيه غناء :

سرى طيف ليلي حين أن هبوب * وقضيت تسوقا حين كاد بدوب
فلم أر مطروقا يحل رحلة * ولا طارقا يقري المني ويثيب

ومن قوله :

لقد عجبت سلمي وذاك عجيب * رأيت بي شيئا عجته حطوب
وما شيتني كبرة غير أني * بدهر به رأس القطيم يسيب

وقال في صالح بن عطية الأصبجى وكان من أقبح الناس وجهاً، وخطاب فيها المعتصم :

قل للإمام إمام آل محمد * قول آمرئ حديدٍ عليك مُحَام
أنكرت أن تفتقر عنك صنعة * في صالح بن عطية الحجَام
ليس الصنائع عنده بصنائع * لكنهن طوائل الإسلام
إضرب به جيش العدو فإنه * جيش من الطاعون والبرسام

قال أبو تمام : ما زال دعبل مائلاً إلى مسلم بن الوليد مقترًا بأستاذيته، حتى ورد عليه بجرجان بغفاه مسلم، وكان فيه بخل، فهجره دعبل وكتب إليه :

أبا تحلدي كنا عقيدي مودة * هوانا وقلباناً جميعاً معاً معاً
أحوطك بالغيب الذي أنت حاطي * وأجزع لإشفاقاً من أن تتوجعاً
فصيرتني بعد انتكائك منيها * لنفسى عليها أرهب الخلق أجمعاً
غششت الهوى حتى تداعت أصوله * بنا وأبتذلت الوصل حتى تقطعاً
وأزلت من بين الجوانج والحشى * ذخيرة ود طالما قد تمنعاً
فلا تلحني ليس لى فيك مطمع * تخزقت حتى لم أجد لك مرقعاً
فهبك يميني استأكلت قفطعها * وجشمت قلبي صبره فتشجعاً
ثم تهاجرا فما ألتقيا بعد ذلك .

اجرى الرشيد على دعبل رزقا سدياً ، فكان أول من حرّضه على قول الشعر . فوالله ما يبلغه أن الرشيد مات حتى كافأه على فعله من العطاء السنّي والغنى بعد الفقر والرفعة بعد الخمول بأقبح مكافأة ، وقال فيه يهجوه من قصيدة مدح بها أهل البيت عليهم السلام :

وليس تحى من الأحياء فعله * من ذى يمانٍ ومن بكر وهن مضر
إلا وهم شركاء في دماهم * كما تشارك أساراً على جزر
قتل وأسرو وتحريق و منهبة * فعل الغزاة بأرض الروم والخزر
أرى أمية معذورين إن قتلوا * ولا أرى لبني العباس من عذر

أَرَبُّ يَطُوسٍ عَلَى الْقَبْرِ لِزَكِيٍّ إِذَا * مَا كُنْتُ تَرَبِّعُ مِنْ دِينَ عَلَى وَطْرِ
 قَبْرَانِ فِي طَوْسٍ خَيْرُ النَّاسِ كُلِّهِمْ * وَقَبْرُ شَرِّهِمْ هَذَا مِنَ الْعِبَرِ
 مَا يَنْفَعُ الرَّجْسَ مِنْ قَرَبِ الزَّكِيِّ وَلَا * عَلَى الزَّكِيِّ بِقَرَبِ الرَّجْسِ مِنْ ضَرَرِ
 هِيَاةٍ، كُلُّ أَمْرِي رَهْنٌ بِمَا كَسَبْتُ * لَهُ يَدَاهُ نَقْضٌ مَا شِئْتُ أَوْ فَنَّرِ

استدعى بعض بنى هاشم دعبلا وهو يتولى للعتصم ناحية من نواحي الشام، فقصده

اليها فلم يقع منه بحسن ظن وجفاه، فكتب اليه دعبل :

دَلَيْتِي بِغُرُورٍ وَعَدِكَ فِي * مُتَلَاظِمٍ مِنْ حَوْمَةِ الْفَرْقِ
 حَتَّى إِذَا شِمْتَ الْعَدُوَّ وَقَدْ * شُهِرَ انْتِقَاصُكَ شُهْرَةَ الْبَلَقِ
 أَنْشَأْتَ تَحَلْفَ أَنْ وَذَكَ لِي * صَافٍ وَحَبْلِكَ غَيْرِ مَنْحِقِ
 وَحَسْبَتِي فَقَعًا بِقَسْرُقَرَةٍ * فَوَطِئْتِي وَطَأًا عَلَى حَتَقِ
 وَنَصَبْتِي عَلَمَا عَلَى غَرَضٍ * تَرْمِينِي الْأَعْدَاءُ بِالْحَدَقِ
 وَظَنَنْتَ أَرْضَ اللَّهِ ضَيْقَةً * عَنِّي وَأَرْضُ اللَّهِ لَمْ تَضِقْ
 مِنْ غَيْرِ مَا جُرِّمَ سِوَى ثِقَةٍ * مَنِّي بِوَعْدِكَ حِينَ قَلْتَ تَقِ
 وَمُودَةٍ تَحْنُو عَلَيْكَ بِهَا * نَفْسِي بِلَا مَنٍّ وَلَا مَلَقِ
 فَتَى سَأَلْتُكَ حَاجَةً أَبَدًا * فَاشَدَّدْ بِهَا قُفْلًا عَلَى غَلَقِ
 وَقَفَّ الْإِخَاءُ عَلَى شَفَا جُرْفٍ * هَارٍ فَيَعْنَهُ بَيْعَةُ الْخَلْقِ
 وَأَعَدَّ لِي قُفْلًا وَجَاهَةً * فَاشَدَّدْ يَدِي بِهَا إِلَى عُنُقِ
 أَعْفِيكَ مِمَّا لَا تَحِبُّ بِهَا * وَأَسَدُّدُ عَلَى مَذَاهِبِ الْأَفْقِ
 مَا أَطْوَلَ الدُّنْيَا وَأَعْرَضَهَا * وَأَدَانِي بِسَالِكِ الطَّرْقِ

دخل دعبل على عبد الله بن طاهر فأئسده وهو ببغداد :

جِئْتُ بِلا حُرْمَةٍ وَلَا سَبَبٍ * إِلَيْكَ إِلَّا بِجُرْمَةِ الْأَدَبِ
 فَاقْبِضْ ذِمَامِي فَإِنِّي رَجُلٌ * غَيْرُ مُلَاحٍ عَلَيْكَ فِي الطَّلَبِ

فانتقل عبد الله ودخل الحرم ووجهه اليه بصره فيها ألف درهم ، وكتب اليه :

أعجلتنا فأناك عاجلٌ برِّنا * ولو أنتظرت كثيره لم يقلل

نخذ القليلَ وكن كأنك لم تقل * ونكون نحن كأننا لم نفعل

مات دجيل بقرية من قُرى السوس ، بعث اليه مالك بن طوق من ضرب ظهره

بعكاز لها زُجٌ مسموم فمات من غد .

٤ - حسين بن الضحَّاك^(١)

« شاعرٌ ظريفٌ شديدُ الظَّرْفِ ، ربما أقطعَ نظيرُهُ في شعراءِ العصرِ العبَّاسيِّ كلَّهُ ، وهو معَ ظرفه وإسرافه في المجون ، قليلُ الفحشِ في اللفظ . غيرَ مُتَمَّاكٍ على القولِ الأجمِ والالفاظِ المنكَّرةِ ، لا يخيِّرها ولا يقصدُ اليها ، وإنما يعرضُ لها إذا اضطرَّ اليها اضطراباً وهو على ظرفه ورقةٌ حاشيتهِ ويحرصه على ققاءِ اللفظِ وطُهره شاعرٌ بالمعنى الصحيحِ لهذه الكلمةِ ، مجوِّدٌ إذا فكَّرَ ، مظفرٌ إذا بحث ، موثِّقٌ إلى اللفظِ المتينِ ، والأسلوبِ الرِّصينِ في غيرِ جفوةٍ ولا غلظةٍ ، لا يعرفُ التكلفَ في لفظٍ ولا معنى ، وإنما ينطلقُ لسانه معَ سجيتهِ ، وسجيتهِ سهلةٌ مرسلةٌ غنيَّةٌ غزيرةُ المادةِ ، لا تكادُ تنضَّبُ ، ولا ينالها إعياءٌ أو كلالٌ ، وحياته كلها عبرٌ وعظاتٌ ولكها عبرٌ وعظاتٌ مبتسمةٌ ليست بالمظلمةِ ولا العابسةِ ولا باتي تردُّكٍ وتنفركٍ ، وتجعلُ للحزنِ والأسى إلى قلبك سبيلاً ، ولعلك لا تجدُ من شعراءِ هذا العصرِ رجلاً مثله ، تقرأُ أخباره فظلَّ مبتسماً منذُ تبدى إلى أن تنهى دونَ أن تمسَّ أو تطب . وربما تجاوزتَ الأبتسامَ إلى الإغراقِ في الضحكِ من حينٍ إلى حينٍ ، ولكك ان تتركَ الأبتسامَ إلى الحزنِ الشديدِ . وربما أعرضتكَ في طريقك بحبابةٍ محزنةٍ ولكن هذه السحابةُ رقيقةٌ هادئةٌ هينةٌ ، فهي أضعفُ من أن تزيلَ أبتسامتَكَ . وكان هذا الشاعرُ من المعمرينِ ، بلغَ المائةَ أو كادَ ، وعاصرَ طبقاتٍ من الشعراءِ ، وأوَّانا من حاشيةِ الخلفاءِ ، ولكنه ظلَّ محتفظاً بشخصيتهِ الوادعةِ المبتسمةِ ، تغيرَ الناسُ وأختلفتِ الظروفُ ، وظلَّ هو واحداً

(١) هو مولدٌ بالهلةِ ، ولد في البصرةِ ونشأ فيها ونادم الخلفاءَ من بنى العبَّاسِ ، وكان خليعاً فاسداً وكان مع ذلك حسنَ التصرفِ في الظمِّ ولشعره قبولٌ ورواقٌ ، فهو من المنفذينِ وله معانٍ جديدةٌ في الخمرِ كان أبو نواسٍ يأخذها عنه ، ومع أن أبا نواسٍ مات سنة ١٦٨ هـ ، والضحَّاك مات سنة ٢٥٠ هـ فقد تعاصرا لأن مولدهما مقاربٌ لأن ابنَ الضحَّاك عمرٌ كثيراً . وهو أوَّلُ من نادى الأمينِ وله فيه مدائحٌ كثيرةٌ ، وعمرهما طويلاً حتى قاربَ مائةَ السنتِ ومات في خلافةِ المستعينِ أو المتصورِ . ومجد أخباره في الأغاني (ج ٦ ص ١٧٠) وابنِ خلكانٍ (ج ١ ص ١٥٤) .

(٢) من بحوثِ صديقِ الدكتور طه حسين أستاذ الآداب العربيةِ بالجامعةِ المصريةِ .

لم يتغير. كان خليعا، بل كان يُعرف بالخليع، وكان كثير المحبون مُسْرِفاً فيه، وما أحسب أن أبانواس سبقه الى لذة أو برز عليه في مأثم، ولمكنه على خلاعته وإسرافه في المحبون وتهاُلُّكه على اللذات، احتفظ طول حياته بشيء من كرم الخلق وطهارة العنصر وجودة الأصل، كأنما كانت هذه اللذات والآثام تنزلق على نفسه وأخلاقه انزلاقا دون أن تترك فيها أثرا باقيا، وإنما كانت الآثار التي تتركها لياليه الساهرة، وأيامه المملوءة بالعَبَث، هذه الأشعار الجميلة الحلوة التي سأظهرك على طرف منها .

فلم يكن هذا الرجل كغيره من الشعراء الذين إنما كانوا يصلون الى الخلفاء بعد الجهد والكَد، وبعد التلطف وحسن الخيلة؛ وإنما كان متصلا بالخلفاء اتصالا شديدا، يعاشرهم ويرافقهم ويتدخل في حياتهم الخاصة، وربما تدخل الى أكثر مما ينبغي . وكان الخلفاء يبحثون عنه، ويحرضون على عشرته ويبدلون في ذلك غير قليل من الإلحاح والعطاء، وكان شعره كله أو أكثره مرآة لحياة القصر في أيام طائفة غير قليلة من الخلفاء .

فترى من هذا الوصف أنه شاعر أديب ظريف مطبوع، حسن التصرف في الشعر حلو المذهب . لشعره قبول ورونق صاف، وكان أبو نواس يأخذ معانيه في الخمر فيغير عليها، وإذا شاع له شعر نادر في هذا المعنى نسبة الناس الى أبي نواس، وله معان في صفتها أبدع فيها، وهاجى مسلم بن الوليد فانتصف منه، وله غزل كثير جيد، وهو من المطبوعين الذين تخلو أشعارهم ومذاهبهم جملة من التكلف .

قال : أنشدت أبانواس قصيدتي التي قلتها في الخمر وهي :

بُدلتَ من نَفحات الورد بالآء * ومن صبوحك در الإبل والنَّاء^(١)

فلما انتهيت منها الى قولي

حتى اذا أُسِدت في البيت وأُحْضِرت * عند الصبوح ببسامين أكفء

فُضت خواتمها في نعت وأصفها * عن مثل رقراقة في جفن مرهأ^(٢)

(١) الآء : ثمر شجر واحدة آءة . (٢) المرهأ : التي لا تكتمل .

فصمق صعقة أفرعني وقال : أحسنت والله يا أشقر، فقلت : وياك يا حسن ، إنك أفرعني والله، فقال : بلى والله أنت أفرعني ورعني ، هذا معنى من المعاني التي كان فكرو لا بد أن ينتهي إليها أو أعرض عليها وأقولها ، فسبقتني إليه وأختلستني ، وستعلم لمن يروى إلى أم لك ؟ فكان والله كما قال ، سمعت من لا يعلم يرويها له :

لما قدم المأمون من خراسان أمر بأن يُسَمَّى له قوم من أهل الأدب ليجالسوه ويسامروه ، فذكر له جماعة فيهم الحسين بن الضحاك ، وكان من جلساء محمد المخلوع ، فلما رأى اسمه قال : أليس هو الذي يقول في محمد :

هلا بقيت لسد فافتنا * أبدا وكان لغيرك التَّفُّ

فلقد خلقت خلائفا سلفوا * ولسوف يعوز بعدك الخلف

لا حاجة لي فيه ، والله ولا يراني أبدا إلا في الطريق ، ولم يعاقب الحسين على ما كان من هجائه له وتعريضه به ، وأنحدر حسين إلى البصرة فأقام بها طول أيام المأمون .

قال أبو صالح بن الرشيد : دخلت يوما على المأمون ومعى بيتان للحسين بن الضحاك ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، أحب أن تسمع مني بيتين ، فقال : أنشدهما ، فأنشدتهما :

حمدنا الله شكرا إذ حَبَّانا * بنصرك يا أمير المؤمنين

فأنت خليفة الرحمن حقا * جمعت سماحة وجمعت دينا

فقال : لمن هذان البيتان ؟ فقلت : لعبدك يا أمير المؤمنين حسين بن الضحاك ، قال : قد أحسن ، فقلت : وله يا أمير المؤمنين أجود من هذا ، فقال : وما هو ؟ فأنشدته قوله :

أجرني فإنني قد ظمئت إلى الوعد * متى تُنجِز الوعد المؤكد بالعهد

أعيدك من خلف الملوك وقد بدا * تقطع أنفاس عليك من الوجود

أيخجل فرد الحسن عنى بنائل * قليل وقد أفردته بهوى فرد

رأى الله عبد الله خير عباده * فلألكه والله أعلم بالعبد

ألا إنما المأمون للناس عصمة * مميزة بين الضلالة والرشد

فأطرق ساعة ثم قال : ما تطيب نفسي له بخير بعد ما قال في أخى محمد ما قال .

ومن قوله يرثي محمد الأمين :

أِطْلُ حَزَنًا وَأَبِكِ الْإِمَامَ مُحَمَّدًا * بحزن وإن خِفتَ الحسام المهندا
فلا تَمِتِ الأشياءَ بعد محمد * ولا زالَ شَمَلُ الملكِ منها مُبَدَّدًا
ولا فِرِحَ المأمونُ بالملكِ بعده * ولا زالَ في الدنيا طريداً مُشَرِّداً

ولحسين في محمد الأمين مراثٍ كثيرةٌ جيادٌ، وكان كثير التحقق به والموالاته له لكثرة إفضاله عليه، وميله إليه، وتقديمه إياه، وبلغ من جزعه عليه أنه خُوِطَ فكان يُنكر قتلَه لما بلغه ويدفعه ويقول: إنه مستر وأنه قد وقف على دُعائه في الأمصار يدعون إلى مراجعة أمره والوفاء ببيعتِه ضَمَنًا به وشفقة عليه .

ومن جيد مراثيه إياه قوله :

سألونا أَنْ يَفِ نَحْنُ؟ فقلنا * من هَوَى نَجْمَهُ فكيف يكون؟
نحن قوم أصابنا حَدَثُ الدهر * مر فظَلْنَا لرئيسه نَسْتَكِين
نتمنى من الأمين إِيَابًا * لَهَفَ تَهْمَى وأين متى الأمين

ومن جيد قوله في مراثيه إياه .

أَعَزَّيَ يَا مُحَمَّدُ عَنْكَ نَفْسِي * معاذ الله والأيدى الحِسامِ
فهلَا مات قومٌ لم يموتوا * ودُوفِعَ عَنْكَ لِي يَوْمَ الحِجَامِ
كأن الموت صادف منكَ غُنْمًا * أو أَسْتَشْفِي بِقُرْبِكَ مِنْ سَقَامِ

وقال أيضا يرثيه :

يا خير أسرته وإن زعموا * إني عليك لَمُثَبَّتٌ أَسْفُ
الله يعلم أن لي كبدا * حرى عليك ومقلة تكف
ولئن شجيتُ بما رزئتُ به * إني لأضمر فوق ما أصف
هلا بقيت لسد فافتنا * أبدا وكان لغيرك التلّف
فلقد خلقت خلافا سلفوا * ولسوف يعوز بعدك الخلف

(١) لَابَات رَهْطُكَ بَعْدَ هَفْوَتِهِمْ * إِنْ لِرَهْطِكَ بَعْدَهَا شَنِفٌ
 هَتَكُوا بِجَرْمَتِكَ الَّتِي هَتَيْتَ * حَرَّمَ الرَّسُولُ وَدُونَهَا السُّجْفُ
 وَبَيَّنَّتْ أَقَارِبُكَ الَّتِي خَذَلْتَ * وَجَمِيعُهَا بِالذَّلِّ مَعْتَرِفٌ
 لَمْ يَفْعَلُوا بِالشُّطِّ إِذْ حَضَرُوا * مَا تَفْعَلُ الْغَيْرَانَةُ الْأَنْفُ
 تَرَكَوْا حَرِيمَ آبِيهِمْ نَفَلًا * وَالْمُحْصَنَاتُ صَوَائِحُ هَتَفٌ
 أَبَدْتَ مُخْلَخَلَهَا عَلَى دَهَشٍ * أَبْكَارُهُنَّ وَرَبَّتِ النَّصْفُ
 سَلَيْتَ مَعَايِرَهُنَّ وَأَجْتَلَيْتَ^(٢) * ذَاتُ النَّقَابِ وَنُوزُحِ الشَّفِّ
 فَكَأَنَّهُنَّ خِلَالَ مُنْتَهَبٍ * دُرٌّ تَكْشِفُ دُونَهُ الصَّدْفُ
 مَلِكٌ تَحْتَوِي مُلْكُهُ قَدْرٌ * فَوَهَى وَصَرَفُ الدَّهْرِ مَخْتَلِفٌ
 هِيَاةَ بَعْدِكَ أَنْ يَدُومَ لَنَا * عِزٌّ وَأَنْ يَبْقَى لَنَا شَرَفٌ
 لَا هَيْبُوا مُخْفًا مَشْرِفَةً * لِلْغَادِرِينَ تَحْتَهَا الْجَدْفُ
 أَقْبَعَدَ عَهْدَ اللَّهِ تَقْتُلُهُ * وَالْقَتْلُ بَعْدَ أَمَانَةٍ سَرَفٌ
 فَسْتَعْرِفُونَ غَدَا بَعَاقِبَةٍ * عِزُّ الْإِلَهِ فَأُورِدُوا وَقِفُوا
 يَأْمَنُ يُحَوِّنُ نَوْمَهُ أَرْقٌ * هَدَّتِ الشَّجُونُ وَقَلْبُهُ لَهْفٌ
 قَدْ كُنْتُ لِي أَمَلًا غَيَّبْتُ بِهِ * فَمَضَى وَحَلَّ مَحَلَّهُ الْأَسْفُ
 مَرَجَ النَّظَامِ وَعَادَ مُنْكَرْنَا * عُرْفًا وَأَنْكِرَ بَعْدَكَ الْعُرْفُ
 فَالْشَّمْلُ مُنْتَشِرٌ لِفَقْدِكَ وَال * لِدُنْيَا سُدَى وَالْبَالُ مَنكَسِفُ

وقال أيضا يرثيه :

إِذَا ذُكِرَ الْأَمِينُ نَعَى الْأَمِينَا * وَإِنْ رَقَدَ الْخَلْقِي حَمَى الْجُفُونَا
 وَمَا بَرِحَتْ مَنَازِلُ بَيْنَ بَصْرَى * وَكَأَلْوَادِي مُهَجَّجٍ لِي شَجُونَا
 عِرَاصُ الْمَلِكِ خَاوِيَةٌ تَهَادَى * بِهَا الْأَرْوَاحُ تَسْجُجُهَا فَنُونَا

(١) ميفض متكرر . (٢) جمع معجر بالكسر وهو ثوب تعتز به المرأة أى تشده على رأسها .

تَحْوَنُ عَزْرٌ سَاكِنَهَا زَمَانٌ * تَلْعَبُ بِالْقُرُونِ الْأَوَّلِينَ
 فَشَتَّتْ شَمْلَهُمْ بَعْدَ اجْتِمَاعِ * وَكُنْتُ بِحَسَنِ الْقَتَمِ ضَمِينَا
 فَلَمْ أُرْ بَعْدَهُمْ حُسْنًا سِوَاهُمْ * وَلَمْ تَرَهُمْ عَيُونُ النَّاضِرِينَ
 فَوَاسَفَا وَإِنْ شَمَّتِ الْأَعَادَى * وَآهٍ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ
 أَضَلَّ الْعُرْفَ بَعْدَكَ مُتَّبِعُوهُ * وَرُقِيَ عَنْ مَطَايَا الرَّاغِبِينَ
 وَكُنْ إِلَى جَنَابِكَ كُلِّ يَوْمٍ * يَرْحَنُ عَلَى السَّعُودِ وَيَقْتَدِينَا
 هُوَ الْجَبَلُ الَّذِي هَوَتْ الْمَعَالَى * لِهَدَاتِهِ وَرِيحِ الصَّالِحِينَ
 سَتَنْدُبُ بَعْدَكَ الدُّنْيَا جِوَارَا * وَتَتَدَبُّ بِعَدِكَ الدِّينَ الْمُصَوَّنَا
 فَقَدْ ذَهَبَتْ بِشَاشَةِ كُلِّ شَيْءٍ * وَعَادَ الدِّينَ مَطْرُوحَا مَهِينَا
 تَعْقِدُ عَزْرٌ مُتَّصِلٌ بِكَسْرِي ^(١) * وَمِلَّتْهُ وَذَلَّ الْمُسْلِمُونَ

وقال أيضا يرثيه :

أَسَفًا عَلَيْكَ سَلَكَ أَقْرَبُ قُرْبَةً * مَنَى وَأَحْزَانِي عَلَيْكَ تَزِيدُ

قال أبو العباس محمد بن يزيد الأزدي: حسين بن الضحاك أشعر المحدثين حيث يقول:

أَيُّ دِيْبَاجَةٍ حُسَيْنٌ * هَيَّجَتْ لَوْعَةً حَزْنِي
 إِذْ رَمَانِي الْقَمْرُ الزَّا * هَرَّ عَنْ فَاتِرَةِ جَفْنِي
 بِأَبِي شَمْسٍ نَهَارٌ * بَرَزْتُ فِي يَوْمِ دَجْنِي
 قَرَّبْتَنِي بِالْمَنَى حَتَّى * سَى إِذَا مَا أَخْلَفْتَنِي
 تَرَكْتَنِي بَيْنَ مَيْعَا * دَوْخُلِفٍ وَتَجْنِ
 مَا أَرَى فِيَّ مِنَ الصَّبِّ * مَوْءَاةٍ إِلَّا حَسَنَ ظَنِّي
 لِمَا دَامَتْ عَلَى الْغَدِّ * رَلِمَا تَعْرِفُ مَنِّي
 أَسْتَعِذُ اللَّهَ مِنْ إِعْرَا * ضَمْنٍ مِنْ أَعْرَاضِ عَنِّي

لما ولي المعتمد أمر بمكاتبة بالقدوم عليه ، فلما دخل وسلم استأذنه في الإنشاد .
فأذن له ، فأنشده قوله :

هَلَا سَأَلْتَ تَلَذَّذَ الْمُشْتَاقَ * وَمَنْنْتَ قَبْلَ فِرَاقِهِ بِسَلَاقِ
إِنْ الرِّقِيبَ لَيْسْتَرِيبَ تَنْفُسًا * صُعُودًا إِلَيْكَ وَظَاهِرَ الإِفْلَاقِ
وَلَيْتَنِ أَرَبْتُ لَقَدْ نَظَرْتُ بِمَقْلَةٍ * عَبْرِي عَلَيْكَ تَخَيِّنَةُ الآمَاقِ
نَفْسِي الفِدَاءُ خَائِفٍ مَرْتَقِبٍ * جَعَلَ الوِدَاعَ إِشَارَةً بِعِنَاقِ
إِذْ لَا جَوَابَ لِمُفْجِعٍ مَتَحَيِّرٍ * إِلَّا الدَّمْعَ تُصَانُ بِالإِطْرَاقِ

حتى انتهى الى قوله :

خَيْرُ الوُفُودِ مَبَشِّرٌ بِخِلَافَةِ * خَصَّتْ بِبِهْجَتِهَا أَبَا إِسْحَاقِ
وَاقِفُهُ فِي الشَّهْرِ الحَرَامِ سَلِيمَةً * مِنْ كُلِّ مَشْكَالَةٍ وَكُلِّ شِقَاقِ
أَعْطَنَتْهُ صَفْقَتَهَا الضَّمَاثِرُ طَاعَةً * قَبْلَ الأَكُفِّ بِأَوْكَدِ المِيثَاقِ
سَكَنَ الأَنَامُ إِلَى إِمَامِ سَلَامَةٍ * عَفَّ الضَّمِيرَ مَهْدَبَ الأَخْلَاقِ
لَغَمَى رَعِيَّتَهُ وَدَافِعَ دُونَهَا * وَأَجَارَ مُمْلَقَهَا مِنَ الإِمْلَاقِ

حتى أتمها ، فقال له المعتمد : أدن مني ، فدنا منه ، فلما فقه جوهرها من جوهر كان بين يديه ، ثم أمره بأن يخرج من فمه ، فأخرجه وأمر بأن ينظم ويدفع اليه ويخرج الى الناس وهو في يده ، ليعلموا موقعه من رأيه ، ويعرفوا فضله ، فكان أحسن ما مدح به يومئذ .

ومن شعره قوله :

أَمِينَ اللَّهِ يُقَى بِاللِّدِّ * لَهُ تَعَطَّى الصَّبْرُ وَالتَّوَصُّرَةُ
كِلِى الأَمْرِ إِلَى اللَّهِ * كَلَّاكَ اللَّهُ ذُو القُدْرَةِ
لَنَا النُّصْرَ بَعُونَ اللَّهِ * وَالصَّكْرَةَ لَا القَصْرَةَ
وَاللُّتْرَاقَ أَعْدَا * نَكَّ يَوْمَ السُّوءِ وَالدَّبْرَةَ
وَكَأْسَ تَلْفِظِ المَوْتِ * كَرِيهَ طَعْمُهَا مُرَّهُ

سَقُونَا وَسَقِينَاهُمْ * وَإِكْنُ بِهِمُ الْحِرَّةُ

كَذَاكَ الْحَرْبُ أَحْيَانًا * عَلَيْنَا وَلَنَا مَرَّةٌ

ومن قوله في غضب حَظِيَّةَ للوائق من زيارته أخرى في نوبتها :

غَضِبْتُ أَنْ زَرْتُ أُخْرَى خِلْسَةً * فَلَهَا التُّسْبِي لَدُنِيَا وَارْتِضَا

يَا فَدَتِكَ الْفَسْ كَانَتْ هَفْوَةٌ * فَاغْفِرِيهَا وَأَصْفَحِي عَمَّا مَضَى

وَأَتْرَكِي الْعَدْلَ عَلَى مَنْ قَالَه * وَأَنْسِي جَوْرِي إِلَى حَكْمِ الْقَضَا

فَلَقَدْ نَهَيْتَنِي مِنْ رَقَدَتِي * وَعَلَى قَلْبِي كَيْرَانَ الْغَضَا

كان اللوائق يتحطى جارية له فماتت، فغزع عليها وترك الشراب أياما، ثم سلاها وطاق

إلى حاله، فدعا الحسين ليلة وقال له : رأيت فلانة في النوم فليت نومي كان طال قليلا
لا أتمتع ببقائها، فقل في هذا شيئا، فقال :

لَيْتَ عَيْنَ الدَّهْرِ عَنَا غَفَلَتْ * وَرَقِيبَ اللَّيْلِ عَنَا رَقَدَا

وَأَقَامَ النَّوْمَ فِي مَدَّتِهِ * كَالَّذِي كَانَ وَكَمَا أَبَدَا

بِأَبِي زَوْرٍ تَلَقَّيْتُ لَهُ * فَتَنَفَّسْتُ إِلَيْهِ الصُّعَدَا

بَيْنَمَا أَسْحَكَ مَسْرُورًا بِهِ * إِذْ تَقَطَّعْتُ عَلَيْهِ كَيْدَا

لما أعيته الحيلة في رضا المأمون عنه رمى بأمره إلى عمرو بن مسعدة وكتب إليه :

أَنْتَ طَوْدِي مِنْ بَيْنِ هَذِي الْهَضَابِ * وَشِهَابِي مِنْ دُونَ كُلِّ شِهَابِ

أَنْتَ يَا عَمْرُو قُوَّتِي وَحِيَاتِي * وَلِسَانِي وَأَنْتَ طُفْرِي وَنَابِي

أَتْرَانِي أَنْسِي أَيْدِيكَ إِلَيَّ * ضَ إِذَا أَسْوَدَ نَائِلُ الْأَصْحَابِ

أَيْنَ أَخْلَاقِكَ الرُّضِيَّةَ حَالَتْ * فِي أَمِّ أَيْنَ رِقَّةَ الْكُتَّابِ؟

أَنَا فِي ذِمَّةِ السَّحَابِ وَأَطْمَأ؟ * إِنَّ هَذَا لَوْصَمَةٌ فِي السَّحَابِ

قَمِ إِلَى سَيِّدِ الْبَرِيَّةِ عَنِي * قَوْمَةٌ تَسْتَجِرُّ حُسْنَ الْخَطَابِ

فَلَعَلَّ الْإِلَاهُ يُطْفِئُ عَنِّي * بِكَ نَارًا عَلَى ذَاتِ الْتِهَابِ

فلم يزل عمرو يُلطف للمأمون حتى أوصله إليه وأدّر أرزاقه .

ولما عفا المأمون عنه أمر بإحضاره، فلما حضر سلم، فرد عليه السلام ردًا جافيا، ثم أقبل عليه فقال: أَخْبِرْنِي عَنْكَ، هل عرفتَ يوم قُتِلَ أُمِّي مُحَمَّدَ هَاشِمِيَّةً قُتِلْتَ أَوْ هُنْتُكَ؟ قال: لا؛ قال: فما معنى قولك:

وَسِرْبُ ظِبَاءٍ مِنْ ذُوَابَةِ هَاشِمٍ * هَتَّئِنْ بِدَعْوَى خَيْرِ حَى وَمَيَّتٍ
أَرْدُ يَدًا مَتَى إِذَا مَا ذَكَرْتُهُ * عَلَى كَبِدِ حَرَى وَقَلْبِ مُقْتَتٍ
فَلَا بَاتَ لَيْلُ الشَّامَتَيْنِ يَغْبِطُهُ * وَلَا بَلَّغْتَ آمَالَهُمْ مَا تَمَّتْ

فقال: يا أمير المؤمنين، لوعة غلبتني، وروعة فاجأتني، ونعمة فقدتها بعد أن غمرتني، وإحسان شكرته فأنطقني، وسيد فقدته فأقلقني، فإن عاقبت فبحقك، وإن عطف فبفضلك، فدمعت عينا المأمون وقال: قد عفوتُ عنك، وأمرتُ بإدرا رِزْقِك، وإعطائك ما فات منه، وجعلت عقوبتك امتناعي من استخدامك.

ومن قوله:

وَكَالوَرْدَةِ الجِمْءِ حَيَا بِأَحْمَرٍ * مِنَ الوَرْدِ يَمْشِي فِي قَوَاطِقِ كَالوَرْدِ
لَهُ عَبَاتٌ عِنْدَ كُلِّ تَحِيَّةٍ * بَعِينِهِ تَسْتَدْعِي الحَلِيمَ إِلَى الوَجْدِ
تَمَّتْ أَنْ أُسْقِيَ بِكُفَيْهِ شَرْبَةً * تَذَكَّرْنِي مَا قَدْ نَسِيْتُ مِنَ العَهْدِ
سَقَى اللهُ دَهْرًا لَمْ أَبْتِ فِيهِ لَيْلَةً * خَلِيًّا وَلَكِنْ مِنْ حَبِيبٍ عَلَى وَعْدِ

ومن قوله:

وَإِبْرَاهِيمَ مُنْفَحَمَ لِعِزَّتِهِ * قُلْتُ لَهُ إِذَا خَلَوْتُ مَكْتَمًا
تُحِبُّ بِاللَّهِ مِنْ يَخْصُوكَ بِالِ * حُودٍ فَمَا قَالَ لَا وَلَا نَمًا
ثُمَّ تَوَلَّى بِمُقَلَّتِي خَجَلٍ * أَرَادَ رَجْعَ الجَوَابِ فَاحْتَشَمَا
فَكُنْتُ كَالْمُبْنَعِي بِحِيلَتِهِ * بَرَاءً مِنَ السُّقْمِ فَابْتَدَأَ سَقَمًا

وقال في هوى له:

عَالِمٌ بِجَبِيهِ * مَطْرِقٌ مِنَ النَّيِّهِ
يُوسُفُ الجَمَالِ وَفِر * عَوْنٌ فِي تَعَادِيهِ

لا وحقُّ ما أنا فيه * هـ من عطيف أرجيه
 ما الحياةُ نافعة * لى على تائبه
 النعم يشغله * وما الجمال يُطفيه
 فهو غيرُ مكثرت * للذى ألاقيه
 تائهٌ تزهده * فى رغبى فيه

ومن قوله فى هوى له :

إن من لا أرى وليس يرانى * نصب عيني ممثّل بالأمانى
 أبى من ضميره وضميرى * أبدأ بالمغيب ينتجيان
 نحن شخصان إن نظرت ورو * حان اذا ما آخترت يسترجان
 فاذا ما هممتُ بالأمر أو همم * بشيء بدأته وبدانى
 كان وفقاً ما كان منه ومنى * فكأنى حكيتُه وحكائى
 خطرات الجفون منا سواء * وسواء تحرك الأبدان

ومن قوله :

فديتُ من قال لى على خفسره * وغص من جفنه على حوره
 سمع بأشعارك المليح فما * ينفك شاد بها على وتره
 حسبك بعض الذى أذعت ولا * حسب لى صب لم يقض من وطره
 وقلتُ يا مستعير سالفه الـ * يخشيف وحسن الفتور من نظره
 لا تتكرن الحبيب من طرب * عاود فىك الصبا على كبره

ومن قوله :

سائل بطيخك عن ليلى وعن سهرى * وعن نتاج أنفاسى وعن فكرى
 لم يخل قلبى من ذكراك إذ نظرت * عيني اليك على صحوى ولا سكرى
 سقياً ليوم سرورى إذ تنازعنى * صفوا المدامة بين الأأس والخفر

وفضّل كأسك يأتيني فأشربه * جهرا وتشرب كأسى غير مُستتر
وكيف أشمّله لثى وأزله * نحرى وترفعه كفى الى بصرى
فليت مُدّة يومى إذ مضى سلفا * كانت ومُدّة أباى على قَدَر
حتى اذا ما أنطوت عنّا بشاشته * صرنا جميعا كذا جارّين فى الحُفَر
ومن قوله لهوى كان له :

تَمَزَّ بِبَاسٍ عَن هَوَايَ فَإِنِّى * اذا أنصرفت نفسى فهيهات عن رَدَى
إِذَا خُنْتمُ بِالغَيْبِ وَدَى فَمَالِكُمْ * تُدَلُّونَ إِدْلَالَ المَقِيمِ عَلَى المَهْدِ
وَلِى مَنكَ بَدَ فَاجْتَنِبْنِى مَدْمَمًا * وان خلت أنى ليس لى منك من بدّ
لما ولى الواثق الخليفة أنشده حسين :

أَكأتم وجدى فما يَنكتمُ * بن لو شكوتُ اليه رَحِمُ
وَإِنِّى عَلَى حَسَنِ ظَنِّى بِهِ * لأحذر إن بُحْتُ أن يَحْتَشِمُ
وَلِى عِنْدَ لِحْظَتِهِ رَوْعَةٌ * تَحْتَقِقُ مَا ظَنَّنَهُ المَتَّهِمُ
وَقَدْ عِلِمَ النَّاسَ أَنِّى لَهُ * مَحَبٌّ وَأَحْسِبُهُ قَدْ عِلِمُ
وَإِنِّى لَمُنْغِضٍ عَلَى لَوْعَةٍ * مِنَ الشَّوْقِ فى كِبْدِى تَضَطَّرَمُ
عَشِيَّةٌ وَدَعَتْ عَن مَقَلَةٍ * سَفُوحٌ وَزَفْرَةٌ قَلْبِى سَدِمُ
فَمَا كَانَ عِنْدَ النَّوَى مُسْعِدٌ * سِوَى العَيْنِ تَمْرَجُ دَمْعًا بَدِمُ
سَيَذَكُرُ مِن بَانَ أوطانَه * وَيَبْكِى المَقِيمِينَ مِن لَمْ يَقِمُ

كتب إلى الحسن بن رجا فى يوم شك ، وقد أمر الواثق بالإفطار ، فقال :

هَزَزْتُكَ لِلصَّبُوحِ وَقَدْ نَهَانِى * أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ عَنِ الصِّيَامِ
وعندى من قِيَانِ المِصرِ عَشْرٌ * تَطْيِيبُ بَهْتِ عَاتِقَةِ المِدامِ
ومن أمثالهن إذا أنشيتا * ترانا نجنى تَمْرَ العِرامِ
فكن أنت الجواب فليس تىء * أحبّ إلىّ من حَذَفِ الكِلامِ

فوردت رقعته ، وقد سبقه إليه محمد بن الحارث بن بُسْخَرٌ ووجهه إليه بغلامٍ نظيف الوجه
ومعه ثلاثة غلّة أقران حسان الوجه ، ومعهم رُقعة كتبها كما تكتب المناشير ، وختمها
في أسفلها وكتب فيها يقول :

سِرُّ عَلَى أَسْمِ اللَّهِ يَا أَشَدَّ * كَلَّ مِنْ غَصْبِ بُلْحَيْنِ
فِي ثَلَاثٍ مِنْ بَنِي الرَّوِّ * مَ إِلَى دَارِ حَسِينِ
أَشْفِصِ الْكَهْلَ إِلَى مَوْ * لَآكَ يَا قُرَّةَ عَيْنِي
أَرِهِ الْعُنْفَ إِذَا آسْتَع * صَى وَطَالِبَهُ بَدِينِ
وَدَعِ اللَّفْظَ وَخَاطِبَهُ * هَ بَغْمِزِ الْحَاجِبِينَ
وَأَحْذِرِ الرَّجْعَةَ مِنْ وَجْهٍ * مَهْكَ فِي حُفَى حَنِينِ

ففضى معهم .

ومن قوله لمن أعرض عنه :

تَيْبَسَ عَلَيْنَا أَنْ رُزِقَتْ مَلَاخَةٌ * فَهَلَّا عَلَيْنَا بَعْضَ تَيْمَكٍ يَا بَدْرُ
لَقَدْ طَالَ مَا كُنَّا مِلَاحًا وَرَبْمَا * صَدَدْنَا وَتَهْنَا ثُمَّ غَيْرْنَا الدَّهْرُ

وله في هوى مُجِيبٍ عَنْهُ :

ظَنَّ مِنْ لَا كَانَ ظَنًّا * مَا بِجَسْبِي فَمَاءَ
أَرَصَدَ الْبَابَ رَقِيدٍ * مِنْ لَهُ فَاصْتَنَفَا
فَإِذَا مَا أَشْتَاقُ قَرِيبٍ * وَلِقَائِي مَنْعَاءَ
جَعَلَ اللَّهُ رَقِيدٍ * هَ مِنْ السُّوءِ فِدَاءَ
وَالَّذِي أَفْرَحُ فِي الشَّا * دِنِ قَلْبِي وَلَوَاءَ
كُلُّ مَشْتَاقٍ إِلَيْهِ * فَمِنْ السُّوءِ فِدَاءَ
سَيِّمًا مِنْ حَالَتِ الْأَحْ * رَاسِ مِنْ دُونَ مَنَاءَ

أمره المتوكل بأن ينادمه ويلازمه ، فلم يطق ذلك لكبر سنه ، فقال للتوكل بعض من حضر عنده : هو يطيق الذهاب الى القرى والمواخير والسكر فيها ويعجز عن خدمتك ؛ فبلغه ذلك ، فدفع الى أحمد بن محمد بن أبياتا قالها وسأله إيصالها ، فأوصلها الى المتوكل ، وهي :

أما في ثمانين ووثبتها * عذير وإن أنا لم أعتنيز
فكيف وقد جزتها صاعدا * مع الصاعدين يتسع أثر
وقد رفع الله أعلامه * عن ابن ثمانين دون البشر
سوى من أصر على فتنة * وألحد في دينه أو كفر
وإني لمن أسراء الإل * له في الأرض نصب صروف القدر
فإن يقض لي عملا صالحا * أثاب وإن يقض شرا غفر
فلا تلح في كبر هذني * فلا ذنب لي أن بلغت الكبر
هو الشيب حل بعقب الشباب * فمن ذا يلوم إذا ما عذر
وإني لقي كنف مغدق * وعز بنصر أبي المنتصر
يبارى الرياح بفضل السما * ج حتى تبد أو تتحسر
له أكد الوحي ميراثه * ومن ذا يخالف وحى السور
وها للحسود وأشباهه * ومن كذب الحق إلا المجر

فلما أوصلها شيخها بكلام يعذره وقال : لو أطاق خدمة أمير المؤمنين لكان أسعد بها ؛ فقال المتوكل : صدقت ، وأمر له بعشرين ألف درهم .

٥ - محمد بن عبد الملك الزيات^(١)

كان مجده شاعرا مجيدا لا يُقاس به أحد من الكُتّاب ، وإن كان إبراهيم بن العباس مثله في ذلك ، فإن إبراهيم مُقِلٌّ وصاحب قصار ومقطّعات . وكان محمد شاعرا يُطيل فيجيد ، ويأتي بالقصار فيجيد ؛ وكان بليغا حسن اللفظ اذا تكلم واذا كتب .

ولما تولى محمد الوزارة اشترط ألا يلبس القباء ، وأن يلبس الدرّاعة ويتقلد عليها سيفا بجامل ، فأجيب الى ذلك .

وكان يقول : الرحمةُ خورٌ في الطبيعة ، وضعفٌ في المنّة ، ما رحمتُ شيئا قط ؛ فكانوا يطعنون عليه في دينه بهذا القول ، فلما وُضع في الثقل والحديد قال : أرحموني ، فقالوا له : وهل رحمت شيئا قط فترحم ؟ هذه شهادتك على نفسك وحُكْمك عليها .

لما ماتت أمّ ابنه عمرو رثاها بقصيدة منها :

يقول لي الخِلالن لو زُرْت قبرها * فقلتُ وهل غير الفؤاد لها قبرُ
على حين لم أحدث فأجهل قبرها * ولم أبلغ السنّ التي معها الصبر

ومن شعره قوله :

ما أعجب الشيءَ ترجوه فتحرّمه * قد كنتُ أحسب أني قد ملأت يدي
مالي اذا غيبتُ لم أذكر بصالحه * وإن مَرِضْتُ فطال السقمُ لم أعد

(١) هو أبو جعفر محمد بن عبد الملك بن أبان بن حمزة واشتهر بابن الزيات لأن جده (أبان) كان يجلب الزيت من مواضعه الى بغداد ، وكان أدبيا شاعرا عالما بالححو واللغة ، وله ديوان شعر ومجموعة رسائل حيدة ، وكان في أول أمره من حملة الكُتّاب ثم صار وزيرا للمصم ولأبيه الواثق . ولما تولى الموكل قص عليه وأمر بادخاله في تور من حديد كان ابن الزيات أعده لتعذيب المصادرين وأرباب الدرادين المطالبين بالاموال وقيدته بخمسة عشر رطلا من حديد ، ثم أمر باخراجه بعد أن مكث فيه أربعين يوما ، فوجدوه ميتا وذلك سنة ٢٣٣ هـ . ومجد ترجمته في الأغاني (ج ٢٠ ص ٤٦) وابن خلكان (ج ٢ ص ٧٨) .

ومن شعره قوله :

ألم تعجب لمكتئبٍ حزينٍ * خدين صبايةٍ وحليفٍ صبرٍ
يقول إذا سألت به بخير * وكيف يكون مهاجورٍ بخيرٍ

وكان لمحمد رِذْوَانُ أشبه لم ير مثله فرآهة وحسنا، فسعى به محمد بن خالد الى المعتصم

ووصف له فراهته، فبعث اليه المعتصم فأخذه منه، فقال محمد بن عبد الملك يرثيه :

كيف العزاءُ وقد مضى لسبيله * عنا فودعنا الأحسم الأشمبُ
دبَّ الوشاةُ فأبعدوك وربما * بعد القى وهو الأحب الأقرب
لله يومَ نأيت عني ظاعنا * وسلبتُ قربك أيت علق أُسلب
نفسٌ مفرقةٌ أقام فريقها * ومضى لطيته فريقٌ يُجب
فالآن اذ كُملت أداذك كلها * ودعا العيونَ اليك لودعُ معجب
وأخير من سِرِّ الحدايد خيرها * لك خالصا ومن الحلى الأغرِب
وغدوت طنان الجمام كأنما * في كل عضو منك صنح يضرب
وكان سرجك إذ علاك غمامةٌ * وكأنما تحت الغمامة كوك
ورأى على بك الصديقُ جلاله * وغدا العدو وصدرة يتأهب
أنساك لا زالت اذا منيته * نفسى ولا زالت يمينى تتكب
أضمرتُ منك اليأس حين رأيتنى * وقوى جبالى من قواك تُقضب
ورجعتُ حين رجعتُ منك بحسرة * لله ما فعل الأحسم الأشمب

ولما وثب إبراهيم بن المهدي على الخلافة أقترض من مياسير التجار مالا، فأخذ من

عبد الملك أبي محمد عشرة آلاف درهم وقال له : أنا أردتها اذا جاني مال . ولم يتم أمره .

فاستخفى ثم ظهر ورضى عنه المأمون ، فطالبه الناس بأموالهم ، فقال : إنما أخذتها للمسلمين

وأردت قضاءها من فيهم ، والأمر الآن الى غيرى ، فعمل محمد بن عبد الملك قصيدة

خاطب فيها المأمون ومضى الى إبراهيم بن المهدي فأقرأه إياها وقال : والله لئن لم تعطني

المال الذي اقترضته من أبي لأوصلت هذه القصيدة الى المأمون، تخاف أن يقرأها المأمون
فيتدبر ما قاله ، فيوقع به ، فقال له : خذ مني بعض المال ونجِّم علي بعضه ، ففعل ؛
والقصيدة قوله :

ألم تر أن الشيءَ للشيءِ علةٌ * تكون له كالنار تُقدح بالزئد
كذلك جرت الأمور وإنما * يدُّك ما قد كان قبْل على البعد
وظني بإبراهيم أن مكانه * سيبت يوما مثل أيامه التكد
رأيت حسينا حين صارَ محمدُ * بغير أمان في يديه ولا عقيد
فلو كان أمضى السيف فيه بضربة * فصيره بالقاع مُنْعِرَ الخد
إذا لم تكن الجُند فيه بقيَّةً * فقد كان ما بُلِّغْتُ من خبر الجند
هم قتلوه بعد أن قتلوا له * ثلاثين ألفا من كهول ومن مُرد
وما نصره عن يد سلفت له * ولا قتلوه يوم ذلك عن حقد
ولكنه العذر الصُّراح وخفة الـ * حلوم وبعْد الرأى عن سنن القصد
فذلك يوم كان للناس عبرةً * سيق بقاء الوحي في الحجر الصلد
وما يوم إبراهيم إن طال عمره * بأبعد في المكروه من يومه عندي
تذكر أمير المؤمنين مقامه * وإيمانه في الهزل منه وفي الحد
أما والذي أمست عبداً خليفةً * له شر إيمان الخليفة والعبد
إذا هز أعواد المنابر بأسسته * تفتي بليلى أو يمىة أو هند
فوالله ما من توبةٍ نزعَتْ به * اليك ولا ميل اليك ولا ود
ولكن إخلاص الضمير مقربٌ * إلى الله زلني لا تيسد ولا تكدي
أتاك بها كرها اليك بأنفه * على رنمه وأستأثر الله بالحمد
فلا تتركن للناس موضع شبهة * فإنك مجزى بحسب الذي تُسدى
فقد غلطوا للناس في نصب مثله * ومن ليس للصور باب ولا المهدي

- فكيف بمن قد بايع الناس وألثقت * ببيعته الرُجُلانَ عَوْرًا الى تَجْدِيدِ
ومن سَكَ تَسْلِيمُ الخِلافةِ سَمَعَهُ * يُنَادِي به بين السَّاطِئِينَ من بَعْدِ
واى امرئٍ سَمَّى بها قط نَفْسَهُ * ففارقها حتى يُغَيَّبَ فى المَحْدِ
وتزعمُ هَـذِي التَّابِيتَةَ أَنه * إمام لها فيها تُسِرُّ وما تُبْـدِي
يقولون سُنِّي وَأَيَّةُ سُنَّةٍ * تَنِمُّ بِصَعْلِ الرَّأْسِ جَوْنِ القَفَا جَعْدِ
وقد جعلوا رُخْصَ الطَّعامِ بعهده * زعياً له باليَمَنِ والكوكبِ السَّعْدِ
اذا ما رأوا يوماً غَلاءَ رَأْيَتَهُم * يَحْتَوْنَ تَحَنُّنًا الى ذلك المَهْدِ
واقبالُهُ فى العِيدِ يُوجِفُ حَوْلَهُ * وَجِيفَ الحِيادِ وَأَصْطَلَكِ القَنَا الجُرْدِ
ورِجَالُهُ يَمِشُونَ بِالْبَيْضِ قَبْلَهُ * وَقَدْ تَبَعُوهُ بالقَضِيبِ وبالْبُرْدِ
فإن قلتَ قد رام الخِلافةَ قَبْلَهُ * فلم يُؤْتَ فيما كان حَاولٍ مِن جَدِّ
فلم أَجْزِهِ إِذ حَيَّبَ اللهُ سَعِيهِ * على خَطَا إِذ كان مِنْهُ على عَمْدِ
ولم أَرْضَ بَعْدَ العَفْوِ حتى رَفَعْتُهُ * ولَلَّعَمَّ أُولَى بالتَّعَمُّدِ والرَّفِيدِ
فليس سَواءً خَارجِي رَمَى به * اليك سَفَاهَ الرأى والرأى قد يُرْدَى
تَعَادَتْ له من كلِّ أَوْبِ عِصَابَةٍ * متى يُورِدُوا لا يُصِدِّروهُ عن الوَرْدِ
ومن هو فى بَيْتِ الخِلافةِ تَلْتَقَى * به وبك الآباءُ فى ذِرْوَةِ المَجْدِ
فمولاك مولاهُ وَجُنْدُكَ جُنْدُهُ * وهل يَجْمَعُ القَيْنَ الحُسامِينَ فى غَمْدِ
وقد رَأَى من أَهلِ بَيْتِكَ أَنى * رأيتُ لَحمَ وَجَدًا به أَيُّما وَجْدِ
يقولون لا تَبْعُدْ من ابنِ مُنَمِّسَةٍ * صبورٍ على اللأواءِ ذى مِرَّةٍ جَدِّ
فَدَانَا وهانت نَفْسُهُ دونَ مُلْكِنَا * عليه لَدَى الحَالِ التِّى قَلَّ من بَقْدَى
على حينِ أَعْطَى الناسُ صَفْقًا أَكْفَهُم * على بنِ موسى بِالوِلايَةِ والمَهْدِ
فما كانَ فِينا من أبى الضَّمِيمِ غَيْرُهُ * كَرِيمٍ كَفَى ما فى القَبولِ وفى الرَّدِّ
وَجَرَدَ إِبراهيمَ لِلوْتِ نَفْسَهُ * وأبْدَى سِلاحًا فوقَ ذى نَمِيعَةٍ نَهْدِ

وأبلى ومن يبُلِّغ من الأمر جَهْدَهُ * فليس بمذموم وإن كان لم يُجِدِ
فهذى أمور قد يخاف ذو النهى * مَغْتَبَهَا والله يَهْدِيكَ لِلرَّشِيدِ
وكانت الخلافة في أيام الواثق تدور على إيتاخ وكتبه سليمان بن وهب ، وعلى أشناس
وكتبه أحمد بن الخصب ، فعمل محمد بن عبد الملك قصيدة وأوصلها الى الواثق على أنها
لبعض أهل العسكرة، وهى :

يا بن الخلائف والأملك إن نُسبوا * حُزِنَتِ الخِلافةَ عن آباءك الأوَّلِ
أَجْرَتِ أم رقدت عينك عن عَجَبٍ * فيه البرية من خوف ومن وهَلِ
وليتَ أربعةَ أمر العباد معا * وكلُّهم حاطِبٌ في جبل مُحْتَبِلِ
هذا سليمانُ قد ملكت راحته * مشارقَ الأرض من سهل ومن جبلِ
ملكته السند فالشحرين من عدن * الى الجزيرة فالأطراف من مللِ
خِلافةٌ قد حواها وحده فمَضَّتْ * أحكامُهُ في دماء القوم والنفلِ
وآبن الخصب الذي ملكت راحته * خِلافةَ الشام والغازين والقفلِ
فنبيلُ مصر فبحر الشام قد جرىأ * بما أراد من الاموال والحللِ
كانهم في الذى قَسَمَتْ بينهم * بنو الرشيد زمان القسَمِ للدولِ
حوى سليمان ما كان الأمين حوى * من الخِلافةِ والتبليغِ للأملِ
وأحمدُ بن خصب في إمارته * كالقاسم بن الرشيد الجامع السبلِ
أصبحت لا ناصحٌ يأتيك مستترا * ولا علانيةً خوفا من الحيلِ
سل بيت مالك أين المال تعرفه * وسل خراجك عن أموالك الجملِ
كم في حبوسك ممن لا ذنوب لهم * أسرى التَّكذِبِ فى الأقياد والجملِ
سميت باسم الرشيد المرتضى فيه * تُسَمَى الأمور التي تُشجى من الزلِّ
عِثَ فيهم مثل ما عاثت يداها معا * على البرامك بالتهديم للقُلِّ

فلما قرأ الواثق هذا الشعر غاظه ، ونكب سليمان بن وهب وأحمد بن الخصب ،
وأخذ منهما ومن أسبابهما ألف دينار فجعلها في بيت المال .

٦ - أَبْنُ الْبَوَّابِ^(١)

لَمَّا أُتِيَ الْمَأْمُونُ بِشِعْرِ أَبِي الْبَوَّابِ الَّذِي يَقُولُ فِيهِ :

أَيُّضَلَّ فَرْدُ الْحَسَنِ فَرْدُ صِفَاتِهِ * عَلَى وَقَدْ أَفْرَدْتَهُ بِهَوَى فَرْدِ
رَأَى اللَّهُ عَبْدَ اللَّهِ خَيْرَ عِبَادِهِ * فَلَا يَكْفِيكَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالْعَبْدِ
أَلَا إِنَّمَا الْمَأْمُونُ لِلنَّاسِ عِصْمَةٌ * مُمَيِّزَةٌ بَيْنَ الضَّلَالَةِ وَالرَّشْدِ

فَقَالَ الْمَأْمُونُ : أَلَيْسَ هُوَ الْقَائِلُ :

أَعْنِي جُودًا وَأَبِيكَ لِي مُحَمَّدًا * وَلَا تَذَخَّرَا دَمْعًا عَلَيْهِ وَأَسْعِدَا
فَلَا فِرْحَ الْمَأْمُونُ بِالْمُلْكِ بَعْدَهُ * وَلَا زَالَ فِي الدُّنْيَا شَرِيحًا مُطَّرَدًا

وَاحِدَةً بَوَّاحِدَةً ، وَلَمْ يَصَلِّهِ بَشِيءٌ . وَلَمَّا سَخِطَ عَلَيْهِ قَالَ قَصِيدَةً يمدحه بها ، وُدَّسَ مَنْ
غَنَّاهُ فِي بَعْضِهَا لَمَّا وَجَدَ مِنْهُ نَشَاطًا ، فَسَأَلَ : مَنْ قَائِلُهَا ، فَأُخْبِرَ بِهِ ، فَرَضِيَ عَنْهُ وَرَدَّهُ إِلَى رَسْمِهِ
مِنَ الْخِدْمَةِ ، وَهِيَ :

هَلْ لِلْحَبِّ مَعِينٌ * إِذْ شَطَّ عَنْهُ الْقَرِينُ
فَلَيْسَ يَبْكِي لِشُجُوَالِ * حَزِينٌ إِلَّا الْحَزِينُ
يَا ظَاعِنًا غَابَ عَنَّا * غَدَاةَ بَابِ التَّقْطِينِ
أَبْكِي الْعَيُونَ وَكَانَتْ * بِهِ تَقَطَّرَ الْعَيُونَ
يَأْيِهَا الْمَأْمُونُ أَلِ * حَبَارِكُ الْمَيْمُونُ
لَقَدْ صَفَّقْتُ بِكَ دُنْيَا * لِلسَّالِمِينَ وَدِينِ
عَلَيْكَ نُورٌ جَلَالٌ * وَنُورُ مُلْكٍ مُسِينِ

(١) هو عبد الله بن عتاب من أهل بخارى ، وحيه بمجده وجماعة معه رهينة إلى الحجاج بن يوسف ، فنزلوا
عنده بواسط ، فأقطعهم سكة بها ، فاحتطوها ونزلوها طول أيام بني أمية ، ثم انقصوا من الدولة العباسية إلى الربيع
نخدموه ، وكان عبد الله بن محمد هذا يخلف الفضل بن الربيع على حجة الخلفاء ، وكان صاحب الشعر قلبه وراوية لا يخيار
الخلفاء طامًا بأمرهم .

القولُ منكَ فَعَال * والظنُّ منكَ يقين
 ما من يديكَ شِمَال * كَلتا يديكَ يَمين
 كأنما أنتَ في الجِو * د والتقى هارون
 مَنْ نالَ من كلِّ فَضيل * ما نالَهُ المأمون
 تألَّفَ النَّاسُ مِنْهُ * فَضلاً وَجودَ ولين
 كالبدْرِ يبدو عليه * سَكِينَةً وَسكون
 فالرزقُ من راحتيه * مقسَمٌ مضمون
 وكلَّ خَصْلةٍ فَضيل * كانتَ فَمِنْهُ تَكُون

ومما يَفْنَى فيه قوله :

أَفِقَ أَيها القلبُ المَعذَّبُ كم تَصْبُو؟ * فلا النَّأى عن سَلْماكِ يُسلى ولا القربُ
 أَقولُ غَدَاةً آسْتَخْبِرْتُ مِمَّ عَلَيَّ؟ * من الحبِّ كَرْبٌ ليس يُشِمْه كَرْب
 إذا أَبْصَرْتِكَ العَيْنُ من بُعْدِ غَايَةٍ * فأدخَلتْ شكا فِيكِ أَثْبَتَكَ القلبُ
 ولو أن رَكْباً يَمْمُوكَ لَقَادَهُم * نَسِمْكَ حَتَّى يَسْتَنْدِلَ بِكَ الركبُ

ألقى ابن البواب حين جَفَّاه الخليفة وَعَلَّتْ سِنُّهُ عن الخدمة، فوَجَلَّ الى أَبِي دُلَيْفِ
 القاسمِ بن عيسى ومدحه بقصيدة، فوهب له ثلاثين ألف درهم وعاد بها الى بغداد، فما
 نفدت حتى مات؛ وهى قوله :

طرَقْتِكَ صائِدةُ القلوبِ رَبابُ * وَتَأَتْ فليس لها اليك ما أب
 وتَصَرَّمَتْ مِنْها العهودُ وَعُلِّقَتْ * من دون نَيْلِ طِلاها الأبوابُ
 فلا صِدْفِ قِ عن الهوى وَطِلا به * فالحَبِّ فِيه بَلِيَّةٌ وَعذابُ
 وأخْصُ بالمدح المَهْدَبُ سَيِّدا * نَفْحَاتِهِ لِلجُنْدِينِ رِغابُ
 والى أَبِي دُلَيْفِ رَحَلْتُ مَطِيَّتِي * قَدْ شَفَّها الإِرْقَالُ والإِتْعابُ^(١)

(١) الإرقال : ضرب من الخبب .

تعلو بنا قُلَلُ الجبال ودونها * مما هَوَتْ أهويةً وشعاب
 فاذا حلتُ لدى الأمير بأرضه * نلتُ المنى وتقضيتُ الآرابُ
 ملكٍ تأمل عن أبيه وجده * مجدًا يقصرُ دونه الطُّلابُ
 وإذا وزنتُ قديمَ ذى حَسَبٍ به * خَضَعْتُ لفضلِ قديمه الأحساب
 قومَ علوا أملاكَ كلِّ قبيلة * فالناسُ كلَّهم له أذنان
 ضربتُ عليه المكرماتُ قبایها * فعلا العمودُ وطالت الأطنابُ
 عَمِ النساءُ بمثله وتعطلت * من أن تُضمَّنَ مثله الأصلابُ

٧ - الخريجي (١)

كان متصلاً بمحمد بن منصور بن زياد كاتب البرامكة، وله فيه مدائحٌ جَيَّادٌ، ثم رثاه بعد موته، فقيل له: يا أبا يعقوب، مدائحك لآل منصور بن زياد أحسن من مرثيتك وأجود؛ فقال: كذا يومئذ نعمل على الرجاء، ونحن اليوم نعمل على الوفاء، وبينهما بون بعيد .
وهو القائل في عينيه :

أصنني الى فائدي ليُخبرني * إذا ألتقينا عمن يُحِبُّني
أريد أن أعِدِلَ السلام وأن * أفصل بين الشريف والدُّون
أسمع ما لا أرى فأَكْوهُ أن * أخطئ والسمعُ غير مأمون
لله عيني التي يُفْعَتُ بها * لو أن دهرها يُوَاتِنِي
لو كنتُ خَيْرَتُ ما أخذتُ بها * تعميرَ نوح في مُلكِ قارون
حقَّ أخلائي أن يعُودوني * وأن يعزّوا عني ويكوُنِي

وهو القائل :

إذا ما مات بعضُك فابكِ بعضاً * فإن البعض عن بعض قريبٌ
يُمَنِّئِي الطيبُ شفاء عيني * وهل غير الإله لها طيب

(١) هو إسحاق بن حسان ويكنى أبا يعقوب، من العجم، وهو القائل :

إني أمرؤ من سراة الصغد ألبسني * عرق الأعاجم جلدا طيب الخبر

وكان مولد أبين خريم الذي يقال لأبيه: خريم الناعم . وهو خريم بن عمرو بن خي مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان .
وعنى أبو يعقوب الخريجي بعد ما أسق، وكان يقول في ذلك شعرا، فنه قوله :

فإن تك عيني خبا نورها * فكم قبلها نور عين خبا
فلم يمسس قلبي ولعنا * أذى نور عيني إليه سرى
فأسرح فيه إلى نوره * سراجا من العلم يشفي العمى

وقال يذكر بغداد والفتنة التي كانت بها :

قالوا ولم يَلْعِبِ الزمانُ بيغ * دداد وتَعَثَّرَ بها عوائِرها
 إذ هي مثلُ العروسِ بِأدبِها * مُهَوَّلٌ للفتى وحاضِرها
 جَنَّةُ دُنْيَا ودارُ مَغَبَطَةٍ * قَلَّ مِنَ النَّائِبَاتِ واثِرها
 دَرَّتْ خُلُوفُ الدُنْيَا لساكنِها * وَقَلَّ مَعسُورُها وَعاسِرها
 وَأَنْفَجَرَتْ بالنِّعَمِ وَأَنْجَمَتْ * فِيها بِلدائِها حَواضِرُها
 فالقومُ منها في روضةِ أُفُفٍ * أَشْرَقَ غِيبُ القِطارِ زاهِرها
 مِنَ غَرَّةِ العِيشِ في بُلْهِنِيَّةٍ * لو أَنِ دُنْيَا يَدومُ عَامِرها
 دارُ مَلوكِ رَسَتْ قَواعِدُها * فِيها وَقَسَّرَتْ بِها مَنابِرُها
 أَهْلُ العِلا وَالثَرى وَأَدْيِيَّةُ الـ * فَخَضِرَ إِذا عُدَّتْ مَفانِرُها
 أَفْرَاحُ نَعَمِي فِي إِرْثِ مَمْلَكَةٍ * شَدَّ عُرَها لَها أَكابِرُها
 فلم يَزَلِ وَالزِمانُ ذُو غَيْرِ * يَقْدَحُ فِي مَلِكِها أَصاغِرُها
 حَتَّى تَساقُتُ كَأَسا مُمْتَلِةٍ * مِنَ فَننِةٍ لا يُقالُ عائِرُها
 وَأَقْتَرَفَتْ بَعدَ أَلْفَةِ شِيعِيًّا * مَقْطُوعَةً بَينَها وَأَواصِرُها
 يا هَلْ رَأَيْتِ الأَمَلِكا ما صَنَعَتْ * إِذْ لَم يَزَعِها بِالنِّصْحِ زاجِرُها
 أورد أَمَلِكا نَفوسَهُم * هُوءَ عَنِّي أَعَيْتِ مَصادِرُها
 ما صَـرَها لو وَقَتَ بَمَوقِها * وَأَسْتَحَكَمْتُ فِي التُّبُقِ بِصائِرُها
 وَلَم تَسافِكِ دِماءَ شِيعِها * وَتَبَعِـلَ فِتِيَّةً تُكَابِرُها
 وَأَفْتَعَتْها الدُنْيَا الَّتِي جُمِعَتْ * لَها وَرَغَبَ النِّفوسِ ضائِرُها
 ما زالَ حَواضِ الأَمَلِكا [...] * مَسجُورُها بِالهُوى وَساجِرُها
 تُبُقِ فُضولِ الدُنْيَا مُكَاثِرَةً * حَتَّى أُبَيِّتَ كَـرَها ذَحائِرُها

- تبيع ما جمع الأبوّة له * أبناء لا أربحت متاجرها
يا هل رأيت الجنان زاهرة * يروق عين البصير زاهرها
وهل رأيت القصور شارعة * تُكِنّ مثل الدمي مقاصرها
وهل رأيت القرى التي غرس الـ * أملاكك محضرة دساكرها
محفوظة بالكروم والنخل والـ * تزيحان قد دميت محاجرها
فإنها أصبحت خلايا من الـ * بإنسان قد دميت محاجرها
قفراً خلاء تعوى الكلاب بها * ينكر منها الرسوم دائرها
وأصبح البؤس ما يفارقها * إلقا لها والسرور لها جزها
بزند ورد والياسرية والـ * شطّين حيث آتته معابرها
وبالرحى والخيزرانية الـ * علبا التي أشرفت قناطرها
وقصر عبديه عبرة وهدي * لكل نفس زكّت سرائرها
فأين حراسها وحارسها * وأين مجبورها وجارها
وأين خصيانها وحشوتها * وأين سكانها وطامرها
أين الجرادية الصقالب والـ * أحبش تعدو هذلا مشافرها
ينصدع الجند عن مواكبها * تعدو بها سرباً ضوامرها
بالسند والهند والصقالب والـ * نوبة شيت بها برارها
طيراً أبايل أرسلت عبثا * يقدم سودانها أحامرها
أين الظباء الأبقار في روضة الـ * حلك تهادي بها غرائرها
أين غضاراتها ولذتها * وأين محبورها وحارها
بالمسك والعنبر اليماني والـ * يلنجوج مشبوبة مجامرها
يرقلن في الخنز والحجاسد والـ * سموشي مخطومة مزامرها

فاين رقاصها وزامرها * يُجِبْن حيث أتته حناجرها
 تكاد أسماعهم تُسَلّ اذا * عارض عيداتها مزاهرها
 أمست بكفوف الحمار خالية * يسعها بالجحيم ساعرها
 كأنما أصبحت بساحتهم * عادٌ ومستهم صراصرها
 لا تعلم النفس ما يُبَيِّتها * من حادث الدهر أو يُبَاكرها
 تُضحى وتسمى دَرِيَّةً غَرَضاً * حيث استقرت بها شراشرها
 لأسهم الدهر وهو يرشقها * مُحْنِطُهَا مرةً وبقايرها
 يابؤس بغداد دار مملكة * دارت على أهلها دوائرها
 أمهلها الله ثم عاقبها * لما أحاطت بها كبايرها
 بالخسيف والقذف والحريق وبال * حارب التي أصبحت تُساورها
 كم قد رأينا من المعاصي بها * كالعاهر السوء
 حلت ببغداد وهي آمنة * داهية لم تكن تُخادِرها
 طالعها السوء من مطالعه * وأدركت أهلها بجرائرها
 رقبها الدين وأستخف بذى ال * فضل وعزّ النَّسَاك فاجرها
 وخطم العبد أنف سيده * بالزغم وأستعبدت مخادرها
 وصار ربّ الجيران فاسقهم * وأبتر أمر الدروب ذاعرها
 من ير بغدادَ والجنودُ بها * قد رَبَّقَتْ حولها عساكرها
 كلّ طُحُوتٍ شبيهةً بأساة * تُسَقِطُ أحبالها زماجرها
 تلقى بنى الردى أو أنسها * يرهقها للقاء طاهرها
 والشيوخ يعدو حزمًا ككائبه * يُقَدِّمُ أعجازها يعاورها
 ولزهر بالقول مأسدة * مرقومة صلبة مكاسرها
 كتائب الموت تحت ألوية * أبرح منصورها وناصرها

يَعْلَمُ أَنْ الْأَقْدَارَ وَاقِعَةٌ * وَقَعَا عَلَى مَا أَحَبَّ قَادِرَهَا
فَتَلِكُ بِنَدَادٍ مَا بَيْنَ مِنَ الْ * بَدَلَهُ فِي دُورِهَا عَصَافِرَهَا
مُحْفَرَةٌ بِالرَّدَى مَنْطِقَةٌ * بِالصَّقْرِ مَحْصُورَةٌ جَابِرَهَا
وَبَيْنَ شَطِّ الْفُرَاتِ مِنْهُ إِلَى * دِجْلَةَ حَيْثُ أَنْتَهتْ مَعَابِرَهَا
كَهَادِي السُّفْرَاءِ نَافِرُهُ * تَرْكُضُ مِنْ حَوْلِهَا أَشَاقِرَهَا
يُحْرِقُهَا ذَا وَذَاكَ يَهْدِيهَا * وَيَشْتَفِي بِالنَّهَابِ شَاطِرَهَا
وَالكَرْخُ أُسْوَاقُهَا مَعْطَلَةٌ * يَسْتَنْ عِيَارَهَا وَعَائِرَهَا
أَخْرَجَتْ الْحَرْبُ مِنْ سِوَاقِطِهَا * آسَادُ غَيْلٍ غُلْبًا تُسَاوِرَهَا
مِنَ الْبُورَى تِرَاسُهَا وَمِنَ الْ * خُوصِ إِذَا أَسْتَلَمَتْ مَغَافِرَهَا
تَغْدُو إِلَى الْحَرْبِ فِي جِوَاشِنِهَا الْ * صُوفِ إِذَا مَا عَدَّتْ أُسَاوِرَهَا
كَتَابِ الْهَرِشِ تَحْتِ رَايَتِهِ * سَاعِدَ طَرَارِهَا مَقَامِرَهَا
لَا الرِّزْقُ تَبْخِي وَلَا الْعَطَاءُ وَلَا * يَحْشُرُهَا لِلْقَاءِ حَاشِرَهَا
فِي كُلِّ دَرْبٍ وَكُلِّ نَاجِيَةٍ * خَطَّارَةٌ يَسْتَهْلُ خَاطِرَهَا
بِمِثْلِ هَامِ الرِّجَالِ مِنْ فَلَاقِ الْ * صَخْرِ يَزُودُ الْمَقْلَاعَ بَاثِرَهَا
كَأَنَّمَا فَوْقَ هَامِهَا عِدْفٌ * مِنْ الْقَطَا الْكُدْرَ هَاجَ نَافِرَهَا
وَالْقَوْمُ مِنْ تَحْتِهَا لَمْ زَجَلٌ * وَهِيَ تَرَامِي بِهَا خِوَاطِرَهَا
بَلْ هَلْ رَأَيْتَ السِّيَوفَ مُصْلِتَةً * أَشْهَرَهَا فِي الْأَسْوَاقِ شَاهِرَهَا
وَالخَيْلَ تَسْتَنْ فِي أَرْقَتِهَا * بِالْثُرْكِ مَسْنُونَةَ خَنَاجِرَهَا
وَالنَّفْطَ وَالنَّارَ فِي طَرَائِقِهَا * وَهَائِيًّا لِلدِّخَانِ عَامِرَهَا
وَالنَّهْبَ تَعْدُو بِهِ الرِّجَالُ وَقَدْ * أَبَدَتْ خَلَائِلَهَا حَرَائِرَهَا
مُعْصُومَاتٍ وَسَطِ الْأَرْزَقَةِ قَدْ * أَبْرَزَهَا لِلْعِيُونِ سَاتِرَهَا
كُلُّ رُقُودٍ الضَّحَى مَخْبَأَةٌ * لَمْ تَبْدُ فِي أَهْلِهَا مَحَاجِرَهَا

بَيْضَةٌ خَذِرٌ مَكْنُونَةٌ بَرَزَتْ * للناس منشورةٌ غداؤها
 تعرُّ في ثوبها وتُعْجِلُها * كَكَبَةِ خَيْلٍ زَيْعَتِ حَوَافِرُهَا
 تسأل أين الطريق والهامة * والنار من خلفها تبادرها
 لم تجتَلِ الشمسُ حسنَ بهجتها * حتى اجتلتها حربٌ تُبَاشِرُهَا
 ياهل رأيت التكلية مَوْلِيَةً * في الطرق تسعى والجهد باهرها
 في إثر نعش عليه واحدا * في صدره طعنة يُسَاورها
 فِرْغَاءٌ تُلْقِي الشَّارَ مِنْ يَدِهَا ^(١) * يَهْزِئُهَا بِالسَّانِ شَاجِرُهَا
 تنظر في وجهه وتهتف بال * تَمَكُّلٍ وَعِزِّ الدَّمِوعِ خَامِرُهَا
 غرغر بالنفس ثم أسلمها * مَطْلُولَةٌ لَا يُخَافُ نَائِرُهَا
 وقد رأيت الفتيان في عرصه ال * مَعْرَكِ مَعْفُورَةٍ مَنَاجِرُهَا
 كل فتى مناعٌ حقيقته * تَشْقَى بِهِ فِي الْوَعْغَى مَسَاعِرُهَا
 بانت عليه الكلاب تنهشه * مَخْضُوبَةٌ مِنْ دِمِّ أَظَافِرُهَا
 أما رأيت الخيول جائلة * بِالْقَوْمِ مَنكُوبَةٌ دَوَائِرُهَا
 تعرُّ بالأوجه الحسان من ال * قَتَلَى وَغَلَّتْ دَمًا أَشَاعِرُهَا
 يطأن أجاد فتية تُجِدِ * يَفْلِقُ هَامَاتِهِمْ حَوَافِرُهَا
 أما رأيت النساء تحت الحجا * نَيْقِ تَعَادَى شُعْنًا ضَفَائِرُهَا
 عقائل القوم والعجائز وال * عُنَسٍ لَمْ تُخْتَبِرْ مَعَاصِرُهَا
 ييمن قوتا من الطحين على ال * أَكْتَفٍ مَعصُوبَةٌ مَعَاجِرُهَا
 وذات عيش ضنك ومقعسة * تَشْدَخُهَا صَخْرَةٌ تُعَاوِرُهَا
 تسأل عن أهلها وقد سلبت * وَأَبْتَرٌ عَنْ رَأْسِهَا غَفَائِرُهَا
 ياليت ما والدهر ذو دوي * تُرْجَى وَأُخْرَى تُمْنَشَى بُوَادِرُهَا

(١) كذا في هامش النسخة الأوربية من الطبري . وفي نسخة بولاق وأوربا (في صلبها) :

* فرغاء ينق الشارمر يدها * وهي رواية ظاهر عليها التحريف وفساد المعنى .

هل ترجعن أرضنا كما غنيت * وقد تناهت بنا مصايرها
 من مبلغ ذا الرياستين رسا * لايت تأتي للنصح شاعرها
 بأن خير الولاة قد علم الذ * أس اذا عددت ماثرها
 خليفة الله من بريته ال * مأمون سائسها وجابرها
 سمّت اليه آمال أمته * منقادة برّها وفاجرها
 شاموا حيا العدل من تخايله * وأصحرت بالتقى بصائرهما
 وأحمدوا منك سيرة جلّت ال * شك وأخرى صحّت معاذرها
 وأستجمعت طاعة برفقك لد * مأمون تجديها وغايرها
 وأنت سمع في العالمين له * ومقالة ما يكّل ناظرها
 فاشكر لذي العرش فضل نعمته * أوجب فضل المزيّد شاكرها
 وأحذر فداء لك الرعيّة وال * أجناد مأمورها وأمرها
 لا تردن عمرة بنفسك لا * يصدر عنها بالرأى صادرها
 عليك صخضاحها فلا تلج ال * غمر متجّة زواجرها
 والقصد إن الطريق ذو شعيب * أشامها وعثمها وجائرها
 أصبحت في أمة أوائلها * قد فارقت هديها أوأخرها
 وأنت سرسورها وسائسها * فهل على الحق أنت قاسرها
 أدب رجالا رأيت سيرتهم * خالف حكم الكتاب سائرهما
 وأمّدت الى الناس كف مرحمة * تسدّ منهم بها مفاقرها
 أمكك العدل إذ هممت به * ووافقت مده مقادرها
 وأبصر الناس قصد وجههم * وملكت أمة أخايرها
 تُشرع أعناقنا اليك اذا ال * بادات يوما جحت عشائرها
 كم عندنا من نصيحة لك في الد * به وقربى عزّت زوافرها

وحرمة قُرْبَتِ أَوَاصِرُهَا * منك وأخرى هل أنت ذاكرها
 سَمِيُّ رِجَالٍ فِي الْعِلْمِ مَطْلَبُهُمْ * رَأَتْهَا بِأَكْرَبِهَا
 دُونَكَ غِرَاءَ كَالْوَذِيَّةِ لَا * تَفْقَدُ فِي بِلْدَةِ سَوَائِرِهَا
 لَا طَمَعًا قُتِبَتْهَا وَلَا بَطْرًا * لِكُلِّ نَفْسٍ نَفْسٌ تُؤَامِرُهَا
 سَيَرَهَا اللَّهُ بِالنَّصِيحَةِ وَالْ * خَشْيَةِ فَاسْتَدْبَحْتَ مَرَاتِرَهَا
 جَاءَتْكَ تَحِيَّاتُ لِكَ الْأُمُورِ كَمَا * يَنْشُرُ بَزَّ التَّجَارِ نَاشِرَهَا
 حَمَلَتْهَا صَاحِبًا أَخَا نِقَمَةٍ * يَظْلِلُ عَجَبًا بِهَا يُجَاضِرُهَا

ومن جيد شعره قوله :

النَّاسُ أَخْلَاقُهُمْ شَتَّى وَإِنْ جُبِلُوا * عَلَى تَسَابُهْ أُرْوَاجٍ وَأَجْسَادِ
 لِلْخَيْرِ وَالشَّرِّ أَهْلٌ وَكُلُّوهُمَا * كُلُّ لَهُ مِنْ دَوَاعِي نَفْسِهِ هَادِ
 مِنْهُمْ خَلِيلٌ صَفَاءُ ذُو مَحَافِظَةٍ * أَرَسَى الْوَفَاءُ أَوْ إِيخِيهِ بِأَوْتَادِ
 وَمُشَعَّرَ الْفِدْرِ مَحْنَى أَضَالَعُهُ * عَلَى سِرِّةِ تَعْمُرِ غَلْهَا بَادِ
 مُشَاكِسٌ خَدَعَ جَمَّ غَوَائِلُهُ * يَبْدَى الصَّفَاءَ وَيَنْفِي ضَرِبَةَ آلِهَادِ
 يَأْتِيكَ بِالْبَغْيِ فِي أَهْلِ الصَّفَاءِ وَلَا * يَنْفَقُ يَسْمَى بِإِصْلَاحٍ لِإِفْسَادِ

ومن جيد شعر الخريمي قوله :

أَصَاحِبُكَ ضَيْفِي قَبْلَ إِزْزَالِ رَحْلِهِ * وَيُخْصِبُ عِنْدِي وَالْمَحَلَّ جَدِيدِ
 وَمَا الْخِصْبُ لِلْأَضْيَافِ أَنْ يَكْثُرَ الْقَرَى * وَلَكِنَّا وَجْهَ الْكَرِيمِ خَصِيبِ

ومن جيد شعره قوله :

زَادَ مَعْرُوفَكَ عِنْدِي عِظًا * أَنَّهُ عِنْدَكَ مَحْقُورٌ صَغِيرِ
 وَتَنَاسِيهِ كَأَنْ لَمْ تَأْتِهِ * وَهُوَ عِنْدَ النَّاسِ مَشْهُورُ كَبِيرِ

وهو القائل :

وَإِنْ أَشَدَّ النَّاسُ فِي الْحَشْرِ حَسْرَةً * لَمْ يُورِثْ مَالٍ غَيْرَهُ وَهُوَ كَاسِبِهِ
 كَفَى سَفَهًا بِالْكَهْلِ أَنْ يَتَّبَعَ الْأَصْبَا * وَأَنْ يَأْتِيَ الْأَمْرَ الَّذِي هُوَ عَائِبِهِ

ويستجاد له قوله :

ودون الندى في كل قلب ثنية * لها مصعدٌ وعمرٌ ومنحدرٌ سهل
 وودّ الفقى في كل نيل يئيله * اذا ما أنقضى لو أن نائله جزل
 وأعلم علمها ليس بالظن أنه * لكل أناس من ضرائبهم شكل
 وأن أخلاء الزمان غناؤهم * قليل اذا الإنسان زلت به التعل
 تزود من الدنيا متاعاً لغيرها * فقد شمّرت حذاء وأنصرم الحبل
 وهل أنت إلا هامة اليوم أو غد * لكل أناس من طوارقها الشكل

وفي هذا الشعر يقول :

أبا لصغد بأس إذ تعيرني جمل * سفاهاً ومن أخلاق جارقي الجهل
 فإن تفخرى يا جمل أو تجمل * فلا فخر إلا فوقه الدين والعقل
 أرى الناس شرعاً في الحياة ولا يرى * لقبير على قبر علاء ولا فضل
 وما ضررتني أن لم تلدني يحار * ولم تشتمل جرمٌ على ولا عكل

وهو القائل :

ما أحسن الغيرة في حينها * وأقبح الغيرة في كل حين
 من لم يزل متهما عرسه * مناصبا فيها لريب الظنون
 أوشك أن يغيرها بالذي * يخاف أن يبرزها للعيون
 حسبك من تحصينها وضعها * منك إلى عرض صحيح ودين
 لا تطلع منك على ريبة * فيتبع المقرون جبل القرين

٨ - عبد الله بن طاهر^(١)

كان يَحَلُّ من علو المنزلة وعِظَم القَدْر ولُطْف مكان من الخلفاء، يُسْتَعْنَى به عن التقريظ له والدلالة عليه، وأمره في ذلك مشهور عند الخاصّة والعامة، وله في الأدب مع ذلك المحلّ الذي لا يُدْفَع، وفي الساحة والشجاعة ما لا يقاربه فيه أحدٌ .

وكان أديبا طريفا جيّد الغناء، نسب إليه صاحب الأغاني أصواتا كثيرة أحسن فيها وتقلّها أهل الصنعة عنه، وله شعر رائع ورسائل طريفة، فن شعره قوله :

نحن قومٌ تليّننا الحَدَقُ النُّجُجُ * لُ على أتنا تليّن الحديد
طَوَّعُ أيدى الطِّبَاءِ تفتادنا العِي * من وتفتاد بالطَّعَانِ الأَسُودَا
تَمَلِّكِ الصَّيْدِ ثم تملِكنا البِي * مَضُ المصوناتُ أعيننا وخدودا
تَنقِي سِنطنا الأَسُودَ ونخشي * سَخَطُ الحِشْفِ حين يُبدى الصدودا
قرانا يوم الكريمة أحرا * را وفي السِّلْمِ للغواني عييدا

أعطاه المأمون مآل مصر لسنة، نَحَاجَهَا وِضَاعَهَا، فوهبه كَهْ وُفَّرَه في الناس ورجع صَفْرًا من ذلك، ففاظَّ المأمونَ فعَلَهُ، فدخل إليه يوم مَقْدَمِهِ، فأنشده أبياتا قالها في هذا المعنى، وهي :

(١) هو أبو العباس عبد الله بن طاهر بن الحسين بن مصعب بن زريق كان سيديا نبيلًا على الأهمية شهما، وكان المأمون كثير الاعتد عليه، حسن الالتفات إليه لذاته ورعاية لحن والده وما أسلفه من الطاعة في خدمته، وكان واليا على الديور فلما خرج بابك الخرمي على خراسان وأوقع الخوارج بأهل قرية الحمراء من أعمال نيسابور وأكثرها فيها الفساد وأصل الخبر بالمأمون بعث إلى عبد الله وهو بالديور يأمره بالخروج إلى خراسان، فخرج إليها وحارب الخوارج وقدم نيسابور في رجب سنة ٢١٥ هـ . وكان المطرق قد اقتطع عنها تلك السنة، فلما دخلها مطرت مطرا كثيرا، فقام إليه رجل يزا من حانوته وأنشده :

قد حط الناس في زمانهم * حتى إذا جئت جئت بالدور

غيثان في ساعة لنا قدما * فرحبا بالأمير والمطر

تولى الشام والعراق ومصر . وتوفى سنة ٢٣٠ هـ . ومجيد ترجمته في ابن خلكان (ج ١ ص ٣٦٩) والأغاني

(ج ١١ ص ١١) .

نَفْسِي فِدَاؤُكَ وَالْأَعْنَاقُ خَاضِعَةٌ * لِلنَّائِبَاتِ أَيْبَا غَيْرِ مُهْتَضَمٍ
 إِلَيْكَ أَقْبَلْتُ مِنْ أَرْضِ أَقْمُتْ بِهَا * حَوْلَيْنِ بَعْدَكَ فِي شَوْقِي وَفِي أَلَمِ
 أَقْفُو مَسَاعِيكَ اللَّائِي خُصِمْتَ بِهَا * حَدُّ الشَّرْكَ عَلَى مِثْلِ مِنَ الْأَدَمِ
 فَكَانَ قَفْصَلِي فِيهَا أَتَى تَبَعٌ * لِمَا سَنَنْتَ مِنَ الْإِنْعَامِ وَالنِّعَمِ
 وَلَوْ وَكَلْتُ إِلَى نَفْسِي عَيْنَيْتُ بِهَا * لَكِنْ بَدَأْتُ فَلَمْ أَعْجِزْ وَلَمْ أُمِّ

فضحك المأمون وقال : والله ما نَفِسْتُ عليك مَكْرَمَةٌ نَلَّهَا ، ولا أُحْدِثُهُ حَسَنٌ عِنْدَكَ
 ذِكْرَهَا ، ولكن هذا شيء إذا عَوَدْتَهُ نَفْسُكَ انْفَقَرْتُ ، ولم تقدر على لَمْ شَعْتِكَ وإصلاح
 حالِك . وزال ما كان في نفسه .

لَمَّا فَتَحَ عَبْدُ اللَّهِ مِصْرَ سَوْغَةَ الْمَأْمُونِ نَحْرَاجَهَا ، فَصَعِدَ الْمِنْبَرَ فَلَمْ يَزَلْ حَتَّى أَجَازَ بِهَا
 كُلَّهَا ثَلَاثَةَ آلَافِ أَلْفِ دِينَارٍ أَوْ نَحْوَهَا ، فَأَنَاهُ مَعْلَى الطَّائِي وَقَدْ أَعْلَمُوهُ مَا صَنَعَ بِالنَّاسِ
 فِي الْجَوَائِزِ وَكَانَ عَلَيْهِ وَاجِدًا ، فَوَقَفَ بَيْنَ يَدَيْهِ تَحْتَ الْمِنْبَرِ فَقَالَ : أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ ، أَنَا مَعْلَى
 الطَّائِي وَقَدْ بَلَغَ مِنِّي مَا كَانَ مِنْكَ مِنْ جَفَاءٍ وَغَلَطٍ ، فَلَا يَغْلُظُنَّ عَلَى قَلْبِكَ ، وَلَا يَسْتَخْفَنَكَ
 الَّذِي بَلَغَكَ ، أَنَا الَّذِي أَقُولُ :

يَا أَعْظَمَ النَّاسِ عَفْوًا عِنْدَ مَقْدِرَةٍ * وَأَظْلَمَ النَّاسِ عِنْدَ الْجُودِ لِلَّالِ
 لَوْ أَصْبَحَ النَّيْلُ يَجْرِي مِائَةً ذَهَبًا * لَمَّا أَشْرَتَ إِلَى نَحْرِي بِمِثْقَالِ
 تُغْلِي بِمَا فِيهِ رِقِّ الْحَمْدِ تَمْلِكُهُ * وَليْسَ شَيْءٌ أَعَاضَ الْحَمْدَ بِالْغَالِي
 تَقُّكَ بِالْيُسْرَكْفِ الْعُسْرُ مِنْ زَمَنِ * إِذَا اسْتَطَالَ عَلَى قَوْمٍ بِإِقْلَالِ
 لَمْ تَحُلْ كَفْكَ مِنْ جُودٍ مُتَحَيِّطٍ * وَمُرْهَفٍ قَاتِلٍ فِي رَأْسِ قِتَالِ
 وَمَا بَثَّتْ رَيْسِلَ الْخَيْلِ فِي بَلَدٍ * إِلَّا عَصَفَنَ بِأَرْزَاقِ وَأَجَالِ
 إِنْ كُنْتُ مِنْكَ عَلَى بَابٍ مَنَنْتَ بِهِ * فَإِنَّ شُكْرَكَ مِنْ قَلْبِي عَلَى بَالِ
 مَا زَلْتُ مُقْتَضِبًا لَوْلَا بَجَاهِرَةٌ * مِنْ أَلْسِنِ خُضْنٍ فِي صَدْرِي بِأَقْوَالِ

فضحك عبد الله وسرَّ بما كان منه وقال : يا أبا السَّمراء ، أقرضني عشرة آلاف دينار فما
أُسيئتُ أملكها ، فأقرضه فدفعتها إليه .

كان موسى بن خاقان مع عبد الله بن طاهر بمصر ، وكان نديمة وجليسه ، وكان له مؤثرا
مقدما ، فأصاب منه معروف كثيرا وأجازه بجوائز سنية هناك وقبل ذلك ، ثم إنه وجد عليه
في بعض الأمر بخفاء وظهر له منه بعض ما لم يحبه ، فرجع حينئذ الى بغداد وقال :

إِنْ كَانَ عَبْدُ اللَّهِ خَلَانَا * لَا مُبْدِئًا عُرْفًا وَإِحْسَانَا

فَحَسْبُنَا اللَّهُ رَضِينَا بِهِ * ثُمَّ بَعَدَ اللَّهُ مَوْلَانَا

يعنى به المأمون ، وغنت فيه جاريته وسمعه المأمون ، فاستحسنه ووصله وإياها ، فبلغ
ذلك عبد الله بن طاهر ، فناظره ذلك وقال : أَجَلْ ! صنعنا المعروف الى غير أهله فضاغ .

ولعبد الله أحيان صاغها ، فمنها ومن مختارها وصدورها ومقدمها لحنه في شعر أخت
عاصية فإنه صوتٌ نادرٌ جيدٌ صحيحُ العملُ مُزدوجُ النغم ، بينَ لِينٍ وَشِدَّةٍ على رسم الحدائق
من القدماء ، وهو :

هَلَا سَقِيمٌ بَنَى سَهْمٌ أَسِيرُكُمْ * نَفْسِي فِدَاؤُكُمْ مِنْ ذِي غُلَّةٍ صَادِي

الطاعنُ الطعنةَ النجلاءَ يتبعها * مُضْرَجٌ بَعْدَ مَا جَادَتْ بِإِزْبَادِ

ومن غنائه أيضا :

رَاحَ صَحْبِي وَعَاوَدَ الْقَلْبَ دَاءُ * مِنْ حَيْبِ طِلَابِهِ لِي عَنَاءُ

حَسَنُ الرَّأْيِ وَالْمَوَاعِيدِ لَا يُلْتَفَى لَشَيْءٍ مِمَّا يَقُولُ وَفَاءُ

مَنْ تَعَزَّى عَمَّنْ يَجِبُ فَإِنِّي * لَيْسَ لِي مَا حَيَّتُ عَنْهُ عَزَاءُ

ما قيل في هجاء الأمين وورثائه

قيل في هجائه :

- لم نُبَيِّكْ لماذا للظرب * يا أبا موسى وترويح اللعب
ولستك الخمس في أوقاتها * حرصاً منها على ماء العنب
وسنيف أنا لا أبكي له * وعلى كوثر لا أخشى العطب
لم تكن تعرف ما حد الرضا * لا ولا تعرف ما حد الغضب
لم تكن تصلح لللك ولم * تُعطك الطاعة بالملك العرب
أيها الباكي عليه لا بكت * عين من أبكاك إلا للعجب
لم نبكيك لما عرضنا * للجانيق وطورا للسلب
ولقوم صيرونا أعبدًا * لهم يبدو على الرأس الذنب
في عذابٍ وحصارٍ مجهدٍ * سدّد الطرُق فلا وجه طلب
زعموا أنك حيٌّ حاشر * كل من قد قال هذا قد كذب
ليت من قد قاله في وحدة * من جميع ذاهبٍ حيث ذهب
أوجب الله علينا قتله * فاذا ما أوجب الأمر وجب
كان والله علينا فتنه * غَضِبَ الله عليه وكتب

وقال عبد الرحمن بن أبي الهُداهد يرثيه :

- يا غرْبُ جودي قد بُتَّ من وديمه * فقد فقدنا العزير من ديمه
ألوت بدنيك كُفَّ نائبة * وصرت مُغضَى لنا على نِقمه
أصبح للموت عندنا علم * يضحك سنّ المنون من علمه
ما استترلت ذرّة المنون على * أكرم من حلّ في ثرى رحمه
خليفة الله في برّته * تقصّر أيدى الملوك عن شيمه

يَفْتَرُّ عَنْ وَجْهِهِ سَنَا قَمَرٍ * يَنْشَقُّ عَنْ نَوْرِهِ دُجَى ظُلَمِهِ
 زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ مِنْ جَوَانِبِهَا * اذْ أَوْلَعَ السَّيْفُ مِنْ نَجِيعِ دَمِهِ
 مَنْ سَكَتَتْ نَفْسُهُ لِمَصْرَعَةٍ * مِنْ عُمَمِ النَّاسِ أَوْ ذَوَى رِجَمِهِ
 رَأَيْتُهُ مِثْلَ مَا رَأَاهُ بِهِ * حَتَّى تَذُوقَ الْأَمْرَ مِنْ سَقَمِهِ
 كَمْ قَدْ رَأَيْنَا عَزِيزَ مَمْلُوكَةٍ * يُنْقَلُ عَنْ أَهْلِهِ وَعَنْ خَدَمِهِ
 يَا مَلِكَا لَيْسَ بَعْدَهُ مَلِكٌ * نَحْنُ نَحْمُ الْأَنْبِيَاءَ فِي أُمَّةِ
 جَادَ وَحَى الَّذِي أَقَمْتَهُ بِهِ * سَخَّ غَزِيرِ الْوَكَيْفِ مِنْ دَيْمِهِ
 لَوْ أَحْجَمَ الْمَوْتُ عَنْ أَخِي ثَقِيَّةٍ * أَسْوَى فِي الْعِزِّ مُسْتَوَى قَدَمِهِ
 أَوْ مَلِكٍ لَا تَرَامُ سَطْوَتُهُ * إِلَّا حَرَامَ الشَّتِيمِ فِي أَجْمِهِ
 خَلَدَكَ الْعِزُّ مَا سَرَى سَدْفٍ * أَوْ قَامَ طِفْلَ الْعَشَى فِي قَدَمِهِ
 أَصْبَحَ مُلْكٌ إِذَا آتَرْتَهُ بِهِ * يَقْرَعُ سَنَ الشَّقَاةِ مِنْ نَدَمِهِ
 أَثَرُ ذُو الْعَرْشِ فِي عِدَاكَ كَمَا * أَثَرُ فِي عَادِهِ وَفِي إِرَامِهِ
 لَا يُبْعَدُ اللَّهُ صَيُورَةَ تَلَيْتِ * نَحِيرِ دَاغِ دَعَاةٍ فِي حَرَمِهِ
 مَا كُنْتُ إِلَّا لِحُكْمِ ذِي حُلْمٍ * أَوْ لِحِ بَابِ السَّرُورِ فِي حُلْمِهِ
 حَتَّى إِذَا أَطْلَقْتَهُ رَقْدَتَهُ * عَادَ إِلَى مَا آعْتَرَاهُ مِنْ عَدَمِهِ

وقال أيضا يرثيه :

أقول وقد دنوت من الفِرَارِ * سُقِيتَ الْغَيْثَ يَا قَصْرَ الْقَرَارِ
 رَمْتِكَ يَدُ الزَّمَانِ بِسَهْمِ عَيْنٍ * فَصِرْتَ مَلُوحًا بِدُخَانِ نَارِ
 أَيْنَ لِي عَنْ جَمِيعِكَ أَيْنَ حَلَّوْا * وَأَيْنَ مِزَارِهِمْ بَعْدَ الْمِزَارِ
 وَأَيْنَ مُحَمَّدٌ وَأَبْنَاهُ مَالِي * أَرَى أَطْلَاهُمْ سُودَ الدِّيَارِ
 كَأَن لَمْ يُؤَنَسُوا بِأَنْبِيَسِ مَلِكٍ * يَطْوِلُ عَلَى الْمَمْلُوكِ بِنَجِيرِ جَارِ
 إِمَامٌ كَانَ فِي الْحَدَثَانِ عَوْنًا * لَنَا وَالْغَيْثُ يَمْنَحُ بِالْقَطَارِ

لقد ترك الزمانُ بني أبيه * وقد غمّرتهم سُود البحار
 أضاعوا شمسهم فجرت نجس * فصاروا في الظلام بلا نهار
 وأجلوا عنهم قرا منيرا * وداسستهم خيولُ بني الشّار
 ولو كانوا لهم كفؤا ومثلا * اذا ما توجوا تيجانَ عار
 ألا بان الأمامُ وآرثاه * لقد ضرم الحشى منابنار
 وقالوا الخلد يسع فقلتُ ذلًّا * يصير بياعيه الى صغار
 كذلك الملك يتبع أوليه * إذا قُطِع القرار من القرار

وقال مقدّس بن صيفي يرثيه :

خليلي ما أنتك به الخطوبُ * فقد أعطاك طاعته النّجيب
 تدلت من شماريح المنايا * منايا ما تقوم لها القلوبُ
 خلال مقابر البستان قبر * يجاور قبره أسدٌ غريب
 لقد عظمت مُصيبته على من * له في كل مكرمة نصيب
 على أمثاله العبرات تُدرى * وُتّيتك في ماتمه الجيوبُ
 وما أدخرت زُبيدة عنه دما * تُخصّ به النسبية والنّسب
 دعوا موسى ابنه لبكاء دهي * على موسى ابنه دخل الحزيب
 رأيتُ مشاهد الخلفاء منه * خلاء ما بساحتها مجيب
 ليّنك أننى كهلٌ عليه * أدوبُ وفي الحشى كيدُ تدوب
 أصيبَ به البعيد نفرت حزنًا * وعان يومه فيه المرّيب
 أنادى من بطون الأرض شخصًا * يحركه النداء فما يجيب
 لئن نعت الحروبُ اليه نفسًا * لقد جُعت بمصرعه الحروب

وقال نزيمة بن الحسن يرثيه على لسان أم جعفر :

لخيرِ أُمَامٍ قام من خيرِ عُنُصُرٍ * وأفضلِ سَامٍ فوق أَعوادِ مِنبَرٍ
لِوَارِثِ علمِ الأَولَينِ وفهَمِهِم * ولِلَّذِلكِ المَأْمُونِ مِن أُمِ جَعْفَرِ
كَتَبْتُ وَعِني مُسْتَهْلٌ دَموعُهَا * اليك أبن عمي من جفوني ومججري
وقد مَسَّنِي ضُرٌّ وذُلٌّ كَأَيَّةٍ * وَأَرَقُّ عيني يا ابن عمي تفكّري
وهيْتُ لِمَا لا قِيَّتُ بعد مصابه * فأمرى عظيم مُنكَرٌ جدُّ مُنكَرِ
سَأشكو الذي لا قِيَّتَهُ بعد فقدته * اليك شَكَاةُ المِستَهَامِ المُقَهَّرِ
وأرجو لِمَا قد مرَّ بي مذ فقدته * فانت لبني خير رَبِّ مُغَيَّرِ
أني طَاهِرٌ لا طَهَّرَ اللهُ طَاهِرَا * فما طاهر فيا أُنَى بِمُطَهَّرِ
فأخرجني مكشوفةَ الوجه حَاسِرَا * وَأَنْهَبَ أموالِي وأحرقَ أَدْرِي
يَعِزُّ علي هَارون ما قد لَقِيْتَهُ * وما مرَّ بي من ناقص الخَلْقِ أَعورِ
فان كان ما أسدى بأمرِ أمرته * صَبَرْتُ لأمرٍ من قديرِ مُقَدَّرِ
تذكّر أميرَ المؤمنين قِرَابِي * فديتُك من ذى حرمة مُتَدَكَّرِ

وقال أيضا يرثيه :

سبحان رَبِّكَ رَبِّ العِزَّةِ الصَّمَدِ * ماذا أُصِبنَا به في صُبْحَةِ الأَحَدِ
وما أُصِيبَ به الإسلامُ قاطِبَةً * من التَّضَعُّعِ في رُكْنَيْهِ والأُودِ
مَنْ لم يُصَبِّ بِأَميرِ المؤمنين ولم * يُصْبِحَ بِمَهْلَكَةِ وَالهِمُّ في صُعدِ
فقد أصبتُ به حتى تَبَيَّنَ في * عَقْلِي وديني وديناي وفي جَسَدِي
يا لَيْسَةَ يَسْتَكِي الإسلامُ مُتَّهَمًا * والعالمون جميعا آخر الأَبَدِ
عَدَرَتِ بِالْمَلِكِ الميمونِ طائرُهُ * وبالإمام وبالضُرغامَةِ الأَسَدِ
سارتُ اليه المنايا وهي تُرِيبُهُ * فواجهته بأوغادِ ذَوِي عَدَدِ
بُسُورِجِينَ وأَعْتَمِ يقودهم * قَرَيْشُ بِالْبَيْضِ في قُصِّ من الزَّرَدِ

فصادفوه وحيدا لا معين له * عليهم غائب الأ نصار بالمدد
 فجزعوه المنيا غير مُتَمَتِّع * فردا فيالك من مُسْتَسَلِمَ فَرَد
 يلقى الوجوه بوجه غير مُبْتَدَل * أبهى وأنقى من القوهية الجدد
 واحمررتا وقريش قد أحاط به * والسيف مُرْتَعِد في كف مُرْتَعِد
 فما تحرك بل ما زال متصيبا * منكس الرأس لم يُبْدَى ولم يُعَد
 حتى اذا السيف وافى وسط مفرقه * أذرتة عنه يداه فعل مُتَّعِد
 وقام فاعتلت كفاه لبتة * كضيق شرس مستيسل ليد
 فاجتره ثم أهوى فاستقل به * للأرض من كف لبت مُحْرَج حرد
 فكاد يقتله لو لم يكأثره * وقام منفلتا منه ولم يكاد
 هذا حديث أمير المؤمنين وما * نقصت من أمره حرفا ولم أزد
 لا زلت أذبه حتى الممات وإن * أخنى عليه الذي أخنى على ليد

وذكر عمر بن شبة أن محمد بن أحمد الهاشمي حدثه أن لبابة ابنة علي بن المهدي قالت

البيتين الآتين وقيل أنهما لابنة عيسى بن جعفر وكانت مملكة بمحمد :

أبيك لا للنعم والأنس * بل للعالي والرحم والأترس

أبكي على هالكٍ جُعتُ به * أرماني قبل ليسة العرس

هجاء يحيى بن أكرم^(١)

وعندنا في المجلد الأول أن نذكر مثلا من الهجاء قاله بعض الشعراء في يحيى بن أكرم، وما هو ذا :

أزقه برح الهوى وسدمه * وماله الحب فبات يأكسه
 طورا يعانيه وطورا يستمه * مثل الحريق في الحشا يضرمه
 ففاضت العين بدمع تسجمه * نمت عليه كل شوق يكتمه
 وباح بالحب الذي يبيحجه * وبات والقلب يسامى هممه
 من لمح قد تراه يرحمه * أصبح بالبأساء غار أنغمه
 طال تصايبه وطال سقمه * وبلى الجسم ورقت أعظمه
 يشهدني الله على من يظلمه * يمنعه طعم الكرى ويحرمه
 وأهاله يصيرم من لا يصيرمه * أصبح هذا الدين رثا ريمه
 عطله الجور وطال قدمه * سحت من الجور عليه ديمه
 فباد مغنى ربه وأرسمه * إلا بقايا قوميه وجمه
 أوطنه الجور فأضحى معلمه * يرود فيه شأوه ونعمه
 من يشهد الجور فتحن تعلمه * أنوك قاض في البلاد نعلمه
 يقول حقا لا تميمت ترجمه * مذ ولي الحكم أبيع حرمه
 وأنشكت من القضاء حرمه * وأضطربت أركانه ودعمه
 والله يثنيه ونحن نهده * ياليت يحيى لم يلبه أكنمه
 ولم تطأ أرض العراق قدمه * ملعونه أخلاقه وشيمه^(٢)

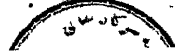
(١) أنظر ما كتبناه عن يحيى بن أكرم في المجلد الأول (ص ٤٤٠) .

(٢) حذفنا بعد هذا البيت

أربعة أبيات رأينا أنها تنافي الآداب العامة .

والله والله لقد حلّ دمه * لو أن للدين عمادا يدعمه
 يعيدل عنه الميل أو يقومه * لكان قدرن عليه مائمه
 أرجو ويقضى الله لا يسألهم * من وجهه هذا ولكن يقصمه

* بالسيف اذ حلت عليه نغمه *





وصف ثورة بغداد وحريقها

أما ما أصاب بغداد من سلب ونهب وتحريق وتخريب وفتنة شعواء وقتل ودماء،
فانا نترك الكلمة في ذلك لشعراء ذلك العصر.

قال الأعمى يصف دمار الحرب :

تقطعت الأرحام بين العشائر * وأسلمهم أهل التقى والبصائر
فذلك أنتقام الله من خلقه بهم * لما آجرتهموه من ركوب الكبائر
فلا نحن أظهرنا من الذنب توبة * ولا نحن أصلحنا فساد السرائر
ولم نسمع من واعظ ومدكّر * فينجع فينا وعظناه وأمرنا
فابك على الإسلام لما تقطعت * عراه وربحى ضرره كل كافر
فأصبح بعض الناس يقتل بعضهم * فمن بين مقهور عزيز وقاهر
وصار رئيس القوم يحمل نفسه * وصار رئيسا فيهم كل شاطر
فلا فاجر للبر يحفظ حرمة * ولا يستطيع البر دقا لفاجر
تراهم كأمثال الذئاب رأث دما * فأمنته لا تلوى على زجر زاجر
وأصبح فساق القبائل بينهم * تسأل على أقرانها بالخنساجر
فابك لقتلى من صديق ومن أخ * كريم ومن جار شفيق مجاور
ووالدة تبكى بجزير على أبنا * فيبكي لها من رحمة كل ظائر
وذات حليل أصبحت وهى أيم * وتبكي عليه بالدموع البوادير
تقول له قد كنت عزا وناصرا * فقئيب عنى اليوم عرى وناصرى
وأبك لإحراق وهدم منازل * وقتل وإنهاب اللهمي والذخائر

- وإبراز ربّات الخدور حواسرا * نخرجن بلا تخمير ولا بمآزر
 تراها حيارى ليس تعرف مذهباً * نوافر أمثال الطباء النواصر
 كأن لم تكن بغداد أحسن منظراً * وملهى رأته عين لآه وناظر
 بلى هكذا كانت فأذهب حسنها * وبدد منها الشمل حكم المقادر
 وحلّ بهم محلّ بالناس قبلهم * فأصحوا أحاديثا لبأد وحاضر
 أبغداد يا دار الملوك ومحمى * صروف المنايا مستقر المنابر
 ويا جنّة الدنيا ومطلب الغنى * ومستنبط الأموال عند الضرائر
 أبني لنا أين الذين عهدتهم * يحلون في روض من العيش زاهر
 وأين ملوك في المواكب تقتدى * تُسبّه حسنا بالنجوم الزواهر
 وأين القضاة الحاكمون برأيهم * لورد أمور مشكلات الأوامر
 أو القائلون الناطقون بحكمة * ورصف كلام من خطيب وشاعر
 وأين مراح للملوك عهدتها ^(١) * منخرقة فيها صنوف الجواهر
 تُرش بماء المسك والورد أرضها * يفوح بها من بعد ريح المجامر
 وروح الندامى فيه كل عشيّة * الى كل فياض كريم العناصر
 وأين قيات تستجيب لنغمها * اذا هولباها حين المزامر
 وأين الملوك الغر من آل هاشم * وأشياهم فيها اكتفوا بالمعاذر
 يروحون في سلطانهم وكأنهم * يروحون في سلطان بعض العشائر
 يبادل عما نالهم كبراؤهم * فنالتهمو بالكزه أيدي الأصاغر
 فأقسم لو أن الملوك تناصروا * لزلت لها خوفاً رقاب الجبابر

(١) كذا في الأصل ولعلها صريح .

وقال عمرو بن عبد الملك الوراق يبكي بغداد ويهجو طاهرا ويعترض به :

من ذا أصابك يا بغداد بالعين * ألم تكوني زماماً قُترة العين
 ألم يكن فيك أقوامٌ لهم شرف * بالصالحات والمعروف يلتقون
 ألم يكن فيك قومٌ كان مسكنهم * وكان قريبتهم زينا من الزين
 صاح الزمانُ بهم بالين فانقضوا * ما ذا الذي جفعتني لوعسة الين
 أستودعُ الله قوماً ما ذكرتهمو * ألا تحدر ماء العين من عيني
 كانوا ففرقتهم دهرٌ وصدعهم * والدهر يصدع ما بين الفريقين
 كم كان لي مُسعد منهم على زمني * كم كان منهم على المعروف من عون
 لله در زمان كان يجمعنا * أين الزمان الذي ولي ومن أين
 يا من يُحترَب بغداداً ليعمرها * أهلكت نفسك ما بين الطريقين
 كانت قلوبُ جميع الناس واحدة * عينا وليس يكون العين كالدين
 لما استببتهم فرقتهم فرقا * والناس طراً جميعاً بين قدين

ولبعض فتيان بغداد :

بكيْتُ دماً على بغداد لما * فقدتُ غصارة العيش الأنيق
 تبدلنا هموماً من سرور * ومن سعة تبدلنا بضيق
 أصابتها من الحساد عينٌ * فأفتت أهلها بالمنجنيق
 فقومٌ أحرقوا بالنار قسراً * ونائحةٌ تنوح على غريق
 وصائحةٌ تنادي وأصباحا * وباكيةٌ لفقدان الشفيق
 وحوراءُ المدامع ذات دَل * مضمخةُ الجاسد بالخأوق
 تفر من الحريق إلى آتھابٍ * ووالدها يفتري الحريق

وسألبه الغزاة مقلتها * مضاحكها كلاً لآلة البروق
 حيارى كالمدايا مبكرات * عليهم القلائد في الخلق
 يُنادين الشفيق ولا شفيق * وقد فقد الشفيق من الشفيق
 وقوم أخرجوا من ظل دنيا * متاعهم يُباع بكل سوق
 ومغترّب قريب الدار ملق * بلا رأس بقارعة الطريق
 توسط من قتلهم جميعا * فإيدرون من أى الفريق
 فلا ولد يُقيم على أبيه * وقد هرب الصديق من صديق
 ومهما أنس من شيء تولى * فإنى ذاكر دار الرقيق

بيان المصادر العربية والافرنجية الهامة

التي عولنا عليها في المراجعة لكتاب عصر المأمون

ثبتت لك هنا الهام من مراجع الكتاب عدا دواوين الشعراء ومعجمات اللغة التي أشرنا إليها في مواضعها من الكتاب وهوامشه . وهي :

المصادر باللغة العربية :

تاريخ دمشق لابن عساكر ، مخطوط .
تاريخ المشاركة لصليبا بن يوحنا ،
مخطوط .

تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ،
مخطوط .

تاريخ بغداد لابن طيفور (الجزء السادس
طبعة أوروبا) .

تاريخ التشريع الاسلامي للرحوم
الخطيب بك ، طبعة مصر .

تاريخ الآداب السلطانية والدول
الاسلامية لابن طباطبا ، طبعة
أوروبا .

تاريخ النجوم الزاهرة لابن تغريبردي ،
طبعة أوروبا .

البدء والتاريخ لأبي زيد البلخي ، طبعة
باريس سنة ١٨٩٩ «أرنست لرو» .

الآثار الباقية لليروني ، طبعة ليسك .

تاريخ الطبري ، طبعة مصر وليدن .
تاريخ الكامل لابن الأثير ، طبعة مصر .
تاريخ مروج الذهب للسعودي ، طبعة
مصر وباريس .

تاريخ يعقوبي ، طبعة ليدن باشراف
المسيوهتسا .

تاريخ أبي الفدا للملك المؤيد ، طبعة
الأستانة .

تاريخ علماء الأندلس لأبي الوليد عبد الله
محمد بن يوسف ، طبعة أوروبا .

تجارب الامم لابن مسكويه ، طبعة مصر .
تاريخ العبر والمبتدا والخبر لابن خلدون ،

طبعة مصر .

الأخبار الطوال لأبي حنيفة الدينوري ،
طبعة ليدن .

نظم الجوهر لابن البطريق ، طبعة
أكسفورد سنة ١٦٥٩ للمستشرق

ادوار بوكوك .

- مختصر تاريخ الدول لأبي الفرج الملقب ،
طبعة بيروت .
- تاريخ الاسحاق ، طبعة أوروبا .
- فتوح الشام للواقدي ، طبعة مصر .
- نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة ، طبعة
مصر .
- ولاية مصر وقضاها للكندي ، طبعة
بيروت .
- مختصر أخبار الخلفاء لابن الساعي ،
طبعة مصر .
- كشف الظنون لحاجي خليفة ، طبعة
الأستانة وليبسك ومصر .
- المستطرف للابن سبي ، طبعة بولاق .
- معجم البلدان لياقوت الحموي ، طبعة
ليبسك ومصر .
- المزهر للسيوطي ، طبعة بولاق .
- الأحكام السلطانية للوردى ، طبعة
أوروبا .
- أعلام الناس للاتيدي ، طبعة مصر .
- كتاب المعارف لابن قتيبة ، طبعة أوروبا .
- معجم الأدياء لياقوت الرومي ، طبعة
مصر وأشرف مرجليوث .
- الفهرست لابن النديم ، طبعة ليبسك .
- طبقات الأمم لابن صاعد ، طبعة بيروت .
- طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ،
طبعة مصر .
- تراجم الحكماء للقفطي ، طبعة مصر .
- طبقات الأدياء لعبد الرحمن الأتباري ،
طبعة مصر .
- وفيات الأعيان لابن خلكان ، طبعة
مصر .
- وفات الوفيات لابن شاكر الكتبي ،
طبعة مصر .
- الملل والنحل للشهرستاني ، طبعة مصر .
- ألف باء ليوسف البلوي ، طبعة مصر .
- مسالك الأبصار لابن فضل الله العمري ،
طبعة دار الكتب .
- فتوح البلدان للبلاذري ، طبعة ليدن .
- كتاب البلدان لابن الفقيه الهمداني ،
طبعة ليدن .
- كتاب البلدان لليعقوبي ، طبعة ليدن .
- مسالك الممالك للاصطخري ، طبعة
ليدن .
- المسالك والممالك لابن حوقل ، طبعة
ليدن .
- أحسن التقاسيم للقدسي ، طبعة ليدن .
- المسالك والممالك لابن خرداذبه ، طبعة
ليدن .
- الأعلاق النفيسة لابن رسته ، طبعة ليدن .
- حسن المحاضرة للسيوطي ، طبعة مصر .
- بلوغ الأرب في أحوال العرب للألوسي
طبعة بغداد .
- مقدمة الياذة هو ميروس تعريب البستاني
طبعة مصر .

كتاب الكشكول للعامل ، طبعة مصر .
 سراج الملوك للطرطوشي ، طبعة مصر .
 كتاب الخراج لقدامة بن جعفر ، طبعة
 ليدن .
 كتاب الخراج لأبي يوسف ، طبعة
 بولاق .
 تاريخ الوزراء المنسوب للصوى ، طبعة
 بيروت .
 أشهر مشاهير الاسلام ، للرحوم رفيع
 العظم بك ، طبعة مصر .
 كتاب نفع الطيب ، طبعة مصر وأوربا .
 مفاتيح العلوم للخوازمي ، طبعة مصر .
 مفيد العلوم للخوازمي ، طبعة مصر .
 كتاب المواهب الفتحية للرحوم
 الشيخ حمزة فتح الله ، طبعة مصر .
 كتاب السيرة لابن هشام ، طبعة مصر .
 مقدمة ابن خلدون ، طبعة مصر .
 خطط الشام للاستاذ محمد كرد علي ،
 طبعة دمشق .
 مجموعة مجلة المشرق ، طبعة بيروت .
 مجموعة مجلة المجمع العالمي ، طبعة دمشق .
 مجموعة مجلة الهلال ، طبعة مصر .
 مجموعة مجلة المقتطف ، طبعة مصر .
 بعض فصول ومباحث من المجلة
 الأسبوعية .
 حديث الأربعاء للدكتور طه حسين ،
 طبعة مصر .

حضارة الاسلام في دار السلام لجميل
 مدكور ، طبعة مصر .
 كتاب الأغاني للاصبهاني ، طبعة بولاق
 والساسي .
 الجزء الأول من كتاب الأغاني ، طبع
 مطبعة دار الكتب المصرية .
 نهاية الأرب ، طبع مطبعة دار الكتب
 المصرية والنسخة القنوغرافية
 بالدار .
 صبح الأعشى ، طبع مطبعة دار الكتب
 المصرية .
 كتاب التاج المنسوب للمحافظ ، طبع
 مطبعة دار الكتب المصرية .
 كتاب الأمل لأبي علي القالى ، طبع
 مطبعة دار الكتب المصرية .
 كتاب الكامل للبرد ، طبعة مصر .
 كتاب البيان والتبيين للمحافظ ، طبعة
 مصر .
 العمدة لابن رشيق ، طبعة مصر .
 كتاب المحاسن والمساوى للبيهقي ، طبعة
 فردرك شوالى .
 كتاب المحاسن والاضداد للمحافظ ، طبعة
 ليدن .
 كتاب البخلاء للمحافظ ، طبعة مصر .
 كتاب الحيوان للمحافظ ، (نسخة
 قنوغرافية محفوظة بدار الكتب
 المصرية) .

حلبة الكيمت، طبعة بولاق .
 خزائن الأدب لابن حجة الحموي، طبعة
 بولاق .
 خزائن الأدب للبغدادي، طبعة بولاق .
 محاضرات الفلسفة لستلائانه بالجامعة
 المصرية .
 محاضرات علم الفلك بالجامعة المصرية
 للسنيور كركولنديو، طبعة روما .
 مفتاح السعادة ومصباح السيادة
 لطاشكبري زاده، طبعة
 حيدرآباد .
 محاضرات الشيخ عبد الوهاب النجار
 بالجامعة المصرية .
 محاضرات المرحوم الشيخ محمد المهدي
 بالجامعة المصرية .
 محاضرات الأستاذ الخضري بك في تاريخ
 الأمم الإسلامية، طبعة مصر .
 محاضرات الأستاذ الخضري بك في تاريخ
 الدولة الأموية، طبعة مصر .
 التمدن الإسلامي للرحوم جورجى بك
 زيدان، طبعة مصر .
 تاريخ آداب اللغة العربية للرحوم
 جورجى بك زيدان، طبعة مصر .
 طبقات ابن سعد، طبعة أوروبا .
 طبقات الشافعية للسبكي، طبعة مصر .
 المنثور والمنظوم لابن طيفور .
 رسالة بنى أمية لمجاظ، خطية .

منهل الرقاد في علم الانتقاد لقسطاكي
 الحمصي بك، طبعة مصر .
 محاضرات الأستاذ الاسكندري
 المدرس بدار العلوم، طبعة مصر .
 الوسيط للأستاذ الاسكندري المدرس
 بدار العلوم، طبعة مصر .
 أدبيات اللغة العربية للأستاذ مصطفى
 صادق الرافعي، طبعة مصر .
 أدبيات اللغة العربية للرحوم عاطف
 بركات بك وزملائه، طبعة مصر .
 مهذب الأغاني للرحوم الخضري بك،
 طبعة مصر .
 بلاغة العرب للدكتور أحمد ضيف،
 طبعة مصر .
 الشعر والشعراء لابن قتيبة، طبعة ليدن .
 طبقات الشعراء لمحمد بن سلام الحمصي،
 طبعة ليدن ومصر .
 كتاب الأذكياء لابن الجوزي، طبعة
 مصر .
 العقد الفريد للملك السعيد، طبعة مصر .
 العقد الفريد لابن عبد ربه، طبعة
 مصر .
 لطائف المعارف للثعالبي، طبعة ليدن .
 عيون الأخبار لابن قتيبة، طبعة
 دار الكتب وأوروبا .

- الأوراق للصولي، خطية .
- مطبوعات تذكارات جيب الانجليزية وخاصة مؤلفات الأستاذين مرجليوث وبرون .
- زهرة الآداب للحصري، طبعة مصر .
- المشبه في أسماء الرجال للذهبي، طبعة أوروبا .
- الوافي بالوفيات للصفدي (المحفوظ بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٢١٩) .
- أخبار أبي نواس لابن منظور، طبعة مصر .
- رسائل البغاء للأستاذ محمد كرد علي، طبع مصر .
- جمهرة أشعار العرب لأبي زيد . طبعة مصر .
- المفضليات للضبي، طبعة مصر .
- حماسة البحتري، طبعة بيروت .
- الصناعتين لأبي هلال العسكري، طبعة مصر .
- الموشى لأبي الطيب، طبعة أوروبا .
- ديوان الحماسة لأبي تمام، طبعة مصر .
- مجانى الأدب وشرحه، طبعة بيروت .
- مختارات البارودي، طبعة مصر .
- حياة الحيوان للدميري، طبعة مصر .
- عيون السوارمخ لابن شاذان الكتبي (أجزاء منه محفوظة بدار الكتب المصرية) .
- الفرج بعد الشدة للتونجي، طبعة مصر .

المصادر الانجليزية :

- Histoire des Arabes par Cl. Huart: Paris.
- Life of Mohamet by Sir W. Muir. (London).
- The Life and Teachings of Mohammed and the Spirit of Islam by Ameer Ali. (London).
- D. S. Margoliouth: Mohammed and the Rise of Islam. (London) in "Heroes of the Nations' Series".
- H. Lammens: "Etudes sur les régnes des Califs Omayyades Moawia 1^{er} et Yasid 1^{er}". (Beyrouth).
- Library of Universal History (N. Y.).
- History of Arabic Literature: Cl. Huart. (London).
- A Literary History of Persia: Ed. G. Browne. (London).
- A Literary History of the Arabs by R. A. Nicholson. (London).
- Short History of the Saracens by Ameer Ali, (London).
- The Caliphate: its rise decline and fall by Sir W. Muir. (London).
- Annals of the Early Califphate by Sir W. Muir. (London).
- Baghdad during the Abbasia Caliph by G. le Strange. (Oxford)/
- Encyclopaedia of Islam. (Luzac).¹
- Encyclopaedia Britannica. (London).
- La Grande Encyclopédie. Paris.
- The Historians' History of the World by H. S. Williams. (New York).²
- Ency. of Religion & Ethics by I. Hastings. (London).¹
- The History of the Declins and Fall of the Roman Empire by Gibbon. (London).
- The History of Philosoply in Islam by J. de Boer translated by Jones. (London).
- Muhammedanische Studien by Ignaz Goldziher, (Halle).
- Histoire des Musulmans d'Espagne Jusqu' à la Conquête de l'Andalusie par les Almoravides by R. Dozy. (London).
- Development of Muslim Theology, Jurisprudence and Constitutional Theory by D. B. Macdonald. (London).
- Margoliouth's Works Etc.

(مطبعة دار الكتب المصرية ٥٤٩/١٩٢٧/٢١٥٠)
